

الجزء الأول ـ السنة ٥٢

يناير وفبراير ١٩٤٤ ـ ٦ صفر ١٣٦٣

عنوان المكاتبات :
دار الهلال : مصر ـ البوستة العمومية

AL HILAL — Cairo, Egypt
(January - February 1944)



قيمة الاشتراك

٥٠ قرشاً فى مصر والسودان و ٧٥ قرشاً فى الخارج أو عنها ٣٫٧٥ دولار ١٥/٥ جنيه انجليزى

Subscription Rates : Egypt and Sudan P.T. 50 — Other countries P.T. 75 or £-/15/5 or $3.75.



القصص

هذا هو الاسم الذى اخترناه لهذا العدد لنفتتح به السنة الثانية والخمسين . وقد شئنا أن يكون خاصاً بالقصة لننتقل بها قراءنا من حوادث الحياة العادية ، وشؤون الصراع الحربى الدائم الذى طال أمده حتى ضاقت به النفوس ، إلى جو آخر تستريح فيه أعصابهم ، ويغذى خيالهم ، ويهدى إليهم طائفة من اللذة والمتعة

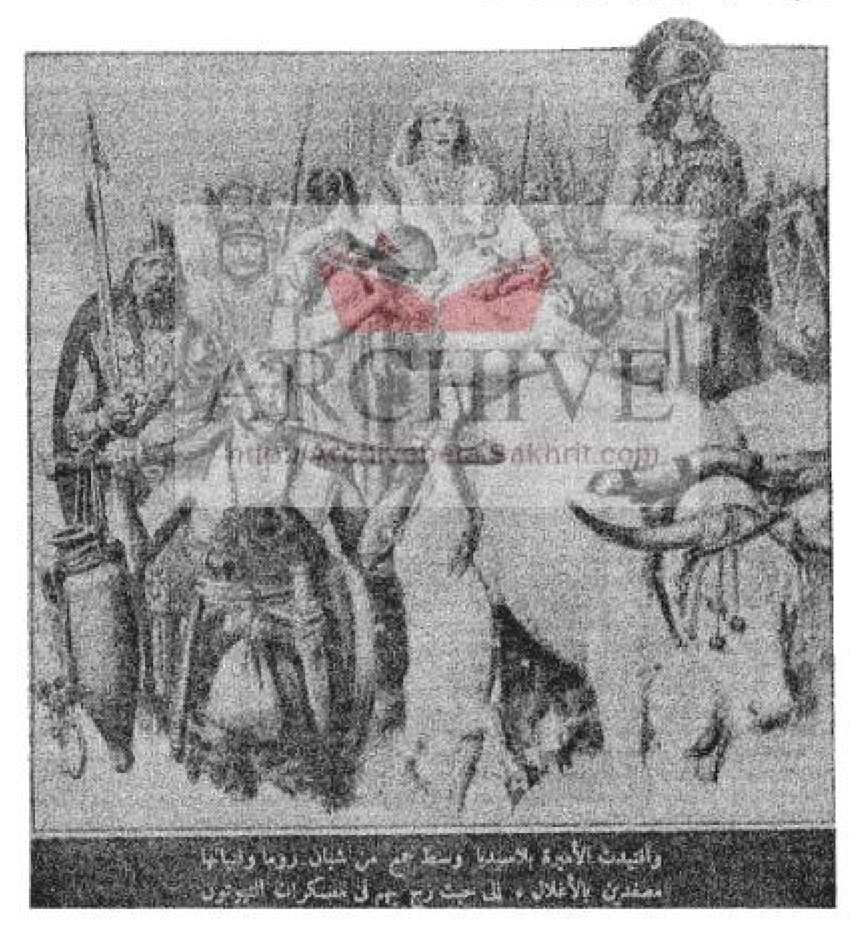
على أننا — كخطة الهلال — لم نبتعد عن الظروف الحاضرة ، وما يدور فيها من حوادث ، بل أردنا أن نصل الحاضر بالماضى ، ونمزج بين الماضى والحاضر ، فنقدم لقرائنا مجموعة مختارة من القصص الحديث والقصص القديم . وقد توخينا أن تكون منوعة بقدر ما سمح به المقام ، ففيها القصة العربية ، والقصة الرومانية ، والقصة المصرية ، والقصة الروسية ، والقصة الحربية ، وقد ازدان هذا العدد بطائفة من الصور والرسوم المتقنة ، فكان تحفة العام الجديد

واليك ما يحويه هذا العدد الممتاز

سُقوط رُوما

الصفحات الاولى من تاريخ الصراع بين الالمان والايطاليين

آذنت الشمس بالاشراق على الاكمة الرابية وسط السهل الفسيح ، حين وقفت الى جانبيها كتيبتان من الفرسان ، على رأس كل منهما قائد فى زى أجناده ، وفى طليعتها جماعة منها تحمل شعارها : فأما شعار احداهما فتمثال نسر صيغ من البرونز ، وأما شعار الاخرى فصورة مشوهة لرأس حيوان يشبه الثور . .



وانتصبت الأميرة بلاسيديا وسط جمع من شبان روما وفتياتها مصفدين بالأغلال ، لما جيء بهم فى معسكرات البربر

وقفت الكتيبتان متقابلتين عند سفح الاكمة التى أشرف عليها رجل محايد لا ينتمى الى أى منهما ، ونادى الرجل فى كل من الجماعتين نداء بلغتها ، فتقدم قائداها ومع كل منهما عشرة من رجاله الاشداء ، حتى اذا التقيا تبادلا التحية وفى صوت أحدهما رنة من اللباقة والدمائة ، وفى صوت الآخر طنين من الخشونة والجفاف

من الرجلان ؟ انهما قيصر زعيم الرومان ، وأريوفستوس زعيم التيوتون

ومتى كان ذلك ؟ قبل الميلاد بثمان وخمسين سنة

فهل عرف الرجلان يومئذ أن الخصومة القائمة بينهما هى الصفحة الاولى من سجل حافل بالخصومة والصراع والحروب مدى ألفين من السنين ؟ . . ومن يدرى فقد لا تكتب الصفحة الاخيرة من هذا السجل أبدا ، ما بقيت على الارض شعوب متنافرة ، وما بقى فى يد الانسان سلاح قتال ، وما بقى أمر الناس الى قوم يرون أمجادهم لا تقام الا من الاجداث والاشلاء ؟

وهل عرف الرجلان يومئذ أن الحديث الذى سيدور بينهما فوق تلك الاكمة القائمة فى أرض فرنسا ، هو نفس الحديث الذى سيدور بين أخلافهما أجيالا فى اثر أجيال ؟ هل عرف أريوفستوس أن بعد ألفين من السنين سيقوم رجل من قومه فيعيد على سمع العالم ما قال فى ذلك اليوم السحيق عن تفوق جنسه على سائر الاجناس وحقه فى حكم العالم جميعا حكم السادة للعبيد ، وعن اغرائه خصمه بأن يشاطره وزر العدوان على الشعوب الضعيفة واقتسامها بينهما غدرا وتآمرا ، وعن بثه فى صفوف عدوه من الدعاة والعيون من يوهنون قوته ، ويفلون عزمه ، ويضللون سعيه ، أملا فى وعود خادعة ، أو رهبة من قوى غشوم ؟

سجل قيصر ما جرى بينه وبين خصمه أريوفستوس من الحديث فى ذلك اليوم ، فاقرأ ما جرى :

قال قيصر : « يا أريوفستوس ، ان قبائلك الهائمة على حدود امبراطوريتنا أثارت ضروبا من الفتنة ، وأشاعت ألوانا من الفزع بين الرومان ، ومع هذا قابلنا هذه السيئات بالعرف والحسنى دهرا طويلا ، لم نشأ أن نلقى قبائلك بادىء الأمر بالعنف والقسوة ، بل سالمناها وهادناها وصبرنا على أذاها كثيرا . ثم حاولنا أن نستميلها ونستميلك الينا بتلك الهبات السخية التى أغدقتها عليك روما ، اذ اعترفت بك ملكا ، ومنحتك شرفا قلما منحته ، وهو اعتبارك صديقا للشعب الرومانى . ولكن هذا كله لم يجد نفعا ، فهجرت موطنك وزحفت الى أرضنا ، نزلت أرض الغال وهى جزء من بلادنا ، وأسأت الامر فى قبائل « الايدوى » وهى حليفتنا منذ عهد بعيد . فرجائى اليك يا أريوفستوس أن تبرح أرضنا بكتائبك الى شراق نهر الرين ، وأن تعيد الى قبائل « الايدوى » ما أخذته من أبنائها وبناتها من الاسرى والرهائن »



وغدت بلاسيديا جارية فى معسكر التيوتون ، تطوف بدنان الخمر على جنودهم السكارى العربدين الذين ليس لهم من الدين أو الخلق ما يردعهم عن المنكر أو يخجلهم من الفاحشة

فأجابه أريوفستوس فى صوت أجش له دوى وطنين ، وفى عبارة خشنة فيها اثارة واستفزاز ، وبكلام أعده من قبل تبريرا لعمله ، واغراء لخصمه ان كان لينا ضعيفا ، وتهديدا له ان كان صلبا عنيدا . قال :

« اننى لم أعبر الرين ولم أهبط أرض الغال من تلقاء نفسى . ان سكان الغال هم الذين استنجدوا بى لاخلصهم مما تنزلون بهم من العسف والاذى ، فاستمعت لندائهم واستجبت لرجائهم ، وتركت وطنى وقومى وجئتهم منقذا ومخلصا . أليس من حقى أن أنقذهم وأخلصهم ، فان لى خطة فى حكم الشعوب أشرف من خطتكم ، فيجب على أن اتخذها فى حكم ما حولى من الشعوب المستضعفة على أمرها ؟

« وليس فى وسع قبائل الغال أن تنكر انها هى التى دعتنى اليها بمحض ارادتها . أما ان قامت اليوم تناوئنى وتقاومنى ، فلا بد أن يكون ذلك باثارتكم وتحريضكم اياها

« وانى أرى شرفا عظيما فى صداقتى للشعب الرومانى . ولكن اذا اقتضتنى هذه الصداقة تضحية حقوقى ومطالبى وأمانى ، فانى أرفضها أشد الرفض ، وأنكرها كل الانكار

« ومع هذا فانى أعرض عليك عرضا : اتركنى أفتح هذه البلاد وأسودها حرا طليقا ، أعنك بجنودى وسلاحى على الظفر فى كل حرب تزمع اقامتها ، وعلى غلبة كل شعب تنوى اخضاعه . أما ان رفضت عرضى هذا السخى الكريم ، فانى أعدك عدوا يحق لى ويجب على حربه وكفاحه

« وبعد ، فتذكر يا قيصر أننى حين أقضى عليك فى الحرب بالهزيمة ، سيقوم فى روما جمع من أقوى رجالها بأسا وأعظمهم شأنا ، فيولوننى تأييدهم ومؤازرتهم . اننى أعلم هذا علم اليقين ، أفضى به الى من بعثوا بهم الى من الرسل والعيون ، ليعرضوا صداقتهم اذا هزمتك وقضيت عليك . ولكنى أوثر صداقتك على صداقتهم ، فاقبل عرضى هذا وعد بجندك ودعنى وقبائل الغال

« هذا قولى اليك يا قيصر ، ولك ان تختار . . »

ولما هم قيصر بأن يرد على كلام أريوفستوس جاءه من جنوده من ينبئه بأن سهام العدو وأحجاره أخذت تتساقط على معسكرهم ايذانا بأن رحى الحرب قد دارت . فلوى قيصر عنان جواده ، وعاد الى رجاله يقودهم الى القتال ، بل الى الدفاع . ودارت المعركة يومين عاد بعدهما أريوفستوس يقترح الاجتماع مع قيصر مرة أخرى ، منذرا بأن هذا هو اليوم الاخير من عهد السلام ، فاما أن يستجيب خصمه لرغبته ويذعن لارادته ، واما الحرب التى لا تبقى ولا تذر . . ورد قيصر على هذا بأن أوفد الى خصمه اثنين من ضباطه الشبان يبحثان معه الامر ، فلم يكن من أريوفستوس الا أن ألقى فى أيديهما الحديد ، وعدهما عيونا جاءوا يسترقون الاخبار

أرأيت الى « فوهرر » ما قبل الميلاد : يغزو قوما آمنين فى ديارهم بحجة أن من حقه ومن واجبه أن يحكمهم بطريقة أشرف من التى يحكمون بها ، ويغرى خصمه بأن يدع له هؤلاء القوم ضحية سهلة مقابل أن يعينه على اخضاع غيرهم من الاقوام المغلوبة على أمرها . ثم ينذر خصمه بأن له فى قومه « كويسلنج » يعرض عليه صداقته ومؤازرته ان هو قهر قومه وفتح وطنه وقضى على زعيمه . ثم يدير رحى القتال ويوقد نار الحرب وهو ما زال يتحدث الى خصمه حديث المهادنة ويعرض عليه شروط السلام !

ودارت المعركة بين الرجلين . وهزم أريوفستوس هزيمة منكرة ، فقدر بلوتارك عدد من قتل من التيوتون بثمانين ألف رجل . ولم ينج أريوفستوس الا بعد أن وقعت زوجتاه وابنته أسيرات فى أيدى أعدائه . وعبر الرين مشرقا فى قارب الى حيث انتهى أمره الى غير رجعة ، ولا يعرف التاريخ كيف ختم الزعيم التيوتونى أيامه الاخيرة بعد أن ظل عشرين سنة ذائع الصيت فى أرجاء العالم ، يبث فيها الفتنة ، ويشيع الخوف ، ويقيم المعارك ، ويغير على الآمنين ، ويلقى الوعود ليخلفها ، ويقدم العهود لينقضها .

حدث هذا منذ ألفين من السنين . أفرأيت شيئا تغير طوال هذه العصور سوى الاسماء؟

▭

لم تكن هذه الموقعة التى ظفر فيها قيصر وانهزم أريوفستوس أول معركة ولا آخر معركة بين الرومان والتيوتون . فقبل ذلك بخمسين سنة ، فى سنة ١١٣ ق. م. روعت ايطاليا بأنباء رهيبة تركتها نهبا بين الفتن والمخاوف . فان الرومان الذين عاشوا جنوب جبال الألب دهورا طويلة ، آمنين مستقرين ، منصرفين الى حضارتهم يقيمون دعائمها بالتشريع والتنظيم ، والى امبراطوريتهم يوسعون جوانبها بالفتح والاستعمار ، أخذوا الآن يرون هذه الجبال الشاهقة لا ترد عنهم عادية التيوتون الذين تجمعوا وراءها فى جيش لجب رهيب ، وأخذوا يتأهبون لتسلق سفوحها ثم الانحدار من قممها الى حيث يقعون على سكان السهل وقوع الجوارح على فرائسها . وكانت الانباء مروعة مخيفة ، فقد وصفت هؤلاء الاقوام بأنهم شبه عراة من اللباس ، وبأن شعورهم بيضاء كشعور العجائز ، وبأن عددهم يبلغ مئات ومئات من الالوف ، وبأنهم لا يأتون ليحاربوا ثم يعودوا الى بلادهم ، بل يأتون ومعهم نساؤهم وأطفالهم ودوابهم وأمتعتهم . وكانت الانباء مروعة مخيفة حين علم الناس أن لهؤلاء القوم من أسلحة القتال ومن فنون الحرب ما لا عهد ولا قبل لهم به ، من سيوف مرهفة طويلة ، ومن دروع تغطى قامة الرجل كلها ، ومن أنهم يربطون جنودهم بعضا ببعض بحبال غليظة ، فتجعل منهم صفوفا متراصة لا ثغرة فيها ، ولا قبل لجندى بأن يتخلف عن مكانه فيها . على أن أروع ما نقلته هذه الانباء هو أن نساء هؤلاء القوم يسرن وراء الرجال ، يصحن صيحات مدوية منكرة تثير نخوتهم وتستفز حميتهم

وتدفع بهم الى الوغى فى حماسة وسعار . أما من يقع أسيرا فى أيدى هؤلاء الجنود فيدفع به الى أولئك النساء ليغمدن فيه المدى والخناجر ثم ليقطعن جسمه شلوا شلوا ، ثم ليأخذن جمجمته فيقرأن فى عظامها صفحة المستقبل ويتنبأن عن الغيب المجهول !

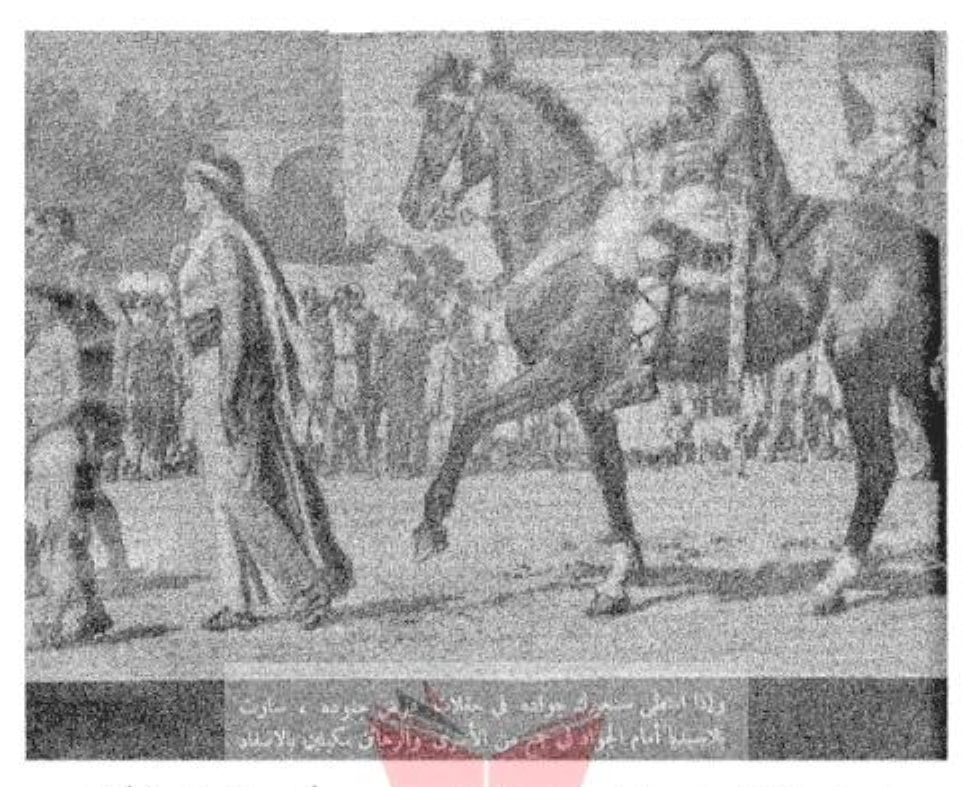
هذه هى قبائل التيوتون والكمبرى التى جاءت من شمال ألمانيا وشرقها ، مجتاحة الآفاق التى تترامى بين أنهار الفستولا والاودر والألب ، متجهة الى ما وراء الألب ، الى روما قلب العالم ومدينة الذخائر

ولكن ماريوس ، عم قيصر ، لاقى هذه القبائل وهزمها ، وردها مدحورة الى ما وراء الجبال . فهل انتهى أمرها ؟ كلا ، بل أعادت الكرة بعد خمسين سنة ، بل ظلت تعيدها جيلا اثر جيل ، حتى وقعت روما فى يدها

لماذا ترك هؤلاء القوم موطنهم وجاءوا يغزون أوطان الناس ؟ أضاقت بهم أرضهم فزحفوا الى الجنوب يلتمسون « مجالا حيويا » يرتعون فى فضائه الفسيح ؟ كلا ، ان آفاق موطنهم لم تضق بهم ذرعا ، ولكنهم أرادوا موطنا أخصب أرضا ، وأوفر خيرا ، وأرضى عيشا ، هم الذين ضاقوا بوطنهم ، ببرده القارس ، بنباته الضئيل ، بماشيته العجفاء ، بخمره المرة المذاق . وقد سمعوا فى أقاصيصهم أن الى الجنوب من تلك الجبال التى تتعالى الى السماء مغطاة بالادغال معممة بالثلوج هائمة بالذئاب والضوارى ، بلادا تشرق عليها الشمس أبدا ، فتزكو فيها الأشجار ، وتطيب الثمار ، وتسمن الانعام ، وتحلو خمرة الكروم . لا ، ليس هذا فحسب ، بل فيها تستريح الابدان من عناء الطبيعة الجاهدة ، فالطعام غذى شهى ، والشراب سائغ روى ، والارض بهما تسخو وتجود

لماذا يستأثر قوم دونهم بهذه الارض وبهذه الشمس وبهذه الخيرات؟ فليأخذوا لانفسهم هذا كله ، وليأخذوه بالسلاح ، وليعدوا أنفسهم ليكونوا قوم حرب وجلاد ، وليجعلوا ايطاليا غايتهم المرتجاة ، وروما هدفهم المنشود

وهكذا غدت قبائل التيوتون ولا هم لها ولا عمل الا الحرب ، اتخذوها عملا يمارسونه ، وغرضا يبتغونه ، ومجدا يباهون به سائر الاقوام . وتركوا فلاحة الارض ورعى الانعام لنسائهم ، أما رجالهم فلا يليق بهم الا حمل السلاح . انهم يقاتلون عاما ويستريحون عاما ، ولكنهم فى عام السلم لا يسمرون الا فى حلقات المبارزة يخضبونها بالدماء . انهم يزدرون كل من لا يلبس شكة الجندى ، ولا يقدرون الا من شجت السيوف والرماح وجهه ورأسه . وانهم لا يتغنون الا بأغانى الحرب ، ولا ينشدون الا أناشيد الفروسية ، فالحرب مهنتهم ، يتساوى فى ذلك شعراؤهم وقصاصوهم ومغنوهم ورجالهم جميعا . والصورة التى تتراءى لهم فى خيالهم هى صورة الفرسان الهائمين على جيادهم فى الفيافى والادغال ، ممتشقين السيوف مفوقين السهام ، وهم يهزجون بأناشيد



[illegible] في جلال [illegible] جنوده ، سارت [illegible] أمام الجواد [illegible]

الصراع والنضال . فهم على الجملة قوم خلقوا للحرب : حرب الهجوم لا حرب الدفاع ، الحرب التي يثيرها المعتدي الباغي ، لا الحرب التي تفرض على الوادع والمهيض

وتنقضي سنون وقرون وتاريخ أوربا ليس الا سلسلة من المعارك المتصلة بين القوتين : الرومان والتيوتون . وتكون الغلبة لهؤلاء حينا وتكون لاولئك أغلب الاحيان . على أن الطريف في هذه المعارك أنها صور مصغرة للحرب القائمة في يومنا هذا . فنجد في سيرة التيوتون في ذلك التاريخ السحيق ما نجده اليوم في سيرة خلفائهم الالمان . فالدافع الذي سير الالمان غربا الى فرنسا وشرقا الى روسيا ، لم يكن ضيق ألمانيا بهم ، بل كان ضيقهم هم بألمانيا . فأخذوا يلتمسون أرضا ، أو « مجالا حيويا » على حد تعبيرهم الحديث يعيشون فيه عيشة أرغد وأرخى . وهذا الذي يأتيه الالمان اليوم من أوزار وآثام في الشعوب التي تقع تحت أيديهم قد أتى أجدادهم وأسلافهم مثله في الشعب الروماني حين ظفروا به ودخلوا عاصمته روما . وكذلك تلك الكارثة التي نزلت بالشعب الالماني في أواخر الحرب الماضية ، والتي توشك أن تحل به في هذه الايام — كارثة تحطم الروح المعنوي ، وتمرد الشعب على قادته ، وشيوع الفرقة في صفوفه وما تزال الحرب دائرة — هذه الكارثة ذاتها كانت تحل بالتيوتون في أيامهم الغابرة ، فتضيع عليهم ثمرة النصر وقد أوشكوا ان يجنوها ،

وتوردهم مورد الهزيمة وكانوا يبدون أنهم عنه بعيدون

فهذه المعركة التى دارت فى غابة توتوبرج فى السنة التاسعة بعد الميلاد تظهر جانبا من الروح الالمانى . فقد أراد الامبراطور الرومانى أوغسطوس أن يحذو حذو قيصر فى تدعيم أركان الامبراطورية ويحصن حدودها . وكان همه منصرفا الى حدودها الشمالية حيث تهيم تلك القبائل التيوتونية متربصة بها الدوائر . فأخذ يسور تلك الحدود الممتدة من بحيرة جنيف الى البحر الاسود ليرد عادية التيوتون ، ويؤمن الرومان شرهم الوبيل . ولكنه أخطأ من ناحية أخرى ، فاتخذ فى قصره عددا من شبان التيوتون وامرائهم جنودا وحراسا ، وأغدق عليهم من عطائه ما حسب أنه يكفل صدقهم واخلاصهم . وكان منهم شاب يدعى هرمان ، أو أرمنيوس فى لغة الرومان ، فجعل هذا الشاب يسترق أخبار الجيش الرومانى ، ويتعرف الى خططه وأساليبه ، وأسلحته وعتاده ، ليوقع به حين تحين له الفرصة . وكان يضمر الغدر والخيانة ويتظاهر بالصدق والولاء ، فلما زحف الجيش الى الشمال ليخمد فتنة قائمة ، غرر هرمان بقائد الجيش ووجهه الى غابة توتوبرج حيث أعد له كمينا من رجاله التيوتون ، فظهروا للجيش الرومانى على حين غرة تحت جنح الظلام ، وأعملوا فيه سيوفهم وخناجرهم فأفنوا رجاله على بكرة أبيهم

لم تكن هذه معركة ، بل كانت مذبحة ، ولم يكن هرمان جنديا شريفا ، بل خائنا غادرا . ومع ذلك فما زال الالمان يعدون هرمان بطلا من ابطال تاريخهم ، يلتمسون فى سيرته المثل والقدوة ، ويلقونها على أولادهم وتلاميذهم فخرا يذكر ودرسا يحتذى

ولقى هرمان جزاءه ، وكان الجزاء من جنس العمل ، خسة وخيانة ، فان ابن عمه سيجستوس أراد أن يتقرب الى الرومان بأن يثأر لهم من هرمان . ولم يكن له من سبيل على هرمان ، غير أنه كان متزوجا من أخته . فماذا فعل ؟ قدم للرومان زوجته هذه انتقاما من أخيها هرمان . وكان الرومان حينذاك فى طور من أطوار الانحلال الخلقى ، فأقروه على فعلته وكافأوه . وبينما كان سيجستوس فى حفل من حفلات الرومان جالسا بين أشرافهم يعبث ويلهو ، كانت زوجته هذه تسير أمامه وأمام الجمع الحاشد ، مكبلة بالاغلال وقد تعلق بصدرها ابنها من سيجستوس ، وكانت وضعته وهى فى غيابة السجن !

هذه قصة من قصص الخيانة المزدوجة التى تكررت فى تاريخ القوم مرارا . فكثيرا ما انتصروا فى الحرب بما أوتوا من أوزار الغدر ، وكثيرا ما ضيعوا ما كسبوا بأوزار الخيانة

□

ظلت هذه القبائل التيوتونية الهائمة فى شمال الامبراطورية الرومانية تتربص بهـا الدوائر ، وتترقب اليوم الذى تعبر فيه جبال الألب الى روما . فلما أخذ ظهر العملاق

الروماني يتقوس وينحنى تحت اعباء الشيخوخة الفانية ، أخذت أسراب التيوتون تتجمع وتتأهب لتثب وثبتها على روما العجوز

وكان امبراطور روما حينذاك ، هونوريوس ، غلاما غرا لاهيا . كان لا يدرك مدى هذه الاخطار الرهيبة التى تحف بالامبراطورية من كل جانب ، وتزحف اليها من كل طريق . وكان لا يدرك أنه يحيا وسط أتون من الدسائس والمكائد والمؤامرات يوشك أن تتقد ناره ويمور سعيره بين عشية وضحاها . وكان لا يدرك أن هؤلاء التيوتون وان لم يأخذوا بنصيب من الحضارة والسياسة أبرع الناس فى بث العيون ونشر الدعاية


وقتل أوليوس أحد أشراف [illegible] فتقدم منه [illegible] الامبراطور [illegible] كان فى [illegible] [illegible]

واقامة الفتن وبلبلة الافكار . وكان الى هـذا كله لا يدرك أن روما ، وقد أوهنها الترف المسرف والثراء الباهظ ، قد آن عليها أن تسلم الأمر لأقوام اتخذوا الحرب مهنتهم، والخشونة شعارهم ، والغلبة هدفهم ، وحكم الشعوب المستضعفة غايتهم القصوى . ومع هذا كله فان ذلك الشاب السادر اللاهي كان يتولى أمر امبراطورية تضم ايطاليا وفرنسا واسبانيا وأفريقيا ومصر وألبانيا واليونان

وهكذا آن للتيوتون أن يحققوا أملهم الذى جاهدوا وحاربوا له طويلا . آن لهم أن يضعوا أيديهم على روما وما فيها من كنوز تجمعت لها على مر الأجيال من تلك الاقاليم الغنية التى بسطت عليها سلطانها دهرا طويلا . فأجمعوا أمرهم على أن يزحفوا الى روما من أيسر الطرق المؤدية اليها . ولم يكد ينتهى القرن الرابع حتى هبطت جموعهم من مواطنها فى ألمانيا زاحفة الى سهول البلقان ووهادها . وعبر هؤلاء « البرابرة البيض » نهر الطونة فى جموع حاشدة تحت امرة قائدهم « ألرك » وهو قائد قوى المراس ، بارع القيادة ، مسرف القسوة . وزحفت هذه الجموع وهامت فى تلك الآفاق ، تسبقها روايات عن قوتها الضخمة وقسوتها المنكرة ، فلا يملك الناس من أمرهم الا أن يفروا من قراهم وبيوتهم ، هائمين على وجوههم على غير قصد معروف ، تاركين لاولئك الجنود ديارهم يحرقونها ، وماشيتهم يذبحونها ، وأمتعتهم يحملون منها ما يريدون

وكان أول اقليم ذل تحت أقدام هؤلاء البرابرة اقليم اليونان ، حيث نزلوا به سهلا لا يلقون فيه جيشا يصدهم أو عدوا يناوئهم . فماذا فعلوا فيه ؟ يقول المؤرخ « جيبون » فى هذا : « لقد ذبحوا الرجال والشبان الذين هم فى سن تمكنهم من حمل السلاح وخوض القتال . وسبوا النساء والفتيات الجميلات ، وغنموا ما فى القرى من ماشية ومتاع ، ثم تركوا بيوتها نهبا للنار »

كانوا أرجالا من الجراد ، تهبط على الارض الغنية المزدهرة قليلا ، فلا تدعها الا قفرا يبابا . ولم يكونوا يحجمون عن العسف والفساد ولو خرج لهم الناس عن كل ما يملكون من متاع ومال . وقد مر بمدينة أثينا غداة أن تركها التيوتون أحد المؤرخين ، فكتب فى وصفها : « انها تشبه الفراء التى تكسو ماشية نهش كل ما فيها من لحم ، ودق كل ما فيها من عظم ، وسفح كل ما فيها من دم »

وأخذ ألرك طريقه الى « روما » وهو ينشر الرعب ويخلف الدمار أينما حل وأينما سار ، حتى هبط شمال ايطاليا سنة ٤٠٢ ، وتقدم فى سهول فينسيا حتى وقف على أبواب ميلان ، حيث كان يقيم الامبراطور الشاب هونوريوس . ولم يكن ثمة ما يعنى الامبراطور الا أن ينجو بنفسه فلاذ بالفرار الى سويسرا ، حيث أقام فى احدى قلاعها . ولكن ميلان لم تعدم رجلا من أبنائها ينهض للدفاع عنها ، وهو القائد سيليتشو الذى قاوم التيوتون

طويلا ودحرهم فى معارك شتى . ولكن خصومه من بنى قومه تآمروا به وتألبوا عليه ، حتى أوقعوه فى حبائل ألرك ، فأزهقت روحه وهو لائذ بكنيسة اعتصم بها ومن بقى معه من جنوده . وكان قتل هذا القائد الحربى آخر عقبة فى طريق ألرك الى روما ، فتقدم اليها فى جيش بلغ زهاء خمسمائة ألف نسمة

وكانت أخت الامبراطور ، الاميرة بلاسيديا ، أثبت من أخيها جنانا ، وأحفل منه قلبا ، فلم تلذ بالفرار كما لاذ ، بل بقيت فى روما مع قومها تنتظر مصيرها المحتوم . وكانت المدينة مسورة بالاسوار المنيعة محصنة بالقلاع الشاهقة ، وقام جنودها على منافذها ومشارفها متأهبين للقاء الغزاة

ولم تكن أقدام التيوتون قد وطئت من قبل أرض روما الا أقدام من وقع منهم فى المعارك السابقة أسيرا . أما اليوم فهاهم على أبوابها يزمعون اقتحامها غزاة وأسيادا . ولم يكن لهم من قصد اذ يدخلونها الا أن ينهبوا ما فيها من كنوز وأموال ، وأن يسلبوا أهلها ما يملكون من متاع ، والا أن يشبعوا نهمهم ويرووا غلتهم من نسائها وفتياتها .. فهذا كل ما كانت تتسع له العقلية التيوتونية : أما الشرائع الرومانية ، أما الاخلاق المسيحية ، أما الفنون والآداب والفلسفات ، فكل ذلك لا يعنيهم كثيرا أو قليلا ، وانما هم جياع ظماء يريدون طعاما وخمرا ، انهم فى عسر وضيق ويريدون ذهبا وفضة ، انما هم جياع ظماء يريدون أبدانا يهتصرونها شهوة ومتاعا ، بل تنكيلا وتعذيبا

وكان ألرك يعلم أن روما لم تتأهب للصمود طويلا ، فضرب عليها الحصار وحال دون وصول الطعام الى أهلها . وأقام وسط نهر التبر سدا فأغلق فى وجه المدينة هذا الباب الذى يصلها بما حولها ، وأقام الى جوار المدينة معسكرات جنوده ، وانتظر استسلامها بعد قليل . واشتد الامر بسكان روما ، فثقلت عليهم وطأة الجوع والضيق ، وتفشى فيها الوباء وكثر بينهم الموتى ، وشاع فيهم اليأس والقنوط ، ولم يكن بد من التسليم والاذعان . فاجتمع مجلس الشيوخ فى المدينة ، وقرر ايفاد اثنين من رجاله الى ألرك يفاوضانه فى شروط الهدنة

وقدم الرسولان الى معسكر ألرك ، وأرادا أن يتظاهرا بأن فى وسع المدينة أن تصمد وتقاوم طويلا ، ليخففا من غلوائه فيما يفرضه من الشروط . قالا له ان حصون المدينة ضخمة منيعة ، وأسوارها شاهقة سميكة ، فلا سبيل الى اقتحامها . فأجابهما فى سخرية قاسية : « كلما كانت كومة الهشيم كبيرة سرت فيها النار سريعا » . ثم أملى عليهما شروطه وهى أن يسلم اليه كل ما فى المدينة من الذهب والفضة والمال والجواهر ، وكل ما فيها من أثاث وصور وتماثيل ، وأن يطلق سراح كل من وقع فى يدها أسيرا من أبناء القبائل التى تسكن وراء نهر الطونة ، وطلب الى هذا كله مبلغا ضخما من المال تدفعه له فى كل عام

ولم يصدق الرسولان أذنيهما فيما سمعنا ، فسألاه فى صمت وخشوع : « وماذا يبقى لنا بعد هذا ؟ » . فقال : « حسبكم حياتكم أتركها لكم »

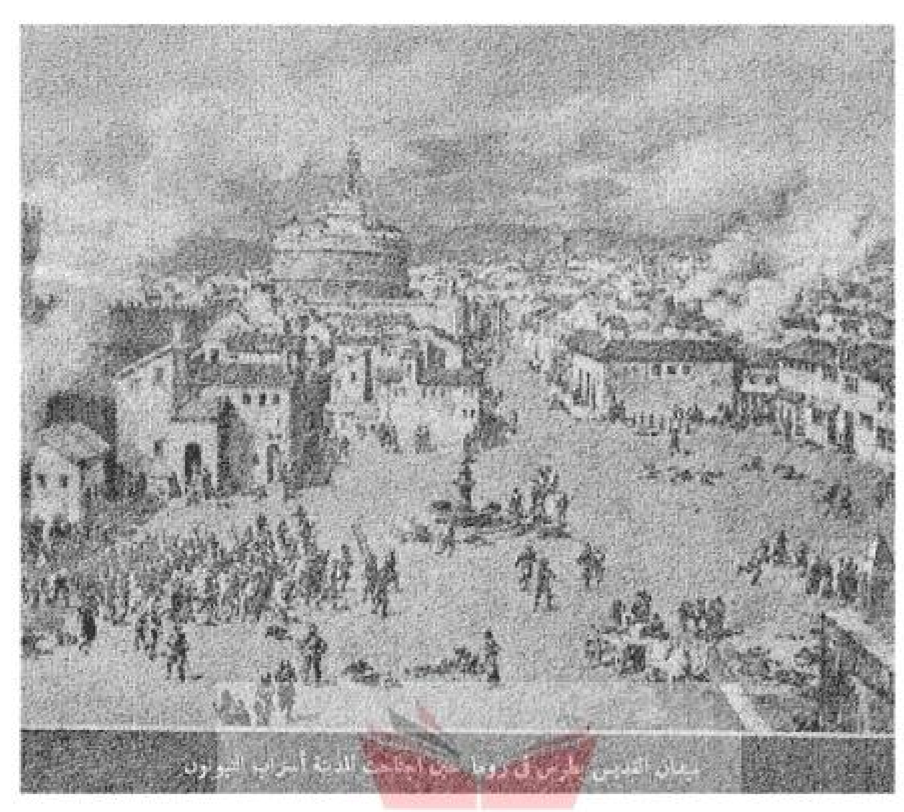
ولم يكن بد من الاذعان لهذه الشروط ، ولكن كان ثمة شرط أقسى من ذلك كله . فقد أبى ألرك أن يرفع الحصار عن المدينة الا بعد ان يضع يده على نفر من أبناء الاشراف وبناتهم ، يتخذهم رهائن ريثما تنفذ الشروط التى أملاها . وكان فى مقدمة هذه الرهائن أخت الامبراطور الاميرة بلاسيديا . وهى فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها ، بارعة الحسن فاتنة الجمال . ورضخ أهل روما وأذعنوا ، فاقتيدت الاميرة وسط جمع من شبان روما وفتياتها ، مصفدين بالاغلال ، الى حيث زج بهم فى معسكرات التيوتون

ودخل ألرك المدينة الخالدة ، فكان أول تيوتونى يضع قدمه فيها غازيا . على أنه كان على شىء من الشهامة والثقافة ، فتعلم من الرومان بعض أخلاقهم وعاداتهم ، تعلم منهم الاستحمام بالماء الساخن ، وتعلم منهم حلق اللحية بالموسى . وكذلك كسر حدة أتباعه المتبربرين الذين أرادوا ان يعملوا أيديهم فى كنوز المدينة ، وخناجرهم فى رجالها ونسائها ، وأحسن معاملة الاميرة بلاسيديا ، دون أن يطلق سراحها

ولما رفع الحصار عن المدينة وأبيح ارسال الطعام الى أهلها الجوعى ، دخلتها آلاف من العربات محملة بالطعام ثم خرجت منها محملة بما فى المدينة من روائع الآثار ونفائس الكنوز . بل ان كنوزها الاثرية المصوغة من الذهب صهرت وأذيبت لتوزع بين هؤلاء الجنود المتبربرين أجورا ورواتب لهم

ولما نال ألرك ما أراد ، وما كان يريد سوى كنوز روما وأموالها ، اقترح على الامبراطور هونوريوس عقد معاهدة تحالف . وكان الامبراطور يبتغى السلامة ويؤثر العافية بأى ثمن كان ، وكان لا يعنيه من أمر الدولة شىء ، لا يتصل بأهوائه ولذاته . حتى قيل ان أحد رجاله دخل عليه ذات يوم فزعا وقال : ان الجرمان استولوا على روما . فانتابت الامبراطور نوبة من الحزن العميق ، وقال وهو ينشج بالبكاء : لقد كانت سليمة منذ ساعات ! فلما دهش الرجل من هذا الكلام أوضح ما يريد بكلمة روما . فلم يلبث أن سرى عن الامبراطور ، اذ علم أن التى وقعت فى قبضة الجرمان هى روما عاصمة الامبراطورية ، وليست دجاجته المحبوبة التى كان يسميها « روما » !

ولما تم لألرك اخضاع ايطاليا شرع فى غزو صقلية لينتقل منها الى أفريقيا ومصر . ولكنه أصيب بحمى شديدة قضت عليه بعد أيام ، فدفن فى قبر فسيح يتسع له ولمجموعة كبيرة من الكنوز والاسلحة وضعت حول جثته طبقا لعقائده الوثنية . وبعد أن دفن الميت ذبح كل من اشترك فى حفر القبر ورؤيته ، حتى لا يعرف أحد من الاحياء موضع القبر ، فتبقى كنوزه بمنأى عن يد اللصوص أبد الآبدين



ميدان القديس بطرس في روما حين اجتاحت المدينة أسراب التيوتون

وخلف ألرك زوج ابنته القائد أتولفوس ، فتولى زعامة القبائل التيوتونية ، كما تولى مهمة استئناف فتح أقاليم الامبراطورية الرومانية . وكانت الاميرة بلاسيديا لا تزال ترسف فى أصفاد الاسر ، ففرض عليها أتولفوس الزواج ، بعد أن بثها حبه وهواه . ولم يحدث من قبل أن تزوجت أميرة رومانية من رجل متبربر ، ولكن بلاسيديا أحست ان أتولفوس يخلص لها الحب ، ورجت أن يفيد قومها من وراء زواجها خيرا ، فيحسن زوجها معاملتهم ويخفف من غلواء قومه فى علاقتهم بالرومان والواقع أن الاميرة أحست انها تحب هذا القائد ، فرضيت بالزواج ، ووافق أخوها الامبراطور ، خشية ورهبة . وتم الزواج فى حفل باذخ عظيم ، وأجلسها زوجها يومئذ على عرش أعلى من عرشه اظهارا لحبه وتقديره . وأهداها ليلة عرسها خمسين من أجمل وأروع شبان القبيلة وفتيانها ، وفى يد كل منهم صرتان ، احداهما ملأى بقطع الذهب ، والاخرى بقطع من الاحجار الكريمة النادرة . ولم تكن هذه الهدية على أى حال الا جزءا يسيرا مما ابتزه المتبربرون من ذخائر المدينة الخالدة

وعاشت بلاسيديا مع زوجها بضع سنين حافلة بالحب موشاة بالنعيم . وكان له من

زوجه السابقة خمسة أولاد ، ولكن هذا لم يمنعه من البكاء طويلا حين مات ولده من بلاسيديا بعد ولادته بساعات . ونسيت بلاسيديا فى حياتها الجديدة الهانئة ما قاسته من قبل من ذل الاسر وهوان الرق . ولكن القدر كان يخبىء لها أمرا . فذهبت مع زوجها فى رحلة الى اسبانيا . وكان قد قتل أحد أشرافها ، فنقم عليه تابع هذا الشريف ، وتربص به ذات يوم اذ كان فى حظيرة خيوله ، وطعنه فى ظهره بخنجر أرداه قتيلا

وخلفه سنجيرك ، وكان يكره بلاسيديا أشد الكره ، ويتهمها بأنها كانت تعطف زوجها على الرومان ، وكانت تبغضه فى دينه الوثنى وتحبب اليه المسيحية . فصب عليها جام غضبه وسوط عذابه . ولكنه أبقى على حياتها لا رفقا بها وشفقة عليها ، بل ليلعب بها لعبة « الهر والفأر » لعبة ظاهرها المداعبة ومن باطنها الارعاب المميت . وأية لذة يطمع فيها هذا المتبربر الهمجى أكثر من أن يعبث ويلهو كيف شاء بأجمل فتيات روما ، وابنة امبراطورها تيودوسيوس ، وأخت امبراطورها هونوريوس ، وزوجة زعيمه السابق أتولفوس ؟ وهكذا غدت بلاسيديا جارية فى معسكر التيوتون ، تطوف بدنان الخمر على جنودهم السكارى المعربدين الذين ليس لهم من الدين أو الخلق ما يردعهم عن المنكر أو يخجلهم من الفاحشة . فاذا امتطى سنجيرك جواده فى حفلات عرض جنوده ، سارت بلاسيديا أمام الجواد فى جمع من الاسرى والرهائن مكبلين بالاصفاد

ولكن هذه المأساة لم تطل طويلا ، اذ قتل سنجيرك بعد اسبوع من قيامه على عرش التيوتون ، وخلفه « واليا » الذى أعتقها من الاسر مقابل ستمائة ألف وزن من القمح قدمتها روما افتداء لاميرتها الجميلة . وتزوجت بلاسيديا من أحد قواد روما ، ولكن الموت عاجله بعد ان ترك منها ولدين . وآوت بلاسيديا الى حياة الوحدة والعزلة تتأمل فيها تلك الاطوار الغريبة التى تقلبت فيها ، وتعجب مما كتبه القدر عليها من شتى الصروف والخطوب

وقيل يومئذ ان أخاها الامبراطور الغر المفتون أحبها حبا مريبا ، وذاعت اشاعات وأقاويل عن صلته المنكرة بأخته ، ولم تجد الاميرة منجاة من هذا العذاب الذى عانته طول حياتها الا أن تهجر روما وتلوذ بامبراطور بيزنطة حيث أمضت ما بقى من عمرها وسط عالم من الذكريات الأليمة





احسان لله

بقلم الأستاذ محمود تيمور بك

أدى « أبو المعاطى » فريضة الفجر فى المسجد ، على مألوف عادته فى تأدية الفرائض حاضرة ، ثم غادر بلدته « كوم الزهر » القائمة فى بقعة مشرفة على النيل شمال القاهرة .
فما كاد يخرج من البلدة ، ويمضى فى الطريق العام ، حيث الدواب تروح وتجىء ، والسيارات العامة تنهب الارض ـ حتى كان أول شعاع من أشعة الشمس يحيى الكون تحية الصباح . وكان النسيم رطبا مشبعا بأنداء الفجر ، والحياة تبدأ انتعاشها البهيج ، والضوء فى بواكيره يختلج على صفحة النيل ، فتناجيه العصافير وهى تبرح أعشاشها تلتمس الرزق ناشطة . .

بيد أن ذلك الجمال الرائق الذى يبعث فى النفس الراحة والطمأنينة ، لم يظهر له أثر على وجه « أبى المعاطى » فقد وضح على سيماه طابع الهم والكآبة ، فهو يسير لا تعنيه سقسقة العصافير ، ولا مشى الدواب ، ولا جرجرة العربات . وانما يفكر فى شأنه وشأن المهمة التى كلفه أبوه أن يقضيها له فى القاهرة : عليه أن يقابل كاتب المحامى ، وأن يدفع اليه بعض الاوراق التى تخص قضية الارض المتنازع عليها بينه وبين أقاربه . كلفه ذلك أبوه ، وضن عليه بركوبة يمتطيها ليصل بها الى العاصمة ، فليس له الا أن يقطع المرحلة سعيا على القدمين ، ثم يرجع بعد قضاء هذه المهمة راجلا كما ذهب . وما كان ليعنى بهذا الامر لو أن حياته العامة هنيئة رغدة ، وأن له جوانب من معيشته تمنحه السرور والغبطة
استمر « أبو المعاطى » فى سيره ، وكلما فكر فى شىء تداعت أمامه مناظر حياته التاعسة

منذ نعومة أظفاره . انه شاب يافع يبلغ الثامنة عشرة من العمر ، حالفه سوء الطالع منذ شهد الضوء فى هذه الحياة ، فقد قضت أمه نحبها وهى تلده ، وفى اليوم التالى شبت حريق فى الدار كادت تأتى على كل ما فيها ، وكان العام الذى قضى فيه طفولته الاولى عام جدب عانت الاسرة فيه أسباب العسرة والضيق . فتشاءم الاب والاهل ، بل سائر من فى القرية، بهذا الوليد الذى اقترنت بمقدمه عوامل البؤس والاسى . ونشأ الغلام تحت سيطرة امرأة أبيه ، تغرى أباه بابغاضه ، والتقزز منه ، والتشدد معه . ولم يكن بالفتى الوسيم المشرق الطلعة ، الذلق اللسان ، يستجلب بشاشته القلوب ، ويسترعى بحلاوة لفظه الاسماع . وانما كان صموتا منطويا على نفسه ، بائن القماءة ، دميم الخلقة ، فظل موضع امتهان أبيه وامرأته يكلفانه أعمال الدار ، فيؤديها صاغرا لا ينبس . واذا جال فى القرية لم ير الا منفردا ليس له من صاحب ولا خدين . فان صادفه أحد العابثين فحاول مناوشته بسخرية لاذعة أو سباب جارح، تصامم عنه ، وأولاه اهمالا وعدم اكتراث، وهو يجيش فى وجدانه شعور الترفع والازدراء !

ولما بلغ مبلغ الفتوة انتهى اليه عبء الحقل كله ، فنهض به صابرا حولا ، لا يلقى من ذويه على موفور جهده جزاء ولا شكورا . وما كان له ألا يذعن ويستسلم لما أريد عليه ، وكيف يستطيع أن يرفع بصره الى أبيه متحديا اياه ، وهو يراه على الرغم من علو سنه جبار العزمة ، مهيب الكلمة ، وهل ينسى مرة أنه عمل على أن يدخر مبلغا من النقود فى مدى من الزمن مديد ، يبتغى أن يشترى به بعض ما تطمح اليه نفسه فى الاسواق . فنمى الى أبيه هذا الصنيع ، فاستدعاه اليه ، وطلب منه على الفور أن يخرج له ما عنده من المال، فهم الغلام أن يثور ، وأن يأبى الاستجابة لهذا الامر ، فهوى أبوه على صدغه بكف جبارة أخمدت الثورة فى مستهلها . وسرعان ما امتدت يد الغلام الى أبيه، لا ليذود عن نفسه ، بل ليعطى أباه ما جمع من المال والآمال . . وترك الغلام والده مطأطىء الرأس ، يجر قدميه ، وقد تحيرت فى مآقيه الدموع ، وفزع الى المسجد، حيث أوى الى ركن فيه ، فأسلم رأسه الى ركبتيه ، واندفع ينشج ويذرف العبرات . وأنبهته سعلة عريضة ، فمال ببصره يتفقد من قدم المسجد ، فرأى الامام فى طريقه الى المحراب ، يتعثر فى خطواته المهدمة . فنهض اليه يقبل يمناه ، وكان يلقى أبدا فى رحابه أمنا ورفقا لا يأنسهما من سائر الناس ، فسأله الامام : ما خطبه ؟ فأخذ يسرد له ما وقع من أبيه ، فربت الامام ظهره ، وطيب خاطره ، قائلا :

ــ أباك ! أباك !.. أنت ومالك لابيك . . كن طيعا صبورا تغنم ثواب الله . .

ثم تحسس جيبه ، ومد يده الى « أبى المعاطى » وهو يقول :

ــ قد تجد يا بنى فى هذا المبلغ على ضآلته بعض مايعوضك مما فقدت . . وليكن قرضا . .

فرد يد الشيخ فى أدب وتمنع ، وشكر له جميله ، وانصرف من المسجد أهدأ بالا . .

جد « أبو المعاطى » فى طريقه ، تتوارد هذه الذكريات على خاطره ، وبدأ يشعر بأشعة



الشمس تلفح وجهه ، والعرق يتصبب من جبينه . وصادف فى سيره قرية قام فيها سوق الاسبوع ، فجاز بها ينظر ما يعرض فيها من ألوان السلع ، واختلب نظره فوق كل شيء منظر الطعام ، فقد رصت بعض الصوانى عليها أشتات المأكول من أرز مطرز بأخلاط شهية جذابة ، ومشويات يفوح قتارها فيفعم الانف بأزكى الرائحة . فرجعت به الذاكرة الى أيام صباه الباكرة ، حينما شهد وليمة أعدها العمدة احتفالا بزواج حفيده ، فذاق مثل هذه الالوان ، وما فتىء منذ ذلك اليوم يجد طيبها فى فمه .. وأبطأت خطاه فى جوانب السوق ، اذ كان يمتع البصر بهذه المرائى التى فتنت لبه ، ويستنشق عبير تلك المطاعم التى تحلب لها ريقه . ثم انساق بقدميه ليبتعد عن هذه الناحية ، ولم يلبث أن أحس بجوعه ، فتلمس جيبه ليستخرج اللفيفة التى أعدتها له امرأة أبيه تحوى كسرا من الخبز اليابس ، وقطعة من الجبن القريش . وهم بأن يسكت جوعته بقضمة ، ولكنه تذكر أن هذا زاده كله فى رحلته الطويلة ، فعليه أن يحسن تدبيره حتى لا ينفد قبل انتهاء مهمته وأوبته

واسترعى نظره ضريح شاخص على الطريق ، لاحد أولياء الله . فمد الخطا اليه ، وما ان داناه حتى أمسك بشباكه ، وقرأ له الفاتحة ، ثم أخذ يتضرع ويبتهل ، ويمسح وجهه بيديه مرات .. وكان بجوار الضريح سائل مكفوف البصر يتلو بعض آى الذكر الحكيم ، واذا برجل ممتط ركوبة مطهمة ، تدل سماته على اليسار والنعمة ، فأخرج كيسه المنسوج ، وأخذ منه قطعة من النقود دسها فى يد القارىء ، ولم يتنبه الى أن قطعة أخرى سقطت من الكيس ، ولكن « أبا المعاطى » لمحها على الارض فأسرع اليها ، وأخذ يقلبها بين أنامله فترة ، وكان القارىء قد عاد يرفع صوته بآى الذكر الحكيم ، فألفى « أبو المعاطى » نفسه يرفع عينه الى الضريح هنيهة ، ثم عدا فى طريق الرجل المحسن الماضى على مطيته ، فصاح به حتى استوقفه ، وناوله قطعة النقود التى سقطت منه ..

واستأنف « أبو المعاطى » سيره يغادر السوق ، وقد اشتدت وطأة الشمس عليه ، وأحس بالهم ينمو فى نفسه ، والمتاعب تتجمع على كتفيه ، وعاودته ذكرى قطعة النقود التى ردها الى صاحبها ، وتراءت لعينه صوانى الرز والشواء ، فتضاربت بين جوانحه مشاعر الأسف

والحيرة والقلق.. وانتحى ناحية على الجسر ، ووجد أن لا بد من أن يخرج زاده من جيبه، وأن يتناول منه مضغة ترد عنه السغب . وبينما هو جالس يأكل ، سمع هرير كلب على مقربة منه ، فحول اليه بصره ، فوجده يرقبه عن كثب فى خوف وحذر . وجعل الكلب يرسل اليه نظرات توسل واستجداء ، وهو يلوك لسانه بين فكيه ، فحدجه « أبو المعاطى » بنظرة نكراء ، وما عتم أن تناول حجرا قذفه به ، فانطلق الكلب يعوى فى ذلة المقهور ، وأقبل « أبو المعاطى » على طعامه يغمغم بالسباب !

ثم نهض يتابع سيره ، وقد بدأت الطريق تتشعب ، فانطلق يسأل هذا وذاك : أين السبيل الى القاهرة ؟

ودخل المدينة دخول الحائر الوجل ، وقد بدأ صخب الحياة يكتنفه ، فطفق يستدل على مقر كاتب المحامى فى حى « السيدة زينب » .. وشارف المسجد بعد جهد ومشقة ، وقد أخذ منه الاعياء كل مأخذ ، فأراد أن يريح جسمه بجلسة ، وأن يصلى ركعتين بجانب المقام . وبعد أن أدى فى المسجد الصلاة ، تعلق بأستار الضريح ينفض نفسه فى مناجاة وضراعة . ثم عدل الى الباب ، فرأى أناسا متفرقين يجلسون ، فاختار مكانا ظليلا رطبا جلس فيه ، وقد اعتزم أن يذهب الى كاتب المحامى بعد أن يستوفى قسطه من الراحة والتفرج . واستند الى الجدار ، فغفا غفوة لم يدر مداها ، وعند ما استفاق من نعسته وجد الحركة تشغل المسجد ، والارجل تكثر غادية رائحة . وبينما هو فى جلسته ، مسترسل فى تفكيره ، اذ أحس شخصا يقترب منه ، وشيئا يلقى فى حجره ، فرفع جفنيه ، وتطلع الى ذلك الشىء ، فاذا به قطعة مغرية من النقود ، فأمسك بها يقلبها ، وهو ينظر الى الذى ألقاها ، فهم أن يعيدها اليه ، ويخبره بأنه ليس بشحاذ ، ولم يكد يفعل حتى كان الرجل قد غاب فى زحمة السابلة ، فجعل يتفقده برهة دون أن يجده . وألحت فى فكره على الاثر مناظر الصوانى عليها الرز المطرز والمشويات الشهية . أليس هذا رزقا ساقه الله اليه ؟ أو ليس هو بركة « السيدة زينب » وسماحتها الكريمة ؟ وتلفت يمنة ويسرة ، فلم يجد أحدا يعيره التفاتة ، فأسرع بقطعة النقود يحفظها فى جيبه ، ورغب فى القيام ، ولكن هاجسا هجس فى خاطره أن استرح قليلا ، ففى الوقت مندوحة ، وليس مقر كاتب المحامى ببعيد . وفيما كان يسبح فى أخيلة شتى ، وجد امرءا فى منصرفه من المسجد ، أنيق البزة، وجيه الطلعة ، تحف به شمائل الطيبة . فتصدى له سائل كسيح يظلع على عكازته ، ومد له يمينه مستعطفا ، فنفحه الوجيه بقطعة من النقود ألهجت لسانه بالشكر والدعاء . فأحس « أبو المعاطى » على التو يده تمتد ، وكفه تنبسط . فوقع بصر الوجيه عليه ، فأخرج قطعة من النقود ، وألقى بها اليه ، فاختلج قلبه ، وأسبل أهدابه متناوما . وبعد هنيهة اختفى شبح ذلك الوجيه ، فجعل « أبو المعاطى » يضم قطعة النقود الى أختها الاولى، ثم انسرح يفكر : ماذا يأكل ؟ وأى الالوان يختار ؟ وتباينت تصوراته فى شهوات الغذاء !

ووجد نفسه يطيل الجلوس ، فهتف به هاتف : ألم يحن الوقت لان يهب الى كاتب

المحامى لينجز المهمة التى قدم من أجلها ؟ ولكن يده كانت على حالها مبسوطة الكف ، وعينيه كانتا مطبقتى الاجفان . وسمع اثنين يتحدثان على مقربة منه ، فيقولان: حقا انه لسائل جدير بالاحسان !.. وهبطت على يده فى الحال قطعة النقود ، فخطرت ببال «أبى المعاطى» صورة القارىء القاعد بجوار الضريح ، وهو فى جلسة الذلة والمهانة ، فتحركت فى قلبه أشياء من الانفة والعزة ، وتهيأ ليفارق مكانه ، فاذا امرأة عجوز تتوكأ على عصا تدنو منه ، وتضع فى يده على استحياء وصمت قطعة من النقود لها قيمتها ، وتهمس فى أذنه ملحة أن يسأل لها الله شفاء ابنتها التى أضنتها العلة ، فلم يتحرك فى مجلسه ، ولم يفتح عينيه لها ، واجتهد أن يقلص من قسمات وجهه ، تعبيرا عن معنى الابتهال الى الله ، وهو يهمهم بكلمات مضطربة لم يستبن منها حرف . وعادت العجوز أدراجها ، وهى تقول :

ـ الدعوة من خدام المقام هؤلاء ، ليس بينها وبين السماء حجاب !..

وامتدت جلسة « أبى المعاطى » ، وعمر جيبه بقطع النقود ، فما كاد الظلام يرخى سدوله ، حتى فترت الحركة ، وانقطع سيل الزوار ، فنهض يلم شعثه ، ويستقبل الطريق يتحسس النقود ويعدها مرة بعد مرة . وقد أدار فى ذهنه أن هذا المبلغ من المال يعدل كسب أيام معدودات فى الريف ، عاملا فيها على أديم الحقل فى وقدة القيظ ، مقاسيا ضروب المشقة والكد ، وها هو ذا قد يسره الله له وهو فى جلسته الهادئة الوادعة . أوليس هذا برهان رضا أسبغه الله عليه ؟ أوليست هذه رحمة ربانية تستوجب مزيدا من الحمد والشكران ؟ ورفع بصره الى السماء ، مبتهلا الى ولى النعم أن يديم عليه منته ، ثم مسح وجهه بيديه كلتيهما ..

وانساب يتصفح الحوانيت متنسما يبحث عن طعام ، ومثل أمام واجهة الزجاج على باب أحد المطاعم ، وقد فتنته من ورائها مناظر الشواء تطاير رائحته شهية مغرية . فأعاد راحته الى جيبه يتلمس النقود ، واشتبكت فى رأسه أسراب الامانى : لم لا تكون هذه الصرة نواة ثروة يشترى بها ثوبا أنيقا يجمله ، وقلنسوة تزهو على جبينه ؟ ألا يمسك رمقه ببقايا الزاد فى اللفيفة التى أعدت له ويحتفظ بما جمع ؟ وهنا ازدحمت على خياشيمه روائح الشواء فما هو الا أن اندفع نحو المطعم ، وملأ بطنه بما لذ وطاب حتى اكتفى ، ثم خرج يتجشأ نشوان ، وسار بخطوات أثقلتها التخمة ، وقد أحس الرغبة الملحة فى أن ينام ..

وما كاد ينعطف فى أحد الازقة المجاورة ، حتى ألفى زاوية مهجورة بجوار خربة قد تمدد فيها أحد الصبية المشردين ، فانتحى مكانا غير بعيد منه ، فمهده لرقاده ، متوسدا ذراعه . ولم ينس قبل أن يسلم للكرى مقلتيه أن يخرج نقوده ويعدها ، فرأى أن لم يبق منها الا فلول ، فقد مضى الاكثر الاغلب فيما حشا به بطنه من ألوان العشاء . فلبث يتأمل البقية الباقية ، ثم أحكم ربطها ، ووضعها فى قرارة جيبه ، وهام فى أحلامه ، معتزما

أن يقضى مهمته مع كاتب المحامى من غده ، ويبرح القاهرة الى بلدته ، مكتفيا بما راح له من عطية الله !..

ولما أهلت تباشير الصباح ، انبعث من مرقده ، فكان أول ما سنح لخاطره أن يتحسس ربطة نقوده ، فاطمأن الى سلامتها ، وبنى عزمه على أن يكون فى يومه قنوعا . فعرج على لفيفة الزاد التى جلبها من البلدة معه ، ففك وثاقها ، وبسط رقعتها أمامه ، وجعل يرنو اليها برهة . ومر برأس الزقاق بائع جوال ، يحمل صينية فطير ، وهو يصيح متغنيا بما ضمت من حلو لذيذ . فمد « أبو المعاطى » يده الى زاده ليتناول أول لقمة يتبلغ بها ، فاذا بيده ترتد الى قرارة جيبه ، وتستخرج ربطة النقود . وسرعان ما استوقف بائع الفطير ، فابتاع منه واحدة ، والتهمها على الاثر . وما كاد البائع يضع الصينية فوق رأسه ، ويستأنف سيره منشدا مقطوعته فى الاشادة بالفطير الحلو اللذيذ ، حتى وثب اليه « أبو المعاطى » يبتاع فطيرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة .. وألقى نظرة على ربطة النقود ، وقد خوت مما حوت : ما له وللنقود يتحسر على ما أضاع منها ؟ لقد تناول فطوره ، بحمد الله ومنه ، وهو قاصد مقر كاتب المحامى يقضى مهمته فى لحظات ، ثم يئوب الى بلده راضيا ..

وسار مجدا يدفع بمنكبيه الهواء ، فما ان قطع الزقاق ، ومال الى الطريق العام ، ووجد نفسه فى متجه المسجد ، حتى شعر بخطاه تتئد : أيليق أن يقرع أبواب البيوت فى ذلك الوقت الباكر ؟ وهل يجوز أن يذهب الى كاتب المحامى قبل أن يؤدى فريضة الصبح ؟ الى المصلى اذن ... ومضى الى المسجد حتى بلغ بابه ، فوقف يتأمل رواده بين ذهاب وأوبة . واسترعى انتباهه أنه وجد حواشى الباب وقد عشش فى كل ناحية منها سائل مستقر فى وكره ، كأنه مقامه الموروث .. وثنى طرفه الى الركن الذى كان يستريح فيه أمس حين قدومه القاهرة ، فرآه خاليا .. ها هى ذى الشمس قد سطع شعاعها منذ برهة ، ولم يعد لوقت الصلاة متسع ، فسواء عليه أن يصلى الصبح الآن أو بعد فترة . لا جناح عليه اذن فى أن يستمتع وقتا بنسيم الصباح البهيج فى ذلك الركن الظليل . فأفضى اليه ، واحتله فى طمأنينة وسكون . ومرت فترة لم يتحرك فى جلسته ، وقد أسبل جفنيه الا قليلا ، وتظاهر بالنعاس ، فسرت الى أذنه همسات مبهمة ، فألقى اليها سمعه وباله ، وأدار حوله النظر خلسة ، فاستبان له أن السائلين يتهامسون فى شأنه ، ويتغامزون به ، فأغضى ، ولم يبد لهم أنه فطن لشىء ..

وشرع رواد المسجد يتوافدون على أبوابه ، وأخذت قطع النقود تتهافت على يد « أبى المعاطى » فكان يتلقطها ويدسها فى جيبه عجولا .. ولاحظ أن من يمر به من المتصدقين يقف برهة يتفرس فيه ، ويتألم لما يبدو على وجهه من علائم البؤس والمسكنة . فأدرك أنه قد أوتى ملامح معبرة تستدر الاشفاق . وما كاد يفطن الى ذلك حتى ازدادت تلك الملامح وضاحة ، وصحبتها أنات وترنيمات تجتذب الانظار ..

وطالت الجلسة ، وتوافر المدد ، ورف على ذاكرة « أبى المعاطى » شأنه مع كاتب

المحامى ، ووعده أباه أن يعود الى البلدة فى يومه ، فاهتز فى جلسته ضجرا .. ليس بالامر المنكر أن يبقى بالقاهرة يوما على أن يعود لا محالة غدا ، أليس له بعد أن أمضى فى العمل المتواصل دهرا طويلا يكد ويجهد نفسه لمصلحة أبيه أن ينال حظا من المتعة يوما ؟ لقد اعتصر دمه فى سبيل منفعة الاسرة والقيام على مرافقها ، أفما آن له أن يستجم قليلا بعد طول الكد وفرط العناء ؟ وفوق ذلك لن تكون النقود التى جمعها من حقه وحده ، بل انه سيشرك فيها أباه . وهل يبلغ به الجحود أن ينسى نصيب أبيه مهما يكن من أمره معه ؟ أخلد « أبو المعاطى » الى هذه الفكرة ، واستقر فى جلسته ، يستنشق النسيم العليل فى الركن الظليل !..

وانطوى اليوم ، و « أبو المعاطى » فى مكانه بجوار المسجد تهبط عليه الحسنات ، فما هو الا أن يأخذها حسنة بعد حسنة ، ويودعها قرارة جيبه ، وهو هائم يتنقل بين التصورات والامانى .. وظل كذلك لا يستطيع براحا ، وحين أحس بالجوع فى بعض النهار ، تبلغ بشيء مما يطوف به باعة السوق . وما كان له أن يبارح مكانه والناس بين مقبل على المسجد ومنصرف عنه .. فلما آذنت الشمس بالمغيب ، أبصر بالسائلين المرابطين حول المسجد ينفرط عقدهم سائلا فى اثر سائل ، هذا يجر عكازته ليتحامل عليها ويظلع ، وذاك يحمل غرارته على كتفه ، وذلك يستدعى غلامه ليقوده . فقام « أبو المعاطى » يتمطى وهو يروض على السير أوصاله التى خدرها طول القعود ..

وتغلغل فى الطريق ، واخترق بعض الدروب ، فوافق سائلا ممن كانوا معه بباب المسجد يميط اللفائف التى شد بها يده الى عنقه ، وينزع الضمادة التى أدارها على عينيه ، ثم ينفتل مستقيم العود ، صحيح الجسد ، يشق حجاب الظلام بعينين تلتمعان .. ونفذ « أبو المعاطى » من الدرب الى الشارع ، وانتهت به قدماه الى مطعم ممتاز ، فملأ بطنه بما اشتهى ، وقضى ليله حيث قضى البارحة يهنأ بأعذب الاحلام ..

وفى رونق الصبح ، راع جماعة السائلين حيال باب المسجد أن « أبا المعاطى » قد شد يسراه بلفائف الى عنقه ، وتوكأ على عكازة غليظة ، وهو يدرج فى جهد واعياء .. ثم انتهى الى مكانه المختار ، فاحتله كسابق يومه ، وما كاد يستقر فى مجلسه ، حتى تعالى الحسيس حواليه ، وتزاحمت الهمهمة ، فتلفت فى خلسة ، فأبصر برفاقه يسددون اليه النظر وهم يتغامزون . ولم يطل به المقام حتى أخذت عينه قادما من السائلين لم يره من قبل ، وهو شيخ متنفخ الجثة ، مترهل الاكتاف ، ذو لحية شمطاء ، يضع على رأسه عمامة خضراء ، ويرتدى جبة تكاثرت فيها الرقاع مختلفة الالوان ، وتدلى على صدره مسبحة طويلة ذات حبات غلاظ . وجعل الشيخ يتهادى نحو « أبى المعاطى » فكلما دنا منه لمعت على وجهه سيماء الدهشة والحنق . وما ان حاذاه حتى أخذ يصوب فيه النظر ويصعده ، واشتدت همهمة الرفاق ، وتقاربوا نحو القادم الشيخ يحيونه تحية احترام وتلطف ، وسمع « أبو المعاطى » ذلك الشيخ يسأله : ــ ما أتى بك هنا ؟

فأجابه : ـ أتيت أستريح بجوار بيت الله ، وضريح السيدة الطاهرة ..
ـ هذا مكانى .. فكيف ساغ لك أن تقتحمه ؟
ـ الساحة فسيحة لمن يريد الجلوس ..
ـ قلت لك هذا مكانى ، فعليك أن تتنحى عنه !
فنظر اليه « أبو المعاطى » نظرة متفرس ، وقال فى شىء من الازدراء :
ـ ومن أنت حتى تطلب الى أن أتنحى لك عن مكان أجلس فيه ؟
ـ قلت لك هذا مكانى ، وقد اتخذته لى مثابة منذ خمسة أعوام ، اذ ورثته عن عمى ، فكيف ساغ لك أن تنتهز فرصة تغيبى لتحتله دونى . وكان عليك قبل أن تنضم الى الرفاق أن تستأذننى ..
ـ أوحسبتنى مستجديا مثلكم ؟ انما أطلب الراحة والتبرك بمجاورة الضريح المطهر ..
ـ خل عنك هذا الهراء .. لم يسبق لاحد أن يأخذ فى هذه الساحة مكانا الا اذا أجزته وعينت له مجلسه لا يعدوه ..
فلم يبد « أبو المعاطى » حراكا ، بل لبث يقلب فيه البصر ، فشعر بقدم الشيخ تركله ، وهو يقول : ـ قلت لك تنح ، والا فالعاقبة وبال عليك !
وفى هذه اللحظة برز من المسجد رجل ، فرمى بقطعة من النقود فى حجر «أبى المعاطى» ومضى لطيته ، فما كان من الشيخ الا أن انقض على القطعة انقضاض الصقر ، ولم يشعر « أبو المعاطى » الا وهو يثب على الشيخ ، ويشد على يده ، وينتزع قطعة النقود . وفى لمح البرق ألفى نفسه مشتبكا معه فى عراك عنيف ، واستمر الصدام وقتا وهما يتواثبان ويتغالبان ، والرفاق حلقة حولهما يتفرجون . وما زال « أبو المعاطى » يستشعر يقظة السطوة تسرى فى أعصابه ، ونار الحمية تتلظى فى قلبه ، وقد استحال كله أعصابا نافرة ثائرة ، حتى وجد نفسه قد أخذ بخناق الشيخ وهو جاثم على صدره ، يكيل له الضربات بجمع يده . فتخاذل الشيخ ، وندت عنه صيحات الاستغاثة والاستنجاد . فنظر « أبو المعاطى » وهو آخذ برقبة الشيخ الى الرفاق حوله بعين متنمرة ، ووجه ينم عن الافتراس والحدة . فتصاغر الرفاق ، وتداخلتهم الخشية ، ولم يجرؤ أحد منهم على أن ينتصر للشيخ العميد . فلمح « أبو المعاطى » فى هيئتهم معنى التهيب له ، والرهبة منه ، فارتد الى فريسته يقلب فيها النظر ، فاطمأن الى أن الشيخ لم يعد بقادر على أن ينازله ، فتركه ملقى على الارض ، وعاد الى مكانه ، وجلس فيه جلسة التأمر والتنفخ . وهو يسوى من ثيابه ، ويمسح التراب عن وجهه . وبعد قليل نهض الشيخ كسير الخاطر ، مستكين النفس ، وانتبذ ناحية قصية يأمن فيها جانب ذلك الشيطان العنيد .. وتنفس « أبو المعاطى » تنفس الارتياح ، وتلمس هراوته ، فقرع بها الارض فى نشوة ، وقد برقت على فمه ابتسامة خبيثة ، وأخذ يرمق جمع الرفاق بعين ملؤها السيطرة والاستطالة . وتفرق الجمع فى سكون ، كل يسعى الى ركنه المختار ..

وعجب « أبو المعاطى » من نفسه : كيف استطاع أن يذل هذا الطاغية ، وأن يقهر ذلك البنيان الشامخ ، وأن يجعل رأسه فى مواطىء الاقدام ؟ ولكنه تذكر أطراف حوادث وقعت له فى الحقل ، فمرة كبح جماح ثور أفلت من محراثه ، ومرة أدار ساقية ثقيلة بقوة عضديه .. واتسعت ابتسامته ، حتى أضاءت جوانب محياه ، ولم يطل به المقام حتى أحس قدمين تدبان عن كثب منه ، فطأطأ رأسه ، وقلص قسمات وجهه كالضارع المتألم ، وتمتم بألفاظ حبيسة . فسقطت قطعة النقود فى كفه ، فأودعها من توه جيبه ، واستأنف تمتمته آمنا ..

وفى غداة اليوم التالى ، هب « أبو المعاطى » من نومه مبكرا ، وعجل الى مكانه من المسجد ، فما ان أشرف عليه من بعيد حتى لاحت له العمامة الخضراء تحتل موضعه المكين، فاندفع مهرولا وقد شد على هراوته ، واذ قارب المكان وجد شيخ أمس متمكنا فى جلسته ، تحيط به شرذمة من أتباعه ، فاتجه « أبو المعاطى » اليه صامتا ، وما شعر الا أن امتدت يده فى قساوة وغلظة تأخذ بتلابيب الشيخ ، وتقصيه عن مكانه . ولكنه لم يكد يفعل ، حتى رأى الاتباع يتألبون عليه ، ويتقسمونه ضربا وجيعا ، ولكما شديدا . فأحس ثقل الوطأة عليه ، وتوقع الهزيمة توشك أن تحل به ، ولمت فى مخيلته حسنات النقود وهى تنهمر على حجره ، وتمثلت لخياشيمه روائح الشواء يطعمه شهيا ، فاذا الهراوة تستيقظ فى يده غضبى . وفى خطفة البرق راح يخبط بها فى الجمع خبط عشواء ، مشمرا فى متابعة الضرب ذات اليمين وذات الشمال . فما هو الا أن تقوض الجمع عنه ، وولوا فرارا منه ، غير مصيخين الى نداء الشيخ واستغاثته . وتقدم قزم من الاتباع الذين لم يكن لهم فى المعركة نصيب ، فتقرب من « أبى المعاطى » وتشبث بثيابه ، وهو يصيح :

ــ فليحمك الله .. ليس للامر الا أنت !..

وهنا تعالت صيحات تؤيد قول القزم ، وأبصر الصائحين يتدانون منه ، ويتلطفون به ، وينفضون الغبار عن جلبابه . فعاد « أبو المعاطى » يتخطر فى خطوات وئيدة الى مكانه المعهود ، واقتعده مزهوا منتفخ الصدر .. فأما ذو العمامة الخضراء ، فقد كان يرتد الى الناحية القصية التى لاذ بها أمس ، وارتمى فيها متكورا يتكمش بعضه فى بعض !..

وفى اليوم التالى ، تجلى « أبو المعاطى » قبالة المسجد ، وهو يضع على رأسه العمامة الخضراء الضخمة ، ويرتدى الجبة المتكاثرة الرقاع ، المختلفة الالوان . وعلى صدره المسبحة ذات الحبات المائة الغلاظ . وقد التف حوله الاتباع يحيونه تحية التودد والاكبار .. ثم جعل يتهادى فى مشيته ، حتى وصل الى مقعده الظليل ، فاطمأن فيه ..

وطاف برأس « الشيخ أبى المعاطى » طيف والده ، وهو يسائله عما فعل ، وعما ادخر من النقود ، فشعر بالهراوة تتحرك بين أنامله ، فدق بها الارض بضع دقات ، وقد كشر عن أنيابه ، وانبعثت من حلقه قهقهة شيطانية ساخرة ..

محمود تيمور

من قصص التاريخ الاسلامى

عبيد الله بن الحر

بقلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد

تعالج هذه القصة فترة من أهم فترات التاريخ الاسلامى ، وبطلها عبيد الله بن الحر الجعفى فارس مشهور من فرسان العرب فى صدر الاسلام

كانت الكوفة مثل البصرة ، تضطرم وتفور ، لا يكاد يمر فيهما يوم بغير هبة من جانب ، بين حى من الاحياء وحى آخر من جيرانهم . قد انفرط العقد فى كل مكان ، وعادت صيحات القبائل الى ما كان عليه عهدها ، اذ الناس فوضى فى جاهليتهم ، من عز فيهم بز ، ومن غلب استلب . مات يزيد بن معاوية ، وتحركت الاطماع فى دولته من كل جانب ، وصاحت القبائل العراقية صيحات العصبية ، هذه بكر بن وائل ، وهذه تميم ، وهذه الازد ، كل منها يدعو لنفسه ، ويلتمس الحلفاء من القبائل التى كانت لها صديقة فى الجاهلية

وآثر ابن الحر أن يعتزل فى بيته فى هذه الفتن الجارفة ، عبيد الله بن الحر الجعفى ، الذى قضى عمره فى النضال مدى أربعين عاما — آثر أن يقيم فى بيته تباعدا عن تلك الفتنة العمياء . وما له وهذا النضال الجديد الذى أثاره طلاب الملك من كل جانب ، لقد شهد فى حياته صنوفا من العواصف منذ مقتل عثمان بن عفان ، وشارك فى كل المعامع التى ثارت بين الاحزاب ، ولكنه خرج من ذلك العراك الطويل بمرارة الخيبة ، بعد أن تكشفت له حقائق الناس مرة بعد مرة ، فعرف ما فى الحياة من نفاق وخداع ومن كذب ودناءة . كان قلبه

الفتى منذ أربعين عاما يمتلىء بالدعوة الى الحق ، ولا يبالى أن تسفك دماؤه فى نصرته ، ولا يرضى فى جهاده الا بأن يكون فى صدر الاخطار . ولكنه بعد هذه السنين الطويلة ، لم ير الا أن النضال كان دائما بين جموع من الناس تتدافع وتتنازع ، لا تبغى من وراء ذلك الا سلطان الحياة الدنيا . لم ير فى كل ما مر به الا نضالا على الحكم ، ونزاعا دمويا على السيادة . كان يسمع فى كل موطن من مواطن القتال صيحات الحق والعدل تتجاوب من كل جانب ، حتى اذا ما انجلى قتام الحرب وعاد السلام ، لم ير الا طمعا فى الاموال والزخارف ومفاتن الحياة . فما الذى يدفعه بعد ذلك كله الى خوض نضال جديد ، أو اقتحام فتنة جديدة ؟ ألم يشهد أيام القادسية وجلولاء ونهاوند اذ هو شاب فى جيوش الجهاد ؟

لقد مضى من المجاهدين من مضوا، ولم يبق من بعدهم الا من يحرصون ومن يتنازعون على الغنائم . لم ير ابن الحر فى الكوفة ولا فى البصرة ولا فى الشام أو مصر سوى قبائل يثور بعضها ببعض ، تتنازع على اصطياد الرياسة والخلافة . فما أحراه أن يلزم داره ويباعد ما بينه وبين هذه الفتن المضطرمة

كان ابن الحر يريد أن يذوق شيئا من السلام الى جوار امرأته الحبيبة أم توبة ابنة عمه سلمى الجعفية ، التى تزوج منها وقد نيف على الستين ، وكانت فتاة فى بضع العشرين ، تملأ بيته بهاء كلما خطرت فيه بقوامها اللدن النحيل ، وتشيع فيه السلام كلما نظرت اليه عاطفة بعينيها السوداوين الواسعتين ، وتنسيه ضيق الحياة وضجيجها كلما حدثته حديثها العذب بصوتها الرخيم ، وتغمره اعجابا وحبا كلما ناجته فى أمر من الامور . فقد كانت أم توبة كلها روحا وذكاء وطهرا . كان لا يحس اذا جالسها بما يفرق بينهما من عدد السنين ، فان قلبه عاد معها فتيا ينبض ويخفق كما كان فى العشرين ، وكانت هى فى عقلها وحكمتها ونقاء نفسها لا تتضاءل عن مثل عقله وحكمته ونقاء نفسه فى موضعه من الستين

لم تستدرجه الانباء التى كانت تترامى اليه وهو معتكف فى داره ، ولم تغره الفتن المتعاقبة على أن يعود الى معامع النضال القاسية ، فسمع أن البصرة تضطرب ، وأن أميرها ابن زياد هرب لائذا بالشام . ثم سمع ان الشام تتنازعها الاهواء بين صبية بنى أمية من ولد يزيد بن معاوية وبين مروان بن الحكم شيخ قريش ، وسمع أن عبد الله بن الزبير يدعو الى نفسه ، ويبعث البعوث الى الامصار يستميل أهلها وشيوخها ، وينازع بنى أمية ملكهم كما كان ينازعهم فى عهد يزيد وأبيه معاوية . ولكنه سمع هذه الانباء عفوا ممن كان يزوره فى داره من أصحابه ، ومن أولئك الفتيان الذين كانوا لا يفتأون يلتفون حوله فى مجالسه ، وينظرون الى شيخوخته الباسلة الهادئة فى اعجاب يشبه التقديس

ولكنه كان لا يهتز الى شىء من تلك الانباء ، وبقى على عزلته بعد أن ذاق ما ذاق من مرارة الاخفاق ، وبعد أن تكشفت له الحقائق الجاهمة الشوهاء . فانه لم ير فى زعماء الامصار الا طلاب أسلاب

وماله وكل هذا النضال التافه الذى لا ينطوى على جهاد فى الحق ؟ أليس الاولى به أن يقضى ما بقى من حياته فى أمن ودعة فى جوار ابنة عمه الحبيبة ؟ أليس من حقه أن يذوق السلام فى شيخوخته بعد أن قضى العمر فى خوض المعارك الدامية ؟

كان ابن الحر يحس فى قلبه قشعريرة تشبه مس الحمى كلما تذكر الدماء التى أسالها فى حروبه . كان يبطش ويفتك لا يقف فى سبيله شىء ، ويحس أعظم السعادة كلما رأى الدماء تسيل على شفار سيفه المقوس الباتر . أما تتركه تلك الدماء حينا وادعا حتى يخرج من الدنيا نظيفا من دماء أخرى ؟

كان يتمنى لو استطاع أن يبعد عن تلك الفتن الثائرة ، ولكنه مع ذلك كان لا يملك نفسه من الهزة التى تعتريها كلما سمع أنباء الاضطراب ، اذ كانت نفسه تنازعه برغمه الى ضجة الميدان ، وان كانت قد ركنت الى السلام فى البيت الذى تزينه أم توبه

ولكن مهما يكن من ابن الحر فى تقلب أهوائه بين الدعة والاضطراب ، فان الاحداث ما كانت لتدعه فى عزلته ، فقد كانت عيون أهل الكوفة تتطلع اليه كلما جد جديد من الكوارث

كانت ليلة من ليالى الصيف بعد بستة وستين عاما من الهجرة ، وكانت ليلة حارة من الليالى التى لا تكاد الانفاس فيها تنطلق ، والغبار الثائر فى الهواء ينعقد مع الابخرة فى ضباب كثيف لا يكاد المرء يتبين فيه من دونه على خطوات . وأحس ابن الحر ضيقا زعزعه فصعد الى سقف داره بالكوفة لكى يقضى الليلة تحت السماء مطلا على الصحراء ، لعل نسمة من صوب الشمال تزيح الضبابة الجاثمة ، فيستطيع أن يتنفس ملء صدره ، كما اعتاد أن يملأ صدره اذ كان يضرب فى فياف اليمن قبل أن ينزل ذلك المصر . وكان كلما زاد به الضيق وضنت النسمات بهباتها ، تذكر الامنية التى كانت تتردد عليه بين حين وحين ، أن يعود بابنة عمه الى بعض وديان اليمن فيقيم فيه معها بعيدين عن تلك العاصمة المضطربة — تلك الامنية التى كانت تدفعه حينا فيهم بانفاذها ويكاد يلبى فيها هواه ، ثم لا يلبث أن يقعد وتفتر همته اذ تمسكه فى الكوفة أموال اعتقدها وضيعة من الارض فى الريف تملأ خزائنه بما تخرجه أرض العراق من خيرات

ثم طرق باب الدار واستأذن عليه قوم من أصحابه . فشعر بقبضة زادت أنفاسه ألما . فماذا يبغى الناس منه وقد اعتزلهم وباعد ما بينه وبينهم ؟ ولم لا يضطربون وحدهم ما شاءوا ويقتتلون على الحياة اذا أرادوا بعيدين عنه ، ويخلون بينه وبين عزلته التى اختارها ؟ لم يبق له من أرب فى نضالهم بعد أن باخت حماسته . وأصبح لا يعتقد فى صدق ولا فى عدل . انما هو جهاد الاطماع فى سبيل الغلبة ، وليس له من حرص على شىء من ذلك الجهاد السخيف

ولكن أصدقاءه جاءوا يستأذنون عليه ، وقد علم أنهم ممن لا يستطيع أن يتنكر لهم أو يردهم بالخيبة عن بابه . فهم من فتيانه الذين يجتمعون حوله ويتطلعون اليه . طالما عاهدهم

وعاهدوه وحالفهم وحالفوه على نصرة الحق اذا هدده الطغيان . وما كان يستطيع أن يتنكر لهم ، ولا أن يذيقهم مرارة الخيبة التى ذاق من قبل أمثالها

قام من مجلسه فاترا ولبس عباءة من الديباج الاصفر وخفا من جلد لين أحمر ولف على رأسه عمامة من ثوب يمنى ، ثم مس بعض الطيب ومسح به لحيته وكانت لا تزال سوداء تناثرت فيها شعرات بيضاء كأنها ندف من القطن علقت بها عفوا . ثم نزل متثاقلا حتى بلغ رحبة الدار ، وكان فيها مجلس للاضياف ، فوثب الفتيان منه وقوفا يرحبون به فى حرارة

كانوا جماعة لا تضمهم رابطة من عصبية ، بل جمع بينهم الحنق الذى يملأ قلوب الشباب مما يؤول اليه الامر الفاسد . رأوا كل يوم واثبا من ناحية يطلب الامر اذا وجد من حوله جماعة ينصرونه ، ولم يجدوا فى حيرتهم من يلجأون اليه غير صاحبهم الشيخ الباسل الذى طالما ذاكروه الحق ، وناظروه فى واجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر

ودار الحديث بين الجمع ، فلمح ابن الحر من قولهم ما جاءوا من أجله ، فجعل يردهم فى رفق ، ويرجعهم عن نفسه فى تجمل . وطالت بينهم المناظرة فعجب الفتيان كيف تقلب ابن الحر وتغير ، وكيف يقنع أن يقيم فى عقر داره وقد اشتعلت الفتنة ، وهو الرجل الذى بنى مجده فى معترك النضال .أيكون قد أثقله الغنى وداخله الجبن حرصا على الحياة؟ وتجرأ شاب منهم فقال له :

ـ أيجمل بك الاحتجاب يا أبا الاشرس وهذه الحال كما ترى ؟

فقال ابن الحر باسما : لقد أصبحت يا بن أخى لا أرى . .

فقال الشاب وقد أحس فى جوابه شيئا من الاستخفاف : ما عهدناك الا ذا بصر وبصيرة يا شيخ جعفى . .

فأطرق الشيخ لحظة وملك نفسه ثم قال :

ـ لقد علمت حسن رأيك يا جرير بن كريب ، ولكنى أثرت أن أعكف على صلاتى .

فقال جرير فى شىء من اللجاجة : ولقد عهدناك مصليا لم تمنعك الصلاة عن نصرة الحق

فلم يملك ابن الحر أن تبسم وقال فى دفعة : الحق ؟ أين الحق يا ولدى ؟

فتحرك القوم قلقين ، وقال أحدهم فى صوت أجش :

ـ أأنكرت الحق يا أبا الاشرس وقد طالما نصرته ؟

فعاد ابن الحر الى الاطراق ، وانعقدت على وجهه عبسة وقال بعد قليل :

ـ وكيف أنكر الحق وقد قضيت العمر أنصره ؟ الا انى قد رأيت الناس قد صار أمرهم الى فتنة عمياء . أما سمعتم عبد الله ابن عمر صاحب الرسول يقول : « انها فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ؟ » ألا ترى ذلك يا أخا الازد ؟

فقال الرجل معبسا : انها كلمة قالها ابن عمر ليدارى بها ضعفه ، وما أنت وابن عمر ؟

فتحرك ابن الحر فى شىء من الالم وقال :

ـ مهلا يا عمرو بن جندب ألم يكف هذا العالم من قد وثبوا به ؟ ألا يكفيك أن ترى فى الشام مروان ، وفى البصرة ابن الزبير ، وفى فارس ابن الازرق ، وفى خراسان ابن حازم ؟ أتريد أن نثب نحن كذلك على الكوفة فنزيد فى الفتنة عصبة أخرى ؟ وما الذى جد فى أمرنا حتى نتحدث عن هذا الامر ؟ لقد أسلمت الكوفة أمرها الى ابن الزبير ، وما نحن والبصرة الا جناحا هذا العراق . ان فى البصرة لقوما لا يقلون عنا عددا وليسوا دوننا شرفا ، قد أسلموا أمرهم الى ابن الزبير طائعين بعد أن ذاقوا مرارة الفتنة فيما بينهم. ألا تعرفون ما ذاقت البصرة من الويل اذ وثبت بكر بتميم ووثبت تميم بالازد ؟ ألا تذكرون ما حل بالبصرة من دمار وخراب ؟ أتحبون أن ينزل بهذا المصر ما نزل بأخيه من قبل ؟ هذا هو الاحنف بن قيس سيد تميم بالبصرة ، وهذا بكر بن وائل مع مالك من مسمع ، وهذه الازد مع ابن عمرو ، قد اتفقوا جميعا على أن ينجوا من الفرقة وبايعوا لابن الزبير . أتريدون أن تبعثوا الحرب جذعة فى الكوفة ؟

وكان ابن الحر يريد أن يستمر فى حجته ، لولا أن قاطعه أحد الفتيان صائحا :

ـ لقد صدقت يا بن الحر ـ انك لست ترى شيئا

فخجل الشيخ وعبس عبسة مظلمة ، والتفت الى الفتى غاضبا وقال :

ـ ألمثلى يقال هذا يا مجشر ؟ أما والله لولا علمى بما عندك من المودة لاجبتك جوابا لا ترضاه

فقال المجشر معتذرا : لم أقصد يا أبا الاشرس كل ما هم بنفسك . ولا أقصد الا أن أقول لك انه قد جد فى الامر جديد لا تعرفه . وقد كنا نحسبك قد سمعت بما كان

فسكن ابن الحر وقال هادئا : وما ذاك الذى استجد يا مجشر ؟

فقال الشاب فى حنق : خرج ابن أبى عبيد ـ المختار بن أبى عبيد الثقفى وهو من قد عرفت ـ وثار أتباعه اليوم فقتلوا الشرط ، وهرب الامير ابن مطيع عامل ابن الزبير

فوجم ابن الحر ، ونظر الى القوم فاتحا عينيه كأنه لا يصدق ما يسمع ، ثم قال فى شىء من العنف : أو قد تجرأ الرجل ؟

فاستمر المجشر قائلا : تجرأ منذ نصره ابراهيم بن الاشتر وحى همدان

فقال ابن الحر فى دفعه : ابن الاشتر ؟

وتحرك القوم فى قلق ، ونظروا الى الشيخ ينتظرون تتمة قوله ، وبعد حين قال :

ـ أما انها لغمرة .. كنت أعلم أن هذا الرجل لا بد موقد نارا فى يوم من الايام ، ولكنى ما كنت أحسب ابن الاشتر يطيعه ..

فصاح جرير : لقد عرف ابن ابى عبيد كيف يشتريه .

فهز ابن الحر رأسه وقال فى بطء : نعم انما هى صفقات بيع وشراء .. لقد كنت أعرف أن مثل ابن أبى عبيد لا يفوته أن ينتهز الفرص . ولا أظنه الا قد خرج مناديا بدم الحسين

فصاح الجمع قائلا : هى صيحتهم : يا لثارات الحسين !

فقال ابن الحر فى حنق : برىء الحسين منهم ! ان مثله من يفعل هذا . أشهد لقد سمعت الصادق يحكى عنه أنه ما كان يبغض فى الناس أكثر من بغضه عليا وولد على

فقال المجشر بصوته الاجش : وهذا هو اليوم يزعم أنه مرسل من قبل محمد بن على ليثأر لاخيه ، ويطالب بحق بيت النبى

فقال ابن الحر وكأنه فى حلم : ما أكثر ما يتستر الناس بالحق ليبلغوا الباطل . لقد طالما كان الحق مطية للباطل

وأخذ كل من الفتيان يصف ما علم من حال المدينة وما صارت اليه أمورها ، ثم صاح المجشر متحمسا :

ــ فنحن اليوم بين أمرين لا غنى لنا عن الاختيار بينهما : نقيم فى يد المختار الثقفى ، أو نخرج فننجو بقلوبنا ودينا

وشمل الجمع سكون مدة لحظات طويلة كانوا فيها ينتظرون جواب ابن الحر . كانوا ينظرون اليه ويرقبون حركات وجهه اذ هو مطرق واجم محمر الوجه . ويرهفون الاسماع لما ينطق به كأنما ينتظرون صوت القضاء. وكان ابن الحر فى اطراقه يفكر وتتقاذفه الخواطر وتتجاذبه الميول . أيخرج عن عزلته التى يركن اليها ، وأمل أن يبعد فيها عن الفتن ليذوق السلام فيما بقى له من أيام ؟ أم يتبع فتيانه ويعود الى المامع القاسية مرة أخرى غضبا من أن يتولى الامر من ليس له بأهل ؟ ومن يكون له الامر من بعد اذا هو لم يقع فى يدى ابن أبى عبيد ؟ أيكون لابن الزبير الذى سمع ما سمع عن حرصه وفظاظته ؟ أم يكون لهذه الصبية من ولد يزيد بن معاوية ؟ أم لذلك الثعلب الشيخ مروان ابن الحكم ؟ أم يقع الامر لاحد هؤلاء الخوارج الذين ملأوا الارض صياحا ينادون بالحق وهم يفتكون ويعصفون بالحق ؟ لقد ذهب الذين كانوا أمناء على هذا الامر ، ولم يبق فى الارض من بعدهم الا هؤلاء الذين يشترون ويبيعون . لا. لا. فما هو فى شىء من أمرهم ، وليبق فى عزلته فيفوز بما يستطيع أن يفوز به من الامن والدعة حتى يلحق بالذاهبين الابرار

ورفع ابن الحر رأسه فى بطء وقال :

ــ أيها الشجعان ! لا أحسبكم تظنون بى الجبن عن خوض الحروب ، فلقد كنت كما تعلمون قرين الاخطار ، ولكنى رأيت هذا الأمر قد صار الى منازعة الاطماع بعد أن ذهب الاوائل بالحق الى القبور . فاذا أنا اليوم قاتلت ، فلن يكون قتالى الا فى سبيل بعض من يريد شراء عرض من أعراض هذه الدنيا . ولن أبذل فى سبيل هؤلاء نقطة من دماء المسلمين . لا لن أكون فى مثل هذا أبدا

فعاد السكون لحظة أخرى طويلة ، وتردد الفتيان بم يجيبون ، وهم بين هيبة شيخهم

وحنقهم من تخذيله اياهم . ثم انفجروا غاضبين ، وجعل كل منهم يلقى اليه سهما من قوله ، وقام ابن الحر غاضبا مما جبهوه به ، وقال فى صوت متهدج : لقد بلغتم من عمكم فحسبكم !

فأحسوا عند ذلك الخجل مما قالوا وطأطأوا رؤوسهم ، وقاموا وهم يكتمون ما على ألسنتهم من ألفاظ الحنق ، ولكن المجشر التفت نحوه وهو منصرف وقال :

ـ أو تحسب يا أبا الاشرس أنك تقيم فى دارك آمنا ؟ والله لتعودن الينا اذا رأيت الطلب حثيثا فى آثارك . والله لن يتركك ابن أبى عبيد فى أمنك هذا . أقعد ما شئت فسوف يحتوشك الكلاب . ولئن عدت يوما الى ما ندعوك اليه الآن لتجدنا سراعا الى تلبية ندائك

ثم ذهبوا سراعا وهم صامتون ، وعاد ابن الحر الى مجلسه من ابنة عمه ، فأفضى اليها بما كان . وجعل يحدثها ويعيد عليها حجته التى رد بها الفتيان ، وكأنه أراد بذلك أن يسمع منها ما يقوى به نفسه ، اذ أخذ يشعر أنه قد خان الفتيان فيما عاهدهم من قبل عليه

ونظر الى سلمى ينتظر جوابها ويستوحى خاطرها ، فقالت وقد علمت ما يريد :

ـ أحسنت والله يا ابا الاشرس لو أن المختار يدعك وما أنت فيه . ولكن أكبر ظنى أن المجشر قد صدقك الوعيد . .

فاطرق ابن الحر حينا وكأنه زاجر بالطير قد تشاءم بالبارح ، وجعل يفكر فيما يكون ، ويكاد يرى حوادث المستقبل الجاهمة تمثل أمام عينيه . ولكنه كتم ما ثار فى نفسه من الهواجس ، ورفع رأسه وتكلف الابتسام ، وقال لامرأته فى قلة مبالاة :

ـ والله لو تعرضوا لى لما وجدونى كليلا . .

ثم انتقل معها بالحديث الى حيث كانا من قبل يتناجيان .

***

مر الصيف ومضى من بعده الشتاء ، وأقبل الربيع فى موكبه تهب فيه الريح رخاء ، وتسرح السحب البيضاء فى السماء الزرقاء ، يتخللها حاجب الشمس الوضاء والمرج فى حلته الخضراء ، والزهر يبسم للحياة الجديدة . وكان ابن الحر فى سبعمائة من فتيانه يقيمون بأرض السواد فيما يلى المدائن ، قد عسكروا هناك يستجمون بعد رحلة طويلة هبطوا فيها من الجبل لكى يأخذوا نصيبهم من أموال المسلمين قسرا

لقد صدق ما تنبأ به المجشر . ولم يستطع ابن الحر أن يقيم فى الكوفة آمنا فى عزلته . كان هناك فى مكانه الملحوظ لا يستطيع الا أن يكون موضع الأمل والخوف ، والا أن يكون مع قوم أو عليهم . كانت عزلته متهمة وكان زهده فى الأمر مستنكرا . بعث اليه أشراف الكوفة أن يشاركهم فى الائتمار على المختار ، فلم يجب ورضى أن يتعرض لحقدهم غير آبه لشىء من سوء ظنهم . ولكن المختار ظن به الظنون ، اذ لم يره فى الوافدين عليه أو

السائرين فى مواكبه . فأوفد اليه الرسل يدعوه اليه ، فرد الرسل معتذرا ولم يذهب اليه، ثم ألح عليه المختار ولج هو فى الاباء حتى ساء ظنه به وأطاع وساوسه فيه . ثم أتاه الفتيان يوما يحملون اليه نبأ ما يدبره المختار للايقاع به ، فلم يكن له بد من الخروج معهم وقال لهم : « لقد بين الصبح لذى عينين » . ثم غادر الوطن معهم ، وخلف ابنة عمه وراءه ، وأمسك قلبه أن يخونه عند الوداع

وبقى فى فتيانه يجوسون خلال سواد العراق ، قانعا أن يأخذ من أموال الدولة نصيبه ونصيب أصحابه ، فكان يترصد للقوافل التى تحمل المال من الريف الى الكوفة ، فيأخذ منها ما يراه حقه وحق أصحابه ، ويكتب لصاحب القافلة براءة بما أصابه من المال ، ثم يعد الى الجبل ليقيم فيه بمن معه أحرارا بمنجاة من الفتن

وكان يوما عاصفا من أيام ذلك الربيع وقد مالت الشمس الى الغرب ، وصبغت الافق بألوان الشفق ، واضطرب الهواء ، يخز الوجوه ببقية من برد الشتاء — برد أصم يكاد من جفافه يشقق جلد الشفاه والاجفان

ونزل ابن الحر وفتيانه فى وهدة ملتفة الشجر عند المدائن، يكمنون فيها حتى لايبصرهم من يسير على الطريق الواضح . وأقاموا على مداخل الوهدة ربيئة تحرسهم من أرصاد العدو ، وجلسوا حول حفرة أوقدوا بها نارا وجعلوا يتذاكرون ما مر بهم من أحداث ذلك اليوم الملىء . فقد بدأوه بغارة على ضياع قوم من همدان ، ثم ختموه بغارة على قافلة أخذوا من مالها نصيبهم ، وكتبوا بما أصابوه منها براءة لصاحب القافلة على ما اعتادوه . وكانت رحالهم وأحمالهم مبعثرة فى أطراف الوهدة تتخلل الشجر ، وتغطى الساحات الفسيحة التى بين الدحال الملتفة ، بعضها قائم وبعضها ملقى على جانبه فى غير نظام ، تنبىء كلها أنها ألقيت على عجل ، وأن أصحابها لا ينوون الاقامة هناك الا قليلا . وبقى الجمع فى سمره حتى غابت الشمس ، فهبوا جميعا للصلاة يؤمهم ابن الحر ، وهم من ورائه فى صفوف تضيق وتتسع بما ينفسح لها من الفضاء بين الشجر حتى اذا ما انتهوا من الصلاة ذهبوا الى رحالهم يلتمسون عشاء أو يستريحون ، وبقى ابن الحر مائلا على النار مفكرا ، ينظر الى لهيبها ويرى فيه صورا ينسج منها خياله قصة بعد قصة ويحمله على أجنحته الى الكوفة والى داره التى خلف فيها أم توبة من ورائه . وكان بين حين وحين ينظر نحو الغرب قلقا يحاول أن يرى ما بين الشجر فى ضوء القمر ، ثم يعود الى اطراقه ويميل على النار يتأمل ما تخيله له من الصور . وكان القمر قد توسط السماء وأوشك أن ينحدر الى الغرب ، عند ما لاح له شبح راكب يسرع بين الاشجار ، فقام نحوه فى لهفة حتى لقيه وقلبه يخفق قلقا الى ما يحمل من الانباء ، فنزل الراكب وسلم ، ثم سار الى جنبه صامتا كأنه يخشى أن يجهر بما يحمله . وبعد ريث قال فى صوت المواسى :

— لا يرعك ما حلت اليك يا ابا الاشرس . فشمر الى الحرب ولا تمهل

وكان هذا القول كافيا ليفهم ابن الحر كل ما يريد صاحبه أن يقوله ، وكأن نفسه المرهفة قد أوحت اليه بكل ما كان . وقص الرجل عليه قصة قصيرة اذكت فى قلبه نارا تتأجج . فصاح بصوت ترددت أصداؤه فى الليل الساجى : يا غوثاه !

ثم ارتمى على جذع نخلة ووضع رأسه بين يديه . فتحركت الاغطية فجأة فى جوانب الرحال المنثورة بين الشجر ، وتهاوى الفتيان الى شيخهم يترنحون من أثر النعاس حتى التفوا به وجعلوا يتساءلون عما أصابه . فقص عليهم الرسول قصته :

ـ انتهب المختار ضياع ابن الحر وأحرق داره ، وساق امرأته سلمى النبيلة الى السجن

وانحدر القمر الى الغرب وطلع الفجر ، وكان ابن الحر وأتباعه سبعمائة فارس يمسحون بسنابك خيلهم عقود الندى الغزير المخيم على البساط الاخضر من عشب المرج عند مداخل الكوفة . ثم تسللوا من جبانة السبيع الى موضع السجن

كان الحراس قد هدأوا وغطوا رؤوسهم بالاقبية الصوفية الغليظة يستدفئون من البرد القارس ، ويصيبون من النوم اغفاءة فى السحر بعد أن تصرم الليل ، فأيقظتهم أصوات فتيان ابن الحر عند رؤوسهم يحطمون أبواب السجن ، وأفلت منهم من استطاع أن يهرب ، وما هى الا لحظات حتى كانت صيحات الفرسان تتردد فى سراديب السجن ، وانطلق ابن الحر يعدو فى تلافيف الحجرات والسيف مصلت فى يمينه وهو ينادى: «أم توبة! هذا ابن عمك أم توبة ! » فلما بلغ أقصى السجن سمع صوتا ضعيفا كأنه ينبعث من تحت أقدامه : « الى يا أبا الاشرس ! »

فاندفع كأنه الاسد الجريح نحو الباب المطاطىء الذى دونه فحطمه بدفعة من جسمه وطعن من رمحه ، ولم ينتظر حتى يجد آلة تعينه ، فاذا به يرى أمامه امرأته الحبيبة شبحا أصفر لا تكاد تقوى على الوقوف . فاحتملها بين يديه وعدا بها وهو صامت اللسان خافق القلب يمسك دموعه وهى تنازعه ، ويغالب اضطرابه ولا يكاد يغلبه ، حتى اذا بلغ رحبة السجن وجد أصحابه لا يزالون يضطربون ويحطمون ، فصاح بهم : « أطلقوا من تجدون فى حبس الطغاة . . »

ثم انتحى بابنة عمه ، فوضع عليها عباءته وفتح لها ذراعيه ، وقال لها : فداك دمى أيتها الحبيبة !

فاندفعت سلمى بين يديه باكية وهى تغمغم قائلة : نعم فتى الفتيان !

فقال ابن الحر وقد انطلق لسانه : اطلعى على أيتها الحبيبة كما تطلع الشمس المشرقة ، لقد بدا لى السجن كأنه السماء الصافية عند ما نظرت اليك فيه فانجلت ظلمته واتسعت حجراته التى تضيق على الدبى ، فاذا بها كأنها العالم كله . انت لى كل ما فى هذا العالم يا بنت الاكرمين . ويل هؤلاء الطغاة ما أغلظ قلوبهم اذ امتدت أيديهم اليك ، فيا بؤسا لهم وسأشفى منهم الغليل

فقالت أم توبة تهدىء من ثورته : لا عليك يابن العم فقد أمتعنى الله بك ..

فضمها الى صدره كما تضم الحمامة فرخها الى جناحها ، وقال وهو يهدر فى ثورته :

ـ لقد كنت أنا المحبوس المعذب بحبسك . وكنت أنا المظلوم بظلمك . ووالله لأثيرنها عليهم نارا لا تطفأ وزلازل لا تبقى ولا تذر . ولاوقعن بهم وقائع لا تبرح حتى تدك صرحهم الخاوى الذى لا قوام له الا على مثل هذا الجرم الشنيع

وفيما هو فى ذلك سمع حوافر خيل مقبلة ، فعلم أن عدوه قد نذر به وأرسل فى طلبه ، فأسرع الى فرسه وصاح فى فتيانه : هلموا الى الجبابرة الأنذال ..

وسارع الفتيان اليه وركبوا من حوله وهو مردف حليلته من خلفه ، حتى خرجوا من السجن ، وكان صداما عنيفا

***

هدأ الليل وخيم الظلام فما تلوح فيه بارقة من النور ، وأغلق الناس أبوابهم عليهم ، ولم يبق الا العسس الذين يجوسون خلال الطرق على الخيل ، جردوا السيوف وأشرعوا الرماح ، يلتمسون من يكون قد حدث نفسه بوثبة أو اعتزم أن يهرب ناجيا من المدينة الصامتة . قد سكنت أنفاس الكوفة بعد أن كانت لا تستطيع الخمود وهدأت وهى التى لم يقو على كبح جماحها واذاعة الرعب فيها من قبل زياد ولا ابن زياد . كانت النجوم تلمع فوق الطرق الخالية الموحشة كما تلمع فوق المقابر المهجورة ، لا يبص شعاع من النور من باب مفتوح ، ولا يعلو صوت طفل فى دار حية ، كأن الموت قد نشر جناحيه على المصر كله ، وجعله خامد الأنفاس

وكان حميد بن مسلم يسير متسللا بين البيوت المظلمة ، ويتدسس فى منعرجات الطرق وهو يتلفت ويترقب اذ هو متجه نحو جبانة السبيع ، يرجو أن يبلغها قبل أن يدركه الصباح حتى ينجو بنفسه من هؤلاء الشرط ـ شرط المختار بن أبى عبيد ـ الذين لا تفتر لهم حركة فى ليل ولا فى نهار ، يسيرون فى كل مكان لا يكاد يخلو منهم طرف من أطراف المدينة ، يذيعون الرعب بطلعة وجوههم الجاهمة . ما كان حميد بن مسلم ليأمل فى النجاة من الموت لو رآه أحد هؤلاء ، ولهذا كان يسير كأنه أفعى تنساب من جحر الى جحر ، ولا تزال تتمثل له صورة صاحبيه المسكينين عبد الله وعبد الرحمن ابنى صلخب ، يراهما أمامه كلما انعطف فى طريق . كانا يسيران معه يبغيان النجاة من الكوفة ، ولكن سوء الحظ عثر بهما فرآهما بعض هؤلاء الشرط ، فما أقبل الليل عليهما حتى كانا جثتين معفرتين تكشران عن الانياب على قارعة الطريق فى السوق . فكان يخيل الى حميد أنه يراهما وراءه يصرخان ويستنجدان به ، فيلتفت مذعورا الى ورائه ، ثم ينعطف فى أول درب يراه لعله يتخلص من الحاح هذه الصورة التى تتبعه أينما اتجه . وفيما كان حميد يسير فى ظلال البيوت وخياله يضطرب ، لاح له شبح فى آخر الدرب الذى دخله ، ورأى

الشبح يتجه نحوه فى حذر وتمهل . فوقف مضطربا وقلبه يخفق كأنه يريد أن ينخلع من صدره . ألا يكون هذا الشبح أحد هذا العسس الذى لا ينقطع دبيبه فى طرق المدينة ليلا ونهارا . فلزق بجدار بيت مهدم كان قريبا منه حتى يرى أين يتجه الشخص الذى بدا له . فرآه لا يزال يتجه نحوه كأنه يريده قصدا ، فوثب مسرعا حتى توارى وراء الجدار المتهدم ، وكتم أنفاسه المضطربة ، وجعل يدس بصره فى ثنايا اللبنات فى ذعر ، حتى اقترب الشخص منه ، فرآه رجلا يتسلل كاللص الهارب وهو يتلفت ويتحسس مواضع خطاه . فاطمأن بعض الاطمئنان ، ولكنه بقى حيث كان ، وكتم أنفاسه خشية أن يراه الرجل فيصيح صيحة فزع تنم عنهما جميعا . ثم رأى من خلال اللبنات أن الرجل ينظر الى الدار المهدمة كأنه يريد أن يدخل اليها . ثم رآه يسرع فيندس فى ثلمة منها ويتوارى وراء جدارها ، ثم رآه يتكمش ويندسس حتى صار قريبا منه ، ثم أسرع الرجل فى اضطرابه وتعثر حتى اصطدم به قبل أن يستطيع أن يبعد عنه . وما كاد الرجل يحس الصدمة حتى التفت مذعورا وصاح صيحة مكتومة ، وحاول الارتداد من حيث أتى فوقع ، ورفع يديه فزعا لا يدرى من يكون ذلك الشيطان الذى خرج له من بطن الخربة . فعلم حميد أنه لا بد أحد هؤلاء المساكين الذين يتسحبون فى كل ليلة من الكوفة يريدون النجاة بأكبادهم من عسف الطاغية ابن أبى عبيد ، فأشار اليه بيده أن يهدأ ، ثم اقترب منه وقال له هامسا:

ــ لا تخف فما أنا الا مثلك .

فتمالك الرجل نفسه ، ثم قام وهو يعرج من أثر السقطة حتى اقترب منه ورفع عن وجهه اللثام الذى يغطيه ، وقال هامسا كذلك : وأنت من تكون ؟

فصاح حميد وقد عرفه : سراقة بن مرداس ؟

فرد سراقة فى مثل صيحته : حميد بن مسلم ؟ خفض صوتك فان العسس عند منعرج الطريق

وقبع الاثنان فى مكمنهما حينا ، ثم مال سراقة الى الارض فوضع عليها أذنه يتسمع وقع الاقدام والحوافر ، ثم قام الى صاحبه فقال :

ــ لقد بعدوا . أبعدهم الله ! أسرع قبل أن يقترب منا سواهم . انهم مثل الدبى لاتدرى من أين يأتون

وسارا فى حذر يترقبان ، فخرجا من الخربة وما زالا يتلمسان أضيق المسالك وأبعدها عن الاحياء العامرة ، حتى بلغا جبانة السبيع وقد انتصف الليل وظهر القمر نصفا من الشرق وأرسل لمعة من نوره المحمر ، فلاحت لهما شواهد القبور الممتدة الى مدى البصر ، قبور جيل من الذين مضوا من أهل الكوفة ولم يشهدوا المصارع التى روعت مصرهم ، وكانت أشلاء القتلى لا تزال مبعثرة فى الوهدات ، أشلاء من لم يدفنوا بعد من قتلى الموقعة الاخيرة بين المختار وبين أشراف الكوفة الذين ثاروا به . فأسرع الرجلان يخرجان من

منظر تلك الصحراء الموحشة التي شهدت مصارع عشيرتهما وبنى عمومتهما في الثورة الخائبة

ولما بلغا الفضاء الاصفر الممتد وراء الجبانة أحسا شيئا من الامن ، وشغلهما التفكير في مصيرهما عن تذكر المأساة التى هزت الكوفة منذ أيام . واتجها فى سبيلهما نحو الجنوب ينظران الى الافق البعيد الآمن من مثل ما هما فيه . فهناك من وراء ذلك الافق ريف البصرة حيث يقيم ابن الزبير فى جيوشه الكثيفة يتربص الفرص بالجبار ، وهناك من ورائه ابن الحر فى فتيانه لا يفتأ يجوب أرض السواد ، ولا يجرؤ المختار على قتاله ، وهو فى كل يوم يهبط الى جانب من اقليمه فيشفى نفسه من هدم بيته وسجن امرأته . وهناك أشراف الكوفة الذين نجوا بأنفسهم بعد أن خابت ثورتهم ، وهربوا سراعا قبل أن يبطش بهم العدو المخيف ، قد أقاموا الى جانب ابن الزبير يتحرقون للانتقام ممن شردهم وقتل عشائرهم وأذلهم ، فحكم فى مصرهم العبيد والموالى ، يذيعون فيه الرعب ويسيلون الدماء ـ دماء سادتهم الاقدمين الذين كانوا من قبل لا يتجرأون على أن يملأوا منهم الابصار . ولما أوغل سراقة وحميد فى الصحراء وعادت اليهما النفس ، قال حميد :

ـ وكيف نجوت من القوم يا سراقة ؟ انه لعجيب من أمرك أن تنجو من المختار برأسك وقد رأيتك منذ حين مقيدا يسعى به شرطة الله الى السجن . .

فضحك سراقة ضحكة حقد وقال بصوت أجش :

ـ ألا انها لشرطة الشيطان ! ما أنجانى منهم الا ايمانى بنبيهم الخبيث

فقال حميد : وهل آمنت به ؟

قال سراقة : وشهدت له شهادة تنفعه عن حمقى همدان

فقال حميد ضاحكا : لقد كنت له وليا حميما . .

فقال سراقة : ما احتلت والله الا ابقاء على رأسى ودمى . لما أسرنى الاشقياء قلت ان الاجل قد دنا ولا بد لى من الاحتيال اذا أردت الحياة وتمثلت دمائى سائلة ورأسى المقطوع ملقى فى حجر امرأتى ، فزدت حرصا على الحياة وجرأة على الحيلة . فقلت أكذب كذبة تنجينى من الموت ، وصحت مبادرا : أتظنون أيها القوم أنكم أسرتمونى ؟ لا والله ما أسرنى الا قوم على خيول بلقاء تطير بين السماء والارض . ما أسرنى الا الملائكة الذين أرسلهم الله ليحاربوا للمختار . فصاح الحمقى ايمانا ، وضحك بعضهم وكادوا يفطنون الى الخدعة . فجعلت أحلف لهم واجتهد فى اليمين ـ ولا أذكر أننى اجتهدت من قبل فى يمين مثلها ـ حتى صدقوا وآمنوا . فلما بلغ الخبيث قولى سره ورآه ينفعه ، فأمر بى ، فأحضرت الى مجلسه

فقال حميد : لتكون شاهدا على صدقه

فقال سراقة : وذهب بى الشرط الى المسجد ، وكان المختار جالسا عند المنبر ومن حوله أصحابه وأمامهم الكرسى المقدس . .

فقال حميد ضاحكا : كرسى جعدة بن هبيرة ؟

فقال سراقة : الكرسى المزيت . كان الديباج يستره كأنه جانب من الكعبة . ومن حوله السدنة يحفظونه من المس ، والحمقى من همدان يتبتلون عنده ويتعبدون ويقولون كرسى الامام . .

فقال حميد : قبح الله جهلهم . ما كان الامام على برضى بذلك لو كان ذلك كرسيه

فقال سراقة مستمرا : فجعل المختار يسألنى ويحرضنى على الكذب ، ولا أشك فى أنه كان عالما بكذبى . فجعلت أعيد قولى على الملأ من أصحابه ، وأعدت يمينى وبالغت فى كذبى واخترعت الصور ، وجعلت أصف الملائكة الذين أسرونى وملبسهم وأجنحتهم الفضية الشفافة . وكان وصفى جديرا بقصيدة مما يتقرب به الى الملوك

فقال حميد : ولعله أجازك على كذبتك ؟

فقال سراقة : والله لو رأيته وهو يهتز ويطرب كلما نطقت بكلمة ، لاعجبك ما ترى . حقا ان النفاق أحب قربان عند الطغاة . تقول لعله أجازنى ؟ وهل كانت عندى جائزة أحب من رأسى ؟ ولكنك لم تخبرنى ما الذى أخرجك أنت ؟

فقال حميد : أخرجتنى الصيحة . ألا تعلم أننى كنت فى جيش ابن زياد ؟

فقال سراقة : وخشيت أن تطالب بدم الحسين ؟

فقال حميد : كم من الدم يسفك باسمه وهو منه برىء . نعم أنها صيحتهم . يا لثارات الحسين !

ووقف حميد عن حديثه ، ونظر نحو الافق مليا ، ثم قال : ألا ترى هذا ؟

فنظر سراقة الى الافق ، وقال فى جزع : انها خيل . . أما من مقبرة فى هذا الفضاء تتوارى بها ؟

فقال حميد بعد أن حدق فى الافق حينا :

ــ لا أظن شرطة الله تبلغ هذا الموضع . . أما سمعت أن ابن الحر هناك ؟ أنه لا يدع للمختار سلاما ، ولا يجرؤ الجبار على الخروج اليه . .

فقال سراقة : ومن أدراك أنه هناك ؟ . .

فقال حميد ولا يزال ناظرا الى الافق :

ــ أغلب ظنى انها خيله . لقد كنت على موعد معهم . . أن أهرب لالقاهم هناك

فهدأ سراقة ، وسار مع صاحبه يتم له حديثه ويصف ما بقى من قصته . وكانت الشمس قد علت فى السماء وأضاءت فضاء الصحراء ، وأعادت الى الرجلين ما ذهب الليل به من روعهما . فما زالا سائرين حتى انتهيا الى معسكر الفتيان

***

مضى على الكوفة عام فى حكم المختار ، شهدت فيه المدينة مصارع أبنائها من الاشراف والابطال يفتك بهم الجبار واحدا بعد الآخر ، مستعينا بالعبيد الذين أطلقهم من رق

السادة ، وبالموالى الفرس الذين كانوا يتطلعون الى الحرية ، ويتحرقون للانتقام من أولئك الذين أذلوهم وأصغروا شأنهم فى بلادهم ، ثم ذهبت دولة المختار فجأة كأن لم تكن . كانت قائمة على الرمال ، فما هو الا أن صدمها ابن الزبير ومن معه من تميم وبكر والازد ، ومن انضم اليه من أشراف الكوفة ، حتى انهارت وتحطمت بين عشية وضحاها ، وكان ابن الحر وفتيانه فى طليعة الفرسان الذين دخلوا مصرهم وألحوا فى القتال على الطاغية حتى قتلوه ، واستسلم من معه من عبيد وموال ، وأصبح ابن الزبير سيد العراق بلا منازع

وطلع الربيع ليشهد ابن الحر مرة أخرى فى داره بالكوفة ، وقد أعاد بناءها وأرجع اليها رونقها ، ولكن الدار لم تكن على سابق عهدها ، اذ لم تكن فيها الزهرة البسامة التى كانت تزينها . لم تكن سلمى ابنة عمه هناك تملؤها حياة وبهجة وجمالا ، اذ أرسلها ابن الحر الى أهلها فى اليمن حتى لا تصل اليها أيدى الطغاة ، وتقذف بها فى السجن مرة أخرى . وماذا كان يتوقع ابن الحر من هؤلاء الذين أعانهم على بلوغ النصر وحيازة السلطان ؟ انه لم يجد المصعب خيرا من المختار ، ولم يكن ليحظى فى الدولة الجديدة بشىء فاته فى الدولة التى حطمها . وهل كان مثله ليجد الحظوة عند سلطان يطمع فى بسط يديه بكل ما شاء من عسف ؟ هل كان مثله ليتقرب الى أمير لا يحتمل أن يرى رجلا يرفع دونه رأسا أبيا أو يجهر برأى جرىء ؟

كان ابن الحر فى فناء داره واقفا ينظر الى فتيانه وهم يسرجون خيلهم ويلجمونها ويستعدون للركوب ، فما كانت الكوفة لمثله دارا ، كان اليوم من تلك الايام التى تبعث فيها الصحراء أنفاسها المحرقة فجأة فى أعقاب الشتاء ، فاذا بالحر اللافح يكاد يحرق الوجوه ، بعد أن كان الامس يلسعها ببرده القارس

ولجأ ابن الحر الى ظل شجرة ووقف ساهما وعلى وجهه المحمر وجوم وتعبيس ، كأن الشرر يتطاير من عينيه اللامعتين ، وكان حينا يعبث بلحيته السوداء التى لم يزدها الشيب بياضا بعد عام ملىء بالقتال المر والجهاد العنيف ، وحينا ينظر قلقا نحو أصحابه يستعجلهم للمسير . وكان قلبه يتقد ويضطرم بين أضلاعه ، كلما تذكر الحوادث التى تقلب فيها مدة هذا العام . كان عبد الله ابن الزبير فى الكوفة مثلما كان المختار ، أليس أخوه المصعب يطغى ويسفك الدماء ؟ ألم يقتل الالوف الذين استسلموا له فى القصر بعد أن هلك المختار ؟ أليس هو الذى قتل النساء والضعفاء ؟ ألم يقتل عمرة ابنة النعمان لانها لم تشهد على زوجها المختار بالكفر ، بل قالت فيه ما تقوله فى زوجها المرأة الوفية ؟ وما قتل النساء فى شؤون الرجال ؟ لقد صدق عمر بن أبى ربيعة اذ قال فيها :

ان من أعجب العجائب عندى ... قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم ... ان لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا ... وعلى المحصنات جر الذيول

كان قلب ابن الحر يغلى كالمرجل وهو واقف تحت الشجرة ينظر الى فرسانه ويستبطىء استعدادهم . وكان بين حين وحين ينطق بكلمة حانقة . فما الذى بعثه على أن يشارك فى اقامة هذه الدولة الجديدة ويعينها على الانتصار الذى انتهى الى تجديد العسف والبطش ؟ أما كان أولى به لو خرج مع فتيانه الى الارض الفسيحة وحدهم ، فيقيم معهم حيث تحلو لهم الاقامة بعيدين عن هذا العالم كله ، حتى تنقضى بقية أيامه ، ويدفنه أصحابه حيث يوافيه أجله فى بعض وديان الجبال التى شهدت اضطرابه ؟ كان يلوم نفسه أشد اللوم وهو يذكر ما آل اليه أمره مع المصعب ، فانه لم يجد عنده الا الحسد وسوء الظن ثم الظلم . نعم الظلم الفادح الذى كوفىء به على كل ما بذله مع فتيانه فى القتال الوعر . قذف به المصعب فى السجن، وهو الذى لولاه لم يجرؤ على أن يطأ أرض الكوفة، أيقذف به فى السجن المظلم الذى قذف المختار فيه ابنة عمه من قبل ؟ ان وسيلة الطغاة واحدة وان اختلفت الاسماء ، انها لذكرى أليمة كانت تطعن قلبه كلما عادت اليه ، وتوقد فيها النيران

وصاح عند ذلك بفتيانه يستعجلهم فى جفاء، ولكنهم كانوا لا يزالون يستعدون للرحيل. فعاد الى خواطره الحانقة وقد هجمت عليه وتزاحمت فى خياله . لقد كان أشد من السجن على نفسه أن المصعب لم يطلقه حتى بعث اليه يرجوه ويسأله العفو عما لم يرتكب من الاثم . سأله العفو لانه ضاق بالسجن، ولم تحتمله نفسه التى تعودت أن تجوب الآفاق. كان القتل نفسه أهون عليه من المقام فى ذلك السجن المظلم الضيق الذى لايليق بالاحرار، كما لا يليق القفص الضيق مقاما للاسود . ولقد حاول أن يتدارك أمره بعد أن أفلت من يديه ، فبعث الى فتيانه وواعدهم أن يأتوا اليه ليخرجوه من السجن قسرا ، ولكن المصعب كان قد لبى رجاء شيوخ مذحج الذين بعثهم ابن الحر ، يتوسل بهم اليه ليطلقه ، فأصبح طليق المصعب وأسير كرمه . أيستطيع بعد ذلك أن يبقى فى الكوفة لكى يتذكر كل يوم أن المصعب من عليه ؟ ان فى ذلك اذلالا لكبريائه . أيستطيع أن يسير فى طرق الكوفة لكى تشير اليه الاصابع : هذا هو ابن الحر الذى انحنى وتحطم أنفه وذل ، فطلب العفو من ابن الزبير ؟ أيتحدث الناس عنه قائلين : انه يقيم فى الكوفة آمنا فى كنف الامير الكريم شاكرا له عفوه قانعا أن يفوز عنده بالسلام ؟

وطال على ابن الحر الانتظار وان كان لم ينتظر سوى سويعات . ولما ضاق صدره صاح فى حنق :

ـ ماذا دهاكم أيها الفتيان ؟ أين المجشر ؟ أين جرير بن كريب ؟ أين دلهم المرادى ؟ أين عمرو بن جندب ؟ ماذا يقعد بكم ؟ ويحكم !

فتصايح أصحابه من أركان الفناء يلبون نداءه ، وذهب فى قلقه يسير مسرعا يتنقل بين الفرسان يحرض هذا ويستعجل ذاك حتى بلغ فرسه ، فأخذ بعرفها ووثب فوق ظهرها عريا لا سرج عليها ، وصاح قائلا :

– من أراد التريث فليتخلف ورائى ..

ثم غمز الفرس فوثبت به كأنها ظبى جافل . ولما رأى أصحابه هذا ، تواثبوا سراعا حتى لحقوا به قبل أن يخرج من الدرب ، ولم يقف لحظة لينظر الى الوراء ، وماذا كان خلفه فى تلك الدار ؟ لم تكن ابنة عمه هناك حتى يردد اليها البصر قبل الفراق

ولما خرج من الكوفة نظر أول مرة الى خلفه ، ولم يملك قلبه من خفقة ، ولم يملك صدره من نفس عميق . هذه الكوفة وطنه يتركها وراءه وما يحسب أنه اليها يعود .

وقال عند ذلك كأنه يعزى نفسه ويقويها على الرحيل :

لا كـوفة أمى ، ولا بصرة أبى ولا أنا يثنينى عن الرحلة الكسل

ثم همز الفرس مرة أخرى فانبعثت به طائرة ، وفتيانه من ورائه مثل سرب الطير اذا سارت فى الاسراب الصقور

ولما بلغ بهم السير حافة الريف وانطلقوا فى طريق المدائن ، أحس أن الضباب الذى كان يظلم صدره قد انجلى ، وتنفس نفسا عميقا آخر ، وعطف فرسه فأدار وجهها الى فتيانه الذين لحقوا به ، ورفع رمحه اليهم وصاح فى مرح : الى الفضاء الفسيح لنعيش كراما!

فرفعوا جميعا رماحهم وصاحوا : أو نموت كراما !

ثم همزوا الخيول ، فانطلقت بهم نحو المدائن والجبال

محمد فريد أبو حديد



فكاهة ساخرة فى فصل واحد للكاتب الروسى الكبير انطوان تشيكوف



نقلها الى العربية

الأستاذ زكى طليمات

المدير الفنى للفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى

نماذج الادب الروسى فى المسرح العربى قليلة لا يتجاوز ما طالع الجمهور منها بوادى النيل عدد أصابع اليد الواحـدة . وما أحسبنى مخطئا اذا قررت ان الفرق المصرية لم تقدم حتى اليوم غير ثلاث مسرحيات : اثنتين منها (لتولستوى) وهما «البعث» و «أنا كارنين» وواحدة (لدستوفسكى) وهى « الجريمة والعقاب » . وهذا قليل من كثير ، اذ أن الادب الروسى غنى بنفائسه الفنية

وهذه هى مسرحية « الجلف » من تأليف (أنطوان تشيكوف) ثالث ثلاثة بين أنبغ كتاب الروس ، يؤلفون بحق قسما ثلاثا وسط سلسلة الراسخات من القمم الشامقات فى عالم التأليف المسرحى عامة

والمقام لا يتسع للكشف عن مفاتن هذه المسرحية من حيث السياقة ولطف الحوار ، ومن حيث معالجتها الخالد من الحقائق النفسية ، ويكفى أن نشير الى أن المؤلف وضع أصبعه على حقيقة سرمدية فينا ، وهى أن الحقد والحب ــ وهما عاطفتان قويتان ــ انما هما طرفا انفعال نفسى عنيف يعصف بالقلب ، فاذا هو يتأرجح بينهما بحركة لا شعورية ، وسرعان ما يحب المرء ما يكره ويعود فيكره ما يحب : وثمة ظاهرة أخرى تطالع المتأمل هذه المسرحية ، وهى أن بطليها يصدران فى أقوالهما وفعالهما بغير ما يختلج فى أعماق نفسيهما ، فكأن لكل منهما شخصيتين متناقضتين فى آن واحد . وازدواج الشخصية فى الكائن الانسانى أمر قرره علم النفس فى أحدث مراحله ، بعد أن فات زمن على وفاة تشيكوف مؤلف هذه المسرحية ، اذ لا يخفى أن العلامة النفسى (سيجموند فرويد) لم يطلع علينا بنظرياته فى ازدواج الشخصية البشرية وفى العقل الباطن والظاهر الا منذ عهد قريب

واهتداء تشيكوف الى هذه الحقيقة النفسية قبل أن يرسم العلم لها النظريات ويضع لها المعالم والحدود ، أمر يقيم الحجة على صدق بصيرة هذا الكاتب ، وعمق تنقيبه فى حنايا النفس ، واقتناص الشارد المقنع فيها . وهذا فضل كبير يضفى على مؤلفاته طابع الادب الرفيع ، الخالد بصدق ما فيه ، الادب الذى يخاطب الانسانية بأسرها متجاوزا فروق العقيدة واللغة والديار

شخوص المسرحية :

هيلينا بوبوف . . . . أرملة وسيمة فى مقتبل العمر من ذوات الأملاك بالريف

جريجورى سميرنوف . . فى نضوج الرجولة ومن ذوى الأملاك بالريف

لوكا . . . . خادم مدام بوبوف ، فى مهبط العمر

[تجرى الحادثة فى قرية بأحد أقاليم روسيا]

(يرفع الستار عن حجرة جلوس بمنزل السيدة بوبوف . تبدو السيدة المذكورة وهى تنشج بالبكاء ، وقد أدارت عينيها بين صورة فوتوغرافية وبين الخادم لوكا)

لوكا ـ ليس هذا من العقل فى شىء يا سيدتى . قصارى عنتك هذا انك تفنين نفسك هما . . روحى عنك وترفقى بنفسك ، فالدنيا ما زالت على عهدها خيرة بسامة ، والحياة ما برحت غلابة بمباهجها . . تأملى . . لقد انطلق الطباخ والخادمة يجمعان ثمار (الشليك). كل حى ينشد المتعة حتى القطة فانها تعرف كيف تلهو ، كيف تستمتع . انها تنساب فى الحديقة لاقتناص الطير . أما أنت فلا تغادرين منزلك وكأنك راهبة فى دير وقد زهدت فى كل لذة وصدفت عن كل بهجة . هذا هو الواقع بعينه لو تأملت حالك . . انك لم تفارقى المنزل طيلة هذا العام

مدام بوبوف ـ ولن أفارقه . . ولماذا أفعل وقد انقطع ما بينى وبين الناس . ان زوجى مسجى فى قبره ، فلأبقين بعدوى مغيبة بين هذه الجدران . . كلانا فاقد الحس

لوكا ـ ها قد رجعنا الى كلام البائس المحزون . مات زوجك نيقولا ميهيليتش وهذه ارادة الله . وقد بكيته أحر بكاء وفى هذا الكفاية . ليس فى وسعك أن تقضى بقية حياتك فى لبس الحداد وذرف الدموع . ماتت زوجتى فبكيتها لشهر ويزيد ، ثم انتهى الامر . ما هذا ؟ ان الامر لا يستحق أن نفنى رثتينا نشيجا وبكاء . (يتنهد) نسيت جيرانك حتى أنك لا تستقبلين من يفد منهم علينا . اننا نعيش كالعناكب ، نهرب من كل ضوء يدخل علينا . أرديتى أصبحت مائدة شهية للجرذان لطول عهدها بالحبس . هل أقفرت الدنيا من خيار الناس حتى نغلق علينا الابواب؟ لا . . ان الحى يفيض بالاعيان وبالصحبة الفاضلة . عسكرت فى (ريبلوفر) فرقة من الجند . ما أجمل الضباط وهم يتطاوسون فى لباسهم الانيق الموشى ! انهم بهجة العين الحزينة . يحيون حفلة راقصة فى يوم الجمعة من كل أسبوع ، وتعزف موسيقاهم فى كل يوم . آه يا سيدتى العزيزة . انك ما زلت شابة مونقة كالزهرة فى أكمامها ، وليس لك الا أن تعيشى وتسعدى وتمرحى كما يحلو لك .

احذرى ، فان جمالك لن يدوم طيلة حياتك ، ولن تكونى كذلك بعد انقضاء عشرة أعوام ، وقد يحلو لك اذ ذاك أن تبهرى الضباط بمحاسنك ، ولكن الوقت يكون قد فات

مدام بوبوف — (فى عزم) أرجوك ألا تتحدث الى بمثل هذا أبدا .. أنت تعلم أن الحياة بعد موت زوجى أصبحت وليس لى فيها مذاق . قد يبدو لك أننى أعيش كسائر الخلق ، ولكن هذا وهم . أقسمت ألا أخلع ثياب الحداد عليه ما دمت حية . أفهمت ؟ فلعل روحه تدرك مبلغ حبى له . نعم ، أنت تعرف كل شىء . كان أحيانا يقسو على ، يخوننى ، ولكننى سأظل وفية حتى القبر ، لأريه كيف أحب وأخلص فى الحب

لوكا — خير لك من هذا الكلام أن تخرجى للنزهة فى الحديقة ، أو أن تأمرى بتطهيم أحد جواديك « طوبى » أو « جيانت » وشده الى العربة لتزورى جيرانك

مدام بوبوف — آه .. (تنتحب)

لوكا — سيدتى . سيدتى العزيزة ترفقى بنفسك وليكن الله فى عونك

مدام بوبوف — كان يحب « طوبى » ويؤثره على الجياد كلها ، وكان يسرجه فى العربة ليقودها بنفسه كلما ذهب الى زيارة بعض العائلات . ما كان أبهى منظر زوجى وهو منحن على اللجام بكل فتوته . ألا تذكر ؟ توبى .. قدم له مزيدا من العلف اليوم

لوكا — حسن يا سيدتى

(يسمع دق جرس)

مدام بوبوف — من يكون القادم ؟ قل اننى لا أستقبل أحدا ..

لوكا — أمرك يا سيدتى (يخرج)

مدام بوبوف — (محدقة فى صورة فوتوغرافية لزوجها) سترى يا نيقولا الى أى مدى يبلغ حبى ويكون صفحى . لن يزول هذا الحب الا بزوال أنفاسى (تبتسم وسط دموعها) ولكن قل لى . ألا تشعر الآن بالخجل ؟ أنت ترى أننى ما برحت المرأة الوفية والزوجة المخلصة ، انقطعت عن العالم لأعيش بذكراك حتى يحتوينى القبر .. هذا فى حين أنك كنت — آه ألا تخجل الآن أيها الاحمق — كنت تخوننى وتؤذينى وتسومنى الاهمال

(يدخل لوكا مفزوعا)

لوكا — شخص يسأل عنك ويطلب مقابلتك ..

م. بوبوف — ألم تخبره بأننى منذ وفاة زوجى لا أقابل أحدا ؟

لوكا — أخبرته ، ولكنه أبى أن يصغى الى ، يقول انه جاء من أجل مسألة عاجلة ..

م. بوبوف — لن أقابل أحدا ..

لوكا — أفهمته هذا ، ولكنه .. زمجر وتوعدنى بالاقسام ودفعنى أمامه مقتحما الباب . هو الآن فى غرفة المائدة

م. بوبوف — (متضايقة) حسنا .. فليأت الى .. يا له من جلف ثقيل ..

(يخرج لوكا)

م. بوبوف ــ شدما أتضجر وأشقى بهؤلاء الناس! ماذا يبتغون منى؟وعلام يقطعون على هدأة صفوى ؟ (تتنهد) لم يبق الا أن أنقطع فى دير بعيدة عنهم (مفكرة) نعم فى دير

(يدخل لوكا ومعه سميرنوف)

سميرنوف ــ (موجها الكلام الى الخادم لوكا وهو يجتاز عتبة الدار) يا لك من أحمق ولوع بالكلام والجلبة . أنت حمار (يرى مدام بوبوف فيتكلم فى أدب) سيدتى لى الشرف فى أن أقدم نفسى اليك .. أنا جريجورى ستيبانيتش سميرنوف من ذوى الاملاك ، وضابط متقاعد من فرقة المدفعية ، أجبرتنى الظروف على أن أزعجك بحضورى من أجل مسألة هامة لا تقبل التأجيل

م. بوبوف ــ (من غير أن تمد يدها اليه) ما عسى أن أفعله لك ؟

سميرنوف ــ زوجك المرحوم ــ الذى كان لى شرف معرفته ــ استدان منىماثتين وألف روبل بموجب صكين . ولما كنت مجبرا فى الغد على تسديد أقساط مالية الى البنك ، فأرجو أن تدفعى لى هذا المبلغ اليوم ..

م. بوبوف ــ ... مائتين وألف روبل ! لاى غرض استدان زوجى منك هذا المبلغ الكبير ؟!

سميرنوف ــ انها ثمن قرطم اشتراه منى لاجل علف الخيل

م. بوبوف ــ (متنهدة وناظرة الى الخادم) لا تنس أن تذكرنى بأنك قدمت مزيدا من العلف « لطوبى » ــ (يخرج لوكا) ــ (الى سميرنوف) ما دام زوجى مدينا لك فلا بد لى من سداد دينه . ولكن أرجو المعذرة اذا لم أستطع أن أدفع اليوم ما عليه . سيعود وكيل أعمالى بعد غد ، وسآمره أن يدفع لك ما تستحق . وفوق هذا فانه لم يمض على وفاة زوجى حتى اليوم سوى سبعة شهور بالتمام، وأرانى على حالة نفسية لاتحبب الى التحدث فى شؤون المال

سميرنوف ــ وأنا يروق لى أن أطلق رصاصة على رأسى اذا لم أستطع الدفع فى الغد لانهم يبيعون أملاكى

م. بوبوف ــ ستأخذ مالك بعد غد

سميرنوف ــ أريد مالى اليوم لا بعد غد

م. بوبوف ــ معذرة فأنا لا أستطيع الدفع اليوم

سميرنوف ــ وأنا لا أستطيع الانتظار الى بعد غد

م. بوبوف ــ وماذا أفعل ما دام المبلغ المطلوب ليس فى حوزتى

سميرنوف ــ اذن أنت عاجزة عن الدفع ؟

م. بوبوف ــ نعم عاجزة عن الدفع

سميرنوف ــ حسن . هذه هى كلمتك الاخيرة ؟

م. بوبوف ــ نعم ..

سميرنوف ـ الاخيرة ؟ أى لا سبيل الآن الى الدفع مطلقا

م. بوبوف ـ مطلقا

سميرنوف ـ لك وافر الشكر . وسأذكر لك هذا الجميل . (يهز كتفيه) أعجب كيف أحتمل كل هـذا ساكتا . . مررت عند مجئى بالصراف فسألنى : « لماذا أراك حانقا يا جريجورى سميرنوف ؟ » خبرونى بالله كيف لا أحنق ولا أحزن وأنا فى أشد الحاجة الى المال . غادرت منزلى قبل طلوع فجر الامس وطفت على كل من يدين لى بمال . ولكن واحدا منهم لم يدفع لى دينه . وهأنا ذا بعد طوافى أعود منهوكا كالكلب المتعب . اضطررت الى أن أبيت ليلتى فى فندق حقير وصاحبنى فى حجرتى برميل من براميل (الفودكا) وأخيرا حضرت الى هنا بعد أن قطعت خمسين ميلا من منزلى ، وبى أمل أن أحصل على مالى ، ولكنى لم أحصل الا على اعتذارات وتمحلات . أتساءل كيف ما برحت مالكا روعى ؟

م. بوبوف ـ أعتقد أننى أوضحت جليا أنه متى عاد وكيل أعمالى من المدينة دفعت لك المبلغ المطلوب . .

سميرنوف ـ جئت لمقابلتك أنت لا لمقابلة وكيل أعمالك . الى الشيطان وكيلك هذا ـ عفوا على هذه اللهجة ـ مالى وله ؟

م. بوبوف ـ عفوا يا سيدى ، فأنا لم أعتد سماع هذه اللهجة النابية ، ولهذا لن أستمع الى ما تقول . . (تخرج مسرعة)

سميرنوف ـ ما العمل ؟ انها على حال نفسية عجيبة . . فى حين أنه قد انقضت سبعة شهور على وفاة زوجها . . مالى ولهذا ؟ لا أدفع ؟ أسألك أليس على أن أدفع ؟ توفى زوجك ، وما زلت على حالة نفسية عجيبة ، وقد سافر وكيل أعمالك الى جهة ما ، الى جهنم ، ولكن خبرونى ماذا أفعل ؟ أأهرب من الدائنين راكبا متن الريح أم ماذا ؟ أنطح برأسى عرض الحائط ؟ طرقت باب « جروسديوف » فأخبرت أنه خرج . وقصدت «ايروسفتش» فاذا هو مختف لا أثر له وكدت أقذف «بكورزين» من النافذة بعد شجار عنيف ، « مازوتوف » صريع المرض ، وهذه السيدة على حالة نفسية . . امتنع كل هؤلاء المناكيد عن سداد ما عليهم . . والسبب فى هذا أننى أخذت باللين فى مطالبتهم ، اننى غر متخاذل فى المطالبة ، وبى رقة قلوب عجائز النساء ، ولكن صبرا . سأريكم ما فى وسعى عمله ، لن أدعهم مرة أخرى يجعلون منى أبلها ، لعنة الله عليهم . سأبقى هنا حتى تدفع . شد ما أحس الثورة فى أعصابى . أعضاء جسمى تنتفض من الغضب . أرانى أتنفس فى صعوبة . . أواه . . اننى حقا مريض . . (يصيح مناديا) ايه . . من هنا ؟

لوكا ـ (داخلا) ماذا تريد ؟

سميرنوف ـ على بشىء من الجعة أو بقدح ماء (يخرج لوكا) نعم يا له من منطق !! حاجتى الى المال دونها كل حاجة ، حتى لم يبق أمامى الا أن أشد عنقى الى حبل ، وهى

مع هذا لا تريد أن تدفع ، ولماذا ــ وأرجوك المعذرة ــ لانها لايروق لها أن تعالج شؤون المال . حقا انه لمنطق نسائى أصيل . من أجل هذا لم أحب ، ولا يروق لى أن أبادل امرأة حديثا ، وخير لى أن أجلس فوق برميل ملؤه البارود من أن أجلس الى حديث امرأة . ماذا دهانى ؟ أحس قشعريرة فى كل جسمى ، شد ما أسلمتنى هذه المخلوقة الانثى الى الانفعال ، حقا انه يكفى أن أرى مخلوقة شاعرية كهذه على بعد حتى تصلب ساقاى غضبا ، يلوح لى أننى أصيح : النجدة . .

لوكا ــ (يدخل لوكا ويقدم له قدح ماء) سيدتى متوعكة ولن تقابل أحدا . .

سميرنوف ــ أغرب عن وجهى . . (يخرج لوكا) انها متوعكة ولن تقابل أحدا . . . حسن جدا . . لا تكلفى نفسك مشقة المجىء . . سأبقى هنا حتى تدفعى لى نقودى . اذا مرضت أسبوعا فسأمكث هنا اسبوعا ، واذا لزمت الفراش عاما فسأبقى هنا عاما . سأسترد نقودى . لن يؤثر فى لباس الحداد الذى ترتدينه ، ولن تهزنى غمازات خديك يا حسناء . كلنا يعرف ما هذه الغمازات ؟ (يصيح من النافذة) سميون سرح الجياد فلن أسافر الآن ، قل لهم فى الاصطبل أن يقدموا للخيل علفا . أيها الاحمق لقد خلفت الجواد الايسر تتعثر قدمه باللجام . (مفرطا فى التعبير بقسمات وجهه) هذا حسن . . على غاية ما يرام . وسأريك يا سيدتى اذا كان كل شىء سيجرى على غاية ما يرام (يترك النافذة) حر شديد ، وافلاس على أحسن ما يكون ، لم أمتع بالنوم ليلة البارحة ، ولن أمتع اليوم بغير سماع نحيب هذه الانثى ! رأسى يؤلمنى . . أأتناول شيئا من الفودكا ؟ (ينادى) الى

لوكا ــ (داخلا) ماذا تريد ؟

سميرنوف ــ أحضر لى قدحا من الفودكا . (يخرج لوكا) أوه (متفحصا هندامه) فى الحق اننى ممشوق القوام . ولكننى أغبر ، ملوث الحذاء بالوحل ، ووجهى لم يغسل ، وشعرى لم يمشط ، وسترتى ما زال يعلق بها التبن ! لا غرابة فى أن تحسبنى السيدة من قطاع الطريق . (يتثاءب) ليس من اللياقة أن أمثل فى غرفة الجلوس وأنا على هذه الحال . ولكن لا حرج على . . لست ضيفا ، وانما أنا دائن يطالب بما له ، ولم توجد بعد ملابس رسمية يرتديها الدائنون

(يدخل لوكا)

لوكا ــ (مناولا اياه قدح الفودكا) تساهق فى حريتك الى مدى بعيد يا سيدى . .

سميرنوف ــ (غاضبا) ماذا تقول ؟! . .

لوكا ــ لا شىء . . أردت فقط . .

سميرنوف ــ من تخاطب ؟ اخرس

لوكا ــ (مديرا وجهه) انه لطاعون . . لقد دفعت به الينا ريح خبيثة (يخرج)

سميرنوف ــ آه . . شد ما أنا غاضب محنق ! لى رغبة فى أن أحيل العالم كله بارودا متفجرا . أحس أن بى مرضا . . . (يصيح) هيا . . تعالوا . .

(تدخل مدام بوبوف مطرقة بنظراتها الى الارض)

م. بوبوف ـ سيدى ، فى وحدتى هذه مضى زمن طويل لم آلف فيه سماع أصوات الآدميين ، فلا أقدر ، والحالة هذه ، على احتمال الصخب والصراخ . لهذا أبتهل اليك ألا تعكر على السكون الذى يحيطنى ..

سميرنوف ـ ادفعى لى الدين ، أرحل ..

م. بوبوف ـ صارحتك بلغة أهل هذا البلد بأن ليس فى حوزتى الآن نقود. انتظر الى ما بعد غد ..

سميرنوف ـ وأنا بدورى صارحتك وبلغة أهل هذا البلد أيضا ، بأننى أريد نقودى اليوم وليس بعد غد . فاذا لم تدفعى لى اليوم فليس أمامى غير أن أشنق نفسى فى الغد

م. بوبوف ـ ولكن ما العمل وليس فى حوزتى ما تريد ؟ موقفك غاية فى الغرابة !

سميرنوف ـ اذن فأنت لا تريدين أن تدفعى فى الحال .. لا تريدين ؟

م. بوبوف ـ لا أستطيع أن أدفع !

سميرنوف ـ اذن لن أبرح مكانى حتى أحصل على نقودى (يجلس) ستدفعين لى بعد غد ؟ حسن جدا .. لن أفارق هذا المكان حتى مجىء ذلك اليوم (قافزا من مكانه) أسائلك أما على أن أدفع ديونى فى الغد ؟ أم تحسبين أننى ماجن هازل ؟

م. بوبوف ـ سيدى . اخفض من صوتك . لست فى اصطبل ..

سميرنوف ـ لم أسائلك فى شؤون الاصطبلات ، أسائلك أما على أن أدفع ديونى فى الغد أم لا ؟

بوبوف ـ يبدو لى أنك جاهل بما يجب أن تكون عليه فى محادثة السيدات ..

سميرنوف ـ الحق ما تقولين ، وأصارحك به ...

م. بوبوف ـ لا شك فى هذا. فأنت فظ ليس لك حظ من النشأة الطيبة ، لن يعامل الرجال المهذبون ، هم لا يعاملون ، السيدات هذه المعاملة ..

سميرنوف ـ آه .. أمرك عجيب ! كيف تريدين اذن أن أخاطبك ؟ أباللغة الفرنسية وبأساليب أصحابها ؟ (غاضبا ومتكلما فى حزلقة) .. اليك اذن : « مدام أرجوك أن تستمعى الى . شد ما أنا سعيد لانك لا تريدين أن تدفعى ما عليك ، أستميحك المعذرة لاننى أزعجتك ! ما أشرق هذا النهار وما أبدع الجو اليوم ؟ شد ما يلائمك لبس الحداد ويبرز مفاتنك (ينحنى) »

م. بوبوف ـ كلامك جاف ثقيل ، وليس فيه شىء من الحذق والفكاهة ..

سميرنوف ـ (مقلدا اياها) كلامك جاف ثقيل وليس فيه شىء من الحذق والفكاهة . أنت جاهل بما يجب أن تكون عليه فى محادثة السيدات ! اسمعى يا سيدتى ، رأيت من النساء أكثر مما رأيت أنت من العصافير . تبارزت من أجل سواد عيونهن ثلاث مرات . هجرت اثنتى عشرة امرأة ، وهجرتنى تسع نساء فقط . أجل . مر بى زمن كنت فيه

حدثنا أبلها ، فكنت فى هواى العاطفة المشبوبة واللسان المعسول والادب الجم وما تفرضه اعتبارات له من انحناءات وتمسحات . أحببت وتعذبت فى حبى . سهرت الليالى الطوال أناجى طيف الحبيب وأشرئب بتأوهاتى صعدا نحو القمر . عصفت بقلبى نشوة اللقاء ومرارة الفراق .. كنت صاحب حب جامح وجنون وحيرة حتى أننى كنت أثرثر من غير وعى فى حقوق المرأة ، وأضعت نصف ثروتى من أجل هذا التوله والهيام . أما الآن فلا .. لا سبيل الى اقتناصى مهما نصبت لى الحبائل والفخاخ . حسبى ما لاقيت . العيون النجل ، العيون التى تفيض رغبة وجوى ، الشفاه القرمزية ، طابع الحسن وغمازات الجمال ، ضوء القمر ، الهمسات والتمتمات المتصاعدة من أعماق القلب ، الانفاس المتعثرة خفرا فى انطلاقها .. كل هذه عرفتها وخبرتها ولم تعد تؤثر فى أو تنال منى ، ولا أدفع من أجل متعتها مليما واحدا يا سيدتى . واستثنى شخصك بالطبع من هـذا الحكم الذى سأصدره ، فأقول ان النساء ــ صغارا كن أو كبارا ــ كلهن تصنع . وتأنق ، وثرثرة ، وكيد ، كلهن كاذبات الى أبعد ما فى أغوارهن ، تافهات حقيرات بلا شفقة ولا رحمة ، لهن منطق متمرد يبعث على الثورة ، وفى هذه الناحية (يضرب جبهته براحة يده) أقول ــ وأستميحك عذرا فى صراحتى ولا ضير عليك أن تستمعى الى ففى مقدور العصفور التافه أن يوحى بالشىء الكثير الى فيلسوف ناشىء ــ اذا وقع الرجل على احداهن خيل اليه أنه يطالع مخلوقا من نسج الخيال يتراءى فى غلالة شفافة ، فكأنه أمام كائن سماوى أو ربة من الربات ، فيغشاه فيض من الفرح والذهول . ولكن ما أن يختلس النظرة الفاحصة الى أعماق هذا المخلوق حتى يتكشف له عن تمساح عادى . (يهوى بقبضته على ظهر الكرسى فيطقطق الكرسى وينكسر) وأمر من هذا وأدهى ــ وهو ما يسلم النفس الى بعيد من الثورة ــ أن يظن هذا التمساح أن العاطفة الرقيقة المواسية هى أحسن وأروع ما ينطوى عليها قلبه ، فهى خاصته وامتيازه الذى لا ينازعه فيه منازع ! ولكن لتحل اللعنة على ، بل وأرضى أن أعلق مشدودا الى هذا المسمار ورأسى مدلى الى اسفل ، اذا أتيتنى بامرأة فى وسعها أن تهب حبها لاحد ، اللهم الا أن يكون كلبهـا المدلل الذى يفترش حجرها ؟ كل ما تستطيعه المرأة فى حبها انما هو الشكوى والبكاء . يقع الرجل فى حبائل غرامها ، فبينما هو يرخص الغالى ويتعذب ، فان حبها كله لا يجد مظهرا لابداء صدقه وحرارته سوى اللهفة على أن تتعقبه مجرجرة أذيال ثيابها ، محاولة أن تمتن قبضتها على عنقه حتى لا يفلت منها . من سوء الطالع يا سيدتى أن تكونى امرأة .. وهكذا فأنت تعرفين خلائق المرأة بالتأمل فى طبيعتك . اخبرينى صادقة مخلصة ، هل فى حياتك وقعت على امرأة واحدة تمثل الاخلاص والصدق والوفاء وعدم التحول ؟ لا لم تقع عينك عليها . العجائز والدميمات هن وحدهن المخلصات الصادقات الوفيات . وانه لايسر أن يقع المرء على قط ذى قرنين أو غراب حالك السواد ، من أن يصادف امرأة وفية ترعى العهود

بوبوف ــ والآن اسمح لى أن أسألك من تراه فى زعمك أشد انطواء على الاخلاص

والوفاء فى الحب ، الرجل أم المرأة ؟ ما أظنه الرجل !

سميرنوف ـ انه الرجل

م. بوبوف ـ الرجل ! (تضحك فى خبث وسخرية) تقول ان الرجل صادق فى حبه ذو وفاء فى عهده ! هذا شىء جديد لم أكن أدريه وأعترف بذلك ، (بحرارة) أسألك ما وجه الحق الذى يجيز لك أن تقرر ما تقول؟ الرجال صادقون أوفياء! اذا صح الكلام فى هذا ، فاننى أقول لك ان من بين كل الرجال الذين أعرفهم والذين عرفتهم فى حياتى ، كان زوجى المرحوم أفضلهم وأخيرهم .. تولعت به ، أحببته بكل كيانى حبا لا تقدر عليه الا المرأة الشابة المتوقدة روحا وذهنا . منحته شبابى ، حياتى ، سعادتى ، ثروتى ، كان لى الهواء الذى أتنشقه لأحيا ، الصنم الذى أتعبده . هذا الرجل ـ خير الرجال وأفضلهم ـ كان يخوننى فى كل خطوة وبغير ذرة من حياء ! وجدت بعد وفاته ـ بالطبع ـ درجا من أدراج مكتبه مليئا برسائل الغرام . وفى أثناء حياته ـ ويا للذكرى المؤلمة ـ كان يهجرنى أسابيع متوالية . كان لا يتحرج عن مغازلة النساء أمام عينى ولا يبالى بخديعتى ، ولا يهمه أن يبدد مالى ويسخر من عواطفى .. ولكننى على الرغم من كل هذا كنت أحبه ، وكنت أمينة على عهده . وهاك ما هو أكثر من هذا ، اننى ما زلت مخلصة وفية لذكراه حتى بعد موته . دفنت نفسى الى الابد بين جدران هذا المنزل ، ولن أخلع عليه لباس الحداد ما دمت حية

سميرنوف ـ (ضاحكا فى استخفاف وسخرية) لباس الحداد ؟ لست أدرى من تحسبيننى يا سيدتى ، كأننى لا أعرف لماذا تتكرين فى ثياب الحداد هذه ، وتغلقين على نفسك الابواب؟ هذا ما تظنينه ! يلوح لى أنك تحسبين أن ما تفعلينه لغز تحيطه الاسرار ويغلفه الخيال ! ربما يمر بقصرك فارس شاب أو شاعر فى مقتبل العمر ويتطلع الى نوافذه فيحدث نفسه قائلا : « هنا تعيش المرأة الوفية ذات الاسرار ، التى من حبها لزوجها غلقت على نفسها الابواب بين هذه الجدران ! » أعرف كل هذه الحيل .

م. بوبوف ـ (وقد احمر وجهها) ماذا تقول ؟ وكيف تجرؤ على مواجهتى بهذا الكلام !

سميرنوف ـ آه حقا دفنت نفسك حية كما تزعمين ، ولكنك لم تنس أن تجملى وجهك بالمساحيق ..

م. بوبوف ـ كيف تجرؤ على مخاطبتى بهذه اللهجة ؟!

سميرنوف ـ مهلا وأرجوك . لا تحتدى ولا تصيحى فى وجهى فما أنا بوكيل أعمالك . اسمحى لى أن أسمى الاشياء باسمائها . لست امرأة ، وقد درجت على أن أصارح الناس بما أعتقد . لهذا لا تصيحى وأرجوك

م. بوبوف ـ أنا لا أصيح ، وانما أنت الذى تصرخ وتصخب . خلنى وحدى . أرجوك

سميرنوف ـ اعطنى نقودى لانصرف

م. بوبوف ـ لن أعطيك ..

سميرنوف ـ بل ستعطيني اياها

م. بوبوف ـ لن أعطيك مليما واحدا اغاظة فيك ، وعليك أن تتركنى فى سلام . .

سميرنوف ـ لا داعى لهذا الشجار ، فانى لم أسعد بعد بأن أكون خطيبك أو زوجك (يجلس) لا أحب هذا

م. بوبوف ـ (تلهث غضبا) ماذا تفعل . . أتجلس ؟

سميرنوف ـ جلست بالفعل

م. بوبوف ـ أتوسل اليك أن تخرج

سميرنوف ـ اعطنى نقودى (جانبا) ان الغضب يتملكنى ؟!

م. بوبوف ـ أنا لا أحتمل مخاطبة السفهاء ، فكن رحيما بى واخرج من هنا (سكوت) ألا تخرج ؟ ألا تريد ؟

سميرنوف ـ لا . .

م. بوبوف ـ لا ؟

سميرنوف ـ لا . .

م. بوبوف ـ حسن (تدق الجرس فيدخل لوكا) . لوكا . . ادفع بهذا السيد الى الخارج . .

لوكا ـ (مقتربا من سميرنوف) تفضل يا سيدى بالخروج . ما دام قد طلب اليك ذلك فلا فائدة من بقائك هنا

سميرنوف ـ (هاجا عليه) أمسك لسانك . الى من توجه هذا الكلام ؟ سأهشمك أيها الوقح . .

لوكا ـ (واضعا يده على قلبه) يا للقديسين ! (يرتمى على مقعد) آه . أحس بالمرض ، انى مريض ، لا أقوى على التنفس . .

م. بوبوف ـ أين الخادم داشا ؟ داشا ! (منادية) داشا ، بلاجيا ، داشا (تدق الجرس)

لوكا ـ خرجوا جميعا لجنى ثمار « الشليك » . لا يوجد أحد بالمنزل . انى مريض ، قليلا من الماء .

م. بوبوف ـ (الى سميرنوف) أرجو أن تخرج . .

سميرنوف ـ أرجو أن تكونى أكثر أدبا . .

م. بوبوف ـ (تضم قبضة يدها وتضرب الارض بقدمها) . أنت فظ ، جلف ثقيل ، أنت مشاغب دنىء ، أنت حيوان . .

سميرنوف ـ ماذا ، ماذا تقولين ؟

م. بوبوف ـ قلت انك جلف ، حيوان . .

سميرنوف ـ (مندفعا نحوها) اسمحى لى أن أسألك بأى حق تشتميننى . .

م. بوبوف ـ نعم أشتمك ، وأية غرابة فى شتائمى هذه ، أتحسبنى أخافك ؟

سميرنوف ـ وأنت أتظنني أن ما منى به جنسك من الضعف يبيح لك أن تتهالى على الناس بالشتائم من غير أن تلقى عقابا ؟ كذا ؟ انني أدعوك للمبارزة . .

لوكا ـ أدركني يا آلهي ، عونا أيها القديسون ؟! انى مريض ، قليلا من الماء . .

سميرنوف ـ الى بالغدارات . .

م. بوبوف ـ أتظن أيها الوقح أنك تخيفني حينما تلوح بقبضة يدك الغليظة وتخور كالثور ؟

سميرنوف ـ أقول انني أدعوك للمبارزة . لا أسمح لاحد أن يهينني ، ولا يهمني أن تكوني امرأة ، مخلوقة ضعيفة . .

م. بوبوف ـ (تغالبه لتطرحه على الارض) جلف . أنت جلف . جلف . .

سميرنوف ـ حان الوقت لان لا أعبأ بهذا التقليد المغرض الذى يقضى على الرجل وحده بأن يدفع ثمن الاهانة التى يكيلها لغيره . اذا كانت هناك مساواة فى الحقوق بين الرجل والمرأة فلتكن هذه المساواة فيما نحن بصدده . لعنة الله على الجميع . الى المبارزة

م. بوبوف ـ تريد المبارزة وبأى ثمن ؟

سميرنوف ـ أريدها فى الحال . .

م. بوبوف ـ فى الحال ! لكن . بين مخلفات زوجى غدارات سأذهب لاحضارها فى التو والساعة (تهم مسرعة بالخروج ثم تلتفت اليه) أية لذة لى فى أن أودع رأسك الصلب قذيفة من رصاص غدارتى ! لتمحقك اللعنة (تخرج)

سميرنوف ـ سأطلق النار عليها كما أطلقه على فرخ من الطير . لست غلاما واهن القلب ، وما أنا بالجرو المتهالك عاطفة ، ولست ممن يأبهون لضعف النساء . .

لوكا ـ يا سيدى الكريم (راكعا على الارض) ترفق بى وارحم شيخوختى . تفضل بالخروج ، كدت تميتنى خوفا ، وتريد فوق هذا أيضا أن تقاتل سيدتى فى مبارزة ؟

سميرنوف ـ (من غير أن يعيره اهتماما) المبارزة ! هذه المبارزة هى عين المساواة بين الرجل والمرأة ، هى تحرير المرأة من قيودها ، انها مبدأ المساواة بين الجنسين . وسأطلق النار عليها باسم هذا المبدأ . ولكن يا لها من امرأة ! (يقلدها) لتمحقك اللعنة . سأودع رأسك الصلب قذيفة من رصاص غدارتى . . أجل يا لها من امرأة ! كانت تتكلم متحمسة وهى متوردة الخدين براقة العينين . . لم تتوان عن تلبية دعوتى الى المبارزة ! بشرفى لم تقع عينى على مثيلة لها فى حياتى !

لوكا ـ تفضل يا سيدى بالرحيل . سأدعو الله لك فى صلواتى . .

سميرنوف ـ ليست امرأة ، وانما هى كائن آخر يشبه المرأة . أحب هذا ! انها المرأة الحقة . ليس فيها شىء من خور العاطفة . انها تتوهج وتشتعل وتنفجر مثل البارود ، وتنطلق كالسهام النارية ! يؤسفنى أن أقتلها . .

لوكا ـ (باكيا) تفضل يا سيدى بالرحيل

سميرنوف ــ انها تروقنى . حقا اننى أودها ! وعلى الرغم من غمازات الحسن فى خديها فاننى أحس بميل اليها ! حتى دينى فاننى أتنازل عن المطالبة به . لم أعد حانقا عليها امرأة عجيبة !

(تدخل مدام بوبوف وبين يديها غدارات)

م. بوبوف ــ هاك الغدارات .. ولكن قبل أن تأخذ فى المبارزة أرجو أن ترينى كيف أستعمل هذه الغدارات وأطلق النار عليك منها ، لم أدر قبل اليوم غدارة فى حياتى ..

لوكا ــ اللهم أكتب لنا السلامة وارحمنا . سأذهب لاستدعاء البستانى والحوذى . من أين حلت علينا هذه المصيبة ! (يخرج)

سميرنوف ــ (متفحصا الغدارات) ترين أمامك أصنافا من الغدارات ، ولكن ليس بينها ما جرى العرف باستعماله فى المبارزة .. توجد غدارات خاصة بهذا الغرض.. أحسنها ماركة (مورتيمار) ذات الكبسون . أما التى أمامك فكلها من ماركة (سميث وبسون) وتستعمل من غير الكبسون . انها لبديعة الصنع . يساوى الزوج منها تسعين روبل . والآن سأريك طريقة استعمالها. .انظرى يجب أولا أن ترفعى الغدارة هكذا. .هكذا. . (جانبا) يا لهاتين العينين ! ما أجملهما ! انها لامرأة فتانة سلابة العقول ؟!

م. بوبوف ــ أرفعها هكذا ؟

سميرنوف ــ نعم .. هكذا .. ثم ترفعين الزناد .. ثم تصوبين هكذا .. لا . اطرحى رأسك الى الوراء قليلا . مدى ذراعك بكامل طوله .. نعم هكذا . بعد هذا اضغطى بهذا الاصبع على هذا الشىء الصغير .. هذا كل ما فى الامر . وأهم ما أنبهك اليه فيما نحن فيه الآن أن تكونى هادئة .. لا حدة ولا ارتباك .. وان تصوبى غدارتك فى غير عجلة.. اجتهدى ألا ترتعد يدك ..

م. بوبوف ــ حسن جدا . أرى أنه لا يليق بنا أن نتبارز فى احدى الغرف . لنخرج الى الحديقة ..

سميرنوف ــ هيا . غير اننى أنبهك مقدما الى أننى سأطلق رصاص غدارتى فى الهواء

م. بوبوف ــ آه هذا لا يحتمل ! ولماذا تطلق رصاص غدارتك فى الهواء ؟

سميرنوف ــ من أجل .. من أجل .. هذا أمر يعنينى وحدى ..

م. بوبوف ــ أراك تجبن . الخوف فى نظراتك .أليس كذلك ؟ لا يا سيدى لاتحاول الانسحاب . تفضل واتبعنى . لن أرضى حتى أودع رصاصة غدارتى فى رأسك ، هذا الرأس الذى أكرهه كل الكره . هل أنت خائف ؟

سميرنوف ــ الحق ما تقولين ..

م. بوبوف ــ تكذب . قل لى لماذا تحجم عن مبارزتى ؟

سميرنوف ــ لانى .. لانى .. أحبك ..

م. بوبوف ـ (تضحك ساخرة) هو يحبنى . يجرؤ على المجاهرة بذلك (مشيرة الى الباب) يمكنك أن تخرج

سميرنوف ـ (يضع فى صمت الغدارة فوق الطاولة ، ويأخذ قبعة ويسير ، ولكنه يقف عند ما يقترب من الباب. يحدق كل منهما فى الآخر لحظة ، ثم يدنو اليها فى حيرة وتردد) أما زلت حانقة على ؟ أنا أيضا أتفجر حنقا ، ولكن كيف السبيل الى الخلاص من هذا ؟ السبيل ـ وهو ما يأتى ـ أن أكشف لك عما بنفسى فى وضوح واخلاص (رافعا صوته) ليس ذنبى أننى أحبك ! (يهوى بقبضة يده على ظهر كرسى فيطقطق وينكسر) يا للعنة ! كل أثاث بيتك سهل الانكسار . أحبك ، أتفهمين ؟ أكاد أهواك .

م. بوبوف ـ أخرج . أكرهك . .

سميرنوف ـ تبارك الخلاق . . يا لها من امرأة ! لم تكتحل عيناى بمرآى مثيلة لها من قبل . لقد ضعت ، قضى على ، وقعت كما يقع الفأر فى المصيدة !

م. بوبوف ـ اخرج والا أطلقت النار عليك . .

سميرنوف ـ تطلقين النار! ليس فى وسعك أن تتصورى مقدار غبطة من يموت على مرأى من هاتين العينين الجميلتين ، وأية لذة يلقاها صريع رصاصة من مسدس تطلقها هاته اليد الصغيرة المخملية الملمس . أوشك ولعلى بك أن يكون خبالا . فكرى ثم اعتزمى فى الحال . اذا خرجت منها فلن نلتقى أبدا . هيا قررى أمرا . أنا رجل سرى ، كريم العنصر ، دخلى كل عام عشرة آلاف روبل . أجيد الرماية الى حد أن أصيب الهدف برصاصة أطلقها على فلس قذف به فى الهواء . أملك الكثير من جياد الخيل . . أترضين بى زوجا ؟

م. بوبوف ـ (غاضبة وقد لوحت بمسدسها فى الهواء) طلبت المبارزة ! اذن فهيا اليها

سميرنوف ـ بى خبال . لم أعد أستطيع أن أفهم (مناديا) من هناك ! على بقدح ماء . .

م. بوبوف ـ (صارخة) ما زلت أتحداك للمبارزة !

سميرنوف ـ بى خبال ! أتخبط فى هواك كالحدث الساذج ، بل كالاحمق المجنون . (يقبض على يديها فتصرخ متألمة) أهواك ! (يقع على ركبتيه) أهواك هوى لم أدره من قبل . هجرت اثنتى عشرة امرأة ، وهجرتنى تسع نساء ، ولكن لم أهم باحداهن هيامى بك . أكاد أبكى من فرط ما بى . فقدت كل صلابة فى نفسى . لم يعد بى جلد على المقاومة . هأنا ذا أرتمى على ركبتى الى الارض كالمخبول . أعرض عليك حبى عرضا وأناشدك أن تقبلينى زوجا لك ! انها لمعرة . انها لفضيحة ! انقضت خمس سنوات من غير أن يفيض قلبى بهوى ، وعاهدت أن لن أكون للحب أبدا ، وهأنا ذا أجدنى سليب اللب ، أتهالك جوى . أتقبلين الزواج بى . . نعم أم لا ؟ ألا ترضين ؟ حسن جدا ، فأنت لا ترضين ؟ (يهم واقفا ويسير مسرعا نحو الباب)

م. بوبوف ـ تمهل . .

سميرنوف ـ (يتمهل ثم يقف) ماذا ؟

م. بوبوف ـ لا شيء . . اذهب . ولكن تمهل . لا . اذهب . اذهب . أكرهك . آه لا ، لا تخرج . آه لو عرفت مقدار حنقى عليك (تلقى بالغدارة فوق الطاولة) يبست أصابعى من هول ما كنت معتزمة اتيانه (تخرج منديلها فى غضب) لماذا أنت واقف هنا ! اخرج . .

سميرنوف ـ الوداع . .

م. بوبوف ـ نعم . نعم . اخرج . (صارخة) الى أين أنت ذاهب ؟ تمهل . لا بل اخرج . شد ما أنا حانقة ! لا تقترب منى ! لا تقترب هكذا !

سميرنوف ـ (مقتربا منها) شد ما أنا حانق على نفسى ! أصبحت أتخبط فى حبى كما يفعل تلاميذ المدارس ، ركعت ، يا للعار (متحدثا فى عنف) أهواك عامدا كما لو كنت أجدنى مدفوعا الى هواك ! سأدفع ديونى فى الغد بعد بيع محصول القمح ، فقد بدأ موسم تكويم التبن ، وستكونين أنت فوق قمة أكوامه (يطوق خصرها بذراعه) لن أغفر لنفسى ما فعلت

م. بوبوف ـ اخرج . ارفع ذراعك من حول خصرى . أنا . . أكرهك . . أدعوك الى المبارزة (قبلة طويلة)

(يدخل لوكا وفى يده بلطة يتبعه البستانى حاملا جرافة ، والحوذى مسلحا بمذراة ، ورهط من العمال يحملون عصيا وقوائم خشبية)

لوكا ـ (وقد شاهدهما متعانقين) ما هذا ؟

(صمت)

م. بوبوف ـ (خافضة من عينيها) لوكا . . قل لهم فى الاصطبل ألا يعطوا اليوم الجواد (توبى) شيئا من العلف

« ستار »

زكى طليمات

ضريبة الحياة

قصة مصرية ترويها الآنسة ابنة الشاطىء

« ... عند ضمير الزمن ، أودع هذه الرسالة الفاجعة التى تروى مأساة جيل من الشهيدات ، ليؤديها الى بناتنا من بعدنا »

— ١ —

كان أول عهدى بها يوم نزحت الى المدينة أطلب العلم ، وكانت تشتغل بالتدريس فى المعهد الذى تقرر أن أعمل فيه ريثما أستكمل دراستى العالية ، وهو معهد فخم ، خصص لفتيات الطبقة الراقية التى تكره لبناتها أن يشتغلن بدراسة تعد للاحتراف ..

جاءت الى غرفتى فى جمع من رفيقاتها يرحبن (بالزميلة الجديدة) فلما طالعتهن بثيابى الريفية ومظهرى القروى الساذج ، نظر بعضهن الى بعض فى سخرية مكبوتة ، ثم مضين عنى يتضاحكن ، وتخلفت (زينب) عنهن ، وقد بدا عليها أنها تتألم لما بدر منهن

ودنت منى تسألنى فى رفق ان كنت قد مررت بالعاصمة قبل اليوم ، فلم أجبها ، ونظرت الى الافق البعيد ألتمس وراءه قريتى الحبيبة التى شيعتنى فى حزن وأسى ، وقد أحسست شيئا من الانس والاطمئنان حين نأى بى ذهولى عن القصر الذى نزلت فيه ، فرجعت أخطر بين صواحبى القرويات ، وهن يرمقن الثياب التى أعدت لرحلتى فى كثير من الدهشة والاكبار ، ويحدقن مبهورات فى مشط (الالماس) الذى يتوج شعرى ، والاساور الذهبية التى تزين معصمى ، ويلمسن بأيديهن ، المعطف الوردى الذى حاكته لى (أمى) من المخمل الغالى

***

ولازمتنى (زينب) فى تلك الغمرة الاولى ، وكنت أضجر بصحبتها أول الامر ، لانى

كرهت أن أعرى جراحى أمامها ، وأشفقت أن تشهد النضال المر الذى كابدته وأنا أطوى فى أعماق نفسى ، شخصيتى القروية المألوفة ، وأنزع عنى ثيابها ، ثم أرتدى الاقنعة التى تقدمها المدينة للنازحين اليها من أبناء الريف . .

ولامر ما ، احتملت (زينب) اعراضى فى كثير من الدعة والرضى ، على أنى ما لبثت أن ارتحت اليها وألفت صحبتها ، اذ حببها الى أنها رأتنى قبل أن أتنكر فى زيى المستحدث ، فعندها وحدها ، ألتمس صورتى الاولى ، واليها وحدها أستطيع أن أتحدث عن (القروية العزيزة) التى طويتها كارهة ، وأخفيتها وراء القناع !

— ٢ —

ونشأت بيننا ألفة قوية ، وثقت الايام والليالى عراها ، لقد كانت (زينب) غريبة مثلى ، نشأت فى بلدة من اقليم البحيرة ، من أسرة كريمة متواضعة ، لم تبل الحياة العصرية ولم تتعرض لاضوائها ، وكان أبوها الشيخ ، يتردد على العاصمة فى شؤون تجارته ، فصحبته ذات يوم حين رأت أفواج الفتيات يخرجن من دورهن ، ويندفعن الى المدارس مفتونات. وكانت المدارس فى ذلك العهد ، تنادى هؤلاء الفتيات الغريرات نداء حافلا بالاغراء ، فاذا لبين النداء غلقت من ورائهن الابواب ، وأخذت تعهدا كتابيا على أولياء أمورهن ، يلزمهن باحتراف التدريس اجباريا لبضع سنوات ، فمن أبت منهن ذلك ، دفعت للحكومة بضع مئات من الجنيهات . .

وكانت (زينب) طفلة غريرة حين أعد لها هذا القيد ، فلم تحفل بأمره كثيرا ، على أنها أحست وطأته يوم أرادت أن تنحرف عن هذا الطريق الذى دفعت اليـه كرها ، وتعود الى بيتها . وكان الاحتراف على عهدها أمرا بغيضا تنكره كل أسرة كريمة قادرة على رعاية بناتها والانفاق عليهن ، وانما تعلمت (زينب) استجابة لحركة التطور ، ورغبة فى أن يرتفع سعرها فى سوق الزواج ، وقد ارتفع بالفعل ، وتقدم لخطبتها مهندس شاب رحب به قومها ورأوه كفئا لها ، لكن الطريق سدت عليها ، وأجبرت على احتراف مهنة التعليم راضية أو كارهة ، وهكذا ضاعت فرصتها الاولى . .

***

لم تجزع (زينب) لما حدث ، اذ كانت لا تزال بعد فى مستهل شبابها وزهوة صباها ، وقد بدت حياة العمل لعينيها طريفة شائقة ، واستقر فى وهمها أنها أروع وأمتع من الحياة الزوجية التى تسكن اليها الأميات الجاهلات !

وكانت معذورة فى هذا الذى وهمت ، فقد جن جنون الناس من حولها بهذا البدع الجديد ، واستحدثت فى لغة الحياة على عهدها ألفاظ ضخمة مبهمة عن الاستعباد والثورة والحرية والمساواة ، ودوت فى أفق الوادى صيحات عاليات ، تحدث الفتاة العصرية عن

حقها فى حياة حديثة ، غير الحياة التى قنعت بها أمها وجدتها من قبل ، وصار هم المرأة الجديدة وفخرها ، أن تبرأ من شوائب ضعف الأنثى ، (وتتشبه الرجال) !

وقد سمعت (زينب) ذلك كله ، وفتنت به ، واستجابت له ، فلم تضق بالقيد الرسمى الذى يحرم عليها الزواج ويجبرها على الاحتراف ، واستقبلت حياتها الجديدة راضية متهللة

— ٣ —

ودارت عجلة الايام ، وطوى الزمان فى جوفه عشرة أعوام ، أمضتها (زينب) فى حياة رتيبة مملة ، ترى كل عام وجوها جديدة ، ولكنها أبدا وجوه معلمات وتلميذات . وتنتقل كل عام الى مدرسة جديدة ، ولكنها أبدا حجرات الدراسة وعنابر النوم وقاعات الطعام ومكتب المعلمات ! تمضى يومها فى شرح الدروس، ومراقبة التلميذات فى فترات الاستراحة، حتى اذا حان المساء أوت الى فراشها كليلة متعبة ، وعلى شعرها ووجهها غبار أبيض من ذرات الطباشير المتناثرة ، وفى يديها آثار من المداد الاحمر ، وعلى ثيابها بقع المداد الازرق ، وفوق كاهلها حمل ثقيل من كراسات التلميذات !

لقد ذهبت الايام الاولى بطرافة العمل ، ولذة الكفاح ، وخلفت لها السآمة والضجر والملال ، وأشاعت فى جوها ظلالا كثيفة من الكآبة والهمود والاعياء !

***

ولعلها كانت قادرة على احتمال مشقة العمل ، لو أعفيت من عنت الناظرات ، وكيد الزميلات . كان ضجرهن بالعمل ، مع اضطرارهن اليه وارتباطهن به ، يذهب برقة أنوثتهن ويفسد أعصابهن . وكلما تقدم بهن العمر ، وتضاءل أملهن فى الظفر بحقهن الفطرى فى الامومة ، ازدن شراسة وخبالا ، ولم يكن لهن سبيل الى الانتقام من المجتمع الذى غرر بهن ، فكن يشتفين بالكيد لزميلاتهن ، يطفئن بذلك نار الحقد التى تأكل صدورهن ، كما أكلت الايام شبابهن

ولقد قاست (زينب) الهول من ذلك وأحست صدرها يضيق ويختنق ، لكنها لم تجد سبيلا الى الفرار . انها دفعت للحكومة الضريبة المقررة من سنوات شبابها ، فلا غرم عليها ان اعتزلت العمل ، ولكن العرف السائد كان يقضى عليها أن تبقى عاملة حتى تتزوج ، وهكذا حكم عليها أن تظل فى هذا الجو الخانق الى أن تسعفها (نجدة) من السماء ، فتسوق اليها الزوج الذى ينقذها ويمضى بها الى (البيت) !

وقد تشبثت زينب بأملها فى تلك النجدة، وغذته بما أبقت الحياة المتعبة من شبابها الهزيل، ولكن الامل أخذ يتضاءل رويدا رويدا ، كما أخذت شعلة الحياة فيها تخبو شيئا فشيئا ، وهى تحس ذلك ، وتدركه ، وتموت به موتا بطيئا . .

حتى افتقدت نفسها يوما ، فاذا بها قد أضاعتها . جف ماء الحياة فيها ، وذبلت نضرة شبابها ، وكل بصرها ، وعاجلتها شيخوخة مبكرة ، قبل أن تشرف على الثلاثين من عمرها!

كانت تحن بفطرتها الى البيت ، وتشتاق الى الامومة ، وتهفو الى حياة مستقرة كريمة فى ظل زوج كريم ، فلما رأت شبابها يوأد ، وحياتها تنهار ، ثارت ثائرتها وعبأت كل قواها لتحارب الموت فى نفسها ، لكن الداء كان قد تمكن منها ، فجن يأسها ، واندفعت فى نوبة من الحقد والمرارة ، تمقت الناس والدنيا ، ولا تحتمل رؤية تلميذاتها الصغيرات ، لانهن ينكأن فيها جراحا ضمدها اليأس ، ويهجن أشواقها الخامدة المكبوتة ، الى الامومة والبيت !

وكانت زينب تنكر من نفسها هذا الانهيار التعس ، وتقارن بين أمسها ويومها فيدركها الرعب والاشمئزاز . وشهدتها الليالى الطويلات محزونة مسهدة ، تبكى تلك الانثى الكريمة الهادئة التى تحتضر فيها !

وفى هذه الفترة من حياتها عرفتها .

ولمحت عليها ظلال الالم الدفين ، والامل الخابى ، وآثار المعركة القاسية ، وقد أنكرتها أول الامر ، وأوجست منها خيفة ، لكنها تشبثت بى فى الحاح غريب ، وما زالت بى حتى ألفتها ، ثم أحببتها

لقد رأت فى وجهى صورة ماضيها الذى ولى وراح ، فتعلقت بى تلتمس النجاة من حاضرها الشقى التعس .. وكان ظهورى فى أفقها منبها لفطرتها النائمة ، فقامت تحارب الشر الذى خالطها ، والشيطان الذى حل فيها ..

وجمعنا الجهاد المشترك !

كانت كلتانا تناضل من أجل فطرتها ، وكل الفرق بيننا أنها تحارب لتسترد ما أضاعت ، على حين أحارب لاحتفظ بما لم أضيع بعد !

وأعانت كل منا صاحبتها على الجهاد ..

فقد كان وجودى الى جانبها يستثير قواها ، ويثير شوقها الى ماضيها ، وكان وجودها الى جانبى ، يحذرنى من مصيرها ، ويزيدنى حرصا على سلامة فطرتى ..

وبذلت (زينب) نفسها للمعركة ، وأيدتها السماء فى جهادها الرائع ، فبرئت من الشر ، وانتزعت نفسها من ركب الشيطان ، وحملت حطام حياتها المنهارة فى صبر ووداعة وألم نبيل ، ثم استأنفت العمل ، ووجهها يشرق بنور الاستشهاد .

— ٤ —

ثم كانت المعجزة !

عاد ابن عم لها كان يدرس الطب فى الخارج ، وقد استهوته (زينب) فى رقتها وضعفها ووداعتها ، وفتنه ذلك النور الشاحب الحزين الذى يشع من وجهها فيخدر أعصابه ويغمره بالامن والسلام ، وكانت حياته فى أوربا قد زهدته فى الصخب والضجيج ، وشاقته الى السكون والاستقرار

وتطوع الملأ من حوله (لخدمته) وتبرعوا بالنصح له ، فأنكروا عليه أن يرضى بهذه (العانس) الفقيرة ، وأمامه زهرات الطبقة الراقية ، يقدمن اليه الصبا والغنى ، ويعدنه بالرقى السريع . لكن (أحمد) تشبث بفتاته وأبقى عليها — لم يكن يجهل أنها جاوزت فجر الشباب ، لكنه وجد فى ذلك ما يروى ظمأه الى (الام) ، وكانت أمه قد تركته صبيا بعد موت أبيه ، ومضت تستأنف حياة جديدة ، مع زوج جديد . .

وقد رعته أم (زينب) واحتضنته فى صباه ، وبذلت له الحنان محضا صافيا، لكنها عجزت أن ترضى طفولته المحرومة ، فلم يكد يبلغ مبلغ الشباب حتى هجر وطنه ، ونزح الى الغرب ، ينسى فى ضجيجه همومه وأحزانه

***

دخل الحب حياة (زينب) فبدلها خلقا جديدا : أودع عينيها التائهتين ، بريقا عجيبا يتألق بحيويتها الطارئة ، ومس شفتيها الذابلتين ، فرد اليهما النضرة والحياة ، ومسح على وجهها الشاحب ، فأعاد اليه النور والاشراق ، وتسلل الى روحها ، فأزاح عنها ركام الجمود والموت ، ثم بعث الامل يغزو قلبها ، ويطرد منه اليأس والظلام !

وراحت (زينب) تهيىء عشها والدنيا لا تسعها : دعت اليه أحلامها المشردة ، وأمانيها الخابيات ، وأنشأت تبنيه بأعصابها ودمها وقلبها ، حتى اذا أتمت بناءه ، نظرت اليه فتألقت فى عينيها دموع الفرح والغبطة ، ثم وقفت على بابه تنتظر ، وقد غفرت للزمن كل ما عانت من تشرد وضلال ، وما ذاقت من مرارة الحرمان !

— ٥ —

وفجأة ، ظهرت (أمه) فى الافق . كانت مريضة تحتضر ، وقد بعثت الى ولدها لتملأ منه عينيها قبل أن يغلقهما الموت ، وتسمع كلمة المغفرة ، قبل أن تبرح الدنيا وتمضى الى وادى العدم !

فلبى (أحمد) نداءها ، وخف اليها مشوقا جازعا ، فلم تكد تراه حتى أجهشت بالبكاء ، ثم أوت الى صدره وهى تنتفض من فرط الحب والفرح والانفعال !

ولم تكن بحاجة الى أن تستغفر ، لقد غفر لها قبل أن تسأله المغفرة ، وكان شفيعها عنده الموت الماثل ، والامومة المحرومة . .

وكأنما أمسكها ولدها الى الحياة ، فبدأت تناضل لتبقى ، وهو الى جانبها يبذل لها من علمه وفنه وبره ، ما يعينها على النضال !

وجاءها يسعى ذات يوم ، مشرق الوجه متهلل الاسارير ، كانت قد اشتهت أن ترى عروسه لتباركها ، وها هى ذى الى جانبه ، فى جلوة عرسها ، تضحك للدنيا وتبتسم للحياة

وتريثا قليلا لدى الباب ، فلما أحست المريضة بهما دبت فى كيانها الذاوى قوة طارئة ، فتماسكت ، ونهضت من نومها ، وأشرق وجهها الشاحب بابتسامة عريضة هانئة . .



لكنها لم تكد ترى (زينب) وتسمع اسمها ، حتى انقبضت أساريرها بغتة ، ثم تهالكت فى فراشها وهى تردد فى استسلام يائس حزين :

ــ غفرانك يا بنى، انها أختك! أرضعتها من ثديى هذين أياما ثلاثة كاملة ، حين مات خالها . .

وذاب صوتها فى حشرجة الموت ثم غامت الدنيا، وأعولت الريح، وبكت السماء . .

وأصبح الصبح فاذا بأيدى الزمان قد مزقت الشمل ، وخنقت الامل ، وهدمت (العش) وبعثرت أنقاضه مع الريح.

لقد كان كل ما ذكرته الام المحتضرة صحيحا واقعا ، شهدت به أم (زينب) ، وأيدته الاسرة جميعا . .

حدثوا أن فاجعة ألمت بالبيت و (زينب) فى المهد ، غرق خالها وطفلاه فى اليم ، فى أصيل يوم من أيام العيد ، فبث الحزن بأخته حتى أشفقوا على صغيرتها ، وبعثوا بها الى زوجة عمها ترضعها وترعاها ريثما تكشف الغمة ، وكانت هذه الزوجة حديثة عهد بالوضع ، فأعفاها ذلك من شهود المأتم الفاجع . .

وانجلت الغمرة ، وعادت الطفلة (زينب) الى أحضان أمها ، ولا يكاد أحد يعى ماحدث لها ، اللهم الا زوجة العم ، وقد مضت هذه الى بيت جديد وأسرة بعدة ، ونسى الذى كان

ــ ٦ ــ

غادر أحمد اقليم البحيرة ، ومضى على عجل الى أقصى الصعيد ، كأنما يفر من لعنة تطارده ، وعادت (زينب) الى المدرسة ، والكراسات ، والتلميذات ، والزميلات . .

عادت هزيلة شاحبة ، كسيرة القلب بادية القنوط ، فاستقبلتها زميلاتها بابتسامات عابثة تقطر سخرية واشتفاء ، فوثبت الى جانبها أحميها من كيدهن المريض ، وسألتها أن تمضى معى الى غرفتها لتستريح

وقد أسلمت زينب نفسها ليدى ، وراحت معى تجر قدميها جرا ، حتى انتهت الى فراشها فارتمت عليه منهوكة تنشج نشيجا أليما خفت أن يمزقها ، ثم هدأت بعد حين هدوءا موجعا يشبه الموت . .

ولم يبق لها من علامات الحياة الا عينان تحدقان فى غير شيء ، وترسلان نظرات تائهة خرساء

وبدا عليها أن شيئا فيها قد مات ، فكانت تمضى ساعات طويلات جامدة صامتة كأنها جثة ، وعافت الطعام الا قليلا ، وأمسى نومها نوعا من الهمود المتعب المريض

***

وجدت فى حياتها بعد ذلك أحداث قاسيات : توفيت أخت لها شابة ، بحمى التيفود ، ولحق بها أبوها الشيخ بعد أشهر معدودات ، فظننت أن تلك اللطمة جديرة بأن تنبهها وتمسك عليها الحياة ..

كانت لا تفتأ تسألنى كل يوم : « فيم العيش وقد انطفأت فى الحياة ؟! » فلم أكن أدرى بم أجيب ، حتى اذا غال القدر أختها وأباها ، عرفت كيف أجيب . كان على (زينب) أن تعيش من أجل أمها الثكلى ، واخوتها الصغار ..

وسعينا لها عند أولى الامر فى وزارة المعارف ، فنقلت الى بلدتها لتسكن الى من بقى من أهلها ، وتنهض بعبئها الجديد

وقد صحبتها الى هناك ، وبقيت معها يوما وبعض يوم ، ثم تركتها وفى وهمى أنها قادرة على احتمال محنتها الكافرة ..

وتناءت بيننا الديار ، وتراخى العهد ، وأمست (زينب) ذكرى حزينة شاحبة ، تلم بى من حين الى حين ، فأكتب اليها دون أن أنتظر لجوابى ردا ..

***

حتى روعت ذات صباح بنعى (زينب)

نعتها الى (الاهرام) وأنا فى طريقى الى القرية ، فى مشرق يوم عرفات ، فكانت مباغتة أليمة مزقت قلبى وغلبت صبرى

ولم أكن أعلم أنها أصيبت آخر العمر بشلل نصفى ، أمسكها الى الفراش شهرا كاملا ، ثم أدركتها رحمة الله ، فأبرأها الموت من جراح الحياة ..

***

وسأل السائلون : ألا تعزين فى (زينب) ؟

قلت كلا ! فقد فات أوان العزاء ، انها ماتت من زمن بعيد ، وبقيت جثتها تتحرك فى عالمها المنهار ، حتى سكنت أخيرا وهيل عليها التراب ..

بنت الشاطىء



الجبهة السوداء

قصة زعيم ألمانى يقاوم هتلر

هذه قصة الوطنى الالمانى أوتو ستراسر الذى كان فى يوم ما أحد المبرزين فى ساحة الريخ الالمانى الثالث ، والذى غدا اليوم شريدا فى المنفى هائما بين شتى الاقطار . لمنذ سنوات وهو بمثابة سنان الرمح التى توجه بها الطعنات الى النظام الهتلرى . وقد يغدو عما قريب زعيم ألمانيا الجديدة ، ألمانيا الحرة التى ستقوم على أنقاض المانيا الهتلرية . على انه ان أخفق دون بلوغ هذا الهدف ، فستبقى سيرة حياته خالدة بين سير العظماء ، بما فيها من جرأة قلب وصدق فراسة وصدق وطنية ، تستحق اكبار الرجال ، كما تستحق تخليد التاريخ

بدأت حياة أوتو ستراسر كما بدأت حياة أغلب أبناء أوربا الذين ولدوا حول نهاية القرن الماضى ومستهل القرن الحالى . أى بدأت حياته العامة يوم دارت رحى الحرب الماضية فى سنة ١٩١٤ . ولم يكن عمر ستراسر يومئذ يتجاوز سبعة عشر عاما ، ولكنه التحق منذ بداية الحرب فى الفرقة الرابعة من المدفعية الالمانية . وقد اذكى فيه خوض غمار الحرب روح الوطنية الالمانية ، كما أثار فيه عاطفة الاعجاب ببسالة الجندى الالمانى . ولكنه الى جانب هذا شاهد وعانى من مساوىء الاتوقراطية الالمانية والعجرفة العسكرية ما لا يزال يذكره اسوأ الذكرى . ولا شك أن حديثه عن تجاربه تلك فى غضون الحرب الماضية تزيد من حيرة كل أجنبى عن ألمانيا فى أمر هذا الشعب

كان ستراسر جنديا ملء قلبه ، ولكنه مع هذا كان يحس المقت العميق لضباط الجيش الالمانى . فقد كان شابا مثقفا ، وهم أبعد الناس عن الثقافة وأشد الناس ازدراء لها . انهم

يرون فى الثقافة عدوا للروح العسكرى ، أو على الاصح لروح العدوان التى تسير جيشهم وتوجه خططهم . وكان فى كتيبته ، وعدد جنودها ثلاثمائة ، مائة وثمانون طالبا ، كانوا يعانون من عنت الضباط أكثر مما يعانى سائر الجنود . ويروى ستراسر فى صدد هذا القصة التالية :

« فى مساء أحد أيام السبت من شهر اكتوبر سنة ١٩١٤ ارتدينا أجمل ملابسنا تأهبا للسفر الى المدينة حيث نمضى يوم اجازة منحناه . واذا بأحد ضباط الصف يأمرنا أن نصطف ، ثم ينادى فينا : من منا يعرف الانجليزية أو الفرنسية ؟ فتقدم بعضنا وقد حسب أنه سيدعى لمهمة حربية تتطلب معرفة احدى اللغتين الاجنبيتين . وكنت أحد هؤلاء الذين تقدموا مستبشرين خيرا . واذا بهذا الضابط ينظر الينا شهرا ، ثم يقول : واذن فان على هؤلاء المثقفين الخائبين أن ينظفوا المعسكر هـذه الليلة ، وعلى الباقين أن ينصرفوا الى اجازتهم .. هيا الى العمل أيها المثقفون ! »

ويقول ستراسر فى ختام هذه القصة : « منذ ذلك الحين وقلبى ينطوى على كره عميق للعسكرية التى تختلف كل الاختلاف عن الجندية » . نعم ، فالجندية هى حمل السلاح فى سبيل الدفاع عن رأى أو شرف أو وطن . أما العسكرية فهى حمل السلاح من باب الاحتراف والامتهان ، وحمله فى سبيل الهجوم والتعدى ، واعمال هذا السلاح فى الناس بلا تفرقة بين المذنب والبرىء !

وكانت حياة ستراسر فى الجندية حياة ممتازة . فحارب طوال سنى الحرب ، وجرح فى احدى معاركها جرحا خطيرا ، وكوفىء على ذلك بوسام الصليب الحديدى من الطبقة الاولى ورقى الى رتبة ضابط لانه طارد جماعة من الجند حتى تركوا مدفعهم فغنمه . وأحس فى فترة طويلة من الحرب وهو الجندى الذى يحارب فى جيش منتصر مظفر ، ولكن لما انقلب المد جزرا ، واستحال النصر هزيمة بدأ يقول : « لن أنسى ما حييت أول مرة رأيت فيها الجنود الامريكيين . كان ذلك فى يوم ٢٥ اغسطس سنة ١٩١٨ . وكانت كتيبتى تدافع عن معبر احدى القنوات فى فرنسا ، وكانت ترتد منذ أيام تحت ضغط عدو يتفوق علينا عددا وعدة وعتادا . ولم تكن بأيدينا الوسائل التى تنقل بها جرحانا ومرضانا، فضلا عن أن نضمدهم ونداويهم . وكنت فى مركز أمامى حين رأيت الامريكيين ، فرأيتهم صفا واحدا من الجنود الممتلئين صحة وابتهاجا ، ينشدون أناشيد فتية مرحة ، وهم فى ملابس قشيبة تزينها قبعات وأحذية انيقة . نعم كانوا يسيرون كما كنا نسير فى صيف سنة ١٩١٤ حين دخلنا معمعة القتال واثقين من انفسنا مطمئنين الى أن النصر من نصيبنا !

« ولاول مرة ، حين رأيتهم ، أحسست الخوف من أن نخسر الحرب . اذ ماذا يجدينا نفعا من تساقط قنابلنا على هذه الصفوف التى لا أول لها ولا آخر من جنود يملأهم الأمل واليقين والابتهاج ؟ ان هذا التيار الدافق من الجنود كان زاخرا مندفعا الى حد خليق بأن يغرقنا فى لجته ويطوينا فى غماره

« وما من جندى ألمانى مرت به هذه التجربة القاسية ، فرأى بعينيه الفارق الكبير بين جنود جيشنا المتخاذل وقد أوهنهم الجوع والضنى فراحوا فى أسمالهم البالية يسيرون مترنحين ويتكلمون متذمرين ، وبين أولئك الشبان الامريكيين الذين يطعمون أوفى الطعام ويلبسون أبهى اللباس ، وقد توافر لهم من العدد والعتاد ومن الدربة والتمرين ما يملأ صدورهم يقينا بالنصر القريب — ما من جندى ألمانى شهد هذا بعينيه يمكنه أن يصدق تلك الدعوى الكاذبة الخرافية : دعوى هتلر بأن الجيش الالمانى طعن فى ظهره بخنجر اليهود »

***

وقفت رحى الحرب ورفعت راية السلام ، وجاءت على ألمانيا تلك المحنة القاسية : فأما رجالها فقد وجدوا الحياة من حولهم أطلالا وانقاضا ، دفن فيها من دفن من أبنائهم القتلى والجرحى والمرضى ، وضاع فيها ما ضاع مما ملكوا وادخروا طوال أيام الصبا والشباب . وأما شبانهم فقد سرحوا من الجيش الى حيث لا يجدون عملا يرتزقون منه فضلا عن أن يجدوا الحياة الآمنة الرتيبة

وكان أوتو ستراسر وسط هذه الفوضى الضاربة أطنابها يعانى مرضا عضالا سرى فى أطرافه منذ أيام الجندية . ولكنه بدأ يجاهد فى سبيل عيشه وفى سبيل مستقبله ، فراح يسعى جاهدا لينال درجة علمية من جامعة ميونيخ . وكان أكبر ما يهمه قوته اليومى ، فكان يدرس فى الجامعة من الصباح الباكر الى منتصف النهار، ثم يذهب الى دار الريشستاغ حيث وجد وظيفة بسيطة ، وظيفة كاتب مختزل ، بمرتب ضئيل ، فكان اذا انصرف من عمله هذا فى السادسة أو السابعة مساء ، تناول عشاءه على عجل ثم ذهب الى مدرسة يعلم فيها الشبان والعمال دروسا فى التاريخ الالمانى دون أن يتقاضى عليها أجرا . ويعود الى بيته بعد ذلك ليستأنف العمل فى دروس الجامعة الى ما بعد منتصف الليل . كل هذا وهو مريض يعانى شللا فى ساقيه ، حتى غدا لا يستطيع السير الا متوكئا على عكازتين

وكان مذهبه السياسى ، ولا يزال ، المذهب الاشتراكى . فقاده هذا المذهب الى حزب سياسى جديد قام وسط هذه الفوضى التى عمت الحياة الالمانية من جميع جنباتها ، وهو الحزب الوطنى الاشتراكى الذى أنشأه أدولف هتلر . وكان لاوتو أخ أكبر منه هو جريجور ستراسر ، وكان يؤمن ايمانا عميقا وثيقا فى وعود هتلر بأن يجعل من ألمانيا موطنا لشعب سعيد كريم ، ينال فيه كل ذى حق حقه ، ولا يضحى فيه بالضعاف قربانا للاقوياء المنهومين . فانضم جريجور الى هتلر وآزره بكل قواه وجوارحه

ومرت خمس سنوات منذ اليوم الذى انضم فيه أوتو ستراسر الى النازى الى اليوم الذى ألقى فيه على هتلر كلمة الوداع ، قائلا له فى وجهه : انك رجل مخادع ومخاتل ، كاذب ومحتال . فقد تبين تغرير هتلر باتباعه ، وأيقن من انه خان الاشتراكية واتخذها ستارا لاهوائه ونزواته ، وأنه قد باع وعوده للناس باقامة النظام الاشتراكى لهذه الفئة التى

تسيطر على الصناعة وتمتلك المصارف وتضع أيديها على الاراضى والغابات، لفئة الرأسماليين مقابل ما أمدوه به من المال فى الخفاء

لقد أدرك أوتو ان سياسة هتلر ليست بالسياسة النظيفة الشريفة ، وان مذهب هتلر ليس بالمذهب الاشتراكى الصحيح ، فحاول ان يهدم الحزب النازى : حاول أن يبث فيه الالغام التى تنسفه وتقوضه . فأخذ يجمع حوله أعضاء الحزب الذين يؤمنون بالاشتراكية اكثر من ايمانهم بهتلر ، ويؤمنون بألمانيا اكثر من ايمانهم برجالها العسكريين والماليين ، وألف منهم « الجبهة السوداء » . وكان أنصاره هؤلاء يؤلفون جبهة وسط الحزب النازى ووسط الجيش الالمانى بل ووسط جماعة الجستابو ذاتها . وبذلك بدأ حربه على هتلر . وهى حرب ما تزال دائرة الرحى متقدة النار . نعم انها لا تبدو للعيان لانها قائمة فى الخفاء، ولكن قد يأتى اليوم الذى تتبدى فيه هذه الحرب على مشهد من العالم جميعا ، فى صورة ثورة داخلية تعصف بهتلر وبالنازى عصفا ذريعا . « فالجبهة السوداء » تقوم الآن فى قلب ألمانيا متأهبة للعمل الحاسم يوم يقصم ظهر القوة العسكرية التى تسند الهتلرية ، وكأنها النار المطمورة تحت الرماد : لا يبدو لهيبها ولكنها مع هذا جمرة محرقة

***

فى مساء ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣ كان أوتو ستراسر ذاهبا الى محطة برلين ليأخذ منها القطار الى بيته فى احدى ضواحى المدينة ، فرأى سحابة كثيفة من الدخان واللهيب تخيم فوق المدينة . فسأل سائق السيارة عن الامر ، فقال له : « ان النازى أحرقوا الريشستاغ» وعندئذ تبين أوتو مدى الخطر الذى يحف به ، فقد بدأ حقا عهد جديد من الحكم الارهابى الذى لا يتحرج من اراقة الدماء وازهاق الارواح مهما تكن زكية وبريئة . وأدرك ان منزله فى برلين لا بد أن يكون فى هذه الساعة قد أحيط برجال الجستابو تأهبا للقبض عليه متلبسا بجريمة التآمر على الفوهرر والحزب ، فعدل عن الذهاب الى بيته وأخذ طريقه الى مكان آخر فى أحد انحاء ألمانيا النائية ، وكان قد أعده من قبل ليكون مقرا لحركته السرية ، كما أعد لها أماكن أخرى كثيرة ليتنقل بينها كلما وقعت عين الجستابو على أحدها

ومنذ ذلك الحين بدأت سلسلة متصلة الحلقات من أعمال الاختفاء والمطاردة . ولكن ستراسر كان أدهى عقلا وأمهر حيلة من الجستابو ، فمع أنهم طاردوه فى كل مكان ، وتعقبوه فى كل قرية ، الا انهم لم يظفروا به أبدا . وحدث بينه وبين الجستابو من صور المطاردة ما لا نشهد مثله الا على الشاشة البيضاء فى الروايات البوليسية . فثمة نراه فى سيارته منطلقا بها انطلاق الريح ومن ورائه سيارة الجستابو ، وهو ينعرج بها من طريق الى طريق ، ويعلو بها الاكمات ويهبط بها الوهاد ، حتى يختفى عن الابصار فى أجمة كثيفة أو وسط بناء مهجور . وثمة نراه مختفيا فى زى شاب انيق عاشق من هؤلاء الشبان الذين يجرون وراء الفتيات ويضربون لهم مواعيد اللقاء فى القرى النائيـة ، فاذا رآه

الجستابو لم يدر بخلدهم أن هذا الشاب المتأنق السادر هو عدو هتلر اللدود

ولو أن الجستابو أمسكوا به لكان مصيره على التحقيق مصير أخيه جريجور الذى أبى أن يهجر ألمانيا بعد ان انفصل من هتلر عقب قيامه على الحكم وتوليه زمام السلطة . وقد حسب جريجور أن لا بأس عليه ما دام قد هجر السياسة وانصرف الى العمل فى احدى المؤسسات الكيمياوية فى برلين . ومرت عليه أيام شعر فيها أن لا خطر عليه وأن هتلر أسقطه من ذاكرته ، فأكب على عمله الجديد مبتعدا عن السياسة وكل من ينتمى اليها .

وعرف أوتو فيما بعد ما حدث لاخيه جريجور . عرفه من رجل كان معتقلا حينذاك فى هذا المعسكر الذى اعتقل فيه أخوه . فعرف ان أخاه كان مستلقيا ذات يوم على اريكة خشبية فى المعسكر حين دخل عليه هيدريش ، وهو الذى يلى هملر فى صفوف الجستابو ، ومعه رجل ثان غير معروف ، ووقفا بباب الحجرة التى حبس فيها جريجور ، واستلا مسدسيهما وأطلقاهما عليه . فقفز المسكين الى ركن فى الغرفة وهو يصرخ ويعوى ، ولكن نار المسدسين لاحقته الى هذه الزاوية فسقط الى الارض وما زال ينبض بالحياة . فتقدم اليه هيدريش وقذفه برصاصة فى عنقه كانت هى القاضية . وهيدريش هذا هو الذى لقى مثل هذه الميتة بعد سنوات ، حين اغتيل فى بوهيميا بيد نفر من أبنائها المجاهدين

***

اعتصم أوتو ستراسر بمدينة فينا التى حسبها بمأمن من عملاء النازى ، واستأنف حربه التى يمكن أن نسميها « حرب الرجل المفرد » . وبدأ هناك يكتب ويطبع جريدة لفضح أعمال هتلر ومشاريعه ، ويهرب منها الى أرض الريخ آلافا وآلافا من الاعداد . وكان هذا العمل فى بدايته يسيرا ، فقد كان فى النمسا جمع كبير ممن يخشون ان تمتد يد هتلر الى بلادهم فيذهب باستقلالها ويقضى على حرية بنيها . ولهذا أعانوا ستراسر فى تحرير الجريدة وطبعها وتهريبها . وكان اسم هذه الجريدة « المذيع الاسود » . وكان ينشر الى جانب الجريدة رسائل صغيرة تطبع على ورق رقيق ، ويسهل طيها فى كرات صغيرة من الجلد الرقيق . وكان رجاله يبتلعون هذه الكرات ليهربوا ما بداخلها الى أرض ألمانيا ، وقد بلغ ما هربوه منها فى احدى المرات خمسين ألف رسالة . وكان النازى لا يرهبون شيئا مثل هذه الرسائل التى كان الشعب يتلقفها متلهفا عليها ، لما تضمنته من اسرار لا يعرفها الا رجل مثل أوتو ستراسر كان الى جانب هتلر عددا من السنين ، وكان مطلعا على خططه واسراره ، هذا الى أنه لم يكن من الممكن اتهامه بما يتهم به سواه من المناوئين ، فلا هو شيوعى ، ولا هو يهودى ، وانما هو نازى تاب وأناب حين تبين طريق العسف والخديعة التى يسير فيها حزبه وزعيمه

ولكن يد الجستابو امتدت عبر الحدود الى النمسا وبدأ ستراسر يحس أصابعها تقترب منه . وفى ذات ليلة اقتحم جماعة من النازى بيته فى برلين ليختطفوه . ولكنه كان فى

تلك الليلة فى تشيكوسلوفاكيا حيث راح يبحث فيها عن مكان يتخذه مقرا لحركته اذا وقعت النمسا فى يد هتلر . وعلم بما حدث عند عودته الى فينا ، فأيقن أن لا مأمن له فيها ، ولاسيما أن كثيرا من رجال البوليس النمساوى كانوا يمالئون النازى ويتغاضون عن جرائم رجاله ، ويقدمون ذلك دليلا على صداقتهم التى يرجون من ورائها الغنم والكسب يوم تقع بلادهم تحت أقدام النازى . فلم يجد هتلر بدا من أن يهجر فينا الى براغ التى اتخذها مقرا لحركة « الجبهة السوداء » ، ومركزا لقيادة الحرب التى سميناها « حرب الرجل المفرد »

وكانت براغ آمن من فينا ، فليس من أهلها من يحب النازى أو يرغب فى أن تذل له بلاده ، ولم يكن من السهل على عملاء النازى ان يقارفوا جرائمهم بين هؤلاء القوم الذين يمقتونهم . ولهذا راح ستراسر يصدر جرائده ورسالاته التى يحارب بها هتلر ، وراح أنصاره يهربون هذه الجرائد والرسائل الى ألمانيا ، محتالين تارة ، مغامرين تارة أخرى ، معرضين حياتهم لاشد الاهوال . فمن الحيل التى لجأ اليها ستراسر أن طبع أغلفة خطابات تشبه تلك التى تستعملها الجمعية الطبية الالمانية، وأرسل فيها خمسين ألف نسخة من جرائده ورسائله ، وترك الاغلفة مفتوحة لكيلا تثير شبهة عمال البريد ، وأرسل هذه الآلاف من الرسائل الى شتى انحاء ألمانيا ، فحملها اليها البريد الالمانى دون أن يفطن أحد من رجاله الى أنه يحمل فى يديه أقوى الاسلحة التى يحارب بها هتلر ويناهض . واتبع هذه الوسيلة مرة أخرى مستعملا أغلفة خطابات كتلك التى يستعملها اتحاد المحامين الالمان

وفى سنة ١٩٣٤ بدأ ستراسر أهم مراحل حربه على هتلر . وهى مرحلة تشبه القصة البوليسية وتشتمل على جميع عناصرها . ففيها نجد الفندق الريفى المهجور ، ونجد الفتاة الشقراء الفاتنة ، ونجد المسدس وطلقات الرصاص ، ونجد مغامرات الهروب فى السيارة المنطلقة . هذه هى قصة محطة الاذاعة اللاسلكية التى انشأها ستراسر فى احدى الفنادق

لم يقم ستراسر بهذا العمل العجيب بمفرده ، بل كان يعاونه رجل جرىء مخلص هو رودلف فورمس ، وهو أحد مهرة المهندسين اللاسلكيين الالمان . وقد رفعته مهارته الى مرتبة كبيرة فى محطة الاذاعة الالمانية ، ولكنه لم يكن يخفى كراهيته للنازى ، فاضطر الى أن يلوذ بالفرار الى خارج ألمانيا لينجو بحياته مما تهددها من خطر الموت . وقد قابل ستراسر فى براغ واتفقا على اثارة « حرب لاسلكية » على هتلر . وكانت العقبة التى تعترضهما قلة المال ، ولكن عددا من أنصار هتلر فى ألمانيا أرسل اليهما ما يريدان ، فبدأ الرجلان فى اقامة المحطة . وكان يجب أن تقام فى مكان قريب من الحدود الالمانية حتى يسهل ايصال صوتها الى سمع الشعب الالمانى ، وأن يكون هذا المكان بمأمن من السلطات التشيكية ومن أعين الجستابو على السواء . ووجدوا هذا المكان على مسيرة اربعين ميلا من براغ فى فندق ريفى تاه سماه صاحبه « فندق ما وراء التلال » . وكان الوقت اذ ذاك خريفا والفندق خاليا من الناس اذ قلما يهبط هذه المنطقة زائر فى هذا الفصل الذى يستكن فيه الناس منصرفين عن الرحلات

ظلت هذه المحطة قائمة بأمر الدعوة التى كرس ستراسر نفسه لابلاغها ، حتى عرف النازى بعد جهد عنيف أين مقرها . وفى ١٦ يناير سنة ١٩٣٥ ذهب ستراسر الى ذلك الفندق ورأى فورمس آخر مرة فى حياته . وكان معه بضعا من اسطوانات الجرامفون سجل عليها خطبا له لتذاع على الشعب الالمانى . وكانت هذه الاسطوانات تذاع ثلاث مرات فى كل يوم . وانبأه فورمس فى ذلك اليوم أن قد هبط الفندق رجل ألمانى وفتاة ، وانه يبدو أنهما حبيبين جاءا يمضيان وقتا جميلا بعيدا عن أعين الرقباء . وارتاب ستراسر فى الامر وساورته الخيفة ، ولكن فورمس قال له : كلا ، بل هما من الاناقة والرقة بحيث لا أشك فيهما ولا اتوجس منهما شرا . على أن فورمس أخفى عن صاحبه أمرا ، فقد جاءته هذه الفتاة الشقراء الفاتنة ذات يوم وقالت : انى أحب أن نأخذ صورة لنا معا ، لتكون لى ذكرى لهذه الايام الجميلة ، التى أرجو ان نحياها مرة أخرى عند ما أعود الى هذا الفندق عما قريب ، بعد ان نقضى أمرا لنا فى برلين . ولعل فورمس ارتاب فى الامر ، ولكن جمال الفتاة كان أقوى عليه من ريبته ، فأخذت لهما صورة وقد لف يده حول خصرها

وفى اليوم التالى غادرت الفتاة وصاحبها الفندق . الى أين ؟ الى برلين لتعرض الصورة على رجال الجستابو ليتأكدوا من أن هذا الرجل هو خصمهم فورمس

وبعد أيام قليلة عاد الرجل والفتاة الى الفندق . وآوى الرجل الى فراشه عند ما أقبل المساء اذ كان يشكو من صداع ألم به فى اثناء رحلته . بينما بقيت الفتاة فى حجرة فورمس يتسامران بلعب الورق وشرب البيرة . فلما جن الليل اذ بباب غرفتهما يفتح واذا بالرجل ومعه آخر وفى يد كل منهما مسدس كبير . وانطلق الرصاص من المسدس فأصاب فورمس وأصاب الفتاة ، فأرداهما قتيلين . واستيقظ صاحب الفندق وخادمه وأسرعا الى حيث انطلق الرصاص ، فقادهما أحد الرجلين الى غرفة وأوصد دونهما بابها . وسمعا وهما فى محبسهما صوت سيارة تندفع مسرعة ، وقد غدا الفندق ساكنا صامتا لا صوت به ولا حراك . وكسرا باب الغرفة وذهبا الى حيث يقيم فورمس فوجداه جثة هامدة . أما السيارة فكانت تحمل الرجلين وتحمل جدث الفتاة

لماذا قتلت ؟ لعلها قتلت خطأ ، ولعل صاحبها كان يكرهها لأمر ما فانتهز الفرصة وأطلق عليها الرصاص . وعاد الرجل الى الجستابو ظافرا . وكوفىء على ذلك ـ كما علم ستراسر ـ بعشرة آلاف مارك . ورقى الى رتبة أعلى فى هيئة الجستابو

أما محطة الاذاعة فنقلها بوليس براج الى أحد المتاحف حيث كانت ، الى ما قبل استيلاء هتلر على تشيكوسلوفاكيا ، من أهم معروضاته .. ألم تكن هذه المحطة الصغيرة بمثابة جيش عنيد يحارب هتلر ، فيقض مضجعه ويؤرق نومه ، ويعد الثورة التى تعصف به

هذه هى قصة أوتو ستراسر وقصة الجبهة السوداء التى أقامها حربا على هتلر . وهى ما تزال قائمة ، بل لعلها الآن أقوى وأضخم مما كانت فى يوم من الايام

(خلاصة كتاب للصحفى الانجليزى دوجلاس ريد)

لو جاء هتلر

قصة ملخصة : بقلم الأستاذ عبد الحميد عبد الغنى

ألف هذه القصة كاتبان انجليزيان هما دوجلاس براون وكريستوفر سيربل . وذلك فى الوقت العصيب الذى مر ببريطانيا عقب سقوط فرنسا . فقد أشفقت حينذاك بعض القلوب وتوجست شرا ، وبدا فى الافق أن ثمة من لا يرى فى الثبات والعناد جدوى ، ومن يؤثر المهادنة والمصالحة ومقابلة النازى فى منتصف الطريق . فكتبت هذه القصة لترى البريطانيين والعالم أجمع ماذا يحل بهم فى حاضرهم ومستقبلهم ان تمكنت منهم يد هتلر القاسية . فقوبلت القصة من الصحافة الانجليزية بكل تحية واعجاب ، واقترحت صحيفة « نيوستيتسمان » على وزارة الدعاية ان توزع القصة على الناس مجانا . والواقع ان ما تنطوى عليه القصة من وقائع وأحداث لا يختلف فى جوهره عما يقع فى كل بلد أنشب فيه النازى أظافره بطريقته المعهودة من خداع واغراء ، ومن تهديد وانذار ، ومن جماعات يبثها لنشر الفوضى ، ومن مواثيق يبرمها لينقضها ، ثم ما يعانيه البلد فى ظله من ارهاب الجستابو ، ومن الاستغلال الاقتصادى ، ومن الافساد المعنوى

كانت الخطبة التى ألقاها فى مدينة همبورج فى شهر يناير أهم حادث فى تاريخ حياته ، فأقامته سيدا مطلق الكلمة نافذ الامر فى نصف الدنيا بأسرها . سمعت هذه الخطبة فى بيتى مذاعة على الاثير ، فأبرقت الى جريدتى قائلا : ان الشعب البريطانى يعرف كيف يرد على هذه الشنشنة التى عرفناها منه ، وتعودنا أن نسمع منها كل مرة عبارات الوعد والوعيد ، وأساليب الاغراء والانذار . ولكنى لم أكن مصيبا كل الاصابة فيما ذكرته فى برقيتى ، فمنذ سمحت الحكومة بنشر الخطاب كاملا فى الصحف ، وأنا أسمع أفرادا من القوم فى الاندية والملاعب والمكاتب والطرقات يتهامسون بمثل هذه الكلمات : « بينى وبينك ان فى كلامه بعض الحق حين يقول دعوا الماضى بشؤونه وتعالوا نتعاون منذ اليوم معا » –

« لست أدرى اذا كان سيصدق فى وعده بأن يعامل التشكيين والبولنديين معاملة طيبة اذا تركناه حرا فى أمرهم دون تدخل منا » ـ « نعم ، لا بد ان يكون فى العالم متسع لبريطانيا وألمانيا معا » ـ « انه لا يريد أن ينتزع منا شيئا ، حتى مستعمرات ألمانيا السابقة لا يطالب بها » ـ « لا شك فى انه عظيم ومخلص ، فقد تنبه الى ان الخطر الحقيقى هو الخطر الاحمر ، وان العدو الحقيقى هو البولشفية المتعطشة للدماء » ـ « انها حرب لا معنى لها ، وانى لا أطيق التفكير فى أمر أولئك الاطفال الذين يموتون جوعا فى ألمانيا » .

هكذا كان يجرى التهامس بين القوم ، وهكذا كانت الروح السارية فى الجماعة . لم تكن هذه الروح فيما أعتقد منبعثة من خوف ملأ قلبهم أو جبن ثلم عزمهم ، بل من عاطفة انسانية رقيقة أثارتها وأذكتها حالة الضيق والقلق التى سادت الافراد جميعا والطبقات جميعا فى خلال السنين الاخيرة . نعم ، ألم تركد سوق التجارة ، ألم تضق دائرة الصناعة ، فى ألمانيا وبريطانيا معا ؟ ألم يتعطل ملايين وملايين من العمال هنا وهناك سنين عددا ؟ ألم تتحطم الحياة العائلية الآمنة ، ألم يقاس الاطفال والنساء والشيوخ ، من جراء هذا الضيق الاقتصادى الشامل ؟ ثم ألم ترهق الاعصاب ارهاقا كاد يحطمها ويذهب بها طوال تلك السنين التى لم تهدأ فيها ثائرة الانذار والتهديد والارهاب ، والتى أريقت فيها الدماء فى كثير من الارجاء ، فى النمسا ، واسبانيا ، والحبشة ، ومنشوريا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبولندة ؟ .. لماذا كل هذا ؟ لماذا يحدث هذا ، وهتلر لا يريد الا شيئا واحدا ، شيئا يريحنا ويريحهم ويريح العالم جميعا .. انه لا يريد الا « اطفاء النار » !

سمعت الحكومة هذا الهمس المتواتر ، ولكنها لم تعن به . لقد نزلت ساحة الحرب مرغمة كارهة ، لتقى بريطانيا يهددها حلفائها وأصدقائها ، ولتدفع عن نفسها وحريتها ما يتهددها من الاخطار ، وكانت فى ذلك معبرة عن ارادة الامة مستجيبة لرأيها القاطع . وما تحسب الحكومة ان الوضع قد تغير كثيرا أو قليلا ، فالعدو الذى يتهدد بريطانيا لم يضعف شيئا بل ازداد قوة وبأسا ، والخطر الذى يحف بها ما زال جاثما يتربص بها الدوائر ليثب عليها الوثبة القاضية . فلم يكن للحكومة بد من أن تدير أذنها عن هذا التهامس الذى بدأ يشيع فى القوم . ولكن ثمة جماعة أخرى كانت آذانها الى الارض تتسمع كل همس مهما يكن خافتا ، فتحيله الى صوت ضخم عريض يظن سامعه أنه صوت الناس جميعا . تلك هى الجماعة التى كانت لا ترى فى الحرب الا ضرائب ثقيلة تبهظها ، وتشريعات حازمة تفوت عليها أغراضها ، ولا ترى فى السلم الا ميدانا فسيحا للاحتكار ، والمضاربة ، والتلاعب ، والتهرب من فريضة الضرائب . وفوق هذا وهذا فقد كانت ترى فى السلم طريقا الى تحطيم ذلك التحالف المعقود بين ألمانيا وروسيا ، وبذلك يقضى على ذلك الشبح الذى يؤرقهم بالليل ويضنيهم بالنهار ، شبح الشيوعية ! فلماذا لا تسعى هذه الجماعة الى تضخيم هذا الهمس الخافت واحالته الى صوت مدو أخاذ ، ولماذا لا تبث هذا الروح ، روح التخاذل والتهافت والانثلام فى الناس جميعا ؟ لماذا لا تقوم بحملة منظمة من الرسائل

تبعث بها الى رجال الحكومة ، وأعضاء البرلمان ، وكتاب الصحافة ، وبحملة منظمة من الاقاويل والاشاعات تسوقها الى الاندية والمجتمعات ، بل الى دور العلم والجامعات ؟ بل لماذا لا تتآمر هذه الجماعة مع نظرائها فى ألمانيا على عمل من أعمال الضغط الاقتصادى والمالى ، ولها من السيطرة على المصارف والبورصات ودوائر الاعمال ما يمكنها من هذا

على أنى أترك لغيرى من هم أوثق منى اتصالا بهذه الجماعة، وأكثر منى دراية بأساليبها ومؤامراتها ، ليصف الطرق التى اتخذتها فى تحويل النار التى كانت مؤصدة فى قلب كل بريطانى الى دخان يذروه الهواء ورماد تذهب به الريح . وشاعت هذه الروح فى القوم ، وسرت منهم الى الصحف ، وانتقلت أخيرا الى دار البرلمان . أكانت هناك رشى من المال ، ومما هو أسوأ من المال ، وراء نفر من رجال الصحافة ونفر من أعضاء البرلمان ؟ لست أدرى : ولكن عند ما عرض الامر على ممثلى الامة ، رأينا فيهم من يردد فى قاعة البرلمان ذلك الذى كان يتهامس به الناس فى الاندية والطرقات . رأينا فيهم من يقول : فلندع الماضى ولننظر الى المستقبل ، فلنحقن الدماء ولنصن الارواح ! بل سمعنا منهم من يقول : أكل هذه الحرب فى سبيل دانزيج ، التى لا يدرى ٩٩ ٪ من الشعب البريطانى موضعها فى الخريطة ! بل سمعنا من يقول : ان بريطانيا وألمانيا يجب ان تكونا يدا واحدة وقلبا واحدا ينشر السلم وبث الحضارة فى ربوع العالم جميعا ! وفى وسط هذا الضجيج الغريب وقف رئيس الوزارة ، يقول تلك الكلمة التى غدت شعاره : « لا نريد حربا أنانية ، ولا نريد سلما مخزيا »

وتريث هتلر اسبوعا بعد هذا الحديث العجيب الذى دار فى قاعة البرلمان . ثم أذاع نداء استهله بهذه الكلمة : « هيا الى اقامة تعاون بريطانى ألمانى فى عالم ينادى بالسلام القائم على أسس العدالة » . ولست أذكر الآن ماذا كنت أشعر ، ولا ما كنت أقول ، خلال تلك الايام القليلة التى مضت بين اذاعة هذا النداء وبين يوم انعقاد مؤتمر «نورمبرج» لعقد الصلح بين ألمانيا وبريطانيا ، ولكنها على أى حال كانت أياما عصيبة على من كان يعلم عن بينة ويقين المصير الذى حل بهذا الشعب الذى عاش حرا سيدا أجيالا تلو أجيال ، فغدا منذ الساعة يسعى الى حيث ينتظره الغل الذى يصفده ، والضيق الذى يأزمه

وذهبت طائرا الى نورمبرج . ورأيت هناك ممثلينا الذين جاءوا يتعاونون مع عدوهم السابق فى اقامة عالم أمن سعيد ينعم فيه الناس بالحرية والعدالة . ورأيت الى جانبهم جماعة من الناس قيلانهم يمثلون فرنسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندة وهولندة وبلجيكا واليونان ويوغوسلافيا ، وقد جاءوا ليمضوا الدستور الذى أنشأته ألمانيا لتطبيقه على تلك البلاد

وعدنا الى بريطانيا ، فكيف وجدنا أهلها ؟ وجدناهم يحمدون الله الذى لا يحمد على مكروه سواه . فقد زلزلت الارض زلزالها ومع ذلك بقى بيتهم قائما وسط الانقاض . ألم يزل بنك انجلترا مفتوح الابواب وحى « السيتى » مائجا بتجار الاموال ورجال الاعمال ؟ ثم ألم تزل ربوع انجلترا مخضرة بالزرع مزهرة بالثمر ، لم تخربها الجحافل

ولم تدمرها الطائرات ؟ ثم ألم يذع رئيس الوزارة ساعة عاد الى لندن رسالة يقول فيها :
« فلننس الماضى ولننظر الى المستقبل . لقد أخذنا حربا أثانية وأقمنا سلما مشرفا. وسنوجه همنا الى اصلاح شؤوننا . سننشىء أعمالا تقضى على البطالة . وستعاون مع ألمانيا فى ترويج التجارة . وسنكون أسعد مما كنا ، وان لم نكن أغنى .. » نعم ، وها هو الرواج يعود الى مدينة لندن ، فها هى فنادقها وملاهيها ومسارحها عامرة بأفواج وأفواج من الضباط الالمان ؟ أما هذه المظاهرات التى يقوم بها جماعات من الشبان والعمال الشيوعيين ، أما هذه المناوشات التى وقعت فى أحياء اليهود فى المدن الكبرى ، أما ما نقلته الصحف عن اضطرابات فى أرجاء الهند ، فهذا أمر بسيط عبر عنه رئيس الوزارة بقوله : « انها فترة لا بد منها فى أثناء الانتقال من عهد الى عهد » ! فلا بأس ولا خوف

أما أنا فقد وجدت مجالا متسعا لموافاة جريدتى فى استراليا بكثير من الانباء . وكان أهمها بطبيعة الحال أنباء تسريح الجيش البريطانى . نعم ، فقد سرحوه ، أما الجيش الالمانى فظل مجندا بملايينه ، بل ظلت مصانع الاسلحة والذخيرة فى بريطانيا تعمل ليل نهار ، لتزيد فى عدته وعتاده ، بينما انصرفهم حكومتنا الى ايجاد عمل لجنودنا المسرحين .

ومضت الايام بطيئة ثقيلة ، فلم أجد بأسا من ان اذهب وزوجتى وابنتاجوليا الى الريف نستريح قليلا . وذهبت الى دينفورد ونزلنا فى بيت أسرة عرفناها منذ سنين . وهناك فى الريف سمعت فلسفة جديدة : لماذا لا نعيش فى حقولنا نزرعها ونأكل منها ؟ ألا بد أن تكون لنا امبراطورية تكلفنا انشاء جيوش وأساطيل ؟ ان أهل دينمركة أسعد منا وأغنى مع أنهم لا يملكون أية مستعمرات !.. حقا انها فلسفة ، ولكنها للاسف فلسفة ناقصة مبتورة ، أحسب هؤلاء الناس أننا فقدنا امبراطوريتنا فحسب ، ألم يعلموا أننا فقدنا قبل كل شىء حريتنا ؟!

وأمضيت فى الريف أياما وددت لو تطول ، فقد كان الريف على أى حال أهون أمرا من لندن التى يسودها القلق فتهيج فيها الاعصاب . ولكنى صحوت ذات يوم على عنوان ضخم فى الديلى اكسبريس يقول : « تهديد آخر بالحرب ــ ألمانيا تحشد جيوشها ــ خطبة تهديد ألقاها الفوهرر » . وكانت الاخبار غامضة مضطربة ، ولكنها تستدعى رجوعى فورا الى لندن لاوافى جريدتى بهذه الانباء الجديدة المثيرة التى تقول ان الفرق الالمانية المحشودة على ساحل هولندة تقدر بعشرين فرقة ، وان هتلر خطب أمس فى اجتماع الحزب النازى فى مدينة برسلاو ، فقال : « ان مشكلة المستعمرات يجب أن تحل ــ أن تحل هنا وفورا . أما أولئك الذين يتكلمون عن المؤتمرات والمفاوضات فانهم لا يعرفون الشعب الالمانى ، هذا الشعب الذى لن يرجو ولن يتوسل مرة أخرى ، لكى يجلس الى مائدة خضراء فى سبيل حقه المهضوم ، وفى سبيل كرامته المهدرة ، وفى سبيل مطالبه التى أضاعوها زمنا طويلا . انه يطالب بحقه بصوت يدوى فى الآفاق دوى الرعد ، ويقصف فى العالم قصف المدفع الرهيب . ولن تستطيع تلك العصابة اليهودية الدولية أن تنكر

هذا الصوت أو تقف فى وجه ألمانيا » . وثمة فقرة أخرى فى الخطاب يقول فيها : « ان القوة الالمانية الجوية هى أمضى سلاح وأرهب سلاح وجد فى يد شعب فى أى عهد من عهود التاريخ . انهم يفاخرون بقوة دفاعهم ، ولكن قل لهم ان طائرات الرايخ تستطيع فى ساعة واحدة ان تغطى السماء بآلاف منها فتحيل أية عاصمة تعادينا الى أطلال وأنقاض . أنذرهم ، فقد أزفت ساعتهم ، وانها لساعة رهيبة ، ان لم يرجعوا عن غيهم ، ان لم يثوبوا الى رشدهم ، ويجيبوا ألمانيا الى مطالبها .. »

ونشرت التايمز الخطاب ملخصا وعلقت عليه بلغتها الرصينة الرزينة ، فقالت : لا شك أنه خطاب خطير ، ولكن الحكومة البريطانية معنية بحل جميع المسائل التى خلقتها الحرب ، بما فيها مسألة المستعمرات . وعهدى بالتايمز ان وراء كلامها ما وراءه !

وقلت لزوجى لا بد أن أعود فورا الى لندن . وجئت العاصمة ألتمس الاخبار . فمن أين آتى بها ؟ أما المصادر المطلعة فى القارة فقد حيل بيننا وبينها وقطعت المواصلات بين أوربا وبريطانيا . وأما وزارة الخارجية فلا تعلم شيئا عن تلك الاخبار « المبالغ فيها » ، وهى لا ترغب فى أن تصور هذه الحالة فى صورة « أزمة سياسية » . وانعقد مجلس الوزراء فى المساء ، ولكنا لم نعلم شيئا عما دار فيه ، وان كنا سمعنا انه كان على اتصال دائم ببرلين . وجاءت أخبار أخرى بأن طائرة ألمانية رؤيت على الساحل الجنوبى الشرقى . وسمع الصحفيون الخبر فى دهشة بالغة ، فلعل هذه بداية حرب جوية خاطفة تثيرها ألمانيا على لندن !.. أما فيما عدا ذلك فالناس فى حدس وتخمين ، وقلق واضطراب ، لم يكن ثمة منجى منه الا بأن أعود الى بيتى فى منتصف الليل لانام ، ان طاوعنى النوم ..

وفى الصباح الباكر أبلغتنا وزارة الخارجية أن ممثلى جميع الصحف مدعوون الى اجتماع هام فى قاعة لوكارنو فى الساعة التاسعة صباحا ، وانه لا يسمح لهم الا بتسجيل بلاغ حكومة صاحب الجلالة الملك بشأن المباحثات التى جرت بينها وبين الحكومة الالمانية

واجتمعنا فى القاعة ، وفى الساعة التاسعة فتح الباب ودخل ... من ؟ ريبنتروب يتبعه رئيس الوزارة فوزير الخارجية . وعرتنا الدهشة جميعا اذ رأينا ريبنتروب وسطنا . كيف أتى ، ومتى ، ولماذا ؟ وعرفنا ان الطائرة التى رؤيت مساء أمس هى التى أقلته الى هنا . .

ووقف رئيس الوزارة وتريث قليلا وهو يجيل نظراته الواهنة فى جوانب القاعة ثم قال :

« دعوتكم الى هنا أيها السادة لتشهدوا ميثاقا تاريخيا يدعم السلام . فانى أعلم انه راجت فى الساعات الاخيرة اشاعات عن قيام الحرب مرة أخرى ، وعن تهديدات وجهت الى حكومتنا من احدى الدول الكبرى . ولكن هذه الاشاعات جاءت من مصادر لا علم لها بمجرى الامور . وأقرر هنا أن كل هذه الاشاعات لا نصيب لها من الصحة ، فمنذ أمضينا وثيقة الصلح فى نورمبرج فى الخريف الماضى ، وعلاقتنا بالحكومة الالمانية علاقة قائمة على نشدان المصلحة العامة ، وعلى تحقيق التعاون بين الدولتين فى سبيل اقامة عالم ينعم بالسلام

« وانى أقرر كذلك انه لا خوف من قيام الحرب فى عصرنا هذا مرة أخرى . فانى

سأضع الآن امضائى على ميثاق جديد مع الحكومة الالمانية يربط بريطانيا العظمى بالرايخ الالمانى برباط وثيق من التعاون الذى لا تنفصم عراه أبدا »

وسكت رئيس الوزارة قليلا ، فقد كانت تدوى فوق رؤوسنا أسراب من الطائرات .. الطائرات الالمانية التى جاءت تحيى هذا اليوم التاريخى الخالد ، بأن تحوم ساعة امضاء الميثاق فوق مدينة لندن وسائر المدن الانجليزية الكبرى . ولما انقطع دويها عاد الرئيس فقال : « هذا هو الميثاق .. ميثاق الصداقة والتعاون مع الرايخ الألمانى . وهو الذى يدعم تلك المعاهدة الشريفة التى عقدناها فى نورمبرج ، وقد قام على أساس عادل معقول قدمه الهر هتلر بالاتفاق التام مع حكومة صاحب الجلالة الملك . وأعتقد ان هذا الميثاق سيقابل بالارتياح والتأييد فى بريطانيا وألمانيا على السواء »

وأعقبه وزير الخارجية ، والابتسامة الماكرة لا تفارقه ، فقال : « هيا الآن الى مكاتبكم . فليس ثمة مجال للاسئلة . والامر متروك للبرلمان ليناقشه . وسيذيع رئيس الوزارة الليلة خطابا الى الشعب البريطانى »

وانصرفنا ، وسرت مع صديق لى من الصحفيين الامريكيين ، أخذ يتكلم ويهدر ويهذى كأنه محموم ، فيقول : « هذه بداية النهاية » ، « هذه وثيقة النصر الهتلرى » . ثم عاد يقول : « ولكنى لا أصدق أن الشعب البريطانى يجرد من حريته ومن كرامته لمجرد اجتماع ثلاثة اشخاص فى قاعة من قاعات وزارة الخارجية ، لا أصدق هذا . ولا أصدق أن امريكا ترضى بهذا » . وضحكت ضحكا عاليا حين سمعته يتكلم عن امريكا . أين بريطانيا وأين أمريكا ؟ ان بين بريطانيا وألمانيا عشرين ميلا ، وبينها وبين أمريكا ثلاثة آلاف ميل ! وشاهدت فى أثناء سيرنا أن وجوه الناس عادت الى هدوئها ، الى جمودها ، مرة أخرى ، وقد فارقها ما ساورها فى الايام الأخيرة من القلق والحيرة . وذهبت الى بعض دور الصحف فرأيت كتاب المقالات منهمكين فى تدبيج موضوعات عن هذه « التجربة الجديدة فى ميدان السياسة الدولية » وعن « الفرص الجديدة المتاحة للشعب البريطانى فى عهد السلام » وعن « وسائل نشر المدنية الانجليزية عن طريق التعاون مع ألمانيا » ولم تكن اذاعة رئيس الوزارة فى المساء الا موضوعا انشائيا على هذا الغرار

وطلعت الصحف فى صباح اليوم التالى فكان فيها من الاخبار ما صرف الناس عما دبج فيها من المقالات . فقد احتفلت برلين أمس بامضاء الميثاق الجديد احتفالا عظيما ، وخطب هتلر خطابا ضافيا حيا فيه الشعب الالمانى ولم ينس أن يثنى على الروح الطيب الذى وجده فى الشعب البريطانى وفى حكومته الرشيدة . ووجد القراء الى جانب ذلك برقيات عن الفرق الالمانية التى أبحرت منهمبورج صباح أمس قاصدة الى افريقيا لتتسلم المستعمرات الالمانية السابقة

وذهبت الى مكتب البرق ، ودفعت اليه بما تجمع لدى من الانباء ليرسلها الى صحيفتى ، فقال لى موظف المكتب فى أدب ولباقة : « آسف يا صديقى ، فقد ألحق بالمكتب موظف

لمراجعة البرقيات الصحفية قبل ارسالها ، وهو شاب ظريف وأظنه سييسر لك العمل » اذن فهذا أول تغيير حقيقى فى حياتنا ! وذهبت اليه فقال لى : « انى من وزارة الخارجية . وكل عملى أن ألقى نظرة على هذه البرقيات قبل ارسالها . وذلك تطبيقا لنص فى المعاهدة التى عقدناها مع ألمانيا ، حتى لا تسىء الصحف الى حليفتنا قصدا أو عفوا » قلت متعجبا : اذن فقد فرضت الرقابة ؟ قال : « كلا ، كلا ، لا شىء من هذا القبيل . بل ان وزارة الخارجية تريد أن تمد الصحفيين بالاخبار الصحيحة ، وتصحيح ما قد يصل اليهم من أخبار كاذبة . وقد ألحق بكل مكتب للرسائل البرقية موظف للقيام بهذا العمل ، كما ألحق بكل جريدة موظف مثله » قلت له : « انى لا أريد ان أتعبك فى مراجعة رسائلى ، وحسبى أن أكتب لك اقرارا مسجلا بأنى أتحمل مسئولية كل ما أكتبه » . قال ، وقد بدا عليه شىء من الضيق : « انك لا تجد من يرسل لك هذه البرقيات الا اذا كانت ممضاة من مندوب وزارة الخارجية . هذا هو النظام الجديد » . ولم يكن ثمة بد من أن أقدم له برقياتى ، ولم يكن ثمة بد من أن أتبين أنه قد ولى عهد حرية الصحافة فى بريطانيا

وكان أهم حادث فى ذلك اليوم اجتماع مجلس العموم . وكنا نرقب هذا الاجتماع بصبر نافد لنرى ماذا يكون قراره . والرجل الانجليزى العادى يعلم أن هذا المجلس ، على عيوبه الكثيرة ، هو ملاذه الاخير ، فان سلطته لا يمكن أن يتحداها وزير أو تقاومها حكومة ، وقراره كفيل بأن ينقذ بريطانيا . وذهبت الى دار البرلمان

وبدأت الجلسة ، واعجبا ! انهم جاءوا يقررون مصير أمتهم ومصير امبراطوريتهم ، لا بل مصير كل فرد منهم ومصير ابنه وحفيده ، ومع ذلك ها هم يبدأون الجلسة كالعادة بأسئلة تافهة فى أمور لا قيمة لها الآن . واذا بضجة فى شرفة الزائرين . والتفت الناس ليروا ماذا حدث . فرأوا سفير ألمانيا قادما وحوله ستة من الضباط الالمان وجماعة من ذوى القمصان النازية . ودخل الشرفة فنهض من فيها من الوزراء المفوضين ، نهضوا فى خشوع واستكانة ارتسمت على وجوههم جميعا ، حتى على وجه صديقيه وزير ايطاليا ووزير اليابان . ولكنه لم يجلس بل رفع يده بالتحية النازية ، فرفعها من معه من الضباط والملحقين ، وهتفوا جميعا « هيل هتلر ! » . ولما انتهت الضجة طلب رئيس المجلس استئناف الاسئلة وكأنه لم يقع شيئا . ولكن عضوا من حزب العمال نهض غاضبا مزمجرا طالبا احتجاج المجلس على هذا العمل وترضيته باخراج السفير الالمانى .. لم يكد الرجل ينطق بهذا الكلام حتى تعالت الاصوات من جوانب المجلس ومن شرفات الزائرين تطلب .. تطلب اخراج هذا العضو الذى لا يعرف الادب ولا اللياقة .. وساد السكون ، وجاء دور المسألة الكبرى ..

وقام سير جون نيكر وزير الخارجية . حقا انه رجل ذكى وداهية ، ومتحدث وخطيب ، وحقا انه الرجل الذى يعرف كيف يخادع وينافق . لقد حاول أن يقنع الناس ، وكاد أن يقنعهم .. فقد أخذ الوزير فى لباقة وبلاغة يسرد ما وقع منذ مؤتمر نورمبرج حتى وقع الميثاق الاخير .. وبدا أن أعضاء المجلس قد اقتنعوا ، وأن ثائرتهم قد هدأت .. واذا بصوت

مجلجل رنان ينبعث من أحد الجوانب قائلا :
« أريد أن أسأل : ألم يمض الميثاق الجديد تحت تأثير الانباء القائلة بأن ألمانيا حشدت عشرين فرقة على ساحل هولندة لتغزو بها هذه الارض الخالدة ؟ ألم يمض الميثاق الجديد عقب خطبة ألقاها هتلر يقول فيها : ان آلاف الطائرات الالمانية على أهبة أن تحول أكبر مدن الارض فى ساعة واحدة أطلالا وأنقاضا ؟ »

ووقف المجلس على قدمين يستمع الى هذا الصوت العجيب الاخاذ . صوت الاسد البريطانى ، ونستون تشرشل ! وتعالت أصوات من هنا وهناك تصيح « يا للخيانة ! يا للغدر » وتعالت أصوات أخرى بعضها من المجلس وأكثرها من شرفات الزائرين « أسكتوا المشاغبين ! » . ودامت الضجة طويلا ، وجلس تشرشل على مقعده وهو يزفر زفيرا غريبا ، وراح رئيس المجلس يدق الجرس تارة ويضرب المنضدة أخرى ، حتى سكتت العاصفة . واستأنف وزير الخارجية كلامه . ولست أدرى أكان الوزير يريد أن يقنع أعضاء البرلمان فحسب ، أم كان يريد قبل هذا أن يثبت للسفير الالمانى مقدرته وكفايته ، وكيف انه الرجل الذى يمكن الاعتماد عليه . . وراح يتحدث عن الوطنية الصادقة ، الوطنية التى لا تتمسك بأهداب الماضى الذى قضى فيه قضاء مبرما ، بل التى تفكر فى المستقبل وفق الظروف الجديدة . وانتهى الوزير من خطابه . وأحس أعضاء المجلس أنهم أمام الامر الواقع الذى لا يملكون فيه شيئا ، فانسحب من القاعة من انسحب ، وبقى فيها من بقى ، وانتهت الجلسة على عجل ، ووافق المجلس على الميثاق الجديد .

ومضت على ذلك ثلاثة أيام ووزير الخارجية يظهر فى كل حفل وكل ناد مزهوا بانتصاره ، مستبشرا بمستقبله . ولكنه لم يحس بأن الارض تفرج من تحت قدميه ، كما تفرج من تحت أقدام قومه جميعا ، الا فى اليوم الرابع ، حين أقلعت عن الشاطىء البريطانى البارجة رينون ، تحمل . . تحمل التاج البريطانى ! نعم ، ان قليلا من الشعب من كان يدرك مدى الدور الخطير الذى يؤديه ملك بريطانيا فى حياة الامة ، أما اليوم وقد نفى هذا الملك نفسه من وطنه ، فقد أحس كل رجل وكل امرأة ، بل كل صبى وكل طفل ، أن قلب بريطانيا نزع من بين جنبيها ، وأن سحابة سوداء قاتمة قد غطت أفق البلاد ، فغدا حاضرها مظلما ظلمة مستقبلها .

ولم تكتب الصحف عن هذا الامر كثيرا ولا قليلا ، وكل ما نشرته نبأ رحيل الملك ، ونبأ تأليف مجلس وصاية من ثلاثة أعضاء ، أرسل اليهم هتلر برقية يهنئهم فيها ويرجو أن يكون عهدهم « مستهل صفحة جديدة مجيدة من العلاقات البريطانية الالمانية فى سجل التاريخ النوردى الخالد »

لقد كان هذا اليوم عصيبا على أبناء بريطانيا جميعا . وأحس كل منهم ، سواء من ولد فى انجلترا أو فى كندا أو فى استراليا ، طعنة الخنجر المغمود فى صدره . وخرجت يومها أهيم فى طرق لندن والضيق متحجر على قلبى . وكنت فى غمرة من الذهول ، فلم ألتفت

طول الطريق يمينا أو يسارا . ثم أفقت مما أنا فيه .. أفقت لارى بعينى أسوأ مما يجيش بخاطرى . رأيت جماعة من ذوى القمصان السوداء ، تهرول فى الطريق مائجة صارخة ، وبأيديها عصى ، وسكاكين ، وبنادق !

وأحسست حين ذلك الخجل مرة أخرى . خجلت من أنى ، وأنا أحد كتاب الصحافة ، لم ألق انتباها كبيرا الى تلك الحركة الفاشستية التى قامت فى انجلترا منذ سنوات ، وحسبتها أول الامر نوعا من الهذر والهزل لا بأس به وسط حياة السياسة الجادة العابسة ، لم أدرك ولم يدرك غيرى ، حين كان تلافى الخطر ميسورا ، ان هذه الحركة العابثة ان هى الا سم بطىء يسرى فى الجسم رويدا رويدا حتى يذويه ويسقمه ثم يأتى عليه جميعا . ولكن جويلز كان أذكى منا وأدهى ، ألقى هذا السم فى بلدنا كما ألقاه فى النمسا وتشيكوسلوفاكيا والنرويج وبلجيكا وفرنسا ، وهو يعلم أن سيأتى اليوم الذى يتغلب فيه هذا السم على الجسم الذى يبدو صحيحا معافى . وكان لنا من تقاليد الحرية والتسامح ما يحول دون قضائنا على هذه الحركة بضربة واحدة . فتركناها ، وكنا لا نتوجس منها شرا ولا نتوقع لها نجاحا .

ولكن ها هى الايام تخطىء رأينا ، وها هى جموع القمصان السوداء تهرول فى الطرقات صائحة صاخبة ، وبأيديها أدوات الشجار والمناوشة .. فالى أين تسير به ؟ الى اجتماع عقدوه فى أحد الميادين الكبرى ليخطبهم زعيمهم « باتريك روسى » ولم أجد بأسا أن أذهب الى هذا الاجتماع ، فوجدت أفواجا حاشدة من جماعات القمصان السوداء ، تحتل كل منها جانبا من جوانب المكان ، ومعها لواؤها بين المدينة التى تنتمى اليها . ورأيتهم فى جلبة صاخبة من الهتاف والصياح ، وفى وسط هذا جماعات منهم تدق الطبول وتعزف الموسيقى وتنشد الاناشيد . وجاء روسى يحف به جمع من أعوانه ، وكان يفرعهم جميعا بقامته العالية ، ويمتاز عنهم بوسامين ألمانيين من الذهب : المدالية الحربية ووسام نورمبرج . وكنت قد قابلته من قبل وتحدثت اليه مليا . نعم ، انه لم يتلق من العلم شيئا مذكورا ، وان تاريخه الماضى مجهول مغمور ، وان ثمة شبهة تحيط به منذ كان على صلة ببعض الهيئات الاجنبية التى تبث الدعايات وتحيك المكائد . ولكن كل هذا لا يمنعنى من أن أشهد بأنه رجل ذو نفوذ وتأثير الى حد يحجب عن الناس ما أحسبه فيه من خداع ونفاق ، ويجعل سامعه ورائيه يؤمنان بصدقه فيما يقول واخلاصه فى دعواه . ولما سمعته فى ذلك الاجتماع خطيبا كان صوته منطلقا يبلغ القلب دون جهد وعناء ، وكان كلاما دافقا زاخرا يثير الحس ويستفز الشعور . لقد راح يتحدث الى سامعيه ، وجلهم من الجنود المسرحين ، عما يلقونه فى حياتهم الجديدة من عنت وعناء ، فأبواب العمل مغلقة فى وجوههم ، وأسباب الحياة تقطعت بهم فى هذه الايام ، والحكومة لا تلقى اليهم بالا ولا تقدر ما أسلفوا من تضحيات كبرى ، ثم أخذ يصور هذه الحالة فى صورة جريمة شائنة منكرة ، مبعثها هذا الفساد الذى تعيش فيه بريطانيا ، والذى يدب فى جميع نواحى الحياة فيها : فى دور الحكومة ، وفى دوائر الاعمال ، بل فى الحياة الخاصة ذاتها . وصور هذه الحياة فى صورة ضخمة متشابكة العناصر متداخلة

العوامل ، من العجز الفاضح ، والرشوة الفاحشة ، والفساد المستشرى : ولكن ما مصدر هذا الفساد ؟ مصدره هذه الجماعة المجرمة التي تسيطر على كل شيء في البلد ، على الاداة الحكومية وعلى مرافق العمل وعلى سوق التجارة ، جماعة اليهود التي تملك بيدها زمام الصحافة والكتابة والفنون ، كما تملك زمام الأموال والاعمال والبورصة والمصارف .. واذن فلا خلاص لبريطانيا مما هي فيه من ذل وهوان ، ولا نجاة لشعبها مما يعانيه من أزمة وضيق ، ولا رجاء لها في مستقبل تنعم فيه بالرخاء والسلام ، الا ان حملت بيدها الحازمة سيفا مرهفا فانزلته على رقاب هؤلاء اليهود المجرمين .. وعند ما ارتفع بحرارة الناس الى هذا المستوى ، ختم خطابه بتلك الجملة التي لا أنساها : « قفوا على أقدامكم . وسيروا في أرجاء المدينة ، فأروا هؤلاء اليهود ، وأروا العالم بأسره ، انه ما زالت فينا دماء»

نعم ما زالت في بريطانيا دماء ، وستبقى فيها دماء .. فها هي الافواج الحاشدة من ذوى القمصان السوداء تنصرف من الاجتماع مولية وجهها شطر ذلك الحي الذي يقيم فيه عدد كبير من اليهود ، منذ أعملت فيهم النازية سيفها ، فلاذوا بالفرار الى بريطانيا ، حين كانت مثوى اللاجئين ومثابة الاحرار ، يلتمسون فيها الامن والسلام

ودارت المعركة في حي اليهود ، وكان رجال البوليس قلة لا تقوى على جموع المتظاهرين فدخلوا الدكاكين وحطموها ونهبوها ، وأخرجوا اليهود منها وضربوهم وآذوهم وتركوهم بين الحياة والموت ، وامتدت المعركة الى غير اليهود فحطموا كثيرا من السيارات العامة وضربوا ركابها ، ودخلوا بعض النوادى والمقاهى وحطموا أثاثها وزجاجها ، وأصيب عدد كبير من رجال البوليس ومن المتظاهرين اصابات شتى

ولكن المعركة لم تنته عند هذا الحد ، فقد كان بين المتظاهرين رجل ألماني يدعى «ماير» فأصيب في أثناء المناوشة بضربة من جندى انجليزى ألقته على الارض ، والظاهر أن الجندى قال له : « ارجع الى بلدك أيها الالماني القذر » . فلما انتهت المعركة عاد مسرعا الى دار السفارة الالمانية وأبلغها ما جرى .. وفي الصباح كان السفير الالماني في دار وزارة الخارجية وكان يصحبه هذا الجمع من الضباط والملحقين الذين شهدتهم معه في دار البرلمان ، ولكنهم كانوا في هذه المرة مدججين بالسلاح ، ألم تكن البلد في حال من الفوضى والاضطراب تبيح لهم حمل السلاح دفاعا عن أنفسهم ؟.. وطلب السفير من الحكومة البريطانية اعتذارا كاملا عما وقع لذلك الرجل الالماني الذي منحه هتلر بيده وسام الصليب الحديدى والذي يعد من رجال النازى المحترمين . كما طلب أن تتخذ الحكومة اجراءا سريعا لعقاب جميع الموظفين ورجال الشرطة الذين اشتركوا فيما وقع للرجل الالماني

كانت هذه أول مرة يلمس فيها رئيس الوزارة ضروب العسف النازى في أحط مظاهره، ولكنه كان رجلا طيبا لينا يريد تهدئة الامر من أى طريق . فما انصرف السفير حتى استدعى وزير الداخلية وطلب اليه أن يحقق فيما جرى وينزل العقاب بمن أهان الرجل الالماني . وكان هذا الوزير يكره جماعة القمصان السوداء منذ عهد بعيد ، وكانوا هم

بدورهم يتخذونه هدفا لحملاتهم فى صحيفتهم « بريطانيا الحرة » . وكانوا يتهمونه بأنه من أصل يهودى ، وبأن له صلة بالاوساط اليهودية ، وهى تهمة كانوا يقذفون بها كل من لا يجاريهم فى طريقهم . فابى الوزير ان يستجيب لطلب رئيس الوزارة فلم يكن بد من اقالته

واجتمع البرلمان ، وكان فى اجازة منذ اليوم الذى صدق فيه على الميثاق ، وتكلم رئيس الوزارة فقال : «انه يقدر كفاية الوزير ونزاهته ، ولكنه يأسف لان الوزير يريد أن يحصر نظره فى دائرة ضيقة لا تتناول الظروف السياسية التى تحيط بنا ، ولا يريد أن يقدر أن من واجبنا أن نحرص على صداقة حليفتنا الكبرى ألمانيا . ولهذا رأيت اقالته ، وأسندت وزارة الداخلية الى سير جون نيكر ليقوم بأعبائها الى جانب أعباء وزارة الخارجية ، وهذا أمر استثنائى ألجأتنى اليه الظروف »

وهم الاعضاء بالكلام ، واذا بسير نيكر يقدم ورقة الى رئيس الوزارة ، فيقرؤها ، ثم يلتفت الى الاعضاء قائلا : لقد قامت اضطرابات كثيرة وعنيفة فى كثير من أرجاء البلاد ، واذن فلا داعى للمناقشة الآن فى مسألة لم تنته بعد، بل ما زال لها ذيول وتوابع، وسأطلب الى مجلس الوصاية وقف المجلس فترة ما حتى يستتب الامر ويستطيع المجلس أن يستأنف عمله فى جو هادىء مستقر . وكان هذا هو ختام الحياة البرلمانية فى انجلترا . .

وآويت الى بيتى ذلك المساء مبكرا وأخذت استمع الى الراديو الالمانى . واذا بالاذاعة الموسيقية توقف ، واذا بالمذيع يقول : « بلاغ رسمى هام موجه الى الشعب الالمانى . ان الحكومة البريطانية تواجه الآن صعابا جمة بسبب الفوضى التى تثيرها العصابات اليهودية فى كثير من أنحاء البلاد . وقد طلبت الحكومة الى الفوهرر المعونة ، طبقا للمادة السادسة من شروط معاهدة الصداقة والتحالف المعقودة بين ألمانيا وبريطانيا ، ولما كانت رسالة هتلر قائمة على اقامة السلام والنظام ، فقد قرر أن يرسل عددا محدودا من رجال البوليس الخاص الى بريطانيا ليعاونوا فى اعادة السلام الى تلك البلاد » . ثم أعاد المذيع القاء هذا البيان مرة أخرى ، فسمعته وأنا من فرط الدهشة أكاد أكذب أذنى

ولست أدرى عدد الالمانيين الذين هبطوا أرض بريطانيا فى ذلك اليوم ، ولكنى رأيت جماعة منهم فى كل ميدان ، وعلى رأس كل طريق ، وأمام كل دار من الدور العامة . .

ولم يكن عدد الالمان فى بريطانيا مقصورا على هؤلاء الجنود الذين نزلوها ، بل اتخذت السفارة الالمانية عمارة من أضخم عمائر لندن مقرا لها ، وملأتها بمئات من موظفيها . تدخل هذه السفارة فتجد قسما للشؤون الدبلوماسية ، وآخر للمسائل الاقتصادية ، وثالثا للصحافة والدعاية ، ورابعا لجوازات السفر ، وخامسا للملحق العسكرى وضباطه ، وسادسا للسكرتارية ، وأقساما أخرى كثيرة سميت بحروف وأرقام لا أدرى مدلولها . وفى كل من هذه الاقسام عشرات من الموظفين ، يتمتعون جميعا بالحصانة الدبلوماسية ، ان كان ثمة داع لان يتحصن الالمان فى بريطانيا بمثل هذا الستار . .

وكان رجال السفارة من خيرة الشباب النازى : أناقة زى ، ووسامة مظهر ، ولباقة حديث . شهدت ذلك فى الحفلات الباذخة التى كانت تقيمها السفارة كثيرا

وفى احدى الحفلات سألت أحد هؤلاء الموظفين ، وكنت لمست فيه روحا طيبا وعقلا مستنيرا وجانبا من التشابه الفكرى بينه وبين الرجل الاوربى الذى صقلته المدنية وانتفت منه روح الغابة - سألته ضاحكا : ماذا يفعل هذا الجيش اللجب من موظفى السفارة ؟ وكأن الرجل أدرك ما أريد ، ولمح فى قولى شيئا من الريبة فى أمرهم ، فقال : لا تظن بنا سوءا ، وكل ما فى الامر أن الفوهرر قد يزور انجلترا عما قريب . .

يا للخبر الصحفى العجيب ! كيف جاءنى هكذا عن طريق الصدفة العارضة ، وفى زلة لسان يسيرة . ولا شك أننى فرحت كل الفرح حين سمعت هذا الخبر ، الذى سأكون أول صحفى يذيعه ، وستكون صحيفتى أسبق صحف العالم الى ذكره . ولكن فرحتى لم تدم طويلا ، فما لبثت أن تخيلت ذلك القلم الازرق الملعون ، قلم الرقيب الذى وضعته وزارة الخارجية فى مكتب البرق ، وتخيلته وقد مر على هذا الخبر فحذفه ، وكبته فى صدرى كبتا أليما ، اذ ليس آلم للصحفى أن يعرف خبرا مهما ولا يدرى سبيلا الى اذاعته فى الناس

وجاء يوم زيارة هتلر . . ودعينا نحن الصحفيين فيمن دعوا من أهل بريطانيا لانتظار الفوهرر فى ميناء بليموث . . هذه هى البارجة الالمانية شارنهورست يرتفع عليها لواء الصليب المعقوف تقبل فى مياه المانش ، ومن حولها عدد من البوارج والمدمرات البريطانية التى سيرتها الامبرالية البريطانية لتحيى البارجة الالمانية وراكبها المعظم . وها هى مئات القوارب البخارية تغدو وتروح فى الميناء ، وقد ارتفعت فوق أكثرها راية الصليب المعقوف اذ كانت تقل جماعات من الضباط والموظفين الالمان الذين كثر عددهم فى لندن فى الايام الاخيرة . . وها هى جماعات من الالمان والبريطانيين على رصيف الميناء ، أرى منهم رئيس الوزارة مستر ايفانز ، ووزير الخارجية والداخلية سير بيكر ، وزعيم القمصان باتريك روسى ، وسواهم وسواهم ممن كنت أرى وجوههم فى حفلات السفارة الالمانية

ورست الباخرة فى الميناء ، وأطلقت مدافع الشاطىء تحية واجلالا . . ها هو هتلر كما رأيناه فى صوره . . ها هى خصلات شعره تتهدل على جبهته ، ها هو شاربه الصغير ملصوق تحت أنفه ، ها هى نظراته المرسلة الساهمة ، ها هى حركاته القلقة العنيفة . .

وهبط سلم البارجة الفسيح ، ومن ورائه الكتلة الضخمة البادنة التى تسمى جورنج ، والهيئة العنيفة المتصلبة التى تسمى ريبنتروب ، والمونوكل الذى يخفى عنا خبيئة ماكرة هى عين الدكتور شاخت ، والقامة القصيرة والساق العرجاء اللتان يتألف منهما جويبلز !

وتقدم رئيس الوزارة وصافح هتلر وقدم له باسم الحكومة البريطانية شكرها على هذه الزيارة الكريمة . وكان وزير الخارجية أكثر مهارة من رئيسه حين صافح هتلر ، فقد كانت انحناءته عجيبة حقا . . وركب هتلر والى جانبه رئيس الوزراء ، وركب أصحاب

هتلر والى جانب كل منهم وزير انجليزى .. وسار الموكب تحفه جماعات من راكبى الموتوسيكلات وسط صفين من الجنود الالمان المدججين بالسلاح .. الى أين هذا كله ؟ عند هذا يقف القلم ألما وحسرة !.. الى قصر بكنجهام الذى أصر السفير الالمانى ــ كما علمت فيما بعد ــ أن يكون مقر الفوهرر فى أثناء زيارته ، وأن يكون علم الصليب المعقوف مرفوعا عليه مدة اقامته ..

لست أريد أن أصف تلك الايام التى أمضاها هتلر فى لندن . فانى لم أشهد شيئا من الحفلات التى أقيمت له هنا وهناك ، والتى كان أبهاها بطبيعة الحال الحفلة التى أقامها مجلس الوصاية على العرش . ولم أكن من الصحفيين الذين رافقوه فى زياراته . ولكنى ذهبت لسبب لا أدريه ــ لعلها غريزة الصحفى التى تنبه أحيانا على غير وعى منه أن ثمة خبرا هاما ــ الى الحفل الذى أقامته جماعة القمصان السوداء فى أحد الميادين . ذهبت الى هناك فى فوج الصحفيين ، فرأيت هذه الجماعات بقمصانها وشاراتها وأعلامها مصطفة وسط الميدان وفى جوانبه . ورأيت المنصات المعدة لكبار المدعوين ، وقد حفلت بجماعات من رجال « السيتى » وجماعات من سيدات المجتمع المحدثات . ورأيت المنصة العالية التى أعدت للضيف الكبير .. وكانت هناك موسيقات تصدح ، وجماعات تنشد الاناشيد ، وجماعات يتعالى هتافها . وفى وسط هؤلاء وهؤلاء كنت أرى وجوها كوجوه أولئك الموظفين الالمان الذين رأيتهم كثيرا فى مكاتب السفارة الالمانية . وظهر هتلر فى المنصة ، والى جانبه « كونت دى مرسيا » رئيس مجلس الوصاية على العرش . وساد صمت عميق وسكون شامل . كان الرجلان لا يتحركان ولا يتكلمان ، وكأنما كانا جالسين فى قفص الاتهام . وليس فى المنصة سواهما الا أربعة من الحراس النازيين مدججين بالسلاح . وبدأت جماعات القمصان السوداء تتحرك متجهة صوب المنصة . لست أدرى ماذا وقع قبل أن تقع أبصارنا على شاب شاحب هزيل يجرى نحو المنصة مهرولا وفى يده مسدس يطلقه على هتلر ، فاذا به يهتز على مقعده ، ثم ينهض مترنحا ، ثم يسقط الى الارض ، ولست أدرى ماذا حدث بعد ذلك سوى أنى سمعت بضع طلقات من الرصاص تنطلق من أولئك الحراس الواقفين على المنصة ، فتردى ذلك الشاب الهزيل ، جثة هامدة محترقة بالنار

وقفت جماعات القمصان السوداء فى مكانها لا تتقدم ولا تتأخر . ووقف الناس على أقدامهم محتبسة أنفاسهم مشرئبة أعناقهم الى المنصة .. وكانت فترة من الذهول العجيب الذى ملك على الناس أبصارهم ومشاعرهم ، حتى غدوا لا يرون شيئا ولا يحسون شيئا . وخلت المنصة بضع دقائق ، ثم عادت فامتلأت بذلك البدن الضخم الفارع ، بجورنج ، الذى وقف أمام الميكرفون وقرأ بلغة انجليزية سقيمة ورقة فى يده ، فقال :

« لقد وقعت جريمة منكرة . لقد أريد اغتيال الفوهرر . ولا نعرف مدى الخطر الذى لحق بزعيمنا . ولكن كرامة الشعب الالمانى تقضى باتخاذ اجراء حازم يعادل الجريمة الشنعاء . ولا بد أن يثأر الشعب الالمانى ، واعتقد ان الشعب البريطانى يقره على هذا ،

وقع هذا فى اليوم التاسع من شهر يوليو ، وهو يوم لن ينسى فى تاريخ بريطانيا أبدا ، فهو اليوم الذى بدأ فيه عهد الارهاب .. هو اليوم الذى أذاع فيه الراديو الالمانى على ملأ العالم ، أن الجريمة المنكرة التى وقعت فى قلب لندن بيد أحد أفراد العصابة اليهودية المجرمة ، دليل قاطع على أن العناصر اليهودية تعبث فى الحياة البريطانية عبثا خطيرا لم تستطع الحكومة البريطانية أن تتلافى آثامه وأوزاره ، اما عجزا منها واما تآمرا مع اليهود، واذ كانت رسالة الفوهرر أن ينقذ العالم من براثن اليهودية ، فقد قررت الحكومة الالمانية فرض الحماية على بريطانيا ، واقامة « قوميسير » ألمانى عليها ، ريثما يصفو الجو من سحابه

وفى اليوم التالى أبلغ مندوبو الصحف بأنهم مدعوون الى قصر بكنجهام فى الساعة العاشرة صباحا لامر خطير ، واجتمعنا فى احدى الردهات واجمين جامدين . ودخل الدكتور شولتز مندوب وكالة الانباء الالمانية فى لندن ، وأعلن أنه تقرر تعيين « جواشيم فون ريبنتروب » قوميسيرا على بريطانيا طوال مدة الحماية التى فرضتها الحكومة الالمانية ريثما يستقر الامر ويستتب النظام ، وأنه سيتخذ قصر بكنجهام مقرا له. ودخل ريبنتروب يعقبه ثلاثة رجال لم أرهم من قبل ، وان كان يبدو عليهم أنهم ليسوا بالالمان

كان ريبنتروب يبدو فى هيئة ملوك العهود الغابرة حين كان لا يتوقع الناس أن يبتسم الملوك . ونظر الينا جميعا نظرة جادة عابسة لا تميز بين أحد وآخر ، بين من لا يعرفهم وبين من كان يمازحهم حين كان لا يزال سفيرا لبلاده لدى بلاط سانت جيمس ، وفى الوقت نفسه تاجرا ومهربا للخمور ! ووقف ريبنتروب وألقى علينا هذا البيان :

« فى سبيل الشعب البريطانى ، وفى سبيل الانسانية جمعاء ، قرر الفوهرر ــ الذى حفظته العناية الالهية من ذلك الاعتداء اليهودى الآثم ــ أن يقضى على العصابة اليهودية التى تعبث فى بريطانيا فسادا . وذلك يقتضى فرض الحماية الالمانية على بريطانيا ريثما يتم تطهيرها ، وستحكم بريطانيا فى خلال هذه الفترة التى أرجو ألا تطول ، بمقتضى مراسيم يصدرها قوميسير الرايخ . وقد تفضل الفوهرر فعهد الى بهذه المهمة الشاقة ، التى أرجو أن تقدر الصحافة صعابها ومهامها . فيجب أن تعلموا ان مستقبل هذه البلاد لا يقوم على أساس المناقشات والمجادلات السياسية العقيمة ، بل سيكون تعبيرا عن ارادة الفوهرر ونواياه الطيبة قبل الشعب البريطانى . وعلى ذلك فان ضروب الحدس والتخمين التى كانت تلجأ اليها الصحافة ، وعلى الاخص الصحافة الاجنبية ، قد انتهى أمرها . فعلى مندوبى الصحف هنا وفى الخارج ألا يستقوا أية معلومات الا من مصادرها المقررة

«ومنذ يوم ٩ يوليو ، يوم الجريمة المنكرة على حياة الفوهرر ، تقرر نقل جميع السلطات فى هذا البلد وفيما يتبعه من الممتلكات والمستعمرات فيما وراء البحار ، الى القوميسير الالمانى

« وسيعاد تجنيد القوات البريطانية التى سبق تسريحها . ولكنها ستدمج مؤقتا فى قوات الرايخ المسلحة . وستوضع جميع المدارس والمعاهد والجامعات ، وجميع شركات السكك الحديدية ، وكذلك المصارف ، وغيرها من المنشآت العامة فى ملكية الدولة ، يستوى فى

ذلك ما كان منها ملكا للافراد أو للهيئات أو للمجالس المحلية . على أن هذا لا يمنع دون استدعاء بعض مديريها للاشراف عليها وفقا لما تقرره السلطة الحاكمة

« وستبقى المحاكم البريطانية قائمة للفصل فى القضايا المدنية فحسب . أما القضايا الجنائية وكذلك المشاكل التى تنشأ بين رعايا الدولة الالمانية ورعايا الدولة البريطانية ، فتنظر أمام محاكم خاصة تخضع للقانون العسكرى . وسيباح لرجال البوليس الخاص حق تفتيش المنازل والمكاتب . وسيكون من حق الحكومة مصادرة ما ترى من الاملاك والاموال طبقا للصالح العام . وستطبق هذه المصادرة مبدئيا على أملاك رجال الحكومة السابقة ، فقد ثبت أنهم استغلوا فرصة الحرب فى جمع أموال وأرباح فاحشة على حساب الشعب البريطانى

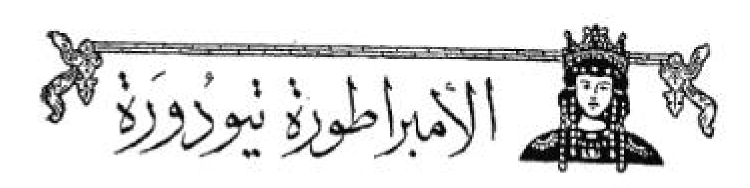
« وانى أرجو فى النهاية أن تكون هذه الاجراءات الحازمة مؤقتة بمدى قصير . وأرجو أن يأتى اليوم القريب الذى تتطهر فيه بريطانيا من اليهود ومن المشاغبين لتستأنف حياة التعاون مع الرايخ الالمانى ، فى سبيل نشر الحضارة النوردية »

وهم ريبنتروب بالانصراف ، ولكنه لمح من ورائه الرجال الثلاثة . فالتفت الينا ثانية وقال : « وقد تألف مجلس ثلاثى من هؤلاء السادة لمعاونتى فى هذه المهمة . ويسرنى أن أقدمهم لكم : مستر سميث ممثل أصحاب الاعمال ، ومستر تيزنر ممثل العمال ، ومستر نيوتون ممثل أصحاب المهن » . ثم انصرف ومن ورائه الرجال الثلاثة .. الثلاثة الذين صاروا يمثلون الشعب البريطانى الذى كان فى يوم ما سيدا رفيعا ، فلما سرت فيه روح الهزيمة ونزعة المصالحة ، لم يعد ثمة من يمثله سوى سميث ، وتيزنر ، ونيوتون !

فهل كان هناك ما يدعو صحفيا مثلى الى البقاء فى هذا البلد ؟ لقد جئتها لاوافى صحيفتى بالاخبار أستقيها من كل مصدر ، وأرويها بكل حرية ، وأعلق عليها بما يراه عقلى ويحسه ضميرى . أما الآن فقد تقرر ألا تذكر الا تلك الاخبار التى تمليها علينا «المصادر المقررة» أى تلك البلاغات الرسمية التى لا صلة لها بحقائق الامور ، ولا قيمة لها فى نظر الصحفى الصادق . ثم كيف السبيل الى الحياة فى هذا البلد الذى أخذ يعيش فى غمرة قاسية من حياة الارهاب ؟ وهل ثمة ما يعصمنى من معسكر الاعتقال الذى زج فيه من زج من قادة بريطانيا السابقين ، ومن كتابها ، وعلمائها ، وصحفييها ، وذوى الرأى فيها ؟ ألم يكن معسكر « جودالمنج » حيث يقيم فيه الآن فى غمرة من الألم والحسرة أولئك الابطال السابقون ، ونستون تشرشل ، وانطونى ايدن ، ودف كوبر ، انذارا رهيبا لكل من تسول له نفسه أن يتحدث بعد اليوم عن الحق أو عن الحرية أو عن الكرامة ؟

اذن فلا معدى لى من أعود الى بلدى ، الى استراليا ، لعلى أستنشق ريح الحرية مرة أخرى ، فى ظلال ذلك البلد الذى مد يده الشابة الفتية الى يد امريكا القوية والعظيمة ، وعاهدها على أن يجاهد معها فى سبيل الحرية والكرامة ، فاما ظفرا بها وعاشا عيشة الكرام ، واما ماتا فى سبيلها موت الشهداء الابرار

تلخيص : عبد الحميد عبد الغنى



بقلم الأستاذ نقولا الحداد

حادث تاريخى عجيب

طفلة صغيرة فى بيظنطيوم عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقيـة فى القرن السادس ، قذف بها الفقر والقـدر الى حمأة التمثيل الهزل والتهتك فالدعارة فالفحش الفظيع . وما زالت تتقلب فى لجج حوادث الدهر ، الى أن ارتقت الى العرش ، وشاركت زوجها الامبراطور فى الحكم ، الى أن أصبحت الحاكمة المطلقة ، وفى ابان ثورة « نيقيا » المشهورة ، أبت أن تهرب مع زوجها، بل بقيت فى العرش حتى قمعت الثورة . .

فتنت الحكام والساسة والمفكرين بعقلها وحنكتها ودهائها وسياستها، وأخيرا فى فضائلها ، كما فتنتهم بجمالها وسحر روحها الملائكة

هذه هى الامبراطورة تيودوره التى نقدم قصتها للقراء . .

— ١ —

كان الامبراطور جستينوس Justinus أحد اباطرة الامبراطورية الرومانية الشرقية . وكان عرشه فى مدينة بيظنطيوم التى تسمى الآن استمبول

قبل أن كان جستينوس امبراطورا ، كان قائد الحرس الامبراطورى للامبراطور اناستاسيوس . وكان أميا وضعيف الارادة . فربى ابن أخيه جستنيان Justinian تربية حسنة ، ومنحه ثقافة عالية لكى يستعين به فى الحكم ، لانه لم يرزق ولدا . وكانت زوجته يوفيميا Euphemia من عامة الناس . ولانها كانت عقيما ، لم تمل لجستنيان كثيرا غيرة منه

فى ذات يوم، قالت الامبراطورة يوفيميا لزوجها الامبراطور : انى قلقة بسبب تصرفات

جستنيان الذى ربيته وعلمته كثيرا ، تأهيلا له لمشاركتك فى الحكم ، وللعرش أخيرا .
فقال الامبراطور : ماذا بدا منه ؟
ــ أما بلغ اليك أنه يعشق الآن امرأة عامية . ونحن نود أن نحافظ على مجد العرش
فضحك الامبراطور وقال : أنسيت يا يوفيميا أنك فلاحة الاصل ، وأنا كنت جنديا ؟
ــ لم أنس . ولكننا نحن حفظنا للعرش مجده وللملك أبهته . .
ــ وأظن جستنيان يستطيع ذلك يا عزيزتى . ولكن هل ينوى هو أن يتزوجها ؟
ــ أعرف أنه اذا تمادى فى عشرتها أصبحت خليلة له ، وأخيرا تصبح حليلة . واذا ظهر بعدئذ أن فيها عيوبا لا يمكن سترها ، فكيف نقى العرش من الهوان ؟
ــ لا توجسى من شىء . ان جستنيان لا يخرج من طاعتى . سأبحث معه فى هذا الشأن
اجتمع الامبراطور جوستينوس بابن أخيه الامير جستنيان ، وسأله باسما :
ــ من هذه الغزالة التى تصيدت قلبك يا عزيزى جستنيان ؟
ــ هى فتاة من الشعب يا عماه ، جميلة حيية تقية، رأيتها خارجة من الكنيسة، واكتشفت أنها حائكة فى بيتها ، تعيش بخوف الله من عمل يديها . .
فتململ الامبراطور وقال : أليس الافضل يا بنى أن تنتقى لك زوجة من الاشراف لكيلا تعرض سمعتك لمضغة أفواه الناس وسلطان العرش للابتذال ؟
فقال جستنيان : ان سلطان الحب يا سيدى أقوى من سلطان العرش . فاذا اجتمع السلطانان استقوى الثانى بالاول . وقد قدمت يا مولاى البرهان على هذا بزواجك . هل كانت مولاتى الامبراطورة من رتبة الاشراف ؟
فتبرم الامبراطور اذ أفحمه ابن أخيه وقال :
ــ أرجو يا ابنى ألا تتمادى بحب هذه الفتاة الوضيعة قبل أن تتحقق ماضى حياتها ، وتتأكد أنه خلو من العيوب التى تحول قانونا دون زواجك منها . على أى حال ، أود أن تقاوم عنفوان شهواتك، وتصرف نظرك عن هذه الفتاة الوضيعة الى ابنة أحد الاشراف، كرئيس الحكومة أو وزير العدل أو رئيس الشيوخ . سنعقد حفلة فى القصر ، وندعو لها أسرات رجال الدولة وأشرافها ، لعلك تجد بينها الضالة المنشودة . .
وبسط الامبراطور يده، فتناولها جستنيان وقبلها باحترام،ومضى متألم النفس والقلب، وقد عرف من أين جاءت الضربة المؤلمة . .

***

عقدت الحفلة الموعودة . وحضرتها الاسرات الشريفة ، وتجلى جمال الاوانس فيها ، وانطلقت السهام الصائبة من العيون الساحرة ، ولكن لم يكن بينها سهم من سهام كيوبيد. ففشل مسعى جستينوس ويوفيميا
بعد الحفلة قال جستنيان لعمه الامبراطور : أتأسف أن أقول لجلالتك يا عماه أن تلك

السهام التى أعددت لم يصب سهم منها فؤادى ، ولا اقتلع السهم الذى اختاره الله لقلبى. الفتاة تيودوره الحائكة هى منحة الله لى ، فأرجو ألا تحرمنى هذه المنحة

وكانت الامبراطورة حاضرة فقالت : هل أنت واثق أنه ليس لهذه الفتاة ماض مشين ؟

ـ ليس لها ماض الا أنها فتاة وضيعة الاصل ، ولكن الضعة لا تعيب الشخص اذا كانت أخلاقه شريفة . فالفتاة لا عيب فى شخصيتها . .

ـ أما كان أحرى بك أن تنتقى فتاة من هؤلاء الفتيات الشريفات اللواتى ظهرن فى الحفلة كالاقمار ، ومزاياهن الحميدة ساطعة كضوء النهار ؟! . .

ـ لا أحسب تيودوره فتاتى دونهن شرفا . فهى وهن فى دولة الاخلاق سواء . اذا قدمت لك وردتان ، أيمكنك أن تعرفى أيتهما من الحديقة الامبراطورية وأيتهما من الحقل البرى ؟ . .

ـ أجل . يمكننى أن أشم فى تلك رائحة زكية عطرة ، وفى الاخرى سماد الحقل . .

ـ بل بالعكس يا مولاتى . بتلك تنشقين رائحة سماد الحديقة . وبالاخرى تشمين نسيم الطبيعة النقى . ان وساخة السباخ فى الحديقة . وفساد الحياة فى قصور الاشراف . فى بساطة حياة الغوغاء نقاوة النفس والجسد

فقالت الامبراطورة متبرمة : اذن يجب أن تشق الستر وترى ما دونه من صلاح أو فساد . مهلا سأريك غرورك وغش فتاتك لعلك ترعوى . .

ـ انى فى سن النضوج يا سيدتى الامبراطورة . فلا أنخدع بغش فتاة

ـ واذا ظهر فيها ما يحرمه القانون الارستوقراطى . .

ـ أتخلى عن ارستوقراطيتى وأعود الى العامية التى منها نشأت ارستوقراطية الاشراف

فقال الامبراطور منفعلا : لا . لا . يا جستينيان انك غصن فى الدوحة الامبراطورية ، فلا أدعك تنقطع منها بتاتا ، ليس لى غيرك حافظا للعرش فى حياتى وبعد وفاتى . .

فقالت الامبراطورة: اذن يجب يا سيدى أن تمنع الحب أن يهصر هذا الغصن من الدوحة

وبعد أن فكر الامبراطور قليلا قال : أظن أن خير الوسائل أن نلجأ أخيرا الى مجلس الدولة الاعلى ، ونستفتيه فى الامر اذا أعضل علينا . أتركانى أفكر .

ـ ٢ ـ

ما انقضت أسابيع حتى أصبحت الحالة حرجة والعقدة معضلة . اشتد جستينيان تعلقا بتيودورة . وصار اذا خير بينها وبين العرش ، فضلها عليه ، ونبذ العرش ، والامبراطورة ما زالت مصرة على قطع الصلة بين العاشقين . والا فلا كبير ضرر فى ترك العرش الى رحمة المقادير ، لانه يصعب جدا عليها أن ترتقى الى جنبها امرأة عامية ، وتحل محلها بعدها

والامبراطور فى ابان ارتباكه أتته يوفيميا بخبر مفاجىء زاده حيرة وارتباكا ، وقالت :

ـ لقد اكتشفت يا سيدى العزيز أن فتاة جستينيان المسماة تيودوره ابتدأت حياتها منذ

الحداثة بالتمثيل فى الهيبوردروم (ملعب الخيل والحيوانات المختلفة والهزليات) ومن ثم استرسلت فى الدعارة والفجور . وتنقلت بين الغرب والشرق فى هذه الحرفة الوسخة ولذلك يستحيل عليك أن توافق على علاقة جستينيان بها ، لان قانون الدولة يحظر أن ترتقى الى قمة الدولة ممثلة . فكيف ترتقى اليها عاهرة ؟! . .

فبغت الامبراطور بهذا الخبر ، وقال : هل أنت واثقة من صحة هذا القول ؟

ـ كل الثقة لانى أقمت بعض العسس يتسقطون أخبار ماضى هذه الفتاة سرا . فأبلغنى كل منهم أخبارا فظيعة عن سيرتها الدنسة . وكلفت أحدهم أن يؤلف من تقاريرهم تقريرا عاما شاملا . وسأقرأه عليك وترى . .

ـ ندعو جستينيان ونطلعه على التقرير فلا بد أن يرعوى . .

ـ لقد أصبح جستينيان مختمرا بحبه للفتاة ، والحب يعمى ويصم . والغرض مرض . فلا يصدق تهمة لملاكه الشيطانى . فمن العبث مباحثته بهذا الشأن . الافضل أن نعقد مجلس الدولة الاعلى للاطلاع على التقرير واصدار حكمه فى هذه المشكلة

ففكر الامبراطور هنيهة ثم قال : هنا أمر لا بد من اعتباره يا عزيزتى . هل عندك شهود وبينات وأدلة تؤيد التقرير ؟ ألا يمكن أن يحتج جستينيان بأن التهم ملفقة ؟

ـ لا بد أن يصدر التقرير مشفوعا بالبينات ، ومتى سمعنا الاحتجاج سعينا الى البينات . لذلك لا أود أن يطلع جستينيان على التقرير أولا ، بل أود أن يفاجأ به وهو فى حضرة المجلس ، فيكون وقعه عليه شديدا ، وحكم المجلس يفحمه ويقنعه

***

انعقد المجلس من نخبة رجال الدولة : الامبراطور والامبراطورة ، ورئيس الحكومة ورئيس الشيوخ ووزير العدل ووزير المال والمطران اكلمندوس الذى كان اسمه العلمانى اريوبندوس Aeriobindus وهو نائب البطرك . وحضر جستينيان المجلس أيضا

فقال الامبراطور : أيها السادة لدينا قضية ذات شأن ، تقتضى مصلحة الدولة والامة أن يكون حكمكم فيها حرا صادقا حكيما . ان ابن أخى الامير جستينيان الذى تعلمون عطفى عليه ومحبتى له وآمالى فيه ، أصبح يهوى فتاة عامية لا تليق أن تكون نسيبة للسيادة الامبراطورية ، أولا : لوضاعتها الاجتماعية . وثانيا : لسوء سيرتها السابقة . ولاقناع الامير بأن مقامه ومصلحته يقضيان عليه بالتخلى عنها ، نتلو عليكم تقريرا صادقا عن حياة تلك الفتاة لكى تحكموا فى الامر ، ولى الامل أن الامير جستينيان متى اطلع على هـذا التقرير ، ينبذ الفتاة من تلقاء نفسه من غير أن يكلفكم اصدار حكم

فقال الامير جستينيان : قد تمكن كتابة تقرير ضد كل شخص حتى ضد فخامة الوزير وقداسة البطرك . فالعبرة بالاثبات لا بتصنيف التقارير . .

فقال وزير العدل : حقا ما تقول يا سمو الامير . فلنسمع التقرير أولا ، فلعل التقرير

يؤيد نفسه بنفسه ، والا فنطلب الاثبات

فقال الامير : اذن . الفتاة الآن فى موقف اتهام خطير . فلا يجوز اتهامها والحكم عليها من غير تحقيق معها . هل حقق أحد معها ؟

فقالت الامبراطورة : لا تتنازل أن نكون فى موقف الخصومة مع فاجرة. نحن لا نحاكم الفتاة ولا نحكم عليها أى حكم . وانما نحن عليك نحكم ، ونوجب عليك بحق شرف الدولة وكرامتها ، وبحق مقام السيادة الامبراطورية أن تتركها بتاتا ..

فقال المطران اكليمندوس : اسمحى لى يا صاحبة الجلالة أن أقول بصراحة ان هذا المنطق القانونى غير سديد . هنا امرأة متهمة ، وشخص آخر غير متهم سيحكم عليه

فقالت الامبراطورة : نعم يحكم على شخص غير متهم بسبب صلته بامرأة متهمة ..

فقال المطران : لا بأس بهذا المنطق . ولكن الاتهام يقتضى أن يكون المتهم حاضرا ليسمع الشكوى ضده لعل له دفاعا عن نفسه . فاسمحوا لى أن أقترح استحضار الفتاة الى هنا لكى تسمع تهمتها ..

فقال وزير العدل : هذا حق أوافق عليه ..

فأدار الامبراطور نظره فى سائر الاعضاء كأنه يسألهم . فتصدت الامبراطورة وقالت :

ـ انى آنف أن تحضر الزانية للدفاع عن نفسها ، لاننا لا نقصد هنا أن نحاكمها .

فقال الامير جستينيان : عجبا تريدين يا مولاتى أن تحكمى علىّ بسبب تهم لا تسمحين بدفعها . فأين العدالة فى محاكمة كهذه ؟ ان دفاع الفتاة عن نفسها انما هو دفاع عنى اذا كان سيحكم علىّ بسبب علاقتى بها . واذن فحكمكم جائر لا يوافق عليه جلالة الامبراطور يجب أن تحضر الفتاة لكى تسمع الشكاوى ضدها ويسمح لها بالدفاع ..

فقال الامبراطور : هذا حق لا مراء فيه . يجب أن تحضر الفتاة دينوتها ..

فأمن جميع الاعضاء على قول الامبراطور . وقال الامبراطور : هل يمكن احضارها حالا ؟

فقال الامير : هى الآن فى بهو الاستراحة الخارجى تنتظر دينوتها . نستدعيها

***

وكان الاعضاء يتهامسون عند ما دخل الحارس يقول : الفتاة يا صاحبى الجلالة

واسترعى أبصارهم شبح ملائكى أقبل من الباب وتقدم خطوتين وسجد واعتدل

وفى الحال تقدم المطران اليها وقال : انظرى فىّ يا فتاة

فالتفتت اليه . فحملق فيها ثم قال : أما كنت منذ سنتين فى انطاكية ؟

ـ نعم كنت هناك

ـ انظرى فىّ . هل تذكرين أنك رأيتنى هناك ؟

ـ لن أنسى يا سيدى الموقر ..

وعاد المطران الى موضعه وهو لا يزال مدهوشا

فقالت الامبراطورة : اذن توفقنا الى شاهد صادق شهادته مقدسة

***

تيودوره فتاة فى نحو الرابعة والعشرين من العمر . رقيقة البدن دون معدل الابدان النسوية . متناسبة الطول والعرض ، معتدلة القوام . فى ثوب كتانى أبيض بسيط أنيق . وفى محياها جمال الوداعة الانسانية المتناهية فى البهاء . وفى مقلتيها جاذبية محسوسة تهتز لها عواطف نظارها . ما ان امتثلت حتى قرعت نواقيس القلوب فى الصدور . وقال الامبراطور بصوت خافت سمعته الامبراطورة ومن كان الى جنبها : « معذور جستينيان »

وكان جستينيان قد وقف أيضا . ثم أشار الى تيودوره والى كرسى وراءها . ثم انحنى لدى الامبراطور وقال : أتأذن يا صاحب الجلالة ؟

وقبل أن يأذن جلالته لها بالجلوس قالت الامبراطورة بنزق :

ـ ماذا تقول يا أمير ! أتريد أن تجلس مع الاشراف زانية متهمة ؟ لا . لن تجلس . ألا تعلمين يا هذه فى حضرة من أنت ؟ اركعى . .

فركعت تيودوره صامتة مغضية البصر . ثم ناولت الامبراطورة رئيس الدولة قرطاسا عريضا وقالت : تفضل يا فخامة الرئيس اقرأ علينا هذا التقرير . .

ـ ٣ ـ

شرع الرئيس يقرأ والآذان مرهفة ، ولكن الابصار محدقة بالفتاة الجاثية المغضية بصرها وأشعة البهاء تسطع من وجهها الطافح بشاشة على الرغم من رهبة المقام . . قرأ :

« كان منذ نحو ٢٤ سنة شخص يدعى أكاكيوس يقطن فى هذه العاصمة بيظنطيوم فى مدة حكم الامبراطور اناستاسيوس . وكان موظفا بوظيفة رعاية الحيوانات التى تعرض ألعابها فى ملعب الهيبودروم . فلما مات ترك أرملة وثلاث بنات هن كومنيو وتيودوره وأناستاسيا . وكانت كبراهن أناستاسيا فى السابعة من العمر . وكان للام الارملة ـ وهى قبرصية المولد ـ عاشق رامت أن يخلف زوجها فى الوظيفة لكى يستطيع الانفاق على بناتها . ولكن مدير الملعب أبى عليها ذلك . فما كان منها الا أن عرضت بناتها الثلاث لدى الجمهور المجتمع فى الهيبودروم لكى تستعطفه على حالتها وتثيره ضد مدير الملعب عسى أن يرضخ لطلبها . فنجحت حيلتها . وكانت تيودوره هذه فى الخامسة من العمر

« ولما صارت أناستاسيا ناهدا ألقتها أمها فى المسرح لكى تلعب الالعاب الهزلية الصامتة (بنتوميم) ومعها أختها تيودوره التى كانت فى ثوب قصير وأردان قصيرة أيضا . وما لبثت أناستاسيا أن صارت مومسا بحكم وظيفتها . وبقيت تصطحب أختها تيودوره فى مواطن خلاعتها ودعارتها . ولما كان الرجال يزورون أناستاسيا فى مخدعها فيما وراء الملعب ، كانت تيودوره تبقى فى الرحبة يداعبها عبيد أولئك الاسياد »

وهنا أشارت الامبراطورة الى الوزير أن يتوقف عن القراءة ، ووجهت الخطاب الى

تيودوره : ماذا تقولين يا فتاة فى هذا البيان ؟ هل كان ما سمعته حقيقيا ؟

فأجابت تيودوره على الفور بلا تردد ولا رهبة : نعم هو حقيقى بلا مبالغة . .

فبهت جميع رجال المجلس . واضطرب جستينيان مدهوشا وهمس : هل أنت خائفة أن تنكرى التهم الملفقة يا تيودوره ؟

فقالت بصوت مسموع : كلا . التهم غير ملفقة . .

فازداد جستينيان اضطرابا واحتدم غضبا ولم يعد يدرى ماذا يفعل . أيلطم تيودوره على خديها أم يخرج من المجلس مخزيا . تجلد وصبر . وعاد الوزير يقرأ :

« ولما صارت تيودوره كاعبا شرعت تظهر فى الملعب ممثلة رسمية كأختها . وما لبثت أن صارت مومسا أيضا . ولكن دعارتها أنها تذهب حيث تطلب . كانت حاذقة ذكية مجونية هزلية تضحك وتعجب . ولكنها لم تكن تعزف على آلة موسيقية ولا كانت بارعة فى الرقص وانما كانت تشترك مع الممثلين الهزليين فى تمثيلهم . وكانت تحسن اللعب على صهوات الخيل . ولم تستنكف أن تجلد جلدا يقتضيه التمثيل ، وأن تقبل القبلات المقرقعة المسموعة »

وعند ذلك قاطعت الامبراطورة القراءة قائلة : وهذا البيان ؟ أصادق يا فتاة ؟ أم فيه افتراء عليك ؟

فأجابت تيودوره : فيه كل الصدق يا ذات الجلالة وليس فيه افتراء . .

وعاد الوزير يقرأ :

« ونالت تيودوره حظوة عظيمة عند الرجال الشهوانيين ، فكانوا يتهافتون اليها ، ويسعون وراءها متنازعين رضاها . فالابتسامة التى تفصح عن سطرين من الدر فى ثغرها والحركة الخليعة من بدنها اللين كانتا تثيران شبق الشبان . ولم يقع فى حبائل خلاعتها الفتيان فقط ، بل كانت خلاعتها تستهوى الكهول حتى الشيوخ والأحداث

« وكان القانون يوجب أن تمنطق حقويها بمنطقة لتستر عورتها اذا لم يكن بد من أن تظهر على المسرح عارية . على أنها استنبطت طريقة تلذ للجمهور ، وهى أنها كانت تلصق على بدنها حبوب الحنطة، وتعرضه للاوز لتنقرها عن بدنها بأساليب تعجب المشاهدين»

وقالت الامبراطورة : أحقيقى أنك كنت تفعلين هكذا ؟

— نعم . نعم . .

ثم استمر الوزير يقرأ :

« وأخيرا عشقها هيكيسبولس الصورى (من صور) فاصطحبها الى بانتابولس فى ليبيا فى شمالى افريقيا حيث تعين حاكما . ويقال انها كانت تمثل له خلاعات يستحى من ذكرها هنا . فنضرب عنها صفحا . ثم تخاصما فطردها وهجرته الى الاسكندرية . وهناك كانت مضطرة ان تسترزق فى الشوارع » .

فقالت الامبراطورة : لله منك نجسة دنسة . ألا تحاولين أن تبرئى نفسك من هذه التهم؟

فأجابت تيودوره : لا أكذب ولا أنكر الحقيقة يا مولاتى .

واستمر الوزير يقرأ :

« وكانت ايان ذهبت تعرف أنها تيودورة الفاحشة . وكان أفاضل الناس يتحاشونها مخافة أن تدنس سمعتهم بها كأنهم يتحاشون وباء . وكانت تنتقل من بلد الى بلد فى الشرق وهى تحمل معها سمعتها الدنسة . فكان الناس يهربون من طريقها، الى أن وصلت الى انطاكية . وهناك فى خلال عرض بضاعتها والترويج لها حاولت أن تستغوى قديسا من رجال الله فى الصحراء »

فصاحت الامبراطورة : ويحك يا فاجرة . ألى هذا الحد بلغت منك القحة

واستمر الوزير يقرأ :

« ولكنها لم تنجح فى اصطياد ذلك التقى الورع ، فعادت الى بيظنطيوم منهوكة من التمادى بفحشها » انتهى تاريخ ماضى الفتاة المسماة تيودوره الزانية »

وهنا قالت الامبراطورة : هل سمعت تاريخ حياتك أيتها الفتاة الساقطة ؟..

فقالت تيودوره بصوت عال واضح : نعم سمعت . ولكن ما سمعته ليس كل تاريخ حياتى الماضية يا سيدتى ..

ـ ماذا بعد هذا ؟ هل لفجورك بقية مكتومة . فافصحى عنها ما دمت لا تخجلين منها ..

ـ لقد سرك يا ذات الجلالة أنك وفقت الى شاهد عيان صادق وشهادته حق . فأرجو من جلالتك أن تأمريه بأن يسرد بقية التاريخ الذى لم يشمله هذا التقرير . أرجو من نيافتك يا سيدى المطران الموقر أن تقول الصدق الذى تصدقه جلالتها ، كيف رحلت أنا من انطاكية وعدت الى بيظنطيوم (١)

ـ ٤ ـ

لم يفه الامبراطور ورجال الدولة ببنت شفة فيما كانوا مصغين الى هذا التقرير المدهش، اذ كانوا ذاهلين لما فيه من لطاعة دعارة الفتاة ورجسها ومن جرأتها فى الموافقة على نص التقرير من غير اطراق ولا تهيب ، كأنها كانت تسمع تقريظا لسلوكها وثناء على تصرفها . وأما جستينيان فكان رأسه لا يزال بين كفيه ، ومرفقاه على ركبتيه كأنه كان يذوب خجلا . وأما الامبراطورة فكانت رافعة رأس الانتصار ، وهى تنظر الى جستينيان وفتاته باحتقار

ولكن لما طلبت تيودوره الى المطران اكليمندوس بشدة أن يتمم تاريخ حياتها بما يعلمه تغيرت الاوضاع وارتفعت الرؤوس ، واتجهت الانظار الى سيادة المطران . ماذا يمكن أن يقول المطران . وقد عرفوا منذ دخول الفتاة الى المجلس أنه عرفها يوم كانت فى انطاكية . وسدد جستينيان نظره الى المطران ماذا عسى أن يقول ..

---

(١) هذا التقرير الذى قرأه الوزير مأخوذ من كتاب « النساء الفاتنات » Facinating women من فصل الامبراطورة تيودوره طبق الاصل وهو الفصل الاول من الكتاب . وقد أدخل عليه كلام الامبراطورة وتيودوره ادخالا بمقتضى الفن الروائى

وقف سيادة المطران وقال :

ـ قبل أن أجيء الى بيزنطيوم بدعوة من غبطة سيدى البطريرك جراسيموس كنت فى انطاكية . وكان سيدى بطريرك انطاكية قد ألف لجنة اكليريكية للعمل فى تطهير الابرشية من الدعارة بواسطة الوعظ والارشاد وحث النفوس على التوبة واحياء الضمائر

واسترسل المطران يقول : فى ذلك الحين انتشرت رائحة نتنة من اشاعة راجت سريعا ، وهى أن فتاة بيزنطية وفدت الى انطاكية بأرخص بضاعة من الدعارة والفحشاء . هى هذه الفتاة . فاستدعاها غبطة البطريرك ، وهى تظن أنها ستجد صيدا سمينا فى داره . فأقبلت عليه فى دلال لم ير مثله فى حياته ، ولا كان يخطر له أن بضاعة الدعارة تعرض هذا العرض فى الدنيا . على أن غبطته استنجد بنعمة الله لطرد الشيطان من قلب هذه الشقية . واستغاث بالروح القدس حتى تغلب على فجور هذه الفتاة المتهتكة التى لم تكن تظن أن فى العالم شيئا يقال له عفة أو طهارة

« ولكن شيطان الدنس خزى ، وحل محله نعمة الروح القدس فى قلب هذه المرأة التائبة . فسلمها البطريرك الىّ لكى أستمر فى وعظها وارشادها وتعليمها التعاليم المسيحية . فواظبت على ذلك حتى تبينت أنها تائبة حقيقة وصدقا لا مكرا . وتغيرت تغيرا تاما كأنها ولدت ولادة جديدة . لم تعد تلك الفتاة الفاجرة . .

« بعد عدة أسابيع اختفت من انطاكية فجأة . فخفت ان تكون قد هجرت المدينة الى بلد آخر لكى تعود الى دعارتها السابقة . فبحثت عنها فى كل ناحية الى أن علمت أنها هاجرت الى الغرب فى سفينة مرت بالمرفأ مصادفة . بعد ذلك لم أعد أعرف عنها شيئا . والآن أول مرة أراها بعد ذلك العهد . . »

فقالت الامبراطورة : هل وثقت يا سيادة المطران من توبتها ؟

ـ وثقت كل الوثوق لانى كنت أراها كل يوم . ولم أعد أرى منها زيغا عن الصواب والعفة والطهارة . ولكى تستطيع أن تتعيش سلمتها الى امرأة تغزل الخيوط وتحوك الغزل عسى أن تتعلم منها هذه الصناعة وتستعين بها على التعيش . وكانت المرأة مرتاحة الى عشرتها والى تقواها والى عملها . .

ـ من يدرى ماذا كان سلوكها هنا بعد رجوعها ؟

فقالت تيودوره على الفور : يدريه القسيس راعى كنيستنا حيث أقطن الى جنب داره

فقالت الامبراطورة : ان توبة عامين ان كانت صادقة لا تطرح فى البحر جبال الآثام التى تجمعت فى خمسة عشر عاما . كل دم المسيح لا يستطيع أن يطهرها من أدناسها . .

فقالت الفتاة : ان دم يسوع يا ذات الجلالة يطهر الاكوان كلها ان كانت كلها جبال آثام وبحار أدناس . .

ـ لا يهمنا طهرت أو لم تطهرى . ان هذا التقرير الذى هو سجل آثامك ، وقد زكيته بصراحة وبلا مراوغة بل بكل تأكيد ـ هذا التقرير لا يمحى من سجلات الامبراطورية .

والقانون الامبراطورى لا يغتفره . ولا يجيز اتصال فتاة مثلك سجلت على نفسها دعارتها بأمير محبوب للامبراطور . فأنت فى عرف هذا القانون أثيمة وخطاياك غير مغفورة . تستحقين الرجم لو كان الرجم فى قانوننا عقوبة للزانية ..

فانتفض جستنيان ووقف قائلا بصوت جهورى شديد : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بنبل لا بحجر ..

فقالت الامبراطورة : ويك . لك أن تجعلها خليلة لك ، ولا يمكن أن تكون لك زوجة

فصاحت تيودوره : أتدفعينني يا صاحبة الجلالة الى الزنا ثانية بعد أن تبت الى الله . لا أقبل أن أكون خليلة حتى ولا لملك . ان الله قد قبل توبتى فلن أخطىء بعد . أليس كذلك يا سيدى المطران ؟

فقال المطران : بلا شك . ان الله قبل توبتك وأعانك على تطهير نفسك يا بنيتى ..

ــ اذن . لا يهمنى أن تدينونى هنا الآن وأن تأبوا على توبتى ..

فقالت الامبراطورة ساخطة : توبتك لنفسك . وانما للامبراطورية ليست شيئا . كنت عاهرة فاجرة . ولا تزالين فى عرف الدولة كذلك . فلا يمكن أن يقبل اقترابك الى القصر

حينئذ وقفت تيودوره وقالت بحدة وبصوت عال غير موقرة المجلس :

ــ لا . لم أفهم . ولا أفهم من أقامكم ديانين للناس على آثامهم الشخصية . الدينونة لله وحده . فلا أعبأ بحكمكم . اذا كان لكم حق بدينونتى فلماذا لم تدينونى أيام كنت أخطىء ؟ وبأى حق تدينوننى الآن وأنا تائبة ..

وفيما كانت تتكلم كانت الامبراطورة تصيح بها : اركعى يا دنسة . اسجدى لهيئة الدولة ..

فصاحت تيودوره : للرب الهى وحده أسجد واياه وحده أعبد . ان هيئتكم هذه الجائرة مفتئة على قضاء الله . الانكم تحكمون بالظلم فيما يحكم الله بالرحمة والمغفرة ، هل أنتم أعدل من الله أو أعرف منه بطهارة القلوب . كفى يا جلالة الامبراطورة عتوا وتمردا على شريعة الله . تجرمين من غفر الله لها وأعانها على التوبة . أتريدين أن تخلعى الله عن كرسى قضائه وتجلسى مكانه ؟

فصاحت بها الامبراطورة من شدة الغضب : صمتا يا فاجرة . ما نقصك الا أن تؤنبينى . قلت لك اركعى ، فاركعى والا ..

فارتمت تيودوره الى ما بين ذراعى المطران وهو لا يزال واقفا يضطرب من هذا النقاش الحاد الذى كان الحق فيه فى جانب الضعيفة وصاحت باكية :

ــ بربك يا سيدى المطران الموقر . خذنى الى الدير حيث أقف لدى الديان العادل ..

فقالت الامبراطورة مقاطعة : صمتا يا حشرة نجسة . تريدين ان تجعلى الدير ماخورا

فقال الامبراطور متجهما : حلما وتؤدة يا جلالة الامبراطورة . أرجو أن تدعى فرصة

لسائر رجال الدولة أن يتكلموا . وللفتاة الحق فى الدفاع عن نفسها . فلا أراها تشذ عن الصواب الا اذا أحرجتها . .

وما زالت الفتاة مسندة رأسها الى صدر المطران وهى تقول :

ـ نعم يا سيدى يا لسان الله ، خذنى الى الدير ، واعقد محكمة من رجال الكنيسة لكى يحاكمونى . وانقذنى من هذه المحكمة التى تنقض حكم الله . الله سامحنى . وهذه المحكمة تصب على جام غضبها . .

وطفقت تدفع المطران لكى يخرج بها وهى تقول :

ـ الى الدير يا سيدى الى الدير ، حيث يحمينى مخلصى من هذه المحكمة التى تقتل بعدلها روح الرحمة . هناك اتمتع برحمة الله وبنعمته وبرضاه . هناك أبتعد عن مظالم هذا العالم وجور أنظمته . الى الدير . .

وتقدم اليها جستنيان وهو منفعل شديد الانفعال وصاح مشيرا الى صدره :

ـ هنا ديرك يا تيودوره . هنا تجدين نعمة الله التى غفرت لك . .

وأخذها بيده وجذبها وهى تقول : لا . لا . الى الدير . أكون فى حماية الكنيسة . .

عند ذلك قال المطران: أيسمح سيدى صاحب الجلالة وسيدتى صاحبة الجلالة ان أخرج من هذه الثورة النفسية ريثما تهدأ ؟ . .

فنظر الامبراطور الى رجال الدولة كأنه يستشيرهم . فقال رئيس الشيوخ :

ـ حقا ان هذا المجلس أضبح مثار غضب الانفس ، فلا نستطيع النقاش فيه . فيحسن اذن أن يأذن جلالة الامبراطور بانصراف سيادة المطران واصطحاب الفتاة الى حيث تشاء

فقال جلالته : أود أن أعلم رأى نيافة المطران قبل أن يخرج . .

فقال المطران : ماذا أقول يا مولاى والجو قد أصبح عاصفا . وميزان العقل اضطرب . أرى أن الحق فى جانب الضعف ، لهذه الهيئة الموقرة الاهلية التامة أن تضع الحق فى نصابه . ولمولاى أن يعتمد على حكمها العادل . تعالى يا فتاة الى الدير حيث تغمرك رحمة الله ومغفرته

وفيما هما خارجان وجستنيان معهما قال المطران همسا :

ـ أين عزة الملك ومجده وكرامته يصد هذه الامبراطورة عن هذا الابتذال فى الجدال

فقال جستنيان : أما هى فلاحة فى الاصل والشىء يعود الى أصله ؟

ـ ٥ ـ

وساد الصمت المجلس كالجو يسكن بعد انقضاء العاصفة . وأسندت الامبراطورة ظهرها الى كرسيها الفخم واهية القوى . والامبراطور ما زال فى وجومه الى أن قال :

ـ أظن أن المشكلة أهون مما ظننا . وأظن أن الفتاة نفسها قد حلتها بالذهاب الى الدير

فقالت الامبراطورة وهى تقشعر تأثرا : ألا ترى يا صاحب الجلالة أن الامير جستنيان سيخلق مشكلة ثانية . أما سمعته يقول للفتاة : « هنا ديرك » أى فى صدره . فليست هى

التي تثير شجونه الآن ، بل هو الذي يثير مطامعها . لذلك يجب اصدار حكم بفصلهما

فقال وزير العدل : حسب قانون الدولة الذى يمنع اقامة زيجة بين أمير من أهل البلاط وبين ممثلة ، أصبح الحكم معلوما وليس فيه لبس . فالاحرى أن يفصل بينهما

فقال رئيس الشيوخ : أجل الحكم معلوم ، ولكن ماذا تكون قيمته اذا أبى سمو الامير أن ينفصل عن الفتاة ؟

فقالت الامبراطورة : لا أفهم ما الذى فى هذه المرأة الساقطة يغرى الامير ؟

فقال رئيس الوزارة : هذا سؤال يصعب جدا الجواب عليه يا جلالة الامبراطورة ولكن يسهل جدا لو كنت أنت الامير نفسه ساعة من الزمن لانك حينئذ تنظرين بعين الرجل وتحسين بقلب الرجل . .

وكان رجال الدولة يتغامزون متبسمين ، فكادت الامبراطورة تنشق غيرة وغيظا من هذا التلميح

فقال وزير العدل : ماذا يمنع أن تعتبر الفتاة ماتت منذ عامين حين كانت فى انطاكية ، وأنها ولدت ولادة ثانية على يد بطرك انطاكية . .

فقالت الامبراطورة : هذا خيال شعرى ، والدولة لا تشاد على الخيالات الشعرية

وكان الامبراطور يسمع النقاش متململا فقال :

ـ الحكم أصبح فى مقام الصادر . فدعوا مسألة التنفيذ الآن الى أن أفكر فيها . .

ـ ٦ ـ

نعود الى جستنيان والمطران والفتاة . فقد ذهبوا توا الى دار المطرانية . والفتاة فى حماية المطران وقد اعتقدت أنها انتصرت فى هذه المحاكمة على الرغم من ايجاسها من الامبراطورة التى كانت تتعمد تجريحها وخذلها ، وجستنيان كان يرى العكس : يرى أن القضية خاسرة ، لان مجلس الدولة يعتمد على نص الدستور الذى يحرم على أمير من البلاط أن يتصل بممثلة ، فكيف بالحرى بعاهرة شهدت على نفسها ؟ وأما المطران فكان يحوك فى ضميره سياسات مختلفة . .

قال جستنيان لثيودوره : أهكذا فضحت نفسك وخيبت الآمال فيك . لماذا لم تدعى أن هذا التقرير مزور لاغراض ضدك وليس عندهم اثبات له

فقالت : لا يا سيدى . ليس التقرير مزورا . والتائب لله لا يكذب على الله والناس. لقد كنت مزمعة أن أروى لك أيها الامير مثل هذا التقرير قبل أن نتمادى فى العشرة لكيلا أخدعك فها قد علمت آثامى . .

ـ وعلمت توبتك وقبلتها . واذا كان الله قد غفر لك فالاحرى أن أغفر أنا أيضا . .

ـ ولكن بينى وبينك قانون الدولة يا سيدى . .

ـ اذا كان قانون الكنيسة مخالفا لقانون الدولة ومناقضا له ، فلا أعبأ بقانون الدولة .

ـ أجل . ولكن جلالتي الامبراطورين لا ينقضان قانون الدولة الذى هو أساس عرشها
ـ انى مستعد أن أخرج من حكم هذا القانون . ها قد خلعت عنى ثوب الامارة . فأنا الآن واحد من رعايا الامبراطور جستينوس العاديين ، الذين لا يطبق عليهم ذلك القانون
فقالت تيودوره بشدة : لا . لا يا سيدى الامير . لا أريد أن تخسر امارتك لاجلى
ـ وأنا لا أريد أن أخسرك بتاتا . أنا ازاء خسارتين لا بد من احداهما ، فأختار أهونهما
فرمقته تيودوره بسحر عينين يصرع الفؤاد . وقالت :
لا يا عزيزى . لا تخسر عرشك ولا امتيازاته لاجل امرأة حقيرة خاطئة . أنصح لك أن تثوب الى رشدك وتعود الى العرش الذى ينتظرك قبل أن تصحو من سكرتك وتندم
من يصدق أن هذا الكلام صادر من قلب تيودوره . وهى منذ عرفت جستينيان صارت تحلم الاحلام البعيدة . ولكن هو الدلال يثير الغرام
فقال لها جستينيان : دعى يا حبيبتى عظتك كأنها كتابة على سطح الماء
ثم التفت جستينيان الى المطران اكليمندس وقال :
ـ ها نحن بين يديك يا سيدنا . قدمنا الى المذبح المقدس وارفع يديك فوق رأسينا بالبركة والاكليل . .
فابتسم المطران الوسيم الوجه وقال : صبرا يا عزيزى دع الامر لى الآن . فلى سياسة قد تجهلها وستعلمها بعدئذ . .
ـ وهل يمكن أن تساكننى تيودوره فى مدة المهلة . .
فوجفت تيودوره وقالت : لا تفسد توبتى يا سيدى . .
وقال المطران : دع تيودوره الآن تقيم فى الدير كما وعدت لكيلا تثلم توبتها ، ولكيلا يبقى للامبراطورة أقل سبب لافساد مسعاى ، دع تيودوره فى رعايتى
ـ أتعنى أنك تقنع الامبراطور بأن جستينيان الامير يقترن بفتاة عامية حقيرة
ـ سأقنعه بطريقة لا تعرفها . .
وقالت تيودوره : ان من استطاع أن يرفع الزانية الى السماء ، يمكنه أن يجعل الوضيعة رفيعة فى عينى الامبراطور
ففكر جستينيان هنيهة ثم قال بدموع : أستودعك يا حبة فؤادى فى الدير
وهنا قال المطران : سأرتب ترتيبا يسمح بأن تراها كل صباح
فهز جستينيان يد المطران . ثم خطف قبلة من وجنتها ومضى
ما استوعبت تيودوره كلام المطران حتى سبح فكرها فى جو من الآمال لا نهاية له
تنظر الى الماضى فترى الايام التى لم تر فيها من الشمس الا الشفق الأحمر ، فكان يتراءى لها رهيبا . ثم تنظر الى المستقبل فترى الشمس ساطعة حولها كيفما تلفتت
هل خطر لها فى الليل أو فى النهار حلم صيرورتها امبراطورة ؟ كلا البتة . ولكنها أصبحت الآن فى مدخل هذا الامل . أصبح القمر على قيد باع من يدها

- ٧ -

مضت أيام والامبراطور والامبراطورة يعلمان أن الفتاة تيودوره فى الدير كما قالت وكما أبلغهما المطران . وأما الامبراطورة فلم تكن مطمئنة لان جواسيسها أبلغوها أن تيودوره تجتمع بالامير فى دار المطرانية بعض الساعة من حين الى آخر . فغضت النظر عن هذا مكرهة

وأما الامير جستينيان فكان كل يوم يسأل المطران بقلق متى ينفذ وعده . فكان المطران يستمهله متحينا الفرصة المناسبة لمفاوضة الامبراطور لكى يضمن النجاح

وأما المطران فعلى الرغم من مقاومة الامبراطورة ووقوفها فى المسألة موقف الخصم العنيد ، كان يعتقد أن المهمة ليست صعبة كما تتراءى لهما ، لانه شعر فى الجلسة أن تيودوره حصلت على عطف الامبراطور القلبى

وأخيرا بعد أن ذاب العاشقان وجدا وجوى ، التمس المطران مقابلة الامبراطور . فسرعان ما استدعاه الامبراطور ، لانه كان يود أن يعرف أشياء عن غرام الامير والزانية التائبة من غير أن يطلب هذه المعرفة

سأل الامبراطور المطران باسما : كيف حال راهبتكم الجديدة يا صاحب النيافة ؟

فأجاب المطران : ليست تيودوره راهبة فى الدير يا صاحب الجلالة . وانما هى جعلت الدير ملجأ لها لكى تبتعد عن تقولات الناس وافتراءاتهم

ـ ولكن الامير جستينيان يجتمع بها فى دارك . والى متى هذا اللقاء المقيم ؟

ـ حاولت أن أقيم العثرات بينهما عسى أن يزهد الامير فيها . فاذا هو يزداد تولها . حتى صار يبتغى أن ينال الفتاة ولو خسر العرش

فقال الامبراطور مجفلا : طبعا لا أسمح . ولكن هل بلغ وجد الامير الى حد أن يجازف بالعرش لاجلها

ـ كذا يقول أحيانا . ولذلك أرى يا صاحب الجلالة أن تحل العقدة . ولا سيما لان شخصية الفتاة تكاد تكون خلوا من العيوب . ناهيك عن جمالها الفاتن ولطف عشرتها . وأما سلوكها فسلوك التقوى

وكان الامبراطور يسمع هذا الوصف باسما كأنه كان يستلذ سمعه . فقال :

ـ ان ما تصفها به الآن يا نيافة الحبر توسمته فيها من موقفها فى المجلس يوم تلاوة التقرير عنها عليها . واقتنعت بصدق توبتها من اعترافها بآثامها . لذلك لم تبق فى نظرى منحطة . بل ارتفعت عن رتبة العامة . لذلك لا ألوم ابن أخى كثيرا على شغفه بها

فاستبشر المطران خيرا من حديث الامبراطور ، وقال متجرئا :

ـ اذن ليس عسيرا على جلالتك أن توافق على اقتران الامير بها . .

ـ القانون لا يوافق . .

ـ ألا يوافق القانون على زواج الامير من عامية . .

فتبه الامبراطور الى أن زوجته يوفيميا عامية فلاحة ، فقال :

ــ يوافق اللهم الا اذا كانت لم تمارس التمثيل والدعارة

ــ ولكن يا مولاى أنت مقتنع بتوبتها . ومعنى التوبة فى الكنيسة محو الذنوب لان الله غفر

فضحك الامبراطور وقال : هذا شرع الكنيسة لا شرع الدولة

ــ أتجعل يا مولاى شرع الدولة فوق شرع الكنيسة ؟ شرع الدولة وضعه البشر ، وشرع الكنيسة وضعه الله . ولجلالة الامبراطور الحق فى أن ينقح نصوص الدستور بحيث تطابق قانون الكنيسة ، ولا سيما فيما يخص البلاط

ــ صواب ما تقول . ولكنى أستنكف أن يقال انى أتلاعب بقانون الدولة لغرض شخصى

ــ خطر لى خاطر يمهد السبيل للتعديل يا مولاى . . ترفع جلالتك الفتاة من درك الضعة الى مرتبة الشرف ، كما رفعها الله من الجحيم الى النعيم . .

فقهقه الامبراطور وقال : حيلة لطيفة . سأفكر فيها . مهلا برهة . أود أن أرى الامير والفتاة غدا هنا قبل الظهر

ــ يغتبطان عظيم الاغتباط يا مولاى بالمثول بين يدى جلالتكم

- ٨ -

كان الامير جستنيان وتيودوره ينتظران سيادة المطران على مثل جمر الغضا . فلما رأيا بشره يسطع أمامه اغتبطا عظيم الاغتباط . فقال الامير :

ــ لا أظن هذه البشاشة تغشنا يا سيدنا

فقال المطران : استعدا للامتثال لدى جلالته

فقالت تيودوره وهى تكاد تطير فرحا : لتقبيل يد الرضى . أليس كذلك ؟

فقال الامير : يد الرضى السخية . أنا أعلم أن عمى متى رضى منح بلا حساب

فقال المطران : وهل تطمع أنت بلا حساب ؟ ماذا تنتظر من جلالته ؟

ــ أن يأذن بزواجنا . .

وكان المطران ينظر فى مقلتى تيودوره اللتين كادتا تنبثقان من محجريهما جزلا . وقال لها ضاحكا مداعبا : يا ترى هل تستطيعين يا جلالة الامبراطورة المستقبلة أن تتحملى أعباء العرش بعد عمر الامبراطور الطويل ؟

فقالت : ما يفوت سيدى الامير من المعونة أتلقاه من سيادتك يا مولاى الحبر الكريم . ألم تعدنى أنك تكون حامى تيودوره مدى الحياة ؟

ــ لا أظنك تحتاجين الى حمايتى لان جلالة الامبراطور توسم فيك الكفاءة

فكادت تيودوره تنفجر مرحا وحبورا من هذه البشائر التى لم تحلم بها . أكان ممكنا أن يخطر ببالها أن تكون العاهرة يوما ما امبراطورة مهما تابت وندمت واتقت

***

فى الصباح التالى كان الامير جستينيان فى دار المطران ينتظر تيودوره قادمة من الكنيسة كعادتها لكى يتهيآ للذهاب مع المطران الى البلاط قبل الظهر . وكان كلما مضت دقيقة حسبها الامير ساعة حتى مل عد الدقائق واحتدم شوقه . حتى قارب الظهر . وكاد يفوت الموعد . وتيودوره لم تظهر . فقلقا أى قلق ..

أين هى ؟ لماذا تأخرت ؟

تيودوره أشد شغفا منهما بالمثول لدى صاحب الجلالة مشرقة بعد أن مثلت لديه مزدراة . تيودوره التى لا ريب أن سفن أفكارها الراقصة طربا تمخر فى بحر من الآمال المرحة والامانى المقبلة التى لا حدود لها ، تيودوره التى كانت تتوقع التاج هابطا عليها من سماء النعمة الالهية بعد أن تهبط تحت زحم الغضب والنقمة فى بحر آثامها . أتيودوره هذه تتخلف عن ميعاد الامتثال بين يدى الامبراطور ؟

لا بد أن حادثا فظيعا أعاقها ..

ركب الامير جواده ومضى الى الدير يسأل عنها . فقيل له انها ذهبت الى القداس كالعادة ولما تعد . الكنيسة الى جانب دار المطرانية . سأل المطران خادم الكنيسة وخدم الدار ، فلم ينبىء أحد عنها بشىء .. وأخيرا ؟

ركبا المركبة وذهبا ثانية الى الدير ، فقيل لهما انها لم تعد البتة . بحثت الرئيسة والراهبات عنها فلم يقفن لها على أثر . جزع جستينيان لغيابها . ثارت فى نفسه الظنون المفزعة لفقدها . أى نكبة نكبت بها ؟ وأى شر أصابها

قال المطران : يجب أن نذهب توا الى القصر لئلا يغضب جلالته اذا استبطأنا . وثمة تعرض على جلالته أمر اختفائها

فأسرعا الى القصر . والتمسا المثول . فاستقبلهما جلالته من غير أن يبدو منه استغراب لعدم وجود تيودوره معهما . ولكن المطران ما تمهل فى أن شكا الامر لجلالته : اننا يا مولاى افتقدنا الفتاة تيودوره عبدتكم منذ الصباح ، وبحثنا عنها فى كل مكان ظنناها فيه ، فلم نجد لها أثرا ، ولا سمعنا عنها خبرا

فقال الامبراطور باسما : أنا أخبركما أين هى .. هى فى دار الشحنة (البوليس) مقبوض عليها بتهمة الدعارة واللصوصية ..

فسقط فى يد الامير جستينيان واسودت الدنيا فى عينيه . وجعلت لجات الشوق والهيام تلاطم فؤاده ، وقال : تهمة مفتراة يا مولاى ..

وقال المطران : عجبا يا مولانا . هذا سفر قديم وقد محوناه ..

ـ لا بل هو سفر جديد فى هذا الصباح

فاكفهر وجه المطران وقال : أظن فى الامر دسيسة يا صاحب الجلالة . هل روى المبلغ لجلالتكم تفاصيل التهمة ؟

ـ لا. بل قيل لى ان تيودوره الثائبة عادت الى دعارتها وجرائمها . وهي تحت التحقيق فى دائرة الشحنة . .

فقال الامير : لا أظن أن جلالتكم تعتمدون كل الاعتماد على الشرطة فى تحقيق تهمة الفتاة . اذ لا يعقل أنها وهي تطفر فرحا فى انتظار شرف الامتثال لدى جلالتكم تند عن الصواب لتطرح نفسها فى حمأة الشهوات

فضحك الامبراطور ثم قال : أجل. هذا لا يعقل . .

ـ اذا . ألا تتفضل جلالتكم باستقدامها مع هيئة التحقيق بين يديكم ؟ . .

ـ لقد صدر الامر بذلك قبل أن تدخلا الى هنا . .

***

. ما هي الا هنيهات حتى انبأ الحارس ان قائد الشرطه ونفرا من الناس معه ينتظرون خارجا أمر جلالته . فأمر بقائد الشرطة أن يدخل أولا . فدخل هـذا القائد وتلقاه الامبراطور بالسؤال :

ـ من اصطحبت ؟

ـ المتهمة المدعوة تيودوره . والرجل الذى اتهمها . والمرأة صاحبة البيت السرى

ـ أرسل الينا المتهمة وحدها أولا

خرج القائد ، ثم دخلت تيودوره وسجدت ، وبقيت جاثية . فتأملها الامبراطور باشا معجبا بحسن ملامحها ولطف تناسقها ، ثم قال : قفى يا فتاة . .

فوقفت ، فقال : أقعدى على الكرسى الذى وراءك . .

فقدم لها جستنيان الكرسى فقعدت بكل تحفظ واحترام وتوقير . وقال الامبراطور :

ـ أين كنت حين قبض الشرطى عليك ؟

ـ فى منزل لا أعرف عنه شيئا . .

ـ لماذا كنت هناك اذن ؟

ـ قابلتنى امرأة فى باب الكنيسة وسألتنى : « هل أنت تيودوره » فأجبت : « نعم » قالت : « ان أختك أناستاسيا تود أن تراك ولو دقيقتين » فقلت : « لا أعلم أن أختى هنا ولا أعرف أين هى » . فقالت : « جاءت أمس وسألت عنك وعلمت أنك فى الدير . فتود أن تراك بضع دقائق . فاتبعينى الى حيث هى » فتبعتها لكى أرى أختى لعلها فى حاجة ماسة الى ولعلى أستطيع أن أنفعها بشيء . تبعتها بكل سلامة نية واطمئنان مسافة غير طويلة الى أن دخلت بى الى منزل بسيط . وأجلستنى على مقعد . ثم قالت : « سأدعو أختك اليك . انتظرى هنا » . ودخلت فى باب آخر فى الغرفة وأقفلته . ومكثت وحدى أنتظر نحو عشر دقائق حتى كدت أرتاب فى أمر هذه المرأة . فناديتها . فلم ترنى وجهها . وانما دخل من الباب الاول فجأة شرطى ومعه رجل عتى . وقال الشرطى : « أين هى ؟ »

فقلت ، وأنا أظن أنه يسأل عن ربة البيت : « دخلت الى هذه الغرفة » . فقال الرجل يشير الى : « بل هذه هي يا سيدى القائد . هي بعينها » . فقلت : « انني غريبة . أما صاحبة المنزل فقد دخلت الى هذه الغرفة » فأصر الرجل العتى قائلا : « بل هذه هي بعينها . هي التي سرقت كيس نقودى . . » . فذعرت من هذه التهمة الباطلة وقلت : « انك غلطان يا هذا . أنا هنا منذ عشر دقائق فقط . أنظر في جيدا » فقال : « نظرى لا يغشنى . هي هي يا سيدى . هي نفس المرأة التي كنت معها . وهي . . » فصرخت به مذعورة : « ويحك يا منافق . لا أعرفك ولا تعرفنى ولا رأيتك قبل هذه الدقيقة ولم ترنى » فقال الشرطى : « هلمى معى يا هذه . والتحقيق يكشف الحقيقة فلا تخافى » فقلت : « سل يا سيدى صاحبة المنزل . أدعها الى هنا . هي التي دعتنى الى هنا لكى أقابل أختى » . وما كنت أدرى أن تلك المرأة شريكة في المؤامرة . فقال الشرطى : « وأختك أيضا تقيم في هذا الماخور » قلت : « صه . لا تتطاول بالكلام البذىء . ادع صاحبة المنزل حالا » قال : « سندعوها الى دار الشحنة . هلمى معنا الآن » قلت : « لن أذهب معكما لان عندى موعدا شريفا عظيم الشأن لا يمكن أن أتخلف عنه ولو بقطع عنقى » . قال : « هذا نفاق ينتحله كل من يدعى الى دار الشحنة . هلمى معى » . وحملانى وأخرجانى رغم أنفى وأودعانى في مركبة وذهبا بى الى دار الشحنة . وهناك فتشتنى امرأة فلم تجد معى نقودا البتة . وما زلت أنتظر التحقيق . والى الآن لم يحقق أحد معى . .

وكان الامبراطور مصغيا جيدا لهذه القصة الشنيعة . وهو يتميز غيظا فقال :

ـ تعنين أنك لم تشاهدى أختك في ذلك المنزل . .

ـ كلا يا صاحب الجلالة . أختى ليست في بيظنطيوم ولا أدرى شيئا عن مصيرها . .

ثم استدعى الامبراطور الشرطى والرجل والمرأة الاخرى كلا بنوبته واستجوب كلا منهم حتى تبين دسيستهم جميعا وارسلهم الى حيث يجب أن يكفروا عن شرهم

***

بعد خروجهم وجه الامبراطور الخطاب الى تيودوره :

ـ انى واثق بصدق كل كلمة قلتها . ولم يبق عندى ريب بأن في الامر مكيدة . بمن تظنين؟

فترددت تيودوره وقالت : ان بعض الظن اثم يا مولاى . فأتوسل الى جلالتك أن تعفينى من ارتكاب هذا الاثم

فابتسم الامبراطور كأنه قرأ أفكارها ثم قال :

ـ لسوف ينجلى كل سر وكل شر . بعد أيام سأستدعيك يا سيادة المطران

ففهم المطران أن المقابلة انتهت ، وتقدم الى الامبراطور وقبل يده . ثم حذا حذوه الامير وتيودوره . وخرجوا خروج الظافرين

- ٩ -

ذهبوا توا الى دار المطران حيث يعقدون مؤتمراتهم ..

سأل المطران تيودوره نفس سؤال الامبراطور: من تظنين انه نصب هذه المكيدة يا بنتي؟

فقالت : من خصمى فى علاقتى مع الامير ؟ ومن أبلغ الخبر لجلالته ؟

فقال الامير : من غير الامبراطورة ؟ فهى التى شرعت تكيد مكايدها ضدى منذ علمت ان بينى وبين تيودوره حبا لم تذق هى مثله

فقال المطران : لقد أحسنت الاجابة على سؤال الامبراطور يا تيودوره . لانك لو لمحت الى الامبراطورة مهما كان التلميح بعيدا ، لخلقت مشكلة الله أعلم كيف يمكن حلها

فقالت : ألا تظنان أن الامبراطور اشتبه بالامبراطورة مختلقة هذه المكيدة الفظيعة ؟

فقال الامير : لا شك عندى بذلك ، ولا ريب أنه فهم من كلمتك « ان بعض الظن اثم » انك تشتبهين فى الامبراطورة . ان عمى على قلة علمه ذكى يفهم الافكار قبل الكلام ويرى النجوم من وراء الغيوم

فقال المطران : أصبحنا الآن نود أن نعلم كيف نسجت هذه المكيدة وسأسعى بوسائلى السرية الى معرفة نتيجة التحقيق اذا أبى جلالته أن يعلن ..

قال الامير : ودعنا الامبراطور بوعد منه أنه سيستدعيك يا سيدنا الحبر . لماذا يا ترى ؟

ـ ماذا يريد منى غير أن يبلغنى ارادته السنية بشأنكما ؟

ـ ماذا تكون ارادته السنية يا ترى ؟

فقالت تيودوره بدهاء : من يدرى أن تكون ارادته السنية ، نفى تيودوره الى انطاكية لكيلا يبقى وجودها فى بيزنطيوم موضوعا للمكايد التى ترعج القصر ..

فقال الامير ضاحكا مازحا : لا بأس . نؤسس امبراطورية فى انطاكية

فقال المطران مقهقها : ونحن ننقل انطاكية الى بيزنطيوم . أليس كذلك يا امبراطورة انطاكية

فقالت تيودوره : بأية قوة تنقلها يا سيادة الحبر . أبقوة الايمان الذى ينقل الجبال

فقال : به وبقوة الحب أيضا الذى يطير فوق البحار والجبال

- ١٠ -

وبعد أسبوع لبى سيادة المطران دعوة الامبراطور حسب وعده . فلما عاد من المقابلة وجد تيودوره فى داره تنتظر نتيجة المقابلة على أحر من الجمر . فلما رأته مقبلا ووجهه يطفح بشرا وحبورا أسرعت مرتمية على يده وهى تنضد عليها قبلات بعضها فوق بعض . فجذبها ودخل بها الى مكتبه حيث جلس وأجلسها الى جنبه وقال ممازحا مداعبا :

ـ مباركة أنت بين النساء أيتها الامبراطورة الجليلة

فانحنت مبتهجة القلب على يده تقبلها . فرفعها وقبل جبينها قبلة حارة وضمها الى

صدره . فرفعت نظرها اليه باسمة وقالت :

ــ لقد تبت عن هذا فى انطاكية أيها الحبر المقدس . فلماذا . .

فقال ولا تزال يدها فى يده :

ــ وفى انطاكية طالما تمنيته وتشوقته . ولكنى عصمت النفس عنه

فقالت وهى تبتسم متوردة : أجائز هذا يا مولاى ؟

فقال : أتنكرين علىّ تقبيل ايقونة العذراء ؟

ــ لماذا حاذرته فى انطاكية ؟

ــ لان لسانى كان يعظك بتجريمه . فكيف يجرأ قلبى على مناقضة لسانى ؟

ــ كيف يجرأ الآن ؟

ــ الآن اللسان صامت والكلام للقلب

ــ ماذا أصمت اللسان ؟

ــ لدى هذا الاقنوم السماوى يعلو صوت القلب على صوت اللسان

وضم رأسها الى صدره قائلا : ألا تسمعين ماذا يقول القلب ؟

ــ لا أسمع الا خفقا شديدا

ــ هذه لغة القلب ألا تفهمينها ؟

ــ كلا

ــ ويحى : اذن صرختى فى واد

ورفع يده عن رأسها ، فاعتدلت فى مجلسها ، ولكنها ما زالت باسمة وقالت :

ــ لا أفهم يا سيدى الحبر المحترم كيف يتناقض اللسان والقلب وهما فى جسد واحد وبقيادة عقل واحد ؟

ــ ولكنهما ليسا بقيادة غريزة واحدة

ــ ما هى غريزة اللسان وما هى غريزة القلب ؟

ــ غريزة اللسان اجتماعية نظمها الناس وغريزة القلب نظمها الله

ــ اذن . تعنى أن القلب يتكلم بلغة الله

ــ طبعا طبعا . فهمت لسان الله يا فيلسوفة . ولغة الله هى لغة الحب . والله محبة قال الرسول بولس . وبهذه اللغة يخاطب قلبك قلب سمو الامير جستينيان

ــ اذن الحب غير محرم

ــ من قال انه محرم ؟ الدعارة هى المحرمة يا بنتى . والدعارة ليست حبا . هى فحش حيوانى بهمى . الحب الالهى حب روحانى . فهل كنت تشعرين بحب كهذا قبل أن عرفت الامير جستينيان

ــ أبدا لم أشعر بشىء يقال له حب . الآن أشعر بحب روحانى للامير

***

ودخل الامير وهو يسمع الكلام الاخير . وربما كان المطران قد شعر بقدومه فساق الحديث الى موضوع حبهما دفعة لمظنة السوء من قبل الامير . وقال ردا لعبارة تيودوره الاخيرة : هنيئا لسمو الامير . .

فقال الامير : أراكما تتكلمان عن الحب

فقالت تيودوره : نعم . سيادة المطران يعلمني أن الحب الروحاني هو نعمة من الله كحبي لك

فقال الامير : أجل هكذا حبي لك روحاني سماوي ملائكي شعري . قولي عليه ما شئت وخطف من وجنتها قبلة حارة . فقال المطران ضاحكا ممازحا : ويحك . ما هذا حب روحاني . هذا التهام للثمرة الفجة . ألا تصبر الى أن تنضج الثمرة يا أمير

فقال الامير : لست ألتهم ثمرة بل أتنشق زهرة عطرة الى أن تنضج الثمرة . ولكن متى تنضج ياسيدنا . لقد ضاق ذرعنا اصطبارا . عسى أن تكون قد نضجت طبختك عند الامبراطور

ـ فى طريق النضوج ان شاء الله . لا يمكن أن ينقضى أمر كلمح البرق يا سمو الامير . ما دام فى كل أمر ارادات متعددة لا يمكن أن يتم عمل الا بتوافق هذه الارادات

فقال الامير متجهما : ارادات ؟ ارادات من يا سيدى ؟ الامر لجلالته وحده

ـ أنت متسرع ملحاح لجوج لانك عاشق وله شغوف . ولكن الامبراطور والامبراطورة ورجال الدولة ليسوا عشاقا فى هذه المسألة ، بل هم سواس . مدبرون . قضاة . حكام

فضجر الامير وقال : لا أعلق سعادتى على حكمهم . لست أريد عرشا . بل أريد حبا

فانبرت تيودوره التى صار غرامها فى العرش أقوى من عشقها للامير وقالت :

ـ حلما وتؤدة يا عزيزى . ألا تصبر فيكون لك الحب والعرش جميعا . الى الآن لم يقل لنا سيادته فى أى مرحلة صار المشروع . مهلا وسمعا يا عزيزى

فقال المطران : لا يسمح جلالة الامبراطور بزواج الامير من امرأة عامية . .

فجفلت تيودوره اذ غشيت قلبها ظلماء الخيبة ، وقاطعت كلام المطران :

ـ ويلى ! لم تنفعنى توبتى شيئا فى هذا العالم . فالافضل أن أمضى الى حيث أجنى ثمرة توبتى . ولكن جلالة الامبراطور قبل توبتى فلماذا يرفضها الآن ؟! . .

ـ جلالته قبلها كما قبلها الله . ولكن لو صرت قديسة لبقيت عامية ، أى لست من الاشراف

ـ سبحانك اللهم . جعلت من العامة أبرارا . ومن الاشراف أشرارا . لقد جعلت الابرار فى السماء فى رتبة واحدة . فلماذا تجعلهم على الارض متفاوتى الدرجات

وكان الامير يتميز غيظا وحنقا فقال : لم يجعلهم الله على الارض درجات ، بل هم جعلوا أنفسهم ، لانهم ليسوا أبرارا . أنا مثلك يا تيودوره أمضى الى حيث تنفع التوبة . تعالى نخرج من عالم الاشراف الاشرار الى عالم العامة الابرار

فقال المطران : خفف عنك وهون عليك يا أمير . ليس النبل أو الشرف وقفا على كبراء الناس وخاصتهم . يمكن أن يرتفع العامة الى طبقة الخاصة فى النبل والشرف . ان معظم هؤلاء الكبراء كانوا فى الاصل من وضعاء العامة . فالارتقاء من تحت الى فوق سنة فى الطبيعة وفى سائر حركات الأكوان

فاشرأب عنق كل من الامير وتيودوره . وقال الامير :

ــ كيف يمكن هذا ويوفيميا زوجة عمى فى الطريق ؟

ــ لا تأثير لها على ارادة عمك الحازمة

ــ اذن . هل تستطيع أنت أن تقنع عمى بأن تيودوره تسلك مسلك النبيلة الشريفة

ــ لقد أقنعته وتقرر الامر

فقال الامير بلهفة : ما الامر الذى تقرر يا سيدنا

ــ قرر عمك أن يرقى تيودوره الى طبقة الاعيان لكى يتسنى لك أن تتزوجها . فهى منذ الآن أصبحت نبيلة . وفى مثل هذا اليوم من الاسبوع الآتى تعقد حفلة حافلة عظيمة فى القصر لكى تقدم النبيلة عقيلة رئيس الشيوخ النبيلة « تيودوره انجاليكا » ــ أى الملاك كما سماها جلالته ــ للامراء والاشراف والاعيان . هل يعجبكما هذا

فبهت جستينيان وتيودوره وقالت هذه :

ــ لماذا لم تقل هذه البشارة من أول الامر يا سيدنا ولا تلوع قلبينا بتعلات الآمال ؟!

ــ دخلت الى الدار وأنا أحييك امبراطورة . أما كفت هذه التحية بشارة ! لقد تقررت الحفلة بعد سبعة أيام . وعلى تيودوره أن تزور عقيلة رئيس الشيوخ لكى تتلقن منها التعليمات ، فقد أبلغها جلالته هذا الامر . وهى تفهمك ماذا يجب أن تلبسى وبأى الحلى تتحلين . أهم حلية رسمية هى الاكليل الذهبى المرصع

عند ذلك ارتمت تيودوره على المطران وقبلته مرارا ثم على الامير أيضا

ــ ١١ ــ

أوصت تيودوره أبرع خياطة لكى تخيط لها ثوبا من الكتان الناصع البياض حسب زى ذلك الزمان للحفلات الامبراطورية . واشترى لها الامير جستينيان عقدا مرصعا وخاتما وشنفين . هى أثمن وأجمل ما فى المدينة . وأوصى الجوهرى الصائغ فيلبس ــ من أمهر الصياغ ــ أن يصنع لها اكليلا نفيسا من الذهب الخالص ، وأن يجعل جبهته طويلة عريضة مزخرفة مرصعة بالحجارة الكريمة . وساومه على الثمن ٢٥٠ مثقالا من الذهب ، والمثقال درهم ونصف درهم . واشترط عليه أن يسلمه اياه يوم الخميس وهو يوم الحفلة . ثم نقده نصف الثمن بايصال على أن يدفع له النصف الآخر عند استلام الاكليل

***

فى صباح الخميس كان الثوب والحلى وسائر لوازم التبرج موجودة عند تيودوره الا الاكليل . فذهب جستنيان الى الجوهرى فيلبس يطالبه بالاكليل . فعرض فيلبس عليه اكليلا بديعا يأخذ جماله بالالباب ، وقال له : انه ينقصه قليل من الاتقان الفنى وسأتمه عاجلا

فقال الامير : انى أحتاج اليه بعد الظهر حتما

فقال فيلبس : سيكون عندك فى الساعة الثالثة بعد الظهر . اعطنى العنوان

فأعطاه الامير العنوان وقال : من يأتى به يأتى ايضا بايصال ببقية الثمن . وأنا أعطيه ايصالا باستلامى الاكليل

فقال فيلبس : سآخذه بنفسى يا سيدى الامير

***

وكانت تيودوره فى ذلك اليوم منهمكة باعداد نفسها . فعندها المزينة والمبرجة والمطيبة بالطيوب الخ

وكذلك كان الامير منشغلا بتهيئة نفسه للحفلة . وفى الساعة الثالثة بعد الظهر كان فى مركبته أمام المنزل الجميل الذى أسكن فيه تيودوره . فترجل ودخله ، فاستقبلته تيودوره فى تبرجها البديع على أجمل صورة . فضمها الى صدره وأمطر خديها بردا من القبلات وقال : من لا يقول انك شمس المشرق والمغرب جميعا

ـ امرأة عمك تقول انى ظلمتهما

ـ ستذوب غيرة الليلة وتغيب شمسها أيضا

ـ هى تعتقد أنها أجمل جميلات بيظنطيوم

ـ طبعا ، لان عمى يقول لها هكذا . « والقرد فى عين أمه غزال »

ـ كما تقول أنت عنى كذلك

ـ لست وحدى أقول انك شمس المشرق . سترين الليلة كيف تطوقك الاحداق . أنظرى نفسك فى المرآة

ـ لقد ملتنى المرآة اليوم ..

ـ مهلا الى أن يأتى الاكليل البديع . وثم انظرى فتزداد المرآة ابتهاجا بما ينعكس عنها من بهاء

ـ أخاف أن يتأخر الجوهرى ..

ـ وعدنى أنه سيأتى بالاكليل فى هذه الساعة

ـ تأخر . ونحن يجب أن نكون عند عقيلة رئيس الشيوخ قبل الحفلة بساعتين

ـ لا أدرى لماذا تأخر ذلك النغل ..

ونظر الامير فى المزولة المائية وقال : فات ميعاده نصف ساعة . أذهب اليه . ان جاء فى غيابى فلينتظر هنا

ـ انى موجسة من تأخره يا عزيزى . .
ـ أسحق جمجمته . لقد نقدته نصف الثمن مقدما

***

انطلق جستينيان على جواده الذى كان يحفظه فى اسطبل المنزل تحت الطلب . وفى دقائق معدودة وصل الى دكان فيلبس الجوهرى وبادره بالسؤال : ألم تزل هنا يا هذا ؟

فقال الجوهرى مظهرا الاستغراب : أجل

وزعق به الامير : أما قلت أنك تكون عندى والاكليل بيدك الساعة الثالثة بعد الظهر ؟

ـ بلى . لكن رسولك أتانى منذ نصف ساعة وبيده بقية الثمن وايصالا باستلام الاكليل فأخذه

فصاح صيحة أخرى : ويحك ! من رسولى هذا ؟ لم أرسل لك رسلا يا أحمق

ـ مولاى هذا ايصال منك باستلام الاكليل ، وهذا خطاب بأن أسلم الاكليل لناقله

فنظر جستينيان فى الايصال والخطاب وقال : لله منك حمارا . هل كنت تعرف خطى من قبل حتى تصدق أن هذا الخطاب وهذا الايصال من خطى وبامضائى . هل تعرف من لعب هذه الحيلة على غباوتك يا بهيم ؟

ـ ان الذى جاءنى بالرسالة والايصال شخص نبيل جليل يا سيدى . لا يظن أحد أنه يحاول الخديعة بأمر كهذا

ـ هل تعرفه ؟

ـ لا . .

ـ اذن كيف تعرف أنه نبيل لا لص . .

ـ اذا رأيته أعرفه

ـ وهل تريد أن أستعرض أمامك جميع أهل المدينة لكى تدلنى عليه من بينهم يا نغل

وقبض جستينيان على عنقه قائلا : الاكليل حالا والا خلعت رأسك عن جثتك . .

فصرخ الجوهرى قائلا : رحمة يا سيدى . لماذا لا تعود الى المنزل فتجد الرجل هناك . لعله رام أن يخدمك خدمة

فارعوى جستينيان قليلا وقال : ربما كان الامر كما تقول أيها المغفل . ولكن من هذا الذى يعلم أن لى اكليلا هنا ويدفع الثمن عنى ويأخذه الى ؟ ان سخفك هذا سيحرقلنى يا غبى . على أنى عائد . فان لم أجد الاكليل فى المنزل فتأكد أنى سأسحق رأسك

ومضى الامير على جواده كالبرق الخاطف . وما توارى حتى أقفل الجوهرى دكانه فزعا من غضب الامير

***

عاد جستينيان الى تيودوره . فلما رأت فى وجهه امارات الغضب فهمت أن الاكليل ليس معه . فسألها : هل جاء أحد بالاكليل ؟

ـ لا . كلا . البتة . .

ـ اذن أعود الى ذلك اللص لكى أسحق رأسه وأبقر بطنه . .

ـ كلا . مهلا . قل لى ماذا كان من أمره أولا . .

فروى لها حديث فيلبس بحروفه . فقالت :

ـ هى دسيسة لئيمة يا عزيزى . ليس عندنا متسع من الوقت لسحق الرؤوس الآن . يجب أن نفكر بوسيلة لتلافى هذا الموقف الحرج الآن

ـ خطر لى أن نستعير من احدى العقائل اكليلها ، ولكن ما من عقيلة تستغنى عن اكليلها الليلة ، لانهن كلهن يترقبن حفلة كهذه لكى يحضرنها . .

ـ لن أضع اكليلا على رأسى ليس ملكى

ـ رأيك اذن ؟

ـ ألا يمكن أن تجد عند جوهرى آخر اكليلا معدا للبيع ؟

ـ لا يصنع الصياغ هذه الاكاليل الا بطلب لانها ليست من الحلى التى يجوز لاية سيدة أن تستعملها . هى لمثل حالتك . هى للاميرات والنبيلات فقط

فتدفق الدم فى رأس كل منهما من شدة الغيظ . ثم قالت تيودوره : أذهب بلا اكليل

ـ ويحى ! ماذا يقول الجمع الذى ستظهرين فيه ؟

ـ نعلن أن مكيدة كيدت لنا فحرمتنى الاكليل . فيضطر جلاله الامبراطور أن يبحث عن سر المكيدة

ـ أظن، بل أرى أنه قبل ذلك يجب ان أذهب الى فيلبس فأسحق رأسه اذا لم يستحضر الاكليل حالا

وهم جستينيان أن يمتطى جواده ، واذا شخص اندفع من بين السابلة وأمسك بركابه قائلا : حضرتك سمو الامير جستينيان ؟

ـ نعم . ماذا ؟

ـ أرجو منك دقيقة فقط لامر يهمك .

ـ تفضل أدخل

واقتاده الامير الى رحبة المنزل . فقدم اليه الرجل علبة وفتحها فلمع منها اكليل أبدع من الاكليل الذى رآه صباحا عند فيلبس . فسرعان ما تلاشى غضبه وغمره الابتهاج وقال:

ـ ولكن هذا ليس الاكليل الذى اتفقنا عليه

فقال الرجل : هل فيه عيب يا سمو الامير ؟

ـ بالعكس هذا أبدع من ذاك . ماذا قال لك الجوهرى ؟

ـ لم يقل شيئا يا سيدى سوى أنه أوعز الى أن أطلب منك ايصالا باستلام الاكليل

ـ هل أعطاك ايصالا ببقية الثمن ؟
ـ كلا البتة . هو يقول ان الثمن وصله كاملا
ـ عجبا . عجبا . من أرسلك يا هذا ؟
ـ الجوهرى المشهور جرمانوس
ـ جرمانوس ! هل أنت واثق أنه أرسلك بهذا الاكليل لى لا لسواى ؟ لعلك غلطان . .
ـ ألست يا سيدى سمو الامير جستينيان ؟ وهذا المنزل منزلك ؟
ـ بلى . ولكنى لم أقابل السيد جرمانوس الجوهرى قط . بل اتفقت مع فيلبس الصائغ المشهور . . .

فضحك الرجل وقال : متى كان فيلبس مشهورا . لعله اشتهر بأن كان تلميذا لجرمانوس
ـ من ساومه ودفع له الثمن ؟ هل تعرف ؟
ـ لا . وانما رأيت عنده أمس رجلا جليلا يساومه . ولم أعلم ماذا كانت المساومة . ثم نقده كل الثمن توا
ـ يلوح لى انك تشتغل مع السيد جرمانوس . .
ـ نعم . معاونا له
ـ وهل صنعتم الاكليل اليوم فقط ؟
ـ أمس بعد الظهر صنعنا الهيكل . واليوم رصعه الاستاذ جرمانوس . .
ـ ألم يعد الى محلكم الرجل الذى أوصى عليه ؟ . .
ـ كلا . أعطى أمس عنوان سموكم للاستاذ جرمانوس ، ومضى ولم يعد
ـ هل اذا رأيته تعرفه ؟
ـ لا أظننى أضل عنه . .
ـ أشكر رسالتك . ماذا تطلب منى الآن ؟
ـ ايصالا باستلام الاكليل . والسلام عليكم . .

فأعطاه ايصالا . فأخذه ومضى

وكانت تيودوره قد تناولت الاكليل ووضعته على رأسها ووقفت لدى المرآة تتأمل جمالها . فباغتها الامير من ورائها بأن أخذه عن رأسها قائلا : لا يستطيع هذا الاكليل أن يزيد هذا الجمال الملائكى جمالا . وانما هذا الاكليل أجمل جدا من اكليل فيلبس اللعين . ففى وسط جبهة هذا زمردة ليست فى وسط جبهة ذاك . وترصيع هذه الجبهة أجمل جدا . هل يمكن أن يكون فيلبس قد اشتراه من جرمانوس بدل الذى فقده لكى يتقى سحقى لجمجمته ؟

فضحكت تيودوره قائلة : هل فيلبس هذا ذو ثروة عظيمة حتى يفتدى عنقه بمبلغ من المال عظيم . اننا الآن فى ليل حالك من الأسرار . هنا مكيدة من ناحية ، وترياقها من ناحية أخرى . سنبحث فى الامر بعدئذ

- ١٢ -

فى ذلك المساء كانت المشاعل المتوهجة تحيط بالقصر الامبراطورى ، والمصابيح الزيتية تتأرجح فى أفناء القصر . والشموع متقدة فى البهو تملأه ضياء وحرارة . والجوقة الموسيقية تصدح الالحان البيظنطية التى أخذت شهرة فى الشرق والغرب جميعا ، ولا تزال أم الموسيقات فى الشرق

وكانت أزواج السيدات والسادة تتوافد الى ذلك البهو العظيم بأجمل ما كان فى ذلك الزمان من بدائع التبرج والتحلى . والبهو نفسه يفاخر تلك البدائع بما ازدان به من فاخر الرياش ونفيس الاوانى والادوات

قبل أن تغرب الشمس ، كان ذلك البهو العظيم الرحيب والافنية المحيطة به مكتظة بأمراء الامبراطورية وأميراتها ونبلائها ونبيلاتها وكبار الدولة وعقائلهم وبعض رجال الاكليروس

جمع يتماوج فى الرحاب كأنه لجج اليم وقد أثارتها رياح اللهو العواصف . وكانت الابصار ترامى على مدخل البهو ومخارجه تتبين القادمين ، والالسنة تتهامس عمن تكون النبيلة الجديدة ، وعن أصلها وفصلها . وما تداول المتهامسون الا أنها فتاة عامية حائكة كانت تتردد كثيرا الى الكنيسة ، وانها آية فى الجمال الجسمانى والروحانى . وقد عرفها الامير ولى العهد فى باب الكنيسة ، فوقعت فى قلبه موقع الروح المقدس فى النفس الصالحة . وندر من أشار الى ماضى سيرتها ، لان دعارتها صارت نسيا منسيا

والامير جستينيان معروف عند معظم المدعوين بأنه رجل العلم والفضل والتقى ، فكانت الافكار تتجه اليه عسى أن يهتدى به الى النبيلة الجديدة . وكان كلما لاحت سيدة جميلة قال الواحد للآخر : أليست هذه اياها ؟

***

عند توارى الشمس وراء الافق ، صدحت الموسيقى باللحن الامبراطورى ايذانا بقدوم الامبراطورين . فدخلا من الباب الخلفى الذى يؤدى الى المنصة الرحيبة المشرفة على رحبة البهو العظيم ، يتبعه بعض أمراء الدولة وكبراؤها وعقائلهم وبعض الوصيفات . وأخذ الامبراطور مكانه فى وسط المنصة والى يساره الامبراطورة ، فوصيفتها الكبرى ، والى يمينه الامير جستينيان ابن أخيه ، والى جانبيهما البقية

ولما انتهت الموسيقى من العزف ، ساد سكوت مطلق انتظارا للخطوة التالية من برنامج الحفلة وهى خطوة « التقديم » وصارت العيون تريش السهام الى متوسط البهو انتظارا للحادث العظيم المنتظر

وفى هنيهة انبرت سيدة جليلة تقود آنسة آية فى الجمال . فتهامس الجمع : ها هى تيودوره . ولكن ما لبثوا أن دهشهم نطق السيدة وهى عقيلة رئيس الحكومة :

« بأمر جلالة الامبراطور أقدم لكم أيها السادة والسيدات الآنسة اديتا Edita صوفيا نبيلة شرف هي ابنة اخت حضرة الوصيفة الكبرى النبيلة اغنانيا »

وضج الجمع بالهتاف للامبراطورين ، ثم للنبيلة الصغيرة ، بينما كانت السيدة والآنسة تنحنيان انحناءات الاجلال والتعظيم للامبراطورين . وكان الجمهور كله مستغربا هذا التقديم غير المنتظر . هل غير الامير ولي العهد رأيه فعدل عن تيودوره الى اديتا ؟

وراحوا يتهامسون : « حقا انها جميلة . آية في الجمال . ولكنها ليست تيودوره »

هذه مفاجأة لم تكن تيودوره تحسب حسابها ولا عقيلة رئيس الشيوخ كانت عالمة بها . ولا الامير جستنيان لاحت في باله ، على الرغم من أن امرأة عمه الامبراطورة كانت تدله على اديتا عسى أن يحبها ، ولكن كانت كمن يدل السمكة على الشبكة

ما همد ضجيج الجمع وضوضاؤه حتى انبرت عقيلة رئيس الشيوخ تأخذ بيد تيودوره وصاحت بأعلى صوتها : « بأمر جلالة الامبراطور أقدم لكم أيها السادة والسيدات الآنسة تيودوره انجاليكا نبيلة شرف »

وانحنت الأنثتان انحناء الاحترام ، فدوى البهو بالتصفيق والهتاف للامبراطورين والسيدتين . وفي الحال قادت تيودوره عقيلة رئيس الشيوخ الى المنصة وصعدت معها ، وجثتا أمام كل من الامبراطورين . ثم تراجعتا ونزلتا عن المنصة الى ما بين الجمع . وعند ذلك عزفت الموسيقى اللحن البديع الخاص بالحفلات

وفي خلال ذلك لم تر اديتا صوفيا بدا من الصعود الى المنصة بغمزة من خالتها ، وانحنت لدى الامبراطورين ، وحذت عقيلة الرئيس حذوها

ولا ريب أن هذا الاقتداء المتأخر منهما بتيودوره ومقدمتها ظهر للجمهور باردا . وانتقدوا همسا تقصير عقيلة رئيس الحكومة التي أغفلت هذا الادب الواجب ، وكانت فطنة تيودوره أسبق اليه

وكانوا يتطلعون الى تيودوره ليتبينوا جمالها ، وهم يتهامسون بشأنه ، فتلك تقول : ليست فائقة الجمال ، وانما في جمالها جاذبية غير اعتيادية . وذاك يقول : ربما كانت اديتا أجمل شكلا ولكن تيودوره أجذب للقلب

وفيما الموسيقى تعزف قدم السقاة للامبراطورين وغيرهما كؤوس الشراب . وعند ذلك وقف الامير جستنيان ورفع كأسه وأشار للموسيقى فسكتت ثم قال : « هذا نخب جلالة الامبراطور المعظم حامي حمى الامبراطورية ورافع منار مجدها . فليحيى جلالته » فهتف الجمهور مرددين الدعاء

وما لبثت تيودوره أن انبرت الى الوسط ورفعت يدها بكأسها . فسكت الجمع . فصاحت بملء صوتها : نخب جلالة الامبراطورة المعظمة المحبوبة .. فلتحى الامبراطورة فتلاها الجمهور بالهتاف . وتوالت بعد ذلك الانخاب من كل صوب وناحية

***

وفيما كان جستينيان يتمشى بين الجمهور يتبين الاصدقاء من الاعداء التقى بالنبيلة الجديدة اديتا صوفيا . فانحنى لها وحياها : أحيّك يا نبيلة ..

فقالت باسمة ملء ثغرها : شكرا يا سمو الامير ، لا أظنك فوجئت باعلان تقديمي نبيلة

فقال ضاحكا : كلا البتة . ليس هذا بالامر الجديد عندي . فأنت نبيلة قبل أن تقدمك عقيلة الرئيس

ــ ولطفك هذا ليس بالامر الجديد عندي يا سمو الامير . فلطالما جنيت منه ثمارا شهية. أراك تبينني من قمة رأسي الى قدمي . فماذا يستوقف نظرك ؟!..

ــ أجل أرى فيك كما كنت أرى كل يوم جمالا يستوقف كل نظر . ولكنني لم أر الانظار تطوقه مثل اليوم ..

فقهقهت وقالت : لان اليوم يوم العيون المحدقة والانظار المتراشقة

ــ أجل . وليس للعيون ملتقى غير هذا الجمال الذي يجتذب الانظار ويلتهم الابصار

ــ لله. ماذا في رأسي يجتذب الانظار ؟.. أراك لا تكف نظرك عنه ..

ــ أرى عليه اكليلا يتألق . ولولا هذا الرأس الغالي لكان الاكليل معدنا صادئا . بالله أنى لك هذا الاكليل البديع

فأجفلت اديتا وقالت : لماذا تخصني بهذا السؤال ؟ لماذا لا تسأل عقيلة رئيس الشيوخ وعقيلة وزير العدل وغيرهما ممن لهن أكاليل كهذا ؟!..

ــ اخصك بالسؤال لاني ساومت على هذا الاكليل بعينه ودفعت نصف ثمنه ولما طالبت الصائغ به قال ان شخصا آخر دفع بقية الثمن وأخذه ..

ــ أذنبي هذا يا سمو الامير ؟ هذا اكليل أنا دفعت ثمنه وأخذته .

ــ كم دفعت ؟

فقالت ضاحكة محتدة : تفضل يا أمير خذه ولا تحرجني بالاسئلة ..

وقدمت رأسها اليه لكي يأخذه حتى صار رأسها على صدره . واذ ذاك ظهرت تيودوره الى جنبهما . فوضع يده على الاكليل الذي على رأس تيودوره وقال : لقد استغنيت عنه بهذا . أيهما أجمل ؟

فقالت اديتا وهي تتبينه وترمق تيودوره : الحكم لك يا سمو الامير أيهما أجمل ؟

فقالت تيودوره : وهل تجعل قيمة لهذه الاكاليل الترابية يا سمو الامير ..

فقال : لا. بل القيمة للرؤوس التي تحتها ..

فقالت اديتا : اذن كم هو ثمن الرأس الذي تحت هذا الاكليل الجميل (وأشارت الى رأس تيودوره)

فأجاب الامير توا : ثمنه قلب من أغلى القلوب .. فكم يا ترى ثمن هذا الرأس الذي تحت هذا الاكليل المغتصب (وأشار الى رأس اديتا)

فانتفضت ادبتا غاضبة وقالت : اذا كنت تعتقد يا سمو الامير أن هذا الاكليل مغتصب اغتصابا فتفضل خذه

ونزعته عن رأسها وقدمته اليه . فرده الى رأسها قائلا : معاذ الله أن يوضع على غير هذا الرأس الثمين . وانما الامر الذى يحيرنى وبسببه دخلنا فى هذا النقاش هو أنى أنا الذى أوصيت الصائغ عليه ودفعت له نصف ثمنه ، وأراه الآن يملكه شخص آخر غيرى

فقالت تيودوره وقد فهمت سر الجدال : ليس لك أن تسأل النبيلة ادبتا هذا السؤال ، لانها لم تملك الاكليل الا بعد أن دفعت ثمنه كاملا فهو ملكها الحلال . وما غريمك الا ذلك الصائغ الذى ساومته عليه وأخذ بعض ثمنه ثم سلمه لغيرك

فقال : بكل أسف الصائغ فر من أمام فأسى التى تكسر جمجمته

فقالت ادبتا : اذا لم تظفر بجمجمة الصائغ أفتطاب جمجمتى بدلها . هاكها . أين فأسك

وقدمت اليه رأسها ضاحكة ، فتناول رأسها بين كفيه وقال : هذه جمجمة تضرب بفأس الورد .

وافترقت عنهما فقالت تيودوره : هل بقى عندك شك بأن يد جلالة الامبراطورة فى هذه الالعوبة

- ١٣ -

عند ذلك أخذ جستنيان بيد تيودوره وصعد بها الى المنصة حيث انحنيا لدى الامبراطور والامبراطورة . ثم جلس جستنيان فى مجلسه الى جنب عمه ، وجلست تيودوره الى جنبه متأخرة قليلا الى الوراء

عند ذلك وقفت الامبراطورة واستأذنت الامبراطور بحجة أنها تشكو صداعا وخرجت تتبعها وصيفتها . وكان من الباقين على المنصة رئيس الحكومة والمطران اكليمندوس

والتفت جلالته الى تيودوره وقال : لماذا تخلفت الى الوراء . تقدمى لكى نرى هذا المحيا الوضاء يا نبيلتنا العزيزة

فتقدمت الى جنب الامير تقول : أينما كنت يا مولاى أستمد النور من أشعة هذه الجلالة المنتشرة فى الآفاق

فتهلل وجه الامبراطور لهذا الجواب الشعرى وقال: عسى أن تكونى مغتبطة بهذه الحفلة

أى مجلس تترأسه جلالتكم يكون حفلة بهيجة تطفح فيها القلوب حبورا وتملأ العيون بهجة والنفوس سعادة

فتبسم الامبراطور ملء فمه وقال : عسى أن يكون سمو الامير جستنيان مسرورا أيضا

فالتفت الامير الى عمه وقال : وهل يستطيع جستنيان أن يخرج من دائرة نعم عمه التى تدفق هناء وسعادة للنفوس

فقال الامبراطور : ولكنى لا أراك مرحا كأن دودة هم تدب فى رأسك

فقال الامير مقهقها : الحقيقة أن سرورى يخالطه أثر خفيف من الامتعاض بسبب حادث حقير ولكنه يحير الالباب

فقال الامبراطور : عسى أن يكون الحادث عديم الاذى

ـ كلا البتة . بحماية مولاى الامبراطور لا أحسب حسابا لاذى . ساومت صائغا على اكليل ودفعت بعض الثمن وحان الميعاد ولم أستلم الاكليل . وبالبحث علمت أن يدا خفية اختلست الاكليل . فتأمل يا مولاى موقفنا الحرج ، ولم يبق أمامنا الا ساعة لحضور الحفلة

فقال الامبراطور مقهقها : لا بد من اعجوبة تخرجكم من هذا الموقف الحرج . .

فقال الامير وقد اشرأب عنقه نحو الامبراطور : أجل والاعجوبة حدثت

فحملق فيه الامبراطور وقال : أحقيقى ؟ كيف ذلك ؟ . .

ـ فاجأنا رسول يحمل علبة فيها اكليل أجمل وأثمن من الاكليل الذى ساومنا عليه . وكان هذا الرسول من قبل صائغ آخر غير الذى ساومته . وهو لا يعرف الشخص الذى أوصى عليه ودفع ثمنه كاملا . فأصبحت لا أدرى من اختلس ذاك ولا من أهدى هذا . فالاعجوبة حيرتنى أكثر من الخيبة

فقال الامبراطور ضاحكا : حقا ان تلك خيبة يأس وهذه أعجوبة فرج . ولعل سيادة المطران يستطيع أن يكتشف السرين

فقال المطران : لا خفى يا مولاى الا وسيعلن . سمو الامير يعرف الصائغ الذى ساومه فلا بد أن يعرف منه المختلس الذى سبب الخيبة . ومن الصائغ الذى صنعت الاعجوبة على يده يهتدى الى الذى فعل الاعجوبة

وقال الامير : والغريب أنى ظفرت بالمختلس فى هذه الحفلة

فحملق الامبراطور وقال : أحقيقى ؟ هل اللص فى الحفلة ؟

ـ أجل رأيت الاكليل نفسه على أحد رؤوسهن . .

ـ على رأس من رأيته ؟

ـ على رأس النبيلة اديتا صوفيا . .

ـ عجبا . لم أعلم بشىء من هذا . سأبحث المسألة . .

ـ أخاف يا مولاى أن أمورا أخرى تجرى فى القصر ولا تعرفها . يظهر أن الدنيا مملوءة دسائس ومكائد . .

ـ يسرنى يا عزيزى أن تعلم أنك كغيرك محاط دائما بمكايد ودسائس لكى تحذر الاعداء والاصدقاء . سترى يا بنى حولك محبين قد يحبونك كوالديك لانهم يبتغون نفعا من هذا الحب . فيصدقونك كل الصدق لكيلا تبقى لك شبهة فى اخلاصهم ، حتى اذا احتجب عنهم نفعك لهم انتهى حبهم ، وقد يتحول الى كره . وقد يتحولون الى خصوم

ثم نهض الامبراطور وانسحب فأصبحت الحفلة حرة من يشاء يبقى ومن يشاء يخرج

- ١٤ -

فى صباح اليوم التالى ذهب الامير جستنيان الى الجوهرى الصائغ فيلبس فوجد دكانه مقفلا . فقال فى نفسه : ان هذا اللص لا يزال هاربا من أمام غضبى . لا ريب انه خائف

ثم سأل عن دكان الجوهرى جرمانوس . فاذا هى فى نفس الحى وهو حى الصياغ . فاستقبله جرمانوس مرحبا فقال الامير : هل أرسلت أمس اكليلا لمنزل الامير جستنيان ؟

ـ لا . .

ـ عجبا . اما صنعت اكليلا فاخرا وفى وسط جبهته زمردة جميلة فلمن ارسلته ؟

ـ لم أرسله لاحد . أوصى عليه شخص لا أعرفه ودفع الثمن . فصنعته وجاء واستلمه

ـ عجبا . اما قال لك ان الاكليل للامير جستنيان ؟

ـ لا

ـ غريب . أما أخذ منك ايصالا باستلام الثمن واعطاك ايصالا باستلام الاكليل ؟

ـ اعطانى وأخذ

ـ هل يمكن أن تتفضل وترينى الايصال لان الاكليل لى وأنا اعطيت ايصالا باستلامه . فأود أن أعرف اسم هذا الرجل الذى جاءنى بالاكليل وأخذ الايصال منى

ـ عفوا ومعذرة . مع الاحترام الكلى لحضرتك لا أعرف من أنت ؟

ففتح الامير حقيبة كانت معه واستخرج الاكليل وعرضه على الرجل ، وقال :

ـ أليس هذا هو الاكليل الذى صنعته ؟

ـ هو بعينه

ـ وأنا الامير جستنيان الذى قدم مجهول له هذا الاكليل

فانحنى جرمانوس انحناءة لائقة وقال : لقد تشرفت يا سمو الامير بهذه الزيارة الكريمة التى سيكون لها ذكرى عظيمة عندى . ها هو الايصال يا مولاى

وأخذ من بين أوراقه ورقة ودفعها الى الامير . فقرأها الامير ، وكان الامضاء «اريوبندس» فقال كأنه يكلم نفسه « أريوبندس » ؟ من هو هذا ؟ ـ ثم خطر له خاطر . فسأل الصائغ :

ـ هل كاتب هذا الايصال اكليريكى ؟

ـ كلا يا مولاى . هو شخص عامى . .

ـ هل تعرف المطران اكليمندوس ؟

ـ رأيته عدة مرات فى الكنيسة . ولكن كاتب هذا الايصال ليس اياه ولا يشبهه . .

ـ شكرا جزيلا يا سيد جرمانوس . هل يمكن أن أعرف كم أخذت ثمن هذا الاكليل ؟

ـ ثلاثمائة مثقال . .

***

عاد الامير الى تيودوره فاستقبلته بابتسامة تشرح الصدر وقالت

ـ عما قليل سيكون مفتاح الاسرار هنا

ــ مفتاح الاسرار ؟ من ؟

ــ فيما كنت خارجة من الكنيسة فى هذا الصباح حيث كنت اشكر الله على النعم التى أنعم بها على ، اعترضنى الشخص الذى جاءنا بالاكليل أمس . وقال باشا : « عسى أن يكون الاكليل قد استرعى انظار الجمهور فى حفلة أمس يا حضرة النبيلة » فقلت : « كان بديعا جدا . اشكره لك . يود سمو الامير أن يراك » فقال : « انى تحت أمره » . فقلت : « هل يمكن أن تأتى الينا فى هذا الصباح » . قال : « بعد قليل أكون هناك »

***

بعد قليل جاء الرجل فاستقبلاه فى حجرة الاستقبال ، وهو رجل متوسط القامة والعمر بشوش الوجه صبوحه أنيق الملبس لطيف الروح . قال الامير باسما : هل اسم حضرتك السيد اريوبندس ؟

فقال الرجل ضاحكا : كلا يا سيدى اسمى بولس ؟

فقال الامير ممازحا : اذن . كذب وتزوير . .

ــ كيف ذلك يا سمو الامير ؟

ــ أمس قلت انك مرسل من قبل الجوهرى جرمانوس الى لتسليمى هذا الاكليل (وكان الاكليل بين يدى الامير) والجوهرى جرمانوس قال انك أوصيته عليه ونقدته ثمنه . ثم استلمته منه بايصال فيه امضاء اريوبندس . والآن تنكر هذا الاسم . أفليس هنا تزوير امضاء ثم كذب فى بلاغ أمس ؟

فقال الرجل ضاحكا : ان القصد الصالح اقتضى الكذب والتزوير يا سمو الامير . أما كنت وحضرة النبيلة أمس فى موقف حرج جدا . ولا تدريان كيف يأتى الفرج ! فلو أتى الفرج من مصدر صريح أفلا يحتمل أن ترفضاه

ــ ربما . .

ــ اذن . الكذب والتزوير سوغا قبولكما الفرج . .

ــ أود أن أفهم ما الذى حملك على تدارك الموقف الحرج وليس بيننا وبينك صلة سابقة

وقالت تيودوره : وأهم من هذا كيف عرفت موقفنا الحرج قبل حينه حتى توصى على الاكليل قبل ثلاثين ساعة ؟

فقال الرجل ولا يزال يبسم : أرجو أن تعفيانى من الاجابة عن السؤالين لان فى فمى ماء . وأرجو ان تأذنالى بالانصراف . .

وهم بالخروج ، وفى الحال نزع الامير خاتما صغيرا كان فى اصبعه وقدمه اليه قائلا : أرجو أن تحفظ هذا تذكارا صغيرا منى للتشكر . وأرجو أن تأخذ هذا الكيس أمانة للسيد اريوبندس

ونهض الامير وأودع ثلاثماية وخمسين مثقالا فى كيس ، وسلمه للرجل

- ١٥ -

في المساء جاء المطران اكليمندوس فوجد تيودوره وحدها في الصرح الصغير الذي أسكنها فيه جستنيان . فرحبت به ، فقال : ما جئت الا لكي أهنئك بنجاح حفلة أمس . فقد كنت الكوكب الذي كانت الابصار ترصده من كل ناحية فبهرها ضياؤه

فقالت مبالغة في الابتسام : لا يقل فضلك يا سيدي الحبر في اشعاع ذلك الكوكب عن فضل جلالة الامبراطور . جلالته خلق الكوكب ، وسيادتك خلقت أشعته

فقال مقهقها : هذه مبالغة شعرية ، وأعذب الشعر أكذبه

ـ لست مبالغة . لولا رعايتك المتتابعة يا سيدي لظهر الكوكب خاسفا في الحفلة . ولا أدري كيف نكافئك

فبش المطران قليلا وقال : لا مطمع لي بأكثر من رضاك . .

ـ هذا تحصل عليه على أي حال . ليت رضاي ينفعك . .

ـ ينفع نفسي وقلبي كثيرا يا عزيزتي . وكلما استطعت خدمة لك ازدادت نفسي بهجة وحبورا . ترى متى يمكنني أن أمني النفس ببهجة خدمة لك ذات قيمة ؟

فقالت ومقلتاها تضطربان في مقلتيهما اضطراب الزئبق في كف الاشل : المهمة التالية يا سيدي هي مهمة الزواج . الى الآن لم نحصل على تصريح رسمي من جلالته . .

ـ هذا أمر لا يصعب على قضاؤه ، لا مانع جلالته ولكنه يقف أمام القانون حائرا

فقالت مكفهرة : ألا يستطيع الامبراطور أن ينقح القانون ؟

ـ ان فعل يثر عليه الامبراطورة . والامبراطورة تثير مجلس الشيوخ

ـ أعتقد أن الامبراطور الذي أخذ التاج بسيفه ، يستطيع أن ينقح القانون بكلمته . أرجو أن تبحث معه في هذا الشأن

ـ قد لا يتعذر على جلالته تنقيح القانون المدني ولكنه لا يستطيع تنقيح القانون الكنسي الذي هو بحماية قداسة البابا

ـ نستغني عن القانون الكنسي

ـ من يكللكما ؟

ـ سيادتك

ـ أنا ؟ يحرمني البابا من الكنيسة . ومعنى ذلك مقاطعة الامم النصرانية كلها لي ، واقفال الكنائس في وجهي

ففكرت تيودوره هنيهة ثم قالت : انك يا سيدي تعقد المسألة . اذا كنت تودني مودة حقيقية تحلها . .

ـ لست أودك فقط ، بل . . آه لو تعلمين . .

وقبض على يدها وجعل يقبلها : آه لو تعلمين ماذا في هذا الفؤاد من الود

ووقف المطران تفاديا للتمادي وتأهبا للخروج . فوقفت . فضمها الى صدره . وقبل

شعرها . ومضى . وما صار فى رحبة الدار حتى التقى بالامير جستينيان عائدا . فتصافحا مصافحة الود . وقال الامير : لا تذهب قبل أن نوفيك حقك من الشكر وان كنا لانستطيع ايفاءك حقك من الجزاء

وعاد المطران مع الامير الى حجرة الجلوس . وقال المطران : ان كان ثمة شكر واجب فهو لجلالة الامبراطور الذى منح تيودوره رتبة الشرف حتى أصبحت نبيلة لائقة أن تكون عقيلة سمو الامير

فقهقه الامير وقال : لا أرى أنه قد تغير شيء فى تيودوره اليوم . ليس فيها اليوم شيء جديد لم يكن فيها قبل أمس . لا تزال كما هى . كانت لائقة لان تكون عقيلة جستينيان ولا تزال

فقال المطران : ولكن التقاليد تقول ان تيودوره كانت عامية وضيعة . فرفعها جلالته الى درجة الشرف ، فصارت النبيلة تيودوره انجاليكا

ـ كانت نبيلة من غير أن يرفعها . وكثير من هؤلاء النبلاء والنبيلات على الرغم من ترقية جلالته لهم لا يزالون غير نبلاء . وكثير من السيدات الوضيعات نبيلات من غير أن يرقيهن جلالته . فهذه الترقية ضحك على الذقون يا سيدنا . .

قالت تيودوره : لا بأس اذا كان الضحك على ذقون الجمع يؤدى بنا الى الغاية التى ننشدها . فلنضحك

ـ فلنضحك اذا كان الامبراطور يبلغنا الى أمنيتنا . فهل من عقبة أخرى ؟

ـ أجل عقبة القانون المدنى . وهذه يذللها جلالته ، اذ يمكنه أن ينقح القانون . تبقى عقبة القانون الكنسى . .

فقال الامير : هذه عقبة لا نحسب حسابها فلا نتقيد بها . يجب أن نعقد قراننا عاجلا

ـ أما أنا فاحسب حسابها لئلا أعرض نفسى لحرمان البابا

فقالت تيودوره ضاحكة : لا يهمك حرمان البابا ، متى صرت أنا عقيلة الامير ، وصار الامير شريك الامبراطور فى الحكم . وثم . .

ـ ماذا تستطيعين أن تفعلى ؟

فقهقهت وقالت : أستطيع أن أجعلك بابا . .

فبغت المطران لهذه المفاجأة وقال : ان صولتك تقف عند هذا الحد يا عزيزتى

ونهض ومضى . وبعد خروجه وجدا كيس الثلاثمائة مثقال على المقعد حيث كان جالسا

- ١٦ -

ما مضت بضعة أسابيع حتى توفى الله الامبراطورة يوفيميا . وأصبح الامبراطور جستينوس بعد ذلك ضعيف الهمة . فضم اليه ابن أخيه جستينيان شريكا له فى الحكم

وما انقضت مدة طويلة حتى أصدر مرسوما بتنقيح القانون الخاص بزواج الأسرة

المالكة ، يسمح بزواج الامير جستنيان من تيودوره . وأوعز الى مجلس الشيوخ أن يوافق على هذا القانون ، فوافق

وما لبث أن عقد قران الامير على النبيلة تيودوره انجاليكا ببركة المطران اكليمندوس على الرغم من تحريم القانون الكنسى . ومنذ ذلك الحين صارت تيودوره تحضر مجلس الامبراطور السياسى الخاص . وكانت فى بعض الاحيان تطرح فى الحديث كلمة فيرتاح الامبراطور الى ملاحظتها

وبعد أن ماتت الامبراطورة يوفيميا صارت سيدات البلاط الوصيفات يعتزلن القصر من تلقاء أنفسهن الواحدة بعد الاخرى اباءة لنفوذ تيودوره عليهن

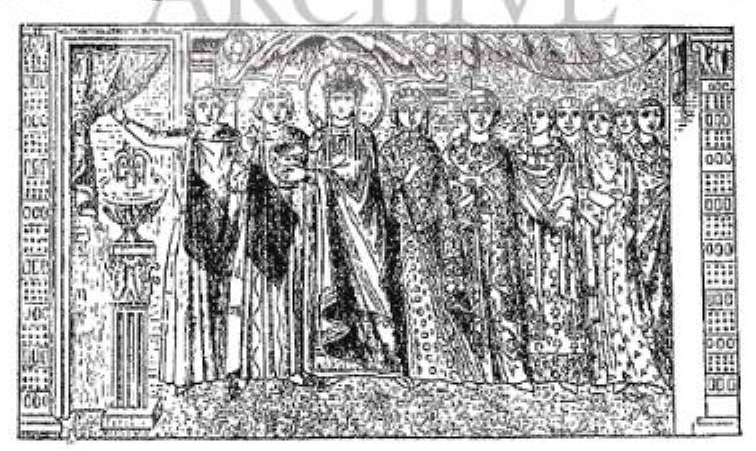
وبعد أربعة أشهر من زواج جستنيان وتيودوره ، توفى الامبراطور ، فتبوأ جستنيان العرش . وبطبيعة الحال كانت تيودوره الى جنبه فى الحكم

***

لا بد من لمحة الى حياة تيودوره بعد التوبة

لما عادت تيودوره من انطاكية الى بيظنطيوم وشرعت تشتغل بنسج الكتان ، لم يكتشفها أحد من عشاقها السابقين ، لانها تغيرت فى كل حال من أحوالها . تغيرت جسما وشكلا وعقلا وعفة ، لانها ودت أن ينسى ماضيها نسيانا تاما . ولعلها كانت تنوى أن تحظى بمحب يتزوجها لتعيش معه عيشة زوجية طاهرة سعيدة

وكان طالع نجمها أسعد طالع كسفت به شموس سائر الحسان . ففى ذلك الحين صادفها الامير جستنيان ووقع فى هواهـا . فأدركت أنها ظفرت بقلب يساوى جميع قلوب الامبراطورية قيمة . فاذا استطاعت أن تحتفظ به ، كانت تعادل جميع نساء الامبراطورية



الامبراطورة تيودوره تحف بها وصيفاتها

فمن ذلك الحين جعلت نفسها الطامحة تمنيها بالملك والسلطان والقوة . ومنذ ذلك الحين ظهر ذكاؤها الممتاز وبرزت مواهبها المتفوقة ، اذ شرعت تقبض لا على قلب جستنيان فقط بل على عقله وعواطفه أيضا ، بيد حكيمة صالحة . فمن ناحية واحدة عرفت من أين تؤكل الكتف . ومن ناحية أخرى عرفت كيف توجه هذه العلاقة الحبية الى المصلحة المزدوجة : مصلحة العاشق ومصلحة المعشوق جميعا

لما رأت أنها ملكت عنان جستنيان روحا وقلبا ، كادت ترى صولجان الملك فى يدها ـ كل ذلك الدهاء القديم الذى كانت تستهوى به قلوب العشاق ، وجهته الى اجتذاب السلطة اليها . صارت مغرمة بالقوة والسؤدد والصولة وأبهة الملك . ولكى تظفر بجميع هذه الامور يجب أن تجعل جستنيان مسرورا راضيا

كذا جعلته . فتنته ، استعبدته حبا . جعلته يرتاح الى ذكائها وآرائها وسياستها

وضعت نصب عينيها أن تكون امبراطورة . فوجهت كل اهتمامها الى هذا الهدف . فصارت امبراطورة . .

من كان يصدق هذا ؟ هى كانت تصدق وتؤمل وتؤمن . والايمان أوصلها الى العرش

تيودوره التى كانت يهتف لها فى ملعب الهيبودروم كممثلة خليعة متهتكة ، كانت فى سنة ٥٢٣ م يحتفل بتتويجها ملكة فى كنيسة القديسة صوفيا . وبتكليلها على جستنيان ، ويهتف لها هتاف الفرح والسرور

كانت فى الرابعة والعشرين من العمر حينذاك ، أصغر من جستنيان بعشرين سنة

***

منذ صارت تيودوره امبراطورة ، شرعت تمارس الحكم فى دائرتها الصغيرة أولا . فكان أول أعمالها أنها جعلت تعطف على النساء الساقطات وتهتم بصيانتهن وانقاذهن من الفحش ومن الفاقة التى كانت تلجئهن الى ذلك . نظفت جميع شوارع بيزنطيوم من هؤلاء التاعسات . وأنشأت لهن ملجأ هنيئا فى الجانب الاسيوى من البوسفور حيث جمعت نحو ٥٠٠ امرأة

ومما يذكر من الحوادث بهذا الصدد ، أنه فى ذلك الحين وافت اليها اندروماكى زوجة الضابط فلابيانوس . وقالت : علمت يا مولاتى أنك طهرت المدينة من المومسات فنشكر لك هذه المحمدة . ولكن لم تزل هنا واحدة أهملتها جلالتك . .

فقالت تيودوره باهتمام : من هى ؟ أين هى ؟ . .

ـ اعذرينى يا مولاتى اذا قلت لك انها خليلة زوجى الضابط فلابيانوس . وقد أهملنى زوجى بسببها وازدرانى . وما أنا امرأة من العامة حتى يهون على الامر . ان نسبى يتصل بالملك قسطنطين . والتحقيق يثبت لك الحقيقة يا مولاتى . .

ـ أرجو أن تعودى الى غدا فى مثل هذه الساعة . .

فى اليوم التالى لبى الضابط فلابيانوس دعوة الامبراطورة وامتثل لديها ، واستقبلته بعبوسة وقالت : هل علمت أيها الضابط انتى طهرت العاصمة من المومسات ، فلماذا تدنسها أنت باحتفاظك بخليلة من وراء زوجتك ؟ هل لك شكوى من زوجتك فنحاكمها ونعاقبها؟

ـ كلا يا مولاتى وانما . .

وهنا تردد ولم يعد يكمل الحديث فقالت : قابلتنى زوجتك أمس ، فرأيتها امرأة فاضلة طاهرة عفيفة لا يمكن أن تكون سببا لزيغانك عنها وتعلقك بأخرى ، فضلا عن أنها شريفة المحتد . .

ـ نعم يا مولاتى

ـ اذن . أريد أن تحترمها وتخلص لها وتهجر محظيتك ، وتبلغها أنها اذا كانت ترافق رجلا بغير زواج قانونى ، فانى أرسلها الى ملجأ المومسات عبر البوسفور

ثم صفقت فدخلت من باب آخر اندروماكى زوجة الضابط . فقالت لها : ها هو زوجك فلابيانوس لا يريد بديلك حبيبة . تلاثما أمامى . .

فقبلها وقبلته . ثم قالت تيودوره : أود أيها الضابط فلابيانوس أن أسمع عنكما أخبار الامانة والاخلاص . فالجندى الذى يكون أمينا لزوجته يكون أمينا لامبراطورته وامبراطوره

ـ انى عبدكما الطائع الخاضع يا مولاتى . انى الجندى الذى يضحى بحياته لاجل امبراطوره وامبراطورته

ـ بارك الله فيك . أرجو ألا تنسى هذا الوعد أيها الضابط الشجاع

ـ هو أقدس عهد عندى يا مولاتى . .

واشتهرت بقساوتها على الرجال ، كأنها كانت تنتقم من هذا الجنس الذى كان يمتهنها فى عهدها الاول ، فاذا قرب منها رجل مجرم متضرعا مستعطفا مسترحما كانت تمعن فى الانتقام منه

ولما استتب لها الامر ، صارت ذات حول وطول ، ولم تعد تسمح لاحد أن يتقدم اليها الا ساجدا على ركبتيه ومقبلا الارض بين يديها مهما كان مقامه عظيما

وكان الامبراطور جستينيان رجل علم وفن . يود التشغل بالسياسة والنقاش بعلم اللاهوت . وكان يحسن النقش والزخرفة . فما لبث أن رأى نفسه لا يحسن ادارة الحكم الا اذا كانت تيودوره الى جنبه . ولهذا كانت تحضر دائما مجلس الدولة ، ويكون لها فيه كلام وآراء سديدة . .

عجبا . . أين كانت هذه الموهبة مخبأة ؟

سبحان الله . يخرج من الصخرة ماء

وكان الامبراطور جستينيان يلتفت فى سياسته الى الماضى بغية أن يعيد الامبراطورية الرومانية الى سابق مجدها واتساعها بعد أن تلاشى القسم الغربى منها أمام غزوات البربر الذين وفدوا من الشمال

أما تيودوره فكانت تنظر الى الشرق لكى توسع الامبراطورية على حسابه . ولهذا كانت تسترضى أهل اناطوليا وسوريا ومصر وما تطرف من الامبراطورية . ولذلك كانت تختلف أحيانا مع جستينيان ، ولكنه كان دائما ينقاد الى رأيها أخيرا

وكان هناك أشخاص يعرفون ان تيودوره تكرههم لانها كانت تشعر أنهم غير موالين لها . ومنهم جرمانوس ابن أخى الامبراطور . وسكرتير الدولة بريسكوس Briscus ويوحنا والى كبادوكيا . فكانت تحاذر من دسائسهم

وكان جميع رجال الدولة يتقدمون بمسائلهم اليها أولا ثم الى الامبراطور . ولكن القائد العظيم Beliserius بليسروس قائد الجيش الاعلى كان يشذ عن هذه القاعدة فلا يتقدم لها ، بل يتقدم للامبراطور وحده مباشرة . فكانت تتغيظ منه . على أنها توفقت الى وسيلة لطيفة جعلته ينقاد لها . وهى أن زوجته انطونيا كانت سيئة السلوك على الرغم من أنه كان يحبها حبا شديدا ، وكادت تهجره الى أحد عشاقها . فوفقت تيودوره بينهما ، وكسبت صداقته

وكان بليسروس هذا أمينا جدا لسيده الامبراطور ، ولكن الامبراطور كان يغار منه كلما عاد من حرب ظافرا . .

وكان الشخص الوحيد الذى يدخل اليها بلا استئذان هو تيوفورس من متيلين، اذ كان كاتب أسرارها ومعلم بنتها المجهولة الاب . وكانت تثق به كل الثقة

- ١٧ -

فى سنة ٥٣٦ م استوى البابا سلفريوس على الكرسى البابوى خلفا للبابا اغابيوس . وفيما كان منهمكا فى تنظيم أحوال منصبه الذى دفع ثمنا له للملك الجوتى تيودوس ، اذ كان الجوتيون الذى جاءوا من الشمال قد فتحوا رومه واستولوا على الامبراطورية الرومانية الغربية . حينئذ فوجىء بوفد اكليريكى من بيظنطية وهو لا يدرى مهمة هذا الوفد الذى كان مؤلفا من رئيسه الاسقف فيجيليوس وأربعة قسيسين

فاستقبلهم البابا بالاكرام اللائق ، واستمع لهم فى مكتبه الخاص ، فقدم له الاسقف الرسالة التالية التى زوده بها الامبراطوران جستينيان وتيودوره ، ففضها البابا وقرأها متجهما :

قداسة البابا سيلفريوس الكلى الطوبى

قد أوفدنا الى قداستك سيادة الاسقف فيجيلوس على رأس وفد من قبلنا . وقد أملينا على سيادته ما يجوز له أن يقوله

جستينيان وتيودوره

امبراطورا الشرق

ثم نظر البابا الى الاسقف والقسيسين متجهما وقال :
ــ الامبراطورة فى الامضاء أيضا ؟ ما شأنها ؟
ــ شأنها أنها عقيلة جلالة الامبراطور . وقد أشركها جلالته بالملك بموافقة مجلس الشيوخ
فقال البابا بنزق: ليست زوجته بل هي خليلته ، وكلاهما زان ، فكيف يشركها بالحكم؟
فقال الاسقف متئدا : بل تزوجها زواجا شرعيا يا سيدنا . .
ــ كيف يكون زواجهما شرعيا وقد حرمهما سلفى البابا اغابيوس وحرم المطران اكليمندوس الذى كللهما ؟
ــ ولكنهما لم يعبأ بهذا الحرم . .
ــ عجبا . والمطران اكليمندوس ؟ ألا يزال يمارس الطقوس الدينية ؟ وهل يدخل الكنيسة . وهل لا يزال الناس يخضعون لسلطته الدينية ؟ وماذا تريدون الآن من رأس الكنيسة (يعنى نفسه) ؟
ــ ان مهمتنا يا مولانا أن نصحب قداستك الى بيظنطيوم فى بارجة حربية جئنا بها خاصة اكراما لمقام قداستك المبجل
فانتفض البابا دهشة مقرونة بذعر وقال : أنا أصحبكم الى بيظنطيوم ؟ لماذا ؟
ــ لان جلالتى الامبراطورين يريدان ان يبحثا مع قداستك فى بعض مسائل جوهرية
فاشتد غيظ البابا وقال : بابا رومية لا يخرج منها بحال من الاحوال . يمكنكم أن تبسطوا المسائل لى وأنا أحكم فيها . ويمكن جلالته أن يرسل مع أى شخص المسائل التى يريدها وأنا أنظر فيها هنا . وأبدى له وجهة نظرى
ــ المسائل التى يريدان مباحثتك فيها خطيرة الشأن وتقتضى مشافهة قداستكم مباشرة
فهز البابا رأسه هزة رحوية واكمد وجهه غيظا وقال : أظن جلالة الامبراطور يريد أن يبحث فى شرعية زواجه . فلكم أن تعودوا اليه وتبلغوه أن زواجه غير شرعى . قانون الكنيسة صريح . وهو أنه لا يجوز زواج الزانية لا للملوك ولا للعوام
فتململ الاسقف ثم قال : ليس لى أن أناقش قداستكم فى هذا الموضوع . يمكنكم أن تقنعوا جلالتى الامبراطورين بهذا الشأن شفهيا . وأما نحن فلسنا مفوضين أن ننقل رأى الحبر الاعظم فيه ، ونحن لا ندرى ان كان هذا هو غرض جلالتيهما من استدعائك
ــ أنتم أحرار . عودوا وأبلغوا جلالته كيف انتهت مهمتكم . .
ــ مهمتنا لم تنته يا سيدنا
ــ عجبا ! كيف تنتهى مهمتكم ؟
ــ بأن تتفضل بالذهاب معنا ونحن فى خدمتك . .
فحملق البابا فيه وقال : عجيب أن تصر على هذا الطلب ، وقد قلت لك ان بابا رومية لا يفارق رومية

ـ يفارقها يا سيدنا . .

ـ واذا كنت لا أمضى معكم فماذا يحدث ؟! . .

ـ مولاى . لا أود أن أقول ماذا يمكن أن يحدث . .

ـ ألا تعلم أن رومية الآن فى مملكة الملك الجوثى تيودونس . وأن أخذى بالقوة من هنا لا يمكن الا بانتصار جلالة الامبراطور جستينيان على جلالة الملك تيودوس فى حرب شعواء لا أريدها البتة

ـ اذا كنت لا تريدها فيحسن أن تصحبنا

ـ تعنى أن جستينيان يحارب . .

ـ لا لزوم للحرب . يقضى الامر بلا حرب

فاستغرب البابا هذا القول وقال : كيف يقضى وأنا لا أريد أن أرحل من هنا ؟

فاقترب الاسقف قليلا من البابا ، وقال بمثل الهمس : يسوءنى أن أقول لقداستكم ان اصراركم على الامتناع عن السفر الى بيظنطيوم يفضى الى مصير الباباوية كما كان مصير الامبراطورية الضخمة

فوجف فؤاد البابا وقال : تعنى أنها انشطرت شطرين

ـ نعم وكذا يكون مصير الباباوية . ينشطر الكرسى الباباوى الى شطرين : الشطر الاكبر والاعظم يكون فى بيظنطيوم أو فى أورشليم . والشطر الاصغر يبقى فى رومية تحت رحمة الجوث وهم غير مسيحيين . وأخيرا يتلاشى . .

فاسودت الدنيا فى عينى البابا سيلفريوس وارتعدت فرائصه . وبقى بضع دقائق مطرقا لا يتكلم . ثم رفع نظره وظهر وجهه مكمدا كأنه خلاسى . وقال بصوت خافت : أصدقنى الخبر اليقين يا عزيزى الاسقف . هل هناك حديث بموضوع شطر الكنيسة . وهل المسيحيون فى الشرق على استعداد لقبول هذا الانشقاق الفظيع الذى يكون كارثة على النصرانية

ـ لا بد انك تعلم يا سيدى أن المسيحيين فى الشرق أصبحوا فرقا مختلفى العقائد

ـ نعم أعلم أن بعضهم يعتقدون بطبيعة المسيح الواحدة . وقسما منهم يعتقدون بطبيعتيه اللاهوتية والناسوتية . ونحن نبذل الجهد فى أن نرد أولئك الضالين الى حظيرة الطبيعتين

ـ أجل يا مولاى . وتتوسلون الى هذه الغاية بوسيلة « الحرم » أى حرمان الضالين من التمتع بنعم الكنيسة ، وجعل كل ما يفعلونه دينيا غير قانونى ، وفيما تنشرون أحكامكم بالحرم على الضالين يسمح لهم الامبراطوران بممارسة طقوسهم الدينية حسب عقائدهم ، فهم راضون عن الامبراطورية الشرقية

فهز الحبر الاعظم رأسه هزة رحوية وقال :

ـ وهل يوافق أساقفة الشرق ومطارنته على هذا ؟

ـ يسرون به جدا ، اذ يصبح الكرسى الرسولى فى وسطهم يلوذون به ويلجأون اليه ،

ولا سيما اذا كانت الامبراطورية تؤيده . وحينئذ يصبح كرسي رومية صفرا

فوقف البابا منفعلا شديد الانفعال ، وجعل يمشي في البهو من غير انتباه لنفسه ، ثم قال :

ـ هل تظن أن ذهابي الى بيظنطيوم يتدارك هذه الكارثة ؟

ـ لا يصعب على قداستك أن تتفاهم مع الامبراطورين

فنفخ البابا وتأفف وقال محتدا ساخطا : ما فتئت تقول « الامبراطورين » وأنا لا أعرف الا امبراطورا واحدا . فأرجو ان تجعل الاثنين في واحد

ـ لا يا مولاي . اذا كنت لا تعترف بالامبراطورة فلا تذهب الى بيظنطيوم . ودع المقادير تجري في أعنتها . الامبراطورة قبل الامبراطور

ـ ويحك . أهكذا أصبحت الزانية سلطانة

ـ لا جدوى من التفكير في الامر المحتوم يا سيدنا . لا تظن أن ملك الجوث يحارب لاجل الكرسي البابوي . فاقبل نصحي واستعد للسفر غدا . فالبارجة مستوفية جميع الوسائل لراحتك

***

واتفق بعد بضعة أيام أن القائد بليسيريوس الذي كان يحارب الجوثيين من قبل الامبراطورية الشرقية توفق الى احتلال رومه في ذلك الحين ، أي حين كان ذلك الوفد البيظنطي لا يزال في رومه ينتظر ذهاب البابا معه . والبابا لا يزال يتردد ويمانع ويعارض

ولما دخل بليسيريوس الى رومه لم يسع البابا سيلفريوس الا أن يقبله ويستقبله . ولكنه صار خائفا أن يضغط عليه ويرغمه على السفر الى بيظنطيوم

على ان القائد لم يلزمه بالسفر تلبية لرغبة الوفد . ولكنه لما علم ان بينه وبين ملك الجوث مكاتبات سرية لمؤامرة ضده خلعه خلعا . فاضطر البابا حينئذ أن يسافر الى بيظنطيوم لكي يتظلم للامبراطور جستنيان الذي يحارب القائد باسمه وله . وكان خلعه في سنة ٥٣٧ اذ لم يكد يتم السنة الاولى في كرسيه البابوي

- ١٨ -

دخل تيوفوروس كاتب السر الى الامبراطورة صباحا ، وهو الوحيد الذي يدخل بلا استئذان ، وقال لها : ان المطران اكليمندوس واف يلتمس الامتثال الآن بالحاح

ـ دعه يدخل

وكانت تيودوره لا تزال بجلباب الصباح ولم تتبرج ولا تطرت بعد . ودخل المطران اكليمندوس ، وتقدم وركع أمامها ، وتناول يدها وقبلها مرارا ، فانهضته وأجلسته الى جنبها وقالت : ما رأيك بتوارد الخواطر ؟ لقد أصبحت اليوم وفي عزمي أن استدعيك لمقابلتي ، فاذا بك تأتي قبل أن أوفد اليك رسولي . .

ـ هذا غريب جدا يا مولاتى . لا بد من هاتف خفى بيننا يهتف فى أذنينا أو فى قلبينا

فتبسمت تيودوره ملء ثغرها وقالت : وجدت لك وظيفة عظيمة الشأن . الكرسى الرسولى فى رومه . .

فاجفل وقال : هذا أمر يشبه المستحيل ، لانه يقلب الدنيا رأسا على عقب

ـ وهو ما أريد أن أفعله . أريد أن أقلب الدنيا رأسا على عقب

ـ وأيم الحق تستطيعين . فان الدنيا كلها أصبحت لديك قلوبا متعبدة لك . فاذا منحتينى كرسى البابا هبط ذلك الكرسى وصارت أعاليه أسافله

ـ يستطيع اكليمندوس الداهية أن يرفعه قويا الى قمة رومه

ـ دون هذا الامر موانع عديدة : أولا أن جميع الاحبار راضون عن البابا سيلفريوس . وثانيا انى محروم من الكنيسة منذ كان البابا اغابيوس رأسها كما تعلمين . .

فقاطعته قائلة : لهذا السبب أريد أن أجعلك حبرا أعظم لكيلا تبقى شرعية زواجى مطعونا فيها

ـ ولكن من يستطيع أن يخالف نظام الكنيسة وقانونها ؟

ـ من نظم ؟ ومن قنن ؟

ـ مجمع البطاركة والمطارنة الخلكيدونى

ـ فى وسعنا أن نجعل مطارنة كثيرين من حزبنا يعقدون مجمعا بيظنطيا

ـ هذه مهمة شاقة جدا يا سيدتى ، تشطر الكنيسة شطرين

ـ لانضطر الى هذه المهمة اذا كنت أنت حبرا أعظم

ـ والحبر (البابا) سيلفريوس ؟ ماذا يكون من أمره ؟

ـ سيكون هنا قريبا للبحث معه . فان لم يوافق على تنقيح القانون أصبحت أنت خلفه

فوجف اكليمندوس وقال : هذا مستحيل يا سيدتى ، لا أقدر أن أفارق بيظنطيوم يوما واحدا ، لانى لا أعيش ساعة اذا لم أمتع نظرى بهذا الوجه الذى يطفح بشرا

فضحكت تيودوره وقالت : ألا تتوب عن هذا الغزل ، وأنت مطران تعبد الله وتزهد باللذات الدنيوية

فقال مستعطفا مسترحما : أما فهمت بعد أنى لديك لا أكون المطران اكليمندوس ، بل يعود الى اسمى العلمانى اريوبندوس Aereobindus كما كنت قبل أن أنتظم فى سلك الكهنوت . وأريد أن أعود الى عهد حبى وغرامى القديم

فتنبهت تيودوره وقالت مراوغة : من كان ذلك الحبيب القاسى ؟

ـ كان اياك يا قاتلة قلب بلا ذنب

فاجفلت تيودوره وقالت : أنا ؟ لا علم لى بذلك . .

ـ طبعا نسيت لان الزمان نساك وغير كل شىء فى وفيك . فلم تعودى تعرفيننى . أما

أنا فعرفتك حالما ردك الله الى فى انطاكية . يوم عرفتك فى أول الصبا كنت أحد عشاقك الذين كثروا حين احتفاك هيكيبولس حاكم باتابولوس وأخذك الى ولايته فى شمال افريقيا . فما ذاق قلبى لذة هواك حتى استلبك ذاك الوغد من فؤادى . انقطع خيط رجائى . فلم أر بدا من معالجة داء شوقى القاتل الا بأن أتوب عن غرامى . وأى مكان أفضل للتوبة من الدير ؟ وقدر الله لى أن أنجح فى الرهبنة نجاحا سريعا حتى صرت أسقفا . ثم عاد الله فابتلانى بحبك يوم دفعك بطرك انطاكية الى يدى لكى أهذب نفسك وأطهر قلبك وأردك الى الكنيسة . وكنت حينئذ موغلا فى تقوى الله متورعا عن الهوى متعففا عن شهوات الجسد . ففيما كنت أقربك الى التقوى كنت أرانى متباعدا عن الزهد . وما صفا جوهرك وطهر عنصرك من أدناس الهوى حتى عاد فؤادى يتمرغ فى بركة الغرام . وفيما كان القلب يهم أن يحتويك كان الضمير يردعه . ولكن جذوة الحب طفقت تضطرم ، ففيما كان لهيبها يستعر فقدتك . افتقدتك فى انطاكية فما وجدتك . آه ندمت على وعظى اياك . أسفت لانى غيرت قلبك . لان ذلك التغيير الذى فعلته مواعظى فيك أبعدك عنى على الرغم من أنه قربك الى قلبى . ولكنى لما يئست من لقائى بك عدت ثانية الى توبتى ، وحمدت الله أنه أنقذنى من غرامى الثانى . وسرعان ما تبت عن هواك حتى وجدتك بين يدى هنا فى محكمة الدولة العليا . فعاد غرامى يتقد ثالثة بعد أن كاد يخبو . وهأنذا الآن أتقلب فى لظى من الشوق ، فابرده بنظرات من هذا الجمال الملائكى . فكيف أطيق الحياة فى رومه حيث أتبين النور فلا أرى وجهك فيه ؟

وكانت تيودوره مصغية باسمة كأنها تستلذ حديث غرام لم تسمعه من وجل من قبل . فقالت : لا بأس . تشفى من هذا الغرام فى ذلك الكرسى الاعلى الذى تشرف فيه على الملائكة الاطهار

فنزق قائلا : بربك . لا أريد أن أشفى من غرامى . بل لى أن أشقى به . هل يضيرك هذا الغرام المشتقى ؟

ـ بل يضيرك الغرام العقيم .

ـ انه أسر لنفسى من الشوق المحرق والحب المتهتك . فما أحصل عليه من ابتساماتك يكون غنيمة تغذى نفسى الجائعة الى هواك . بربك لا تبعدينى عنك . انى الآن اريوبندوس العلمانى ، فلماذا لا تجعلين لى وظيفة فى القصر فاخدمك خدمات قد لا يستطيعها وزير من وزرائك

فمدت اليه يدها الرخصة النضيرة فتناولها وجعل يقبلها مثنى وثلاث ورباع ويمرغ خديه عليها الى أن جذبتها من بين يديه وقالت : أهذا الذى جاء بك الى فى هذا الصباح ؟

ـ أجل هذا ما يجىء بى اليك كل دقيقة لو كان المجىء يتاح لى . وانما لست كل صباح أوفق الى سبب لكى آتى وأضم هذه اليد الكريمة الى صدرى . .

ـ ماذا كان السبب اليوم ؟

ـ فازدرد اكليمندوس لعابه كأنه يتردد فى أن يقول أو لا يقول . ثم تجرأ وقال :

ـ أتأسف يا مولاتى أنى مضطر بحكم اخلاصى فى خدمتك أن أقول أمرا قد لا يسرك

فما هزها هذا الانذار البتة . وقالت : لا أتوقع أن أسمع دائما كل ما يسرنى من الناس

ـ هل بلغ الى علمك أن لجلالة الامبراطور خليلة الآن هى فى القصر الصغير بصفة كونها وصيفة فيه ؟

فتبسمت ملء ثغرها وقالت : كيف عرفت هذا ؟

ـ أتسألينني أنا كيف عرفت هذا ؟ عرفته كما عرفت مكيدة الاكليل الذهبى المرصع قبل حفلة « التقديم »

ـ تعنى أن لك جواسيس فى القصر الصغير أيضا ، فتعرف كل ما يحدث فيه ؟

ـ أعرف كل ما يحدث فى بيظنطيوم وغيرها . ويمكن جلالتك أن تعتمدى على فى تسقط الاخبار التى تهمك

ـ ثم ماذا عرفت من شؤون هذه الخليلة ؟

ـ أما يكفى أن تعرفى أن الامبراطور ليس مخلصا كل الاخلاص ؟

ـ احتظاء الامبراطور خليلة لا يثلم اخلاصه يا عزيزى . هذه نزوة لا تلبث أن تنطفىء. وأما الحب الروحانى فهو باق لى . .

ـ عجبا . عجبا . لا أفهم كيف يكون ذلك ؟

ـ لا تعجب . انكم أيها الرجال تحت سلطان شهواتكم وتعجزون عن أن تعصوها . .

ـ أو ليس للشهوة سلطان على النساء

فقالت ضاحكة : تخشى أن تقول ان ماضى حياتى يؤيد ان للشهوة سلطانا على النساء

ـ معاذ الله أن ألمع الى ماضى حياتك . فقد محى من سفر الديمونة . وانما أشير الى الخمسمائة زانية اللواتى جمعتهن من أسواق بيظنطيوم وجعلتهن ضيفاتك فى ملجأ خاص عبر البوسفور . أما كان للشهوات سلطان عليهن ؟

فقالت متحمسة : كلا البتة . وانما كان سلطان شهوات الرجال يجرد جيوش الغواية على عفافهن . وهن غير محصنات لا بازواج لهن ولا بكفافهن من العيش

فقال : لا أعتقد ان الرجل يتهجم على امرأة اذا لم يأنس منها ميلا . .

ـ أجل بل هو المتهجم على كل حال . ولا يأنس ميلا الا من المرأة التى دفعها اليه أحد الاسباب التى ذكرتها . فلا تدافع يا عزيزى عن جنسكم . وما الامبراطور الا واحد منكم . فهو الآن يشبع شهوة الجسد الى حين ، ومتى ارتوت هذه الشهوة ، عادت شهوة الروح . .

ـ اذا كان هذا التعليل يريح نفسك يا سيدتى فلتهنئك هذه الفلسفة السعيدة . وانما فى حب الامبراطور الشهوانى شىء آخر لا تستطيعين الرضى به

ـ تعنى أن تلك الخليلة تبتغى أن تجلس على عرش الامبراطورية ؟

ـ انك يا سيدتي تسمعين خطرات الافكار وتنظرين خلجات القلوب وتحسين موجات الآمال . فلا بدع ان تفهمي ما الذى ترمى الخليلة اليه

ـ هل رأيتها يا محترم ؟

ـ رأيتها . وعذرت جلالته فى هواها . .

فقهقهت تيودوره وقالت : هل حادثتها ؟ وهل عرفت من هى ؟

ـ أنى لى هذا وهى فى حوزة جلالته

ـ وانت تخشى أنها تصل الى العرش ؟

ـ لا . وانما هى تسعى اليه ، وقد تحدث شغبا فى القصر بسعيها هذا

فضحكت تيودوره ملء فمها مقهقهة كعصفور مزقزق وقالت : اتبعنى . .

ونهضت ودخلت فى باب يتصل بمخدعها ، واكليمندوس يتبعها . ثم وقفت لدى ستار يحجب المخدع السرى الآخر ، وأزاحت الستارة قليلا ، وهمست فى أذنه : « أنظر » . وأشارت الى السرير . فنظر اكليمندوس . ثم ارتد ، وردت تيودوره الستارة . ورجعا الى الغرفة حيث كانا أولا . وقالت : ماذا رأيت ؟

ـ رأيت امرأة مضطجعة فى السرير ووجها أبيض كوجه ميتة . .

ـ هذه هى الخليلة ، ولكنها غير ميتة ، بل هى منهوكة من طول ليلها . نائمة . فهل تظن أن هذا الطراز من النساء يستهوى روح جستنيان ويشغله عن عرشه ؟ لا تخف على العرش أن تهزه هذه الحشرة . وأظن شهوته قد انطفأت بهذا التمثال البارد فنبذها

وكان المطران يسمع مبهوتا ثم قال : ما الذى جاء بها الى هنا ؟

ـ السكر والعربدة دفعاها من القصر الصيفى ، فتلقيتها هنا تفاديا للثرثرة . هل عرفت اسمها ؟

ـ قيل ان اسمها صوفيا

ـ بل أسمها النبيلة ادينا صوفيا . هل نسيت حين اختلست الامبراطورة يوفيميا اكليلى من عند الصائغ فيلبس لكى تضعه على رأسها وتحرج مركزى ؟ . . ولولا نجدتك لخاب قصدنا

فضحك المطران وقال : نجدتى ؟ ماذا كان شأنى بها ؟

ـ يا الله . أتتجاهل . لقد عرفت دسيسة الامبراطورة وعرفت حيلتك فى اكتشافها وسعيك فى عمل الاكليل فلا أنسى خدمتك

ـ يا الله ! هذه التعسة كانت مزاحمتك فى تلك الحفلة عادت مزاحمتك فى هذا الحب . فكأنها تثأر منك

ـ لا . لم تقدم هى من تلقاء نفسها ، وانما رجلان وامرأة قوادون جاءوا بها الى جستنيان متاجرين بعرضها ولكى يلعبوا دورا فكاهيا بواسطتها . بعد ساعة من الزمان سيتولاهم الجلاد اندروبيكوس . وأما هذه المرأة المسكينة فيمكنك أن تتخذها لك أمة اذا أشفقت

أن أرسلها عبر البوسفور أو الى قعر البوسفور

ـ مولاتي اني أتشفع بهم جميعا . انهم جهلة لا يعلمون ماذا يفعلون ؟

ـ قد أعفو عن المرأتين ، ولكن عن الرجلين لا أعفو . .

- ١٩ -

كان يوم صاخب بالمهام الجسام حين ورد الخبر الى الامبراطور ان القائد بليسيريوس احتل بجيشه رومه ، وأنه سيستمر فى الفتح حتى يطرد الجوث وملكهم من الامبراطورية الغربية . وفى ذلك الحين دخل الى تيودوره كاتب أسرارها وأبلغها أن الوفد الذى عاد من رومه ومعه البابا سيلفريوس ينتظر قبول الامتثال

فقالت له : قل للاسقف فيجليوس أن يدخل مع البابا بالخضوع الرسمى المعروف

بعد هنيهة دخل فيجيليوس وهو يقود البابا بيده ، وكانت الامبراطورة جالسة على عرشها الانيق الفاخر . ثم جثا أمام العرش وقبل الارض . ووقف ينتظر أمرا بالجلوس. والتفت الى البابا فاذا به يخرج من البهو ، فنظر الى الامبراطورة فاذا هى تقول له :

ـ اتبعه واقنعه . .

فتبع فيجيليوس البابا . واستوقفه فى الرحبة الخارجية وأمسك بساعده وقال : لماذا خرجت هكذا يا سيدى ؟

وكان البابا ينتفض من شدة الغيظ فقال : ما جئت لكى أقابل هذه الزانية . بل لكى أقابل الامبراطور . .

فهمس فيجيليوس : صه . صه . لا تدع أحدا يسمع ما تقول . لا يستطيع أحد أن يقابل جلالة الامبراطور من غير أن يقابل جلالة الامبراطورة أولا . .

ـ ويحك ! ألى هذا الدرك بلغ ذل الكهنوت فى الامبراطورية الشرقية ؟

ـ بل هذا شرف الكهنوت يا سيدى . تسجد للقوة لانك تعتمد على القوة المادية فى سلطتك الروحية . والا فيسقط كرسيك ويتحطم

ـ لقد أصبحت بلا كرسى من بعد ان خلعنى بليسيريوس قائدكم . فلماذا أسجد ؟

ـ تسجد لكى تسترد كرسيك . فانصح لك يا مولاى أن تدخل وتسجد مرة واحدة فقط ، وبعدها يكفى الانحناء .

فقال البابا متذمرا : خذنى الى مجلس الامبراطور . .

ـ لا طريق الى مجلسه غير هذا الباب. لا بد من رضاها أولا . .

فتضجر سيلفريوس جدا وقال : لماذا لا يحضر الامبراطور معها فأقابلهما معا ؟

ـ فكرة حسنة . سأقترح هذا الاقتراح . امهلنى .

فاذا بثيوفوروس خارج من البهو ومقبل عليهما . فقال : ان جلالة الامبراطور منتظر قداسة البابا

فأمسك فجيليوس بيد البابا سيلفريوس ودخلا . وتقدم البابا اذ رأى جلالة الإمبراطور واقفا أمام عرشه الى جنب عرش الامبراطورة فانحنى لهما . فقالت الامبراطورة بصوت حازم : أما قيل لك كيف يدخلون فى البلاط الامبراطورى وكيف يمثلون ؟

فهبطت حرارة العنجهية ، وانحنى سيلفريوس انحناءة كاد يصل بها رأسه الى مستوى ركبتيه . وعند ذلك مد الامبراطور اليه يده ، فتقدم اليه سيلفريوس وصافحه ، وتقدم الى الامبراطورة وانحنى انحناءة منخفضة جدا . فبسطت تيودوره كفها الناعمة باسمة . فتناولها وقبلها قبلة ارتياح . وأشار الامبراطور له أن يجلس

ثم تكلم جستنيان : أتأسف يا سيادة البابا سيلفريوس أن قائد جيشنا بليسريوس اضطر أن يقيلك من كرسى البابوية لسبب منك كما فهمت من تقريره الاخير . .

ـ لقد فسر القائد يا صاحب الجلالة مكاتبة دارت بينى وبين ملك الجوث بانها دسيسة ضده . والحقيقة أنى كتبت لذلك الملك أوصيه بأن يعامل المسيحيين الذين تحت حكمه بالحسنى

فقالت الامبراطورة : أجل فى الامر سوء تفاهم فلا يتعذر أيضاحه . هذه مسألة بسيطة تدبرها بسهولة . أو لا تعتقد يا قداسة البابا أن من الحكمة أن نجمع جميع نصارى الشرق والغرب فى حظيرة كنيسة واحدة ؟

ـ هذه أمنيتى العظمى

ـ اذن لماذا حرمت كنيسة رومه بعض الطوائف المسيحية فى الشرق . أليس الافضل أن يكون جميع النصارى على اختلاف عقائدهم فى حظيرة واحدة ، من أن يطرد بعضهم منها طردا لكى ينشئوا لانفسهم كنيسة مستقلة

ـ يجوز التساهل بكل شىء يا مولاتى الا فى العقائد الدينية

ـ من وضع هذه العقائد ؟

ـ المجمع الخلكيدونى المؤلف من كبار اللاهوتيين من المطارنة والاساقفة الذين استخلصوا هذه العقائد من الاناجيل ورسائل الرسل

ـ والذين خالفوا عقائد المجمع الخلكيدونى هم لاهوتيون أيضا ولهم آراء سديدة . فمخالفتهم لا تعتبر زندقة . .

وكان الامبراطور ساكتا يسمع الى أن قال : لذلك نقول يجب أن يعتبر الجميع مسيحيين ضمن دائرة الكنيسة . ولذلك أيضا يجب أن يلغى من كتاب قرارات المجمع الفصول الثلاثة المسماة « فصول الجدل » التى وردت فيها نقط الخلاف بين الطوائف المسيحية ولا سيما المختصة بالاحوال الشخصية

وهنا انتفض البابا سيلفريوس وقال والغضب باد على محياه : أظن أن جلالتكم استدعيتمونى لهذا الغرض

فقالت الامبراطورة : نعم (أولا) لالغاء هذه الفصول الثلاثة من كتاب المجمع

و (ثانيا) لالغاء الحروم ـ جمع حرم ـ التى نشرها سلفك البابا اغابيوس. و (ثالثا) تقرير أن عقد زواجنا شرعى . هذه مطالبنا بصراحة يا قداسة البابا

فاكمد وجه سيلفريوس غيظا . وقال : هذه المطالب من اختصاص المجمع . وسلطة المجمع فوق سلطتى . فاذا أصدرت قرارا جحده المجمع وخلعنى ، وحينئذ لا يذعن لى بطرك أو مطران أو أسقف أو قسيس بتاتا

فقال جستنيان : نمنع المجمع أن ينعقد . .

فتململ سيلفريوس وقال : تقدرون على أى شىء تشاءون ، ولكن هذا افتئات على الكنيسة وتدنيس لها لا أريده ولا أتجرأ عليه . .

فقالت تيودوره : هذا قرار الامبراطورية المحتوم . فاختر بين سلطة المجمع أو سلطة الامبراطورية . لديك شهر كامل تنظر فيه فى هذا الامر . .

ثم نادت كاتب سرها تيوفوروس وقالت له : أرشد قداسة البابا الى المنزل الخاص فى البلاط حيث يكون قداسته ضيفا مكرما

***

بعد خروج البابا سيلفريوس تفاوض الامبراطوران فقالت تيودوره : يظهر أن هذا البابا عنيد مغتر بسلطته الروحية . وقد فهمت من تقرير فجيليوس قبل أن يأتى به الى البلاط أنه كان مصرا على رفض المجىء . ولو لم يخلعه القائد بليسيريوس لما جاء الى هنا . فهو يريد أن نلغى حكم القائد ونرده الى كرسيه . .

ـ أتريدين أن نهمله أو أن نحتفظ به هنا . .

ـ بل نؤذن له بالعودة الى رومه مزودا بتوصية بسيطة . ومتى وصل اليها وجد كرسيه قد ملأه خلفه فجيليوس . لانى باحثته فى شروطنا فقبلها ، وتعهد أن يفعل ما لا يجرأ عليه سيلفريوس

***

لما عاد سيلفريوس الى رومه ، وجد فيجيليوس مستتبا فى الكرسى الباباوى ولم يستطع أن يزحزحه منه . بل ان فيجيليوس نفاه الى بنداتاريا حيث قضى بقية حياته ذليلا حزينا

***

أما فيجيليوس فلم يستطع أن يبر بوعده للإمبراطورين ، اذ وجد مقاومة من المطارنة وسائر الاكليروس . فاستدعته تيودوره . فأصدر منشورا حسب رغبتها فشجبه المجمع . فبقى فى بيظنطيوم شبه أسير (١)

---

(١) ان تحكم تيودوره بهذين الباباوين حادث تاريخى . اقرأ عنه فى دائرة المعارف البريطانية تحت اسميهما واسم تيودوره

- ٢٠ -

وافى المطران اكليمندوس أو اريوبندوس ملبيا دعوة تيودوره . ودخل الى حجرتها الخاصة فوجدها متكئة على مقعدها المستطيل غارقة فى مخمل من الدمقس وهى فى ثوب الصباح الارجوانى . وسجد أمامها ، وتقدم وتناول يدها التى بسطتها اليه وقبلها مرارا. فقالت باسمة : أما قلت لك أن تدخل الى حجرتى من غير سجود . أما استثنيتك من الممثلين ؟ . .

فقال : لست أسجد بل أعبد . وما السجود الا رمز العبادة . .

فقالت ووجها النحيف يطفح بشرا وبهاء : ماذا أبقى المطران للرب من رموز العبادة

ـ اكليمندوس المطران الاكليريكى يسجد فى الكنيسة السجود الواجب لله . وسجود أريوبندوس العلمانى فى هذا الهيكل أمام معبودته لا ينقص شيئا من عبادته لله . فما لله لله. وما لتيودوره لتيودوره . هناك كنيسة لله وهنا كنيسة الحب المقدس

وأشارت الى جانب المقعد ليجلس . وقالت :

ـ قلت لى مرارا ان لك فرقة جواسيس . فماذا يقول لك جواسيسك عن سعايات فيجيليوس هنا ؟

ـ مسكين فيجيليوس . لا يخشى شره . ولا أمنية له الا اطلاق سراحه

ـ كيف أطلق سراحه وقد علمت أنه يجتمع بالأمير جرمانوس ابن اخى جستنيان. أفلا يمكن أن تكون بينهما مؤامرات سرية لخلع الامبراطور واستواء جرمانوس على العرش

ـ وكذلك يفعل هونوريوس Honorius ابن اخى الامبراطور انستاسيوس السابق

ـ لماذا لم تقل لى ذلك اذن ؟

ـ لا تقطف الثمرة قبل أن تنضج يا سيدتى . لا أزال أبحث عمن يشترك مع هذا وذاك فى مؤامرة . وقد اكتشفت الى الآن من شركاء جرمانوس الوزير بريسكوس Briskus ويوحنا والى كبادوكيه

ـ لا بد أن يكون ثمة آخرون أيضا . وقد نمى الى أن بعض الاساقفة والقساوسة أصحابك هم من جملة المتآمرين . .

ـ نعم لقد كنت مزمعا أن أقدم لك تقريرا ضافيا متى تمت استعلاماتى

فتغيظت تيودوره وقالت : لماذا يتآمر هؤلاء الكهنة ؟ هل ينقصهم شىء ؟

ـ هل تتوقعين منى اخلاصا ؟

ـ منك وحدك أتوقعه

ـ اذن . خذى منى الخبر اليقين . اعلمى أنهم تنقصهم حرية الكهنوت

ـ هم أحرار

ـ أأحرار هم وأنت تستعبدين رؤساء الكنيسة الواحد بعد الآخر . أولا سيلفريوس.

ثم فيجيليوس . فهل تنتظرين أن يكون الكهنة والاساقفة والمطارنة مخلصين ؟ واذا كان هؤلاء يمالئون المؤتمرين فالشعب كله يمالئهم . .

فكظمت تيودوره اضطرابها وهى أقدر انسان على كظم الاضطراب الداخلى وقالت باسمة : أتريد أن تقول ان الشعب أيضا شريك فى المؤامرات

ـ امتعاض الشعب يتمخض بالمؤامرات ، لان الشعب كله يقاسى ، وهو ينتظر من يقول له : « انك مظلوم أيها الشعب » ، والمتآمرون يوحون اليه هذا القول المثير

فلم تتمالك تيودوره تغيظها وقالت متجهمة : كأنك تقول لى : ان الشعب على أهبة أن يثور

ـ لا أخفى عنك يا مولاتى . انى أخشى ثورة الشعب . . الشعب يتذمر من اضطهادك رؤساء دينه . يتذمر من ظلم حاكمه . .

ـ بماذا ظلمه حاكمه ؟

ـ بتثقيل كاهله بالضرائب . وبفقد العدل فى قضائه

ـ أمن القضاء أيضا يشكو الشعب ؟

ـ نعم . كم من الرجال عوقبوا بقسوة ومن غير محاكمة . وكم منهم قضى عليهم لمجرد كرهك لهم بغير سبب قانونى ؟

فنزقت قائلة : كفى كفى يا مطران . .

ـ أما أذنت لى بأن أصدقك الخبر اليقين ؟ الخبر اليقين أقول . انى أحاذر أن أخدعك . الشعب الذى يتألم لا بد أن يقول : « آخ » والشعب الذى يقاسى هذه المظالم يكظم الى أن يهمس فى أذنه هامس « قم » ليقوم . فاذا كان صدقى يسوءك يا مولاتى فهو خير من أن يؤلمك سكوتى أو كتمانى أو كذبى . .

ـ تريد أن تقول أننا على أبواب ثورة . .

ـ اذا لم تتدارك الثورة فنحن على أبوابها

ـ وما الذى تراه الآن ؟

ـ أن تزيلى جميع أسباب العداء البادى من رجال الكهنوت ، ومن الشعب ، اذا كنت لا تشائين أن تقربينى اليك . .

ـ كلما رغبت أن أقربك الى أرى ظروفى تقضى بأن أقصيك عنى . فاشكر لك ياعزيزى المطران أخبارك الصادقة ، ونصائحك المخلصة . .

***

وما خرج المطران حتى دخل الامبراطور وجلس الى جنب تيودوره زوجته والهم باد على وجهه خلافا لتيودوره التى كانت تبتسم وتخفى ما فى نفسها من قلق . وقال :

ـ ماذا علمت من أخبار اكليمندوس ؟

ـ علمت مثل ما علمت من عيسى . جرمانوس ابن أخيك وهونوريوس ابن أخى اناستاسيوس الامبراطور السابق يدبر كل منهما مؤامرة لاغتصاب العرش لنفسه . وكل منهما يجمع لنفسه حزبا من الاكليروس وذوى النفوذ من الشعب. وأنجحهما هونوريوس ولعل بطرس وزير المال ممالىء له . هل علمت أنت شيئا جديدا ؟

فتنهد جستينيان غير كاظم غمه وقال : أرى نارا تحت الرماد ، بل أشعر بهزات عنيفة تهز العرش من جراء بركان يجيش لكى يهيج ويقذف حم الثورة . لقد جرنا على الشعب ولم نبال بامتعاضه ، فوقعنا تحت خطر فوضاه

ـ لا فائدة الآن من معاتبة أنفسنا على الماضى . يجب أن نستدعى معظم الجيوش الى العاصمة لتهديد الثوار قبل أن يتورطوا بثورتهم .

ـ وهل ينتظرنا الثوار حتى تلم شعث الجيوش . وهل نحن نثق باخلاص الجيوش جميعا . فهمت أن يوحنا قائد كبادوكيا شرع يجاهر بتمرده

ـ يجب أن نرسل فى الحال رسلا بأوامر رسمية الى قائد كل حامية وجيش أن يأتى بقسم كبير من جيشه ، ويترك القسم الباقى للمحافظة على الامن فى ناحيته . لو كان بليسيريوس قريبا منا لكنا نعتمد عليه كثيرا ..

ـ أصبحت أخشى من بليسيريوس أكثر من غيره لان انتصاراته جعلته شامخا . ويظهر أن ملك الجوث يطمعه بعرش رومه تحت سيادته

ـ أما أنا فلى ثقة ببليسيريوس أكثر من سائر القواد . وعلى الرغم من بعد المسافة بيننا وبينه يجب أن نوفد اليه أمرا نستقدمه به حالا سواء وثقنا أو لم نثق به . ونترك التوفيق للقدر . ونستطيع أن نعلل الجمهور بالآمال ما أمكننا . ويمكننا أن نستقدم قائد ادريانوبولس وقائد تراقيا بجيشيهما فهما أقرب الينا

ـ والحرس المحلى يكاد يفلت من يدنا لان بولس قائده قليل الاخلاص . أصبحت أوجس منه شرا

ـ أردت منذ عام أن أرسله الى بليسيريوس معوانا له ، وأن أنصب مساعده تيموتاووس مكانه لانلا لى ثقة بتيموتاووس أكثر منه ، فأبيت على ذلك ، أما الآن فصار هذا الابدال متعذرا لان بولس يفهم الغرض منه فيعجل بالتمرد

- ٢١ -

بعد مدة قصيرة حم القضاء . وقربت الساعة . وادلهم الجو . واضطرب الهواء بدوى الضوضاء . وأبرقت الاسنة وارعدت الهتافات ، واختلط القال بالقيل فى الاندية والمسارح والشوارع والازقة وفى الطرق الخارجة من بيظنطيوم والداخلة اليها . وماجت السابلة فيها دخولا وخروجا . وسمعت قرقعة الحوافر وصليل السيوف وتصفيق الرماح

القيامة تقوم . ذلك يوم الحشر الدنيوى . لم يفد أحد من القواد بجنده . لم يرجع

أحد من الرسل . أصبحت الانباء متضاربة والبلاغات متناقضة . صارت أقوال العسس للتضليل أكثر منها للهداية

جل ما كان يرد من بلاغات المخبرين على الامبراطورين أن مسرح الهيبودروم العظيم يكيل الجماهير كيلا . يملأه فوج ويفرغ منه فوج والخطباء يتعاقبون على المنصة . والشعب المتهيج يصفق تارة ويهتف أخرى للزعيم ارسانيوس ، ثم للعاهل الموعود هونوريوس ، وأحيانا للامير جرمانوس

أوعز الامبراطوران الى قائد الحرس الامبراطورى بولس أن يكون على قدم الهجوم اذا دعى . ولكن القائد بولس اختفى ، والحرس مشتت فرقا هنا وهناك انذارا بالتمرد . ما خفف كابوس اليأس قليلا عن صدر جستنيان الا دخول تيموتاووس نائب القائد بولس الى مجلس الامبراطورين ، ليقدم للعاهلين طاعته مع كوكبة من الحرس ، نصفها من الفرسان . والقسم الاكبر من الحرس أختفى مع بولس . فانشرح صدر تيودوره قليلا

قد يستطيع تيموتاووس تسويف الكارثة ما أمكن ريثما يوافى من عناية الله بليسيريوس ان تعطف ان يأتى . ولكن هيهات والشقة بعيدة . وقد تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن من رومه الى البوسفور . الامل بقواد ادريانوبولس وتراقيا وسالونيكا ضعف تماما

كل هذا وتيودوره صامتة باسمة كأنها تستمد الوحى من روح الحكمة والقوة من يد القدر

انقضى يوم على ترادف البلاغات المخيبة للآمال

لم يظهر فى القصر من رجال الدولة الا رئيس الحكومة ووزير العدل ثم اختفيا . وتغيب وزير الحرب ووزير المال بدعوى المساعى لدى زعماء الثوار . لم يبق من البطانة الا النزر اليسير

فى اليوم التالى قرر الامبراطور الرحيل الى بعض الجزر ، وأمر بعض السفن أن تهيأ لهذا الغرض ، وجعلت الحاشية تجمع لوازم السفر وتنزلها الى بعض السفن

ورأى جستينيان أن يتوسل الى الشعب آخر توسل . فحمل الانجيل مفتوحا بين يديه ، ومضى بين بعض حرسه الى الهيبودروم مستعطفا ، عسى أن يستحى الشعب منه ، فيسكن ثائره ، ويستمع لوعده بالاصلاح

ولكن جستينيان حمد الله أن مقابلة الشعب له اقتصرت على شتمه ولعنه ورشقه بالزبالة

***

عاد توا الى القصر يأمر بالرحيل . أما الامبراطورة فقالت له وللبطانة حوله قولا تسجل لها فى التاريخ كأعظم حكمة وأفصح شعر وأجمل بنت فكر :

« ان أولئك الذين حملوا التاج على رؤوسهم مرة يجب
ألا يبقوا أحياء بعد فقده . أرجو ألا أرى بعينى ذلك اليوم

الذى لا أبجل فيه كملكة . أهرب أيها القيصر اذا شئت .
معك المال . والسفن راسية فى المرفأ تأهبا للرحيل . والبحر
حر طليق لديك . وأما أنا فاحب القول المأثور القديم : ان
البرفير والارجوان لاجمل كفن للانسان »

صدر فى ١٨ يناير سنة ٥٣٢ مسيحية

مضى جستنيان على مضض وخوف . وبقيت تيودوره وبعض بطانتها معها فى القصر تتلقى الزوبعة وحدها

***

قبل أن يقلع الاسطول من المرفأ ، طلب اكليمندوس الامتثال . فاستقبلته تيودوره وهى جالسة على عرشها . فجثا وقبل قدميها وقال : مولاتى . لا أريد البقاء حيا بعد هذه القيامة . امنحينى منصب الوزير الاول الآن ، لان وزيرك تهرب لكى يكسب رضى هونوروس . فان لم أقمع الثورة أهلك فيها قبل أن تهز العرش فى مكانه

فقالت باسمة : أصبح هذا الحلم فى خبر كان يا عزيزى . لم يعد أى منصب يجدى شيئا . الثورة التهبت . .

ـ أطفئها قبل ان تستعر . .

فقالت ضاحكة بهزء : لا يستطيع موقد النار أن يطفئها يا اكليمندوس

فارتعد اكليمندوس من هذا التصريح وقال : اذن تشكين بولائى

ـ لست أنا بل التاريخ يثبت هذا الشك

ـ اذن لا أمل فى اعتمادك على . على أنى أستطيع أن أسحب من الثورة المحرضين عليها اذا كان فى يدى المرسوم بالسلطة

ـ لا أعتمد على أحد غير نفسى يا هذا . فشكرا . .

فنهض اكليمندوس يائسا وخرج خائبا

***

صارت العقيدة ان تيودوره اختارت القضاء على حياتها اختيارا ، وقررت تكفين نفسها بالبرفير والارجوان ازدراء بالردى وحرصا على الكرامة والجبروت

وردت اليها الاخبار أن الشعب بدأ يزحف من الهيبودروم بموكب متى وصل أوله الى ميدان البلاط العظيم كانت أطرافه فى الشوارع وحول الهيبودروم

كان السعاة يعودون بأنباء الشؤم كل هنيهة وأخرى . أنبئت أن الموكب الرهيب صار فى ساحة كذا ، ثم فى شارع كذا الخ . وهى جالسة على عرشها . اعتقد تيوفوروس كاتب سرها أنها لا تريد أن تموت بين الغوغاء خارج القصر ، بل على عرشها وفى ابان جلالها أملت على تيموثاووس قائد البقية الباقية من الحرس التعليمات التالية : ادخل بعض

أبطالك الى أروقة القصر . صف بقية المشاة وراء القصر . اجعل الفرسان حول جناحيه. هل تريد أنت وأبطالك أن تحيوا معى ؟

فحيا تيموتاووس التحية العسكرية وقال : وأن نموت قبلك . .

فقالت باسمة : بارك الله فيكم أيها البواسل . .

وكان تيموتاووس يكتسب شجاعة عظمى مما يراه من هدوئها وسكونها كأنها لا تحس بزلزال البركان المتفجر أمامها

قامت تيودوره وخرجت الى شرفة القصر الكبرى ورأت طلائع الهائجين من بعيد . ثم عادت الى عرشها واستدعت تيوفوروس وأمرته ألا يفارقها لكى ينقل تعليماتها

***

دخلت طلائع الموكب الى الساحة العظمى أمام القصر العظيم ، وطفقت الجماهير تتدفق اليه وتحتشد فيه . وزعماء الغوغاء يستغربون أن يروا فرسان الحرس الى جانبى القصر لا يتصدون لصد الحشد

ماذا يستطيع هذا الحرس الصغير أن يفعل لقاء هذا الجمع الغفير وهو مسلح بالسيوف والرماح والخناجر والعصى والحجارة . ما قوة العشرات على لقاء الالوف

اكتظت ساحة القصر بالجماهير ، ولا تزال الجماهير المزدحمة فى الشوارع ومفارق الطرق من ورائها تدفعها الى الساحة من كل ناحية . وكان على جانبى المدرج أمام الباب العظيم بعض الجنود وقوفا منكسى السلاح لا يبدون أقل دليل على الدفاع . كذا كانت تعليمات تيودوره

وصل الحشد الى قاعدة المدرج . وما وقف الزعيم ارسانيوس على أول درجة حتى رأى يدا من ورائه تضع فى يده ورقة مطوية ، فنشرها وقرأ فيها :

« أيها الاسد الجدير بالزعامة . لا أعتقد أن نبل الاسد يسمح للذئاب والضباع والثعالب وبنات آوى والكلاب أن تنشب قبلك أنيابها بالنعجة . تستنكف هذه النعجة أن يمزقها أحد غير الاسد ، وهو الوحيد الجدير بأن يفرق لحمها ودمها وعظامها على أتباعه . الاسد القوى الجبار لا يضطر الى الغدر . ولذلك أرجو منه أن يأمر هذا الجمع أن يسمع الكلمة الاخيرة من ملكته قبل أن يمزقها تيودوره »

تجهم ارسانيوس وتوقف فى الدرجة الثالثة ، وبسط ذراعيه مشيرا الى الجمع من ورائه أن يتوقف

عند ذلك بدت الامبراطورة فى الرحبة أمام الباب العالى فوق المدرج وهى فى ثوب أبيض أنيق ، ملاك بدا من القصر كما يبدو البدر من الافق

فلما رآها الجمع هاج وماج ، وكاد يندفع الى المدرج لولا أن ارسانيوس أدار وجهه الى الجمع وهو باسط يديه يشير بهما اليه أن يتريث ويسكن ويصمت

وتقدمت تيودوره خطوة خطوة بكل تمهل كأن البدر يسير فى السماء رويدا . والحراس الواقفون على جانبى المدرج لا يتحركون كأنهم أصنام

بعد بضع دقائق صارت على رأس المدرج . وصار الشعب من وراء ارسانيوس صامتا تشرئب أعناقه لرؤية الملكة الجميلة . هل هى وجلة مذعورة ؟ لا . .

نزلت أول درجة وهى تبسط ذراعيها . فصمت الشعب صمتا تاما وسكنوا كأن على رؤوسهم الطير . أو كأن سحرا سطا على حواسهم . وكان تيوفوروس وراءها . فتناولت منه قرطاسا ملفوفا . واستمرت تنزل كل هنيهة درجة والقرطاس فى يمناها وارسانيوس لا يكف عن الاشارة للشعب من ورائه أن يهدأ . ولكن الشعب لم يهدأ بأمر زعيمه ، بل أصبح نزول الملكة فى المدرج أقوى من أمر الزعيم

ما نزلت الى أول النصف الاسفل من الدرج حتى صعد ارسانيوس اليها وانحنى وتناول القرطاس من يدها ، وأدار وجهه الى الجمع ، ورفع يده يعنى الصمت التام . ثم نشر القرطاس وقرأ بصوت جهورى :

« أيها الشعب البيظنطى الباسل

« ها هى ملكتكم بين أيديكم . أضعف رجل فيكم يمكنه أن يمزقها أشلاء . فاذا شئتم أن تسمعوا نصيحتها الاخيرة قبل أن تمزقوها تمزيقا فاسمعوا :

« تشكون من ثقل الضرائب ، فاعلموا أن الضرائب التى تجبى منكم لا تنفق عبثا ، ولا تبذر تبذيرا . تنفق فى اصلاح شؤونكم وفى تحصين الامبراطورية للدفاع عن كيانها ضد الغزاة البربر الذين يبتغون فتح مملكتكم واستعبادكم كما فعلوا فى ايطاليا وروما

« تشكون من تعرض الدولة للعقائد الدينية . وليس للدولة غرض من هذا التعرض الا ضم جميع النصارى ضمن حظيرة الكنيسة لكى تكون أقوى وأوسع انتشارا

« فاذا كان لكم آراء فى هذه الامور ، فألفوا لجنة من زعمائكم لتجتمع مع لجنة الدولة للبحث فى هذه الامور وتقرير ما يتفق عليه عقلاء الامة

« فاذا أبيتم اقتراحى هذا فاقضوا ما تريدون أن تقضوا . فليس أحد من جنودى يقاومكم »

ولما انتهى ارسانيوس من التلاوة ، ضج الجمع ضجيجا مختلطا بين التهليل والغضب فرفع ارسانيوس يديه وقال : ننظر فى هذا الاقتراح اليوم ، وغدا نقضى قضاءنا .

عند ذلك نزل تيوفوروس وقال للامبراطورة :

ــ ان القائد فلابيانوس نائب قائد جيش ادريانوبولس قدم بجيشه

فأجابت بصوت عال ليسمعه ارسانيوس : ارسل رسولا اليه حالا بأمر منى ان يقف جيشه قبل أبواب المدينة . قل له ان يحاذر الهجوم بغير أمرى .

عند ذلك أشار ارسانيوس للجمع أن ينصرف الى الغد . وجعلت تيودوره تتقهقر على المدرج رويدا حتى غابت فى باب القصر غياب الشمس وراء الافق

- ٢٢ -

اجتمع زعماء الثورة ، وتباحثوا فى اقتراح الامبراطورة . فلم يوافقوا عليه ، لان أنصار هونوريوس كانوا يحرضون على خلع الامبراطورين والمناداة بهونوريوس امبراطورا

وكان ارفضاض الجمع فى ذلك اليوم مهلة لتيودوره . فلما مثل القائد فلابيانوس بين يديها بشت له وشكرت ولاءه فقال : ان من يكون أمينا لزوجته يكون أمينا لمكته . أما قلت هكذا يا ذات الجلالة يوم صالحتنى مع زوجتى اندروماكى ؟

ـ لم أنس عهدك حينذاك . ولم أشك أنك تبر به . ولكن أين القائد مرتنيوس ؟

ـ الحمد لله انه مريض يا مولاتى بحمى قاتلة . ولولا مرضه لكان أخون الخونة . اكتشفت أثناء مرضه بصفة كونى نائبه تعليمات سرية وردت اليه من حزب هونوريوس ، أن يعصى أمرك بالحضور الى العاصمة . ولولا اطلاعى على هذه التعليمات ، لما علمت أنه تلقى أوامر من جلالتك بالقدوم العاجل لانه كتمها عنى . وبحثت عنها فوجدتها . وما ترددت فى أن سقت جيشى الى هنا ، وفى قيادتى أربعة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان . فماذا تأمرين ؟

ـ أكرر شكرى لولائك . وأرجو أن توزع جنودك حسب فنك الحربى حول القصر ، وفى المدينة لتهدئة الثورة بقدر ما يستطاع ، وأن تتجنب الاحتكاك بالجمهور ، لحقن الدماء ما أمكن ، لانى لا أعتقد أن جيشك يستطيع قمع الثورة . فلعل الصبر والمحاسنة أفيد لنا فى تلافيها أو مماطلتها الى أن يأتى الله أمرا كان مفعولا

***

فى اليوم التالى عاد الشعب يتجمع ويستأنف الثورات ، وتصرف فلابيانوس بكل حكمة فى الدفاع عن القصر . وفى اليومين التاليين لم يقتحم الجمهور نهبا لسلاح الجنود . ولكن فى اليوم الرابع حدثت مناوشة قتل فيها عدد من الجمهور وقليل من الجنود . وفى اليوم الخامس اندحر جيش فلابيانوس أمام الثوار ، فأحاط بالقصر يحمى ظهوره بجدرانه . ويصد الثوار . وصعد بعضه الى القصر لصد الهاجمين

اشتد ضغط الثوار حتى شرع بعضهم يتغلبون على الجنود الذين يحمون المدرج العريض . أطلت تيودوره من الباب العالى ووقفت على الرحبة عند رأس المدرج ، فاشتد هياج الشعب. فطفقت تحييه بيديها. ولكن الوحوش الضارية متى هاجت لا تردها محاسنة

فعادت تيودوره الى البهو الكبير وجلست على عرشها. وقاربت الشمس المغيب ، فجاءها القائد فلابيانوس وقال : انى راسم خطة لانقاذك من هؤلاء الضوارى . فى أول الليل يخف زحام هذا الحشد ، فتمتطين جوادا وتحرسك ثلة من الفرسان الى المرفأ حيث ترسو سفينة للفرار بك

فقالت تيودوره باسمة : شكرا . أبعد أن ذهب عدد من جيشك ضحية فى سبيل الدفاع

عنى ، تطلب الى أن أهرب ؟ لو هربت قبل نشوب الثورة لتفاديت سفك الدماء . أما الآن فيجب أن أموت مع جنودى الابطال . أريد أن أموت على هذا العرش

فى تلك الليلة أدخل فلابيانوس قسما من جنوده الى القصر ، اندمجوا مع حرس تيموتاووس القليلين . وكانت اندروماكى زوجة فلابيانوس فى حجرة الامبراطورة لخدمتها . وبذلت اندروماكى جهدها فى اقناع تيودوره أن تهرب فى غلس الليل . ولكن بلا جدوى . لان تيودوره صممت على الموت فى العرش اذا كان لا بد منه

فى الصباح التالى اشتد زحام الثوار حول القصر ، حتى كاد جيش فلابيانوس يبيد بعد أن قتل كثيرا من الثوار . وقبل الضحى دحرت زمرة من الثوار الجنود ، وقحمت الى داخل القصر . فانذر تيوفوروس الامبراطورة بأن الخطر بلغ أشده ، وأبلغها أن الجنود يحرسون الطريق الى الحجرة الخلفية السفلى لكى تختبىء فيها . وأنهم يدعون للثوار أن الامبراطورة خرجت من القصر من مساء أمس

فنهضت تيودوره . وبدل أن تخرج من الباب الخلفى لكى تنسل منه الى الطبقة السفلى ، قحمت الى باب البهو الرسمى ، واستقبلت الثوار الذين يناجزهم الحرس لكى يرتدوا ، وظهرت أمامهم فى تبرجها الانيق . وقالت بلهجة لطيفة : أملكتكم تطلبون ؟ ها هى تيودوره ملكتكم . فافعلوا بها ما تريدون . دعوهم أيها الحراس ولا تمنعوهم لانى لاجلهم أريد أن أعيش أو بأيديهم أريد أن أموت

ولا تدرى ماذا كانت القوة التى صدت أولئك الثوار وردتهم عن الدخول الى بهو العرش . ولكن كان الضغط من الخارج يشتد حتى لم يعد مناص من الاندفاع الى البهو الاكبر . عند ذلك هجم فلابيانوس على الامبراطورة وحملها بين ذراعيه ودخل بها الى البهو . ثم خرج بها من الباب الخلفى وأنزلها الى الحجرة السفلى وقال : غد أجلنا ساعات أو دقائق لعل النصر يأتى من غامض علم الله . لقد جمعت عددا من الجنود لكى يحموا الطريق الى البوسفور حيث هناك سفينة محروسة تنتظرك .

فابتسمت وقالت : أشكر اهتمامك عظيم الشكر . اذا كان النصر يأتى من غامض علم الله فيأتى ونحن فى قلب هذا القصر . هنا أحيا أو أموت .

عند ذلك دخل تيموتاووس قائد الحرس ، وقال : ان الثوار اخترقوا خط الحراس الذى يحمى الطريق الى البوسفور . يا أيها القائد فلابيانوس . فالافضل أن نخبىء جلالتها فى مكان خفى فى القصر . أين تيوفوروس يدلنا على مكان أمين

فقالت تيودوره : أفضل مخبأ لى هو العرش . هناك أستقبل طالبى دمى . دعونى أصعد

عند ذلك شعروا أن المعارك أصبحت فى نفس حجرات القصر . يكاد الثوار يتم لهم احتلال القصر كله . .

فقال فلابيانوس : لا تخرجى من هنا يا مولاتى ، فنحن علينا الآن أن نشرف على الدفاع عن القصر ما استطعنا . .

بقيت تيودوره وحدها وهى تسمع صليل السيوف وتصفيق الرماح . وبعد حين خفت الصليل . قل التصفيق . هبط الضوضاء والجلبة . خرجت من الحجرة السفلى لكى تستكشف الحال . لم تر أحدا . صعدت الى البهو فرأت بعض الجنود ، فسألت : أين الثوار ؟

فقال جندى : لا ندرى ما الذى روعهم حتى ارتدوا . .

وما حز فى نفسها فى هذه الثورة الا ما رأت من القتلى والجرحى فى القصر . وخرجت الى الرحبة التى فوق المدرج فاذا الحشد يموج كالبحر المتلاطم وقد التحم فيه عدد كبير من الجنود والفرسان بعد أن هلك نصف جيش فلابيانوس . .

من أين جاءت هذه الجنود ؟

وقفت تتبين الحالة . واذا فارس يصعد بجواده على الدرج . واذا هى فى دهشتها ترى بليسيريوس القائد العظيم يترجل عن جواده عند رأس الدرج . .

فقابلته بابتسامة كأنها أشعة الشمس فى الربيع وكأنها لم تكن فى قلق ولا فى جذع . مدت يدها الى بليسيريوس فقبلها وقال : لعلك كنت فى يأس يا مولاتى ؟

ـ لا بل كنت مؤمنة بالعناية الالهية . وها هى العناية جاءتنى فى الدقيقة التى كاد اليأس فيها يحاول أن يدخل على . شكرا يا عزيزى بليسيريوس . .

فقال : الثوار يخرجون الى خارج المدينة لان جيشى دخلها بعد أن فتك بهم فتكا ذريعا . منذ فجر اليوم ستكون المعارك خارج المدينة . لا أدرى متى تنتهى . ولكنى أدرى أمرا واحدا على كل حال .

ـ ماذا ؟ . .

ـ النصر لك . .

فانقضت تيودوره على بليسيريوس وضمته وقبلته ، وقالت : ليس هذا النصر عن يدك بالخبر الجديد عندى على الرغم من جرى الرياح بما لم تشته سفنك

ـ اطمئنى فى قصرك ، سأقيم عليه حراسا داخله وخارجه يكونون آخر من يقتل من كتائبى العديدة . .

ثم قبل يدها ومضى

بعد عدة أيام انتهت المعارك فى المدينة وضواحيها وفى جميع البلاد المحيطة بها . وخمدت الثورة . ثم انطفأت نارها . ثم لجأ كل من الناس الى بيته ، واستأنف عمله

وقد ورد فى دائرة المعارف البريطانية فى المجلد العاشر فى نصف العمود الاول من الصفحة العاشرة : « ان الامة خسرت فى هذه الثورة المسماة ثورة (نيقا Neka) ثلاثين ألف نفس » . ولكن تيودوره التى كانت هدف الثورة لم تقتل ولم تخلع ، وبقيت على عرشها

وهنا نترك للقراء التساؤل : هل كانت تيودوره واثقة من قمع الثورة ، أم أنها أبت

أن تعيش بعد خسارة العرش كما قالت فى بلاغها التاريخى للامبراطور والبطانة
وان كان الامر الاول فعلام كانت تعتمد فى قمعها وقد علمت أن قوادها ورجال الدولة قد تخلوا عنها حتى بليسيريوس قنطت من نجدته ؟

***

استتب الامر ، وعاد الامبراطور جستينيان الى عرشه مطمئنا ، وانتظم الحكم ، وتعين الحكام الجدد

قبض على كل من ثبت أن له ضلعا فى التحريض على الثورة . وفر كثير من المحرضين فرار اللصوص ، ومنهم هونوريوس المطالب بالعرش

حوكم المتهمون ، وكان من جملتهم ارسانيوس الزعيم والمطران اكليمندوس . حاكمتهم محكمة مؤلفة من بعض رجال الدولة فى بعض حجرات القصر الكبرى . ولم تطل محاكمتهم أكثر من بعض يوم . وحكمت المحكمة عليهم جميعا بالاعدام . .

وفيما كان رئيس المحكمة ينطق بالحكم ، ظهرت تيودوره من الباب اليسرى من الوراء . فلما سمع المتهمون الحكم ورأوا الامبراطورة خروا سجدا رهبة ووجلا .

فتقدمت تيودوره الى جنب رئيس المحكمة وقالت بصوت عال فصيح :

« العدالة استوفت حقها . ولكن للامبراطورة حق الرحمة والعفو
يا رب اغفر لهؤلاء المجرمين لانهم لم يعلموا ماذا كانوا يفعـلون »

***

على أثر ذلك استدعت اكليمندوس الى حجرتها وقالت له وهو ساجد لديها : « لطالما علمتنى أن تقوى الله تفضى الى سعادة السماء . وأن العشق يؤدى الى التهلكة . وأنا الآن فى توبتى أعلمك أن العشق الشهوانى يثير النفوس الحيوانية ، وان تقوى الله ترفع النفس الى سماء النعيم . أبقيت على حياتك جزاء لك على خدماتك ، ولكى تبقى لك فرصة للتوبة وتقوى الله ، ولكى يكون لك النعيم أخيرا خير جزاء . فاعتكف بعد الآن فى ديرك يا سيدى المطران ، وتب الى الله . .

« قل لهونوريوس ان الصيد فى جبل طوروس أهنأ له من الجلوس على عرش بيظنطيوم

« وقل لسائر المجرمين الذين عفونا عنهم ان عكوفهم على آلات صناعاتهم خير لهم من أن يكونوا آلات شر فى أيدى الاشرار »

وخرجت تيودوره من باب ، وخرج اكليمندوس من باب آخر ، وهو لا يصدق أنه باق فى قيد الحياة

توفيت تيودوره سنة ٥٤٧ مسيحية

نقولا الحداد

رأيان
للدكتور محمود عزمى
والأستاذ
أنطون بك الجميل

الرأى العام فى مصر

نظمت الجامعة الأميركية سلسلة محاضرات عن الرأى العام فى مصر ألقاها نخبة من كبار العلماء والأدباء فى قاعة يورت التذكارية . وهذه خلاصة محاضرتين ألقاهما الدكتور محمود عزمى المستشار الملكى بوزارة المالية، والاستاذ أنطون بك الجميل رئيس تحرير الأهرام. وأولاهما عن الرأى العام السياسى ، والثانية عن الرأى العام الحر

كيف نكون رأياً عاماً سياسياً

بقلم الدكتور محمود عزمى

« الرأى العام » تعبير من تلك التعابير المطاطة التى لا يسهل تعيين حدودها تعينا علميا عاما يصح تطبيقه تطبيقا شاملا . شأنه فى ذلك شأن كثرة التعبيرات المنعوتة بالعامة : كالنظام العام والصالح العام والآداب العامة ، يبعد مداها ويصغر ، وتتسع دائرتها وتضيق ، بحسب النظريات التى يلجأ اليها معالجها ، وبحسب الميول التى تكون متفشية فى الجماعة التى يعنيها أمرها ، فيتراوح بين حسن الظن به وسوئه ، وبين تقديسه واحتقاره ، وبين خصه بالسلطان واغفاله تمام الاغفال . يعتبره البعض المسير لكل حركة والواضع لسنن التقاليد ، ويراه البعض الآخر قطيعا أبله يساق سوق الأغنام . ثم تتخلل هاتين النظريتين نظرات عدة تتوسطهما ، وتقرب من احداهما أو تبعد

والحق أن هذا الموقف من « الرأى العام » موقف طبيعى . ذلك أن الرأى العام لا يتكون فى بلد من البلاد من فئة واحدة متجانسة تتقارب مداركها ، فينتظر أن تتقارب أحكامها وتتقارب اتجاهاتها . بل انه يتكون من فئات عدة تتباعد واحدتها والاخرى ، فتتباعد أحكامهما وتتباعد اتجاهاتهما ، ويصح انطباق حسن الظن والتقديس والخص بالسلطان على بعضها ، بينما تطبق اعتبارات سوء الظن والاحتقار والاغفال على بعضها الآخر . وهذا التعدد فى الفئات التى يتكون منها الرأى العام هو الذى ينتج التضارب بين الزوايا التى ينظر منها اليه ، ويجعل النظريات خلالها كلها صحيحة ، مهما يكن ما بينها من تناقض ظاهر

* * *

أما مصر — وتخومها مقررة — فهى « الدولة النيلية المطلة على البحر المتوسط والبحر

الاحمر ، المتوسطة (بلاد العربية) وواسطة عقد ما يصطلح على تسميته الشرق والغرب» وهذا الموقع الجغرافى الفذ يجعلها متصلة اتصالا طبيعيا بقلب افريقية وبساحل المحيط الهندى ـ واليه امتدت بالفعل حدودها اكثر من عهد خلال التاريخ القديم والتاريخ الحديث ـ ويجعل كيانها الاجتماعى متفاعلا مع كيان البلاد الواقعة على حوض البحرين العتيقين ـ بحر الروم وبحر القلزم ـ ويجعل أجنحتها منتشرة فوق بلاد المشرق وبلاد المغرب ـ وهى أعرقهن وأعرق بلاد العالم جميعا حضارة فحضرت وشهدت جميع انواع التفاعلات التى تناوبت الوجود البشرى ـ كما يجعلها ملتقى القارات كلها ، أفرقية وآسيا وأوربا والاقيانوسية والامريكتين أيضا

وهذا الموقع الجغرافى الفذ الذى يربطها بكل تلك الانواع من الروابط ، يوسع حتما من أفق سياستها ، ويكثر من تفرعاتها ، فلا يحصرها فى النوع الداخلى الذى يعالج الشؤون القومية فحسب ، ولا يضيف الى هذا النوع نوعا آخر واحدا هو النوع الدولى الذى يعنى بالاتجاهات العالمية مجملة غير مفصلة ، بل انه ليدعوها الى أن تشغل الى جانب سياستها الداخلية والاتجاهات العالمية المجملة بالسياسة العالمية المفصلة ، وبما بينها وبين السياسة الداخلية من سياسة قارية وسياسة عربية وسياسة اسلامية وسياسات خلقية كذلك

وعندنا أن الرأى العام السياسى هو ما تعرب عنه الجماعة من اتجاه فى فهم مسائلها السياسية ، ومن وجهة نريد أن نولى هذه المسائل شطرها. كذلك هو مجموع من يدركون من أفراد الجماعة مسائلها السياسية ، فيعربون عن اتجاههم فى فهمها ، وعن الطريق التى يرغبون أن نسلكها . والواقع أن بين الاعتبارين تفاعلا محتوما ، فليس يمكن تصور اتجاه فهم وتولية وجهة بغير اشخاص يفهمون ويولون . ومهما يكن من أمر ، فللرأى العام السياسى خاصيتان : خاصية فهم الشؤون السياسية ، وخاصية توجيه هذه الشؤون

ولما كانت للبيئة المصرية تفرعات سياسية عدة ، وجب أن يكون الرأى العام السياسى المصرى من سعة الاطلاع وسلامة الهضم بحيث يستوعب فهمها جميعها ، ويجب أن يكون من القابلية والقوة بحيث يشمل اقدامه فى سبيل التوجيه أنواع تلك التفرعات جميعا ، أو من باب الاحتياط ينبغى أن تتعدد فى مصر انواع الرأى العام السياسى بحيث يختار كل نوع منها من التفرعات السياسية المتعددة كذلك فيحمل البعض أعباء السياسة الداخلية ، ويحمل البعض أعباء السياسة العالمية ، على أن تلحق بالسياسة الداخلية السياسة القادمة ، وان تلحق بالسياسة العالمية سياسة الاحلاف ، أو توزع على الاثنتين الاولين . وأحسب الوضع الصحيح للرأى العام السياسى المصرى ، انما هو وضع دوائر متداخلة ذات مركز واحد أقربها الى المركز دائرة السياسة الداخلية ، تتلوها دائرة السياسة القارية ، فدائرة سياسة الاحلاف ، ثم دائرة السياسة العالمية

وعلى أن يكون مفروضا على وجه العموم أن يكون فهم الافراد وتوجيههم مشتملين سياسة محيطهم وسياسات المحيطات الداخلة فيه.كذلك . ونحن اذ نقول « يكون مفروضا

على وجه العموم ، تترك باب الاجتهاد مفتوحا أمام اصحاب المحيطات الصغيرة فى سبيل المحيط الاكبر

ذلك أن من شأن مسائل السياسة الداخلية أن تمس المصريين جميعهم على اختلاف مستوياتهم ، والسياسة الداخلية تشمل جميع مظاهر العيش والحياة • ويمس المصريين بلا ريب أن يكتنفهم الأمن والطمأنينة ، وأن يشملهم العدل والمساواة فى جميع تصرفاتهم ، وأن تهيأ لهم فرص الحياة دون تمييز بين فريق وفريق ، فيستطيع كل منهم أن يضمن قوته ومسكنه وملبسه ونظافته وصحته وتعلمه وعمله وراحته وتسليته ، كما يضمن تأدية قسطه من الواجبات العامة نحو وطنه ونحو البشرية ، وأن يضمن توافر ذلك كله بقدر تحس معه كرامته الانسانية أنها لا تقرب منازل الحيوان ، بل تعلوها بدرجات ودرجات ودرجات . وكل هذا يعنى به ولا ريب الفلاح فى كوخه ، والصانع فى حرفته ، والعامل الاجير فى الحقل أو المصنع ، والمستخدم فى المتجر ، والطالب فى جامعته ، والموظف فى منصبه ، والمحامى فى مكتبه ، والطبيب فى عيادته ، والكاتب فى تأليفه ، والفنان فى اخراجه، والصحفى فى تحريره ، والمثقف فى نشاطه ، والمفكر فى تأمله . كما يعنى به المالك فى ضيعته ، وصاحب العمل فى مصنعه ، والممول فى مصرفه ، والتاجر فى حانوته . وكما يعنى به أيضا المحروم فى ضائقته ، والسائل فى مهانته

أما السياسات الاخرى . القارية والاخلاقية والعالمية ، فمن طبيعتها الا يعنى بمسائلها الا الاقلون . ومن أجل ذلك كان محتوما أن تتعدد الآراء العامة السياسية المصرية بتعدد انواع السياسات التى تكتنف موقع مصر الفذ ، وان تختلف كثافة كل منها على النحو الذى قدمناه ، اجتهادا فى شكل الدوائر المتداخلة ، متقاربة مساحات ما يفصل بين محيطاتها

* * *

ذلك كله عن الرأى العام فى كينونته ، أما فى صيرورته فينقسم أفراده الى ثلاثة أقسام . مؤثرين ومتفاعلين ومسوقين . فالمؤثرون هم أصحاب الفكرة يريدون بذرها أو الحركة يريدون قيامها أو المصلحة يريدون تحقيقها • يوحون ويوجهون ويحضون ويبذلون بخاصة ويحاجون أو يستعملون من يحض لهم ويحاج • ويودون أن يهيئوا لهم الارض كى تصلح للبذر والجو كي يسهل التحقق . والارض والجو انما هما القسمان الآخران، قسم المتفاعلين وقسم المسوقين . والمتفاعلون هم من يتفهمون الفكرة والحركة والمصلحة ، ويناقشونها وينقدونها ، ولا يريدون تنفيذها أو تأييدها أو الرضا عنها والغض الا بالاقتناع فيبذلون من الجهود ما يتفاعل مع جهود المؤثرين ، وما قد ينتج شيئا من التعديل والتحرير والتبديل ، بل ما قد ينتج بعض الاحايين الترك والعدول . وأما المسوقون فهم أولئك الذين لا تقوى ملكاتهم أو لا تقوى أخلاقهم على التحليل والمقاومة، فيؤيدون أو ينزوون، فيستفيد المؤثرون من ضعفهم ولا يضارون

تلك هى مصر وذلك هو الرأى العام السياسى فى كينونته وفى صيرورته ، وهما الركنان النظريان من أركان البحث ، ونصل الآن الى الركن التطبيقى الثالث ، ركن كيفية تكوين رأى عام سياسى مصرى

ويستدعى عرضنا لهذا الركن أن نتساءل اول الامر أى تكوين هو المقصود ؟ هل التكوين بمعنى التعهد ، أو هو التكوين بمعنى الخلق من جديد ؟ وبعبارة أخرى هل هناك رأى عام سياسى مصرى نريد تنظيمه ، أو أنه ليس فى مصر رأى عام سياسى ونريد رسم خطط خلقه واعداده ؟

يلوح لاول وهلة أن فى تضمن عنوان البحث رأيا عاما سياسيا مصريا فى صيغة « النكرة » ايذانا بأن هذا الرأى العام غير موجود ، وأن المطلوب خلقه ومحاولة وضع أسسه . والحق أن الاخذ الاول للموضوع يميل الى هذه الناحية من الاتجاه . وقد بينا أن كل رأى عام سياسى انما يستند الى اعتبارين اصليين : اعتبار الفهم ، واعتبار التوجيه . فالفهم على العموم يستدعى معرفة ، والتوجيه تمييز أو قدرة . والمعرفة والتمييز يستدعيان تعلما ، ويستلزمان أقل ما يستلزمان تحررا من الامية . والامية فاشية فى المصريين

وهنا أود أن أستدرك شيئا قد يكون محلا لسوء تفاهم لا أريده . وذلك هو أنه يجب التفريق بين الوطنية والسياسة . فالوطنية احساس طبيعى يشعر به كل انسان له وطن ، فى حين أن السياسة ادراك لمعان واتجاهات مادية تستدعى وعيا لا يتوافر عند كل الناس . ومعنى هذا أن المصريين كلهم وطنيون ، وأن الرأى العام الوطنى فى مصر قائم فى أى وقت ، وهو مكون من جميع المصريين ، متعلمين وجاهلين ، مدركين بعقولهم وغير مدركين ، منعمين ومحرومين ، مقيمين فى المدن أو مقيمين فى الريف . ولكن الرأى العام السياسى لا يمكن أن يشمل الجميع ، أو على الاقل ان جميع انواع الرأى العام السياسى المصرى لا يمكن أن يتألف كل واحد منها من المصريين اجمعين

والواقع أنه يجب التمييز بين ميادين الرأى العام السياسى المصرى ، وأن نعالج رأى عام كل ميدان على حدة من حيث العناصر التى تكونه ، ومن حيث الوسائل التى تتخذ لتدعيمه وتهيئته . ونستطيع أن نحدد تلك الميادين بنوع النشاط الذى يتجلى فيها ، ودرجة اتصاله بالاعتبار السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى . ولا شك عندى أن الاعتبار الاجتماعى أقرب هذه الاعتبارات كلها الى السواد ، مع عدم بعده عن غير السواد من الناس . واذن فيصح القول بأن الرأى العام الاجتماعى فى دائرة السياسة الداخلية هو أوسع رأى عام سياسى مصرى ، يضم كل قادر من المصريين كافة على التمييز فى الشؤون الحيوية الاولية ، شؤون الحاجيات ووسائل الوجود ومظاهر المساواة

أما السياسة القارية والسياسة الاحلافية فيعنى بها بطبيعة الحال رأى عام أقل عددا من الرأى العام المتصل بالسياسة الداخلية ، اذ تدور حول مسائل تبعد بعض البعد عن الشؤون التى تعنى بها الكافة المصرية عن قرب ، وان مستها ومست مصالحها المباشرة كشؤون النيل

ومياهه التى تجىء من بحيرة تانا مثلا ، أو كطريق المواصلات بين القاهرة و « كيناون » أو توحيد النقد بين مصر وسائر بلاد العربية ، والغاء جوازات السفر بالنسبة لتنقل فى أرجائهن جميعا . وان مسها بطبيعة الحال أمر تعديل المعاهدة المصرية البريتانية ، لانها متصلة باستقلال البلاد ، والاستقلال من اختصاص الوطنية التى قررنا من قبل عمومها وشمولها غير المحدودين

واذا كان الرأى العام السياسى المصرى تضيق دائرته فيما يتعلق بالسياسة القارية والسياسة الاحلافية عن دائرة السياسة الداخلية ، فان دائرة الرأى العام السياسى المصرى الخاص بالسياسة العالمية تضيق بدورها عن دائرة هاتين السياستين ، لان العناية بالشؤون الدولية تنحصر فى حد محدود من المفكرين والصحفيين ورجال الدولة والمقدمين بين رجال الاحزاب والحركات السياسية ، فيجب أن تكون مفكرا حقا حتى تحس بأن ميدان اهتمامك بالشؤون العامة لا يحده حد ، وكلما زادت استنارتك واتسع أفقك التهذيبى قوى فيك الاحساس بأنك ابن العالم كله ، كما أنك ابن بلدك ، وأنك مواطن فى الدنيا ، كما انك متجنس بجنسيتك

* * *

ذلك هو تقسيمنا للرأى العام السياسى المصرى أو لرأى عام سياسى مصرى اذا نحن شئنا أن نأخذ باتجاه عدم وجوده ، أو عدم تنظيمه على الاقل . وبقى العرض لوسائل التكوين والتنظيم والتعهد . ولاحكام تحديد هذه الوسائل ــ ولو على سبيل الاجمال والعموم ــ يجب أن نستذكر فى دقة طبيعة الرأى العام فى صيرورته . وقد قلنا انها مفاعلة بين مؤثرين ومتأثرين ، قصد بذر فكرة أو قيام حركة أو تحقيق مصلحة تستدعى ادراكا واستيعابا وهمة . واذن فالوسائل اللازمة لتعهد هذه الطبيعة يجب أن تتصل باعتبار المفاعلة الدائرة حول الافكار والحركات والمصالح ، والدائرة عادة قصد الخروج بالجماعة الى حظيرة جديدة تعمر بما يجرى اعتقاد الزمان بأنه الخير وأنه التقدم

واذا تقرر هذا، فانه ينتج حتما أن تكون الفكرة السائدة اختيار تلك الوسائل وتوجيهها، انما هى فكرة تقديم المعلومات لكل نوع من أنواع الرأى العام السياسى المصرى وتمرينه على استيعابها ، والوصول به الى تقديرها ، والحكم لها أو عليها . ويقع هذا العبء فى نظرى على المثقفين أول ما يقع ، ثم على الصحافة والاحزاب فالحكومة . واذا كانت مهمة كل فريق من هؤلاء تختلف باختلاف الطبائع والاختصاص ، فان هناك مبدأ عاما يجب أن يسود نشاطاتها جميعا ، وهو مبدأ حرية الرأى ، ولن تستطيع الوقوف على الاتجاه الجديد والتقديم الحق ، الا اذا مكنت صاحب هذا الاتجاه والتقديم من حرية الادلاء وحرية المناقشة . وحرية الرأى مكفولة فى الدستور المصرى ، ولكنها غير بالغة بعد عرف الناس لا فى عمومهم بل فى خصوصهم أيضا . وحرية الرأى تستدعى افتراض حسن النية فى صاحب الرأى . وعرفنا يجرى على أن نتساءل دائما اذا ما أدلى واحد برأى : « لحساب

من يتقدم صاحبنا بهذا الرأى ، ولا نزال نردد حكمه مأثورة تقول : « سوء الظن من حسن الفطن »

وحرية الرأى تستدعى افساح المجال لتعرف كل اتجاه . ونحن لا نزال نخشى اتجاهات معينة ، بل واتجاهات غير معينة ، ونحرم العرض لها بالسابق ، بدل أن نترك الراغبين فى تقديمها يقومون بتقديمها على مسئوليتهم وبتعريض أنفسهم للجزاء اذا رأى القضاء

ذلك هو المبدأ العام الذى ينبغى أن يسود وسائل تكوين الرأى العام السياسى المصرى جميعا

أما الوسائل ذاتها ، فهى من ناحية المثقفين اخراج الآراء وبذرها عن طريق التأليف والنشر فى الصحف وبالكتب والمحاضرات والخطب . ومن ناحية الصحافة بجلب المعلومات وتقديمها لقرائها تقديما يسوده الاتجاه القومى والمصلحة العامة ، لا فيما يتعلق بالشؤون الداخلية وحدها ، بل بالشؤون العالمية ، ولا فى الميدان السياسى الضيق وحده ، بل فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية جميعا

كيف نكون رأيا عاما حرا

بقلم الاستاذ انطون بك الجميل

لما طلب الى أن أضع بحثا فى هذا الموضوع ، خيل الى لأول وهلة أن المطلوب بحث من تلك البحوث التى تدور حول ما نسميه « مشكلات ما بعد الحرب » ، مما يعرض علينا منذ أشهر فى لجان خاصة حكومية وغير حكومية لدرسه وتخمين محتملاته : كيف يتم تثبيت النقد مثلا ؟ أو كيف تنظم مصادر الانتاج ؟ أو كيف نستغل ثروتنا القومية أو كيف تقاوم التعطل ؟ .. وما الى ذلك من المسائل التى تتناول القريب أو البعيد من الزمن المستقبل ، ولا أمل فى الافادة من درسها فى الحال

خيل الى بادىء ذى بدء أن السؤال المطروح على لاجيب عنه ، هو من نوع تلك الاسئلة التى نبحثها اليوم نظريا ، ولا يجىء تطبيقها عمليا الا فى الغد

وفى الواقع هل من سبيل الى تكوين رأى عام حر ، ابان الحرب ، فى مصر أو فى غير مصر ، والحرب بطبيعتها وبضروراتها تقضى بقيام الاحكام العرفية ، ومن ثم بالحد ، الى مدى بعيد ، من كل حرية فى الرأى ، وفى القول ، وفى الكتابة ، بل فى المأكل والملبس والانتقال ، وفى سائر مرافق الحياة

على أن هناك فارقا ، وهو الفرق بين المسائل المادية من مالية واقتصادية ، والمسائل المعنوية من فكرية وادبية . فان بحث الاولى يطرأ على نتائجه كثير من التعديل والتبديل من جراء ما هو عرضة له من تعديل العوامل وتبديل الاوضاع ، فى حين ان بحث الثانية يكاد يكون ثابتا فى نتائجه لثبات الحقائق الاولية الكبرى التى تقوم عليها وتستند اليها

وعلى هذا الاساس فلنعالج بحث المسألة المطروحة علينا الآن

وقد يكون فى تحليل الرأى العام وتصوير شتى مظاهره ما يمهد لنا السبيل الى تكوين حرية الرأى

ما الرأى العام على وجه التعميم ، وما الرأى العام الحر على وجه التخصيص ؟

لا أقف طويلا عند تحديد الرأى العام فان هناك صورا كثيرة لتحديده وتعريفه، ولكنى أقف عند أبسطها وأعمها ، فأقول: ان الرأى العام هو ما يعتقده ويحسه ويقول به الجمهور، أو ما يسمونه بسواد الناس ، أى معظمهم ، أو ان شئتم تعبيرا عصريا : رجل الشارع

أما الرأى العام الحر فلا بد قبل تعريفه من تصحيح خطأ شاع فى استعمال كلمة «حر» بلغتنا العربية فنحن نعبر بهـا عن كلمتى libéral و libre الفرنسيتين و liberal و free الانجليزيتين . مع أن الكلمتين فى كلتا اللغتين ليستا من المترادفات التى تؤدى معنى واحدا، بل ان كلا منهما تنطوى فى مدلولها على فرق ظاهر : فالاولى libre أو free معناها على وجه التدقيق « حر » اطلاقا ، أى غير مقيد من الغير . فى حين أن الاخرى liberal, libéral معناها نزوع الى التسامح أو الى حرية الآخرين أى غير مقيد للغير . وقد أكون حرا غير مقيد أى libre أو free ولا أكون libéral أى غير مقيد حرية الغير . ولعل كلمة سمح أو مسماح ـ من السماحة ـ أدل على معنى هذه الكلمة وأقرب الى مدلولها

ولا بد لنا من أن نأخذ فى سياق كلامنا عن الرأى العام الحر بالمعنيين معا ، اذ لا شك فى أن كليهما مقصود عندما نتمنى الرأى العام الحر

فالرأى العام الحر اذن هو الرأى الطليق الذى لا تقيد الاعراب عنه القيود المعروفة ، كما أنه من جهة أخرى الرأى الذى يقبل سائر الآراء فلا يقيدها ولا يحول دون الاعراب عنها . فهو اذ يطلب الحرية لنفسه لا يأباها على غيره ، بل يريد الحرية للجميع

وهل يكون الرأى العام غير حر ؟ لا شك فى ذلك . لان الرأى العام وجد منذ أخذ الناس يعيشون جماعات ، وهو قائم فى كل جماعة . فهو موجود فى الاسرة وفى القبيلة وفى الامة ، بل ان سهولة المواصلات وتقريب المسافات بين الشعوب بالطائرة والتلغراف والراديو كثيرا ما توجد فى الازمنة الحديثة رأيا عاما عالميا . وليس بصحيح ما يقال من أن البلاد المتأخرة غير المتحضرة ليس فيها من رأى عام . فمثل هذه البلاد قد تسود الآراء فيها الخرافات والاوهام . ولكن هل الاوهام سوى مظهر من مظاهر الرأى العام الذى لا يقوم على أساس من التبصر والتمييز وصحة الاحكام

وليس من شيء أعم وأشمل من الاوهام ، بل ليس من شيء أرسخ منها في العقول . وقد يحتاج المصلحون الى أجيال وقرون للتغلب عليها . فهناك اذن رأى عام فاسد أو غير صحيح ، ولكنه على كل حال رأى عام ، أى اعتقاد يميل اليه ويقول به جمهور الناس . فالرأى العام اذن موجود دائما في كل جماعة من الناس . ولكنه قد يكون ضالا يهيم على وجهه اذا سيطرت عليه الاوهام والخرافات ، وقد يكون مبهما يتلمس اتجاهاته ابان الازمات السياسية والاجتماعية الكبرى . وقد يكون مقيدا غير حر اذا تسلطت عليه القوة ورسمت له وجهة معينة

وقد يبدو من الغريب أن نقول ان الرأى العام في الغالب هو رأى عام غير حر ، حتى في البلاد الراقية المتمدينة . ذلك انه منذ وجد رأى عام قام أفراد أقوياء باجسامهم أو بعقولهم ونفوذهم يحاولون تقييده أو توجيهه بشتى سبل التأثير والدعوة ـ حسب رغباتهم وميولهم وأهوائهم

فالرغبة في السيطرة على الآراء العامة أوجدت الرأى العام المقيد غير الحر . فكان الطغيان والاستبداد ، وكان الظلم والاستعباد ، وكان القتل السياسي . كما أن الجهل جعل الرأى العام غير سمح ، أى مقيدا للغير ، فكان التعصب ، وكانت الثورات الاهلية والحروب الدينية ، وكان الارهاب والاضطهاد والقتل بالجملة . ومما لا شك فيه أن تقييد الرأى العام أو انحرافه عن الطريق السوى قد أنتج أضرارا تفوق أضرار الاوبئة والزلازل

واستبداد الجماعة يؤثر في حرية الرأى العام وفي سماحته بقدر تأثير استبداد الفرد ، بل ان علماء الاجتماع يؤثرون استبداد الفرد على استبداد الجماعة . ألم يقل أحد كتاب الفرنجة مداعبا : « ان الاوتوقراطية هي حق الفرد في ظلم المجموع ، وأن الديمقراطية هي حق المجموع في ظلم الفرد » . والى هذا الظلم الواقع من المجموع أشار شاعرنا المرحوم حافظ ابراهيم يوم قال في سقوط السلطان عبد الحميد وقيام العصبة التي وليت الامر بعده ، فطغت واستبدت وزجت تركيا في الحرب العالمية الماضية :

كان « عبد الحميد » بالامس فردا   فغدا اليوم ألف « عبد الحميد »

ومتى ابتليت الجماعات بالطغيان على حريتها سادها الارهاب ، وأصبحت من الخوف تقول غير ما تعتقد ، وتظهر غير ما تبطن ، فتبدو راضية وهي تضمر السخط . . وقد أبدع الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعرى في وصف هذه الحالة حيث قال :

على الذم بتنا مجمعين وحالنا   من الخوف حال المجمعين على الحمد

ولعل فيما روى عن مبايعة يزيد بن معاوية أروع مثل على الرأى يظهر حرا طليقا من غير قيد ، ثم يؤخذ بالارهاب فيتحول الى رأى مقيد غير حر

وحكاية ذلك أن معاوية لما أراد أن يلي ابنه يزيد الخلافة بعده كتب الى عماله أن يوفدوا اليه الوفود . ثم قال للضحاك : « عند ما تجتمع الوفود انى متكلم ، فاذا سكت فكن أنت

الذى يدعو الى بيعة يزيد ويحض عليها » (وهكذا نرى كيف كانت ترسم خطط الدعاية للتأثير فى الرأى العام . .) ولما جلس معاوية للناس تكلم ، فعظم أمر الاسلام وحرمة الخلافة وحقها ، فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال الضحاك : « يا أمير المؤمنين انه لا بد للناس من وال بعدك ، فذلك أحقن للدماء ، وأصلح للدهماء ، وآمن للسبيل ، وخير فى العاقبة . والايام عوج ، كل يوم فى شأن . ويزيد ابن أمير المؤمنين فى حسن هديه ، وهو من أفضلنا علما وحلما وأبعدنا رأيا ، فخوله عهدك ، واجعله لنا علما بعدك ، ومفزعا نلجأ اليه ونسكن الى ظله »

وتكلم غيره بنحو ذلك

ثم قال معاوية للاحنف : « ما تقول يا أبا بحر ؟ » فقال : « نخافكم ان صدقنا ، ونخاف الله ان كذبنا ، وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه . فان كنت تعلمه لله تعالى ، ولهذه الامة رضى ، فلا تشاور فيه . وان كنت تعلم منه غير ذلك فأنت صائر الى الآخرة وانما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا »

ومن هذا ترون كيف بدت حرية الرأى من جانب الاحنف ، ولكنها حرية كادت تفسد ما كان مدبرا . .

فوقف يزيد بن المقنع العذرى وقال : « هذا أمير المؤمنين (وأشار الى معاوية) فان هلك فهذا (وأشار الى يزيد) ومن أبى فهذا (وأخذ بقائم سيفه) » فقال معاوية : «اجلس فأنت سيد الخطباء ! » وأذعن من حضر من الوفود

وهكذا ترون كيف يؤخذ الرأى العام بالارهاب فيبدى الاذعان والرضى ، وان أضمر التمرد والسخط . وهذا أيضا وصفه فيلسوف المعرة اذ قال :

تلوا باطلا وجلوا صارما وقالوا « صدقنا » فقلنا « نعم »

والناس مختلفون فى تقدير الرأى العام وصحة أحكامه ، ولعل الفلاسفة والمفكرين أكثر الناس ازدراء للرأى العام . ذلك لانهم يعرفون سهولة التأثير فيه وسهولة تضليله ، وتحويله عن رأى عام حر نزيه الى رأى عام مخدوع فى حكمه أو مغلوب على أمره . فهذا أحد حكماء الاغريق قام يوما يخطب فى الجماهير فصفقوا له ، فالتفت الى من كان حوله قائلا : « وهل قلت سخافة حتى يصفقوا ؟ »

وكان الشاعر اللاتينى هوراسيوس يسمى الجماهير التى تمثل الرأى العام « القطيع المسوق »

وكان الفيلسوف الفرنسى فولتير يسمى هذه الجماهير : السائمة ترعى

ولكن مهما يكن من أمر هذه المداعبات أو الفكاهات ، فان للرأى العام قوة عظيمة لا تنكر ، وهو اذا ما صحت عقيدته وتركت له حريته اندفع كالسيل الجارف يعبث بالعقبات ويتخطاها ، فلا يقف بوجهه عائق . فيكون حينئذ مرهف الحس صادق الحكم ، ولذلك

قالوا : « ألسنة الخلق أقلام الحق » وهذا قول لم يقض به مجرد السجع ، ولكنه يعبر عن حقيقة . وقد قال القدماء قبل ذلك « صوت الشعب من صوت الله »

وأيا كان رأى هؤلاء وهؤلاء ، فان الجميع ، وبخاصة رجال السياسة ، يعلقون قيمة كبيرة على الرأى العام فى توجيه الحوادث وتسيير سياسة الناس ، وان كان البعض لا يريد أن يتخذ منه مقياسا صحيحا لقيم الاشياء ومقادير الرجال

وعلى كل فان مصلحة الشعوب الحقيقية فى كفالة حرية الرأى العام وعدم محاولة تقييده والضغط عليه ، لذلك قالت المسيحية بتحرير الناس ، ودعا الاسلام الى المجادلة بالتى هى أحسن

قد أكون أطلت فى تحليل الرأى العام الحر ، والرأى العام المقيد ، ووصف مظاهرهما وأثرهما . ولكن هذا ، على ما أعتقد ، يدخل فى صميم الموضوع الذى يتناوله بحثنا . لان فى هذا الوصف وذلك التحليل ما يساعدنا على تعرف العوامل ، وتلمس الوسائل التى توصلنا الى تكوين رأى عام حر يأبى أن يغرر به كما يأبى أن يغرر بالغير ، ويأبى أن تفرض عليه القيود ، كما يأبى أن يفرضها على الغير

وما الرأى العام كما هو معروف سوى مجموع آراء فردية متوائمة تتضام وتتماسك ، فتؤلف كتلة تسير فى اتجاه واحد فى الشؤون السياسية أو القومية أو الاجتماعية . فاذا شئنا أن نكون رأيا عاما حرا كان علينا بداهة أن توجد آراء فردية حرة

والرأى الحر فى الفرد يبتدىء تكوينه فى البيت بين أفراد الاسرة ، ثم فى المدرسة بين الاتراب والمعلمين ، وينبغى فى هاتين البيئتين أن يفسح المجال للولد ليبدى ما يعن له من الآراء والاحكام على ما يرى ويسمع . فاذا حاد عن جادة الصواب فى رأيه أو حكمه على ما حوله من الحوادث والاشياء ، عملنا على اعادته الى الطريق القويم بالتؤدة واللين أما أخذه بالعنف والشدة فليس مما يصوب له رأيا أو يقوم له حكما ، بل ان ذلك يحمله على المخاتلة والمخادعة ، فيألف أن يقول غير ما يرى ، وأن يجاهر بغير ما يعتقد ، فينشأ ويشب وله رأيان : الرأى الذى يبديه رهبة أو رغبة ، والرأى الذى يخفيه خوفا أو طمعا . ثم انه متى كبر وآلت السلطة اليه فى أسرته أو بيئته ، صار بدوره متعصبا لرأيه يريد أن يفرضه على الغير دون أن يقبل فيه مناقشة أو مراجعة . وهيهات أن يكون لمثل من ينشأ هذه التنشئة أن يكون له رأى حر ، وهيهات لامة يربى أطفالها هذه التربية أن يتكون فيها رأى عام حر

ولعل من أكثر التمرينات فائدة للتلاميذ من هذا القبيل تلك المباحثات والمناظرات العامة التى تعقد فى المدارس ويترك فيها لكل فريق أن يبدى رأيه ، مؤيدا أو معارضا ، فى مسألة معينة مدليا فى تأييده أو معارضته بما لديه من الادلة والبراهين المستقاة من غريزته أو ميوله أو من منطقه

هذه هى المرحلة الاولى أو الوسيلة الاولى فى تكوين الرأى العام الحر عن طريق تربية الرأى الفردى الحر

أما الوسيلة الثانية لادراك هذا الهدف فهى الصحافة . ولا شك فى أن الصحف ـ بفضل اتساع انتشارها واقبال جميع طوائف الناس على مطالعتها واستقاء المعلومات منها ـ قد أصبحت العامل الاول والابلغ أثرا فى تكوين الرأى العام وتوجيه ميوله وتحديد اتجاهاته . فينبغى اذن أن تكون الصحف حرة النزعة ، نزيهة المرمى ، تعمل فى جد واخلاص على تحرى الحوادث وتقصى وجهها الصحيح ، ثم تحرص بعد ذلك على بسطها للقراء من غير ما تحيز ولا مسايرة للاغراض والاهواء . واذا كان الصحفى فى العالم الحديث يسير فى طليعة قادة الرأى العام ، وجب أن يعد نفسه صاحب رسالة يؤديها فى اخلاص ونزاهة مهما يكلفه الامر من مشقة وعناء وتضحية . وهو ان فعل يؤدى لبلده أجل الخدمات ، فينير الاذهان ويقوم الآراء ويهذب الاخلاق

لهذا كانت حرية الصحافة أساس الرأى العام الحر ، بل شرطا لوجود جميع الحريات ، كما أن تقييد الصحافة هو مبدأ تقييد الحريات وموجد الرأى العام المقيد والمقيد والمستعبد والمستعبد

وما يقال عن الصحفيين على وجه التخصيص يقال عن حملة الاقلام ورجال المنابر على وجه التعميم ، فكثيرا ما يستطيعون بقلمهم أو بلسانهم أن يرفعوا رأيا وأن يسفهوا رأيا ، فينقاد لهم الناس وتسير وراءهم الجماهير

واذا كانت التربية البيتية والمدرسة من مكونات الرأى الفردى الحر ، واذا كانت الصحافة الحرة من مكونات الرأى العام الحر ، فلان هذه وتلك ترعيان الاخلاق التى تغذى الحرية وتتغذى منها . وفى مقدمة هذه الاخلاق سماحة الحكام وشجاعة المحكومين . وهذه السماحة فى الحكام تفرض فيهم فضائل كثيرة تمكنهم من أن يكونوا سماميح أحرارا. وهذه الشجاعة فى المحكومين تفرض كذلك فيهم فضائل كثيرة تمكنهم من أن يكونوا شجعانا أحرارا . والتاريخ فى عصوره الذهبية حافل بالمثل العليا من هؤلاء وهؤلاء . فاذا استطاع عمر بن الخطاب أن يقف فى ملأ من الناس ويقول : « من رأى فى اعوجاجا فليقومه » ، فلانه كان الخليفة العادل الذى لم تغيره الامرة ، ولا حابى أحدا فى الحق فلم يطمع الشريف فى حيفه ولم ييأس الضعيف من عدله ، واذا استطاع أن يجيبه من أجاب : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » فلان القائل كان فارسا مغوارا وسيفا من سيوف الاسلام

وهذه السماحة فى عمر ساعدت على تكوين الرأى الحر فى عهده .. وجه اليه أحد الناس طعنا . فقيل له : « اتق الله انه أمير المؤمنين » فقال عمر : « دعه فلا خير فيهم ان لم يقولوها فينا ، ولا خير فينا ان لم تقبلها منهم » فهل ادعى من هذا القول الى حرية الرأى بلا قيد

أما حرية الرأى التى يلوح من خلالها شبح القيد ففيما قاله معاوية فى مثل هذا الموقف : دخل عليه اعرابى وأغلظ له القول . فحلم عنه ، ومعاوية مشهور بالحلم والاناة ، فقال أحد الجالسين : « أتحلم عن هذا ؟ » فقال : « أنا لا أحول بين الناس وألسنتهم . ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا »

والامثلة كثيرة على انبثاق حرية الرأى من سماحة الحكام وشجاعة المحكومين . ولكنى أكتفى بمثل أخير لما فيه من طرافة : جلس لويس الرابع عشر وهو من أعظم ملوك فرنسا يلعب الشطرنج مع أحد أشراف المملكة وحولهما لفيف من رجال البلاط ينظرون . وقام خلاف بين اللاعبين على الدست : أهو للملك أم لملاعبه ؟ ودخل اذ ذاك المرشال دي لوكسمبور ، وكان من أبسل القواد وأشهرهم ، فقال الملك : « سنحكم المرشال بيننا » فقال المارشال من فوره : « الدست له عليك يا مولاى » فقال الملك : « ومن أنبأك بذلك قبل أن ترى موقفنا فى اللعب ؟ » فأجاب المارشال مشيرا الى الحاضرين : « صمت هؤلاء السادة . فلو كنت يا صاحب الجلالة على بعض الحق ما ظلوا صامتين . . » فضحك الملك وضحك الجميع

أما اذا خرج الحكام عن حلمهم وسماحتهم ، واذا جبن المحكومون فتخلوا عن شجاعتهم فحينئذ يذهب الناس الى التشبه بالضفدع فيقولون قولها . وماذا قالت الضفدع ؟

قالت الضفدع قولا فسرته الحكماء
فى فمى ماء وهل ينـ ـطق من فى فيه ماء

لا شك فى أن الاخلاق من أعظم مكونات الرأى العام الحر ، ولكن لا بد للاخلاق من حصن يحميها ويصون معها حرية الفكر واستقلال الرأى . وهذا الحصن يجب أن يجده الناس فى القوانين والشرائع ، والدستور عادة فى مقدمتها . لذلك يجاهد الناس فى سبيل الحكم الدستورى ، لأن فيه وحده ما يكفل حرية الفرد وحرية الجماعة ، ومن ثم حرية الرأى العام

ونحن بحمد الله قد قام دستورنا على قواعد حرة ومبادىء سمحة : فنص فى مادته الاولى أن مصر دولة حرة وتلت هذه المادة عشرون مادة تؤكد هذه الحرية وتفصلها تفصيلا ، فتعلن أن المصريين لدى القانون سواء ، وأن الحرية الشخصية مكفولة ، وأنه لا يجوز القبض على أى انسان ولا حبسه الا وفق أحكام القانون ، وأن لا عقوبة الا بناء على قانون ، وأنه لا يجوز أن يحظر على مصرى الاقامة فى جهة ما ، وأن للمنازل وللملكية حرمة ، وأن مصادرة الأموال العامة محظورة ، وأنه لا يجوز افشاء أسرار الخطابات والتلغرافات والتليفونات ، وأن حرية الاعتقاد مطلقة ، وحرية القيام بشعائر الأديان محمية ، وأن حرية الرأى مكفولة ، ولكل انسان أن يعرب عن فكره بالقول أو الكتابة أو التصوير فى حدود القانون ، وأن الصحافة حرة ، وأنه لا يسوغ تقييد حرية أحد فى استعماله أية لغة أراد فى المعاملات الخاصة ، وأن التعليم حر ، وأن للمصريين حق

الاجتماع ، وحق تكوين الجمعيات ، كما لهم أن يخاطبوا السلطات العامة بما يعرض لهم من الشؤون . .

وجاءت المادة الثالثة والعشرون تتوج جميع هذه الحريات فقالت «جميع السلطات مصدرها الامة »

وأنى للامة أن تكون كذلك اذا لم تضمن لها جميع هذه الحريات ؟

لذلك اذا شئنا أن ينهض فى مصر رأى عام حر ـ مع تكوين آراء فردية حرة ـ وجب علينا أن نتمسك دائما بقواعد الدستور ، ونعمل حكومة وأمة ـ باحكامه

ولا بد قبل الختام من تحفظ يضع الامور فى نصابها بعد كل ما قدمنا عن الحرية يقولون ان الصراحة ليست أن نقول كل ما نعتقد ، بل أن نعتقد كل ما نقول . وكذلك حرية الرأى ليست أن نقول كل ما نريد ، بل ألا نقول الا ما نريد

حاولت أن أبسط الوسائل التى تساعدنا على تكوين رأى عام حر . وقد تكون هناك وسائل أخرى غابت عنى فى تحضير هذا البحث ، وقد أعددته كما نعد فى لجاننا بحوث مشكلات ما بعد الحرب ، فاننا ندرسها اليوم نظريا لنطبقها فى الغد عمليا . وما بحثنا فى تكوين الرأى العام الحر الا من هذا القبيل ، فان الحرب كما قدمنا تقضى ضروراتها بالحد الى مدى بعيد من جميع الحريات . ولعل الحرب منتهية عما قريب ، فتعود أحوالنا العامة والخاصة الى أوضاعها الطبيعية

لويد جورج السادس !

كان لويد جورج ، رئيس وزارة بريطانيا الاسبق ، يتنزه فى أرجاء الريف فى سيارته ذات مساء ، فنفد ما فى السيارة من « البنزين » وتعذرت عليه العودة الى لندن . فرأى أن يبحث عن مكان يبيت فيه ليلته هذه ، فوجد مبنى كبيرا حسبه قصر أحد الكبراء ، فذهب اليه وضرب جرس الباب ، فخرج اليه أحد الخدم يسأله ما يريد

قال لويد جورج : أريد أن أبيت هنا الليلة لان « بنزين » سيارتى نفد

قال الخادم : أين تبيت ؟ ليس هذا بفندق ولا بيت ، بل مستشفى مجاذيب

قال لويد جورج : وليكن ، انى أريد أن أبيت كيفما كان . . واحب ان أعرفك بنفسى ، فأنا لويد جورج رئيس الوزارة السابق

فقال الخادم ضاحكا : اذن لتفضل . فان لدينا خمسة يدعى كل منهم أنه لويد جورج . فلتكن أنت لويد جورج السادس !

ان الحروب رغم ويلاتها ، تحمل على نارها وبارودها وألغامها وقنابلها ، برداً وسلاماً ، وتقفز بالانسانية أحقاباً وأجيالا إلى الأمام

أبالحروب تنعم الانسانية ؟

بقلم الدكتور أمير بقطر

أجل بالحروب تنعم كما أنها بالحروب تشقى . أليست هذه سنة الطبيعة ؟ ألا يسير القبح والجمال ، والعسر واليسر ، والعنف واللين ، والقسوة والرحمة ، والسماجة والظرف ، والاعتلال والصحة ، والعبوس والطلاقة ــ ألا تسير هذه فى العالم الذى نعيش فيه جنبا الى جنب ؟ ألم يرد في التوراة أن من الاكل خرج أكل ومن الجافى خرجت حلاوة ؟ أجل ومن الموت تنبعث الحياة ، ومن الفناء يولد الخلود ، وعلى أنقاض الهدم يشاد البناء

منذ فجر التاريخ تركب الانسانية متن التقدم على أسنة الرماح ، وتسمو الى ذرى المجد على شفرات السيوف . ألم تؤد الحروب بين الولايات اليونانية فى التاريخ القديم الى ارتفاع صوت « يوريبيدس » فى كتابه « نساء تروجان » احتجاجا على قتل النساء والاطفال واسترقاقهم بلا رحمة ؟ ألم يدافع « فرجيل » اثر الحروب والثورات فى الدولة الرومانية ، دفاع الأبطال عن حقوق الشعوب ؟

وفى العصور الوسطى ، ألم تذك حروبها روح النخوة والانسانية فى رجال الكنيسة ، فقاموا ينادون بالمحبة والاخاء بين الامم والشعوب ؟ وفى حرب الثلاثين سنة ألم ينادِ « جرتيوس » مؤسس القانون الدولى بالتحكيم وتنظيم الحرب على مبادىء الرحمة ، بعد أن شاهد الانسانية عارية من كل صفاتها ؟

وفى العصور الحديثة ، وضعت « فلورنس نايتنجيل » ملاك الرحمة الاول نواة التمريض فى أرض خصيبة عقب حرب القرم ، فظهرت حركة الصليب الاحمر . وفى نهاية الحرب العالمية الاولى قامت عصبة الامم ، وقرر أفرادها مبادىء انسانية فى شتى النواحى لم يعمل بها كلها ، ولكنها على كل حال جاءت بفوائد لا تنكر

كانت انجلترا فى عهد دزرائيلى عالمين : عالم الفقير ، وعالم الغنى . وكانت جميع المنشآت الاجتماعية على هذا الاساس . فالتعليم مثلا كان نوعين ، وكان أحدهما عقيما مجدبا ، ينتهى مبكرا ، ولا يؤدى الى شىء ، ولا يفتح مجال الفرص واسعا ، ولا ينتهى بالناشىء الفقير الى باب من أبواب الرقى . وكان النوع الثانى تعليما مشرفا لابناء الطبقات

العليا وذوى المهن الشريفة وكبار الموظفين وحكام المستعمرات . وكانت الحالة أشد سوءا قبل حروب نابوليون ، فلما أن وضعت هذه الحروب أوزارها أخذت انجلترا تنهض من سباتها ، فأيقنت أن ابقاء جيش من الفقراء الجهلاء بين فئة قليلة من الموسرين المثقفين ، معناه وضع كومة من البارود قابلة للانفجار . وفضلا عن ذلك فقد أيقن أولو الشأن أن الكفاية فى العمل والصناعة تتطلب قسطا من التعليم والعناية بالصحة فاخترعوا القراءة والكتابة والحساب ، وتوجت هذه الحركة بجعل التعليم الزاميا سنة ١٨٧٠

وقد ألقت الحرب العالمية الاولى ضوءا جديدا على المسائل الاجتماعية ، من صحية وثقافية واقتصادية ، وزاد هذا الضوء شدة وبريقا فى الحرب العالمية الحاضرة . فقد تنبهت الاذهان الى أن الحروب الحديثة تتطلب رجالا أصحاء بدنيا وعقليا ، مطمئنى البال اقتصاديا، وأن صناعة الحروب سواء أكانت فى معمعة القتال ، أم فى أعماق المناجم ، أم فى عجيج المصانع ، تتطلب جانبا غير ضئيل من الثقافة العامة ، فضلا عن حذق الفنون والصناعات والمهن . وقد وجد بالاختبار كذلك أن الحروب الحديثة لا تقوم لها قائمة ، ما لم يسندها رأى عام مستنير ، يكون بمثابة الحافز والقوة الدافعة ، فتنبهت الامم الى فتح أبواب العلم واسعة لكل ناشىء قادر ، والاكثار من المعاهد التكميلية ، الثقافية والصناعية والفنية منها للكبار ، حتى تتمشى معلوماتهم مع الخطى السريعة التى يعدو بها القرن العشرون . فهذه انجلترا تعلن أنها فى حاجة بعد الحرب الى سبعين ألف معلم فوق ما لديها الآن ، وأنها رغم ما ترصده على التعليم فى ميزانيتها العامة وهو ١٢٣ مليون جنيه سنويا تقريبا ، تطالب الآن برفع هذا المبلغ الى ١٩٠ مليونا ، وكانت قبل الحرب العالمية الاولى تمنع الجنس اللطيف من دخول كليات الطب فيها ، فضلا عن أن جامعة اكسفورد الشهيرة لم تفتح أبوابها للبنات قبل سنة ١٩٢٥ ، وقد جاءت تلك الحرب فقضت على هذه الآراء الرجعية التى لا تتفق ومبادىء الانسانية . وقد جاءت الحرب الحاضرة فنسخت كل قيد ثقافى أساسه جنس الطالب ، ذكرا أم أنثى . وما يقال عن انجلترا يقال عن سواها من البلدان . فهذه مصر يقول وزير المعارف فيها ان رفع ميزانية التعليم السنوية من ٦ ملايين الى سبعين مليونا هو ما كان يجب عمله فيما لو أردنا مجاراة انجلترا

هذا من حيث التعليم، أما عن سائر المشروعات الانسانية من صحية واقتصادية، فحسبى أن أشير الى مشروع بفردج وأمثاله فى اميركا وغيرها من البلدان ، وما تشمله هذه المشاريع من المسائل التى ستقفز بالانسانية ألف سنة الى الامام ، فتضمن للمريض ، والمسن ، واليتيم ، والارمل ، والفقير ، والجاهل ، والمقعد ، ما يحتاجه من علاج ودواء ومعاش ومأوى وثقافة وطعام وكرامة وعزة وراحة بال . وحسبى أن أشير الى تلك الاكواخ الحقيرة التى يسكنها فقراء العمال والصناع فى انجلترا ، والتى صحت العزيمة على استعاضتها باربعة ملايين منزل حديث مجهز بجميع الوسائل من ضوء وهواء ودفء وماء

جار ساخن وبارد وكهرباء ، وكل ما استطاع العلم الحديث استنباطه من رفاهية وبساطة وذوق سليم وفن بأقل نفقة ممكنة ، وبكل ما يستطاع بلوغه من وسائل الصحة والراحة والجمال مجتمعة . وقد اتفقت جمعيات البناء والتعاون وحدها فى انجلترا واسكتلندا على بناء نصف مليون بيت بعد الحرب تنفق عليها من خزاناتها مئتى مليون جنيه

ولست أريد أن أتعرض لميادين العلم والاختراع والاكتشاف ، فان هذا تضيق به صفحات « الهلال » . وحسب القارىء أن يلقى نظرة سريعة الى حافز الحرب الحاضرة وما أذكاه من نار الغيرة فى نفوس العلماء ، فاستطاعوا بفضل المواد « السلفانية » أن يقضوا على أشد الجراثيم خطرا ، وأكثر الامراض استعصاء ، وتمكنوا من تعميم مادة «البنيسيلين» السحرية بين الجنود ، وكادوا يجعلونها سلعة سهلة التناول ومتاعا مشاعا للجميع بعد الحرب ، وبذلك أنقذوا من براثن الموت الملايين من النفوس . ولعل قراء « الهلال » يذكرون أن المشوهين من الجنود الذين يفقدون سواعدهم وسيقانهم ، يستطيعون الآن بفضل الجراحة ، وطب العظام ، وصناعة الاعضاء الصناعية ، أن يستعيضوا عنها بما يمكنهم من تأدية أعمالهم اليومية بمهارة لم يسبق لها مثيل ، حتى أن بعضهم استطاع أن يدرب على استعمال الآلة الكاتبة رغم أن ذراعه من المطاط . وهل يصدق أحد ما ترويه صحف اميركا عن قطع دابر السيلان بعد علاج أيام ، واستئصال داء الزهرى فى يوم واحد ، واستبدال قرنية العين للاعمى بقرنية مبصر ميت ؟ ولعل أشد عجبا من هذا كله ما يراه رجال الاصلاح الاجتماعى من وجوب تعميم هذه الوسائل الانسانية بعد الحرب ، وجعلها فى متناول الفقير والغنى على السواء ، بل أكثر من ذلك تجنيد رجال الطب جميعهم لخدمة الجمهور بغير أجر ، على أن تتولى الحكومة دفع مرتبات تكفل ومنزلتهم الاجتماعية

ولم تقف هذه النزعات الانسانية عند حد الاختراع والاستكشاف وتوفير الوسائل الطبية والصحية والتعليمية ، ولكنها تجاوزت ذلك كله واخترقت ميدان السياسة . فهذا « ولفرد روبرتس » من ممثلى حزب العمال فى مجلس العموم البريطانى يقف اليوم فى جلسة حربية صاخبة من جلسات البرلمان ويجاهر بقوله ان مشروع « بفردج » لا يشفى غليلا طالما كان مستقبل بريطانيا موقوفا على مجلس عمومها ، وطالما كان هذا المجلس لا يمثل بريطانيا تمثيلا صادقا ، وذلك للاسباب الآتية : (١) ان متوسط أعمار أعضائه فى خلال الفترة الواقعة بين الحرب العالمية الاولى والحاضرة فوق الخمسين سنة (٢) ان أكثر من نصف الاعضاء تلقوا علومهم فى مدارس الاشراف الشهيرة المعروفة باسم المدارس العامة مثل « ايتون » و « هرو » و « رجبى » و « ونشستر » (٣) ان ثلث الاعضاء الذين يمثلون حزب المحافظين من خريجى « ايتون » و « هرو » (٤) ان العضو لا يقل دخله عن ٥ آلاف جنيه فى العام . ومعنى هذا أن الشاب ، والفقير الذى لا يستطيع أن يتحمل نفقات الانتخاب ، لا يستطيعان دخول المجلس ، وعلى هذا يطالب بتعديل دستوره تعديلا يفسح

المجال لذوى الكفايات بغض النظر عن كل اعتبار آخر ، ويدخل العناصر التى تمثل الامة تمثيلا صحيحا

* * *

لم يبق علينا الا تحليل هذه الظاهرة ، وأعنى بها ان الحروب رغم ويلاتها ، تحمل طى نارها وبارودها ، وألغامها وقنابلها ، بردا وسلاما ، وتقفز بالانسانية أحقابا وأجيالا الى الامام . الحروب كالثورات والمجاعات والاوبئة وسائر الكوارث التى تصيب الناس ، وحدانا وجماعات ، تشحذ القرائح ، وترهف الوجدان ، وتلين القلوب القاسية ، وتذكى فى العقول والافهام شعلة الذكاء ، كما تبعث فى النفوس الرحمة الانسانية ، والعناية بطبقات الامة المغلوبة على أمرها ، ونسيان الماديات فترة من الزمن وان قصرت ، والتأمل فى الروحيات ، وخشية المجهول ، وازدراء الحياة الدنيا ، والتفكير فى الآخرة . وهذا كما قلنا يتمشى وما يناقضه من الصفات ، كالوحشية ، والقسوة ، والعنف ، والظلم ، والاستبداد ، التى تبدو فى ناحية من نواحى الحرب ، على محاذاة الناحية الاخرى التى توازنها مكانا وزمانا ، وتصطدم واياها مبدأ وصفة

ان الرأى العام الذى يمهد لجميع هذه النزعات الانسانية طريقها ، ويخلق لها الجو المناسب ، يرى أمام عينيه بنيه وبناته وأصدقاءه وأحبابه وجيرانه ، يقتلون تقتيلا ، ويمثل بهم أشنع تمثيل ، فى ميادين القتال ، ومصانع الذخيرة ، والمدن الآمنة المطمئنة البعيدة عن ساحات الوغى . يرى هذا فيوقن أن الحياة حلم زائل ، وأن هذه الجثث المهشمة ، الراقدة تحت الانقاض فى المدن ، وهذه الاجسام المكدسة المشوهة ، الهاجعة فى وادى القتال ، ما هى الا نذير الفناء وعلامة الهلاك بالجملة ، ونهاية الحياة والبشرية . هذه الخواطر تجول فى نفوس العظماء والكبراء ، والموسرين ، والمترفين المستهترين ، فيزهدون فى الدنيا ومالها وزهوها وبهائها ، ثم سرعان ما تحن جوارحهم ، وتلين أفئدتهم ، فيفكرون فيما كانوا عنه لاهين ، ويذكرون ما كانوا ناسين أو متناسين ، فيسوقون الى الفقير والجائع والمريض والجاهل ، جيلا بعد جيل ، ويتعهدونه بالمشاريع النافعة ، ويأملون ، ولو الى حين ، أن تنتقل هذه الانسانية المعذبة من براثن الشقاء الى أعطاف النعيم

من هذا نرى أن الحافز للعلماء والمخترعين والمكتشفين ابان الحرب شدة الحاجة ووضوح الهدف ، واتساع الفرصة ، وضمان الجزاء . ولا يكاد يقف فى طريق العالم عقبة ، أو يحول بينه وبين النجاح حائل ، طالما كان الدافع motivation أو الحافز قويا ، وطالما كان الباعث incentive مباشراً ، والخطر محدقا ، والموت ماثلا ، والجزاء مؤكدا سريعا . هذا من ناحية

ومن الناحية الاخرى ان الحافز لاولئك الغلاظ القلوب ، الانانيين ، المستكبرين ، الذين بين طرفة عين وانتباهتها ، يصبحون من « محبى الانسانية » — هذا الحافز ما هو فى الحقيقة الا ضرب من الاعلاء sublimation ، هو تضميد لجراحهم الثاخنة ، وشفاء

لقلوبهم الكسيرة ، وتكفيره عن ماضيهم الحافل بالانانية والاثرة ، وتخفيفا لآلامهم . ومثل ذلك مثل الشاعر الذى يموت له حبيب ، فينظم أجود ما أوحت به القريحة من القريض ، ومثل المصور الذى يرسم اللوحات الرائعة ، والمثال الذى يخرج القطع الفنية الفريدة فى بابها ، اثر كارثة ، أو فجيعة ، أو حزن لا طاقة له على تحمله ، فيستحيل ضغطه الى قوة جبارة كالبخار ، يسخرها فى ناحية من نواحى الفن . وقد تتجه هذه القوة أحيانا الى ناحية هستيرية أو شبه هستيرية . فقد جاء أخيرا من لندن أن قاعة « ونجمور » فى العاصمة يتزاحم الناس عليها بالمناكب ، وقاعة ونجمور هذه ، تعقد فيها جلسات « لاستحضار » الارواح ، وقد زرناها فى سنة ١٩٣٩ مرات عديدة ، فكنا لا نرى بين الوافدين اليها سوى فئة قليلة من الناس أكثرها من العوانس والشيوخ . ومن أغرب ما سمعنا أخيرا أن عدد المشتغلين بالارواح فى انجلترا بلغ المليون ، وأن هذا العدد ينقص ويزيد تبعا لعدد الغارات وشدة القنابل وضعفها . وليس هذا من الغرابة فى شىء ، فالناس مهما سمت ثقافتهم ، كالغرقى يتعلقون بأوهى الاشياء ، عند حلول الكارثة

أمير بقطر

أسرع الادباء فى الانتاج

كان الاديب الفرنسى الكبير الكسندر دوماس أسرع الادباء فى الانتاج . ويبلغ عدد ما تركه من الآثار الادبية ٢٧٧ مجلدا . وقد مرت عليه فترة من الوقت كان ينتج فيها فى السنة الواحدة قرابة أربعين مجلدا

وكان السر فى هذه السرعة والوفرة فى الانتاج ، انه كان يستعين بعدد من الادباء والمتأدبين ، يشاركونه فى تأليف بعض قصصه ومسرحياته . وكان أهم هؤلاء المعاونين أديبا شابا اسمه أوجستس ماكيه ، وقد عاونه فى تأليف أشهر قصصه الفرسان الثلاثة ، والكونت دى مونت كريستو

وتاريخ دوماس حافل بمغامرات الحب والهوى . وكانت أكثر هذه المغامرات مع بنات المسرح الفرنسى من ممثلات وراقصات ومغنيات . وقد أقام قلعة فى احدى ضواحى باريس ، سماها قلعة مونت كارلو ، واتخذها مرسحا لغرامياته

وكان دوماس سخيا جوادا على أصدقائه وزملائه . فوضع فى ردهة قصره هذا آنية كبيرة مملوءة بالنقود الذهبية ، ليأخذ منها أصدقاؤه الفقراء والمأزومون دون أن يسألوه ، ليحفظ عليهم ماء الحياء أن يريقه ذل السؤال

وقد ربح دوماس من قصصه ومسرحياته ربحا ضخما ، ولكن الجود يفقر كما قال شاعرنا القديم ، ولهذا مات فقيرا معدما ..

برنامج مصر السياسي بعد الحرب

بقلم الأستاذ محمد رفعت بك

مراقب التعليم الثانوي بوزارة المعارف

أشارت بعض الانباء البرقية العامة منذ زمن قريب الى ما قد ينتظر مصر بعد الحرب من مكانة عالية تجعلها فى مصاف الدول العظمى ، ويحق لنا ما دمنا نرشح أنفسنا أو يرشحنا غيرنا لتتبوأ هذه المرتبة السامية أن نقف على كنه الدول العظمى والاسس التى تقوم عليها سياستنا الدولية بعد الحرب

النفوذ السياسى

ليست هناك قوانين تصدر أو قرارات تتخذ بشأن الدول التى يصح أن نطلق عليها الدول العظمى . فجميع الدول المستقلة متساوية القيمة من الوجهة القانونية . انما يكون التمييز بينها من حيث النفوذ السياسى فقط . فالدولة العظمى هى التى تستطيع أن تغلب ارادتها وتجعل لكلامها وزنا أكثر من الدول الاخرى . ولا يستدعى ذلك أن تكون الدولة أكثر ثقافة أو أوفر ثروة أو أرقى معيشة من غيرها بل المسألة كلها تنحصر فى القوة فقط ، ولكنها القوة التى ارتقت بتطبيق العلم والنظام فأصبحت تمتاز على القوة العددية أو القوة الهمجية . وهناك عامل آخر ظهرت أهميته فى السنين الاخيرة هو الرأى العام والمسئولية الادبية التى تستند اليها الدولة فى تطبيق قوتها . فكل قوة حربية مهما بلغت درجتها من المتانة والكفاية لا تستند الى قوة أدبية موازنة من جانب الرأى العام لا يكون لها الاثر الفعال فى تغليب ارادة الدولة

فطنت الدول الى ذلك فى الحرب العظمى الاولى فتألفت وزارات الدعاية ـ وكانت وزارة الدعاية فى انجلترا برياسة لورد نورثكليف من أهم العوامل التى ساعدت على كسب الحرب الاولى ـ وفطن الى ذلك موسولينى فى أثناء الازمة الاثيوبية سنة ١٩٣٥ـ١٩٣٦ فلم يحفل بقوات بريطانيا التى كانت تناوئه لانه كان يعلم تمام العلم أن من وراء القوات البريطانية فى البحر وفى الجو وفى البر ارادة الشعب الانجليزى الكامنة التى كانت تتوق الى السلام العام وتمقت الحرب فتحدى بريطانيا ومن ورائها عصبة الامم وكسب موسولينى المعركة

وقد كانت الدول العظمى بعد مؤتمر فينا خمسا : انجلترا والنمسا وبروسيا وروسيا وفرنسا . وانضمت اليها ايطاليا عقب دخولها حرب القرم الى جانب الحلفاء سنة ١٨٥٦ وفى سنة ١٨٧١ أصبحت بروسيا ألمانيا عقب انتصارها على فرنسا ، وأصبحت اليابان دولة

كبرى عقب محالفتها مع انجلترا سنة ١٩٠٢ وانتصارها على الروسيا سنة ١٩٠٥ وأصبحت الولايات المتحدة دولة عظمى بعد انتهاء الحرب الاهلية بها وانتصارها على اسبانيا سنة ١٨٩٨ فى الحرب الاسبانية الامريكية

مصر والنفوذ السياسى

ويلاحظ فى ارتقاء الدول الاخيرة الى مصاف الدول العظمى تفوق قواتها حربيا وبحريا، فهل أعدت مصر من القوة ما يجعل لارادتها وزنا تشعر به الدول فى أثناء مفاوضاتها اذا اشتركت فى هيئاتها واجتماعاتها ؟

قد يكون لنا نفوذ ثقافى واقتصادى يذكر ولكن عهد الاستقلال لم يطل بنا زمنا يكفى لتجهيز أنفسنا فى الجو والبحر والبر ، ولا مناص لنا اذا كنا حقيقة نتطلع من ثنايا تاريخنا القديم الى المكانة السامية التى تنتظرنا ، لا مناص لنا من أن نعد أنفسنا لذلك ، ولنبدأ بالقوتين البحرية والجوية ، فهما الدعامتان القويتان اللتان تستند اليهما الامة فى الحرب وفى السلم ، فى شؤون التجارة والمواصلات ، ألا أن البحر والجو هما مهد البطولة والتفوق ولا سبيل الى عظمة الامم فى المستقبل القريب أو البعيد الا عن طريقهما . لقد فطن محمد على الكبير الى أهمية القوة البحرية فى نهضة البلاد فأولاها اهتماما يساوى ان لم يفق اهتمامه بالجيش حتى أصبحت مصر فى عهده الدولة الثالثة فى البحر الابيض المتوسط ، بعد بريطانيا وفرنسا

واذا كانت ايطاليا تدعى الى وقت قريب أن البحر المتوسط بحرها ، وعليه كان الطليان يطلقون فى كتبهم ومقالاتهم وأحاديثهم « بحرنا » وكانوا يستندون فى دعواهم هذه الى أن سواحل ايطاليا من كل جهاتها يغمرها البحر وأن الرومان القدماء قد سيطروا على البحر المتوسط وأقاموا على سواحله دولة رومانية استمرت عدة قرون . فان لمصر فى البحر الابيض والبحر الاحمر تاريخا مجيدا ، قديما وحديثا ، قديما حين كانت مصر ترسل أساطيلها فى عهد الملكة حتشبسوت تمخر عباب البحر الى بلاد « بنت » وهى بلاد الصومال الحديثة ، وحديثا حين كانت مصر تسيطر بأسطولها على سواحل لبنان وجنوبى آسيا الصغرى وفلسطين وكريت وبلاد العرب والسودان وحين احتلت جنودها فى عهد الخديو اسماعيل مصوع وزيلع وبربرة ، وحين وصلت منارات مصر على ساحل البحر الاحمر والمحيط الهندى الى جنوبى مصب نهر جوبا عند خط الاستواء

فاذا ما لجت الدعوى بايطاليا فزعمت انها واقعة وسط الطريق فى البحر المتوسط وانها تسيطر من الوجهة الحربية على قسميه الشرقى والغربى ، فان لنا أن نعتبر البحر الاحمر امتدادا للبحر المتوسط وحينئذ تكون مصر لا ايطاليا هى القابضة على أوسط مكان فى البحر وواقعة فى أدق وأهم النقط الحربية الاستراتيجية منه . وليس أدل على أهمية موقعها من وجودها فى مفترق الطرق بين القارات الثلاث . وأهم من كل ذلك أنه يكفى

أن تكون مصر هى المالكة لقناة السويس التى هى الشريان الحيوى للبحرين ومصدر النشاط السياسى والتجارى فيهما لتقول بملء فيها ان البحر الابيض المتوسط لها قبل أن يكون لغيرها

ولقد أظهرت الحرب الحالية بدرجة لا تدع مجالا للشك مدى الخطر الذى استهدفت له مصر من ناحية البحر عند ما وقف الالمان عند العلمين فى يونيه سنة ١٩٤٢ فلم يكن مصدر الخطر حينذاك الهجوم البرى ولكن الخطر كل الخطر أن الالمان كانوا يعتزمون السيطرة على ساحل مصر الشمالى وقطع مواصلاتها بالخارج ثم عزل مصر ومن بها من جيوش الحلفاء ، الى أن ينطبق فكا الكماشة الالمانية من الشمال الشرقى والجنوب الغربى

من ذلك يتبين أن تاريخنا الماضى والحديث وأن موقعنا الجغرافى والحربى يحتم على مصر أن تولى وجهها فى سياستها الدولية بعد الحرب نحو البحر الابيض المتوسط وأن تستعيد فيه مكانتها ان لم تكن الاولى فلتكن فى الصف الاول بين دوله

سياسة مصر نحو قناة السويس

وأولى مسائلنا الخارجية التى تستدعى اهتمامنا بعد الحرب ، مسألة قناة السويس . وقد كانت القناة من الاهداف الكبرى التى اتجهت اليها الخطط الحربية فى الحرب العظمى الاولى والحالية . كانت القواعد الدولية التى تحكم قناة السويس مستمدة من اتفاق القسطنطينية سنة ١٨٨٨ بين الدول التى يهمها أمر القناة ، وهى بريطانيا وفرنسا وألمانيا وهولنده وايطاليا واسبانيا وروسيا وتركيا والنمسا . ومقتضى هذه المعاهدة أن تبقى القناة مفتوحة فى السلم والحرب لجميع السفن التجارية والحربية . وأن يحظر حصرها بحريا كما يحظر تحصين سواحل القناة أو القيام بأعمال حربية فيها أو على مسافة ثلاثة أميال من سواحلها ، وألا تبقى السفن الحربية التى تمر بها أكثر من أربع وعشرين ساعة .

وقد نفذت هذه الشروط بدقة فى أثناء السلم وفى أثناء الحرب ، وخاصة فى الحرب التى تنشب بين دول صغيرة أو بين دولة صغيرة واحدى الدول الكبرى . أما حين تنشب الحرب بين الدول الكبرى كما حصل فى الحرب العظمى الاولى وفى الحرب الحالية ، فان انجلترا بحكم مركزها فى مصر وتفوقها فى البحر ، كانت تسيطر على القناة وتتحكم فى حركة الملاحة بها . ففى الحرب الامريكية الاسبانية سنة ١٨٩٨ مرت السفن الاسبانية داخل القناة للدفاع عن جزر الفلبين ، وفى سنة ١٩٠٥ مر الاسطول الروسى لمحاربة اليابان

ولما قامت الحرب الايطالية الاثيوبية مرت السفن الايطالية الحربية والتجارية دون أى اعتراض . غير أن الجو كان مشبعا حينذاك بامكان اغلاقه فى وجه ايطاليا ، ولو أعلنت مصر أو العصبة اغلاق القناة فى وجه السفن الايطالية التى كانت تحمل الجند والمؤن والطيارات ، لفسدت خطط ايطاليا ، وباءت بالفشل الذريع

لذلك اشتد قلق ايطاليا بعد استيلائها على الحبشة ، وزاد خوفها وسخطها عند ما تمت معاهدة المحالفة والصداقة بين مصر وبريطانيا فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، فقد نص فى هذه المعاهدة على أن لانجلترا أن تساعد مصر فى حماية القناة ، وصرح لها مؤقتا بوجود حامية عددها ١٠٫٠٠٠ جندى و٤٠٠ طيار بمنطقة القناة لهذا الغرض . وبما أن معاهدة سنة ١٨٨٨ تقضى بأن لا يكون لاحدى الدول امتياز خاص بها لا يتمتع به غيرها ، فقد عدت ايطاليا معاهدة١٩٣٦ فيما يخص القناة خرقا للاتفاق الدولى الذى وافقت عليه بريطانيا

هذا سبب تبرم ايطاليا التى أخذت تطالب قبيل الحرب الحاضرة بضرورة اعادة النظر فى شأن القناة ، حتى يصبح أمر الدفاع عنها حقا دوليا تشترك فيه ايطاليا ، كما يشترك مندوبوها فى مجلس ادارتها . ولكن فات ايطاليا ومن على رأيها من الدول ، أن القناة ممر صناعى لا طبيعى كجبل طارق أو الدردنيل ، محفور فى أرض مصر بأمر من حكومة مصر ، وهو ملك لمصر بغض النظر عن الشركة التى تديره ، وهذه الشركة نفسها سينتهى عقد امتيازها فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٨ ، وحينئذ تصبح الشركة مصرية ، وما على مصر الا أن تتفق مع الشركة على ثمن ما يتخلف من الآلات والمؤسسات . وأن هناك قنوات صناعية فى العالم غير قناة السويس وهى مملوكة لاصحابها ، ولم يقل أحد بضرورة جعلها دولية ، فهناك قناة « بناما » بين المحيط الاطلسى والباسفيكى فى يد الولايات المتحدة باتفاق بينها وبين بناما ، وقناة « كيل » بين بحر البلطيق وبحر الشمال تابعة لالمانيا ، يضاف الى ذلك أن مصر دولة مستقلة لها مطلق الحرية فى اختيار حلفائها والتعاقد معهم على ما ترى فيه مصلحتها

وعلى ذلك يجب أن تقوم سياستنا نحو القناة على الأسس الآتية :

أولا — التمسك بحرية الملاحة فى القناة ، وبالحيدة التامة فى الحرب وفى السلم

ثانيا — أن تكون مصر وحدها المسئولة فى النهاية عن الدفاع عن القناة

ثالثا — أن نهيء أنفسنا من الآن للاضطلاع بشؤون القناة ، فنعمل على تكوين أسطولنا التجارى والحربى . ونشترط على الشركة أن يحل المصريون بدل أعضاء مجلس ادارة الشركة الذين تخلو أماكنهم بالوفاة أو بالتقاعد ، وأن يعين المصريون فى الوظائف الادارية والفنية الكبرى التى تخلو بالشركة،حتى يستطيع المصريون ان يضطلعوا بالاعمال تدريجا الى أن ينفردوا بالعمل ، وبذلك تكون النواة التى تنشأ حولها مصلحة خاصة بالقناة على نظام مصلحة السكة الحديدية . وهذا نظام يشبه ما اتفقت عليه مصر مع الدول بشأن الغاء المحاكم المختلطة بمقتضى معاهدة منترو سنة ١٩٣٧

رابعا — يجب أن نحذر الوقوع فى فخ الدولية فلا نستمع الى ما يقوله البعض من أن منافذ البحار يجب أن تكون منفعة دولية عامة ، تحرسها هيئة دولية ، فانه اذا كان هذا المبدأ مفهوما فيما يخص المنافذ الطبيعية مثل جبل طارق وباب المندب والدردنيل ، فمن

غير المعقول أن يطلب الى دولة أن تنزل عن شبر من أرضها ومائها دون رضائها ، وحتى فى المنافذ الطبيعية نشاهد الآن أن تركيا لم تستطع صبرا قبيل الحرب الحالية على التمسك بحيدة بوغازاتها ، فأخذت تحصنها وتسلحها وتتحكم فيها

سياسة مصر فى أفريقيا

تأتى بعد ذلك شؤوننا فى أفريقية ويجب أن ندرك من الآن أن الحرب الحالية قد جعلت من أفريقية ميدانا هاما للتنافس الحربى والسياسى بين الدول . وسيكون لها بعد الحرب شأن ممتاز فى الميزان الدولى . وأرى أن تقوم سياستنا فيها على الأسس الآتية :

أولا — كانت الصحراء الكبرى الغربية تعتبر من الحدود التى لا تقهر والتى لايستطيع العدو اختراقها ، ولكن اختراع السيارات والطائرات فى أواخر القرن التاسع عشر قد أخضع الصحراء لجبروت العلم والآلات ولم تعد لها حصانتها الحربية الماضية . وحين كانت العلاقات بين بريطانيا وايطاليا ودية لم تكن مصر ولا بريطانيا لتهتم احداهما بحدودنا الغربية . لذلك اتفقت مصر وايطاليا فى سنة ١٩٢٥ بوساطة بريطانيا على تعديل هذه الحدود بيننا وبين ليبيا وجعل خط طول ٢٥ شرقى جرينتش حدا فاصلا وبذلك دخلت واحة جغبوب فى حدود ليبيا

وقد أظهرت الحرب الحالية كيف استطاع العدو أن يتخذ من هذه الواحة قاعدة حربية يحشد فيها قواته ويثب منها على حدودنا . فعلينا أن نعيد النظر فى حدودنا الصحراوية على ضوء التطورات الحديثة لحرب الصحراء وألا نهمل حدودنا الغربية وجيراننا من الغرب كما أهملناهم فى الماضى

ثانيا — لما انقطعت الصلة بين مصر وممتلكاتها فى أفريقية عقب ترك السودان سنة ١٨٨٥ نشأت نظرية خاطئة كانت تقول بأن السودان وقد تخلت عنه مصر صار نهبا لمن سبق ، وفات أنصار هذه النظرية أن مصر بتركها ممتلكاتها مؤقتا لم تتخل عن أى حق فيها ، وأن هذه الحقوق قد كسبتها اما بحق الفتح واما عن طريق الوراثة من تركيا وقد نص فرمان سنة ١٨٧٣ على أن يحكم الخديو جميع ملحقات مصر فى افريقية بحق الوراثة فى ذريته للاكبر فالاكبر من أبنائه ، فاذا كانت بعض الدول قد انتهزت هذه الفرصة وأشبعت اطماعها بضم أجزاء من أملاكنا الى مستعمراتها فان من الحتم علينا ان نعمل من الآن على استرداد حقوقنا من أول هيئة دولية تنعقد بعد الحرب

ومن عجب أن نذكر أن بريطانيا قد ساعدت فى الماضى بعض أعدائها اليوم على التهام جزء من أراضينا وفى مقدمة هذه الدول ايطاليا التى أخذت مصوع سنة ١٨٨٥ وكونت منها مستعمرة « ارتريه »

ثالثا — ان حقنا فى ماء النيل مسألة طبيعية حيوية تتوقف عليها حياتنا وثروة بلادنا . واذا كنا قد اتفقنا مع حليفتنا انجلترا على سياسة مائية معينة تتبع فى السودان ، ونضمن بها

نصيبنا من الماء بعد انتهاء خزان جبل الاولياء فلا يزال أمامنا الاتفاق مع اثيوبيا بشأن بحيرة تسانا ، ويتعين علينا أن ننتهز أول فرصة دولية لتسجيل حقنا كاملا فى مياه النيل وروافده

الوحدة العربية

وأخيرا أمامنا موضوع « الوحدة العربية »

وقد كان الطريق الى تأليف هذه الوحدة ممهدا ذلولا منذ الحرب العالمية الاولى ولكن السياسة الاوربية التى تلت الحرب قد خيبت الآمال التى عقدها العرب على بريطانيا فبدلا من الوحدة نبتت دويلات متجزئة متفرقة ومشاكل معقدة أنتجت عدة ثورات كادت تودى بمركز بريطانيا فى شرق البحر الابيض المتوسط

ومسألة الوحدة العربية مسألة عاطفية قومية قبل أن تكون مسألة سياسية . والمعروف عن الخلق البريطانى انه خلق عملى يتخبط ويتعثر اذا واجهته حركة عاطفية وطنية . فلا عجب اذا رأينا الانجليز يخطئون فى سياستهم نحو العرب قديما أخطأوا فى أمريكا وفى الهند وفى ايرلنده وفى مصر وكما انتهى الامر فى تلك البلاد بأن فهمت انجلترا حقيقة الموقف واذعنت له كذلك يظهر ان الامر سينتهى ببريطانيا وحلفائها أخيرا فتعترف بحق الشعوب التى تتكلم اللغة العربية سواء فى شرق البحر الابيض المتوسط أم فى جنوبه

وأهم ما أفادته انجلترا وفرنسا من المسألة العربية حصولهما على البترول من العراق وتوصيل الانابيب من الموصل الى حيفا فى فلسطين لتغذية السفن البريطانية ، والى طرابلس لتغذية السفن الفرنسية وكانت فرنسا تستورد من هذا البترول ٤٠ ٪ . من مجموع ما تحتاجه منه ، وها هى الولايات المتحدة بأمريكا تحاول تدعيم نفوذها السياسى بتوصيل أنابيب البترول من الخليج الفارسى الى البحر الابيض المتوسط

وقد استقل الملك عبد العزيز بن سعود فى بلاد العرب واستقر له الامر فى المملكة السعودية بانتصاره على قوات الملك حسين ، واعلان نفسه ملكا على الحجاز سنة ١٩٢٩ . وانتهت وصاية انجلترا على العراق بعقد معاهدة بينهما سنة ١٩٣٢ ، وعقدت مصر المستقلة مع بريطانيا معاهدتها سنة ١٩٣٦ ، واضطرت فرنسا الى قبول استقلال سوريا ولبنان أخيرا . ولم يبق الا فلسطين وفيها تواجه انجلترا مشكلة من أعقد المشكلات فانه كما يهم انجلترا ارضاء العالم الاسلامى بانصاف العرب فى فلسطين كذلك يهمها الى جانب ذلك ألا تغضب ملوك المال من اليهود فى أوربا وفى أمريكا

ولا ننسى الشعوب التى تسكن جنوبى البحر الابيض المتوسط وتخضع لسلطان الدول الاوربية مثل مراكش والجزائر وتونس وليبيا فهى شعوب تختلف عن سكان المستعمرات الاوربية الاخرى فى افريقية ، شعوب راقية لها قوانين وأديان الهية ولغة وأدبيات وكان لها فى الماضى تاريخ مجيد ومدنية اقتبست منها المدنية الحديثة نورا وعرفانا ،

ولها آثار تعتز بها وتحفزها الى العمل على استرداد مجدها الغابر . لذلك كان عمل الحاكم الاجنبى فى اخضاع هذه الشعوب عملا محفوفا بأشد الاخطار فمن اضطرابات الى قلاقل وثورات وحروب تقهر فيها الشعوب المحكومة آنا ، فتسكن فترة من الزمن تستجم فى أثنائها لتقوم ثانية تستأنف جهادها فى سبيل الاستقلال

وجميع هذه الشعوب قد تأثرت بالروح الوطنية التى سادت الشعوب العربية والاسلامية بعد الحرب العظمى الاولى ، فهم أيضا يتوقون الى الاستقلال واقتفاء أثر المصريين وتتبع خطواتهم فى نهضتهم

هذه خلاصة وجيزة لموقف الشعوب التى تتكلم العربية ، فعلى أى أسس تقوم الرابطة بيننا وبينهم بعد الحرب ؟

هناك روابط من أنواع مختلفة الاولى رابطة الوحدة أو الاتحاد التام ومعناه ارتباط الشعوب تحت تاج واحد وتكوين شخصية دولية واحـدة مثل انجلترا واسكتلندا ، والحجاز ونجد ، فى الوقت الحاضر ، والنمسا والمجر ، والسويد والنرويج فى الوقت الماضى

وهناك رابطة الاتحاد التمثيلى أى الاتحاد الذى يجمع أمارات أو ممالك عدة ترسل مندوبيها أو ممثليها فى « دياط » أو مجمع واحد يمثل الجميع ويضع قراراته لينفذها جميع الاعضاء . ويلاحظ انه فى مثل هذا الاتحاد لا يسرى سلطان المجمع على الشعوب أو الاهالى وانما تكون قراراته ملزمة للامراء أو الملوك

وقد كانت أمارات المانيا ينتظمها اتحاد تمثيلى قبل توحيدها بزعامة بروسيا سنة ١٨٧١ . وكذلك كانت أمارات الرين فى عهد نابليون ، وكانت كذلك الولايات المتحـدة قبل دستورها الحالى ، وقد فشلت هذه الاتحادات فشلا تاما ويعرف هذا النظام بالنظام الكنفدرائى Confederation

وهناك رابطة الولايات المتحدة أو النظام الفدرالى federal وبه ترتبط الولايات أو الاقسام معا فتشترك فى حكومة مركزية أو سلطة تنفيذية واحدة لها قوة دفاع واحدة وسياسة خارجية وتجارية واحدة ويترك لكل ولاية قسط وفير من الاستقلال تتمتع به فى شؤونها المحلية

ومن رأيى أن جميع هذه الروابط لا تصلح للوحدة العربية . فهم لا يرضيهم أن يجتمعوا تحت تاج واحد ، أو أن تكون لهم حكومة تنفيذية واحدة تتكلم باسمهم لدى الدول . ونظام الاتحاد التمثيلى قد دل التاريخ على سخفه وقلة صلاحه ما دامت الهيئة التى تمثل الاتحاد لا تملك قوة تنفيذية يخضع لها أعضاء الاتحاد . أما النظام الفدرائى أو نظام الولايات المتحدة فهو أصلح هذه النظم وأوفقها من الوجهة العملية . ولكنه نظام لا يوافق الروح الوطنية الفتية التى تميز الشعوب الحديثة العهد باستقلالها لا سيما اذا كانت هذه الشعوب تختلف فى مستواها المدنى والاقتصادى

اذن فكيف السبيل الى الوحدة ؟ انى أرى الوحدة قائمة لا ريب فيها فى الشؤون الثقافية ،

وأعتقد أن الوحدة الاقتصادية يمكن تعزيزها وتحقيقها على مدى الايام . أما فى السياسة فالسبيل الى الوحـدة يأتى عن طريق الميثـاق العربى Arab Covenant الذى يجمع بين الشعوب العربية والقريبة منها مثل اثيوبيا وذلك على نسق ميثاق عصبة الامم ، ولضمان تنفيذ شروط الميثاق واستمرار العمل به ، تؤلف لجنة دائمة تتولى مراقبته وادارته وتتعهد أعضاءه بالارشاد والتوجيه

الخلط بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية

وختاما أرى لزاما أن أنبـه الى الخطر الذى يتهددنا من جراء الخلط بين السياسة الداخلية والمسائل الخارجية . لقـد جر علينا هـذا الخلط فى الماضى متاعب وعثرات ونكوصا على الاعقاب وأدى ذلك كله الى ارجاء دستورنا وتأخير استقلالنا زمنا طويلا . لقد كانت مسألة استقلالنا بعد الحرب الكبرى الاولى مسألة دولية بيننا وبين بريطانيا أولا ثم بيننا وبين دول الامتيازات ثانيا . فلم تمض سنة أو سنتان على ثورتنا سنة ١٩١٩ حتى تحول الموضوع الى مسألة داخلية . وتفصيل ذلك أنهم أرادوا أن نبرهن على أننا خليقون بحكم أنفسنا فوضع الدستور وجـاء البرلمان واقتضى منطق الحوادث اجراء الانتخابات وتكوين الاحزاب وتولى الحكم ، وبذلك انقسمنا شيعا وأحزابا وسرت فى البلاد روح العداء والقطيعة بين الافراد والاسرات ورجال الحكم ونتج عن ذلك كله أننا شغلنا عن هدفنا الاول وهو الوصول الى الاستقلال الحقيقى وبقينا سبعة عشر عاما نتجاذب أطراف الحكم ونتراشق بالتهم حتى انبلجت أمامنا الحقيقة سافرة فى النهاية فحزمنا أمرنا وظفرنا باستقلالنا الحقيقى سنة ١٩٣٦

وأخشى ما أخشاه بعد الحرب أن تحول مسائلنا الخارجية الى مسائل داخلية أخرى يكون محورها هذه المرة « هل نحن قادرون على الدفاع عن أنفسنا » بدلا من « هل نحن قادرون على حكم أنفسنا » وقد ينبنى على هذا الاختبار ظهور خلافات جديدة تنشب بين أسلحة الدفاع المختلفة والسلطات السياسية فتشغل بها وتبقى مسائلنا الدولية الحيوية معلقة ردحا من الزمن . فعلى قادة الرأى فى هذه البلاد أن يأخذوا حذرهم وأن يكونوا مؤمنين بحق الوطن فلا يلدغوا من جحر مرتين وأن يعملوا متفقين على برنامج دفاعى دولى واحد يرتبط به الجميع ويعملوا يدا واحدة على تحقيقه ، سواء أكانوا داخل الحكم أم خارجه ، ولهم بعد ذلك أن يختلفوا ويتساجلوا ويتناقشوا ما شاءوا فى مسائل السياسة الداخلية والاقتصادية والاجتماعية ، ولكن مبدؤنا بعد الحرب كما كان مبدؤنا قبل الاستقلال وبعده « مصريون قبل كل شىء »

محمد رفعت

طبيعة الحسد

بقلم الأستاذ على أدهم

الحسد داء كامن فى كل قلب ، متغلغل فى كل نفس ، يكاد يشل الجهود ، ويعطل المواهب ، ويشوه فى الحياة كل جمال ، ويسمم ينابيع المتع والمسرات ، ويملأ نفوس الناس مرارة وألما ، ويبعدهم عن الشعور بالسعادة والغبطة والرضى والقناعة ، وهو يلوح لنا فى كل لحظة من لحظات حياتنا وبكل خطوة من خطوات سيرنا بمرآة صقيلة لا نبصر فيها سوى أثرتنا النهمة السائغة الطامعة فى كل شىء ، والتى لا تريد أن تسمع خبرا عن غيرها أو ترى صورة غير صورة ذاتها، وكثير من متاعب الحياة وآلامها وهمومها مصدرها الحسد، وهو من الخطايا السبع التى حاولت الاديان مقاومتها والتغلب عليها ، وقد جعلت المسيحية حب الانسان لجاره أسمى الاوامر وأساس الفضائل ، وحاولت أكثر المذاهب الاخلاقية مقاومة الحسد عن طريق التزهيد فى الدنيا ، والاغراء بالقناعة ، لا لانها تحض الانسان على التقاعد وتزين له الخمول وانما لانها تحاول القضاء على هذا الداء الوبيل ، داء الحسد، واستنقاذ الانسانية من أوهاقه الموهنة ، وآلامه المضنية

ومما يثير الاسف أننا لا نعرف أنفسنا سوى معرفة يسيرة ، وكل منا يخال نفسه — فى أغلب الاوقات واكثر الحالات — مثلا أعلى للفضيلة ونموذجا منقطع النظير للكمال المطلق ، ولكن عيوننا القاحصة النافذة لا ترى فى الغير سوى العيوب والنقائص والاخطاء ومواطن الضعف ، ونحن لا نستطيع مواجهة عيوبنا ، وعلاج ما فى نفوسنا من سقم والتواء الا اذا أدركنا هذه الحقيقة المرة الخطيرة ، وهى أن أكثر الناس يتشابهون فى العيوب والعلل النفسية ، وفى كل نفس تلتقى دوافع الخير ودوافع الشر . وادراك هذه الحقيقة هو بدء المعرفة الشاملة والفهم العميق الذى يميز تفكير الرجل الحكيم المجرب من تفكير المغرورين بأنفسهم المفتونين بفضائلهم الموهومة . واذا استطاع الانسان الوصول الى هذه المرتبة ، أمكنه أن يلقى نظرة حزينة على هذا الدور الضخم الذى يلعبه الحسد فى حياة الفرد النفسية وفى حياة الانسانية جميعا

الأثرة من طبيعة الحسد

والأثرة من طبيعة الانسان ، وكل منا يود ان يملك كل شىء وأن يكون قطب الوجود وأن يجىء كل شىء حسب هواه ، وينزل على أمره ، وكل ما يملكه الغير يثير الحسد ، ويحرك الطمع ، وهذا من المشاهد فى الحياة اليومية ، ولو أنك قسمت قطعة من الحلوى

الى قسمين متساويين ، وأعطيت كل قسم لشخص ما ، لاخذ كل من الشخصين اللذين وزعت عليهما الحلوى يعتقد أن نصيب الآخر أكبر من نصيبه ، ولا منجاة لهما من هذا الخداع الذى يفرضه عليهما الحسد ، ونحن لا ندرك الا متأخرين هذه الحقيقة الهامة ، وهى حقيقة أن مجرد امتلاكنا للشىء يزهدنا فيه ، ويحقره فى نظرنا ، ويجعلنا نطمح بعيوننا الى نيل غيره من الاشياء ، ونلمح ذلك فى حياة المحبين الذين يتحرقون شوقا الى رؤية من يحبونها وتظل صورتها فى نفوسهم ماثلة فى بهاء ساطع وروعة أخاذة لا ينال منها الزمن ولا تغيرها الحوادث ، ولكن متى أصبحت فى حوزتهم وملكتها يمينهم ، تأخذ المحاسن فى التناقص ، وتبطل أسباب الفتنة ، ولا يبقى من الصورة الخيالية السابقة سوى آثار وبقايا ، وهذا من أشد ما يثير الالم ، ويوقد اللوعة ، ونحن لا نقدر امتلاكنا للشىء الا اذا كان موضع الحسد ، ويروقنا أن نحسد ، وكان الواجب علينا أن نعرف مرارة الحسد وقسوته ، وما يثيره فى النفس من نيران ، ولكننا لا نحب أن نواجه هذه الحقيقة ونعرض عنها

ولا يزول الحسد الا اذا استهدف الانسان لنكبة من النكبات المروعة ، وبرغم ذلك ربما أثارت النكبة نفسها لونا من الحسد،كما حدث للوزير البائس الذى رثاه الشاعر أبوالحسن الانبارى بقصيدته التى مطلعها :

علو فى الحياة وفى الممات   لحق تلك احدى المعجزات

فود بعض الامراء أن يكون هو المرثى بهذه القصيدة !

على أن الحسد قد يستحيل اشفاقا ومرثية ، ولكن هذا الضرب من الاشفاق ليس صادقا وانما هو نوع من الاستمتاع بآلام الغير ، والارتياح لان أسباب الحسد قد انتفت وبطلت ، وبعض تعبيراتنا فى هذا المقام تنم على هذا الشعور مثل قولنا « أصبح فلان فى حالة لا يغبط عليها » ، ومعظم عطف الناس فى النكبات التى تلم بالانسان مصدره أنهم يشعرون بأنه أصبح غير أهل للحسد ، وهذا الشعور يريحهم ويهدىء نيرانهم

ومن الناس من تخدعهم المظاهر ، فيظنون أن اسعاف الحظ واقباله يدنى الاصدقاء ويقرب الخصوم والاعداء ، ولكن الحقيقة أن أكثر أصدقاء الانسان والدنيا عليه مقبلة انما هم أعداء فى ثياب أصدقاء ، ومتى لاحت لهم الفرصة أصبحوا أعداء حقيقيين وكشفوا عن وجوههم ، وكلما عظم الانسان وسمت مكانته ، ازدادت عزلته وكثر حساده ، وانفض من حوله أصدقاؤه لاتفه الاعذار ، وقد تجرع أكثر العظماء مرارة هذه التجربة ، وكشفت لهم عن جوانب من النفس الانسانية غاية فى البشاعة والنكر ، وقد لقى المتنبى فى حياته العاصفة الامرين من الحسد والحساد ، وقد عبر عن يأسه من علاج الحسد فى قوله :

سوى وجع الحساد داو فانه   اذا حل فى قلب فليس يحول
ولاتطمعن من حاسد فى مودة   وان كنت تبديها له وتنيل

وكلما عظم نصيب انسان من السعادة والنجاح وشق طريقه فى الحياة ، انفض من حوله الاصدقاء ، لانهم لا يحتملون رؤية سعادته ومظاهر توفيقه ، والتمسوا لذلك مختلف الاسباب وتجنوا عليه ، واتهموه بأنه لا يحسن لقاءهم ولا يرد تحيتهم ، وأنه أصبح متكبرا ، وانه أصبح يتنكر لهم ، ويميل الى غيرهم من الاصدقاء الجدد ، والواقع أنهم لم يكونوا له أصدقاء ليستمتعوا بسعادته ويشاركوه فى سروره ، وهو لم يمنحهم الفرصة ليظهروا انهم أصدقاء عند الشدة

لكى نبطل الحسد

وهناك خطأ كبير كثيرا ما يؤثر فى تربية أبنائنا وتنشئتهم ، فنحن نلوم الطفل ونوبخه ونشتد فى تعنيفه لانه شقى وغير مطيع ، فى حين أن الطفل الآخر الذى نعرفه مؤدب وهادىء ومبعث سرور لوالديه ، ونحن بهذا السلوك توجه التفات الطفل الى الخارج ، فى حين أن التوجيه الصحيح كان يجب أن يتجه الى الداخل ، ويفضى ذلك بالطفل الى المبالغة فى تقدير قوة الغير والحرص على مقايسة نفسه بهم ، والبحث عندهم عما ينقصه من المواهب والصفات ، وعجزنا عن نيل السعادة من شأنه أن يجعلنا نعتقد أن جارنا سعيد، ومعرفتنا بعجزنا توحى الينا أن جارنا قوى وأنه يملك كل ما ينقصنا ، وهكذا بدلا من أن نلتمس القوة فى نفوسنا نبحث عنها فى الخارج ، ونفقد القناعة بالنفس والاكتفاء بها ، والتماس السرور والمتعة فى حياتنا الداخلية . ونعجز عن الاستفادة من مواهبنا لاعتقادنا أن ما نملكه زهيد القيمة ، ونفقد احترامنا لانفسنا لاننا نغالى بقيمة الغير ونحط من قيمة أنفسنا

ولكى نبطل الحسد ، يلزم أن نستشعر السرور فيما نملكه ، وقد سئل مرة الكاتب الامريكى العظيم امرسن : « لماذا لا تسافر لترى الدنا وجمالها ؟ » ، فأجاب : « لماذا أبحث عن الجمال فى البلاد الاجنبية على حين أنى لم أسوف بعد الاستمتاع بصنوف الجمال الموفورة فى حديقة منزلى ، وفى مثل هذا الثرى الخصب ، والنفس الوادعة المطمئنة تنمو أنبل الصفات الانسانية ، وهى حب الانسان لجاره . والحب الحقيقى لا يعرف الحسد ، وان لم يسره ما يملك الغير ، فهو على الاقل لا يثير حسده ولا يؤلم نفسه

والعالم فى العصر الحاضر خال من أسباب الحب والعطف ، حافل بدواعى النقمة والكراهة والحسد ، والحسد من أقوى بواعث الشقاء ، فهو من أسباب التبرم بالحياة السائد ، وعلينا أن ننشىء أولادنا على الحب الذى يسمو بشخصيتهم ، ويفجر فى نفوسهم ينابيع العطف الذى يوسع آفاق نفوسهم ، وحيث تتسلل أشعة الحب وتجيش النفوس بالعطف يختفى الحسد ، ولا مفر لمن يتعهد الاطفال من أن يراعى العدالة المطلقة ، ويلتزم فى معاملتهم النزاهة التامة لان أقل انحراف عن سنن العدل يحز فى نفوسهم ويثير طلعتهم، وهم لا يستطيعون اخفاء ذلك لصراحتهم وبساطة نفوسهم

والحسد هو باعث الحركة الدمقراطية الاقوى ، وهو الذى أثار الحركة الدمقراطية عند اليونان ، وهو الذى بعثها فى العصور الحديثة ، وفى اعتقادى ان النظرية الدمقراطية هى خير نظريات الحكم واكثرها ملاءمة لطبيعة الانسان ، ولكن المذاهب السامية لا تتحرك تحركا ذاتيا ، ولا بد أن تحركها الاهواء البشرية والمصالح الانسانية ، وفى الحركات العظيمة تكون النظريات والافكار فى الواقع ستارا لما يختفى وراءها من الاهواء والميول والشهوات ، وقد كان أكبر محرك وراء الحركة الدمقراطية هو الحسد

وقد زادت الحسد قوة نظرية المساواة والمبادىء الاشتراكية ، وهى حالة لا يحمد عليها العصر الحاضر ، ولكنها شر لا بد من احتماله ، حتى تصل حالة الانسان الاجتماعية والسياسية الى مستوى أرفع ونظم أقوم ، وعدم المساواة ان لم تقم على التفوق فى بعض المزايا ، ستكون ظلما وتفضيلا يثير الحسد ويبعث النقمة ، ولا علاج لازالة الحسد سوى ازالة هذا اللون من ألوان الظلم والغبن ، والحسد فى هذا العصر يلعب دورا هاما ، فالفقير يحسد الغنى ، والامم الفقيرة المحدودة الاملاك تتطلع الى الامم الغنية الواسعة الرقعة ، والنساء يحسدن الرجال لما لهم من نفوذ وسيطرة . والحسد فى العصر الحاضر هو أقوى باعث وراء التماس العدالة فى المسائل الفردية والاحوال الاجتماعية والمشكلات الدولية ولكن العدالة التى تجىء من وراء الحسد هى العدالة التى تقلل من سعادة الغير ، والميول الشريرة فى الحياة الخاصة سيئة الاثر فى الحياة العامة ، والشىء الصالح قل أن ينبعث من الشىء البغيض المنفر . ومن سوء حظ الانسانية أن يكون باعثها على طلب العدالة والمساواة هذا الباعث الوضيع وهو الحسد ، ولو أمكن تهذيب الانسان بحيث تسمو بواعثه على التماس العدالة ، لكان ذلك خيرا للانسانية وأجدى على مستقبلها

والحضارة الحالية ينقصها ادخال السرور على نفس الانسان واشعاره السعادة والمتعة ، ومقاومة الحسد تقتضى علاج هذه الحالة ، وان لم يستدرك ذلك ستظل الحضارة تعانى ويلات الكراهة والبغضاء والحقد والحسد ، وسيكون الانسان حاقدا حسودا لانه غير قانع ، ولانه يشعر بأن أشياء كثيرة تنقصه ، وأن الحائل بينه وبين الظفر بهذه الاشياء هم اخوانه أو أعداؤه البشر ، فهو يصب عليهم حقده ، ويخصهم بحسده ونقمته . ومرحلة التطور الحالية هى آخر مرحلة انتهت اليها الانسانية ، وهى الآن تعمل على الخروج من مضايقها وتعالج مشكلاتها ليتيسر لها الانتقال الى مرحلة أخرى ، نرجو أن تكون خيرا من المرحلة الراهنة . فالحسد فى الحياة الحديثة هو صدى ما بها من اضطراب ونقص وظلم فادح وغبن شديد . وطريق الخلاص هو أن نعمل على توسيع قلوبنا والسمو بعقولنا ، وأن نتعلم كيف نفوق أنفسنا ونكبح غرائزنا الدنية حتى نصل الى الحرية وصدع قيود الاثرة الضيقة ، ونعيش فى عالم تشرق فيه شمس الحب جلواء الطلعة ، لا تحجبها غيوم الحسد المتكاثفة وسحبه المتراكبة

على أدهم

المرأة فى الفن المصرى القديم

بقلم الأستاذ محرم كمال

المدير الادارى للمتحف المصرى

كان للمرأة نصيب كبير فى الفن المصرى القديم ، فان ما وصل الينا من تماثيل لها وصور تمثلها قد بلغ الكثير منها درجة تستحق الاعجاب والتقدير . ونحن اذا بدأنا بدراسة طائفة من التماثيل ، فان أول تمثال يستثير اعجابنا الشديد فى الدولة القديمة كتحفة من تحف الفن الغالية هو تمثال الاميرة نفرت

تمثال نفرت

فهذا التمثال الذى وجده « ماريت » فى ميدوم عام ١٨٧٢ ، يرجع تاريخه الى أوائل الاسرة الرابعة ، وهو يمثل لنا رقى فن النحت فى عصر منفيس

كانت نفرت أميرة يجرى فى عروقها الدم الملكى ، ومن هنا نجد فى تمثالها مظاهر العظمة والمهابة التى وفق المثال الى اظهارها بمهارة فى تمثاله . والتمثال يمثل نفرت (ومعنى اسمها « الجميلة ») جالسة بطلعتها المهيبة وقوامها الجميل ، وهى ترتدى ثوبا محبوكا يلتصق بجسدها البض ، وينفتح من الامام عند الصدر . وتحت هذا الثوب الرقيق نرى الكتفين والنهدين يبرزان بل نرى الجسم كله فى بضاضته وقد مثل بأقصى أناقة ورشاقة . وفى الواقع فانه من الصعب أن نجد تمثالا آخر فى مصر قد بلغ فن النحت فيه ذروته ، من حيث دقة تمثيل العنق والنهدين وبضاضة الجسم وهى تتجلى جميعا من خلال هذا الثوب الرقيق الذى ترتديه نفرت . أما الوجه المستدير فيحف به شعر مستعار كثيف مقصوص يحيط به فوق الرأس شريط زخرف بزهيرات جميلة . وعلى الجبهة يرى الشعر الطبيعى وقد صفف بعناية فائقة فزادها جمالا ورشاقة . أما الرقبة فقد حليت بقلادة عريضة انحدرت فوق الصدر

ويكاد يكون الثوب الذى ترتديه نموذجا بديعا لثياب السهرة عند سيداتنا الحديثات ، فهو مفتوح من الامام عند الصدر ، ومثبت فوق الكتفين بشريطين أنيقين من النسيج نفسه ، وهو فى مجموعه مهلهل ضيق يكسو الجسم من الثديين الى القدمين ، ويبرز محاسن الجسم ومفاتنه فى ابداع جميل وتناسق خلاب

أما العينان ففيهما من السحر شىء كثير ، فلقد اكسبتا بريق الحياة بما رصعتا به من أحجار أفاضت عليهما أكبر قسط من صدق التعبير . ونحن لا نعدو الحقيقة حين نقرر أن كل

هذه المميزات مجتمعة جعلت هذا التمثال أكثر التماثيل المصرية اظهارا للحياة ، خاصة اذا لاحظنا أن ألوانه قد احتفظت بزهائها ونضارتها بدرجة مدهشة

فلا شك فى أن الفنان قد بذل مجهودا عظيما فى تصوير هذه الاميرة الجميلة (نفرت) واعطائها الملامح الحقيقية ، مع جمال التصوير والنحت ، وروعة الالوان التى استعملها فى تغطية الحجر الجيرى الذى صنع منه التمثال

رأس الملكة نفرتيتى

أما هذا الرأس الجميل الذى يعتبره الكثيرون أبدع قطعة فنية خلفها لنا فن النحت فى العالم القديم كله ، فقد وجده العالم الالمانى (بورشارد) فى مصنع المثال (تحتمس) بتل العمارنة عام ١٩١٢ ، ونقله الى متحف برلين حيث هو محفوظ الآن . وهو مصنوع من الحجر الجيرى الملون

كانت الملكة نفرتيتى زوجة الملك اخناتون (أحد ملوك الاسرة الثامنة عشرة) جميلة حقا ، ويظهر أن جمالها قد أثار فى نفس تحتمس ــ أحد فنانى تل العمارنة ــ عواطف مختلفة من الحب والتقدير ، دعته لان يعلن هذا الاعجاب فى قطعة فنية جاءت بالغة الروعة والابداع . فهذا الرأس لم يصنع لغرض دينى كسائر التماثيل المصرية ، وانما صنعه فنان أوتى قلبا خفاقا وذوقا سليما ومهارة فائقة ، اما ليحلى به مصنعه الذى يشتغل فيه لكى يكون دليلا على قدرته وشهادة بفنه ، واما أن يكون قد صنعه ليزين به أحد أبهاء القصر الملكى .

وهذا الفارق على جانب عظيم من الاهمية، اذا علمنا أن جميع التماثيل المصرية كانت تصنع لغرض دينى ، وأن هذه أول قطعة فنية صنعت من أجل الفن لا الدين . ونحن نستدل على نظريتنا هذه بأن القطعة كاملة فى نفسها ، وأنها لم تكن يوما من الايام متصلة بتمثال فليس هناك أى أثر لهذا الاتصال ، بل على العكس ، فان جميع الدلائل تدل على أنها قطعة نصفية (بست Buste) يقف مثالو العصر الحديث أمامها حائرين

وهذا الرأس يصلح لان يكون موضوع دراسة فنية ممتعة ، وهو فى الوقت نفسه دليل على ما بلغه فن تل العمارنة من تقدم فى عصر اخناتون ، ويعطى فكرة رائعة لزائرى المتاحف عن الفن المصرى القديم على وجه العموم . وقد بذلت الحكومة المصرية جهودا كبيرة لاسترداد هذا الرأس واعادته الى مصر ، ولكن جماله ودقة صنعه كانت تدعو الحكومة الالمانية الى الاستمساك به

فن النقش والتصوير

فاذا نحن انتقلنا من فن النحت الى فن التصوير ، وجدنا أن الفنان المصرى قد احتفظ بطابعه التقليدى الذى رأيناه فى فن النحت من حيث التفوق واناقة العرض . فجمال



كليوباترة

كليوباترة كما وردت صورتها
في النقوش المصرية

◆

نفرت

تمثال الأميرة « نفرت » الذى يعد
أكثر التماثيل المصرية إظهاراً للحياة ،
ويرجع تاريخه الى أوائل الأسرة الرابعة



أغنية الحب والغرام

منظر رائع يمثل حفلة موسيقية يعزف فيها عواد أعمى على آلته ، ويغنى أغنية الحب والغرام ، بينما تجلس السيدات المدعوات على حصير يتحدثن ويستنشقن عبير الزهور ، ويتناولن الفواكه . وهناك خادم عارية تضع عقداً من الزهور حول عنق إحدى السيدات (والمنظر مأخوذ من مقبرة نخت بطيبة)

الخطوط التى يستعملها فى اظهار الشكل المراد رسمه ، وحسن اختيار الوضع Pose والتأنق فى استعمال الالوان ، كل أولئك صفات بارزة فى رسومه وصوره . وكل من درس شيئا عن الفن المصرى القديم يعلم كيف أن الفنان المصرى قد استعمل الالوان بمهارة عند ما أراد أن يظهر الجسم من خلال الثياب الهفهافة ، وكيف استطاع أن يفيض على هذه الثياب من ذوقه وفنه فأظهرها بالغة الزينة عظيمة الرواء ، مما جعل الثياب المصرية الخاصة بالنساء آية فى الاناقة وحسن الزى والهندام ، كما يتضح ذلك من صورة الملكة نفرتارى مع الآلهة ايزيس ، بل ان الفنان كان حاذقا فى فنه عند ما تراه فى رسوم مقابر طيبة وغيرها يعطى اللحم لونا داكنا حيث هو غير مغطى وأصفر فاقعا عند ما يكون مستورا ، وبذلك نرى أن المصور قد حاول أن يظهر الجلد الدافىء وهو يضىء من خلال ثوبه الكتانى الشفاف

ولدينا من هذه الصور البديعة نماذج رائعة تدل على مهارة الفنان وعلى أخذه نماذجه من الحياة مباشرة . فالرسم الذى يمثل فتاة راقصة وهى تقوم بألعاب بهلوانية صورة جديرة بالاعجاب ، لما فيها من حركة تنبض بالحياة وجمال يستهوى الفؤاد

وفى مقبرة (نخت) بطيبة ، صور تعتبر تحفا من تحف الفن . فالصورة التى تمثل ثلاث فتيات موسيقيات هى تحفة بديعة أثارت وما تزال تثير اعجاب كل من رآها . نرى فيها الموسيقية الاولى وهى تلعب على أوتار جنك Harpe ، والثانية العارية وهى ترقص




فتيات موسيقيات

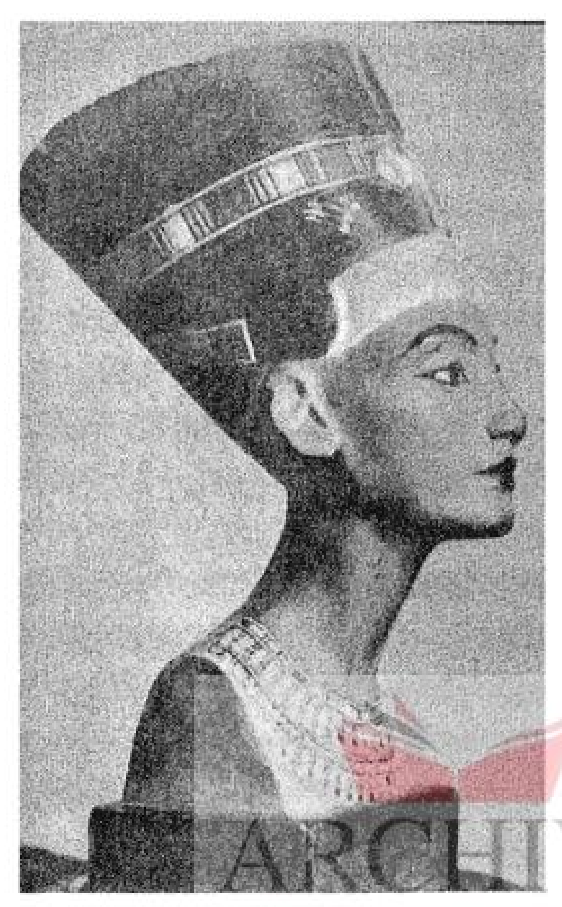
منظر حفلة يرى فيها ثلاث فتيات موسيقيات ، تلعب الأولى على أوتار الجنك ، والثانية العارية ترقص وقد حملت ربابا ، والثالثة تنفخ فى مزمار مزدوج (والصورة منقولة عن مقبرة نخت بطيبة)

وقد حملت ربابا ، والثالثة تنفخ فى مزمار مزدوج . وليس من شك فى أن الفنان قد أبرز فى صورته كل ما حبت الطبيعة به هاته الموسيقيات من جمال واعتدال قوام ، كما أنه قد أظهر الملابس الرقيقة الشفافة بشكل جذاب لطيف

أما الصورة الاخرى التى تمثل حفلة موسيقية اجتمعت فيها طائفة من السيدات المدعوات ، فهى صورة جميلة يزيدها جمالا أناقة السيدات وقد جلسن على حصير يتحدثن ويستنشقن عبير زهور اللوتس ويقدمن الفواكه بعضهن الى البعض الآخر ، بينما تقوم خادم عارية بوضع عقد من الزهور حول عنق احدى السيدات . وفى هذه الحفلة الموسيقية نرى السيدات وقد جلسن جميعا يصغين الى عواد أعمى يعزف على آلته مختلف الاناشيد وأغنية الحب والغرام

ونحن اذا لم يكن فى استطاعتنا أن نعيد الى ألحان موسيقاهم شجيها وترجيعها العذب ، فنحن على الاقل نستطيع أن نقرأ بعض النصوص التى تحتفظ لنا ببعض أغانيهم ، فنستطيع بذلك أن نتصور مبلغ فخامة هذه الحفلات التى كانت تفيض بالانس والحبور ، وتمتلىء بعشرات المدعوين والمدعوات

فها هو المحب يغنى بصوته الرقيق فيقول : « سأرقد على سريرى وقد اعترانى المرض وسيعودنى جيرانى ، ولكن اذا حضرت حبيبتى فستهزأ بأطبائى لانها تعرف سر مرضى . ما أجمل بيت حبيبتى تحيط به البساتين والبحيرات ، ها هو بابه أراه مفتوحا ، وها هى



نفرتيتى

رأس الملكة نفرتيتى ، وقد عثر عليه فى مصنع المثال « تحتمس » بتل العمارنة ، وهو محفوظ بالقسم المصرى بمتحف برلين ، ويعد أبدع قطعة فنية خلقها فن النحت فى العالم القديم كله

حبيبتى تخرج غاضبة . ليتنى كنت عبدا لها أقوم على حراسة الباب حتى أتلقى أوامرها وحتى أنعم برقيق صوتها حتى ولو كانت غاضبة . انه ليطيب لى أن أكون كالطفل أهتز أمامها من الخوف وأرتعد »

فتجيبه حبيبته : « ها أنا معك . هات قلبك يا حبيبى . انك اذا داعبت ساقى فلن أمنعك . واذا كنت فى حاجة الى الطعام فسوف أهبك زادا كثيرا ومتاعا وفيرا . واذا جئت الى ظمآنا الى الحب فسوف أرضعك أفاويق الغرام . ان حبك يمتزج بشغاف قلبى كما يمتزج النبيذ بالماء ، وكما تسرى العطور فى الدهان ، وكما يمتزج اللبن بالعسل ، لقد أتيت لترى حبيبتك كما يحوم الطائر حول أليفه »

فيجيبها الفتى :

« لكم تمتزج آلامى بالاناشيد
« ولكنك أنت يا جسد حبيبتى حقل ملىء بازاهير اللوتس
« ولأنت يا صدر حبيبتى الناهد لاحقاق ملئت بالروائح والطيوب
« ولأنت يا نهود حبيبتى لفاكهة (تثير اشجان الغرام)
« ولأنت يا محيا حبيبتى لحلو يفوح شذاه »

فهذا الخيال البديع الرائع الذى يتجلى فى أغانيهم كان يضفى دون شك على حفلاتهم جوا رائعا من العذوبة ، تعكسه لنا صورهم البديعة التى نراها على الجدران ، وهى الصور التى تلعب فيها المرأة دورا أساسيا كعنصر رئيسى فى الحياة

محرم كمال

أخطاء التاريخ المصرى الحديث

للأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك

يقول الفيلسوف ابن خلدون فى مقدمته ان المؤرخين والمفسرين وأئمة النقل كثيرا ما وقع لهم من المغالط فى الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا ، دون أن يعرضوها على أصولها أو يقيسوها بأشباهها ، أو يحكموا النظر والبصيرة فى الاخبار ، فضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط . وهذا الذى ذكره ابن خلدون يصدق على كثير من الروايات والوقائع التى وردت فيما دونه المؤرخون والكتاب عن تاريخ مصر الحديث . ولا أقصد فى هذه العجالة أن أحصى أخطاء هذه الحقبة من التاريخ . بل أكتفى بسرد أمثلة منها . ولا أرمى من وراء ذلك الا الى وجوب الحذر والحيطة فى بحث وقائع التاريخ قديمها وحديثها ، وتحقيقها وتمحيصها قبل البت فى تدوينها

— ١ —

فمن الاخطاء الشائعة ، ما ذكره بعض المؤلفين من أنه حين كان الكونت ماتيو دلسبس (والد المسيو فرديناند دلسبس فاتح قناة السويس) قنصلا لفرنسا فى مصر سنة ١٨٠٣ ، جاءته تعليمات من نابليون بونابارت بأن يختار أكثر قواد القوات العثمانية الموجودة فى مصر جدارة وأعلاهم أخلاقا ، ويخطر عنه الجنرال سباستيانى سفير فرنسا فى الاستانة ، ليحمل الباب العالى على تنصيبه واليا على مصر ، ليكون عونا للفرنسيين على المماليك والانجليز ، وأنه اختار محمد على الكبير ، وأوصى به الجنرال سباستيانى ، وأن سباستيانى عضد اختيار محمد على واليا على مصر لدى حكومة الاستانة ، وأن محمد على حفظ للكونت دلسبس جميله فى هذا المسعى

هذه الرواية ليس لها سند من المراجع المعتمدة ومن منطق الحوادث . حقا ان الكونت ماتيو دلسبس كان قنصلا لفرنسا فى مصر سنة ١٨٠٣ . ولكن لم يكن له دخل فى تطور الحوادث فى عهده . أما اختيار محمد على الكبير واليا على مصر ، فيرجع الى انتخاب زعماء الشعب له ، تخلصا من مظالم خورشد باشا الوالى السابق . فقد اجتمعوا بدار المحكمة الكبرى (بيت القاضى) يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ هـ (١٣ مايو سنة ١٨٠٥ م) وأجمعوا رأيهم على عزل خورشد باشا وتعيين محمد على واليا بدله ، وبايعوه بالولاية فى ذلك اليوم المشهود . ولم يكن الباب العالى راضيا عن هذا التعيين ، ولكنه سلم به تحت ضغط الثورة التى قامت فى وجه خورشد باشا . وقد سعت حكومة الاستانة بعد ذلك الى

اقصاء محمد على عن ولاية مصر ، وأصدرت فرمانا فى سنة ١٨٠٦ بتولية موسى باشا فى مكانه وتقليد محمد على ولاية سلانيك . وجاء اسطول تركى الى مصر لتنفيذ هذا الفرمان ، ولكن زعماء الشعب تضامنوا مع محمد على وقاوموا ارادة الباب العالى . وانتهى النضال بتثبيته فى ولاية مصر ، وأخفقت بذلك محاولة عزل محمد على سنة ١٨٠٦ . فمرجع الامر كله فى اسناد ولاية مصر الى محمد على وتثبيته فيها الى اختيار زعماء الشعب له ، وتضامنهم واياه . ولا دخل للكونت ماتيو دلسبس ولا للجنرال سباستيانى فى ذلك كله اطلاقا

— ٢ —

زعم بعض المؤرخين والمؤلفين أن مصر لا تصلح لان تكون بلدا صناعيا . واستندوا فى دعواهم الى أن معظم مصانع الغزل والنسيج التى أنشأها محمد على قد أقفلت فى أواخر عهده ، وأقفل باقيها فى عهد عباس الاول . ولكن هذه الدعوى لا تثبت أمام الحقائق التاريخية . لان مصر قد اشتهرت بالازدهار الصناعى منذ أقدم العصور ، وراجت فيها النهضة الصناعية فى كل عهد اتجهت فيه العزائم الى بعثها ، سواء من الحكام أو من الشعب. أما اقفال المصانع فى أواخر عهد محمد على ، فيرجع الى أن النهضة الصناعية التى أنشأها كانت قائمة على أساس الاحتكار أى احتكار الحكومة اياها . فانعدمت فيها الادارة الحرة التى هى مناط ارتقاء المشروعات الصناعية والاقتصادية ، واضمحلت باضمحلال الاداة الحكومية المديرة لها . ولكن هذا الاخفاق كان عارضا طارئا لا يحجب الحقيقة التى برهنت عليها الحوادث التاريخية ، وهى توافر عوامل النهضة الصناعية فى مصر

— ٣ —

أنشىء مجلس شورى النواب فى مصر على عهد اسماعيل سنة ١٨٦٦ . وهو مجلس شبه نيابى ، اذ كان أعضاؤه ينتخبهم عمد البلاد ومشايخها فى المديريات ، وجماعة الاعيان فى العاصمة والاسكندرية ودمياط . ولكن لم تكن له سلطة قطعية فى أمر من الامور . وقد لاك كثير من المؤرخين الاوربيين رواية عن المعارضة فى هذا المجلس تناقلوها فى مؤلفاتهم، دون بحث أو تحقيق . فزعموا أن شريف باشا — وكان اذ ذاك وزيرا للداخلية — أفهم أعضاء المجلس فى أول دور لانعقاده ، أن المجالس النيابية تنقسم دائما الى حزبين ، أحدهما يؤيد الحكومة والآخر يعارضها . وأنه يجدر بهم أن يؤلفوا من بينهم ذينك الحزبين . وأن أعضاء حزب الحكومة يجلسون فى مقاعد اليمين ، ونواب المعارضة يجلسون فى مقاعد اليسار . فاستنكر النواب أن يكون من بينهم من يعارض الحكومة ، وجلسوا جميعا فى مقاعد اليمين . فأفهمهم شريف باشا أنه لا بد أن يجلس بعضهم فى مقاعد اليسار ، فلم يكن من الاعضاء الا أن تحولوا اليها جميعا

وظاهر على هذه الرواية مسحة الهزل والخيال . فهى ولا شك من مخترعات بعض

الكتاب الاوربيين الذين يطيب لهم أن يبتدعوا أمثال هذه الحكاية . وقد بحثنا كثيرا فلم نجد لها سندا من أقوال شاهد عيان . ولا جاء ذكرها ولو تلميحا فى مضابط المجلس . على أن الرواية فى ذاتها لا يسيغها المنطق . فان نظام المجلس وحدوده واختصاصه وملابساته، كل ذلك لا يدع مجالا لتأليف حزب للحكومة وحزب للمعارضة . فالاحزاب الموالية والمعارضة انما توجد حيث يكون للمجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة ، ولم يكن لمجلس شورى النواب هذا الحق أصلا ، بل لم تكن له سلطة قطعية فى أى أمر من الامور . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فقد شهد أحد الكتاب الفرنسيين وهو المسيو جليون دنجلار Gellion Danglar حوادث مصر من سنة ١٨٦٥ الى سنة ١٨٧٥ ، وله عن مشاهداته فيها « رسائل » تكلم فيها عن مجلس شورى النواب ، فلم يذكر هذه الحكاية ولا أشار اليها ولو كان لها ظل من الواقع لما فاته أن يذكرها . وهذا يقطع ببطلانها

— ٤ —

ان الاخطاء تتناول مسائل هامة أخرى من أهم القضايا التاريخية . فالاحتلال البريطانى لمصر ، وأسبابه ، وكيف وقع ، ومذبحة الاسكندرية التى وقعت فى يونيه سنة ١٨٨٢ وعدها كثير من الكتاب ذريعة للاحتلال ، وأسباب سلخ السودان عن مصر سنة ١٨٨٤ ، وتطور الحوادث فى السودان منذ نشوب الثورة المهدية الى استرجاع السودان سنة ١٨٩٨ ، كل هذه الوقائع رويت على غير حقيقتها فى كثير من المراجع الاوربية وبعض المراجع المصرية أيضا ، بحيث يحتاج تفنيدها والرد عليها الى عدة مجلدات . وقل مثل ذلك عن كثير من حوادث ثورة سنة ١٩١٩ وما تلاها ، وأسباب الانقسام الذى وقع سنة ١٩٢١ ، وما الى ذلك

وصفوة القول أن أخطاء التاريخ المصرى الحديث كثيرة متشعبة النواحى . على أن هذه الاخطاء لا تحجب الحقائق عمن يريد أن يتحرى الوصول اليها . فان الحوادث التاريخية تشبه القضايا بين الافراد . ففى كل قضية نزاع بين طرفيها ، ولكل طرف حججه وأسانيده . ومهمة القاضى الذى يفصل فى الخصومات أن يتعرف وجه الحق من دراسة حجج كل فريق ومستنداته ، والموازنة بينها . وكذلك يجب على كل من يبحث فى القضايا التاريخية أن يتحرى الحقائق ويستخلصها من ثنايا الروايات والمتناقضات ، ويكشف عما يكتنفها من الخطأ أو من الغموض والابهام

عبد الرحمن الرافعى

الاذاعة الاثيرية

معجزة العلم فى القرن العشرين

بقلم الشاعر الكبير الاستاذ احمد محرم

أجن العلم أم عقلا ؟	فيالك حادثاً جللا
هى الأصوات ، لا عوجاً	نرى فيها ، ولا خللا
تؤدى القول صادقة	وتجرى سمحة ذللا
سراعاً ، مالها مثل	اذا شئنا لها مثلا
الى الأسماع تأخذها	كأن لم تأخذ السبلا
سرت فى الارض ، ماتركت	بها أمماً ولا دولا
فيا لك حيلة غلبت	دقائق سرها الحيلا
ويا لك بدعة بهرت	فكادت تورث الخبلا
ذهلت لها على أدبى	وأى الناس ما ذهلا ؟
أتى العصر العجيب بها	فراع الأعصر الأولا
تلفت بعضها دهشاً	وأحفل بعضها وجلا
تكاد تكون معجزة	ترينا (السادة الرسلا)
(رسول العلم) أبرزها	فآمن كل من جهلا
ومن سوى الألى ابتدعوا	(بماركونى) فما عدلا
إمام لا أرى لهمو	وان برعوا به قبلا
تعالى الله ألهمه	من الابداع ما فعلا
أعد الآية الكبرى	له ، وقضى لها أجلا
فلما حان موعدها	دعاه . فجاء ممتثلا
وأطلعها مباركة	يجاوز نفعها الأملا
يهز العالمين بها	ويطوى الأرض مرتجلا
ويقطع فى دقائقها	من الأيام ما اتصلا

يظل الدهر في فزع ... من الخطب الذي نزلا
يخاف بلوغ غايتـه ... ويخشى أن يكون خلا
تبيت الجن حاشـدة ... تضج وتكثر الجدلا
يقول كبيرهم : أكذا ... يكون نصيبنا الفشلا ؟
أزال الانس دولتنـا ... فأمسى نجمها أفلا
ولولا الضعف ما ملكوا ... علينا العلم والعملا
عجزنا بعد مقدرة ... وصرنا أمة همَلا
فوا خجلى . ويا أسفي ... اذا أنا لم أذب خجـلا

ترامى الصوت . فاستمعوا ... من الانباء ما حملا
هي الاقطار هاتفـة ... يطير حديثها عجلا
إذا اختلجت به شفة ... وان بعد المدى وصلا
كلام الله نسمعه ... فـلا نبغي به بدلا
وتأتى بعده عبر ... تزيد يقين من عقلا
على يد واعظ يقظ ... ينبه كل من غفلا
يليه صاحب فكه ... يفيض حديثه جذلا
عدو الهم يقتـله ... وكم من صاحب قتلا
وهـذا طائر غرد ... يجيـد اللهو والغزلا
يهيج كل ذى شجن ... اذا نسي الهوى وسلا
ويلقيه دماً سرباً ... من الجرح الذى اندملا
صحا من سكره . نغماً ... وألقى الكأس واعتزلا
تردد في جوانحـه ... رنين رده ثملا
أعاد الوجد سيرته ... وهاج الشوق فاشتعلا

يظل الصـوت مندفقاً ... كصوب المزن منهملا
سلوا عنـه الأثير اذا ... على أمواجه انتقـلا
أيدرى كيف يحمله ... اذا ما خف أو ثقلا ؟
ويعرف أين موقعـه ... اذا ما جد أو هزلا ؟

[البقية على صفحة ١٩٥]

قضية اللغة العربية

بقلم الأستاذ محمود تيمور

١ ـ موقفنا من اللغة ـ ٢ ـ شبه العربية باللاتينية ـ ٣ ـ مزية العربية على اللاتينية ـ ٤ ـ ماضي العربية وحاضرها ـ ٥ ـ عائق تطور العربية ٦ ـ وسائل النهوض بها ـ ٧ ـ تقارب لغتي الكتابة والكلام

١ ـ لغة الأمة عنوان ثقافتها وحضارتها ، ولذلك تعنى الأمم كافة بلغاتها ، وتعمل على ترقيتها . وكذلك الشأن فى العالم العربى ، وبخاصة مصر . بيد أن الحال عندنا يختلف بعض الاختلاف عنه فى سائر الأمم . فبينا نرى الهمم متجهة فيها الى اصلاح اللغة والنهوض بها ، اذا بنا نرى أنفسنا تتجه بهممنا اتجاها أبعد مدى ، فاننا حيال مشكلة يخوض فى حديثها المفكرون ، فيتساءلون : هل تصلح لغتنا العربية أن تكون أداة لمسايرة الحضارة ؟ وهل تضطلع بما يطلب منها للتعبير عن مقتضيات العلم والفن والصناعة ؟ وهل يرجع التقصير اليها لا الينا ؟ وهل هى من اللغات الميتة التى يعفو أثرها كاللاتينية ؟ والذين يتساءلون هذه الأسئلة ينادون بوجوب اتخاذ لغة أخرى تحل محل العربية ، ويرشحون العامية لهذا المحل ، اذ يعتقدون أن ما جرى على اللاتينية من القانون الطبيعى سيجرى على العربية حتما ، ومن ثم يظهر لنا جليا أننا نختلف فى موضوع اللغة عن غيرنا : هم متوافقون على الأساس ، ماضون فى التغيير والاصلاح ، ونحن يعارض بعضنا بعضا فى الأساس نفسه ، هل تصلح اللغة لتكون عنوان الثقافة والحضارة لنا ؟ وهل من الصالح أن نبقى عليها لا نستبدل بها سواها ؟

٢ ـ والذين يشبهون العربية باللاتينية يتلمسون وجه الشبه فى ناحيتين : الاولى أنها ليست الا لغة كتابة ، والاخرى أنها لم تتطور مع الزمن التطور الكافى للحياة والنماء . والحق أن من أكبر مظاهر حيوية اللغة أن تكون لغة كلام ، وقد كانت العربية كذلك حقبة من الزمن ، فلما اتسعت رقعة المملكة ، وشملت ألوانا من الأمم الاعجمية ، وكثر المولدون فى أقطارها ، نشأت فى كل صقع لهجة عامية الى جانب الفصحى ، كالعراقية والشامية والمصرية والمغربية . وحقا من أكبر مظاهر حيوية اللغة أيضا ان تتغير وتتطور وفق مقتضيات العصور ، فلا تصبح لغة قرن مضى لغة قرن حاضر . وقد يبدو أن تطور

العربية لم يمض الى غاياته ، فتخلف وراء الزمن ، فما زالت لغة القرون الغابرة مسيطرة على العصر الحديث . فللناس عذرهم فيما يقولون من الموازنة بين العربية واللاتينية ، لان اللاتينية كانت لغة أصيلة للكتابة والكلام ، ثم تفرقت بعد الفتوحات الرومانية لهجات عامية صارت فيما بعد لغات مستقلة متطورة حية ، وبقيت اللاتينية لغة كتابة ، اذ تغلبت عليها مشتقاتها كالفرنسية والايطالية والاسبانية ، فضاق محيط استعمالها ، وظلت تتضاءل وتجمد وتفقد حيويتها ، وانتهى بها الامر الى العزلة بين الصحائف المطوية من الكتب القديمة

٣ ـ ولو تدبرنا الامر لظهر لنا أن العربية تتميز عن اللاتينية بعنصر جوهرى يدعها فى مأمن من أن يجرى عليها ما جرى على تلك . وذلك أن العربية لغة دين سماوى ذى خطر ، وبها كتبت أصول هذا الدين تشريعا وحكمة وثقافة . وعلى رأس هذه الاصول : القرآن ، معتمد المسلم ومرجعه فى شؤونه الدينية وعقيدته الروحية . وقد قدس نص القرآن كما أنزل بالعربية الفصحى ، فبقيت ملازمة له تكاد تقدس معه نصوصها . ولما كانت العقائد الدينية راسخة فى القلوب ، على الرغم مما يقال من أن تطور المدنية سيقضى على تأثير هذه العقائد ، فان العربية باقية ببقاء الاسلام ، أى القرآن . ولما كانت لغة قريش المنزل بها القرآن بلغت حين نزوله أقصى مبلغ من قوة البيان وفصاحة التعبير ، وكان القرآن موضع التحدى للعرب أن يأتوا بسورة من مثله ، اعتبر ذلك الكتاب أسمى نمط للعربية الفصحى ، وأعلى نموذج للبيان المعجز ، فظل القبلة الخالدة فى استلهام أنصح الاساليب لنظم الكلام . فما دام القرآن محفوظا ، والاسلام قائما ، وأمته العربية موفورة ، فلن يكتب لهذه اللغة الفناء . وذلك فى الحق أعظم الاسباب التى صانت العربية عن الزوال فى الماضى والحاضر ، وسيكون السبب الذى عدها بعوامل البقاء فى المستقبل . فأما اللاتينية فلم يتح لها أن تكون لغة كتاب سماوى مقدس له حرمته فى اللغة وله أثره فى صونها وحياطتها ، ومن ثم خضعت للناموس الطبيعى . وانما يحمى العربية من مثل هذا المصير انها كما أوضحنا لغة كتاب مقدس يدعم عقيدة دينية راسخة ، والعقيدة ناموس طبيعى آخر لا تستغنى عنه النفس البشرية بحال ، فبقاء العربية اذن نظام يجرى وفق سنة طبيعية بشرية صحيحة لا يعتريها التبديل

٤ ـ وأقرب ما يعترض به على القائلين بجمود العربية ، وينفى عنها شبهها باللغات الميتة ، أنها لبثت قرابة ألف وخمسمائة سنة تؤدى مهمتها على وجه مرض ، وها هى ذى تطاوع الرقى العلمى والادبى والعمرانى فى العصر الحديث ، فتراها لسان الدرس على اختلاف مراتبه ، والكتاب على تباين فنونه ، وأداة الخطابة فى منابر القضاء والمحافل على شتى أغراضها . وحسبنا الصحافة مصداقا لهذه الحقيقة ، فقد لانت العربية للصحف

والمجلات تعبر عن شؤون الحياة العامة والخاصة . ولا جرم أن بقاء الفصحى على هذا النحو يكاد يعد معجزة فى عالم اللغات ، ولكنها معجزة لها مسوغاتها الطبيعية التى لا افتعال فيها ولا قسر . فالآن يجمل بنا أن نساعد قوى هذه اللغة على أن تتطور التطور الاوفى ، وأن نجعلها أكثر لينا وطواعية لتواتى مقتضيات الحضارة العلمية والادبية والعمرانية اليوم وغدا ، فتكون أكثر صلاحية للتعبير ، وأشد عضدا لمواجهة الزمن القريب والبعيد. وفى سبيل هذا الهدف الاسمى يجب أن نعتبر اللغة كائنا حيا ينمو ويتطور ، لا كائنا أثريا قيمته فى ذاته وفى احتفاظه بحالته . فاذا نظرنا الى اللغة بهذا الاعتبار لم ندخر وسعا فى تغذيتها بالصالح المفيد ، وتخليصها من شوائب الجمود

٥ ـ فما هو العائق الذى يحول دون تطور اللغة ؟ وكيف السبيل الى رفع هذا العائق ؟ أكبر ما يعوق اللغة فيما يقولون انها لغة كتابة لا لغة كلام ، ولو كانت لغة كلام لعاشت فى السوق والبيت ، ولنمت من تلقاء نفسها ، ولاشتقت ألفاظها من طبيعتها دون اللجوء الى عوامل مصنوعة . وذلك شأن العامية فى أقطار الشرق ، فهى أكثر طلاقة ، لانها ترجمان الحياة الدارجة . ولكن تلك العامية لا ضابط لها ولا نظام ، فانها لهجية غير مهذبة ، وليس لها من أصول مستقرة قط ، ولا طاقة لها بالتعبير الراقى عن جلائل الاشياء فى ميادين الاجتماع . فأما لغة الكتابة ، أعنى الفصحى ، فقد انصقلت على ترادف الايام ، وأحكمت ضوابطها فى الالفاظ والاساليب ، لانها استعملت فى التعبير منذ أمد مديد . فهل يمكن أن تكون هذه الفصحى لغة كلام ليتم كمالها بالمعنى الواسع ؟ الواقع أننا حين نتأمل سائر اللغات الحية المعتبرة لغات كلام وكتابة معا ، لا نعدم الفروق فيها بين الكتابة والكلام . وربما كانت هذه الفروق هينة بالاضافة الى الفرق بين العربية وعاميتها . ولكن الفرق فى مثل الالمانية ظاهر . ومن المحتمل أن يتضاءل ما بين العربية والعامية من البون على مر السنين ، ولا سيما اذا اطرد رقى التعليم وشمول الثقافة . وقد يكون عن كثب منا يوم تتدانى فيه العربية والعامية باستمداد كل منهما من الاخرى

٦ ـ ولتحقيق هذا الهدف الجليل يجب أن نعين العربية على أن تبسط سلطانها ، وتستوفى حيويتها فى ميادين الحياة العامة . واننا لمجملون ما نراه لذلك فيما يلى :

أولا : تزويد اللغة . ثانيا : تبسيط اللغة . ثالثا : تيسير النحو . رابعا : تعميم الضبط

ولنتناول كل نقطة من هذه النقط ببعض الشرح :

أولا ـ تزويد اللغة : تغزونا المدنية العصرية بعلومها وفنونها وصناعاتها، وتفرض نفسها علينا فرضا بألفاظها الاجنبية التى تميزها،كالمخترعات وأجزائها ، وشتى الادوات والعقاقير، وصنوف المطاعم والمشارب وأوانيها ، وضروب الاثاث وما اليه ، ومظاهر الحياة الحضرية

من ألعاب ومجامع ونحوها. فهل ندخل هذه الالفاظ جميعا فى لغتنا بعد أن نخضعها لاصول التعريب ، فلفظ « الاوتوموبيل » مثلا نجعله « التميل » و « الترامواى » ننطقه «الترام» و « السينماتوغراف » نقوله « السيما » ؟ ذلك رأى جماعة من أولى الرأى . وفينا من يرفض التعريب ، مؤثرا اللفظ العربى الذى يؤدى المعنى الاجنبى ، اما بالاشتقاق من المواد اللغوية للعربية ، واما باحياء الالفاظ التى تلمح الملابسة بينها وبين المعانى الجديدة ، كالسيارة «للاوتوموبيل» والقطار «للبابور» والجماز «للترامواى»والخيالة «للسينماتوغراف»

أما القائلون بالتعريب فيحتجون بأن الالفاظ الاجنبية موج زاخر ، وهيهات أن نرد اندفاعه مهما نبذل من جهد . على أن بعض هذه الالفاظ عالمى الذيوع ، وبخاصة ألفاظ العلوم والفنون . فمن العبث الانفراد بوضع ألفاظ جديدة ، خروجا على المتواضع عليه فى جميع اللغات

وأما الرافضون للتعريب فهم يخشون أن تصبح العربية مجرد قوالب وصيغ للالفاظ الاجنبية الهاجمة ، على حين أن فى ألفاظ العربية ما يؤدى كثيرا من معانى هذه الالفاظ الاجنبية عينها

وكما يحتدم الخلاف فى مسألة التعريب بين الباحثين ، يحتدم أيضا فى مسألة المولد فى العامية . فيرى فريق أنه لا يجوز لنا استضافة ما ولده عامة الناس وما أشاعوه على ألسنتهم من الكلمات ، وذلك كالبلاص والدوار والحلة والطرحة . ويرى فريق آخر أن نتقبل كل ما جرى على ألسنة العامة من هذه المولدات

والقول المفضل فيما يبدو لى أن نتوسط فى الامر ، وأن يكون موقفنا فى مسألة المعرب والمولد موقف مرونة وموازنة وتقدير لملابسات كل لفظ ومدى الحاجة اليه . فلنشتق ، ولنستضف من العامية ، ولنستحى القديم من الالفاظ ، ولنعرب الاجنبى ، متوخين فى كل ذلك الحكمة . وحرى بنا أن ندع ذلك للهيئة اللغوية المشرفة ، على أن تراعى سهولة الالفاظ ، وموسيقية الحروف ، وخفة الصيغة على السمع

ومن أمثلة الالفاظ الموفقة : السيارة « للاوتوموبيل » والدراجة « للبسيكليت » والمغنى « للفيلا » ــ وهذا من المشتق ــ والشطيرة « للساندويتش » والمشجب «للشماعة» والمعطف « للبالطو » ــ وهذا من القديم المستحيى ــ والكهربائية «للترامواى» والعجلة «للبسيكليت» والتسريحة لقطعة الاثاث الخاصة بالزينة ــ وهذا من العامى ــ والسينما ، والفلم، والديزل ــ وهذا من المعرب ــ فتلك الالفاظ مستساغة مقبولة . فأما أمثال القرطق « للشمازت » والارزيز « للتليفون » فمما لا ينتظر شيوعه وقبوله بحال . فخير لنا ألا نضيع الجهد والوقت والتجربة فيما لا غناء فيه ، ولا جدوى منه . ولنربأ بأنفسنا عما يجر علينا التهكم والسخرية . والذى يعوز اللغويين فى مشكلة الالفاظ الجديدة هو عرضها عرضا كافيا لاشاعتها . ولا ننسى أن ما ذاع من الالفاظ فى فجر نهضتنا الحديثة كان وليد حماسة الكتاب له واقبالهم عليه . وعلى الهيئة اللغوية المشرفة أن تتفنن فى عرض الالفاظ على

الجمهور بمختلف الوسائل ، وفى مقدمتها الصحف والمجلات . فبالتكرار يتسنى للجمهور أن يغربل ما يعرض عليه ، وأن يأخذ ما يوائم ذوقه ، فلا يلبث كثير من هذه الالفاظ الجديدة أن يشيع ويدخل فى صميم اللغة السارية .

ثانيا — تبسيط اللغة : انما يتم تبسيط اللغة بالاقتصار من الالفاظ الكتابية على المألوف المأنوس ، دون غوص على المهجور المجفو من الكلام ، الا ما تقتضيه ضرورة التعبير عن معنى دقيق أو حقيقة جديدة لا يعبر عنها بلفظ متعارف . على ألا نجانب السهولة والاستساغة فيما نتخذ من هذه الالفاظ . ولندع وحشى الكلام فى بياننا ، فقد انصرم ذلك العهد الذى كانت البراعة فيه تقاس بالالغاز فى التعبير ، وتصيد الغريب الحوشى ، وأصبح البيان الحق يدور على استعمال اللفظة المعبرة الكاشفة فى موضعها الملائم بأسلوب وضاح لا تعقيد فيه . وكذلك تبسط اللغة بتحديد معانى الالفاظ تحديدا منطقيا ، فلا نسرف فى اصطناع المترادف الذى يجعل الالفاظ غير مفصلة على قدود المعانى . وقد استطاع كتاب العصر الحديث أن يمضوا فى هذا السبيل شوطا بعيدا ، فتحدد كثير من قيم الالفاظ ، وتعينت دلالاتها المعنوية ، وذلك من أثر التوسع الثقافى ورقى الذوق الادبى والاطلاع على حقائق العلم والاجتماع . وقد جال بخاطر بعض دعاة التبسيط اللغوى أن ينشئوا لغة مختزلة ذات ألفاظ محدودة لا تتجاوز بضع مئات مع تأديتها لجميع المعانى ، وذلك محاكاة للغة الانجليزية المسماة « البيسك » وفائدتها أن تساعد على انتشار اللغة والاقبال على تعلمها وسهولة استعمالها

والرأى عندى أن هذه اللغة لا يكتب لها النجاح ، لان المتعلم لها لا يستطيع أن يستعمل سوى ألفاظها ، ولا أن يفهم غيرها . فاذا قرأ فلا بد أن يقرأ المكتوب بهذه اللغة وحدها ، وبذلك لا تكون له صلة باللغة الاصلية ولا بما تنتجه عامة أدبائها وعلمائها . وثمة عيب آخر فى اللغة المختزلة وهو أن الالفاظ لقلتها تؤدى معانى كثيرة ، فيتذبذب اللفظ بين أشتات المعانى ، وذلك ما يناهضه مصلحو اللغات فى الامم . وفوق ذلك كله لا تصلح اللغة المختزلة للادب والشعر ، لانهما يتطلبان موسيقية لفظية ، ويقتضيان ايثار تعبير على تعبير . وكذلك بعض العلوم والفنون تستلزم دقة فى البيان لا تتيسر مع قلة الالفاظ وضغطها . ولهذا أعتقد أن تبسيط اللغة لا يكون بوضع لغة مختزلة ، الا أن يراد بهذه اللغة أن تعد خطوة أولية لتعلم اللغة الاصلية

ثالثا — تيسير النحو : كان النحو من المشكلات التى طالما فكر فى حلها الباحثون ، وذهبوا فى شأنها مذاهب بين التفريط والافراط . وفى معتقدى أنه لا سبيل لنا الى التخلى عن النحو ، لانه من مقومات اللغة وأصولها ، فاذا تخلينا عنه فقد هدمنا ركنا أساسيا تعود بعده اللغة فوضى تحتاج الى ضوابط تحل محله . وكل ما يمكن عمله هو تصفية القواعد الكثيرة وغربلتها ، فما كان منها جوهريا أبقيناه ، ولنتخذ من تسمح بعض النحاة الاقدمين

قدوة لنا فيما نعالج من تيسير القواعد الى الحد الممكن، وحذف ما لا يلائم التطور العصرى للغة . وأكاد أجزم بأن النحو سيظل أساس لغة الكتابة، حتى تتقارب لغتا الكتابة والكلام. ويومئذ يقتصر على قدر ضئيل من نحو العربية . على أن مشكلة النحو فى أول الامر وآخره لم تنشأ ولم تصبح عويصة الا نتيجة لمشكلة الضبط ، وهى مدار حديثنا فيما يلى :

رابعا ــ تعميم الضبط : اجتازت العربية مراحل متتابعة فى سبيل الرقى ، فكانت الكتابة أول الامر بلا نقط ، ولم يكن بالعسير على العرب أن يقرأوا غير المنقوط قراءة صحيحة بهداية السياق والفطنة وسرعة التمييز . فلما اتسع نطاق المملكة العربية ، وأقبل الاعاجم يتقنون اللغة ، وأخذت الامة بأطراف العلوم والفنون ، وكثر تداول الكتب ، مست الحاجة الى النقط ، ثم نشأ الضبط أو الشكل تخفيفا لعبء الفهم وتقييدا لقواعد النحو والصرف. بيد أن هذا الشكل لم يستعمل الا فيما خيف عليه التحريف ، كالنصوص الدينية ، وما يشكل فهمه من القطع الادبية واللغوية . وفى وسعنا أن نحكم بأن علامات الشكل لم تكن موفقة منذ نشوئها . واننا لواجدون دليل ذلك فيما كان يلجأ اليه العلماء القدامى من ضبط الالفاظ بتفسير الحركات لا بالعلامات ، اذ يقولون : بفتح الحاء المهملة ، وضم الجيم المعجمة ، وكسر التاء المثناة فوق ، وما الى ذلك ، توخيا لدقة الضبط ، وخشية تصحيف النساخ

وعندى أن الشكل فى عصرنا الراهن ضرورى كل الضرورة . وما هو فى الواقع الا حروف ناقصة من الكلمة العربية حقها أن تستوفى ، كما فى اللغات الاجنبية . فالحركات فى هذه اللغات حروف يطلق عليها الحروف المصوتة . فمثلا : لفظ « محمد » فى العربية أربعة حروف ، وفى اللغات الاجنبية ثمانية غير التنوين . وهذا النقص الحرفى فى الكلمة العربية يحضر فى خواطرنا أن لغتنا المكتوبة لغة اختزال . وبرهان ذلك أن الاختزال لم يجد عندنا جدواه فى اللغات الاجنبية . وذلك لان الصحفى العربى اذا أراد نقل خطبة مرتجلة تسنى له ذلك لا يدع منها حرفا . فأما الصحفى الانجليزى فانه يستحيل عليه نقل خطبة انجليزية تلقى اذا جهل الاختزال . والسر فى هذا أن كتابتنا العربية مختزلة من تلقاء نفسها ، واذا وفقنا الى ادخال الشكل فى بنية الحروف ، فستكون لدينا لغتان : اللغة المشكولة المكتملة ، واللغة المختزلة غير المشكولة . ولما كانت مهمتنا تيسير اللغة وتسهيلها ، فان من الواجب علينا أن نفكر فى مسألة ضبط الالفاظ تفكيرا جديا عمليا ، لان الالفاظ غير المضبوطة يختلف فى نطقها القراء ، ولانه يصدق علينا ما قيل من اننا نفهم أولا لكى نقرأ قراءة صحيحة ، على عكس المقصود بالكتابة ، وهو أن نقرأ أولا لكى نفهم الفهم الصحيح . فالضبط عامل ذو خطر فى نشر اللغة وتعميمها وتشجيع النطق بها والاستفادة التامة منها . على اننا لا ننكر ان تعميم الشكل فى الحروف مشكلة فنية من حيث التطبيق والتحقيق ، وقد درسها كثيرون ، واقترحت فى شأنها مقترحات مختلفة . وأغلب

هذه المقترحات يدور على تذليل عقبات الطباعة التى تعترض الجمع بين علامات الشكل والحروف ، حتى لا يرهق العامل ، ولا تثقل السطور

ولسنا هنا بصدد ايثار مقترح على مقترح ، ولكننا نشير الى أنه لا بد لنا من الابقاء على مألوف الكتابة العربية ، ونبذ التفكير فى العدول عن صورة الكلمة الاصلية ، حرصا على صلاتنا بماضينا الادبى والعلمى الزاخر بالتآليف مخطوطة ومطبوعة . واذا وصلت هيئة فنية الى حل هذه المشكلة باختيار علامات صالحة للتعميم ، فان من الهين أن يتحمل عامل الطباعة بعض الجهد والمشقة فى سبيل انقاذ اللغة وكسب الفوائد العظيمة التى تعود علينا من تعميم الضبط . فاننا اذا تمثل لنا أن قارئنا العربى سيقرأ دائما كتابة مضبوطة نحوا وصرفا فى كل ما تقع عليه عينه من كتاب أو صحيفة أو مجلة أو نشرة من أى نوع كان — ارتقبنا أن تصل به الحال الى أن يصبح النطق بالصواب سليقة له ومرانة . ولا يبعد علينا بعد فترة من الزمن أن نلمح بوارق العهد الذى كان العرب فيه يحسنون النطق الصحيح على غير علم بالقواعد أو تعلم لها . وما أعظم هذا كسبا ! . .

ويخيل الى أنه يجمل بنا ألا نضيع الوقت فى اختيار علامات للشكل تحل بها هذه المشكلة ، وانما نبدأ باستعمال الشكل فى حالته الراهنة ، فنعممه فى جميع الكتب التى تتدارسها دور التعليم من المكاتب الصغيرة الى المعاهد العالية ، لا فرق فى ذلك بين كتاب جغرافى أو رياضى أو نحوى . وحين يبدأ التلميذ حياته العلمية على هذا النحو ، ويمضى فى ذلك أثناء تنقله فى درجات التعليم — لا يشب الا قارئا مطبوعا على الصحة والصواب . فتصبح هذه الخطوة أولى خطوات تعميم الشكل ، وضبط اللغة ، وتقريب نشرها بين أهليها . ولا سيما اذا تبع ذلك التوفيق فى ابتكار علامات يسهل على أيدى العمال استخدامها فى جمع الحروف ، كما يسهل على أقلام الكتاب استعمالها فيما تجرى به الاقلام

٧ — وحينما نجنى الثمرة الطيبة بتحقيق العوامل التى أسلفناها ، وهى : تزويد اللغة، وتبسيطها ، وتيسير نحوها ، وتعميم الضبط فى كلماتها — نكون قد مهدنا للعربية وسائل النمو المطرد واستكمال السلطان التام . ولو أضفنا الى ذلك محو الامية وشمول الثقافة ورقى طبقات الشعب ، لالفينا لغة الحوار ترتقى وتزدهر ، وتصطبغ بصبغة فصيحة شيئا فشيئا

وسيقوم بين لغتى الكتابة والكلام تعاون وثيق وتبادل مستمر . فلغة الكلام تمد لغة الكتابة بألفاظ حية تسرى فى أساليبها دما جديدا ، ولغة الكتابة تدفع الى لغة الكلام عبارات شريفة وكلمات منتقاة لا غناء عن استعمالها فى محيط الحياة

ولقد بدأنا نلمس أثر هذا التعاون والتبادل فى أيامنا الراهنة ، ومن أمثلة ما دفعته لغة الكتابة الى لغة الحوار ، كلمات : الغارة ، والمخبأ ، والاضراب ، والنقابة ، والثقافة ، والقرض ، حتى لقد راض العامة ألسنتهم على استعمال القاف الغليظة لورودها* فى كلمات

ضرورية الذيوع . فأما فيما يتعلق باستمداد لغة الكتابة من العامية ، فقد رأينا نفرا من كتابنا الادباء يتخيرون من الالفاظ الدارجة ما لطف وقعه ودق تعبيره وصح تخريجه ، وربما كان هذا التعاون والتبادل وئيد الخطا ، ضئيل المظهر . ولكن مرد ذلك الى ما كان من تخلف الثقافة وانتشار الجهالة والبطء فى محاربة الامية . وعلى الرغم من ذلك يتجلى لنا بقليل من التأمل أن العامية خلال عشرات السنين الماضية تدانت الى الفصحى بما اصطنعت من الفاظها . وهيهات أن يقاس بعد العامية عن العربية منذ خمسين عاما ببعدهما الاقل مسافة الآن . وهذا يؤيد أن التعاون والتبادل بينهما سيكون فى قابل الايام أوثق عرى وأوفر جدوى ، لما ألمعنا اليه من التوسع فى التثقيف والتعليم ، ولما ينتظر من المضى فى تجديد العربية وعلاج مشكلاتها على أى نحو يكون

وكلما ازداد التعاون والتبادل بين لغتى الكتابة والكلام تضاءلت بينهما الفوارق ، ودنت كل منهما الى الاخرى . ومتى كملت للعربية هذه المطالب كان لها أن تطمئن الى حياة مديدة موصولة تجارى الزمن ، وتتطور معه ، وتتجدد به . فكما كانت لغة الماضى ، وكما بقيت لغة الحاضر ، ستظل لغة المستقبل !

محمود تيمور

الاذاعة الاثيرية

[بقية المنشور على صفحة ١٨٧]

أمين ما رأى أحد	به عما اتقى حولا
فأما حين تأشبه	على السر المسون ، فلا
يقال للعلم أرقهه	فنادى الجيل الجهلا (١)
وراح الشرق مبتهجاً	وبات الغرب محتفلا
توالى فيض أنعمه	فكم أسدى ، وكم بذلا
شقى وكفى ، فكيف به	اذا ما تم واكتملا ؟
له فى الغيب ملحمة	أراها تنشد البطلا
قرين النصر ما غلبت	كتائبه ، ولا خذلا
له عند الفتوح وفى	مجال الكر ما سألا
مواهب ربنا اطردت	تبارك ربنا وعلا

احمد محرم

---

(١) كلمة استحثاث

مشكلة اجتماعية

الحب فى أمريكا

يظهر أن أمريكا هى البلد الوحيد الذى غدا فيه الحب مشكلة قومية . فما يجد المرء فى سواها ما يجد فيها من اهتمام القوم بالعلائق بين الرجال والنساء . وما يلقى المرء فى غيرها ما يلقى فيها من هم الناس وقلقهم ، لان هذه العلائق لا تؤدى دائما الى السعادة الكاملة

ان الفكرة السائدة فى امريكا عن الحب كالفكرة السائدة عن الديموقراطية : يراهما الناس من الوجهة النظرية أمرا كاملا لا يعتوره نقص ، خالصا لا تعيبه شائبة ، صافيا كالماء المكثف من قطرات البخار . فاذا خرجوا بهما من نطاق النظريات الى مراد التطبيق العملى وجدوا فيهما انقاصا وشوائب ، ووجدوهما فى حاجة الى كثير من التصفية والتنقية ، وكثير من التحوير والاصلاح

وهذا هو وجه الخطأ فى فهم الحب وفهم الديموقراطية . فما يصح أن ينظر اليهما نظرة مثالية تتغاضى فيها عن الواقع من الامور . وما يصح ان نتجاهل ان نجاحهما يقتضى اجراء سلسلة طويلة من أعمال التوفيق بين رغائب القلب وضرورات المنطق . وما يصح أن نتناسى انهما يتحولان الى حطام ورماد اذا أردنا ان نخضعهما لنظام دقيق وتفكير محكم ، لا مجال فيهما لشىء من التساهل والتيسير . اذ الواقع أن سر نجاح الديموقراطية ، وسر نجاح الحب ، فى أن تترك من حولهما « هامشا » لبعض الاخطاء الانسانية التى لا محيص منها . ولكن هذا لا يرضى امريكا ولا يقنعها ، فتلك بلد تعبد النظام وتقدس الدقة ، ولا تريد أن تترك أية ناحية فى الحياة مهيأة لقبول الاخطاء

* * *

يدرك المرء أول ما يذهب الى امريكا مما يشاهده من أفلام السينما ان الحب فى هذه البلاد لا بد أن يكون ظافرا ، موفقا . نعم انه قد يتحطم فى بعض الأحيان بسبب ملابسات سيئة الطالع أو ظروف قاسية التقدير . وان هذا التحطم قد يؤدى الى ارغام الحبيبين على الفراق ، أو اكراه الزوجين على الطلاق .. ولكن ذاك الفراق أو هذا الطلاق لا بد أن يكون الى أمد معلوم ، فما يصح ان ينهزم الحب أو يخفق فى أداء رسالته .. ولهذا سرعان ما يتصافى الحبيبان ، وسرعان ما يتلاقى الزوجان ، وسرعان ما يعود الحب ، كما يجب أن يكون دائما ظافرا ، وموفقا !

هذا هو الحب كما تفهمه امريكا ، وهذا هو سر المشكلة التى خلقتها امريكا

نعم ، يجب أن يسقط المرء من حسابه مدينة هوليوود ان أراد أن يفهم أمريكا على حقيقتها . ولكن اصرار مؤلفى الروايات ومخرجيها وممثليها وممثلاتها على أن يكون الحب دائما أبدا ظافرا وموفقا ، دليل على أن هذا هو الشعور القومى ، وهذه هى العقيدة الشائعة عن الحب : فهو دائما حب مشبوب العواطف متقد المشاعر ، وهو دائما حب خالص الجوهر كامل المظهر ، وهو دائما حب يرفع الاحبة الى السماء ويحلق بهم فوق الذرى ، فلا يمكن يوما ما أن تخمد ناره أو تنطفىء جذوته ، ولايمكن يوما ما أن يتعكر نبعه أو يذبل زهره ، ولا يمكن يوما أن يهبط بالاحبة الى الارض وما فيها من صخور

واذا كان فى حجرة الفندق الذى يهبط فيه هذا الزائر الاجنبى جهاز لاسلكى ، فانه بعد الاصغاء الى ما يذيعه من أغان ساعة واحدة لا بد أن يؤمن بأن أمريكا هى بلد الحب المثالى : الحب الذى لا ينتهى شبابه ولا تبلى جدته ، الحب الذى يزداد على الايام كمالا وغناء وتألقا .. فما من بلد آخر « يستهلك » من الاغانى والاناشيد الغرامية مثلما تستهلك أمريكا من هذا الحب الخيالى العجيب

يقولون ان فرنسا بلد الحب . ولكن استمع الى اذاعتها قليلا تجد أن أغانيها لا تتحدث عن الحب أكثر مما تتحدث عن أى أمر آخر . بل لعلها تتناول السياسة أكثر مما تتناول الهوى . ثم ان أغانيها الغرامية تنبئك بأن الفرنسيين أدركوا بذكائهم المنطقى أن الحب الخيالى « الرومانتيكى » لا وجود له فى هذه الدنيا الا فى قصص الروائيين وقصائد الشعراء .. فأخذوا يغنون وينشدون الحب كما هو : الحب الذى يمتزج فيه سمو القلب بحكم العقل ، أى يمتزج فيه الصفاء والعكارة معا

* * *

ثم كان ظهور « فرويد » فزاد مشكلة الحب تعقدا . كان الحب قبل ذلك هو الامر الوحيد الذى يراه الامريكيون غير قابل للبحث والفحص والتحليل والتأويل ، فجاءت موجة « التحليل النفسى » فاستقبلها الامريكيون بكل ترحاب وحماسة ، وعدوها الحلقة المفقودة فى منهاج « النظام العلمى » الذى تقوم عليه الحياة الامريكية بجميع مشاهدها وكافة مناحيها .. لقد شرح لهم هذا العلم الجديد سر الاخفاق الذى يعتور الحب أحيانا ، وكان من قبل سرا محجبا مطويا لا يعرفون له كنها ولا يدركون له تأويلا ، وكانوا من قبل يعجبون كيف يخفق الحب وينهزم وهم يؤمنون بأنه لا بد أن يكون على الدوام ظافرا وموفقا .. بين لهم هذا العلم أن « الناحية الجنسية » هى مبعث هذا الاخفاق أحيانا ، فعرفوا الداء وأسرعوا يلتمسون الدواء ..

وكان هذا الدواء فى تلك العيادات التى أنشأها مئات وآلاف من أطباء التحليل النفسى فى امريكا . وقال لهم هؤلاء الاطباء ان دواءهم فى أن يواجهوا الامر بجرأة وصراحة ، فعلى الزوجين أن يمضيا بضع ساعات يتناقشان فيها ، بكل بساطة وكل صراحة ، فيما

يعكر صفوهما وفيما يفسد عليهما نعيم الحب ..

انها فكرة جميلة .. وها هم الازواج الامريكيون يقبلون على الاخذ بها كل الاقبال . وها هو كل زوجين منهم يمضيان ساعات ، أو أياما وليالى ، يتناقشان ويتباحثان فيما يعكر النبع الصافى . فهل حلت المشكلة ؟ ان الحقيقة مادة مفرقعة ، اذا لم تحسن تناولها ، انفجرت وحطمت ما حولها . وذلك ما كان ، فان هذا الدواء لم يزد الداء الا استفحالا ، وغدت هذه المناقشة الجريئة الصريحة مبعث الفرقة والشقاق بين الازواج فى أمريكا

أعرف سيدة أمريكية تقضى من حين الى حين ساعات طوالا تناقش زوجها وتجادله فى حبهما : كيف يجب أن يكون ؟ ما هى وجوه النقص التى يجب تلافيها فى هذا الحب ؟ ما هى أسباب الكمال التى يجب الاخذ بها تدعيما لهذا الحب ؟ وزوجها يستمع الى هذا الحديث ، متعبا ، معذبا ، ضيقا به ، ناقما عليها .. وهى لا تنفك تعرض أمامه قصة حبهما من أولها الى آخرها ، رافعة النقاب عن كل مستور فيها ، حاسرة اللثام عن كل خفى فى طواياها ، موقظة ، بل مزعجة ، كل هادىء مستقر من مشاعرها وعواطفها .. فماذا تكون النتيجة الا أن تزداد مشكلة حبهما تعقدا ، ويزداد حلها عسرا ، وتغدو الحياة بينهما قلقة مضطربة لا سبيل الى الابقاء عليها

ثم انظر الى تلك الكتب التى تمتلىء بها السوق الامريكية مشتملة على خير الطرق وأحسن الوسائل للحب والزواج . انها تصف للاحبة والازواج ما يجب أن يفعلوه ، وما يجب أن يتجنبوه ، ليكون حبهم شهيا وليكون زواجهم رضيا .. انها تشرح لهم الطرق والحيل التى يجب أن يتخذوها ليزداد حبهم قوة وتمكنا ، وليزداد زواجهم سعادة ونعيما . ولكن ما النتيجة ؟ ان عواطف الانسان ليست مادة يبحثها العلماء بمجاهرهم وأجهزتهم ، وليست أرضا يقلبها الخبراء بفؤوسهم ومحاريثهم . انها ما تزال ، وستبقى ، عصية على العلم متمردة على العلماء ، وسيبقى أمرها موكولا الى الظروف الخاصة ، وسيظل نجاحها موكولا الى غير قليل من حظ المرء فى الحياة

ان مشكلة الحب فى امريكا ترجع الى أنها تقوم من جانب على اسراف فى الغناء الغرامى ، وفى الروايات الخيالية ، ومن جانب آخر على مسائل التحليل النفسى الحديث . ولا سبيل الى التوفيق بين الامرين : لانه توفيق بين النقيضين ، بين الخيال والواقع ، وبين العاطفة والعلم . ولهذا كان الحب فى أمريكا مشكلة خطيرة تفسد على الاحبة هناءهم ، وتفسد على الازواج حياتهم

ولا خلاص من هذه المشكلة الا اذا عدل الامريكيون عن أن ينظروا الى الحب كما تنظر اليه هوليوود من ناحية ، وأطباء التحليل النفسى من ناحية أخرى .. وأخذوا أنفسهم بالنظر اليه كما تنظر سائر الشعوب الاخرى على أنه عالم حافل بالكمال والنقص ، وبالخير والشر ، وبما يرسل الدمع غزيرا حينا وسخينا حينا آخر

(عن مقال لراءول دى سال فى صحيفة ذى اتلنتك مونثلى)

من القاهرة الى لندن بالقطار

بقلم محمود شاكر محمد باشا

المدير العام لمصلحة السكك الحديدية المصرية

لئن كانت الانسانية تدين أول ما تدين فيما انتهت اليه من تحضر واتساع عمران الى السفينة ، فهي التي بلغت شواطىء كانت مجهولة ، ووصلت أطراف العالم بعضها ببعض ، ويسرت التبادل التجاري الدولي ، ووسعت آفاق الثقافة الانسانية العامة . فقد جاء القطار من بعد فأكمل رسالة السفينة ، وأوفى بما لم تستطع أن توفيه منها . فهو أداة طيعة مرنة تستطيع أن تجوس خلال الارض ما تشاء ، وأن تبلغ من البلاد ما تريد . على خلاف ما تستطيعه السفينة التي يحد لها البحر طريقها فلا تحيد عنه ، ويعين لها من شواطىء البلاد أهداف محطها عليها واقلاعها منها

لذلك فلا عجب أن يعتبر اليوم الذي استطاع فيه القطار أن يؤدي رسالته ، يوم بعث جديد لحضارة المجتمع الانساني ، تبدت في صور نهضاته الصناعية ، ومعاملاته التجارية وصلاته السياسية والاجتماعية والثقافية . وحسبنا لتبين صدق هذا القول أن نتخيل عالمنا اليوم وهو خال من السكك الحديدية . لا يطوي أرضه قطار ، ولا تجري عليه السيارة التي خلقت من بعده . وأن ننتهي من ذلك التخيل الى تكوين فكرة عما عسى يكون مجتمعنا الانساني عليه اذ ذاك

ومن أجل هذا اتجه التفكير الدولي الى أنه كلما اتسعت شبكة المواصلات الحديدية وأمكن أن تصل أقصى ما يمكن من بلاد العالم بعضها ببعض ، كان ذلك أدعى الى ازدهار المدنية الانسانية ، وتقريب وجهات النظر بين الامم

ولم يكن لمصر الناهضة — التي تلتقي عندها أطراف القارات الثلاث : أوربا وآسيا وافريقا — أن تقف من مثل هذا المشروع العالمي الكبير مكتوفة اليدين . وخاصة أن مصر كانت ثاني دولة في العالم أنشأت لبلادها السكك الحديدية . بل لقد كانت متصلة به أوثق الصلة ، مستجيبة في ذلك الى رغبة كريمة من رغبات المغفور له الملك فؤاد الاول . فقد وكل جلالته الى غير مرة أن أتصل بمن بيدهم الامر في هذا المشروع العالمي ، وأن أبذل كل ما أملك من جهد ، لاستكمال تلك الحلقة الحديدية بوصل مصر بأوربا عن طريق القطار ، حتى تستطيع بلادنا العزيزة أن تجني ما هو مضمون له من نفع محقق

غير أن المشروع كان دائما تعترض طريق تنفيذه عقبات ، منها ما هو سياسي ، ومنها ما هو اقتصادي ، مما كان ينهض حائلا دون تحقيقه

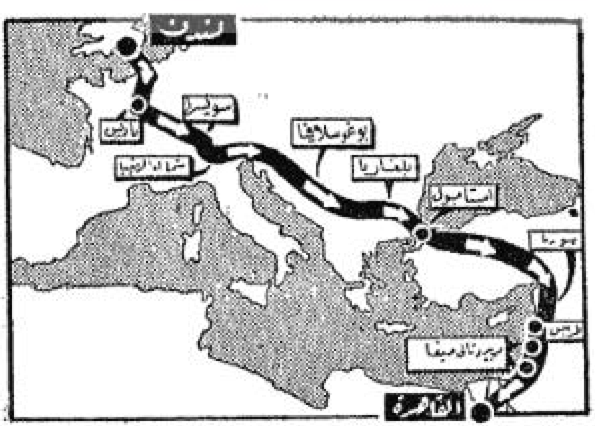
ولقد كان المسافر بالقطار الى أوربا قبل الحرب يعاني من المشاق ما يزهده فيه ، ويحبب

اليه ركوب البحر . فقد كان لزاما عليه بعد أن يصل الى القنطرة أن ينتقل من طريق الزوارق ـ بعد استيفاء الاجراءات الجمركية ـ الى ضفتها الاخرى ، حتى يتهيأ له بعد ساعات ركوب قطار فلسطين . ومن حيفا يقطع الطريق الى طرابلس الشام بالسيارة ، ومن طرابلس الشام يصل الى حدود تركيا بالقطار مرة أخرى ، ومن ثم ينتقل الى القطار التركى الذى يصل به ـ بعد ذلك الجهد المضنى ـ الى حيث يريد

ومن عجب أن يتاح لذلك المشروع الخطير الذى لم يكن فى الامكان تحقيقه فى وقت السلم ، أن يتحقق فى خلال هذه الحرب الضروس . والحرب ليست كلها شرا على أى حال . فقد اضطرت السلطات البريطانية ـ لمقتضيات عسكرية فنية بحتة ـ أن تنشىء قنطرة على قناة السويس ، وأن تنشىء كذلك خطا حديديا يصل ما بين حيفا وطرابلس الشام . وبذلك أكملت هذه السلطات ما يعوز تلك الحلقة الحديدية من وجوه نقص ، وأصبح الطريق الحديدى من مصر الى أوربا مهيأ

وحين تنتهى الحرب ويعود السلم من جديد الى العالم الجريح ، ستتحرك القطارات المفتخرة والسريعة من مصر الى لندن كل يوم عبر الاراضى التركية . وما ذلك بضرب من الخيال كما يبدو للقارىء لاول وهلة . ولكنه تحقيق لذلك المشروع الكبير الذى طال درسه من قبل كما ذكرت ، ومثلت مصر فى مؤتمراته ، وانضمت فعلا الى جامعة الدول المنتفعة بأمر استخدام قطار الشرق من طريق « سمبلون » . وهو القطار الذى يتحرك من لندن الى باريس ، فسويسرا ، فشمال ايطاليا ، فيوجوسلافيا ، فبلغاريا ، فاسطنبول ، ومن اسطنبول ينتقل عبر الاناضول الى حدود سوريا ، ثم يصل بعد ذلك الى طرابلس الشام ، ومن هذه البلدة يستكمل المسافر طريقه بالسيارة الى بيروت ، ثم الى حيفا ، ومن حيفا آخر الامر الى القاهرة

ويجدر بى أن أذكر فى هذا الصدد أن القطار المصرى قد سجل فى هذه المؤتمرات



تبين هذه الخريطة طريق السفر بالقطار من القاهرة الى لندن ، والبلاد التى يمر عليها

وفى غيرها من المناسبات الدولية صفحة مشرقة لهذه البلاد حقا . فعلى حين أن كثيرا من قطارات الدول الاوربية لا تتجاوز فى سرعتها الـ٤٠ أو ٥٠ كيلومترا فى الساعة ، اذا بقطارنا يقطع فى الساعة ٩٠ أو ١٠٠ كيلومتر ، كما أن لقطارنا عربات يتوافر لها من اسباب الراحة ما لا يتوافر لسواها فى تلك الدول

وأحسبنى فى غير حاجة لذكر ما يستمتع به المسافر من مصر الى أوربا بالقطار من مزايا اقتصادية وزمنية وصحية وثقافية . فهذا المسافر يستطيع أن يصل الى أى بلد من البلاد وهو مستقر فى قطاره ، وخاصة اذا كانت وجهته أواسط هذه القارة . فهو أولا لا يتكلف نفقات السفر بالبحر الباهظة ، وما يضاف اليها من نفقات التنقل ، هو وحقائبه من السفينة الى السيارة ، ثم من السيارة الى القطار ان استطاع أن يجد بها مكانا ، والا ظل فى فندقه حتى يؤذن له بالفرج . وهو ثانيا يستمتع بميزة زمنية لها شأنها ، اذ أنه يبلغ المدينة التى يريد فى نصف الوقت الذى يبلغها فيه تقريبا من طريق السفينة . وهو ثالثا يستطيع ان ألم به وهو بالقطار مرض يقتضى اجراء عملية جراحية معجلة أن يتداركه فى أول مدينة يقف عندها القطار . وهذا ما لا يتوافر فى السفينة ، فهى مهما بلغ نظام التمريض بها لا يبلغ فى ذلك المستشفى . وفضلا عن ذلك فان السفينة لا تطالع المسافر بها بغير منظر غطى واحد ، لا يتغير له جو ولا يضطرب فيه لون من حياة ، مما يبعث فى نفسه الضجر ، ويحمله على أن يسائل نفسه بين حين وآخر : أما لهذا البحر من آخر

أما القطار فمركب اجتماعى محبب الى النفس . لا تفتأ عين المطل من نوافذه تقع خلال الطريق على ألوان متباينة من الناس ، وأشكال مستغربة من الحياة ، وأقوام يختلفون بعضهم عن بعض ، فى لغاتهم ، وسبل تفكيرهم ، ونظم معاشهم . فالمسافر من القاهرة الى أوربا بالقطار انما هو فى الحق آخذ نفسه باسباب رياضة جسمية وعقلية ونفسية

واليوم ، وأنا أتطلع الى المستقبل بعين الواثق المطمئن ، أرى فى أفق العالم الجديد مدى ما يمكن أن يكون للمواصلات جميعا من شأن وخطر ، وخاصة القطار والسفينة . فلسوف ينشأ بين هاتين المطيتين تعاون جدى وثيق يرمى الى خير العالم ، وازدهار مدنيته

سينشأ بين القطار والسفينة هذا التعاون المنظم الوثيق حتما . فحينا يحمل القطار الناس وكنوز الارض وخيراتها الى السفينة ، وحينا تحمل السفينة هذه النفائس الى القطار . فينطلق بها الى حيث يشاء ، لا يعوقه مرتفع من جبل أو منخفض من أرض

وستبقى للقطار مع ذلك خصائصه ومزاياه مما لا تملك السفينة ولا الطائرة أن تشاركاه فى شىء منها . وحين تكشف حجب هذه الحرب عن وجه العالم ، ستنظر الانسانية الى القطار باعتباره احدى الوسائل الفعالة فى تضميد جراحه ، وتخفيف آلامه ، والمساهمة فى اعادة بناء عالم الغد ، ذلك العالم الذى نرجو أن تشيع فيه روح انسانية جديدة ، لا تؤمن الا برسالة الانشاء والتعمير والخير العام لاهل هذه الدنيا

محمود شاكر محمد

دراسة ونصيحة

كيف تعرف أنك تحبُّ ؟

حقا انه شعور عجيب .. ولكن أأنت واثق أنه الحب ؟ فمن يدريك أنه ليس الا مجرد جاذبية جسمانية لا صلة لها بالعاطفة والشعور ؟ ومن يدريك أنه لا يعدو أن يكون سلوى أو عزاء عن حلم ولى وأمل خاب ؟.. كيف تعرف أن شعورك هذا هو الحب ؟

نعم ، ليست التفرقة بين ما هو حب وما هو ليس حبا بالامر اليسير . بل ان أعلم العلماء وأحكم الحكماء قد يخطىء فيحسب أنه يحب بينا هو لا يحب ! وان أوضح أمارات الحب وأصدق دلائل الهوى قد تكون ستارا مسدلا على احساس ليس له بالحب أدنى اتصال !

واذن فعليك اذا خالجك هذا الشعور المبهم الغامض أن تتمهل فى الامر رويدا قبل أن تحكم على نفسك بأنها غدت أسيرة الحب والهوى .. تمهل قليلا حتى تختبر عواطفك وتمتحن أحاسيسك بشتى وسائل الاختبار والامتحان ، فان جازت الامتحان فالامر حب ولا مراء ، والا كفيت نفسك مؤونة الحب وما أثقل حملها وأفدح عبثها !

قد تقول : لقد أحببت من النظرة الاولى .. ولست أريد أن أجادلك فيما اذا كانت النظرة الاولى هذه تكفى أو لا تكفى لاحداث الحب وتوليد الغرام ، ولست أريد أن أجادلك فيما اذا كانت روايات الغرام القائمة على النظرة الاولى توافق أو تناقض الامر الواقع فى هذه الدنيا .. ولكن كل ما أطلبه اليك ألا يسوقك هذا الحب ، الذى ولد ودرج وشب وكبر فى لحظة خاطفة ونظرة عابرة ، الى الزواج دون تريث وأناة . فانه خير وأبقى لك ولمن تحب أن ترجىء الزواج بضعة شهور ، على أن تتزوجا اليوم لتديرا غدا رحى الطلاق

فمن الطبيعى أنكما اذا تمهلتما قبل الزواج قليلا انتهى الامر الى احدى نتيجتين : اما أن أحدكما أو كليكما يغير رأيه ويعدل عن الزواج ويكفى نفسه مشقة النزاع ومأساة الطلاق .. واما أن يقدم على الزواج مستمتعا بنعمة الحب والهوى ، وبلذة الظفر

ومن الحقائق الاولى التى يجب أن تعرفها وأن تذكرها عن الحب انه لا يبلى بمرور الايام ، بل يظل حافظا لجدته ثابتا على حاله دهرا طويلا . فاذا كنت تحب حقا ، فلا بأس ولا ضرر من التمهل قليلا ، فسيظل قلبك عامرا بعاطفته ، وسيظل احساسك مشبوبا بجذوته . وان لم يكن ما بك حب حمدت الله على أنك اكتشفت هذا قبل الزواج لا بعده !

اذن فلا تكن عجولا . ففى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة . وفى أثناء تريثك هذا

ادرس بطلة قصتك درسا دقيقا .. وأنت يا سيدتي خذي بنصيحتي هذه ولا تعجلي الامر ، وادرسي بطلك المحبوب في روية وأناة

واس ، حين تدرس، البدر المتألق والهلال الساجي ، والزهر المونق والعطر الشذي . وحاول أن تعرف هذه التي تحبها كما هي في بيتها ، وقد خلعت عنها ثوبها الانيق الفاخر، ودلفت الى المطهى تعد الطعام وتغسل أوانيه . وحاول أن تصحبها يوما كاملا ، وأنتما على انفراد ، لا أن تراها من حين الى حين وسط جماعة من الصحاب ، حين يكون كل منكما متكلفا ، متأنقا ، متصنعا ، في كل ما يصدر عنه من كلمة أو حركة أو اشارة

وتذكر أنك اذا تزوجتها ستقضي أكثر يومك بجوارها . وأنك ستراها حينئذ وقد تشعثت غدائر شعرها المشطة المصففة ، وقد تجرد وجهها مما يزينه من ألوان المساحيق، وقد استيقظت من نومها ذات صباح وعلى وجهها آثار أرق ، أو ضجر ، أو صداع ، لم تخفها بما تفتن فيه النساء من وسائل التجمل وأساليب الاغراء

وان كنت تحسب أنك تحبها لانها تتراءى لك في فتنة جمالها وسحر بهائها ، فلا تنس أنها لن تكون جميلة بهية هكذا حين يضطر طبيب الاسنان ان يخلع سنا من ذلك الدر المنضد وراء الشفاه الوردية .. ولا تنس أنك أنت الذي ستقضي حتما ليلة أو ليالي تضع على رأسها الكمادات الباردة أو الساخنة ، والليل هادىء داج ، لانها تشكو ألما أو تعاني مرضا ..

أراك تضيق بما أقول ، أليس كذلك ؟ اذن فأنت تحب حقا ، لانك اذا كنت تحبها حبا صادقا فانك لا ترى في قيامك بمهمة التمريض الى جوار فراشها المحبوب الا واجبا تؤديه بقلب يفيض حنانا ويد ترتجف اخلاصا .. نعم ، اذا استطعت أن تراها وقد عصبت رأسها المصدوع ، واحمر أنفها المزكوم ، ودمعت عيناها وشحب وجهها وتقلصت بشرتها ، ومع ذلك ظللت تراها كما كنت تراها من قبل في فتنة جمالها وسحر بهائها .. فلا بد أن يكون هذا هو الحب بعينه وذاته !

واذا كنت يا سيدتي تظنين أنك تحبينه حقا لانه يتراءى لك ملاكا فتانا في ثيابه الانيقة وشعره المتألق ، فأرجوك أن تفكري في الامر طويلا . تريثي يا سيدتي الصغيرة ، تريثي رويدا . وتذكري أنك سترينه بعد ذلك وقد طال شعر لحيته ، وهو يطوف في غرف البيت ومرافقه ، في سراويله المهلهلة شتاء القصيرة صيفا ، أو هو واقف أمام المرآة يختال بعضلاته ويرقصها كما يفعل أولئك الرياضيون في الملاعب الجوالة .. وتذكري أنك سترينه بعد الزواج معنيا بياقته البيضاء المنشاة ، وبرباط عنقه الزاهي ، مثلما كان يعني قبل الزواج بردائك وحقيبتك وحذائك .. وسترينه بعد الزواج وهو يحدق في وجهك متمعنا متأملا ، وبينما أنت تحسبينه قد راح يستملي جمالك ويستلهم فتنتك ، اذ به يصيح فجأة : « أيها الخادم ، ماذا أعددت لنا اليوم من طعام العشاء ؟ » اذ الواقع أنه لم يكن يفكر في محياك المشرق وقوامك الاخاذ ، بل في معدته الجائعة وما تتطلبه من شهي الطعام

هكذا سيكون الامر بينكما بعد الزواج . وهكذا ستجدينه شخصا مملوءا بالأثرة والانانية ، وستجدين أن الزواج لم يصلح من أمره كثيرا ولا قليلا . وصدقيني ياسيدتي أنك ان كنت تريدين اصلاحه فاصلحيه قبل الزواج لا بعد الزواج .. نعم قبل الزواج حين يقبل كل نصيحة منك عن طيب خاطر ، حين يلبي كل رجاء تقدمينه وينفذ كل أمر تلقينه ، حين يسهل عليه أن يفعل كل شيء — حتى أن يغير من عاداته ويصلح من خلاله — في سبيل أن يظفر بقلبك ويفوز بيدك . أما ان تركت أمر الاصلاح الى ما بعد الظفر والفوز ، الى ما بعد الزواج ، فوفري على نفسك حينئذ مهمة الاصلاح ومشقاتها ومشاكلها

أما ان كنت يا سيدتي تجدين نفسك شاعرة بما فيه من نقائص وأخطاء ، وقادرة على التسامي عليها والاغضاء عنها ، فأنت اذن تحبينه حقا، فأقدمي على الزواج وليكن ما يكون. نعم ، ان كنت متنبهة الى عيوبه ومع هذا لا ترينه عيوبا ، ان كنت ترين بعينيك المفتوحتين نقائصه ومع ذلك لا تجدين فيه ما يعيبه ويشينه ، فليس لى أن ألقى اليك قولا أو أسدى اليك نصيحة ما ، فأنت تحبين ، والمحب لا يصغى الا لهاتف القلب دون سواه ..

ولكن ثمة كلمة أخيرة ألقيها اليك أيها العاشق ، واليك أيتها العاشقة ، تحذيرا وانذارا: اياك ، اياك ، ان تندفع الى حب جديد عقب أن تخفق في حب قديم . لا تقدم على الحب الجديد الا بعد أن يندمل جرح الحب القديم ، ثم بعد أن يصير نسيا منسيا

وكثيرا ما يقدم الناس على الزواج اثر اخفاقهم فى الحب ، وكأنما يرون الزواج رأما لصدع القلب ، وسلوى عن فجيعة الحب . ولكن ثق أن الجرح لا يندمل ، وأن الكسر لا ينجبر ، بأن تذهب الى المذبح وتقدم كيانك كله ضحية وقربانا

وحذار من أن تتزوج فتاة لترى فتاتك الاولى أنك فى غنى عنها . وحذار من أن تتزوجي فتى لترى فتاك الاول أنك فى غنى عنه . فما فى هذا خير لك ولا لمن تتزوج..

بل عليك اذا أخفقت فى الحب أن تتريث طويلا ، وطويلا جدا ، حتى تذبل زهور ذلك الحب وتصوح جنانه ، ثم تنبت أشجار جديدة تزهر بأزهار جديدة . لا تجعل الحب الجديد بديلا من الحب القديم ، ولا ثأرا منه وانتقاما ، بل اجعله حبا « طبيعيا » ينشأ دون تعسف واكراه .. فقد يصنع كل شيء الا الحب فلا سبيل الى صنعه ، انما يأتيك عفوا دون تعمل ودون انتظار

قالوا قديما : قدر لرجلك قبل الخطو موضعها ، وأنا أقول لك : قدر لقلبك قبل الحب من تهواه ، وقبل الزواج من يشاركك الحياة

(عن مقال بقلم لويس دنلاب من كتاب الدليل النفسي العام)

حجر الفلاسفة، ما هو ـ كيف نشأ ـ وأين بدأ ـ وما معناه ـ
والى أين كان منتهاه ؟ هذا ما يجيب عنه هذا المقال

حجر الفلاسفه

بقلم الأستاذ ابراهيم بك كحيل
مراقب التعليم بوزارة المعارف

ان قدماء المصريين أتقنوا صناعة المعادن وصياغة الذهب والفضة فى حلى خالصة منهما، وانهم تمكنوا من عمل سبائك قلدوا بها الذهب وتوهجه والفضة ونصوعها ، وانهم كانوا أول الامر يحرصون كل الحرص على أسرار هذه الصنعة ، فلم ينتقل العلم بها من الفئة القليلة المختارة الى أفراد من الشعب ، الا أن هذا الحرص وهذه القدسية لا يمكن أن تدوما بعد أن دالت دولتهم ، وتغلبت عليها دولة الفرس ثم دولة الاغريق وأقحمت عليهم عبادة آلهة غير ما كانوا يقدسون . فلا بد أن يكون قد تسرب العلم بالصنعة من صميم الخاصة الى بعض العامة ، وليس من المستبعد أن يستغل ذلك فى ايهام طبقات من الشعب بأن الذهب المصنوع هو الاصيل ، وأن فى الامكان الحصول عليه مما هو دونه مرتبة وأقل ثمنا . ووجدت هذه الفكرة مرعى خصبا عند الناس ، فالانسان كان ولايزال يبحث عن الذهب ويطمع فى الحصول عليه من أى طريق ، فهو الجواز السهل الى السلطة والنفوذ والى الجاه والغنى والى متعة الحياة الحلال منها والحرام

ثم جاءت الفلسفة الاغريقية بتعاليمها عن أصل المادة ، وعن أنها مهما تنوعت مظاهرها واختلفت تراكيبها فبدايتها واحدة وعناصرها قليلة

ألا يكون من الطبيعى اذن أن يتصور العقل البشرى امكان تحويل المادة التى تشبه الذهب الى ذهب ، والتى تضاهى الفضة الى فضة ؟

أليس من المعقول أن يسعى من تملكوا سر الصنعة الى استخلاص المادة البدائية من المعادن الرخيصة ، ثم اكسابها خواص الذهب والفضة ، فتتحول باجتهادهم الى ذهب وفضة ؟

ثم أليس من الجائز أن يتوهم أصحاب الكيمياء وهم من الفلاسفة ، وجود مادة سحرية تضاف الى الرخيص ، فيغلو ، والى الدنىء فيسمو ؟

هكذا نشأت فكرة حجر الفلاسفة فى مصر ، أوجدها فلاسفة الاغريق فى الاسكندرية، وضمنوها كتبهم ورسائلهم ، ونقلها عنهم العرب وزادوا فيها وجعلوها مدار بحوثهم

وكهنة آمالهم ، وألبسوا الصنعة المصرية ثوبا فلسفيا ، فعمدوا فى كتاباتهم الى الرموز والاحاجى رغبة منهم فى أن تظل الكيمياء بمنأى عن جمهرة الشعب ، وأن لا يحظى بالحصول على الحجر وقوته وعلى الذهب وجبروته الا خاصة الخاصة من العلماء الذين انقطعوا للبحث والتنقيب وقربهم الملوك والامراء وذوو النفوذ والسلطان ، لا تكريما للعلم ولا حبا فى الفلسفة ، ولكن رغبة منهم فى الحصول على الذهب الذى يقوى نفوذهم ويمد فى سلطانهم

ولما كان البحث فى سبيل العثور على الحجر يستغرق وقتا طويلا ، فواضح أن من يسعى فى سبيل ذلك لا بد أن يدركه كبر السن وتقعده الشيخوخة عن التمتع بلذات الدنيا وخيراتها المادية ، ويركبه المرض ، ولذلك تطور البحث عن الحجر الذى تقوم به صناعة الذهب والفضة الى البحث معه عن اكسير الحياة وروح العالم ، وهما من معادن الحجر ، فالاكسير يداوى كل عجز أو هرم فى الجسم ، فيعود الشيخ شابا فى مأمن من الامراض . وأما روح العالم فهى روح كان معلمو هذا المذهب يزعمون أنه يحدث المسخ والتغيير فى الكائنات ، فالملائكة والجن والشياطين وسائر الارواح الهوائية والمائية والترابية والنارية تكون تحت أمره ، ومن يحصل على مصاحبة هذا الروح يكون معضدا بالقوى غير المنظورة ، ولا تعود الطبيعة تكتم عنه شيئا من أسرارها

من اشتهروا فى الحصول على الحجر

وتقدم البحث بناء على ذلك ، فأصبح فى ثلاث درجات متداخلة متماسكة ، لا تنفصل احداها عن الاخرى ، وأساسها الحجر ، لان الغنى لا ينفع بدون الصحة والشباب ، وكلاهما لا يجديان نفعا تاما بدون المقدرة على قهر الطبيعة وهتك ستر الغيب والعلم بما فيه وما قد يأتى به ، فيكون المراد بحجر الفلاسفة حسب هذا التطور الجديد هو السر الذى يجد به الانسان المال والصحة والمعرفة . ونجد الاشارة اليه فى كتابات العرب باسم الامام أو الرأس أو الاكسير التام

وممن اشتهر بالاجتهاد فى الحصول على الحجر من العرب ، وخلفوا رسائل وكتبا عدة فى هذا الباب ، خالد بن يزيد بن معاوية بن ابى سفيان ، وكان خطيبا شاعرا فصيحا حازما ذا رأى ، وهو أول من ترجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء ، وكان جوادا . سئل مرة عن طلبه للصنعة فقال : « ما أطلب بذلك الا أن أغنى أصحابى واخوانى ، انى طمعت فى الخلافة فاختزلت دونى ، فلم أجد منها عوضا الا أن أبلغ آخر هذه الصناعة ، ولا أحوج أحدا عرفنى يوما أو عرفته ، الى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة ، فهو كما ترون يضع مركز الخلافة وما يضفيه على المتمتع به من نفوذ وسلطان وجاه وغنى وجبروت فى مرتبة واحدة ، مع تملكه لسر الصنعة ، ومن هذا يتبين لنا قوة

الاغراء التى كانت تدفع بالباحثين عن الحجر فى مغامرات لا يقل الفوز بها فى النهاية عن الفوز بسرير الملك

وقد ترك خالد جملة رسائل فى الصنعة ، نذكر منها كتاب الحرارات وكتابى الصحيفة الكبير والصغير وكتابا ضمنه وصية الى ابنه فى الصنعة

ولعل أوسع كيميائيى العرب شهرة وأبعدهم صيتا وأكثرهم انتاجا وأعمقهم أثرا فى الصنعة ، هو « جابر بن حيان » أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفى المعروف بالصوفى ، وهو عالم كيميائى فذ نابغة ، اشتغل بالكيمياء وأتقنها فنا وصناعة ، وكشف الكثير من صفات المعادن والاملاح والمركبات وخصائصها فى الطب والعلاج ، وفحص الكثير من النباتات وثمارها فحص خبير مدقق . ويقولون انه أول من حصل على حامض الكبريتيك ، وهو أهم المواد الكيمياوية اطلاقا حتى فى عصرنا هذا ، بحيث قال أحدهم « يقاس تقدم الامة الصناعى والاقتصادى بما تستهلكه من حامض الكبريتيك »[1] ويقال كذلك انه أول من حصل على الكونياك أو روح العنب ، وينسب الى جابر أكثر من مائتى رسالة وكتاب ، الا أن البعض منها تافه لا قيمة له . ويقول ابن النديم : « ان الرياسة فى الصنعة انتهت اليه ، واختلف الناس فى أمره فقالت الشيعة انه من كبارهم ، وزعموا أنه كان يتنقل فى البلدان لا يستقر به بلد خوفا من السلطان على نفسه . وحدثنى بعض الثقات ممن تعاطى الصنعة أنه كان ينزل فى شارع باب الشام فى درب يعرف بدرب الذهب فى الكوفة ، وقيل بل فى غيره ، لانهم عثروا فى أحد الازقة بعد وقته بقليل على هاون به مئتا رطل من الذهب ، وعثروا معه على موضع قد بنى للحل والعقد

ومن كتبه كتاب الكمال وكتاب الواحد الكبير والواحد الصغير وكتاب الركن وكتاب البيان وكتاب الترتيب وكتاب النور وكتاب الخمائر وكتاب التكرير وكتاب الدر المكنون وكتاب الاملاح وكتاب الاحجار وكتاب الكامل وكتاب الجواهر وكتاب الاصباغ وغيرها

جماعة جابر

ولعل مما يلذ سماعه أن نعرف أن فى لندن عاصمة الامبراطورية البريطانية جماعة علمية يطلقون عليها اسم جابر ، وأحد أساطينها الاستاذ هوميارد

وممن اشتهر فى الكيمياء فى العرب كذلك محمد بن زكريا الرازى وموضعه من علم الفلسفة والطب معروف مشهور ، وكان يعتقد فى حقيقة الحجر ، وألف فى الصنعة كتبا كثيرة منها كتاب التدبير وكتاب الحجر وكتاب الاكسير وكتاب المحبة وكتاب سر الاسرار

واشتهر من العرب الذين أقاموا فى مصر ذو النون المصرى ، وهو ابو الفيض ذو النون

(١) فهو يدخل فى صناعات الادوية والعقاقير والاصباغ والمفرقعات والاسمدة وفى بعض صناعات التعدين وفى تكرير البترول وفى عشرات من الصناعات الكبرى والصغرى

ابن ابراهيم ، وكان متصوفا وله أثر فى الصنعة ، ومن كتبه الركن الاكبر وكتاب الثقة
والاخميمى واسمه عثمان بن سويد ابو حرى الاخميمى ، وكان مقدما فى صناعة الكيمياء ورأسا فيها ، ومن كتبه الكبريت الاحمر وكتاب الابانة وكتاب الحل والعقد وكتاب التصعيد والتقطير وكتاب الجحيم الاعظم

ان القارىء الباحث فى كتب العرب يخرج اذا ضرب صفحا عن حجر الفلاسفة وما كتب بشأنه وفى طرق الحصول عليه ، بطائفة من المعلومات الكيمياوية التى تشرح الكثير من العمليات المألوفة ، كالتقطير والتصعيد والتكليس والتعفين والاماهة والصهر والحل والعقد ، وهى وغيرها عدة الكيمياوى فى بحوثه وعملياته ، ويعثر على كثير مما يفيد فى معرفة خواص المعادن والفلزات والاملاح والاحجار ، فهم قد عملوا بجد واخلاص للوصول الى كنه المواد وتركيبها وخصائصها واستخدامها ، وهذا لعمرى هو أساس علم الكيمياء الحديث ، ولو أن أساس بحثهم كان للحصول على الحجر والاكسير ، ومع ذلك فالعلم الحديث قد تمكن لدرجة ما من تحقيق أحلام العرب ، ومن نحا نحوهم فى صنعتهم فى أوربا فى القرون الوسطى ، أقول لدرجة ما ، لان الحصول على الذهب من غير معادنه لا زال فى حيز المجهول ، ولكنه ليس الآن فى حيز المستحيل كما كنا نعتقد من أقل من ربع قرن

ابراهيم كحيل

سر الميزانية

وجد فردريك الاكبر ملك بروسيا ذات عام أن لا سبيل الى موازنة ميزانية الدولة، فقد زادت مصروفاتها على ايراداتها زيادة هائلة . فأقام حفلة دعا اليها نفرا من ذوى الرأى ليشاورهم فى الامر . وأوضح لهم المشكلة ، وسألهم كيف قل الايراد رغم كثرة الضرائب . وأخذ كل منهم يدلى برأيه ويسوق حجته دون أن يقتنع الملك بشىء مما يقولون

وأخيرا نهض أحد الرجال المسنين الجالسين فى آخر المائدة . وأخرج من آنية أمامه قطعة كبيرة من الثلج وأعطاها الى جاره ، وطلب أن يسلمها هذا الى جاره ، وهلم جرا ، حتى تصل الى الملك . ولما وصلته كانت القطعة الكبيرة قد صغرت فلم يبق منها الا حبة ضئيلة

وعندئذ جلس الرجل ، فقد كان الامر أوضح من أن يتطلب شرحا !

الحروب ثورة على الماضى

للسياسى المفكر الانجليزى ستافورد كريبس

ليست هذه أول حرب كبرى شهدها العالم ، لا ، وليست هى أول حرب ذات صبغة ثورية ، تهدم ما قبلها وتبنى ما بعدها

الواقع أن جميع الحروب الكبرى حركات هدم وبناء ، تؤدى الى التقدم حينا ، والى التقهقر حينا ، فى الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية على السواء

وقد شهدنا فى جميع هذه الحركات الثورية ـ أعنى الحروب ـ التى قامت فى الماضى ، سيولا دافقة من الرغبات الصادقة الملحة فى تغيير الحياة القائمة حينذاك . وشهدنا كذلك ما حدث بعد أن أخمدت نيران تلك الحروب وانبسطت فوق العالم ألوية السلام

فدراسة هذه السلسلة المتصلة الحلقات من الحروب الماضية قد تهدينا الى الطريق الذى يجب أن نتخذه فى هذه الايام التى تشرف فيها الحرب الدائرة على نهايتها ، اذا أردنا أن نحيل ما يساورنا الآن من آمال ، وما يجيش بنا من مشاريع ، الى حقائق يعم خيرها الشعوب والجماهير فى أرجاء العالم جميعها

دعونا اذن نقلب صحائف التاريخ لنتلقى درسا فيما يجب علينا أن نفعله الآن ، الآن قبل أن تضع الحرب أوزارها ، اذا أردنا أن نقيم سلما حقيقيا ، يكفل اطراد الرقى الانسانى

ولكن لماذا يجب أن نعمل الآن ، ولماذا لا نرجىء العمل الى أن نؤوب من ساحة القتال؟ ذلك أن اتحاد الشعب فى ساعة الخطر حين يكون استغلال كل رجل وكل امرأة ضرورة من ضرورات النجاة من خطر العدو الرهيب ، لا يعنى أن يستمر هذا الاتحاد قائما مثلما كان بعد أن تنجاب غمة الخطر وتعود الحياة آمنة هينة ، لا يعوزها اتحاد الشعب وتماسك الطبقات . فاذا لم نفكر فى مستقبلنا ونحن وحدة مؤتلفة الاجزاء متراصة البنيان ، أضعنا الفرصة التى يكون التفكير فيها منتجا مثمرا ، اذ ما كاد يزول خطر الهزيمة وألم القتال ، حتى تنشب الخلافات القديمة بين طبقات الامة وطوائفها مرة أخرى

ان مؤلفا من أنبه المؤلفين الانجليز شبه الحرب بالعصا السحرية ، التى تلقف فى جوفها الهائل كل ما تأفك الطبقات المتنازعة والطوائف المتنافرة ، من أسباب الفرقة ودواعى الخلاف ، حتى لتبدو الامة وهى مجتمعة فى هذا الجوف الضخم الفسيح كتلة واحدة لا تشتتها الاغراض ولا تفرقها المصالح .. ولكن سحر هذه العصا لا يبقى أبدا ، بل هو مرهون بالنار المشبوبة ، فما بقيت متقدة مؤصدة يبقى السحر نافذ المفعول ، فان خبت النار

وانطفأت جذوتها بطل السحر ، وغدت العصا قطعة من الخشب لا تصلح حتى لان نتوكأ عليها أو نهش بها !

عبرة الحرب الماضية

فى خلال الحرب الماضية غمر الزعماء والساسة والمفكرون الناس بفيض من مناهجهم ومشاريعهم ، مما أذكى أمل الناس فى وجوب تغيير الحياة القائمة تغييرا ينال جذوعها ويمتد الى جذورها .. ففى بداية الحرب ، فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٤ ، ألقى مستر لويد جورج هذه الكلمات :

« ستكسب الشعوب فى جميع البلاد من وراء هذا الصراع أكثر مما يبدو لها الآن . فمن الحق انهم سيتحررون من الخطر الاكبر الذى يتهدد حرياتهم ويعصف بها حينا بعد حين . ولكن ليس هذا كل ما فى الامر ، فان الحرب لن تنتهى بهزيمة ألمانيا فحسب ، فثمة ما هو أعظم شأنا ، وما هو أبقى أثرا ، أرى ضوءه يبزغ وسط غثير هذه المعركة الكبرى الدائرة .. ضوء وطنية أنبل وأسمى ، وأصدق وأغنى ، من تلك الوطنية البالية التى عرفناها . نعم انى أرى جميع الطبقات ، عاليها وسافلها ، غنيها وفقيرها ، ينتزع نفسه من أطمار الاثرة وأسمال الانانية ، ليرى أن مجد هذا الوطن لا يعتمد فحسب على النصر فى ساحة القتال ، بل يعتمد كذلك على انزال بنيه منازل لا تعانى الفقر والجوع ، ولا تعصف بها الحاجة والهوان . ان هذه الحرب ستضع فى رؤوس الناس جميعا ، كيفما كانت الطبقة التى نشأوا فيها أو انتموا اليها ، عيونا جديدة يرون بها الوطنية رؤية جديدة . وانى لارى ذلك الفيض الغامر من حياة الترف والبذخ والفساد وقد أخذ ينحسر عن وطننا هذا ، لتشهد بريطانيا الجديدة التى يأخذ فيها كل فرد نصيبه ، وتؤدى فيها كل طبقة واجبها »

بهذه العبارة الشعرية الخلابة عبر لويد جورج عما كان يخالج الناس من الرغائب والآمال ، وما زالت الحرب فى بدايتها ، فلما اشتدت أخطارها وثقلت أعباؤها ، وازداد بذلك ما تتقاضاه الناس من مجهود ومن حرمان ، اتضحت وقويت تلك الامانى التى علقها الناس على الحرب التى حسبوها حدا فاصلا بين الماضى بسيئاته والمستقبل بمزاياه . وبلغ الامر أقصاه غداة وقوف الحرب واعلان الهدنة ، ففى اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ ، صور رئيس وزرائنا لويد جورج ، أرض الميعاد ، بهذه الصورة البراقة الخلابة اذ خطب وقال :

« لقد تبين الوطن ما لم يتبينه من قبل . تبين مبلغ ما يدين به لاولئك المواطنين المتواضعين الذين يسكنون بيوته المنزوية فى أحياء المدن وأرجاء الريف . فلولا ملايين من أولئك الرجال الذين جاءوا من بيوتهم المنزوية ليضعوا رؤوسهم على مذبح هذا الوطن ، لكان من المحتمل أن تذهب الامبراطورية البريطانية أدراج الرياح .. فما هو واجبنا اذن ؟ واجبنا أن نجعل بريطانيا وطنا خليقا بأن يعيش فيه الابطال ! وليس ثمة وقت نضيعه قبل

أن نؤدى واجبنا هذا ، وانى لاريد أن يقوم الآن هذا الوطن العظيم بفضل ما سرى فينا جميعا من الروح الجديد السامي »

ولكن الامر الذى نسيه رئيس الوزارة حينذاك هو أن الفرصة الملائمة لتحقيق هذا الامل ، لانشاء هذا الوطن ، كانت قد فاتت . فان روح التضحية تولد ساعة تقوم الحرب، وتموت ساعة تقف الحرب . فما تكاد تخمد النار وينجاب الخطر ، حتى تمتلىء الرؤوس والصدور مرة أخرى بأسباب الخلاف ودواعى الفرقة بين الطبقات ، فلا يبقى فيها مراد للتضحية الكبرى التى يقتضيها انشاء وطن خليق بأن يحيا فيه الابطال !

ويلسون ومثله الاعلى

وكذلك كان الرئيس ويلسون فى امريكا يعبر عن أمل الناس فى أن تبدأ الحرب عهدا جديدا من عهود التاريخ . ففى يناير سنة ١٩١٨ أعلن أن « عهد القهر وعهد التخمة قد ذهبا الى الابد » . نعم ، كان الناس يأملون أن تقضى الحرب على ما عاناه العالم فى ماضيه الطويل من عدوان الشعوب القوية على الشعوب الضعيفة ، ومن غلبة الامم الكبيرة للامم الصغيرة ، ومن تلك التخمة التى تصيب بعض الامم، أو بعض الطبقات ، أو بعض الافراد، من جراء ما يصيب بعضها الآخر من ضعف وهزال .

وفى تلك السنة ، خطب فى لندن فقال :

« انى أعتقد أن الناس قد بدأوا يرون ، لا أقول العصر الذهبى ، بل العصر الذى يشرق ضوؤه وينبثق نوره يوما فى اثر يوم ، حتى نبلغ يوما ما ذلك المستوى الرفيع الذى نرى فيه تلك الامانى الحلوة التى ساورت قلب الانسانية دهرا طويلا » .

وفى صباح اليوم الذى أعلنت فيه الهدنة ، لخص ويلسون رأى الناس وشعورهم فى تلك الجملة :

« ان كل شىء حاربت امريكا فى سبيله قد تحقق . فالواجب السعيد الذى علينا أن نؤديه الآن ، هو أن نضرب المثل الطيب ، ونسدى النصيحة الخالصة ، ونقدم المعونة المادية الواجبة ، لنساهم فى اقامة الديموقراطية العادلة فى أرجاء العالم جميعها »

لم تصدر هذه العبارات عن شىء من النفاق أو الخداع . كلا ، وانما هى تصور ذلك « المثل الاعلى » الذى تعلق بالخيال وتناسى الواقع ، الذى قام على أساس من الآمال والامانى ، ولم يقم حسابا للقوى الرجعية العنيفة التى اختفت برهة قصيرة حينما غشت نار الحرب ودخانها على أعين الناس . ولكن هذه القوى كانت ما تزال قوية نشيطة ، تتحين الفرص لترفع عقيرتها مرة أخرى ، فبينما ويلسون سابح فى آماله سارح مع أمانيه، كان « لودج » عضو الشيوخ الامريكى يقول : « اننا لا نريد أن نستنفد قوى هذا الشعب المادية والمعنوية ، بالمغامرة به فى بحر متلاطم الامواج أبدا ، غدار الطباع أبدا ، بحر هذه المنازعات الخطيرة والتافهة التى لا تفرغ منها الدنيا يوما ما » .

رجعة الى حروب نابليون

لنعد الى صحائف التاريخ الماضى ، ولنذكر ما حدث فى أعقاب الثورة الفرنسية وحروب نابليون ، لنتبين أن الحرب قد تكون خطوة الى الامام ، وقد تكون رجعة الى الوراء ، ولنأخذ منها عبرة لنا فى تلك الايام التى نحسب فيها أن الحرب لا بد أن تتمخض عن مستقبل زاه باهر مشرق الضياء ، ولو أغفلنا التفكير فى أمره ، وأهملنا السعى فى سبيله ، وقلنا حسبنا أن نكسب الحرب وننهيها ، فلا نلبث أن نجد من ورائها كل ما نريد ونتمنى !

لقد بثت الثورة الفرنسية فى قلب كل طبقة أتوقراطية حاكمة فى أوربا الخوف من أن تمتد اليها نار هذه الثورة فتذهب بها وتأتى عليها .. ثم قامت حروب نابليون وجاءت انتصاراته ، فكانت طريقا لنشر مبادىء الثورة الفرنسية فى أرجاء أوربا . فأجمع القاهرون والحاكمون أمرهم سنة ١٨١٥ ، حين حلت بنابليون هزيمة واترلو ، على ألا تكون بعد اليوم ثورة فرنسية أخرى ، وذلك بقتل كل بذرة من بذور التفكير الحر ، خشية أن تنمو هذه البذرة فتغدو ثورة كبرى

ومع أن الرأى العام فى تلك الايام كان لا يزال قليل النضوج ضئيل النفوذ ، الا أنه كان من اللازم خديعته بمعسول الكلم وبارع الابهام . وفى هذا يقول « فون جينتز » سكرتير مؤتمر فينا ، ان تلك العبارات الضخمة الخلابة التى هدر بها الساسة المؤتمرون هناك عن : « اعادة بناء النظام الاجتماعى » وعن « تجديد شباب النظام السياسى فى أوربا » وعن « السلام الدائم القائم على تقسيم السلطة بين الامم تقسيما عادلا » ـ هذه العبارات وأمثالها لم يكن القصد منها الا تهدئة الرأى العام وتملق جماهير الناس . أما الغرض الحقيقى الذى قام له مؤتمر فينا فهو توزيع الغنائم والاسلاب التى انتزعت من أيدى المغلوبين بين فريق الغالبين الظافرين »

وهكذا انتهت الثورة الفرنسية وانتهت حروب نابليون ، التى كان الناس يأملون فى أيامها أن يتقوض الماضى ويقوم على أنقاضه مستقبل شامخ البناء رفيع الذرى ، الى عهد من أقسى العهود عسفا وعنتا ، وشدة وضيقا .. حتى خيل الى الناس أن هذه الثورة لم تقم ، وأن تلك الحروب لم تنشب ، الا لتسلب الناس حريتهم ورخاءهم ، وتعود بهم الى الوراء حيث يعانون أكثر مما سبق لهم أن عانوا من الذل والضيق .. وفى هذا يقول « السجل السنوى البريطانى » عن سنة ١٨١٦ ، أى عقب سقوط نابليون بسنة واحدة : « ان هذه السنة الاولى من سنى اعادة السلام يمكن أن توصف فى هذا البلد ـ انجلترا ـ بأنها سنة الشدة البالغة التى أحدثت من الدهشة قدر ما أثارت من خيبة الامل » . وفى هذا ايضا يقول أحد المؤرخين البارزين : « لقد أريق فيض غامر من الدماء . وجاشت فى الرؤوس كثير من الآراء . وظهر عقم النظام القديم فى صور شتى عديدة ، حتى لم يعد الى بقائه من سبيل . وثبت أن العهد الجديد يجب أن يقوم على دعائم من برنامج الثورة الفرنسية

التى قضت على عهد الاقطاع ، وقررت المساواة بين الناس أمام القانون ، وأشاعت فى الناس فكرة القومية وأذكت حاسة الوطنية . ولكن ماذا تم من ذلك كله ؟ لقد سرت خمر النصر فى رؤوس قادة بريطانيا ، فراحوا يتحدثون عن رغبتهم فى التمتع بما كان ينتجه العهد القديم من نعم وخيرات ، وراحوا يتهيبون الاقدام على العهد الجديد وما يقتضيه من تغيير شامل فى نظام الحياة المألوفة . وهكذا كان العهد الذى تلا النصر على نابليون عهدا عقيما مجدبا ، عانت فيه بريطانيا كثيرا من الشدة والضيق ، ولم تتقدم الى الامام أية خطوة فسيحة . واقتضى الامر أن تقوم ثورة أخرى ، تلك هى ثورة سنة ١٨٣٠ ، التى استطاعت أن تهز دعائم تقاليدنا ومنشآتنا القديمة ، فتقوض ما بلى منها وتقيم مقامه تقاليد ومنشآت ملائمة للعهد الجديد ، وبذلك وحده أمكن احداث تغيير كبير فى حياتنا القديمة المألوفة ، ولم يكن الفضل فى هذا التغيير لتلك الثورة الجديدة وحدها ، بل يرجع جزء كبير منه الى الثورة الصناعية التى قامت اثر الكشف عن قوة البخار واستخدامها فى الصناعة »

والخلاصة أن الآمال التى ساورت الناس منذ قامت الثورة الفرنسية وفى خلال الحروب النابليونية تبددت وأخفقت ساعة أن وقفت رحى الحرب وارتفع لواء السلام . ذلك ان الناس لم يفكروا فى تحقيق تلك الآمال ونار الحرب مشبوبة ، وقلوب الناس ومشاعرهم مشبوبة معها ، بل قالوا : حسبنا أن نكسب الحرب وننهيها ، فلا تلبث أن تنجاب غمامتها عن سماء مشرقة الضياء !

***

أعود الآن الى الحرب الماضية والى السلم المضطرب الذى أعقبها . لقد وصفت فيما مضى ما خالج الناس ابانها من أمان وآمال ، وما جاشت به عقولهم حينذاك من مناهج ومشاريع . والآن أتحدث عن الفرصة التى أتيحت لهم لتحقيق هذا كله فأضاعوها وفوتوها . يقول مستر ونستون تشرشل عن اليوم الذى أعلنت فيه الهدنة :

« فى هذا المساء من أماسى شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ كان الرجال الثلاثة الذين يقومون على رأس بريطانيا وأمريكا وفرنسا هم سادة هذه الدنيا . ولم يكن ثمة أمر حكيم ، أو حق ، أو لازم ، الا وفى وسعهم أن ينفذوه وهم يد واحدة ورأى واحد . . ولكن سرت بينهم روح الغيرة والخلاف ، وقامت فيهم نعرة التفكك والانقسام ، وعاودتهم طبيعة الثأر والانتقام القديمة . . وأهم من ذلك أن روح التعب والاجهاد سرت فيهم وتمكنت منهم وسيطرت عليهم جميعا »

وفى اليوم التالى ليوم اعلان الهدنة خطب مستر لويد جورج فى مؤتمر حزب الاحرار قائلا : « ان السلم يجب أن يقوم على مبادىء الحق والانصاف التى لا تتأثر بروح الثأر ورغبة الانتقام وما اليها من نزوات طائشة عقيمة » فماذا كانت النتيجة ؟ أرسل اليه ثلاثمائة وسبعون عضوا من أعضاء البرلمان برقية طويلة يقولون فيها : « ان الناخبين الذين بعثوا

ينا الى دار البرلمان ينتظرون بفارغ الصبر أن يكون أول عمل يقوم به مندوبونا فى مؤتمر الصلح هو ذلك العمل الذى وعدتم به مرارا فى جميع خطبكم الانتخابية ، أى أن تعترف ألمانيا بدينها ، ثم البحث فى الطرق والوسائل التى تستوفى بها هذا الدين كاملا »

وعاد الناس يتحدثون عن حقهم فى الراحة والمتعة بعد ما عانوا من جهد ، وما قاسوا من حرمان . وكان « الهدوء » هو الشعار الذى اتخذه مستر بونار لو فكسب به انتخاب سنة ١٩٢٢ . وكذلك كان الامر فى امريكا ، بل لعله كان فيها أشد وأقسى . فان الرغبة فى الراحة والهدوء ، يضاف اليها التشكك فى نوايا أوربا ، وعامل الندم على النزول الى ساحة الخصام بين دول أوربا ، جعلت أمريكا أشد من بريطانيا نكوصا على عقبيها . وكان الرئيس هاردنج يتكلم فى أمريكا مثلما يتكلم بونار لو فى بريطانيا عن « حاجة أمريكا الى الراحة لا الى البطولة ، الى التعمير لا الى الثورة » . وها قد عرفنا ماذا أدت اليه نزعة الهدوء ، والراحة ، والتعمير هذه فى بحر عشرين سنة قصار !

ولكنا وان كنا قد أضعنا الفرصة التى أتيحت لتحقيق ما كان يساورنا من آمال فى ابان الحرب الماضية ، الا أننا لا ننسى أن الامر لم يكن خسارة مطلقة ليس فيها قسط من الارباح . اذ لا شك أن العالم تقدم تقدما لم يكن ممكنا لولا قيام الحرب الماضية . فاليها وحدها يرجع الفضل فى أن روسيا أنجبت شعبا جديدا عظيما . وفى أن الصين أنجبت هى الاخرى شعبا حرا مجيدا . وكذلك كان ثمة تقدم عظيم فى المسائل العلمية ، وفى الاصلاح الاجتماعى ، وشهدت بريطانيا على الاخص تقدما كبيرا فى التعليم ، وفى الصحة ، وفى رعاية المتعطلين ، وفى تحرير النساء ومنحهن حق التصويت والتمثيل . وكذلك قامت تجارب عديدة فى الادارة الدولية ، وحدث تطور محسوس فى شؤون المستعمرات وفى حياة الهند . ولكن كل هذا لا يمكن أن يكون عوضا عن الخسارة الفادحة التى خسرناها حين عجزنا عن أن نحقق الآمال الفسيحة التى تراءت لنا فى أثناء فترة الحرب . اذ لم تمض بضعة شهور على يوم الهدنة حتى عاد القلق والضيق يسريان فى عروق الناس ، وعادت خصومة الطبقات تفرق الشعب أشياعا ، وكانت سياستنا الخارجية المتقلبة المتناقضة تعبيرا عما نعانيه فى حياتنا الداخلية من عوامل التشكك والتردد والاضطراب . وكانت النتيجة المحتومة لهذا كله أننا وجدنا أنفسنا وسط حرب أخرى أشد من الاولى نكرا ، فى وقت لم نتأهب فيه بما يجب من العدة والسلاح



ماذا تفعل امريكا بعد الحرب

بقلم السياسى الامريكى المشهور هارى هوبكنز

> هارى هوبكنز هو أوثق أصدقاء الرئيس روزفلت صلة به ، لأنه يقيم معه فى البيت الأبيض ، كفرد من أفراد العائلة . وهو لهذا أدرى الناس بمشروعات روزفلت واتجاهاته التى ستكون العامل الأول فيما يقرره مؤتمر الصلح القادم ، وفيما سيكون عليه أمر العالم فى سنيه المقبلة . فلتقرأ مقال السياسى الأمريكى الكبير على أنه صورة تقريبية لما سيتمخض عنه المستقبل القريب من خطط وبرامج وسياسات

سنخرج نحن شعب امريكا من هذه الحرب أغنى وأقوى شعوب العالم طرا . هذه حقيقة لا سبيل الى تجاهلها أو الشك فيها

فعند ما يأمر القواد جنودهم أن « أوقفوا اطلاق النار » ، سنجد بلادنا ، دون سائر البلاد ، سليمة لم تخربها جحافل الجيوش ولم تدمرها أسراب الطائرات . وسنجد شعبنا ، دون غيره من الشعوب، قويا لم يوهنه الجوع ولم تثلمه الضائقة . وسنجد سلة الخبز فى بيتنا حافلة بالخبز ، بينما سلات الآخرين تنتظر من يجود عليها بالرغفان !

وسنجد أننا نملك أعتى اسطول بحرى، وأضخم اسطول تجارى، وأكبر اسطول جوى

ثم ان هذا الشعب الذى برع منذ عهد بعيد فى فنون الصناعات ، وجاءت عليه الحرب فدفعت بعشرات الملايين من رجاله ونسائه وشبانه وفتياته الى مصانع الذخيرة والسلاح ، سيكون لديه بعد الحرب أضخم جيش عرفه التاريخ من مهرة العمال والصناع

كل هذه العوامل ستجعل طاقة أمريكا فى الانتاج الصناعى ، وهى بمفردها أضخم من طاقات حلفاء أمريكا كلهم مجتمعين معا ، قادرة على أن تمون الاستهلاك المحلى بأسره تموينا كاملا ، ويتبقى من انتاجها بعد ذلك ما يساوى ستة مليارات (ألف مليون) من الدولارات يمكن لامريكا أن تصدرها الى الدول الاخرى فى كل عام

وغدا سيجلس هذا الشعب الذى يفوق سائر الشعوب غنى وقوة الى مائدة الصلح التى تضم سائر حلفائه ، ليرسموا الصورة التى يتخذها العالم فى أيامه القادمة . فما هى السياسة التى ستتخذها امريكا يوم تجلس الى مائدة الصلح هذه ؟ أتكون سياسة التاجر الذى يرى فى كل أمر صفقة بيع وشراء تقدر بالدولار ؟ أم تكون سياسة الرجل الذى يعيش فى طرف الغابة ، متوجسا الخوف من كل أجنبى وكل قادم ، متأهبا للانزواء وسط الاشجار اذا لمحت عينه بارقة الاخطار ؟ أم تكون سياسة الرجل الذى تجتمع فى قلبه فضيلة الانسانية برذيلة النفاق ، فيريد أن يمنح ويجود بكل شىء كيما يقال عنه انه رجل طيب وجواد ؟

أعتقد أن أمريكا لن تتخذ أية سياسة من هذه السياسات ، فهى ليست فى حاجة الى أن تساوم ، ولا الى أن تتخوف ، ولا الى أن تنافق . نعم ، بل يجب علينا أن نذهب الى مؤتمر الصلح ، ونحن فى كامل قوتنا وموفور وقارنا ، فنأخذ أنفسنا بسياسة عادلة رفيقة ولكنها حازمة فاصلة ، ونجعل همنا الى أن نحقق لشعبنا أفضل وجوه الرخاء ، على ألا يؤدى هذا الى الانتقاص من رخاء غيرنا من الشعوب

علاقة أمريكا بروسيا

ولكن صديقا لى سألنى ذات يوم : « ولكن كيف السبيل الى التعاون مع روسيا ؟ انها على وشك أن تنشر الشيوعية فى أرجاء العالم جميعا . وان رجال واشنجتون يسيرون فى طريقهم هذا معصوبى الاعين لا يرون الخطر الهائل الذى يحيق بنا من جراء موقفنا من روسيا . انها سوف تستنزف دماءنا ، حتى اذا غدونا هيكلا من العظام النخرة ، ضربتنا الضربة التى تسحقنا وتذرونا مع الريح هباء . لو كنا نعقل أو ندرى لعملنا لحماية أنفسنا من روسيا ، بدلا من أن نبذل لها العون من دماء جنودنا وعرق عمالنا »

وردى على هذا السؤال الذى يساور كثيرا من الناس هو أن لروسيا فلسفة سياسية خاصة بها تختلف عما اتخذناه فيما مضى ، وعما نصر على أن نتخذه فى المستقبل . ولكن هذا الاختلاف بيننا فى المذهب السياسى لم يحل دون أن نتفق معا فى الغاية التى نسعى اليها . فروسيا تسعى ، كما تسعى امريكا ، الى الارتقاء بمستوى شعبها ، والى التعبير عن عبقريتها الخاصة ، والى المساهمة فى أمور هذا العالم الذى تعيش فيه . لقد جاهدت روسيا قبل الحرب جهادا شاقا عنيفا دام عددا من السنين المتواصلة فى سبيل اقامة حضارة صناعية حديثة على أنقاض نظام زراعى بدائى قديم ، كان الغرض منه تمكين الاقلية الغنية الحاكمة من الاستبداد بالاكثرية المعدمة المحكومة . أما اليوم فهى تحارب فى سبيل حياتها وبقائها . وغدا ، بعد ما تخلص من تلك الانياب التى أنشبت فيها قهرا وعدوانا ، ستعود روسيا فتستأنف جهدها فى اقامة الصناعة وتوسيع نطاقها ، وفى تحسين حياة شعبها والارتقاء بها . ونحن الآن نتعاون معا تعاونا عسكريا فى سبيل كسر الطغاة ، وانى على يقين من أن هذا التعاون يجب أن يستمر فى عهد السلم لمصلحتها ولمصلحتنا على السواء

نعم ، فمن الوجهة الاقتصادية المحضة ، دع جانبا الناحية الادبية التى تقضى على من تعاونوا وقت الشدة أن يظللوا على تعاونهم وقت الرخاء ، أقرر أن من مصلحة أمريكا أن تتعاون مع روسيا بعد أن تخمد نار الحرب تعاونا وثيقا ومخلصا . فقد كنت أتحدث منذ عهد قريب مع بعض الروسيين الذين يقيمون فى امريكا . فقدرت مما سمعته منهم من أنباء ، أن روسيا ستحتاج فى أول سنة من سنى السلم القادمة الى أن تشترى من أمريكا ما قيمته ٧٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ، من أجهزة كهربائية ، ومن آلات بخارية ، ومن سكك حديدية ، ومن محطات لتوليد القوى ، وغير ذلك من المعدات التى تستأنف بها تحقيق

سياستها الصناعية . وستظل فى حاجة الى أن تشترى مثل هذه الكمية الضخمة فى كل سنة من السنوات العشر التى تعقب الحرب . اذ الواقع ان روسيا ستواجه مهمة هائلة خطيرة ، فستعمل أولا على تعمير تلك المناطق الصناعية الفسيحة التى خربتها قطعان الالمان ، وستستأنف ثانيا أداء العمل الذى ثابرت عليه قبل الحرب بضع سنين ، أى اقامة الصناعات التى تمون الملايين العديدة التى تسكن أرجاء روسيا الفسيحة

ان أمام روسيا خمسين سنة من الجهاد فى سبيل تحقيق برنامجها الصناعى والاجتماعى ، أى فى سبيل اقامة الحياة الصناعية الكاملة ، ورفع حياة الشعب الى المستوى اللائق الكريم . وستضطر فى خلال نصف القرن هذا أن تشترى ، منا ، ومن بريطانيا كذلك ، ومن كل قطر يستطيع أن يصدر اليها ما تريد من آلات ومعدات

قلت هذا لصاحبى ، فعاد يصيح قائلا : اذن فأنتم تريدون ان تقيموا غولا عتيا رهيبا ، يحطمنا ويقضى علينا يوما ما !

فقلت له : انما تقوم الغيلان المخيفة فى بيئات الفقر والاضطهاد . تقوم بتحريض زعمائها تارة وتقوم باستفزاز من أفقروها واضطهدوها تارة أخرى . أما الشعوب الرخية ، السليمة ، الناهضة ، فانها ليست فى حاجة الى أن تعتدى على غيرها وتهاجمه . فنحن فى علاقتنا بروسيا مخيرين بين أمرين : أولهما أن نتعاون معها تعاونا يعود بالخير الوفير على حياتنا الاقتصادية ، وثانيهما : ان نقبع وراء الخطوط والتخوم ، متأهبين بجيش جرار ، وأسطول جبار ، وسلاح جوى رهيب .. فان آثرنا هذا تعبنا وتعبت روسيا معا ، وان آثرنا ذاك كان فيه الخير لنا ولروسيا على السواء

علاقة أمريكا ببريطانيا

والآن سوف يقول صديقى : هيا بنا ندخل ذلك الهيكل القديم الذى يسمونه « الامبراطورية البريطانية ! »

فهل ثمة داع الى هذا التخوف الذى أراه باديا على جانبى المحيط الاطلسى ؟ فثمة فى انجلترا من يقول : « كونوا على حذر .. وأرقبوا ذلك التاجر الامريكى الذى يريد أن يبيعنا ويشترينا كيف شاء » . نعم ، انهم فى انجلترا يتخوفون منا كما نتخوف نحن منهم فى امريكا ، وهم على حق فى ارتيابهم وتوجسهم هذا ، فقد عانوا كثيرا من عنت بعض تجار المال ورجال الاعمال فى بلادنا فيما مضى

ولكن رغم كل ما قام بين الامتين من سوء ظن أو سوء تفاهم فى تلك السنين التى امتدت بين الحرب الكبرى الاولى والحرب الكبرى الثانية ، فان الامر لا يمكن أن يتعدى ما يحدث بين أمتين تتكلمان لسانا واحدا وتعيشان من ثقافة واحدة ، فقد ينشب بينهما خلاف على أمر ما ، ولكنه لن يؤدى بهما الى شجار أو قتال . وهل تنسى أنه قد مضى أكثر من مائة عام لم يقم فيها الاسطول الامريكى بمناورة بحرية واحدة فى المحيط الاطلنطى

يستدل منها على أننا نخشى بريطانيا أو على أننا نناصبها العداء ؟

ولكن صديقى المتشكك يسألنى : « انهم لن يدعونا نملك تلك القواعد البحرية التى أجروها لنا فى أثناء هذه الحرب » ! نعم انهم لن يدعونا نملكها ، وما يصح لنا أن نملكها ، فقد استأجرناها لمدى تسع وتسعين سنة ، والايجار والاستئجار شىء ، والبيع والشراء شىء آخر !

ولست أشك مطلقا فى أننا سنصل الى تفاهم تام مع بريطانيا فى أمر القواعد الجوية التى نريد اقامتها فى شتى أرجاء العالم ، ذلك أن هذه القواعد ستكون مصدر خير لامريكا، ولبريطانيا ، وللعالم جميعا . فنحن ذاهبون بعد الحرب الى شق طرق البحار ، وطرق الأجواء ، بعروض التجارة الامريكية ، ولهذا ستكون هذه القواعد البحرية والجوية ذات أهمية بالغة ، لا نغفلها فى مؤتمر الصلح ، ولا نعجز عن التفاهم مع غيرنا من الشعوب فى شأنها ، ما دام خيرها سيعم الجميع بغير استثناء

يعود صديقى المتشكك فيقول : « ولكن بريطانيا ستبقى بعد ذلك كله امبراطورية .. وبذلك ينقلب الامر الى نزاع بين الدول الكبرى حول مناطق الاستعمار ، فكل يريد نصيبه منها » . نعم ان مستر تشرشل قال انه لم يتول الوزارة ليصفى الامبراطورية البريطانية . ولكن لنذكر أن أكثر هذه الامبراطورية ، أعنى ممتلكاتها الحرة ، هى دول حرة بكل ما تتسع له كلمة الحرية من معان . وفى بعض أجزاء هذه الامبراطورية ، كما هو الشأن فى الهند ، شوق ونهضة الى الحرية ، ويقظة ونشاط يشملان شعوب تلك البلاد . وهذه أمور تعرفها بريطانيا أكثر مما نعرفها نحن ، ويعنيها حلها أكثر مما يعنينا نحن . وبريطانيا مرتبطة مع امريكا بميثاق خالد عظيم ، هو ميثاق الاطلنطى الذى تعهدتا به على ألا يكون لهما أية أطماع اقليمية جديدة ، وعلى أن يهيآ لشعوب الارض أن تنال حقها من الحرية والارتقاء

مهمتنا بعد الحرب مباشرة

بعد أن تنطلق آخر رصاصة فى هذه الحرب يبدأ جهادنا السلمى توا . وقد اتفقت الامم المتحدة على خطط هذا الجهاد فى خلال السنوات التى تعقب الحرب مباشرة . فكل قطر يحرر من أقطار أوروبا ، ترسل اليه فورا الاطعمة والملابس وسائر الضرورات ، التى تنقذ أبناءه الجوعى ، والمرضى ، مما عانوا فى سنى الحرب وعهد الاذلال . ولن تقوم امريكا وحدها بهذه المهمة ، بل ستعاونها فى ذلك سائر الامم المتحدة ، وان كان العبء الملقى على عاتق امريكا هو بطبيعة الامر أثقل الاعباء

وعملية الانقاذ هذه ستستغرق ثلاثة أشهر عقب تحرير كل شعب ، أو عقب تحرير أوروبا كلها اذا جاء انكسار هتلر مفاجئا ، وسيساهم فى هذا الانقاذ كل شعب قدر ما يستطيع مثال ذلك ما حدث أخيرا فى شمال افريقيا ، فقد دفعت « فرنسا الحرة » اثنى عشر مليونا

ونصف مليون دولار ، ثمنا لسلع وعروض شتى أرسلتها امريكا الى شمال افريقية بمقتضى قانون الاعارة والتأجير

ولا شك أن الحرب لن تنجاب عن أوربا الا بعد أن تتركها في حالة رهيبة مخيفة . ولهذا كان حتما علينا أن نبادر بانقاذها ، والا استحال أمرها الى كارثة اقتصادية تجر في أعقابها كوارث اجتماعية وسياسية لا قبل لنا فيما بعد بتلافيها . نعم ، فانا اذا لم نعجل بهذا الانقاذ ، أفلت الزمام من أيدينا الى أيدى رجل مغامر على ظهر جواد كتلك الجياد التى يركبها قطاع الطرق ! فان كل شعب عضه الجوع وأزمه الضيق ، يسهل لاى رجل مغامر مخادع ان يسيطر عليه ويوجهه كيف شاء . فيجب ألا ننسى أن النازية لا تقاوم بالمدافع وحدها ، بل تقاوم بالطعام كذلك ، نرسله الى تلك الشعوب الجائعة المحرومة ، حتى لا تحملها مرة أخرى على ان تنساق وراء هتلر آخر ، قد يكون أشد من هتلر هذا بأسا ونكرا !

وبينما تقوم الامم المتحدة بعملية الانقاذ هذه ، تقوم فى الوقت ذاته بعملية أخرى : تلك هى تجريد ألمانيا من سلاحها ، ومن قوتها التى تغريها باثارة حروب العدوان من حين الى حين . ولكن يجب ألا يعمينا هذا عما ينبغى للشعب الالمانى أسوة بغيره من الشعوب التى أجهدتها الديكتاتورية وضيقت عليها الخناق ، أعنى يجب ألا ننسى أن هذا الشعب فى حاجة الى كميات هائلة من الطعام واللباس يعوض عليه ما عاناه منذ عشر سنين أو تزيد . نعم ، انك لا تستطيع ان تسوى أمرا ما مع هتلر ، ولكن هتلر ستذهب ريحه ، ويبقى الشعب الالمانى ، ويبقى له ــ بعد تجريده من سلاحه ــ ما لغيره من الشعوب من حقوق فى عنق الامم المتحدة المنتصرة

ثم يجب علينا أن نحمل كل شعب أوربى ، بكل ما يسعنا من وسائل الارشاد والتوجيه، على أن يقرر مصيره بنفسه ، لا بواسطة نفر من تجار السياسة أو تجار المال ، يخدعونه بالكلام أو يضللونه بالوعود ، واننا لنعتقد اعتقادا جازما أن كل شعب لو ترك لنفسه لاختار الديموقراطية مذهبا ، ولما رضى بغيرها من نظم الحكم بديلا . وبذلك تنتفى أن ينقلب أى شعب أوربى الى شعب نازى أو فاشستى يحكمه بسوط الاضطهاد ، أو بطريق الاغراء « كويزلنج » من أى نوع كان !

واجبنا فى فترة التعمير

تأتى بعد ذلك المهمة الكبرى التى ستستمر سنين طويلة ، وأعنى مهمة التعمير والانشاء . فان رحى الحرب ستظل تطحن أوربا ، حتى اذا وقفت كان كل حقل فيها فى حاجة الى اصلاحه وتجديده ، وكل مصنع فى حاجة الى ترميمه وتعميره . ويجب على امريكا أن تحمل العبء الاكبر فى هذه المهمة ، حتى ولو اضطررنا من جراء هذا الى أن نحرم أنفسنا بعض المتاع المألوف ، فنبقى سنين دون أن نشترى ما نحب من كماليات الحياة

ولكن الاقتصاديين سيسألون : وكيف تستطيع هذه الشعوب أن تشترى منا كل ما يلزمها من مؤن وعروض لتعمير ما تخرب من مرافقها ، ولانشاء ما تحتاج اليه من مصانع ومؤسسات ؟ والجواب عن هذا أن أكثر هذه الدول يملك من مرافق المواد الخام ما تستطيع أن تشترى بها الجزء الاكبر مما تريده من آلات وأدوات . وأبناء هذه الدول يعملون الآن فى استغلال هذه المرافق ولكن لمصلحة ألمانيا ، أما بعد الحرب فيستغلونها لمصلحتهم هم ، فيستهلكون من انتاجها ما يريدون ، ثم يصدرون الينا الباقى ويستوردون بدلا منه منتجات الصناعة الامريكية . ولكن هذا لن يكفى لشراء ما يلزمهم من سكك حديدية ، وآلات صناعية ، ومحطات لتوليد القوى ، وغير ذلك من اسباب الحياة الصناعية الكبرى . فما العمل ؟ يجب على أمريكا أن تقرضهم الباقى ، ولها بعد هذا أن تجعل هذا القرض بفائدة زهيدة بحيث لا تضيع أية فائدة على دافع الضرائب الامريكى

ولنذكر أننا سنخرج من هذه الحرب ورأس مالنا أضخم رأس مال يملكه شعب من شعوب الارض . ستكون لدينا مدخرات هائلة جدا ، فان رأس المال الذى ادخره الشعب الامريكى فى خلال السنوات الاربع الماضية (١٩٤٠-١٩٤٤) يقدر بمائة وعشرين ألف مليار من الدولارات ! فلو أطلقنا هذا المبلغ الهائل على سوق الاستهلاك ، ورحنا نشترى به كل ما حرمتنا الحرب من منتجات ومعدات وكماليات ، لعجز الانتاج الامريكى على ضخامته عن أن يكفى الاستهلاك المحلى وحده . . مع أن مهمتنا الكبرى هى أن نخصص جزءا كبيرا من انتاجنا للشعوب الاخرى ، لكى تعمر ما تخرب منها ، فتستطيع أن تستأنف حياتها وتغدو عميلا لنا يشترى من تجارتنا ويستهلك من انتاجنا

قد يقول البعض انه ليس من الذوق أن أتحدث عما ستجنيه امريكا فى المستقبل من الارباح المادية ، ونحن فى وسط معمعة هائلة من النيران والدماء ، بذلنا اموالنا ورؤوسنا على أكفنا دفاعا عن الحرية وتقريرا للديموقراطية ، لا سعيا وراء المغانم ولا التماسا لشىء من الاسلاب . ولكننى لم أذكر هذه الارباح الا لانى أؤمن ايمانا صادقا بأن هذه الخطة التى ستنتجها أمريكا بعد الحرب ، وان عادت على أمريكا بمغانم وأرباح ، الا أنها ستؤدى الى رفع مستوى شعوب العالم من الوجهة المادية الى درجة لم تشهدها من قبل

ان الرجال الذين يشرفون على الشعوب التى تحالفنا هم مثل رجالنا تماما ، يريدون أن يكون لواء الحرية عاليا رفافا ، وأن يكون بناء السلام راسخا وطيدا . ان صدورهم ملأى بما تمتلىء به صدورنا من آمال ومن مخاوف ، وانهم يريدون أن يروا العالم يسير كما يسير العمل الناجح : يفيد صاحبه كما يفيد الآخرين . . انهم مثلنا يريدون ما نريد : يريدون « الحريات الاربع » مهيأة للناس جميعا . انهم جوعى وظمأى لهذه الحريات ، ولكن الخوف يساورهم والتشاؤم يتخايل أمامهم ، فمن واجبنا ، ونحن أقوى الشعوب وأغناها ، أن نتقدم الصفوف ونثبت ان أمريكا تريد أن تتعاون مع الجميع فى سبيل انشاء عالم أفضل من عالمنا وأسعد وأرخى

هذه الحصبة الملعونة

بقلم الدكتور مصطفى الديوانى

الأخصائى فى أمراض الاطفال بكلية الطب

فى مثل هذا الوسم من كل عام تكثر الاصابة بالحصبة بين الاطفال . وفى هذا المقال يتحدث الدكتور مصطفى الديوانى عن هذا المرض وأعراضه وطرق الوقاية منه

كان الطبيب العربى ابن سينا أول من أطلق اسم الحصبة على هذا المرض الذى أصبح على مر الايام أشهر من أن تعمم ميزاته وأعراضه التى لا يجهلها أحد . كان ذلك فى أواخر القرن العاشر عند ما ابتدع ابن سينا هذا الاسم الجذاب ، وأطلقه على مرض كان كثير الانتشار بين الاطفال ، وكان يصحبه عطس وزكام وحمرة فى العينين وطفح داكن يبدأ فى الرأس والوجه ، ثم سرعان ما ينتشر فى بقية أجزاء الجسم . وكان القوم فى تلك الايام الغابرة يخلطون بينه وبين مرض الجدرى ، ويعتبرونهما مرضا واحدا ، فكان مقال ابن سينا حاسما فاصلا . ولا زال كتاب الغرب يعزون اليه كل الفضل فى اكتشاف هذا المرض ، وان نبوغ الفطرة الذى ينبت بين مضارب الخيام ليعد مفخرة للعروبة التى لو لم تذرها عوامل شتى لاصبح لها شأن أى شأن

وأكثر ما تصيب الحصبة الأطفال الصغار . ويبدو أن الاطفال حديثى الولادة نادرا ما يمرضون بها لمناعة اكتسبوها عن طريق أمهاتهم . ولو ظهر المرض على الام بعد الولادة بأيام ، فانه يظهر على الطفل أيضا ، وكأن العدوى أصابتهما فى نفس الوقت فى الايام الاخيرة من الحمل فيولد الطفل والمرض فى طريق الظهور . واذا فرض وأصيبت الام وحدها ، فيجب ألا يدفعنا ذلك الى فطام الطفل وابعاده عن أمه ، لان أمامه فرصتين لا ثالثة لهما . فهو اما أنه يتمتع بمناعة كمعظم الاطفال فى الشهور الثلاث الاولى من عمرهم ، واما أن يكون قد أصيب بالعدوى قبل تشخيص مرض الام على حقيقته . اذ من المعلوم أن العدوى أشد ما تكون قبل ظهور الطفح ، أى فى الدور الذى لا يشك فيه أهل المريض بوجود المرض . فيسمح لغيره بالاختلاط به . وهذا هو السر فى انتشار العدوى فى المدارس والملاجىء . فأعراض المرض تبدأ بعطس وزكام وسعال جاف قد لا تعيرها الام أهمية كبيرة فى بادىء الامر ، فترسل طفلها الى المدرسة كالمعتاد ، ظنا منها أن ما به ليس سوى برد بسيط لا يستدعى بقاءه فى المنزل ، فيختلط المجرم البرىء بأقرانه ،

يسعل ويعطس فى وجوههم ، ناقلا اليهم العدوى فى بساطة وحسن نية . وما يحدث فى المدرسة يحدث بين أفراد الاسرة الواحدة . فمتى بدأت الحصبة فى أحد أفراد المنزل امتدت نارها الى بقية الاطفال الذين خالطوا أخاهم فى أيام الرشح الاولى قبل ظهور الطفح

وتنتقل العدوى بالرذاذ المتطاير من المريض أثناء الحديث أو السعال أو الضحك ، وهى أشد ما تكون قبل ظهور الطفح ، وتظهر الاعراض بعد حوالى الاسبوعين من تاريخ التعرض للعدوى . وهى تبدأ بعطس وزكام وسعال جاف واحمرار فى العينين وخشونة فى الصوت ، وارتفاع فى الحرارة يبدأ بسيطا فى أول الامر ثم لا يلبث أن يصل الى ما بين ٣٩ و٤٠ درجة . ويظهر الطفح فى اليوم الرابع ، وفى معظم الحالات يسبق ظهور الطفح نزول كاذب فى الحرارة يولد فى أهل المريض أملا كاذبا بزوال الازمة ، ولكن سرعان ما يطرق الباب زائر غير منتظر ترتفع معه الحرارة ثانية ، وهو الطفح الاحمر الداكن الذى هو من أهم مميزات الحصبة . وتنزل الحرارة الى مستواها الطبيعى فى اليوم السابع ، ولا يحول دون نزولها الا حدوث مضاعفات عدة كالتهاب الاذن والتهاب الرئة

وما دفعنى الى التحدث عن الحصبة الا ما أشاهده فى معظم العائلات من الاستهتار بمرضها ، حتى لقد تعمد الام الى خلط الاطفال الاصحاء بالطفل المريض لتقوم بتمريضهم دفعة واحدة ، بل قد تخطر الام جاراتها بأنها على استعداد لان تسدى اليهن معروف السماح لاطفالهن بزيارة طفلها المريض حتى يأخذوا دورهم وينتهوا من هذه المضايقة العابرة التى يسمونها الحصبة . وهذا تفكير خاطىء فاضح أنصح بتجنبه ، لان عاقبة الاصابة بهذا المرض تكون أسلم كلما كبر الطفل ، ففى تأجيلها سنة عن أخرى مصلحة له ، ولا يخفى أن للحصبة مضاعفات قد تودى بحياة الطفل ، وأهمها المضاعفات الصدرية . ومعلوم أن الالتهاب الرئوى يحدث فى ١٠ ٪ من الحالات ، وعواقبه وخيمة فى الاطفال الذين يقل عمرهم عن السنتين . ومن مضاعفاتها أيضا نزلات معوية حادة مصحوبة باسهال شديد يسبب للطفل ضعفا واضحا ، ويستلزم من الطبيب مجهودا كبيرا ليصل بمريضه الى بر السلامة . وهناك علاوة على ذلك مضاعفات عصبية نتيجة تأثر المخ بميكروب الحصبة ، وهذه تحدث فى حوالى ١ ٪ من الحالات ، وتظهر أعراضها بين اليوم الرابع والسادس من ابتداء المرض ، فتنتاب المريض تشنجات تعقبها غيبوبة يفيق منها الطفل بعد أيام ، وقد ضعفت قواه العقلية أو فقد القدرة على استعمال احدى اليدين أو الرجلين أو كليهما . وفى حالات كثيرة يصاب الطفل بالحصبة والدفتريا فى آن واحد فعلينا ألا نهمل فحص الزور يوميا حتى لا تضيع على الطفل فرصة شفاء سريع ونقاهة كاملة

ولقد جرت العادة فى حالات الحصبة أن تقفل نوافذ الغرفة وتغطى مصابيحها بأقمشة حمراء ويلبس الطفل ملابس حمراء ، اعتقادا بأن هذا يؤثر على سير المرض ، والواقع

عكس هذا تماما . فان دخول الشمس والهواء الى غرفة المريض يزيد من مقاومته للمرض، واذا كانت عينا الطفل تتأذيان من الضوء ـ وهو الاصل فى سبب تغطية المصابيح بقماش أحمر ـ فيمكن وضع نظارة سوداء على العينين أو تحويل موضع الطفل بحيث يتجه وجهه بعيدا عن الضوء

ويعتقد كثير من الامهات فى فائدة اعطاء المصاب بالحصبة عسلا أسود ، ظنا منهن أنه يساعد على ظهور الطفح . وانى أنصح بشدة بتجنب هذا ، لانه قد يعرض الطفل للاصابة باسهال شديد أو دوسنطاريا تكون وطأتها على المريض أشد من الحصبة نفسها

وهناك سؤال قد يخطر على بال الكثيرين ، هو : هل من سبيل الى الوقاية من الحصبة ؟ وللاجابة عن هذا السؤال أقول انه من الحقائق الواقعة أن لغالبية الاطفال حديثى الولادة مناعة ضد الحصبة ، وهذا ما حدا بالبعض الى الاعتقاد بأن المشيمة (أى الخلاص) تحوى أجساما مضادة ، فاستخلص منها مصل خاص لم يفلح بكل أسف فى أداء الغرض المطلوب منه ، فبطل استعماله ولم يعمر طويلا . ويفضل عليه دم الناقهين ـ أى الذين فى دور النقاهة من مرض الحصبة ـ أو الاشخاص البالغين الذين أصيبوا بالمرض فى أحد أدوار حياتهم . وقد ثبت أنه اذا حقن الطفل المخالط للمريض بدم ناقه أو بالغ فى خلال الخمسة الايام الاولى بعد التعرض للعدوى ، أمكن وقف المرض . أما بعد ذلك فقد يساعد على التخفيف من حدة المرض . وليس لمستحضرات « السلفاناميد » أى تأثير على سير المرض ، ولو أنها قد تنجح فى منع حدوث المضاعفات

وتكسب الحصبة المريض مناعة دائمة فى أغلب الحالات ، ولو أن الطفل قد يصاب بها مرة ثانية وثالثة ، وهذا نادر الحدوث

فليكن درعنا الواقى من هذا المرض الخداع ، أن نسىء الظن به دائما ، ونتوقع منه أسوأ الفروض حتى يثبت العكس

مصطفى الديواني

مائة رجل يقيمون خيمة ، وامرأة واحدة تقيم بيتاً

« مثل صينى »

روسيا خمسة أمثال أوروبا

أهم الحقائق وأبرزها فى موضوع نمو سكان العالم ، هو ازدياد عدد الشعوب البيضاء من مائة وخمسة وخمسين مليون فرد فى سنة ١٧٧٠ الى سبعمائة وثلاثين مليون نسمة فى يومنا هذا . ولا ترجع هذه الزيادة الضخمة الى الارتفاع فى نسبة المواليد بل الى الهبوط فى نسبة الوفيات . ففى سنة ١٧٧٠ كان متوسط عمر الانسان ثلاثين سنة ، أما اليوم فقد صار هذا المتوسط حوالى ستين سنة !

وقبل أن تهبط نسبة الوفيات الى ما هى عليه الآن ، كان عدد الجنس الابيض واقفا لا يزيد ، اذ كانت المواليد تسد الفراغ الذى تحدثه الوفيات فحسب . ولكن منذ تلك السنة أخذت نسبة المواليد تكبر نسبة الوفيات فى هذا الجنس فى كل سنة ، فأخذ ينمو نموا مطردا حتى أصبح اليوم خمسة أمثال ما كان عليه حينذاك

ولم تأت هذه الزيادة على قياس واحد فى جميع الشعوب البيضاء ، وأوضح الامثلة على تفاوت هذه الشعوب فى وتيرة تكاثر سكانها ما حدث فى انجلترا وفرنسا . ففى سنة ١٧٧٠ كان عدد الانجليز فى بقاع الارض كلها ثمانية ملايين نسمة ، واليوم يبلغ عددهم ثمانين مليون نسمة . أما الفرنسيون فزادوا فى تلك الفترة من خمسة وعشرين مليون فرد الى خمسين مليون فرد ، فبينما صار الانجليز المعاصرون عشرة أمثال أجدادهم أولئك ، لم يستطع الفرنسيون الا أن يكونوا ضعف أجدادهم الذين سبقوهم بقرن وثلاثة أرباع قرن !

ومن المقرر أن بطء نمو سكان فرنسا راجع الى ميل المرأة الفرنسية ، بل الرجل الفرنسى ، الى تحديد النسل ، اما ايثارا للصحة والعافية ، واما حذر الضيق والاملاق . وليس هذا الامر بدعة جديدة فى فرنسا ، ففى سنة ١٧٧٨ كتب أحد الكتاب الفرنسيين ، واسمه موهو ، رسالة ينذر فيها الشعب بأسوأ العاقبة اذا ظلت زوجاته آخذات بخطة تحديد نسلهن . ولكن الناس لم يأبهوا لانذاره ، وتفشى الامر بين جميع الطبقات ، فلما كان القرن التاسع عشر كان تحديد النسل شيئا مقررا فى أغلب الاسر الفرنسية ، غنيها وفقيرها على السواء

وكان هذا أمرا انفردت به الاسرة الفرنسية دون سائر الاسر الاوربية جميعها ، ففى العقد السابع من القرن الماضى كان عدد من تنجبهم الزوجة فى أقطار أوربا الشرقية ، فى المتوسط ، سبعة أو ثمانية أطفال ، وفى أقطار أوربا الغربية والشمالية والجنوبية خمسة أطفال ، أما فى فرنسا فكان هذا المتوسط أقل من اربعة اطفال

وقد حدث فى خلال نصف القرن الماضى أن هبطت نسبة المواليد هبوطا ملحوظا فى أكثر الاقاليم التى تسكنها الشعوب البيضاء

فمتوسط عدد من تنجبهم المرأة المتزوجة فى روسيا السوفياتية خمسة أو ستة أطفال ، وفى بولندا وبلغاريا وغيرهما من أقطار أوربا الشرقية والجنوبية بين ثلاثة وأربعة أطفال. وهبط هذا المتوسط من خمسة أطفال الى طفلين اثنين فى أكثر أقطار أوربا الغربية والشمالية . وكذلك كان الامر فى أمريكا واستراليا ونيوزيلنده ، مع أن المفروض أن تعظم نسبة المواليد فى تلك الاقطار البكر الخصيبة التى ينال فيها الانسان نصيبا موفورا من خيرات الطبيعة

وهكذا نجد أن جميع الاقطار التى يستوطنها الجنس الابيض ، باستثناء روسيا السوفياتية ، تعانى نقصا فى نسبة مواليدها وبطئا فى نمو سكانها . وقد بدأ هذا النقص فى بعض الاقطار عقب الحرب الكبرى الماضية ، ولكنه كان نقصا كبيرا جدا الى درجة ان ما أصاب فرنسا فى سبعين سنة أصاب هذه الاقطار فى عشر سنين . فقد مضى على فرنسا سبعون سنة فى ممارسة تحديد نسلها حتى نقص الى ثلثى ما كان قبلا ، وكذلك نقص هذا القدر فى السويد وسويسرة بعد أربعين سنة ، وفى انجلترا ودنمركة بعد ثلاثين سنة ، ولكن بلغاريا وبولندة وتشيكوسلوفاكيا عانت هذا النقص الخطير فى أثناء فترة وجيزة لا تتجاوز عشر سنوات أو اثنتى عشرة سنة

والآن نتساءل : ما تأثير هذا النقص فى مستقبل الشعوب التى تفشى فيها ؟

وللاجابة عن هذا السؤال يجب أن نقدر أولا « صافى نسبة الزيادة » . وتقدير هذا الصافى يأتى بتقدير نسبة عدد من يولد من أمهات المستقبل الى عدد أمهات الحاضر . فاذا كانت هذه النسبة أكثر من « واحد » كان عدد السكان فى تزايد ، واذا كانت أقل من « واحد » كان العدد فى تناقص ، واذا ظلت هذه النسبة على الدوام أقل من « واحد » كان مصير السكان الى الفناء

ومنذ مائتى سنة كان « صافى نسبة الزيادة » فى أوربا « واحدا » على وجه التقريب . فلما نقصت نسبة الوفيات نتيجة التقدم العلمى والطبى ، ارتفعت هذه النسبة وصارت أكثر من « واحد » ، وبلغت منذ أربعين سنة « واحدا ونصف واحد » فى أكثر أقطار أوربا الغربية والشمالية ، كما بلغت « اثنين » فى بعض أقطار أوربا الشرقية مثل بلغاريا وأوكرانيا . ولكنها ظلت « واحدا » فى فرنسا رغم تناقص وفياتها ، وذلك لنقص نسبة المواليد فيها كما ذكرنا

أما اليوم فان هذه النسبة أقل من « واحد » فى جميع أقطار أوربا الشمالية والغربية باستثناء هولندة وايرلندة . وكذلك الامر فى أكثر بلاد أوربا الوسطى ، مثل تشيكوسلوفاكيا والنمسا وهنغاريا وفنلندة . أما الاقطار التى ترتفع فيها هذه النسبة عن « واحد » فهى البرتغال ، ودول البلقان ، وروسيا السوفياتية

وعلى الجملة فان هذه النسبة فى سائر أقطار أوربا تبلغ ثمانية أعشار « الواحد » أما فى روسيا السوفياتية فتزيد عن « الواحد » بثلاثة أعشار . فماذا تكون النتيجة ؟ لقد كان سكان أوربا الغربية والشمالية منذ أربعين سنة مائة وخمسين مليون نسمة ، أما اليوم فهم مائة وخمسة وتسعون مليونا من الانفس . وهذه الزيادة أقل من الزيادة الطبيعية التى يجب أن تكون نسبتها أكثر من « الواحد » كما فصلنا . وعلى ذلك فهى تعتبر فى الواقع تناقصا لا تزايدا ، فلو استمر الامر هكذا لرجع عددهم فى نهاية هذا القرن الى ما كان عليه فى بدايته أى الى مائة وخمسين مليون نسمة . أما سكان روسيا فكان عددهم فى سنة ١٩٠٠ مائة مليون وعشرة ملايين من الانفس ، وهم اليوم مائة وخمسة وسبعون مليون نسمة ، فلو ظلت نسبة تزايدهم على أساس ما ذكرنا ، لبلغ عددهم فى سنة ٢٠٠٠ ستمائة وخمسين مليونا من الانفس !

واذن فسيشهد كثير منا اليوم الذى يغدو فيه عدد سكان روسيا السوفياتية أكثر من أربعة أمثال سكان أوربا بأسرها .. وهو يوم قريب جدا ، اذ ليس بيننا وبينه أكثر من نصف قرن من السنين !

(عن مقال للدكتور ر. و. كوبزنسكى فى صحيفة ناشونال ريفيو بنيوزيلندة)

نابليون فى المعركة

كان نابليون نائما فى أثناء احدى معاركه الدائرة . فدخل عليه أحد قواده وهز فراشه هونا وهو يهمس قائلا : « استيقظ يا سيدى » .. ففتح نابليون عينيه وسأله ما خطبه ، فقال القائد : « ان العدو قام بهجوم مفاجىء على جبهتنا اليسرى » . فقال نابليون : « على الجبهة اليسرى ؟ » قال القائد : « نعم » . قال نابليون : « اذن فافتح ذلك الصندوق الموضوع الى يمينك ، تجد فيه خطة مفصلة عما نفعله اذا هوجمت جبهتنا اليسرى . اتبعوا هذه الخطة تردوا العدو على أعقابه . والآن دعنى أستأنف نومى »

وأدار وجهه الى الحائط ، وراح يغط فى النوم مرة أخرى ، بينما دارت المعركة وفق الخطة التى رسمها ، فلم يلبث جنوده أن ظهروا على العدو وردوه مدحورا !

أروع أثر اسلامي فى مصر

مدرسة السلطان حسن

بقلم الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

الامين المساعد بدار الآثار العربية

فى هذا الوقت الذى قضت فيه ظروف الحرب باغلاق المتاحف ، لا تزال فى القاهرة متاحف تتجلى فيها عظمة الفن المصرى الاسلامى ليس الى اغلاقها من سبيل ، لانها بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . هذه المتاحف أقامها ونسقها أجدادنا فى العصور الوسطى ، أسسوها لا لتضم التحف النادرة ، فلم تكن المتاحف بمعناها الحديث قد ولدت بعد ، ولكن لكى تكون مساجد للعبادة ومعاهد للتعليم ، ومن يدرى فلعلهم قصدوا كذلك أن يجعلوا منها متاحف للشعب يتذوق فيها جمال الفن ، ويرهف حسه بروعته ورونقه . والذى يحز فى النفس أن هذه المتاحف على الرغم من كونها لا تسأل زائرها أجرا لقاء استمتاعه بما فيها ، فان روادها قليلون ، والمسئول عن ذلك فكرة علقت بالاذهان ولا يزال يعتنقها الكثيرون : ذلك أن عظمة مصر الفنية وتراثها الاثرى الخالد انما ينحصر فى الاهرام وأبى الهول وما اليهما من آثار الفراعنة ، وهذا من غير شك خطأ مبين ، فلئن كانت مصر الفرعونية قد رفعت لواء الحضارة فى العصور القديمة ، فان مصر الاسلامية قد رفعت هذا اللواء كذلك فى العصور الوسطى ، ولئن كان لها تراث فنى قديم تفاخر به الامم ، فان لها كذلك تراثا فنيا لا يقل عن ذلك القديم عظمة وجلالا يجدر بنا أن نعتز به ، وأن نذكره كلما دفعنا للتفاخر دافع ، فلقد سمت به مصر حقبة طويلة من الزمن ، وهو الى ذلك ، قريب الى نفوسنا ، متصل بأرواحنا ، ممتزج بعقائدنا وتقاليدنا ، لا نزال نعيش فى جوه ونستروح عبيره . وهذه المساجد والمدارس الاثرية المنثورة فى أنحاء القاهرة خير دليل ملموس على روعة هذا الفن وسموه ، ولعل مدرسة السلطان حسن [١] أروع مثال يبين لنا صدق هذا القول ، فهى من أعظم الآثار الاسلامية فى العالم وأروعها فى مصر ، ولم يعد المقريزى جانب الحق عند ما قال انه « لا يعرف فى بلاد

---

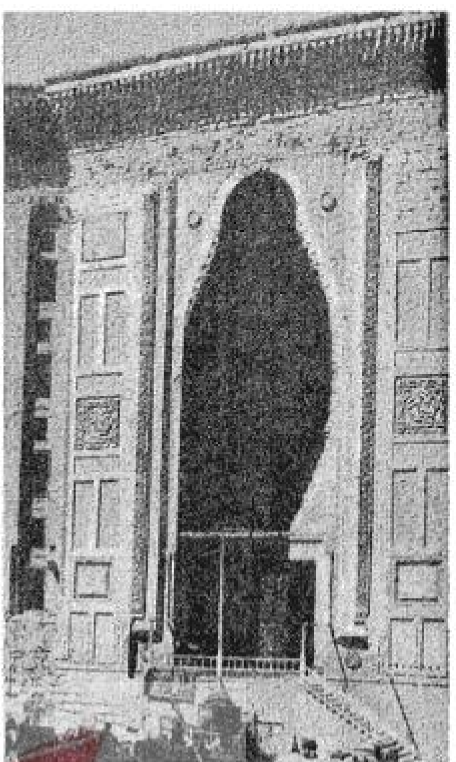
(١) تقع هذه المدرسة فى نهاية شارع محمد على على اليمين فى مواجهة القلعة

الاسلام معبدا من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة فى كبر قالبها ، وحسن هندامها ، وضخامة شكلها » . ولم ينفرد المقريزى بهذا القول ، بل لقد ردده معه كثيرون من الرحالة والمؤرخين الشرقيين منهم والغربيين

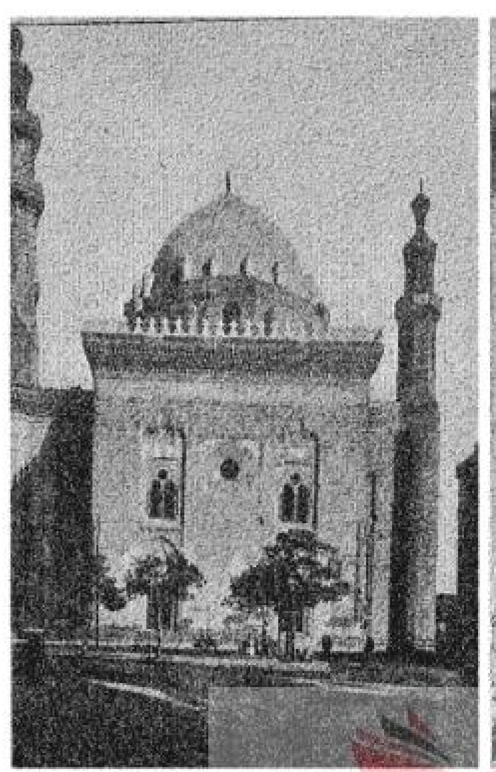
والواقع أن عظمة الفن الاسلامى وجلاله تتجلى لنا فى كل ناحية فى هذه المدرسة العظيمة . فواجهتها البحرية تلخص لنا جميع خصائص هذا الفن : فيها الخط الكوفى ، وفيها الخط النسخى، وفيها الزخرفة العربية Arabesque وفيها الزخرفة النباتية الاسلامية، وفيها العمد المندمجة ، وفيها ذلك النوع من الزخرف الذى اصطلح علماء الآثار على تسميته بالمقرنصات والذى يبدو لنا كأنه خلايا النحل أو عش النمل أو الرواسب الكلسية المخروطة الشكل التى تتدلى من أسقف الكهوف . ولا يتسع المجال هنا لكى نفصل القول فى أصل المقرنصات ويكفينا أن نقول ان المسلمين قد ورثوها عن الامم السابقة عليهم على هيئة كوة ساذجة بسيطة ، وما كاد يتهذب ذوقهم ، وترتقى ملكتهم الفنية حتى أقبلوا على هذه الكوة البسيطة يتفننون فى تنسيقها وتزينها ويبالغون فى تقسيمها ، حتى بدت قطعا من الفن الجميل ، كلما تأملت فيها غمرتك بلذة محببة الى النفس ، وزادتك يقينا بجمال الفن الاسلامى وسموه . وقد شاء لهم خصبهم الفنى أن يتجاوزوا فى استعمالها الحدود التى وقفت عندها الامم السابقة عليهم ، فلم يكتفوا باستعمالها فى جوانب القباب ، بل رصعوا بها عقود الابواب ، وجملوا بها الزوايا ، وحلوا الواجهات كما نشاهد ذلك فى هذه المدرسة التى نتحدث عنها

ولا يقل داخل المدرسة روعة عن خارجها ، فلا نكاد نخطو خطوة فى جوفها حتى نرى فوقنا قبة عالية وثيقة التكوين ، منمقة الجوانب ، موزونة الابعاد ، قد أضفت عليها المقرنصات ثوبا من الجمال قشيبا . ونشاهد أمامنا لوحا من الرخام قد نقشت به زخرفة عربية يقصر دونها كل وصف ، يعلوه نافذة من الجص والزجاج المختلف الالوان يخلب اللب ، ويأسر بجماله القلب . فاذا اتجهنا الى اليسار لا نلبث أن نجد أنفسنا فى فناء مكشوف تتوسطه نافورة عليها قبة من الخشب المزخرف ، ويحيط به من جوانبه الاربعة ايوانات أربعة تطل على الفناء بعقود هى من أفخم العقود وأعظمها ارتفاعا ، ولا غرو فقد بعث منشىء هذه المدرسة فى « طلب جميع المهندسين من أقطار الارض وأمرهم بعمارة مدرسة تكون ليس عمر أعلى منها على وجه الارض ، وسألهم أى الاماكن أعلى عمارة فى الدنيا ، فقيل له ايوان كسرى أنوشروان ، فأمر ان يقاس ويحرر وتعمر المدرسة أعلى منه بعشر أذرع ، فعمرت وعمر بها اربع منارات ، وقيل ثلاث ، ثم هدم بعض المنارات واستمرت الآن على اثنتين ، وايوان كسرى كان واحدا وهذه اربعة ايوانات وهى عجيبة من عجائب الدنيا »

ولقد رصعت أرضية الفناء بفسيفساء من الرخام المختلف الالوان تتجلى فيها رسوم



الواجهة البحرية لمدرسة السلطان حسن ويبدو فيها المدخل

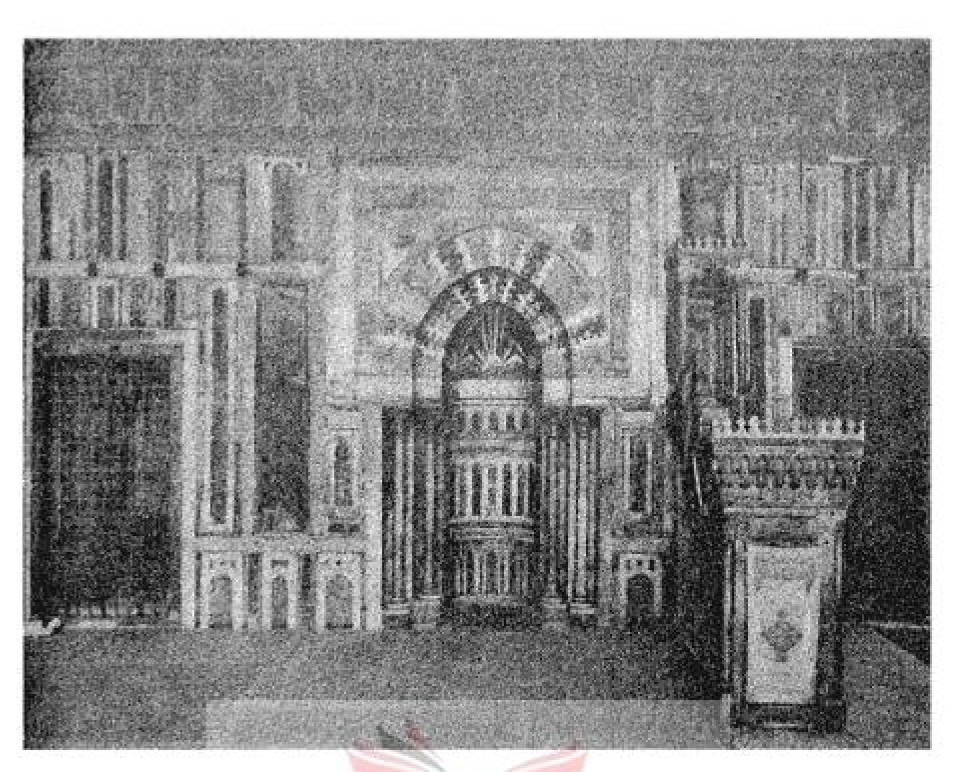


قبة مدرسة السلطان حسن والمنارتان من الخارج
(تصوير لجنة حفظ الآثار)

غاية فى الجمال ، كانت فى الغالب مبعث الوحى لنساج الطنافس فى القاهرة فى العصور الوسطى (١)

أما الزوايا الاربع لهذا الفناء ففيها مساكن بعضها فوق بعض ، شيدت ليقطنها الاساتذة والطلبة الذين كانوا يعلمون ويتعلمون فى هذه المدرسة بكلياتها الاربع : الكلية الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية . ولقد جاء ظهور المدارس فى الاسلام متأخرا نوعا ما ، لان مجالس العلم كانت تعقد فى المساجد، وظلت كذلك حتى اذا ما اتسعت دائرة العلوم وتغيرت طرق التعليم ، أحس الناس أن المناظرة والجدل قد يخرجان بالطلاب والأساتذة أحيانا عن حد الاحترام الواجب للمساجد ، فرأوا أن يختصوا التدريس بمكان خاص ، فظهرت المدارس الاسلامية لاول مرة فى مدينة نيسابور عام ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) على حد قول

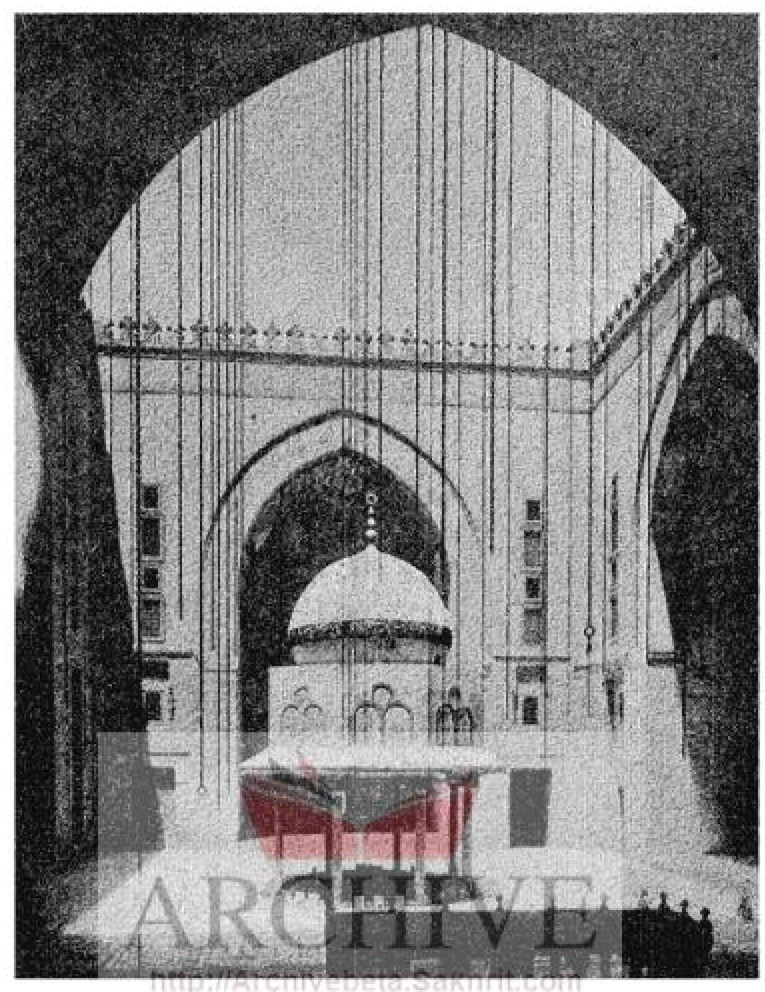
(١) راجع البحث الخاص بطنافس القاهرة فى العصور الوسطى فى عدد الهلال الذى ظهر فى فبراير سنة ١٩٤٣



جانب من الايوان القبلى يبدو فيه المنبر الرخامى والمحراب
(تصوير لجنة حفظ الآثار)

المقريزى ، ومن هناك انتشرت فى العالم الاسلامى ، وقد ارتقت على يد الوزير السلجوقى العظيم (نظام الملك) الذى انحرف بها الى ناحية السياسة ، وأحسن استخدامها فى الدعاية للمذهب السنى ومحاربة المذهب الشيعى الذى انتشر على عهده . وقد أدخل نظام المدارس فى مصر صلاح الدين الايوبى الذى سقطت على يديه الدولة الفاطمية

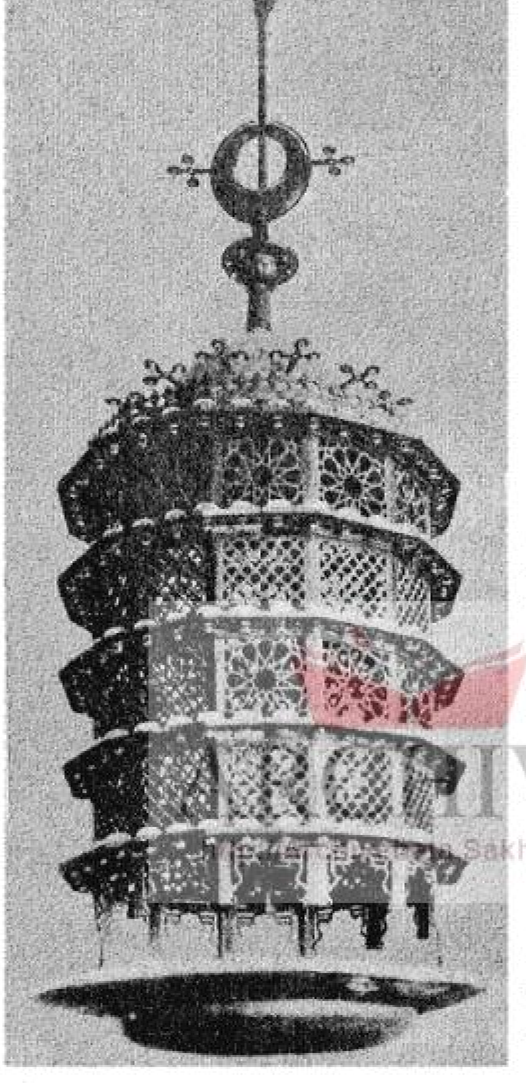
والايوان القبلى هو أكبر الايوانات جميعا وأفخمها ، يزدان بآيات من القرآن الكريم كتبت فى الجص بخط كوفى جميل فوق شريط من الزخرفة العربية منعدم النظير ، وتتدلى من السقف سلاسل طويلة كانت فيما مضى تحمل القناديل الزجاجية المزخرفة بالميناء التى تنطق بمهارة الصناع وعبقرية الفنانين ، وقد نقل ما وصل الينا منها الى دار الآثار العربية . ونشاهد فيه المنبر الرخامى الجميل الذى يجاوره من اليمين باب من الخشب المصفح بالنحاس المنزل بالذهب يدهش العقول بزخارفه الهندسية والنباتية ، ويجاور المنبر من اليسار محراب أبدع الفنان فى زخرفته ، والى يسار المحراب باب آخر كان فى أيامه الاولى شبيها بالباب السابق ، ولكن عبثت به يد الزمن فضاعت كسوته النحاسية . ويفضى هذا الباب الى حجرة مربعة زينت جدرانها برخام مختلف الالوان وزخارف غاية فى الاتقان ، ويتوجها طراز من الكتابة النسخية يتضمن تاريخ الفراغ من البناء ، وتغطى



فناء مدرسة السلطان حسن وتبدو فيه مساكن الطلبة والأساتذة وعقد الايوان البحرى وسلاسل القناديل
(تصوير لجنة حفظ الآثار)

الغرفة قبة شاهقة فى جوانبها مقرنصات تسترعى النظر بجمالها الفائق ، والى اليسار ترى كرسيا لوضع المصحف الشريف عليه مصنوع من الخشب المطعم بالعاج والابنوس يعتبر آية من آيات النجارة العربيـة الدقيقة ، وهو أقدم كرسى من نوعه فى مصر ، ويتوسط هذه الغرفة قبر أعد لكى يكون المثوى الاخير للسطان الذى أسس هذه المدرسة العظيمة ، والذى أبت عليه همته أن يعدل عن اتمامها عند ما تبين له جسامة النفقات اللازمة لها خشية أن يقال ان سلطان مصر غير قادر على اتمام بناء شرع فى اقامته

ترى من هو السلطان حسن الذى خلع اسمه على هذا الاثر الرائع ؟ لو ذهبنا الى كتب التاريخ نسألها الاجابة عن هذا السؤال ، لاعطتنا عن عصر المماليك الذى عاش فيه هذا



ثريا من النحاس المخرم مزينة بأشكال هندسية مختلفة معلق فى أسفلها صينية منقوش عليها جامات باسم السلطان حسن

السلطان صورة تبعث الحزن فى الفؤاد قوامها الظلم والفوضى ، وحشوها المثالب والمآخذ ، وسداها ولحمتها المطامع الشخصية وفساد الخلق . ولوجدنا أنها خصت السلطان حسن - سابع أبناء الناصر محمد بن قلاون - بسطور قليلة تخرج منها بأن هذا السلطان الذى بلغ مجموع مدة حكمه أحد عشر عاما تقريبا، قد ولى الحكم بمؤامرة وعزل عنه بمؤامرة وعاد اليه بمؤامرة ، ثم أقصى عنه بمؤامرة، وانتهت حياته على صورة لسنا الى الآن منها متأكدين، ولا ندرى أين جثمانه الذى أعد له هذا القبر العظيم. وفى الحق ان الانسان لتملكه الدهشة عندما يقرأ تاريخ هؤلاء السلاطين من المماليك ، ثم يعود فيشاهد آثارهم الرائعة

هذه المدرسة التى بدأت عمارتها فى سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) وانتهى العمل منها بعد وفاة مؤسسها السلطان حسن بسنتين أى فى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) هى فى الواقع متحف للفن الاسلامى ، نرى فيه أمثلة رائعة لفنون العمارة والصناعة والزخرفة الاسلامية كما تتجلى فى الحجر والجص ، والرخام والخشب ، والعاج والزجاج ، والابنوس والنحاس

محمد عبد العزيز مرزوق

ساعة مع ستالين

للصحفى الامريكى رالف انجرسول

أمضيت فى موسكو ثلاثة أسابيع ، وقبل أن أغادرها بيوم جاءنى من الكرملين ما ينبئنى أن أذهب لمقابلة جوزيف ستالين

والكرملين أضخم بناء وأفسح أرضا مما تدل عليه رسومه . وهو ليس بمبنى واحد ، بل هو قطعة من الارض مسورة بأسوار تعلو علو طابقين من البناء ، وتقوم عليها تسعة عشر من الابراج . وتشق هذه الارض شوارع متسعة ، وتتوسطها ميادين فسيحة ، تفصل بين مبان شتى مؤلفة من ثلاث وأربع طبقات ، ومن عدد من الكنائس العتيقة ذات المآذن والقباب الشامخة

« يبدو جوزيف ستالين لمن يراه أول مرة كما يبدو فى صوره تماماً : وجهاً جامداً لا تستدل منه على شىء مما يجيش به تفكيره وقد أمضيت شهراً فى روسيا ، وهذا الوجه يطالعنى أينما كنت ، بارزاً فى كل مكان دون أن أستطيع أن أتبين فيه شيئاً مما ينطوى عليه عقل هذا الرجل من أسرار . وهو أكبر سناً مما يبدو فى صوره حتى لقد ارتسمت فى وجهه خطوط الشيخوخة وتجاعيدها وبشرته أسمر مما يظن من لم يره ، ولكنها سمرة تكسبه جاذبية خاصة وقد كان شعر شاربه ورأسه حالك السواد فى أيام شبابه ، أما الآن فقد وخطه الشيب الأبيض ، إذ يبلغ الآن الثالثة والستين »

ويقوم ضريح لينين خارج هذه الاسوار الى الشمال من المدينة ، وفى مواجهة الميدان الأحمر حيث يخطب ستالين ويعرض الجيش الأحمر فى أعياد السوفييت . وينفتح باب الكرملين تحت قوس كبير يعلو هذه الاسوار . ويقوم بالباب خمسة أو ستة من الحراس . فلما بلغتهم السيارة التى أركبها هرول اليها أحد الضباط وفتح بابها . وأرى أن أذكر هنا أن الروس لا يعترفون بأن فى جيشهم فئة اسمها فئة الضباط ، بل يقولون ان هذا من شأن جيوش البلاد الرأسمالية ، أما الجيش الروسى ففيه بدلا من الضباط « مشرفون »

وركب الضابط ، أو المشرف ، سيارة ، تبعتها سيارتنا فى سرعة مسرفة ، الى أن وقفنا أمام مبنى يرتفع عن الارض بضع درجات ، مكسوة بسجادة حمراء ، وعلى رأسها مشرف آخر أسرع للقائنا

وكان من وراء الباب الى اليمين مصعد صغير ، دلفت اليه ومعى هذا المشرف ، فارتقى بنا الى الطابق الثانى . وهناك شاهدت ما سبق أن شاهده ووصفه لى كثير ممن قابلوا ستالين ، أعنى ذلك الممر الضيق المرهوب الذى يرتفع سقفه ارتفاعا شاهقا غريبا

وتحدث المشرف الى نفر من زملائه قليلا ، ثم دفع بى الى غرفة الانتظار . ولم أكد

أجلس حتى جاءنى موظف نحيل الجسم ، وقال لى بالانجليزية : « ستقابل الرفيق ستالين بعد بضع دقائق . وسأقوم بمهمة الترجمة » وبعد هنيهة دخل على مشرف بادن الجسم فارع القوام ، فنهض الموظف المترجم وفتح بابا فسيحا وأشار الى أن أتقدم

يؤدى هذا الباب الى غرفة مستطيلة جدا ، فى الجانب الايسر منها منضدة سوداء لا يزيد طولها عن ثلاث أقدام ، والى جانبها صف من المقاعد البسيطة ، وفى الجانب الايمن مكتب بسيط لا تعلوه كتب ولا أوراق . أما جدران الغرفة فعارية من كل شىء ، ولست أذكر أنى لمحت عليها سوى صورة لينين ، ومجموعة من صور عن الاعمال الحربية فى روسيا

وكان يجلس الى طرف المنضدة السوداء المنزوية فى الجانب الايسر من الغرفة الرجل الذى جئت لاقابله . كان يجلس الى طرف المنضدة لا الى وسطها ، وكان يجلس ساكنا لا يقرأ ولا يكتب شيئا . وتقدم الموظف المترجم وأنا من ورائه مسرعين حتى بلغنا المنضدة ، فرأيت ستالين وقد وقف ونحن متجهان اليه . وتصافحنا . وقدم المترجم مقعدا جلست عليه ووجهى الى وجه ستالين ، والمائدة بيننا وقد توسطها الموظف المترجم

وكان أمام ستالين بضع قصاصات من الورق الرقيق ، لعلها لا تزيد على سبع قصاصات أو ثمان . ولم يكن ثمة شىء آخر سوى منفضة للسجائر ملأى بأعقابها ، وسوى صندوق من السجائر ممتلىء الى منتصفه . وكان ستالين يدخن سيجارة فى اثر سيجارة ، ويستنفد من كل منها ما فيها من طباق ، والسجائر الروسية ثلثاها من الورق وثلثها الاعلى من الطباق

وقد لقيت ستالين فى ظرف من تلك الظروف التى لا يسمح فيها الساسة المسئولون بأن ينقل كلامهم نقلا كاملا ، بل يسمحون فحسب بأن يشار الى الموضوع الذى يدور عليه حديثهم والاتجاه الذى يتميزون به . وقد حرص ستالين على أن يذكرنى بذلك

لقد كان حديث ستالين ، كما نقله الى المترجم ، حديثا جميلا حقا . ولست أدرى هل حديثه بالروسية الى زملائه ورجاله هكذا أم لا ، فكثيرا ما تكون مهمة المترجم أن يزخرف الحديث ويزوره بالتجميل ، ولكن حديثه على أى حال يمتاز بالايجاز ، والوضوح ، والكلام فى صلب الموضوع ، دون مداورة أو احتيال

وكنت قد وعدت من هيأوا لى هذه المقابلة الا اسرف فى السؤال وأطيل فى الحديث . فان وراء الرجل حربا كبرى يديرها بنفسه . فلما مضى علينا فى الحديث خمس عشرة دقيقة قلت للمترجم أن يقول لستالين انى وعدت بأن أكون حريصا على وقته وانى لا أريد أن أخلف وعدى . فتبسم ستالين ، وكانت هذه أول مرة يتبسم فيها . وكان تأثير هذه الابتسامة عجيبا حقا . فقد تغيرت ملامح وجهه كل التغير ، واستحالت تلك السمات الجامدة ، الهامدة ، المتصلبة ، الى سمات حية حارة ، معبرة كل التعبير . واستفاضت الابتسامة فى انحاء وجهه حتى غدت ضحكة عريضة وهو يقول : « اننى لست مشغولا كما تتصور . فدعنا نمض فى حديثنا » . ومضينا فى الحديث بعد ذلك ساعة كاملة

وتكلمنا عن الحرب ، وطفنا فى حديثنا بجميع جبهاتها ، وتناولنا به شتى مشاكلها

وأحسست فى أثناء الحديث احساسا غريبا ، فانى لا أعرف من اللغة الروسية سوى كلمات قلائل . ولكنى شعرت أن كثيرا من فقرات الحديث الطويلة لا تحتاج الى مترجم ينقلها الى الانجليزية . لقد خيل الى أنى أفهم مدلول ألفاظه رغم أنى لا أعرف معناها . ولم يكن هذا صحيحا بطبيعة الحال ، ولكنى أحسست هذا ، لانى رأيت ستالين حين يتحدث فى أمر يهمه أو يلذ له ، لا يتكلم بلسانه فحسب ، بل يعبر كذلك بسمات وجهه تعبيرا أبلغ من الكلام . والحق أنى لم أشهد فى حياتى وجها معبرا كوجه ستالين . وهو يستطيع أن يقول « نعم » أو « لا » دون أن ينطق لسانه باللفظتين ، بل بما يرتسم على وجهه من تبسم أو تجهم . ذلك ان هذا الرجل لا يفصل بين شعوره وكلامه ، بين ما يجيش فى صدره وما ينطق به لسانه

وكثيرا ما تتساءل عند ما تقابل رجلا مهما عن السر فى نجاحه، اذ لا تتبين لك بالوضوح الوسيلة التى أثر بها فى أنداده فبزهم جميعا ، وفى اتباعه فانقادوا له مسلمين . ولكنك لست فى حاجة الى هذا التساؤل عن ستالين . فانه لا يبدو أعلى من أى رجل فى الاتحاد السوفيتى بمقدار رأسه وكتفيه فحسب ، لا ، بل بقامة رجل فارع القوام . وأى رجل يفوقه ذكاء وبصيرة ، وعلما وثقافة ، وحزما وارادة ؟

وقد كان حديثه مثيرا كل الاثارة ، لقد نفذت الى أعماق قلبى اجاباته المستقيمة المباشرة عن كل ما ألقيت اليه من أسئلة ، ودقته الكاملة الوافية فى التعبير عن كل ما يختلج فى ذهنه وقلبه من آراء ومشاعر ، وعما يتألق فى حديثه من صادق الادراك وخالص العقيدة

وكان طوال حديثه يرسم بالقلم الرصاص خطوطا ودوائر على ما أمامه من قصاصات الورق ، فلما انتهى الحديث كانت هذه القصاصات قد اسودت بما خط عليها من خطوط ورسوم . وقد تناول احداها ورسم لى رسما بيانيا عن الحرب الدائرة . وكان سريعا فى رسمه مشيرا بالحروف الروسية الى القوات المتحاربة بالحروف الاولى من أسمائها . (الراء عن روسيا ، والجيم عن ألمانيا ، والألف عن أمريكا وهكذا)

وأظن أن أحدا دخل الغرفة فى نهاية الحديث وان كنت لم أتنبه اليه . فقد كنت مستغرقا فى الاصغاء الى ستالين وفى تأمل سمات وجهه المعبرة ، فلم أدر وجهى فى أية ناحية من نواحى الغرفة . ولكنى أظن أن ثمة من دخل الغرفة ، فقد سكت ستالين برهة قصيرة ، ثم نهض ايذانا بالانصراف . ونهضنا فتقدم الى مصافحا . ولما هممت بالتراجع رأيت بابا يصل هذه الغرفة بغرفة أخرى توسطها « كرة أرضية » كبيرة

وسار بى ستالين الى الباب ، فرأيت قواما أميل الى القصر والهزال منه الى الطول والبدانة ، ورأيت كتفين منحنيتين وكأنهما كتفا رجل أمضى سنى حياته منكفئا على مكتب . وتقدمنا الى الباب فعاد يتحدث حديثا دام بضع دقائق أخرى . ثم سلم مودعا بعد أن طلب الى أن أقرىء السفير الامريكى سلامه ، وبعد أن رجا لى رحلة طيبة موفقة

(عن مجلة ورلد دايجست)

حديث الاشجار

بقلم الأستاذ رشوان احمد صادق

لقد كان لارزة لبنان المهداة من القطر الشقيق الى حضرة صاحب الجلالة الملك شأن عظيم فى المجتمع المصرى ، فقد ظلت حديث الاندية المصرية والمجتمعات الوطنية ردحا من الزمن غير قصير . وتهامس القوم وتساءل الناس عن الحكمة فى نقل شجيرة من قطر الى آخر ، مع أن مصر غنية باشجارها وحدائقها المنسقة أبدع تنسيق ، وحديث الاشجار لذيذ لطيف ولكنه ليس بجديد

فقد كان سكان ساحل دلماسيا فى جنوب أوربا يعتقدون أن بعض اشجار الخوخ والبلوط وغيرهما موهوبة للاشباح ، وأن كل من قطع احداها سقط صريعا وان أفلت عاش عليلا منغصا ، وان داخل أحد الحطابين الشك فى أن الشجرة التى قطعها قد تكون احدى هذه الاشجار ، فعليه أن يقطع رأس دجاجة حية على حطام الشجرة المقطوعة بنفس الفأس الذى استخدمه فى قطع الشجرة ، وهو يعتقد أن مثل ذلك العمل يحميه من سوء الطالع

كذلك بعض الاشجار التى تغطى ثمارها وبرة حريرية فهى موضع احترام الاهالى فى غرب افريقية من منطقة السنغال حتى النيجر لانهم يظنونها مأوى روح من الارواح . كما أن بعض السلاف يسمون شيطان الغابة باسم هنتن Huntin ولذا يحيطون الاشجار التى يسكنها بزعف النخل ، وكانوا يقدمون له التضحيات من الدجاج والبشر الذين يوسق قيادهم فى جذع الشجرة . والشجرة التى ترى على هذا النمط لا يجوز قطعها . فاذا أقدم حطاب على قطع أحداها حتى ولو كانت من الاشجار التى لم يباركها هنتن هذا ، فعليه أن يطهر نفسه مما قد ينسب اليه من تدنيس الاشياء المقدسة ، وذلك بتقديم التضحيات من دجاج وزيت نخيل ، والتوقف عن تقديم هذه التضحية يعتبر جرما عظيما لا عقاب له الا الموت

وكثيرا ما احترم المصريون القدماء أشجار الجميز التى تنمو على انفراد فى نقط مبعثرة على حافة الاراضى الزراعية ، لبقائها نضرة رغم نموها فى أراض قحلة مجدبة . وكانوا يظنون أن الروح الذى يمد هذه الاشجار الجميلة بالحياة ، كامن فى مكان خفى عن الانظار، وأنه أحيانا يظهر رأسه ، وأحيانا جسمه بأجمعه من داخل الجذع، ولكنه سرعان ما يختبىء ثانية . وكانوا يقدمون لهذه الاشجار الكروم والخيار والخضروات والماء الذى يضعونه فى أوان فخارية ، مثل الاباريق ، فيرتوى منها المارة وقت الايلولة ، ويحيون تلك الجرعة بصلاة قصيرة

كما أن سكان الكنغو فى أواسط افريقية يضعون جرات ملأى بالخمر المستخرج من منقوع لب شجر النخيل عند جذع شجر مخصوص ، ويصرحون بانهم يقصدون بهذا العمل مساعدة الشجرة على الارتواء اذا اشتد بها العطش

وفى قرية تركية فى شمال سورية كانت توجد شجرة بلوط قديمة جدا ، كان يقدسها الاهالى ويطلقون لها البخور ، ويقدمون لها العطايا والقرابين كما لو كانت مكانا محرما

وفى باتاغونيا بين ريو نجرو وريو كلورادو توجد شجرة قديمة قائمة على انفراد ، ساقها معقد خاو . وهى موضع احترام الهنود ، فيبجلونها كمسكن روح ، ويعلقون بها العطايا من أحزمة وبطاطين وعباءات وطنية اعتاد هنود امريكا الجنوبية ارتداءها ولذا تظهر تلك الشجرة من بعيد كأنها دكان للملابس القديمة حيث تتدلى تلك الاردية الرثة المعرضة للتقلبات الجوية . وبجوارها هياكل عظمية للاحصنة التى قدمت لها قربانا . ولعل ربط الخيط فى بوابة المتولى بالقاهرة لرفع الكروب يفيد هذا المعنى

كما أن جماعة الكايانز سكان أواسط برنيو يعتقدون أن بعض الاشجار التى تنتج مادة سامة تنتسب الى الارواح . وهذا السم يستخدمونه فى تسميم حرابهم ، ويسمون الروح الذى يتحكم فى تلك الاشجار تاسم Tasem وهو روح عنيد من الصعب ارضاؤه

وفى جزائر لويس توجد أشجار ضخمة يقيم الاهالى تحتها أعيادهم ، ويعتقدون انها مسكن للارواح التى يخصصون جزءا من الاحتفال لها ، كما ان أغصانها الحاوية ملأى بعظام الخنازير والانسان

وبين مرتفعات الكنجرا فى البنجاب يضحون بفتاة فى كل عام لشجرة أرز ، وقد قطعت منذ زمن غير بعيد

ولا يزال بعض الالمان يطوقون شجر الفاكهة بحبال من القش ، يوضع عليها السجق المجهز للاحتفال فى ليلة عيد الميلاد ، ويعتقدون ان تلك العملية تجعل الاشجار تحمل بالثمار . ويقول الشخص الذى يقوم بربط الحبل المذكور « أيتها الشجرة الصغيرة : انى أقدم اليك هدية ، فعليك ان تردى الى مثلها » . ويعتقد هؤلاء القوم ان الاشجار اذا استلمت هدايا فلا بد أنها تمنح هدايا أيضا بالتالى . وتؤدى تلك العملية فى أى وقت ما بين ليلة عيد الميلاد والليلة الثانية عشرة من السنة الجديدة

وقد استنتج من يقدسون الاشجار أنه ما دامت الحياة تدب فى الشجرة اذن فهى تحس وتشعر ، ولذا تراعى الشفقة عند قطعها كى لا تتألم ، ويزعمون أن شجرة البلوط عند قطعها تحدث صوتا خاصا بمثابة الصياح والتأوه ، وأن ذلك الصوت قد يسمع على بعد ميل

كما أن جماعة الاجيواى قلما يقطعون الاشجار النضرة ، معتقدين أن قطعها يسبب لها آلاما . ويصرح رجال الطب عندهم انهم سمعوا عويل تلك الاشجار وهى تحت الفأس

ولا يزال يعتقد بعض الفلاحين المتقدمين فى السن فى بعض جهات النمسا أن الغابات تدب الحياة فى أشجارها ، كما انه لا يصح فصل أليافها دون عذر وجيه ، وانهم سمعوا من

آبائهم أن ما تشعر به الشجرة عند قطعها لا يقل عما يعانيه الانسان من ألم عند جرحه ، ولذا يحرصون على طلب العفو من الشجرة عند قطعها ويسألونها المغفرة

وفي جزائر لوزن بالفلبين يشترك الاهالى فى نظم الاغانى عند قطع الاشجار ، ومن أقوالهم فى ذلك : « لا تكن صعبا يا صديقى اننا نقطع ما قد أمرنا به » ويرون فى ذلك الخلاص من كراهية الروح الذى يسكن الشجرة التى قطعت والذى يخشون زيارته التى يعقبها المرض

كذلك جماعة التاجالوج فى جزائر الفلبين عند ما يقطعون زهرة كانوا يستأذنون روح الزهرة الذى يسمونه نونو ، كما يستسمحونه عند قطع أية شجرة مبررين عملهم أمامه بقولهم ان الكاهن هو الذى أمرهم بذلك

وفى شمال هضبة الحبشة يخاف الاهالى قطع شجرة خضراء مثمرة كي لا يعرضوا أنفسهم الى لعنة الله الابدية ، تلك اللعنة التى تسمع فى صوت الشجرة عند ما تخر صريعة على الارض . واذا وجد من لديه الشجاعة الكافية لقطع شجرة ، فانه يخاطبها بقوله : « جعلت لعنتك كامنة فى ثناياك » والا فانه يدعى بأن فيلا او وحيد قرن اصطدم بها فاسقطها

وبين جماعة الهس فى توجولاند فى غرب افريقية اذا أراد رجل ان يجهز نبيذا من النخل ، فانه يستأجر الحطابين لقطع الاشجار التى يتطلبها . وهؤلاء يذهبون بدورهم الى الغابة حيث يقيمون أكلة على الارض ، ويخاطبون الغابة بقولهم : « هذا غذاؤك . ان الرجل العجوز قائم فى منزله وقد ارسلنا لقطع الاشجار . نحن لازلنا صغارا لا نعلم شيئا . لقد ارسلنا الرجل العجوز القائم فى المنزل » . وهكذا يحاولون ارضاء الروح الذى يملك الغابة خشية أن يفتك بهم

وفى اقليم الكارو فى مستعمرة الكاب اذا أراد أحد الاهالى قطع شجرة فانه يعتذر لها ، واذا مر بمكانها تخيلها تبكي ، عند ذلك يسرع الى مواساتها برش دماء دجاجة على ما تبقى من جذعها

وفى أواسط افريقية تعتقد جماعة الباسوجا انه اذا قطعت شجرة فان الروح الذى يسكنها يصبح غاضبا ، وربما تسبب فى موت رئيسهم وأسرته . ولكى يتحاشوا الوقوع فى مثل هذه الكارثة ، فانهم يستشيرون رجل الطب قبل الشروع فى قطع أية شجرة . فان كان الطبيب ماهرا وصرح بذلك ، فان الرجل يهب الشجرة فى أول الامر دجاجة تعقبها عنزة ، وبمجرد أن يضرب أول فأس فى الشجرة فانه يضع فمه فى مكان الكسر ويمتص بعض العصير الذى بداخلها ، وبهذه الطريقة يمكنه أن ينشىء أخوة بينه وبين الشجرة ، وبمجرد انتهاء تلك العملية يقدم على قطع الشجرة ولا حرج عليه

ومن الطقوس التى كان الهنود القدماء يزاولونها عند شروعهم فى قطع شجرة ما . أن الحطاب يضع بعض الحشيش الاخضر على الجزء من الشجرة الذى ستقع عليه أول ضربة من الفأس قائلا : « أيها النبات ادرأ عنها الخطر » ، ثم يخاطب الفأس قائلا : « أيها

الفأس لا تلحق بها أذى » فاذا ما انتهى من قطع الشجرة سكب على جذعها زبدا سائلا ويقول : « انبتى من هنا . يا سيد الغابة ؟ انبتى بثات الاغصان . هل لنا أن تنمى آلاف الغصون » ثم يدهن الجذع المقطوع ، ويلف حبلا من الحشيش حوله

وكان يظن أن بعض الاشجار تدمى اذا قطعت ، كما أن بعض الهنود كانوا لا يجرأون على قطع بعض النباتات عندهم لانها يخرج منها عصير احمر اللون يعتبرونه دما

وحتى سنة ١٨٥٩ كانت توجد شجرة من نوع الغابات الصنوبرية فى نودرز فى اقليم التيرول ، وكان الاهالى يعتقدون انها اذا قطعت سال منها الدم ، بل وأكثر من ذلك انهم كانوا يظنون أن الحطاب الذى يجرأ ان يغرس أية آلة حديدية فى هذه الشجرة ، فان تلك الآلة لا بد أن ترد الى جسمة فتدخل فيه بالقدر الذى انغرست به فى ألياف الشجرة، وقد بلغ تقديسهم لهذه الشجرة أنه لا يجرأ أحد ان يجمع الاخشاب والوقود على مقربة منها ، كما أن النزاع والعراك بجوارها جرم يعاقب عليه طبيعيا . وكثيرا ما تقف الخصومات والمشاجرات اثر تخيل ذلك الهمس الذى يوحى الى المتخاصمين ألفاظا فحواها « لا تفعلوا ذلك ان الشجرة المقدسة هنا »

ويقال ان جنود يوليوس قيصر الذين أمرهم بقطع أحراش البلوط المقدسة فى مرسيليا يذكرون ان الفؤوس كانت ترتد اليهم ، فيجرحون أنفسهم

وفى اليابان يذهب رجلان الى احدى الحدائق ، فيصعد أحدهما على شجرة ويبقى الثانى بجوار جذعها ومعه الفأس ، ويسأل هذا الاخير الشجرة عما اذا كانت ستعطى محصولا جيدا فى العام المقبل ، مهددا بقطعها ان لم تحقق رغبته ، عند ذلك يسرع الرجل الذى صعد الشجرة بالرد نيابة عن الشجرة انها ستثمر كثيرا . كذلك الحال فى جزر الهند الشرقية

ويقال ان بعض سكان جنوب أوربا من السلاف والبلغار يقومون بعمل يشبه ذلك ليلة عيد الميلاد ، وفى أوكريا احدى قرى صقلية تقام مثل تلك العملية غالبا يوم السبت

وقد سمعت بمثل تلك الفكرة فى المجتمع المصرى ، فاذا لم ينتج الحمام تظاهر صاحبه برغبته فى بيعه أو ذبحه معتقدا انه لا محالة ينتج بعد ذلك

كذلك تقام فى ارمينية حفلة تشبه هذه فى أيام الجمعة التى تعتبر من الايام السعيدة فى نظرهم . وفى ابروزى فى شرق ايطاليا تقام تلك الحفلة قبل شروق الشمس فى صباح يوم سان جن (منتصف الصيف) حيث يهدد المالك أشجاره البطيئة الثمار ، فيدور حول كل ثلاث مرات مكررا تهديده ووعيده اياها ، ثم يضرب ساقها برأس فأس

وفى جزائر لسبوس فى اليونان عند ما تتوقف شجرة برتقال أو ليمون عن الانتاج ، يضع صاحبها أحيانا مرآة أمام الشجرة ، ويرفع فأسا فى يده ، ويقف خلف الشجرة ، ثم ينظر الى الصورة المنعكسة فى المرآة متظاهرا بأنه سيلقى الفأس عليها قائلا بأعلى صوته وكله حماسة : « اثمرى والا قطعتك »

وفى استونيا اذا نما الكرنب نموا غير طبيعى ، يذهب المزارع الى الحديقة قبل طلوع الشمس مرتديا قميصه حاملا معه السكين المعد لقطع الحشائش ، ويلمس بها النبات المذكور ، متظاهرا انه سيقطعه ، ويعتقد أن النبات يعود الى نموه الطبيعى عقب تلك العملية

وفى الملايو اذا تدلى عنقود من ثمار النخل قد تسقط بعض وحداته على الارض ، فاذا ما وطىء أحد الاهالى احداها صاح بأعلى صوته مقلدا صوت الخنزير البرى كيما ينجو قدمه من الكدم والفناء

وجماعة الجاليلارى فى الملايو شديدو الحرص على هذا العمل . اذ انهم لاحظوا ان الخنازير البرية مغرمة بهذا الثمار ، لدرجة أنها اذا ما لمحت تلك الثمرة على الارض أسرعت الى التهامها ، ولما كانت أقدامها خالية من الكدم قوية ، فقد استنتجوا من ذلك أن تقليد المرء لصوت الخنزير البرى قد يغرر بالشجرة ويحملها على الاعتقاد بأن صاحب الصوت هو خنزير برى وليس بشرا ، وعند ذلك ينجو قدم ذلك الشخص الذى وطىء الثمرة من الكدم ، كما هو الحال مع الخنزير البرى الذى تعتبره الشجرة صديقا لها فلا تلحق به أى ضرر اذا ما وطئت أقدامه ثمارها

وفى جزيرة جاوه نوع من النبات حريف الطعم لا يأكله الانسان ، فاذا اشتاقت اليه احدى النساء الحبليات ، فمن الواجب على الشخص الذى يذهب لجلبه أن يصيح بأعلى صوته مقلدا الخنزير البرى الذى يتخذ هذا النبات طعاما له ، حتى يحمل النبات على الظن بأن من يقطعه خنزير وليس بانسان ، عند ذلك يخفف النبات من حدة طعمه . وبها نبات آخر تأكله النسانيس فاذا ما اكله طفل عليه أن يقلد صوت النسناس

ومن نباتاتها ما يتخذ الاهالى من مسحوق قشره سما قاتلا للحيوانات المفترسة مثل النمر والخنزير البرى ، ويعتقدون أن هذا النبات لا يضر الانسان . وعلى المرء الذى سيقوم بجمع هذا النبات أن يتبع قواعد خاصة حتى لا يفقد هذا النبات خاصية التسمم للحيوانات المذكورة دون الانسان بمجرد لمسه . فعليه ألا يقترب من هذا النبات الا وهو عارى الجسد زاحفا على يديه ورجليه ليوهم النبات أنه حيوان كاسر وليس بشرا . ولكى يقوى ذلك الوهم عند النبات عليه أن يعض ساق النبات كما يفعل الحيوان الكاسر . ومع ذلك رغم كل هذه الاحتياطات فانهم لشدة اعتقادهم فى حيوية ذلك المسحوق بعد تجهيزه ، عليهم ألا يقربوا منه جثة ، وألا تمر جثة محمولة أمام المنزل الذى يوضع فيه المسحوق ، اذ لو رأى المسحوق الجثة أو شعر بمرورها ، أعلن أنه أدى وظيفته وعند ذلك يفقد مفعوله كمادة سامة مهلكة

رشوان احمد صادق

B.A. فى الجغرافيا والتاريخ والاجتماع

قصـــة بوذا

الأمير الذى صار حكيما

مضى على قيام الدين البوذى أربعة وعشرون قرنا ، وبلغ اليوم عدد معتنقيه خمسمائة مليون نسمة ، وغدا الآن الدين السائد فى أواسط آسيا وفى كثير من أرجاء الصين ، والهند ، واليابان ، وهضبة التبت ، وجنوب سيبريا

فما قصة بوذا الذى أنشأ هذا الدين ؟

ان قصة مولده ، وحياته ، ومماته ، نسيج من الحقيقة والخيال ، فتحف بها استار من الخرافات والاساطير ، تنتشر فى ثناياها بعض الوقائع والحقائق

ولكنه على أى حال كان شخصا من شخوص هذا العالم ، وقد ولد فيه قبل الميلاد بخمسمائة وستين سنة . وكان اسمه « جواتاما سيدهاتا » ومعناه باللغة الهندية « الرجل الناجح » . وكان أبوه أميرا عظيما من سلالة قوم أشداء محاربين ، وكانت أمه الاميرة الجميلة « مهامايا »

وقد رأى أبوه فى المنام قبل ولادته ببضع سنين رؤيا أقضت مضجعه وبلبلت فكره ، اذ رأى منجما عجوزا ينبئه بأن ابنه لن يكون أميرا عظيما ولن يكون حاكما على أملاك أبيه الفسيحة . ولكنه سيلقى فى حياته بعض آيات وعظات تحمله على أن يلفظ متاع الدنيا وينكر زخرفها ، فيغدو بعد ذلك معلما عظيما وملكا على العالمين جميعا

وسأل أبوه ذلك المنجم عن تلك الآيات التى سيلقاها ابنه ، فقال المنجم : « ان ابنك سيرى فى أربع مناسبات مختلفة رجلا سقيم البدن كفيف البصر ، ثم رجلا مسنا معدما يهيم فى الطرق ضالا شريدا ، ثم ميتا محمولا على الاكتاف ، ثم راهبا منصرفا عن متع الدنيا الى التقوى والزهادة . أما متى يرى ذلك وكيف فلست أدرى من أمره شيئا »

ونهض الامير من نومه فزعا خائفا اذ كان لا يريد لابنه الا أن يخلفه فى الامارة والسيادة على أولئك القوم الذين أخضعهم وسادهم هو وأسلافه منذ أجيال طوال .. فماذا يفعل ؟ لقد أمر رجاله ان يقصوا عن قصره كل رجل مريض ، أو كفيف ، أو مسن سقيم . وكذلك أمر بأن ينفى من بلده كل من فيها من الرهبان ، وبأن توقع عقوبة الموت على من يرى منهم على مقربة من القصر

وأقام الحراس على تخوم ملكه جميعا ، شماليها وجنوبيها ، وشرقيها وغربيها ، لينفذوا ما أمر به ، فلا يدخل ملكه أحد من المرضى أو ذوى العاهات أو أحد من المسنين أو الرهبان . وجعل كل من فى قصره من الخدم والحشم من الشباب الممتاز بقوة الجسم

ووسامة المظهر وحسن البزة ، حتى لا تقع عين الامير منذ مولده الا على هذه المناظر البهية الانيقة

وولد الامير الطفل ، وأمضى طفولته وصباه فى ريق النعيم ورغد الحياة . وتدرب على ألعاب الفروسية من امتطاء الجياد وامتشاق السيوف . وتلقن دروسا فى صناعة الملك وما تقتضيه من مراسيم وتقاليد . وذلك ليكون يوما ما خير خلف لخير سلف فى الامارة والسيادة

وكان كل ما يحيط بالامير يشع منه الجمال والشباب والفتوة ، فشب دون أن يدرى شيئا عما فى هذه الدنيا من مرض وسقم ، ومن عجز وشيخوخة ، ومن موت وفناء . . ومع هذا كان الامير قلقا جزعا . وكان يتأوه دون أن يدرى لتأوهه سببا ولا داعيا

وتزوج الامير فى ربيع شبابه من أميرة ولدت يوم مولده ، فأنجب ابنا أغدقا عليه حبهما صرفا عميقا

وكان كلما خرج الامير فى نزهة أو رحلة تقدمته الرسل والحراس ليبعدوا من طريقه كل مريض أو كفيف أو مسن سقيم ، حتى لا تتراءى له تلك البينات التى قال المنجم انها ستكون بداية حياة ينصرف فيها عن الحكم والامارة الى الورع والزهادة

ولكن كل هذا الاحتياط والتحايل ما كان ليخفى الحق الذى لا بد أن يظهر يوما ما ، وما كان ليبقى الامير فى جهله وغفلته الى الابد . فعند ما بلغ سن التاسعة والعشرين خرج ذات صباح مشرقا بهيجا يبتغى الصيد والطراد ، فوقعت عينه على مظهر عجيب لم تشهده عينه ولم يدر بخلده يوما ما . . لقد رأى رجلا مريضا أعمى ، أوهنه المرض وأسقمه الألم وأحنت ظهره الايام ! فاستولت عليه الدهشة البالغة وأخذ يسائل رفاقه وحاشيته عن هذا المشهد العجيب : عن هذا العمى الذى يحجب عن الانسان ما فى الحياة من بهجة وجمال ، وعن هذا الألم الذى يحل بالمرء فيحيل كل ما فى الدنيا من نعيم وسعادة الى بؤس وشقاوة

ولم يكد الامير يمضى شوطا آخر فى أنحاء الغابة التى جاءها للصيد والقنص ، حتى رأى رجلا مسنا مهدما محطما ، قوست السنون ظهره وأوهنت عظامه ، وهو يضرب فى الطريق ضالا مشردا . . فتقدم اليه الامير يسأله ، فعرف منه لاول مرة فى حياته أن شباب المرء لا يبقى الى الابد ، بل هو رهن سنين قلائل من الفتوة والجمال ، تعقبها سنون من العجز والشيخوخة لا تلبث أن تسلمه الى الموت والفناء

لقد أيقظت هذه المشاهد عقلا ذكيا مرهفا كان راقدا فى الامير طيلة هذه السنين ! لقد ألقته فى عالم جديد من الآلام والاحزان ما كان يدور بخلده أبدا حين كان يحيا فى عالمه القديم الموشى بالسعادة والنعيم ! واذن فقد فكر فى أن ينجو بنفسه مما هى فيه من أوهام وأباطيل ، وفى أن ينفذ الى تلك الدنيا التى حجبوها عنه وأخفوها عهدا طويلا . . ولكنه لم يكد يتقدم فى هذه الدنيا بضع خطوات حتى عرف أن ثمة شيئا اسمه الموت . فقد سار فى غسق الليل الداجى وسط هذه الغابة يتأمل ما فيها من عبر وآيات ، فرأى

تابوتا يشتمل على جدث انسان لا حراك به ، ورأى قوما يحملون هذا الجدث ويلقون به فى حفرة فى الارض ويهيلون عليه التراب ! لقد كان هذا المشهد سرا عجيبا حقا ، فأمضى الامير أياما وليالى وهو يتأمل فيما رأى ، ويسأل الناس عن مآل هذه الحياة . ولكنه لم يهتد الى ما يطفىء غلة عقله الظامىء الى معرفة هذا المجهول حتى كانت البينة الرابعة التى أنبأ بها المنجم ، فلقى لاول مرة رجلا تقيا زاهدا مترهبا ، فعرف منه أن وراء هذه الحياة حياة أخرى : حياة قوامها الحق الخالد الذى لا سبيل الى ادراكه وبلوغه الا بالورع والتقوى

وعندئذ صاح الامير صيحة من أعماق قلب انبثق فيه النور قائلا : « ان هذه الحياة التى نحياها لا بد أن تنتهى يوما آخر . وان كل ما فيها من المتاع والثراء والرغائب لا يجدى نفعا ولا يغنى شيئا . فعلى أن أسعى الى المعرفة وأبلغها . وعلى أن أبحث عن الحكمة وآخذ بها »

وبينما كان القمر السافر البهيج يغمر قصر الملك فى موجة فضية من أضوائه المتألقة ، وعند ما كانت حدائق القصر ترسل نغمات من عطرها الذكى وأنغاما من غنائها الشجى كان الامير حانيا على فراش زوجه وولده وهما فى نومهما ليلقى اليهما كلمة الوداع الاخيرة .. ومنذ تلك الساعة لم ترهما عيناه ، فقد ترك القصر الى غير رجعة ، ليمارس حياة التطهر والتدين والزهد فى متاع الدنيا

وآوى الامير الى جذع شجرة من أشجار التين ، ومعه خمسة من أصحابه التائقين الى الحكمة الزاهدين فى الدنيا .. وفى هذا المكان النائى السحيق أمضى ست سنوات طوال يمارس طقوس الدين ويأخذ بأسباب التقى ، محرما على نفسه كل ما فى الدنيا من متع ولذائذ ، فارضا على نفسه شتى ضروب الحرمان ، فلا يصيب من الطعام والشراب الا ما يحفظ رمقه ، ولا يضع على جسمه من اللباس الا أسمالا تقيه حر الصيف وبرد الشتاء

وكانت أميرة الشر « مارا » تحاول طوال هذه السنين أن تغريه وتفتنه بكل ما تملكه من وسائل الخداع والاغراء ، وأسباب العنف والقوة . ولكنه امتنع عليها جميعا واعتصم منه بزهده وتقاه

وكانت تصيبه من أميرة الشر هذه أكداس من الصخور والسهام ، فلا تلبث اذا مست جسده أن تتحول الى زهور وورود

وأوهنه الجوع والضنى ، فذوى شبابه وذبل جماله ، ولكنه ظل راسخ العزم صلب العود ، مقيما الى جوار شجرة التين يقتات من ثمارها ، ويقول قولته المشهورة : « لن أبرح هذه الارض حتى أدرك الحكمة العليا المطلقة »

وجاءت ليلة من الليالى العصيبة فكانت السماء تضىء ببروقها الخاطفة ثم تدوى برعودها القاصفة . وكانت الرياح العاصفة تهب على الجبال فتحمل رمالها وأحجارها أو تذروها فى الوديان اهباء . وكانت الامطار تهطل سيولا جارفة تغمر الارض وتكاد تذهب بأهلها غرقى .. فى تلك الليلة العصيبة العاتية انحسرت عن عين الامير غشاوة الدنيا وباطلها ،

وانشق أمامه ضوء الحق المنشود ، فأدرك ما أراد : أدرك الحكمة العليا ، وغدا اسمه «بوذا» أى « الانسان الحكيم »

وظل بوذا سبعة أسابيع أخرى الى جذع شجرة التين ، يستجم مما عاناه طوال سنوات التعبد والتأمل والاستغراق ، وأخذت احدى النساء تأتيه بطعام من الارز واللبن يغذى به جسمه الذاوى ، ليقوى على أداء المهمة التى أعد نفسه لها

وأمضى بوذا بعد ذلك خمسة وأربعين عاما وهو يطوف فى أرجاء الهند وما جاورها من الاقطار ، ليعلم الناس دينه وينشر بينهم شريعته . ودخل الناس فى هذا الدين أفواجا ، فلما مات فى سن الثمانين ترك وراءه بضعة ملايين من معتنقى البوذية وأشياعها

وها قد مضى أربعة وعشرون قرنا على قيام هذا الدين ، وما زال يؤمن به خمسمائة مليون من الافراد . وفلسفة هذا الدين تنحصر فى أن الشهوات هى مبعث الآلام ومصدر الشرور ، وأن لا خلاص من الألم والشر الا بكبت الشهوات وقهرها ، وباكتساب حالة عقلية هادئة معتدلة ، وأن السبيل الى هذا هو أخذ النفس بالورع والزهد والتقوى

وفى البوذية مشابه شتى للمسيحية . فهى تأمر بالاحسان ، والرحمة ، والمحبة . وهى تفتح طريق الخلاص لمن ينحدر من أصلاب الاشراف ومن ينبت فى تربة العامة على السواء ، فلا تفرقة فيها بين شريف ووضيع الا بالعقيدة الصادقة والعمل الصالح

ولكنهما يختلفان فى غير هذا . فالبوذية لا تعرف « المخلص » الذى ضحى بدنه تكفيرا عن ذنوب البشر وحلا لما قارفوا من الآثام . بل هى ترى أن كل فرد مكلف «بتخليص» نفسه بنفسه ، بما يفرضه على نفسه من فروض التقشف والحرمان ، وبما يأخذ به من أسباب الورع والزهادة

(عن انيل م . احنا فى كتابها « يوم الاحد فى بيتى »)

العادات : عضلات العقل

عاداتنا هى عضلات عقولنا . وكما نستطيع أن نبنى عضلات أجسامنا بالصبر والمران ، كذلك نستطيع أن نبنى عضلات عقولنا اذا صبرنا على تدريبها وأحسنا استخدامها

فاذا رحنا لا نقرأ الا الكتب والصحف التافهة الضحلة ، ولا نرى الا « الافلام » والمسرحيات الرخيصة المبتذلة ، ولا نلوك ألسنتنا الا بلغو الكلام وسخيف الحديث ، صارت عضلاتنا العقلية رخوة لينة لا تقدر على هضم النماذج الرفيعة من الادب العالى ، ولا على البحث الجاد فى المسائل والمشاكل المهمة الخطيرة ، ولا على أن تتخذ من عقولنا مرافىء تبحر منها السفائن الضخمة فى بحار العالم الكبرى ثم تعود اليها محملة بالذخائر والنفائس

فماذا أنت صانع بعضلاتك العقلية بعد هذا ؟

الدراسات العربية فى الولايات المتحدة

للأستاذ جورج رنتز

المستشرق الامريكي

يرجع اتصال الامريكيين بالعرب الى فجر عهد الجمهورية فى الولايات المتحدة الامريكية . فقد ظهر آنئذ عدد غير قليل من الامريكيين المهتمين باللغة العربية وبحوثها ودراستها . كان هنالك جنود عظام وقواد ممتازون عملوا فى الجيش المصرى الذى غزا أريتريا فى عصر الخديو اسماعيل الزاهر جاء فى مقدمتهم الجنرال شاليه لونج باشا . وكان هنالك أيضا فريق من رجال التربية والتعليم أمثال دانيال بليس مؤسس الجامعة الامريكية فى بيروت وتشارلز وطسن مؤسس الجامعة الامريكية فى القاهرة ، ونذكر أيضا من رجال الدين والتبشير كورنليوس فان دايك الذى اشترك مع الشيخ نصيف اليازجى والمعلم بطرس البستانى فى ترجمة التوراة الى اللغة العربية ، وما زالت تلك الترجمة ذائعة الانتشار حتى يومنا هذا . ومن رجال البر والاحسان وخدام الانسانية نذكر شارلز كرين صديق الامام يحيى والملك عبد العزيز آل سعود . ومن كبار المهندسين كارل تويتشل الذى عمل فى استغلال المنجم العظيم فى منطقة مهد الذهب الكائنة بين مكة والمدينة المنورة . وهو الذى رأس البعثة الزراعية التى قامت فى العام الماضى الى المملكة العربية السعودية

ومن العوامل التى شجعت البحوث العربية فى القارة الامريكية وجود فريق كبير من الجاليات العربية بين ظهرانينا . فالواقع أن العرب المقيمين فى الولايات المتحدة أكبر عددا من أولئك القاطنين فى أى بلد من البلاد الاوربية . لقد وجد العرب دائما صدرا رحبا فى العالم الجديد ، ومن دواعى السرور أن نرى صحفا يومية تصدر بالعربية فى أمريكا مثل السمير والهدى والبيان ولقد أنجبت الجالية العربية الامريكية شعراء وكتابا ممتازين كفانا منهم ذكرا جبران خليل جبران وهو غنى عن البيان

ولقد تضاعف اهتمامنا بالشؤون العربية عند ما حللنا محل الاسبان فى جزر الفلبين فالمورو من سكان الجزر الجنوبية مسلمو العقيدة . وفى خلال السنوات الاربعين الاخيرة أتيح لنا تحضير مواهب هؤلاء القوم العقلية والاخلاقية ، فضلا عن نشاطهم واخلاصهم للعالم الامريكى وهنالك عدد لا بأس به من المورو يحجون سنويا الى مكة المكرمة وبعضهم يعرف اللغة العربية الى حد ما ويلم بحروفها وكتابتها

وفى مقابل هذه العوامل المشجعة ظهرت عوامل أخرى عطلت تقدم الدراسات العربية فى أمريكا . فالواقع أن المسافة الشاسعة التى تفصل العالم الجديد من البلاد العربية

لم تترك لنا فرصة الاتصال بالشعوب العربية وتوثيق علاقات التعارف بيننا وبينهم ، الامر الذى كان من شأنه أن يدفعنا على درس اللغة العربية . وهنالك عامل ثان لا يقل شأنا عن الاول ، ألا وهو عدم وجود تلك التقاليد القديمة التى جعلت للغة العربية وبحوثها شأنا عظيما فى القارة الاوروبية عامة وانجلترا خاصة . أما العامل الثالث والاخير فهو افتقار أمريكا الى جامعة وطنية تشجع تعليم العربية وغيرها من اللغات الشرقية

ومع ذلك فقد كان للغة العربية بعض الحظ فى الولايات المتحدة خلال السنوات الاخيرة . فالاحداث التى نزلت بالعالم جعلتنا ندرك أنه صغير جدا ، وأن من واجب الولايات المتحدة العمل على توثيق صلات التعاون مع سائر الشعوب . ولما كانت العربية فى مقدمة اللغات الكبرى العالمية بحكم أنها اللغة المستعملة ابتداء من شاطىء الاطلنطى فى أفريقيا الى جزر المحيط الهادى،فقد أصبح لزاما على كثيرين من الامريكيين أن يتحدثوا باللغتين العربية الفصحى والدارجة على السواء

وقد شرعنا فى حركة بطيئة متئدة ترمى الى تشييد تقاليد قويمة للدراسات العربية فى أمريكا . وها قد أصبح لنا عدد من العلماء المتخصصين فى الدراسات العربية فى عشر أو أكثر من جامعاتنا وهم يضارعون زملاءهم من مستشرقى أوروبا الممتازين . وسأورد هنا نبذة عن تاريخ حياة اثنين منهم على سبيل المثل . وهنالك غيرهما كثيرون وان كانوا أقل منهما شأنا

لقد عمل الاستاذ فيليب حتى بنشاط وعزم وحماسة كان من شأنها أن جعلت جامعة برنستون مركزا هاما للدراسات العربية فى الولايات المتحدة الامريكية.ولد هذا الاستاذ فى قرية شملان من ربوع لبنان وهاجر الى أمريكا لثلاثين سنة خلت . وعند ما أقيم معرض نيويورك العالمى سجل اسمه فى لوحة الشرف الكبرى التى شملت عددا كبيرا من رعايا أمريكا الاجانب مولدا ، والذين أدوا خدمات قيمة لديموقراطيتنا الحية والسائرة فى سبيل النمو والتقدم

وكان الاستاذ حتى فى طليعة من أدخلوا دراسة اللغة العربية الدارجة فى الولايات المتحدة . ومنذ نشوب الحرب الحالية واشتراك أمريكا فيها خصص هذا الاستاذ الجليل الجزء الاكبر من وقته لتعليم الضباط المخصصين للخدمة فى الشرق الادنى وأفريقيا الشمالية اللغة العربية الدارجة ولهجاتها المختلفة

والى الجانب الآخر من الولايات المتحدة أى الجانب المقابل لبرنستون يعمل الاستاذ وليم بوبر فى جامعة كاليفورنيا . لقد استهل بوبر دراسة اللغات السامية فى نيويورك منذ ٥٠ عاما ، ثم انتقل منها الى برلين وباريس وتتلمذ فى برلين على الاستاذ نولدكه . وهو أعظم مستشرقى القرن التاسع عشر قاطبة ، ثم جاب أنحاء مصر وفلسطين وسوريا والعراق مدة سنتين وهو لا يزال يافعا ، وأمضى الجزء الاكبر من وقته فى صحبة البدو الرحالين فى الصحراء السورية وفى حوران . وبعد عودته الى أمريكا تخصص بوبر

أولا فى الدراسات العبرية ونشر كتبا عن النبى شعيب وشعره ، ثم اتجه الى مطالعة الكتب العربية فشغف بجمالها وبتراكيبها الجذابة لما بينها وبين اللغة العبرية من اخاء ، وأخيراً تفرغ بكلياته وجزئياته الى الدراسات العربية

اتجه اهتمام الاستاذ بوبر الى عصر المماليك فى التاريخ المصرى ، وهو عصر استمر ٢٠٠ سنة وما زالت دراسته فى حاجة الى كثير من التعمق والتمحيص . أضف الى ذلك أن هذا العصر امتاز بتقدم عظيم فى فنون العمارة وغيرها من فروع الثقافة والعلم . وعند ما بدأ بوبر فى بحوثه لم يكن هنالك أسانيد معروفة الا المقريزى ، لذلك رأى هذا العالم الجليل أن يميط اللثام عن كتاب آخرين لا يقلون عن المقريزى شأنا أمثال أبو المحاسن بن تغرى بردى (عبارة تغرى بردى التركية تعنى الله أعطى) الذى عاصر السلطان برقوق والذى تعلم فن كتابة التاريخ عن المقريزى نفسه وكاد أن يصل الى مقدرة أستاذه وخبرته . قضى الاستاذ بوبر أعواما طويلة من حياته فى مراجعة مخطوطات ابن تغرى بردى ومقارنتها بعضها ببعض وتصحيحها وأخيرا أخرج منها المؤلفين العظيمين : « النجوم الزاهرة » و « حوادث الدهور » . وقد اعترفت الحكومة المصرية بقيمة نصيب ابن تغرى بردى فى كشف الحقائق التاريخية فأخذت على عاتقها نشر الاجزاء الباقية من مؤلفاته . وفى خلال الاربعين عاما التى خصصها الاستاذ بوبر لهذه المهمة العظيمة جمع تراثا كبيرا من المعلومات عن جميع مظاهر الحياة فى عصر المماليك

ويعد بوبر من أقدر أساتذة اللغة العربية . فهو متعمق فى تركيب الكلمات العربية واشتقاقاتها وله صفات عظيمة فى تلقين معلوماته الى تلاميذه

هنالك من الدلائل ما يحملنا على الاعتقاد بأننا سنتغلب على العقبة الثالثة التى حالت دون تقدم الدراسات العربية فى أمريكا ، ألا وهو عدم وجود معاهد وطنية لتدريسها . لقد فكر المجلس الامريكى للجمعيات العلمية ــ وهى هيئة كبرى تقوم بتنسيق نشاط الجمعيات الثقافية فى الولايات المتحدة ــ فى وضع دعائم مدرسة وطنية لتعليم اللغات والحضارات الشرقية الحديثة

وفى سنة ١٩٣٥ نظم المجلس الامريكى دراسات صيفية للغة العربية والبحوث الاسلامية فى جامعة برنستون تحت اشراف الاستاذ حتى . وقد أخذ الطلاب يتوافدون من كل حدب وصوب ليتلقوا العلم ويقيموا معا فى جو جامعى لمدة ستة أسابيع . وقد تولى التدريس عدد من كبار المستشرقين الامريكيين من طريق المحاضرة واتصلوا بالطلاب اتصالا علميا وثيقا . هكذا نجحت الدراسات الصيفية نجاحا باهرا ، خاصة فى ايجاد روح الصداقة والزمالة ، وفى توجيه جهود الشبان والسيدات المهتمين بالدراسات العربية وبغيرها من أمور الشرق الادنى، واستؤنف تنظيم تلك الدراسات فى سنة ١٩٣٨ وفى سنة ١٩٤١ ، وبديهى أن التجربة التى اكتسبها الاساتذة والطلاب سواء بسواء سيكون لها أحسن أثر عند ما يشرع فى انشاء مدرسة وطنية للدراسات العربية

قصة مصرية



الباب الذهبي

بقلم الأستاذ ابراهيم المصرى

تزوج عبد المقصود افندى الموظف بوزارة المالية « درجة سادسة » من ابنة عمه الست جميلة ، وقضى معها نحو عشر سنوات دون أن يعقب منها خلفا . فلما توفيت حزن عليها حزنا شديدا ، وطابت له حياة العزوبة ، وعقد العزم على أن يظل وفيا لامرأته أطول مدة ممكنة كى تحل بركتها عليه ، فيما لو شاءت الاقدار وتزوج مرة ثانية . .

واستقدم أخته العانس الحاجة فهيمه من بيت شقيقه عبد العظيم أفندى حيث كانت تعيش فى صحبة امرأته وأولاده ، والتمس اليها أن ترعى شؤون بيته ، وتحل فى داره سيدة آمرة ناهية

وهكذا ظل عبد المقصود أفندى عازبا أربع سنوات حتى جاوز الخامسة والاربعين ، وأرهقته حياة العزلة ، فاشفق على نفسه ، وعز عليه شبابه ، وبدأ يفكر فى المرأة من جديد

وكان عبد المقصود أفندى رجلا متوسط القامة ، غائر العينين ، متكرش البطن ، قصير الذراعين ، يرتدى الردنجوت على الدوام ، ويمشى مشية متباطئة ثقيلة ، ويهز رأسه أمام الاشخاص والاشياء كأنه ما يزال يتفرج على العالم ، وسبحته فى يده ، وجريدة الاهرام تحت ابطه ، والسيجارة التى لفها بنفسه تراقص بين شفتيه ، ونظارته مثبتة فوق أنفه الكبير يتطلع بها الى الناس كأنه يراهم لاول مرة

وكان طيب القلب ، ساذج النفس ، محبا للسكينة ، وديعا ، مسالما ، لا يضمر شرا لانسان ، ولا يغتاب أحدا ، ولا يلحق الاذى بأحد

بيد أنه كان يحب الضحك ، ويميل الى « الفرفشة » ويستمرىء النكت الطريفة ، ويبرع فى تصيدها ، ويؤثر أن ينتقم من عدوه بنكتة لاذعة على أن يصيبه فى شخصه أو ماله أو سمعته

ومع ذلك فقد كان مغلق العقل ، بليد الذهن ، فيما عدا ابتكار النكت . كان خامد عاطفة الفضول ، يشوب أخلاقه نوع من الانانية الصافية ، يحب نفسه ، ويعيش مع نفسه ، ويكتفى بنفسه فقط ، لا يتكلف النظر فى جوهر الاشياء ، ولا تسترعيه غرائبها ، ولا

يحفل منها بغير النظرة المبتهجة العابرة ، خشية أن ينغص حياته بيده ، ويخلق لنفسه المشاكل والاضطرابات ، ويجهد ذهنه بأفكار وشواغل لا تستحق أن يضحى العاقل من أجلها بصحته وراحته ومتاع هذه الدنيا . .

ولقد عرفت فيه المرحومة الست جميلة هذا الخلق ، فأقرته عليه مختارة ، وحرصت على راحته ، وتجنبت معارضته ، وأطاعته طاعة عمياء ، ولم ترغمه أبدا على اعتناق ما يكره من الاخلاق والعادات

والواقع أن حياتهما فى منزلهما الصغير فى حى السيدة ، كانت عذبة هادئة رقيقة كانت حياة بلدية بسيطة ، تنقضى فى السمر البيتى اللطيف ، وتهيئة الاطعمة الشهية ، والتسلى بشرب المغات والقرفة شتاء ، وعصير البرتقال أو القمر الدين صيفا ، وزيارة بعض الاقارب والجيران ، واعداد العدة للاعياد والمواسم ، ومجاملة الاصدقاء فى المآتم والافراح

أما الحياة العصرية المضطربة فلم تكن قد ألفتها الست جميلة ، ولم تكن لتصادف أى هوى من نفس عبد المقصود أفندى . فالمسرح مثلا كان يضطره الى التفكير ويضجره ، والسينما كانت « تزغلل » عينيه وتحرق أجفانه ، وصالات الرقص كانت تثير نخوته الشرقية وتلهب فى صدره عوامل الاستنكار والسخط

وأما ألذ ساعات حياته فتلك التى كان يقضيها فى مندرة بيته ، بين جمع من صفوة أصدقائه ، يلاعبهم الورق ، أو يطارحهم النكت ، أو يحدثهم عن مآثره فى الوزارة ، أو يستمع الى بعض أصحاب الاصوات الرخيمة منهم ، وهم يغنون البشارف التركية أو المواويل البلدية ، أو أدوار (سى عبده) المفضلة عنده المحببة اليه

وكان يخرج عصر كل يوم ، لابسا طاقيته البيضاء ، مرتديا جلابيته الحريرية ، منتعلا شبشبه ، ملقيا عباءته البنية على كتفه ، ويجلس فترة أمام صالون الاسطى حسنين الحلاق ، ثم يغادره الى القهوة البلدية ، ثم يترك القهوة وينحو صوب حانوت المعلم أحمد الشربتلى ، فيتخذ له مجلسا هناك على رأس الشارع ، ويظل ينقل أبصاره فى المارة ، فرحا بهم ، مغتبطا باختلاف أشكالهم ، مبتهجا بتنوع أزيائهم ، يتفرج عليهم دون أن يراهم ، مكتفيا باللذة المميتة التى يحدثها فى نفسه الفارق المحسوس بين سكونه وحركتهم ، بين حلمه ويقظتهم ، بين راحته وتعبهم ، بين غناه وفقرهم ، بين كسله الفاتر الثمين وبين ما قدر الله عليهم من وجوب الكدح المتواصل فى سبيل الرغيف . .

وكان يستسلم لهذه اللذة بجمع كيانه ، ويمضى فى ترشفها ساعات ، حتى اذا ما أقبل المساء ، هرع الى مندرة بيته ، والتقى فيها بصفوة أصدقائه ، وأقام فى جوها العائلى الحميم ، تلك السهرات التى كانت أشبه بحفلات يومية ، تملأه زهوا وخيلاء ، وتلقى فى روعه أنه سيد بل أمير بل ملك تحوطه حاشية ويتخطر فى بلاط

فالديوان كان يستغرقه صباحا ، والحياة عصرا ، والمندرة ليلا . وبين الديوان والحياة والمندرة ، كان يحظى بقرب امرأته ، ويستمتع بعذب حديثها ، ورقة شمائلها ، ودماثة

أخلاقها ، وحلاوة ذلك الانكسار النفسي الذي كان يخيم عليها كلما تحدثت عن الاطفال، وتحسرت على نفسها ، وذكرت في لهجة بائسة مستغفرة ، خيبتها وعقمها

على أن عبد المقصود افندي لم يحقد على امرأته أبدا لانها كانت عاقرا ، ولم يحملها أبدا ذنب الطبيعة ، ولم يخطر على باله لحظة واحدة أن يطلقها أو يتزوج عليها ، ليعقب نسلا يحيي ذكراه ، ويرث البيت الذي يملكه في حي السيدة ، والاربعين فدانا التي خلفها له والده في المنوفية

كان قانعا بحظه ، راضيا بقسمته ، مكتفيا بنفسه وامرأته . ولكن الشيء الوحيد الذي كان يحز في صدره ، هو أن الست جميلة كانت سمراء ، وكانت نحيفة ، وكانت قصيرة . وكان هو في صميم نفسه يحب « البيض السمان » ، ويهوى البدن المربرب ، ويعشق القامة المديدة ، ويجن جنونا بالشعور الشقراء . .

تلك كانت نزعته الخفية ، ومع ذلك فقد كتمها عن نفسه ، وأحب ابنة عمه ، وأخلص لها الاخلاص كله ، وما زال يذكرها بالخير وان كان قد أصبح يحن الى المرأة ، ويصبو الى الانثى ، ويتطلع الى الزواج

بيد أن فكرة الزواج مرة ثانية كانت تخيفه ، وتصور الحياة مع امرأة جديدة كان يقلقه . والحق أن أفكاره وعواطفه وعاداته كانت قد اندمجت كل الاندماج في شخص الست جميلة ، بحيث أصبح من المتعذر عليه أن يتمثل الحياة مع امرأة سواها

فلو غامر الآن وتزوج ، أتراه يفوز بمثل الست جميلة ؟.. أتراه يعود الى مثل حياته الهادئة الساكنة معها ؟..

وبعد ، فهل ستفهمه امرأته الجديدة وتطيعه ، وهل ستقدر فيه طيبته وكرم أخلاقه ، وهل ستحترم عاداته ، وهل ستعرف مثل الست جميلة كيف تطهى له الطعام « المسبك » وتصنع له أطايب الحلوى ، وتليف له ظهره عند دخوله الحمام ، وتغسل قدميه عند عودته مجهدا من الديوان أيام الصيف ؟..

هذا ما كان يقلقه . وهذا ما كان يجعله يقدم رجلا ويؤخر أخرى كلما لج به الشوق الى المرأة وساورته فكرة الزواج . .

ولبث على هذه الحال أياما طويلة ، يتروى ويتأمل ويطيل التفكير . .

وفي ذات ليلة من الليالي رأى حلما رائعا غريبا . رأى كأنه يمشي مع جمع من أصدقائه متخبطا في نفق مظلم طويل ، ثم أحس كأن النفق يسلمه فجأة الى عالم من نور ، فتلفت حوله واذا باصدقائه يحيطون به وفي يد كل منهم باقة من الورد رشقت في وسطها شمعة مضاءة ، فاضطرب وذعر وهم بالرجوع ، ولكنهم دفعوه الى الامام دفعا وهم يصيحون ويهللون . وعندئذ رأى عبد المقصود افندي وقد تولاه الاعجاب والدهش ، أنه يجتاز عتبة باب عظيم ، باب ذهبي كبير ، مفتوح المصراعين ، مجلل بالازهار ، وأنه يدخل رحبة فسيحة قد ازدحمت بالناس وغمر أرجاءها النور . فاختلجت أعضاؤه ، وصعد نفسا

مستطيلا ، واستيقظ وصيحات أصدقائه تكاد تصم أذنيه

ولم يكد يهب من فراشه حتى أسرع الى أخته الحاجة فهيمه وقص عليها حلمه . فاستمعت اليه بانتباه شديد ، ثم رمقته بنظرة جانبية وهى تبتسم ، ثم هزت رأسها وقالت بلهجة العارف المتأكد :

ــ والنبى دى جوازه يا سى عبده والا ما اكنش أعرف حاجه .. دا انت انكتب لك عمر جديد وحتخش دنيا يا اخويه وتتمتع ..

فأطرق برأسه لحظة ، وفكر فى كلامها مليا ، وتملكه الاعجاب بذكائها . فآمن بحظه، وتبددت وساوسه ، وأيقن أنه سيدخل الدنيا مرة ثانية ومن بابها الذهبى أيضا ..

ومنذ ذلك اليوم تناسى عبد المقصود أفندى الست جميلة ، وشرع يبحث عن زوجة أخرى ..

* * *

وانقضت أيام تبعتها أيام ، الى أن حدث ذات مساء وعبد المقصود افندى فى مكتب صديقه المحامى الأستاذ جلال يتحدث اليه فى شأن قضية جديدة أقامها على فريق من مستأجرى أرضه ، أن لمح لاول مرة سيدة باهرة الحسن تدخل المكتب وتطلب استشارة المحامى .

وكانت السيدة فى نحو الخامسة والثلاثين ، متحفظة متباعدة أنيقة ، ترتدى ثوبا أزرق مرصعا بورود كبيرة بيضاء ، يكسوه معطف اسود حليت أطرافه بالفراء

وكانت ممتلئة البدن فى رخاوة ساحرة ، مديدة القامة فى عزة مهيبة ، ذات وجه أبيض مستدير ، وعينين سوداوين متوثبتين ، وصدر ناهد عريض ، وشعر أشقر تتماوج أضواؤه على رأسها الشامخ الجميل

راعته منها صورة خياله ممثلة فيها

أحس وهو يلهث ويرتجف أنها ضالته المنشودة ..

قارن بينها وبين الست جميلة ، فلم يستطع الا أن يسلم بأنها شىء آخر ، شىء رائع مهذب ، شىء ناعم مصقول ، تحفة عصرية بديعة الصنع نادرة المثال ..

وطفق يبحث ويتحرى مستعينا بالمحامى صديقه ، حتى علم أنها من أسرة كريمة ، وأن والدها كان موظفا كبيرا ، وأنها تدعى « عواطف » هانم ، وأنها أرملة مهندس مات فقيرا ، وأن أحد أشقائها طبيب معروف ، والآخر موظف ملحوظ المكانة ، والثالث من طلبة الجامعة ، وأنها ما جاءت مكتب المحامى الا لتقيم دعوى على شخص ينازعها ملكية جزء من قطعة أرض صغيرة خلفها لها زوجها

وفرح عبد المقصود افندى باسم « عواطف » وتفاءل به خيرا . وأخذته هزة كبرياء عند ما فكر فى أنه قد « يناسب » هذه الاسرة الكريمة ، وقد يتزوج هذه المرأة الفاتنة ، وقد يعيش مع هذه السيدة الانيقة العريقة التى لا وجه للشبه على الاطلاق بينها وبين

الست جميلة ، المرأة البلدية الجاهلة المتأخرة بنت عمه الامى الشيخ مبروك تاجر الغلال . .

وتاقت نفسه الى التخلص من ماضيه ، وتجديد شبابه ، واقتحام هذا العالم المبهم البراق الذى لا عهد له به ، فتردد على مكتب المحامى ، وتمكن من رؤية عواطف مرات . وكان فى كل مرة يزداد اعجابا بها ، وشوقا اليها ، ورغبة فيها ، وخوفا غامضا منها . .

ولما ضاق بأمله وصبره ذرعا ، تشجع وحزم أمره ، وكاشف صديقه المحامى برغبته ، ثم كلفه أن يتصل بأسرة السيدة ويطلب له يد الهانم

وظل ينتظر على أحر من الجمر نتيجة المسعى ، ويفكر فى الشقاء الذى لا بد أن يحل به لو قوبل طلبه بالرفض . ولكن عواطف هانم كان قد طال أمد ترملها ، وكانت تعيش عالة على اخوتها ، وكان هو موظفا ميسور الحال ، فأجابوه الى طلبه ، وأشعروه لاول مرة بقيمته الاجتماعية ، فسر وازدهى ولم تسعه الدنيا .

وبعد أخذ ورد طويل ، اتفقوا على أن يكون المهر مئتى جنيه . فتقدمهم عبد المقصود افندى مقدم الصداق ، ودخل بعروسه فى حفلة شائقة أطربت فيها النساء «عالمة» مشهورة ، وشنف أسماع الرجال مطرب كبير

وبدأت الحياة . .

بدأت الحياة ساكنة فاترة شبه ناعمة . ولكن سرعان ما تسربت اليها نزعة التسلط وروح الخوف

كانت عواطف هانم قد تزوجت لانه كان لا بد لها ان تتزوج ، فلم تشعر من نحو زوجها الكهل الساذج البسيط بأى عطف أو ميل

ولم يكد يمضى على قرانهما اسبوع حتى استغربت كيف تزوجته ، وتولتها الحسرة ، وانتابها ذهول محنق أليم

ومع ذلك فقد حاولت أن تحتمله ، حاولت أن تحبه ، حاولت أن ترضى به على علاته ولكن بلادته كانت تغيظها ، ودروشته كانت تثيرها ، وأخلاقه القديمة كانت تضجرها ، وعاداته البلدية كانت تخدش احساسها العصرى ، وتشيع فى نفسها ضربا من السخط المملوء بالاشمئزاز

كانت تكره ردنجوته الابدى ، وسبحته الكهرمانية ، والسيجارة التى يلفها بيده ، والنكت التى لا تصدر عنه الا لتزيده هزءا وتجعل منه فى نظرها شبه مهرج أو مسخ

كانت تكره عقله واحساسه ومظهره . وكانت تجاهد كى لا تعاف قربه ودعابه وملمسه .

ولما لم تجد أية سعادة معه ، ثارت لنفسها بالغطرسة والترفع ومحاولة التسلط المطلق عليه

أما عبد المقصود افندى فكان قد أصبح كتلة من الهلع والخوف . تملكه خوف شديد على نفسه ، وخوف أشد على راحته ، وخوف أعمق وأخطر على أخلاقه الثمينة وعاداته الغالية

كان يحس تبرم زوجته فيعجب ، ويشعر باستيائها فيذهل ، ويلمس حنقها فيبهت ،

ويتلقى ثورة غضبها فيرتعد فرقا ، ويحاور ويداور ، ويتجاوز ويصفح ، ثم يعتذر ويندم لقر الطمأنينة فى نفسه والسلام فى البيت

وكاد يلعن الزواج ، ويلعن أخته ، ويلعن الباب الذهبى .. ولكنه برغم سخطه كان يحب عواطف .. كان يحب عواطف بكل ما تجمع فى دمه من رجولة مكبوتة ، وبكل ما استيقظ فى نفسه من تلهف الكهولة وتحرقها والتذاذها العبودية للمرأة والعبودية للحب

فتنته عواطف بمحاسنها . سحرته بأناقتها . غزته بدلالها الشامخ ، وكبرها البارد ، وهيبة قامتها ، وبياض بشرتها ، وشقرة شعرها . فنسى المرحومة الست جميلة ولم يعد يأسف عليها ، وبات يجد متعة جديدة عجيبة فى الطاعة والاستسلام والذل ..

وأحست عواطف منه هذا الخضوع ، فازدادت خيلاء وعجبا ، وعظمت ثقتها بنفسها ، واشتد ايمانها بسلطانها ، وعولت على ان تقتحم شخصية زوجها ، وتروضها ، وتبدلها ، وتصبها آخر الامر فى القالب الذى تهوى ..

وبدأت فأمرته بخلع الردنجوت ، والكف عن لف السجائر بيده ، فاعترض وتأبى ، فتمنعت عليه ، فهدر وزمجر ، ثم رضخ وأطاع

ولما استوثقت من ضعفه ، استجمعت قواها ، وحملت عليه حملة هائلة شعواء

رفضت بعزة وإباء أن تليف له ظهره عند دخوله الحمام ، وأن تغسل قدميه عند عودته من الديوان . وكان يلبس الجلابية فى البيت ، فارغمته على ارتداء البيجاما . وكان يلبس الطربوش بلا خوصة ، فحرمت ذلك عليه أيضا . وكان يستعمل نظارة معدنية بيضاء ، فاضطرته ان يستبدل بها نظارة من الباغة الجميلة السوداء

وكانت جواربه تتساقط وتبدو ثناياها من تحت بنطلونه الضيق القصير ، فأمرته بوضع حمالة للجوارب ، وتفصيل أثواب ذات بنطلونات فضفاضة على أحدث طراز

وكان ينتعل حذاء غليظا برقعة من القماش المطاط ، يدس فيه قدميه دسا ، فنهته عن استعماله ، وأجبرته على انتعال حذاء أنيق مكشوف

وكان عند ما يأكل تتهدل خيوط الملوخية على شاربيه ، وتظل «الدمعة» عالقة بشفتيه ، وتتملص قطع اللحم من بين أصابعه ، فعلمته كيف يستخدم الملعقة والشوكة والسكين ، وكيف يأكل فى هدوء وحذر ، وكيف يطبق فكيه على الطعام فلا يحدث صوتا كريها أثناء المضغ

وحرمت عليه فوق ذلك أن يتجشأ خلال الطعام ، وأن يشرب من القلة ، وأن يمص الماء مصا ، وأن يتمخط فى المناديل المحلاوى المخططة الكبيرة ، وأن يبصق على الارض أو من النافذة ، وأن يتلهى ، وهو جالس فى البيت ، باللعب بأصابع قدميه العاريتين ..

وراضته على حلاقة ذقنه كل صباح ، وتسريح شعره وتصفيفه ، وتنظيف أسنانه بالفرشاة والمعجون ، والاعتناء بعقد ربطة عنقه كي يبدو موفور الاناقة ، كامل الهندام

وكان عبد المقصود افندى يقاوم فى بعض الاحيان ويثور ، ولكن حبه لامرأته كان

يطوعه ، وميله الى كسب احترامها كان بخضعه ، وشدة اهتمامها به كانت ترضى كبرياءه وتلطف من احساسه بالاهانة والذل . .

على أنه عند ما خرج لاول مرة فى زيه الجديد ، كان خجلا من نفسه ، متبرما بحمله ، مستغربا أمره ، يحس كأنما هو قد تنكر وتشوه ، وكأن جميع الابصار تصوب اليه . فكان يتنكب الشوارع العامة ، ويضرب فى الطرقات الضيقة ، ويتوارى ما استطاع عن أعين الناس

ولم يلبث أن استمرأ الوجاهة ، وألف الاناقة ، فانقلب ارتباكه الى ثبات ، وقلقه الى اتزان ، وحياؤه الى جرأة بل الى تحد . فكان يصعر خديه كبرا واعتزازا ، ويسخر من كل من يصادفه ، ويضحك من اضطرابه ، ويجد لذة عميقة غريبة فى الاندماج فى دوره الجديد واتقان تمثيله الى أبعد حد مستطاع

وانتقلت به عواطف هانم من منزلهما بحى السيدة الى عمارة فخمة جديدة بحى الذوات فى الزمالك

وشرع يخرج فى صحبتها الى المسرح والسينما ، ويغشى برفقتها المجتمع الراقى ، ويدخل معها صالونات صديقاتها ، ويتعرف الى أترابها الهوانم العصريات الجميلات الثريات

وبدأ يرتاد أماكن اللهو الممتازة ويتردد على المقاهى الكبيرة ، ويمرح فى شارع فؤاد وعماد الدين وسليمان باشا ، سعيدا بجو الاناقة والنظافة المحيط به ، منتشيا برؤية الجرسونات يتهافتون على خدمته ، ممتعا أبصاره بالتفرج على أسراب الغادات الاجنبيات ذوات الشعور الذهبية والبشرة الناصعة البياض

وكان فى اثناء تطوره الطويل ، يستنفذ شيئا فشيئا كطفل يستكشف العالم يوما بعد يوم

كان يتهيب كل جديد ، ثم لا يكاد يألفه ، حتى يستأنس به ، ويرحب بغيره ، ويهلل مخفيا نشوته العميقة وفرحه المظم

كان خائفا ولكنه كان مع ذلك مطمئنا . كان مذهولا ولكنه كان مع ذلك سعيدا

وكما ساقه حبه الشديد لامرأته ، الى الطاعة والتسليم والاحتمال ، كذلك ولد فيه نفس الحب رغبة فى التحول ، وميلا الى التطور ، ونزوعا قويا مفاجئا الى النظر والمعرفة والادراك

وتحرك ذكاؤه وتنبه ، وخرج متثاقلا متباطئا من ظلمة كيانه الساذج الفطرى

وتحت وهج حبه ، استفاق على مر الايام عقله ، وبدأت تتفتح مغاليق ذهنه ، وأخذت تنجاب عنه تلك السحب الثقيلة ، سحب البلادة الخانقة التى كانت تباعد بينه وبين العالم

وبعد أن كان لا يهتم الا بنفسه فقط ، ولا يحفل الا بشخصه فقط ، بدأ ينظر الى سواه ، ويفطن لوجود غيره ، ويتأمل ويتفرس فى كل ما تقع عليه عيناه

وسحرته هذه العلاقة الجديدة التى قامت بينه وبين الدنيا . فاستحوذ عليه الفضول ، وملكه حب الاستطلاع ، فكان لا يقر له قرار حتى يحاول أن يستبطن كل شىء بنفسه ،

ويحاول أن يعالج كل مسألة بعصبره ، ويحاول أن يتغلغل فى كل أمر وينفذ اليه حتى الصميم

ومن مخلوق لزج دهنى ثقيل ، استحال عبد المقصود افندى ، على مضى الزمن ، الى انسان متوثب ذكى خفيف

أشرق فكره ، وتطلق طبعه ، وتجددت نضارته ، وأخفت الاثواب العصرية كرشه ، وأضفت عليه حلة من أناقة وشباب وجمال

وذهب به الفضول الى أبعد مما كانت تقدر عواطف هانم .. ولانه كان يجهل كل شىء فقد تطلع فى نهم الى معرفة كل شىء .. أراد أن يفهم على وجه التحقيق ما هو هذا التمدن الذى فرضته عليه زوجته فرضا ، وما هو هذا المجتمع العصرى الذى كلفت به امرأته الى حد الجنون ، فطفق ينظر ويلاحظ ، ويبحث وينقب ، ويفكر ويقرأ ، ويقارن ويفاضل ، ويتأمل ويدرس ..

تأمل الحياة العصرية وكيف تجرى فى عالمه الجديد ، فى العمارات العظيمة الشاهقة ، فى الشوارع الساحرة الزاخرة ، فى الملاهى الفاتنة العامرة ، وقارن بينها وبين الحياة التى كان يعيشها بالامس فى حى السيدة . وكان بسيط القلب والروح فرأى الاشياء على حقيقتها ، وبدا له الفارق العظيم بين العالمين ..

أجل ، هناك ، هناك فى حى السيدة ، تنساب الحياة انسيابا ، وهنا يعيش الانسان فى شبه حمى ..

هناك تنقضى الحياة فى ضباب حلم دائم ، ناعمة فاترة بليدة ، لا تحفل بقانون الزمن . وهنا تعين الجهود ، وتحدد المواقيت ، وتقطع الازمنة ، ويحرص المرء على انتهاب كل دقيقة من عمره ، كما لو كان موقنا بأنه سيموت فى الغد

هناك يرقد العقل ، وتهجع الاعصاب ، ولا يعيش غير بعض الحواس . وهنا يجن العقل ، وتختبل الاعصاب ، وتصطرم الحواس ، وتدب النار فى الانسان برمته

هناك اغراء الراحة والحلم ، وهنا اغراء السعى والطمع

هناك اغراء الكسل وعدم الاكتراث ، وهنا اغراء الحركة والتمتع

هناك يقنع الانسان بأى شىء ، وهنا لا يمكنه أن يقنع أبدا بشىء ..

ومضى عبد المقصود أفندى يتأمل أيضا فيما يرى .. يتأمل حياة هذه الطبقة المترفة التى أصبح يغشى مجتمعاتها برفقة امرأته .. فرأى أشياء جديدة .. أشياء غريبة .. أشياء استهولته واستنكرها وهزت فؤاده من الاعماق

رأى الهوانم المتمدينات المصقولات الرائعات ، صديقات امرأته ، يعشن خاملات عاطلات ، قاسيات الافئدة ، غليظات الاكباد ، أنانيات متكبرات متغطرسات ، عرائس مجلوة لا قلب لها ولا حواس ، يخشعن أمام « المودة » ، ويقدسن الترف ، ويعبدن المال ، ويتهالكن على أطايب الطعام ، ويحتقرن الفقر ، ويخشين الامومة ، ويكرهن الفكر ،

وتنقضى حياتهن فى حفلات وولائم وزيارات يغتاب فيها بعضهن البعض وتمج أفواههن العذبة الجميلة السم الزعاف

ورأى الرجال أزواجهن ، أشباه رجال مسلوبى الارادة ، مخنثين طيعين ، تستبد بهم نفس الرذائل ، ويلذ لهم أن تحركهم نساؤهم كالدمى ، وتبتز أموالهم وتعتصرهم كالابقار

وتنبه عبد المقصود أفندى واستفاق . استفاق تماما . وأدرك أن بيجامته الحريرية الناعمة ، وبدلته العصرية الانيقة ، وربطة عنقه المشنوقة ، ونظارته الوجيهة السوداء ، وحذاءه اللامع المكشوف ، وحمالة جواربه المشدودة ، وجلسته المهيبة الى المائدة وهو يتناول الطعام بالشوكة والسكين ، كل ذلك قشور .. قشور جميلة ولطيفة ، قشور لا بد من توفرها . ولكن متى انتفى منها اللباب ، متى فقدت هدوء النفس ، وراحة الضمير واعتدال الرغبات ، وسمو الخلق ، وروعة الفضيلة ، وشعلة الفكر والروح ، تصبح ألاعيب قردة وشعوذة مهرجين

وعند ما تحول ببصره الثاقب الى زوجته ، الى عواطف هانم ، الى المرأة التى أرادت أن تهذبه وتمدنه ، تبين له والأسى يملأ قلبه ، أنها تشبه صديقاتها الهوانم شبها مثيرا منكرا لم يفطن اليه من قبل ..

هى أيضا متغطرسة متكبرة قاسية لا تعرف الرحمة

هى أيضا واشية نمامة لا تصون للغير حرمة

هى أيضا مبذرة متلافة لا تقدر قيمة النعمة

هى أيضا خاملة تكره الفكر وحياته الرحبة

لم تهتم أبدا بأية مسألة خطيرة عامة ، ولم يرها يوما تقرأ فى كتاب . التبرج غايتها ، والتمتع قبلتها ، ومحاكاة الهوانم الثريات هدفها الاول والاخير

رأى فى امرأته كل هذا ، وأماط عن جوهر نفسها النقاب ، وانطلق خياله يمعن فيها طعنا وتجريحا بنفس السلاح الذى هدته اليه وسلمته اياه ..

ولكنه كان يطعن لانه كان يحب .. وكان يمعن فى الطعن ، لانه كان يخشى أن يحتقر ويكره ..

وبدل أن يفضى به الاستنكار والسخط الى تقلص حبه ، ضاعف امعانه فى الطعن والتجريح قوة هذا الحب ، وزادته المرارة والحسرة عنفا واضطراما

وكانت عواطف هانم قد أصبحت معجبة به ، فخورة بتحوله ، مباهية بانقلابه . بيد أنها كانت معجبة بمظهره الوجيه فقط ، ومعجبة بنفسها أكثر مما كانت معجبة به ، وفخورة بما استطاعت أن تحققه فيه أكثر مما كانت فخورة بما استطاع هو أن يحققه لنفسه بنفسه

كانت مزهوة بسلطانها الذى بدل الرجل وغيره ، وصاغ حياته كلها من جديد . ولان لذة السلطان والنصر كانت قد تمكنت منها ، فقد طغى عليها شعور بالتفوق حال بينها وبين أن تفهم حقا زوجها ، وأن تعجب حقا به ، وأن تدع اعجابها يلطف من حدة

كبريائها ، ويتطور بها شيئا فشيئا وينتهي الى عطف وميل وحب ..

أجل . لقد أصبح عبد المقصود افندى كما شاءت امرأته ، وأكثر . ولكنها مع ذلك لم تحبه !.. لم يفز بقلبها وان كان قد فاز مظهره باعجابها . لم يظفر بعطفها الغالى وحبها المنشود ، لانها كانت دائما هى القوية ، ودائما هى المسيطرة. وكان دائما هو الخاضع، ودائما هو الضعيف ، برغم جهاده وتحوله وتجدده !..

واستحوذت عليه هذه الفكرة ، وأمضه احساس الهوان ، وكبر عليه أن يكافح ويناضل ، ويتطور ويرقى ، ليبقى آخر الامر مستضعفا جامدا فاشلا حيث هو . فثارت نفسه ، وثارت كرامته ، وأزكت فيه خيبة الامل وكبرياء العقل وعزة التجدد شعلة الحب والرجولة والعزم ، فأبى الا أن يتسلط بدوره ، ويفرض ارادته ، ويؤكد سلطانه ، ويحاول متوسلا بحبه وذكائه وحكمته وأدبه ، أن يبدل شخصية امرأته ، ويهذب أخلاقها ، ويلطف ميولها ، ويصقل غرائزها ، ويستكمل فيها نقص أترابها ، ليربح آخر الامر حبها ، ويبدع منها الزوجة الرشيدة الفاضلة الكاملة ، الخليقة بحبه ، الجديرة بالنهوض الى المستوى النفسى الرفيع الذى وصل اليه

* * *

ولبث يتحين الفرص وقد شاعت فى نفسه جرأة لا عهد له بها

وفى عصر يوم من الايام ، استفاق من نومه مذعورا على صوت جدل محتدم يشوبه صراخ ، فانصت قليلا ، واذا به يسمع امرأته تنهر الخياطة وتوسعها زجرا وتأنيبا لانها جاءت تلح فى طلب أجرة تفصيل فساتين تأخرت عواطف هانم فى دفعها شهرا كاملا

وكان صوت الخياطة المتهدج ينشف عن لوعة صادقة . وكانت تلتمس وتتوسل وهى تكاد تبكى ، وتقسم أنها فتاة مسكينة يتيمة الابوين تعول ثلاث أخوات احداهن مصابة بمرض عضال فى حاجة دائمة الى الطبيب ودواء

وكانت عواطف هانم وقد أثار كبرياءها الحاح الفتاة ، تهم بطردها دون رحمة . فنهض عبد المقصود افندى من فراشه ، وأسرع فأخذ بضع اوراق مالية من حافظة نقوده ، وخرج الى البهو الكبير ، وهو مكفهر السحنة مقطب الجبين

ولم تكد تبصره الفتاة حتى لاذت به متوسلة . ولكنه لم ينظر اليها ولم يخاطبها ، بل دس فى يدها الاوراق المالية ودفعها فى رفق نحو الباب ، فامتقع وجه عواطف هانم ، وتمهلت قليلا حتى اختفت الفتاة ، ثم صاحت وقد انفجر غضبها :

ـ كيف تهينني على هذه الصورة ؟.. أى دخل لك فى شؤونى ؟.. قلت انى لن أعطيها اليوم شيئا ، وكان يجب ألا تأخذ اليوم شيئا ..

فرفع اليها عبد المقصود افندى بصره الصارم ، ثم تمالك نفسه وقال فى هدوء :

ـ أليس هذا حقها ؟..

فرمت عواطف هانم برأسها الى الوراء ، وأجابت وقد اهتزت جدائل شعرها اللامع :
ــ أنا لم أقل انى سآكل حقها ..
فابتسم عبد المقصود افندى وقال : اذن كان يجب أن تدفعى !
فضربت الارض بقدمها وقالت : كنت أريد أن أربيها ..
فتفرس فيها مستغربا وقال : وماذا فعلت ؟ هل سرقت ؟ هل طلبت أكثر من حقها ؟ لقد اتفقتما أمامى على أجرة الفستانين، ولقد أعطيتك المبلغ ، ولعلك تذكرين، فأين ذهب؟
فارتبكت لحظة واحمر وجهها ، ثم هزت منكبيها غير مكترثة ، وأجابت وهى تنطرح على مقعد : رأيت زينب هانم حرم محمود باك تلبس فستانا من « الكريب جورجيت » الازرق ، فاعجبنى فابتعت بالمبلغ قطعة من نفس القماش ..
فجلس عبد المقصود افندى على مقعد تجاهها ، وتناول يدها بين يديه ، وقال معاتبا وهو يتأملها : وهل أنت يا عواطف فى مستوى زينب هانم ؟..
وتبدل صوته فجأة وأردف وقد ارتسمت على وجهه أمارات الجد :
ــ على أنى لا أعتقد أن سيدة مثل زينب هانم تماطل فى دفع حقوق الناس
فقهقهت عواطف قهقهة مدوية وقالت :
ــ هى ؟.. وماذا تعرف أنت عنها ؟.. انها لا تماطل .. بالتأكيد .. لا تماطل أبدا فى دفع الحقوق ، ولكنها تأكلها أكلا .. ولو استطاعت لاكلت مال النبى .. لقد طردت السفرجى وأكلت عليه عشرة أيام لانه كسر لها طبقين . فهل أنا فعلت أبدا مثلها ؟..
فهز عبد المقصود افندى رأسه وقال : هو ذاك . يجب أن تكونى دائما أفضل منها ..
فصاحت معتدة بنفسها : ولكنى لا اسمح أبدا بأن ترفع مثل تلك الفتاة الصوت فى وجهى وتسجل على سوء النية فى حين أنى سادفع ..
فقال عبد المقصود افندى بلهجة جافية : الفقير لا يستطيع ان ينتظر
فعاجلته بقولها : بل يجب أن ينتظر ، ويشكرنا أيضا نحن الاسياد ، لاننا نحسن اليه ونعطيه عملا ..
فقال مستنكرا وقد روعته قسوتها : ولكنك فى حاجة الى عمل الفقير . ولا يمكن أن تكونى متفضلة عليه حتى لو عاملته كانسان . كان يجب أن تدفعى وفى الموعد المحدد أيضا
وأردف بصوت قاطع : هذه هى الاصول !
فبهتت لهذه اللهجة التى لم تألفها ، وحملقت فى زوجها لحظة ، ثم وثبت من مقعدها ، وأرسلت ضحكة كبيرة رنانة ساخرة ، وقالت وهى تتخلع ويداها على خاصرتيها : أصول؟ أى أصول يا سى عبده ؟.. أنت تريد اليوم أن تعلمنى الاصول ؟.. أنت ؟..
ولم تمهله ، بل رشقته توا بالمثل العامى وهى تتمايل وتتثنى : « قال من امتى طلعت القصر قال من امبارح العصر .. »
ومضت تضحك فى غل ، وتضرب كفا على كف وتردد : يعلمنى الاصول؟.. هو ؟..

يعلمني الاصول ؟ .. والله طيب يا زمن ..

فثبت عبد المقصود افندى أمامها ، وأغضى عن سخرياتها ، وقال متعاليا متأبيا مترفعا مؤكدا سلطانه لاول مرة في نبرة حاسمة آمرة :

ـ عواطف هانم ، أنا لا أحب أبدا ان أسمعك تتكلمين بمثل هذه اللهجة !

فحدقت اليه وفغرت فاها كبلهاء ، ثم لوحت بيديها ذاهلة متعجبة ، ثم ابتسمت وعادت تضحك ، ثم أربد وجهها ، وتقلصت تقاطيعه ، وقالت وهي تهدر : أهو درس تلقيه على؟

فأجاب : وما المانع ؟

فصرت على أسنانها وقالت مستكبرة وهي تصعد فيه بصرها في حنق وازدراء :

ـ أظنك قد نسيت أنك مدين لى بكل شىء .. وأنى أنا .. أنا التى علمتك ونظفتك ومدنتك ، يا عبد المقصود افندى .. استغفر الله .. يا عبد المقصود بك ..

فأحنى رأسه أمامها في احترام ، وقال في رقة بالغة :

ـ وهل يمكن أن أنسى فضلك يا عواطف هانم ؟!

ودنا منها ، وانحنى عليها ، وأوشك أن يطوقها بذراعه ، وهمس في أذنها متوددا متلطفا كمن يستعطف ويرجو :

ـ أنت أردت أن أكون رجلا متمدينا كريم الاخلاق ، فكيف تلومينني اليوم لاستمساكى بمسائل تتعلق بصميم الاخلاق ؟

فدفعته عنها ، وصاحت في رعونة ساذجة يشوبها دهاء عجيب :

ـ أخلاقى أشرف أخلاق ، وسلوكى أحسن سلوك ، ولا عيب في على الاطلاق .. هل تستطيع أن تقول انى ارتكبت عملا شائنا ؟ .. هل نظرت الى سواك ؟ .. هل كنت متزوجا فاختطفتك من امرأتك ؟ .. هكذا أنتم معشر الرجال ، لا أمان لكم .. لا أمان لكم بالمرة .. ولا سيما أنت .. لا سيما أنت .. أنت الذى كنت بالامس تعرف قدرى وتعتز بزواجك منى ، وتفخر أمام الناس بى ..

وتحشرج صوتها كأنها على وشك أن تبكى ، فانتهز عبد المقصود افندى هذه الفرصة ، واندفع نحوها ، وطوقها بذراعه ، وضمها الى صدره في عطف عميق . وقال متدفقا وهو يهدهدها ويصب في أذنها أمل روحه ، وصفوة قلبه ، وعصارة فكره وحبه وخياله :

ـ أريد أن أفخر بك أكثر وأكثر يا عواطف .. يجب .. يجب أن تغيرى بعض أخلاقك .. من أجلى .. من أجل سعادتنا .. في وسعك أن تجربى .. أن تحاولى . لا تغضبى منى . اسمعى . اسمعى .. كبرياؤك مثلا تسىء الى جمالك وتجردك من سحر أنوثتك .. تشبهك بمن هن أغنى منك يتعبك ويتعبنى ، وبجمالك تعتقدين على الدوام أنك تعسة في زواجك .. اهتمامك الشديد بالزينة والمظاهر يجعلك تحتقرين العواطف وتتعلقين فقط بالماديات .. لا تنظرى الى هكذا .. لقد رأيت بعينك .. رأيت كيف أن الفستان الجديد الذى اشتريته ولم تكونى في حاجة اليه قد خنق ضميرك وانتزع منك

عاطفة الواجب وقتل فى صدرك احساس الرحمة !.. لا. لا يا عواطف..أنت لم تشعرى بأى ألم من نحو تلك الفتاة المسكينة . ولقد بت لا تشعرين بآلام أى كان حتى أقرب الناس اليك .. فكيف لا أتعذب عند ما أراك على هذه الصورة ؟ كيف لا أتعذب عند ما أراك ملكا لاهواء ونزعات غريبة عنى ؟.. ولكن أين أنت ؟.. وهل أنا أصبحت أراك ؟ هل أنت لى ؟.. هل فى مقدورى الجلوس اليك والتمتع بقربك ولو ساعة واحدة ؟.. لقد أصبحت كأختك الصغيرة عطيات .. أصبحت مثلها تماما .. أشبه بنحلة مفتونة لا يمكن أن ترويها جميع الازهار .. دائما مشغولة .. دائما حائرة .. دائما منهمكة .. زيارات . ملاهى . سينما . تياترو . حفلات . ولائم . متى .. متى جلسنا الواحد منا الى الآخر كزوجين سعيدين ؟.. متى سهرنا معا فى بيتنا كالفين متحابين ؟.. متى كنت فرحة مبتهجة معى كما أراك فرحة مبتهجة فى سهراتنا عند الناس ؟.. الحقيقة يا عواطف أنك لا تحبين بيتك ولا زوجك .. أنت تحبين الدنيا .. دنيا المرح .. دنيا الحركة واللهو .. تريدين أن تشربيها .. أن تلتهميها .. أن تفنى فيها .. ومع ذلك يا حبيبتى فهذه الدنيا لا نهاية لها .. وهذا البحر لا حد له .. وأنت برغم هذا كله امرأة ذكية ونبيلة ومن عنصر طيب وفى وسعك أن تراجعى نفسك .. أن تفكرى .. أن تجربى .. أن تحاولى تبديل أخلاقك ولو بعض الشىء .. من أجلى .. لا ، بل من أجل راحتك أنت ومن أجل سعادتك !

وهفت باعصابه نشوة كلماته وعواطفه ، فهم بتقبيلها . ولكنه لم يكد يحاول ، حتى راغت منه ، وانفجر غيظها المكظوم فى قهقهة مجلجلة ، أخزاه وروعه ما تبين فيها من عبث صريح ، ومجون وقح ، وهزء ملؤه السخرية والتحدى :

— يا روحى .. يا روحى .. ما كل هذه الفلسفة وهذا الشعر ؟.. أين كنت مخبئا كل هذا يا سى عبده ؟.. كمان .. الله يا سيدى .. كمان .. كمان

فجمد فى مكانه وظل شاخصا اليها وهى تقهقه وتتأرجح فى عزة وملاحة رأسها الشامخ فوق بدنها المديد وتقول :

— لا يا حبيبى .. أنا لا استطيع أن أعيش كما كانت تعيش الست جميلة .. لا أستطيع أن أغير لا أخلاقى ولا حياتى .. ولقد غيرتك لتكون مثلى ، لا لاصبح مثلك ..

وكفت عن الضحك بغتة ثم قالت بعد فترة وهى تتفحصه : أواثق أنت أن حبك لى لن يزول اذا ما تغيرت ؟.

فهتف : هو حبىّ الذى يطلب اليك أن تتغيرى !

فقالت : ولكنك أحببتنى لانى أنا .. أنا عواطف .. فلو تغيرت فمن يضمن لى انك تثبت على هذا الحب ؟.. قد تزهد فى وتسأمنى .. لا .. ان شخصيتى الراهنة هى التى اجتذبتك ، ولن أكون حمقاء فأبدلها بعد أن لمست قوتها فيك !..

فحاول أن يصيح ، أن يصرخ ، أن يعترض ، ولكنها ردته باشارة كاسرة ، وقالت :

ـ لن أغير لا أخلاقي ولا حياتي !

ووقفت تجاهه منصوبة القامة ، مرفوعة الرأس ، ثابتة النظرة . وزايلتها خفتها ، وشملتها مظاهر التحفظ القديم ، وسكب عليها الجد والعناد والهيبة سحرا مقلقا غريبا . فبدت في تلك اللحظة عظيمة وفاتنة . فاتنة بجلال مظهرها الصارم العنيد ، وفاتنة بقامتها المديدة ، وصدرها الناهد ، ورأسها الشامخ ، وكيانها الذي انسجم في امتلائه الرائع مع تلك العظمة وذلك الجلال

فتأملها عبد المقصود افندي ، واضطرب حبه في صدره ، وجاش واصطخب وعلا . ولكن هذا الحب نفسه قوى عزيمته ، وثبت جنانه ، وحمله على تياره ، ومده بنفس القوة ونفس العناد ونفس التحدي ، فخطا خطوة نحو امرأته وقال في صوت غائر أجش بائر النبرات :

ـ عواطف . سنبدأ منذ الغد حياة جديدة . سننتقل غدا صباحا الى بيتنا في حي السيدة

فحملقت فيه مذهولة ولم تصدق سمعها . ثم صرخت على الفور : لن أذهب !

فقال في هدوء : ستذهبين !

فأمسكت بذراعه ، وواجهت عينيه ، وقالت وهي ترتعد من فرعها الى قدمها :

ـ لو خرجت من هنا فلن أذهب الا الى بيت أخي !

فألقى عليها عبد المقصود افندي نظرة ، ثم هز كتفيه وقال : أنت وشأنك

واستدار وخرج من الغرفة

* * *

.. واجتازت الشارع سيارة نقل كبيرة محملة بالأحجار ، فارتجت النوافذ واهتزت جدران المنزل ، فأجفل عبد المقصود افندي وأفاق من سباته التأمل الطويل ، وأجال الطرف فيما يكتنفه ، فألفى البيت ساكنا موحشا كعهده به منذ أيام ، وألفى نفسه فريسة القلق والحيرة تنهشه الوحدة ويفرى قلبه عذاب الانتظار

وأحاطت به أفكاره وهواجسه ، فخيل اليه أن سكون البيت يزفر من حوله ، وأن فراغ الصمت يزخر ويموج ، وأن طنين الليل قد اشتد على غير عادة ، وأن الظلمة المنتشرة في جوانب الدار قد احلولكت فجأة وامتلأ جوفها بالخيالات والأشباح

وارتمى في جوف هذه الظلمة دون خوف ، وغيب نفسه فيها ، وراح يطوف غرف البيت ، مستطردا تأمله ، متحدثا الى أفكاره ، مخاطبا هواجسه ، يحاول أن يملأ البيت بشخصه ، وأن يروض عقله وأعصابه على احتمال الوحدة الغادرة فلا يستطيع

وبالرغم منه امتدت يده الى زر النجفة الكبيرة وضغطت ، فانبثق البيت كله يرفل في حلة من نور . فمد الرجل بصره الزائغ الى مخدع النوم ، واندفق الدم الى قلبه ولم يجسر على الدخول .

رأى الحجرة هادئة منظمة كما تركتها عواطف آخر مرة . ورأى الفراش نضرا

مرتبا كما نسقته يداها . ولمح صورة لها مثبتة فى الحائط ، وبعض أثوابها معلقا على المشجب ، ومرآتها الكبيرة تسطع فوق خوان زينتها ، وينصب عليها وهج النور انصبابا ، فيعكس أمامه طيفها ، ويلقى فى روعه أنها هنا .. جالسة هنا .. وانه يبصرها .. وانها على وشك أن تلتفت اليه ، وتبتسم له ، وتدعوه للخروج سويا !..

وأحس أن هبة حارة تأخذ بمخنقه ، وأن الدموع تكاد تطفر من عينيه ، فاطفأ النور ، وأسرع ففتح احدى النوافذ ، وأطل منها ، وتنفس ملء رئتيه

ولاح له عن بعد فى ضباب الليل المرصع بزهرات كبيرة من الاضواء المتألقة المتباعدة ، صالون الاسطى حسنين الحلاق حيث كان يتجمل ويتعطر ويلتقى بصفوة أهل الحى ، والقهوة البلدية حيث كان يقبع هانئا ويترشف الشاى أو الزنجبيل أو القرفة يطفو عليها البندق المحمص الشهى ، وحانوت المعلم احمد الشربتلى حيث كان يجلس على رأس الشارع يرقب المارة ويستمتع بلذة كسله الفاتر الثمين

وتجلى له عالمه الوادع الاصيل ، وغمره سكونه الحالم ، وهدوؤه الشارد ، ومرحه الساذج ، وبلادته المستعصية ، وعدم اكتراثه العميق ، فتأثر ولكنه لم يتحسر . أخذ ولكنه لم يعجب . ارتاح ولكنه لم يستقر .. لا . لم يشعر بأية رغبة فى العودة الى هذا العالم ، بل استبد به فقط شوق طارىء وحنين .. حنين الى زوجته الاولى ، الى الست جميلة ، الى المرأة التى تزوجها هنا ، وأحبته هنا ، وفهمته وقدرته وأطاعته وملأت البيت حوله راحة وبهجة ونعيما ..

ولم يكد يذكرها حتى اكتوى قلبه بالنار . النار الآكلة التى أضرمتها الاخرى . نار الحب ونار العقل ونار المذلة .. خمسة عشر يوما وهو ينتظرها .. لم تحفل به ، لم تأبه له ، لم تكترث لعذابه ، وخلفته وحيدا مشردا منبوذا ، يلعق همه ، ويمضغ ذله ، ويتغذى من الامل الطائش كما يتغذى المريض من وقدة الحمى

وأهاجته صور السعادة تبدعها نفس امرأة جاهلة ، فى حين كان الاخلق والاجدر أن يفيض بها عقل امرأة متعلمة

وأثاره وخبله أنه عجز عن تحقيق هذا الحلم ، واستحوذت عليه هذه الفكرة كما لم تستحوذ عليه قط ، وزادها طول انتظاره ونفاد صبره ولوعة رجولته تمكنا وتأثيرا ، فأحس أن لا قبل له باحتمال أكثر مما احتمل ، وأن العار بات يجلله ، والمذلة تبريه ، والاحتقار يكاد يقتله ، فأغلق النافذة فى عنف واعتزم .. اعتزم كعادته ان يبتر .. أن يقطع .. أن ينتهى .. ولكنه تريث أيضا كعادته .. تريث وراح يفكر ويتخيل ويداعب نفس الأمل !..

وفجأة ، وعلى دهش منه ، تمثل له الباب .. الباب العظيم .. الباب الذهبى .. وقد أوصد فجأة فى وجهه واستحال الى شبه جدار هائل موئس عنيد ، أحس أنه لن يستطيع اختراقه مهما حاول ، فضاق صدره ، وشل فكره ، واحتوته ارادة طارئة عاتية ، فانطلق

الى حجرته وارتدى على عجل ثيابه ، وخرج

وكانت الساعة نحو الثامنة مساء ، والجو باردا ، والشتاء فى مستهله ، والمطر قد بدأ يتساقط رذاذا متقطعا مضجرا . فحث عبد المقصود افندى خطاه ، واجتاز العطفة الضيقة، ويمم وجهه شطر بيت المأذون ، وقد انتوى هذه المرة أن يتنفس ، أن يتخلص ، أن يطلقها ويستريح . .

بيد انه ما كاد يتوغل فى العطفة المظلمة ، حتى استشعر ما ستكون عليه حياته ، فهلع قلبه ، وتخاذلت ساقاه ، وناءت عليه دفعة واحدة وطأة الموت اليومى الذى سيقضى به على نفسه ، فتوقف لحظة وعاد يفكر .

وكما يحدث فى بعض الاحيان أن يذهب الانسان فجأة من أقصى القوة الى أقصى الضعف ، كي يذهب فى الواقع من أقصى الضعف الى أقصى القوة ، ومن أقصى البغض الى أقصى الحب ، ومن أقصى الذل الى أقصى الكبرياء ، فقد تراجع عبد المقصود افندى ، وغلبته طيبته ، وقهره الحب ، فاراد أن يكون متسامحا ، وأن يكون نبيلا ، وأن يكون متفضلا ، وأن يبرىء ذمته ويرضى ضميره ويذهب بنفسه الى امرأته ، ويمنحها فرصة أخرى ، ولو عد الناس هذا التصرف منه نزولا عن كرامته ورجولته

وملكته هذه الفكرة ، وأشعرته بضرب من التفوق ، فكر راجعا ، واستقل سيارة انطلقت به الى حى (جاردن سيتى) حيث كان يسكن الدكتور فهيم بك شقيق امرأته الاكبر

وتغلغلت السيارة فى شوارع ضيقة معتمة ، ثم مرقت منها مروق السهم ، ثم مرت متهادية فى الشوارع الكبيرة ، فى الشوارع المتلألئة الساحرة ، فى عالمه الجديد ، فى عالم الجمال الباهر ، والحركة المطردة ، والاناقة المروعة ، واللهو المجنون ، فزفر عبد المقصود افندى زفرة حرى ، واستبد به حنين أعمق وأشد ، وتمنى لو ارتدت اليه امرأته ، لو فهمته ، لو أدركت أنه هو نفسه يحب هذا العالم العصرى ، يحبه حبا طاغيا ، يحبه بقدر ما يكرهه ، وأنه لم يشأ أن يحرمها الحياة فيه ، الا ليعود بها يوما اليه ولكن محتفظا براحته ، ضنينا بحبه ، حريصا على شعلة قلبه وروحه وانسانيته

وعول أن يقول لها كل هذا، أن يصارحها الآن به، أن يستعطفها ويستميلها ويترضاها ويرجع بها الليلة ، بل الساعة ، لو تعقلت ، الى الحى الذى ألفته والبيت الذى اعتادت أن تعيش فيه

وترجل من السيارة ، ولم يستخدم المصعد ، وارتقى الدرج مسرعا وهو يلهث

وما أن بلغ الطابق الثالث وأشرف على البيت ، حتى طرقت مسمعه أنغام موسيقية حادة ، وضحكات رنانة ، وجلبة وصخب وضوضاء . فاضطرب وبهت ثم تشجع وطرق الباب ، ففتح له الخادم مبتسما ، فاستفسر عن الامر ، فأنهى اليه انهم يحتفلون بعيد ميلاد السيدة الصغيرة عطيات هانم ، ثم أفسح له طرف (البارافان) قليلا ودعاه للدخول

فوجم عبد المقصود افندى وحز فى صدره أنهم أهملوه ، وكبر عليه أن يدخل ، وعز عليه أن يرحل ، ولبث واقفا ينتظر كالدخيل المحروم

وعلى حين فجأة دوت فى الجو نغمة جديدة أرسلها الحاكى ، واشتدت الجلبة والضوضاء فحانت من عبد المقصود افندى التفاتة ، فأبصر فى مثل لمح البرق ، أبصر من خصاص البارافان ، زوجته ، زوجته نفسها ، تلوح فى الغرفة المواجهة ثم تبرز فى ثوب السهرة المكشوف ، متألقة العينين ، مضطرمة الوجنتين ، محمومة البدن ، تضحك وتقهقه وهى فى أحضان شاب وسيم ، يحملها بين ذراعيه نصف عارية ، ويدور بها فى شبه اعصار ، ويلقى بها فى حلبة الرقص بين تصفيق المعجبين وهتاف الهاتفين



ما أن رأى عبد المقصود افندى هذا المنظر ، ما أن لمس اندفاع امرأته المتأصل الوحشى فى غمرة اللهو ، وتهالكها الجبار على التمتع ، وقدرتها على أن تهزأ بكل شيء ، وتنسى كل شيء ، وتبدو فى مثل هذه السعادة الشاملة الغامرة وهو بعيد عنها يتألم ويجأر ، حتى أحس قلبه يتمزق وكيانه كله ينخلع وينسحق سحقا . فاستجمع قواه ، ولم يلق الى الخادم بكلمة ، بل استدار ، وهبط الدرج وثبا ، واستقل سيارة أخرى ، ثم قصد من فوره الى بيت المأذون ، وهناك أمام شاهدين من أهل الحى ، طلق امرأته ، طلق عواطف ، طلقها بعد ثلاثة أعوام من زواجه بها ، طلاقا باتا قاطعا لا رجوع فيه

ولما أتم كل شيء وخرج ، بكى .. بكى طويلا ، ولم يستطع أن يعود الى بيته فى حى السيدة ولا الى بيته فى حى الزمالك . لم يشأ أن يعود الى عالمه القديم ولا الى عالمه الجديد، بل سلك طريقا آخر ، وانطلق يمشى كمن يبحث عن شيء آخر ..

وظل هكذا طول الليل يمشى على غير هدى

ابراهيم المصرى

صور من عالم المستقبل

أمريكا حديثة العهد بالفن الجميل ، إذ لا يتجاوز عمرها الفنى مائة من السنين . ولكنها فى هذه الفترة الوجيزة فى تاريخ الأمم ، قد سبقت أمم العالم جميعها فى بعض الفنون الجميلة : وعلى الأخص فن البناء وفن الرسم الصناعى

فأما فن البناء الأمريكي فحسبه شاهداً على عظمته تلك الشواهق التى تنطح السحاب ، وتلك المبانى الباذخة التى تزيد طبقات كل منها على خمس عشرة والتى يقوم منها الآن فى الولايات المتحدة عشرون ألفاً . وليس من شك فى أن عمارة « امبير ستيت » التى تتألف من أكثر من مائة طبقة وترتفع عن الأرض ألفاً ومائتين وخمسين قدماً ، تعد فخراً لعبقرية أمريكا فى فن البناء ، التى لا تقنع بضخامة البناء وارتفاعه بل تجمع اليهما روعة فن الابداع فى ترسيمه وزخرفته



أحياء من مدينة سنة ١٩٦٠ التى تضم نصف مليون من البيوت والعمائر ، وتشتمل على خمسين ألف سيارة منها عشرة آلاف تجرى منطلقة فى الطرق والميادين وتنتشر فى جوانبها مليون شجرة يصفو بها الهواء ، والاتساع والضوء والهواء والراحة هى الأسس التى تقوم عليها أبنية هذه المدينة المعدة للسكنى أو للعمل وكذلك ستنتظم حركة المرور فيها بحيث تقل فيها أخطار الطرق التى تعد من أهم مشاكل الحياة فى المدن الكبرى



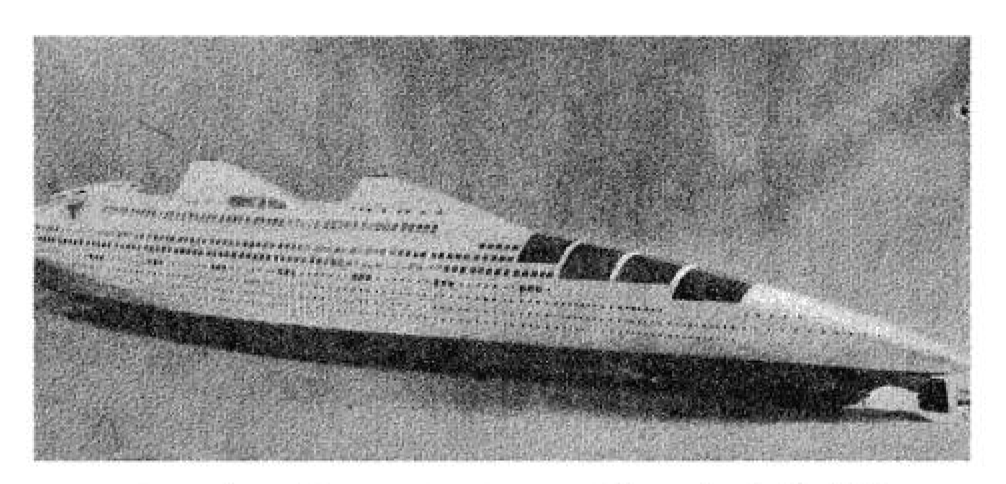
هكذا تكون عمائر السكنى ومكاتب الأعمال غداً يتصورها الفنان الأمريكي نورمان بل جيدس ، متباعدة بعضها عن بعض بحدائق ومتنزهات لتغمرها أشعة الشمس طول النهار ، وفي الوقت ذاته وطيئة السقوف الى حد ما لتتسع لأكبر عدد من السكان والعمال ، وستكون أسطحة هذه المباني شرفات أنيقة تزينها الزروع والأزهار ، ويمضي عليها الناس أوقات فراغهم تحت أشعة الشمس نهاراً أو ضوء القمر ليلا . .

على أن البناء الأمريكي ليس منصرفاً الى هذه المباني الضخمة يفنّ في تصميمها وإقامتها ، بل ينصرف قبل هذا الى إيجاد المسكن الطيب للأمريكي العادي ، وإقامة المصنع أو المكتب الصحي النظيف للعامل والموظف

وأما فن الرسم الصناعي فقد أخذت منه أمريكا بأوفر نصيب ليكون وسيلتها الى تجميل تلك الحياة الصناعية ، التي إن خلت من الفن بدت قاتمة مظلمة لا تبعث في النفس شيئاً من البهجة والجمال . وقد نبغ في أمريكا عدد من أبنائها في فن الرسم الصناعي الذي يتناول كل ما تنتجه الصناعة من ضخم قيم ومن تافه بسيط ، فهم يعنون بتجميل الأمشاط كما يعنون بتجميل البواخر الكبرى ، وهم يخلعون ثوباً من الرونق والرواء على آنية الزجاج ومنفضة السجائر كما يخلعون على القطار والسيارة . وهكذا تندمج الملكة الفنية في الملكة الصناعية فينتج منهما إنتاج صناعي يجمع بين الفائدة والجمال ، ويزيل من الحياة الصناعية التي تحياها أمريكا ما يشوبها من قتام كأنه قتام الدخان المنبعث من مصانعها ومواقدها .

وقد وضع بعض الفنانين الأمريكيين تصميمات لما سيكون عليه عالم المستقبل كما يتخيلونه

ولعلنا نرى أن هذه الصور ليست الا من بنات الخيال التي تنأى عن الواقع كثيراً ، والتي لن تخرج من حيز التصور والتخيل أبداً . ولكنه رأي غير صحيح ، فان ما نراه اليوم قائماً من مدائن ومبان وشوارع وميادين ، ومن بواخر وقطارات وسيارات ، ومن جرائد ومجلات وكتب وأقلام — أي من هذه الأشياء التي يتناولها



سفينة المحيط غداً .. تحمل ألفين من المسافرين ، وتسعمائة من البحارة . ويبلغ طولها ١٨٠٨ أقدام ، وحمولتها سبعون ألف طن وهى انسيابية الشكل حتى لا تقلل من سرعتها مقاومة الماء أو مقاومة الهواء . ويمكن إغلاق جميع منافذها ، حتى تصير كالبيت المغلق ، إذا اضطرب الجو . وفيها من وسائل تكييف الهواء ما يلزمه للتدفئة أو للتهوية . أما حين يكون الجو صحواً رائقاً فانه يمكن فتح أكثر جوانبها وفى هذه السفينة كل ما فى المدينة من ملاه ونواد وردهة للرقص وهكذا . وهى إلى هذا أسرع من أية سفينة حالية وأقل نفقة فى إنشائها



سيجد الأغنياء فى عالم المستقبل هذا مجالا فسيحاً للمتعة والبهجة كما يرى هذا الفنان الأمريكي الذى تصور لهم « يختاً » جميلا يقلهم عبر بحار العالم الكبرى ، وهو يتسع لثمانية أفراد ومعهم ثلاثون بحاراً وخادمان وممرضة وسكرتيرة . وسرعته ثمانى عشرة عقدة ، ويقطع رحلة طولها عشرة آلاف ميل ، وحمولته ألف وأربعمائة طن ، وهو يشتمل على غرفة للجلوس ، وأخرى للمائدة ، ومكتبة ، وأربع غرف للمدعوين من أصدقاء صاحب اليخت وصديقاته ، فضلا عما فيه من غرف النوم وغرف البحارة والخدم



سيكون مطار المدينة من أهم مرافقها ، حين يصير الانتقال فى أرجائها بالطائرات أمراً شائعاً . وهذه صورة مطار المدينة التى يزعم الفنان أنها ستقوم فى سنة ١٩٦٠ ، وهو يبعد عن وسطها بتسعة أميال ، ويبلغ قطره ثلاثة أميال ، وهو معد لاستقبال وإيواء كل ما يلزم من الطائرات فى خلال نصف القرن التالى . وسيشتمل المطار على جميع الوسائل التى تيسر راحة المسافرين من مكاتب ومطاعم وفنادق . وسيلحق به بحيرة تنزل فيها الطائرات البحرية ، وكذلك مطار للمناطيد طول قطره ميل

غداً يكون جهاز التلفزيون ضرورة من ضرورات كل بيت جميل ، فينشر فى أبهائه الموسيقى ، والغناء ، والثقافة ، ويحمل الى الرجل والمرأة وأطفالها صورة ما يجرى فى المسارح وما يقام من الحفلات وما يقع من الحوادث

فن البناء وفن الرسم الصناعى — لم تكن منذ ربع قرن تحسب الا نسيجاً من أنسجة الخيال ، فلم تلبث أن تجسمت حديداً وفولاذاً واسمنتاً وخشباً وزجاجاً وورقاً .

ولهذا فان اليوم الذى تكون فيه بعض مدن العالم كهذه المدينة التى يتخيلها اليوم أحد الرسامين ، أو تصبح فيه بعض بواخر المحيط على هيئة تلك الباخرة التى نراها ، ويصبح فى كل مدينة مطار فسيح تعلو وتهبط فيه عشرات الطائرات لتنقل الناس من حى لحى ومن شارع لشارع كما يتصور بعض الفنانين — هذا اليوم لابد آت ، وآت عما قريب ، فان هذا اللون من الفن الأمريكى ليس فناً خالصاً مطلقاً من القيود ، بل هو فن « تطبيق » قائم على أسس من البحث والتقدير ، لأنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة الصناعية التى لا يمكن أن يقوم إلا على أساس من تقدير العلم وبحث العلماء .

وقد عرضت هذه الصور فى معرض « الفن للملايين » الذى أقامته بالقاهرة جمعية محبي الفنون بمعاونة مكتب الأنباء الحربية الأمريكى

العلم والعالم

ذكرى ابى الكيمياء الحديثة

احتفل العالم العلمى بالعيد المئوى الثانى لميلاد أبى الكيمياء الحديثة العالم الفرنسى الكبير « انتوان لورانت لافوازيه »

وقد كانت الكيمياء فيما مضى أقرب الى الدجل منها الى العلم ، وكان أكثر المشتغلين بها من المحتالين الذين يتخذونها وسيلة للتغرير بالجهلة وسلبهم أموالهم . وكان همهم منصرفا الى استخراج المعدن النفيس ، الذهب ، من المعادن الرخيصة . اما الكيمياء الحديثة ــ التى يعد لافوازيه المنشىء الاول لها ــ فهى هذا العلم العظيم الذى يساهم فى حياتنا الحديثة بأوفر نصيب ، فلها المكان الاول فى علوم الطب ، والزراعة ، والصناعة ، والهندسة

ولافوازيه هو أول من أثبت ان الهواء مزيج من غازين مختلفين : غاز الاوكسيجين وغاز النيتروجين . وبين أن الاول يساعد على الاحتراق وضرورى للتنفس ، والثانى يخمد اللهب والنار ويقضى على الحياة

وكذلك أثبت لافوازيه أن الماء مركب من غازين هما : الاوكسيجين والهيدروجين . وان حامض النيتريك يمكن انتاجه باتحاد غازى الاوكسيجين والنتروجين

ولافوازيه أول من رتب جدولا للعناصر الكيميائية الموجودة . وأول من عمل على اصلاح التسميات الكيميائية وتعميمها

والواقع ان مقام لافوازيه من علم الكيمياء يعادل مقام اسحق نيوتون من علم الطبيعة

على أن جهود لافوازيه لم تقتصر على الناحية الكيميائية فحسب ، بل تجاوزتها الى الافادة من العلم فى مسائل الحياة اليومية . فوضع رسالة فى اضاءة الشوارع استحق عليها مدالية ذهبية منحه اياها ملك فرنسا . ووضع خريطة جيولوجية للبلاد الفرنسية بعد أن أمضى مدة فى زيارة مناجمها ومحاجرها ومصانع الحديد فيها

ووضع تقارير علمية اجتماعية كثيرة منها تقرير عن السجون ، وآخر عن الصحة العامة وثالث عن الصناعة الحديثة . وكذلك ساهم فى اصلاح نظام الضرائب الفرنسية واقامتها على أساس من الرأفة بالناس والاقتصاد فى نفقة جبايتها

وطبق الطرق العلمية فى الزراعة وتربية الماشية ، وبدأ هذا التطبيق فى مزارعه الخاصة

ولما عين عضوا فى لجنة البحث فى البارود» أدخل من الاصلاحات والتعديلات ما أدى الى زيادة كمية البارود المصنوع فى فرنسا وتجويد أنواعه ، مما جعل فرنسا فى ذلك الوقت مستعدة استعدادا حربيا عظيما ، وفى غنى عما كانت تستورده من الخارج من البارود

هذه بعض نواحى جهاد لافوازيه فى البحث العلمى وفى الخدمة العامة ، فمن حقه على العالم أن يحتفل بذكراه أطيب احتفال

سوس الغلال

شرح الاستاذ بريسكو فى محاضرة ألقاها « بجمعية الفنون الملكية البريطانية » بعض بحوث حديثة للكشف عن ماهية المساحيق المعدنية التى يمكن اتخاذها فى محاربة سوس الغلال

وهذا أمر على جانب كبير من الاهمية فى هذه الايام التى يختزن فيها الحلفاء كميات عظيمة من الغلال فى الولايات المتحدة واستراليا والهند لتوزيعها على البلاد التى أنهكتها المجاعة بعد ان تخمد نار الحرب الحالية . فان سلامة هـذه الكميات وحمايتها من السوس تتوقف على ما تؤدى اليه هذه البحوث الجديدة

وقد حدث فى أثناء الحرب الماضية ان خزنت كميات كبيرة من الغـلال فى استراليا ، فلم يلبث ان فتك بها السوس فتكا ذريعا . وهذا ما يريد العلماء أن يتفادوه فى هذه المرة حتى اذا انقشعت سحابة الحرب ، وجد الناس من الغذاء ما يعوض عليهم ما عانوه من نقص وضيق فى سنى هذه الحرب الطوال

والطريقة المتبعة الآن فى حفظ الغلال من السوس ، هى خلطها وقت خزنها بكميات صغيرة من مساحيق غير سامة مثل مسحوق السليكا . فاذا جاء وقت طحنها نظفت من المسحوق اللاصق بها . ولكن هذه الطريقة لم تنجح نجاحا تاما ، فضلا عما تقتضيه من مجهود كبير

وقد كشفت تجارب الاستاذ بريسكو على ان هذه المساحيق الكيميائية ليست مهمة فى ذاتها . بل ان أهميتها هى فى تبخير الرطوبة التى يحتويها جسم السوسة . ذلك ان السوسة تعتمد فى بقائها حية على الاحتفاظ بما فى جوفها من الماء ، لانها تعيش دائما على ما تلتهمه من الطعام الجاف الخالى من الماء . فاذا أمكن تجفيف ما فى بطن السوسة من الرطوبة أمكن قتلها . والدليل على ذلك أن هذا السوس لا يعيش فى وسط يكثر فيه الغبار ، والمخازن الملوثة بالغبار يموت فيها السوس فى بحر بضعة أيام ، على نقيض المخازن الخالية من الغبار فان السوس يكثر فيها ويتوالد عدة شهور . وسبب ذلك ان دقيقات الغبار حادة الاطراف ، وهى باطرافها هـذه تحدث خدوشا فى الغشاء الذى يكسو السوسة ، ثم تلصق بها وتتراكم عليها . ويترتب على ذلك ان يجف ما فى بطن السوسة من الماء والرطوبة فلا تلبث ان تموت

وعلى هذا فقد وجه الاستاذ بريسكو بحثه الى اخراج مسحوق يقضى على ما فى بطن السوس من الماء . وقد نجح البحث فكشف عن مسحوق كيميائى يمكنه ان يحمى من السوس كمية من الغلال يبلغ وزنها وزن هذا المسحوق ألف مرة . وبهذا سيمكن تجنب ما حدث فى الحرب الماضية من ضياع كميات هائلة من الغلال هباء

فيلم فلكى

قال الاستاذ شابمان رئيس الجمعية الفلكية بلندن فى محاضرة له عن الكشوف الحديثة فى الطبيعة الشمسية: انه من الممكن ، ومن الواجب ان تقدم علم الفلك لجماهير الناس فى طريقة شائقة جذابة ، تحمله على ان يستمتع برؤية مشاهد الكون العجيبة ، وان يستفيد من الاصغاء الى تفسير الشارح لها

ويكون هذا باستخدام أفلام سينمائية ملونة ، تتعاون على اخراجها الهيئات المختصة فى المراصد الفلكية . وبهذا يمكن ان تعرض على الشاشة البيضاء قصة فلكية عن دورة أو أكثر من دورات كلف « بقع » الشمس

ثم قال : ولا شك فى ان اخراج فلم كهذا يعطى أفراد الشعب عامة ، وأطفاله وتلاميذه خاصة ، فكرة يتعرف منها الطريقة التى كشف بها غاليليو عن الدورة الشمسية ، وعن ظهور الكلف الشمسية واختفائها ، ثم يمكن النظارة كذلك من رؤية التغيير الذى يحدث فى محور الشمس فى أماكن مختلفة من سطح الارض وفى أوقات مختلفة طوال العام السنوى . وكذلك يمكنهم من ملاحظة مناطق الكلف الشمسية وهى تقرب من خط الاستواء ، فيكثر عددها ويقل طوال مدة أحد عشر عاما

ويمكن ان يعرض فى هذا الفلم كسوف الشمس وخسوف القمر

ويتبع ذلك عرض ما تقوم به المراصد من اعمال فى الوقت الحاضر ، وما قامت به من كشوف فلكية فى الماضى

ويعتقد الاستاذ تشابمان ان اخراج فلم كهذا أمر لا بد منه ، وانه يجب على علماء الفلك ان يخرجوا من ابراجهم العاجية ويعرفوا انفسهم وبحوثهم لعامة الناس فى جميع انحاء العالم

أثر الحرب فى الزراعة البريطانية

ظلت بريطانيا أكثر من قرن (١٧٦٠ — ١٨٧٠) أرقى دولة من الوجهة الزراعية ، وان لم تكن أوفر الدول محصولا . وانما نقصد أن فلاحها كان أخبر الفلاحين بالزراعة ، و « فدانها » أسخى « الفدادين » بالانتاج

وفى هذا العصر الذهبى للزراعة البريطانية، اخترع بعض رجال بريطانيا طائفة من الادوات الزراعية التى يسرت للفلاح مهمته وزادت فى انتاجه . فاخترعت محاريث جديدة بخارية تحرث الارض خيرا وأسرع مما كانت تحرث من قبل. واخترعت آلات للدراس ، واستعملت الانابيب المستديرة فى تصريف مياه الاراضى ، فأمكن بذلك تجفيف ملايين الافدنة وزراعتها . وأنشئت معاهد كثيرة لاجراء البحوث والتجارب العلمية فى فن الزراعة ، وقد كشف أحدها — وهو معهد روثامستيد — عن مادة السوبرفوسفات التى تزيد فى خصوبة الارض زيادة كبيرة

وفى منتصف القرن التاسع عشر كان الزارع البريطانى يعد استاذا فى مهنته . وكان زراع اسكوتلنده على الاخص أقدر الزراع وأمهرهم ، حتى صارت بلدهم مقصدا لكبار الزراع الاوربيين الذين يريدون زراعة أملاكهم على خير الوجوه. فكنت تجد فى كل مزرعة اسكوتلندية فلاحا يدرس فن الزراعة لبارون ألمانى ، أو لكونت دنمركى ، أو لابن أحد لوردات انجلترا ..

ولكن بعد سنة ١٨٦٠ بدأت الزراعة الانجليزية فى التأخر التدريجى، بسبب ما تدفق على بريطانيا من غلال المستعمرات البكر الفسيحة ، وكذلك تدفقت اللحوم المثلجة ومنتجات الالبان من امريكا واستراليا وغيرهما من تلك المناطق الغنية الجديدة ، فأدى هذا الى تدهور الزراعة البريطانية، حتى أفلس كثير من كبار المزارعين، وحتى اضطر صغارهم الى أن يهجروا الريف ويعتصموا بالمدن حيث يعملون فى مصانعها الناهضة الكثيرة

وفى الربع الاول من هذا القرن ، صار اعتماد انجلترا فى غلالها ولحومها على ماتستورده من البلاد الاجنبية وعلى الاخص من ممتلكاتها فيما وراء البحار . وظل الجزء القليل من عمالها المشتغلين بالزراعة مهتمين بأنواع معينة من الانتاج الزراعى ، أهمها الالبان والطيور والبيض والخضروات وأنواع محلية من اللحوم.

وكذلك ببعض السلالات الممتازة من الخيل والماشية والاغنام وفصائل الخنازير . ثم جاءت سنة ١٩٢١ توجد الفلاح البريطاني نفسه وسط سوق عالمية يزاحمه فيها المنافسون الاقوياء ، فكادت تقف حركة تصدير المنتجات الزراعية من بريطانيا وقوفا تاما ، فأصيبت الزراعة البريطانية بضربة ثانية كادت تقضي عليها قضاء تاما

ولم تلبث أن بارت أكثر الاراضي التي أصلحت على مر الزمن . وأهملت المصارف التي حفرت بفضل المياه المستنقعات القديمة بعد أن جففت وزرعت دهرا طويلا . وبدأت تنفد كميات الفوسفات التي أودعت الارض فقلت خصوبتها الى حد بعيد جدا

فلما قامت الحرب الحاضرة ، صار من الواجب ان تعتمد بريطانيا على نفسها في قوتها ومؤونتها . فليس من المستحيل أن تضرب ألمانيا عليها حصارا شديدا من غواصاتها الهائلة في أرجاء البحار . ولو فرضت استحالة هذا فان سفن بريطانيا وحلفائها مخصصة لنقل الجنود والعتاد ، قبل أن تخصص لنقل الغلال واللحوم

وعلى ذلك فقد طولب الفلاح البريطاني بأن يزيد من انتاجه الى أقصى درجة مستطاعة ، وقد نجح في هذا نجاحا عظيما . فقد كانت الاراضي المزروعة في انجلترا واسكتلندة وشمال ايرلندة حتى عام ١٩٣٩ اثنى عشر مليون فدان ، فوصلت هذه المساحة في سنة ١٩٤٣ الى تسعة عشر مليون فدان . وضوعفت المساحات المزروعة من القمح والبنجر والبطاطس . وكذلك زادت الكميات التي تنتجها من اللحوم والالبان الى درجة كادت تغنيها عن كل ما كانت تستورده من الخارج

وقد يبدو هذا غريبا في وقت نقصت فيه الايدى العاملة في الزراعة نقصا كبيرا ، لتجنيد رجال بريطانيا وشبانها اما في ساحات الحرب واما في مصانع الذخيرة والسلاح . ولكن الفضل يرجع الى عاملين : الى المرأة الانجليزية التي خلفت زوجها وابنها في معاناة الزراعة ، والى التوسع في استخدام الآلات الميكانيكية حتى صارت بريطانيا اليوم أكبر مزرعة ميكانيكية في أوربا ، بدون استثناء روسيا ذاتها

شذرات

■ تدل بعض البحوث الطبية الحديثة على أن حالات الكآبة والتشاؤم والهبوط التي تنتاب بعض الناس ترجع الى نقص كمية الكلسيوم في اجسامهم . وانه اذا زادت كمية الكلسيوم في الجسم أضفت على المرء حالة من السعادة والمرح والتفاؤل والانبساط العاطفي

■ يبلغ عدد اللغات التي يتكلمها سكان القارة الافريقية وحدها سبعمائة لغة

■ تستخدم بعض قبائل أواسط أفريقيا الطبول في ارسال الاشارات بينها في حالات الحرب والغزو ، وترسل هذه الاشارات بسرعة ألف قدم في الثانية الواحدة ، وبذلك يمكن أن تنقل مسافة عشرين ميلا في دقيقة ونصف دقيقة . فهم من هذه الناحية ليسوا أقل تأخرا من أولئك الذين يستعملون في حروبهم التليفون والتلغراف واللاسلكي

■ دلت بعض الاحصاءات الطبية على أن قرحة المعدة تصيب خمسة رجال مقابل كل امرأة تصاب بها

الحركة الفكرية

اصلاح التعليم فى بريطانيا

تشهد مصر فى هذه الايام بداية ثورة اصلاحية فى نظامها التعليمى ، يرجى ان تكون هى حجر الاساس فى بناء نظام جديد للمجتمع المصرى فى مختلف نواحيه

بسطت مبادىء هذه الثورة فى هذا التقرير النفيس الذى وضعه وزير المعارف عما يجب ان يكون عليه أمر التعليم فى مصر اذا هى أرادت ان تساير العالم فى تقدمه الفكرى وتطوره الاجتماعى .. وكذلك فصلت أصول هذه الثورة وأهدافها من قبل فى هذا الكتاب النفيس الذى وضعه الدكتور طه حسين بك عن « مستقبل الثقافة فى مصر » . فقد غدا ذلك التقرير وهذا الكتاب وما تضمناه من مبادىء اصلاحية عظيمة دستورا لسياسة التعليم فى مصر

والامر فى بريطانيا كالامر فى مصر من حيث الرغبة الشائعة بين رجال التفكير والتعليم ، ورجال الحكم والسياسة ، فى اصلاح النظام التعليمى اصلاحا شاملا يلائم الافكار الحرة التى أشاعتها هذه الحرب واسبابها ودواعيها ، ويوائم ذلك التطور الذى سيأخذ به العالم حتما غداة يوم الهدنة سعيا الى اشاعة الحرية واقامة العدالة بين الناس

وقد وضع وزير المعارف فى بريطانيا تقريرا فى اصلاح التعليم ، وعرض التقرير على البرلمان البريطانى ، وفازت الحكومة باقرار كل ما أرادته فى شأن اصلاح التعليم ، وعلقت أمر الثقة بها على موافقة البرلمان على منهاجها التعليمى كاملا ، وهذا دليل قاطع على ان قادة بريطانيا يرون سياسة التعليم واصلاحه ، ليست أقل شأنا ولا أهون خطرا من سياسة الحرب وكسبها

ويجمل بنا ان نلخص المبادىء التى قام عليها هذا الاصلاح كما عرضها أحد كبار رجال التعليم الانجليز ، وهو سير فريد كلارك ، مدير معهد التعليم بجامعة لندن

وأول هذه المبادىء هو « ازالة الحواجز » أى تلك الحواجز الاجتماعية والاقتصادية التى تحول بين جزء كبير من الأمة وبين متابعة التعليم فى جميع مراحله . ففى الوقت الحاضر لا تزيد نسبة الصبيان والفتيات الذين يتلقون تعليما ثانويا فى بريطانيا عن ١٥ ٠/٠ من مجموعهم الكامل . ذلك أنه لا ينتقل من التعليم الاولى الى التعليم الثانوى الا أحد طالبين : طالب يستطيع أهله ان يقوموا بنفقات المدرسة الثانوية وهى نفقات تكاد تبهظ عامة الناس ، واما طالب على جانب كبير من الجد والذكاء فيستطيع ان ينجح فى امتحان المسابقة الى دخول المدرسة الثانوية ، وهو امتحان يعجز الطالب المتوسط عن النجاح

أما الباقون ، أما ٨٥ ٠/٠ من صبيان انجلترا وفتياتها ، فيتركون التعليم بعد مرحلته الاولى التى يبقون بها عادة الى سن الرابعة عشرة

فماذا قررت الحكومة البريطانية لاصلاح هذا الحال ؟ قررت تقسيم مراحل التعليم على الوجه الآتى :

١ ــ مرحلة التعليم الابتدائى ، ويدخلها جميع أطفال بريطانيا ذكورا واناثا ، فى سن الخامسة ويتركونها فى سن الحادية عشرة . وتكون هذه المدارس عامة لابناء جميع الطبقات غنيها وفقيرها ، عاليها وسافلها

٢ ــ مرحلة التعليم الثانوى وتضم التلميذ والتلميذة فيما بين السنة الحادية عشرة والسنة السادسة عشرة . وسيكتفى عقب الحرب مباشرة

بجعل سن التخرج خمسة عشر عاما ، ثم تزاد بعد ذلك عاما آخر

وتشتمل هذه المرحلة على ثلاثة أنواع مختلفة من مناهج التعليم : (ا) منهج التعليم الجامعي ويتناوله أولئك الذين يريدون ان يتموا دراساتهم في الجامعات والمعاهد الفنية العليا ليتخرجوا فيها أطباء ومهندسين ومحامين وكيميائيين وامثالهم من أصحاب المهن الخاصة • (ب) منهج التعليم الفني ويتناوله أولئك الذين يريدون ان يتهنوا الصناعة أو التجارة ، وان يكون لهم فيها خبرة عملية كافية • « ج » منهج التعليم العام وهذا يقدم لطلابه خليطا من الثقافة العامة للذين لا يعدون انفسهم لعمل معين

على أن هذه المناهج ، او هذه المدارس ، الثلاثة ، ليست منفصلة بعضها عن بعض انفصالا تاما • بل هناك ممرات ودهاليز تتيح للطالب ان ينتقل فيها من مدرسة الى مدرسة ، اذا هو تبين ، أو تبين له مدرسوه ، انه اصلح لنوع آخر من التعليم غير النوع الذي اختاره • وستكون هذه الممرات والدهاليز مفتوحة الابواب على مصاريعها فيما بين السنة الحادية عشرة والسنة الثالثة عشرة ، وهي الفترة التي ستعتبر دور اختبار كفاية الطالب واستعداده الحقيقي

٣ ــ مرحلة التعليم الاضافي التي تعقب مرحلة التعليم الثانوي ، ومدتها سنتان ، وفيهما يستأنف الطالب تعليمه في أثناء ممارسته عمله، وذلك بأن يمنحه المصنع أو المتجر أو المكتب الذي يعمل فيه يوما من كل اسبوع يذهب فيه الى المدرسة ، وهذا بخلاف يوم الاحد الذي يمنحه اجازة للراحة والاستجمام • ولا شك ان هذه مرحلة عظيمة الفائدة لانه يستطيع في أثنائها ان يطبق ما يتعلمه على ما يعمله ، لانه يعاني التعليم ويمارس العمل في وقت واحد ، على عكس ما يحدث الآن ، اذ لا يبدأ العمل الا بعد ان ينتهي انتهاء تاما من التعلم

أما مرحلة التعليم الجامعي فتسير في طريقها المعهود ، على ان ييسر لابناء جميع الطبقات ان يظفروا بهذا التعليم ، ما دام استعدادهم العقلي يؤهلهم لها

وثمة نقطة أخرى هامة في هذا الاصلاح التعليمي ، هو فتح آفاق واسعة يستنفد فيها التلاميذ والطلاب نشاطهم وحميتهم ووقت فراغهم بدل أن ينصرفوا الى تلك المتع اللاهية المؤذية التي كثيرا ما تقتل عقولهم واجسامهم قتلا . ولهذا اقترح انشاء ما يسمى « بالخدمة القومية للشباب » ، وهي هيئات منبثة في أرجاء البلاد لتوجيه الشباب الى نواحي الخدمة الاجتماعية التي يفيد منها الطالب دراسة مباشرة لشؤون وطنه، كما يفيد منها تنمية لاحساسه القومي ، واذكاء لعاطفته الوطنية ، واستثمارا لنشاطه وفراغه على خير الوجوه

كتب عن امريكا

لاحظ نقاد الصحف الادبية أن مكتبة الانجليزية ، أي اللغة الانجليزية ، حفلت منذ ثلاث سنوات أي منذ المعركة الجوية التي شنتها ألمانيا على بريطانيا ، بكثير من الكتب المؤلفة عن بريطانيا وحضارتها وسياستها وأسلوب الحياة فيها ، مكتوبة بأقلام كثيرين من كتاب امريكا وبريطانيا

ثم لاحظوا أن صدور هذه الكتب بدأ يقل جدا في هذه الايام ، وانه أخذ يحل محل هذه الكتب المؤلفة عن بريطانيا كتب مؤلفة عن أمريكا، وتاريخها وتكوينها الاجتماعي واتجاهها السياسي ونظام المعيشة فيها

وقد عنيت امريكا ، كتابا وصحافة وحكومة، في العهد الاخير بتمكين الشعوب الاجنبية في أرجاء العالم من معرفة شؤونها وتبين وجهاتها • حتى صارت في أكثر دور السفارات الامريكية في الخارج مكتبة حافلة بالمؤلفات الخاصة بأمريكا، وقاعة لمطالعة هذه المؤلفات ، لمن يريد أن يتزود بالعلم عن امريكا والامريكيين

وليس من اليسير ان نتحدث عن جميع ما صدر أخيرا في هذا الموضوع ، ولكنا نقتصر على أهمها وأطرفها فيما يلي :

(١) محيط فقط بيننا : هذا اسم الكتاب الذي وضعته السيدة ل. س. فلورنس عن امريكا. وقد ولدت هذه الكاتبة الانجليزية في امريكا وعاشت فيها سنين طويلة . فعنيت في كتابها ببيان وجوه المقارنة والمفارقة بين امريكا وأهلها وبين بريطانيا وأهلها . فهي تقول ان امريكا بلد فسيحة الارجاء ذات طبيعة موفورة الغنى ، هي بلد الكبر والضخامة. ولهذا كانت «الكمية» أهم ما يعنى به الامريكي ، وكان حديثه لهذا يدور دائما حول الضخامة والفخامة. أما بريطانيا فبلد صغير المساحة ، لا تزيد مساحته عن نصف مساحة ولاية كليفورنيا احدى ولايات امريكا الثماني والاربعين . ولهذا كان شعبا معنيا بالكيف لا بالكمية ، بل كان في غالب الامر مزدريا للضخامة مقللا من شأنها في الحياة.

وتقول المؤلفة في كتابها ان سكان امريكا اليوم مائة وثلاثون مليون نسمة ، وكانوا منذ قرن ونصف قرن أربعة ملايين فحسب . فقد تدفقت عليها أفواج المهاجرين من شتى أرجاء الارض بالملايين في فترة وجيزة . ودخلها في السنوات العشر التي تلت الحرب الماضية ثمانية ملايين من الانفس . فهل نعجب بعد ذلك من اختلاف اتجاهات الرأي العام فيها ، أم نعجب من أن رجلا مثل روزفلت يستطيع ان يوجد من هذا الشعب المؤلف من أبناء جميع شعوب الارض شعبا موحد القوى موحد الكلمة الى درجة ليست أقل من تلك التي بلغها الشعب البريطاني في ابان معركته ذاتها

ولكن المؤلفة تخطيء في بعض النقط ، فتزعم ان الانجليزي لا يحب الفكاهة الامريكية. وبيان الخطأ في هذا ان القاريء الانجليزي هو الذي أذاع في العالم شهرة الكاتب الامريكي الكبير مارك توين المشهور بفكاهته ومداعبته . وهذا دليل على ان الانجليزي يتذوق تماما الفكاهة الامريكية . والانجليزي يضحك من هارولد لويد ومن لوريل وهاردي وغيرهم من الممثلين الامريكيين كما يضحك الامريكي سواء بسواء

(٢) الولايات المتحدة الامريكية : وضع هذا المؤلف أكبر اخصائي في انجلترا في تاريخ امريكا وشؤونها العامة، وهو الاستاذ بروجان، وفيه يشرح حياة الشعب الامريكي شرحا مفصلا دقيقا في أثناء حديثه عن تاريخه ، وحكومته ، وصناعته ، وصحافته ، ونظامه الاجتماعي ، وأسلوبه التعليمي ، واتجاهه الديني ، ومناحي المرح في حياته

(٣) صورة حليف : مؤلف هذا الكتاب المؤلف الانجليزي جون لانجدون ديفيز ، الذي عاش في امريكا طويلا وطوف في أرجائها كثيرا، وعلى الاخص في تلك الفترة العصيبة التي سبقت قيام روزفلت بالحكم ثم في السنوات الاولى من رئاسته . ولهذا كان جزء كبير من كتابه في عرض نظام « التعامل الجديد » الذي أقام به روزفلت ثورة اقتصادية واجتماعية كبرى . وكذلك تحدث في كتابه عن بعض الشخصيات الغريبة التي شهدتها امريكا في خلال السنوات الماضية مثل الاب كوجلين قسيس الراديو ، الذي كان يذيع اذاعاته الدينية والسياسية باللاسلكي ويهاجم روزفلت أقوى مهاجمة

(٤) جسر على الاطلنطي : أما هذا الكتاب فقد ألفته لجنة من ستة عشر رجلا من رجال الكتابة والسياسة في بريطانيا ، لبحث العلاقات المختلفة بين بريطانيا وامريكا . ويرأس هذه اللجنة سير فيليب جيبس وهو من مشاهير المؤلفين الانجليز ، ومن أعضائها ارتشيبولد سنكلير ، ولورد صموبل ، ومستر لويد جورج . ومن أهم موضوعاته بحث في موضوع السياسة الامريكية بعد الحرب ، وهو بحث جريء صريح، يجب أن يقرأه من يرون ان السياسة الامريكية ستتصل ببلادهم في القريب العاجل

الكتب الجديدة

المذاهب الاجتماعية الحديثة

للاستاذ محمد عبد الله عنان

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر فى ١٨٨ صفحة

فى موضوع المذاهب الاجتماعية الحديثة تتمثل كل مسائل الحاضر والمستقبل . فأما الحاضر فهو نضال المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخصيبة وهو يمت بأوثق صلة الى اضطرام الحرب الحاضرة ، ويجثم وراء الصراع العالمى الحاضر . وأما المستقبل فهو رهين بالنتائج التى سوف يتمخض عنها هذا الصراع من تغلب فريق على آخر ، وانتصار المبادىء والنظم التى يمثلها ، وانهيار المبادىء والنظم التى يمثلها الفريق المغلوب

وقد قدم الاستاذ عنان ، استاذ المذاهب الاجتماعية بمعهد الصحافة بكلية الآداب بالقاهرة شرحا شاملا دقيقا لهذه المذاهب ، استقاه من عشرات الكتب والاسفار التى قرأها ودرسها فى هذا الموضوع ، ومما شاهده فى أثناء رحلاته الكثيرة الى أوربا من أساليب تطبيق هذه المذاهب ، وكذلك مما جمعه عنهـا من مختلف المراجع والوثائق ، ومما سمعه من أبناء الشعوب التى تأخذ بهذه المذاهب أو تخضع لها من الآراء والتعليقات

وعنى المؤلف بأن يدرس هذه المذاهب من الناحية العملية ، وان يتبسط فى شرحها من الوجهة التطبيقية ، ليسهل على القارىء الذى يتتبع أحداث الحرب والسياسة ان يفهم فى ضوئها أدوار النضال الحالى

ودقة الاستاذ عنان فى كل ما يكتب من بحوث فى التاريخ والسياسة أشهر من ان نتحدث عنها ، فهو من الكتاب القلائل الذين يمعنون ويسرفون فى التقصى والتحقيق فى كل ما يصدر من كتب وكل ما ينشىء من بحوث

ابن العاص

للاستاذ عباس محمود العقاد

مطبعة دار احياء الكتب العربية فى ١٥٠ صفحة

عمرو بن العاص ، هذا الصحابى الجليل ، والسياسى القدير ، والقائد المحنك ، هو البطل الذى صوره الاستاذ العقاد فى كتابه الاخير الذى استهلت به لجنة دائرة المعارف الاسلامية السلسلة التى أزمعت اصدارها عن « أعلام الاسلام » مكتوبة بقلم نخبة من « أعلام الكتاب » والاستاذ العقـاد فى كتابه ، ليس مؤرخا فحسب يروى الوقائع ويسجل الاحداث ، بل هو « أديب » يصور بطله تصويرا يستمد خطوطه وألوانه وظلاله من أقوال هذا البطل وأعماله وسيرة حياته

« وما أحوج الأمة الاسلامية ــ كما قالت اللجنة فى تقدمة سلسلة « أعلام الاسلام » التى نرجو ان نظفر بها قريبا ــ الى القراءة المفيدة والقدوة الحميـدة ، فهما الوسيلة الى انبعاث الشعور بكوامن نفسها وباتصال تاريخها وبما لها من أثر خالد فى حضارة العـالم وتراث الانسانية .. وهذه الكتب هى خير زاد يتزود به فى هذا الطريق فقد جعلت العالم العربى فى أطواره رقعة واحدة ، وأخذت تعرض تاريخه فى سير رجالاته الاعلام فى الحكم والسياسة والدين والفلسفة ، وفى العلم والادب والتاريخ عرضا يقرب دراسة التاريخ الى النفوس »

١ ـ بنت الشيطان

مطبعة المعارف فى ١٥٠ صفحة

٢ ـ ابو شوشة والموكب

مطبعة الترقى بدمشق فى ١٠٤ صفحات

للاستاذ محمود تيمور

يتناول الاستاذ محمود تيمور بقصصه الحياة المصرية الصميمة التى يحياها الناس فى أنحاء الريف وأحياء المدن دون أن ينسدل عليها ستار من التقليد الاعمى لمظاهر الحياة الاجنبية ، وهو يقيم قصصه على أساس الدراسة الدقيقة لعلم النفس الحديث وما كشف عنه من ألوان العواطف والمشاعر المختبئة فى حنايا النفس وأطوائها

ومن مزايا أدب الاستاذ تيمور انه فى عبارة عربية سهلة واضحة مشرقة ، لا تعمل فيها ولا اجهاد ، ولا تبذل فيها ولا ترخص ، فهو اذا كان يمثل الحياة المصرية فى قصصه فانه يمثل العقلية المصرية فى اسلوبه : ببساطته ووضوحه واتزانه

و « بنت الشيطان » هو عنوان القصة الاولى من القصص الثمان التى يشتمل عليها هذا الكتاب . ويتقدمها مقال قيم فى « أثر القصة فى تربية الشعب »

ولم يقتصر قلم الاستاذ تيمور على فن القصة الصغيرة ، بل تعداها الى فن المسرحية فأخرج جملة مسرحيات لا تقل عن قصصه فى براعة العرض ، وصدق التصوير ، وسهولة التعبير

وفى مسرحياته ــ كما فى قصصه ــ يعالج الاستاذ تيمور الحياة المصرية « وتتجلى فيها ــ كما يقول الاستاذ زكى طليمات فى تقدمته لهذا الكتاب ــ مميزات الطبع المصرى اللطيف المستمد وهجه من حرارة الروح ولطف المزاج ، لا من اصطخاب العواطف وقوة الغرائز »

ولكننا نراه فى هاتين المسرحيتين « ابو شوشة والموكب » قد خرج بهما من اللون المحلى المحض الى لون « عالمى » رحب الآفاق ، فيما ترمز اليه المسرحية الاولى من فكرة الزمن والنزاع بين الحاضر والماضى ، وفيما تمثله المسرحية الثانية من اضطراب النفس وتقلقل العاطفة فى كل انسان

ما تيسر

للاستاذ خليل السكاكينى

المطبعة العصرية بالقدس فى ١٣٦ صفحة

يضم هذا الكتاب طائفة من المقالات والمحاضرات التى أنشأها وألقاها الاديب الكبير خليل السكاكينى

وللاستاذ السكاكينى تاريخ حافل فى الكتابة والخطابة ، وفى التربية والتعليم . وهو فى هذه الناحية وفى تلك على السواء رجل « حكيم » ينظر الى الحياة نظرة فلسفية خالصة ، لا يشوبها الزيف ولا يغشى عليها الطلاء . بل هو لا ينظر الى الحياة نظرة فلسفية فحسب ، بل « يحياها » حياة فلسفية صحيحة ، فيأنس الى رجل فى اسماله البالية وهيئته الزرية قبل ان يأنس الى رجل يخطف العين بما يحمله من مظاهر الزخرف واسباب التزوير

وهذه النظرة الفلسفية وهذه الحياة الفلسفية واضحة فيما ضمه هذا الكتاب الشائق الثمين من فصول نشرها فى بعض الصحف ، ومن خطب ألقاها فى بعض المحافل .. وهو فى فلسفته هذه يجنح الى الدعابة والتفكهة التى تلمس فيها رجلا « لا يلقى دهره الا غير مكترث ولا يقيم لهذه الدنيا وزنا »

شكرى القوتلى

عدد صفحاته ١١٤ صفحة

السيد شكرى القوتلى ، رئيس الجمهورية السورية ، بطل من ابطال الجهاد القومى ، وزعيم من زعماء الكفاح فى سبيل الحرية ، وعلم من أعلام العروبة الساعية الى استعادة مجدها وتشييد مستقبلها

وانه لواجب على كل عربى أن يتدبر حياة هذا الزعيم ، ويتدارس سيرة جهاده ، ويتتبع أطوار كفاحه .. وهذا ما تضمنه هذا الكتاب الذي يعرض تاريخ الزعيم الكبير ، وما حفل به من ضروب النضال وألوان الاعنات ومثل القوة والمضاء ، والاباء فى الحق والشدة على الباطل ، ورسوخ العقيدة وقوة الايمان

ولا شك ان قراءة هذه السيرة الطيبة تقدم للقارىء صورة مجملة عن الحركة السياسية فى سورية الحديثة ، وعما يساور هذا الشعب الكريم من الآمال الشريفة

ابطال الاسلام

للاستاذ محمود نصير بك

مطبعة ومكتبة مصر فى ١٣٢ صفحة

يترجم هذا الكتاب ، الذى ألفه الاستاذ محمود نصير بك ، حياة نفر كريم من خلفاء المسلمين وابطال الاسلام فى صدره الاول

فهو يشتمل على خمس وعشرين ترجمة ، منها تراجم الخلفاء الراشدين الاربعة ، ومنها تراجم سعد بن ابى وقاص ، وخالد بن الوليد ، وابى عبيدة بن الجراح ، والزبير بن العوام ، وموسى ابن نصير ، وحمزة ، والعباس ، والحسن والحسين ، وغيرهم من أولئك القادة الذين بنوا مجد الاسلام وشادوا الدولة الاسلامية

والمؤلف يركز ترجمته فى صحائف قليلة يضمنها تاريخ حياة المترجم له ، وبلاءه فى سبيل الاسلام ، وما قام به من فتوح وما بذل من جهود

وهو يعتمد فى تأريخه على كتب السيرة وكتب التاريخ العربية المعتمدة ، ويجتزىء منها بما يبرز شخصية ابطاله ويوضح معالم خصالها

والكتاب مزين بخرائط كثيرة للفتوحات الاسلامية ، وكذلك ببعض الصور التى تمثل مناظر من تاريخ المسلمين فى الاندلس

الدقيق

للدكتور أنيس أنسى بك

شركة فن الطباعة عدد صفحاته ٤٨ صفحة

أدت الحرب وما يتبعها من أزمات ومصاعب فى مسألة التموين ، الى تقرير خلط دقيق القمح بدقيق حبوب أخرى أكثر توافرا فى بلادنا ، وترتب على هذا ان واجه الكيميائيون بوزارات الصحة والتموين والتجارة والصناعة صعوبات جمة فى فحص الدقيق بأوصافه الجديدة التى قررتها الحكومة . فقام الدكتور أنيس أنسى بك مدير المعامل بوزارة الصحة ، باستنباط طريقة سهلة لفحص الدقيق . وهذه الطريقة هى موضوع هذه الرسالة العلمية التى تحدث فى فصلها الاول عن تاريخ الدقيق وصناعة الطحن منذ اقدم العصور ، وفى فصلها الثانى عن الحبوب المختلفة وما تتألف منه من العناصر والمواد الغذائية ، وفى فصلها الثالث عن الطريقة التى ابتكرها لمعرفة نسب خلط الدقيق

الملك الضليل : امرؤ القيس

للاستاذ محمد فريد ابو حديد

مطبعة المعارف فى ٢٠٠ صفحة

« كان الفتى الراكب أجمل الفتيان ، وكانت فرسه العربية الكريمة أجود الجياد . كان الفتى فى ميعة الشباب ، خلعت عليه سن العشرين رونقها ، وهو يهتز للنسيم البليل ، فى صباح يوم صاف من أيام الشتاء ، فى واد ضيق من وديان نجد ببلاد العرب . وسار وراءه كلب طويل الجسم ، ضامر الحشا ، تظهر عليه الشراسة والضراوة ، وهو يتطلع بين حين وآخر نحو سيده ، كأنه ينتظر اشارته »

بهذه العبارة يبدأ الاستاذ الكبير ابو حديد كتابه الشائق النفيس عن امرىء القيس . ومنها يمكن ان تتبين الاسلوب البارع الذى اتخذه فى

ترجمة الشاعر العربي الخالد . وتقول الاسلوب البارع لاننا نظن ان امرأ القيس هو أول شاعر عربي يظفر بتأريخ حياته ، ونقد شعره ، فى اسلوب قصصى أخاذ . وهو أول شاعر عربى يظفر بمؤرخ قصصى مبدع ، ساق للناس قصته كما ساق اميل لودفيج قصة الشاعر الالمانى جوتيه ، وكما ساق اندريه موروا قصة الشاعر الانجليزى شيلى

والحق انه لو سبق لنا الادب العربى القديم فى هذا الاسلوب الذى اصطنعه الاستاذ ابوحديد فى عرض أدب امرىء القيس ، لغدا هذا الادب — وقد كاد يصبح نسيا منسيا — قريبا الى العقل حبيبا الى القلب، أثيرا عند عامة القراء وخاصتهم على السواء

والحق ان الاستاذ أبا حديد ، وله فى فن القصة قدح معلى ، وله فى فن الترجمة أثر مشهود ، وله فى الكتابة اسلوبه الجزل الرصين، حقيق بالتهنئة على هذا الكتاب النفيس ، وخليق بأن نطالبه بأن يكون كتابه هذا فاتحة كتب كثيرة من طرازه ، يترجم بها حياة بعض شعراء العربية الافذاذ

امرؤ القيس

للدكتور محمد صبرى

مطبعة دار الكتب المصرية فى ٨١٦ صفحة

هذا كتاب آخر عن امرىء القيس، هو الحلقة الاولى من « الشوامخ » ، عبارة عن دراسة أدبية تحليلية لماهل الشعر الاول ، فى ضوء جديد يكشف من ناحية عن الصلة التى تربط بينه وبين صحراء العرب وجاهليتها وشعرها ، ومن ناحية أخرى ، عن الصلة التى تربط بينه وبين شعراء الافرنج الذين ملأوا الدنيا تغريدا ، وهفوا على كل أيكة وفنن ، وأصبح تطريبهم سلوة المحزون ، وعزاء الانسانية البائسة ، وراحة المتعب ونفثة المصدور

تناول المؤلف حياة امرىء القيس وشخصيته من شعره ، وأورد آراء المتقدمين فيه ، ثم أفرد فصلا وافيا للتمثيل والتصوير فى شعره ، كشف فيه عما يمتاز به من قوة الفطرة والطبع ، وقوة الملاحظة وجدة المعانى والتبريز فى صناعة البيان

والمؤلف يعود بهذا الكتاب الى بحوثه الادبية الخالصة التى كان قد تركها فترة الى التاريخ ، وهو يعد أنه سيواصل هذه السلسلة ، فيتبع هذه الحلقة بثانية عن أبى عبادة البحترى

ولا شك فى أن هذا مجهود عظيم ، يضيف الى المكتبة العربية ذخيرة نفيسة .

بلزاك

للاستاذ أحمد الصاوى محمد

مطبعة المعارف فى ١٨٩ صفحة

نشط الاستاذ الصاوى فى السنتين الماضيتين الى اصدار عدد كبير من الكتب ، تناول بعضها الاحداث والوقائع المثيرة فى هذه الحرب السياسية وما يتصل بها من أمور السياسة وخفاياها ، وتناول بعضها هذه القصة التى لا يعرف أين مبتداها وأين منتهاها، قصة الحب، التى كتب فيها كل أديب وأنشد فيها كل شاعر وعزف بها كل موسيقى وجرت بها ريشة كل فنان ، فأخذ الصاوى يتنقل فى كتبه من ثمار هذه العاطفة أشهاها ويعرض من صورها أروعها وأزهاها . وتناول بعضها حياة نفر من أولئك الذين كانت « حياتهم مدرسة » يتلقى فيها من الناس الحكمة الخالدة التى لا يتلقونها فى المدارس ولا يطالعونها فى الاسفار ..

وكتابه بلزاك أحد هذه الكتب التى جعل عنوانها « الحياة مدرسة » . والحق ان حياة الروائى الفرنسى الخالد مدرسة كبرى : فيها ألوان من الجهاد المقرون بالايمان العميق والكفاح الممتزج بالارادة الحاسمة . وفيها صور من القلق الذى يملأ قلب الفنان حين يتأرجح ، بل حين يتعذب بين فنه وحبه . وفيها مثل عليا يضربها بلزاك لاولئك الذين يريدون المجد

فيريهم ان دونه شوطا طويلا تملؤه الصعاب الكأداء والاثقال التي تقصم الظهور . وفي ثناياها وأطوائها ، منذ أن تفتح صفحتها الاولى الى أن تطوى صفحتها الاخيرة ، حب غامر دافق للمرأة .. نعم فقد أحب بلزاك المرأة اكثر مما أحب اى رجل فى العالم

اما اسلوب الاستاذ الصاوى في ترجمته لبلزاك فهو هذا الاسلوب الذى عرفه قراؤه الكثيرون : أسلوبا شاعريا ، عاطفيا ، تسرى فيه حرارة الشعور ، ويوشيه جمال التعبير

الفكر العربى بين ماضيه وحاضره

للاستاذ سامى الكيالى

مطبعة المعارف فى ٩٦ صفحة

يقول الدكتور طه حسين بك فى تقدمة هذه الرسالة القيمة انه « اذا تحدث الناس عن الاستاذ سامى الكيالى فانما يتحدثون عن كاتب وقف جهده – أو وقف صفوة جهده – على الاستقصاء والاستقراء ومراقبة التيارات الفكرية فى الشرق العربى وتسجيل الاتجاهات التى تتجهها هذه التيارات . وهذه الفصول التى يسعدنى ان أقدمها الى القراء فى مصر ليست الا مظهرا من مظاهر هذه العناية الخاصة »

والواقع ان الاستاذ الكيالى من اكثر الكتاب تتبعا ودراسة للحركة الادبية والفكرية فى انحاء الشرق العربى ، وقد جعل من مجلته الغراء « الحديث » مجالا لعرض نواحى هذه الحركة ودقائقها والحديث عن أعلامها والمبرزين فيها حتى غدت ديوانا دقيقا للتفكير العربى منذ اعقاب الحرب الماضية الى الآن

واكثر الموضوعات التى تضمها هذه الرسالة يدور حول هذه التيارات الفكرية التى شهدها العالم العربى فى نهضته الحديثة ، فمنها بحث فى « الفكر العربى بين ماضيه وحاضره » عرض فيه للدور الجليل الذى أداه الفكر العربى فى الماضى ، وشرح فيه الوسائل لتجديد هذا الفكر وانهاضه ليلائم الحاضر الذى نحياه ، وليسعى مستهدفا المستقبل الذى نرجوه . ومنها بحث عنوانه « الشباب العربى والنزعات التجديدية » وثالث فى « كيف نعمل لاحياء ثقافتنا العربية القديمة » . هذا الى فصول أخرى منها فصل فى « ابن خلدون ورأيه فى العرب » ، وفصل فى « البلديات عند العرب »

تلاقى الأكفاء

للاستاذ على أدهم

مطبعة المعارف فى ١٥٢ صفحة

فصول هذا الكتاب لمحات تاريخية وصور جلية لبعض العلية النادرين من رجال الاقدار وافذاذ التاريخ ، الذين جازوا وادى العبرات – أى الحياة كما سماها القدماء – متغلبين على صعابها ، مستعلين على ضروراتها ، وتبوأوا فى التاريخ موضعا ملحوظا، واستأثروا منه بصفحات حافلات

وقد اتخذ الاستاذ على أدهم لهذه الفصول عنوانا ذا مغزى بعيد ، هو « تلاقى الاكفاء » ، ذلك انه أراد ان يجلو هذه الشخصيات الفذة بأن يتخير المواقف التى احتكوا فيها بشخصيات أخرى تماثلهم فى الاقتدار والفحولة ، وتساميهم فى الاناقة والسمو ، وتخالفهم فى طبيعة الملكات والمواهب ولون المزاج وطريقة فهم الحياة والنظر الى الكون

وقد قيل قديما ان الاشياء تتميز باضدادها ، فرأى الاستاذ على أدهم فى كتابه ان يجلو لنا شخصية نابليون ببسط علاقته برجل مثل تاليران وان يعرض جوانب هامة من شخصية لينين بدراسة صلاته بماكسيم جوركى ، وان يشرح لنا نفس فردريك وأخلاقه وأساليبه فى السياسة وأفانينه فى الدهاء ببيان موقفه من فولتير ، وان يفهمنا أبا جعفر المنصور فهما أدق وأوفى بالمامنا بموقفه حيال ابى مسلم الخرسانى وبموقفه ازاء عمه عبد الله بن على بطل وقعة التراب

والطريقة التى اتبعها الاستاذ أدهم فى كتابة هذه الفصول طريقة لا يقدر عليها الا من تمكن مثل تمكن المؤلف من دراسة علم النفس وعلم الاجتماع ، ليعرض الطرز النفسية المختلفة والانماط الاخلاقية المتباينة ، الى جانب ما له من ثقافة تاريخية قيمة وجولات أدبية موفقة ، تزينها جزالة فى الاسلوب ورصانة فى العبارة

البرلمان الأمثل

للاستاذ رشدى معلوف

مطبعة الكشوف ببيروت فى ١٠٠ صفحة

مشكلة الحكم قديمة ، حاول حلها فلاسفة ومصلحون ، فما وفق أحد منهم الى الحل الامثل

عالجها افلاطون فى « جمهوريته » والفارابى فى « مدينته الفاضلة » وكارل ماركس فى « رأس ماله » . ولكن علاجهم هذا لم يمنع أن عيوب الحكم التى انتقدوها ، ما تزال اليوم إياها بالامس ، مع بعض الفوارق فى الاسباب والمسببات

وهذا الكتاب ما هو الا محاولة جديدة فى سبيل علاج الحكم ، والبحث عن البرلمان الامثل ، فى لبنان الشقيق الناهض . وبحوث الكتاب تدل على تفكير ناضج ، وروح وثابة ، ورغبة قوية فى الاصلاح ..

النهران التوأمان

Twin Rivers

تأليف سيتون لويد

مطبعة جامعة اوكسفورد فى ٢٣٠ صفحة

مؤلف هذا الكتاب عالم انجليزى من علماء الآثار ، وموظف فى مصلحة الآثار العراقية منذ بضع سنين . وقد وجد ان ثمة حاجة الى كتاب شامل ووجيز فى تاريخ العراق منذ أقدم العصور الى يومنا هذا ، ولا سيما منذ صار العراق فى سنى هذه الحرب مهبطا لكثير من الجنود البريطانيين والامريكيين ، فقام بتأليف هذا السفر الذى يتناول تاريخ الاقليم العريق فى عصوره المختلفة

وتاريخ العراق كتاريخ مصر ، اذا قرأته قرأت تاريخ أكثر الحضارات والشعوب القديمة . فأنت تقرأ فى تاريخ العراق تاريخ البابليين والاشوريين ثم تاريخ الاغريق والفرس ثم تاريخ الدولة العربية الاسلامية ، ثم تاريخ المغيرين عليها من المغول والفرس والترك ، ثم جانبا كبيرا من تاريخ الدول المعاصرة ، ومن نهضة العراق الحديثة منذ الثورة العربية الكبرى

وقد ضمن المؤلف كتابه كثيرا من الاقوال التى اقتبسها من المؤرخين السابقين واستشهد بآرائهم واستند الى بحوثهم ، ثم اضاف اليها ما شاهده فى اعمال الحفر فى آثار العراق الكثيرة

خواطر ساذج

للاستاذ خليل تقى الدين

مطبعة دار المكشوف ببيروت فى ١٥٤ صفحة

الاستاذ تقى الدين من كتاب لبنان المجيدين والمجددين . وله فى فن المقالة وفى فن القصة آثار شائقة نفيسة

ويتألف كتابه هذا من مجموعة من المقالات انشأها فى اسلوب شعرى أو فى سياق قصص خليقين بالاعجاب والتقدير . فحين يتحدث عن وطنه لبنان يقول :

« من قمم جبالك الشامخة المكللة بالثلوج ، الى سهولك المتماوجة بسنابلها المثقلة السمراء . ومن قراك المعلقة بين الارض والسماء ، المتألقة عند الاصيل ، الى أوديتك الرهيبة البعيدة الاغوار ، ومن سفوحك المخضوضرة الضاحكة الى رمالك الحالمة المترامية على الشطآن .. تتجدد صور سحرك وجمالك ، يا وطنى لبنان ! »

هذا نموذج من اسلوب المؤلف ، وفيه من صدق العاطفة ، ودقة الشعور ، وجمال التعبير أوفى نصيب

والكتاب حافل بكثير من المقالات الشائقة ، ونخص منها بالذكر مقاله الجميل فى « ذكرى جبران »

مصر والتحرر من الظلم والاستعباد

بقلم الدكتور محمد بهى الدين بركات باشا

هذه محاضرة نفيسة ألقاها حضرة صاحب السعادة الدكتور محمد بهى الدين بركات باشا بقاعة يورت بالجامعة الامريكية بالقاهرة ، واختص بها الهلال وهي من سلسلة المحاضرات التى نظمتها الجامعة الأمريكية عن مصر والحريات الأربع التى أعلنها الرئيس روزفلت . وقد تناول سعادته منها موضوع مصر والتحرر من الظلم والاستعباد

الظلم والاستعباد ، اما أن يكون ظلم دولة لدولة أى خارجيا ، أو ظلم حكومة لفرد ، أو فرد لفرد أى داخليا ، ويبدو لى أن موضوع اليوم يتضمن الكثير من المواضيع الاخرى ، فمن البديهى أن التحرر من الظلم والاستعباد يتضمن حتما التحرر من الفقر والعوز ، كما يتضمن التمتع بحرية الرأى وحرية العقيدة ، فان لم يتوفر عنصر من تلك العناصر ، فلا يمكن لحر أن يتحدث عن شعب لا يتمتع باحدى تلك الحريات بأنه حر من الظلم والاستعباد ، الا اذا كان القائل عبدا بطبعه ، أو طاغية لا ينظر لشىء الا من ناحية مصلحته

ما هو الظلم والاستعباد ، وما هو العدل والحرية ؟ ألفاظ تلوكها الألسن باستمرار دون أن يكون لها مدلول بذاته ، أو معنى محدد بعينه فى نظر قائليها ، ذلك أن مدلولها يتغير بحسب الازمان وما يلازمها من التطورات الاجتماعية ، وبحسب الظروف بل والمناسبات ، فما يعد اليوم ظلما قد يكون فى اعتبار الناس وفى عهد من العهود عدلا

ففى العهود القديمة كان للوالد حق الحياة والموت على أولاده ، وكانوا ينظرون الى هذا باعتباره حقا طبيعيا لانه يتفق فى نظرهم مع الحقوق الطبيعية للأبوة . كما أن وأد البنات قبل الاسلام كان عملا مشروعا وعادلا باعتباره دفاعا عن أقدس حق فى نظر مبتدعيه من العرب هو العرض ، كذلك كان الرق نظاما عادلا باعتباره نتيجة طبيعية لحق الغزو والفتح ، بل من يدرى فربما كان الرق فى عرف تلك الازمان نظاما أملته الرأفة والرحمة الانسانية ، اذ الاصل كان قتل الاسير ، فلما رق الشعور الانسانى استعاض عن القتل بالرق حماية للارواح أن تزهق باطلا !

وما نقوله عن الظلم والعدل نقوله بعينه عن الاستبداد والحرية ، أو ان شئت فقل الطغيان والديمقراطية ، فان ما يعتبر فى عهد منتهى الحرية ، قد يعتبر فى عهد آخر استبدادا لا يطاق ، وليت هذا الخلاف كان مقصورا على العصور الخالية ، بل انه تجاوزها الى

عصور قريبة منا ، واليكم ما قاله الاستاذ عزيز بك خانكى فى مؤلفه الفريد (نفحات تاريخية عن ولاية العهد) :

« توفى محمد الاول فتولى ابنه مراد الثانى السلطنة بحكم أرشديته وبحكم صغر أخويه الرضيعين ، وبحكم سبق سجن عمه مصطفى فى جزيرة لينوس تحت حراسة ايمانويل الامبراطور اليونانى . ولما كبر أخواه الصغيران ، أعدم أحدهما شنقا وأعدم الثانى خنقا

« توفى مراد الثانى فتولى ابنه محمد الثانى (الذى فتح القسطنطينية فى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣) وكان لمحمد أخ لأب رضيع من أم مسلمة هى أميرة ترانسلفانيا ، اسمها مارا ، أما هو فكانت أمه مسيحية (أميرة سينوب) فخوفا من أن الشعب يأتى فى المستقبل ويفضل ابن المسلمة على ابن النصرانية ، أمر بقتل أخيه لأبيه الرضيع ، وللوصول الى قتله احتال على الام واستدعاها عنده فى السراى ، وبينما هى ماثلة أمامه كان رسوله قد انسل داخل السراى وأخذ الرضيع وأغرقه فى حوض الحمام . ثم لنفى الشبهة عنه أمر بقتل رسوله حتى لا يذيع له سرا

« وفى أثناء حكمه أصدر قانونا أباح فيه لكل سلطان أن يقتل اخوته ، ليمنع كل منافسة ولو محتملة له فى الملك . وقال فى ديباجته ان سلامة الدولة تقتضيه ، وان معظم الفقهاء أفتوه بأنه يحق لمن يتولى السلطنة من أولادى أو من أولاد أولادى أن يقتلوا اخوتهم لتطمئن قلوبهم على الملك ، وانه يوصى أولاده وأولاد أولاده بأن يعملوا باحكام هذا القانون »

ليس منا من لم ير فى حياته كثيرا من التطورات السياسية والاجتماعية فى هذا المعنى ، ومن الغريب فى الطبع البشرى أن الانسان كلما أدرك غاية من الغايات وظن أنه وصل الى المثل الاعلى الذى كان ينشده وحقق السعادة التى كان يبتغيها ، انكشف له الافق عن غاية أخرى أبعد مدى يسعى الى تحقيقها ، حتى اذا ما تحققت له لم يلبث أن يتسع أمامه الافق من جديد ، وهكذا لانجد حدا ثابتا لآمال البشرية ولا لمعنى الحرية ، ففى الولايات المتحدة وهى على ما نقرأ ونسمع بلغت أعلى درجات الحرية والرخاء ، ولكنها عند ما وصلت الى ما هى فيه بدأ الذهن ينفتق للتقدم الى الامام من جديد ، والآن نقرأ الشكوى المريرة من ظلم العمال والاستبداد بهم ، وقد نشرت مجلة « المجمع الامبركى للعلوم الاجتماعية والسياسية » مقالا لكاتب اقتصادى ينعى فيه حرية العمال فى المدن التابعة للشركات ، ولعلى لا أجاوز الحقيقة كثيرا اذا قلت ان الاصل فى انشاء تلك المدن كان لترغيب العمال فى العمل بتوفير أسباب العيشة السهلة لهم ، كما هو الحال فى انشاء العزب عندنا ، أى أن الاصل كان لسد عوز العامل ومساعدته فى عيشته ، واليكم ما قاله هذا الكاتب :

« تحوى احدى هذه المدن ما بين أحد عشر ألف أو اثنى عشر ألف نسمة ، وجميع الاملاك فيها ملك للشركة ، تدفع عنها جميع الضرائب ، ويسكن كل عمال المناجم فى

منازل الشركة ، وجميع موظفى المدارس ومن يقومون بالتعليم فيها هم موظفون تابعون للشركة ، كما أن جميع شؤون المدينة يتولاها موظفو الشركة ، ويصدر مراقب الشركة جميع القواعد والانظمة الواجب اتباعها ، ويتولى أعمال البوليس موظفون تدفع أجورهم الشركة ، ويتبعون ارشاداتها » لدرجة عظيمة ، وقد زيدت قوات البوليس عند ما حاول اتحاد المناجم تنظيم الاقليم فى سنة ١٩٣٦ ، أضف الى ذلك أن الشركة تحتفظ فى تلك المدينة بذخيرة لا تقتصر على المسدسات ، بل تحتوى بجانبها عددا من البنادق والقنابل والغازات ، ثم هى تمنع بشدة أية محاولة مشروعة لعقد اجتماعات سلمية ، كذلك كان المتحدثون فى الاذاعة يهددون ، والمنازل تفتش بغير أمر قضائى لمصادرة الكتب الجائز تداولها قانونا ، بل كان يطرد من يوجد عنده شىء منها ، ولا يسمح للعمال باستيضاف من يريدون ، بل ويضطهد من يشتبه فى أن لهم ميولا نقابية اضطهادا مريعا لم يخل من القتل فى بعض الاحيان

وكما ينعى هذا الكاتب الاقتصادى عدم تمتع العمال بالحرية الكافية ، كذلك ارتفعت شكوى رجال التعليم مما يفرض عليهم من قيود جعلتهم يضجون بالشكوى ويعقدون المؤتمرات للدفاع عن حقوقهم باسم الحرية والديمقراطية ، بل باسم المصلحة الوطنية العليا، واليك ما قرره أحد المؤتمرات بعد مناقشات دامت أربعة أيام فى هارفارد

يجب أن يكون مفهوما من معنى حرية العلم

أولا — أن يترك فى تعيين المعلمين كل اعتبار دينى أو سياسى أو خلافهما من الاعتبارات غير التعليمية

ثانيا — يجب أن يكون للمعلم الحق فى استعمال الطرق التى يراها أكثر انتاجا فى التعليم ، بشرط أن يحافظ على مستوى الدرجات ، وأن يراعى مقدرة الطلاب على الاستيعاب

ثالثا — يجب أن يكون لكل معلم الحق فى أن يعبر عن أى رأى يراه ، بشرط أن يكون واضحا تماما أنه يعبر عنه ، باعتباره رأيا من الآراء لا باعتباره حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل

وأخيرا يجب أن يكون للمعلم فى سلوكه العام والخاص جميع الحريات المعترف بها فى المجتمع ، وأننا لنؤمن بحرية العلم التى تسمح للتعليم بأن يكون له فرصة فى أن يجعل الأمل فى حياة الاميركيين ، لا مجرد وعد أو حلم فحسب ، بل حقيقة واقعية

واليك بعد ذلك ما كتبه استاذ التاريخ فى جامعة كارولينا الشمالية ليبين مدى ما يجب أن يتمتع به المعلمون من الحرية قال : « لا تقتصر الحرية على الحق فى التعبير عن الآراء التى تكون موضع اتفاق أو التى لا يكون ثمة اهتمام خاص بشأنها، ولكنها تتجاوز ذلك الى الحق فى التعبير عن الآراء التى قد يراها البعض خطرة بل غير معقولة أو باطلة »

فالحرية تجعلنا نشارك جفرسون فى عقيدته الاساسية القائلة لا خطر من الخطأ اذا ترك العقل حرا فى محاربته له ، ثم يستطرد هذا الاستاذ الى أن يقول : « يعترض علينا الذين

لا يؤمنون بهذا الرأى بأن الاطفال لا يمكنهم أن يميزوا بين الحق والخطأ ، ولكن قل لى بربك متى يمكن لهؤلاء الاطفال أن يتعلموا اذا لم يمكنوا من ذلك أثناء تربيتهم ؟ نعم ان من الواجب مراعاة مستوى الطفل ، فلا يزج به فى أبحاث نظرية عن الاشتراكية أو الديمقراطية مثلا ، اذ أن تلك الابحاث فوق مستوى الاطفال صغيرى السن ، لكنا نعرف مع ذلك أن اتجاهات الاطفال حتى الصغار منهم تتكيف دائما تبعا للجو الذى ينشأون فيه، فهو اما حر يسمح لهم بسماع مختلف الآراء ، واما مقيد يضطر فيه الاساتذة الى تعليم أشياء لا يعتقدونها وسلوك لا يؤمنون به ، فيحرم الاطفال من سماع أكثر من رأى واحد لذلك نرى أن الحرية واجبة حتى فى درجات التعليم الاولى »

ولقد كان التحرر من الظلم والاستعباد باشكالهما المتعددة هو المحور الذى ابتنى عليه ميثاق الاطلنطى ، فلعلكم تعلمون أنه على أثر مقابلة الرئيس روزفلت والمستر تشرشل فى أغسطس سنة ١٩٤١ فى المحيط الاطلسى لبحث مسألة توريد الذخائر من جميع وجوهها طبقا لما نص عليه فى قانون الاعارة والتأجير ، سواء للقوات التابعة للولايات المتحدة أو القوات التابعة للممالك المشتركة اشتراكا فعليا فى مقاومة الاعتداء . رأى هذان العاهلان على أثر تلك المقابلة أن من الواجب عليهما اعلان بعض المبادىء العامة فى سياسة بلاديهما لتنظيم عالم المستقبل ، فاتفقا فى ١٤ اغسطس على نشر تلك المبادىء فى ثمانية بنود ، أكتفى هنا بالاشارة الى بعضها مما يمس موضوعنا . فاولا : ينص هذا الميثاق فى البند الثانى على ألا يحصل أى تغيير فى الاراضى الا اذا كان متفقا مع رغبة سكانها رغبة حرة — ثم ينص فى البند الثالث — على احترام حق كل شعب من الشعوب فى اختيار الحكومة التى تحكمه ، وعلى أن يعاد الى كل شعب حرم من حقوق سيادته وحق اختيار حكومته حقه فى ذلك — ثم نص فى البند الخامس — على وجوب العمل على أن يكون بين الدول تعاون تام فى المسائل الاقتصادية حتى تتاح الفرص لجميعها فى تحقيق مستوى أعلى للعمال وفى ترقية الحالة الاقتصادية والاجتماعية — وأخيرا تعهدت الدولتان الكبيرتان فى البند السادس بأن يضمنا لجميع الدول أن تعيش فى أمن داخل حدودها ، وأن يعملا على أن يتمتع جميع السكان فى جميع البلدان بحياة حرة من الخوف والعوز

تلك المبادىء أيها السادة هى التى أعلنها المؤتمرون ، وهى التى انضمت على أساسها عشرات الدول الى بريطانيا العظمى وأميركا — فأين نحن فى هذا العهد من ذلك العهد القديم الذى كان يقول فيه زهير فى معلقته :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

أو ذلك العهد الذى أشار فيه المتنبى بقوله :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

لا شك أننا اذا ما وضعنا نصب أعيننا كلا من المقياسين نرى أننا خطونا الى الامام

خطوات واسعة ، بل نرى أن أساس سياسة العالم قد انتقل من طرف الى طرف ، وأننا صرنا فى عالم غير العالم ، ومدنية غير المدنية ، وخرجنا من عالم المادة الى عالم الروحانيات ، ومن دنيا الخطايا الى جنة الرحمة والنعيم . وأننا لنرجو اذا ما تحققت تلك المبادىء أن نرى مصر وقد ارتفع مستواها الادبى والاخلاقى والاجتماعى ، وازدهرت ماليتها وعم الرخاء جميع جوانبها ، فالتعاون التام الذى أشار اليه البند الخامس من الميثاق يستلزم معاونة مصر فى تحقيق جميع أمانيها الاقتصادية ، من غير أن تتأثر الدول التى سبقتنا فى هذا المضمار بمؤثرات سياسية ، فتتمكن مصر من توسيع صناعتها بالآت تمدها بها انجلترا واميركا ، فمصانع النسيج والصباغة ومصانع الزجاج وورش اصلاح الطيارات وتشجيع الطيران المدنى ، كل ذلك يدخل فى ميدان التعاون الاقتصادى ، كما أن توريد الآلات الزراعية والمساعدة على حسن الانتاج بتوفير جميع حاجاته كالاسمدة ونحوها مما تحتاج اليه الزراعة يدخل فى نفس الميدان ، فهل لنا أن نأمل أن الحرب اذا ما انتهت أملنا فى أن تعاوننا الدولتان العظيمتان اللتان وضعتا ميثاق الاطلنطى على تحقيق تلك الغايات فى أقرب فرصة ؟

وهل لنا أن نؤمل أن التعاون الصناعى والزراعى يتبعه كذلك التعاون الثقافى ، فتمدنا تلك البلاد بما نحتاج اليه من الآلات فى معامل الابحاث الطبية والكيميائية وغيرها لخدمة الانسان والحيوان والاقتصاد ، بل انى لاذهب أكثر من ذلك فى تفسير هذا الميثاق ، اذ أن القول بعدم احداث تغييرات اقليمية الا اذا كانت متفقة مع ارادة الشعب الحرة ، يتضمن حتما منع مثل هذه التغييرات من طريق القوة ــ وهذا يستلزم حتما وجود قوة للدفاع فى كل دولة من الدول ــ وهل يتحقق ذلك بغير مساعدة الدول التى لا تتمتع بقوة حربية كافية مثل مصر على تنظيم جيشها بجميع أسلحته بما فيها الطيران والاسلحة الميكانيكية والمدفعية ، بل ومعاونتها فى انشاء مصانع للاسلحة والذخيرة ، اذ بدونها تكون البلاد عالة على غيرها محتاجة الى حمايته ، وهل فى استطاعة اميركا وانجلترا مهما صدقت ارادتهما وحسنت نواياهما أن يكونا حرسا لجميع العالم لمنع تعدى أية دولة على أخرى ؟! أليست الحرب الحاضرة أكبر دليل على أن التعاون ضرورى بين جميع الدول صغيرها وكبيرها ؟! واذا كانت انجلترا واميركا وروسيا احتاجت الى معونة الدول المتحالفة لمحاربة دولتى المحور واليابان ، ومع ذلك فالحرب لا تزال مستعرة رغم انقضاء أكثر من اربعة أعوام ونصف عام عليها ، ولا يزال الناس يجهلون متى تنتهى ــ أفلا يدل ذلك جميعه على أن مساعدة الامم المتعاونة حتى يكون لكل منها جيش يلائمها من ألزم الاشياء لتحقيق تعاون عالمى ؟! وهل يشك انسان فى أن سويسرا وهى دولة ذات نظام ديمقراطى لم تحافظ على حريتها ولم تخدم السلم فى بلادها الا لانها دولة مستعدة استعدادا حربيا كاملا ؟! وهلا ينطبق ذلك القول نفسه وان اختلفت الظروف على تركيا واسبانيا والسويد ؟!

أليست كل هذه الامثلة دليلا قاطعا على ان التنظيم الحربى هو الذى حفظ على تلك

الدول شيئا من حريتها ؟! . ومالى أذهب بعيدا ، فهل يظن انسان أن ألمانيا كانت تجرؤ على تلك الحرب لو كانت تعلم ان انجلترا مستعدة لها منذ البداية أو أن أميركا كانت متأهبة لاقتحامها ؟!

هذه كلها آمالنا فى المستقبل ، ولكن هل بلغ العالم من الرقى الانسانى ما يجعلنا نؤمل فى تحقيق ذلك ؟! لو سمعنا خطب الخطباء وقرأنا ما ينشر فى الصحف والمجلات لما شككنا لحظة فى تحقيق تلك المبادىء ، ولكنا اذا ما قلبنا الطرف قليلا وجدنا الحرب قائمة ، ورأينا حمى القتل والتدمير بغير رحمة ولا شفقة تسود فى كل مكان، ثم رأينا العلماء والقواد بل والفلاسفة والكتاب يتفننون فى سبل التدمير والتخريب وفى اختراع الوسائل للفتك والدمار ، مما يجعلنا نسائل أنفسنا هل يمكن للانسانية اذا ما انتهت هذه الحرب أن تنسى طبيعتها وتنقلب الى ضدها ؟! وهل نقول ما قاله الشاعر العربى :

ومكلف الايام ضد طباعها متطلبٌ فى الماء جذوة نار

أوليس هذا القول هو بعينه ما قاله العاهل الانجليزى العظيم المستر تشرشل فى احدى مقالاته التى نشرها قبل الحرب ، ثم جمعها فى كتابه « خطوة فخطوة » حيث قال : «يزعمون ان التجربة تعلم الرجال ، كلا فان الرجال يكررون دائما أخطاءهم »

ولو أننا تذكرنا الحرب الماضية وأهوالها ثم تذكرنا خطب الرئيس « ولسن » الرنانة وما قاله عن حق تقرير المصير ، وما نادى به من حق العامل تحت الشمس ، ثم رأينا ما انقشعت عنه تلك الحرب مما لا نزال نرى نتائجه الى اليوم ، ثم رأينا كيف قامت عصبة الامم ثم فشلت عن تحقيق الغاية التى أسست من أجلها لارتبنا كثيرا فى آمالنا . .

بل مالى أذهب بعيدا ، ألسنا نرى كيف أن النزاع بدأ يدب حول بولندا وكيف تتولد الخلافات السياسية بين أفراد الشعب الواحد فى اليونان وفى يوغسلافيا وفى فرنسا

اذن يتبين لنا ان العقدة أصعب من أن يكون لها حل سريع أو حل نراه فى جيلنا الحاضر، اذ لا يزال أمام الانسانية صعوبات دونها أهوال شديدة . . وليست حرب الدول أصعبها ولا أعقدها حتى تصل الى غايتها

وحيثما قلبنا الامر فى التكهن بما سيكون ، وجدنا وجوها من الرأى مختلفة ، فالحياة ليست مسألة بسيطة يسهل تحليلها والحكم عليها حكما مطردا ، فلكل مسألة وجوه واشكال متضاربة ، وما يكون عدلا بالنسبة لفريق قد يكون الظلم كل الظلم بالنسبة لفريق آخر ، وما تبرره مصلحة طائفة من الطوائف قد يكون قسوة ضد طائفة أخرى ، وما نعتبره عدلا اليوم قد نراه ظلما غدا . .

وانا لنرجو ألا تكون الحقيقة مع المتشائمين ، وأن يكون أمل المتفائلين هو ما تتمخض عنه الحرب الحاضرة ، ومهما يكن رأينا فيما انتهت اليه الحرب الماضية ــ وانها لم تحقق كثيرا مما كانت تؤمله الشعوب الصغيرة مما وعدت به فى ابانها ــ فانها مع ذلك كانت خطوة الى الامام . ولا شك أن ما نراه اليوم فى مصر وفى العراق وفى سوريا ولبنان فيه

أكبر حجة على أن شجرة الحرية اذا ما غرست لا تلبث أن تزدهر وتنمو ومهما صادفها من عواصف أو اعترضها من أهوال ، فهى لا بد محطمة لكل ما يلقى فى سبيلها من أغلال الى أن تصل الى نموها الكامل ، وتؤتى ثمرها حلوا شهيا ، فنحن اذا لم نستطع أن ندرك كل غاياتنا بمجرد انتهاء هذه الحرب ، فاننا واصلون حتما الى الكثير من آمالنا ، وما علينا الا أن نجتهد وأن نسعى وأن نعمل ونثابر فى العمل حتى يكون غدنا خيرا من أمسنا ، وأن نخطو بمواطنينا وبلادنا خطوة واسعة الى الامام ، لكى تتحقق لها العدالة والحرية فى حياة الفرد وحياة المجتمع ، فاذا ما ارتفعنا فى أفقنا فوق الاهواء الفردية وفوق الشهوات الضارة ، استطعنا أن نبنى لانفسنا وبلادنا مجدا ان لم يكن له بريق يأخذ بالابصار لاول وهلة ، فانه يكون دائم الاثر ثابت البنيان

قلم الحبر : من اختراع ملك شرقى

شاع فى العصر الحاضر قلم الحبر المعروف بالقلم الأمريكانى والمشهور انه من اختراع أمريكا . وقد وقفنا على نص فى كتاب «المجالس والمسامرات» للقاضى النعمان ابن محمد بن منصور عن اختراع هذا القلم ، وهذا النص هو قصة طريفة وقد جاء فيه:

« قال القاضى النعمان بن محمد رضى الله عنه : ذكر الامام المعز لدين الله القلم ، فوصف فضله، ورمز فيه بباطن العلم، ثم قال نريد أن نعمل قلما يكتب به بلا استمداد من دواة يكون مداده من داخله ، فمتى شاء الانسان كتب به ، فأمده ، وكتب بذلك ما شاء ومتى شاء تركه ، فارتفع المداد وكان القلم ناشفا منه ، يجعله الكاتب فى كمه أو حيث شاء ، فلا يؤثر فيه ، ولا يرشح شئ من المداد عنه ، ولا يكون ذلك الا عند ما يبتغى منه ويراد الكتابة به ، فيكون آلة عجيبة لم نعلم أنا سبقنا اليها ، ودليلا على حكمة بالغة لمن تأملها وعرف وجه المعنى فيها

« فقلت ويكون هذا يا مولانا عليك سلام الله ؟

« قال : يكون ان شاء الله ، فما مر بعد ذلك الا أيام قلائل حتى جاء الصانع الذى وصف له الصنعة به معمولا من ذهب ، فأودعه المداد ، وكتب به ، فكتب وزاد شيئا من المداد عن مقدار الحاجة ، فأمر باصلاح شئ فيه ، فأصلحه وجاء به ، فاذا هو قلم يقلب فى اليد ، ويميل الى كل ناحية ، فلا يبدو منه شئ من المداد ، فاذا أخذه الكاتب وكتب به ، كتب أحسن كتاب ما شاء أن يكتب به ، ثم اذا رفعه عن الكتاب أمسك المداد ، فرأيت صنعة عجيبة لم أكن أظن أنى أرى مثلها ، وتبين فيه مثل حسن فى أنه لا يسمح بما عنده الا لمن طلب ذلك منه ، ولا يجود لغير مبتغ ، ولا يخرج منه ما يضر فيلطخ يد من يمسكه أو ثوبه أو ما لصق به ، فهو نفع لا ضرر ، وجواد لمن سأل ، وممسك عمن لم يسأل »

لا شيء في الوجود أعز من أسرة صالحة تغرس في نفوس
أفرادها العطف والتعاون وحب الوطن وحب الانسانية

أزمة الأسرة

بقلم الاستاذ احمد بك أمين

الاستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

أما أن الأسرة في أزمة شديدة وورطة مربكة فذلك مما لا شك فيه ، ولعلها في تاريخها الطويل لم تمر بساعة حرجة كما تمر في هذه الايام . وهذه الازمة يحسها الغرب أكثر مما يحسها الشرق ، وستأتي قريبا الساعة التي يحسها الشرق أيضا لانه سائر في نفس الاتجاه الذي يسيره الغرب ، فستكون النتيجة واحدة والمشكلة واحدة

وقد اهتزت الأسرة هزة عنيفة على أثر الحرب الماضية ، فتشققت جدرانها ووهى بناؤها . فمشاركة المرأة للرجل في بعض أعمال الحروب جعلتها تطالب بعد الحرب بحقوق كثيرة لم تكن تطالب بها ، وجعلت الرجال أطوع لاجابتها . وتعقيد الحياة الاقتصادية جعلت الشبان أميل الى تأخير الزواج وتكوين الأسرة خوفا مما تكلفهم الحياة الزوجية من مطالب لا يستطيعون القيام بها ، وتعميم التعليم بين الفتيان والفتيات أشعر المرأة بمساواة الرجل ، وجعلها ترفض رفضا باتا سلطة الآباء وسلطة الازواج عليهن ، وحلول الآلات الميكانيكية محل العضلات الجسمية أذهبت فخر الرجال بقوة عضلاتهم واحتمال أجسامهم ، وجعلت المرأة تشعر أنها تستطيع أن تصنع في هذه الآلات ما يصنع الرجل ، فيكفي الآن ادارة زر كهربائي لتسير الآلات الضخمة التي تغني غناء آلاف العضلات . ونظريات فرويد التي قررت أن أكثر أعمال الناس مبعثها الغريزة الجنسية ، وبحوث علماء الحياة التي أبانت أن طبيعة المرأة كطبيعة الرجل في استعدادها وكفايتها وقدرتها، وأن الفروق بينهما ليست فروقا طبيعية وانما هي فروق خلقتها النظم الاجتماعية، فالرجل تعلم قديما ولم تتعلم المرأة الا حديثا ، والرجل زاول الاعمال وجرب وتحمل المسئوليات الجسيمة ولم تشاركه المرأة في ذلك ، فنتج عن هذا كله قصورها عنه ، وظهورها بمظهر الضعف وما هو بالطبيعي ، ثم الدعوة القوية الجريئة الى ضبط النسل ، وايمان الكثيرين بها في أوربا وأمريكا ، وتنفيذها فعلا بمنع النسل أو تقليله ما أمكن، وتحرر المرأة بذلك من كثير من متاعب كبر الأسرة . وأخيرا جد المرأة والحاحها في المطالبة بأن لها من الحقوق والواجبات ما للرجل ، ورفضها أن يكون في القوانين الوضعية والعرفية فوارق بين الرجل والمرأة ، وانما يجب المساواة في كل ذلك

كل هذا قلب نظام الاسرة رأسا على عقب ، وغير المثل الاعلى للأسرة كما كان يفهمه الناس فى القرون الوسطى بل وفي القرون الحديثة الى أيام الحرب الماضية ، ونالت المرأة كثيرا من حريتها ، ونادت بأن الرجل ليس أعلى منها شأنا ، ولا هى أعلى منه شأنا ، وانما هما متساويان ، ويجب أن تكون فضائله فضائلها وحريته حريتها ، وما يرتكب من جرائم يؤاخذ عليها كما تؤاخذ هى تماما لا فرق بينهما ، فاذا تنكب عن طريق العفاف أوخذ كما تؤاخذ ، ووزنت أعمالهما بميزان واحد

ولمسنا من هذا كله نتائج خطيرة ، منها عدم تقدير العفاف كما كان يقدر – وانصراف الكثيرين من الرجال والنساء عن الرغبة فى الزواج – واذا كان زواج فالمرأة لم تستطع الصبر على ما كانت تصبر عليه أمها وجدتها ، فهى لا تطيق أن تكون خادمة نظيفة تقضى نهارها فى المطبخ وترتيب البيت وحمل عبء الاولاد ، فتحررت من كثير من هذه الشؤون، وقللت من مسئوليتها فى البيت ، وامتنعت من النسل أو قللت ، فاذا نسلت فقلما تعنى بنسلها عنايتها السابقة ، وحرصت كل الحرص على أن يكون لها وقت فراغ طويل تقضيه فى السينما والتمثيل والجمعيات وما الى ذلك – ثم نشأ عن هذا الانحلال كثرة حوادث الطلاق والميل الى تسهيله ما أمكن ، وتبع ذلك بالضرورة ضياع الاولاد لعدم المربى الصالح بين أبوين يسود حياتهما الصفاء والوئام

وسيكون من وراء قلة الزواج وقلة النسل وكثرة الطلاق نتيجة مرعبة ، وهى قلة عدد الناس فى العالم ، وضعف تربية الاطفال فى الأسرة الصالحة ، ويزيد فى خطورتها أن هذا كله يجرى بين حملة لواء المدنية فى العالم – ثم كان الوازع الدينى قويا يمنع النفوس من تهورها واستهتارها فضعف هو أيضا ، ولم يبق حائل يحول دون نوازع الهوى والجرى وراء الشهوات

وحار الكتاب والمصلحون والفلاسفة فى شأن هذه الازمة كيف يعالجونها ويصلحون من شأنها ، وتشعبوا فى ذلك مذاهب من محافظين وأحرار وشكاك ، فالمحافظون يتمسكون بنظام الزواج والأسرة ، ويرون أن لا بقاء للجنس البشرى وبلوغه غايته الا بالمحافظة على هذا النظام ، واحاطته بما يكفل صلاحه ، والاتصال الجنسى من غير زواج كارثة على العالم وجريمة كبرى ، وشر على الامة حتى من الزواج التعس

وبعض الاحرار يرون أن المسألة أعقد من ندائنا ببقاء حياة الأسرة كما هى، والقانون الثابت لا يمكن أن يبقى مع تغير الظروف ، فالمرأة الجديدة لم تعد المرأة القديمة، والظروف المحيطة بها تغيرت ، والوازع الدينى ضعف ، والحروب أفنت الرجال دون النساء . وفى انجلترا وحدها نحو مليونين من النساء أكثر من الرجال ، وسيزيد هذا العدد بهذه الحرب ، فلو أن كل رجل تزوج بزوجة بقى هذا العدد الكبير من النساء بغير زواج ، ومن العسير ارغامهن على معيشة العزوبة ، فلا بد من اقتراح حلول لهذه المشاكل ، ولو خالفت التقاليد القديمة

وهناك شكاك حائرون يقولون ليس فى الامكان العودة الى نظام الأسرة القديم ، ثم ها نحن نرى خطورة الحاضر ، فمحاكم الطلاق تكثر من حل عقد الزواج ، وترك كل زوج على هواه والاولاد تضيع بفصم هذه العروة ، وهذه الحرية المطلقة للنساء لا ندرى كيف نصدها بعد أن تعلمن وأدركن حقوقهن، وأصبحن لا يطقن المعيشة الزوجية القديمة . فاذا نحن تساءلنا ما الحلول لهذه المشاكل ؟ عجزنا عن اقتراحها ، فلننتظر حتى يفعل الزمن فعله فى تطور الحالة

□

وبعد فان عيشة الأسرة طبيعية فى دم الانسان وغريزة من غرائزه ، وآية ذلك ما نشاهده فى الحيوانات الراقية من تكوين أسرة وتلوين العيش على مقتضاها ، ولهذا لم يستجب الناس لمن دعوا الى الاستغناء عنها كافلاطون قديما وبرتراند رسل حديثا ، لان هذه الدعوة ضد طبيعتهم . ومهما كان فيها من عيوب ، ومهما تعرضت له من أزمات ، فواجب المصلحين يقضى بالتفكير فى وجوه اصلاحها وتفريج أزماتها ، لا المناداة بالغائها ، والا كنا كمن ينادى بالغاء أدوات النقل كلها من قطارات وسيارات لانها تقتل بعض الافراد وفيها كثير من العيوب

ان وظيفة الأسرة الحقة ـ وربما كانت الوحيدة ـ أن تكون مربى صالحا للاطفال وكل ما حولها من لذة جنسية وما الى ذلك ، فانما هو اغراء من الطبيعة لايجاد النسل ثم تنميته وتربيته ، ولا يوجد فى الدنيا نظام آخر يستطيع أن يقوم مقام الأسرة فى التربية ، وأن يعوض حنان الابوين الطبيعى ، والغلطة الكبرى التى يقع فيها أكثر الناس فهمهم أن المثل الاعلى للزواج لذة حادة دائمة لا يشوبها كدر ، فاذا فترت هذه اللذة أو حل محلها ألم ، عدوا الزواج شقيا والأسرة تعيسة . ومن أجل هذا يستسهلون الطلاق عند فقدان الحب بين الزوجين ، أو عند وجود سبب من أسباب المضايقة . ولو نظر الى الزواج على أنه واجبات بجانب الحقوق ، وتبعات بجانب اللذات ، وأن الحكم فى الطلاق وعدمه يجب أن يكون صالح الطفل لا صالح الزوجين ، لقل الطلاق وذهب كثير من أسباب الشقاء ، ولو نظر الى الطفل على أنه هو الغاية لا السعادة الجنسية والنعيم الدائم ، لرئى أن مايصيب النفس من آلام أحيانا بسبب الأسرة يقوى الروح ويخلق الرجولة أكثر مما يسببها الترف والراحة واللذة والسعادة

لقد اقترح ـ فيما اقترح ـ انشاء الدولة مربى للاطفال يشرف عليه الاطباء والمربيات، ولكن مهما كان هذا المربى نظيفا وصحيا ، فانه لن يقوم مقام الأسرة فى تكوين النفس والروح والخلق ، فالطفل بجانب ما يحتاجه من التغذية محتاج الى غذاء من الحب الابوى والتفاهم العائلى ، وليس يجد الطفل هذا فى أى مكان غير الأسرة

ثم ان المشكلة الكبرى التى تهدد الأسرة الآن حرية المرأة ، فقد قل اتصال المرأة الغربية بيتها ، وستتبعها فى ذلك المرأة الشرقية لا محالة، فتنظيم الحياة الاجتماعية الخارجية

واختراع الآلات العديدة لمختلف الشؤون ، جعلت مهام البيت قليلة على المرأة ، فالخبز يخبز خارج البيت ، وستتحمل المطابخ العامة توريد الطعام للبيوت كما يورد الخبز واللبن ــ وقد بدىء بهذا فعلا ــ فأصبح وقت الفراغ عند المرأة كبيرا لا بد أن تصرفه فى سينما وتمثيل وجمعيات وما الى ذلك ، ثم ان كثيرات منهن اشتركت فى الاعمال وتوظفت وأصبحت تقضى خارج البيت ما يقضيه زوجها ولم يبق عليها من متاعب البيت الا الاولاد ، فمنعت النسل أو قللت منه ، ثم استأجرت من تربيه بدلها . وستزداد هذه المشكلة تعقيدا بعد هذه الحرب الحاضرة التى أخرجت المرأة من بيتها لتشترك فى الاعمال العامة بل وفى أعمال الحرب نفسها ، ومن العسير بعد أن تهجر المرأة بيتها زمنا طويلا أن تعود اليه وتستقر فيه كما كانت تستقر من قبل

لقد تعلمت المرأة وزاحمت الرجل فى الاسواق ، ورغب أصحاب الاعمال فى استخدامهن لقبولهن أجورا أقل من أجور الرجل ، لان الرجل يقدر فى أجرته أنه رب أسرة لا بد له من أجر يكفيه ويكفيها ، والمرأة ليس فى تقديرها ذلك فتقبل الاجر القليل ، وكذلك الشأن فى الوظائف الحكومية وغير الحكومية ، واذا وظفت المرأة واكتسبت مالا بعملها شعرت أكثر من قبل بحريتها وعدم ارتباطها التام ببيتها وأسرتها ، وجرؤت على ما لم تجرؤ عليه أيام كانت فى كنف أبيها أو زوجها ينفق عليها ولا تكسب هى شيئا

ثم هذه الحرية لم تحصن بالمبادىء الروحية والاخلاقية التحصين الكافى ، بل هزىء بها وبدعوتها ، وأثر ذلك فى الرجال كما أثر فى النساء ، فنزول المرأة الى السوق أكثر عدد المتعطلين من الرجال ، وحريتها التامة أضعفت من علاقتها بالاسرة ، وكاد الامر ينتقل من أن المسألة « مشكلة المرأة » الى أن تكون « مشكلة الرجل »

هذه هى الازمة الكبرى والمشكلة العظمى ، ومحال أن تعود المرأة الى ما كانت عليه فى القرون الوسطى بعد أن نالت ما نالت وعرفت ما عرفت ، ولكن مما لا شك فيه أيضا أن حريتها غير المحدودة بحدود لا يمكن أن تبقى على هذه الحال ، وانما هى أثر من فك القيود الماضية كلها دفعة واحدة ، شأنها فى ذلك شأن الحريات التى تأتى عقب الثورات فتبالغ فى الطرف الآخر كحركة البندول ثم تستقر فى نقطة الوسط

فى كل جمعية منظمة لا يمكن لاى فرد رجلا كان أو امرأة أن يتحرر من القيود حرية مطلقة ، وبعبارة أخرى ليس فى الامكان أن تستمتع الجماعة بحريتها الا اذا قيدت ــ الى حد ما ــ حرية أفرادها

وحرية المرأة ــ اذا بالغت فيها ــ كما نشاهد اليوم سيضر بالمرأة نفسها كما سيضر بالرجل وبالمجتمع ، لئن اعتمدت فى حريتها على عيشتها من غير زواج ، فما أبأسها بعد

أحمد أمين

(البقية على صفحة ٣٠٦)

امراض العظماء

وأثرها فى مجرى التاريخ

غير قليل من أعمال كل فرد واتجاهاته ما هو نتيجة مباشرة واستجابة طبيعية لما يصاب به من أمراض وما يلحق بدنه من ضروب النقص والانحراف

خذ نابليون مثلا . فلو لم يكن رجلا ضئيل البدن هزيل القوام ، لكان من المرجح ألا يلجأ الى ابراز شخصيته بتلك الطريقة العنيفة التى اتبعها ، وألا يسعى الى أن يكون سيدا مسيطرا يفرض ارادانه ويبسط سلطانه ، ليشعر نفسه بأن ما فوتته عليها الطبيعة من الضخامة والاناقة قد عوضه هو بما كسبه من مجد وما أحرزه من سلطان . ولو لم يصب فى آخر أيامه بسرطان فى المعدة ، لكان من المحتمل ألا يقعد به المرض عن الفرار من سانت هيلانة ، حيث يستأنف حملاته وحروبه التى ربما أدت به فى النهاية الى أن يغدو سيد أوربا المفرد وحاكمها المطلق

وكم يكون التاريخ صادقا صحيحا لو عرفنا أن كثيرا من المعارك الفاصلة والوقائع الحاسمة لم تحسمها الجيوش والشعوب ، لان خطأ وقع فى رسم الخطة أو نقصا حدث فى اعداد الجند ، بل لان القائد أصيب فى ابان المعركة بخراج فى العنق ، أو بثقل فى المعدة ، أو بصداع أرقه بضع ليال !

والواقع أن كثيرا ما تغير مجرى التاريخ ، لا لامر الا لان مرضا أصاب أحد الملوك أو الملكات أو نقصا لحق بالتكوين الجسمانى لاحد الزعماء أو القواد

فهذه الياصابات ملكة انجلترا حبتها الطبيعة بالذكاء المتألق والدهاء المحكم والسياسة المحنكة ، وجميع هذه المواهب والملكات كانت خليقة بأن تجعل منها أما لسلسلة طويلة من أقدر ملوك انجلترا وأدهاهم .. ولكن ماذا كان ؟ كان أن حرمتها الطبيعة القدرة على الحمل والنسل ، فحرمت العرش ملوكا أقوياء ، وأحلت عليه ملوكا كان لضعفهم وعجزهم أثر كبير فى تاريخ الشعب الانجليزى

والتاريخ حافل بأمثال لا عداد لها من هذا القبيل ، نجتزىء منها بثلاثة أمثال :

عذاب المرضى وظلم التاريخ

فى سنة ١٤٩٢ أعطى كريستوفر كولمبوس ثلاث سفن تمخر بها عباب البحر متجها الى الغرب ليحقق ذلك الحلم الخطير الذى ساوره وأرقه السنين الطوال . وبعد شهور رست السفن على الشاطىء الذى اجتمعت عليه أفواج الناس تحيى القادمين الغرباء . ولم يكن

وسط هذه الافواج الحاشدة امرأة واحدة ، فقد أبقى الرجال نساءهن فى البيوت والاكواخ غيرة عليهن من هؤلاء الاجانب ، أو خوفا عليهن من أذى هؤلاء الغزاة . ولكن رجال كولمبوس لم يلبثوا أن عرفوا الطريق الى هؤلاء النساء ، فكانت النتيجة المحزنة التى يعرفها ويقاسيها العالم الآن . نعم ، فان هؤلاء البحارة ـ كما قرر المؤرخون ـ أصيبوا جميعا بمرض الزهرى اثر اتصالهم بنساء تلك المناطق التى نزلوها

وفى سنة ١٤٩٣ عاد بعض أولئك البحارة الى اسبانيا ، وبقى بعضهم فى الارض الجديدة التى كشفوها . وفى العام ذاته ظهر مرض الزهرى فى اسبانيا لاول مرة فى تاريخها

وفى العام التالى ظهر هذا المرض الذى كان يسمى « بالفوضى الاسبانية » فى مدينة نابلى بايطاليا ، وذلك اثر قدوم حملة اسبانية الى هذه المدينة . وبعد ذلك بعامين عرفت باريس لاول مرة هذا المرض الفتاك . ثم انتشر المرض فى سائر أرجاء أوربا بعد أن تخلى عن اسمه الاسبانى وصار يعرف « بالمرض الفرنسى » . ولم يسم باسمه العلمى الحديث ـ السفلس ـ الا فى سنة ١٥٣٠ ، أما العلاج الناجع له فلم يوفق اليه الطب الا فى بداية القرن الحالى أى فى سنة ١٩٠٥

والآن تتساءل : هل أصيب كولمبوس بهذا المرض ؟

ان أعراض الامراض المختلفة كثيرا ما تتشابه حتى يصعب على المرء أن يتبين حقيقة المرض ويجزم بها . ولكن من الثابت فى تاريخ كولمبوس أنه قد بدت عليه أعراض ولحقت به أمراض ، تدل على أن جرثومة الزهرى سرت فى دمه . ففى أثناء رحلته الثانية الى أمريكا ، فى سنة ١٤٩٤ ، كانت تصيبه نوبات من الحمى تعاوده من حين الى حين . وربما كانت هذه الحمى هى حمى التيفوئيد ، ولكن الارجح أن تكون عرضا من أعراض مرض الزهرى فى مرحلته الثانية ، حين تشتد وطأته على المريض . وفى أثناء رحلته الثالثة ، فى سنة ١٤٩٨ ، أصيب بنوبة شديدة من داء النقرس تبعها دور شديد من الحمى . ولكن الاغلب أن ما أصيب به لم يكن داء النقرس ، لان كولمبوس كان رجلا زاهدا متقشفا ، وهذا الطراز من الناس لا يصاب بهذا الداء

والواقع أن أعراض الزهرى الحقيقية بدت على كولمبوس فى أثناء هذه الرحلة الثالثة . فقد بدأ يتخيل أن أصواتا غريبة ترن وتدوى فى أذنيه ، وبدأ يتوهم نفسه « سفير الله » الى الناس . وقد حملت هذه الحالة حاكم الجزر التى كشفها والتى ضمت الى تاج اسبانيا ، على أن يلقى به فى السجن ، ثم على اعادته الى اسبانيا مكبلا بالاصفاد

ومع أن كولمبوس غدا منذ ذلك الحين واهن الجسم معتل الصحة مضطرب العقل ، الا أنه قام برحلته الرابعة والاخيرة الى العالم الجديد فى سنة ١٥٠٢ . ولما عاد الى اسبانيا بعد ذلك بسنتين حمل من السفينة الى بيته سقيما معلولا . فقد اشتدت عليه وطأة المرض ، حتى انتفخت وتورمت ساقاه ، ثم لم يلبث الورم أن أصاب جسمه كله من الصدر الى أطراف قدميه . واضطربت نبضات القلب وازداد ضغط الدم ، ولحقت به جميع العلل التى

يأتى بها الزهرى فى أشد أدواره . ثم تصلبت أطرافه ، واضطرب تفكيره ، وخفتت دقات قلبه ، حتى أدركته المنية فى سنة ١٥٠٦

وهكذا لم يصب هذا الرجل من كشفه نصف الدنيا ، بل نصفه الغنى الخصيب ، الا هذا المرض الخبيث الذى أذاقه ألوانا شتى من العذاب . . وكأنما أرادت الاقدار أن تلاحق الرجل بالبلاء حتى بعد موته ، فلم يصب من عمله حتى مجرد المجد والشهرة ، بل سميت القارة التى كشفها باسم رجل آخر ، هو امريكو ، الذى لم يكن سوى تاجر لحوم سافر الى تلك البلاد لا بدافع البحث والعلم بل بداعى الاتجار والاثراء

تزاوج الأقارب خلدها وقتلها

تحرم الشرائع الدينية والقوانين الحديثة والعرف المقرر زواج الاشخاص المرتبطين بعضا ببعض برباط وثيق من دم القربى ، كما هو الشأن بين الاخوة . والظاهر أن هذا التحريم جاء من الفكرة التى تقرر أن مثل هذا الزواج لا يأتى الا بأطفال ضعاف من الوجهة الجسمانية أو من الوجهة العقلية أو من الوجهتين معا

ولكن الواقع أن زواج الاخوة ، وزواج الاقارب بوجه الاجمال ، يؤدى الى ما يسمى « بتعزيز الصفات » . أى أن صفات الابوين اللذين تربطهما صلة القربى تأتى معززة مؤكدة بارزة فى أولادهما . وهذه هى الطريقة المتبعة فى انجاب السلالات الممتازة من المواشى ، اذ تمنع السلالة الطيبة من الاختلاط بغيرها ، ويقصر اختلاطها على أفرادها ، فيأتى نتاجها ممتازا بخير ما فى السلالة من الصفات

أما اذا كانت الأسرة مصابة بنواح من الضعف أو الشذوذ الجسمانى والعقلى ، فان زواج أفرادها بعضهم ببعض يؤدى الى تعزيز وتوكيد هذه النواحى الضعيفة أو الشاذة فى نسلها . وتزداد هذه النواحى بروزا ووضوحا كلما استمر التزاوج بين أفراد الأسرة جيلا بعد جيل . ومثل هذه الأسرة تتعرض غالبا لكوارث وفواجع أليمة نتيجة ما يظهر فى أبنائها من عوامل الانحراف والشذوذ

وهذا ما وقع فى الأسرة التى أنجبت كليوباترة ، أسرة البطالسة . وليس هذا مجال الحديث عن جمال كليوباترة الفاتن ، ولا عن رجاحة عقلها الكبير ، فهذه أمور تحدث عنها المؤرخون ، وتغنى بها الشعراء ، منذ أقدم العصور الى يومنا هذا . وانما يعنينا الحديث عن أثر تزاوج أفراد هذه الأسرة بعضا ببعض فى الفاجعة التى انتهت اليها حياة هذه الملكة ، التى جمعت من الجمال والذكاء ما لم تجمع أية ملكة أخرى من الملكات اللاتى كن أحسن منها حظا وأكثر توفيقا

فجداها الاولان ، بطليموس السابع وكليوباترة الثانية ، كانا من أب وأم واحدة . وأنجبا كليوباترة الثالثة التى تزوجت عمها بطليموس التاسع ، وكان عمها هذا شقيقا لابيها وأمها

وقصة الزواج فى هذه الأسرة عجيبة حقا . من ذلك أن ابنة بطليموس العاشر الكبرى ، واسمها بيرينيك الثالثة التى تولت العرش فترة من الزمن ، تزوجت أول الامر شقيق والدها ، ثم تزوجت ابن زوجها هذا من زوجته الاولى !

ولما قتلت هذه الملكة تولى العرش أخوها بطليموس الثالث عشر ، الذى تزوج من أخته كليوباترة الخامسة . وكانت كليوباترة التى خلد اسمها فى التاريخ ابنة هذين الزوجين الشقيقين

فانت ترى أن كليوباترة هى نتيجة سلسلة متصلة من زواج الاخوة باخواتهم . فكان من الطبيعى أن تخرج وفيها جميع صفات البطالسة وملكاتهم معززة مؤكدة . ولكن هذه الصفات لم تكن كلها بالصفات الطيبة السامية ، بل كان منها ما هو شر وبلاء . فجمعت كليوباترة فى نفسها خير هذه الصفات وشرها : جمعت منها صفات الجمال والفتنة ، وصفات الذكاء والدهاء ، كما جمعت منها صفات التهور والاندفاع ، وصفات التبذل والاستهتار . وعلى الجملة كان لها من صفات أسرتها ما خلد اسمها فى التاريخ ، وما انتهى بها الى الموت بلدغة الثعبان !

مرض حطم ثلاثة تيجان

كان من المحتمل أن تتوج مارى ستيورات رأسها بتيجان اسكوتلنده وفرنسا وانجلترا ، لو أن الجراح أجرى عملية جراحية تعد الآن من أبسط الجراحات فى رأس زوجها الاول فرنسيس الثانى ملك فرنسا . وكان فى وسع جراحه أن يجريها وأن ينجح فيها ، ولكنهم لم يصرحوا له بذلك ، فمات الملك ، وكان من نتائج موته أن ختمت حياة مارى ستيورات أقسى ختام ، ختمت تحت فأس الجلاد بعد أن عاشت فى السجن ثمانية عشر عاما

بدأ مرض زوجها فى اليوم الخامس عشر من شهر نوفمبر فى سنة ١٥٦٠ ، وكذلك مرضت مارى فى ذلك الوقت . ولم يكن مرضهما سوى انفلونزا الجأتهما الى الفراش . أما مارى فشفيت بعد يوم أو يومين ، أما زوجها فاشتد به المرض فظل اسبوعين محموما يشكو ويعانى

وانتقل المرض الى أذنيه كما تفعل الانفلونزا عند حدتها ، فأخذتا تصفران وتدويان ، ثم بدأ يسرى الصمم الى سمعه رويدا . ومع ذلك ذهب الى الكنيسة يؤدى الصلاة ، فوقع فى ساحتها متعبا مجهودا ، وهو يئن من ألم شديد فى رأسه وأذنيه . وحمل توا الى قصره ، ولم تلبث أن تورمت أذناه ، وانتقل التورم الى الاعصاب المؤدية الى المخ . وكان الصداع شديدا قاسيا ، والحمى مرتفعة عنيفة ، ونوبات القشعريرة والارتجاف تصيبه فى فترات متقاربة . واشتد به المرض سريعا ، فلم يلبث أن انطرح على فراشه فاقد النطق

واستدعى لعلاجه امبرواز باريه ، وهو أقدر وأمهر الجراحين الفرنسيين حينذاك ، فأشار باجراء جراحة فى الجمجمة لامتصاص ما فيها من القيح والدم الفاسد . وكان رأيه

صحيحا كل الصحة ، وكانت هذه الجراحة هي الوسيلة الوحيدة لانقاذ المريض . ولكن أم الملك ، كاترين دى مديشى ، رفضت أن تصرح له باجراء هذه العملية جهلا منها وفرقا على ابنها

ووقف الجراح الى جانب فراش المريض ينظر الى وجهه نظرة رقيقة حازمة ، وأدواته جاهزة بين يديه تنتظر كلمة الموافقة فتنقل المريض من حالة الاحتضار الى حالة الشفاء . ووقفت أم المريض الى يمينه وزوجه الى يساره ، بينما المريض مسجى وهو باهت اللون مهضم الوجه ، يتقلب متأوها متوجعا

وقالت مارى للجراح : أقدم . ولكن أمه الملكة كاترين ، كانت عنيدة حازمة ، منعته من أن يمد يده الى ابنها . وكانت مارى فتاة صغيرة فى الثامنة عشرة من عمرها ، فلم تقو على معارضة كاترين . وانصرف الجراح كاسفا محزونا بعد أن فارق لويس الحياة

ولو أنه عاش لاستطاعت مارى حين تشب النزاع بينها وبين اليصابات ملكة انجلترا أن تقضى على غريمتها ، حين تعبىء عليها من الشمال قوات وطنها اسكوتلنده ، ومن الجنوب قوات وطن زوجها فرنسا . ولكن تلك الانفلونزا حرمتها عرش فرنسا ، فسهل على خصيمتها أن تتغلب عليها ، وأن تظفر بها أسيرة ذليلة ، فألقت بها فى السجن أعواما طوالا ، ولم تشف غلتها منها الا بعد أن ألقتها تحت فأس الجلاد تجز رأسها

(عن كتاب « العيودون والمرضى » للدكتور جيمس كميل)

أزمة الأسرة

(بقية المنشور على صفحة ٣٠١)

سنين قلائل حين تذهب نضرة شبابها سريعا ، وان بالغت فى مطالبها أعرض الرجل عن الزواج فقل عدد الأسر ، وان تحطمت الأسرة فويل للمجتمع

لا شىء فى الوجود أعز من أسرة صالحة تغرس فى نفوس أفرادها العطف والتعاون وحب الوطن وحب الانسانية ، ولا شىء فى الوجود يهيىء الانسان الى أن يبلغ سموه فى الكمال الا الأسرة ، ولا مربى صالحا يربى فيه الطفل كالأسرة ، فاذا أضاعت المرأة كل ذلك بحريتها ، فقد هدمت المجتمع من أساسه ، ولا يسمح المجتمع لها أن تلعب بالأسرة هذا اللعب ، فلا بد أن يتدخل ، ويوفق بين مطالبها فى الحرية المعقولة والمحافظة على الأسرة فى أسمى أشكالها ، وهذا هو عمل المصلحين فى المستقبل القريب

أحمد أمين

هل يمكن إنشاء حكومة عالمية بعد الحرب ؟

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

« العالم لا يستغني عن هيئة نافذة السلطان تتولى تدبير المسائل التي يقع فيها الاشتباك والتنازع بين الامم أو بين الحكومات القومية والمحلية . . »

نسأل قبل أن نجيب : ما هي الحكومة المقصودة بهذا السؤال ؟

ان كان المقصود بها حكومة على مثال الحكومات القومية المحلية التي تنظر في أمور رعاياها جملة وتفصيلا ، فقيام حكومة عالمية على هذا المثال غير معقول وغير ممكن وغير مطلوب ، وان عقلناه وطلبناه وأمكن تنفيذه فهو غير مفيد

لان المشاهد حتى في الحكومات القومية المحلية أنها تتجه من المركزية الى نوع من اللامركزية ، يختلف باختلاف الأمم والأنظمة الحكومية

فالعواصم الكبرى تحول بعض الاعمال العامة الى العواصم الصغرى ، والمجالس النيابية التي تمثل الامة بأسرها تستعين بالمجالس النيابية الصغيرة التي تمثل الاقاليم في حدود بعض الاعمال ، وهي المجالس البلدية والمجالس القروية وجماعات التعاون وما يقابل عندنا مجالس المديريات

وقد كانت الامبراطورية البريطانية دولة واسعة النطاق تنظر في سياسة أمم كثيرة بعضها في أوربا وبعضها في أمريكا وآسيا وافريقيا وسائر انحاء المعمور ، فوجدت أن ادارة هذه البلدان كلها أمر لا يطاق ولا يقدر عليه الحاكمون ولا يصبر عليه المحكومون ، فبدأت بتحويل السلطان الى « رجل المكان » كما يسمونه في اصطلاحهم The man on the spot

ثم شعرت بثقل العبء على رجل المكان ، فسلمت باستقلال كل أمة من الامم الحرة التي تدخل في نطاقها ، ولا تزال تتوسع في قبول مبدأ الاستقلال المحلي مرحلة بعد مرحلة وعاما بعد عام

فالحكومة العالمية التي تنظر في شؤون العالم على مثال الحكومات القومية المحلية التي عرفناها وعرفها التاريخ في الازمنة الماضية ليست في الحسبان ، ولا يفكر فيها الآن أحد من أتباع المذاهب الاجتماعية على تعددها ، ومنها المفرط في الاشتراكية والمفرط في طلب الحرية الفردية

أما ان كان المقصود بالحكومة العالمية حكومة تنظر في مسائل العالم المشتركة التي لا تقدر عليها حكومة واحدة ، فهذا مستطاع مطلوب ، ويبدو لنا أن الخطوات الاولى في

طريق الوصول اليه تتبين فى حركات الامم الكبرى والصغرى من الآن

فالعالم لا يستغنى عن هيئة نافذة السلطان تتولى تدبير المسائل التى يقع فيها الاشتباك والتنازع بين الامم أو بين الحكومات القومية والمحلية

ومن هذه المسائل ، تنظيم العملة التى يجرى بها التعامل ، بعد اشتباك أمم الارض فى علاقات تجارية واقتصادية يتأثر كل منها بما يصيب الآخرين

ومن هذه المسائل ، حراسة المواصلات فى البر والبحر والهواء ، بعد أن أصبحت طرق المواصلات متشعبة فى أقطار الارض مبثوثة فى أقاليم كل دولة من كبار الدول أو صغارها ، ولا يلبث هذا التشعب أن يزداد ويتعدد بعد انقضاء حالة الحرب بزمن وجيز

ومن هذه المسائل ، توثيق الروابط بين الاجناس الصغيرة التي لا تدخل فى نظام واحد ، ولا يمكن أن يخلى بين كل جنس منها واطماعه ودعاويه وهى لا توافق مصالح الآخرين

وقصة أبى دلامة معروفة فى دواوين الادب والفكاهة ، وهى القصة التى طلب فيها كلب صيد ، ثم طلب لكلب الصيد كلابا يروضه ويعنى به ، ثم طلب للكلاب جارية تخدمه وتخدم أسرته الجديدة ، ثم طلب لكل هؤلاء بيتا يعيشون فيه ، ثم ضيعة تنفق على البيت ومن يأوى اليه

ففى دواوين السياسة العالمية تجرى هذه القصة على وتيرتها التى تناسبها بغير كبير خلاف

فتنظيم العملة العالمية مثلا لا يتأتى بغير تنظيم الانتاج الزراعى والصناعى فى كل قطر من الاقطار ، وتنظيم الانتاج لا يتأتى بغير تنظيم التصدير والتوريد ، وتنظيم هذين لايتأتى بغير تقرير العلاقات بين المنتجين والعمال وبين أصحاب الاموال والمستفيدين

وهذا التشابك أو هذا التعقيد فى المشكلات العالمية لا يصح أن يعتبر مانعا للتفاهم على نظام الحكومة العامة التى تعالجه وتشتغل بتسوية شؤونه . اذ الواقع أن هذا التشابك هو الذى أوجب التفكير « أولا » فى الاتفاقات العالمية ، وهو الذى يوجب التفكير « ثانيا » فى انشاء حكومة للعالم تمثل حكوماته جميعا فى علاج هذه الشؤون

وقبل أن تشتبك العلاقات بين أمم الارض على هذا المنوال ، لم تكن هناك دعوة الى الاتفاق ، ولا حاجة الى التفكير فى نوع من الحكم العالمى غير النوع الذى درجت عليه الامم فى عصور العزلة والشقاق

فليس الاشتباك مانعا للحكومة العالمية ، بل هو موجب لها وداع اليها ، وهو الذى ولد الفكرة من بدايتها ، ولا يزال يتابعها حتى يصل بها الى نتيجة يحسن الركون اليها

وعلى المبدأ الذى قدمناه فى صدر هذا المقال ، لا يراد بالحكومة العالمية أن تلغى حكومات الامم المستقلة أو تخلفها فى سياسة رعاياها ، وانما المراد بها أن تجمع المندوبين عن هذه الحكومات فى هيئة واحدة مسموعة الرأى فى كل قطر من الاقطار كبيرها وصغيرها

وستكون هذه الحكومة العالمية نافعة للامم الصغار من ناحية ، وضارة بها من ناحية أخرى :

ستكون نافعة لها لان الحراسة العالمية تخفف عنها معظم الاعباء التى تنهض بها للدفاع عن استقلالها

وستكون نافعة لها لانها ستغنيها عن ضحايا التطور الاجتماعى الذى وصلت اليه الامم المتقدمة بعد جهاد عنيف بين طبقاتها ، وعراك دام بينها وبين جاراتها ومنافساتها . فلا تحتاج الامم الصغار الى اعادة التجارب الدامية من بدايتها لبلوغ المرحلة التى بلغها المتقدمون فى سبيل العدالة الاجتماعية وتقريب مسافة الخلف بين الطبقات الغنية والطبقات الفقيرة ، وان كنا لا ننتظر من توحيد النظم العالمية فى الانتاج والتصدير والتوريد أن يبطل فعل التطور الاجتماعى كل البطلان ، ويلغى دواعيه كل الالغاء ، فحسبه أنه يختصر طريقه ويخفف بعض أعبائه ، ويريح العالم من بعض ضحاياه

ولكن الحكومة العالمية ستكون ضارة بالامم الصغار من ناحية أخرى ، لاننا نغالى فى الأمل اذا رجونا أن يعم العدل بين الاقوياء والضعفاء على أثر قيام الحكومة العالمية فى تجاربها الاولى . فلا شك أن مصالح الاقوياء ستجور على مصالح الضعفاء الى زمن طويل ، وأن الكلمة المسموعة فى حكومة العالم ستصدر من أقوى الفريقين الى أن يتيسر للضعفاء الاتفاق على تبديل هذه الحالة ، كما تيسر للافراد الفقراء أن يرفعوا صوتهم شيئاً فشيئاً فى الحكومات القومية الى جانب صوت الاغنياء

فالحكومة كما عرفناها منذ نشأتها فى التاريخ الى اليوم لم تمنع الظلم كل المنع ولم تبطل الفوارق كل الابطال ، ولكنها منعت شيئاً ولا تزال هنالك أشياء فى انتظار المنع يحاولها الذين يرومونها ويقدرون على القليل منها بعد القليل ، حتى يبلغوا بها فى هذه الوجهة غاية المستطاع فى أعمال الانسان ، وأعمال الانسان لن تخلو كل الخلو من الظلم والتفرقة الى آخر الزمان

وكذلك الحكومة العالمية المرجوة لا يعقل أن تسوى بين الاقوياء والضعفاء دفعة واحدة ، ولا أن تصل الى التسوية التامة بينهم فى يوم من الايام ، ولكنها تراد مع ذلك لضرورة هذه التجربة فى المرحلة الحاضرة من مراحل التاريخ ، ولا بد أن تراد وتتحقق كما أريدت الحكومة القومية وتحققت ، مع أنها لم تصنع أمس ولا تصنع اليوم ولن تصنع غداً كل ما يتعلق به الأمل والخيال من الانصاف والتنظيم

أما أساس التفاهم على أوضاع الحكومة العالمية ، فالغالب الراجح أنه أساس الانتخاب على نسبة تلاحظ فيها عدة السكان وقسطهم من الحضارة ونصيبهم من الثروة الصناعية والزراعية ، وقدرتهم على النهوض بتبعات الحراسة المشتركة وتأمين المواصلات وتقرير السلام

والغالب الراجح كذلك أن تكسب ثقة الامم الصغار فى هذه الهيئة بالنص على شرط

صريح يحظر الفصل فى شؤونها الخاصة ، الا اذا أقرته أغلبية كبيرة لا يسهل على الاقوياء أن يحصلوا عليها فى كل مناسبة

وحسبنا اليوم أن نعلم أن قيام الحكومة العالمية ميسور ومطلوب ، وله بدايات يوشك أن تصير الى غاية قريبة المنال ، وأنه أمل كجميع الآمال الانسانية نسعى اليه لانه خير من الآمال السابقة ، لا لانه يعطينا كل شيء ويغنينا عن كل رجاء ، وكذلك يأمل الطفل ثم يأمل الصبي ثم يأمل الفتى ثم يأمل الكهل والشيخ ، ولا يقال لهم انهم مخطئون لانهم يودعون أملا بعد أمل ، ويشهدون على أنفسهم بقصور ما أملوه عن الغاية التى تطلعوا اليها ، ولا يزالون يتطلعون

عباس محمود العقاد

لا داعى للتشاؤم

عند ما شبت نار هذه الحرب ، وأخذت تأكل الخلائق وتعصف بالجموع ، استولى على الناس روح التشاؤم ، وحسبوا ان الحضارة قد آذنت بالزوال ، وأن الانسانية مشرفة على عهد من الفوضى والدمار . .

ولكن الحرب تقوم وتنتهى ، والحضارة كما هى باقية ثابتة ، بل سائرة فى طريقها قدما . ودليل ذلك أن روح التشاؤم هذه استولت على الناس مرارا خلال التاريخ الحديث ، فحسبوا أن الدنيا آيلة للفساد والخراب ، ومع ذلك ما زالت الدنيا بخير ، وما برحت الحضارة فى طريقها الى الاكتمال والازدهار

ففى سنة ١٧٨٣ قال وليم بت ، رئيس وزراء بريطانيا فى ابان حربها مع نابليون : « ما من شيء حولنا سوى الدمار ، وسوى اليأس »

وفى سنة ١٨٠٠ قال الاسقف ويلبفورس : « لا أستطيع أن أتزوج . فالمستقبل مظلم حالك ، قلق مضطرب »

وفى سنة ١٨٣٧ قالت الملكة اديلهيد ، ملكة انجلترا : « ليست لى سوى رغبة واحدة . هو أن ألعب دور الملكة مارى انتوانيت التى لقيت حتفها على المقصلة ، ولكن فى جرأة وجسارة ، وذلك عند ما تقوم الثورة المقبلة »

وفى سنة ١٨٤٨ كتب اللورد شافتسبورى : « ما من شيء يستطيع أن ينقذ الامبراطورية البريطانية من التحطم والسقوط »

وفى سنة ١٨٤٩ كتب دزرائيلى : « لا أمل لنا فى شيء : لا فى الصناعة ، ولا فى التجارة ، ولا فى الزراعة »

وفى سنة ١٨٥١ كتب قاهر نابليون ولنجتون : « أحمد الله على أنى سأموت قريبا . سأموت قبل أن أشهد منظر الخراب الذى تتجمع سحائبه من حولنا فى كل جانب »

التعاون السياسي بين الدول

ماضيه ومستقبله

بقلم الأستاذ محمد رفعت بك

ان ارتباط شعوب العالم المتمدين فى نظام سياسى واحد فكرة قديمة ، يمكن تتبع أصولها فى عصور التاريخ المختلفة

ففى العصور القديمة كانت غزوات كبار الفاتحين كالاسكندر وقيصر ، ترمى الى نشر النفوذ الاغريقى والرومانى على التوالى بين الشعوب المعروفة فى ذلك الوقت

وكان النظام الذى أقامته الدولة الرومانية وساد العالم عدة قرون فى ظلال السلم ، أعمق أثرا وأبقى على الزمن من أى نظام مضى أو جاء بعده الى الآن . فقد كان فى الدولة الرومانية أقوام يختلفون جنسا ولغة ودينا وعادة ، فكانت روما تغرس فيهم جميعا حضارتها ، وتنشر ثقافتها وتمد طرقها وتقيم جسورها وتطبق قانونها وتمنحهم جميعا حقوقا مثل حقوق أهل رومة نفسها . وكان من أثر هذه الطمأنينة بين الشعوب أن اصطنعوا للسلام صفة ينعتونه بها ، وصلة ينتسب اليها ، فأطلقوا عليه « سلام روما »

غير أن هذا الارتباط كان أساسه القوة ، وقد قام مستندا الى حراب الفيالق الرومانية التى كانت تحافظ على تخوم الدولة ، وتمنع عنها غارات أعدائها خارج الحدود . فلما ضعف السند ، وبدا للناس أثر انهزام الجيوش الرومانية على أيدى القبائل المتبربرة التى أغارت على أملاك الدولة فى أوربا ، انهار البناء من جميع أركانه ، وعم الاضطراب ، وانحلت الدولة العالمية التى كانت ملء اسماع الناس وأبصارهم ، الى أقطاع صغيرة وفرق مختلفة أهواؤها طرائق قددا

وهذا مصير كل نظام يقوم على مجرد القوة والجبروت ، مهما تباينت العصور واختلفت الاساليب

جاءت بعد ذلك فترة العصور المظلمة أو العصر الوسيط ، وهو عصر رغم ما ظهر فيه من انحلال فى جميع المرافق السياسية والاقتصادية والثقافية ، فانه قد أضاء بنور الاديان الالهيـة التى دعت الناس الى عبادة الله تعالى ، وأشاعت بينهم روح الاخاء والمحبة والمساواة . وكان الرسل الكرام فى نشر دعوتهم يؤمرون بتعميم رسالاتهم واعلان الاخاء والمساواة والعدل بين الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم . جاء على لسان الرسول الامين :-

« أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى فضل على عجمى الا بالتقوى »

وجاء فى العهد القديم :

« واقطع لهم عهدا فى ذلك اليوم مع حيوان البرية وطيور السماء ودبابات الارض وأكسر القوس والسيف والحراب من الارض وأجعلهم يضطجعون آمنين »

وكانت الكنيسة المسيحية قد جذبت اليها أباطرة الرومان ، فعمد قسطنطين امبراطور الرومان مسيحيا سنة ٣٢٠ م ومنذ ذلك الوقت اتحدت المسيحية والامبراطورية ، فلما سقطت الامبراطورية قامت الكنيسة تؤدى للشعوب ما كانت روما تؤديه من رعاية وزعامة حتى ورثت الكنيسة عن الدولة الرومانية صفتها العامة ، فصارت تعرف «بالكاثوليكية» أى الجامعة ، وأصبح لبابا روما سلطان روحى أخذ ينمو ويقوى بدخول القبائل المتبربرة فى الدين المسيحى حتى شمل جميع ملوك أوربا وأمرائها ، وصار البابا هو الهيئة العليا التى يحتكم اليها جميع الملوك والامراء فى مشاكلهم وخلافاتهم ، حتى الامبراطور نفسه لما أعيد تنشئة الدولة الرومانية المقدسة فى عهد شرلمان آخر القرن الثامن وصارت له السلطة الزمنية أو السياسية ، كان يدين بتاجه الى البابا ، ومن عصاه منهم فان البابا لم يكن غفورا ولا رحيما

وقد كان لاشتراك الامم فى العقيدة المسيحية وسير الناس فى جميع أصقاع أوربا على نهج مسيحى واحد ، أثر ظهر فى ارتباطهم معا فى أثناء الحروب الصليبية رغم الحواجز الطبيعية والمسافات الشاسعة التى كانت تفصلهم بعضهم عن بعض . وفى الحق يعتبر ارتباط الشعوب الاوربية فى أثناء الفترة التى سيطرت فيها الكنيسة والبابوية ، أقرب النظم الى فكرة التعاون الدولية الحديثة

غير أن البابوية ما لبثت أن انغمست فى الماديات ، وانحرفت عن طريق التقوى والصلاح فقامت حركة الاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر بزعامة لوتر ، فانقسمت الكنيسة ودب الخلاف بين المسيحيين ، وانفرط عقد ذلك الارتباط السياسى والروحى الذى ساد فى العصور الوسطى فترة من الزمن . وكانت الروح الوطنية والقومية قد أخذت تشتد وتنمو ، فظهرت المدن والثغور ، وتكونت امارات ودويلات ، ثم تألفت من هذه الامارات ممالك أخذت تعتز كل منها باستقلالها وتفخر باتساع رقعتها حتى وقعت فى حروب ظلت مستعرة ، الى أن قامت الثورة الفرنسية وجاء القرن التاسع عشر والعشرون

أول مظهر للتعاون السياسى

وأول مظهر من مظاهر التعاون السياسى فى القرن التاسع عشر محاولة نابليون بونابرت تجديد عهد الاسكندر وقيصر ، وتأليف نظام أوربى عام تخضع له شعوب أوربا وترتبط أجزاؤه بعضها ببعض بقوة السيف أو بأواصر القرابة والنسب ، وقد مهد لغرضه هذا

بزواجه من ابنة امبراطور النمسا « مارى لويس » وباعلان أخوته ملوكا على دول أوربا المختلفة . غير أن بقاء انجلترا بمعزل عن النظام الاوربى الذى أقامه نابليون فى القارة ، واستمرارها على مناوأته ، وخروج روسيا عليه بعد اتحادها معه ، وظهور روح القومية بين الشعوب التى أخضعها نابليون بالقوة ، كل ذلك أدى الى تألب الدول ضده واندحاره فى النهاية

فلما انعقد مؤتمر ڤينا فى سنة ١٨١٥ لوضع قرارات الصلح ، شعرت الدول أن لا بد لها من نظام يصونها من خطر ظهور نابليون آخر ، ويعصمها من ويل الثورات والحروب فى الداخل والخارج ، فكان نظام المؤتمر أو الاتحاد الاوربى Concert of Europe وهو النظام الدولى السياسى الذى خدم أوربا طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الى سنة ١٩١٤ حين قامت الحرب الكبرى الاولى

ويعتبر المؤتمر الاوربى أول محاولة جدية فى سبيل تنفيذ فكرة التعاون بين الدول فى الازمنة الحديثة . وكانت الفكرة من تصنيف قيصر الروسيا اسكندر الاول ، وكان رجلا تستهويه النظريات والمشروعات الانسانية العامة ذا مسحة دينية ، فحاط المؤتمر ومشروع الاتحاد الاوربى بهالة من الاخاء والمحبة والعاطفة المسيحية ، مما دعا الى تسمية هذا الاتحاد بالمحالفة المقدسة

وقد أرادت الدول من المؤتمر تأدية غرضين ، الاول مستمد من السياسة التقليدية الماضية التى كانت ترمى الى حفظ التوازن الدولى ، وذلك بصيانة التسويات الاقليمية التى وافق عليها المؤتمر فى ڤينا ضد الاخطار التى كانت تتهددها ، ولا سيما من جانب فرنسا . والغرض الثانى يعتبر فتحا جديدا فى تاريخ التعاون بين الدول ، اذ اتفقت الدول فيما بينها على أن يجتمع مندوبون عنها فى أماكن يتفق عليها لاتخاذ الوسائل التى تكفل استقرار السلام وسعادة الشعوب . ويجب أن نقرر هنا أن المقصود بسعادة الشعوب تأمينها ضد الثورات التى قد تقوم ضد الملوك ، كما قامت الثورة الفرنسية من قبل

أما مشاورة الدول بعضها بعضا واجتماعها معا على قدم المساواة لمنع الحرب واستقرار السلم ، فكان غرضا نبيلا اندفعت نحوه الدول الكبرى لاول مرة فى تاريخها الحديث ، وفى سبيل تحقيق هذا الغرض لم تختلف الدول اذ ذاك . وأما قمع الثورات بالتدخل فى الشؤون الداخلية الصرفة للامم ، وبخاصة الصغيرة منها ، فكان مثار خلاف عظيم انقسمت من أجله أوربا الى فريقين ، فكانت النمسا وبروسيا ومعها الروسيا فى الغالب تمثل الروح الرجعية . أما انجلترا ومعها فرنسا أحيانا فكانت تأبى على المؤتمر تدخله فى الشؤون الداخلية للامم ، ولذلك التزمت نحو المؤتمر سياسة خاصة ، فكانت أحيانا تعلن عزلتها عن المؤتمر وتكتفى بالاشتراك الاسمى ومجرد حضور الجلسات ، وأحيانا كان اشتراكها عمليا عند ما كان تدخلها يوافق مصلحتها . على أن المؤتمر أو « الكنسرت » ما لبث أن أصبح أداة استبدادية يستعملها مترنخ الوزير النمسوى الشهير ، الذى اقترن

اسمه وسياسة النصف الاول من القرن التاسع عشر فى قمع الثورات وارهاب الشعوب الصغيرة ، ومناهضة مبادىء الحرية والقومية فى أوربا عامة

تطور سياسى جديد

ثم حدث تطور سياسى جديد فى علاقات الامم ، وذلك على أثر قيام حرب القرم بين روسيا وتركيا فى منتصف القرن التاسع عشر سنة ١٨٥٣ . وكانت الاختراعات مثل السكك الحديدية والسفن البخارية والتلغرافات واستخدام الفحم والحديد فى الصناعة ، قد انتشرت فى أنحاء العالم ، وأحدثت انقلابا عظيما ظهر أثره فى تقريب المسافات وتوثيق الروابط بين الامم ، وأصبح ما يصيب عضوا فى المجتمع تهتز له سائر الاعضاء

وفى هذه الحرب حدث أمر ذو بال ، اذ انحازت انجلترا وفرنسا وسردينيا أو ايطاليا الى جانب تركيا ، فانهزمت روسيا ، وعقدوا مؤتمرا للصلح فى باريس ١٨٥٦ ، وكان مؤتمرا خطيرا اتخذت فيه قرارات خطيرة لضمان السلام والتعاون بين الدول . وأول هذه القرارات قبول تركيا على قدم المساواة فى مجموعة الدول الاوربية المسيحية ، ولم تكن تركيا قد اشتركت أو دعيت الى الاشتراك فى مؤتمر فينا أو المؤتمرات التى تلت ، اللهم الا فى المؤتمرات الخاصة بشؤون تركيا وأملاكها

وهناك مادة أضافوها الى معاهدة الصلح ، فحواها أن تلجأ الدول المتعاقدة اذا استحكم بينها الخلاف الى دولة صديقة أو محايدة تقوم بالتحكيم بين المتخاصمين ، وأرادوا أن يجعلوا من هذه المادة قاعدة تسرى على سائر الدول ، فقالوا ان للدول التى لم تشترك فى معاهدة الصلح أن تعلن انضمامها الى هذا العهد . غير أن هذه المحاولة لم تجد ، اذ اعتبرت الدول ان هذه مجرد رغبة وأمنية . ثم ظهرت الروح العسكرية البروسية لاول مرة فى القرن الماضى ، وأخذت تشق طريقها بالدم والحديد نحو السيطرة والتفوق ، فحاربت النمسا وهزمتها سنة ١٨٦٦ ، ثم حاربت فرنسا وهزمتها ١٨٧٠ ، وفى سنة ١٨٧٦ قامت الحرب الروسية التركية من جديد ، ولم تفد فكرة التحكيم التى جاءت فى صلح باريس ، ولم تغن عن الحرب فتيلا

وهكذا تكسرت آمال أنصار التعاون والسلام أمام مطامع الدول وشدة حرصها على سيادتها وسمعتها ورغبتها فى اتساع رقعتها ، ولكن مقابل هذا الفشل السياسى فى القرن التاسع عشر خطت فكرة التعاون الدولى خطوات واسعة فى نواح أخرى . ومما يزيد فى أهمية هذه الخطوات أنها استطالت حتى شملت البلاد المتمدينة فى جميع أنحاء العالم ، ولم تعد مقصورة على أوربا كما كانت الحال أولا ، فانعقدت مؤتمرات دولية لعمل الترتيبات اللازمة لجعل شؤون البريد مصلحة دولية ، زيادة على كونها مصلحة وطنية ، فتكون اتحاد البريد فى سنة ١٨٧٤ وأخذت الدول تنضم تباعا اليه ، وأعلن مبدأ حرية التجارة لتوثيق الصلات بين الشعوب ، وفى هذا القرن ألغى الرقيق سنة ١٨٣٣ . وتكونت جمعية

الصليب الاحمر الدولية فى جنيف على أثر الانتهاء من حرب القرم ، وتتابعت المؤتمرات الدولية حتى نمت من لا شيء فى أول القرن الى ٢٩ مؤتمرا فى سنة ١٨٦٠ ، الى ٢٤٧ فى سنة ١٨٨٠ ، الى ٨٥١ فى سنة ١٩٠٠ ، الى ٢٣٤٩ فى سنة ١٩٢٠ ، ثم اطردت الزيادة الى أكثر من ذلك

محكمة لاهاى للتحكيم الدولى

على أن القرن التاسع عشر لم ينته من غير محاولة أخيرة فى سبيل التعاون الدولى ومنع الحرب ، ففى أغسطس سنة ١٨٩٨ دعا قيصر الروسيا نقولا الثانى الى عقد مؤتمر دولى لوضع حد للتسابق فى التسليح ولتسوية الخلافات الدولية بطريق السلم . فانعقد المؤتمر فى لاهاى فى مايو سنة ١٨٩٩ ، واشتركت فيه ٢٦ دولة ، وانعقد المؤتمر للمرة الثانية فى لاهاى أيضا بدعوة من تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة اذ ذاك فى يونيه سنة ١٩٠٧ ، واشتركت فيه ٤٢ دولة أى معظم الدول المستقلة فى العالم كله لا فى أوربا وحدها . وقد نجح المؤتمر الى درجة ما فى تقرير خطة لتسوية الخلافات الدولية ، فقرر تأليف محكمة دولية دائمة للتحكيم فى لاهاى ، فترسل اليها كل دولة مشتركة عددا من القضاة الممتازين لا يزيد عادة على أربعة ، وللجانبين المتنازعين أن يختار كل منهما قاضيين ، والقضاة الاربعة يختارون قاضيا خامسا يكون بمثابة رئيس لهم لبحث الخلاف واصدار حكم فيه ، والى جانب التحكيم أشار المؤتمر بطريقة التوسط بين الدول المتنازعة وحض الدول أيا كانت على التدخل لمنع الحرب ، دون أن يعتبر توسطها تدخلا أو تطفلا أو عملا غير ودى نحو أحد المتخاصمين

ويعتبر اقرار مبدأ التحكيم الدولى وانشاء المحكمة الدائمة فى لاهاى من أهم الاعمال التى تمت قبل الحرب الكبرى الاولى لضمان السلام العام وتمكين فكرة التعاون بين الدول

عصبة الأمم ولماذا فشلت

تبقى المرحلة الاخيرة التى تلت الحرب الكبرى الاولى :

على أثر قيام الحرب الكبرى وما قاسته الشعوب والحكومات من خطوبها وويلاتها تألفت فى كثير من البلاد جماعات مدفوعة بشعور واحد ، هو منع وقوع كارثة الحرب مرة أخرى . ولما رجحت كفة الحلفاء فى الحرب عقب دخول الولايات المتحدة أخذت حكومات الحلفاء تستعد للصلح . وفى يناير سنة ١٩١٨ أعلن الرئيس « ولسن » دستور النقط الاربع عشرة التى اعتبرها بعضهم قواعد للسلم الجديد للعالم ، ومن هذه النقط حق تقرير المصير للشعوب والغاء المعاهدات السرية بين الدول واعلان حرية البحار وحرية التجارة وتخفيض التسليح ، وأخيرا النقطة الخاصة بتكوين جمعية للامم على أساس ميثاق يكون

الغرض منه أن تضمن الدول بعضها لبعض استقلالها السياسى وسلامة أراضيها بدون تمييز بين دولة وأخرى كبيرة أو صغيرة

وكان لدستور « ولسن » دوىّ عظيم بين شعوب العالم قاطبة ، ويعتبر من أهم التعاليم السياسية التى تأثر بها العالم بعد الحرب . ولما حل « ولسن » بأرض فرنسا ليحضر المؤتمر وكانت باريس تموج بطوائف من جميع شعوب العالم تنتظر ميلاد العهد الجديد فى قصر « فرساي » كانت الجموع تغضى ببصرها أمام الرئيس وتحنى له الجباه ، كما لو كان أحد الآلهة القدماء جاء عبر الاطلانطيق ليخلص العالم القديم مما خلفته الاجيال الماضية من خلافات وشرور وآثام

غير أنه لم يمض وقت طويل حتى ظهر أن الآلهة الجديدة مصنوعة من الطين كباقى مخلوقات الله من بنى آدم ، وأن « ولسن » قد تردى فى مباءة السياسة الاوربية وانغمس فى أوحالها ، وأن المبادىء العالية والنقط الاربع عشرة قد انهد كيانها وتبخر معظمها ، مما دعا « كليمنسو » رئيس وزارة فرنسا ورئيس المؤتمر اذ ذاك أن يقول متهكما : « ان ولسن قد طغى وتكبر على الله ، فقد جاء بأربع عشرة نقطة ، والله جلت قدرته لم يأت الا بعشر فقط » !

وأخيرا وبعد مداولات ومناورات وبعد نضال ونزال ، خرج ولسن من المؤتمر يحمل مولوده الجديد « عصبة الامم » وما كاد الطفل يرى النور ويسمع العالم صراخه حتى أنكره أبوه وولى عنه مدبرا الى أمريكا ، تاركا طفله يتربى يتيما محروما مسلوب الارادة الا عن وحى من أوصيائه الحلفاء

ويمكن ارجاع فشل نظام العصبة الى ما يأتى :

أولا — أنهم بالغوا فى تمسك كل دولة بحق سيادتها الذاتية ، ولم يمسوا هذه السيادة بشىء ولو قليل فى سبيل الصالح العام . فمن أجل التمسك بحق السيادة تركوا للدول حق الانسحاب من العصبة . مع أن مصدر القوة للعصبة هو التماسك والاتفاق بين الجميع ، فأى عمل من شأنه عدم اشتراك الدول وخاصة الدول الكبرى كالولايات المتحدة لا بد أن يؤدى الى ضعف العصبة

ولقد تحسنت الحال نوعا بعد انضمام ألمانيا فى سنة ١٩٢٦ ، غير أن خروجها من العصبة عقب قيام الحكم الهتلرى سنة ١٩٣٣ قد أعاد الحال الى ما كانت عليه . ولم تنصلح بدخول روسيا سنة ١٩٣٤ ، فقد انسحبت اليابان على أثر تحديها العصبة سنة ١٩٣٢ بسبب اشتراكها مع الصين ، وخرجت ايطاليا على أثر توقيع العقوبات الاقتصادية عليها سنة ١٩٣٥

ثانيا — كذلك كانت المبالغة فى المحافظة على مبدأ السيادة لكل دولة سببا فى اشتراط اجماع الآراء فى القرارات التى يصدرها مجلس العصبة أو الجمعية العمومية ، وهذا الشرط كان سببا فى شل قرارات العصبة وتعذر تنفيذها بمجرد مخالفة احدى الدول لها ،

كما حصل فى أثناء أزمة ايطاليا والحبشة ، فقد ظهر تحيز فرنسا لايطاليا حين كان «لافال» وزيرا للخارجية وتعذر الاجماع بين الدول

ثالثا ـ أما مبدأ نزع السلاح أو تحديده فان الحلفاء قد نجحوا فى نزع سلاح ألمانيا عقب انتهاء الحرب الكبرى ، ولكن المحاولات التى قامت بها العصبة فى سبيل تخفيض السلاح فى باقى الدول لم تجد ، اذ أخذت كل دولة تطالب بحاجة حدودها أو مركزها الحربى أو الطبيعى الى نوع معين من التسليح ، ومع أن الولايات المتحدة وروسيا قد انضمتا فى مؤتمر تحديد التسليح الذى انعقد فى جنيف سنة ١٩٣٢ برياسة المستر هندرسن الوزير الانجليزى رغم كونهما خارج العصبة ، فان المؤتمر قد أخفق أمام اصرار فرنسا على تأمين نفسها ضد ألمانيا ، واصرار ألمانيا وايطاليا على مساواتهما للجميع ، وانتهى الامر بانسحاب ألمانيا من المؤتمر والعصبة ، ولما وجدت نفسها الوحيدة بين الدول بدون تسليح، أعادت تسليح نفسها علانية وسرا بدرجة فاقت تسليحها الاول

رابعا ـ من أهم أسباب فشل العصبة عدم وجود قوة تنفيذية عليا تتولى تنفيذ قرارات العصبة فى حالة عصيان احدى الدول ، وقد ظهر ذلك جليا عند ما تحدت ايطاليا قرارات العصبة ، ولما كانت العقوبات التى نص عليها ميثاق العصبة فى المادة ١٦ ضد الدولة التى تهدد السلام ولا ترتدع هى عقوبات اقتصادية تقوم على الحصر البحرى ، لذلك نرى أن التأمين كله تقريبا كان لا بد أن يقع على كاهل انجلترا ، وهى الدولة البحرية التى تستطيع تنفيذ الحصر البحرى . وقد كانت انجلترا فى أول الامر معتمدة على الولايات المتحدة ، ولكن الشعب الامريكى ظل متمسكا بمبدأ العزلة عن أوربا والتحصن وراء مبدأ منرو ، وعدم الاشتراك مع دول أوربا فى ميثاق العصبة وتحمل تكاليف التأمين

فلما تطورت الحال فى الغرب ، وأخذت ايطاليا تسلح نفسها فى البحر الابيض المتوسط، واليابان تسلح نفسها فى المحيط الهادى ، أصبح من المتعذر على انجلترا تحمل المسئولية جميعها ، فتركت اليابان تحتل منشوريا سنة ١٩٣٢ ، وتهزأ بقرارات العصبة فى الشرق، وتعبث باستقلال الصين كما شاءت . ولما تحرشت ايطاليا بالحبشة وأخذت تعد العدة لها ، استغلت بطء الاجراءات فى العصبة وعدم وجود القوة التنفيذية العليا ، كما استغلت مخالفة فرنسا لقرار العصبة ، وأوغلت فى هجومها على الحبشة تحت سمع العصبة وبصرها ، ولم تستطع انجلترا تحمل مسئولية حرب أوربية ، لو أنها جازفت بها لتفادت وقوع الكارثة الحالية من غير شك

وكان خروج ايطاليا من العصبة وتحديها لقراراتها ونجاحها فى مشروعها ، الضربة التى أصابت العصبة فى الصميم، وشجعت ألمانيا على المضى فى برنامج التسلط الذى وضعته، فأعلنت التجنيد الاجبارى سنة ١٩٣٥ متحدية فى ذلك معاهدة فرساي ، وفى سنة ١٩٣٦ احتلت جيوشها أرض الرين وأقامت فيه الحصون مخالفة بذلك عهد لوكارنو ١٩٢٥ ، وفى ١٩٣٨ ضمت النمسا ، وفى سبتمبر سنة ١٩٣٨ اعتدت على استقلال تشيكوسلوفاكيا

ولم تحرك العصبة ساكنا حتى اذا دنت ساعة الكارثة فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ كانت أوربا تحترق والعصبة تغط فى النوم

التعاون السياسى بعد الحرب

تبقى كلمة ختامية عن نظام التعاون السياسى الذى نرى أن يسود بعد الحرب

يجب أن يقضى نهائيا على مبدأ العزلة اقتصادية كانت أم سياسية ، لانه نظام عتيق لا يوافق التطور الاقتصادى والاجتماعى الذى وصل اليه العالم بفضل المخترعات العلمية والصناعية الاخيرة ، وما ينتظر لها من تقدم مطرد

يجب أن تتدرب الشعوب وتتدرج فى سياسة الوحدة العالمية . وليس معنى ذلك أننا نقول بامكان تأليف اتحاد عالمى الآن . انما لا بد أن تمرن الشعوب على قبول الآراء والنظم الجديدة ، فمن أجل فكرة التسامح الدينى قامت الحروب بين الشعوب قرنين أو ثلاثة قرون ، وما زال أثر التعصب الدينى موجودا فى العالم الى الآن . ومن أجل الحرية والاستقلال والوحدات القومية قد كافحت الشعوب سنين طويلة ، ولا تزال هناك شعوب ترزح فى الاستعباد ولا تتمتع باستقلال أو وحدة قوية . وفكرة التعاون السياسى لا تزال فى طفولتها ، ولم تلق من الدول أو الشعوب ما يساعد على التدرج فى تحقيق الفكرة

فعلينا اذن أن نمضى فى تجربة نظام العصبة ، وقد عالجته الدول مدة عشرين عاما تبينت فيها مواضع الضعف والقوة ، على أن تتألف العصبة لا من مندوبين عن الحكومات كما هى الحال الآن ، بل من مندوبين عن الشعوب . ومتى أعيد تكوين العصبة وتألف مجلسها من مندوبى الدول المنتخبين لا المعينين ، أصبحت قضية التعاون والسلام بين الامم فى يد الشعوب لا فى يد الحكومات ، وارادة الشعوب اذا اجتمعت كانت أقوى من حكومات العالم ولو كان بعضها لبعض ظهيرا

محمد رفعت

سأل أحد تلاميذ سقراط أستاذه :

ـ هل أتزوج أم أبقى أعزب ؟

فأجابه سقراط : أيهما فعلت ندمت عليه !

كيف تسن القوانين فى أمريكا

لكل واحد ولكل واحدة فى الولايات المتحدة الامريكية الحق فى أن يقدم للبرلمان الامريكى ـ الكونجرس ـ « مشروعا بقانون » ، على شرط أن يجد من أعضاء البرلمان من يتولى عرضه وتقديمه. ولكن عشرة فى المائة من هذه « المشروعات » ما يصير قانونا نافذا مطاعا

يقدم مشروع القانون عادة الى مجلس النواب ـ أحد المجلسين اللذين يتألف منهما الكونجرس ـ الذى يضم الآن ٤٣٥ نائبا ، ينتخبون كل عامين لتمثيل ولايات أمريكا ومدنها حسب عدد سكانها. فولاية بأسرها مثل « نيفادا » يمثلها نائب واحد ، فى حين يمثل ولاية نيويورك التى تضم ثلاثة عشر مليونا ونصف مليون من الانفس خمسة وأربعون نائبا

ويجوز تقديم مشروع القانون الى المجلس الثانى ، مجلس الشيوخ ، الذى يتألف دائما من ستة وتسعين عضوا ، كل اثنين منهم يمثلان دائرة من دوائر أمريكا الثمانى والاربعين ، وتسقط عضوية ثلثهم مرة فى كل سنتين

ويرسل المشروع بعد ذلك الى مطبعة البرلمان فتطبع منه عددا كبيرا من النسخ ، ليتيسر لكل من يشاء من أعضاء البرلمان أن يدرسه أو يتصفحه . ولكن قد ترى اللجنة منذ البداية أن هذا المشروع غير ضرورى أو غير معقول ، فتحفظه وبذلك ينتهى أمر المشروع عند هذا . غير أن قرار الحفظ لا يكاد يصيب أى مشروع يمكن أن يجد أى تأييد ـ ولو يسير ـ من جانب البرلمان ، أو أى اهتمام



أهم ما يعنى به البرلمان الأمريكى ، وكل برلمان فى العالم ، هو الميزانية ، ليعرف الشعب أين تذهب الأموال التى تجبى منه . وترى رئيس اللجنة المالية فى مجلس الشيوخ يدرس أرقام الميزانية التى تعتبر أكبر ميزانية فى التاريخ



الرئيس روزفلت يوقع قرار اعلان الحرب



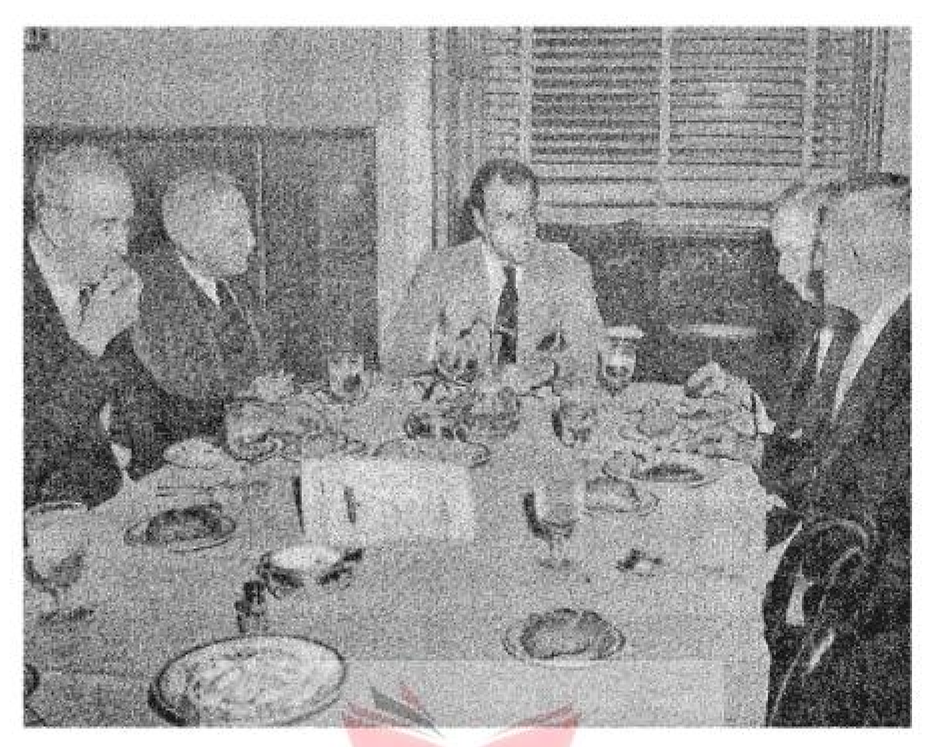
فى يوم ٦ يناير سنة ١٩٤٣ اجتمع البرلمان الأمريكي فى دورته الثانية والسبعين ، وقام الأعضاء يقسمون يمين الاخلاص للوطن وللدستور

ــ ولو ضئيل ــ من قبل الرأى العام - أما اذا وجدت اللجنة ان المشروع يحمل فائدة ما ، أو يحظى بتأييد ما ، فانه يسير فى طريقه ، وقد تنقحه وتعدله ، وقد تعيد كتابته وتحريره

ويستطيع الجمهور أن يشارك اللجنة فى بحث المشروع ، بما يرسله الى أعضائها من رسائل التأييد أو الانكار ، وهذه الرسائل تصير جزءا من عمل اللجنة الذى يعرض فيما بعد على البرلمان ، وكذلك تستدعى اللجنة موظفى الحكومة المختصين بالامر الذى يتعلق به المشروع ، وتستأنس بما يدلون به من رأى ومشورة ، أو تطلب اليهم أن يقدموا تقريرا مفصلا فى الموضوع

ويناقش المجلس فى المشروع ، ويساهم فى المناقشة من يشاء من أعضاء حزب الاكثرية أو حزب الاقلية أو غيرهما من الاحزاب . والاكثرية الآن للحزب الديموقراطى والاقلية من الحزب الجمهورى . وقد تطول المناقشة أياما وقد تقصر فلا تتجاوز الدقائق . ولا يشترك فى المناقشة سوى أعضاء المجلس ، ولكن يجوز لهم أن يقرأوا بعض ما ورد لهم من الرسائل من جمهور الشعب . وكثيرا ما تسفر المناقشة عن تعديلات كثيرة فى المشروع فلا يخرج من المجلس الا مختلفا اختلافا بينا عن صورته الاولى . فاذا انتهت المناقشة بدأ الاعضاء فى التصويت موافقين أو رافضين . ولكل حزب رجل من اعضاء المجلس يتولى فى هذه الحالة مراقبة وجود اعضاء الحزب فى اثناء عملية التصويت ، كى تكون النتيجة ملائمة لما تجرى عليه سياسة الحزب أو ترمى اليه أغراضه

فاذا وافقت الاغلبية على المشروع أقره المجلس وأحيل الى مجلس الشيوخ ، حيث يعاد بحثه

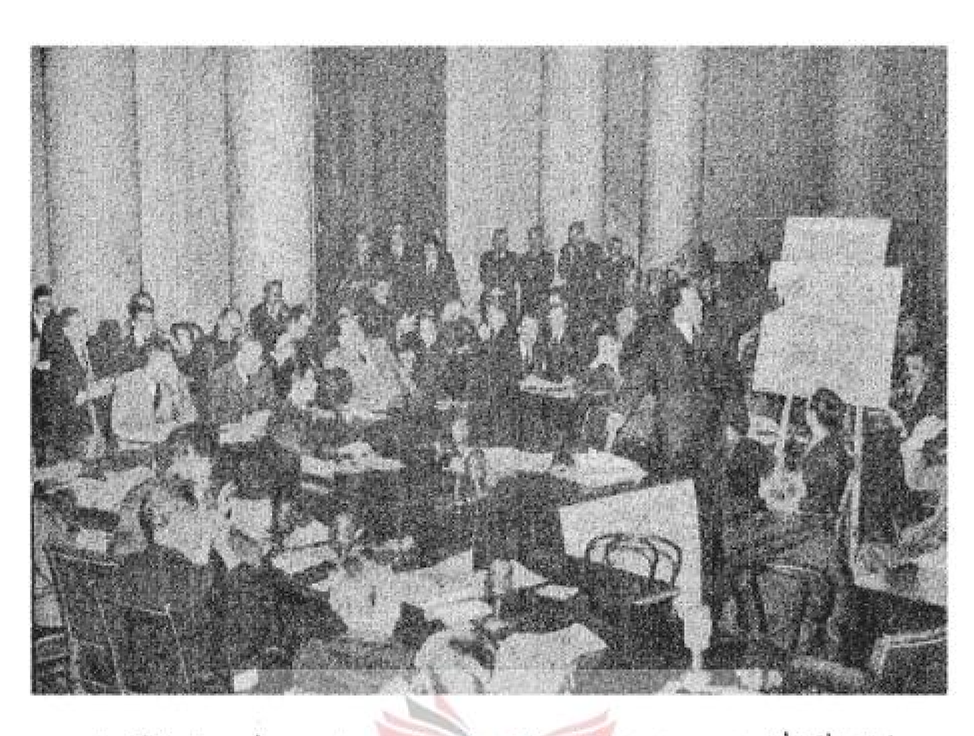


يستطيع كل أمريكي أن يقدم مشروع قانون للبرلمان الأمريكي ، وهذا أحد نواب البرلمان يتناول العشاء مع أربعة من ناخبيه في مطعم مجلس النواب ، وقد جاءوا ليناقشوه في بعض المسائل التي تهمهم وأخذ يبحث معهم بعض شؤون التشريع

والمناقشة فيه . ولكل شيخ أن يتحدث ويناقش كيف شاء دون تحديد المدة التي يقضيها في الادلاء برأيه . ولكن هذه الميزة قد تتخذ طريقا الى المناورات الحزبية ، فيتفق أعضاء حزب ما على أن يظلوا يتناقشون في المشروع حتى تنفض الدورة البرلمانية ، دون أن يتركوا مجالا لخصومهم لابداء الرأي في أثناء هذه الدورة ، وبذلك « يقتلون » المشروع . على أن هذا قلما يحدث ، وكثيرا ما يتفق الاعضاء فيما بينهم على تحديد المدة التي يباح لكل عضو أن يقضيها في الادلاء برأيه

واذا رفض مجلس الشيوخ مشروع القانون ، أمكن لمجلس النواب أن يبحث الامر من جديد ، اما بصورته الاولى واما بصورة معدلة ، ولكن هذا قلما يحدث ، بل يؤدي رفض الشيوخ الى موت المشروع غالبا . واذا وافق مجلس الشيوخ على المشروع بعد ادخال تعديلات أو تغييرات ، ألفت لجنة مشتركة من أعضاء المجلسين لتقريب شقة الخلاف بينهما والاتفاق على حل وسط يرضيهما ، وبعد ذلك يقره المجلسان ، فيرفع الى رئيس الجمهورية للتوقيع عليه

وتوقيع الرئيس على المشروع يجعله قانونا نافذا مطاعا حالما يعلن الى الجمهور . ولكن يجب أن نذكر أن في أمريكا سلطة أكبر من سلطة البرلمان وسلطة الرئيس ، وتلك هي « المحكمة العليا » التي قد تقضي ببطلان القانون لانه لا يتفق ونص الدستور . وقد حدث هذا فعلا في بعض القوانين التي أصدرها الرئيس روزفلت في مشروعه المشهور « التعامل الجديد » . ولكن الذي يحدث في



إحدى لجان المجلس تدرس موضوع المطاط دراسة مفصلة دقيقة . وقد استدعت أحد موظفي الحكومة الخبيرين في شؤون المطاط ، فراح يقدم لهم البيانات والرسوم اللازمة ، ليكون قرارهم قائماً على أساس سليم

هذه الحالة هو أن تعاد صياغة القانون فى نص يمكن أن يساير نص الدستور ، ويمكن أن ينال موافقة قضاة المحكمة العليا .

أما اذا رفض الرئيس التوقيع على المشروع ، فانه يحيله الى البرلمان ، فان أقره هذا بأغلبية لا تقل عن ثلثى أعضاء كل من المجلسين صار المشروع قانونا رغم عدم موافقة الرئيس . على أن هذا لا يحدث كثيرا ، بل يفضل « البيت الابيض » اعادة القانون الى البرلمان لعرضه على لجنة خاصة تنظر فيما يقترحه فى شأنه من تعديل أو تحوير ، تفاديا للصدام بين البرلمان والرئيس . واذا أبقى الرئيس المشروع عشرة أيام دون توقيع ، صار نافذا

والخلاصة أن نظام التشريع فى الولايات المتحدة الامريكية يتيح لكل فرد من أفراد الأمة أن يشارك فى اصدار القوانين بما يقترحه من مشروعاتها . وكل ما يدور حول هذا المشروع من دراسة ومناقشة يدور علنا وعلى ملأ الشعب الذى يرقب الأمر بعين يقظة وذهن مستنير . ويصل الى المجلس فى كل سنة آلاف الآلاف من البرقيات التى يبدى فيها مرسلوها — وأغلبهم من عامة الشعب وأوساطه — آراءهم فيما يعرض له المجلس من قوانين ومشاكل . ويعلم أعضاء المجلس أن هؤلاء الرجال والنساء هم الذين سيؤيدونهم أو سيخذلونهم فى معارك الانتخاب القادمة ، ولهذا يلقون كل بالهم الى ما يحقق أغراضهم ويصون مصالحهم . وهكذا تحقق الديموقراطية فى أمريكا أقصى ما تستطيع أن تحققه للشعب من مشاركة فى أداة الحكم ومن محافظة على حقوقه ومصالحه

حرية القول

وأثرها فى مدنيتنا الحاضرة

بقلم عبد الحميد بدوى باشا

أتى سعادة عبد الحميد بدوى باشا وزير المالية الاسبق محاضرة قيمة تناول فيها ببحث واف حرية القول وفيما يلى خلاصة من هذه المحاضرة الضافية عن معنى هذه الحرية وما لهـا من أثر فى مدنيتنا الحاضرة

حرية القول ، وقد يطلق عليها على سبيل المجاز حرية الرأى أو الفكر ، لان القول لا يعدو أن يكون اعلانا لرأى أو جهرا به ، ولان الرأى لا تكون له قيمة أو شأن الا بقدر ما يجهر به ويتبادل بين الناس ، هى أن الانسان يقول ما يشاء ويعلن ما يعرف أو يرى . والقول هنا يشمل اللفظ باللسان ، كما يشمل الكتابة والرسم والصور وغيرها من وجوه أداء الفكر والاحاسيس

أما حرية الرأى بالمعنى الحقيقى ، وهى ألا يكلف المرء رأيا أو عقيدة غير ما يرى ويعتقد ، فقد حدثكم عنها صديقى الدكتور ابراهيم بيومى مدكور بما لا مزيد عليه لمستزيد . وهى حرية لازمة أى أنها لا تعنى الا صاحب الرأى ، أما حرية القول فهى حرية متعدية تعنى حق القائل فى القول والمستمع فى الاستماع وحق الجدل والمناقشة

وكلا الحريتين جزءان من الحرية الشخصية بالمعنى العام ، ولكنهما يتميزان عن الحرية الشخصية بالمعنى الخاص ، وهى حرية الانسان فى شخصه أو بدنه ، وحريته فى الغدو والرواح ، وهى الحرية التى قامت من أجلها بعض الثورات لتقرير ضمانات تحد من سلطان أهل الحكم فيما يتعلق بالقبض على الناس أو حبسهم وينظم محاكمتهم

وحرية القول أو الرأى ليست هى الحرية السياسية ولا تختلط بها ، فالاولى تتعلق بالفرد أصلا وبالذات ، وانما تتعلق الثانية بالشعب فى جملته وتفيد حقه فى حكم نفسه . على أن بين الحريتين صلة ، فحرية القول هى التى أتت بالحرية السياسية ، وهى نظام الحكم المعروف بالديموقراطية ، وحرية القول من جانب آخر من مستلزمات الديموقراطية، فان النظم الحرة لا تعيش الا فى ظل حرية القول

والحرية بوجه عام معنى يصف صلات الناس فى المجتمع ، سواء كانت الصلات بين فرد وآخر أم بين الفرد والمجتمع . ولا يمكن أن تكون مطلقة . ولو أنها كانت كذلك

لترتب عليها فناء بني الانسان وفناء الحريات نفسها . لذلك لا تكون حرية الفرد حرية صحيحة ، الا اذا كانت بحيث تكفل حريات سائر الافراد وبقاء المجتمع الذى يتألف منهم

فالحرية يجب اذن أن تكون مقيدة ، والقيد شرط وجودها والتمتع بها. وتعيين مدلولها ومداها ، هو تعريف القيود التى تحدها ان كثيرة فالحرية ضيقة المجال ، أو قليلة فهى رحبة واسعة

وليس من العسير تصوير الحرية الشخصية وقيودها والنتائج التى تترتب على اطلاقها أو تقييدها ، وما يجب اتخاذه لحمايتها ، وللتوفيق بين حريات الافراد وبين تلك الحريات ومصلحة المجتمع . فان موقع الحرية الشخصية ومجالها هو عناصر الحياة المادية من حركة وسكون وغدو ورواح وسعى للرزق وما الى ذلك

أما حرية القول فتتصل بعناصر الحياة المعنوية . فالاديان والاخلاق والسياسة أو نظم الحكم والعلوم والآداب والفنون ، كل ذلك مما ابتنته حرية القول وأثمره طول استعمالها منذ وجد الانسان . وربما انست المقاصد ما اتخذ فى سبيلها من وسائل . فاذا أخفى أثر حرية القول فيما يعتنقه الانسان من دين أو يتخذه من خلق وقواعد سلوك ، أو فيما تدبر به صلاته بالافراد والمجتمع وتساس به أمورهم ، أو فيما يطالعه من آيات العلوم والآداب والفنون ، فلا تبغ تأويل ذلك الا فى أن حرية القول اختلطت بموضوعها ، فبرز الموضوع وهو المقصد ، وخفى أثر الحرية وهى الوسيلة

هذه المقابلة بين عناصر الحياة المادية والمعنوية تطلعك على دقة تصوير القيود التى يمكن أو ينبغى أن تحاط بها حرية القول . فاذا قدرت ما اتخذته الانسانية فى أول عهدها بالوجود من عقائد وقواعد معاملات وتدبير حكم ، تلك الصور الاولية وما وعته من مشاهدات كونية وما عالجته من صناعات ، وقارنت تلك الصور الاولية بما وصلت اليه فى أعلى ما بلغت من درجات المدنية ، عرفت ما قطعته الانسانية ، وعرفت كذلك ما أتت به حرية القول فعلا ، دون أن تعرف كل ما كان يمكن أن تأتى به لو كانت أكثر اطلاقا ، ودون أن تستطيع طبعا معرفة ما ستأتى به فى المستقبل

والحق أنه بالرغم من تقدم الانسانية فى كل المناحى تقدما يبهر الخيال وينحسر دونه البصر ، فان طريق حرية القول لم يكن ذلولا ، وكانت سيرتها نضالا مستمرا ومقاومة عنيفة . وهل يمكن الآن وبعد أجيال لا تعد من هذا النضال ، أن يقال ان هذه الحرية أصبحت حرية مقررة لا جدال فيها ، حرية بينة المعالم والحدود

يمتاز الانسان بأنه حيوان ناطق ، وهو أبدا فى حاجة الى أن يفكر ويحكم على الاشياء ، ويبادل غيره القول والرأى ، وقد كانت النظم الاولى ثمرة ذلك التفكير والحكم وتبادل الرأى ، ولكنها ظلت تتغير وتتبدل لان الانسان لا يستقر له رأى ولا يبقى على حال ، اذ هو لا يزال تقع له تجارب ومشاهدات جديدة . نعم كان ميدان هذه الحرية ضيقا بقدر ضيق مجال المجتمع الاول وبساطته ، فهو لا يتجاوز الاسرة أو القبيلة أو المدينة . ولكن

هل نكون مسرفين اذا قدرنا أن تاريخ تلك الحرية فى ذلك المجال لم يخل على ضيقه من مآس . وهل يصعب أن نتصور على مثال ما نعرف منذ التاريخ المكتوب أن من كان يعلن رأيا يخالف رأى الجماعة ، لم يكن يجد لنفسه سبيلا غير الهرب والتشريد

آثار حرية القول فى المدنية الحاضرة

ويحق لنا أن نقف قليلا لنتبين آثار حرية القول فى مدنيتنا . ولنتساءل أولا مم تتكون هذه المدنية ؟ لا أريد استظهار أى جزء أو ركن منها لاجعل له شأنا فوق شأن سائر الاجزاء ، أو لأجعل منه رمزا أو مقصدا لغيره ، ولا أرى بأسا من أن أعدد كل أركانها ، فربما كان لحرية القول أثر فى بعضها دون الآخر . أليست المدنية تتألف من حياة مادية يأكل الناس فيها ويشربون ويأوون الى بيوت ، ويلتمسون أرزاقا ويباشرون أعمالا ، ومن دين ومن نظم حكم ومن حريات سياسية وشخصية ومن آداب وأخلاق ، ومن نظم اجتماعية ونظم اقتصادية ومن علوم ومن آداب وفنون . ولست أزعم أنى حصرت أركان المدنية ، ولعلى ذكرت أهمها . فأى ركن منها خلا من أثر حرية القول ؟ وهل كان أى منها لولا تلك الحرية يكون ما هو ؟ أترى أن الناس فى طعامهم وشرابهم ومسكنهم كما بدأ الانسان على الارض وهل كان هذا التغير الكبير الا نتيجة لمآخذه على القديم وآراء جديدة ، وها هو العلم وهو ثمرة أخرى من حرية القول ، يسعى الآن فى أن يجعل حياة الانسان أصح وأهنأ وأسعد مما كانت . وهل بقيت الاعمال والارزاق والنظم الاقتصادية على حالتها منذ خلق الانسان ، أم ترى أن المدنية تتجه لتحرير الانسان من العوز وتؤمنه على حد أدنى من مرافق الحياة . ولو قيل ذلك منذ قرن أو قرنين ، لكان أمرا ادا . وهل من العسير أن يدرك المرء كم يرجع من ذلك الى حرية القول

والاديان ونظم الحكم والاجتماع والحريات المختلفة والاخلاق ، أليست كلها ثمرة تلك الحرية ، لا الحرية تجرى فى رفق ويسر ورضى من الناس ولكن الحرية تقاتل وتجالد وتقاوم وتجاهد . وكلما استقرت المدنية فى ناحية من هذه النواحى على حال ، لم تزل حرية القول ترقب تلك الحال وتنفذ الى نقائصها وعيوبها ووجوه سدها واصلاحها والدفع بها قدما ، أو تغييرها اذا رئى أن شيئا آخر أفضل وأجدر بالاختيار . وها هو النظام البرلمانى الا يقال فيه أنه خير ما اهتدى اليه الانسان من نظم الحكم ؟ أترى حرية القول سكتت عن مداركة عيوبه وضبط مقوماته من أحزاب أو انتخابات ؟ والحريات نفسها الا تعقبها حرية القول وتنظر نافذة فيما اتخذ لها من أسباب الحماية والتوفيق بينها وبين نظم المجتمع والاخلاق ؟ الا تتغير بين جيل وآخر بفعل النقد والتطور ؟ وأداة حرية القول نفسها من صحافة واذاعة وسينما ألا تسلط عليها تلك الحرية نفسها فتقوم اعوجاجها وتصلح فاسدها وتكشف ما تفعل المصالح بها فى بعض الاحيان ؟ وقد لا يظن الناس ان

العلوم والآداب والفنون الا أرض تلك الحرية تجول فيها كل مجال . ولكن كم لحرية القول فيها أيضا من قتال

وقد لا يخفى على أحد أن الانسانية مدينة فيما كسبته فى هذه الميادين جميعا لحرية الرأى ، ولكن الذى يخفى هو أن هذه المكاسب كثيرا لا تنال فى سهولة ويسر . نعم ليست حرية القول هى التى تخلق صور المدنية التى أشرنا اليها ، وانما هى غرائز الانسان وملكاته ، ولكن مدنية تعتمد على تلك الغرائز والملكات دون أن تكيفها وتقومها حرية القول ، مدنية تكون بلا شك جامدة اذا قدر لها البقاء

ذلك أن النفس أمارة بالسوء . والانسان لا يحكم العقل دائما فى خواطره وتصرفاته ، بل قد يثور عليه ويرضى حكم شهواته وغرائزه ، وهو أبدا بحاجة الى أن يبصر بطريق الخير : وأن يؤخذ بضبط الفكر والسلوك . ولكنه أبدا كاره لحرية الجدل والمناقشة . فانها تزعزع يقينه ، وتحدث له الشك من حيث لم يكن ، وتكلفه جهدا فكريا غير يسير ، وتضطره بعد ذلك أن يسلم خطأ ، وأن يقبل راضى النفس نقيض رأيه وعكس حكمه ، ذلك هو غالبا حال الفرد فيما هو من شؤونه . والجماعة فى جملتها لا تختلف عن ذلك كثيرا ، فانها اذا أتاها رأى جديد قابلته بالتنكر والانقباض ، لانه يخالف مألوفها ، ودافعته عن نفسها ، وربما قاومت صاحبه بكل ما أوتيت من قوة واضطهدته وسامته عنتا وعذابا شديدا . على أن الرأى الجديد اذا كان خيرا من القديم الذى جاء ينسخه لا يزال يجاهد الجماعة ويغالبها بقوة العقل والاقناع حتى ترضخ له وترضاه . فاذا رضيته ، أصبح ذلك الرأى قوة فى ذاته ، بل أصبحت قوة الجماعة من ورائه تحبيه وتؤيده ، فاذا جاء رأى جديد آخر لقى ما لقيه الاول ، وهكذا دواليك

ليس اذن غريبا أن تكون حرية القول خيرا عسيما كما وصفنا ، وأن تلقى مع ذلك ما لقيته فى الماضى من الاعنات والاضطهاد ، لا سيما وأن الآراء الجديدة فوق ما تعارض من عواطف الجماعة وشهواتهم ، قد تصادم مصالح قائمة ثابتة ، فلا يألو أصحاب تلك المصالح دفاعا عنها

ولكن أليس حسب الانسان تجارب الماضى العديدة ، ليقتنع بأنه خير له أن يفسح صدره للرأى الجديد وألا يتبرم به وألا يدافعه أو يعمل على اخماده ، فانه اذا كان صوابا كان خليقا بأن ينتهى اليه ويستقر عنده ، واذا كان خطأ لم تقم له قائمة . فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض ، بل لقد يقاوم الرأى الجديد ويعمل على اخماده فيلجأ أصحابه الى الترويج له سرا ، وقد يعين التكتم على نشره أكثر من الدعوة له جهارا ، ولو قد أطلقت فيه المناقشة الحرة تكشف ما يقوم عليه من أوهام أو أخطاء

فاذا اعتبرنا بتلك التجارب ، فماذا يكون الواجب فى شأن هذه الحرية ؟ وما هى الخطة التى تكفل لنا اقرارها وتأييدها على خير وجه وأفضل صورة ؟

أطرح جانبا طبعا الوقت الذى نعيش فيه الآن ، فان الدستور أجاز تعطيل أحكام الدستور أثناء قيام الاحكام العرفية ، وقد أعلنت هذه الاحكام تنفيذا لمعاهدة التحالف بين مصر وبريطانيا . وهذه الاحكام تجيز للسلطة القائمة على اجرائها مراقبة الصحف قبل نشرها . وقد كثر الكلام فى أمر هذه الرقابة ، ولعل أصدق حكم على ما يجب أن تكون عليه هو ما أعلنه القائم عليها فى بريطانيا العظمى ، من أنها لم تستعمل فى تلك البلاد الا فيما يتصل بشؤون الحرب ، وظلت حرية الرأى والنقد فى كل ما عدا ذلك من الشؤون مكفولة

لعل أول واجب بعد زوال تلك الاحكام هو أن يرجع النظر فى القوانين ، ليذلل ما فيها من عقبات فى سبيل تلك الحرية . وربما كانت أكبر عقبة فيها هى تلك الاحكام المبهمة الناقصة التى تؤلف جرائم الرأى ، وقد أشرت الى طائفة كبيرة منها ، ولم أذكرها على سبيل الحصر . نقلت هذه الجرائم عن القوانين الفرنسية القديمة ، ورأى قانون الصحف الفرنسى الذى صدر فى سنة ١٨٨١ من الخير أن يلغيها . وبعض هذه الجرائم له أشباه ونظائر فى القانون الانجليزى ، ولكنها كما قلنا لا تطبق الا فى ظروف استثنائية. والواقع أن هذه الاحكام لم تعد تطبق كثيرا فى مصر . ولست أشير الى الوقت الحاضر والاحكام العرفية قائمة والرقابة تحول دون نشر شىء يمكن أن تكون منه جريمة . ولكنى أعنى الوقت الذى سبق الحرب . ذلك أن النظام البرلمانى مما يقوم عليه من عدم مؤاخذة أعضاء البرلمان بما يبدون من الافكار والآراء فى المجلسين، تعود على حرية القول خارجها. ولقد كانت مواد جرائم الرأى قديما تطبق على وجه لا يتفق كثيرا مع حرية الرأى ، ويعاقب بها على عبارات هينة ، وكان هذا التطبيق يساير بطبيعة الحال تطبيق قانون المطبوعات المصرى الصادر فى سنة ١٨٨١ وهو القانون الذى كان يبيح للحكومة وقف الجرائد وتعطيلها اداريا

وقد شهدت التجارب بأن قيود حرية القول تحرم أصحاب الرأى مخرجا ومتنفسا لا بد منه ، كما تحرم الناس علما بوقائع وآراء قد يفيدون منها كثيرا ، وتقيم مقام الحكم من يجوز ألا يكون أفضل من أصحاب الرأى أنفسهم ، أو أدنى الى الصواب ، وهى تضفى على القديم حماية بل قداسة لا تخلو من الغلو والسرف ، وتوصد دون الجديد منافذ القول . وفى الحق ليست العبرة فيها دائما ، بالحق والعدل فى ذاته ، بل بما يرضى أو لا يرضى أصحاب الحل والعقد . وربما كان أصح فيصل وأضبط ضابط فى أمر هذه الحرية هو الأمن والسلام ، فما يتهدده حقيقة لا ظنا وتقديرا يكون محرما ، وما لا يتهدده يكون مباحا ، وثمة نقطة تتحول فيها حرية القول الى ما يشبه حرية العمل ، وهى هذه السلطة التى لا يجوز أن تبلغها حرية القول

وقد تقدم القول فى الدعوة الى الشيوعية وموقف القانون المصرى منها ، ولا شأن لحديثنا اليوم فى الشيوعية فى روسيا ، فالشيوعية فى ذلك البلد ثورة قامت فى ظروف

استئنائية ونجحت . وليس هذا مجال البحث فى أن هذه الثورة لم تكن لتنجح الا فى ذلك البلد ، وأن ذلك النظام كان صالحا له ولم يكن يصلح الا له . وانما البحث فى دعوة بالقول والكتابة تنشر فى بلد آمن ، وتقوم على استعمال القوة فى تغيير النظم الاساسية للمجتمع ، وعلى استعمال القوة كذلك فى منع أى رأى يخالفها اذا هى نجحت واستتب لها الامر ، فانها من الناحية الاولى تحريض على ارتكاب الجرائم ، وهو أمر كان دائما معاقبا عليه . وهى من الناحية الاخرى ايذان بالحرب على حرية الرأى . وهذا ، لا مجرد ابداء الرأى ، هو ما أظن أن الشارع المصرى قصد اليه بالعقاب على تلك الدعوة

ولا ريب من جهة أخرى فى أن المدنية فى صورتها الحاضرة جعلت للفرد فى الحياة العامة شأنا وسيرة ، ولم يكونا له من قبل . فهناك نفر غير قليل تؤثر أعمالهم وتصرفاتهم فى شؤون الآخرين ، ويحق لهؤلاء من أجل ذلك أن يتناولوهم بالنقد أو بسوء القالة اذا دعا الحال ، ولكن لذلك النفر من جانب آخر ناحية من الحياة يجب أن تصان حرمتها من العبث ، وكرامة ينبغى أن توفر ، وقد تتعارض المصلحتان ، لذلك وضعت جريمة القذف ليرعى لكل منهما جانبه وتيسر له الحماية الواجبة . وأخال أن الحماية التى يبسطها القانون المصرى لا تخلو من ثغرات كثيرة قد تكون بحاجة الى أن تسد . فقد لا يمكن القاذف من اثبات ما قذف به ، ولو أن فى القذف واثباته مصلحة عامة . ويقصر الاثبات على حالة الموظف ومن أعطى حكمه من ذى نيابة عامة أو مكلف بخدمة عامة . ولا يمكن المقذوف فيه فى غير هذه الحالة من مطالبة القاذف بالاثبات ليلزمه الحجة بالعجز . ويحظر نشر اجراءات قضايا القذف اطلاقا ، ولا يبدو أن هذا الحظر يعتبر فى كل الاحوال حماية . ولعل نظرة فى أحكام القذف توفر لحرية القول مجالا فى شؤون المصلحة العامة لا يغض من حرمة الحياة الخاصة

على أن القيود التى تقدم لنا القول فيها وهى قيود القوانين ، ليست وحدها التى تحد حرية القول ، فان الرأى العام له فى هذا الميدان شأن وأى شأن ، ولعله — وهو مرآة النظم العامة والعمد التى تقوم عليها — يستوحيه الشـــارع فى وضع القيود القانونية ، ويستلهمه القاضى فى تقديره حين يطبق تلك القيود . وللرأى العام قوة لا يستهان بها من الناحية الاجتماعية ، قد لا تكون أقل شأنا من قوة القانون . وهو بطبيعته محافظ كاره لحرية النقد . فكيف السبيل الى جعله أرفق بالنقد والناقدين ، وأرحب صدرا له وأكثر استعدادا لفهمه وتقبله . انما السبيل الى ذلك هو التربية والتعليم

أما التربية فبتلقين كل صغير وكبير أن يتسامح مع من يخالفونه فى الرأى ، وأن يستمع لهم ، وأن ينظر فى حجتهم وهى خصلة يوصى بها الدين ويقرها العقل وتؤيدها المصلحة . ولعل ما سقناه من الشواهد والامثلة لا يدع مجالا للريب فى شىء من ذلك

وأما التعليم فلانه كلما كثر زاد الانسان العقلى ، كان أقدر على فهم الاشياء والتمييز بينها وتقديرها والحكم عليها . فاذا كبر نصيب المرء منه ، كان أدنى الى الشك فى الحقائق

المطلقة . وهذا الشك جدير بأن يبصره بجزء الحقيقة فى كل قول ورأى

ولا يسبقن الى ظنكم أن التربية والتعليم لا يجدهما الانسان الا فى البيت والمدرسة ، فقد استحدثت الاختراعات وسائل جديدة نشهدها ونحس آثارها كل يوم . ولا أريد أن أشير الا الى أهمها ، وهى الصحف والاذاعة والسينما

وقد أصبح اثنتان من هذه الوسائل وهما الصحافة والسينما تجارة وصناعة فى ذاتهما ، ولهما ضرورات ربح وصلات مصالح قد تؤثر من حيث حرية الرأى فيما يأتيه كل منهما وما يدع ، وفيما يقوله أو يسكت عنه ، أو فيما يظهره وما يخفيه ، واثنتان من هذه الوسائل وهما الاذاعة والسينما ، خاضعتان حتى فى البلاد الديموقراطية لرقابة الحكومة . وان دق عمل تلك الرقابة أو خفى

ولكن هذه الوسائل بما لكل منها من صورة ومذهب فى القول ، وبما بينها من تسابق وتنافس وتفاعل وتعارض ، لا تزال بالرغم من تلك الضرورات والصلات ومن قيود الرقابة كفيلة بنشر حرية القول واحيائها اذا هى سلمت من مرض الدعاية "propaganda"

والدعاية نوع من الدعوة هيأته هذه الوسائل الجديدة ، وتستخدم فيها كل وسائل التأثير التى يعرفها علم النفس ، وهى ترمى بالتكرار والايحاء الى خلق رأى عام من غرار واحد يرى بعين واحدة ويسمع بإذن واحدة . وليست الدعاية على هذه الصورة أمرا جديدا ، ولكن ما للوسائل الجديدة من الانتشار والنفوذ وهبتها قوة لم تكن لها من قبل

وفى الدعاية الطيب والخبيث ، ولكنها جميعا تضعف الشخصية وتقتلها وتحول دون ابراز كل ما أودعه الله فى العقول والنفوس المتباينة من خصال وملكات ، ودون أن يحيا الناس حياة خاصة كاملة

وها نحن الآن نشهد عهدا فعلت فيه هذه الدعاية فعلها ، وغلبت فيه حرية القول على أمرها ، وتصلى حربا وقودها المدنية نفسها ، بعد أن عانت الانسانية فى بلوغها شدائد الاهوال ، وقطعت فى سبيلها ما لا يعد من الأجيال

ولكن حرية القول التى قاومت العذاب والاضطهاد ، ودكت معاقل الاستبداد ، وخرجت من كل ما منيت به من محن وأحيطت به من سلاسل وقيود ، ظافرة تفىء على العالم فى كل ناحية من حياة الانسان ظلا ممدودا ، هذه الحرية جديرة بأن تتغلب على هذه المحنة ، وان تكن أشد ما لقيت ، وأن تضىء العالم من جديد بنورها وتمده بروحها

عبد الحميد بدوى

نمر السماء

قصة بطل من أبطال هذه الحرب

بعد أن قابل الطيار الامريكى « شينولت » الملقب بنمر السماء ونستون تشرشل فى أيام مؤتمرات القاهرة التى عقدت فى الشتاء الماضى ، قال تشرشل لاحد رجاله : « يا له من وجه ! يا له من وجه ! شكرا للآلهة على أن هذا الرجل من رجالنا لا من رجال أعدائنا »

والحق أنه ما من امرىء يرى وجه شينولت يستطيع أن ينساه مهما مرت السنون الطوال ، أو يستطيع أن يهمل الحديث عن روعته الاخاذة . فهو وجه نحيف مهضم ، قاس شديد ، عات مستبد . كأنه وجه من وجوه الطيور الجوارح التى تنقض من السماء على فرائسها فتنهش لحمها بمخالبها وأظافرها. فعيناه عينا الصقر بما فيهما من النهم والاتقاد

ان وجهه عجيب حقا . لو رأيته على المسرح أو السينما لقلت ان « الماكياج » أسرف وغالى فى ابراز حدته وصرامته . ولكن متى كانت يد الصانع أو الفنان أقدر من يد الطبيعة الخلاقة ، التى جعلت من سمات هذا الوجه علامة صريحة على ما يضطرم به قلب صاحبه من قوى ، وجهود ، وآمال ؟

ان هذه السمات لا ترتسم الا على وجه رجل ظل عشرين سنة يكافح ويناضل فى سبيل فكرته : فكرة جعل الطيران السلاح القاصم الحاسم فى الحروب . وقد لاقى الرجل فى خلال هذه السنين كثيرا من المعارضة والانكار ، فلم تقابل آراؤه ومشروعاته الا بالاغضاء أو الاستهزاء فى تلك الفترة التى سادت فيها الدول الديموقراطية نزعة المسالمة والمصالحة ، ثم اضطر فى سنة ١٩٣٧ الى أن يعتزل عمله فى السلاح الجوى الامريكى بدعوى أنه ضعيف السمع !

ولكن شينولت وخصومه كانوا يعلمون أنه لم يقص لضعف سمعه بل لشدة مراسه. فقد أراد أن يجعل القوة الجوية الامريكية قوة ضخمة عاتية تقى أمريكا شر الحرب التى كان يتوقعها ، فى وقت كان فيه ساسة الديموقراطية لا يريدون شيئا سوى اجتنابها بأى ثمن يدفعونه من حقوق شعوبهم وكراماتهم . ولكن الرجل وجد مجالا لبث رأيه وتحقيق فكرته ، حين استدعاه قائد الصين تشيانج كى تشك لتنظيم قوة الصين الجوية . فأمضى فى الصين سنين يجرب تجاربه المختلفة فى فن الطيران الحربى ، حتى غدا اليوم أحد المبرزين المعدودين فى فن « التكتيك الجوى » — أى من رسم الخرائط واعداد القوى للحملات الجوية التى تنزل الوبال والدمار بالاعداء . وأصبح اليوم بارزا فى ذهن كل

أمريكي أكثر من بروز أي طيار أو أي جندي امريكي في شتى مسارح الحرب التي تدوي فيها طائرات امريكا أو تخوض غمارها جيوشها

لقد استطاع شينولت في خلال الشهور القاسية التي عقبت واقعة ميناء بيرل أن ينزل هو وسربه الصغير من الخسائر باليابانيين أكثر مما أنزل بهم سائر السلاح الجوي الامريكي بأسره . ففي مقابل خمس طائرات قديمة خسرها سربه أسقط من طائرات اليابان القاذفة والمحاربة ما يتراوح بين خمسمائة وستمائة طائرة ! بل ان هذا السرب حقق من النصر ما لم يحققه أي سرب جوي ، ولا أية كتيبة برية ، في أية بقعة من بقاع الحرب جميعها ، فقد كانت نسبة خسائر اليابانيين الى خسائره نسبة ١٤ الى ١ — هذا مع أن رجاله لم يوفقوا الى هذا النصر المؤزر بطائرات من النوع الحديث الممتاز ، بل بطائرات عتيقة وبطيئة

▭

كان شينولت ضابطا في الجيش الامريكي في الحرب الماضية ، ولكنه أدرك حينذاك ما قد يكون للطائرة من أهمية خطيرة في الحرب القادمة . فبدأ يدرس هذه الفكرة ويتشوف الى محتملاتها الكثيرة . وانتقل بعد الحرب من الجيش البري الى السلاح الجوي ليتيسر له أن يدرس الامر درسا دقيقا كاملا . ولكن الساسة والشعوب حينذاك كانت لاتفكر في الحرب القادمة ، بل في اطالة أمد السلم القائم . فكانت كل فكرة ترمي الى التوسع في الجيش أو الى ادخال اسلحة أو أنظمة حربية جديدة ، تقابل بالاغضاء والانكار . ولعل في القصة التالية ما يبين الروح التي سادت رجال السياسة اذ ذاك . فقد طلب الى الرئيس كوليدج أن يرصد اعتمادا لاستخدام بضع مئات من الطيارين يتولون تعليم الجنود فن الطيران . فنظر الى من تقدموا اليه بهذا الطلب نظرته الجافة الباردة ، وقال لهم في لهجته الحادة الصارمة :

— كم مطارا سيقوم فيه هؤلاء المعلمون بتدريب الجنود ؟

— ستة مطارات

— اذن فلنستخدم ستة طيارين فحسب . لكل مطار طيار . يركب طائرته ويحلق بها ، ويبقى الجنود في أرض المطار ، يشاهدون ما يحدث فوق رؤوسهم !

هذه كانت روح الساسة الديموقراطيين ، وهذه كانت نزعة الدول الديموقراطية حينذاك

وكان الطيران على الاخص موضع الشك ، بل موضع الاستهزاء ، من كثير من الرجال الحربيين ، فلا يرونه الا « ألعوبة » من الألاعيب التي لا تجدي نفعا في الساعة الحاسمة . ففي سنة ١٩٢٧ ذهب أحد قواد الجيش الامريكي يزور تلك الفرقة التي تولى شينولت تدريبها وقيادتها في ولاية تكساس ، فقامت الفرقة بعرض من نوع كان حينذاك جديدا ، اذ ارتفعت أربع طائرات وأخذت تحوم فوق المطار ، ثم لم يلبث أن سقط منها أربع مظلات ، في بعضها جنود وفي بعضها أكياس ، وأسرع الجنود الى الاكياس ففتحوها

ونزعوا منها بضع مدافع ، وتقدموا بها مسرعين الى حيث هجموا على احدى القلاع المقامة في المطار فاحتلوها . فلما انتهت المناورة نظر القائد الى من حوله وقال :
ـ سخافة أخرى من سخافات الطيران !

ولكن لم تمض على ذلك بضعة اسابيع حتى زارت شينولت بعثة عسكرية أوفدتها موسكو ، وقام رجالها بتحية البعثة بمناورة أخرى من مناورات الهبوط بالمظلات . فتقدمت اليه البعثة ترجوه أن يعمل في السلاح الجوى الروسى لمدة خمس سنوات ، بمرتب سنوى قدره عشرة آلاف دولار . ولكنه رفض . وأعادوا عليه العرض مرارا ملحين مرغبين ، ولكنه أصر على رفضه ، لانه أراد أن يكون فنه وجهده في خدمة وطنه امريكا لا في خدمة روسيا . وكان واثقا من أنه سيأتى اليوم الذى تدرك فيه امريكا ما أدركته روسيا منذ البداية ، وهو أن الطائرة ستكون السلاح الحاسم في الحرب القادمة

وظل يعمل في السلاح الامريكي معانيا ضيق نطاقه وعناد رؤسائه ، وقلة ما ينفق عليه من المال وما ينال من التشجيع . وكان يكتب المقالات وينشر الرسائل في الدفاع عن قيمة « الطائرات المطاردة » في وقت كان يؤمن فيه قواد الجيوش بأن هذه الطائرات لا قيمة لها الى جانب « قاذفات القنابل » . وقامت مناقشة كتابية بينه وبين القائد الجوى الايطالى « دوهيت » الذى كتب يقول : « اعطنا عددا كافيا من القاذفات الكبيرة السريعة ، وأعدها بعدد كاف من المدافع ، نستطع بها أن نحطم أية قوة دفاعية من طائرات المطاردة ، بل نستطع بها أن نقضى على الروح المعنوية في أى شعب ونرغمه على التسليم عاجلا » . فكتب شينولت ثلاث مقالات قوية في تفنيد هذا الرأى ، ولكنه لم يستطع أن يثبت صحة رأيه الا بعد ذلك بعشر سنوات حين قامت معركة بريطانيا ، فكانت طائراتها المطاردة درعا قويا لها أعجز قاذفات القنابل الالمانية عن تحطيمها وهزيمتها ، كما ثبتت صحة رأيه كذلك في المعارك الجوية التى فقدها فيها اليابان من قواعده في الصين

ويقول الصينيون ان معرفة شينولت الذى لقبوه « بنمر السماء » بخريطة بلادهم الحربية لا تشابهها معرفة أى قائد من قوادهم أنفسهم . وعند ما ذهب الى الصين في سنة ١٩٣٧ لم تكن ثمة خرائط حربية لهذه البلاد ، فأخذ يضع لها الخرائط المفصلة الدقيقة من أقصاها الى أقصاها ، فلو سئل ، وهو في أى بلد من بلاد الصين ، عن مكان تهبط فيه الطائرة على بعد ألف ميل ، لحدد ذلك المكان القصى وبين سهله ونجده ، بل لبين حالة الجو التى تسوده ومتجه الريح التى تهب عليه في كل حين ، ولحدث حديث الخبير عن أخلاق أهله وأسلوب حياتهم . وقد صار اسم « شينولت » ذائعا على كل لسان في الصين ، وصورته ماثلة في كل ذهن هناك ، ومنحته الحكومة وسام « قائد شرف » في الجيش الصينى ، وقد كتب في هذا الوسام بخط نسائى جميل : « انه قد أدى المستحيل » موقعت هذه الكلمة بهذا الاسم « ماى لنج سون تشيانج » وهو اسم مدام تشيانج كى تشك

(عن صحيفة امريكان موركرى)

الفن الأمريكي في خدمة الجمهور

بقلم الدكتور أمير بقطر

يتوهم الكثيرون أن الفن مرادف للرسم والتصوير ونحت التماثيل . الفن لا ينحصر في القدرة على الرسم والتصوير والنحت وإنما يشمل الإعجاب ، فالأعجاب بالفن جزء لا يتجزأ من خلق الفن ، والاستمتاع بالجمال مساهمة في صنعه أو في نوع من هذه المساهمة

كل شيء في ولايات اميركا المتحدة للجمهور ، وليس الفن وحده للجمهور . ولعل هذه الحقيقة في مقدمة الفروق بين أميركا وأوربا ، وبالاولى بينها وبين سائر بلدان العالم . ومهما بلغت الديمقراطية في بلدان أوربا (وآسيا وأفريقا وأستراليا) ، فانها لا تزال للخاصة والطبقات المستنيرة قبل كل شيء ، اذا استثنينا روسيا . السياسة في اميركا شعبية ، يقتحمها الفقير والغني ، والرجل والمرأة ، والعالم والعامل على السواء ، في حين أنها في الواقع لا تزال وقفا على فئة ممتازة في سائر البلدان . يقولون ان أبواب المعاهد العلمية في أوربا مفتوحة على مصارعها لمن يشاء ، ولكن أهذا هو الواقع ؟ أليست المدارس الثانوية والكليات والجامعات هناك كماليات لا يصعد اليها سوى عدد محدود من أبناء الامة وبناتها ؟ أليست الفتيات في المعاهد الثانوية في أميركا يفقن الذكور عددا ، في حين أنهن في أوربا أقلية ضئيلة ؟ يبلغ مجموع طلبة المدارس الثانوية في ولايات اميركا المتحدة أكثر من ستة ملايين من الذكور والاناث . ألا يكاد هذا الجيش الجرار يزيد عدده عن مجموع طلبة جميع المدارس الثانوية في أوربا وآسيا وأفريقا وأستراليا ؟ والجامعات ؟ ألا يبلغ عدد طلابها في انجلترا وويلز نصف عدد أساتذة الجامعات في أميركا ؟ الفرق بين الفلسفتين واضح . في أميركا العلم لاكبر عدد مستطاع من أبناء الامة وبناتها . وفي أوربا العلم لاذكى طبقة وأكثرها ارستقراطية من أبناء الامة ، ولبعض بناتها . لذلك ترصد أميركا سنويا للتعليم العام نحو ألف مليون جنيه ، وللتعليم الجامعي نحو مائة مليون جنيه ، ولا تقتصر على تعليم البنين والبنات ، وانما تفتح أبواب هذه المعاهد للآباء والامهات

وما يقال عن التعليم ، يقال عن المتاحف العلمية والفنية ، والمستشفيات ، والصحف ، والمكتبات ، ودور العبادة ، ووسائل اللهو والرياضة والتسلية . ولعل هذا يحتاج الى شرح ، فالى القارىء بعض الامثلة . متحف التاريخ الطبيعي في نيويورك - تلك المؤسسة الكبيرة ، الفنية بمجموعاتها العلمية النادرة - ليست وقفا على زائريها الذين يتجولون في أروقتها ، كما يتجول الاطفال في حديقة الحيوانات ، ولكنها معهد كبير تتخلله حجر للدراسة ، ومعلمون ، وخرائط ، وأشرطة سينمائية ، ويفد اليه طلاب من صغار وكبار ،

لتلقي دروس ، وسماع محاضرات مجانية ، تتعلق بهذا المتحف . ولا تقتصر الادارة على هذا ، ولكن رغبة منها فى جعل محتويات هذه المؤسسة فى متناول الجميع ، تعد الاشرطة السينمائية والفوانيس السحرية ، مصحوبة بنشرات وكتب موجزة ، شرحا لما بها ، وتعيرها للجماعات والمعاهد والافراد فى جميع أنحاء أميركا ، وتتكفل بنفقات النقل ذهابا وايابا . والمكتبات العامة لا يقصر عملها على من يفد الى قاعاتها للمطالعة أو استعارة الكتب، وانما رغم انتشارها فى كل حى تقريبا ، تبعث بمجموعات من الكتب الى القرى السحيقة ، وسكان الغابات الذين لا توجد فى أنحائهم مكتبات ، وتعيرهم هذه الكتب ، ثم تعود سياراتها فتستعيدها وتعيرهم سواها وهكذا . والصحف ؟ هذه جريدة نيويورك تيمس تظهر كل أحد فى مائة واربعين صفحة ، منها جزء مصور للاطفال ، يشغلهم عدة أيام ضحكا ولعبا ، وقصا لاشكال ، وحياكة لثياب . . وفيها جزء مصور بديع الالوان للكبار ، وفصل كبير يساهم فى تحريره أكبر الكتاب والعلماء لتقريظ الكتب التى ظهرت فى خلال الاسبوع فى أوربا وأميركا فى سائر اللغات ، وتلخيصها للقراء فى لغة بليغة وأسلوب سلس رائع ، وفيها جزء للمعمار يسجل أحدث ما جد من البنايات وصفا ورسما . وهكذا سائر الفصول فى السياسة والفنون الجميلة ، والمسرح ، والسينما ، والتعليم والتجارة والزراعة، وبعبارة موجزة تجد فى الصحيفة الامة بأسرها ممثلة أبدع تمثيل

ولسنا نريد بهذا المقال أن نصف المتاحف الفنية ، أو نسرد للقراء أسماء أشهر رجال الفن هناك ، وانما نريد أن نبين كيف أن الفن هناك وقف على الجمهور ، أسوة بسائر الآراء والمظاهر والمؤسسات والاشياء ، وكيف أن الفن متغلغل فى الحياة العامة ، تغلغلا ، يكاد يحار المرء فى أمره ، فلا يدرى اذا كان هوانا حقيقة ، أم علما ، أم صناعة

ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان ليس ثمة فن أميركى لغير الجمهور . فاميركا بلاد فتية ، لا تزال فى سجل التاريخ صبية فى المهد ، فلم تنضج بعد للانتاج الفنى الخاص ، بمعناه الخاص ، كما تفهمه روما وفلورنس والبندقية ونابولى وباريس وفينا ودرسدن وبرلين وبروكسل والهاى واثينا وقرطبة وبغداد وطهران والقدس ودمشق والقاهرة . وليست أميركا عريقة فى التاريخ ، فلم تنجب بعد رفائيل ، أو ميخائيل انجلو ، أو ليوناردو دى فنشى ، أو تتشيان ، ولم يظهر فيها بيتهوفن ، أو باخ ، أو فاجنر

على أنها بالرغم من هذا كله ملجأ رجال الفن ، توفر لهم وسائل العيش ، وتغدق عليهم الاموال بسخاء لم يألفوه فى أوربا ، وتفتح لهم أبواب أميركا الموصدة فى وجوه الكثيرين من الوافدين اليها ، وتبتاع منتجاتهم بأثمان لا يحلمون بها ، وتقيم المعارض الفنية تشجيعا للنابغين منهم ، وتأوى المضطهدين منهم من بنى أوطانهم . فلا غرابة اذا رأينا ألوف الصور والتماثيل الكلاسيكية تعبر المحيط الاطلسى وتستقر فى بلاد العم سام، أو تنزل ضيوفا مكرمة فى بادىء الامر ، ثم لا تلبث ـ كأصحابها ـ أن تكتسب الجنسية الاميركية . وما يقال عن الصور والتماثيل يقال عن الموسيقى والغناء والتمثيل والاوبريت،

فهناك نجد اليوم أمراء الكمان : ياشا حايفتز ، وميشا المان ، وكريزلر ، وأمير البيانو ، جوزيف هوفمان ، وشيخ رجال المايسترو قاطبة توسكانينى ، كما رأينا فى الماضى كاروزو وكواكب الاوبرا من رجال ونساء يغادرون «سكالا دى ميلانو» وباريز، وفينا، وبودابست، وبرلين ، وينزحون الى حيث يعبر النظارة عن اعجابهم بألوف الدولارات ، لا بالتصفيق بالايدى ، والضرب بالاقدام

يقول قائل : اذن فالفن يصدر اليها من الخارج ، كما يصدر اليها الموز من جزائر الكنارى ، والمطاط من الهند الشرقية ، والشاى من الصين والهند . أجل ، وهل فى هذا من الغرابة فى شىء ؟ ألم يصدر الى أميركا كل شىء حتى أهلها ؟ ما الذى يوجد فى اميركا منها سوى أرضها ومنتجاتها وحفنة من الهنود الحمر لا يتجاوز عددهم أربعين ألفا ، قضى عليهم ألا يبرحوا المساحات الضيقة التى أعدت لهم والتى يطلق عليها اسم reservations

لقد نسى هذا القائل وأمثاله أن رجال العلم والصناعة والسينما — أى اشهر ما امتازت به أميركا فى خلال الستين عاما الماضية — ان هؤلاء جميعا نزحوا من أوربا ، أو على الاقل آباؤهم ، أو على أقل الاقل أجدادهم . ألم ينزح شيخ فلاسفتهم وليم جيمس من بريطانيا وزميله جورج سنتنايا من اسبانيا ؟ ألم يكن وليم مكدوجل [١] من كبار علماء النفس انجليزيا ، وزميله ادلر [٢] نمساويا؟ أو ليس زميله كوفكا [٣] من جامعة جسين بالمانيا؟ ألا يوجد رهط كبير من علماء ألمانيا اليوم هناك وعلى رأسهم اينشتين ويقال لهم أساتذة المنفى؟ وفى هوليوود الا توجد أكبر صناعة اميركية بعد صناعة التعليم ؟ ومن هم كواكبها ؟ شارلى تشبلن ، ومارى بكفورد ، وليليان جيش ، ومادلين كارول ، وكاترين هبرن ، ودوروثى جيس ، وديانا دربان ، انجليزيات . جريتا جاربو سويدية ، ومارلين ديتريش ألمانية ، بولا نيجرى كانت بولاندية ، وانجريد دانيمركية أو نروجية . هؤلاء أسماء على سبيل التمثيل لا الحصر ، فعددهم تضيق به صفحات الهلال من أوله الى آخره

ولكن هناك فرقا شاسعا بين العلم والصناعة من جهة ، والفن الاصيل من جهة أخرى . فقد فاقت أميركا فى الصناعة أمها أوربا ، وفاقتها فى كثير من العلوم أو كادت . أما فى الفن فانها لا تزال عالة على أوربا ، اذا قصدنا به المعنى المعروف ، وهو الفن لطبقة خاصة ممتازة من أبناء الامة . والسبب فى هذه الفجوة الواسعة بين التقدم العلمى الصناعى ، والتأخر الفنى الخاص ، جلى للعيان . فالفن الخاص من ألوان الترف وضروب الكماليات ، ولذا فانها آخر ما يعنى به بنو الانسان . وهل يعنى الرجل بشراء الصور البيتية الغالية ، والتماثيل النادرة ، قبل بناء الدار ، وتوفير الطعام والكساء لساكنيها ؟ وهل يؤثر انفاق النزر اليسير من دخله فى تعليم ابنه الموسيقى والرقص والغناء ، قبل القراءة والكتابة؟ ولكن

(١) كان استاذا فى جامعة ديوك باميركا (٢) قضى آخر أيامه فى اميركا (٣) استاذ علم النفس فى كلية سمث للبنات فى أميركا

ليس هذا كل السبب فى تأخر أميركا فى الفن الخاص . أميركا أهلها عمليون فى أكثر الاشياء ، خياليون فى قليل من الاشياء . فالفن عندهم ككل شىء آخر شعبى قبل كل شىء ، خادم للعامة ، قبل أن يكون خادما للخاصة . وما يقال عن الفن يقال عن العلوم البحتة ، فهى فى أوربا أكثر تقدما منها فى أميركا ، اذ أن أميركا لا تعنى الا قليلا بالعلم لذاته ، اذ هو فى نظر أهلها وسيلة لا غاية . ولكن بالرغم من هذا كله هناك استثناءات . فالفلك مثلا ، وهو أقل العلوم فائدة من الناحية العلمية ، أكثر تقدما فى أميركا بمراحل منه فى أوربا ، والمعامل التى تشاد للبحث العلمى البحت ينفق عليها ملايين الجنيهات سنويا ، وهى أكثر استعدادا وأدق عدة فى أميركا منها فى أوربا . وفن المعمار فى أميركا بلغ من الرقى والتقدم ذروة لم تصلها أوربا فى أبهى عصورها . والذى حدا بها أن تقفز فى هذا النوع من الفن دونا عن سائر الانواع أسباب عملية وحاجات ماسة . فالرغبة فى توفير المساحات فى المدن المكتظة بالسكان كنيويورك ، دفعها الى ابتكار تلك البنايات الجبارة ــ ناطحات السحاب ــ اذ الجزء الاكبر من نيويورك مشاد على جزيرة «منهاتان» التى ابتاعها المهاجرون من الهنود الحمر ، سكان أميركا الاصليين ، بعشرين ريالا ، فى حين أن القدم المربع من الارض فيها يبلغ ثمنه اليوم نحو مائة جنيه مصرى . كما أن الرغبة فى تنفيذ السياسة التعليمية الى أقصى حد شعبى ممكن ، دفعت بهم الى ايجاد طبقة خاصة من مهندسى العمارة المدرسية ، وأخرى لبناء قاعات المحاضرات لاكبر عدد ممكن من الجمهور ، وقد تجلى فى هذه البنايات الفريدة تضامن رائع بين العلم والفن

وأكثر أهل الفن من الاوربيين لا يعجبون كثيرا بالفن الاميركى ، لانهم ألفوا الفن البحت ، وعهدهم به أن يكون خالصا نقيا ، لا يتأثر بالعلم أو المنطق أو الآداب العامة أو بأى شىء آخر . وقد سأل كاتب هذه السطور مصريا مثقفا زار أميركا وقضى فيها بضعة أسابيع ، عن رأيه فى تلك البلاد ، فقال : لم أعجب بجمالها كثيرا لانها « هندسة »

ومن أغرب ما شاهدناه فى أميركا من تطبيق المبادىء سالفة الذكر ، كنيسة فى الحى « البوهيمى » فى نيويورك ، وهو حى الممثلين والممثلات ، وأهل التصوير والنحت والرقص . تجلس فى هذه الكنيسة صباح الاحد فيخيل اليك أنك فى مسرح متنوعات variétés . فالاضواء تتلون وتتعدد وتتغير تبعا للموقف ، والغناء يقوم به كاهن « تنور » يزرى بأكبر المغنين فى الاوبرا ، أو فتاة « سوبرانو » من أشهر كواكبها ، والواعظ يلقى مقطوعات شعرية ونثرية بصوت تمثيلى وحركات توقيعية تأخذ بمجامع القلوب ، وتقوم فتيات جميلات حافيات الاقدام محلولات الشعور ، برقصات دينية كلاسيكية بديعة ، فى ثياب بيضاء طويلة ، على مسرح توافرت فيه كافة المعدات الفنية من أستار وأضواء ومناظر ، ويعهد اليهن بتمثيل صامت فريد فى بابه ، تبدو فيه الفضائل والرذائل عارية ، من ولاء وخيانة ، وعفة ونزاهة ، وحب وكراهية . ويخرج المصلون ، وكلهم من البوهميين (رجال الفن ونسائه) بعد ذلك الى الدار الملحقة بالكنيسة فيتناولون الشاى ويأكلون

الحلوى ويرقصون على نغمات الموسيقى ، ضيوفا على القساوسة . والفلسفة وراء هذه « البدعة » عملية أو بتعبير أدق « براجماتيك » pragmatic وهي أن خير وسيلة لجذب أهل الفن الى أماكن العبادة هو التحدث اليهم بلغتهم

ومن مظاهر الفن فى أمريكا أنه « بالجملة » فهذه مدينة روشستر موطن « كوداك » (صاحب آلات التصوير الشمسى المعروفة باسمه ، ومن كبار أصحاب الملايين) يستطيع أن يتعلم كل فرد فيها وفى ضواحيها الموسيقى مجانا ، اذ وقف « كوداك » فى حياته وبعد وفاته الأموال التى تكفل لكل طفل ورجل وامرأة أن يتلقى دروسا موسيقية ، ويؤم حفلات غنائية وموسيقية عامة ، ويعطى له فوق ذلك الآلة الموسيقية التى يحسنها أو يرغب فى العزف عليها ، كل ذلك بغير مقابل . ومن مظاهر الفن أن يصبح الزى شعبيا بعد ظهوره بأيام . فهذا طراز جميل من الاثاث المنزلى ابتدعته يد ماهرة وابتكره عقل جبار . ولكن أنى لغير المثرى أن يبتاعه ؟ مهلا ! ما هى الا أيام معدودات حتى تخرج الآلات منه مئات الالوف ، فينتفع منه أسر الطبقات المتوسطة وما دونها . وهذا فستان مبتكر ، أخرجته يد ممتازة فجاء زيه خلابا أخاذا ، ولكن أنى لسيدة غير مثرية أن تشتريه ؟ مهلا ! ما هى الا أيام معدودة حتى تخرج منه الآلات الساحرة مليون نسخة ، تغمر الحوانيت فيباع الفستان بريالين أو ثلاثة . وتغمض عينيك وتفتحهما فاذا بك ترى هذا الزى الانيق يزين كل آنسة وسيدة يقع عليها بصرك فى طول البلاد وعرضها

ولعل هذا الفن بالجملة يتناسب ونهضة أمريكا الصناعية أولا ، واتساعها وترامي أطرافها ثانيا . أليس حوض المسيسبى وحده توازى مساحته مساحات انجلترا وويلز واسكوتلاندا وايرلندا واسبانيا والبرتغال وفرنسا والنمسا وألمانيا وايطاليا وتركيا كلها مجتمعة ؟

نختم هذا المقال بكلمة عامة عن الفن استقيناها من كتاب بديع يجدر بكل مثقف أن يقتنيه (١) : « يتوهم الكثيرون أن الفن مرادف للرسم والتصوير ونحت التماثيل . الفن لا ينحصر فى القدرة على الرسم والتصوير والنحت ، وانما يشمل الاعجاب . فالاعجاب بالفن جزء لا يتجزأ من خلق الفن ، والاستمتاع بالجمال مساهمة فى صنعه ، أو نوع من هذه المساهمة . وتفسير الفن ومظاهر الجمال لاصدقائنا ومحدثينا ما هو الا ناحية من هذه النواحى المتعددة التى نسميها فنا . كم سمعنا صديقا لنا يقول : « لست من أهل الفن ولا أحسن أن أرسم خطا مستقيما » قد يكون أحدهم ماهرا فى رسم خط مستقيم ، ولكنه لا يدرى فى الفن شيئا . وقد يجهل آخر ذلك ، ولكنه يعد من أهل الفن بأقصى ما تشمله الكلمة من معنى . فالمرأة التى تتخير الاثاث الملائم لبيتها ، أو البائعة التى تساعد المشترى فى انتقاء الزى الذى يتناسب وقوامه ومنظره ، لا تقل معرفة بأصول الفن من مثال أو مصور »

أمير بقطر

(١) « Art in Every Day Life » by Harriet and Vetta Goldstein, Macmillan, N.Y. 1941 (3rd edition).

بمناسبة ذكرى مولد الشاعر العبقري شكسبير

وليم شكسبير

مؤرخ صادق للقلب الانسانى

للأستاذ زكى طليمات

المدير الفنى للفرقة المصرية

شكسبير بما خلف وراءه من شعر ومسرحيات تراث انسانى عام ، إن تفردت انجلترا بشرف مولد صاحبه ونشأته ، فان العالم بأسره ينازعها ولا شك فى طلوعه على الدنيا ، وذلك باعتبار أنه من أبناء هذه الأرض ، الأصل الذى خرجنا منه قروعا مختلفة السمات متباينة الاتجاهات لغات وعقائد وأجناسا

منذ ثمانين وثلاثمائة سنة ، فى اليوم الثالث والعشرين من شهر ابريل ، تحت سقف بيت متواضع من بيوت قرية « ستراتفورد » التى يغسل أطرافها نهر الآفون بانجلترا ، ولد وليم شكسبير ، فنورت طاقة فى الذهن الانسانى وأشرق نور من أنوار الابتداع الفنى ، هذا وفصل الربيع فى مقتبل شبابه وزهور المروج تتفتح براعمها لاستقبال الشمس ، فكأن الارادة العلوية شاءت أن يكون الربيع مولد من أكسب الادب عامة وأدب المسرح خاصة ، ربيعا لا ينقضى عمره

قال الكاتب الكبير توماس كارليل فى حديثه عن شكسبير : « لو خيرت انجلترا بين التخلى عن أقطار الهند أو مؤلفات شكسبير ، لو أكرهتها الأحداث على هذا التخير ، لما ترددت فى أن تستبقى آثار شكسبير ، وتتخلى عن الهند »

وما من مبالغة فى هذه القولة الصادقة . فلئن تأتى يوم ينكمش فيه العلم البريطانى الذى يخفق الآن على ممتلكات للتاج لا تغيب عنها الشمس فلا يخفق الا على بقعة صغيرة من أرض انجلترا ، فلئن يأتى يوم نرى فيه دنيا من دنى الأدب فى أى قطر من أقطار العالم المثقف ينفصل عن مرمى الظل الوارف الذى تلقيه هذه العبقرية الانسانية الفذة ، عبقرية وليم شكسبير

وقد تتساءل ما سر عبقرية شكسبير ، وما سر خلودها على مر الايام ، وقد سبقه نبغاء فى صياغة الشعر وكتابة المسرحية ، وتبعه آخرون من طراز فخم خلفوا وراءهم تراثا خصبا فى عالم الأدب

السر غير مغيب عمن قرأ شكسبير أو شاهد مسرحياته .. ومن منا لم يقرأها وأكشف عن وجه من وجوه هذا السر ، ارادة أن ييسر أمر استبطان أصله ومعرفة

مأتاه ، فأقول : منذ أن ابتدع الذهن البشرى ما نسميه الأدب وأصبح رواح النفس وشغل الخاطر ، والكائن البشرى مشوق الى أن يقرأ نفسه فيما يكتب ، وأن يتلمس ظله فى متمثلات خياله ، وأن يسمع أصداء قلبه تتجاوب بين سطور ما يخطه قلمه ، ليشبع نزعة الخلق والابتداع الكامنة فى طويته . وكلما كان المقروء والمتمثل فى نطاق الأدب ، وأيا كان لونه ، عريقا فى انسانيته ، صادق الكشف عن النفس ، مصورا نزعاتها وخلجاتها كما نحسها فى أعماقنا ، أصبح الانسان مشدودا الى هذا الأدب يجد فيـه المتعة التى تتجدد ، والسحر الذى لا ينفد تأثيره

وأدب شكسبير من هذا الطراز الرفيع الصادق فى الكشف عن النفس ، ظاهرها وباطنها ، تتمثل فيه أحلامنا ثم يطيف بنا منه أحلام أخر ، ويتجاوب نبض قلوبنا مع أنباض قلوب عرائس شعره ، ويتفاعل المقروء الوارد مع المحسوس الصادر المدخر فى أعماقنا ، وكلاهما من أصل واحد ، فاذا بنا نعيش فى وقت واحد بأكثر من قلب ، ونرى بأكثر من عين .. وقد تبلغ المتعة الذهنيـة أوجها اذ نقرأ مسرحياته أو نشاهدها ، فتطالعنا شخوصها وقد نفث فيها كاتبها روحا من عنده ، فغدت مخلوقات بشرية نابضة بالحياة

□

ان المجال لا يتسع لان أتناول شكسبير من ناحية شعره الخالص وأسلوبه الاصيل فى قصائده وأهازيجه وترانيمه .. حسبى أن يكون هذا الفصل لمسرحياته ، وذلك باعتبار أنها نهاية النهايات فى أدبه وفنه

وما هى المسرحية أو الرواية التمثيلية ؟ تتعدد التعاريف فى المظهر ولكنها تتفق فى المخبر .. المسرحية قطعة منتزعة من صميم الحياة مما هو مسموع ومشهود ، أو مما هو مرغوب تنزع النفس اليه ويسرح الخيال فيه ، هى مستراد أطياف الحياة ومنتقل ألوانها ، يبن جنباتها تتجاوب أصداء النفس وتتخاطب فيزداد الظاهر فيها وضوحا وينكشف المستور منها ، ويسفر المقنع والشارد فى ثنايا المادة ومجاهل العقل الباطن ، وتتعاون ملكات الخيال والعاطفة والذهن على نسجها ، كما هو الحال فى كل عمل أدبى أو فنى ، ثم ينطلق البيان اللغوى يرسم معالمها وينشىء كيانها . والكاتب فيها يجرى موضوعه وفاقا لصيغ شكلية وشرائط فنية من حيث النسج والتقسيم والسياقة والحبكة واحلال الحوار الذى يجرى على ألسنة أشخاص المسرحية محل السرد والحكى ، ثم من حيث تقويم هؤلاء الاشخاص تقويما انسانيا صادقا فيما يبدر منهم قولا أو حركة . فالمسرحية ، بحكم ما تقدم ، عمل أدبى ، له صيغته الشكلية وله صيغته المعنوية ـ وهى الجوهرة والصميم ـ والشكليات كما هو معلوم تأتى بعد المعنويات فى القيمة والأهمية ، كالابدان من الارواح ، والثياب من الاجسام .. فاذا أتفق جمال الأسلوب مع شرف المعنى وتماثل بهاء الصيغة الشكلية ببهاء الصيغة المعنوية ، وكان الكاتب مبتدعا لا متبعا ، فهنا التأليف المسرحى فى نسقه النابغى العالى . وقد تم لشكسبير كل هذا فى مسرحياته ، وكان فيها مبتدعا لا متبعا

ومواطن الابتداع فى مسرحياته من حيث القالب ونظام مشاهدها ، كثيرة متعددة فقد حطم القيد الذى كان مقيدا به مؤلفو اليونان والرومان ومن تبعهم من معاصريه ، فى أن تجرى حوادث الرواية وتتابع مشاهدها فى نهار وفى مكان واحد ، خرج على هذه القاعدة التى ابتدعها الذهن الاغريقى ، وفرضت طابعها على الأدب المسرحى مدى ألف وسبعمائة عام ، ولم يتنبه المتبعون لهذه القاعدة الى ما للزمن ومر الايام من أثر نافذ فى تطور الناس والحوادث

كانت المسرحية فى ذلك النظام المقيد بوحدتى الزمان والمكان ، لا تسع غير تقديم عقدة الموضوع وجوهره ، وقد مهد لها بمشاهد قليلة تركزت فيها العناصر التى يتألف منها الجوهر ، ثم سرعان ما تبلغ الأزمة النفسية لدى أشخاص الرواية ذروتها ليقضى فيها بحل ونهاية . يجرى موضوع المسرحية على هذا النظام المقيد من غير أن يرسم له بالحوادث والفعال المراحل التى هيئت لقيامه وتدرجه ، ومن غير أن تصور الظروف التى لابست أشخاص الرواية حتى تجعلهم يصدرون من أقوالهم وفعالهم ما يصدرون ، ومن غير أن يجعل للزمن ، وهو مكيف الحوادث ، المجال الطبعى المألوف الذى تنضج على كره عناصر المأساة أو الفكاهية .. كان المسرح والحالة هذه متنقل ألوان نفسية غمرتها أشعة الشمس وهى تجرى لمستقر لها فى حالة جوية واحدة

وبخروج شكسبير على هذه القاعدة ، أصبحت المسرحية على يديه فصولا متعددة ومشاهد متلاحقة غير مقيدة بزمان أو مكان ، تجرى وتتعاقب لابراز شخصيات الرواية من غير عنت أو افتعال ، تجرى وكأنها سيل من الحياة الدافقة تتلاحق أمواجه لتترامى على هدف معين مرقوم

كذلك نهج شكسبير نهجا جديدا فى الاسلوب اللغوى الذى يكتب به حوار الرواية ، فبعد أن كان مقصورا كتابته على الشعر الموزون المقفى ، أصبح على يديه ، تارة شعرا مرسلا (Blank Verse) وتارة أخرى شعرا ونثرا واضحا بينا . وبهذا تحررت المسرحية من قيد بيانى كان يحد من انطلاق الذهن وتحليق الخيال فى أوسع مجالاته

بهذا قلب شكسبير الاوضاع الشكلية للمسرحية ، فكان الاول فيما فعل ، وعنه أخذ كتاب القارة الاوربية فى القرن التاسع عشر

أما من حيث الجوهر والموضوع ، وتقويم الاشخاص تقويما نفسيا صادقا ، فقد دأب شكسبير على أن يعالج القيم الانسانية الدائمة والحقائق الثابتة ، ولم يكن يعنى بما يختلج به عصره من خواطر وسوانح مستمدة من مشكلات بيئته فى مختلف نواحيها الاجتماعية، الا بالقدر اللازم لتستقيم الصبغة المحلية لحوادث الرواية ، لان هذه أشياء مهما بلغ خطرها فى زمنها ، فليست بالامور الثابتة ، لانها أعراض اجتماعية لا تقيم على حال . ومن المعلوم أن ما يشغل أذهان عصر من العصور من عاديات الحياة ومشكلات البيئة ، لا تأبه له أذهان العصر الذى يليه ، لان الذوق حول ، والنظرة الى الاشياء تتحور وتتبدل ، وشأنها شأن

الازياء التى لا تلبث على صورة واحدة ، أما الثابت الخالد من الحقائق فى العمل الادبى ، فهو ما اتصل بالنفس البشرية ، وما امتدت أعراقه فى الفطرة الانسانية ، لان النفس خالدة والانسانية باقية على الزمن وعلى اختلاف المكان. والنفس والانسانية فى المسرحية يتمثلان فى أشخاصها من ناحية تقويمهم فى أصدق تقويم نفسى لكل منهم

فى مدى ثمانية وعشرين عاما ، استطاع هذا العبقرى شكسبير ، أن يجعل المسرحية الانجليزية تحيط بالحياة البشرية احاطة شاملة ، فمسرحياته بمآسيها وفكاهاتها ومهازلها هى سفر القلب الانسانى الذى لم يتغير ولن يتغير . ففى مآسيه المعروفة يوليوس قيصر وهاملت وعطيل ومكبث والملك لير وأنطونيو وكليوبترا وكريولينياس وتيمون الاثينى وروميو وجوليت ، فى هذه المسرحيات صور شكسبير غرائز الكائن الانسانى ملجمة بلجام العقل ، ثم ، وهى جامحة محطمة اللجام .. أحاط بالآثام البشرية ، ورسم مسير القدر وهو يهدف الى غرضه ، صور مصارع الجريمة والخيانة ، الطمع والترف والكبرياء ، غليان الحسد وثورة الغيرة ، يقظة الحس ومحاسبة الضمير ، الجحود وقسوته ، الضعف ومحنته ، جلائل العظماء وتفاهات المعوزين ، الحب كأسا شهية والحب كأسا تورد موارد الهلكة

▭

وتمثل هذه المسرحيات وغيرها من مؤلفاته فى كل زمان ومكان ، فاذا الدنيا ممثلة بحقائقها ، بكلياتها وجزئياتها ، فى صحوها وكدرها ، فى خيرها وشرها ، ثم يعاد تمثيلها وقد يعاود القارىء تلاوتها ، فاذا هو دائما أمام متعة لا تبلى جدتها ، وتفكير تمتد آفاقه على التأمل والنظر ، تتراءى لنا فى ظلاله مواكب انسانية تتوالى أفواجها موفورة الاحساس بالحياة ، جياشة بصدق العاطفة ، بل ان العين لتقع على أشخاص بينها لا تنكرها لسابق معرفة بها فى الحياة الواقعية ، فكأن شكسبير ، فى كشفه الدقيق عن دخائل النفس فى مختلف النماذج البشرية ومنازعها ، يريد أن يحيطنا علما بالحياة ، بل هو يريد أن يعرفنا أنفسنا ، يعرفنا ماهية الفطرة الانسانية التى نعرفها ولا نستطيع تعريفا لها ، ونحسها ولا نقدر على شرح ماهيتها

ومرجع هذا كله لدى شكسبير أنه وهب النظرة الكاشفة التى تنفذ الى أعماق فى النفس لا تصل الى أغوارها نظرة أخرى ، ومرجع هذا أيضا القدرة على التحليل النفسى الصادق ، والمقدرة على الابتداع والخلق

وهكذا ابتدع شكسبير مذهبا فى كتابة المسرحية ، فرض طابعه على الزمن ، وتابعه فيه من جاء بعده من الكتاب والشعراء . هذه ناحية من نواحى عظمة شكسبير ولا أدل على اعتراف الناس بها من أن الأمم الراقية ، تذكر كل عيد من أعياد ميلاده بما يجب له من التكريم والتبجيل ، وها نحن أولاء نحيى ذكراه على قدر ما وسعتنا ظروف الزمن الذى نعيش فيه ،

زكى طليمات

اطعام أوروبا الجائعة

عند ما تقف رحى الحرب مع ألمانيا يكون خير جزء فى أوربا على شفا المجاعة ، وسيبقى أمدا طويلا عاجزا عن تفادى هذه المجاعة بانتاجه الذاتى

فعند ما بدأت هذه الحرب فى سنة ١٩٣٩ ، كانت حقول أوربا أقل خصوبة وانتاجا منها فى سنة ١٩١٣ ، أى أن الحرب الماضية ظلت أكثر من ربع قرن ذات أثر سىء فيما تنتجه الارض من غلال وطعام ، وفيما تنتجه ماشيتها من ألبان ولحوم . وكذلك الامر فى سائر الحروب ، ففى سنة ١٨٨٦ لاحظ أحدهم أن الفلاحين الروسيين فى منطقة سمولنسك ما برحوا يعانون من جراء حملة نابليون التى وقعت فى سنة ١٨١٢ . فالانتاج الزراعى لا يعود الى سابق أمره عقب انتهاء الحروب ، بل بعد قيام السلم بسنين طوال

وآثار الحرب القائمة أعمق وأدهى من آثار أية حرب سابقة، فجميع أقطار أوربا تقريبا قد عانت من الاستغلال والاجاعة ما لم تعانه من قبل ، اما لانها كانت مسرحا من مسارح هذه الحرب المخربة ، واما نتيجة ما امتد اليها من أيدى غزاتها الالمان . فلا جرم أن يقدر أحد كبار علماء الزراعة الانجليز ، المعنيين الآن ببحث الوسائل والانظمة التى تكفل اطعام أوربا الجائعة ، بأن هذه القارة ستظل فى حاجة الى تموينها بالطعام مدة لا تقل عن ستة عشر عاما من تاريخ الهدنة القادمة

فما هى العدة التى اتخذت لدرء هذه المجاعة فى سنوات الشدة التى تتوقعها أوربا ؟

أما الخطوة الاولى فهى تموين كل قطر يتم تحريره من أيدى الالمان بكميات من الطعام جمعت وخزنت فعلا . ولكن هذا اجراء جزئى ومؤقت يراد به اسعاف الشعوب الاوربية التى أنهكها الحرمان واضناها الاستغلال عددا من السنين . أما ما هو أهم وأجدى من ذلك ، فهو امداد المزارعين فى كل بلد أوربى بالوسائل التى تمكنهم من انتاج أكبر وأجود كمية من الطعام

وهذا هو الامر الذى يعنى به الحلفاء الآن ، وقد أقاموا لهذا مؤسسة خاصة فى انجلترا لتتولى تحقيق هذا الغرض . ولم يذكر ولم يكتب شىء كثير عن هذه المؤسسة . ولكن من المحقق أن العمل الذى نيط بها عمل هائل لم يسبق له مثيل فى التاريخ

فبعد الحرب الماضية ترك أمر اطعام أوربا ، التى كانت على شفا المجاعة ، للجهود الفردية ، تبذلها كل أمة على قدر طاقتها ، ويبذلها كل مزارع حسب ما يتسع له زرعه . فكانت النتيجة ضئيلة وبطيئة بحيث لا يصح تكرار ما حدث مرة أخرى . ولهذا لن يكون

الاعتماد فى هذه المرة على الجهود الفردية ، بل على الجهود الاجماعية المنظمة المنسقة ، هذه الجهود التى يشترك فى وضعها واعدادها عدد كبير من علماء الحلفاء وخبرائهم الذين يتألف منهم « مكتب الحلفاء لمطالب ما بعد الحرب » . ويرأس هذا المكتب أحد كبار العلماء الانجليز ، هو سير فردريك ليث روس ، ويتألف من أقسام شتى يختص كل منها بناحية من نواحى التعمير والانشاء اللازمة لاوربا المخربة المهدمة . ويرأس القسم الخاص بالزراعة والطعام سير جون رسل الذى أمضى سنين طويلة مديرا لمحطة روثامستد ، وهى أقدم وأفضل المحطات الزراعية فى أوربا ، والتى كانت نموذجاً احتذته فلسطين وكذا واستراليا فى انشاء مزارعها الحديثة ، والتى تضم نخبة من العلماء والطلاب الموفدين من أرجاء العالم الزراعية

وستكون بداية أعمال هذه المؤسسة انشاء مكتب فى الشرق الاوسط لدراسة شؤون الانتاج الزراعى فى متسع من الارض أكبر مساحة من أوربا كلها ، اذ يشمل مناطق الشرق الاوسط وشمال افريقية جميعا . وسيكون من عمل هذا المكتب اسداء النصيحة وابداء المشورة لحكومات هذه المنطقة فى كل ما يؤدى الى زيادة انتاجها وتجويده

ودراسة هذا المكتب لا تقتصر على التربة والمناخ والموقع الجغرافى فحسب ، بل تتناول كذلك عادات الشعوب وامكانياتها الخاصة بها . فان لهذه العوامل أثرها فى مقدرة بعض الشعوب على انتاج أنواع من الغلال أو تربية أنواع من الحيوان دون أنواع أخرى . ويكفى أن نذكر هنا تحريم الدين الاسلامى أكل لحم الخنزير ، وأثر ذلك فى صرف الشعوب الاسلامية عن تربية هذا الحيوان الذى يعد من الوجهة التجارية حيوانا مربحا

ويجب أن نذكر أن الالمان أتقنوا طرق استغلال الاراضى التى احتلوها ، ولن يخلوها يوم يأتى تحريرها الا بعد أن يتركوها عاجزة عن النهوض من كبوتها بغير جهد جهيد . خذ مثلا ما يعملونه لاستنفاد ما فى أوربا من الثروة الحيوانية . فانهم يرسلون الى ألمانيا خير ما فى أوربا من ذكران الحيوان ، من الثيران والخراف وذكور الخنازير . وذلك لتجود سلالات الحيوان فى بلادهم بينما تسوء وتنحط فى سائر أوربا . وستكون هذه مشكلة من مشاكل تعمير أوربا ، فليس من السهل ان تستورد أوربا كل ما يلزمها من الحيوان الطيب لانشاء سلالات جيدة ، فالثور مثلا يزن طنا كاملا ، فهل استيراد ملايين الثيران من أمريكا أو من آسيا ، لو فرض توافرها ، بالامر اليسير ؟

فللتغلب على هذه الصعوبة يجب الاخذ بالطرق العلمية فى تلقيح اناث الحيوان تلقيحا صناعيا . وقد اتبعت هذه الطريقة فى روسيا فأدت الى نجاح كبير ، وأخذ بها كثير من أقطار أوربا ، وان ظلت جمهرة الزراع الانجليز تنكرها بدعوى أنها مناقضة لقوانين الطبيعة . ولكن ما تعانيه أوربا من نقص وضعف فى انتاجها الحيوانى ، بعد استيلاء ألمانيا على خير ما فى بلادها من ذكور الحيوان ، سيجعل هذا التلقيح الصناعى ضرورة لا محيص عنها

وهكذا نجد أن مؤسسة « مطالب ما بعد الحرب » تواجه مطلبين مهمين : أولهما تموين أوروبا على عجل بما يلزمها من الطعام ومن الاسمدة والبذور ومن الآلات الزراعية، وذلك صدا لتيار المجاعة التى يتهددها بأنكى الاخطار . وثانيهما وضع سياسة طويلة الأمد تجرى عليها شؤون الزراعة والانتاج فى أقطار أوروبا كى تستعيد أرضها خصوبتها السابقة ويستعيد حيوانها قدرته على انتاجه الوفير

ولا شك فى أن الجزء الاكبر من هذه المهمة واقع على عاتق أمريكا . وعند ما يقول تشرشل وروزفلت ان المستقبل يقتضى بقاء التعاون والتحالف بين بريطانيا وامريكا ، فانهما لا يعنيان ضرورة ذلك فى ميدان السياسة فحسب ، بل فى شتى الامور التى تؤدى الى قيام عالم آمن رخى ، وأول هذه الامور هو اطعام الشعوب الجائعة والباس الأمم العارية

وللامريكيين خبرة سابقة فى اطعام أوروبا عند ما تأزمها الشدائد ، كما أن لهم يدا كريمة فى ترقية الزراعة الاوربية وتجويدها . وفى بلجيكا آلاف وآلاف من الناس يدينون بصحتهم ، بل بحياتهم ، للرئيس هربرت هوفر ، الذى أرسل اليهم عبر الاطلنطى ما أنقذهم من الجوع الذى هددهم بالهزال والوباء والفناء منذ بضع سنين . أما تقدم أوروبا السريع فى مضمار الزراعة العلمية ، وعلى الاخص فى استخدام الآلات الزراعية الحديثة، فيرجع فضله الى ما استخدمته معاهدها ومصانعها ومزارعها من مئات المهندسين الامريكيين، الذين نشروا بين الاوربيين وسائل الانتاج الحديث ، ودربوهم على استخدام آلاته وأدواته ، وقد كان أغلب زراع أوروبا الى عهد قريب ، ينكرونها ويعرضون عنها ، ويؤثرون أن يسيروا فى عملهم وفق ما ورثوه عن أسلافهم الاقدمين ، وذلك أن البيئة الزراعية بيئة محافظة ، لا يسهل عليها ترك تقاليدها وتغيير أنظمتها ، الا بعد جهد ومصابرة

فأمريكا اذن هى أولى الأمم مسئولية عن اطعام أوروبا الجائعة . ولها من انتاجها الزراعى والحيوانى الهائل ما يمكنها من مد يد المعونة العاجلة لشعوب أوروبا حالما يرتفع عن عاتقها نير الالمان . ولها بعد ذلك من مصانعها الهائلة ما يمكنها من أن تمد مزارع أوروبا بمختلف الآلات الزراعية التى ترقى بمستوى الزراعة الاوربية رقيا عاجلا . ولكن كل شعب زراعى من شعوب العالم مسئول عن المساهمة فى هذا العمل على قدر طاقته ، حتى يستقر الامر وتعود أوروبا قادرة على اطعام نفسها مما تنتجه أيدى أبنائها

(عن مقال لسير بيتش توماس الخبير الانجليزى فى شؤون الزراعة بصحيفة بارد)

قصة نبيلة انجليزية سحرها الشرق بفنونه واسراره وجذبها اليه
من أقصى المعمورة فاتخذت لها شبه مملكة فى ذرى جبال لبنان ،
تحلم بأن تعيد عهد الزباء ملكة تدمر وتحيا فى عالم خيالى مثالى

ليدى هسترستانهوب

ملكة الصحراء وناسكة الجبل

بقلم الأستاذ محمد امين حسونة

كان القرن التاسع عشر عصر الفروسية والبطولة ، والشغف بالمغامرات فى سبيل الظفر بالمجد أو الحب ، كما كان عصر القلاقل والثورات الاقتصادية والفتن السياسية التى تمخضت عن الحروب النابليونية

فى ذلك الحين مل الناس حديث الحرب وبرموا بالسياسة ، وطغت عليهم موجة من التعاليم الصوفية ، وسرعان ما انبثقت فى الجو الفكرى حركة واسعة النطاق ترمى الى الهجرة الروحية ، وبخاصة الى الشرق ، مهد الانبياء والمرسلين ، والنفوذ الى أسراره

ملكة الصحراء

لم تكن روح المخاطرة والهيام بالشرق وحدها السبب فى تكشف مصير سيدة انجليزية نبيلة هى ليدى هستر ستانهوب التى قضت معظم حياتها متنقلة فى ربوع الشرق ، بل كان لشذوذ أطوارها وسعيها فى طلب المجد نصيب وافر فى ذلك

كانت تحلم بأن تغدو ملكة ... وهناك فى ربى لبنان وفوق ذرى جباله الشامخة وعلى مقربة من أغصان الزيتون وأشجار التوت وعرائس الكروم ألقت عصا التسيار ، معتصمة بمأوى لها فوق أكمة صعبة المسالك . كانت تنفق عن سعة وتبذير ، وتحيا حياة ملؤها الابهة والعظمة كأميرة من أميرات الاساطير ، يحوط بها أتباعها وحشمها ، ويفد عليها فى المساء سمارها من الدروز واللبنانيين والعرب ، فتقضى زلفا من الليل تقص عليهم ذكريات طلية عن أيام عزها ومجدها ، ودنياها العظيمة التى خلفتها فى ربوع وطنها — انجلترا — ودولتها العامرة التى لم تدم سوى أعوام قلائل

على أن حقيقة هذه السيدة ظلت غامضة ، محوطة بالشك والغرائب ، فمنهم من كان يقول انها عرافة ، تقرأ سطور الغيب وتستطلع النجوم وتلم بفنون السحر ، ومنهم من يذكر أنها ناسكة ، عافت نفسها تسرب الروح المادية الى الغرب ، فجاءت الى الشرق

تطلب الغذاء الروحي وتنشد الاحلام وتحيا فى عالم خيالى مثالى ، وهناك من بين المؤرخين من نعتها بأنها كانت امرأة مخبولة ، وأن بعقلها لوثة من الجنون ، وأنها جاءت الى الشرق على أثر حب فاشل

من هى ليدى ستانهوب؟

نشأت هستر لوسى ستانهوب فى بيت ارستقراطى عتيق ، اذ انحدرت من أصلاب دايموند بيت أحد حكام الهند ، وقد عرفت عنه صفات متنافرة منهـا القسوة والرحمة والجبروت والعدل والصلابة واللين الى جانب الشذوذ فى الطباع والتباين فى الاخلاق فأورث أبناءه وأحفاده صفاته الشاذة . وكان والدها شارل كونت ستانهوب من كبار العلماء فى عصره ، ولـكن على غرابة وشذوذ فى الخلق والطبع ، وغلو فى المبـادىء الديمقراطية الى حد أنه وهو من النبلاء كان يحرم قرينته من أسباب الرفاهية والهناء

وولدت هستر فى ١٢ مارس من عام ١٧٧٦ فى ذلك البيت الذى لم يقبل السعد عليه بوجهه ، وقد توفيت عنها أمها وهى فى الرابعة من عمرها ومضت لتعيش مع جدتها لامها ــ ليدى شاتهام ــ فى سومسرت شيت . وكان خالها وليم بيت قد تولى دست الوزارة البريطانية ، وكان يعيش أعزب ، فدعاها لتقيم معه فى الدار رقم ١٠ بدوننج ستريت ــ مقر رياسة الوزارة ــ وهناك ابتسم لها وجه الدهر فعاشت سعيدة منعمة ، فى كنف خالها الذى قامت على رعايته محاطة بكل ما يبهر الابصار ويملأ أجواز الفضاء بهجة وضياء فى دنيا السياسة وعالم الادب والفنون الجميلة ، لذلك عنت لها الوجوه الكريمة فى المجامع الراقية وراح الناس يتقربون اليها زلفى . وكانت طويلة القامة ، ترعاء ، تكاد تشرف على سمارها من علياء قوامها ، ذات وجه فاتن ، وبشرة متألقة البياض ، وكانت لا تلبس من الحلل المطرزة والغلائل المرصعة الا أحلاها وأغلاها ، وكان لها من حسن السبك وبراعة المنطق وسرعة الخاطر والذكاء الحاد ما يخلب اللب ويقرع السمع ويأخذ بالالباب، وفى الاجمال ، كان لها من قدها الساحر وقوامها العادل وقريحتها المتوقدة ما يجعلها فى غنى عن أى شىء آخر ، فاذا أضفنا الى هذه الصفات المشتركة حب خالها لها حبا يكاد يقرب من العبادة ، وما كان له من مكانة مرموقة وشأن رفيع فى الامبراطورية كأعظم رجل يخطر على أديمها فى ذلك الوقت ، سهل علينا أن ندرك السر فى تودد الناس لها

على أن ليدى هستر كانت كما ذكرنا ، ذات أطوار غريبة وطباع متقلبة ورثتها عن آبائها ، فكانت لاذعة الحديث ، تقول ما تعتقده فى وجه أى انسان ، حتى أنه قل من نجا من عقرب لسانها ، وكانت معتدة بنفسها الى حد أنها رفضت جميع الذين تقدموا لطلب يدها للزواج ، وأعيا خالها التفكير فى تدبير زوج يليق لها ، والظاهر أنه لم يوفق الى بغيته ، بدليل أنه قال مرة : « ان ابنة اختى تترقب الزوج المنشود الذى له مثل حدة ذكائها وتوقد قريحتها ، واذن فلن تعثر على هذا الزوج مطلقا » . ولم تكن قد تزوجت بعد

الى سن الثلاثين ، فأجرت عليها الحكومة معاشا سنويا قدره ١٢٠٠ جنيه ، وهو أعظم معاش منح الى امرأة فى الامبراطورية

وفى هذا العام توفى وليم بيت ، فقد نزلت به علة أثناء حروب نابليون أوهنت جسمه وضعضعت كيانه ، ثم جاء نبأ انتصار الفرنسيين فى موقعة استرليتز ، فقضى عليه ذلك النبأ القضاء المبرم ، اذ دخل منزله ولا تكاد ساقاه تقويان على حمله ، ونظر الى مصورة أوربا معلقة على الحائط ثم قال لمن حوله يأمرهم بطيها ، ومستطردا : « لا حاجة للناس بها فى السنين العشر المقبلة » . ولم يكد يمر عليه عشرة أيام حتى قضى نحبه فى اليوم الحادى عشر تاركا وراءه ابنة اخته هستر وليس لديها من الثروة ما يجعلها فى عداد الاغنياء ، وليس فى خلقها ما يجعلها تعيش عيشة انزواء واستكانة بعد حياة البذخ والترف والابهة والعظمة ، فذهبت لتعيش فى مقاطعة ويلز ، وهناك فجعها الدهر أيضا بموت صديقها الحميم سير جون مور الذى كان من المحتمل أن يقترن بها لو لم تعاجله المنية وهو فى ديار الغربة

وكان قد خلف وليم بيت فى منصبه خصمه السياسى شارل فوكس ، أعظم خطباء انجلترا فى ذلك العهد ، فعرض على ليدى ستانهوب مبلغا من المال فرفضته فى اباء وشمم مؤثرة العوز على مساعدة الخصم ، وجمعت ما تبقى من ثروتها ومجوهراتها وقد طرأت على ذهنها فكرة السياحة الى الخارج ومغادرة وطنها

الى الشرق . . .

لم يكن هناك ما تأسف عليه ليدى ستانهوب فى انجلترا ، ولا ما يستهويها فى البقاء بين ربوع وطنها بعد أن توفى خالها وفقدت خطيبها وتنكر لها أصدقاؤها ، لذلك لما أقلعت بها الباخرة فى ميناء بورتسموث فى ١٠ فبراير عام ١٨١٠ كان فى عزمها ألا تعود الى وطنها مرة أخرى

كانت لا تزال فى ميعة العمر وريعان الصبا ، بالغة من العمر اربعة وثلاثين عاما ، وكان ما أصابها من البأساء والضراء من شأنه أن يجعل شخصية ذات كبرياء وخيلاء كشخصيتها ناقمة على الحياة وما فيها

وقد يممت فى بادىء الامر شطر جزيرة صقلية ، واستصحبت خدما وأتباعا كثيرين ، مما أعاد الى الاذهان صورة من عهود الاقطاع حين كان يخرج الامير للصيد والقنص فى حاشيه ضخمة وموكب حافل ، وكان فى جملة حاشيتها صديق يدعى ناسو سوتون عرفته حين كان يتردد على دار خالها فى داوننج ستريت ، وشقيقها جيمس ، وطبيبها الخاص مريون ، وسكرتيرها الخاص ميشيل كراوفورد بروس ، وبضعة أشخاص آخرين. فقضت نحو ثلاثة أعوام تجوب أنحاء البحر الابيض المتوسط وبرفقتها حاشيتها ، متنقلة بين جزره وسواحله ، غير آبهة بالحرب التى كانت مشتعلة بين انجلترا وفرنسا ، لان

فكرة الحرب يومئذ كانت أقرب الى قواعد المدنية مما هى عليه الآن ، وكان فى وسع الفرد الفرنسى العادى أن يجتمع بالفرد الانجليزى على قدم المودة ، برغم الحرب المشتعلة بين الدولتين ، وكان من ضيق الفطن أن يحاول سفير بريطانيا فى الاستانة الاعتراض على محاولة ليدى ستانهوب أن تتفق مع القائم بأعمال المفوضية الفرنسية بالاستانة على أن يسمح لها بزيارة فرنسا ، وقد كتب مريون طبيبها الخاص فى ذلك يقول : ان روح الحزبية يغالى فى تطبيقها هنا لدرجة لا تعرف فى أية محكمة أوربية، حتى أن أفراد الشعوب المتحاربة محرم عليهم تحريما باتا الاختلاط بعضهم بالبعض ، بيد أنه لا يعمل بهذا فى أوساط الرجال الديبلوماسيين فقط ، أما فيما عدا ذلك فقد كانت الجاليات المتعددة من التجار الاوربيين تجتمع للتزاور وعلى مائدة واحدة بطريقة ودية فى خلال مدة الحرب ، كما كان الشأن فى مدينة حلب

ومهما يكن ، فانه لما أخفقت فى مسعاها بالحصول على اذن يخول لها الحق فى زيارة جنوب فرنسا ، حولت وجهتها شطر وادى النيل هى ومن معها ، فابحرت من الاستانة بيد أن عاصفة عاتية هبت على المركب وهى فى خليج ماكرى ، على طريق كارامانى قبالة جزيرة رودس ، واصطدم المركب بصخر على مقربة من الشاطىء وكادت تغرق، فانقذت باعجوبة وفقدت متاعها الا قليلا . وكان أول ما فكرت فيه أن ابتاعت ثوبا شرقيا فاخرا بمائتين وخمسين جنيها ارتدته خصيصا عند زيارتها الباشا التركى حاكم الجزيرة ، الذى أقام بدوره حفلة استعراض عسكرى تكريما لها بعد أن أهداها أحد كرائم الخيل المطهمة، وقوبلت بحفاوة بالغة من سكان الجزيرة العثمانيين ، ومن ذلك الحين هجرت الزى الاوربى ولم تعد تلبس سوى اللباس الشرقى ، وكانت تبدو فيه كخاتون فاتنة من الخواتين اللواتى حكمن الشرق

ولما وصلت الى القاهرة ، ابتاعت ومستر بروس ملابس فاخرة ، وزارت محمد على فى قصر الجوهرة ، وخرجت اليه فى موكب حافل فوق صهوة جوادها ، ولقد دهش عند ما وجد نفسه أمام سيدة انجليزية من الطبقة الراقية ترتدى ملابس الرجال ، فقد كانت ليدى ستانهوب فى زى « باى » تونسى ، وراحت تتحدث اليه عن وجوب ربط مصر بالشرق بمواصلات سريعة عبر صحراء السويس ، ليتمكن المسافر الاوربى من الوصول الى الهند فى رحلة أقصر اذا ما اتخذ طريق رأس الرجاء الصالح

مقابلتها للشاعر بيرون

عند ما وصلت ليدى ستانهوب الى بيريه باليونان ، تقابلت مصادفة مع لورد بيرون الشاعر الانجليزى المعروف ، وكان فى طريقه الى ميسولونجى ، ليدافع عن قضية الحق والحرية . وليس من العجيب أن يجتمعا على رقعة من الارض فى بلاد الغربة ، ولكن الاعجب أن تستمر مقابلتهما فترة قصيرة لم يسترح فى خلالها أحدهما لصاحبه ، ولم

يتبادلا عبارة واحدة من عبارات العطف والمودة ، مع وجود وجوه شبه كثيرة تربطهما معا

فكلاهما شريف المولد ، أرستقراطى النشأة ، لم ينعم بطفولة هانئة ولا بشباب سعيد

وكلاهما حبته الطبيعة عقلا نيرا وذكاء خارقا ، وأفرطت فيما حبته من الاحساس والشعور ، لذلك نشأ مغاليا فى كل شىء متطرفا فى أخلاقه وعاداته ، متمسكا باخطائه

وكلاهما فشل فى مشروع حبه الاول واصطدمت مشاعره بصخور الحياة ، وآلمته تقاليد المجتمع العنيد المتعجرف فهجر وطنه ليتذوق أفاويق المجد والسعادة فى بلاد الغربة ، وينفق عن سعة وتبذير ، وحوله حاشية من الخدم والاتباع

فقد أفاد بيرون قضية البلد الذى حل به فائدة مزدوجة ، ونعنى بها اليونان ، فحمل معه معظم ثروته وكرس هذا المال لخدمة الحرية واستعادة استقلال اليونان

وكذلك ليدى ستانهوب فانها أنفقت ثروتها برمتها على الدروز لمساعدتهم على نيل استقلالهم ومقاومة الحكم المصرى

فى الاراضى المقدسة

غادرت ليدى ستانهوب وادى النيل فى مايو عام ١٨١٢ على مركب شراعى مصرى ميممة شطر يافا ، فزارت الاماكن المقدسة ، وتصدقت على الفقراء والمعوزين ، ومن ثم رحلت الى سوريا ، وهناك شعرت كأنها فى وطنها وبين ذوى عشيرتها ، وقد احتفى بها الامير بشير أمير الجبل ، وأحسن وفادتها فى قصره ببيت الدين ودعاها بابنته ، وكانت تركب الى دمشق سافرة الوجه ترتدى ملابس المسلمات ، غير حافلة بكلمات التحذير التى كانت تسمعها ، ثم أقبلت على تعلم اللغة العربية ودراسة آدابها ، وأخذت تختلط بأفراد قبيلة بنى عنيزة واصطفت منهم بعض الاصدقاء كانوا لها خير عون ، وما عتمت أن صارت قبلة الانظار وموضع التكريم والاعتبار من الوالى والمشايخ وحام الاهالى حولها

وكانت أمنيتها أن تبلغ الى تدمر لتعيد هناك عهد الزباء ، وكان الطريق الى تدمر وعرا شاقا ، لم يطرقه أحد من مئات السنين ، فاستعانت بالقبائل والعشائر على تذليل هذه العقبات

ولعل اللحظة التى خرجت فيها لزيارة تلك المدينة التاريخية كانت أسعد لحظات حياتها فى الشرق ، فقد حمل زادها من طعام وماء وخيام ومتاع على أربعين جملا ، وخرج معها عشرات البدو يحرسونها وعلى رأسهم أكبر أنجال الامير بشير ، أما حاشيتها هى فكانت تتألف من خمسة وعشرين فارسا ، يحملون الرماح الطويلة المزينة أطرافها بريش النعام الجميل ، وقد استرسلت خصل شعرهم المفقض على أكتافهم . ولما بدأ موكبها يتحرك من مدينة حماه خرجت الالوف المؤلفة من الناس واحتشدت على طول طريقها الى مسافة فراسخ ليكحلوا أعينهم بذلك المشهد الرائع ، وكان ازدحام الناس شديدا حتى أن فرقة الانكشارية التى بعثها الحاكم لتتقدم الموكب لقيت صعوبة فى افساح الطريق لها

ولم يكن الوصول الى تدمر فى ذلك العهد من الامور الهينة ، بيد أن ليدى ستانهوب وثقت بالبدو ثقة عمياء ، ووجدت أنها بعملها هذا اكتسبت مودة رجال أولى قوة وذوى بأس شديد وكانوا خير عون لها

ومضت القافلة أياما وأسابيع ، ولما هبط الليل وصعد القمر يتوسط القبة الزرقاء ، تراءت من بعيد جمهرة من الخرب فأشار الادلاء اليها هاتفين : تدمر ، تدمر . فقد كانت تلك الخرب الجبارة معجزة الصحراء ، هناك استولى عليها ذهول غريب واستسلمت الى أحلام عذبة مجهولة ، وكان الموكب قد وصل قبالة تلك الخرب فقضت الليل وهى شبه مذهولة ، أمام السحر المنبثق من أطوادها الساحقة وعمدها الرخامية وتماثيلها المطروحة على الارض ، وكنوزها الشعرية المطمورة ورسومها وأنقاضها ، فتضاءل أمام هذه التحف الفنية الخالدة التى لم يغير الزمن من لونها وبهائها الاعجاب بتماثيل ولوحات روفائيل وميشيل انجلو وغيرهما من فنانى المدنية الحاضرة

وكتبت ليدى ستانهوب الى أصدقائها فى انجلترا تصف هذه الزيارة فى رسائل تفيض شعرا وسحرا ، وتقول انها توجت فى تدمر ملكة على الصحراء

وفى عام ١٨١٤ ذهبت لتقيم فى دير « مار الياس » على التلال الواقعة فى ظهر مدينة صيدا ، ولم تغادره الا بعد ست سنوات او سبع عندما ابتاعت قصر الجون وحدائقه الغناء فغدا لها مأوى ومستقرا فى ذلك الحين . وهناك فى ربى لبنان وفى ذلك القصر القائم بين بساتين مغروسة بالزهور والفواكه والكروم ، والمتناثر فى أركانها الجواسق المحلاة بالنقوش العربية والنافورات التى يتدفق منها الماء عذبا صافيا ، عاشت ليدى ستانهوب حياة ملكة شرقية حاكمة بأمرها ، وحولها طائفة من المترجمين الاوربيين والعرب والوصيفات والخدم والعبيد، وكان لها مخبرون يأتونها بالاخبار من كل فج عميق، وحسبنا أن نستشهد بما كان لها من دولة ونفوذ وسلطة واسعة أن الانصارية لما فتكوا بالرحالة الفرنسى بونتن على مقربة من اللاذقية ، كانت هى التى سعت الى احضار القتلة والمذنبين الى مقصلة العدالة ، وقد كتبت فى ذلك تقول : « لقد اضطررت الى استغلال مهارة هؤلاء المخبرين العرب فى الحصول على مآربى ، اذ لم يكن ثمة من يجرؤ على التجسس سواهم ، وقد أمر الباشا بارسال فرقة من الجند ، وأصدر أمره بمنحى ما أطلبه أنا ومن معى من العون مهما يكن . لذلك أمرت ترجمانى أن يستصحب معه بعض الفرسان متوجها الى بلاد الانصارية من ناحية أخرى ، لانها بلاد وعرة يصعب ارتيادها ، وانى أرجو الحصول على بعض تفصيلات عن الحادث ، لانى لم أتعود اليأس مطلقا »

وفى الوقت الذى لم يهتم فيه السفير الفرنسى فى الاستانة بأمر القتيل الا قليلا ، نجحت ليدى ستانهوب فى الحصول على خمسمائة رجل من الرجال الاشداء من قبل حاكم عكا وحاكم دمشق ، وبعد تفتيش دقيق أمكنها اكتشاف القتلة وتقديمهم للمحاكمة

بينها وبين الشاعر لامرتين

خلف لنا لامرتين فى مؤلفه الثمين « رحلة الى الشرق » صفحات برمتها عن ليدى ستانهوب ، وقدم الينا صورة فذة عن حياتها وأفكارها ومعتقداتها ، وكان الشاعر أثناء سياحته فى الشرق قد اتصل به نبأ هذه السيدة الغريبة الاطوار، وكان يسمع أنها لا تستقبل فى مقرها طبقة الرحالين الاوربيين لا سيما الانجليز منهم ، فكتب اليها رسالة رقيقة تفيض عذوبة ، يرجوها فيها أن تأذن له بمقابلتها ، وبعد لأى أجابته الى طلبه ، فشخص اليها فى رفقة نفر من الاتباع والادلاء وقد حرص الشاعر على أن يدون الاحاديث التى دارت بينه وبينها بحذافيرها ، ولنتركه يصف هذه الزيارة :

« نهضت ليدى ستانهوب عن مقعدها الشرقى ، وتقدمت نحوى بقوامها الممشوق ، ثم بسطت يدها وقالت :

ـ ها قد جئت من بعيد لتزور ناسكة فمرحبا بك . اننى قلما أستقبل الغرباء فى دارى، على أن رسالتك راقتنى ، فوددت أن أتعرف الى رجل يعبد الله ويحب الطبيعة ويرنو الى العزلة التى أهواها . فأهلا بك ، تفضل واطرح الكلفة ولنتكلم كصديقين

ـ انك تسرعين يا سيدتى فتمنحين شرف صداقتك لرجل تجهلين اسمه وحياته ، هل فى وسعك أن تعرفى من أنا وماذا أكون ؟

ـ صدقت . فلست أعرف على وجه التحقيق من أنت ، ولا أدرك الدور الذى قمت به فى الحياة التى عشتها بين البشر ، بيد أننى لا أجهل موقفك من الله ، فلا تحسبنى امرأة مجنونة ملتاثة العقل كما يخالنى الناس ، ان هناك علما ولد فى الشرق ، ولا يزال يسرى فى تضاعيف حياة كل مخلوق ، ولكنه مجهول فى الغرب ، وهذا العلم أملكه أنا بنفسى ، فأنا أستطلع الكواكب وأقرأ فى النجوم . وليس من شك فى أن البشر جميعا انما هم أبناء هذه الشهب السماوية التى أشرقت على ولادتنا ، تلك الشهب التى طبعت سطوتها السعيدة أو المحتالة فى عيوننا وجباهنا وقسماتنا وخطوط أيدينا وشكل أقدامنا ، بل وفى حركاتنا وسكناتنا أيضا ، هل تروم أن أكشفك لعينى نفسك ، وهل تبغى أن أتنبأ لك عن حظك ؟

ـ كونى مطمئنة يا سيدتى ، فلست أنكر ما أجهل ولا أؤكد أن فى الطبيعة المنظورة وغير المنظورة ، فى الطبيعة التى يرتبط بها كل شىء ، مخلوقات من طبقات سفلى كالانسان لا تتحرك أو تقوم تحت تأثير مخلوقات أسمى مثل الملائكة أو الكواكب ، على أنى وأيم الحق لست فى حاجة اليها لاكتشف كنه نفسى القائمة على الفساد والضعف والشقاء ، أما ما يتعلق بأسرار مستقبلى ، فأرى أن تطلع الانسان فى الكشف عنها انما هو حط من كرامة الخالق الذى يحجبها لسبب خفى عنا ، واننى لا أتكل فى شأن المستقبل الا على الله وعلى الحرية والفضيلة

ــ ليس هناك ثمة فارق ، فاعتقد بمن تشاء ، واتكل على ما تعتقده ان صدقا وان كذبا . أما أنا فأرى أنك ولدت تحت تأثير ثلاث نجوم سعيدة وقوية معا ، وأرى أن الله وحده هو الذى قادك الى هنا لينير بصيرتك ، فهو فى حاجة الى من على شاكلتك ، ينطوى على الطموح وعلى النية السليمة الخالصة ليستخدمه فى الاعمال الباهرة العجيبة التى سيقوم بها فى سبيل البشر ، هل أنت على اعتقاد من أن ملكوت المسيح قد أتى ؟

ــ ولدت وعمدت مسيحيا

ــ مسيحى ؟ وأنا أيضا مسيحية ، ولكن الذى تسميه المسيح ألم يقل : انى أخاطبكم بالآيات ، ولكن الذى سيجىء بعدى يخاطبكم بالروح والحقيقة

ــ اذن هو هذا الذى تنتظره ، هذا هو المسيح الذى لم يأت بعد والذى ستقع عليه أبصارنا

وفى نهاية الزيارة كشفت ليدى ستانهوب للشاعر عن صلة قرابة ونسب مع أمراء العرب ، ثم تنبأت له أنه سيصل الى قمة المجد فى السياسة والادب

موقفها من البطل ابراهيم باشا

كان لليدى ستانهوب فى موطنها الجديد سلطة تكاد تكون مطلقة ، وأصبح حكمها مطاعا وكلمتها نافذة فى جميع بقاع الشام ، وقد تجلت قوتها وسطوتها عند ما استولى البطل ابراهيم باشا على عكا (١٨٣٣) فقد آوت الى مقرها الكثيرين ممن فروا من المدينة أثناء الحصار ، وكانت أرضها هى البقعة الوحيدة التى لم يكن للفاتح أى سلطان عليها .

وكتب اليها ابراهيم باشا يرجوها أن تقف على الحياد ، ولكن الحياد لم يكن من شيمتها، بل كانت تؤمن بحكمة الانجيل : « من ليس معى فهو على » . فأصبحت لذلك من أشد الناس عداوة للفتح المصرى فى بلاد الشام ، وكان لطعنها وخصومتها العنيفة المرة أثر بالغ لان اسمها وصفاتها كانا يزيدان أقوالها قوة على قوتها، ولانها لم تكن تعرف للتراخى معنى أو مبنى

وفى أثناء مقام ابراهيم فى بيروت ، رفع اليه اثنان من الاهالى شكوى جاء فيها :

« انا أقرضنا السيدة ستانهوب من رعايا بريطانيا ومقيمة بجوار صيدا مبلغ خمسة آلاف وثلاثمائة ريال نقدا على أن ترد هذا المبلغ بموجب صكوك تحت يدنا فى خلال ثلاثة أشهر، وكل ذلك ثابت من ورقة بخطها وتوقيعها تحت يدنا ، ولكن مرت الآن تسع سنوات من غير أن ننال منها سوى الوعود الجوفاء . ولذا فنحن نركع بين يدى سموكم ونلتمس من عدالتكم فحص هذه المسألة والعمل على رد هذا المبلغ الينا . . الخ »

ويعلق القاضى الامريكى بيير كرابيتس فى كتابه «ابراهيم باشا» على هذا الحادث بقوله :

« لم يكن فى أخلاق محمد على ولا فى أخلاق ابراهيم باشا شىء من الضعة والصغار ، بل كانا من الصنف الذى يسميه الفرنسيون « السادة العظماء » لكن هذا المعروض كان

من النوع الذى يلذ للمرابين أن يتقدموا به الى كل حكومة تلى الامر ، يرجون بها أن ينالوا الحظوة لديها »

نهاية بشعة

لم تستطع ليدى ستانهوب أن تفسد خطط البطل ابراهيم باشا ، ولم يمكنها أن تثير وى بعض الشغب والاضطرابات اليسيرة التى قام بها الدروز . وكان اسرافها فى النفقات وما جبلت عليه من التبذير سببا فى أنها أضحت فقيرة ، فصارت أقرب الى الاملاق والعوز بعد أن كانت تحلم بملك الزباء والجاه العريض ، ولما لم تستطع أن تفى بديونها ذات الربا الفاحش ، أوقع أحد المرابين الحجز على كل ما تملكه دون أن يقوى قنصل انجلترا فى بيروت على الاخذ بناصرها ، فاستعانت باللورد بلمر ستون رئيس الحكومة ، وكتبت الى الملكة فكتوريا كتابا شديد اللهجة أنكرت فيه جنسيتها الانجليزية

وكان مزاجها العصبى وطبيعتها الحادة قد نفرا أتباعها منها ، وحملا أوفاهم عهدا لها على أن يهجرها ، فقد كان يعوزها ترويض النفس ولين العريكة وسهولة الجانب وغيرها من الصفات التى تؤلف قلوب الساسة . أضف الى هذا أن المرض كان قد حل بها وناء بحمله جسمها ، فلم تجد ثمن الدواء ، وكثيرا ما خلت دارها من المؤونة والزاد

وفى الاسبوع الاخير من يونيه عام ١٨٣٨ قضت « نبية الجون » وناسكة الجبل نحبها ، وحيدة منقطعة ، ليس الى جانبها طبيب يعالجها أو صديق يبكى عليها ، واتصل نبأ نعيها بالقنصل البريطانى فى بيروت ، فاقبل هو وجماعته الى مأواها فى الجبل ، وكان الليل قد أرخى سدوله ساعة وصولهم ، وخيم السكون الرهيب فوق مسكنها ، ولم يكن هناك من يستقبلهم ، فتقدم القنصل وأضاء المصباح المدلى من سقف الدهليز الخارجى ، ثم سار يتبعه بقية رفاقه الى حيث كانت طريحة الفراش ، جثة هامدة لا حراك بها ، ثم أدار البصر فى الغرفة ، فألفها خالية من كل متاع أو زينة ، اذ كانت الايدى قد امتدت حتى الى ملابسها ، ولم يبق سوى جلال الموت الذى يعلوها

وكان عمر ليدى ستانهوب وقت أن قضت نحبها ٦٣ عاما ذاقت فى فترة قصيرة منها حلاوة العيش ، وقضت معظمها فى حلم من العظمة والمجد ومعترك من الاوهام والهواجس ولجة من الشقاء والعوز . وظل ضريحها ومسكنها مهجورا ، الى أن عنى به منذ سنوات قلائل الاب كليمنصوص بردويل أحد كهنة دير المخلص ، فرتبه وجعل منه مقاما أثريا

وهكذا كانت نهاية تلك الشخصية الفذة التى توافرت لها جميع عناصر العظمة ، لولا أنها أخطأت الهدف لاعتدادها بنفسها ، بيد أن ذكرى ليدى هستر لوسى ستانهوب ستظل ماثلة حية فى أذهان الجوابين الذين يرحلون الى الشرق ، لما اتصفت به من الشجاعة والاقدام فى كافة مراحل حياتها

محمد امين حسونة

كيف تساهم الموسيقى العربية في الموسيقى العالمية

بقلم الدكتور يوسف قاييل

للموسيقى العربية جمالها وحضارتها . وهي في أزهى عصورها ببغداد والأندلس قد استفادت من موسيقى الأمم الأخرى . ويحاولون في هذه الأيام احياءها بالاستفادة من التجديدات الفنية في الموسيقى العالمية وصاحب هذه المحاولة هو الكاتب الفاضل الذى يعالج الفكرة في مقاله هذا ، الذى نطرحه للبحث

ربما تبادر الى ذهن بعض حضرات القراء أول وهلة : « وما شأن الفن المحلى بالثقافة العالمية ! » وهو اعتراض لا يلبث أن يتخاذل فى ضوء أساليب المعرفة الحديثة . اذ قد خلصنا بحمد الله الى تسجيل أنه كلما ارتقت مدارك البشر اشتدت لديهم الرغبة الصادقة فى التعاون الثقافى وتبادل المعرفة فيما بينهم . ولا أدل على ذلك من اكثار الدول المتحضرة من اقامة المؤتمرات الدولية لبحث مختلف شؤون العلوم والفنون . وان صح أن لكل عصر من العصور التاريخية طابعا يمتاز به عن غيره ، فان عصرنا الذى نعيش فيه يمتاز ولا ريب بطابع « التعاون الدولى » ، الى حد دعا كبير فلاسفة الانجليز فى العصر الحاضر ويلز الى تسمية الكرة الارضية : « بقريتنا الكبرى » ايماء منه الى شدة الترابط بين أجزائها المختلفة والقومية ولا شك رابطة محمودة ، ولكنها قمينة بذلك الحمد فقط ، طالما لم يتعارض نشاطها مع المنفعة البشرية العامة

ويخيل الى أن صحة تغليب المنفعة البشرية العامة على المنفعة المحلية المحدودة ، راجع الى أن القوة البارئة فى الكون قضت بما يصح أن يطلق عليه : « تقسيم العمل الدولى » بأن خصت كل أمة أو مجموعة من الأمم بمزايا واستعدادات — سواء فيها المادية أو الذهنية — لا تتوفر للأمم الاخرى وهكذا . . بقصد استكمال المنفعة عن طريق تبادل هذه المزايا بين الأمم كافة تمهيدا لترابط عالمى شامل ، ونبذا لكل استئثار بالخير مصداقا لقول شاعرنا العربى أبى العلاء المعرى :

ولو أنى حبيت الخلد فردا — لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هبطت على ولا بأرضى — سحائب ليس تنتظم البلادا

ومن هنا يتضح أن النزوع الطبيعى السليم يرمى الى الترابط والتعاون ، وليس الى العزلة والخروج على الاجماع الصحيح فى أى شأن من شؤون الحياة البشرية فى مراتبها العليا ، وبخاصة فى العلوم والفنون

وتحضرنى بهذه المناسبة الملاحظات الفنية القيمة التى سبق أن أدلى بها مندوب جامعة فينا فى مؤتمر الموسيقى الشرقية الذى عقد فى مصر فى عام ١٩٣٢ فى التقرير الفنى الذى وضعه بمناسبة اشتراكه فى ذلك المؤتمر حيث جاء به :

« ان لكل فن من الفنون البشرية كيانا واحدا لا يتعدد بتعدد الامكنة ، وعلى ذلك فان الفوارق بين مظاهر الفن الواحد فى الامكنة المختلفة لا تتناول أصول ذلك الفن ، وانما تتناول فقط طابعه المحلى . وبهذا فان الفرق بين الموسيقى العالمية — أو الغربية مجازا — والموسيقى الشرقية ليس فرقا جوهريا يتناول الاصول ، ولكنه فرق تدريجى لا غير ، يرجع الى تفاوت المستوى فى دراسة ذلك الفن

اذ ليست الموسيقى « الشرقية » فنا قائما بذاته — كما يريد أن يصورها بعض أنصارها المتطرفين — ولكنها درجة بدائية من الموسيقى العالمية مرت بها جميع الدول المتحضرة الاخرى أثناء تطورها الاول

فالموسيقى بمعناها العام اذن ليست فنا محليا يتعدد بتعدد المناطق والاوطان ، ولكنها فن عالمى موحد ينتظم جميع دول العالم المتحضر ، شأنه فى ذلك شأن جميع الفنون العالمية الاخرى كالهندسة والتصوير وما اليهما . فهو فن لا وطن له يشمل ثروة ذهنية طائلة اشترك فى تكوينها عباقرة الفنيين من مختلف الاجناس البشرية على التعميم

وقد أثبتت التجربة العملية أنه برغم وحدة دراسة أصول ذلك الفن ، فانه لا خوف مطلقا من ضياع الطابع المحلى القومى . اذ أنه برغم وجود هذه الوحدة فى تدريس الاصول فى اسبانيا ، روسيا ، المجر ، ايطاليا مثلا — فان لكل دولة من هذه الدول طابعا موسيقيا خاصا بها — تستطيع الاذن الموسيقية دون كبير عناء تمييزه من بين الالوان الموسيقية الاخرى

ومع ذلك فأين هى هذه الموسيقى المصرية الحقة التى نخشى ضياعها ؟ اذ يعلم كل مشتغل بالموسيقى « المصرية » أن جميع أوضاعها ومصطلحاتها ومسمياتها أجنبية محضة ودخيلة على مصر والمصريين . فالبشرف والبيـاتى والدوكاه والسيكاه والحجازكار والنهاوند وما الى ذلك من المصطلحات والمسميات الموسيقية فى مصر أجنبى روحا ودما عن مصر والمصريين . فهو اما من أصل فارسى أو تركى أو غير ذلك من المصادر التى لا تمت الى المصرية الصميمة بصلة ما

وحيث قد سلمنا بمبدأ قبول الفن الموسيقى من مصادر أجنبية لا تعتبر اليوم بحق نبراسه فى ذلك المضمار من جهة — وبعد أن انتفى الخوف من ضياع الطابع المحلى القومى بالشواهد التى أوضحناها من جهة أخرى — فلا معنى اذن لاقامة العقبات فى سبيل قبول فن عالمى جليل ، تواضع العالم المتحضر على شرف الانتماء اليه

فنحن اذن بين أحد أمرين : اما أن نصر على الاحتفاظ بزهو مركزنا الحالى فى حدود الموسيقى المصرية المزعومة ونظل نتخبط بذلك فى دركنا الفنى ، واما أن يكون لنا من

الشجاعة الادبية قسط وافر يمكننا من مواجهة الحقيقة السافرة ، ويحملنا على الانتماء الى جماعة الموسيقى العالمية كأمة صريحة تريد أن تكون لها مكانتها الحقة بين الأمم المتحضرة

ولا حاجة بى الى التنويه بأن تركيا مثلا - التى تدين الموسيقى « المصرية » الحالية لموسيقاها بكيانها الى حد كبير - قد قطعت شوطا بعيدا فى مضمار تدريس الموسيقى فى معاهدها على أسس الموسيقى العالمية ، وكذا اليابان وغيرها من الدول العريقة فى الحضارة

وبذا فقد أجمعت دول العالم المتحضر غربية كانت أو شرقية، على اعتبار الموسيقى العالمية فنا موحدا تربط أصوله بينها جميعا دون تفرقة أو تمييز

ومما يلفت النظر فى تاريخنا الحديث أن اهتمام أولى الامر بتقدير الموسيقى العالمية فى مصر ، كان أشد فى منتصف القرن التاسع عشر منه الآن

فقد بلغ من اهتمام المصلح الكبير الخديو اسماعيل بهذه الناحية أن عهد الى كبير من نوابغ الموسيقى فى عصره « فيردى » بتلحين أوبرا جديدة يفتتح بها دار الاوبرا المصرية. وما كادت تظهر هذه الاوبرا وهى « عايدة » ، حتى تهافتت جميع دور الاوبرا فى العالم أجمع على عرضها فى دورها ، واستهوت جميع أنصار فن الموسيقى العالمية بجمال موسيقاها، فأى رابطة دولية جليلة اذن هى هذه الموسيقى العالمية !

وكان انشاء دار الاوبرا المصرية استجابة لرغبة ملحة فى نفس الخديو اسماعيل ، أراد بها مجاراة الحضارة العالمية فى كل ما هو صالح ومفيد ، على اعتبار أن الموسيقى فى مراتبها العليا عنوان من عناوين الحضارة البشرية على التعميم ، لا ينفرد بها شعب دون آخر

ولكن دار الاوبرا المصرية انفردت بعد ذلك بمكانة شاذة فريدة الوضع والتكوين بين دور الأوبرا فى العالم أجمع

اذ بينما نجد دار الاوبرا المصرية كاملة الاستعداد المسرحى ينفق عليها من خزينة الدولة آلاف من الجنيهات فى كل عام ، نجد فى نفس الوقت أنه ليس هناك عازفون ولا مغنون مصريون يستطيعون أداء المهمة الفنية التى انشئت هذه الدار من أجلها . فتضطر الحكومة المصرية ازاء هذه الحال الغريبة الى استحضار فرق موسيقية أجنبية لتقدم بعض مسرحيات غنائية فى كل عام ، وتغدق عليها من المكافآت الجزيلة ما يتسع جزء منه فقط لاعداد فريق كبير من ذوى الاستعداد الموسيقى من المصريين ، لدراسة فن الموسيقى على أصوله الدولية فى معهد يعد لذلك ، تمكينا للمصريين من الاضطلاع بالمهمة التى يجلب الفنانون الاجانب لادائها ، وتوفر على خزينة الدولة بذلك مبالغ لا يستهان بها . وذلك فضلا عن الاحتفاظ بالعزة القومية التى تقضى على كل ذى كرامة أن يقوم بمهامه بنفسه ، لا أن يستعين على أدائها - بشكل مستمر - بغير أهل البلاد ، ويسجل على نفسه وصمة الخروج على جامعة الحضارة العالمية بدل شرف الانتماء اليها بمجهوداته الشخصية

ولا يعوق تحقيق هذه الغاية خلو السلم الموسيقى الدولى من « ربع المقام » ، اذ لا ضير فى اضافة ذلك « الربع » الى السلم الموسيقى الدولى استدراكا لبعض النغمات الشرقية

التى لا تتم بغير هذه الاضافة . وقد أثبتت التجارب العلمية الحديثة أنها « اضافة «ميسورة التحقيق . ويستطاع بذلك الحصول على موسيقى مصرية الطابع دولية التأليف ، يستمع اليها فى كل مكان من أنحاء العالم المتحضر بنفس الرغبة والاقبال التى يستمع بها الفرنسى مثلا للموسيقى المجرية والانجليزى للموسيقى الاسبانية وهكذا . .

هذا الى جانب اشراك المصريين أنفسهم على التدريج فى الاستمتاع الروحى بمنتجات عباقرة الموسيقى العالميين، اذ يكاد يكون من الظلم الفادح أن يحرم المصريون المتعة النفسية بهذه الثروة الفنية الرائعة ، بدعوى أن آذانهم تعاف الاستماع اليها !

ويتحقق لمصر بذلك أن تساهم ايجابيا وسلبيا فى الموسيقى العالمية : فايجابيا عن طريق انشاء موسيقى مصرية الطابع دولية التأليف يستسيغها أنصار فن الموسيقى فى جميع بلاد العالم المتحضر ، وتكون خير دعاية لمصر فى هذه الاوساط الفنية العليا ، فضلا عن انخراط مصر بذلك فى سلك جامعة الحضارة العالمية من الناحية الفنية أيضا

وأما المساهمة السلبية فتكون عن طريق اتاحة الفرصة الحسنة للمصريين ، للاستمتاع الروحى بالثروة الموسيقية العالميـة ، وما يرتبط بذلك من مزايا معنوية جليلة لمصر والمصريين ، والله ولى التوفيق

دكتور يوسف فايل

عظماء يؤمنون بالخرافات

■ كان نابليون يقشعر كلما رأى هرة سوداء ويعتقد انه نذير بسوء الطالع

■ كان جان جاك روسو يتصور أن شبحا يسير دائما الى جواره ، وكثيرا ما كان يتحدث وهو سائر بمفرده متوهما أن هذا الشبح يستمع الى ما يقول

■ كان الشاعر الانجليزى وليم بليك يزعم أنه شقيق سقراط ، وأنه رأى المسيح وتحدث معه فى كثير من الشؤون

■ كان الكاتب الانجليزى الكبير « الدكتور جونسون » يلمس كل ما يمر به من أبواب وأعمدة فى اثناء سيره بلندن ، وكان اذا نسى بابا أو عمودا عاد اليه ولمسه بيده ، خشية أن يلحقه من جراء ذلك حظ سىء

■ ظل سيسيل رودس يلبس بذلته القديمة عهدا طويلا لانه كان يتشاءم من اتخاذ الملابس الجديدة

قائد الصين وزعيمها

للكاتب الصحفي المشهور « چون جنتر »

قائد الصين وزعيمها ، تشيانج كى تشك ، عقدة نفسية محيرة : فهو أكثر الناس أخذا بالشدة القاسية والصرامة الرادعة ، وهو من أكثر الناس صفحا عن عدوه وغفرانا لغريمه! وهو الذى وحد الصين وجعل من شعبها يدا واحدة تضرب عدوها ضربة واحدة ، وهو مع ذلك قد أمضى عشر سنوات يخوض غمار حروب أهلية هلك فيها آلاف وآلاف من أبناء وطنه ! وهو زعيم شعبى من الطراز الاول ، من طراز ستالين وهتلر ، ولكنه فى الوقت ذاته سياسى من الطراز الاخير ، فكثيرا ما يضل طريقه السوى وكثيرا ما يخطىء هدفه المنشود !

▭

ضئيل الجسم قصير القوام ، ولكن عينيه تضفيان عليه قوة عاتية مرهوبة . هما عينان حالكتا السواد ، غائرتا العمق ، شديدتا النفاذ ، لا تستقران أبدا فى أى نحو من الانحاء. وتلقاه أول ما تلقاه ، فيبدو لك منه وجه جاف لا ينبىء عن شىء من الحيوية والذكاء ، وتسمع منه حديثا جافا لا تلمس فيه شيئا من الزكانة والبراعة ، حتى اذا أبرقت عيناه وأومضتا ، أحسست بهذا الوجه يفيض ذكاء وتألقا ، ورأيت هذا الحديث يحفل قوة وعمقا

وهو رجل متقشف ومتصوف . فلا يشرب خمرا ، ولا يدخن ، بل انه لا يشرب القهوة والشاى

وهو منظم فى حياته ، يستيقظ فى كل يوم مبكرا ، عند ما يبزغ الفجر دائما . وينكب على عمله مجداً جاهدا طول النهار وطرفا من الليل . ويدون قبل انصرافه الى مخدعه حوادث يومه فى مذكرته

وهو سعيد فى حياته العائلية . وزوجه شريكه الحبيب الى قلبه وعقله معا . وهو من الزعماء القلائل الذين لا تستطيع أن تفكر فيهم دون أن تفكر فى زوجاتهم كذلك. وهذه ناحية من نواحى التشابه بينه وبين روزفلت الذى تقوم زوجه الى جانبه مقام المشارك فى أعماله ومناهجه ومشروعاته

وللقائد الصينى صديق آخر يلازمه دائما . هو الصحفى الاسترالى و. ه. دونالد ، الذى اتخذه منذ سنين مستشاره غير الرسمى.

وليس لتشيانج من هواية سوى القراءة . وأكثر ما يقرأه من الادب الصينى القديم

الحافل بالحكمة العميقة . وهو يكاد يستوعب كونفوشيوس عن ظهر قلب . وأحب فقرة من كلامه اليه تلك التي يقول فيها :

« كي يحكم المرء وطنه يجب أن يحكم أولا أسرته

« وكي يحكم المرء أسرته يجب أن يحكم المرء أولا بدنه ، بالرياضة الخلقية

« وكي يحكم المرء بدنه يجب أن يحكم المرء أولا عقله ، بالتهذيب والتدريب

« وكي يحكم المرء عقله يجب أن يكون المرء مخلصا صادقا فى اغراضه ونواياه ، وسبيل المرء الى هذا كله أن يستزيد من المعرفة والحكمة كل ما يستطيع »

▭

ولد تشيانج كي تشك فى قرية من قرى الصين فى سنة ١٨٨٧ ، وفى سن العشرين التحق بالكلية الحربية فى طوكيو عاصمة اليابان ، ثم خدم بعد ذلك فى الجيش اليابانى عدة سنين

وفى أرض اليابان ذاتها بدأ حياته الوطنية الحافلة بأروع ألوان الجهاد والكفاح ضد اليابان . وكان ذلك فى سنة ١٩٠٩ حين قابل الزعيم الصينى الاكبر « صن يات صن » الذى أبعدته الحكومة الملكية عن بلاده فآوى الى اليابان . وتعاهد الرجلان على الكفاح فى سبيل حرية شعبهما الذى تكاثفت عليه قوى الرجعية من الداخل وقوى الاستعمار من الخارج . فلما قامت الثورة الكبرى فى سنة ١٩١١ كان تشيانج دعامة من الدعائم التى يرتكز عليها زعيم الثورة صن يات صن . وظل فى غمرة الحياة السياسية حتى سنة ١٩١٧ ثم تبين أن النجاح فى السياسة يتطلب ثروة موفورة ، لتأليف الاعوان وبث الدعايات ، فقرر أن يهجر السياسة ريثما يجمع ما يلزمه من المال ، ودخل سوق المضاربات المالية فى شنغهاى

ثم عاد الى السياسة والحرب ثانية فى سنة ١٩٢١ ، فعينه صن يات صن رئيسا للجنة المركزية للحزب الوطنى الذى كان محور الحياة السياسية فى الجمهورية الصينية الناشئة

ولما مات صن يات صن فى سنة ١٩٢٥ خلفه تشيانج كي تشك فى رئاسة الجمهورية ، كما غدا القائد العام للجيش الصينى الوطنى . وقد قام منذ ذلك بعدة حملات حربية على العناصر الثائرة الناشزة فى الصين ، كي يوحد هذا الشعب الذى مزقته الاهواء والمطامع ، فاستطاع أن يحقق غرضه وأن يجعل من الصينيين أمة متحدة الكلمة قوية الارادة

▭

والصفة البارزة فى تشيانج كي تشك ، الصفة التى تكشف عن شخصيته العجيبة وتبين عن أخلاقه الخاصة ، هى صفة العناد والاصرار . فهذا الرجل الرقيق الحاشية الدمث الاخلاق ، من أشد الناس استمساكا بكلمته واصرارا على رأيه وتشبثا بما يريد . فهو ليس « سياسيا » يتحايل تحقيقا لغرضه ويراوغ فى سعيه الى غايته . بل يسلك الطريق

السوى مهما تعاظمه فيه الصعاب ، ويضرب الضربة المباشرة وهى الضربة التى قد تقصم ظهر العدو وقد تودى بقبضة الضارب

وهو ينكر سياسة الثأر والانتقام . فانه لما ظهر على خصومه من قواد الصين وزعمائها، أبى أن يبسط اليهم يده بالانتقام رغم ما نشب بينه وبينهم من حروب طويلة ومعارك دامية ، واكتفى بأن نفاهم من الصين الى حيث « يستعيدون صحتهم » ودفع لهم مرتبات تكفل لهم الحياة الرضية الطيبة . وقد استطاع بهذه الخلال الجميلة أن يجعل من كثير من أعدائه الألداء ، أولياء أوفياء ، يقفون الى جانبه موقف الصديق الصادق والتابع الامين

ومن أبرز مزاياه جميل صبره وطويل أناته ، الى حد يحمل الناس على أن يظنوا به الضعف والاستكانة . فلقد ظل خمس سنوات صابرا على عدوان اليابان صبرا يخيل الى المرء أنه آثر الخضوع على المقاومة . فنزل من أرض الصين لغريمتها اليابان عن منشوريا ، وعن جيهول ، ورأى منغوليا الداخلية تضيع اقليما فى اثر اقليم ، دون أن يبدى مقاومة ما، بل دون أن يقول كلمة فى استنكار عدوان اليابان ، بل كان ينزل العقاب بالصينيين الذين يهمون بمقاومة اليابانيين أو التنديد بها ! وقد أدت هذه السياسة الى أن هجره كثير من رجاله وضباطه ، وقامت فى الصين حروب أهلية طويلة ، بين تشيانج كى تشك الذى آثر السكوت عن عدوان اليابان ، وبين الجماعات الوطنية المتطرفة التى رأت أن تكافح اليابان منذ البداية . ومع ذلك ظل تشيانج صابرا ساكتا حتى كانت سنة ١٩٣٧ فنزل الى معمعة القتال بكل قواه يكافح اليابان ويردها عما اغتصبته من أرض الصين . وعرف حينذاك أنه كان منذ سنة ١٩٣٠ يتأهب لهذه الحرب ، فى الوقت الذى كان يبدو فيه لمن لا يدرى أنه يبيع الصين لليابان ، ولكن الواقع أنه كان يعتقد أن أية مقاومة صينية حينذاك مقضى عليها بالاخفاق والهزيمة ، وأن واجب الصين ان تصبر ريثما تتأهب وتمتد من ناحية ، وريثما يتنبه الرأى العام العالمى لعدوان اليابان من ناحية أخرى ، وحينئذ تنزل الصين الى ساحة الحرب وبجانبها قوات الدول الأخرى التى تقدر على صد اليابان

▭

ويبلغ مرتب الجنراليزمو ، وهو لقب تشيانج كى تشك العسكرى ، ألف دولار فى الشهر . والظاهر أن ثروته الخاصة ليست كبيرة وان كان قد جمع مالا جما اثناء اشتغاله بالتجارة فى مدينة شنغهاى

أما الأسرة التى صاهرها ، أسرة سونج ، فهى من أغنى الأسرات الصينية ، بل هى من أشهر مراكز القوة والسلطة فى العالم .فانها تضم ، فضلا عن بناتها الثلاث المشهورات، نفرا من أقوى رجال الصين ، منهم الدكتور كنج رئيس وزارة الصين ، ومنهم ت. ف. سونج أقدر الماليين فى تلك البلاد

أما البنات الثلاث فكبراهن هى زوجة الدكتور كنج ، وتليها أرملة الزعيم الكبير صن

يات صن ، والثالثة ، ماى لنج ، زوجة تشيانج كى تشك

وقد نشأ ثلاثتهن نشأة دينية طاهرة ، فتلقين دراستهن الاولى فى مدارس الراهبات التى انشأتها جماعات المبشرين فى الصين ، ثم اكملن تعليمهن فى الولايات المتحدة . وقد اتصلن منذ نشأتهن بالحركة الوطنية الكبرى ، اذ كان والدهن صديقا حميما لزعيم الحركة صن يات صن

ومدام تشيانج أصغرهن سنا ولكنها أكبرهن عقلا وأذكاهن ذهنا . وهى الشخصية الثانية فى الصين من حيث شهرتها وصيتها . ومن حيث قوتها ونفوذها . ومع أن زوجها رجل شديد الاعتداد بنفسه والاعتماد على رأيه ، الا أنها تقوم منه مقام الناصح المشير ، ثم انه شريك لا غنى له عنه ، لمعرفتها الوثيقة بالهيئات الاجنبية فى الصين وبالرأى العام الاجنبى . ثم هى تقوم بمهمة الترجمة لزوجها الذى لا يعرف من اللغات الاجنبية سوى اللغة اليابانية

وهى تعرف فى الصين بلقب « السيدة » فحسب . ولعلهم يذكرون لقبها دون اسمها تجلة واكبارا . وهى على جانب كبير من الوسامة ، وعلى قسط عظيم من الاناقة . وحديثها عذب رقيق ، صقلته الثقافة الواسعة والدراسة المتشعبة . أما اخلاصها الجرىء الشجاع لوطنها ولزوجها ففوق كل حديث ، فانه فى سبيلهما لا يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار . وهى تشبه فى هذا الوجه مسز روزفلت ، فكلتاهما خصصتا جهدهما ووقتهما لوطنيهما ورجليهما

فكثيرا ما كانت مدام تشيانج كى تشك ترى فى المكان الذى تنزل به غارة جوية من غارات الطائرات اليابانية ، وهى فى ملابس بيتها ، اذ تخف اليه سراعا لتعاون فى انقاذ الجرحى واخراج المطمورين . وقد كان لها أثر كبير فى اقامة مئات من قرى المهاجرين فى أرجاء ريف الصين ليأوى اليها أبناء المناطق التى وقعت فى قبضة اليابان . كما كان لها فضل مشهود فى نشر التعليم فى الصين ، وقد ابتكرت لغة صينية مبسطة يسهل على الصغار والأميين تعلمها على نقيض اللغة القديمة المؤلفة من مئات الاحرف ، المعقدة بقواعدها ونحوها العتيق . وهى التى أنشأت فى الصين « حركة الحياة الجديدة » التى تنتظم مئات الالوف من أبناء الصين وبناتها ، بقصد رفع مستوى الحياة الاجتماعية فى الشعب الصينى

وقد تزوج تشيانج من ماى لنج قبل أن يعتنق المسيحية ، فعارض أهلها فى هذا الزواج فترة طويلة لاختلاف دينه عن دينهم . ولما طلبوا اليه أن يتنصر رفض ، لانه لا يليق بالرجل أن يغير دينه لمجرد الظفر بزوجة يؤثرها . ولكنه وعد بأن يدرس المسيحية ، بعد أن يتم الزواج ، فان اقتنع بصحتها أقبل على اعتناقها . وأعجبوا بهذا الخلق القويم ، وقبلوا مصاهرته ، وكان ذلك فى اليوم الاول من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٧ ، وقد أعلن فى ذلك اليوم : « ان الثورة تدخل اليوم فى مرحلة جديدة ، مرحلة موفقة مظفرة ، لاننى

منذ هذه الساعة أحمل أعباءها الثقال وأتولى مسئولياتها الجسيمة ، بقلب ملىء بالبهجة والسلام » . ثم لم يلبث ان اعتنق المسيحية

□

لقد مضى على تشيانج كى تشك أكثر من ثلاثين سنة وهو فى حرب متصلة الحلقات دائرة الرحى فى سبيل الصين : وقد شن بعضها على أعداء الصين الداخليين الذين أرادوا أن يبقوا عليها مفككة الاوصال ، وشن بعضها على أعداء الصين الخارجيين الذين أرادوا أن يجعلوها مستعمرة يستبدون بأمرها ويستأثرون بخيرها

ووطنيته « دين » له طقوس ومراسيم . من ذلك أنه فى صباح يوم الاثنين من كل اسبوع يجتمع فى دار الحكومة ـ أينما تكون هذه الدار التى تنتقل من اقليم الى اقليم كلما وضعت اليابان يدها على جزء من الصين ـ زهاء ستمائة فرد من كبار رجال الحكومة. ثم تعزف الموسيقى نشيدا عسكريا يصغون اليه فى انتباه واهتمام . وبعد ذلك ينحنون ثلاث مرات أمام صورة كبيرة لزعيم الحركة الوطنية صن يات صن . ثم يقف تشيانج كى تشك فيتلو عليهم وصية الزعيم ، ويتلوها جملة جملة وهم يرددونها من ورائه معا . فكأنها صلاة يتعبدون بها كما يتعبد الناس بتلاوة آيات الكتب المقدسة . ثم يقف صامتا ثلاث دقائق ، وكأنها فترة التأمل والخشوع . وبعدها يلقى على الجمع محاضرة يشرح فيها الحركة الوطنية وفلسفتها وأغراضها ، ويحث فيها رجاله على المثابرة على البذل والتضحية . ويظل الجميع طوال هذا الحفل وقوفا صامتين خاشعين ، فهم فى محراب الوطنية التى يحفل بها اليوم قلب كل صينى وكل صينية

(من كتاب جون جنثر « فى داخل آسيا »)

وقف معاوية بن مروان على باب طحان ، فرأى حمارا يدور بالرحى ، وفى عنقه جلجل ، فقال للطحان : لم جعلت الجلجل فى عنق الحمار ؟

قال : ربما ادركتنى سآمة أو نعاس ، فاذا لم اسمع صوت الجلجل علمت أن الحمار واقف ، فصحت به فانبعث للمشى

فقال معاوية : أفرأيت ان وقف وحرك رأسه بالجلجل وصنع هكذا وهكذا . وأخذ يحرك رأسه يمنة ويسرة

فقال الطحان : ومن لى بحمار يكون عقله مثل عقل الأمير ؟

حليفة الذباب والصيف : حمى التيفود

للدكتور مصطفى الديوانى

الاخصائى فى أمراض الأطفال بكلية الطب

يرجع بنا تاريخ الطب القهقرى الى أيام « ابقراط » فيقول الرواة انه وصف فى مذكراته مرضا تنطبق أعراضه على الحمى التيفودية ، لانه ذكر بين علاماته الحرارة المرتفعة المستمرة والاسهال والطفح الجلدى الوردى المحبب وألم البطن وفقد الوزن والشهية ونزف الانف والهذيان عند اشتداد الحمي . وعاصرت جرثومة هذا المرض أبناء آدم على مر الاجيال تضايق هذا وتعصف بحياة ذاك . ولم يعن أحد رغم ذلك باقتفاء أثرها ، بل اعتبرها الجميع من فصيلة التيفوس حتى عام ١٨٢٩ ، اذ أطلق عليها الطبيب الفرنسى « لويز » اسم التيفود لاول مرة ، ولكنه لم يحاول أن يفرق بينها وبين حمى التيفوس من الوجهة المرضية . والفضل فى التمييز بين المرضين يرجع الى « جرهارد » فى فيلادلفيا عام ١٨٣٦ ، ثم « ستيوارت » بجلاسجو عام ١٨٤٠ ، وأخيرا الى « سير وليم جينر » الطبيب الانجليزى الشهير الذى كشف لقاح الجدرى ، فقد أجرى هذا الاخير بحوثا فى الفترة ما بين عامى ١٨٤٩ ، ١٨٥١ ، وأثبت أن المرضين لا يمتان لبعضهما بأية صلة ، فكانت كلمته هى الفاصلة . وكان « ايبرث » أول من كشف جرثومة المرض فى عام ١٨٨٠ . وفى عام ١٨٩٦ وصف « فيدال » طريقته الخاصة لتشخيص المرض ، وهى المعروفة باسمه حتى الآن ، ولو أن طبيبين من قبلنا وهما « جروبر ودرهام » وصفاها قبله بثلاثة أشهر ، ولكن شاء التاريخ أن يلمع اسم ويخبو آخران

وهكذا شغلت هذه الحمى أذهان الباحثين حتى توصلوا الى اكتشاف جرثومتها وطريق العدوى بها . فعرفنا بفضلهم أنها تظهر فى براز المريض وأحيانا بوله ، وأن تلوث الاطعمة بها من أهم عوامل انتشار المرض . والمعلوم أن جرثومة المرض تنتقل بوساطة اللبن ومركباته ، والجيلاتى بأنواعها ، والخضروات النيئة كالتى تستعمل فى تحضير السلاطة مثل الخيار والجرجير والخس والطماطم ، والحيوانات الصدفية مثل أم الخلول والجنبرى والجندوفلى . وقد تأتى العدوى أيضا عن طريق حامل الجراثيم ، وهو الذى توجد الجرثومة بجسمه دون أن تظهر عليه علامات المرض . وأشد حاملى الجراثيم خطرا هم الخباز والطاهى وبائع اللبن . ويجب أن نشك فى وجود حامل الجرثومة بين أصحاب هذه المهن فى الأوبئة التى يصاب فيها أفراد عديدون فى شقة واحدة أو عمارة واحدة أو شارع واحد

وقد تصيب حمى التيفود الطفل فى جميع مراحل حياته . فقد يولد وهو مصاب بها اذا مرضت الأم فى الايام الاخيرة من الحمل ، ولو أن الغالب فى مثل هذه الحالات أن يولد الجنين ميتا

وفى السنتين الاولين من العمر تظهر هذه الحمى فى صورة قد تضلل الطبيب المعالج وأهل المريض سواء بسواء . فهى تأتى أحيانا على شكل دوسنطاريا حادة أو نزلة معوية مصحوبة باسهال شديد وحرارة مرتفعة قد تتأرجح اثناء النهار ، ويكون ارتفاعها فى بداية المرض فجائيا ، بعكس الحال فى البالغين حيث يتدرج ارتفاع الحرارة خلال بضعة الايام الاولى حتى يصل الى مستواه العالى . وتكون مدة المرض عادة أقصر منها فى الكبار، اذ أنها قلما تزيد على الاسبوعين . وبالنسبة لظاهرة الاسهال قد تتعرض حياة الطفل لخطر أكبر نتيجة فقد سوائل الجسم وأملاحه فى البراز المتكرر الذى اذا لم يتدارك يصاب الجسم بظاهرة الجفاف ، وهى أقصى ما يخشاه الطبيب

أما بين سن الثانية والعاشرة فعاقبة الاصابة بحمى التيفود أكثر أمانا منها فى أية سن أخرى ، ولا تزيد الوفيات عن ٢-٤ ./. طالما تمتع الطفل بعناية كافية فى التمريض والعلاج. ولا يختلف المرض فى سيره عنه فى الكبار ، فترتفع الحرارة تدريجيا الى أن تصل فى بضعة أيام الى أربعين درجة أو أكثر ، ثم تنزل بالتدريج الى المستوى الطبيعى فى نهاية الاسبوع الثالث . وقد تطول المدة الى خمسة أو ستة أسابيع ، وقد تقصر الى اسبوعين ، وفى حالات نادرة الى أسبوع واحد . وليست هناك علاقة ثابتة بين اصابة الامعاء وعدد مرات التبرز ، فقد يكون البراز عاديا فى لونه وعدد مراته ، أو قد يكون الامساك شديدا فى بعض الحالات ، والاسهال غالبا فى حالات أخرى . وان حدوث الاسهال مع انتفاخ البطن يقلق بال الطبيب ، لانه يعرض الطفل الى حدوث مضاعفات موضعية خطيرة . وكثيرا ما يكون الانتفاخ ناتجا عن الاكثار من تعاطى المواد النشوية والسكرية ، فاذا أقللنا منها هبط بروز البطن تدريجيا . وقد جرت عادة الكثيرين أن يضعوا مكمدة من زيت التربنتينا على بطن الطفل لتساعد على خروج الغازات ، وأود لو تجنبوا هذا لان جلد الطفل الرقيق لا يتحمل ما تحدثه التربنتينا من تهيج موضعى شديد . والافضل من هذا احضار قطعة من القطن المعقم ورشها بالكحول النقى ، ثم وضعها على البطن بحيث تغطيها تماما

وتحدث النكسات فى ١٠ ./. من الحالات ، ويكون سببها اما مغادرة الفراش قبل الميعاد القانونى (وهو اسبوعان بعد زوال الحرارة والاعراض) أو حدوث صدمة نفسية أو هياج عصبى شديد ، أو الاندفاع فى تناول المأكولات قبل الاوان

وحمى التيفود شديدة العدوى ، لذا يجب عزل المريض حتى يتم شفاؤه ، وحتى يثبت الفحص البكتريولوجى للبراز والبول ثلاث مرات متوالية بينها على الاقل يومان — عدم وجود جرثومة المرض فى افرازات الطفل . وفى أثناء المرض يجب تطهير البول والبراز،

فيضاف الى محتويات القصرية حامض فنيك أو ليزول ، وتترك وهى مغطاة لمدة نصف ساعة قبل تفريغ محتوياتها فى المرحاض . كما يجب أن تخصص للمريض أدوات للاكل والشرب لا يستعملها غيره

ويا حبذا لو أبطلت عادة تقديم المرطبات والقهوة للزائرين فى منزل به اصابة بحمى التيفود . وكثيرا ما وجدت نفسى محرجا عند ما أذهب لاعود مريضا بهذه الحمى ، فاسمع بأذنى الخادمة التى تقوم بخدمة الطفل والسهر عليه وتمريضه تؤمر بتحضير كوبة عصير الليمون التقليدية أو فنجان القهوة العتيد ، فتندفع من غرفة المريض الملوثة الى غرفة المطبخ ملبية طائعة . واضطر أنا غالبا أن ألجأ الى قليل من الصراحة فى الرفض فى سبيل السلامة الشخصية . فيا حبذا لو تناسى أهل المريض غريزة اكرام الضيف فى مثل هذه الظروف .

أما الذباب ــ وهو الحليف الاكبر لحمى التيفود ــ فتجب مكافحته بشتى الوسائل ومنع دخوله غرفة المريض بوضع شباك على النوافذ ، واستعمال السوائل المضادة للذباب مثل « الفليت » وغيره

وقد حلقت غمامة من الشك حول مفعول الطعم الواقى « الفاكسين » فى وقاية الاطفال من حمى التيفود . ولكنى أعبر عن خلاصة آراء أوثق المصادر العلمية عند ما أؤكد أهميته كواق ، ويجب اللجوء اليه كلما تعرض الطفل للعدوى ، ويحسن أن نحقن الاطفال به فى بداية الصيف من كل عام . ويمكن استعماله ابتداء من السنة الثانية من عمر الطفل . فيبدأ بحقن ١/١٠ أو ١/٥ أو ١/٤ سم ٣ حسب سن الطفل ، ويزاد المقدار الى الضعف فى الحقنة الثانية أى بعد اسبوع . وفى الغالب لا يشعر الطفل الا بوعكة خفيفة نتيجة حقنه بالطعم ، وهى لا تقارن بالتفاعل الشديد الذى يحدث فى الكبار

والشىء الاخير الذى أريد أن أحدث القراء عنه ، هو نظام التغذية فى حمى التيفود . فاذا كان الطفل رضيعا فان أحسن غذاء له هو لبن أمه أو الالبان المجففة المنزوعة قشدتها، أو اللبن الحض « البابير » ، أما الطفل الكبير فيعطى أثناء الدور سوائل بكثرة ، وعصير الفاكهة (ويحسن عدم الاكثار منه حتى لا يسبب اسهالا غير مرغوب فيه) وحساء الخضروات المصفى جيدا ، وماء الفول النابت والموز والبالوظة والتفاح المطبوخ والجيلاتين (الالماظية) والخبز الجاف (البقسماط) . وبعد نزول الحرارة يزاد الغذاء تدريجيا ، فيعطى الطفل الخضروات المسلوقة والمهلبية والطيور المسلوقة . ولا يسمح له بالغذاء الاعتيادى قبل انقضاء اسبوعين على نزول الحرارة الى المستوى الطبيعى

وقبل أن أختتم قصة التيفود أذكركم باشياء أربعة يجب أن تأخذوا حذركم منها ، وهى : الذباب، وافرازات المريض، وأصابع المريض ومن يقومون بتمريضه، والخضروات النيئة . .

مصطفى الديواني

المرأة: فى الفن المصرى الحديث

بقلم الاستاذ أحمد راسم بك

لم ينتشر فن التصوير فى مصر الا من عهد قريب ، ذلك بأن بعض المتشددين فى الدين الاسلامى الذى هو دين الدولة ، كانوا يحرمون تصوير الاشخاص ويعدونه خروجا على الشريعة السمحاء

حتى اذا أنشئت المدرسة العليا للفنون الجميلة، وأبيح فيها تدريس فن الرسم والتصوير بصفة رسمية ، بل والفنون الجميلة جميعا ، تذوق الجمهور هذا الفن الجميل واتجهت ميوله اليه

غير أن تصوير النساء ، حتى الى ذلك العهد ، كان يتجنب وينأى عنه، وبخاصة تصوير النساء العرايا ، ولذلك لم تعرض لهن صور فيما أقيم من المعارض

لكن سنة التطور الزمنى والفنى جعلت الفنانين يسايرون العصر ، ويتمشون مع سنة الارتقاء ، فاتجهوا الى تصوير النساء عامة والعاريات منهن خاصة غير متحرجين فى ذلك ، لان الاغضاء عنه نقص لاتكمل دراسة الفنون الجميلة بدونه ، وهذا ما يقتضيه العلم والتعليم

وسنقصر هذا البحث على فريق من الفنانين الذين استباحوا لانفسهم تصوير النساء والعاريات منهن تمشيا مع سنة الارتقاء الفنى ، على اعتبار ان هذا التصوير نوع من الجمال النموذجى Nu académique

على أن المصورين الذين تصدوا لهذا النوع من التصوير قليلون نذكر منهم — على سبيل المثال لا الحصر — الاستاذ صباغ والمصورة آمى نمر والمثال مختار والمصور هليبرت والاستاذ محمود بك سعيد

المصور هليبرت

أحد الفنانين البارعين الذين تخصصوا فى تصوير النساء وهو صاحب أكاديمية التصوير . قضى فى مصر عشرين عاما ، وبرع فى تصوير المرأة العارية تصويرا خلابا يستهوى الالباب

لهذا المصور تحف من الصور Portrait وله كذلك مجموعة من الصور الرمزية ، منها ما يمثل خليطا من النساء عائدات من المقبرة يسحبن وراءهن الحزن والاسى ، فلا يشك الرائى لهن فى أنهن عائدات بعد أن ودعن حبيبا ، أو فارقن قريبا ، ولا يحس من جو الصورة الا عبوسا يرف عليه جلال الموت . وانا لنرى فى صور أخرى لهذا المصور المجيد دراسات لنساء عوار تتجلى فيها صبوة النفس للشهوات ، وعلى الرغم من رقة

ألوانها فانها تحرك فى النفوس تلك العاطفة ، وفى بعض الظلال حرارة يعجز الانسان أن يجد لها سببا ، ونجد على اهابها هذه الالوان ، أشبه ما تكون بألوان الثمار ترتفع من داخلها حتى تشمل اهابها ، وقد نحس لها نغما يصل الينا كأنه عبير النسيم ، وكأن أشعة النور تحتاط بها ، فتملؤها حياة تفعم القلب هيبة والعين روعة من حسنها وقوتها وتأثيرها

هذه الصور فى غير حاجة الى شرح أو بيان ، وما فائدة ايضاح سر الجاذبية أو القوة التى تجذبنا أليها ؟ عند ما يحلل الناقد صورة من الصور ، يذكر متانة الرسم وجمال الالوان وتوازن الهيكل والظلال ، وهو يشبه فى ذلك من يحلل أسباب الغرام ، ولكن أنى للانسان أن يدرك السبب الذى يوقعه فى حب امرأة بعينها تكون محاطة بنساء أبرع منها جمالا وأبهى حسنا ؟ هذا السر الموجود فى المرأة المعشوقة والذى أوحى حبها دون غيرها فى الفؤاد ، هو بعينه السر الذى يملأ صور الاستاذ هليرت

ونخرج من هذا الى أن صور الاستاذ هليرت تحرك فى مشاهديها عاطفة خفية هى الجمال الرهيب الذى يهز المشاعر هزا ويطغى على سلطانها . ان أهم شرط فى الجمال أن يهز المشاعر وأن يثير دقات القلوب ، فالاهرام مثلا تملأ نفوسنا هيبة وروعة وجلالا ، ولكنها لا تبعث السرور اليها ولا تنزلها منزلة الحيرة والاضطراب ، اذن فالصورة التى تدخل السرور على النفوس والبهجة على القلوب والحيرة على المشاعر هى ، فى الحق ، التحفة الغالية التى ينطق القلب ببيان تفاصيلها وربما عجز اللسان

آمى غر

لها مجموعة خالدة من صور الزنجيات

روعة تجد فى نفسك معناها ولا تجد على لسانك مبناها ، هذه هى آمى غر ، فانها علاوة على دقتها فى اتباع قواعد الرسم ، تخلق فى صورها روحا عميقا يتجلى فيه توازن وانسجام قل أن تجدهما فى منتجات المصورين العصريين

ظلت ألوان هذه الفنانة محافظة على وقارها ، واستطاعت بمجموعة ألوانها المحدودة أن تعطينا صور أولئك الزنجيات اللائى تفيض الشهوة فى عيونهن ، وأن تصور بشرتهن وقد فاح منها طيب غريب يزكو فتنتشقه الارواح ، وتتنسمه النفوس ، لدرجة أننا نقف أمام هذه الرقة متأثرين بوقار جمالها ، كما نجد على أجفانهن هذا اللون القاتم الذى لا يوجد له مثيل الا فى أكمام بعض الازهار . تخترق نظرات أولئك الزنجيات مادة الهواء فى هدوء أشبه شىء بهدوء طائر ينساب فى الهواء ، وكأن الرسامة قد انتقت بعض اللآلىء السوداء الراقدة فى بطون البحار لتصبغ بها وجوه نماذجها السوداوات ، على أن العاطفة التى تحتدم داخل أجسامهن تحيل هذه الاجسام لامعة متموجة ، وتسجل تحت الجفون ألحانا هوائية منسجمة

يسهل على كل واحد أن يشاهد فى متحف الفن الحديث بالقاهرة مجموعة من ابداع ريشتها يستجلى فيها الناظرون أضواء النهار لامعة متبلورة ، ويحسون الحنان الحيوانى الذى يعم تقاطيع وجه جاريتها السوداء الذى تمثل بشرته تلك الفترة من الزمن التى تسبق سدول الليل . فكأنما مسح خداها بعصارة الليل العطرية ، فلمعتا كنبات توت‌الوحش

وترى أيضا لوحة تلك المرأة التى تسبح فى بحر أحلامها من مسكن منعزل حيث جلت الرسامة فى تصويرها عما يجيش بصدرها من حرارة الشعور ، فهاك عيناها وشفتاها وما يلابسهما من الجو الرطب ، كل ذلك يعبر عن رقة هذا الوجه الحزين

فى ذلك الفضاء المحدود المقفر وبين تلك الاشعة المتضاربة المختلطة ، يحدث انسجام تتجلى فيه عذوبة حزينة حول وجه تلك المرأة الشاحب ، وهذه العذوبة التى تفوق الذكاء تحوم حول شفتيها وذلك النبل الذى يسطع على جبينها ويرفع حاجبيها نحو السماء ، قصر دونه كل جمال . وخلف هذه الفتاة بساط من أوراق الاشجار يخيل لرائيها أنها تئن

ولما كانت المصورة قد كشفت عن سر الاجسام التى تذوب فى الظلام المتحرك ، فانها تمكنت من أن تهز أوتار القلوب بفنها الدقيق المعضل

صباغ

يحب صباغ الحياة على نسق كل شرقى أصيل ، ويجد فى حبها لما تحويه من متاع وجمال واغراء ، ويظهر أثر ذلك فى أغلب صوره التى تموج بالحركة وتتضوأ بالنور، وفيما يستشف من لوحات الغوانى اللاتى تختلط الاشعة بعقيق دمهن الحار

يحب الحياة كفنان دقيق ويحبها كشرقى عريق ، يحب البحر ويحب السماء ويحبهما معا لشعوره بحاجته الى امتاع جسمه بماء البحر ، والى اشباع نفسه بزرقة السماء ، يحب الزهر ويحب الثمار ويحبهما معا لاحساسه بالحاجة الى استنشاق أريج الزهر والى استيعاب طعم الثمار . ولما كان صباغ يحب النساء أيضا ، فقد سجل جمالهن على لوحاته تسجيلا رائعا ، وان لم يكن دائما جمالا نموذجيا

واذا دققنا النظر الى صوره ، نجد الثياب تشمل الاجسام محبوكة غير فضفاضة، وكذلك لا يظهر فى أى عضو من أعضاء الجسم اعوجاج فى طول أو قصر

ثم هو لا يقتصر على هذه الدقة الكاملة ، بل يفتن فى معالجته لرسم النساء ، أى يتصرف تصرفا مقرونا بالرقة والشهوة والغرام . فآنا يداعب أنامل العذارى بألوان وضاءة تشع كبارق الأمل المريح ، وآنا يخصر وسط غادة تخصيرا ناعما نحيلا ، وآنا يكسو شفتيها بلون المرجان ويغطى أجفانها بكحل يستمد سواده من ظلمة الليل ، الى غير ذلك من الصور الفاتنة التى يمتلىء بها جو الصورة بالاغراء

يعرف صباغ كيف يحدد الاجسام بألوانه الشفافة فى نعومة ورقة ، كأنه الحبيب يمر بيده على جسم حبيبته ، اذ يكاد يكون أبرع من سجل الوجوه الخمرية التى ذهبتها قبلات

الشمس على الشاطىء ، وأحسن من مثل الاجسام الشهوية وهى ترنو الى أمواج البحر فى استغراب ودهشة ، فيقف الرائى أمامها مأخوذا مشدوها ، فلا يستطيع أن يبدى رأيا ازاء تلك الاجسام التى تكاد تتحدث اليه فتثير مكامن حسه

صور صباغ مجموعة من الصور النسائية كانت غاية فى الدقة والاتقان من ناحية التوازن البنائى . وقد يلوح لنا أنه بدأ بتصويرها عارية ثم كساها بعد ذلك رداءها لما بها من أنوثة جذابة تتخللها نشوة الغرام . فيحس الرائى حرارتها كما يحس وجود تلك الخطوط المنحنية التى تربط أعضاء الجسم بعضها ببعض تحت الثياب

فكم من شفاه ندية أجاد تصويرها ، وكم من أذرع رخصة فكأنما هى أذرع الحور العين ، وكم من أجفان تهز العواطف وتمس الجانب الخفى من شعورنا ، وكم من وجوه رف عليها الجمال الملائكى ، وكم من صدور عاجية خلبت الالباب وبهرت الابصار ، وكم من قوام ممشوق وعيون ساحرة صوبت الينا سهامها فأصابت منا مواطن الضعف

مختار

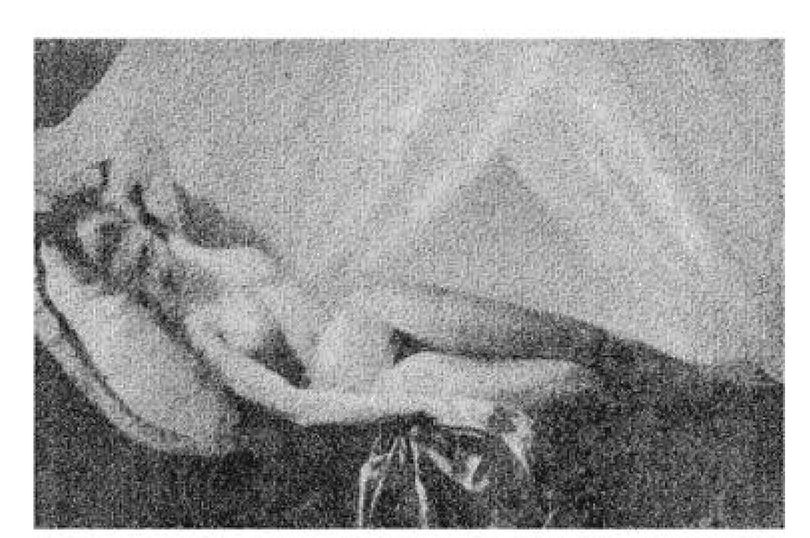
رأينا مختار ينحت الرخام والاحجار التى كانت ترتعش تحت أنامله ليخرج جميع الصور التى خطرت بأحلام طفولته ، بطريقة جعلته يعود رغم ارادته الى طرائق العهد الفرعونى ، ولكننا نجد فى تماثيل هذه الغادات تلك الرقة الخاصة بالاقوياء

فما أسمى تماثيل هذه النساء الاعرابيات وأشرحها للخاطر وأمتعها للنظر ، انها تحاكى الحقيقة تمشى فوق أرض الصعيد ، وأنك تلحظ فى هذه التماثيل أنها جميعا قد فاضت بهذا الروح المصرى الساذج الذى جعل أجساد هذه العذارى تترنم بأناشيد الحنو وتوقع ألحان الرغبات التى لا تخمد لها عزمة

ان مختار المرح أفرغ على هذه التماثيل جميعا كل حرارة الشعلة الملونة ، وانما أفرغها عليها فى بساطة وفى غير تكلف ، ومع ذلك فانه قد سد الطريق أمام السفاسف حتى لا تغمر روح الجمال فيه . ولقد حق ان يسلك اذ كان مصريا صميما لا يبيح أن يشيب الظلام فنه أقل شائبة . ركز الحياة والعواطف فى هذه التماثيل النسائية التى ستحمل على عواتقها كل من تأمل فيها بحنو واشفاق لتحمله « قلب الرخام المنبعثة منه الصخب المقدس خلال معركة الاشارات الجامدة »

محمود سعيد

لقد أبدع محمود سعيد فى تصوير تلك القسوة التى تزين عيون بعض العذارى حين يضطرم جسمهن بشهوات غامرة ، وكل يذكر صورة تلك المرأة التى كانت فى جمالها أشبه ما تكون بغزال شارد ، تذكر ملامحها والسخرية تبدو على شفتيها والأشجار من



العارية

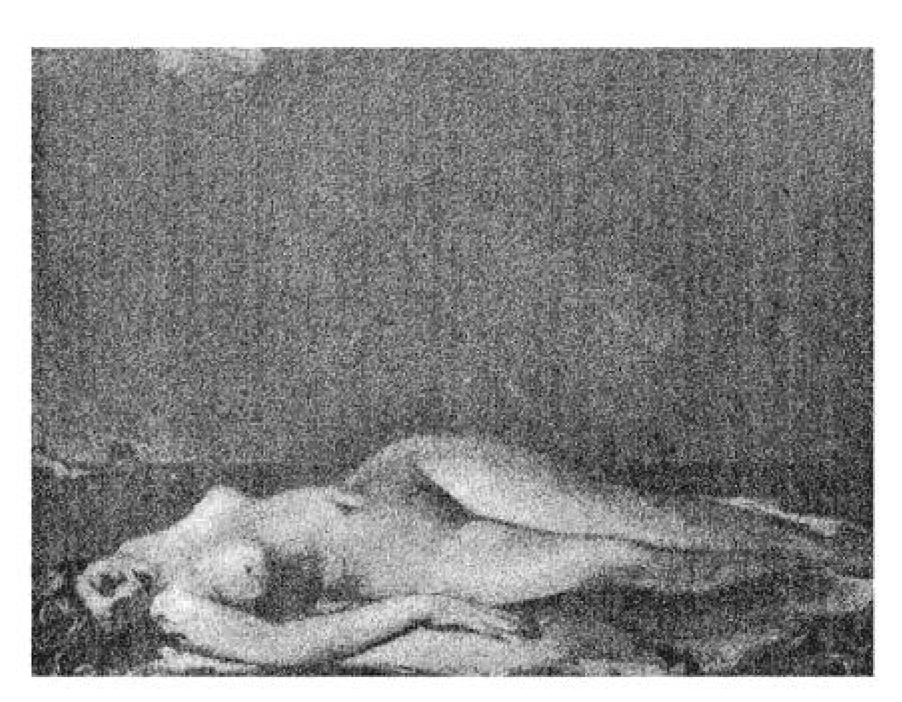
للمصور هلبيرت



العودة

من المقبرة

للمصور هلبيرت



مولد إلهة الجمال ... للمصور صباغ

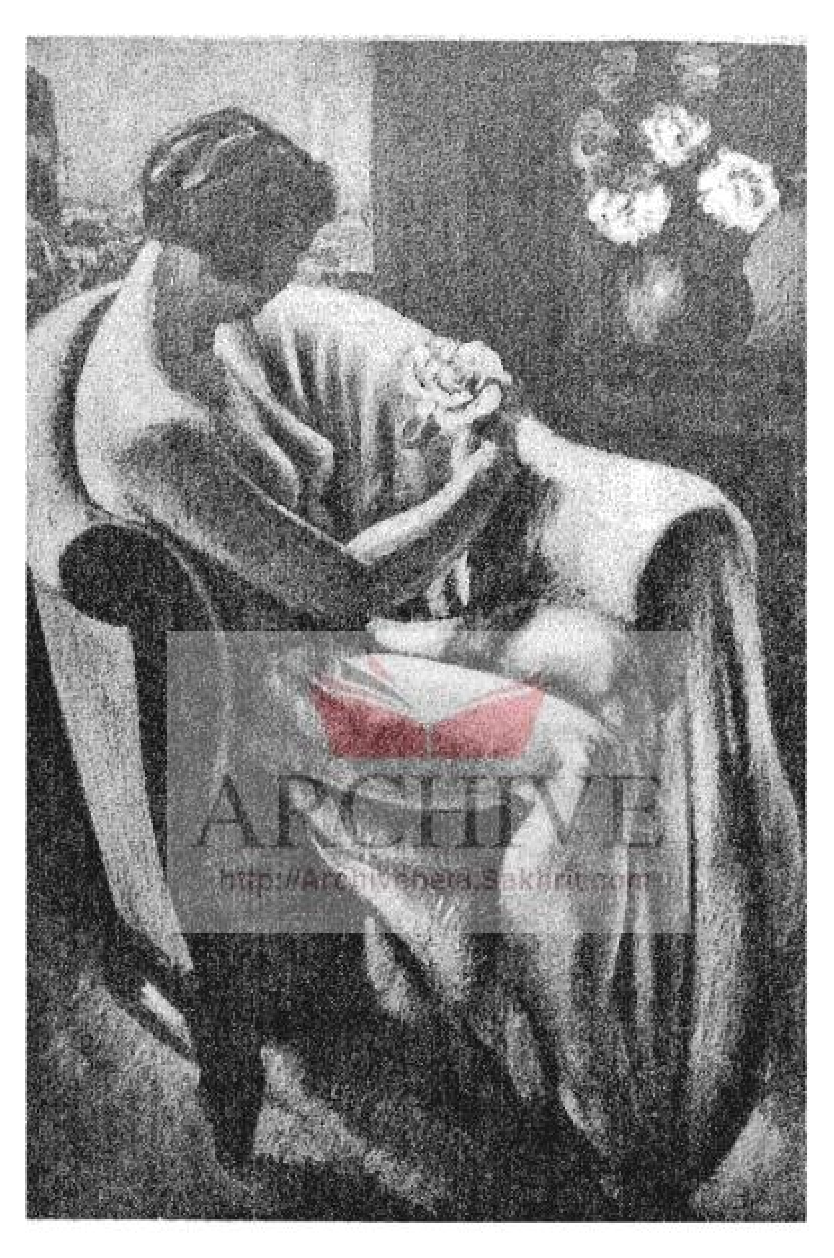
حولها تبكي والسماء فى صفائها ينحدر منها لعاب الشمس كنقط الطل المترقرقة فوق الازهار فى الصباح

نحب أيضا فن سعيد لاشتماله على روح شهوانى خفى ، فترى فى معظم لوحاته ذلك الشىء الذى لا يمكن وصفه والذى يضغط على القلب ، فيجعلنا نذكر لذاذات الحياة ، وينبعث نغمات ترحف ببطء على الروح كأنها قبلة قاتلة

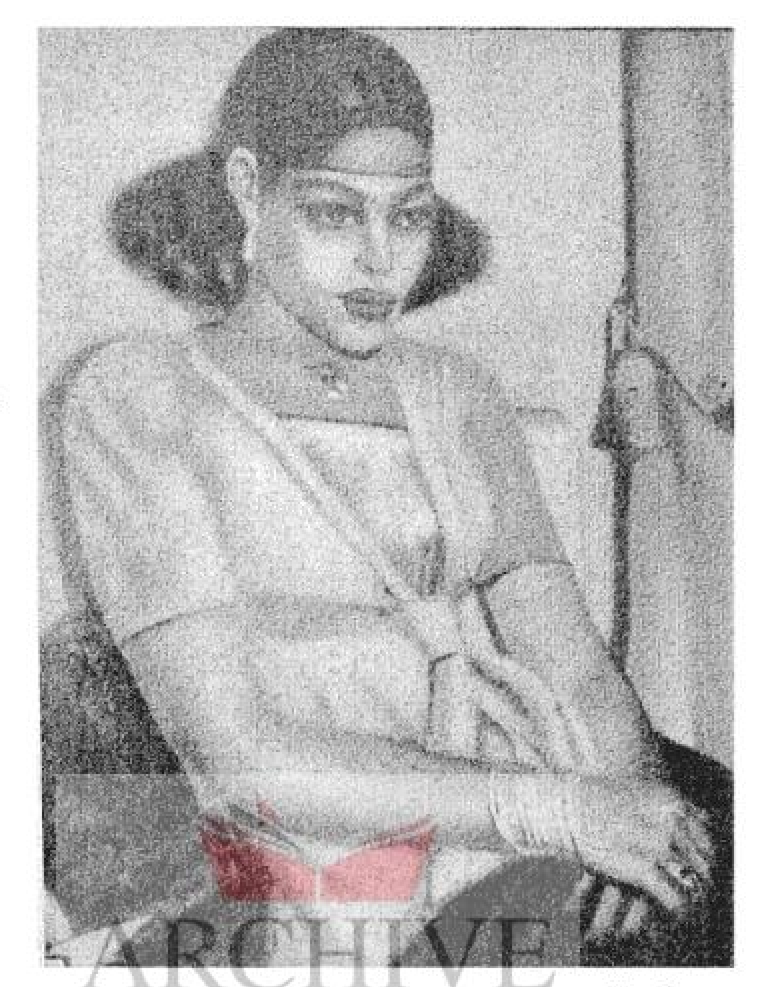
أنظر الى صورة تلك الغادة التى تسدد الينا سهام اللحظ ولا نرى صعوبة فى جرح قلوبنا بتلك النظرات المعطرة بالقسوة والدهاء ، انظر الى لحظها الساحر فى حنانه المدل بسواد انسانه ، انظر الى اهابها الناعم المزرى برونق الزهر ، انظر الى يديها والى ذلك الخاتم الذى لا يزيد بنانها جمالا ، انظر الى أظافرها الوردية كأكمام الورد فى الصباح ، انظر الى كل ذلك ، ونبئنى اذا كان فى مقدور مصور أن يبرز مثل هذه الصورة لو لم يكن قلبه مفعما بالعاطفة الجامحة ، ولو لم يعبد تلك الغادة التى تهجم نظراتها على روحه بغرام ينسى آلام الحياة

كما أنى أذكر صورة تلك الزنجية وما يحوطها من شهوة واغراء ، أذكرها وهى تنظر الينا وسآمتها تئن كأريج زهرة تذبل ببطء فى هواء حجرة يسبح فيها صمت الوحشة ، فنرى أنها تشعر أن حياتها تذهب هباء كتلاشى الامواج على الشاطىء ، هذا الشاطىء الذى يذهب اليه المصور ليغسل ذكرى عهود غابرة

كما أنى أذكر صورة تلك الخادم (هاجر) وهى جالسة على الارض ، فتحس أنها



الوردة البيضاء ... للمصور صباغ



ذات العيون العسلية

للفنان محمود سعيد

كلما فكرت فى حياتها التعسة سقطت الحسرة فى قلبها وتنفست البرحاء على نضرة مضت وغض اهاب جف وتشقق

فلا تمتاز صورة فنية على غيرها الا بما يدخله الفنان عليها من تحوير فنى يدل على اسلوبه الخاص وهو ما يسميه بعض النقاد « بالتشويه الضرورى »

ومن طريف ما قرأت فى هذا الصدد ، ما كتبه الاستاذ رمسيس يونان فى بحث أفرده عن فن محمود سعيد حيث قال :

« ومحمود سعيد فنان مختار يدرك تماما قيمة التشويه ، فلا يخلو رسم من رسوماته منه ، ولكنى لا أظن أنه قد تجرأ مرة على التشويه مثلما تجرأ فى هذا الرسم الذى هو موضوع اهتمامنا « المرأة ذات الخصلات الذهبية »

« ولكن ليس الامر كذلك فى الرسم الذى بين أيدينا ، فليس أول ما يلفت النظر براعة التصميم بل هو غرابة الموضوع . ان المتأمل ليشعر أن هذه المرأة التى صورها لنا



المرأة ذات الخصلات الذهبية

الفنان محمود سعيد



عروس النيل

المثال مختار

محمود سعيد ليست امرأة طبيعية من بنات البشر ، بل هى شيطانة اتخذت قالبا ذا مظهر انسانى ، انها ليست مخلوقة معينة من عالم الاحياء ، بل فكرة مبهمة ومعنى خفى رائع تجسم فى هذا الكيان المادى ليعبر عن نفسه ، انها تشبه تلك التهاويل الرمزية المقلقة التى يصوغها لنا العقل الباطن ولا تتصل بها الا فى عالم الرؤى والاساطير والاحلام

« وفى هذا ما يدعونى الى أن أفترض أن رغبات ومعانى مبهمة خفية تمثلها هذه الشيطانة كانت هائمة فى عقل الفنان الباطن من زمن بعيد ، وكانت هى التى ترسم الابتسامة على شفتيه وتبعث عينيه على التحديق ، ولكن ذهن الفنان لم يكن قادرا على تخيلها وعقد الصلات بينها وفرض النظام عليها ــ وان كانت قد اتخذت لنفسها سبيلا الى الظهور الجزئى فى بعض الرسومات السابقة ــ حتى استطاع أن يخضعها الى هذا كله حين صاغها فى هذه الصورة المشوهة الغريبة

« اما تمسك الفنان بوجه هذه المرأة ، وتكراره فى رسوماته التى أخرجها بعد ذلك ، فيرجع ذلك ــ فيما أعتقد ــ الى نزعة نفسية نحو زيادة سلطته على هذه الشيطانة الماردة ، فكان فى قدرته على تكرار رسمها المرة بعد المرة ما يوازى عند المقدرة على السيطرة على ما يعادلها فى نفسه من شهوات وميول »

أحمد راسم



العودة من السوق
للمثال مختار

حاملة الجرة
للمثال مختار

قصة القهوة

الشراب الذى أزعج رجال الدين ورجال الحكم

شجرة البن نبات افريقى الاصل . ولكنها زرعت أول ما زرعت فى أرض اليمن . وأول ما كتب عنها ما جاء فى مخطوط عربى كتب فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وكانت حينئذ تزرع على الجانب الشرقى من البحر الاحمر ، مما يدعو الى الظن أنها جاءت على أيدى الرحالة والتجار الاحباش قبل ذلك بقرن أو قرنين من السنين

وثمة قصة قديمة كانت تروى عن أحد رعاة الماعز بجوار دير من أديرة سورية ، اذ رأى ماعزه ونعاجه تأبى أن تقيل فى هجير الصيف القائظ ، وتظل تعدو وتقفز وتتناطح فى خفة ونشاط ، اذا هى طعمت من ورق أو ثمر احدى الاشجار القريبة النابتة عند صومعة الرهبان .. فلما علم أحد رجال الطرق الصوفية بذلك ، أخذ يعطى رجاله من هذه الاوراق والثمار ليجنبهم النوم ، ويبث فيهم النشاط ، فى أثناء سهراتهم وحفلاتهم الدينية

أما القهوة ، هذا الشراب الأسود اللون المر المذاق ، فقد بدأ اتخاذها شرابا اجتماعيا يتناوله الناس فى بيوتهم وأنديتهم وولائمهم ، فى بلاد العرب . ولكنه كان مقصورا أول الامر على سراة القوم ورجال الدين ، ثم تفشى منهم الى عامة الناس . فلما كان منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ، كانت « المقاهى » قائمة فى جميع الحواضر العربية الكبرى . ثم نقلتها قوافل التجارة فى بلاد العرب كما نقلتها أفواج الحجيج الى مكة الى سائر أرجاء العالم الاسلامى

ولكن انتشار « المقاهى » أزعج فريقين من الناس : فريق رجال الدين ، وفريق رجال الحكم . فقد صارت هذه المقاهى مراكز يتجمع فيها الناس يسمرون اما فى لغو الحديث واما فى بحث الشؤون العامة . ثم أخذ يؤم هذه المقاهى جماعات التجار ، والملاحين ، والمحاربين ، والموظفين وغيرهم من ذوى الكلمة والمكانة فى المجتمع ، تاركين المساجد خاوية الا من الفقهاء والعامة ، مما أثار غضب رجال الدين ، متحدثين فى أمور الحكم والسياسة مما أقلق بال الحكام والساسة ، ورأوها بؤرا تدبر فيها الفتن والمكائد

وهكذا أفتى الفقهاء بتحريم تناول القهوة ، اذ وجدوا فيها ما ينافى روح الدين وأوامر القرآن ، فانها وان لم تكن خمرا تسكر العقل الا أنها على أية حال مضيعة للمال والوقت فيما لا يجدى . فأغلقت المقاهى فى مكة فى سنة ١٥١١ ، وحطمت فى القاهرة فى سنة ١٥٣٤ . ثم قام من علماء الازهر من أفتى بجواز شربها

ووجدت القهوة طريقها الى أوربا عن طريق الاستانة ، فسرت منها الى ايطاليا فى القرن السابع عشر . ويقال انها رؤيت لاول مرة فى مدينة البندقية فى سنة ١٦٢٤ ، ثم رؤيت فى العام التالى فى مدينة روما

وكان انتشار المقاهى فى أوربا أسرع منه فى آسيا . فما هى الا أعوام قلائل حتى امتلأت بها شوارع المدن الاوربية وميادينها، وصارت مكانا يتجمع فيه الخاملون والعاطلون، والصحاب والزملاء ، يلعبون النرد والورق ، أو يتكلمون فى جد الامور وهزلها ، أو يدبرون فيها الفتن ويبثون الدسائس

وقد قال أحدهم ان باريس وفيها الآن ألف وثمانمائة مقهى يمكن أن تعتبر مقهى واحدا كبيرا ! وقال آخر : انك فى باريس تجد بين المقهى والمقهى ، مقهى !

وانتشرت عدوى المقاهى من القارة الى انجلترا ، حتى قدر عددها فى مدينة لندن فى سنة ١٦٧٥ بثلاثة آلاف . وقد وضع أحد المؤلفين الانجليز ، واسمه ادوارد فوربس روبنسون ، كتابا موضوعه « تاريخ المقاهى الاولى فى انجلترا » فذكر أنه فى ذلك الوقت لم تكن ثمة فئة من أصحاب الحرف والاعمال ، أو جماعة من الجماعات الدينية والسياسية ، الا ولها بضع مقاه تتخذها مقرا ومركزا لها . وقد تحولت بعض هذه المقاهى العامة الى أندية خاصة بأعضائها

ولم تفش عادة شرب القهوة فى ألمانيا الا بعد أن غمرت أكثر أقطار أوربا ، ولكنها لم تلبث أن تمكنت من الشعب الى درجة حملت فردريك الاكبر على أن يقول متذمرا : « ان الزيادة المطردة فى استهلاك القهوة غدت أمرا لا يطاق . فما من أحد من عامة الناس وفقرائهم الا وينفق جزءا كبيرا من أجره فى اجابة هذه العادة المرذولة . ولو أمكننا أن نقاوم هذا التيار الجارف لأعدنا الناس الى تناول البيرة ، مما يعود بالربح الموفور الى منتجيها وتجارها وكلهم ألمان ، على النقيض من القهوة التى نستوردها من غير بلادنا »

ونفذت القهوة الى روسيا عن طريق تركيا من ناحية والنمسا من ناحية أخرى . ولكنها كانت غالية الثمن عزيزة المنال ، فلم تفش بين عامة الناس تفشيها بينهم فى سائر أوربا

ووصلت القهوة فى القرن الثامن عشر الى البلاد الاسكندناوية ، حيث غدت اليوم من ضرورات بيوتها الى حد لم تبلغه هولندة ذاتها التى تضم مستعمراتها بعض مناطق انتاج البن

* * *

أما نبات البن فان الصنف اليمنى منه يبدأ فى الازهار فى سنته الثالثة ، ثم ينتج محصوله الاول فى السنة التالية ، أما أكبر كمية منه فتنتج عادة فى السنتين السابعة والثامنة ، وبعد ذلك يبدأ انتاجه فى التناقص . وتتفاوت أعمار أشجار البن تفاوتا كبيرا ، فمنها ما يعيش عشر سنوات ، ومنها ما يعيش عشرين أو ثلاثين سنة ، ومنها ما يصل به العمر الى خمسين سنة ، وقد يعمر بعضها أحيانا قرنا كاملا .. ولكن الاغلب فى مزارع البن فى بلاد

اليمن ، أن تثمر الشجرة فى سنتها الخامسة ، وأن تجتث بعد زراعتها بعشرين سنة . وفى مزارع امريكا لا تجتث المزرعة كلها دفعة واحدة ، بل يعمد الزراع الى استبدال ما يشيخ من أشجارها باشجار فتية ، بمعدل عشر المزرعة فى كل عام

وتحتاج شجرة البن الى ظل يقيها وهج الشمس اللافحة . ولهذا تزرع الى جوارها بعض النباتات التى تسبقها فى النمو كنبات القمح ، ولكن الاغلب أن تزرع حولها أشجار الموز ذات الظلال الوارفة

وخير الاماكن الصالحة لزراعة شجرة البن سفوح الجبال ، وكلما كان السفح مرتفعا بقدر ثلاثة أو أربعة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر كان أصلح أرضا وأجود محصولا

ولكن جودة المحصول لا تتوقف فقط على نوع التربة التى أنتجته ولا على حالة الطقس التى أحاطت به ، بل ترجع كذلك الى طريقة جنيه وطريقة تجفيفه . وخير طريقة لجنيه هى أن تقطف الايدى ما نضج من ثمره فصار لونه أسود أو أرجوانيا ، وتدع ما لم يتم نضجه وما زال لونه ضاربا الى الخضرة والصفرة . وثمر الشجرة لا ينضج كله فى وقت واحد ، بل فى فترات متعددة ، ولهذا كان أجود أنواع البن ما لم يختلط الناضج منه بغير الناضج ، فان قليلا من هذا كفيل بأن يفسد مذاق كمية كبيرة من البن الناضج . ولهذا سيبقى البن من المحاصيل التى يؤثر جنيها بالايدى لا بالآلات ، فان هذه لا تفرق بين الناضج والنيىء ولا بين الاسود والاخضر من حباته . أما طريقة تجفيفه فهى تعريضه للهواء والشمس ، ولكن حيث لا تشرق الشمس اللافحة يلجأ الناس فى تجفيفه الى الأفران والمواقد ، وهذه تنال كثيرا من مذاقه ومن رائحته

وقد كان انتاج العالم من البن فى سنة ١٩٠٠ عشرة ملايين من الاكياس . ثم أخذ يتزايد تزايدا مطردا حتى كان فى ١٩٣١–٣٢ أكثر من سبعة وثلاثين مليون كيس ، وفى ١٩٣٣–٣٤ قرابة أربعين مليون كيس . وقد اتسعت مساحات الارض التى تزرع بنا حتى غدا الانتاج أكثر مما تتسع له طاقة الاستهلاك ، فاضطرت بعض البلاد التى تنتجه ، والبرازيل بوجه خاص ، الى أن تقذف ببعض محصولها الى البحر ، لترفع سعره الى حيث يغطى نفقة انتاجه ويعود ببعض الربح على زارعه

* * *

والمادة المؤثرة فى القهوة هى مادة « الكافيين » التى كشف عنها الكيميائى « رونج » فى سنة ١٨٢٠ . ولا توجد هذه المادة فى ثمر شجرة البن وحده ، بل فى جميع أجزائها وعلى الاخص فى أوراقها

ولهذه المادة تأثير عضوى مشهود ، فاذا أخذت جرعات قليلة من القهوة أدى ما فيها من « الكافيين » الى احداث شعور بالنشاط البدنى ، والى زيادة طاقة التفكير العقلى والى التفريج عن العضلات ما تحسه من الجهد والتعب ، والى تنشيط ضربات القلب والى زيادة

ما تفرزه الكلى والصفراء من العصارة اللازمة لعملية الهضم . ولا يعقب هذا التنبيه الذى تحدثه القهوة ذلك الهبوط الذى يعقب تناول سائر المواد المنبهة ، ولعل هذا ما يفسر سر انتشار القهوة فى جميع أرجاء العالم أكثر من انتشار أى شراب آخر ، رغم أنها تعد الى حد ما حديثة العهد

على أن هناك أنواعا من شجرة البن خالية من الكافيين ، وقد وجدت بعض هذه الانواع فى جزر المحيط الهادى ومنها جزيرة مدغشقر التى تنبت فيها شجرة بن غريبة : تشتمل على كمية تافهة من الكافيين وكمية أكبر منها من احدى المواد السامة

وتختلف نسبة الكافيين فى البن من نصف فى المائة الى ثلاثة فى المائة من وزنه . وأكبر كمية منه فى البن الذى تنتجه كولومبيا وأقل كمية منه فى بن المكسيك . أما بن البرازيل فوسط بين هذا وذاك . والبن اليمنى — وهو نوع يزرع فى كثير من أرجاء العالم ولكنه يسمى بذلك نسبة الى اليمن موطنه الاصلى — يشتمل على نسبة كبيرة من الكافيين

ويوجد الكافيين فى شجرة الشاى كما يوجد فى شجرة البن . وأكثر ما فى السوق منه للاغراض الطبية مستخرج من تراب الشاى ، اذ أن هذا أوفر من الوجهة الاقتصادية من استخراجه من شجرة البن . وقد وجد أن ما يحتويه فنجان القهوة من الكافيين مثل ما يحتويه فنجان الشاى منه ، أى مقدار حبة ونصف حبة من الكافيين

وخير طريقة لصنع القهوة أن يقلى البن قبل صنعها مباشرة على الفحم أو الحطب مما تصدر عنه نار هادئة بطيئة . أما ترك البن مقليا عدة أيام ، فيؤدى الى فساد نكهته لامتزاج بعض مواده بما فى الهواء من الاوكسيجين

وقد أدى انتشار شرب القهوة بين جميع الطبقات فى سائر أقطار أوربا ، وبقاء أسعارها مرتفعة مع هذا ، الى محاولة الفقراء من جانب والتجار من جانب آخر ، ايجاد « مادة بديلة » أرخص منه ثمنا . بل ان الحكومة الالمانية أمرت بعض علمائها الكيميائيين أن يسعوا الى ايجاد هذه المادة التى قد تكفى الناس بعض ما يستهلكونه من البن الذى يستوردونه من وراء البحار . وقد جربت كل مادة يمكن تجفيفها وقليها وطحنها ، ولكن لم ينته الامر الى نتيجة مرضية . على أن أحسن ما يمكن أن يحل محل البن هو نوع من النبات يشبه البرسيم ، يؤخذ منه جذره المجفف فيقلى ويطحن ويغلى . ويقال ان أول من عرف ذلك أهل مدينة بتافيا فى هولنده سنة ١٧٩٠ ، وقد زرعت مساحات واسعة من أوربا بهذا النبات فى أثناء الحروب النابليونية ، وفى أثناء الحصار البريطانى على سواحل أوربا ، ليكون عوضا عن البن الذى تعذر استيراده حينذاك

(عن صحيفة ورلد سايز)

مهما تكن عظائم الانسان، فأين هي من عظائم الله في خليقته ؟..
إن الانسان مهما ارتفع ببرجه أو بنائه ، فلا يستطيع أن يطاول
أحقر جبل من جبال الله .. هذا هو ما يبسطه الاستاذ كاتب المقال

عالم العظائم

بقلم الاستاذ نقولا الحداد

منذ صار الانسان انسانا تاما متميزا عن الحيوانات العليا ، وشرع يتحضر وصار يعرف شيئا عن أحوال الارض ، جعل يرفع رأسه الى السماء لكي يعلم ما فيها . وكان كلما تيقظ لشيء من قوات الطبيعة كالبرق والرعد والظلام والبرد والحر الخ .. كان يزداد طموحا الى معرفة هذه القوات السماوية . وكان يتوهم أن قبة السماء هذه لا تعلو عنه كثيرا ، حتى أنه اذا بنى بناء عاليا يستطيع أن يصل الى السماء ويقبض بيده تلك الهنات المضيئة ــ جعل يظن ذلك لما برع قليلا بفن البناء . وأعظم بناء بناه الانسان في ذلك الدور الاول من انسانيته بغية استطلاع أحوال السماء ، كان برج بابل الذى ذكرت اسطورته في العدد ١ ــ ٩ من الاصحاح ١١ من سفر التكوين في التوراة (١)

والغريب في أمر أولئك القوم أنهم لما سلموا من الطوفان الذى عاقبهم الرب به لاستفحال شرورهم حتى قاموا يبنون هذا البرج تطاولا الى مقام ربهم

والظاهر من نص الاسطورة هذه أن ربهم كان في ذلك الزمان ساذجا على قدر عقولهم السخيفة . أعني أنهم لم يكونوا يفهمون الرب كما نفهم نحن الله الآن ، بل كانوا يفهمونه شخصا عظيما شبيها بالانسان وأنه يسكن قبة السماء . وكذلك كانوا يرون قبة السماء لا تعلو عنهم أكثر من عشرين أو ثلاثين الى خمسين أو ستين مترا على الاكثر ، كما يراها الطفل الآن وكما يراها الانسان الهمجي الوحشي . ولا يخفى أن الانسان لا يرى الاشياء الا كما يعتقدها

فكانوا ببناء برجهم يطمحون أن يصلوا الى السماء لكي يكتشفوا أسرارها ويروا الرب في مسكنه فيها . وخاف ربهم أنهم يغزون السماء وقد يطردونه منها فنزل الى الارض وبلبل ألسنتهم قبل أن يتموا بناء البرج

---

(١) لعلها وردت في أساطير بابل وأشور أيضا لان بعض أساطير التوراة وشرائعها مأخوذة من أساطير تينك الامتين

والراجح جدا أن الطوفان وحادث برج بابل حدثا قبل آدم الميثولوجى منذ ٦ آلاف سنة بزمن طويل

لا تستغربوا هذا القول لان فى التوراة نصا يدل على وجود أناس قبل آدم . ففى سفر التكوين الاصحاح ٤ والعدد ١٦ و١٧ نص على أن قايين قتل أخاه هابل وهما ابنا آدم الوحيدين حينئذ . ففر قايين من وجه غضب الله الى أرض نود شرقى عدن وهناك تزوج من احدى بنات تلك الارض

وليس بين هذين النصين وأسطورة خلق آدم فى أول سفر التكوين تناقض اذا جرينا فى تفسير خلق الخليقة على نظرية أهل العلم الحديث وهى أن الايام المذكورة فى تكوين الخليقة انما هى أحقاب لا أيام ، ولا سنين . وبناء على هذه النظرية ان الله قضى عدة آلاف من السنين فى خلق آدم ، فمنذ انتصب الانسان الأول على قدميه وصار يستعمل يديه ويمسك العصا والحجر كان كل آدم يتلو آدم وكل واحد أرقى من الآخر الى أن جاء آدم التوراة الذى صار انسانا يعرف الخير والشر ويستحى من عريه ويخيط مئزرا من ورق التين لكى يستر به عورته . وجعل يتحضر ويبنى مدينة ويؤسس مدنية

والراجح أن حادثى الطوفان وبرج بابل حدثا فى العصر الجليدى الاخير حتى اضطر أهل تلك البلاد أن يرحلوا الى الجنوب طالبين المناطق الدافئة . فرحلوا من أرض شنعار وانتشرت مواليدهم فى جزيرة العرب . ثم عبروا بوغاز باب المندب الى بلاد الحبشة ثم الى أعالى السودان . ثم انحدروا مع مجرى النيل الى أن بلغوا الى واديه واستعمروه وأسسوا دول الفراعنة

ولا بد أن ترحل تلك السلائل استغرق آلافا من السنين قبل ظهور الملك مينا أول ملك تاريخى فى مصر ، منذ ثمانية آلاف سنة . ولا يخفى أنه فى هذه المدة الطويلة ارتقى عندهم فن البنيان كما ارتقت فنونهم الاخرى ، وصاروا يبنون بالحجارة بدل اللبن . فثبتت أبنيتهم فى وجه عوامل الطبيعة

□

بنى البابليون برجا بحسب أسطورة التوراة لكى يصنعوا لهم اسما ، ولكى يصعدوا به الى السماء مسكن ربهم . ويمثل هذا القصد بنى الفراعنة أهرامهم لكى تخلد أسماءهم ، وربما كانوا يطمحون أن يقربوا الى السماء ولا بد أنهم رصدوها من قمم اهرامهم

أعظم اهرام مصر هرم خوفو أول الثلاثة فى الجيزة ، بنى فى الدولة الرابعة منذ ٤٧٠٠ سنة قبل المسيح ، أى قبل آدم الميثولوجى بسبعماية سنة . طول كل جانب من قاعدته نحو ٢٤٠ مترا من كل ناحية ، وارتفاعه السمتى نحو ١٦٠ مترا ، وانحداره نحو ٢٤٠ مترا ، أما الهرمان المجاوران له فأصغر قليلا

ومما هو أدل على مقدرة المصريين القدماء فى هندسة البناء والنحت هى الانصاب العظيمة الشاهقة التى تسمى مسلات (والاعاجم الافرنج سموها Obelisk) لانها تشبه

المسلة شكلا . وهى أعمدة مربعة الشكل منحوتة من حجر الجرانيت . وأعظمها يبلغ ارتفاعها ١٠٥ أقدام (نحو ٣٣ مترا) وعرضها نحو ٩ أقدام ـ هى قطعة واحدة ـ وارتفاع قاعدتها نحو ١٣ مترا . ومما كتب عليها أنها صنعت فى ثمانية أشهر . وقد نصبت فى هليوبولس القديمة فى القرن الخامس عشر قبل المسيح . وقد نقلها الملك قسطنطين الكبير الى الاسكندرية . ثم نقلها ابنه سنتنيوس الى ملعب مكسيموس فى رومه . ثم وضعت أمام كنيسة القديس يوحنا اللاتران

ومعظم المسلات المصرية نهبت منذ عهد الرومان الى هذا العصر . ففى رومه منها ١٢ مسلة ، ومنها فى باريس ولندن ونيويورك

واذا تقدمنا الى ما حول العصر المسيحى نرى أن الرومانيين فى ابان عز الامبراطورية الرومانية بنوا أبنية عظيمة فى سوريا ، وأعظمها هيكل بعلبك . وأظن معظمكم أو كلكم تعرفونه ـ لا أقصد بعظمته الاعمدة الباذخة التى فيه ، وان كانت من أعاجيب الزمن لان فى الاطلال المصرية ما يضارعها ضخامة ويمتاز عليها بأن المسلة قطعة واحدة ، ولكن الاعمدة البعلبكية مؤلفة من ثلاث قطع لكل عمود . وارتفاع العمود نحو ٢٨ مترا

على أن ما يمتاز به هذا الهيكل هو الحجارة الثلاثة التى فى جداره الغربى ، أحدها مبنى فوق الاثنين وطول الواحد نحو ١٨ مترا ، وارتفاعه نحو ثمانية أمتار ، وربما كان سمكه هكذا . كيف أمكن نقل أى حجر من هذه الحجارة الثلاثة أو زحزحتها من مقالعها ونقلها ووضعها فى جدار الهيكل . ان ذلك معجزة من معجزات الانسان

هذه عظمة أخرى من عظائم الانسان تحير الألباب

تقدم الى عصرنا الحالى فنرى بناء عظيما كسلالة المسلات والاهرام ، وهو مثلها لا فائدة منه سوى انه حفظ اسما لبانيه جوستاف ايفل . هو برج ايفل المشهور فى باريس هو مبنى من القطع الحديدية الضخمة المتشابكة كالتى نراها فى جسر قصر النيل وغيرها يبلغ ارتفاعه نحو ٣٠٠ متر كارتفاع أحد اهرام الجيزة مرتين تقريبا ، وارتفاع قاعدته الى الشرفة الاولى نحو ارتفاع ثلثه يصعد اليه بمصعد وبدرج ذى ١٩٢٧ درجة

ناطحات السحاب وجسر بروكلن

ننتقل الى القرن العشرين الحالى فنرى أعمالا مفيدة أعظم جدا من جميع العظائم التى تقدم وصفها من الاهرام والابراج والمسلات . وكلكم سمعتم بناطحات السحاب ولا بد أن بعضكم شاهدوها . وهى قائمة فى القسم الجنوبى من نيويورك لدى البحر

وآخر بناية بنيت بعد الحرب الكبرى وهى أعلاها وأضخمها وقد سميت أمبير ستات Empire State . وهى مائة طبقة على الارض ، وطبقتان تحت الارض (أى بدرونان) وقد بنيت من هياكل حديدية متشابكة بعضها ببعض أفقيا وسمتيا ، وملئت خلايا هياكلها بالآجر وطليت بالاسمنت فظهرت كأنها مبنية بالحجر . وارتفاعها نحو ٣٩١ مترا أى

أنها كعلو برج ايفل مرة وثلث مرة وكعلو هرم خوفو مرتين وثلثين. وهى تطاول الاهرام الثلاثة معا لو وضعت الواحد فوق الآخر

وجميع المساكن التى فيها أو معظمها للاعمال والمكاتب والادارات ونحو ذلك . تأوى نحو ٢٥ ألف نسمة بكل راحة . وعند الضرورة تسع ٨٠ ألف نسمة ـ يأوى اليها جميع سكان مصر الجديدة من غير زحام

وهناك ما هو أعظم وأدهش من جميع ما تقدم وصفه حتى ناطحات السحاب . وهو أعجوبة الفن الهندسى الحديدى . ونعنى به الجسور (الكبارى) ، المنبطحة فوق البوغاز الطويل بين نيويورك وبروكلن المسمى النهر الشرقى. وأعظمها هو الجسر الاول والاقدم الممتد من أول نيويورك الى بروكلن

هذا الجسر الضخم العظيم العجيب منبطح فوق النهر (أو البوغاز المذكور) وليس تحته فى الماء أعمدة ولا ركائز بتاتا بل هو ملقى على ركيزتين عظيمتين على البرين من هنا وهناك . تراه معلقا فى الهواء تمر من تحته أعظم البوارج وأضخم السفن من غير أن تمس بطنه

كل ركيزة من ركيزتيه تملأ قاعدة فندق الكونتننتال فى القاهرة وتعلو فوقها نحو ستين مترا تقريبا . وهى مبنية من القطع الحديدية الضخمة المشتبكة بعضها ببعض . والجسر منبطح بين خصرى هاتين الركيزتين ، أى وسطيهما . والارتفاع الباقى منهما تشتبك فيه الحبال والاسلاك الحديدية المرتبطة بظهر الجسر لكى تحمله (الحبال هى اسطوانات حديدية متداخلة قطر الواحدة نصف متر)

تصور هذا الجسر منبطحا فوق النيل بين هاتين الركيزتين من روض الفرج الى امبابه على طول خمسماية متر . ويمتد بعدهما فى البر من كل ناحية نحو ٢٥٠ مترا

كم تظنون عرض هذا الجسر ؟ ٢٥ مترا

يجب أن يكون عريضا لسببين : أولا لكيلا يترنح تحت الاثقال التى تمر عليه . وثانيا لتعدد الطرق عليه . فبين الاسلاك والحبال الحديدية التى تعلق به فى أعالى الركيزتين أولا زوجان من الخطوط الحديدية العريضة لمرور القطارات عليه ذهابا وايابا وكل قطار ست عربات كعربات الاكسبرس عندنا . وفى الصباح والمساء يكون عليه ٣ أو ٤ قطارات فى وقت واحد لانها تنقل نحو نصف مليون نسمة بين المدينتين ذهابا ثم ايابا كل يوم . ثم يلى الزوجين الحديديين زوجان آخران لمرور الترام . ثم يليهما شارعان عريضان لمرور السيارات والمركبات الخ ثم رصيفان للمشاة كأرصفة شوارع القاهرة العريضة ، كل هذه على ظهر هذا الجسر وهو لا يئن تحت هذه الاثقال . فما أعجب قدرة المهندس

هـذه بعض عظائم الانسان المادية ولا سيما البنائية . وقد ضربت صفحا عن انفاق السكك الحديدية التى تمر تحت الشوارع وتحت النهر وتحت البحر وتحت نهر الهدسن . والسكك الحديدية التى تجرى على صقالات فوق الشوارع . والسفن العظيمة التى هى

فنادق ضخمة عائمة على اللجج . وكذلك أعرضت عن عجائب الانسان الاخرى كالطيران والراديو والسينما والنور الكهربائي الخ

ولكن أين عظائم الانسان من عظائم الله فى خليقته . فاليك العجب العجاب

عظائم الله

مهما ارتفع الانسان ببرجه أو ببنائه فلا يستطيع أن يطاول أحقر جبل من جبال الله. أعلى جبال أوربا جبال البيرانيس ٣ آلاف متر فوق البحر . أعلى من جبال الالب نحو ٦٠٠ متر . ولكن أعلى من هذه وتلك ومن كل جبل جبال همالايا فى تبت . وأعلى قمة فيها قمة جبل أفرست . ارتفاعها نحو ٩٠٠٠ متر (تسعة كيلومترات) عن مستوى سطح البحر . فهى أعلى من جبل الشيخ وجبل صنين (فى لبنان) الواحد فوق الآخر مرتين

وعلى الرغم من هذا الارتفاع الهائل ليست هذه الجبال الشامخة بالنسبة الى سطح الارض الذى محيطه نحو ٢٥ ألف ميل تقريبا بأكثر من حبوب رمل على سطح بطيخة. يعنى لو أمسك الله الكرة الارضية بكفه لما أحس بخشونة فيها أكثر مما نحس نحن بخشونة برتقالة

والقمر الذى هو ابن الارض وقد اشتق منها ليس أقل خشونة من الارض . وهو أقرب الاجرام الى الارض ، والطفل لا يخطىء كثيرا حين يبتدىء أن يعى ويمد يده لكى يمسك القمر . لا يبعد القمر عنا أكثر من ربع مليون ميل وبالتحقيق ٢٣٩٫٠٠٠ ميل . وقطر الارض ٧٩٥٠ ميلا وقطر القمر ٢١٦٠ ميلا فالى كم قمر يمكننا ان نقسم الارض ؟ ٤٩ قمرا . فليحسب الحاسبون

وفى حين أن الشمس والقمر يظهران لنا فى مستوى واحد فى قبة السماء فهى أبعد منه عنا نحو ٤٠٠ مرة أى نحو ٩٣ مليون ميل

كان بين فلاسفة اليونان الفيلسوف الطبيعي أرخميدس وهو عالم طبيعى ، وأظنه أول من اكتشف الثقل النوعى . وأول من اكتشف قانون المخل والقبان. فكان يقول أعطونى مخلا طويلا كفاية فاقلب الارض . فحبذا أن يأتينا ارخميدس الآن بمخله ويقلب لنا الكرة الارضية . فبعشر قلبات تصطدم الارض بالقمر

بعشر قلبات تصل الارض الى القمر . بكم قلبة تصل الى الشمس ؟ الشمس تبعد عنا ٤٠٠ مرة كبعد القمر . اذن بأربعة آلاف قلبة تصل الارض الى الشمس

ولكن الويل لها ثم الويل اذا دنت من الشمس . بلحظات تنصهر ، ثم تتحول الى غاز يتبدد على سطح الشمس . ان أصلب معادن الارض تنصهر على حرارة ١٥٠٠ درجة من مقياس سنتغراد على الاكثر وأضف لها ألف درجة أخرى فتتحول الى غاز . ولكن سطح الشمس يشع حرارة ٣ أضعاف هذه الدرجة بل أكثر . يعنى نحو ٥ آلاف درجة سنتغراد

وأما الحرارة فى مركز الشمس فنحو ٤٠ مليون درجة

أهذا هو الجحيم ؟ يصهر الاجسام ويطيرها غازا . فماذا يفعل بالارواح ؟

قطر الشمس نحو ٨٠٠ ألف ميل تقريبا أى نحو ماية مرة كقطر الارض . فكم أرضا تستطيع أن تنحت من الشمس . اذا عملت الحساب بناء على رقمى قطرى الشمس والارض تجد أن الشمس تتقطع الى مليون و٣٠٠ ألف أرض . ولكى يسهل عليكم تصور نسبة الارض الى الشمس ، أقول اذا وضعنا الارض فى قلب الشمس على اعتبار ان الشمس كرة فارغة ، وبقى القمر يدور حولها كعادته ، يبقى بعيدا عن سقف الشمس بقدر بعده عن مركزها — فتأمل ما أعظم الشمس

مع ذلك لا تعد الشمس عظيمة بين النجوم بل هى دون المعدل الاوسط فى الكبر . فهناك نجوم عديدة أكبر منها . ومنها النجم بتلجس وقد سماه العرب منكب الجوزاء . وهو أضخم من الشمس ٢٥ مليون مرة . واذا وضع مكان الشمس ملأ الدائرة التى تدور فيها الارض حول الشمس بل يزيد عليها ، وزميله المسمى اوميكرون قيطس يسع ٣٠ مليون شمس كشمسنا

الأبعاد

نترك الاحجام العظيمة الآن وننتقل الى الابعاد الشاسعة التى لا تقاس بملايين أو سلسلة ملايين الاميال والكيلومترات . نقيس أحيانا المسافة بالوقت فنقول ان الاسكندرية تبعد عن مصر ثلاث ساعات بالاكسبرس . ولا نقول انها تبعد نحو ٢٠٠ كيلومتر . فكم هو حرى بالفلكيين أن يقيسوا أبعادهم السحيقة بسرعة النور فى الثانية وهى ٣٠٠ ألف كيلومتر . فيقولون ان الشمس تبعد عنا ٨ دقائق أى ان نورها يقضى ٨ دقائق أو ٤٨٠ ثانية لكى يصل الينا . فالمتر الفلكى هو سرعة النور فى ثانية

وبهذا المقياس الفلكى النورانى يبعد منكب الجوزاء عنا نحو مايتى سنة نور . وهناك نجوم وسدم تبعد عنا ألوف وملايين السنين

أقرب النجوم الينا يبعد عنا نحو ٤ سنين وربعا تقريبا وهو النجم المسمى بروكسيما قنطوروس . فعلى هذا البعد حول الشمس فراغ مطلق ، وجميع النجوم التى نراها تتباعد بعضها عن بعض بمثل هذه المسافة تقريبا . اذن كم يكون هذا العالم عظيما ضخما

فى هذا العالم الذى نراه أى فى قبة السماء ، لا نرى بالعين المجردة أكثر من ٨ آلاف نجم . ولكن المراصد الفلكية أحصت نحو ١٠٠ ألف مليون نجم ، فعلى اعتبار أن بين النجم الواحد والآخر ٤ سنين نور كم يكون اتساع عالمنا هذا

هذه النجوم متجمعة فى الفضاء بشكل قرص مستدير منفوخ كالرغيف سمكه نحو ثلث قطره ، وحدود هذا القرص هو دائرة غيمية الشكل . ونحن نرى نصفها فى الليل كقوس من الشمال الى الجنوب ، وتسميها درب التبان ، وسماها الاجانب الطريق اللبنى .

واذا رصدناها بالمرقب وجدناها جماعات من النجوم ، لا تحصى مُتراصة بعضها على بعض، على الرغم من أن المسافات بينها حول ٤ سنين نور وانما لبعدها السحيق نراها متراكمة هكذا . وجميع هذه النجوم القريبة والبعيدة فى هذه الدائرة (درب التبان) سماها العرب المجرة والاجانب الغربيون سموها Galaxy

فاذا كانت هذه المائة ألف مليون نجمة متباعدة بعضها عن بعض بمسافة ٤ سنين نور ، فكم يكون اتساع هذه المجرة ؟

بحساب الفلكيين يقضى النور نحو ٣٠٠ ألف سنة لكى يقطعها من جنب الى جنب

لجميع هذه النجوم طبيعة كطبيعة أرضنا وشمسنا ، أى أنها تحتوى على نفس العناصر الكيمية ومنها حرارة وتشع وكهرطيسية وذرات وذريرات وكهارب وفوتونات الخ

وفى بعض الاجرام عناصر ليس مثلها فى أرضنا أو أننا لم نهتد الى مثلها فى أرضنا . كالهيليوم عرفه العلماء فى الشمس قبل أن يكتشفوه فى الارض . ويقول بعضهم ان فى بعض الأجرام عنصرا ثقيلا جدا يزن السنتيمتر المكعب منه طنا . فما قولك اذا صنعنا منه زهرا لطاولة اللعب (النرد) ؟ خذأرم . .

يمكن أن يكون هذا العنصر موجودا فى أعماق أرضنا ، الله أعلم

جميع هذه النجوم ومجموعات النجوم تسير مواكب متساوقة حول مركز المجرة بسرعات متفاوتة وفقا لناموس الجاذبية . وشمسنا تسير على بعد ثلث المسافة بين المركز والمحيط بسرعة ٢٠٠ ميل فى الثانية أى كسرعة الاكسبرس ١٠ آلاف مرة ، وهى حاملة أولادها السيارات على منكبيها وتتم دورتها فى ٣٠٠ مليون سنة . والاجرام التى فى المحيط تتمها فى ٥٠٠ مليون سنة

العالم الاكبر

نترك مجرتنا هذه ونحن على متن ملاك يسير بنا بسرعة النور فماذا نرى ؟

لا نرى شيئا . ظلام دامس . بعد آلاف من السنين نصطدم بمجرة أخرى كمجرتنا هذه . ونرى فيها ما نراه فى مجرتنا أجراما أو شموسا وكوكبات شموس وأنوارا تشع وحرارة وهى تنبىء كما تنبىء هنا عن عناصر كعناصر مجرتنا

ولنعبر هذه المجرة الى فضاء فارغ ومنه الى مجرة ثالثة . وهكذا دواليك الى أن نعد مليونى مجرة . يا للعظمة التى تحار بها الالباب

جميع هذه المجرات سابحة فى فضاء غير متناه . مجرتنا أكبرها ويسميها الفلكيون «قارة» فى أوقيانوس اللانهاية ويسمون المجرات الاخرى جزرا . هذه المجرات متجمعة فى الفضاء الاعظم تجمعا كرويا على شكل بيضة Oval ولكنها بيضة فارغة . وجميع هذه المجرات تسبح فى قشرة البيضة الكونية بمواكب عظيمة فى اتجاه واحد حول المركز . كأنها تحتفل مدى السرمد بقدرة الله وعظمته على حد قول النبى داود الشاعر القديم

بمزمور ١٩ « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه »
كم سعة هذا العالم الاكبر يا ترى ؟
بحسب تقدير علماء هذا العصر يقضى النور خمسماية ألف مليون سنة لكى يتم دورة واحدة حوله

الفضاء اللامتناهى

فلنخرج من هذا العالم الاكبر . الى أين ؟
الى الفراغ المطلق . الى اللانهاية . الى العدم
قد تقول : ماذا يمنع أن يكون وراء هذا العالم الاكبر عوالم أخرى
ليس ما يمنع أن يكون وراء هـذا العالم الاكبر عوالم أخرى ، ولـكن اذا كانت ثمة عوالم أخرى فاذا كانت من طبيعة عالمنا أى هى مادة ذات أجرام وأشعة وحرارة وعناصر الخ فلا بد أن تحس بها مراصدنا مهما كانت بعيدة . وان كانت تختلف طبيعتها عن طبيعة عوالمنا هذه ، ولا نحس بها وليس عندنا وسائل للشعور بها ، فاذن ليس لها وجود . وكل فرض تفرضه وليس عندك دليل على صحته فهو لغو لا قيمة له .
هذا هو العالم الاكبر . ومجرتنا هى العالم الكبير ونظامنا الشمسى هو العالم الصغير ، وارضنا هى العالم الاصغر . فاى عالم نحن اذن
ماذا نقول عن هذا الجسم الحيوانى ؟ أى عالم هو ؟ هو مجموعة خليات لا يحصى عددها والخليات مجموعات من الجواهر الفردة وهذه مجموعات من الكهارب . وهذه مجموعات من الفوتونات . كل هذه الذرات والذريرات لا تحصى كما أحصيت النجوم
فالانسان بين عالمين . عالم العظائم الذى وصفناه وعالم الصغائر الذى لا يتسع الوقت لوصفه فنضرب عنه صفحا.

الله المحيط بالكون

رأينا فيما تقدم أن الانسان منذ شرع يتحضر صار يطمح الى السماء لكى يتعرف أسرارها ويتصل بالله . ولذلك كان يبنى الابراج والاعالى فى أيام سخافته لكى يتصل بها . ولما رأى أنه لا يستطيع ان يصل الى السماء صار يصعد الى الاعالى لكى يرقب حركات الاجرام ببصره . وبصره قصير . فلما عجز عن الصعود الى السماء استنزل السماء اليه بمرصده وآلات رصده المتنوعة العجيبة حتى بلغ حدود العالم الاكبر كما رأيت
ولما كان يحاول أن يصعد الى السماء بواسطة برج أو هرم أو جبل كان تصوره لربه قاصرا كقصوره عن بلوغ السماء بواسطة برج . فكان يتصور ربه شبه انسان أضخم وأقدر من الانسان وساكنا فى السماء . وبقى تصوره كذلك حتى لعهد موسى كليم الله . فكان موسى يصعد الى جبل سينا ، لكى يخاطب ربه ، وربه يلقى عليه وصاياه

حتى أنه كتبها له على لوحين حجريين مرتين لكي يلقيها على شعبه الخاص
وكان أنه كلما تقدم الانسان فى العلم والمعرفة ، وتوغل فى استقصاء الكون رأى أن الله أعظم مما كان يتصوره وأنه أكثر تنزها عن المادة ، وما زال يتوغل فى العلم ويتوغل فى تنزيه الله عن طبيعة البشر الى أن وصل علمه الى أقصى حدود الكون ، فلم يعد يجد شيئا بعد هذه الحدود سوى الله القوة المسيطرة على هذا العالم الاكبر

فالعلم اذن صحح عقيدة الانسان بالله برفعه من مقامه المادى القديم الوضيع ، الى مقامه القدير الاعلى الذى يحيط بالعالم الاكبر ويسيطر عليه ويديره

لم يبق من وجه للشك أو الخلاف فى عظمة الله وقدرته ، وانما بقى ان الانسان لا يعلم ما هو الله الا أنه القوة القصوى المسيطرة والمدبرة . وكفى

واذا شاء الانسان أن يعلم مزيدا عن طبيعة الله عاد خائبا واستحال عليه أن يعرف أكثر مما عرف . فما أعظم الله وما أعجب أعماله . واذن ما أضعف هذا الانسان أمام الله وما أحقره فى هذا الكون

هذه قيمة الانسان المادية . ولكن الانسان ليس مادة فقط . ليس خليات وجواهر فردة وذرات المخ فقط بل هو عقل أيضا . والعقل الذى استطاع أن يفهم هذا الكون وقد شمله وأحاط بحدوده لهو أعظم من العالم الاكبر . فقد صح فيه اذن قول الشاعر الفيلسوف أبى العلاء المعرى :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

نقولا الحداد

رأى لدوندورف فى الحيوان

كان الجنرال لدوندورف من غلاة « الآرية » التى تزعم أن أخلص وأرقى الاجناس البشرية هو الجنس الآرى ، فهو وحده الذى أسس حضارات العالم وهو وحده الذى أنجب ابطال التاريخ

وللجنرال فى هذا الصدد كلمة تدعو الى الضحك من تفكيره ، اذ يزعم أن الحيوان ذاته منه ما هو آرى يمتاز بالقسوة والجسارة ، ومنه ما هو غير آرى يتصف بالخور والاستكانة ، فيقول :

« الأرنب ليس حيوانا ألمانيا بكل تأكيد ، وذلك لانه جبان رعديد . وقد نشأ فى موطن بعيد من ألمانيا ثم هاجر اليها حيث يعيش فيها ضيفا نتغاضى عن عيوبه ومساوئه
« أما الأسد فتتبدى فيه الخصال الالمانية الصميمة ، خصال الجرأة والسطوة والسيادة . وهو الآن يعيش فى افريقيا مهاجرا من موطنه الحقيقى : ألمانيا »

منذ عشرين سنة كان استاذ الجامعة لا يجرؤ أن يتكلم عن شهر « العسل » ولكن
لن تمضى سنوات قلائل حتى لا تكون ثمة جامعة محترمة لا تدرس « فن الزواج »

الجامعات تدرس علم الزواج

« منهاج الزواج » هو أكثر مناهج التعليم انتشارا وتوسعا فى هذه الايام . فمن بين كليات أمريكا وجامعاتها وعددها ٦٧٢ واحدة ، أكثر من مائتين تدرس منهاج الزواج هذا . وهو منهاج كامل شامل ، وواضح صريح ، فيتناول كل ما يتعلق بالحياة الزوجية من مشاكل وأمور ، متدرجا من ميزانية البيت وطريقة موازنتها ، الى تفاصيل المسألة الجنسية من الوجهتين العضوية والنفسية

وقد وضعت مناهج هذه الدراسة وفق ما أثبتت التجارب أن طلابها وطالباتها فى حاجة اليه كى تسعد وتستقيم حياتهم الزوجية . فان فتيان هذا الجيل الجديد وفتياته يعتقدون أنه كلما كانوا أخبر وأدرى بأمر العلاقات الجنسية ، كانوا أقدر على تجنب سقطاتها وتفادى عواقبها . وقد ضاقوا ذرعا بذلك الاسلوب العتيق الذى فرضه عليهم آباؤهم وأمهاتهم فى هذا الموضوع الخطير ، أسلوب الهمسات والاشاعات والاقاويل والظنون ، وأحسوا الحاجة الى أن يعرفوا هذا السر المحجوب معرفة علمية تمتاز بصدقها وأمانتها ، كما تمتاز بصراحتها واخلاصها

ولقيت هذه المناهج فى بداية أمرها مقاومة واستنكارا من رجال الجيل القديم وسيداته ، اذ يريدون أن يشبوا أولادهم وبناتهم وفق تلك المقاييس الاخلاقية القديمة التى شبوا هم عليها منذ ربع أو ثلث قرن من الزمان ، حين كان الكتاب الاخلاقيون يقولون : ان البنت المهذبة هى تلك التى لا تقبل شابا الا ذلك الذى تتزوجه ، وبعد أن يتم الزواج فعلا . وقد نسى أكثرهم أو تناسى أن أخلاقهم ونوازعهم فى سن الشباب هى ذاتها أخلاق ونوازع أولادهم وبناتهم فى أيامنا ، وأن كل ما حدث هو أن السنين المتوالية كبحت الجماح ، وقلمت الاظافر ، فحسبوا اتزان الرجولة ووقار الشيخوخة صفة لازمتهم منذ الصبا وصاحبتهم فى عهد الشباب . وأى أم لا تفرق وترتجف ، ولا تثور وتهيج ، اذا تجرأت ابنتها وسألتها : « قولى لى يا أمى ! ألم تلعبى مع بعض الاولاد قبل أن يخطبك أبى ؟ » ، رغم أنها تذكر تماما عددا من هؤلاء « الاولاد » الذين أمضت معهم بعض ساعات «اللعب» فى أيام الصبا وبداية الشباب !

واذ كان من المتعذر على أكثر الشبان والفتيات أن يتحدثوا الى آبائهم وأمهاتهم فى هذا الامر فى حرية وصراحة ، فقد أتاحت لهم هذه الجامعات والكليات التى تدرس لهم

« منهاج الزواج » أن يتحدثوا الى مدرسيهم ومدرساتهم كيف شاءوا ، فيقلبون الموضوع على جميع وجوهه ، ويطلقون لانفسهم العنان فى بحثه وتحليله

وقد جمعت من هؤلاء المدرسين والمدرسات ، ومن أوراق الامتحان التى اطلعت فيها على اجابات نفر كبير من التلاميذ والتلميذات ، النتائج التالية :

أولا ـ ان أبناء هذه الايام وبناتها أكثر أهلية من آبائهم وأمهاتهم للحياة الزوجية السعيدة ، لانهم يقدمون عليها وهم خبيرون بأسرارها ، قادرون على مشاكلها ، متنبهين الى ما يفسدها فيتجنبونه ، والى ما يسعدها فيأخذون به

ثانيا ـ ان فى أيامنا هذه من « اللعب » بين الشبان والفتيات أكثر مما كان فيما مضى . ولكن ليس ثمة من يستطيع أن يجزم بأن الفساد الخلقى بمعناه الحقيقى غدا اليوم أكثر تفشيا مما كان فى أيام الآباء والأجداد . ومن المحتمل أن فتيات اليوم لا يتحرزن فى الكلام عن علاقتهن بأصدقائهن كما كانت تفعل أمهاتهن ، بل لعلهن يرين فى هذه العلاقات وسيلة من وسائل الفخر والتباهى ، وطريقا من طرق الشهرة والسمعة

ثالثا ـ ان أطباء الصحة الاجتماعية لا يريدون أن يقولوا ان هذا « اللعب » خلو من المضار ومن الاخطار . ولكنهم مع هذا يقررون أن لا سبيل الى القضاء عليه والتخلص منه ، فهو ضرورة من ضرورات سن المراهقة

رابعا ـ ان أكثر هؤلاء الفتيات اللاتى يتلقين دروسا فى الزواج قد وجدن أنفسهن ، مرة أو مرات ، فى مركز يحتم عليهن أن يكبحن جماح شبابهن ، وأن يقفن فى علاقتهن عند « الحد المعقول » . وكذلك كان الامر عند كثير من الشبان . وهذه ميزة كبرى لهذه الدروس التى تقيم أمام الفتى والفتاة من الحقائق ما يكفل صدهما عن طريق الغواية

هذه بعض الحقائق التى يكون من الحماقة تجاهلها . ويجب أن نذكر أن احاطة هذا الموضوع بالتكتم وتغطيته بالاسرار لا يجدى نفعا : لا فى المحافظة على الاخلاق الفاضلة ، ولا فى تحقيق السعادة الزوجية . بل يعتقد مدرسو هذا المنهاج أن التعليم الرشيد الامين هو الطريق الى اقامة هذه الفضائل والى تيسير هذه السعادة

أما الآباء الذين يعتقدون أنه لعب بالنار أن تعرف ابنك أن من الفتيات الجميلات من لا تحجم عن الاستمتاع بقبلات الشبان ، فان الرد الموجز عليهم هو أن ابنك سيعلم هذا ، ولكن لا عن طريقك ، ولا عن طريق فتاة مهذبة ، بل عن طريق الغواية والفساد

واقتبس من ورقة امتحان احدى الفتيات هذه الاجابة التى كتبتها فى صورة رسالة موجهة الى احدى صديقاتها ، فجاء فيها :

« تخيرى الرجل برأسك كما تخيرينه بقلبك . وكونى حذرة حريصة ـ ولا أقول كونى شرسة ناشزة ـ فى علاقاتك بأصحابك . نعم ان هناك بعض « اللعب » . أعرف ذلك تماما ، ولكن لا تجعلى هذا « اللعب » رائدك وهاديك فى اختيار شريكك فى الحياة . واذا كان كل ما تجنينه من « س » هو قبلاته الحارة ، فاعرضى عنه واختارى « ص »

زوجا لك وان كانت قبلاته أقل حرارة وأناقة

« ولا تربطى نفسك بشاب واحد منذ البداية . اختبريهم جميعا على قدم المساواة ، وتبينى حسناتهم ومساوئهم ، واعرفى من منهم العنيد ومن المتسامح ، ومن الغيور ومن الكريم ، ومن الذى يؤثر أمه على الجميع ، ومن الذى يرى فى الزوجة شريكه الحقيقى . وأدرسى تفكيرهم ، وانظرى الى سلوكهم . وبعد ذلك يأتى دور الخطبة ، فتنصرفى عن الجميع الى ذلك الواحد المختار

« واجعلى نفسك جذابة ، ولكن دون اسراف ومغالاة . ولا تجذبى الناس بالحاسة الجنسية وحدها ، بل برأيك وتفكيرك وكلامك . فالرجل يجد ما يشبع الحاسة الجنسية فى كل مكان ، ولكن قلما يجدها فى ذلك الرفيق الانيس الحساس الذى نسميه «الزوجة»

« واختزنى بعض نفسك الى ما بعد الخطبة وما بعد الزواج . لا تبذلى كل شىء الآن ، بل استبقى جزءا كبيرا ينفعك فى المستقبل الطويل »

هذه فقرات من هذه الرسالة القيمة . وقد قال لى مدرسها : « فى وسع والد هذه الفتاة وأمها ، اذا استيقظا فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فوجدا أنها لم تعد بعد من دار السينما ، أن يناما ثانية آمنين مطمئنين ، فمثلها لا يمكن أن يزل ويغوى »

ولكن أبويها قد يسهران الليل طوله مؤرقين مسهدين لو أنهما قرآ ورقة الامتحان كلها ، فعرفا أن ابنتهما تعلم كل شىء عن الحياة الجنسية : عن أحسن اسلوب لقضاء شهر العسل ، عن وسائل منع الحمل ، عن ضرورة التوافق الجنسى بين الزوج وزوجه ، الى غير ذلك من الامور التى كانا يزعمان أن ابنتهما تجهلها جهلا مطلقا . ولكن مدرسها علق على هذا كله بقوله : « حقا انها اجابة جريئة قد تصدم الجيل القديم . ولكنى واثق أن هذه الفتاة ستكون سعيدة فى زواجها ، لانه زواج قائم على العلم لا على الجهل »

ودليلى على قيمة هذه الدروس وفضلها استمده من أقوال بعض التلاميذ والتلميذات الذين لم يتزوجوا الا بعد أن درسوا « الزواج » دراسة علمية كاملة ، فهذه زوجة تقول : « ان زوجى لم يكن يعرف أى شىء . وانى واثقة أن حياتنا الزوجية كانت آيلة للتحطم لولا أننى أرشدته الى الكتب التى يجب أن يقرأها فى موضـوع الزواج ، فقرأها ، واستطاع أن يفهم الامر على حقيقته » . وهذه زوجة أخرى أنقذت من شقاوة الحياة الزوجية ، لانها أصرت على اختبار الرجل الذى تقدم لزواجها اختبارا علميا ، فعرفت أنه مصاب بأحد الامراض الاجتماعية . وهذه ثالثة عرفت أنها لن تحمل ، فأجرت عملية جراحية قبل الزواج أبرأتها من العقم ، فحملت وأنجبت

منذ عشرين سنة كان استاذ الجامعة لا يجرؤ أن يتكلم عن « شهر العسل » الا اذا كان فى غنى عن وظيفته ، ولكن لن تمضى سنوات قلائل حتى لا تكون ثمة جامعة محترمة لا تدرس فيما تدرس منهاجا مفصلا ، صريحا فى « فن الزواج »

(عن مقال لجيروم بيتى فى الامريكان مجازين)

عقرب الساعة

من روائع القصص العالمى
ادجار بو

نقلها الى العربية خليل تقى الدين
عن الترجمة الفرنسية لبودلير

ادجار آلان بو أحد كبار الشعراء والأدباء الأمريكيين فى النصف الأول من القرن الماضى (١٨٠٩ ـ ١٨٤٩) . امتاز بقصصه ذات الخيال الصوفى العجيب ، الذى تمتزج فيه فلسفة الشرق وذكاء الغرب . ولم تظفر اللغة العربية بترجمة كثير من كتبه ، فلعل فى هذه القصة التى نقدمها للقراء ما يحفز بعض الأدباء على نقل آثار هذا الأديب العظيم

كان ذلك الاحتضار الطويل قد حطمنى وهد قواى حتى الموت . وعند ما حلوا وثاقى وأذنوا لى بالجلوس شعرت أن حواسى جميعا قد تخلت عنى . وكان الحكم على ، الحكم الهائل بالاعـدام ، آخر عبارة واضحة طرقت سمعى . وأما ما تلاها من أصوات قضاة التعذيب ، فقد بدا لى كأنى غريق فى طنين حلم غامض . وكانت هذه الجلبة تحمل الى نفسى فكرة الدوران ، ولعل ذلك كان ناتجا عن أننى كنت أشركها فى مخيلتى بعجلة من عجلات الطاحون . على أن ذلك لم يدم الا هنيهة قصيرة ، اذ أننى فجأة عدت لا أسمع شيئا . ومع ذلك فقد ظللت أرى الاشياء ولكننى شد ما كنت أراها ضاربة فى الافراط ! كانت شفاه القضاة ، بزانهم السوداء ، تبدو لى بيضاء ، أشد بياضا من الصفحة التى أخط عليها هذه السطور ، رقيقة ، مفرطة فى الرقة كأنما أرهقتها القسوة البادية على قسمات وجوه أصحابها ، وعزيمتهم التى لا تتزعزع ، وشدة ازدرائهم بالآلم البشرى . وكنت أرى حكم القدر ، أو ما يمثل فى نظرى القدر ، يسيل من تلك الشفاه . كنت أرى تلك الشفاه تتقلص بعبارة الموت ، وأراها تصور مقاطع اسمى ، فارتجف اذ لا أسمع شيئا على الرغم مما أرى من أشياء . ورأيت ، فى لحظات مليئة بقشعريرة الخوف ، تماوج طيات الستائر السوداء التى كانت تغطى جدران القاعة . ثم وقع نظرى على المشاعل السبعة الموضوعة على المنضدة . فأما فى بادىء الامر فقد خيل الى أن هذه المشاعل تمثل المحبة والاحسان وبدت لى كأنها ملائكة ممشوقة بيضاء ستعمل على انقاذى . غير أننى شعرت فجأة بتقزز مميت يغمر جوانب نفسى ، وأحسست رعشـة تسرى فى كل عرق من عروقى كأننى لمست سلكا من الكهرباء . وحالت الاشكال الملائكية الى أشباح لا معنى لها ، برؤوس من لهب ، فأيقنت أن لا أمل يرجى منها . ثم تسللت الى خاطرى ، كنغمة موسيقية ، فكرة الراحة اللذيذة التى تنتظرنا فى القبر ، شعرت بها تنساب ناعمة خفية .

وبدا لى أننى قضيت وقتا طويلا قبل أن أدرك كنهها وأقدرها حق قدرها . غير أننى ما كدت أطمئن الى هذه الفكرة وأتلذذ بها ، حتى أمحت من عينى وجوه القضاة ، كأنما تلاشت بضرب من السحر ، وغابت المشاعل الكبيرة فى طى العدم ، وانطفأت شعلتها انطفاء تاما وشمل الظلام كل شىء . واذ ذاك غاضت جميع الأحاسيس فى نهر الموت وانقلب الكون كله ليلا وصمتا وسكونا . .

كنت مغمى على ، ولكننى لم أكن فاقد الوعى تماما . ولست أحاول الآن أن أحدد أو أصف ما بقى لى من شعورى ، فحسبى أن أقول اننى لم أفقد كل شىء . اننا فى أعمق سبات ، لا بل فى الهذيان ، لا بل فى حالة الاغماء ، لا بل فى الموت ، حتى وفى القبر لانفقد كل شىء . ولو كان الامر على نقيض ذلك لما كان الخلود نصيب الانسان . اننا اذ نستيقظ من سبات عميق نمزق حجبا عنكبية (١) لحلم من الاحلام ، وما هى الا هنيهة حتى ننسى أننا كنا نحلم . وأما عودة المرء من الاغماء الى الحياة فهى على درجتين ، الاولى شعوره بوجوده الروحى أو العقلى ، والثانية شعوره بوجوده المادى ، وأكبر ظنى أننا اذا بلغنا الدرجة الثانية واستطعنا أن نستعيد أحاسيس الدرجة الاولى وقعنا فيها على جميع ذكريات الهوة القائمة ما وراء العالم . ولكن ، ما هى هذه الهوة ، وكيف نميز على الاقل أخيلتها من أخيلة القبر ؟ أما اذا لم تلب أحاسيس الحالة التى دعوتها بالدرجة الاولى نداء الارادة أفلا تعود هذه الاحاسيس من تلقاء نفسها بعد برهة فيأخذنا العجب ، ولا ندرى كيف انبثقت ومن أين ؟ ان أولئك الذين لم يغم عليهم قط لم يتح لهم أن يكتشفوا فى السعير اللاهب قصورا عجيبة ووجوها ليست غريبة عنهم ويشاهدوا رؤى كئيبة سابحة فى الفضاء ، لا يقوى على رؤيتها العاديون من الناس ، ويطيلوا التأمل فى عبق زهرة مجهولة ، وتحار عقولهم فى سر نغمة من الانغام لم تستوقفهم من قبل

فى تلك الفترة الزاخرة بجهودى المتكررة العنيفة ، ومثابرتى على استعادة أثر من آثار حالة العدم التى غرقت فيها نفسى ، مرت بى لحظات كنت أحلم فيها أننى قد نجحت، لحظات جد قصيرة استطعت فيها أن أمحو من نفسى ذكريات كان عقلى الواعى يقول لى أنها تعود الى عهد انعدام كل شعور فى نفسى . أما خيالات تلك الذكريات فقد أرتنى على شكل غير جلى ، وجوها كبيرة تحملنى وتهبط بى الى مكان سفلى ، ثم الى أسفل فأسفل ، حتى انتابنى دوار مخيف من شدة تفكيرى بذلك الهبوط الذى لا نهاية له . وكذلك أعادت الى أخيلة الذكريات هولا شعرت به فى قلبى ، من جراء هدوء هذا القلب هدوءا غير طبيعى . وعقب ذلك شعورى بسكون مفاجىء شمل جميع الكائنات من حولى ، كأنما أولئك الذين حملونى ، فى موكب من الاشباح ، قد جازوا بى فى انحدارهم حدود اللانهاية ، فوقفوا أخيرا ضجرين ، وقد غلبتهم على أمرهم تلك المهمة التى اضطلعوا

(١) نسبة الى العنكبوت ، فهل يقر المترجم عليها علماء اللغة ؟

بأعبائها على غير جدوى ، ثم أحست نفسى عفونة ورطوبة ، ثم حال ذلك كله الى جنون، جنون ذاكرة تتململ فى الخوف والهول

وفجأة يعاود نفسى الصوت والحركة ، حركة القلب الصاخبة وصوت دقاته فى أذنى ، ويتلو ذلك فترة يتلاشى فيها كل شىء ، ثم من جديد ، الصوت ، والحركة ، واللمس ، تنفذ الى كيانى احساسا مدويا ، ثم أشعر بوجودى ، ولكن مجردا عن كل تفكير ، وبغتة يغمرنى التفكير ويستولى على رعب وقشعريرة ، فأبذل جهدا هائلا لادرك حقيقة حالتى، ولا يلبث أن يعقب ذلك رغبتى فى العودة الى الحالة التى كنت فيها ، حالة انعدام الشعور فى . ثم تبعث نفسى بعثا مفاجئا ، فأحاول حركة أفوز بها ، واذا بى أذكر بوضوح جميع ما جرى لى ، من المحاكمة ، الى الستائر السوداء ، الى الحكم الذى صدر على ، الى ضعفى واغمائى . وأما ما تلا ذلك فلا أذكر منه شيئا . غير أننى لم أستطع أن أستعيد هذه الذكريات المبهمة لما حدث لى الا بعد مدة ، وبفضل مثابرتى على ذلك ، مثابرة عنيدة

لم أكن قد فتحت عينى بعد ، وكنت أشعر أننى ملقى على ظهرى ، طليق من كل قيد، فمددت يدى فوقعت ثقيلة على شىء رطب قاس ، فتركتها هنيهة تستريح ، ريثما أفكر : أين أنا ، والام انتهى أمرى . وكنت أتحرق شوقا للاستعانة بعينى ، ولكننى لم أكن أجرؤ على ذلك خشية النظرة الاولى التى ألقيها على الاشياء المحيطة بى . ولم تكن خشيتى هذه ناشئة عن خوفى من وقوع نظرى على أشياء مرعبة ، بل كان يردعنى خوفى من ألا أرى شيئا . بعد ساعة طويلة فتحت عينى بعنف وبى من الروع ما بى . واذا بمخاوفى تتحقق ، اذ كان يغمرنى سواد ليل مدلهم ، وخيل الى ان شدة الظلام تضغط على صدرى وتخنق أنفاسى ، فبذلت جهدا عنيفا لاتنفس ، وكان الجو ثقيلا لا يطاق . وبقيت كما كنت منطرحا على الارض ، ورحت أروض عقلى على التفكير فتذكرت أساليب محاكم التفتيش فى التعذيب ، وأخذت فى الاستنتاج للتوصل الى معرفة مركزى بالضبط ، لقد صدر الحكم على ، وأحسب أنه مضى على صدوره وقت طويل . غير انه لم يدر فى خلدى قط أننى قضيت نحبى ، اذ أن ذلك يتناقض تناقضا تاما ووجودى الحقيقى الذى لا شك فيه . ولكن ، أين أنا ؟ وفى أية حالة ؟ كنت أعرف أن المحكوم عليهم بالموت يموتون على منصة الاعدام ، فى حفلة رائعة تحرص على اقامتها محاكم التفتيش . وأذكر أنه نفذ بأحدهم حكم الموت ليلة محاكمتى فى حفلة روعيت فيها جميع الطقوس المعتادة . ترى : أأكون قد أعدت الى الزندان لانتظر الحفلة المقبلة التى لا يمكن أن تقام الا بعد بضعة أشهر ؟ على أننى أدركت حالا فساد رأيى هذا ، لان لفيف المحكومين الذين تتألف منهم كتلة الضحايا القادمة قد سيقوا فورا الى التعذيب . وفضلا عن ذلك فان الزندان الذى زججت فيه فى بادىء الامر كانت أرضه مبلطة كجميع حجرات المحكومين فى سجون طليطلة وكان النور ينفذ اليه شيئا ما

وفجأة مرت بخاطرى فكرة هائلة قذفت بدمى كالسيل الجارف نحو قلبى فانمحى فى

مدى لحظات كل شعور ، وعند ما عاودني وعيي هببت هبة واحدة ، واقفا على قدمي وأنا أرتجف من رأسي الى أخمصي . ثم مددت يدي كالمجنون ورحت ألوح بهما فيما حولي وفوق رأسي وأنا لا أشعر بشيء . وكنت مع ذلك أخاف أن أخطو خطوة واحدة ، مخافة أن ارتطم بجدران قبري . وكان العرق يتصبب مني ويتجمع قطرات كبيرة باردة على جبيني . وأصبح احتضاري في تلك الحالة من الشك أمرا لا يطاق . وأخذت أمشي متمهلا حذرا مستعينا بيدي الممدودتين ، جاحظ العينين ، مؤملا أن أكتشف خيطا من النور ولو ضئيلا . وخطوت على تلك الحالة بضع خطوات . ولكن كل شيء من حولي كان مظلما ، فارغا . وعاد تنفسي حرا فأيقنت أن ما أعد لي من عذاب لم يبلغ حد الكمال بين صنوف العذاب التي تعدها محاكم التفتيش لضحاياها

ثم انني لما استأنفت تقدمي في كثير من الحيطة والحذر ، عصفت في رأسي ألوف الشائعات التي كانت تتناقلها الافواه عن فظائع طليطلة . فقد كانت تروى عن حجرات التعذيب هذه قصص عجيبة لم أكن أصدقها من قبل ، وكنت أعدها ضربا من الخرافات . وكانت هذه القصص من الغرابة والهول بحيث لم يكن أحد يقوى على ترديدها الا بصوت منخفض . ترى أقضي على بالموت جوعا في هذا السرداب الذي تغمره الظلمات ؟ أم أعدت لي نهاية أشد هولا من تلك ؟ لم يكن يخامرني الشك في أن الامر سيؤول بي الى الموت ، الى ميتة اختير نوع عذابها ، فان معرفتي بأخلاق قضاتي جعلتني على مثل اليقين من ذلك . غير أن طريقة موتي ، والساعة التي حددت له ، كانتا كل ما يشغلني ويعذبني

وأخيرا اصطدمت يداي الممدودتان بشيء صلب . كان جدارا خيل الي أنه مبني بالحجارة ، وكان أملس ، باردا ، رطبا . فتتبعته عن كثب ، وأنا أمشي في كثير من الحذر ، وفي أذني دوي بعض القصص القديمة . ولكن تتبعي الجدار لم يمكني من معرفة مساحة الزندان فقد كان في وسعي أن أتم دورتي حوله وأعود الى نقطة الابتداء دون أن أعرف شيئا . ذلك أن الجدار كان واحدا في جميع أجزائه . فبحثت عن المدية التي كانت في جيبي عند ما ساقوني الى المحكمة فلم أجدها ، اذ أنني ألبست بدلا من الثياب التي كنت أرتديها ثوبا من القماش الخشن . كان في نيتي أن أدخل نصل المدية في شق من شقوق البناء ، فتكون لي علامة أعرف بها نقطة شروعي في الدوران حول الجدار . وعدت ففكرت ان الوصول الى هذه النتيجة سهل للغاية ، ولكن اضطراب أفكاري أوحى الي أن ذلك مستحيل . فمزقت طرف ثوبي وأخذت منه قطعة وضعتها على الارض . وتركتها مستطيلة تشكل مع الجدار زاوية قائمة ، وفكرت في أنني اذا سرت حول زنداني فلا بد لي من لقيا الخرقة على الارض وبذلك تكون دورتي قد تمت . كانت أرض الزندان رطبة لزجة ، فسرت بضع خطوات وأنا أترنح ، ثم لم ألبث أن هويت واقعا على الارض ولم أقو على النهوض لفرط اعيائي ، وأدركني النوم وأنا على تلك الحالة

فلما استيقظت ومددت ذراعي وجدت الى جانبي رغيفا من الخبز وابريقا للماء .

وكنت قد بلغت من العياء حدا لم أفكر معه فى أمر وصول الخبز والماء الى ، فأكلت وشربت بنهم كثير . وبعد قليل عاودت طوافى بالزندان . فبلغت الخرقة بعد طول الجهد والعناء . وكنت عند ما وقعت على أرض الزندان قد عددت اثنتين وخمسين خطوة . فلما بلغت الخرقة كنت قد عددت ثمانى وأربعين خطوة من جديد . فكان مجموع الرحلة مائة خطوة . فاذا حسبنا أن كل خطوتين تؤلفان يردا كان قطر الزندان خمسين يردا . ولاحظت فى أثناء سيرى أن يدى وقعت على كثير من الزوايا فى الجدار ، فاستحال على أن أعرف شكل بناء قبرى ، وكنت أميل الى الاعتقاد أنه قبر لا حبس

لم أكن أعلق على ذلك البحث الذى قمت به كبير أمل ، وانما كان يدفعنى الى الاستمرار عليه نوع من الفضول ، فعقدت النية على ترك الجدار وقطع أرض الزندان من الوسط . فكنت أنقل الخطو فى كثير من التأنى والحذر ، لان أرض الزندان على الرغم من بنائه بمادة صلبة كانت لزجة غدارة . على أننى تشجعت بعد ان سرت بضع خطوات ورحت أمشى بثبات متعمدا السير على خط مستقيم ، فقطعت على تلك الحالة نحوا من عشر خطوات أو اثنتى عشرة خطوة ، واذا بطرف ثوبى الممزق يعترض خطوى فتتعثر به قدمى ولا ألبث أن أهوى ساقطا على وجهى سقطة عنيفة

لم أتمكن مع سقطتى تلك من الالتفات حالا الى أمر غريب لفت نظرى بعد لحظات ، وأنا لا أزال منبطحا على الارض ، وهو أن ذقنى كانت تلامس الارض بينما لم تكن شفتاى وأعلى رأسى تستند الى شىء ، على الرغم من ان هذا الجزء من رأسى كان أشد انخفاضا من ذقنى . وشعرت فى الوقت نفسه أن جبينى كان يغمره بخار لزج ، وأن رائحة خاصة كرائحة نبات الفطر كانت تتصاعد الى أنفى . فمددت يدى وعرتنى رجفة حين عرفت أننى سقطت على حافة بئر مستديرة لم يكن فى وسعى بعد أن أقيس مداها . فأخذت أجوس الحافة فوقعت على قطعة صغيرة من تراب وحجر استطعت أن أنتزعها من مكانها ، وتركتها تسقط فى قعر البئر ، وأصخت السمع متابعا بأذنى صوت سقوطها ، فسمعتها تصطدم بجدران الهوة ، وبعد حين غطست فى الماء غطسة مروعة تلتها اصداء صاخبة . وفى اللحظة نفسها سمعت ضجة فوق رأسى ، كأنما فتح باب ثم لم يلبث أن أقفل ، واخترق حجب الظلام فجأة خيط ضئيل من النور لم يلبث أن عاد فانطفأ

عند ذلك عرفت النهاية التى أعدت لى . ولكننى حمدت الله على تلك السقطة التى انقذتنى ، اذ ان خطوة واحدة كانت كافية لارسالى الى العالم الثانى . كان الموت الذى حاذيته عن كثب وخلصت منه يتسم بذلك الطابع الذى كنت أحسبه ضربا من الخرافات فى قصص محاكم التفتيش

لم يكن لضحايا تلك المحاكم الغاشمة مهرب من الموت ، فاما موت يرافقه تعذيب جسدى مروع ، أو موت يرافقه أشنع صنوف العذاب النفسى . ويظهر أن هذه الميتة الثانية هى التى أعدت لى . كانت أعصابى قد ارهقها عذاب طويل الى حد أن صوتى كان يبعث

الرعشة فى جسدى ، وأصبحت شخصا معدا لذلك العذاب الذى ينتظرنى اعدادا كاملا ممتازا

عدت على أعقابى متجها شطر الحائط ، وأنا أرتجف من رأسى الى أخمصى ، مؤثرا الموت فى مكانى على مجابهة هول البئر ، وكانت مخيلتى فى ظلمات سجنى تضاعف هذا الهول . ولو أننى كنت فى حالة نفسية غير تلك ، لكانت لى الجرأة الكافية لتعجيل نهايتى فورا ، بأقدامى من تلقاء نفسى على الارتماء فى تلك الهوة الفاغرة فاها أمامى . لكننى الآن أجبن الجبناء ، فضلا عن أننى لم أكن قادرا على نسيان ما قرأته عن تلك البئر من أن من يلقى فيها لايموت من فوره، بل ينتظره فيها موت بطىء أعدته عبقرية اصحابها الجهنمية اعدادا متقنا تاما . وأعانتى اضطراب فكرى على البقاء يقظا مدة طويلة ، غير أن النعاس لم يلبث أن سرى الى جفونى فنمت ، ولما انتبهت وجدت الى جانبى رغيفا وابريقا كما فى المرة الاولى . وكان العطش قد أخذ منى كل مأخذ فأفرغت الماء فى جوفى دفعة واحدة . وأحسب أن الماء كان مشوبا بمادة منومة اذ أننى ما كدت أشربه حتى عاودنى نعاس لم أقو على مقاومته طويلا فرحت فى سبات عميق . وعند ما أفقت كانت الاشياء من حولى منظورة تراها عيناى . ذلك لان شعاعا كبريتيا غريبا لم اكتشف مصدره فى بادىء الامر أتاح لى أن أرى مساحة سجنى وشكله

كذلك رأيت أننى غاليت كثيرا فى تقدير مساحة سجنى ، اذ ان جدرانه لم تكن تزيد على خمسة وعشرين يردا ، كما أخطأت فى تخيل شكله ، اذ أن تلمس طريقى فى الظلمة جعلنى أجد له كثيرا من الزوايا، فاستنتجت من ذلك أن سجنى لم يكن مبنيا على طراز هندسى مضبوط ، بل كان التشويش ميزة بنائه . وكان السبب فى استنتاجى هذا اضطراب عقلى ، لان الظلمة الحالكة تؤثر تأثيرا كبيرا فى من ينتبه من سبات عميق أو من يصحو من اغماء . كان سجنى مربع الشكل ، وما حسبته فى بادىء الامر بناء حجريا كان من الحديد أو من مادة صلبة تشبه الحديد . وكان السجن يتألف من قطع حديدية هائلة متصلة بعضها ببعض . ونقط اتصالها تؤلف تلك الزوايا والفرجات . وكان سقف ذلك البناء الحديدى مليئا برسوم قبيحة تمثل رموزا بشعة أوحتها الى الرهبان خرافاتهم عن الموت والقبور ، من وجوه أبالسة بدت على قسمات سحنهم امارات التهديد والوعيد ، ذوى أجساد عظيمة كالهياكل ، الى صور أخرى مخيفة ملأت الجدران قذارة وهولا . فاما خطوط تلك الرسوم فقد كانت واضحة جلية ، ولكن ألوانها كانت باهتة كأنها نصلت بفعل الرطوبة . وعدت أتفحص أرض السجن فرأيتها من الحجر ، وقد فغرت فاها فى وسطها تلك البئر التى كدت أهوى إلى قاعها

رأيت ذلك كله فى شىء من الجهد والعناء لان وضعى كان قد تغير فى أثناء نومى تغيرا غريبا . أصبحت الآن ملقى على ظهرى ، بطول قامتى ، على شبه لوحة خشبية منخفضة . وكنت موثقا الى تلك الخشبة بحبل طويل يشدنى شدا ويلتف حول جسدى كله مقيدا

جميع أعضائي ، ما خلا رأسي وذراعي اليسرى . وكان على أن أبذل جهد الجبابرة لأمد يدي الطليقة الى الطعام الموضوع فى اناء ترابي الى جانبي . وما راعني الا اختفاء الابريق وقد كنت أحس عطشا قاتلا فأيقنت ان جلاديي قد تعمدوا ، فى الخطة الجهنمية التى وسموها لقتلى ، تعذيبي بالعطش ، لان الطعام الذى تركوه لى كان يتألف من قطعة من اللحم دس فيها الملح بمقدار كبير

ورفعت عيني متفحصا سقف السجن فرأيته يعلو عنى نحوا من ثلاثين أو أربعين قدما وهو فى بنائه وشكله يشبه الجدران المحيطة بي . ورأيت فى أحد ألواح السقف صورة غريبة استرعت انتباهي ، هى صورة الزمان كما يمثلونه عادة ، مع شيء من الاختلاف ، ذلك أن الشخص الذى يمثل الزمان كان ممسكا بدلا من المنجل بشيء خيل الى حالا انه عقرب ساعة ضخم ، كالعقارب التى تشاهد فى الساعات الاثرية الكبيرة ، غير ان تلك الآلة كانت تشتمل على شيء استوقفني طويلا . اذ بينما كنت اتفحصها وعيناى عالقتين فى السقف ، خيل الى انها تتحرك ، وكانت مثبتة فوقى تماما . وبعد لحظة تأكد لى ذلك. وكانت حركتها قصيرة ، وجد بطيئة . فرحت أراقبها مدى دقائق ، وبي شيء من الحذر وكثير من الحيرة . على أنني لم ألبث أن صرفت نظرى عنها الى غيرها من الاشياء وقد أتعبتني حركتها الغريبة المملة

واسترعى انتباهي صوت خافت ، فالتفت فرأيت بضعة جرذان هائلة الحجم تقطع أرض السجن ، وكانت قد صعدت من البئر . وبينما كنت أعرضها كانت تسير فى قافلة طويلة وقد اجتذبتها رائحة اللحم ، فكان على أن أبذل جهدا كبيرا لابعادها عنه

ولم يكن فى وسعي أن أقيس الوقت بالضبط ولكنني أحسب انه بعد نصف ساعة أو ساعة رفعت نظرى ثانية الى ما فوقى فراعني ما رأيت وحيرني . رأيت أن عقرب الساعة قد قطع مسافة تقرب من يرد واحد أو تزيد . وأكثر ما زاد فى اضطرابي أن سيره كان نزولا نحوى . ولحظت والرعب أخذ مني كل مأخذ أن طرف العقرب السفلى كان عبارة عن هلال لماع من الفولاذ ، وان مسافة ما بين طرفيه قدم واحدة ، وكان قرناه متجهين الى عل ، وحده الاسفل مشحوذا كحد الموسى . وكان ذلك الهلال يبدو كالموسى كثير السماكة والثقل ، ينتهي نصله المرهف بشكل عريض متين ، كما كان مثبتا الى قطعة من نحاس وله ، وهو يقطع الفضاء فى حركته الدائمة ، صفير مخيف

لم يبق عندي شك بعد ذلك فى النهاية التى أعدتها لى عبقرية قضاة التفتيش الجهنمية . وأحسب ان عمال التفتيش قد دروا باكتشافى البئر ، وكانت أهوال تلك البئر مهيأة لزنديق مثلى مغال فى زندقته ، والبئر رمز الجحيم ، يعتبرها الناس جميعا مستقر كل عقاب، فخلصت منها صدفة ، ولكنني كنت أعرف أن من أساليب محاكم التفتيش فى ازهاق أرواح ضحاياها نصب الاشراك والاحابيل وجعلها حلقات فى سلسلة التعذيب . فلما أنقذتني المصادفة من القفز الى البئر قفزة لا رجعة بعدها ، لم يبق فى نية جلاديي دفعي

اليها قسرا ، بل هيأوا لى ميتة أخرى أعذب من تلك . أجل ، أعذب من تلك . لقد كدت ابتسم فى احتضارى اذ وجدتنى انعت بالعذوبة تلك النهاية التى تنتظرنى

وما يجديني أن أروى ساعات الهول القاتلة التى قطعتها وأنا أعد اهتزازات الفولاذ الراجفة ؟ كانت تلك الآلة الفولاذية التى أعدت لاعدامى تسير نزولا أصبعا أصبعا وخطا خطا فى حركة مستمرة لم يكن فى وسعى أن أقيس مداها الا فى فترات كانت تبدو لى طويلة كالدهور . كان الفولاذ ينزل دائما وأبدا ، وهو دائما وأبدا يقترب منى . ومرت أيام ، قد تكون عديدة ، قبل أن دانانى الفولاذ الى حد ان الهواء الذى كان يبعثه اهتزازه أصبح يلفح وجهى . وكانت تملأ أنفى رائحة الفولاذ المشحوذ . فضرعت الى السماء حتى اتعبتها بتضرعى ان يهوى الفولاذ على بسرعة فينتهى كل شيء . وأصابنى مس من الجنون فحاولت النهوض لعلنى أقوى على ملاقاة ذلك السيف المصلت فوق عنقى . وفجأة شملنى هدوء عجيب وبقيت ملقى على ظهرى ابتسم لذلك الموت البراق كما يبتسم الطفل لمرأى دمية ثمينة

ومرت بى من جديد فترة جد قصيرة امحى فيها كل شعور بى . أقول جد قصيرة ، اذ أننى عند ما استعدت وعيى لم يكن العقرب قد قطع مسافة تذكر . ولكن من يدرى ؟ فربما كان الوقت الذى قضيته مغمى على طويلا . لاننى كنت أعرف أن هنالك أبالسة يحصون على دقائق الغيبوبة . فلما انتبهت أحسست تراخيا فى جسدى وفتورا يصعب تصويرهما ، كمن يصحو من سكون طويل . وكان جسدى ، حتى فى وسط تلك الاهوال يطالبنى بالغذاء فعانيت الامرين حتى مددت ذراعى اليسرى مسافة ما سمح وثاقى ، فوقعت يدى على بقايا طعام أبقت عليها الجرذان . وبينما انا أحمل الى فمى شيئا منها اخترقت خاطرى فكرة شوهاء من غبطة وأمل . ولكن ! أمن الممكن أن يسرى الى نفسى شيء من الأمل ؟ قلت انها فكرة شوهاء . وللمرء مثل هذه الفكر التى لا تبلغ ابدا حد الكمال . وشعرت انها تحمل الى شيئا من غبطة وأمل . ولكننى شعرت فى الوقت نفسه انها فكرة ولدت ميتة ومن العبث أن أبعث فيها الحياة والكمال أو أحاول التعلق بها فان عذابى الطويل كان قد قضى على قواى العقلية فأصبحت ابله معتوها

كنت ملقى على ظهرى ، وكانت اهتزازات العقرب تتجه من يسارى الى يمينى . ورأيت أن الهلال الفولاذى كان مركزا بحيث يخترق جسدى ويحز صدرى فى موضع القلب. وكان لا بد له من تمزيق ثوبى ، وتكرار هذا العمل مرارا حتى يصل الى جسمى . وكنت أرى أن أولى المراحل التى سيشرع الفولاذ بقطعها كانت تمزيق ثوبى ، وذلك على الرغم من صغره فى انحداره ومن المسافة الهائلة التى قطعها منذ أيام والتى لا تقل عن ثلاثين قدما ، وكان يستطيع معها أن ينشر هذه الجدران الفولاذية نشرا . استوقفتنى هذه الفكرة طوية فلم أقدر على تجاوزها كانما وقوفى عندها كان من شأنه ان يعيننى على وقف العقرب على الثياب . ورحت أتخيل الصوت الذى سيرسله الفولاذ وهو يخترق

ثوبى ، والاحساس الذى يبعثه فى الاعصاب ملامسته القماش ، وأطلت التأمل فى ذلك كله حتى ضرست اسنانى

والعقرب دائم الانحدار ، أبدى النزول ، ينزلق نحوى انزلاقا وأنا واجد لذة راعشة فى المقارنة بين سرعته فى الانحدار وسرعته فى الاهتزاز من اليسار الى اليمين ، ومن اليمين الى اليسار . كان العقرب يبتعد هاربا منى ، ثم يقترب حتى يدانينى كأنما يعصف فى جوانبه روح شيطان ! وها هو يتجه صوب قلبى ، فى انسياب النمر ، وأنا اقهقه أو أوالى الصراخ تبعا لاستيلاء هذه أو تلك من الفكرتين على

وهو دائم الانحدار ، لا شىء يمنعه من ذلك ، ولا مفر منه ، لقد ضاق تنفسى ، وصرت اضطرب لكل اهتزازة منه وانكمش على نفسى لعلى أصبح أصغر مما أنا . وكانت عيناى ترافقانه فى انزلاقه الصاعد النازل وبى يأس مجنون حتى اذا أهوى على انطبقت عيناى راجفتين . هذا ، مع ان الموت فرج لى ، وأى فرج ! غير أننى كنت ارتجف من الرعب وأنا أفكر انه يكفى أن تنزل تلك الآلة قيراطا واحدا لتهوى على صدرى تلك الشفرة المشحوذة البراقة . كان الأمل هو الذى يبعث الرعشة فى أعصابى ويجعل جسدى كله يتقلص وينكمش على ذاته . أجل هو الأمل ! الأمل الذى يملأ الانسان حتى على أعواد المقصلة ، ويهمس فى اذن المحكوم عليهم بالاعدام ، حتى فى غياهب سجون محاكم التفتيش

ورأيت أنه لم يبق لبلوغ الفولاذ ثوبى الا عشر اهتزازات أو اثنتا عشرة اهتزازة ، ورافق هذه الفكرة فى نفسى شعور بالهدوء الذى يبعثه اليأس . وللمرة الاولى منذ ساعات بل منذ أيام ، رحت أفكر . فخطر لى أن الوثاق الذى يقيدنى كان مؤلفا من قطعة واحدة ، وأننى موثق برباط متصل ، فاذا قطع الهلال الفولاذى وثاقى فى موضع ما انحل الوثاق بحيث أتمكن من اطلاق ذراعى اليسرى ، وفك الرباط من حول جسدى كله . ولكن ما أشد هول الفولاذ ومجاورته اذ ذاك ! ان أدنى حركة أقوم بها فى تلك اللحظة تودى بى الى موت محتم . ثم ، هل يعقل أن يكون جلادى قد غفلوا عن امكان قيامى بهذه المحاولة . وهل يقيد الوثاق صدرى فى المكان المعد لتلقى الفولاذ ؟ اذ ذاك فكرت فى انهيار آخر أمل ضئيل بقى لى ورفعت رأسى قليلا لأرى صدرى فرأيت ، ويا لهول ما رأيت ! رأيت ان الوثاق كان يلف جسدى كله ، مقيدا جميع أعضائى ، ما خلا الطريق المعدة للهلال الفولاذى ؟

وما كدت ألقى رأسى حتى عادت فلمعت فى خاطرى فكرة شبيهة بالفكرة الاولى التى ساورتنى حين حملت الى شفتى المحترقتين بقايا الطعام . ولكنها كانت هذه المرة فكرة تامة ، على الرغم من ضعفها وهزالها

كانت الجرذان تجاورنى وكنت أشعر منذ ساعات بقربها منى . جرذان صاخبة ، جريئة ، نهمة تجيل بى عيونها الحمراء كأنها تنتظر فرصة مواتية لتفترسنى . فتساءلت :

أي طعام ربضت عليه هذه الجرذان فى غياهب هذا الزندان ؟

كانت الجرذان قد أتت على الطعام كله ، الا بقايا قليلة منه ، على الرغم من أننى حاولت مرارا أن أمنعها عن ذلك ، اذ أن يدى لفرط ما قطعت المسافة تكرارا بين الصحن وفمى ، أصبحت لا تخيفها . وكثيرا ما كانت الجرذان تنشب أسنانها الحادة فى أناملى . فرحت أمسح حبل وثاقى ببقايا اللحم ، متمهلا فى عملى ، وتعمدت ألا أدع مكانا واحدا منه دون أن أضمخه بشىء من ذلك اللحم ، ثم سحبت يدى ومكثت جامدا لا حراك بى

فأما فى بادىء الامر فقد خشيت الجرذان أمرا ما ، فظلت خائفة حذرة لا تفقه معنى لهذا الجمود يعقب الحركة وأولتنى ظهورها منصرفة عنى ، وراح بعضها يتطلع الى البئر . غير أن ذلك لم يدم طويلا ، وتحقق ما توقعته من شره الجرذان . فلما طال بى الجمود تقدم من بين الجرذان أشجعها وتسلق اللوحة الخشبية التى كنت مشدودا اليها ، وراح يستروح رائحة الوثاق . وبدا لى أنها اشارة للهجوم العام . فخرجت من البئر فرق جديدة وتعلقت بالاخشاب ، ثم تسلقتها ووثبت على بالمئات ، ولم تكن حركة العقرب لتزعجها البتة ، اذ كانت الجرذان تتحاماها وتعمل قضما فى الحبل المضمخ باللحم ، وكانت تدب على دبيب النمل ، وتتجمع على جسدى ، وتتزاحم على عنقى ، وشفاهها الباردة تبحث عن شفتى ، وكاد يخنقنى حملها الثقيل وتقززت نفسى على شكل لا يعرف العالم له اسما . وكنت أحس فى صدرى رغبة فى التقيؤ ، غير أننى تجالدت وشعرت أنه لن تمضى دقيقة حتى ينتهى عمل الجرذان ، لاننى بدأت أحس الحبل يتراخى ، وأشعر أن الجرذان قد قطعته فى أكثر من موضع واحد . غير أنى بذلت جهدا فوق طاقة البشر لاحتفظ بجمودى ، فلم تخب آمالى ولم يذهب عذابى سدى ، اذ أننى لم ألبث ان رأيتنى حرا طليقا من كل قيد ، وقد حال الوثاق الى قطع ممزقة ، غير أن العقرب أصبح يلامسنى ، وقد اخترق ثوبى وقطع القميص الذى يلابس جسمى . واذا أكمل العقرب رحلتين أحسست ألما حادا يسرى فى أعضائى جميعا . ولكن ساعة الخلاص دنت ، فما هو أن رفعت يدى حتى لاذ منقذى بالفرار . أما أنا فقمت بحركات فى منتهى التأنى والهدوء . منكمشا على نفسى ما أمكن ، ساحبا جسدى من تحت العقرب ، حتى خلصت من شفرة السيف المصلت فوقى ومن وثاقى معا وأصبحت حرا ولو الى حين !

أصبحت حرا ونجوت من مخالب محاكم التفتيش ، ولكننى ما كدت أنجو من ذلك العذاب الهائل ، وأخطو فى سجنى بضع خطوات حتى وقفت الآلة الجهنمية عن الحركة ، ورأيتها تنجذب الى السقف فتخترقه بقوة غير منظورة ، فملأنى هذا الدرس الذى ألقى على رعبا ويأسا وأيقنت أن جميع حركاتى وسكناتى كانت تحت المراقبة الدقيقة . أصبحت حرا ! بل اننى ما نجوت من الموت على شكل من اشكال الاحتضار ، الا لأدفع الى الموت على شكل آخر . عند ذلك رحت أجيل فى الجدران الحديدية المحيقة بى نظرات معذب معتوه ، واذا بشىء غريب جديد لا سبيل الى الشك فيه يحدث فى الزندان . فمرت بى

لحظات ملأتها أوهاما وافتراضات ، وأنا أرتجف ، وللمرة الاولى منذ وجودى فى ذلك المكان الرهيب وقفت على مصدر النور الكبريتى الذى كان ينير السجن . كان ذلك النور يتسلل من شق صغير ، على طول أساس الجدران ، فأيقنت ان الجدران كانت منفصلة عن الارض تمام الانفصال ، وعبثا حاولت أن أرى شيئا من خلال الشق

وفيما كنت انهض يائسا ، اتضح لى سر الغرفة وتفكك أجزائها ، كما اتضح لى سر التبدل الذى حصل فيها منذ حين . وكنت قد لاحظت أن خطوط الصور المرسومة على الجدران كانت واضحة ولكن ألوانها كانت باهتة غامضة . اما الآن ، فقد أخذت هذه الالوان تتألق تألقا غريبا يخلع على تلك الرسوم أشكالا تهد أعصاب أى انسان لم تهبه الطبيعة أعصابا متينة كأعصابى . وكانت عيون الابالسة الفاتكين ترصدنى من ألف مكان وتلمع لمعانا مخيفا بلهيب من نار حاولت عبثا أن أنسبها الى اختراع المخيلة

كلا ! لن تكون تلك النار من اختراع الخيال ! اذ كان يكفى أن أتنفس حتى تملأ خياشيمى رائحة الحديد المحمى وامتلأ جو السجن برائحة قتالة . وشعرت أن بريق العيون التى كانت ترقب احتضارى يتضاعف شيئا فشيئا ، كما كانت تلك الرسوم الدموية المخيفة تزداد صبغتها احمرارا . كنت الهث وأكاد لا أقوى على التنفس ، ولم يبق عندى ريب فيما أعده لى جلاديى . الويل لهم ! لقد تحجرت قلوبهم وخلت من كل رحمة تبا لهم من أبالسة جحيم !

تراجعت عن الجدران الفولاذية المحماة ، صوب الوسط ، وراودتنى ، أمام الموت احتراقا ، فكرة الرطوبة التى تحتويها البئر ، فشعرت بها بلسما لجراحى ، وهرولت الى حافة البئر القاتلة ، وأرسلت نظرى فى قعرها ، وكان لهيب السقف يضىء زواياها . الا أن عقلى لم يسلم ، مدى لحظات ، بما كانت ترى عيناى . غير أننى أخيرا فهمت ، وأدركت على الرغم منى ، ما دبر لى . رباه ! من يهبنى لسانا لاتكلم ، لاصرخ ؟ لقد رضيت جميع صنوف العذاب ، الا هذا !

صرخت ، وتراجعت عن فوهة البئر ، ودفنت وجهى فى يدى وأجهشت بالبكاء والنحيب

وكان الحر يتزايد باستمرار . ورفعت نظرى ثانية وأنا انتفض كمن أصيب بالحمى ، فرأيت ان قد حدث فى الزندان تبدل جديد ، ولم يخامرنى شك فى أن شكل الحجرة قد طرأ عليه تبديل . ولم أستطع فى بادىء الامر أن أدرك مدى ذلك التغير ، غير أنهم لم يتركونى طويلا أتخبط فى غياهب الشك ، اذ ان انتقام محاكم التفتيش أخذ الآن يسير معجلا بعد أن أزعجت أربابها السعادة التى نعمت بها مرتين ، ولم يبق من مجال للمزاح مع ملك التعذيب . كانت الحجرة أول ما كانت ، مربعة الشكل ، فاذا بزاويتين من زواياها الاربع تنفرجان وزاويتين تضيقان . واذا الغرفة آخذه بالاستطالة وجدرانها تقترب منى وتضيق على الخناق ، وأنا أتمنى معها لو تطبق على تلك الجدران الحمراء كتوب يحمل فى طياته السلام الدائم

رحماكم ! أدركونى بالموت ، وانجدونى به ! اقتلونى كما تشاءون ، الا اختناقا فى هذه البئر

يا لى من مجنون ! ألم أفهم أن البئر لا مناص منها ، وأنها وحدها السبب فى الحديد المحمى الذى يحصرنى ؟ هل كان فى قدرتى أن أقاوم لهيبه ؟ واذا افترضنا أننى قدرت على ذلك ، فكيف أقاوم ضغط الحديد ؟

وها هى الحجرة تزداد طولا وجدرانها تتدانى مسرعة بحيث لا تدع لى مجالا للتفكير . أما نقطتها الوسطى فقد كانت فوهة البئر . وها أنا أحاول أن أتراجع فتصدنى الجدران النارية ، المتقاربة أبدا بعضها من بعض ، وها هو جسمى قد أصيب بحروق ورضوض ، ولم يبق فى الغرفة مكان يسعه ، بل لم يبق فيها موطىء لقدمى ! أصبحت لا أناضل ، ولا أكافح ، ولكن احتضارى ارتفع فى صرخة طويلة هائلة بعثها اليأس ، وشعرت أننى اترنح على فوهة البئر فحولت أنظارى . . . .

وفجأة طرقت أذنى أصوات بشرية ، ثم عصفت أبواق ، ثم هدير جبار كأنه صادر عن ألف صاعقة ، واذا بجدران النار تتباعد فجأة متراجعة بعضها عن بعض ، ويد ممدودة تمسك بى ، وأنا أهوى متلاشيا فى الهوة الفاغرة فاها . كانت تلك اليد يد الجنرال لاسال ، وكان الجيش الفرنسى قد احتل طليطلة فى تلك الساعة وأمست محاكم التفتيش فى قبضة أعدائها

خليل تقى الدين

من نوادر المتنبئين

أخذ رجل ادعى النبوة أيام المهدى ، فأدخل عليه ، فقال له : أنت نبى ؟ قال : نعم . قال : والى من بعثت ؟ قال : أوتركتمونى أذهب الى أحد ؟ ساعة بعثت وضعتمونى فى الحبس . فضحك منه المهدى وخلى سبيله

وتنبأ آخر فى زمن المأمون ، فقال له المأمون : أريد منك بطيخا فى هذه الساعة . قال : امهلنى ثلاثة أيام . قال : ما أريده الا الساعة . قال : ما أنصفتنى يا أمير المؤمنين ، اذا كان الله تعالى الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ، ما يخرجه الا فى ثلاثة شهور ، فما تصبر أنت على ثلاثة أيام ؟!

فضحك منه المأمون وعفا عنه

تاريخ بيت يكتب فيه التاريخ

البيت الأبيض

لم يسم « البيت الابيض » الا منذ عهد قريب ، فى عهد رئاسة تيودور روزفلت الذى أحال لونه من أغبر قاتم الى أبيض ناصع . أما حين وضع حجره الاساسى منذ مائة وخمسين سنة فكان يسمى « قصر الرئيس » ثم أطلق عليه لقب فخم فسمى « مقر السلطة التنفيذية »

وقد أقيمت مسابقة دولية لبناء هذا البيت ، فاز فيها المهندس الايرلندى جيمس هوبان من بين تسعة عشر مهندسا اشتركوا فى المسابقة . واختار له هذا المهندس اللون الاغبر القاتم ، ولكنه كان لونا كئيبا مقبضا لا يلائم الروح الامريكى المرح المنطلق ، فجاءوا بمائتى جالون من الزيت الابيض وبخمسة وعشرين نقاشا ، فأحالوه الى بيت ناصع البياض .

وكان أول من أقام فيه الرئيس جون آدمز ، ولم يكن فيه حين دخله فى سنة ١٨٠٠ سوى ست حجرات اتخذ منها مسكنه ومكتبه . ورفضت زوجته أن تقيم معه فى هذا المسكن الضيق ، فبعد أن أقيمت حفلة الاستقبال الاولى التى كان لا بد لها من حضورها، استقلت عربتها الى بيت أمها فى «ماسشوستس» الى أن انتهت مدة رئاسة زوجها فلحق بها!

وأقام فى البيت الابيض واحد وثلاثون رئيسا ، أضاف كل منهم الى المبنى شيئا جديدا . فالرئيس واشنجتون هو الذى اختار موقعه وفى عهده بدأ تشييده . وفى عهد الرئيس آدمز بنى سلمه ووضع فيه جهاز التليفون . وعنى الرئيس جيفرسون بما حول البيت فغرست الحدائق والاشجار . ولم تكن امريكا حينذاك قد بلغت ما بلغته اليوم من البذخ والاسراف ، فأقيم لموظفى الرئاسة فى عهد جيفرسون بضع غرف من الخشب الى جوار البيت . ولكى يكون هناك تناسق فى مظهر البيت ، أقيمت فى الجانب الآخر منه حظائر للماشية . واشترى الرئيس عددا من الابقار ظلت تمون سكان هذا البيت باللبن والزبد والجبن حتى سنة ١٨٦٦ !

وأحدث الرئيس مونرو تغييرا كبيرا فى داخل البيت ، اذ جاء اليه من بيته الخاص بأثاث ثمين باعه للحكومة بتسعة آلاف دولار

ولما انتخب فان بورن رئيسا أبى أن ينتقل الى البيت الابيض حتى تدهن جدرانه ، وتغطى أرضه ، ويغير ما فيه من آنية « الصينى » والزجاج . وقد كلف هذا خزانة الدولة ستين ألف دولار . ولكن هذا الاسراف غير رأى الناس فيه ، وخاصة لما علموا

أنه اشترى فيما اشترى طاقما من الملاعق الذهبية !

ولما مات الرئيس تايلور أثر اصابته بالحمى ، تولى الرئاسة - بحكم الدستور الامريكى - وكيل الرئيس فيلمور ، فأتم المدة الباقية من سنى الرئاسة الاربع . ولكنه أدخل فى البيت الابيض خلال هذه المدة الوجيزة تغييرا كثيرا ، اذ اقترحت زوجه انشاء مكتبة فيه اختارت لها غرفة فى الطابق الثانى . ولكن أين المال ؟ أقامت حفلة موسيقية عائلية لاعضاء الكونجرس ، وأخذت هى وابنتها فى أثناء الحفلة يتحدثون الى أضيافها عن قيمة الكتب والمكاتب فى تجميل البيوت وتحبيبها الى ساكنيها . فلما انعقد الكونجرس وطلب اليه اعتماد المال اللازم لانشاء مكتبة فى دار الرئاسة أقر الطلب ، فأنشئت مكتبة صغيرة حافلة بكتب التاريخ والسياسة الى جانب مجموعة من قصص الادباء ودواوين الشعراء

ولكن لنكولن ، عضو المؤتمر ، عارض فى اضاعة المال فى مثل هذا الترف . بينما الجنود يسيرون حفاة ويلتحفون العراء .. والواقع أن لنكولن كان أكثر من نزلوا هذا البيت اقتصادا ، فان كل ما جاء به اليه فى أثناء رئاسته « سرير » طوله سبع أقدام لان السرير القديم كان أقصر من أن يتسع لقامته المديدة

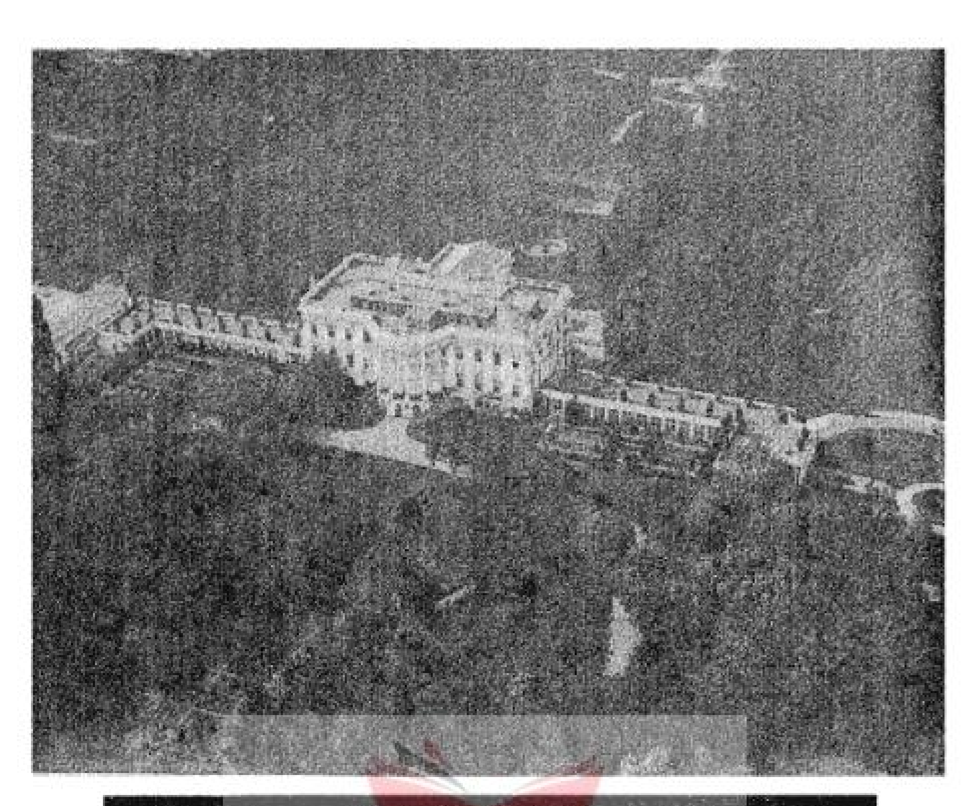
وخلف لنكولن الرئيس جرانت ، فكان على النقيض من سلفه ، اذ كان ينفق فى بعض الحفلات ألفا وخمسمائة دولار ، وهو مبلغ ضخم حينذاك ، ولما أراد الامير الانجليزى « ارثر أوف كونوت » أن يزور دار الرئاسة ، أمر بتغيير جميع أثاثها بأثاث جديد من طراز عهد الملكة فكتوريا

وأضافت زوجة الرئيس هايز طاقما من أدوات المائدة يتألف من ألف قطعة ، اشترتها بخمسة وعشرين ألف دولار ، اقتصدتها من نفقات الولائم والحفلات . وكانت كل قطعة من هذه القطع الالف مزينة بصورة نبات أو حيوان مما فى أرجاء الولايات المتحدة

ولما انتخب آرثر رئيسا أبى أن ينتقل الى دار الرئاسة حتى يجدد أكثر ما فيها من الاثاث والرياش ، فخرجت منه أربع وعشرون عربة محملة بما بيع فى المزاد . وأدخل هاريسون الاجهزة الكهربائية فى البيت . أما جاكسون فقد بنى فيه جناحا كاملا ، فغدا البيت بعد ذلك مستديرا كل الاستدارة

ثم جاء تيودور روزفلت ، وكان شديد الكلف بالمظاهر ، وهو الذى قيل فيه اذا كان فى عرس أراد أن يكون العريس واذا كان فى مأتم ود لو كان الجثة ! فاستقطع من الجزء المخصص للسكن بضع غرف أضافها الى الغرف المخصصة للولائم والحفلات ، فقد كان يدعو اليها جما غفيرا حتى قيل ان أبواب البيت كانت تضيق بهم عند انصرافهم ، فكان بعضهم يقفز من النوافذ .. وفى عهده اعتمد الكونجرس نصف مليون دولار لتوسيع البيت ، وتجديد أثاثه ، ودهانه باللون الابيض

ولما دخلت امريكا الحرب الماضية فى سنة ١٩١٧ ، أمر الرئيس ويلسون أخذا بسياسة الاقتصاد بيع ما فى حظيرة البيت من الاغنام ، فبيعت عشرون نعجة وتبرع الرئيس بثمنها



منظر عام للبيت الأبيض التقط من الجو

لجمعية الصليب الأحمر . وكذلك اقفر البيت من الحفلات حتى جاء الرئيس هاردنج فى بداية عهد السلم ، فكانت فترة من المرح والبهجة حفل فيها البيت بولائم العشاء والحفلات الساهرة

واتسع البيت فى عهد الرئيس كوليدج ، فصارت فيه سبع غرف للنوم ، وغرف كثيرة لخدم البيت ، تشغل أكثر الطابق الثالث الذى بنى حينذاك

وحول الرئيس هوفر غرفة المكتبة البيضاوية الى صالة سينما ، اذ رأى ألا يحرم بيت رئيس أمريكا من المتعة الاولى التى ابتكرتها أمريكا

والآن ، فى عهد الرئاسة الثالثة من رئاسات روزفلت ، لا يشهد البيت الابيض شيئا من الولائم والحفلات . بل لم يعد على أبوابه هذا العدد الجم من الجنود والحراس ، فثمة فى ميادين القتال ما هو أولى بهم . ولهذا لم يبق مفتوحا من أبوابه سوى باب واحد عليه نفر من الحجاب يتفرسون فى كل رائح وغاد

ولكن العمل فى البيت الابيض تضخم وتفرع ، فاقتضى الامر انشاء جناح جديد فى الجانب الشرقى منه ليتسع لهيئة السكرتارية التى يبلغ عدد موظفيها الآن أكثر من مائتى موظف

(عن صحيفة ورلد دايجست)

البنسلين : آخر معجزات الطب

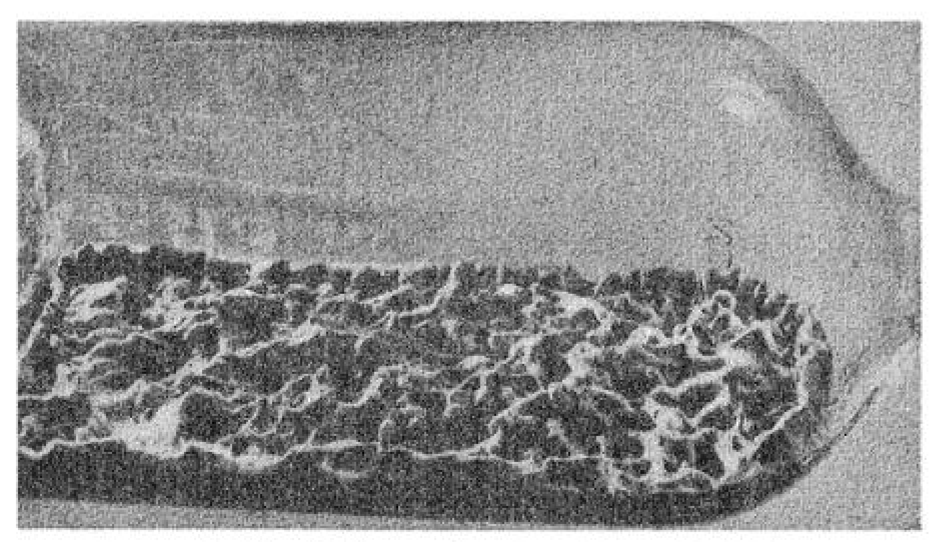
فى وسط هذه الحرب العظمى التى تودى فى كل يوم بآلاف من القتلى وتترك فى كل يوم آلافا من الجرحى ، توفق الانسانية الى دواء ينقذ من الموت آلافا كان مقضيا عليهم بالفناء ، ويريح من الألم آلافا يئنون من الجراح الدامية ويعانون من الأدواء العصية

هذا الدواء هو « البنسلين » الذى كثر عنه حديث العلماء وكلام الناس فى الشهور الماضية . وكأنما أراد « العلم » ان يعطى بيد ما سلبه بيد أخرى : فآلات الدمار التى ابتكرها ومواد الفتك التى صنعها ، قد وضع مقابلا لها هذا الدواء الذى لم يبتكر من قبل مثيلا له فى اثره الناجع وقوته الفعالة . بل ان مادة « السلفانلاميد » ومشتقاتها — وقد كانت منذ قليل أنجع دواء عرفه الطب الحديث ، لم تعد تذكر شيئا الى جانب « البنسلين » الذى يتخذه الاطباء فى علاج أنواع من الامراض والجروح كانت عصية عليهم منذ عهد قريب

وتؤخذ مادة البنسلين من « العفن » ، ذلك النبات الطفيلى الذى يتكون على الخبز أو الجبن أو البرتقال الفاسد أو ما يشبه ذلك . وقد كشف عن هذه المادة العجيبة العالم الانجليزى الدكتور الكسندر فلمنج فى سنة ١٩٢٩ . وكان كشفه عنها بطريق الصدفة كما هو الشأن فى أكثر الكشوف العلمية الكبرى . فقد كان يربى بعض الجراثيم على قطعة من الزجاج تركها فى الهواء الطلق . فسقطت فى وسط الزجاجة قطعة من « العفن » حملها الهواء . وجاء يفحص جراثيمه



قطعة من العفن الذى تستخرج منه مادة البنسلين ، أخذت صورتها من خلال عدسة المجهر . ولكن من المتعذر استخراج كميات كبيرة من هذا العفن الطبيعى ، ولهذا تتجه الجهود الى تربية العفن فى المعامل بأيدى العلماء والاخصائيين



وهذه إحدى الزجاجات التى يربى فيها العفن بالمعامل الكيمياوية ، ليمكن تحضير كميات كبيرة من بنسلين تكفى حاجة جنود أمريكا وبريطانيا المنتشرين فى أرجاء العالم ، ممرضين للجراح الخطيرة ولكثير من الأمراض



تقوم الآن فى أمريكا وبريطانيا عشرات المعامل المختصة بإخراج البنسلين . وهذه صورة جانب من أحد معامل أمريكا ، حيث تقوم إحدى العاملات بصب العصارة المتعفنة التى يؤخذ منها البنسلين



أصيب هذا الطفل البالغ من العمر سنتين بحالة خطيرة من التسمم الدموى ، فعولج بالبنسلين فشفى من هذا المرض الذى كان يستعصى علاجه على الأطباء فى مثل هذه السن الباكرة



أثبت البنسلين أنه الدواء الناجع لكثير من الأمراض السرية ، فأثره فى شفاء السيلان ناجع الى أقصى حد ، وكذلك يرجى أن يكون ممكنا فى علاج مرض الزهرى . وهـذا رئيس قسم الأمراض السرية فى وزارة الصحة الأمريكية يشرف على تعبئة الأنابيب بمادة البنسلين لتتخذ فى مقاومة هذه الأمراض

بالمجهر ، فوجد ان ما حول قطعة العفن قد صار أبيض صافيا ، دلالة على أن ما فيها من الجراثيم قد ماتت . فاستنتج من ذلك أن هذه المادة فيها ما يقتل الجراثيم بطريقة أسرع وأقوى من أية مادة أخرى كشف عنها الطب . وأجريت تجارب كثيرة أدت الى الكشف عن هذه المادة التى يحتويها العفن ، وسميت باسم « البنسلين » نسبة الى الاسم العلمى لمادة العفن التى استخرجت منها

وقد أثبت البنسلين أنه الدواء الناجع للجروح والقروح المتعفنة الخطيرة ، فلما قامت الحرب ، صارت الحاجة ماسة الى مقادير كبيرة من البنسلين تعالج بها جروح الجنود المتبثين فى أرجاء الارض . فاتجه بحث العلماء الى انتاج البنسلين فى المعامل بالطرق الكيماوية ، فنجحوا فى ذلك وأنشأوا فى بريطانيا وامريكا عشرات من المعامل التى تمون ميادين القتال بما يلزم جنودها من هذا الدواء الشافى من الجروح الخطيرة التى كانت تعصف فى الحروب الماضية بآلاف الارواح ، اذ يقضى على ٩٠ ٠/٠ من الجراثيم التى تسمم الجروح

وقد ذاع اسم البنسلين فى أرجاء العالم منذ شهور عند ما نقلت كمية منه بالطائرة الى افريقيا ليعالج به مستر ونستون تشرشل من مرض الالتهاب الرئوى الذى أصابه عقب مؤتمر القاهرة . وغدا ، بعد ما تنتهى الحرب ، يصبح هذا الدواء فى متناول جماهير الناس فى مختلف بقاع الارض لتعالج به الامراض التى أثبت قدرته عليها وأهمها حالات الغنغرينة، والألتهاب الرئوى، والسيلان، والزهرى ، وقد يتسع نطاق فائدته فتشمل امراضا أخرى ما زال الطب يتعثر فى علاجها ومنها مرض التدرن الرئوى ومرض السرطان وكذلك بعض الحميات الخطيرة

العلم والعالم

مصر تساهم فى تعمير أعظم متحف طبى

متحف الكلية الملكية للجراحين فى بريطانيا هو أعظم المتاحف الطبية ومن أقدمها عهدا، فانه يحتوى على ١٤٠٠٠ نموذج جمعت على مر الايام منذ انشائه فى سنة ١٧٨٤

أنشأ هذا المتحف الجراح الانجليزى جون هنتر (١٧٢٨ — ١٧٩٣) ، ثم تولت أمره كلية الجراحين بعد أن دفعت فى شرائه واحدا وعشرين ألف جنيه ، وأخذت منذ ذلك الحين تمونه بأندر الموميات التى تلقى دراستها ضوءا لا على الطب والجراحة وحدهما ، بل على علوم شتى منها التاريخ ، وعلم الاجناس

فهو يشتمل على أقدم مومياء فى العالم ، وهى مومياء أمير مصرى مات فى سنة ٢٩٠٠ قبل الميلاد . وبه مجموعة من رؤوس الجنس الماؤرى الذى كان يسكن استراليا قبل كشفها وكلها مزخرفة برسوم الوشم . وكذلك ست جماجم من سكان امريكا الاصليين المعروفين بهنود الامازون الحمر

ويضم المتحف الهيكل العظمى للعملاق الايرلندى شارل بيرن الذى بلغ طول قامته سبع أقدام وسبع بوصات ونصف بوصة . والى جانبه هيكل قزم من أبناء صقلية يدعى كارولين اوراشامى ويبلغ طوله تسع عشرة بوصة !

ومن محتويات المتحف هياكل بعض المشهورين فى التاريخ ، منها هيكل الملكة برنجاريا زوجة ريتشارد قلب الاسد الذى أبلى بلاء عظيما فى الحروب الصليبية

ولكن الحرب لم تشأ أن تعفى هذا المتحف العلمى العظيم من نقمتها ، فأصابته بعض القنابل الضخمة فى اثناء معركة بريطانيا ، فهدمت اجزاء من مبناه وحطمت كثيرا من هياكله ونماذجه ، وقد وجهت صحيفة « المبشر » الانجليزية نداء الى الهيئات الطبية فى العالم أن تساهم فى تعمير هذا المتحف وامداده بما يزيد عن حاجتها من الموميات .

وقد رأت كلية الطب بالقاهرة — وهى تعد من خير كليات الطب فى العالم — أن تساهم فى هذا العمل العلمى الجديد ، فأعلن الدكتور على ابرهيم باشا أن مصر يجب عليها كما يشرفها أن تشارك فى تمكين هذا المتحف من استئناف أداء رسالته العلمية . ولكن تنفيذ هذه المشاركة لن يتم الا بعد ان تتيسر سبل المواصلات الى انجلترا ، والى أن يتهيأ للمتحف البريطانى من الاوعية والادوات العلمية ما يمكنه من حفظ ما يرسل اليه من هياكل وموميات

تجربة فى التنويم المغناطيسى

روت احدى الصحف العلمية فى امريكا أن رجلا أراد أن يلتحق بوظيفة « ساعى بريد » ، يحمل الرسائل من دار البريد ويوزعها على سكان أحد الاحياء . وكان مطلوبا ممن يريد هذه الوظيفة أن يكون عارفا اسماء ما فى الحى من الشوارع والطرقات والميادين . وحاول ذلك الرجل أن يحفظ هذه الاسماء وموقع كل منها فلم تسعفه ذاكرته . فذهب الى أحد المنومين المغنطيسيين فنومه ، وأخذ يقرأ عليه اسماء هذه الشوارع والدروب ومواقعها واتجاهاتها . وكان عددها قرابة الالفين . وذهب الرجل الى الامتحان الذى عقدته دار البريد ، وسئل عن شوارع الحى وفروعها واحدا واحدا ، فلم يخطىء فى أى منها ، وظفر بالوظيفة

جهاز لتيسير التعليم

هذا هو جهاز « السينكرفون » الذى اخترعه أخيرا ن. ساندور عضو جمعية المهندسين الميكانيكيين بلندن. وقد وصفته « النشرة العلمية الشهرية » التى يصدرها المجلس البريطانى فيما يلى :

« يجمع هذا الجهاز بين جهازين : أحدهما سمعى ، أى مختص بالاذن ، والآخر بصرى ، أى مختص بالعين . أما الجهاز البصرى فيتكون من اطار زجاجى تظهر عليه صور مضاءة يتبع بعضها بعضا . والجهاز السمعى هو عبارة عن حاك (فونغراف) يمكن بواسطته شرح كل صورة وقت عرضها فى الاطار الزجاجى

« وفى السينكرفون من المزايا ما يفضل به السينما ، وبخاصة فى التدريس . وذلك لان الصور المعروضة يمكن رؤيتها فى رابعة النهار . ولانه من الممكن ايضا بقاء كل صورة فى الاطار لبضع ثوان . ففى القاء الدرس الاول يمكن للمعلم ابطال الحاكى . ثم شرح الصور بكلمات وملاحظات من عنده . وابقاء كل صورة فى الاطار لاى مدة يختارها . ثم يمكنه بعد ذلك ادارة الحاكى . واعادة الدروس

« وقد استخدم أولو الامر من الحربيين البريطانيين السينكرفون فى تعليم الجنود شتى الامور الخاصة بالحرب ، فاستخدم مثلا فى تعليم الملاحة النجمية أى الملاحة وعلاقتها بمواقع النجوم . وكذلك فى الاستدلال على انواع الطائرات وهى محلقة فى السماء . ثم فى تعليمهم كل ما هو خاص بالمدافع ، ثم بيان وشرح الاجزاء التى تتركب منها . وكذلك ايضاح كل ما له علاقة بالاجهزة الحربية الاخرى . وقد استخدم السينكرفون أيضا فى ارشاد المبتدئين من عمال الذخيرة الى اسلم الطرق لادارة الماكينات والاجهزة الخاصة بهذه الصناعة ، وعن الطرق التى يمكن باتباعها جعل الانتاج اكثر ما يكون

« ومن النواحى الاخرى التى أمكن فيها استخدام السينكرفون تعليم الزراع الطرق التى يمكن بها التعرف على الحشرات الزراعية . وارشادهم الى الطرق التى يمكن باستخدامها ابادة تلك الحشرات . ويمكن فى هذه الحالة وضع الجهاز فى عربة متنقلة لارشاد المزارعين اما فى مزارعهم أو فى حقولهم . وقد اثبتت التجارب ان وقوع الصور الثابتة غير المتحركة فى آن واحد مع الشرح الشفهى ترسخ رسوخا تاما فى الذاكرة فلا تنسى على مر الايام . ويمكن القول بأن هذه الطريقة يمكن استخدامها فى أى غرض مهما كان نوعه ولتدريس أى علم كان » .

الحروب تزيد المواليد

بلغ عدد المواليد فى الولايات المتحدة الامريكية فى سنة ١٩٤٣ رقما قياسيا قدره ٣٫٢٠٠٫٠٠٠ وهذا الرقم يزيد قرابة مليون مولود عن عدد المواليد فى سنة ١٩٣٣

ولا شك أن مرجع ذلك الى أن نسبة المواليد تطرد زيادة ونقصانا مع حالة الرخاء ومستوى المعيشة ، فمنذ عشر سنوات كانت امريكا ترزح تحت أزمة اقتصادية خطيرة فكان طبيعيا أن ينقص عدد مواليدها ، أما اليوم فقد أحدثت الحرب حالة رخاء مشهودة ، بقضائها على البطالة ورفعها أجور العمال ، فكانت النتيجة زيادة نسبة المواليد فيها الى مستوى لم تبلغه من قبل .

ولكن قد يكون هناك عامل طبيعى آخر ، وهو رغبة الطبيعة فى أن تعوض من يموت فى عهد الحرب ، اما بأسلحة القتال واما بالاوبئة التى تنتشر ابانها ، بالاكثار من المواليد . وعمل الطبيعة فى هذا الشأن غير منكور ، ومثله صرفها الناس عن فكرة الانتحار حتى لتكاد تنعدم حوادثها فى اثناء الحروب ، وكذلك ترغيبها الناس فى الزواج والنسل فى سنوات الحرب ، وكل ذلك لتعوض على البشرية من تفقدهم فى ميادين القتال أو بفتك الاوباء

الطب الأحمر

ونعنى به الطب فى روسيا الذى أثبت تفوقه على مثيله فى سائر الاقطار ، كما اثبت الجيش الاحمر غلبته على أعتى الجيوش وأخطرها

فقد بلغ عدد الجرحى من الجنود الروسيين منذ قامت الحرب بين ألمانيا وروسيا قرابة ثلاثة ملايين جندى . فكان هذا العدد الضخم أكبر مشكلة واجهها الطب الحربى فى اية حرب شهدها التاريخ . ولكن الاحصاءات الروسية تقرر ان ٧٠ ٪ من هؤلاء الجرحى قد عادوا سالمين أصحاء أما الى الحرب فى ميدان القتال ، واما الى العمل فى مرافق الانتاج الحربى

وتؤكد هذه الاحصاءات انه لم يمت من جنود روسيا الجرحى سوى ١١/٢ ٪ من مجموعهم . وهذا رقم قياسى لا مثيل له لا فى هذه الحرب ولا فى أية حرب سابقة ، بل ان هـذا العمل الجليل ليفوق ما قام به الامريكيون الذين انقذوا خمسة وتسعين شخصا من كل مائة شخص جرحوا فى معركة ميناء بيرل

ولا شك أن هذه مفخرة من مفاخر روسيا السوفياتية ، ففى سنة ١٩١٤ لم يكن عـدد الاطباء فى روسيا يتجاوز أربعة وعشرين ألف طبيب ، فكان الجيش الروسى فى الحرب الماضية أقل من جميع جيوش الدول الكبرى من الوجهة الطبية . أما وقد أخذت روسيا السوفياتية فى بناء قوة حربية هائلة تنفيذا لخطتها فى الدفاع عن وطنها ومبدئها ، فقد أقامت لهذه القوة خدمة طبية متوافرة الكفاية . فزادت عدد كليات الطب من ١٣ كلية فى سنة ١٩١٤ الى ٧٢ كلية فى سنة ١٩٣٩ . وكذلك صار فيها أكثر من مائة وستين ألف طبيب أى سبعة اضعاف من كانوا فيها فى سنة ١٩١٤ ، هذا وقد اشترت روسيا من امريكا فى اثناء هذه الحرب أدوية ثمنها أربعة ملايين من الدولارات

ويرجع الفضل فى انقاذ الجزء الاكبر من الجنود الجرحى الى سرعة نقلهم الى المستشفيات. فقد كانوا يتركون قيما مضى فى ساحة القتال الى أن يقبل الليل وينتشر الظلام ، فيحملون على العربات أو الى القطارات . وبذلك كانت تنقضى ساعات طويلة بين اصابة الجندى وبين نقله الى المستشفى ، يفسد فى اثنائهـا الجرح فتصعب معالجته . أما الآن فقد خصص الجيش الروسى عـددا كبيرا من المرضات يسميهن الجنود « صديقات الخط الاول من خطوط النار » يسرن مع الجنود صفا صفا ، فاذا سقط أحدهم أسرعن بحمله ونقله .. ولا يتم النقل بالعربات أو السيارات ، بل هناك طائرات خاصـة لنقل الجرحى ، أعدت فيها الارائك الخاصـة بهم ، وتنقل الواحدة منها عشرات الجنود

وتقوم هؤلاء المرضات بالاسعافات الاولى التى تلزم للجرحى . ومن هذه الاسعافات عملية نقل الدم ، وقد كشف أحد علماء روسيا عن نوع من الدم سماه « النوع العام » الذى يصح أن يحقن به أى شخص بغض النظر عن الفصيلة التى ينتمى اليها دمه ، فتحمل كل ممرضة كمية من هذا الدم قدرها مائتا جرام ، تحقن منهـا الجندى الجريح اذا كان فى حاجة اليها ، قبل أن يصل الى المستشفى

وتكافأ هؤلاء المرضات بالاوسمة على مايبدينه من الجرأة والصبر فى نقل الجنود الجرحى . ولكن يشترط أن تنقل الجندى ومعه سلاحه ، فالتى تنقل ثمانين جنديا وبنادقهم تمنح وسام لينين ، ومن تنقل أربعين جنديا وأسلحتهم تمنح وسام اللواء الاحمر . وقد ظفر كثير منهن بهذه الاوسمة التى تزين صدور الابطال من الرجال والنساء

ذاكرة عجيبة

في سنة ١٦٥٦ زارت الملكة كريستينا ملكة السويد مدينة ليون بفرنسا ، لانها سمعت ان في هذه المدينة رجلا وهب ذاكرة عجيبة لا يمر بها شيء الا استوعبته وذكرته . وذلك الرجل هو الاب منستريو المعلم بكلية الجزويت في المدينة . وأرادت الملكة اختباره ، فكتبت ثلاثمائة كلمة مختلفة ، جمعتها من هنا ومن هناك ، دون أن يكون بينها أية صلة أو ارتباط . وقالت له : سأقرأ عليك هذه الكلمات وعليك أن تعيدها مرتبة كما تلوتها . فلما قرأتها تبسم قليلا ، وأعاد تلاوة الكلمات الثلاثمائة كما قرئت عليه ، دون أن ينسى كلمة منها ، بل دون أن يقدم أو يؤخر كلمة عن موضعها !

السرطان أفتك من الحرب

مات بداء السرطان ١٦٣٫٤٠٠ من أهل الولايات المتحدة الامريكية في سنة ١٩٤٢ . في حين أن عدد من قتل من جنود هذه البلاد المنتشرين في أرجاء الارض وبحارها وأجوائها ، منذ بداية الحرب حتى آخر سنة ١٩٤٣ لم يجاوز ٢٩٫١٠٤ أفراد

وقد انفقت الحكومة الامريكية في الحرب في خلال هذه الفترة ١٣٨٫٦٠٢ مليونا من الدولارات ، أي بمعدل ٤٫٧٥٠٫٠٠٠ دولار مقابل كل قتيل من جنودها . أما ما انفقته طوال سنة ١٩٤٢ في مكافحة السرطان ، بالبحث في منشأ هذا الداء الوبيل ، فكان مليون دولار ، أي بمعدل أربعة دولارات وثلاثة أرباع الدولار مقابل كل وفاة تحدث بمرض السرطان

وهذا دليل على أن الانسانية ما زالت مقصرة في مكافحة عدوها الحقيقي : وهو جراثيم الامراض الفتاكة التي تودي من أرواح البشر بأضعاف أضعاف ما تودي به أعتى الجيوش وأضخم الاساطيل

غرائب عن النيازك

■ يقدر العلماء أن عدد النيازك التي تنفصل من كواكبها بخمسة عشر مليون نيزك في كل أربع وعشرين ساعة . ولكن أكثر هذه النيازك يحترق وهو على بعد شاسع من الارض فلا يصل الى سطحها بل يتبدد في الفضاء . على أنه في بعض الحالات الشاذة يبلغ النيزك سطح الارض ويرتطم بها ، ولكن هذا نادر الحدوث الى درجة ان منطقة فسيحة مثل ولاية كنساس في امريكا قد لا يقتل منها بسبب سقوط نيزك الا واحد في كل أربعة عشر ألف سنة !

■ من أعظم النيازك التي سقطت على الارض ذلك الذي سقط في سيبريا الشمالية في سنة ١٩٠٨ ، فأحدث حريقا هائلا في غاباتها أتلف بقعة منها مساحتها مائة ميل مربع . وقد أحدث هذا النيزك أمواجا هوائية أحستها المراصد الفلكية في أقطار شاسعة منها انجلترا

■ هذا النيزك الذي سقط في سيبريا قد صار ربا تعبده بعض القبائل المقيمة هناك ، اذ تزعم أنه اله هبط من السماء ليوقد ناره في الفجرة والعصاة !

■ يعود الفضل في اخماد احدى الثورات الى نيزك سقط في سنة ١٩٠٦ في بقعة من بقاع أمريكا الوسطى . فقد قامت احدى الجماعات هناك بثورة كبيرة ، ولكن نيزكا سقط فصعق زعيم الثورة اذ كان جالسا في خيمته ، فتفرق اشياعه وخبت نار الفتنة !

الحركة الفكرية

قائع رسائل الملكة فكتوريا

صفحة من تاريخ بريطانيا

ظل خمسا وعشرين سنة يدخل كل صباح على الملكة فيكتوريا ، بوجهه الهادىء المكتئب ، ولحيته التى ابيضت أخيرا من المشيب ، وبذلته العسكرية السوداء المزينة بالاوسمة الكثيرة ، فيقدم لها البريد الوارد اليها ثم يتلقى منها ردودها على هذا البريد

هذا هو سير هنرى بونسوبى الذى كان أوثق رجال عهده صلة بالملكة العظيمة ، فكان فيما كتبه عنها من مذكرات وما سجل فيها من الوقائع والاحاديث والآراء ، أوضح صفحة كتبت عن الملكة التى كان عرشها أقوى عرش فى أوربا لا يستثنى من ذلك عرش أباطرة ألمانيا ولا عرش قياصرة روسيا

وقد جمع ابن بونسوبى رسائله ومذكراته فى كتاب حافل صدر حديثا ، ازى فيه أن مهمة سكرتير الملكة مهمة شاقة مرهقة ، فقد كانت فيكتوريا تكره رئيس وزرائها « جلادستون » وتضيق به ضيقا شديدا ، ولكن لم يكن ثمة سبيل للخلاص منه وهو مؤيد بأغلبية كبيرة من الشعب البريطانى ، كما أن كفايته السياسية لم تكن موضع جدال وقد تبدت فى كثير من المواقف التى دعم فيها نفوذ بريطانيا . فكانت مهمة بونسوبى طوال عشرين سنة أن يضيق من شقة الخلاف بين فيكتوريا وجلادستون . كان عليه أن يترجم للملكة أفكار الحكومة ، ويترجم للحكومة أفكار الملكة ، على صورة تمكن من تسير الامور بينهما فى خير سبيل . وقد كانت أفكار فيكتوريا تناقض أفكار جلادستون ، فهى تكره الآراء المتحررة التى بدأت تدخل ميدان السياسة ، كنظام الحكم الذاتى فى ايرلندة ، وكالتوسع فى حقوق البرلمان ، وكاصلاح نظام مجلس اللوردات ، بينما كان جلادستون مشبعا بالآراء الجديدة آخذا بمذاهب الاصلاح ، فكان الاحتكاك والتصادم بينهما مهمة تقلق بونسوبى وتتطلب منه مجهودا شاقا

وكانت فيكتوريا الى هذا عنيدة الرأى شديدة المراس ، وكثيرا ما كانت تقول — كما يقول بونسوبى — عن الابيض الناصع انه اسود قاتم ، فكان على بونسوبى أن يوافقها على رأيها مع بعض التحفظ ، ثم يتدرج معها قليلا حتى يقنعها بأنه ليس أبيض ولا اسود ، بل هو رمادى فقط !

وكانت تضج وتصرخ أحيانا حين يأتيها طلب معين من جلادستون ، فتقول لبونسوبى : « اكتب الى هذا العجوز وقل له انه مجنون ، وأبله ، ودجال ، وسخيف » . فيكتب له بونسوبى هذا ، ولكن فى صورة تجعل جلادستون يبتسم ضاحكا بدلا من أن يزمجر غاضبا

وظل بونسوبى قائما بهذا العمل الشاق الدقيق ، حتى مات فى سنة ١٨٩٥ ، ولا شك أن هذا الكتاب خليق بالقراءة ، أولا لانه يصور ملكة انجلترا العظيمة صورة حقيقية واضحة ، وثانيا لانه يصور ذلك العمل الشاق الذى يتعرض له رجال القصور الملكية ولا سيما حين يكون الامر بين صاحب القصر ورجل الحكومة هدفا للتعارض والشقاق

ايليا اهرنبورج يصف الحرب الروسية

اذا عد تيموشنكو القائد العسكرى للجيش الاحمر المظفر ، فان ايليا اهرنبورج يعد قائده الروحى

وكما أنتجت حملة نابليون على روسيا أثرا أدبيا فذا خالدا هو قصة تولستوى « الحرب والسلم » ، فكذلك أنتجت حملة هتلر عليها أثرا أدبيا عظيما هو قصة اهرنبورج «روسيا في الحرب»

انتهى اهرنبورج من كتابة قصته هذه فى يوليو سنة ١٩٤٢ حين بلغ الجيش الالمانى أقصى شوطه فى أرض روسيا ، وحين وقف الاتحاد السوفياتى مستهدفا للخطر النازى المميت . ففى أثناء تلك الايام الغريقة فى الدماء ، المطمورة فى الاحداث ، كان اهرنبورج يكتب عن ذلك الروح العنيد الغلاب الذى يضطرم فى قلب كل روسي والذى لن تستطيع قوة السلاح أن تظهر عليه أو تطفىء جذوته . وكان يكتب عن أولئك الزعماء النازيين الذين يقودون الشعب الالمانى ، عن رضى أو عن اكراه ، الى أكبر مجزرة فى التاريخ ، كتابة فيها السخرية الحاقدة الريرة

فيقول عن هتلر : « هذا الذى كان يعيش فى كوخ تحت الارض يسكن الآن قصرا فوق ذروة جبل منفرد . هذا الذى سفح دماء ملايين من البشر ، نباتى يفزع اذا رأى حملا يذبح . هذا الذى قضى عشر سنوات وسط دخان حانات البيرة القذرة ، لا تحتمل أعصاب كبريائه وعطرسته أن يرى رجلا يدخن سيجارة فى حضرته »

ويتحدث عن جورنج الذى اتخذ شعاره هذه الجملة : « عش ، ولا تدع غيرك يعيش » . وعن جوبلز « هذا القرد الدميم البغيض . . فونغراف يحكى صوت سيده »

ويعرض فى كتابه كثيرا من الرسائل التى عثر عليها مع الاسرى الالمان ، وكلها تنبىء أن الجنود الالمان كانوا يعتقدون أن الحملة الروسية ليست الا نزهة قصيرة ، أو على الاكثر حربا خاطفة ، ينهار بعدها الاتحاد السوفياتى كما انهارت من قبل دول أوربا . ثم يعلق على ذلك قائلا : « عند ما يخدع الطفل ، تشعر بأنه يجب عليك أن ترفس الرجل الذى خدعه . ولكن الالمان ليسوا أطفالا ، انهم رجال بالغون أشداء يقبضون بأيديهم على البنادق والمدافع . فلماذا خدعوا اذن ؟ لانهم يريدون أن يخدعوا ، لانهم يرتجفون من مواجهة الحقيقة . . وكيف يمكن للمرء أن يتفاهم مع هؤلاء القوم ؟ بالبنادق وحدها ! وكيف يمكن أن تنكر عليهم أكاذيبهم؟ بالقنابل وحدها !

ويورد من هذه الرسائل ما يكشف عن الروح الالمانى ما يسدل عليه من ستار المدنية الزائف ، فهذا جندى ألمانى يصف رفاقه فيقول : «عند ما بدأت القنابل تهوى وتدوى سقطت الاقنعة التى تغطى وجوههم ، وتألقت فى عيونهم نار الغيظ المكبوت منذ أجيال ودهور . . ودخلوا المدينة المدمرة فى هدوء ، فلم يشعروا نحوها شعور الرحمة والعطف ، بل أحسوا الرغبة الملحة فى أن يقصفوا ويجهزوا عليها . وكانت أصابعى تنفر من يدى ، تتحسس زناد البندقية لتطلق رصاصها على الجماهير »

ويعقب اهرنبورج على ذلك قائلا : « ان الالمانى وحش ، وحش يلبس نظارة ويحمل فى جيبه قلم حبر ، وحش يسكن الارض التى اخترعت صناعة طباعة الكتب والصحف »

هذه هى الروح السارية فى هذا الكتاب ، وهى روح غاضبة حاقدة ، ولكن هل يمكن للاديب الذى رأى عدوان الجحافل الالمانية على مدائن روسيا وقراها ، وما أنزلته بها من دمار وعذاب ، الا أن يقطر قلبه الغضب والحقد والمرارة ؟ على أن هذا لا يقلل من قيمة أدب اهرنبورج الذى يعد فى الطليعة من كبار الادباء السوفييت ، وقد فاز كتابه « سقوط باريس » بجائزة ستالين وقدرها مائة ألف روبل

لازكى وعالمه الجديد

الاستاذ هارولد لازكى ، استاذ العلوم السياسية بجامعة لندن،من أكبر وأشهر المفكرين المعاصرين ، ومؤلفاته فى المسائل السياسية من أهم وأروج ما يكتب فى هذا الموضوع ، هذا الى أنه يعد من أقدر المحاضرين المعاصرين وأبرعهم فى الادلاء بحجته واسكات خصمه بالرأى الناضج تارة وبالسخرية اللاذعة تارة أخرى

وهو يعد الرأس المفكر لجماعة اليسار فى حزب العمال البريطانى ، اذا جاز أن نقول ان فى هذا الحزب جماعة مقابلة نسميها جماعة اليمين . والواقع أن هذا الحزب ، وان كان يدين فى مجموعه بالآراء الاشتراكية العامة ، الا أنه ينقسم فى هـذا فريقين : فريق يريد اشتراكية معتدلة يسيرة ، تبقى على نظام الطبقات مع تقريب ما بينها من الفروق والمسافات،وفريق يريد اشتراكية صريحة حازمة ، تنشىء المجتمع اللاطبقى ، أى المجتمع الذى يتألف من طبقة واحدة يتكافأ أفرادها فى الحقوق والواجبات

وهذا الفريق الاخير هو الفريق الذى يمثله لازكى ، والذى كتب كتابه الاخير : « تأملات فى ثورة عصرنا » تعبيرا عن رأيه واعرابا عن سياسته . وهو الى هذا نقد لآراء الفريق الآخر الذى يمثله مستر كليم أتلى الذى يريد أن يسلك طريقا وسطا كذلك الطريق الذى سلكه من قبل رمزى مكدونالد ، فلم ينته الى أية نتيجة مرضية بل الى الافلاس فى السياسة الخارجية وفى الاصلاح الداخلى على السواء

يقول لازكى فى كتابه : « من الخطأ أن تقسم الوقت الحاضر ثلاثة أقسام هى:(١)الحوادث التى أدت الى الحرب (٢) الحرب ذاتها (٣)فترة ما بعد الحرب،وما سيكون فيها من تنظيم وانشاء. هذا خطأ ، والصحيح أن الحرب ليست الا جزءا من ثورة مستمرة تتجاوز آثارها المعركة الدائرة، بل تتجاوز هذا الصراع الطويل القائم بين الدول التى نسميها بالديموقراطية وتلك التى نعتها بالفاشستية . ان هذه الثورة هى كفاح الديموقراطية ونضالها فى أن تمثل مصالح جميع الشعوب فى جميع أقطار الارض ، لا أن تمثل المصالح التجارية ومصالح الطبقات الممتازة التى تكافح هى الاخرى كفاحها المستميت فى سبيل ابقاء الديموقراطية الراهنة على حالها ، أى ديموقراطية زائفة يتخذها الاقوياء والممتازون أداة لتحقيق مآربهم وتضليل المستضعفين من الشعوب والطبقات بسرابها

فالحرب جزء لا ينفصل عن هـذه الثورة ، أولا ، لانها ستؤدى فى المحيط الدولى الى القضاء على الامم الفاشستية التى تتوهم لنفسها حقوقا وامتيازات على غيرها من الامم تخول لها حق السيطرة والسيادة على الشعوب الضعيفة والمغلوبة. وثانيا ، لانها ستؤدى فى المحيط الداخلى الى اقامة ديموقراطية أساسها تحقيق فكرة المساواة وتكافؤ الفرص بين الافراد ، وأساسها كذلك اقامة حياة اقتصادية تتحقق فيها مصالح الكثرة لا مصالح القلة ، مصالح الشعب فى مجموعه لا مصالح أولئك الذين يحكمونه من وراء خزائن الذهب

وقد بلغت الحرب درجة لايمكن عندها المصالحة والاخذ بالحلول الوسطى . وكما ينطبق هـذا الرأى فى ميدان السياسة الخارجيـة ، فكذلك ينطبق فى ميدان المسائل الداخلية . فكما أنه لا سبيل لبريطانيا وامريكا الى حل وسط مع ألمانيا واليابان ، فكذلك لا سبيل الى حل وسط بين طبقات الشعب العاليـة والطبقات الغنيـة الممتازة . لا بد من انتصار أحد الفريقين انتصارا حاسما . والفريق السياسى الذى يعبر عنه لازكى بكتابه هو الذى يريد ويسعى الى أن تنتصر الجبهة الشعبية على جبهة أصحاب الاعمال والاموال، لانه لايؤمن بامكان التوفيق والمصالحة بين الجبهتين الخصيمتين

واجب الرجل الأبيض

« الآن ، وبريطانيا فى حرب وشدة ، فانها تتقدمّ الينا تطلب العون والمساعدة ، وغدا عند ما تقف الحرب وتزول عنها الشدة ، فاننا نعود كما كنا من قبل ، قوما منسيين مهضومين »

بهذه العبارة يبدأ كتاب « واجب الرجل الابيض » الذى وضعه فتاة وشاب من الجنس الزنجى ، فتاة اسمها نانسى كونراد ، وشاب اسمه جورج بدمور ، ليشرحا فيه قضية الشعوب الملونة باللون الاسود ، ويطلبا فيه تحرير هذه الشعوب مرة أخرى ، فكما حررت فيما مضى من تجارة الرق فلتحرر اليوم من قبضة الاستعمار

ويقول المؤلفان انه لما أعلن «ميثاق الاطلنطى» رأت فيه الشعوب الملونة وسائر الشعوب المستعمرة فى افريقيا وآسيا ، اعلانا بحريتها من اسار الاستعمار ، وانضم أبناؤها الى صفوف الجنود المتحالفة بقلوبهم وعزائمهم . . ولكن لما قام مستر ونستون تشرشل وأعلن « انه فيما يختص بميثاق الاطلنطى ، كان رأينا ، أول الامر ، أن تستعيد دول أوربا الرازحة الآن تحت النير النازى سيادتها وحكومتها الذاتية وحياتها القومية . . وعلى ذلك فان هذه مسألة منفصلة عن مسألة التطور التقدمى لمؤسسات الحكم الذاتى فى المناطق وبين الشعوب التى تدين بالولاء للتاج البريطانى» — لما أعلن ذلك خرست ألسنة الشعوب الملونة من هول الصدمة الأليمة التى لقيتها ، فأفاقت من فرحتها السابقة على مستقبل قاتم مظلم

فما تطلبه الشعوب الملونة وسائر الشعوب المغلوبة على أمرها ، هو ألا يقتصر ميثاق الاطلنطى على دول أوربا ، بل يشمل بعدالته جميع شعوب الارض ، فان الحرية كل لا يتجزأ كما قال زعماء روسيا السوفياتية ، وانكارها أو العدوان عليها فى أى قطر من الاقطار ، يجرىء المعتدين على انكارها فى الاقطار الاخرى . والحرب التى تندلع اليوم نارها فى أرجاء الارض جميعا ، بدأت من يوم أن اعتدت اليابان على الصين ، فتجاهلت الدول الديموقراطية الامر وحسبت نفسها بمنجى من هذا الخطر الواقع فى أقصى الارض ، ولكن لم يلبث أن امتدت أيدى الخطر من هنا وهنا حتى كادت تأخذ بخناق العالم جميعه

الوضوح فى الأدب

كان الروائى الفرنسى الكبير جوستاف فلوبير ، مؤلف قصة مدام بوفارى ، يقرأ ما يكتبه على طامته ، فاذا عجزت عن تفهم بعض عباراتها أو تراكيبها ، أعاد النظر فيها وأخذ فى تغييرها وتبسيطها حتى تغدو واضحة مبسطة لا يعسر فهمها على أقل الناس حظا من الثقافة والذوق الادبى

وكان فلوبير يظل قلقا ضيقا حتى يجد الكلمة التى تؤدى المعنى الذى يريده أداء دقيقا وواضحا ، وكان يمضى أياما تلو أيام ، وهو يقلب الكتب والمعاجم ، ويستقطر ذاكرته ، بحثا وراء لفظة واحدة تؤدى معنى يجول فى خاطره التأدية الكاملة المبسطة . وكان من عادته اذا عثر على الكلمة التى ينشدها أن يقفز من مكتبه الى شرفة بيته ، ويصيح بالكلمة بأعلى صوته ، وكأنما قد كشف عن كنز ثمين كان مطمورا ، أو لقى حلية نفيسة كانت ضائعة !

الكتب الجديدة

الممهدات لتاريخ الجيش المصرى

للدكتور اسعد رستم
والبكباشى عبد الرحمن زكى

نشره المتحف الحربى . عدد صفحاته ١٢٨ صفحة

مؤلفا هذا الكتاب من الباحثين المحققين فى تاريخ مصر الحديث ، وقد وضعا فيه عددا كبيرا من الرسائل التاريخية النفيسة

فالدكتور أسعد رستم ، أحد أساتذة التاريخ فى جامعة بيروت الاميركية ، أمضى فترة طويلة فى قراءة مجاميع من الوثائق والاسانيد الخاصة بعهد محمد على الكبير وخلفائه، وجمعها ومحصها واستخرج منها بحوثا علمية عظيمة الشأن . والاستاذ عبد الرحمن زكى ، مدير المتحف الحربى ومجلة الجيش ، يعد مؤرخ الجيش المصرى بما وضعه فيه من رسائل جمة أبانت أمجاده ومفاخره

وهذه الرسالة الشيقة تؤرخ « الآلاى المشاة الثامن » من الجيش المصرى فى عهد محمد على فقد عثر المؤلفان فى أثناء اقامتهما فى قصر عابدين للبحث والتنقيب ، على تقرير مفصل رفعه بعض ضباط الجيش الى القائد العام يبينون فيه أحوال هذا الآلاى فى مستهل عام ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م) فرأيا نشره ليكون تمهيدا لتاريخ الجيش المصرى المظفر ، بعد أن قدما البحث بعرض وثائق أخرى تظهر غاية محمد على من تأليف هذا الجيش الكبير وما أراد أن يبثه فى صدور أفراده من أغراض وأهداف معنوية

ودراسة هذا الآلاى تقدم لنا فكرة شاملة عن نظام الجيش حينذاك ، وهو نظام يدعو الى الفخر حقا ، حين نعرف ماذا كان يأكل الجنود وأين كانوا يقيمون ، وماذا كانوا يلبسون ، ونظام تعليمهم وتدريبهم ، وروحهم المعنوية السامية التى قادته الى معارك خرج منها ظافرا

وقد ذيل الكتاب بعدد كبير من وثائق مختارة عن نظام الجيش المصرى أخذت من وثائق قصر عابدين

حياة الطفل

للدكتور مصطفى الديوانى

مكتبة النهضة المصرية . عدد صفحاته ٣٦١ صفحة

طالع قراء « الهلال » بعض مقالات الدكتور الديوانى، فوجدوا فيها علم الطبيب وفنه يقدمهما قلم الأديب وأسلوبه

وهذه هى الميزة البارزة فى كتابه النفيس « حياة الطفل » الذى عرض فيه هذا الموضوع الطبى الخطير فى عبارة سلسة واضحة ، تلذ قراءتها ويسهل فهمها ، مما يجعله قريبا الى كل أم ولو كانت على قسط يسير من التعليم

والمؤلف اخصائى كبير فى طب الاطفال وهو استاذ أمراض الاطفال المساعد بكلية الطب بالقاهرة . ولذلك فقد تناول موضوع حياة الطفل من جميع نواحيه ، فتحدث عن الحمل والعناية بالحامل ، وعن الولادة ونظافة الطفل ، وعن ملابس الطفل ونومه ، وتغذيته وفطامه ، وطعامه ونموه وحواسه ، وعن التسنين والعناية بالاسنان . ثم تناول ناحية تربيته من الوجهتين الطبية والنفسية ، فتكلم عن مشاكل الطفل الصغير وعاداته السيئة ، وعيوبه فى النطق والكلام ، وتدرج به الى المدرسة وكيف يقبل عليها راغبا نشيطا . وتكلم بعد ذلك عن أمراض الاطفال وحمياتهم، وطرق الوقاية منها وتمريضهم واسعافهم وغير ذلك كثير

والخلاصة أن هذا الكتاب ضرورة لا غنى عنها لكل أم تريد تنشئة ابنها تنشئة صالحة من الوجهة الطبية والوجهة النفسية ، وستجد كل سيدة متعة فى قراءته لانه يقدم لها خلاصة العلم فى طرق مبسطة موضحة

ذات مساء

للاستاذ صلاح ذهنى

مكتبة الآداب بالجماميز · فى ٢١٨ صفحة

الاستاذ صلاح ذهنى من أدبائنا الشبان النابهين الذين عالجوا فن القصة ، فجاءوا فيه بآثار طيبة محمودة لها جمهور كبير من القراء والمعجبين

ويضم هذا الكتاب ثلاث عشرة قصة صغيرة تطالع فى كل منها ما يمتاز به أدب الاستاذ ذهنى من الصفات · فعبارتها سهلة بسيطة لا تعمل فيها ولا تبذل ، وهذه فيما نرى خير عبارة تساق فيها القصص التى تعالج الحياة المصرية ، لانها أقرب الى العبارة التى تجرى بها ألسنة الطبقة الوسطى عندنا · وتجد فى بعض هذه القصص نواحى من الدراسة النفسية التى غلبت على فن القصة فى العصر الحديث منذ كشف علم النفس التجريبى عن كثير مما يضطرب فى النفس من عواطف ومشاعر توجه حياتنا وتقرر مصيرنا · وقصة « ذات مساء » من هذا الطراز ، فترى فيها كيف يتسلط العقل الملح الحاقد على شخص آخر فيرديه فى المصير الذى أراده له وتمناه · وترى فى قصة « الوتر الاخير » ذلك الروح الشعرى الرقيق الذى يصور مأساة فنان أراد أن يعيش لفنه لا للمال ، فطغت عليه الحياة القاسية فتركته صريعا

و « حبكة القصة » كما يقولون متوافرة فى قصص الاستاذ ذهنى ، وهى تدل على الذكاء والحيلة ، وهما من الصفات التى تؤلف حول الكاتب جمهورا كبيرا من القراء ، كما تجد فى قصة « فرفت بنط » التى تدور وقائعها حول شخص أخرج من جيبه بطاقة أحد أصحابه بدلا من بطاقته ، فتكون النتيجة أن تفلت من يده السيدة التى أراد أن يعرفها وتصبح من نصيب صاحبه

والخلاصة أن هذا الكتاب أثر جديد يضاف الى خير ما فى أدبنا المعاصر من آثار فن القصة القصيرة

الصحافة والطباعة

للاستاذ محمد حمدى

مكتبة الانجلو · فى ١٢٨ صفحة

هل الصحافة علم أم فن ؟ سؤال عرض كثيرا وبحث طويلا ، واختلفت الاجابات عنه اختلافا بينا · فمن قائل انها علم له قواعد واصول ، يمكن دراستها واستيعابها ، فيغدو المرء صحفيا ومن قائل انها فن ، لا يأخذ به الا من له استعداد خاص وملكة معينة ، ولا ينمو ويزدهر الا وفق ما تبتكره المواهب ويفتن فيه من أوتوها

ومع ذلك فلا جدال فى أنه اذا اجتمعت الملكة والدراسة أخرجتا الصحفى القدير الممتاز · ولهذا السبب أنشئت فى جميع الجامعات الكبرى معاهد لتدريس الصحافة · وحفلت المكتبات الغربية بمؤلفات كثيرة فى الصحافة : أخبارها ، ومقالاتها ، وصورها ·

وقد ظهرت عندنا كتب قليلة فى الصحافة ، ولكنها كلها تتناول تاريخ الصحافة · أما هذا الكتاب الذى وضعه الاستاذ محمد حمدى — وهو ممن عملوا طويلا فى الصحافتين اليومية والاسبوعية — فيتحدث عن الصحافة من الوجهة العملية

فتحدث عن علاقة الصحافة بالعلوم والفنون ، وعن نظام اصدار الجريدة ، وعن العاملين فى الجريدة من مدير ورئيس تحرير وسكرتير تحرير ومحررين ، وعمل كل منهم ومسئوليته ونواحى

التخصص فى الصحافة ، ثم تحدث عن « صيد الاخبار » ، ثم عرض يوما فى حياة جريدة صباحية . وهو فى أثناء ذلك كله يستمد كلامه من التجربة الخاصة مما يجعل هذا الكتاب مرشدا عمليا يفيد منه كل من يريد العمل فى الصحافة

وقد أهدى المؤلف كتابه الى « الاستاذين الجليلين اميل زيدان بك وشكرى زيدان بك اللذين تتلمذ على دارهما نخبة من أفذاذ الصحافة المعاصرة » . وهذا شعور وفاء منه يقابل بالحمد والثناء

الزواج والأسرة فى الاتحاد السيوفيتى

ترجمة الاستاذ مصطفى كامل منيب

مطبعة الاعتماد فى ٤٨ صفحة

كان الحديث فى نظام الزواج والاسرة فى روسيا الشيوعية من أساليب الدعاية الرخيصة التى غمرت صحف العالم الرأسمالى ، حتى ظن كثيرون أن روسيا تعيش فى حال من الفوضى الخلقية والاباحية الجنسية المنكرة

ولكن هذا الكتاب الموجز يوضح الامر على حقيقته ، فنرى كيف تقوم الاسرة الروسية على أسس قوية من التفاهم والتعاون بين الزوجين مما يجعلها نواة مجتمع قوى يقوم بدوره الكبير فى انشاء الحضارة . ونرى كيف ارتقت المرأة الروسية — التى كانت مكبلة بأغلال من تقاليد البيئة الاقطاعية القديمة — الى مستوى رفيع تشارك فيه الرجل فى جميع مرافق الحياة من أعلاها الى أدناها . ونرى فيه كيف حرص زعماء الشيوعية على أن ينشئوا جيلا من الشبان والفتيات بعيدا عن فوضى التحلل الجنسى ، متمسكا بأسباب القوة البدنية والخلقية والذهنية

فالكتاب دراسة علمية لموضوع الاسرة ، التى ان تبينا وضعها الصحيح ، أمكننا أن نتبين حقيقة النظام الاجتماعى كله

٨ أيام فى الصعيد

للسيدة اسما حليم

منشورات دار الفجر . فى ٣٢ صفحة

قضية وباء الملاريا الذى تفشى فى أنحاء من صعيد مصر ، هى قضية النظام الاجتماعى الذى تعانيه الحياة المصرية

وقد رأت السيدة اسما حليم أن تقدم لنا صورا من هذا النظام الاجتماعى كما رأته باديا فى أشباح المرض والموت خلال ثمانية أيام أمضتها فى الصعيد ، فكانت هذه الصور — التى مرت بنا سريعة فى صحائف قلائل مثيرة للألم حافزة على التفكير

فهذه أرقام عن نسبة توزيع الثروة فى مديريتى قنا واسوان ، ترى فيها كيف يعيش الغنى المسرف وسط آلاف وآلاف من الفقراء المعدمين . وهذه بيانات عن شركات تحتكر الارض ، وتحتكر أهل الارض ، وتستطيع بذلك أن تجمع الارباح الضخمة من عرق المكدودين والمهزولين

ومؤلفة الكتاب على جانب كبير من الثقافة ، فقد تخرجت فى قسم الأدب الانجليزى وفى معهد الصحافة بكلية الآداب ، ثم انصرفت الى التفكير الجدى الجرىء فى المسائل الاجتماعية . وان قارىء هذه الصفحات ليلمس جدها وجرأتها ، فتراها تهبط قسرا الى قبو مظلم حار مرطب يعمل فيه العمال ليل نهار لينتائوا ، وتراها تذهب الى قرى نائية مهجورة فترى أجداث المرضى وهم يزحفون الى الموت زحفا .

والواقع أننا فى حاجة الى جيل من الكتاب ومن الصحفيين من طراز مؤلفة هذا الكتاب ، يهبون أقلامهم وجهودهم للاصلاح الاجتماعى الجرىء ، الذى لامعدى عنه الا بأن نتلكأ ونراوغ حتى يقع ما هو أشد وأدهى

من النقد الفرنسي

للاستاذ محمد روحي فيصل

مكتبة البابيروس بدمشق . في ١٥٢ صفحة

يشتمل هذا الكتاب على ستة فصول ملخصة عن ثلاثة من أعلام الادب الفرنسي . منها ثلاثة عن الشاعر الفرنسي الكبير بول فاليري هي « في الشعر » و « الحاجة الى الشعر » و « الرقص » وفصلان عن الدكتور غوستاف لانسون ، أولهما عن « العاطفة في الادب » وثانيهما عن «البيان» وفصل عن الشاعر آبل بونار موضوعه « الحياة والشعر »

وقد لخص الاستاذ فيصل هذه الفصول التي تعد من أقيم وأمتع آثار الادب الفرنسي في عبارة سهلة رقيقة ، فيها كثير من التخير والاناقة ، مما تلذ معه تذوق ما فيها من جميل المعاني وبارع التعبيرات

دراسات عن مقدمة ابن خلدون

للاستاذ ساطع الحصري

مطبعة الكشاف ببيروت . في ٢١٦ صفحة

ابن خلدون مفكر متعدد الجوانب متشعب النواحي . له في التاريخ أسلوب وفلسفة ، وله في الاجتماع فكرة ومذهب ، وله في تناول أمور الامم والجماعات آراء خاصة تسلكه مع الصفوة من علماء التاريخ وعلماء الاجتماع . وقد رأى الاستاذ ساطع الحصري أن يعرض في كتابه « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » الذي أصدر منه جزأين انحاء من هذه الآراء التي تحفل بها المقدمة الخالدة . وبين أيدينا الجزء الثاني من هذا الكتاب، وفيه يتناول بعض المسائل والمشاكل التي عرض لها ابن خلدون ، ويبحثها بحثا مقارنا مع ما قاله غير ابن خلدون من مفكري السياسة وعلماء الاجتماع وأصحاب المذاهب الفلسفية

فمن هذه المسائل « الدولة وتطوراتها » وقد بحث في هذا الفصل ماهية الدولة ، وعمرها ، وأطوارها ، واتساع نطاقها . ومن بحوث الكتاب بحث في الحروب واسبابها ودواعيها ، وخططها وأساليبها ، وعواقبها ونتائجها . وبحث في التربية والتعليم ، وما تقومان عليه من أصول وقواعد ، وما لهما من أثر في تنشئة الافراد وتكوين الجماعات . وبحوث في «النفس الانسانية» و « التفكير والايمان» و «التشبيهات الادبية»

وخاتمة الكتاب في نقد كتاب الدكتور طه حسين بك في «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية »

وطريقة الاستاذ الحصري في البحث هي عرض الامر كما يراه أصحاب المذاهب المختلفة، وايضاح وجهة النظر الذي يتبعه كل منهم ، ثم بسط رأي ابن خلدون كما نص عليه في مقدمته ، ثم مقارنة هذا الرأي بتلك الآراء ، وبيان ما سبق اليه ابن خلدون من نواحي التفكير الانساني وتقدير ما في أكثر آرائه من دقة ووفاء وما في بعضها من خطأ وانحراف ، شأن كل رائد من رواد الفكر ، وكل طليعة من طلائع العلم



بين الهلال وقرائه

مؤلفات عن ابن خلدون

(اسيوط ــ مصر) حسان ابرهيم

ما هي المؤلفات العربية التي وضعت عن ابن خلدون ؟

(الهلال) وضع في اللغة العربية ثلاثة كتب قيمة عن ابن خلدون . أولها كتاب الدكتور طه حسين بك عن «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» وهو الاطروحة التي قدمها باللغة الفرنسية في سنة ١٩١٨ الى جامعة باريس ونال بها درجة الدكتوراه . وقد ترجمها الى العربية الاستاذ محمد عبد الله عنان في سنة ١٩٢٦ . وفيه شرح مفصل لآراء ابن خلدون في الاجتماع والتاريخ . وللاستاذ عنان كتاب عن ابن خلدون نشره في سنة ١٩٣٣ بعنوان : « ابن خلدون : حياته وتراثه الفكري » وفيه شرح مفصل محقق في حياته وسيره ، كما ترجم فيه كثيرا مما كتبه المستشرقون والكتاب الغربيون عن مؤرخنا وفيلسوفنا الاجتماعي . ومن أنفس الكتب التي ظهرت في هذا كتاب الاستاذ ساطع الحصري وعنوانه : « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » وفيه شرح مقارن بين ابن خلدون وغيره من الفلاسفة والمفكرين في كثير من مسائل السياسة والاجتماع ، مثل الدولة وتطوراتها ، الحروب ، النفس الانسانية ، التربية والتعليم ، التفكير والايمان

الاجهاض في روسيا

(القاهرة ــ مصر) طبيب

هل يبيح القانون الروسي اجهاض الحوامل ؟

(الهلال) في كتاب « الزواج والاسرة في الاتحاد السوفياتي » الذي أشرنا اليه في باب « الكتب الجديدة » تفصيل هذه المسألة التي كانت من أسلحة الدعاية ضد روسيا ، فجاء فيه :

« حدث بعد سنوات الحرب الأهلية والتدخل الاجنبي المسلح ــ وقد كانت الأحوال الاقتصادية وقتها لا تزال تعاني ما يشبه الافلاس ، وكانت بعض التقاليد والمعتقدات البالية من مخلفات عهد ما قبل الثورة لا تزال سائدة ــ حدث في هذه الايام أن وجدت النساء أنفسهن أعجز ما يكن عن القيام في وقت واحد بواجباتهن كمواطنات وبواجباتهن كأمهات . وفي هذا المعنى ، ومع مراعاة هذه الظروف ، صدر القرار المؤرخ في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٠ باسم الحكومة السوفيتية وبتوقيعي قوميسير الشعب للشؤون الصحية وقوميسارية الشعب للعدل ، ناصا على ما يأتي :

« ما دام أن بعض الموروثات الاخلاقية من مخلفات العهد القديم ، وأيضا بعض الصعوبات الناجمة عن دقة الوضع الحاضر ، لا يزالان موجودين في الوطن السوفيتي نبيح حق النساء اذن القيام بعملية الاجهاض ما دام أن المقصود منه هو مصلحتهن » ومن هنا ندرك أن حق الاجهاض لم يكن قد شرع الا بالاجراء مؤقت لا مندوحة من اتباعه . ولعل أقوى دليل على ذلك أنه ما أن تغيرت الظروف التي كانت السبب الاول في تشريع هذه المسألة حتى دخلت مشكلة الاجهاض في دور الاختفاء ، ثم أمحى كل أثر لها في كافة أرجاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية »

وقد صدر في ٢٧ يونيو سنة ١٩٣٦ القرار الخاص بتحريم الاجهاض تحريما باتا ، وعلى مساعدة الدولة للامهات الحوامل ، وعلى التوسع الكبير في انشاء شبكة من دور الامومة والمستشفيات ورياض الاطفال

الدكتور زكى مبارك

(مسقط ـ عمان) فيصل على

ما هى أهم مؤلفات الدكتور زكى مبارك ، وما عنوانه ؟

(الهلال) وضع الدكتور زكى مبارك عددا من المؤلفات الثمينة فى نقد الادب العربى القديم والحديث ، وبحث الفلسفة الاسلامية ، الى جانب عدد من الآثار الانشائية الممتعة . ومن أهم مؤلفاته العلمية « النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى » و « التصوف الاسلامى » و « رسالة عن الامام الغزالى » . ومن آثاره الادبية « ليلى المريضة بالعراق » و « الموازنة بين الشعراء » وكتاب عن « باريس » وغير ذلك من الكتب التى تضم مجموعات من مقالاته ورسائله

ويقوم الدكتور زكى مبارك ـ الى جانب ما يقوم به من الانتاج العلمى والادبى ـ بوظيفة التفتيش فى وزارة المعارف بالقاهرة ، ويمكنكم الاتصال به بهذا العنوان

الدراسة بالمراسلات

(مسقط ـ عمان) ومنه

ما أشهر المدارس فى مصر التى تمكن لى تعلم الآداب واللغات الاجنبية ، والانتساب للجامعات الاجنبية بطريق المراسلة

(الهلال) يقوم المعهد البريطانى بالقاهرة ـ وهو أحد مؤسسات المجلس البريطانى الذى أنشأ عددا كبيرا من المعاهد فى أنحاء العالم ـ بهذه المهمة . وهو لا يدرس الآداب واللغات الاجنبية ، بل يدرس فروعا كثيرة من الثقافة ، مثل الاقتصاد ، والتجارة ، والصحافة ، والتاريخ السياسى ، والعلوم المختلفة

ولكن لا يمكنكم الالتحاق به الا اذا كنتم على قسط من الالمام باللغة الانجليزية ، يوازى ما يعرفه الطالب الذى أتم تعليمه الابتدائى والثانوى

الجسم الانسانى الكامل

(الاسكندرية ـ مصر) قارىء

ما هو طول ووزن وكذلك أبعاد الجسم الانسانى الكامل ؟

(الهلال) من آثار الاغريق الخالدة تمثال اسمه « حامل الحربة » وهو يمثل الجسم الانسانى الكامل فى نظر الاغريق الذين لم يبلغ الجمال والصحة فى حضارة قديمة أو حديثة مبلغهما عندهم . وهذه أطوال هذا التمثال بالسنتيمتر :

طول القوام : ١٧٥ ، محيط العنق : ٤٠٫٢٥ محيط الصدر : ١١٤٫٧٥ ، محيط الخصر : ٨٣٫٢٥ ، محيط الكفل : ٩٠٫٥ ، محيط الفخذ : ٥٦٫١٥ ، محيط المخلخل : ٢٣

أما وزنه فقدره ١٧٩ رطلا انجليزيا

ومقاييس هذا التمثال تقابل ـ مع شىء من الاختلاف اليسير ـ مقاييس أجسام الابطال الرياضيين المشهورين باستقامة البدن واتساق أجزائه . وهكذا ظل تمثال « حامل الحربة » نموذجا لجمال الجسم الانسانى الى يومنا هذا

صناعة البارود

(دمشق ـ سورية) حسن عبود

ما هى المواد التى يصنع منها بارود المدافع ؟

(الهلال) تصنع قنبلة المدفع أو رصاصة البندقية من سبيكة من الحديد والنحاس ، تحتوى فى داخلها على المادة المفرقعة التى نسميها البارود وهذه المادة اما أن تكون صلبة أو سائلة ، ومهمتها أن تتحول الى مادة غازية ، عند ما تطرق القنبلة أو تشتعل . ولما كانت المادة الغازية فى حاجة الى حيز كبير ، أكبر من الحيز الذى كانت تشغله عند ما كانت صلبة أو سائلة ، فانها تضغط ضغطا شديدا على جوانب القنبلة أو الرصاصة ، فتؤدى الى انفجارها وتمزيقها وتطايرها قطعا وشظايا صغيرة ، تندفع الى مسافات بعيدة وتصيب ما تقابله بضرر كبير

والبارود عبارة عن مخلوط أسود يتركب من نترات البوتاسيوم ، والكبريت ، والكربون ، بنسب تختلف باختلاف المصانع التي تنتج الذخائر . ولكن هذه النسبة في العادة هي ٧٥ من النترات ، ٥ر١٢ من الكبريت ، ٥ر١٢ من الكربون. وهذا المخلوط يشتعل دفعة واحدة اذا طرقت القنبلة أو مسها فتيل مشتعل

الحياة والسعادة

(قضاء الصويرة ـ العراق) عبد الرضا الحاج حنيدان الجنوبي

ما غاية الحياة ؟ وما السعادة ؟

(الهلال) النظرة الدينية في هذا الموضوع أن الحياة سبيل يؤدي الى حياة أخرى ، فان كانت سيرة المرء في هذه الحياة القائمة سيرة خيرة طيبة ، يكبت فيها المرء نزعات السوء ويؤدي فيها ما يسعه من أعمال الخير ، أدى به هذا السبيل الى جانب السعادة والنعيم في الحياة الاخرى . وان كانت سيرته في الحياة الراهنة سيرة شريرة منكرة ، يطلق فيها العنان لنزواته ويبسط فيها يده بالاذى ، أدى به السبيل الى جانب الشقاء والعذاب في الحياة الثانية . فلى ان الحياة بموجب هذه النظرية وسيلة لا غاية

والنظرية العلمية في الموضوع أن الحياة القائمة غاية في ذاتها ، وليست مجرد معبر وسبيل الى حياة أخرى . والغاية هنا هي السعادة ، وهذا ما يتطرق بنا الى سؤالك الثاني : ما هي السعادة ؟ والسعادة في رأي بعض الناس اللذة والمتعة التي يتخيلها المرء وفق تفكيره ، أو حسب شعوره ، فيراها في المال الموفور ، أو الجاه العريض ، أو الصحة السابغة ، أو أداء الواجب ، أو راحة الضمير ، أو الاسرة السعيدة ، وغير ذلك من نواحي الحياة الكثيرة . فليس في الامكان قصر السعادة على متعة معينة ، بل إن كل فرد يرى سعادته من زاوية معينة ، حسب نشأته ، وثقافته ، بل حسب جهازه العصبي ..

على أن النظرة الدينية والنظرة العلمية في موضوع الحياة لا تتعارضان ، ففي وسع المرء أن يكون سعيدا في حياته الاولى ويسعى مع ذلك الى السعادة في الحياة الاخرى ، وذلك اذا رأى أن يجعل سعادته في الحياة قائمة على التمسك بالفضيلة ، واسداء الخير ، وتجنب الايذاء ، والتسامي بنفسه وبمن حوله من الناس على قدر ما تواتيه قواه

وكلاء الهلال

في القاهرة		عزمي افندي فهمي ـ دار الهلال ـ القاهرة
في دمياط		الاستاذ زكريا الجزاوي وكيل مجلات دار الهلال ـ دمياط
في بيروت	لبنان	السيد وجيه طباره ـ ٩ شارع اياس بيروت ـ لبنان
في دمشق الشام	سوريا	
في حماه	سوريا	الشيخ طاهر النعسان
في اللاذقية	سوريا	الخواجه نخله سكاف
في القدس	فلسطين	مكتبة فلسطين العلمية ـ شارع يافا ـ القدس
في يافا	فلسطين	السيد عيسى السفري ـ شارع العجمي
في المملكة العربية السعودية		السيد هاشم بن علي النحاس ص. ب ٩٧ ـ مكة المكرمة
في البرازيل		Snr. Rachid Salim Curi - Caixa Postal No. 1812 São Paulo (Brazil)

لا شيء يضيع ملكات الشخص ومزاياه كتشاؤمه في الحياة
ولا شيء يبعث الأمل ويقرب من النجاح كالابتسام للحياة

ابتسم للحياة

بقلم الأستاذ احمد أمين

حدثت أن الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان كانا صديقين وفيين منذ صباهما ، ألف بينهما قرب الجوار في البلدة ، وتساكنهما وتلازمهما أيام المجاورة في الازهر ، ثم تعاونهما بعد في معترك الحياة ، وان الشيخ عبد الكريم سلمان كان أذكى من الشيخ محمد عبده وأوفر استعدادا ، ولكن كان الشيخ محمد عبده متفائلا وكان الشيخ عبد الكريم متشائما . كان الشيخ محمد عبده يرى أن الناس خيرون بطبعهم ، وانما أفسدتهم الظروف ، فاذا أصلحت صلحوا . وان المصريين كغيرهم من الناس ، اذا ساءت بعض أخلاقهم وبعض تصرفاتهم ، فلهم العذر ، لما جنى عليهم أولو الامر فيهم ، فاذا دعوا الى الاصلاح ومهدت لهم السبل ورسمت لهم الطرق وربوا تربية صالحة ، لبوا الدعوة واستقام أمرهم ، ووضح لهم طريق المجد والشرف . وعلى هذا الأساس بنى كل حياته وكل أعماله . وكان الشيخ عبد الكريم متشائما يرى أن الناس في مصر فسدوا فسادا لا يرجى معه صلاح ، والمصلح يحرق نفسه ثم لا يأتي بنتيجة ، فخير أن يكتفي المصلح بنفسه ، وليدع الناس وشأنهم حتى يأكلهم القدر .

أما الاول فأصبح — لتفاؤله — الشيخ محمد عبده المصلح العظيم الذي ترك في أمته الأثر الكبير ، وأما الثاني فلم يعرفه الا خاصته ، ولم يستفد من ذكائه الا أقرب الناس اليه ، وكان شمعة مضيئة في غرفة خالية

القدرة على الضحك

لا شيء يضيع ملكات الشخص ومزاياه كتشاؤمه في الحياة ، ولا شيء يبعث الامل ويقرب من النجاح وينمي الملكات ، ويبعث على العمل النافع لصاحبه وللناس ، كالابتسام للحياة . والطبيعة أدرى بذلك ، فقد منحتنا القدرة على الضحك ، والقدرة على الفرح والاعجاب بالنوادر اللطيفة والروح الفكهة ، كما منحتنا الرغبة في الغذاء والقدرة على الهضم ونحوهما من وسائل الحياة ، علما منها بأن العيش لا يصلح الا بها ، والسعادة لا تتم بدونها ، فأنى الانسان من جهله يكبت هذه الموهبة ويلونها باللون الاسود ، فوقع في الهم والشقاء ،

لان الطبيعة لا تمنح السعادة الا لمن احترم قوانينها وسار على سننها

ان الطبيعة علمت أن الدنيا لا تخلو من متاعب ، وان الانسان سيلاقى فى حياته بعض الشدائد ، فسلحته بروح المرح وروح الفكاهة ، وجعلت ذلك دواء لدائه وبلسما لشفائه ، فاذا هو فقده لاى سبب من الاسباب ، فقد فقد علاج مرضه وعاش فى بؤسه ، فان أنت رأيت فتى أو فتاة أو شابا أو شابة عابس الوجه مقطب الجبين ، يحمل الهموم ويتبرم بالحياة ، فاعلم أن هناك مجرما من رب أسرة أو مشرف على التعليم قد سلبه أحسن ما فى طبيعته وأجمل ما فى ملكاته

ليس المبتسمون للحياة أسعد حالا لانفسهم فقط ، بل هم كذلك أقدر على العمل ، وأكثر احتمالا للمسئولية ، وأصلح لمواجهة الشدائد ومعالجة الصعاب ، والاتيان بعظائم الامور التى تنفعهم وتنفع الناس

لو خيرت بين مال كثير أو منصب خطير ، وبين نفس راضية باسمة ، لاخترت الثانية . فما المال مع العبوس ؟ وما المنصب مع انقباض النفس ؟ وما كل ما فى الحياة اذا كان صاحبه ضيقا حرجا كأنه عائد من جنازة حبيب ؟ وما جمال الزوجة اذا عبست وقلبت بيتها جحيما ؟ لخير منها ألف مرة زوجة لم تبلغ مبلغها فى الجمال وجعلت بيتها جنة

ولا قيمة للبسمة الظاهرة الا اذا كانت منبعثة عن نفس باسمة وتفكير باسم . وكل شىء فى الطبيعة جميل باسم منسجم ، وانما يأتى العبوس مما يعترى طبيعة الانسان من شذوذ ، فالزهر باسم والغابات باسمة ، والبحار والانهار والسماء والنجوم والطيور كلها باسمة . وكان الانسان بطبعه باسما ، لولا ما يعرض له من طمع وشر وأنانية تجعله عابسا . فكان بذلك نشازا فى نغمات الطبيعة المنسجمة . ومن أجل هذا لا يرى الجمال من عبست نفسه ، ولا يرى الحقيقة من تدنس قلبه . فكل انسان يرى الدنيا من خلال عمله وفكره وبواعثه ، فاذا كان العمل طيبا والفكر نظيفا والبواعث طاهرة كان منظاره الذى يرى به الدنيا نقيا ، فرأى الدنيا جميلة كما خلقت ، والا تغبش منظاره واسود زجاجه ، فرأى كل شىء أسود مغبشا

هناك نفوس تستطيع أن تخلق من كل شىء شقاء ، ونفوس تستطيع ان تخلق من كل شىء سعادة ، هناك المرأة فى البيت لا تقع عينها الا على الخطأ ، فاليوم أسود لان طبقا كسر ولان نوعا من الطعام زاد الطاهى فى ملحه ، أو لانها عثرت على قطعة من الورق فى الحجرة فتهيج وتسب ويتعدى السباب الى كل من فى البيت ، واذا هو شعلة من نار . وهناك رجل ينغص على نفسه وعلى من حوله من كلمة يسمعها أو يؤولها تأويلا سيئا ، أو من عمل تافه حدث له أو حدث منه ، أو من ربح خسره أو من ربح كان ينتظره فلم يحدث ، أو نحو ذلك ، فاذا الدنيا كلها سوداء فى نظره ، ثم هو يسودها على من حوله . هؤلاء عندهم قدرة المبالغة فى الشر ، فيجعلون من الحبة قبة ومن البذرة شجرة ، وليس عندهم قدرة على الخير ، فلا يفرحون بما أوتوا ولو كثيرا ، ولا ينعمون بما نالوا ولو عظيما

الحياة فن

الحياة فن ، وفن يتعلم ، ولخير للانسان أن يجد فى وضع الازهار والرياحين والحب فى حياته ، من أن يجد فى تكديس المال فى جيبه أو فى مصرفه ، ما الحياة اذا وجهت كل الجهود فيها لجمع المال ، ولم يوجه أى جهد لترقية جانب الجمال والرحمة والحب فيها ؟

أكثر الناس لا يفتحون أعينهم لمباهج الحياة ، وانما يفتحونها للدرهم والدينار ، يمرون على الحديقة الغناء والازهار الجميلة والماء المتدفق والطيور المغردة ، فلا يأبهون لها ، وانما يأبهون لدينار يأتى ودينار يخرج . قد كان الدينار وسيلة للعيشة السعيدة ، فقلبوا الوضع وباعوا العيشة السعيدة من أجل الدينار ، وقد ركبت فينا العيون لنظر الجمال ، فعودناها ألا تنظر الا الى الدينار

حارب اليأس

ليس يعبس النفس والوجه كاليأس ، فان أردت الابتسام فحارب اليأس . ان الفرصة سانحة لك وللناس ، والنجاح مفتوح بابه لك وللناس ، فعود عقلك تفتح الأمل وتوقع الخير فى المستقبل . اذا اعتقدت أنك مخلوق للصغير من الامور ، لم تبلغ فى الحياة الا الصغير . واذا اعتقدت أنك مخلوق لعظائم الامور شعرت بهمة تكسر الحدود والحواجز ، وتنفذ منها الى الساحة الفسيحة والغرض الاسمى . ومصداق ذلك فى الحياة المادية ، فمن دخل مسابقة مائة متر شعر بالتعب اذا هو قطعها ، ومن دخل مسابقة أربعمائة متر لم يشعر بالتعب من المائة والمائتين ، فالنفس تعطيك من الهمة بقدر ما تحدد من الغرض . حدد غرضك ، وليكن ساميا صعب المنال ، ولكن لا عليك فى ذلك مادمت كل يوم تخطو اليه خطوا جديدا ، انما يفسد النفس ويعبسها ويجعلها فى سجن مظلم اليأس وفقدان الأمل والعيشة السيئة برؤية الشرور ، والبحث عن معايب الناس والتشدق بالحديث عن سيئات العالم لا غير

وليس يوفق الانسان فى شىء كما يوفق الى مرب ينمى ملكاته الطبيعية ، ويعادل بينها ويوسع أفقه ، ويعوده السماحة وسعة الصدر ، ويعلمه أن خير غرض يسعى اليه أن يكون مصدر خير للناس بقدر ما يستطيع ، وأن تكون نفسه شمسا مشعة للضوء والحب والخير ، وأن يكون قلبه مملوءا عطفا وبرا وانسانية وحبا لايصال الخير لكل من اتصل به

النفس الباسمة ترى الصعاب فيلذها التغلب عليها ، تنظرها فتبسم ، وتعالجها فتبسم ، وتتغلب عليها فتبسم ، والنفس العابسة لا ترى صعابا فتخلقها ، واذا رأتها أكبرتها واستصغرت همتها بجانبها ، فهربت منها وقبعت فى جحرها تسب الدهر والزمان والمكان ، وتعللت بلو واذا وان ، وما الدهر الذى يلعنه الا مزاجه وتربيته ، انه يود النجاح فى

الحياة ولا يريد أن يدفع ثمنه ، انه يرى فى كل طريق أسدا رابضا ، انه ينتظر حتى تمطر السماء ذهبا أو تنشق الارض عن كنز

ان الصعاب فى الحياة أمور نسبية ، فكل شيء صعب جدا عند النفس الصغيرة جدا ، ولا صعوبة عظيمة عند النفس العظيمة . وبينما النفس العظيمة تزداد عظمة بمغالبة الصعاب ، اذا بالنفوس الهزيلة تزداد سقما بالفرار منها ، وانما الصعاب كالكلب العقور اذا رآك خفت منه ، وجريت منه نبحك وعدا وراءك ، واذا رآك تهزأ به ولا تعيره اهتماما وتبرق له عينك ، أفسح الطريق لك ، وانكمش فى جلده منك

ثم لا شيء أقتل للنفس من شعورها بضعتها وصغر شأنها وقلة قيمتها ، وأنها لا يمكن أن يصدر عنها عمل عظيم ، ولا ينتظر منها خير كبير . هذا الشعور بالضعة يفقد الانسان الثقة بنفسه والايمان بقوتها ، فاذا أقدم على عمل ارتاب فى مقدرته وفى امكان نجاحه ، وعالجه بفتور ففشل فيه . الثقة بالنفس فضيلة كبرى عليها عماد النجاح فى الحياة ، وشتان بينها وبين الغرور الذى يعد رذيلة ، والفرق بينهما أن الغرور اعتماد النفس على الخيال وعلى الكبر الزائف ، والثقة بالنفس اعتمادها على مقدرتها على تحمل المسئولية ، وعلى تقوية ملكاتها وتحسين استعدادها . ورجال الاديان مسئولون ـ الى حد كبير ـ عن نشر الافكار فى تحقير النفس وذلتها ، وخساستها وشرورها ومعاصيها ، حتى ليبالغ بعضهم فينغص على الناس حياتهم ، ويفقدهم كل أمل فى النجاح

وبعد فالشرق فى حاجة كبرى الى كميات كبيرة من الابتسامات الصادقة الدالة على النفوس الراضية الآملة الطامحة

سر العبوس

سر أنى شئت فى الشوارع واغش المنتديات والمجتمعات ، وتفرس فى الوجوه ، فقلما ترى الا وجوها مستطيلة مقطبة الجبين ، ورؤوسا أثقلها الهم فخفضها ، وعيونا ساهمة قد فقدت بريق السرور ولمعان الحيوية

استثن الضحكات العالية فى مجالى اللهو وأماكن التنادر ، فهل ترى الا العبوس وما يشبه العبوس ، واستبعد البسمات المزيفة المتصنعة فى المقابلات والمجاملات ، وانفذ منها الى أعماق النفوس ، فهل ترى الا انقباضا وانكماشا

فما السر فى هذا كله ؟

سره فى تعاقب الظلم على الشعوب من زمن قديم حتى سلبها حريتها ، وهل تبسم النفس الا للحرية ، وهل تنقبض الا من الاستبداد ؟!

وسره فى الفقر الشامل لاكثر أفراد الشعب ، فهم يحملون الهم المضنى ، كيف يأكلون ويعيشون ، وكيف يسدون حاجات أسرتهم ومن تعلق فى رقبتهم ، والمنافذ ضيقة فى وجوههم ، وأكثر الثروة قد ضاعت من أيديهم

وسره فى ضعف التربية التى لا تفتح النفس للحياة ، وتكتفى بالعلم الجاف

وسره فى النظم الاقتصادية التى لا تقدم على الاعمال ، ولا تفتح أبواب الرزق للشبان، ولا تستغل ما بقى من ثروات البلاد

وسره فى أننا الى الآن لم نتعلم فن الحياة ، ولم نسمع به فى برامج الدراسة ، ولم نره لا فى بيوتنا ولا مدارسنا ولا عند خطبائنا وكتابنا

وسره أننا لم نستشعر الثقة بالنفس ، فلا الفرد يثق بنفسه ، ولا المواطن يثق بمواطنه، ولا رجال الادارة والاعمال يثقون بمواطنيهم ، ولا الناس تثق بأولى الامر فيهم

وسره أخيرا أنا حرمنا العزة القومية طويلا ، وكم تبعث العزة القومية من بسمات !

ابسم

فلنتغلب على هذه الصعوبات جميعا ، ولنبسم للحياة ولو تكلفا ، ينقلب التكلف بعد حين تطبعا

ابسم للطفل فى مهده ، وللصانع فى عمله ، وابسم لاولادك وأنت تربيهم ، وابسم للتاجر وأنت تعامله ، وابسم للصعوبة تعترضك، وابسم اذا نجحت ، وابسم اذا فشلت . . وانثر البسمات يمينا وشمالا على طول الطريق ، فانك لن تعود للسير فيه

احمد أمين

كلمات جامعة لجورج وشنطون

ـ كل عمل تأتيه فى اجتماع ما ، يجب أن تشتم منه رائحة احترامك للحضور

ـ لا تنم بينما غيرك يتكلم ، ولا تجلس وغيرك واقف ، ولا تتكلم فى مقام يستدعى الصمت ، ولا تمش وغيرك واقف

ـ لا تبذل نصحك عفوك ، واذا سئلت أن تشير فاختصر

ـ لا تتعهد بعمل ما لا طاقة لك به ، ولكن اصرف كل همك للقيام بوعدك

جزيرة ليس فيها سياسيون

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

جزيرة ليس فيها سياسيون . . كيف تكون ؟ هل تعيش سعيدة لا خلاف فيها ولا نزاع ولا حرب ولا قتال ؟ — هذا ما وجهناه إلى الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد

يسألني « الهلال » عن هذه الجزيرة التي ليس فيها سياسيون كيف تكون ؟ وجواب هذا السؤال قد يملأ عشرة مجلدات ، كما قد يلخص في بضع كلمات . وليس التلخيص هنا بأقل « حقيقة » من الاسهاب

قد يملأ الجواب عشرة مجلدات ولا ينتهى الى نتيجة حاسمة ، لانه يتناول مسألة الملكية وحقوقها بين الافراد والحكومات ، ويتناول مسألة الاجور وطريقة تقديرها والاتفاق عليها، ويتناول مسألة السلطان ومصدره من المشيئة الالهية أو المشيئة الانسانية ، ويتناول مسألة الايمان بمشيئة الله ، ومن يفسر هذه المشيئة من الكهان أو العلماء أو الرؤساء

والناس يقولون فى كل مسألة من هذه المسائل مئات الاقوال ، ولا ينتهون فى مسألة واحدة منها الى رأى واحد متفق عليه

لكننا قد نوجز ولا نخطىء الحقيقة كلها فى الايجاز ، فندع هذه المسائل جميعا يختلف عليها المختلفون ، ونقرر حقيقة واحدة لا يقع عليها خلاف كهذا الخلاف ، وهى ان الجزيرة التى ليس فيها سياسيون هى الجزيرة التى ليس فيها حرمان من مطالب المعيشة

هنا — أى فى الجزيرة التى لا حرمان فيها — لا حاجة الى حقوق الملكية ولا حقوق الاجرة ولا الى تقسيم العمل ولا الى الفصل بين هذه الاقسام وهذه الحقوق وهذه الاجور

أى لا حاجة اذن الى سياسيين ، ومن الميسور اذن أن تتخيل الجزيرة التى ليس فيها سياسيون

فهى جزيرة تكثر فيها الغابات والمروج والانهار ، ويأكل فيها من يشاء ما يشاء من الثمرات واللحوم ، ويسكن فيها من يشاء حيث يشاء من الاودية والنجود ، ولا توجد فيها سيادة ولا حاجة الى سيادة ، وان وجد فيها الاقوياء والضعفاء

نعم هناك شىء غير الطعام والمسكن واللباس يتنازع عليه الناس وهو الانثى الانسانية حيثما رزقت نصيبا من التفاوت فى جمال الوجوه والاجسام

ولكن الرجل الذى يريد أن يسطو فى هذا الميدان ليستأثر بالمرأة التى يهواها ، لن يفعل ذلك الا بسلطان من المجتمع أو سلطان من المال، وكلاهما غير موجود فى تلك الجزيرة

وليس من مصلحة الجميع أن يبتدعوه لينعم به فرد واحد من حين الى حين كلما ظهر هذا الفرد الواحد بغير حساب

ولا شك أن الجزيرة التى تبطل فيها الحيازة بالقوة فى طلب المتاع المجرد من الحياة ، تبطل فيها الحيازة بالقوة من باب أولى حينما تعلق الامر بالاحياء ، كما يحدث فى علاقات الرجال والنساء ، وليس للعاشق الوامق فى هذه الحالة الا ان يلجأ الى وسائل الاقناع والاستهواء على قدر حظه من الحيلة أو الجمال . وهى وسائل فردية لا موجب فيها لقيام الحكومات والنظم السياسية ، فضلا عما قدمناه من بطلان الحيازة عامة وما يتبع بطلانها من تنظيم الزواج على أوضاع تناسب تلك الاحوال

ومتى أصبح فى وسع كل انسان من سكان الجزيرة أن يحصل على مراده ، لم تكن هناك حاجة الى منع العدوان وظهور السياسيين لتدبير قواعد الانصاف بين المعتدين والمعتدى عليهم . ويؤكد هذا الرأى أن المباحث العلمية الجديدة فى أطوار الانسان الاول تنفى أن العدوان ضرورة « بيولوجية » يضطر اليها الآدميون بدوافع فى تركيب طباعهم ، وان توافرت لهم مطالب المعيشة وامتلأت أيديهم بخيرات الطبيعة . فان العلماء الذين راقبوا الانسان الاول أو درسوا تاريخه من مستخرجات الاحافير ، يقررون أن الشكاسة لم تكن خليقة ملازمة لانسان الكهوف والمغاور ، ولم تكن له أسلحة للحرب والفتك غير الاسلحة التى يدفع بها الوحوش أو يلتمس بها الصيد ، ويرى هؤلاء العلماء أن الهمجية أسلم من الحضارة فى خليقة العدوان التى تنمو مع المجتمعات الكبيرة ، ولا تسيطر على الانسان فى نشأته الاولى

* * *

وهكذا تعيش الجزيرة السعيدة بعيدة من السياسيين لانها بعيدة من الحرمان ، وليس ذلك لان السياسيين يحبطون فى مساعيهم اذا ظهروا فيها ، بل لانهم لا يظهرون ولا يوجد فى جزيرتهم ما يغريهم بالظهور

وما هو الا أن يتراءى شىء من الحرمان فى ناحية من نواحى تلك الجزيرة حتى يتراءى بازائه شىء من السياسة على مقداره

لان الحرمان يدفع سكان الجزيرة الى التسابق على حيازة المرافق التى يستمتع بها أناس دون آخرين

ويومئذ توجد حقوق الملكية ، ويوجد التسخير والتأجير والاستغلال ، بل توجد جميع الاسباب التى تدعو الى وجود السياسيين ، وخلاصتها الطمع والتنازع والحاجة الى كف العدوان أو تنظيمه لاطالة النفع منه جهد المستطاع

فالحرمان هو رائد السياسة فى تاريخ الانسان الاول ، أو هو علة الحاجة الى نشوء السياسيين ومن يؤدون وظيفتهم بكل عنوان من العناوين ، وقد يكون منها عنوان الكهانة وعنوان السحر وعنوان الاصلاح

ولا يفهم من كون الحاجة علة لنشوء السياسيين فى الجزيرة المفروضة أنهم يكفون الجزيرة حاجتها ويحملون مؤونتها ، فان العلة شيء والعلاج شيء آخر . ومنذ الساعة الاولى فى تاريخ العلل والادوية كان المرض موجبا للبحث عن الطبيب ، ولم يكن مجرد البحث عنه كافيا لاتقان الطب وضمان الشفاء

كذلك الحرمان والسياسة !

يكون الحرمان علة لظهور السياسة فيظهر السياسيون ويعملون مخلصين وغير مخلصين ، ولكنهم لا يزيلون الحرمان ولا يهتدون الى علاجه الصحيح الا بعد اجتهاد وتجربة ومعاودة للاجتهاد والتجربة عدة مرات ، وقد ينتقل الناس على مدى الايام من علاج حرمان الجزيرة الى علاج السياسة نفسها وانشاء الفن الخاص – بل الفنون الخاصة – بتطبيبها وتقسيم أمراضها وتنويع أدويتها . وهذا الذى حدث ويحدث الى الساعة فى الجزيرة الانسانية برمتها ، ونعنى بها الكرة الارضية التى نسكنها ولا نستطيع أن نتحول عنها

ففى هذه الجزيرة – أى هذه الكرة الارضية – عشرات الالوف من السياسيين

وهؤلاء هم أطباء الحرمان

وفى هذه الجزيرة ألوف من أصحاب المذاهب السياسية والاجتماعية ودعاتها التابعين لاصحابها

وهؤلاء هم أطباء الاطباء ! . .

وكل طبيب من هؤلاء الاطباء يشيد بطبه دون غيره ، ويتهم الاطباء الآخرين بالشعوذة والجربزة وسوء العلم وسوء الضمير

ومن هؤلاء أصحاب « مستوصف » الاشتراكية ومستوصف الشيوعية ومستوصف النقابية ومستوصف الفوضية ، وغيرهم ممن تتفرق بينهم الاسماء والعناوين حتى يصبح « لحم » أحدهم سم الآخرين ، كما يقولون فى أمثال الاوربيين

هؤلاء قفزوا بالجزيرة الانسانية من وراء الزمن الى عالم لا استغلال فيه ، فلما أرادوا أن يفسروا لنا كيف يزول الاستغلال ، وقفوا بينهم وقفة يطول عندها الانتظار ، ويكتب للاستغلال معها عمر الأبد لو كان عمره معلقا على نتيجة ذلك الانتظار

ما العمل فى الاجور مثلا اذا بطل الاستغلال ؟ هل يبقى لها محل فى عالم العمل أو هى لاحقة بالاستغلال تزول بزواله ؟

أما الذين قالوا انها تزول فقد اختصروا الطريق ، ولكنهم لم يصلوا الى شيء

وأما الذين قالوا انها تبقى ، فاستمع اليهم تسمع عجبا يروقك كأنه أعجب الفكاهات ، لولا أنه جد أليم

يقولون : لا لزوم للمال لانه أداة الاستغلال . انما يتداول الناس « صكوك الايجار » ويحمل كل منهم أوراقا مالية من هذه الصكوك . فاذا اشتغلت فى مصنع قومى ثمانى

ساعات ، فمعك ورقة بهذه الساعات الثمان ، تشترى منها كبريتا بساعة ومنديلا بساعتين وخضرا وفاكهة ولحوما بثلاث ساعات ، ولا يفيدك أن تحتفظ بقيتها فى يديك !

ويطل هنا سائل لا بد أن يزج برأسه فى هذا المجال فيقول : وهل يتساوى عمل ساعة يقضيها العالم فى كشف الحقائق الطبية والرياضية والطبيعية ، وعمل ساعة يقضيها الفاعل فى حفر التراب ونقل الاحجار ؟

فيجيب قوم : نعم ، ويجيب آخرون : لا يتساوى هذا وذاك

فأما الذين أجابوا نعم ، فقد اختصروا الطريق ولكنهم لم يصلوا الى شىء !.. وأما الذين أجابوا « كلا » فالخلاف بينهم أعجب خلاف

فمنهم من يقول ان ساعة العالم تقدر بساعات من عمل العامل بيديه ، ومنهم من يقول بل تقدر ساعة العامل بيديه فى الصناعات الكريهة ـ كصناعة المجارى مثلا ـ بعدة ساعات من أعمال العلماء والاطباء والمخترعين !!

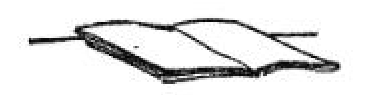
وكيف يتفقون ؟ وكيف يكون تقدير الفروق اذا اتفقوا على المبادىء ؟ وكيف يكون الانصاف فى التنفيذ اذا تقررت المبادىء وتقررت الفروق ؟

تلك بعض ألغاز الجزيرة التى يظهر فيها الحرمان ، فيظهر فيها أطباء الحرمان ، فيظهر فيها أطباء الاطباء ، فيظهر فيها الصيادلة بشتى العقاقير من وراء أولئك وهؤلاء

ويخيل الينا فى كثير من الاحيان أن المائدة حافلة بالطعام ، ولكن أماكن الضيوف هى التى يقع عليها الخلاف . فهذا تقابله الفاكهة وهو محتاج الى الخبز ، وهذا يقابله الخبز وهو محتاج الى التوابل ، وهذا يقابله الدجاج وهو يستفيد من السمك ، أو يقابله السمك وهو يستفيد من الدجاج

وعلى أية حال هنالك حقيقة موجزة تجمع كل ما يخاض فيه من هذه التفصيلات ، وهى أن « الجزيرة » لا يظهر فيها السياسيون وأطباء السياسيين الا ساعة يظهر الحرمان ، سواء كان هذا الحرمان لقلة الطعام على المائدة أو لكثرة الطعام مع اختلاف المكان

عباس محمود العقاد



الحرب بعد خمس سنوات

بقلم الأستاذ سامى الجريدينى

أما عقبى الوغى بعد أن ابتلى العالم كله به ، فقد وضح وصارت الاشارة اليه تحصيل حاصل

فالنصر مضمون للامم المتحدة، وكتبت الهزيمة على الطغاة الذين اتخذوا من شعوبهم والشعوب التى قهروها مطية لمطامع قومية ، ليس هذا العصر بأهل لها

وعندنا أن هذه الحرب قد وضعت حداً فاصلا نهائياً لكل أيام الحروب الماضية التى كانت تقوم على أمرين : أحدهما مطمح شخصي موروث عن الانظمة الاقطاعية القديمة وما تبعها من نظم اقتصادية جعلت لخدمة الفرد مضحية بمنافع الكثرة . وثانيهما المطامع القومية التى نشأت عن المطمح الفردى

وقد كانت هذه شراً ووبالا على العالم ، لأنه اذا كان ضرر الفرد مما يسهل اتقاؤه فان الضرر الآتى بلباس القومية وسحنة الوطنية لعظيم جرف العالم منذ قرنين وأكثر ، ولا تزال آثاره ظاهرة . وليست النازية أو الفاشية الا مظهراً من مظاهر الروح القومية المتعصبة التى تأبى أن تسمح للقوميات الأخرى بالبقاء الا فى درجات واطئة ، وتبقى هى مستعلية

خلاصة تاريخية

عند ما شهرت انجلترا الحرب على المانيا فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ قال رئيس وزارتها يومئذ : إننا أخذنا أهبتنا لنحارب خمس سنين ان دعت الحال

فأجاب هتلر : « أما المانيا فقد تأهبت للحرب سبع سنين »

فهل يصدق الحدس الانجليزى أو تتم نبوءة زعيم الحالمين ؟

ولسنا الآن فى مقام التكهن بنهاية الحرب ، وإنما نحن نؤرخ حوادثها ، فها قد مر عليها خمس سنين إلا قليلا . فاذا بالمقدمات شيء وبالنتائج شيء آخر

فصار يحق للمتكهنين أن يقولوا انها صارت على أبواب النهاية

ويجوز أن يقال إجمالا ان الظفر كان معقوداً بألوية الالمانيين فى السنين الثلاث الاولى من الحرب . فقد عبأ المحور — المانيا واليابان وايطاليا — قوته بعد أن كان قد تأهب واستغل تردد أعدائه وضعفهم ، فظن الفرصة مواتية لاحتلال أوربا ثم السيادة على العالم أجمع

ولم يكن يخامر رجال المحور شك في قدرتهم على اخضاع أوربا كلها في بضعة أيام ـ أوربا الغربية أولا ، ثم روسيا

أما انجلترا فكانوا واثقين من استسلامها بعد أن تملكوا ناصية أوربا الغربية ، فان أبت فغزوها وضربها من الجو وحصرها وتجويعها بالغواصات الى أن تخر صاغرة على أقدام الطغاة

ولقد كان نصر المانيا في تلك السنوات كتاباً موقوتاً ، فقد كانت جيوشها لا تهم بعدو حتى يخضع وكانت القوة الآلية من مركبات وطائرات تلقى الرعب في الشعوب ، المحاربين منهم وغير المحاربين

حتى قال القائلون أن قد تم الامر لالمانيا . وأخذ المحايدون يتأهبون لتلقى الامر من الاسياد الجدد

* * *

وليس المقام مقام سرد تفصيلي للحوادث ولكنه مقام اظهار موقف الحرب من العالم الآن وكيف انقلبت الآية

فسواء أكان الفضل للبريطانيين الذين كسروا القوة الجوية الالمانية في معركة بريطانيا، أو كان للروس الذين عادوا بعد غلبهم يهاجمون ويفتتحون المعاقل الالمانية ويردون جيوشها عن الاراضي الروسية ، أو كان للامريكيين الذين أمدوا الانجليز والروس بالسلاح وبالذخيرة وبالطائرات وبالمدمرات ، وقالوا لهم اصبروا وصابروا فاننا منجدوكم عما قليل

سواء لهذا السبب أو ذاك ، أو لكل هذه الاسباب مجتمعة فان النتيجة واحدة

فعدة الالمانيين لفتح العالم وسيادته كانت قائمة على اخضاع أوربا الغربية استناداً الى قوة جوية هائلة تؤيد جيوشاً اتخذت الدبابات والسيارات المصفحة آلة قتالها ، ثم الى قوة بحرية تحت الماء تضرب مواصلات انجلترا فتجوعها ، وتمنع المدد الأميركي من الوصول

فخضعت أوربا الغربية على مضض، أخضعها السلاح المرهف في وجهها ولكنها أبت أن تتعاون مع المانيا الظافرة

وأما الجو الذي ظن جورنج أنه سيكون عبداً له ، فقد نقل ولاءه الى الانجلو أميركيين ، وأما الغواصات فباءت بفشل ذريع ، وتم تأهب أميركا ، واذا بجيوش الحلفاء تغزو أفريقيا وتطهرها من المحوريين واذا بها تغزو ايطاليا وفرنسا . فليس هناك بقية أمل لألمانيا بالنصر. ليس لتخلى ايطاليا عنها ، ولكن لافتقارها عما قليل الى كل ما يجعل الحرب مستطاعة . انها افتقرت اليوم الى الزيوت وغداً الى الحديد ، وبعد غد الى الامل الذي كان يشحذ همة الشعب الالماني ويدفعه الى التضحية

* * *

فاذا سلمنا بأن الحرب بعد خمس سنين قد جعلت النصر مضموناً لأعداء ألمانيا ، فهل كان هذا كل ما جاءت به الحرب

إننا نعتقد أن هذه الحرب كانت نتيجة محتمة للحرب العالمية الأولى ، ومتممة للانهيار الاجتماعى الذى بدأ فى ١٩١٤ ، والذى كان يجب أن يكون ليزول نظام عرفه العالم وخبره منذ أواسط القرن الثامن عشر حتى آخر التاسع عشر

إن هذه الحرب والتى قبلها كانتا أداة انقلاب اجتماعى رأينا بداءته ولم نر استقراره بعد . فاذا علمنا أن القوة المتجمعة فى أميركا وروسيا والامبراطورية البريطانية كانت صاحبة اليد الطولى فى القضاء على الطغيان ، صح لنا أن نتلمس السبيل الى ما سيكون عليه عالم بعد الحرب ، على ضوء ما تعمل به ولأجله هذه الأمم المنتصرة

فانه لولا اجتماع هذه القوى الثلاثة تؤيدها الصين فى الشرق الاقصى باشغالها جانباً لا يستهان به من القوة اليابانية ، لما كان هناك من شك فى انتصار ألمانيا

وإنك لترى حتى الساعة بعض الناس فى شرق أوربا وفى آسيا وفى أميركا الجنوبية لا يسلمون بانكسارها ، ولعل تمنى الشىء يحل عند هؤلاء الناس محل الشىء نفسه

القوة المتحدة القائمة

فالقوة التى أودت أو تكاد تودى بالنازية والفاشية وبالنظم التي تمثلهما ، هى قوة متحدة ذات ثلاث عواصم (واشنطون وموسكو ولندن)

على أن الاتحاد فى زمن الحرب سهل ، لأنه خاضع لنظام عسكرى ، لا يستطيع معه الفرد أو الجماعة أن يخرجا على الغرض الحربى ، ولكنه إذا وضعت الحرب أوزارها وجاء زمن السلام ، بدأت المصاعب ، إذ تطلق الحرية من مكامنها ، وإذ ينفجر ما كانت ضغطته الحرب وكبتته

هذه العواصم الثلاث تمثل أمماً مختلفة ومبادىء سياسية واقتصادية متباينة

فالاقتصاد والسياسة فى روسيا قائمان على ارشاد الدولة التى تتولى الشؤون كلها

أما فى الولايات المتحدة الأميركية فالفرد دعامة المجتمع ، ويأبى هذا أن يخضع لسيطرة الدولة ، ذلك أنه رأى توفيقه السياسى ونجاحه الاقتصادى فيما مضى رهناً بهذه الحرية

ولعل الامبراطورية البريطانية قد جمعت اليوم المبدأين معاً الى حد غير محدد بعد

وليس لنا أن ندخل الآن فى تفاصيل نوضح فيها أغراض كل من هذه الأمبراطوريات الثلاث ومراميها الاجتماعية ، ولكننا نزعم أن القوم — وقد خبروا الانقسام وسوء الظن — قد يجعلون سياستهم قائمة على حسن الجوار ، وتفهم الواحد عقلية الآخر ما استطاع الى ذلك سبيلا

أولى نتائج هذه الحرب

فقد كانت أولى نتائج تحالف هذه الأمم إظهار الكرامة الانسانية على أشرف مظاهرها

فقد برهنت البشرية مرة أخرى أنها تأبى الخضوع لسيطرة الفرد أو الجماعة المستبدة ، وهى شر من الفرد

إن الذى جعل البريطاني يأتى من أقصى الأرض ليبذل نفسه ونفيسه فى محاربة المحور ، والذى حول الأميركيين من قوم فى عزلة عن العالم وفى اكتفاء مادى عظيم الى شعب يضحى بحريته وبماله وبروحه فى مقاومة المحور ، والذى جعل الشعب الروسى الذى لم يستطع فى ماضيه الطويل أن يصمد للقوة الألمانية ، أن يصبر ويضحى ويبذل فى سبيل مكافحة المحور - إن هذا العامل هو فى نظرنا أبعد مرمى من مصلحة مادية قريبة النوال ، إنه دفاع عن الكرامة الانسانية نفسها التى أبت أن تستعبد لعنصر بعد أن مضى عليها قرون تجاهد فى سبيل الخلاص من شتى العبوديات

فان الأزمات العظمى قليلة فى التاريخ ، ولكنها عندما تجيء تكون محكا تظهر فيها معادن الشعوب التى تضع الكرامة الانسانية فوق كل اعتبار

وان هذه الحرب وقد عمت العالم وكاد الألمانيون أن يستأثروا به ، لا تخرج عن أنها أكبر نضال قام حتى الساعة فى سبيل تمرد الانسانية على الاستعباد ، ونزوعها الى تحرير نفسها من قيود سياسية واقتصادية آثرت القلة على الكثرة

ثانى نتائج هذه الحرب

اذا كانت الكرامة الانسانية قد استفاقت فى هذه الحرب من سبات القرون الماضية فلا شك أنها ستوجه حكوماتها توجيهاً يختلف عن الماضى

فالذين قامت هذه الحرب على أكتافهم ورأوا الملايين تنفق فى سبيل التخريب ، سيطلبون أن تنفق أمثال هذه الملايين أو أقل منها فى سبيل التعمير

والتعمير لن يكون اذا لم يكن العيش مضموناً لأهله ، فقد كانت البطالة وعدم توفر العمل للعامل كذلك الفقر وعدم تمكن نفر كثير من كفاف العيش ، ناهيك بالخوف من المرض ومن الشيخوخة - لقد كانت كل هذه من الأمراض المعيية التى علق مكروبها فى الشعوب ، ولكنها لن تعود بعد هذه الحرب . ذلك أن الحكومات القائمة فى العواصم الثلاث قد قطعت لشعوبها على أنفسها عهداً ، بأن تضمن للعامل عملا ، وأنه لن يعود سائلا بعد اليوم ولا مفر من تنفيذ هذا

وأنت ترى أن العمل الكثير يستدعى الانتاج الكثير ، والانتاج الكثير يتطلب أسواقاً للاخذ والعطاء

وأنت ترى أن المزاحمة على الأسواق كانت ويلا على العالم فيما مضى وأن الناس قد فهموا بعد

لأى أن التضامن خير من التنافر ، وأن التسامح مجلبة للرواج المادى ، فلذلك ترانا نظن أن توجه القوة الثلاثية التى أشرنا اليها سيكون توجهاً قائماً على الافادة من اختبار الحرب الحالية ، ومن الايام الماضية بحيث يرون أن الاختلاف على الحدود ، يعيد أسباب الحروب سيرتها الاولى

ولن يكون توجه هذه القوة فى هذا السبيل حباً بالمبادىء الاخلاقية ، فانه اذا كانت القوة فى أمثال الأيدى التى أبرمت اتفاق مونيخ ، ونصرت فرنكو على الجمهورية الاسبانية ، ووقعت هدنة يونيو ١٩٤٠ ، فلن يرجى للبشرية خير

إنها أياد تسعى لمنفعة طبقة دون طبقات ، فى سبيل استعلاء فئة على فئات فى ظل السلامة المادية ، ذاهلين عن سلامة الروح والضمير

لا . لن تكون القوة فى مثل هذه الأيدى ، ولن تكون فى سبيل ما يذرون به الرماد على العيون ويدعونه أخلاقا عالية . ان القوة ستكون فى أيدى الشعوب الذين تعلموا وارتفع مستوى العيش عندهم ، وأدركوا أن القيادة فى أيديهم ، وأنهم اذا سلموها فانهم يسلمونها لمن يعلمون أنه خادم أمانيهم ، هذا هو الرجاء الوحيد الذى يجعل السلام فى حيز الامكان

ثالث نتائج هذه الحرب

اذا صح ما قدمناه أو صح بعضه ، فان السياسة فى الاجتماع والاقتصاد ستنصرف عن مبدأ القومية الى ميدان أعم وأوسع ، وهو الميدان العالمى . وأول قوم سيتوجه هذه الوجهة بعد الحرب سيكون الأوربيين . فقد آن لهم أن يدركوا أن القتال المتواصل على جبل هنا ونهر هناك ، وحد فاصل فى هذه الناحية ، وأرض ذات ماض فى تلك ، كل هذا كان سببا فى الحالة التى وصلت اليها أوربا الآن فتقطعت أوصالها وأضاعت زمام الأمور العالمية من أيديها

ان فيما كانت عليه أوربا أيام الامبراطورية الرومانية ، وما جرته عليها سياسة القوميات من حروب ابتدأت ولما تنته، لما يفتح عيونها الى حقيقةيظهر فيها الاتحاد الاوربى بشكل اتحاد أجزاء الامبراطورية البريطانية أو بشكل الاتحاد السويسرى ، عاملا شريفاً فى سبيل الحضارة

فاذا كانوا يعيبون على البلقان أنه كان «كالسلطة»متشعب الاميال والاجناس واللغات والمذاهب فان أوربا نفسها لم تكن خيراً منه

فان لم ترتفع عن هذه السياسة ، واذا لم ينظر قادتها العتيدون نظرة أرفع وأوسع مدى فى سياستها ، فقل على مستقبلها السلام

هذا اجمال مشى به الخاطر ، ولا يتسع المجال الآن لبحث مسائل تتعلق بكل دولة من الدول العظمى على حدتها ، كما أن الرأى العام بعد الحرب قد يتخذ تياراً لم نشاهد كل خطوط سيره بعد ، والامور مرهونة بأوقاتها

سامى الجريدينى

لماذا نبكي ونضحك

بقلم الدكتور أمير بقطر

ان الانفعال لغة كالكلام نعبر به عن وجدان ، كما نعبر بالكلام عن رأى أو رغبة

فى كل لحظة من لحظات الحياة — فى اليقظة غالبا وفى النوم وأثناء الاحلام أحيانا — يحس الانسان اما بارتياح أو بعدم ارتياح . وتنشأ هذه الحساسية عن وقوف صاحبها على شىء ، أو ما نسميه عادة المعرفة . والمعرفة تأتى الينا عن طريق الحواس ، من الخارج أحيانا ومن الداخل أحيانا . فكل ما نسمع من الاصوات والاحاديث والاغانى ، سواء أكانت حسنة أم قبيحة ، وكل ما نرى من المناظر ، وما نشتم من الروائح ، وما نذوق من المآكل والمشارب ، وما نلمس من الاجسام ، وما نحس به من الرطوبة والبرودة . وبعض ما نحس به من الألم .. كل هذه معارف تأتى الينا من الخارج . وكل ما نحس به من الآلام العضوية ، والجوع ، والعطش ، والرغبة الجنسية وأمثالها ، معارف تأتى الينا من الداخل . وكلها يطلق عليها اسم مدركات حسية لانها معارف مصدرها الحواس . وهى (أى الحواس) تبلغ اليوم اربع عشرة ، لا خمسا كما كان يظن . وقد تأتى الينا المعارف عن طريق الخيالات التى تمر على الذهن فى شكل صور وأشباح . وما هذه حقيقة الا صدى أو صورة منعكسة للمدركات الحسية ، أى لمعارف سابقة جاءت الينا عن طريق الحواس . وهناك معارف أكثر تعقدا من هذه التى تجىء الينا عن طريق الحواس ، وهى ما نسميه المدركات العقلية . فجهاز المجهر (المكرسكوب) عند الرجل الجاهل ما هو الا قطعة من النحاس ، تتخلل أجزاءها مرآة وقطع من الزجاج ، أى أنها تكاد تكون المعرفة فيها ادراكا حسيا وحسب ، فى حين أنها فى نظر الرجل المتعلم آلة ثمينة ، تحمل دقائقها مجموعة من اختباراته السابقة ، وتحمل الى ذاكرته عجائب الطب وغرائب العلم ، و « باستير » وعالم الجراثيم وعلم البصريات وغير ذلك ، فضلا عن انها قطعة من النحاس تتخللها مرآة وقطع من البلور .

نعود الى ما قلناه فى صدر البحث من أن الانسان يحس فى كل لحظة اما بارتياح أو بعدم ارتياح ، تبعا لنوع المعرفة (أو الادراك) التى شرحناها . والحساسية بالارتياح أو عدمه تتطلب شيئا من التفصيل . فأولا قد تبلغ فى أقصاها المرح والانبساط من ناحية ،

والانقباض والوجوم ، بل الحزن الشديد من الناحية الاخرى . وثانيا قد تبلغ التوتر والشدة والعسر (فترة الانتظار) من ناحية ، والفرج من الناحية الاخرى . وثالثا قد تبلغ التهيج من ناحية والتخدر أو فقدان الحس من الناحية الاخرى . وبين الطرفين فى كل درجات ، منها ما تكون الى الارتياح أميل ، ومنها ما تكون الى عدم الارتياح أقرب ، ومنها ما تكاد تكون وسطا بينهما ، فيسمونها « محايدة » . ويرمز علماء النفس الى حالة الارتياح بالعلامة الرياضية + (زائد) والى حالة عدم الارتياح بالعلامة − (ناقص) . على أنه يحدث أحيانا أن تجتمع الحالتان فى شخص ما فى وقت واحد ، كأن يرى أحدنا عزيزا لديه خرج من سجن أو عاد بعد غيبة طويلة ، فتختلج جوارحه بالحزن والفرح فى وقت واحد ، ويرمزون الى هذه الحالة بعلامة (زائد وناقص معا)

وهذه الحساسية بالارتياح أو عدم الارتياح ما نسميه عادة وجدانا . غير أن الناس لا يكتفون فى الغالب بالوجدان ، أو يقفون عند حد الاحساس بالارتياح أو عدم الارتياح وانما يبدو عليهم فوق ذلك ما ينم على هذا الاحساس الداخلى ، أو بتعبير آخر ينفعلون ، أى أن الوجدان احساس داخلى ، فى حين أن الانفعال مظهر خارجى لهذا الاحساس الداخلى . فاذا رأيت صديقا لك ، لا تستطيع أن تدرك ما يحس به من ارتياح أو عدمه ما لم يبد ذلك على وجهه أو ملامحه ، أو ما يكشف عنه لونه أو صوته ، أو ما تدل عليه حركاته . والانفعال نشاط عضلى أو غددى أو كليهما . فاذا أحسست بالألم تقلصت عضلات وجهك ، واذا أحسست بالحزن أذرفت الدموع ، واذا أحسست بالغضب احمر وجهك وكشرت عن أنيابك ، وضممت قبضتيك بشدة ، واذا ما أدركك الخوف ، تصبب العرق من جبينك ، واضطربت أنفاسك ، وأسرع نبضك ، وارتفع ضغط الدم فى شرايينك ، واذا ما انتابتك نوبة حب اضطربت نبضات قلبك وقفز ضغط الدم ، وهكذا الحال اذا جلست الى منضدة تجيب عن أسئلة الامتحان ، أو اذا وقفت أمام القاضى متهما أو شاهد زور ، أو اذا تمددت على أريكة الطبيب للفحص . واذا ما أغضبك أحد فثارت ثائرتك تقلصت عضلاتك ، وانتصبت شعرات رأسك ، وكأنك تتأهب للقتال ، وان لم تقاتل فعلا

جميع هذه الانفعالات ــ الكز على الاسنان ، تورد الخدين ، انتفاخ الوجه ، وقوف الشعر ، ضم القبضتين ، سكب دموع الحزن ، تضرعات الحبيب ، تأوهات الحزين ، قهقهة المرح ــ كلها مظاهر لشتى الوجدانات . وأهم هذه الوجدانات الخوف وهو استجابة للخطر ، والغضب وهو استجابة لتدخل الغير فى حرية الفرد أو هدرا لكرامة ، والفرح وهو استجابة للفوز بكل أنواعه ، والمفاجأة وهى استجابة لما لا ينتظر ، والبكاء وهو استجابة للحزن ، والحب وهو استجابة لجاذبية جنسية أو ما فى حكمها ، ومتى سيطر العقل على صاحبه قلت هذه الانفعالات ، ولكن هيهات زوالها ، اذ أنها مظهر للوجدانات ، والوجدانات من طبيعة الانسان ، ومن مستلزمات كيانه . ومهما بلغ المرء من سمو

العقل والحكمة والثقافة ، فلا مناص من أن تخرج الحالة أو الموقف من يده أحيانا ، فيندفع اندفاعا وتتغلب العاطفة على العقل فينفعل

يسأل سائل : ما معنى هذه الحركات المضحكة ـ هذه الانفعالات الغريبة فى بابها ؟ تأمل فى الابتسام ، الضحك ، التجهم ، تقطيب الوجه ، التكشير ، مط الشفتين ، التهكم ، السخرية ، النحيب ، النشيج ، الصراخ ، الزعيق ؟ ما معنى هذه وعشرات أمثالها ؟ يخيل الينا لاول وهلة أنها عديمة المعنى ، غريبة الاطوار ، فما معنى مط الشفتين عند ما يكون الواحد منا متجهما عابسا ؟ وما معنى شد زاويتى الفم والكشف عن عدد كبير من أسنانه ، عند النظر الى الغير نظرة الاحتقار ؟ فى رأى دارون انها بقايا حركات بدنية ، كانت يوما ما ذات منفعة عملية فى حياة الفرد ، ضرورية لبقاء الجنس . فتحريك الرأس الى اليمين ثم الى الشمال دلالة على عدم الرضا أو الرفض أو الانكار ، ترجع الى مرحلة الرضاع ، عند ما يريد الطفل أن يعبر عن عدم رغبته فى الطعام ، واخراج الكلام من الانف عند الاشمئزاز والاستياء (أى تقليد الاخنف) مصدره ضرب من الدفاع عن النفس عند تجنب الروائح الكريهة ، وضم الشفاه عند العزم والتصميم ، أو للحنق وحدة التأثر ، يتمشى وتخشب الصدر وضم فتحة الحنجرة ، ومصدره التأهب للقيام بمجهود عضلى، أو الاستعداد للوثوب، وابداء النواجذ عند احتقار الغير والازدراء بأقوالهم أو أعمالهم ، ترجع الى ما قبل ظهور الانسان . فالقردة والكلاب وأمثالهما من الحيوانات ذات الأنياب الحادة ، تجد فى هذه الحركة سبيلا لاظهار بأسها ، ووسيلة لارهاب العدو . والكثير من هذه الحركات يولد بها الانسان ، ولكن الكثير منها أيضا يكتسب من البيئة . فالمحامى بطبيعة مهنته يكثر من الانفعالات الصوتية والحركات البدنية ، والممثل بحكم صناعته يبالغ فى هذه الانفعالات حتى تصبح أحيانا جزءا منه . والامم اللاتينية (واكثر الامم الشرقية) معروفة بالمغالاة فيها ، ومن القصص المأثورة فى هذا الصدد أن فرنسيا كان محكوما عليه بالاعدام ، لم يبدأ فى شرح أقواله (مما أدى الى تبرئته فى نهاية الامر) الا عند وقوفه أمام الجلاد ، ولما أن سئل عن سبب سكوته الى ذلك الحين ، أجاب : وكيف كنت أستطيع الكلام وأنا مقيد اليدين مغلول القدمين ؟

ويستطيع من لابس الكثير من الامم والطوائف والعشائر أن يتعرف على جنسية الشخص أو عشيرته أو اقليمه بل أسرته أحيانا ، عن بعد ، اذا ما راقب حركاته ونبرات صوته . وسكان الامم الشمالية أقل الناس انفعالا واشارة وحركة، ومع ذلك يمكن معرفة البلد أو الاقليم الذى ينتمى اليه أحدهم من مراقبة القليل مما يبدو عليه من الانفعالات

قلنا ان المرء كلما تمدين وتثقف وخرج من مراحل الطفولة ، تضاءلت انفعالاته ، وازدادت مقدرته على ضبطها . والناس يضحكون عادة من رجل عاقل بالغ متعلم ، اذا ما بكى أو احتد أو خاف أو أحب أو كره وأبدى هذه أو بعضها علانية ، وذلك لان الانفعال بغير ضابط من مظاهر الطفولة ورجوع الى الفطرة . ومعنى هذا أن الضغط

الاجتماعي" يدفع الرجل المتمدين الى الاحتفاظ بوجدانه لنفسه ـ حزنه وفرحه وكراهيته وحبه وخوفه وغضبه واشمئزازه واستحسانه . وكثيرا ما تدفع « الاتيكيت » أو «الدبلوماسية» الرجل الى الابتسام ، فى حين أن الطبيعة تريد الوجوم والتجهم ، والعكس، وفى جميع العصور البائدة منها ـ وعلى الاخص فى عصر المدنية ـ كان هناك سباق دائم بين اخفاء ما ينم على وجدان الشخص ، وبين الكشف عنه فى الغير

وما التمثيل الا تصوير الوجدان بحذق الانفعالات الصناعية ، من اشارات ، وحركات، ومواقف ، وتعجبات ، وتعبيرات وجهية وصوتية . وهذه مكتسبة فى الغالب . ولكن الواقع أن أمهر الممثلين هو الذى لا يقف عند هذا الحد ـ حد تصوير الوجدان ـ وانما الذى يصوره ويحس به فى آن واحد ، أى يجتمع فيه الوجدان والانفعال معا . ومعنى هذا أن يكون طبيعيا ، لانه لا يعقل فى الحياة اليومية أن يكون الانسان منفعلا بغير أن يحس بمصدر الانفعال ، اللهم الا اذا كان مرائيا ، أو مخادعا أو « دبلوماسيا » . ويختلف الممثلون فى الوسائل والحيل التى بها يتمكنون من اثارة الوجدان المرغوب فيه فى شتى المواقف التمثيلية . فالممثلة السينمائية « بولا نيجرى » مثلا كانت كلما دعاها موقف للبكاء والحزن ، استمعت الى اسطوانة فونوغرافية خاصة ، كانت سمعتها يوما ما فى طفولتها فى احدى غابات بولونيا ، موطنها الاصلى . ولعل هذا المثال يحدونا الى الاشارة الى نظرية سيكولوجية معروفة باسم صاحبيها « جيمس ـ لانج » [1] ومؤداها أن المرء ينفعل أولا ويحس بعد ذلك ، لا العكس . أى طبقا لهذه النظرية أننا نحس بالحزن لاننا نبكى ، ونخاف لاننا نهرب ، ونغضب لاننا نحتد ونشتم ، ونحس بالمرح لاننا نضحك ، لا العكس

ومهما قيل ضد هذه النظرية فانها تشمل الكثير من الحقيقة . فالممثل يتصنع الضحك فى بادىء الامر ثم يتمادى فيه ، وسرعان ما يحس بالمرح ، فيصبح الضحك طبيعيا بعد ان كان صناعيا ، ويتصنع البكاء ويجهش ، وسرعان ما يحس بالحزن ، فيستحيل البكاء طبيعيا بعد أن كان صناعيا . واذا راقبنا عن كثب حلقة « ذكر » تبين لنا أن افرادها يبدأون بحركات بدنية تمايل أبدانهم فيها يمنة ويسرة ، وتهتز أعطافهم ، وتزداد حركاتهم عنفا، وهم فى ذلك يتصنعون هذه الحركات ولا يحسون بمصدرها ، ولا بما يدعو اليها فى بادىء الامر ، ولكنهم بعد ذلك تأخذهم النشوة ، وتسرى فى أبدانهم وجدانات وأحاسيس ، فتتحول هذه الحركات التوقيعية انفعالات طبيعية بعد أن كانت صناعية . ولا يشك أحد منا أن كبت الانفعالات الجسمانية الخارجية تحمى سعير الوجدانات الداخلية ، ولكنه من المحقق كذلك أن المبالغة فى اظهار هذه الانفعالات تزيد نار الوجدانات اتقادا . فالنساء اللاتى يولولن ويكثرن من النحيب الصاخب والضوضاء والجلبة اذا مات لهن قريب أو بعيد ، انما فى الواقع يخلقن الحزن ، وقد لا يكون له داع أو وجود . كما أن المعزين

(١) جيمس العالم والفيلسوف الاميركى ولانج العالم السيكولوجى الدانيمركى

الذين يتجمهرون حول امرىء فقد عزيزا لديه يحاولون منعه من البكاء وهو يودع ذلك العزيز الوداع الاخير عند حافة القبر ، انما يسيئون اليه ، اذ أن انكار البكاء عليه يزيد النار اشتعالا . وكل ما نريد أن نقول هنا فى هذا الصدد أن المغالاة فى البكاء تضاعف الاحساس بالحزن ، لا البكاء المعتدل ، وان المبالغه فى البكاء وان كان مفتعلا ، يولد فى النهاية الحزن

وقد يدل الانفعال الواحد على معان (وجدانات) كثيرة . مثال ذلك قد يدل موقف واحد على المفاجأة ، التعجب ، الانذهال ، الاعجاب ، الهلع ، الخوف ، الامل ، الحب التباهى ، ولا يمكن الجزم بالتمييز بينها . وقد يدل انفعال آخر على الاستياء ، الكراهية ، الاستهجان ، الازدراء ، التحدى ، الاستهزاء ، التهكم ، البكاء ، الجبن ، الاشمئزاز النفور ، حب السيطرة ، الاتهام ، الارتباك ، الألم العقلى . ولليدين قدرة عجيبة على اظهار الانفعالات ، كالحب ، والكراهية ، والتأهب للقتال ، وعدم المبالاة . اما الصوت فأشد تعبيرا من الوجه والملامح واليدين فى ابداء الانفعالات . ويقول علماء النفس ان الصوت الذى يسمع عند ما يقول صاحبه « لا » يمكن الوقوف منه على شتى المعانى . وفى بعض اللغات تكتب الكلمة الواحدة بصورة واحدة ولكنها تؤدى عدة معان تبعا لنبرات الصوت العديدة التى يمكن نطقها بها . وتذكرنى هذه النقطة بحكاية سمعتها من زميل لى قضى سنوات فى بلاد الهند . قال الزميل ان سيدة انجليزية أرادت أن تخاطب جماعة من الهنود بلغتهم ، وكانت تعلمت هذه اللغة حديثا . فأشار عليها أصدقاؤها أن تقص عليهم حكاية سيدنا يونس ، عند ما قضى ثلاثة أيام فى بطن الحوت . وما كادت تسرد عليهم القصة حتى أخذوا يهزأون بها وغادروا قاعة الاجتماع ساخطين ، فعادت السيدة الى أصدقائها باكية . ولما طلبوا اليها أن تعيد على مسامعهم القصة ، قالوا لا غرابة ، فقد نطقت كلمة (واحدة) بكيفية يفهم منها أن سيدنا يونس ابتلعته بطيخة

ويدل التنفس ، وارتفاع الصدر وانخفاضه على ما يحس به صاحبه ، ويستخدم القضاة فى بعض محاكم امريكا جهازا خاصا لمعرفة ما اذا كان الشاهد صادقا أو كاذبا فى أقواله ، مما يسجله هذا الجهاز من التقلبات فى تنفس الشاهد وصعود صدره وهبوطه . والشاهد الكاذب ، فى القضايا الهامة على الخصوص ، يرتفع ضغط الدم عنده بمقدار ٨٠ ٪ . وليس هذا بغريب ، فان الدم يرتفع ضغطه عند التهيج ، سواء أكان سببه اختراع حكاية كاذبة ، أم الجلوس فى حجرة الامتحان وعيادة الطبيب وكرسى الاعتراف ، أم مشاهدة مناظر سينمائية مروعة أو مثيرة للرغبات الجنسية ، أم قراءة رواية مستهترة ، أم الاصابة بهزة عنيفة — كهربائية أو نفسية أو أمثالهما مما يبعث فى صاحبها الخوف أو الغضب أو الحزن

وتضيق صفحات هذا المقال اذا تناولنا بالشرح الدور الذى تمثله الغدد والجهاز العصبى المركزى والسمبثاوى فى هذه الانفعالات على اختلاف أنواعها وتعدد أسمائها . فكلنا

يدرك أهمية الغدة الكلوية العليا وما تفرزه من هرمون « الادرنالين » الذى يقف بوساطته شعر الخائف والمحتد ، ويتصبب عرقه ، وتحمر وجنتاه ، وتتقلص عضلاته ، وتتضاعف قوته ، فيستطيع ان يواجه الخطر ويقاتل خصمه بشجاعة عجيبة لا عهد له بها فى حياته العادية . ولما كانت احدى هذه الانفعالات ، وهى تصبب العرق ، تغير الطبيعة الكهربية فى الجلد ، فقد اخترع العلماء جهازا غريبا يسجل وجدان الشخص بكيفية بديعة ، ويسمونه psychogalvanometer ومن التجارب المعروفة أن تعرض قطك الأليف لأشعة (اكس) بعد أن تطعمه جيدا ، ترى جدار المعدة وعضلاتها تتحرك بانتظام ، وتقوم بشبه رقصات توقيعية حضما للطعام . بعد ذلك تنادى كلبا فى غرفة مجاورة . وما يكاد يدخل الكلب حتى تقف معدة القط عن الحركة وقوفا تاما ولا تعود اليها الا بعد خروج الكلب بربع ساعة على الاقل . ويتضح من ذلك أنه من الخطأ الفاضح أن ينفعل الانسان ــ خوفا أو غضبا أو كراهية أو حبا أو غيرة أو اشمئزازا ــ قبيل الاكل ، أو أثناءه ، أو بعده

ومن أشد الانفعالات غرابة ما كانت على النقيض من الوجدان الذى تعبر عنه . مثال ذلك أن يضحك الحزين ، أو يبكى الفرح (دموع الفرح) . ويذكرنى هذا الاخير بواقعة حال لكاتب هذه السطور . كان ذلك فى بودابست ، وكان النقد فى أوربا متضخما متدهورا اثر الحرب العالمية الكبرى الاولى الى أبعد حد . كنت أتنزه فى حديقة عامة فى ضواحى المدينة ، فاقتربت منى حسناء ممشوقة القوام ، فلم أعبأ لها فى بادىء الامر ظنا منى أنها من الفتيات الساقطات اللاتى يكثرن فى تلك المدينة ، ولكنها ألحت ، وقد لفتنى اليها نضارة وجهها ، وما ارتسم عليه من علائم الطهارة والبراءة ، ثم ما يشبه جواز سفر وقد حاولت أن تدسه فى يدى مفتوحا ، لم أستطع قراءته فقد كان مكتوبا بالهنغارية ، ولكنى فهمت من ثلاث صور شمسية فيه ، أنه تذكرة تحقيق شخصية لاسرة ، هى احدى أفرادها ، وثانيها أنها العجوز وثالثها شقيقها المقعد ، وقد سمح لها بالتسول بسبب الكساد حتى تعول أسرتها . فاعطيتها ما قيمته شلن بالعملة الانجليزية وعشر شلنات بالعملة الهنغارية . وما دفعت النقود فى يدها حتى أخذت فى البكاء بصوت عال ، وخفت أن أكون قد ارتكبت خطأ فاحشا فاستعنت برجل البوليس ــ وقد كان على مقربة منى ــ وباشارات يدوية فهمت منه أنها دموع الفرح ، اذ أنها كانت لا تتوقع عشر معشار ما قدمت لها

ومغزى هذا المقال ان الانفعال لغة كالكلام ، نعبر به عن وجدان ، كما نعبر بالكلام عن رأى أو رغبة . فاذا ما بكينا ، فانما نعبر لانفسنا وللغير عن الحزن ، واذا ابتسمنا أو ضحكنا أو كشرنا عن أنيابنا أو وجمنا فانما نعبر عن الارتياح والفرح والغضب والاستياء ، ومهما قللت الحضارة والثقافة و « الاتيكيت » والدبلوماسية من شأنها ، فانها لا تزال تؤدى وظائف لا بد منها للبقاء على الجنس والمحافظة على النفس وبلوغ اليسر بعد العسر ، والفرج بعد الشدة والتوتر ، والهدوء بعد التهيج ، والارتياح بعد العناء

امير بقطر

مصر والتحرر من العوز والفقر

بقلم الدكتور حافظ عفيفي باشا

هذه محاضرة نفيسة ألقاها صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا بقاعة يورت بالجامعة الامريكية بالقاهرة ، وقد بين فيها سعادته كيف تتحرر مصر من العوز والفقر

ينشأ فقر الفرد من أسباب عدة : منها ما يرجع الى عيوب شخصية كالعجز ، والكسل ، والادمان على المسكرات ، ولعب الميسر . أو يرجع الى كوارث طارئة لم يكن فى الاستطاعة دفعها ، كاصابة بحادث يسبب عاهة تمنع صاحبها عن العمل ، أو غير ذلك مما لا أريد أن أتعرض له بتفصيل

وقد يفيد الاحسان فى تخفيف مثل هـذه الحالات الفردية . والاحسان من أسمى الفضائل الانسانية ، ولكنه اذا أصاب غير مستحق كان مفسدة

ولذلك فمن الخير تنظيم الاحسان ، بحيث تبحث حالة الفقراء فى المدن والقرى ، لتتمكن الجمعيات الخيرية المختلفة من تعرف الاشخاص المستحقين للمعونة والاسعاف ، على أن تستبعد منهم طائفة الكسالى ، والمتشردين ، والسفهاء ، والمدمنين ، ومحترفى التسول ، وأمثالهم ، اذا لم ينفع فيهم الاصلاح والارشاد

وعلى ذلك فاحصاء الفقراء وتوجيه المحسنين وأهل البر بالتبرع الى الجمعيات الخيرية بكل ما يستطيعون من مال وغذاء وكساء ، واناطة هذه الجمعيات بتقديم المعونة والمساعدة الى الفقراء ، هى الطريقة التى نؤيدها لتنظيم الاحسان ، وهى الاساس الذى يمكن أن يقوم عليه تخفيف ما يكابده المعوزون والبؤساء من ويلات وآلام

أما فقر الجماعات فهو الفقر الذى يصيب كثرة السكان فى بلد من البلاد نتيجة لقلة موارد الثروة فى ذلك البلد ، أو عدم استثمارها ، أو لضعف الصحة العامة ، أو لانتشار الجهل فيه . وهناك سبب آخر اختصت به البلاد الشرقية ، وهو عدم اشتغال المرأة فى المدن بعمل ما ، فأدى ذلك الى حرمان الامة من انتاج جزء كبير من أبنائها ، أصبح لا دخل له ولا ايراد . بعكس ما يشاهد فى البلاد الاخرى حيث يعمل القادرون من أهلها رجالا ونساء ، مما يترتب عليه وفرة الانتاج ، ومضاعفة دخل الاسر الفقيرة والمتوسطة

ولذلك فعلاج هذه الحالة يتطلب :

أولا ـ العمل على استثمار جميع موارد الثروة فى البلاد

ثانيا ـ العمل على تحسين الصحة العامة

ثالثا ـ العمل على نشر التعليم

فأما عن استثمار موارد الثروة الاهلية ، فهو موضوع متشعب النواحي . ولذلك أكتفي بالاشارة الى أهم عناصره وهي :

١ ـ زيادة الانتاج الزراعي ٢ ـ زيادة الانتاج الصناعي ٣ ـ استغلال الثروة المعدنية

١ ـ زيادة الانتاج الزراعي : اشتهرت مصر بأنها بلد زراعي حباها الله بجو معتدل ، وأرض خصبة ، وفلاح صبور دائب على العمل ، ومع أنه قد تمت فيها اصلاحات كبيرة في نصف القرن الماضي سواء في تحسين الري أو في تحسين أساليب الزراعة ، فان مجال الاصلاح لا يزال واسعا. ويجب أن يتجه برنامجنا في هذا الموضوع الى أهداف ثلاثة هي :

(ا) تحسين الانتاج الزراعي

(ب) تقليل نفقات الزراعة

(ج) زيادة مساحة الاراضي المنزرعة

فأما عن تحسين الانتاج الزراعي فيلاحظ أن أغلب الزراع لا يعنون باتقاء البذور الصالحة ، فهم يستعملون في زراعة أراضيهم كل ما يجدونه في متناول أيديهم من البذور . وهي في أغلب الاحيان أنواع منحطة تختلط بعضها ببعض ، وتكثر فيها المواد الغريبة . ولذلك فهي تأتي دائما بمحصول قليل الغلة رخيص الثمن . وفي وسع وزارة الزراعة أن تصلح هذه الحالة بالاكثار من البذور الصالحة المنتقاة، والعمل على اقناع الزراع باستعمالها. فان لم يفد الاقناع ، فيجب اجبارهم على ذلك ، أسوة بما فعلته في تحسين زراعة القطن

كذلك تجب العناية بمسألة الصرف ، اذ لا تزال هناك مناطق كثيرة محرومة منه ، فضلا عن أنه في المناطق التي شق فيها بعض المصارف العامة لم يستفد منها الزراع لانهم أهملوا عمل المصارف الفرعية التي توصلها بتلك المصارف . كما أن الكثيرين منهم لا يعنون بتطهير المصارف التي تمر بأرضهم

ويحسن في هذه الحالة أن يكون عمل المصارف الفرعية وتطهيرها اجباريا متى تم انشاء المصرف العام . كما يجب أن يزيد اشراف رجال الري على المصارف العامة والخاصة ، ليتأكدوا من أن هذه المصارف في حالة يمكن معها أن تؤدي وظيفتها على الوجه الاكمل

ولا يفوتنا في هذا الباب أن هناك مجالا فسيحا لزيادة ايراد المزارعين بتشجيعهم على الاهتمام بتربية الحيوانات والدواجن والنحل ، فانها صناعات زراعية تدر أرباحا وفيرة ، اذا أحسن ارشاد المزارعين الى أحسن الوسائل لاستغلالها

فتربية الحيوانات تستلزم انتخاب أحسن السلالات ، ذكورا واناثا ، وتمكين الزراع من اقتنائها ، لانه لا فرق في النفقات اللازمة لتربية بقرة من سلالة منحطة وأخرى من سلالة راقية « كالشورت هورن » المصرى مثلا . ولكن الفرق كبير بين ما تدره الأولى من

اللبن وهو لا يزيد عن ١٥٠٠ رطل فى السنة ، فى حين تدر الثانية من السلالة الراقية ما لا يقل عن ١٥ ٠٠٠ رطل

على أن مسألة النجاح فى تربية الحيوانات تستدعى البحث فى مسألة ايجاد علف اقتصادى يحل محل البرسيم فى غير موسمه ، اما بايجاد علف أخضر فى مدة الصيف ، أو بايجاد طريقة قليلة الكلفة لتجفيف البرسيم مع احتفاظه بجميع عناصره الغذائية . وتحتاج تربية الدواجن الى علاج حاسم لامراضها الوبائية المختلفة التى تصيبها من وقت لآخر ، فتميت أكثرها فى أيام قلائل

كذلك يجب أن تعنى الادارات المختصة فى وزارة الزراعة بايجاد السلالات الصالحة من الدواجن ، سواء لتحسين لحومها أو لتحسين البيض

كذلك يمكن التوسع فى انشاء محطات لتربية الاسماك وزيادة العناية بهذا الموضوع . فلدينا بحيرات واسعة قلت فى بعضها الاسماك لسبب غير واضح . ولدينا كثير من المجارى المائية يمكن استغلالها لهذا الغرض

وتشجع الآن وزارة التجارة والصناعة بعض الملاك على تربية الاسماك فى أحواض خاصة يمكن انشاؤها فى العزب والقرى . وقد أنشىء منها فعلا عدد قليل . والتجربة ناجحة للآن . ولذلك يحسن العمل على نشر دعوة يترتب عليها توفير غذاء صالح قليل الكلفة لعدد كبير من الفقراء

وانى أعتقد أن فى هذه الصناعات المرتبطة بالزراعة ، والتى يستطيع صغار الفلاحين أن يمارسوها ، والتى يمكن لنسائهم أن يتولين أمرها ، بابا جديدا واسعا لزيادة ايرادهم وتحسين حالتهم

أما تقليل نفقات الانتاج فهو هين فى الزراعات الكبيرة التى يمكنها استعمال الآلات الميكانيكية للرى والحرث والدرس والنقل ولعمليات كثيرة أخرى ، واستعمال هذه الآلات أقل كلفة وأسرع أثرا

فمن الثابت مثلا أن تكاليف درس القمح بالنورج تبلغ نحو خمسة أضعاف نفقات الدرس بالآلة . فضلا عن أنه يوفر وقتا طويلا فى اتمام هذه العملية . فالنورج يدرس نصف أردب فى اليوم بينما تدرس الآلة المتوسطة خمسة وعشرين أردبا

لكن استعمال الآلات الزراعية فى الزراعات الصغيرة ليس سهلا ولا ممكنا الا اذا تعاون أهل القرية الواحدة على شراء الآلات الزراعية اللازمة لهم جميعا . فاذا نجح قسم التعاون فى اقناع الزراع لانشاء الجماعات التعاونية لاستعمال الآلات الزراعية ، أدى للبلاد خدمة عظيمة فى ناحية تقليل نفقات الانتاج

ومن أهم وسائل تقليل نفقات الانتاج أيضا تسهيل النقل بالعربات والسيارات من القرية الى الاطيان الداخلة فى زمامها ، ومن القرية الى الطريق العام الذى يوصلها الى

الاسواق فى المدن القريبة . وللوصول الى ذلك يجب أن تقوم الحكومة بانشاء شبكة من الطرق الصالحة لهذا الغرض

ويمكن أن تتعاون الحكومة ومجالس المديريات والمجالس المحلية والبلدية والقروية فى هذا السبيل

أما زيادة مساحة الاراضى المنزرعة ، فتقضى بضرورة تنفيذ جميع مشروعات الرى التى يجب أن تنشأ على النيل وفروعه من منابعه الى مصبه ، فتحصل البلاد على أكبر كمية من المياه اللازمة لرى الاراضى التى لم تستصلح بعد ، والتى يمكن أن تصل مساحتها الى ما يقرب من مساحة الاراضى المزروعة الآن

فنحن نستطيع أن نضاعف ثروتنا الاهلية فى عشر سنوات أو أقل اذا ما اهتممنا بالامر ، وصممنا على تنفيذه دون تباطؤ أو تردد

كذلك يجب الاسراع فى اصلاح الاراضى البور الشاسعة التى يمكن ريها الآن

٢ - زيادة الانتاج الصناعى : من المسلم به أنه لا يمكن رفع مستوى المعيشة فى بلد تعتمد على الزراعة وحدها ، نظرا لشدة المنافسة الدولية فى هذا المجال ، مما يقلل الى أدنى حد الربح الناتج منها ، وهو ما لا يمكن معه زيادة دخل المشتغلين بها زيادة محسوسة تسمح لهم باعطاء أجور عالية لعمالهم ، بعكس الحال فى الصناعات ، فان مرونتها واستمرار استحداث أساليب جديدة عليها يجعلها فى أغلب الاحيان تعود بربح معقول على أصحابها ، يسمح برفع أجور عمالهم

ولهذا فاننا اذا استعرضنا أمامنا مستوى المعيشة فى بلاد العالم ، نجده يرقى دائما مع نمو الصناعة . ففى أمريكا وانجلترا وألمانيا مثلا ، حيث بلغت الصناعة أعلى شأو ، نرى مستوى المعيشة فيها عاليا . فالعامل هناك يسكن منزلا صحيا تتوفر فيه أسباب الراحة ويتناول غذاء كاملا . ويجد فى أجره ما يكفيه لان يعيش هو ومن يعول عيشة راضية . بينما يهبط هذا المستوى بشكل واضح فى البلاد التى تعتمد على الزراعة وحدها . وهذا ما نراه فى جنوب شرقى أوربا وبخاصة فى بلاد البلقان

ولمعالجة هذه الحالة اتجهت أنظار أكثر البلاد الزراعية الى الناحية الصناعية لايجاد عمل لعدد كبير من سكانها ، يدر عليهم أجرا أكبر مما تدره الزراعة

وانى حينما أدعو الى تشجيع انشاء الصناعة فى مصر لا أدعو الى قيام الصناعات الميكانيكية الثقيلة . ولا أدعو لانشاء مصانع للطائرات مثلا ، أو السيارات ، أو آلات الديزل الدقيقة . بل أدعو الى تشجيع الصناعات التى لها أمل فى الحياة فى بلادنا ، والتى يمكن أن تتوفر لها جميع أسباب النجاح

وفى مصر من المواد الاولية ما يمكن أن تقوم عليه بنجاح صناعات كثيرة ، وبخاصة

الصناعات الزراعية : كصناعة الغزل والنسج ، وصناعة حفظ المأكولات ، والفواكه ، والخضر ، واللحوم ، وصناعات كثيرة أخرى

كما أنه لا تنقص مصر الايدى العاملة التى ثبت أنها مستعدة لاتقان أية صناعة فى أقصر زمن ، متى أحسن تعليمها وارشادها

ولا تنقص مصر رؤوس الأموال اذا اتجه أصحاب الثروات فيها الى الاعمال الصناعية، وفكروا فى استثمار جزء من أموالهم فى الصناعة بدل استثمارها كلها فى الزراعة

على أنه وان توفرت العوامل الاساسية لقيام الصناعة فى مصر ، فلا بد من وضع برنامج مرسوم وسياسة واضحة تسير عليها الحكومات المتعاقبة ، لتثبيت أقدام الصناعة واستكمال نموها

والرجال المسئولون يعرفون تمام المعرفة ما ينبغى عمله فى هذا الصدد . ويعرفون تمام المعرفة ما ينبغى أن يكون عليه هذا البرنامج المنشود من القواعد والاسس ، وخاصة فيما يتصل بالتعريفة الجمركية وبمسألة الضرائب مثلا

فاذا أضيفت الى الصناعات القائمة فى بلادنا الآن ، صناعات جديدة أخرى ، تستطيع أن تحيا وتزدهر ، فتح باب واسع لتشغيل عدد عظيم من أبناء البلاد ، فيرتفع مستوى المعيشة الحالى ، ويزول شبح الفقر الذى يخيم على كل مكان

فلنفسح الطريق أمام الممولين المصريين الذين يريدون استثمار أموالهم فى الصناعة ، بل لنفسح المجال أمام الممولين الاجانب الذين يريدون استثمار أموالهم فى بلادنا لهذا الغرض ما داموا يخضعون للقوانين المصرية وللضرائب المصرية ، لنوجد ميدانا رحبا لتشغيل أكبر عدد ممكن من الايدى العاملة فى مصر بأجور هى دائما أعلى مما تستطيع أن تحتمله الزراعة ، بل تصل فى أغلب الاحيان الى ثلاثة أمثالها

٣ ـ استغلال الثروة المعدنية : كان استغلال الثروة المعدنية الى ما قبل الحرب استغلالا محدودا لا يتناول الا أنواعا قليلة من المعادن الموجودة فى باطن الارض المصرية

وقد نبهت الحرب القائمة الاذهان الى الاهتمام بالبحث عن كثير من المواد الاولية المعدنية التى كنا نستوردها من الخارج وانقطعت عنا بعد قيام هذه الحرب ، فأمكن اكتشاف كثير من المعادن القيمة ، واتضح امكان استغلالها على أسس تجارية مجزية

وهذه فرصة مناسبة لتضافر جميع الجهود الحكومية والاهلية على استغلال هذه المواد فى نطاق واسع ، يضمن للبلاد أن تحصل منها على حاجتها ، ويسمح لنا بتصدير ما يفيض عنها الى البلاد التى تحتاج الى هذه المواد

ولقد ثبت من بحوث كثيرة أن تراب الحديد الموجود بكميات كبيرة ، وفى مساحات واسعة بأسوان ، هو نوع جيد . ولذلك يتعين استغلال هذا المعدن النفيس بمجرد سماح الظروف

وانشاء هذه الصناعة مرتبط بتنفيذ مشروع توليد الكهرباء من مساقط المياه فى اسوان ،

لاستخدام هذه الكهرباء فيها وفى صناعة أخرى تحتاج اليها البلاد أشد الاحتياج ، وهى صناعة السماد الازوتى

وسيترتب على اقامة هذه الصناعات انقلاب فى حياة أهل اقليمى أسوان وقنا يحول حالة الفقر التى يعانونها الآن الى حالة يسر ورخاء

ثانياً ـ تحسين الصحة العامة

أما عن تحسين الصحة العامة فيتطلب برنامجا صحيا شاملا يرمى الى اصلاح المدن والقرى ، واعداد المساكن الصحية للعمال والقرويين ، وتوفير مياه الشرب الصالحة لجميع السكان ، واتخاذ التدابير اللازمة لاستئصال الامراض الطفيلية التى تنهك قوى كثرة المصريين ، والعمل على منع تفشى الامراض المعدية ومكافحتها ، وتيسير أسباب العلاج لجميع المرضى فى المدن والاقاليم

وكنت أود أن أتناول بالتفصيل كل الوسائل التى تساعد على تحسين الصحة العامة ، غير أن المجال لا يتسع لذلك ، فأكتفى بتوجيه النظر الى أن اصلاح القرية أمر لا بد منه ، ولا مفر لنا من النظر اليه بعين الجد ان عاجلا أو آجلا . ولدى الحكومة كثير من المشروعات التى وضعت بمعرفة الاخصائيين المصريين لتحسين القرية المصرية . فلتفصل فى الموضوع، ولتتخير مشروعا من هذه المشروعات لتنفيذه فى أقرب فرصة ملائمة

كذلك تستطيع الحكومة أن تصلح كثيرا من شؤون العزب ، اذا هى طبقت شروط القوانين واللوائح وأرغمت أصحابها على اتباعها وتنفيذها

وقد تساعد الظروف الحالية وارتفاع أثمان المحاصيل الزراعية على اجراء كهذا ، يترتب عليه تحسين مساكن عدد كبير من العمال الزراعيين يزيد عددهم على المليون ، يسكنون ١٤ ألف عزبة تقريبا

كذلك تستطيع الحكومة أن تنتهز فرصة رواج الصناعة فى مصر ، فتحمل أصحاب عدد كبير من المصانع على اسكان نسبة معينة من عدد العمال الذين يشتغلون فيها

كما تستطيع أن تحملهم على تقديم غذاء لهم ولو لوجبة واحدة بأثمان معقولة يساهم فيها أصحاب المصانع بنصيب ، كما يجب على أصحاب المصانع أن يتعهدوا صحة عمالهم بانشاء العيادات الصحية وتوفير الدواء اللازم لهم

ثالثاً ـ نشر التعليم

أما نشر التعليم فيجب أن يكون القصد منه تثقيف جميع الاطفال من الجنسين فى الطبقات العاملة تثقيفا عاما ، واعدادهم بعد ذلك لتعلم صناعة أو مهنة تعليما عمليا ، على نفقة الدولة، يسمح لهم بتولى عمل زراعى أو صناعى أو تجارى يكفل لهم أجرا مجزيا

هذا ، وأود أن أوجه النظر الى أنه يجب أن يتجه التشريع فى المستقبل الى اعفاء من لا تزيد ايراداتهم عن الثلاثين جنيها فى السنة من جميع الضرائب المباشرة . وأن تحول كثرة الضرائب المباشرة المفروضة الآن الى ضريبة دخل يعفى منها الفقراء ، وتكون معتدلة بالنسبة لمتوسطى الحال ، وترفع بنسب متصاعدة على أصحاب الثروات الكبيرة.

كذلك نحبذ مشروع ضريبة تصاعدية على التركات تتأثر فى آن واحد بقيمة التركة وبدرجة قرابة الوارثين من مورثهم

وحكمة تشريع كهذا ظاهرة . فهى تساعد تدريجا وبرفق ، على ازالة الفروق بين الطبقات . ولهذه التشريعات مثيل فى جميع البلاد الديمقراطية التى نحتذى بها فى أغلب تشريعاتنا

* * *

واننى لا أدعى أن ما عرضته من الآراء فى هذا الموضوع المتشعب ، يقضى القضاء المبرم على ما يقاسيه كثرة سكان هذه البلاد من فقر وعوز

ولكنى أعتقد ، مع هذا ، أنه اذا تضافرت الجهود على العمل بهمة وعزيمة لتحقيق ما فصلت ، فان ذلك كله يكفل ، الى حد كبير ، أن تتحرر بلادنا وكثرة مواطنينا ، تدريجا ، من هذا الفقر والعوز الذى خيم عليها دهرا طويلا

من أقوال ستالين

ــ اذا اقتنعت بأنك على حق فيما تعمل ، فلا تهتم بما يقوله الناس عنك ، افعل ما يمليه عليك ضميرك ووجدانك

ــ اذا عجز المرء عن التعبير عما يدور بخلده تعبيرا واضحا صحيحا ، كان عاجزا عن التفكير تفكيرا منطقيا سليما

ــ يفخر كثيرون بشجاعتهم ، ولكن الشجاعة اذا اقترنت بالجهل بالشؤون الحربية والفنون العسكرية لا تعنى شيئا

ماذا يصنعون بألمانيا بعد الحرب

اذا أتيح لمنظمى أمريكا الرسميين ـ أى رجالها الذين يتولون رسم الخطط ووضع النظم التى تقوم عليها أمور العالم بعد الحرب ـ أن يشقوا طريقهم ويبلغوا أغراضهم، فستتاح للشعب الالمانى فرصة أخرى يثبت فيها قدرته على أن يتحول من شعب معتد الى شعب مسالم يتعاون مع سائر الشعوب فى عالم صحيح البنية وطيد البناء

ولكن لن تتاح للشعب الالمانى هذه الفرصة التى يتعلم فيها كيف يغدو خيرا طيبا الا عن طريق مملوء بالصعاب والمشاق . فلا بد من أن تقوم عليه رقابة حازمة ، بضع سنين غير محدد عددها ، لتتولى هذه الرقابة تنفيذ سياسة شديدة حاسمة ولكنها رشيدة وعادلة

هذا هو الرأى الذى انتهى اليه رجال واشنجتون ، ولكن تفاصيل هذا الرأى ما زالت فى دور التكوين والتأليف . فالآراء التى يتضمنها هذا المقال لا تعدو مجرد الفكرة العامة التى تقوم عليها سياسة امريكا تجاه ألمانيا المهزومة ، وهى فكرة قابلة مع هذا لكثير من التحوير والتنقيح وفق ما تمليه الظروف والاحداث

حكام أمريكيون لألمانيا

بعد أن يتم احتلال القوات المتحالفة أرض ألمانيا المستسلمة دون قيد ولا شرط ، ستكون الخطوة الاولى اقامة حكومة عسكرية يتولى أمرها قائد القوات المحتلة . وستكون الغرض من هذه الحكومة : (أولا) تأمين هذه القوات المحتلة ووضعها فى مركز عسكرى ملائم . (وثانيا) المحافظة على القانون والنظام فى الشعب الالمانى

فحالما يتم احتلال ألمانيا احتلالا كاملا ، تقوم حكومة عسكرية ومدنية مؤلفة من رجال الحلفاء ، لتتولى الاشراف على الادارة الالمانية ، وعلى تجريد ألمانيا من جميع قواتها الجوية والبرية والبحرية ، وعلى تصفية صناعات ألمانيا العسكرية وتحويل حياتها الاقتصادية القائمة على أساس الحرب الى حياة قائمة لاغراض السلام

ومع أن المنتظر والمفروض أن تكون هذه الحكومة حكومة متحالفة تتألف من رجال الامم المتحدة ، الا أن الحكومة الامريكية قد أعدت عدتها لتتولى أمر هذه الحكومة وحدها اذا اقتضى الامر ، فقد دربت وما تزال تدرب عددا كبيرا من ضباط الجيش وخبرائها المدنيين الذين خبروا شؤون الحكم والادارة ، والذين يتكلمون الألمانية ويعرفون ألمانيا وشعبها ، ليقوموا غداة يوم التسليم بوظائف « ضباط الشؤون المدنية » . وقد دربت وزارة الحربية وحدها أكثر من ألف من رجالها ليساهموا فى مهمة حكم ألمانيا المؤقت بعد الهزيمة

وقد أنشئت مدرسة خاصة لذلك فى شارلوت فيل بفرجينيا فى شهر مايو سنة ١٩٤٢، وهى مدرسة الحكومة العسكرية التابعة للجيش الامريكى ، وقد تخرجت فيها فرقتان تتألف كل منهما من مائة وخمسين ضابطا بعد أن أمضوا فى الدراسة أربعة شهور

ويتألف برنامج الدراسة فيها من المسائل اللازمة لحكم الشعب الالمانى ، وهى قوانينه وتقاليده ونفسيته وأوضاع بلاده الاقتصادية . وكذلك دراسة الوسائل الخاصة لحكم بعض مناطق ألمانيا المهمة ، كمراكز الصناعة والموانىء الكبرى

ويتلقى هؤلاء الامريكيون فى دراستهم هذه ، أن السبيل الى خير النتائج هو سبيل « السياسة العادلة ، الشريفة ، الانسانية » وأن « الاحتلال العسكرى المصحوب بالقسوة والظلم والاضطهاد ، لا بد أن يترك حقدا دائما فى قلوب الشعب الالمانى ولا بد أن يبذر بذور حرب أخرى »

وليست هذه هى المدرسة الامريكية الوحيدة التى تعد حكاما عسكريين لالمانيا المهزومة بل ثمة مدارس أخرى منها ما هو تابع لوزارة البحرية ، ومنها ما هو تابع للادارات الاقتصادية ، ليكون لدى أمريكا الخبراء اللازمون فى جميع مرافق الحكم والادارة

والمفروض أن يستمر هؤلاء الموظفون فى أعمالهم بعد أن تنتهى مهمة الحكومة العسكرية التى تقوم بين التسليم والهدنة ، وأن يساهموا فى أعمال الحكومة التى يزمع الحلفاء انشاءها لتولى أمر ألمانيا بعد ذلك

معاقبة مجرمى الحرب

ويرى منظمو أمريكا أن أول عمل تقوم به الحكومة العسكرية هو محاكمة ومعاقبة مجرمى الحرب على جناح السرعة

نعم يجب أن يتم هذا العمل على عجل حتى لا يتاح لوكلاء النازى فى المناطق التى قهرتها ألمانيا أن يطلقوا أيديهم فى أبناء تلك المناطق الناقمين على النازى سياستهم وعدوانهم، والمؤيدين للحلفاء . وقد قدر أحد رجال فرنسا المحاربة أنه اذا لم تتخذ التدابير العاجلة الحاسمة ، فان مليون نسمة من الفرنسيين يستهدفون للموت بأيدى رجال النازى وأعوانه. وهناك الاثر المعنوى الذى تتركه المحاكمة والمعاقبة العاجلة لمجرمى الحرب وهو اقناع الشعب الالمانى بأن زعماءه الذين يقودونه الى المذابح لا يفلتون من الجزاء الاوفى

وقد وضعت الآن النظم الخاصة بانشاء لجنة من الشعوب المتحدة لبحث جرائم الحرب وتقديرها . وسيدخل أعضاء هذه اللجنة فى « محكمة الشعوب المتحدة » التى ستتولى محاكمة كبار الموظفين الالمان ، ومنهم زعماء النازى المسئولون عن المذابح البربرية التى سلطت على رقاب اليهود فى أوربا . وسيكون كبار رجال النازى ، مثل هتلر وجورنج وجوبلز ، أول من يقدم للمحاكمة ، لانهم يحملون قبل سواهم وزر ما وقع من الجرائم ومن المحتمل ألا يشهد هتلر هذه المحاكمة ، ويقضى على نفسه بيده منتحرا ، أما

اذا أسر أو آثر أن يسلم نفسه ، فسيقدم لمحكمة الشعوب المتحدة متهما بتهمة « القتل الاجماعى » ، وسيكون عقابه ــ اذا وجد متهما ــ هو القتل بالرصاص

ولن يفلت من العقاب القواد الالمان الذين سمحوا بارتكاب جرائم حربية فى الاقاليم التى احتلها النازى

وقد أعدت الحكومة الامريكية قائمة سوداء باسماء رجال الجستابو، ورجال فرق الحرس الاسود ، وغيرهم من عملاء النازى المتهمين باقتراف الجرائم الحربية . وكذلك تعد حكومات الامم المتحدة الاخرى قوائمها السوداء

ولكن يجب أن يلاحظ أن كثيرا من كبار الموظفين الالمان لم ينضموا الى النازى الا مكرهين ، حرصا على وظائفهم ومصادر رزقهم ، وهؤلاء سيستبقون فى مراكزهم ليؤدوا وظائفهم تحت المراقبة الحازمة

مصير الجيوش الألمانية

وتقوم قوات الحلفاء المنتصرة بتسريح القوات الحربية الالمانية تسريحا عاجلا وكاملا . ولا يستثنى من هذا سوى الابقاء على الاسلحة الصغيرة الخفيفة التى يتخذها رجال الشرطة فى اقرار الامن العام . وكذلك يستبقى وحدات الطيران المدنى ويباح لها أن تدرب عددا قليلا من الطائرين . ويحدد عدد المطارات وتوضع تحت رقابة دقيقة من قبل الحلفاء . أما المطارات الالمانية الرئيسية فتحتلها قوات الحلفاء الجوية

ولما كانت الجيوش المسرحة بعد هزيمتها وانكسارها مستهدفة لانتشار روح الثورة ونزعة التمرد بين جنودها ، فقد قرر الحلفاء أن يستبقوا عددا كبيرا من الجنود الالمان فترة مؤقتة ، لتؤلف منهم فرق للعمل فى تعمير المناطق المخربة ، سواء فى بلادهم أو فى البلاد التى غزتها الجيوش الالمانية أو هدمتها طائرات الالمان

ويلحق بتسريح الجيوش عمل أهم أثرا وأخطر شأنا ، ذلك هو تحديد صناعات ألمانيا الحربية ــ التى بلغت حدا خطيرا من التضخم والاتقان ــ تحديدا شديدا يكاد يقرب من الالغاء . وهذا يقتضى تحويل جزء كبير من مصانعها وآلاتها وأجهزتها الى الاقطار المحررة تعويضا لها عما أتلفه النازى أو سلبه من قواها الصناعية . أما ما يتبقى فى ألمانيا من المصانع فسيحرم عليه تحريما قاطعا صنع الذخائر والمعدات الحربية بجميع أنواعها

ولن يسمح لالمانيا بأن تتسلح ثانية مدة طويلة يتيسر فيها ابراء هذا الشعب من روح الحرب ونزعة العدوان . ولن يخدع الحلفاء هذه المرة ، فسيراقبون الامر مراقبة دقيقة حتى لا يتاح لالمانيا أن تتسلح فى الخفاء كما حدث بعد الحرب الماضية . فلن يكون هناك جيش « صورى » لان مثل هذا الجيش ــ على ضآلته ــ هو الخميرة التى يتكون منها جيش لجب جبار . ولن تكون هناك مناورات صورية يحمل فيها الجنود بنادق كلعب الاطفال

ويركبون فيها دبابات من الخشب ، فقد عرفنا فيما مضى ما وراء هذه المناورات الخداعة من أسرار وأخطار

ومع أن رجال امريكا قد حزموا أمرهم على ألا تعود ألمانيا مرة أخرى الى القوة الحربية المسيطرة على أوربا ، الا أنهم مع هذا لا يرون حرمانها من المساهمة فى تكوين القوة البوليسية الدولية التى تتولى حفظ الامن واقرار السلام فى ربوع العالم . فعند ما يثبت الالمان ــ بعد عدد من السنين ــ انهم قد برئوا من روح الحرب والسيطرة والاعتداء ، وانهم قد نزلوا عن رأيهم فى جعل الروح العسكرية محور حياتهم القومية وسياستهم الخارجية فلن يكون ثمة بأس فى مشاطرتهم سائر الامم اقامة نظام « السلامة الاجماعية » الذى يكفل حفظ السلام فى العالم . ولكن هذا الامر أمل لا يتحقق للالمان الا بعد مضى جيل من الزمان ، يربى فيه الشعب الالمانى تربية سلمية تؤثر السلم على الحرب ، وتقدم حسن السياسة على عدوان الجيوش

الاصلاح لا الانتقام

كيف تكون الحياة الاقتصادية فى ألمانيا المهزومة ؟

يرى المنظمون الامريكيون أن تتخذ الوسائل التى تمنع ألمانيا من الاستهداف للثورة أو للفوضى من جراء ما يصيبها من الازمات والشدائد . ولكن يجب أن نذكر أنه سيكون للشعوب التى قهرها النازى وأذلها الاسبقية فى الحصول على ما ترسله أمريكا من مواد الغذاء ووسائل التعمير . أما بعد ذلك فان الحلفاء مجمعون أمرهم على أن يقوا ألمانيا شر المجاعات والامراض والفوضى الاقتصادية ، لان الاساس الذى يقوم عليه الامر كله هو اصلاح الفساد وتفادى الخطر وليس الثأر والانتقام

وهكذا سترسل دول الحلفاء الى ألمانيا عقب احتلالها وتسلمها المواد الطبية التى تقى شعبها شر الاوبئة والامراض . وسترسل اليها الادوات الزراعية والاسمدة لزيادة انتاجها الزراعى والحيوانى . وسيخصص هذا الانتاج للوفاء بحاجات الشعب الالمانى ، أما ما يفيض منه بعد ذلك فسيرسل الى الاقطار التى عانت شدة المجاعة فى سنى الاحتلال الالمانى والتى أجدبت الاداة الحربية النازية مزارعها عددا من السنين

وستخصص الكميات الاولى التى ترسلها امريكا من مواد الغذاء والمواد الطبية للاطفال لانا نريد أن يعرف الجيل الجديد فى ألمانيا من أين تأتى الحرب وأهوالها ، ومن أين يأتى السلم وخيراته !

تقسيم ألمانيا

على أن الشعب الالمانى يجب أن يدفع ثمن تأييده هتلر فى مغامرته الجنونية لحكم العالم واذلال شعوبه . وهذا الثمن ــ فى رأى المنظمين الامريكيين ــ هو منع ألمانيا من أن

تكون قوة حربية واقتصادية مرهوبة ، ولو أدى ذلك الى تقسيمها دولا أو مناطق منفصلة بعضا عن بعض

وليست روح الانتقام هى التى تملى هذا الرأى ، بل الرغبة الخالصة فى ابراء ألمانيا من نزعتها العسكرية الآثمة . ولا شك فى أن خير ما أنتجته ألمانيا ، ومن ذلك ما أنتجته فى عالم الادب وعالم الموسيقى ، لم يكن فى عهد وحدتها وقوميتها المسرفة ، بل حين كانت منقسمة الى ولايات مستقلة لكل منها نزعتها وطابعها . فلا بأس على ألمانيا من اعادتها الى ما كانت عليه من قبل ، ومنعها من أن تكون وحدة سياسية وصناعية تبث المخاوف وتثير الاخطار

وكذلك سيحرم على ألمانيا أن تنشىء تلك الاحزاب السياسية الهوجاء التى تقيم سياستها على أساس من القومية المتطرفة العنيفة . وستراقب هذه الحركات السياسية مراقبة دقيقة حتى لا تنشأ تحت الارض حيث تدبر مكائدها وتحيك دسائسها وتؤلف حولها الاعوان والانصار . وسيكون سلاح الحلفاء فى تنفيذ هذا كله هو سلاح العقوبة الاقتصادية تنزلها بالشعب الالمانى ، فان لم يجد نفعا لجأت الى القوة الحربية تقمع بها هذه الحركات وتؤدب بها زعماءها

ومما يراه المنظمون الامريكيون القيام بحملة تعليمية ترفع من أذهان الجيل الالمانى الناشىء تلك الحلية السوداء التى استغلها بسمارك وغليوم وهتلر — أى تلك النزعة الغريبة الى السيطرة والسيادة عن طريق الحرب والعدوان

ويقترحون لذلك انشاء لجنة دولية للتعليم يشترك فيها بعض رجال ألمانيا المسئولين ، وتكون مهمتها وضع منهاج لتعليم شبان ألمانيا واطفالها تعليما جديدا ، يفهمون منه أن الحرب شر ما فكرت فيه الانسانية ، وأن التعاون بين الشعوب أجدى عليها جميعا من سيطرة بعضها على بعض

وتتخذ فى هذه الحملة التعليمية جميع وسائل الدعاية ، ومنها الراديو والصحافة والهيئات الدينية

ولا يعتقد المنظمون الامريكيون فى الرأى القائل بأنه لا سبيل الى اصلاح ألمانيا وجعلها أمة خيرة مسالمة . ولكنهم يرون أن المهمة الاولى فى الاصلاح هى مهمة امريكا ، أما ان ترك الامر لشعوب أوربا ، فلن ينصرف هم هذه الشعوب التى أذلها النازى طويلا الا الى الثأر والانتقام — مما يؤدى الى مأساة الحرب مرة أخرى

(عن مقال بقلم كنجسبرى سمث فى صحيفة امريكان موركرى)

— اذا لم يكن هناك مفر من الحرب ، وجب تكريس كل شىء لها ، وتحتم عقاب الذين يصمون آذانهم عن نداء الوطن عقابا شديدا صارما

« لينين »



ونستون تشرشل



ارنست بيفن

رجال بريطانيا الثمانية

فى بريطانيا اليوم ثمانية رجال يحملون على عواتقهم من الاعباء ما لم يحمل مثلها ثمانية رجال فيما سبق من التاريخ

هم الذين يوجهون سياسة بريطانيا فى وقت تشمل فيها سياستها كل أمة من أمم العالم

وهم الذين يديرون حرب بريطانيا فى وقت انتشرت فيه جيوش بريطانيا وأساطيلها فى أكثر قارات الارض وبحارها وأجوائها

هؤلاء الرجال الثمانية يربضون وراء كل قرار سياسى تقرره بريطانيا وامبراطوريتها ، ووراء كل خطوة تخطوها ، جيوشها واساطيلها

فمن هم هؤلاء الرجال الثمانية الذين تتألف منهم « وزارة الحرب البريطانية » . وما ماضيهم ، وما كفايتهم ، وماذا يؤدون من الاعمال وماذا يحملون من الاعباء ؟

ونستون تشرشل

أولهم جميعا هو هذه الشخصية الجبارة التى لا مثيل لها فى عصرنا الحديث ـ ونستون تشرشل

قال له الجنرال مونتجومرى : « لا آكل الا قليلا . ولا أدخن ولا أشرب جاتا . وآوى الى فراشى فى الساعة العاشرة من كل ليلة . فأنا سليم البنية موفور القوة مائة فى المائة » . فقال له تشرشل : « أما أنا فأسرف فى الأكل كما اشتهى . ولا تنطفىء سيجارتى منذ أصحو الى أن أنام الا نادرا . ولا أضطجع على فراشى قبل الثالثة من صباح كل يوم . وأكواب البراندى ضرورة من ضرورات حياتى . ومع ذلك فانى نابض النشاط مكتمل العافية مائتين فى المائة ! »

شخصية مسيطرة على الجميع : مسيطرة بروحها المتقد وذهنها النفاذ . مسيطرة على الشعب جميعا قدر سيطرتها على زملائه وأعوانه سواء بسواء . يدعوهم الى الاجتماع فى منتصف الليل أو ثمانية الغداء فيلبون الدعوة مسرعين . ولكن مهما تعقد الامور ، وتشتد الخطوب ، ويسود وجه



جون اندرسون



كليمنت آتلي

الحياة ، فان المرح الدافق والفكاهة البارعة ينطلقان منه ، فيخففان كثيرا من الاعباء الثقال .

قال أحد مترجميه : أنجبت بريطانيا كثيرا من العظماء والابطال . ولكن تشرشل يبزهم ويفوقهم جميعا . فمنهم من أنقذنا من الازمات ، أو الهزائم ، أو الثورات . أما هذا فانقذنا من الموت المحقق . ألم تكن بريطانيا تسلم الروح يوم تولى أمرها وأوربا تذل وتهوى تحت أقدام هتلر ؟ فوقف صامدا ، جبارا ، يوقد النار الخابية ، ويبعث الروح المطمور ، ويرينا وسط ظلام الهزيمة قبس الانتصار

أرنست بيفن

شخصية تشرشل سيدة مسيطرة .. ولكن الى جانبها شخصيات يحسب حسابها ، وأولها شخصية أرنست بيفن ، هذا الرجل الذى بدأ حياته عاملا أجيرا فى الحقول ، فكان يعلم نفسه ويكونها فى احدى مدارس يوم الأحد ؟

وأثر هذه النشأة العصامية ملحوظ فى تفكيره واتجاهه ، كما هو ملحوظ فى حديثه واشارته

وقد صار بيفن عدو الرأسمالية الاول فى بريطانيا ، وله الفضل الاول فى تعميم النظام الاشتراكى فى كثير من مرافق الحياة البريطانية ، منذ أن استولت حكومة تشرشل على كثير من مرافق الانتاج التى كانت تملكها الشركات أو الافراد فيما مضى

وبيفن ، وزير العمل البريطانى ، مسئول عن عشرين مليون نسمة : عن عملهم وانتاجهم . وعن أجورهم وحياتهم ، وكذلك عن مستقبلهم بعد أن تقف رحى الحرب

وما زال الى اليوم يحيا حياة أقرب الى العامل منها الى الوزير . فوقت فراغه يقضيه فى أندية العمال . وبيته مسكن متواضع فى ضاحية من ضواحى لندن

ومستقبله أعظم من حاضره ، ويرجى أن يخلف تشرشل فى منصبه بعد الحرب ، فان بريطانيا تتجه الى « اليسار » اتجاها واضحا ، والغلبة غدا لساسة اليسار ومفكريه

كليمنت آتلى

هذا الوجه الشاحب الذى يتوسطه شارب داكن ، من فوقه رأس أصلع ومن تحته جسد ناحل ضئيل .. هو وجه آتلى نائب رئيس الوزارة ووزير الممتلكات المستقلة



انتونى ايدن



هربرت موريسون

وأتلى رجل عسكرى ، خدم فى الحرب الماضية خدمة ممتازة ، وبلغ درجة « ماجور » . ولم يترك الجندية الى السياسة الا منذ سبع أو ثمانى سنوات ، وظل يسير فى السياسة سيرته فى الجندية : سيرة الحزم والصرامة واليقظة للخدع والمفاجئات

ومع أنه جاب ــ فى فرق الدبابات ــ كثيرا من ميادين الحرب الماضية ، الا أنه الى ذلك من رجال الذهن والتفكير ، وكان مدرسا لعلم الاجتماع كما كان محاميا قديرا

وأتلى رجل متعدد الجوانب : فهو الى كل هـذا رياضى بارع فى رياضتى التنس والجولف . والرياضة عند الشعب الانجليزى ناحية من أهم النواحى التى تكون الرجل وتزكيه . ولكن كتاب السياسة لا يتوقعون أن يبلغ أتلى رئاسة الحكومة البريطانية ، فهو رغم كفايته وتعدد نواحيها ، تنقصه صفة « الشعبية » ، وهى صفة لازمة لمن يرشح نفسه لهذا المنصب

جون أندرسون

وزير الخزانة البريطانية ، وكيف لا يكون أحد رجال بريطانية الثمانية فى وقت تبلغ فيه الميزانية البريطانية حـدا لم تبلغه فى أية فترة من فتراتها ، وتزداد فيه الضرائب المفروضة على الشعب البريطانى زيادة لم يعهدها يوما ما ؟

هو من أبناء اسكوتلنده التى عرف عن أهلها الحرص البالغ فى شؤون المال . وقد درس الاقتصاد فى جامعة ليبزج بألمانيا ، وجامعات ألمانيا حينذاك مركز من أهم مراكز علماء الاقتصاد . ثم خدم فى الجيش ونال بعض أوسمته الرفيعة . وانتقل الى الادارة فكان حاكما للبنغال

وأندرسون صورة صادقة من رجال الاعمال والاموال ، له رأس ضخم ، ومنكبان عريضان ، ووجه قوى حازم ، قلما يرتسم عليه الابتسام . ولكن هذه الصورة تنفعه كثيرا فى مناقشات البرلمان الذى يدخل اليه صارما متجهما ، ويلقى بياناته الى أعضائه فى عنف وقوة ، وكأنه يفرض عليه الامر فرضا فى وقت لا يتسع كثيرا لمجادلات البرلمان ومناوراته المألوفة فى عهود السلام

انتونى ايدن

على مقربة من مقعد ونستون تشرشل فى مجلس الحرب البريطانى يجلس رجل أغدقت عليه الطبيعة من فضلها خيرا عميما . .



ر . ج . كايس



أوليفر ليتلتون

وجه وسيم شاب ، قامة فارعة متسقة ، ورأس دقيق يكسوه شعر أسود مرسل ، شارب رقيق يتوسط هذه السمات المتطلقة ، وأناقة صارت حديث الناس فى كل مكان .. ولكن هذه الاناقة تشوبها ، وان شئت فقل يزينها ، رباط للعنق لم يحكم ربطه ، ولكن هذا الاهمال المتعمد هو الذى يجعل قلوب الغانيات فى العالم تهفو اعجابا بهذا الرجل الوهوب !

هو نموذج صحيح للارستوقراطية الانجليزية فى مظهره وسماته . وهو كذلك نموذج صادق للسياسة الانجليزية فى سيرته ومناهجه

تخرج فى أوكسفورد حيث درس اللغات الشرقية ، وهو يلم الماما تاما باللغة العربية . وعمل فى الجيش وبلغ رتبة « كابتن » وظل محتفظا بها الى أن تولى وزارة الخارجية ، لان الوزارة التى تقوم على السياسة وما تقتضيه من حيلة وكياسة ، لا يليق أن يلقب وزيرها بلقب عسكرى ..

وقد أثبت فى السياسة براعة عظيمة ، ولكن هذه البراعة لم تقو على ايثار الاستسلام للقوى الديكتاتورية التى لم تعرف من السياسة سوى ما سماه الكتاب « بالسياسة المسلحة » أى سياسة التهديد والوعيد بالجيوش والحروب . بل رأى منذ البداية أن تسلك الديموقراطية خطة المقاومة والهجوم ، فلما آثر تشمبرلن المهادنة على المقاومة تركه ، الى أن جاء تشرشل ليفل الحديد بالحديد ، فوقف الى جانبه يؤيده ويعاونه

وهو فى السابعة والاربعين . ومع ذلك فهو المرشح الاول ليخلف تشرشل فى منصبه يوم يعتزله لامر ما

هربرت موريسون

ابن رجل بسيط من رجال الشرطة هذا الرجل الذى يتولى منصب وزير الداخلية ووزير النقل أصح ما يقال فى كفايته السياسية والادارية أنه الرجل الذى يستطيع أن يضع الهرة وسط الحمام ، فلا الهرة تغتال الحمام ، ولا الحمام يفرق من الهرة !

تعلم فى مدرسة أولية ، ثم عمل بائعا جائلا فى الطرقات . فسبح ذات مرة خطيبا من أولئك الخطباء الذين يقفون فى بعض ميادين لندن ويخطبون الناس فى أى أمر من أمور السياسة والاجتماع

والدين . فأعجبه الخطيب واعجبه فن الخطابة . فتعرف الى الرجل الذى بشره بأن فى وسعه أن يكون سياسيا مبرزا

ثم انتقل من بائع جائل ، الى بائع فى دكان ، الى عامل تليفون ، الى موزع جرائد .. وبعد سنين طوال الى منصب الوزارة !

ما زال من أبناء الطبقة الدنيا فى مظهره . شعره مرسل لا يمشطه الا قليلا ، عبارات قوية حازمة يرسلها فى صوت أجش غليظ . عنيف فى مناقشاته ، يعرف كيف يسكت خصومه ومقاطعيه

ومسئولياته خطيرة فى حرب أعنف ما فيها تلك الغارات الجوية التى صبتها ألمانيا من طائراتها وأسلحتها السرية على الملايين من سكان بريطانيا . وليست مهمة وزير النقل بأقل خطورة من مهمة وزير الداخلية ، سواء فى المحافظة على أمن الجبهة الداخلية ، أو فى تموين الجبهة الحربية

يرى كتاب السياسة أنه يرجى لموريسون أن يتولى منصب الرئاسة بعد الحرب ، حين يكون الاصلاح الداخلى والادارة الداخلية أول ما يهم بريطانيا

اوليفر ليتلتون

ليتلتون على نقيض موريسون الى أقصى حدود المناقضة . فقد تلقى دراسته فى مدرسة الارستوقراطية الكبرى « ايتون » ، واتمها فى جامعة كمبردج . وتزوج من ابنة دوق تعد فى الطليعة الاولى من سيدات بريطانيا . وخدم فى الجيش خدمة ممتازة وورد اسمه فى البلاغات الرسمية ثلاث مرات ونال بعض أوسمته العالية . ودخل ساحة الاعمال فكان دخله منها يتجاوز عشرين ألف جنيه فى السنة . وهو يحيا حياة أرستوقراطية ممتازة ، ويعد بطلا فى كثير من الالعاب الرياضية

ولكن ليتلتون تنقصه تلك الصفات التى تلزم أولئك الذين يريدون أن يتصدروا الصفوف ويتربعوا مقاعد الرئاسة والزعامة . وهى صفات موهوبة حينا ومكتسبة أحيانا ، وأهمها فن الخطابة ، والدعاية ، وميزة المرونة والكياسة . فهو من الرجال الذين يعملون وينتجون كثيرا فى الصفوف الخلفية ، دون أن يطمحوا الى تسنم الصفوف ومواجهة الجماهير

ومهمة وزير الانتاج فى الحرب ليست أقل خطورة من مهمة وزير الحربية أو وزير البحرية مثلا . فالحرب الحديثة حرب معدات وذخائر أكثر منها حرب شجاعة واقدام

ر . ج . كايسى

وزير الدولة البريطانى فى الشرق الاوسط أحد أعوان تشرشل المقربين والاوفياء

حياته سلسلة من النجاح . فقد حصل على اجازته الجامعية من كامبردج . وشهد الحرب الماضية فحارب فى غاليبولى وفى فرنسا ، ونال أوسمة عسكرية ممتازة . ثم ترك الجندية الى السياسة فعمل فى وزارة الخارجية فى أستراليا ، ثم ضابط اتصال بين الحكومتين الاسترالية والبريطانية ، ثم وزيرا مفوضا لاستراليا فى الولايات المتحدة الامريكية

وكشف مستر تشرشل عن كفايته السياسية فاختاره وزيرا للشرق الاوسط

وهو رجل موفور الذكاء ، جم النشاط ، موفق الخطى ، ولا يعرف الى أين ينتهى به التوفيق . ولكن عمله فى الشرق الاوسط ، الذى ظل طوال سنوات الحرب الثلاث الماضية ، المركز الاول لجهود بريطانيا الحربية ، اكسبه خبرة سياسية تؤهله لارفع المناصب وأخطرها

(عن مقال لصحيفة ورلد دايجست)

مصر في أمريكا

بقلم حسين بك عنان
وكيل وزارة الزراعة

كان حسين بك عنان أحد أعضاء المؤتمر الدولى للتغذية الذى عقد فى أميركا . وقد تفضل فكتب هذا المقال القيم عن مصر فى أميركا ، وهل يعرف الأميركان مصر وأورد فيه بعض المشاهدات والملاحظات الهامة

أميركا بلاد نزح اليها المهاجرون من مختلف أصقاع العالم ، لهذا فالغريب فيها نسيب لاهليها على حد قول الشاعر « ان الغريب للغريب نسيب » . ويتبين لك ذلك من ترحيب الاميركيين بالغرباء ، واكرامهم لهم وحبهم فى مساعدتهم الى حد قد لا تراه فى بلد آخر . فالمصرى اذا ما هبط بلدة من بلاد أميركا شعر توا بهذا الترحاب والاكرام

ولا يعرف عامة الاميركيين عن مصر الا أنها بلاد عريقة لها تاريخ مجيد ، ومن طبيعة القوم حب معرفة ما يجهلون ، لذلك فان حديث المصرى فى مجتمعاتهم عن هذا الماضى المجيد حديث شائق له حلاوته وطلاوته ، كما أنه يجلو لهم الحقيقة عن الحاضر الذى يكاد لا يعرفون عنه الا ما ينشره بعض الكتاب المغرضين عن (الحريم) والخرافات

والحرب وما بعد الحرب هما الشغل الشاغل للاميركيين اليوم على اختلاف طبقاتهم ، وقد كسبت واقعة العلمين شهرة خاصة ، لهذا فان السؤال الذى يغلب أن يوجه للمصرى فى أميركا يدور عادة حول حوادث هذه الواقعة وموقف المصريين ازاءها . ويتهافت رجال الصحف على الاتصال به لينقلوا عنه الاحاديث والبيانات عن مهمته ، وعن موقف مصر فى الحرب الحاضرة ، وعلة عدم اشتراكها فيها . وقد دعانى تكرار هذا السؤال الى تضمين احدى اذاعاتى اللاسلكية كلمة عن المساعدات التى أدتها مصر الى الأمم المتحدة فى هذه الحرب ، واقتبست فى حديثى ما قاله روزفلت عن الحرب بأنها كالكرسى لها أربع قوائم تستند عليها ـ القوات المحاربة وعمال الحرب ومعداتها والاقوات وكل شخص يشتغل فى احدى هذه الوجهات يعد محاربا . وقد ساهمت مصر بنصيب وافر فى ثلاث من هذه الوجهات ، فقد أمدت الأمم المتحدة بما يقرب من نصف مليون عامل يرتبط عملهم بالحرب ، كما وضعت فى خدمتها طرق مواصلاتها وموانيها وما تيسر لها من المواد والاقوات

مصر فى امريكا

وبين الاميركيين من سبقت لهم زيارة مصر ، وغالبية هؤلاء يترنمون بذكرى بلادنا

ويلاقونك ملاقاة الأخ لاخيه ، وبين من قابلتهم الدكتور مكلانهن العميد السابق للجامعة الاميركية ، فوجدته يحن لمصر ويذكر أهليها بكل خير ، ويقول بأنه يعد نفسه نصف مصرى

ويتبين لك مما ذكرت أن مصر بوجه عام تكاد تكون مجهولة فى أميركا الا أنها تجد لحسن الحظ كل تقدير واحترام فى الاوساط العلمية الزراعية التى تعترف لمصر بأنها قطعت شوطا كبيرا فى مضمار التقدم الزراعى ، وخاصة البحوث المتعلقة بزراعة القطن . ويذكر أساتذة المعاهد الزراعية الكثيرين من المصريين الذين تلقوا العلم على أيديهم ، ويشيدون بما كانوا عليه من ذكاء ونشاط

الجالية السورية

والمصريون فى أميركا قلائل ، غير أن أعضاء الجالية السورية المنتشرة فى بلاد أميركا انتشارا عظيما يحنون الى مصر حنوا واضحا ، فاذا صادفت أحدهم لاقاك لقاء الاخ لاخيه ، ولهذه الجالية صحف عربية ، كما أنها تنشر الكتب بالعربية والانجليزية ، واذا ما ذكرت مصر فى كتبهم أو صحفهم كان ذلك مقرونا بالمديح والثناء . وللجالية السورية أيضا السيطرة الكبرى على الاذاعة اللاسلكية العربية ، وقد قدمت محطة الاذاعة بنيويورك احدى اذاعاتى منها بكلمة ، أرى أن أثبت شطرا منها لما تضمنته من اشادة بمكانة مصر بين أمم الشرق :

« وراء البحار الشاسعة والاراضى القاصية قطر ناهض عزيز يسير فى طليعة أقطار الشرق الادنى على معارج الثقافة الحديثة والرقى الفكرى والتقدم الصناعى والزراعى — وهو القطر المصرى الذى أجمع مراقبو نهضته الحديثة على أنه قلب الشرق الادنى النابض وحامل لواء نهضته ومثال همته الوثابة المتحفزة لاملاء عظائم جديدة على التاريخ »

الطيران

والاميركيون يعملون لما بعد الحرب كما يعملون لكسب الحرب ، وبين مشروعاتهم ما يمس مصر بوجه خاص ، فهم مقدمون على تنظيم النقل بالطائرات فى أوسع مدى . وستصبح مصر وسودانها بلا شك مركزا هاما فى سبيل اتصال أميركا بالبلاد المختلفة . كذلك تعمل أميركا على توسيع تجارتها ، ولدى الماليين أموال مكدسة سيعملون على استثمارها فى مختلف البلاد ، وقد اتصل البعض منهم بى للوقوف على القيود التى تفرضها الحكومة المصرية فى سبيل قيام الشركات الصناعية والتجارية فى بلادنا . ويبدو لى أن قيام المشروعات المالية بعد الحرب سيلاحظ فيه خير البلاد التى تنفذ فيها ، وتبادل النفع

ولا يسع من يزور معاهد أميركا العلمية الا الاعجاب بنشاطها ، فان البحث يجرى فى مجال عالمى ، فلوزارة الزراعة رجال جابوا أقطار العالم وجلبوا منها مجموعات كبيرة من

مختلف النباتات يجرون التجارب عليها ، وجمعوا بيانات مطولة عن الاحوال الزراعية فى مختلف البلاد والبحوث التى نشرت عنها للاسترشاد بها فى بحوثهم ، لهذا فان أميركا فى سبيل الزعامة للبحوث الزراعية ، وتعد محطة التجارب الزراعية « بروثامستد » بانجلترا أقدم وأعظم محطات التجارب الزراعية فى العالم ، غير أن محطة « بلتسفيل » التى أنشأتها وزارة الزراعة الاميركية سنة ١٩١٠ أخذت تنمو بسرعة حتى أصبحت تشغل مساحة ١٢٤٦١ فدانا ، ويعمل فيهـا ألف شخص ، وتبلغ نفقاتها السنوية نحو المليونين من الدولارات ، فهى فى سبيل التفوق على محطة روثامستد العتيدة وترى الاخصائيين فيها قد انصرفَ كل منهم الى بحث مسألة معينة ، وقد اجتمعت لديه كل البيانات ، ومهدت له كل السبل التى تؤدى الى حل هذه المسألة

وقد اتخذت الولايات المتحدة مركزا للمجلس الدولى للزراعة والاغذية ، الذى شكل عملا بتوصيات مؤتمر الزراعة والاغذية الذى عقد فى العام الماضى « بهوت سبرنجس » ، فأصبحت بذلك أميركا قطب الرحى للبحوث الزراعية العالمية

وقد انشأت اميركا حديثا (أواخر عام ١٩٣٩) أربعة معامل اقليمية ، مهمتها القيام بالبحوث التى تؤدى الى زيادة تصريف الحاصلات ، واعداد المستحضرات المختلفة منها ومن بقايا النباتات ، ويختص كل من هذه المعامل بدراسة المسائل التى ترتبط بالحاصلات الشائعة فى منطقته ، وهذه المعامل وصلت الى نتائج باهرة رغم حداثة عهدها ، فهى التى قامت بتحضير مادة البنسلين التى حازت شهرة طبية عظيمة ، وهى التى توصلت الى تحضير المطاط الصناعى من الزيوت النباتية ، كما استخرجت من قش القمح وأحطاب الذرة عدة مواد تأخذ مكان المعادن فى كثير من المصنوعات ، وأعدت من زغب بزرة القطن البارود الذى لا يخرج دخانا عند احتراقه ، ومن قشور الفول السودانى مادة الفلين وهناك عدة مخترعات لهذه المعامل الكثير منها يعد سريا لارتباطه بالصناعات الحربية . وقد جاء فى احد التقارير أن المخترعات التى أخرجتها هذه المعامل فى الاستعمالات الحربيـة للمنتجات الزراعية ، بلغت حتى اليوم المائة والخمسين

ويتبين لنا مما تقدم أن الولايات المتحدة قفزت فى السنوات الاخيرة قفزة عالية فى سبيل الرقى الزراعى ، ويجب أن نتخذ عدتنا للوقوف على اختباراتها وتتبع خطواتها ، لنقتبس منها ما يلائم أحوالنا المحلية . خاصة وأن بعض ولايات تلك البلاد تكثر وجوه الشبه بينها وبين مصر ، من حيث الجو والاحوال الزراعية

حسين عنان

التدين من صفات العظماء

قليل من الناس من يتبين ما للدين من أثر كبير فى حياة عظماء الرجال ، وفى تكييف تفكيرهم وشعورهم ، وفى توجيه عملهم وسيرتهم

بل ان مترجمى هؤلاء العظماء ليغفلون عادة عن هذا الجانب الدينى ، اذ كثيرا ما تتسم أخلاق العظماء بالشذوذ أو القسوة أو الاستهتار أو النزوة تخفى عن الناس ما يعمر قلوبهم من نزعات التدين والايمان

ولكن نظرة عميقة فى حياة عظماء العالم عامة تبين أن قلوبهم تضيء دائما بضياء الدين ونور الايمان ، وان كان منهم من يمارس الدين وفق طقوس خاصة به قد لا تتفق مع الطقوس التى جرى بها العرف ورسمتها التقاليد

وسنعرض فيما يلى ناحية التدين فى نفر من عظماء العالم المعاصرين والسابقين ، مستدلين عليها بكلمات قالوها أو أعمال قاموا بها

تشيانج كى تشك : هذا رجل شديد التدين والايمان رغم أنه انتقل من دينه الصينى الى دين جديد هو المسيحية . فقد قال فى خطاب أذاعه منذ سنوات فى ذكرى ميلاد المسيح « ان الرجل لا يستطيع أن يعيش بلا عقيدة دينية » . ثم قال : « انى أؤكد انه اذا نقص المرء الايمان عجز عن أن يؤدى أى عمل ، كما أنه لا يستطيع أن يؤدى عملا ما اذا أباح للخرافات والترهات أن تدخل فى عقله وحياته »

وقد كان الجنرال يدين بالديانة الكونفوشية حتى لقى « ماى لنج سونج » ، تلك الفتاة الجميلة الثرية التى تعلمت وتثقفت فى امريكا ، فترك ديانته الاولى ، وزوجتيه السابقتين ، واعتنق الدين الذى تدين به هذه الفتاة بعد أن تزوجها

أما زوجه فكتبت مقالا بدأته بهذه الجملة : « انى لست متدينة بحكم طبيعتى » . ولكن هذا الوصف لا يطابق الحقيقة فى شىء ، فكل من لقى هذه السيدة يدرك مدى ما للدين من أثر فى توجيه حياتها وأعمالها . فهى سيدة انسانية من الطراز الاول ، تحركها آلام البشر من بنى وطنها ومن بنى الانسان عامة . وقد غرست مبادىء المسيحية وأخلاقها لا فى نفسها ولا فى زوجها فحسب ، بل فى آلاف وآلاف من أبناء الصين الذين تضمهم « حركة الحياة الجديدة » هذه الحركة التى أقامتها لخلق جيل جديد من أبناء الصين وبناته، يؤمن بحقه ويعتز بكرامته ويبذل نفسه دفاعا عنهما

هتلر وموسولينى : هل هتلر غير متدين ؟ كلا ! ولكن دينه ليس دينا من الاديان التى يؤمن بها الناس ، بل دينه كما يقول جون جنتر فى كتابه « فى داخل أوربا » هو ألمانيا !

هو لا يؤدى شيئا من طقوس المسيحية . وقد اضطهد الكنيسة ورجالها . ولكنه مع ذلك لا ينكر أثر المسيحية وفضلها على شعبه ، وان كان يرى النازية أعمق منها أثرا وأعم فضلا . فقد قال فى خطاب فى مؤتمر نورمبرج : « لقد نجحت المسيحية ردحا من الزمن فى توحيد القبائل التيوتونية . ثم جاءت حركة الاصلاح الدينى فحطمت هذه الوحدة وأعادتها قبائل مشتتة متفرقة . أما الآن فقد عادت ألمانيا موحدة وحدة كاملة كالبنيان المرصوص . ذلك أن الاشتراكية الوطنية نجحت حيث أخفقت المسيحية »

وكان من أكثر ما يؤلم هتلر أن يكون المسيح من بنى اسرائيل ، هذا الشعب الذى ينكر عليه كل فضل وكل كفاية . وقد أضحك هتلر العالم طويلا حين حاول مفكرو النازية وفلاسفتها أن يثبتوا أن المسيح من الجنس الآرى ، وان تعاليمه تتفق وتعاليم النازية

أما موسولينى فكان ملحدا فى بداية حياته عند ما كان ثوريا اشتراكيا ، فلما غدا رئيس حكومة صار متدينا .. ولم يكن تدينا رسميا صناعيا ، بل كان تدينا قلبيا صحيحا . فعند ما تزوجت ابنته ايدا من الكونت شيانو لم يهدها أبوها سوى مسبحة ! وكذلك سمى ابنته الصغرى اسما مسيحيا صميما فدعاها « آنا ماريا » ، وقصة صلحه مع الفاتيكان فى سنة ١٩٣٢ قصة سياسية ، ولكنها على أى حال لم تخل من نزعة دينية

ستالين : قال ستالين ذات مرة : « ان الحزب – الحزب الشيوعى – لا يستطيع أن يكون محايدا فى أمر الدين ، لان الدين شىء يضاد العلم ، والعلم هو الاساس الذى تقوم عليه الشيوعية »

ولكن هذا لا يعنى أن ستالين فى قرارة نفسه ملحد بالدين كل الالحاد . بل ان فيه لآثارا وندوبا من الدروس الدينية التى تلقاها فى بداية حياته حين كانت أمه تريد أن تجعل منه قسيسا . فلما كان فى محبسه فى عهد القيصرية كان يقرأ الانجيل ويتلوه طويلا

والاخبار الاخيرة الواردة من روسيا تدل على أن ثمة تسامحا كبيرا فى المسائل الدينية وأن كنائس روسيا ومعابدها بدأت تفتح أبوابها لافواج المتدينين والمؤمنين . والظاهر أن لا سبيل الى القضاء على الروح الدينى فى روسيا ، فقد بدأت موجة التدين تغمر هذا الشعب الذى كان أشد شعوب أوربا تدينا وايمانا ، وقد حرضت محن الحرب الدائرة هذا الشعب على تقوية روحه المعنوى وبث الصبر فى جوانحه ، بالرجعة الى الدين شيئا ما

لنكولن : ولكن ما شأن أولئك الذين كتبوا التاريخ فيما مضى تجاه الدين ؟ خذ لنكولن مثلا . لقد كاد هذا الرجل أن يخفق فى انتخاب الرئاسة حين ذاعت الاشاعات وتواترت الاقاويل عن شكوكه فى الدين . وأجمع رجال الدين فى أرجاء أمريكا أمرهم على محاربة « العم ابراهام » لانه لا يعترف بالدين ولا يؤمن بالله . وكان لرجال الدين

حينذاك نفوذ كبير على جمهرة الشعب ، فكادوا يحولون أصوات الناخبين جميعا الى خصمه في الانتخاب

فما كان من لنكولن الا أن جمع جمعا كبيرا من الناخبين ، ووقف فيهم يخطبهم قائلا : « انى أعلم أن هناك الها ، وان هذا الاله يكره الرق . أما خصمى فلا يعنيه بقى الرق أم ألغى ، فى حين أن الله تعالى يكره الرق ويأمر بالغائه . وأنا استمع كلمة الله وأكره الرق وأريد أن ألغيه . وسأوفق الى ما أريد بفضل رعاية الله وتأييده لى »

ثم نزع من جيبه الكتاب المقدس ، وأقسم به ليسعين الى الغاء الرق بكل جهوده وقواه . فكان لهذه الكلمة ولهذه الاشارة أثر فعال فى نفوس ناخبيه جميعا ، فحملوه فى موجة غامرة من التأييد الى كرسى الرئاسة

ولم يكن للنكولن مذهب دينى معين ، ولكنه كان مسيحيا فى أخلاقه وصفاته ، وكان يؤم الكنيسة أحيانا ، ويستشهد فى خطبه ورسائله بآيات من الانجيل

المارشال فوش : كان فوش قائد جيوش الحلفاء فى الحرب الماضية يؤم الكنيسة ويمثل أمام المذبح كلما اشتد به الامر وضاقت عليه سبل النصر . وكثيرا ما كان يختفى عن الانظار ، والحرب فى عنفوانها والمعركة متقدة النيران ، ليخلو الى الله تعالى برهة من الوقت يتعبد ، ويبتهل ، ويتوسل . .

وقد سئل ذات مرة عن خلود النفس الانسانية فقال : « سعداء هؤلاء الذين ولدوا مؤمنين . وأنا واحد منهم ، فما يداخلنى الشك فى خلود النفس وحياتها بعد الممات »

وكان فوش يصلى الى الله قبل أن يقدم على معاركه الحربية ، مثله فى ذلك مثل نابليون الذى سارت الاقوال بشكوكه واستهتاره . وقد بلغت النزعة الدينية من نابليون مبلغها الاقصى فى سنيه الاخيرة التى أمضاها فى المنفى ، يفكر فى تلك القوة المسيطرة الغلابة التى يعجز عنها أى عقل وتقصر دونها أية عبقرية

وقد بدأ نابليون وصيته بهذه الكلمات : « انى أموت مؤمنا بالديانة المسيحية التى ولدت عليها منذ أكثر من أربعين سنة »

وكان نابليون ثائرا على الكنيسة عابثا برجالها . وقد قبض على البابا وزج به سجينا . ولكنه مع هذا كان — حتى فى أيام سطوته وعنفوانه — يحمل الكتاب المقدس ويتلوه كثيرا

شيكسبير : لم يكن متصوفا يزهد فى الدنيا وينصرف عن متاعها . ولم يكن مطلق الايمان لا يداخله الشك فى أمور الدين . بل كثيرا ما كان يرتاب فيما وراء الحياة : أهو موت دائم لا حس فيه ولا قيامة منه ، أم هو مجاز الى حياة أخرى فيها نعيم وفيها شقاء ؟ ومن أمثلة شكه ما قاله فى « هاملت » : « هذا الافق الذى لم يكتشفه أحد ولن يكتشفه أحد . هذا القطر الذى لا يعود من يسافر اليه أبدا »

وكان كثير الاستشهاد بآيات من الانجيل ، حتى لقد وضع أحد نقاده كتابا كاملا عنوانه : « الانجيل فى شيكسبير »

وعلى قدر ما كانت قصصه الاولى متحللة من الاخلاق والفضائل ، أخذت قصصه الاخيرة تتجه اتجاها دينيا خلقيا واضح السمات

ووصيته تشتمل على هذه الكلمات التى تدل على أن الايمان استولى عليه فى أخريات أيامه : « انى أسلم روحى لدى الله ، خالقى وبارئى ، آملا وواثقا ، ان هذه الروح ستحيا حياة خالدة فى ظل يسوع المسيح مخلصى ومنقذى ، بينما يبقى جسدى فى الارض التى خلق منها »

داروين : عند ما كان فى جنوب أمريكا يجمع المواد التى يبنى منها نظرية التطور ويؤلف منها كتابه أصل الانواع ، أثارت نفسه تلك القسوة البالغة التى يعامل بها الرقيق، فقرر أن يغادر تلك البلاد على ألا يعود اليها مرة أخرى . وقد كتب فى « قصة حياته » أنه « لن يزور بعد الآن أى قطر يمارس الرق . فانى ما زلت الى هذا اليوم كلما سمعت صرخة من بعيد ، تذكرت أن ثمة عبدا بائسا يجلد بالسياط ويعذب بالحديد »

وقد اتهم داروين بالالحاد من جميع الهيئات الدينية ، وعد كتابه الاول «ارتقاء الانسان» كفرا بالدين ، وحرمت على المؤمنين قراءته . ولكن داروين لم يكن يرى فى نظريته أى خروج على الدين ، فلما قابله الشاعر تينسون وسأله : « هل نظريتك فى التطور تناقض المسيحية ؟ » أجابه دارون حازما : « كلا . كلا . ليس فيها أى شىء يخالف دياتى المسيحية ! »

(عن صحيفة داكت دايجست)

أمثال روسية

- عند ما يتكلم المال يصمت الصدق
- شعر المرأة طويل ولكن فكرها قصير
- المرأة عزيز على الرجل مرتين : عند ما يتزوجها وعند ما يدفنها
- المرأة تضحك عند ما تقدر ، وتبكى عند ما تريد
- الجندى الذى لا يأمل أن يصبح يوما ما جنرالا جندى خامل

الحب بين الشباب والكهولة

كنا ثمانية نسمر بذلك الحديث الهين المتشعب الذى يحلو فى ليالى الصيف الوادعة الرائقة . وانتقل بنا الحديث الى ذكر ذلك الشاب الحدث الذى تزوج فى الليلة الفائتة من سيدة لا يكاد عمره يجاوز نصف عمرها

وقال واحد منا : « هذا زواج أيام وأسابيع ، فما يمكن أن يقوم الحب ولا أن يستقيم الزواج بين الكهولة والشباب »

وقال آخر : « لا شك أن المال يربض وراء كل زواج من هذا القبيل . فما الذى يغرى شابا بامرأة متقدمة السن سوى مالها ؟ »

ولكن أحدنا ، وكان كهلا خبر الحيـاة طويلا ، قال : « لست أرى ما ترون يا رفاق .. فما أظن أن سهم كيوبيد حين ينطلق ينظر الى الاعمار .. انه ينظر الى الامزجة والاذواق وحدهما »

لقد صدق رأى هذا الرجل . فانا اذ نراجع أعظم ما فى التاريخ من قصص الحب الصادق ، العنيف ، نرى أن تقارب السن لم يكن عاملا هاما .. بل كثيرا ما نجد الحب يبلغ أقصاه بين اثنين يتفاوتان فى السن تفاوتا كبيرا

لعل قصة الحب المثالى وقصة الزواج المثالى فى تاريخ أدباء انجلترا هى قصة الشاعر روبرت براوننج وحبيبته الشاعرة اليزابث براوننج . فهل كانا متقاربين فى السن ؟

عند ما لقيها الشاعر أول مرة كانت فى التاسعة والثلاثين ، وكانت مريضة تشكو علة عصبية طالت عليها الايام . أما هو فكان فى الثالثة والثلاثين . ولكن هذا اللقاء الاول أوقد فيهما لهيب الحب ، فتزوجا فى العام التالى سرا ، وسافرا خفية الى ايطاليا

وثمة فى تاريخ الادباء قصص شتى من هذا القبيل ، منها قصة الاديبة الانجليزية المشهورة جورج اليوت ، التى لا تخلو قصة حبها وزواجها من غرابة تبلغ حد الانحراف

فقد كرست هذه الاديبة قلبها وذهنها أعواما تلو أعوام لرجل متزوج هو « جورج لويس » الذى كان لها من عطفه ورعايته ، ومن تأثيره وتوجيهه ، ما أثار ملكاتها الادبية وولد منها ما خلفت من آثار أدبية ثمينة . وكان لويس متزوجا ومع ذلك كانت اليوت لا ترضى أن تكون علاقته بها مجرد حب ، بل تراها علاقة زواج لا تنقصه سوى طقوس الزواج . وكانت تهديه مخطوطات كتبها مقدمة بهذه الكلمة « الى زوجى » !

ولما مات لويس صدمت اليوت صدمة أوهنت صحتها ، كما أضعفت من انتاجها الادبى

وقد ظلت عانسا حتى سن الواحدة والستين .. وعندئذ تزوجت !.. تزوجت شابا فى سن الثلاثين . ومع أن هذا الزواج لم يدم طويلا ، الا انه كان زواجا سعيدا هانئا ، لانه كما قالت : « زواج قام على اتفاق فى الذهن والمزاج »

ونذكر فى هذا القبيل قصة الاديبة الالمانية « راهيل ليفن » . تلك التى كان بيتها فى برلين مثل بيت اسبازيا فى اثينا . فهذه ألهمت سقراط وفدياس ، وتلك كانت ذات التأثير النافذ الساحر فى جوتيه وهينى وهاجل وغيرهم من أعلام الادب والفكر الالمانى

كانت راهيل فى السابعة والثلاثين حين رأت كارل فرنهاجن الذى لم يجاوز الثالثة والعشرين . فماذا أحسا ؟ قال الشاب فيما بعد : « أحسست فى تلك اللحظة أن ثمة شيئا يرفعنى الى أسمى مستوى فى الحياة » . ولن يقول هذه الكلمة الا شخص اتقدت فى قلبه جذوة الحب المقدسة . .

وظلت هذه الجذوة متقدة ملتهبة عددا من السنين ، انتهت بالزواج حين كانت هى فى الثالثة والاربعين وهو فى التاسعة والعشرين . وكانت رعايتها وتشجيعها اياه مثار ملكاته الادبية الكامنة ، فأخرج كثيرا من الكتب الثمينة ، كما عمل فى السلك السياسى

ولم يزد الزواج حبهما الا قوة وصفاء ، ولما ماتت ، ظل وفيا لذكراها كل الوفاء ، فلم يتزوج مرة أخرى ، وطبع كثيرا من أوراقها ورسائلها

وليس الامر مقصورا على الادباء والاديبات ، بل نجد من رجال الحكم والسياسة من يهيمون حبا بنساء يكبرنهم سنا . فزوجة لينين تكبره بسنتين

واذا ذكرت فى حياة هتلر قصة حب ، فهى قصة حبه للسيدة الثرية بشتين . وقد يقال انه لم يعلق بها الا لتمده بالمال حين كانت حركته السياسية فى بداية أمرها مفتقرة الى المال ، ولكن الذين يعرفون دخيلة الامر يؤكدون أن الشاب هتلر كان يحس حبا عميقا لهذه السيدة التى عرفها وهى فى سن السنين

وفى تاريخ العرش الانجليزى قصة حب بين امرأة عجوز وشاب صغير . تلك هى قصة حب الملكة العظيمة اليصابات بالشاب الفتى اسكس ، الذى كان فى الثالثة والعشرين حين بادلته الملكة حبا بحب وهى فى السادسة والخمسين

ولا شك أن الشاب كان يحب الملكة حبا صادقا ، وكان يغار عليها من وزرائها ومستشاريها ، فأدت به هذه الغيرة الى مؤامرة سياسية أراد بها أن يبعد عن ملكته المحبوبة هؤلاء الرجال . ولكن الملكة ــ بعد حب دام اثنتى عشرة سنة ــ لم تغفر له هذه المؤامرة ، وآثرت عرشها على قلبها ، وقضت على حبيبها بالموت

ولكن الامر لم يكن هينا عليها ، فلم تعش بعده سوى سنتين ، قضتهما محطمة الاعصاب نعود الى عالم الادب فنجد الاديبة الفرنسية جورج صاند

كانت فى الثلاثين وكان الفريد دى موسيه فى الثالثة والعشرين، حين قال فيها : « متقدة شرسة كالجمر . وادعة حنون كاللبن . خصبة جواد كالارض . خطرة غدارة كالبحر»

وسافرا معا الى ايطاليا فى رحلتهما الغرامية المشهورة ، تلك الرحلة التى قال عنها الشاعر : « بدأت كرواية غرامية رائعة .. ثم انتهت كرواية لها ثلاثة أبطال » . وكان البطل الثالث هو هذا الطبيب الفينيسى الجميل « باجيلو » الذى هامت به الشاعرة غراما

وتقلبت بعد ذلك فى الحب بين رجل وآخر ، حتى لقيت الموسيقى شوبان ، وكان حينذاك يصغرها بست سنوات ، اذ كان فى الواحدة والعشرين من عمره . وكان قد ترك بلاده بولونيا محطم القلب كسير الفؤاد ، اثر صدمة حب عنيفة ، وجاء الى فرنسا يلتمس فيها الصحة والراحة والسلوى .. ولقيته جورج صاند ، فحملته معها الى جزر البليار ، حيث الشمس الصاحية تضفى عليه الصحة والعافية ، وحيث حبها النارى يسكب فى قلبه الراحة والسلوى . وظل الحبيبان معا ثمانى سنوات ، ثم افترقا

ونذهب الى التاريخ البعيد ، فنجد المرأة الخالدة « صافو » هذه السمراء الفاتنة الساحرة التى غزت قلوب الملوك وأذلت جباه الرجال . ولكن رجلا واحدا لم تقو عليه ، مع انه لم يكن ملكا ولا أميرا ، بل كان بحارا بسيطا . ذلك هو البحار الشاب « فاون » الذى هامت به حبا فى أخريات أيامها ، وكان حبها اياه آخر حب فى حياتها . وكان شابا فتيا جميلا مكتمل البدن ، ولكنه كان من أصل وضيع وعلى قسط ضئيل من التهذيب

ولا شك فى انه بادل صافو حبا بحب ، وعاشا معا فترة عيشة هانئة سعيدة . ولكن السن تقدمت بها كثيرا بعد أن ارتوى الشاب من كل ما أراد : من رحيق الحب ، ومن بعد الصيت ، اذ آثرته أجمل نساء عصرها على سائر الرجال . فلما شبع الشاب وارتوى ، ترك صافو ذات ليلة على حين غرة ، وأبحر فى قاربه تحت جنح الظلام الى صقلية . وطويت بذلك آخر صفحة فى كتاب صافو الحافل بأقاصيص الهوى

ونذكر قصة «ديانا دى بوتيير» فهى من أقوى الادلة على أن كيوبيد لا ينظر الى الاعمار هزت هذه السيدة مهد هنرى الثانى ملك فرنسا . ولكنه لما كبر وصار ملكا كانت هى المسيطرة على قلبه وعقله ، رغم الفارق الكبير بينه وبينها فى السن ، ورغم أنه لم يتول العرش إلا بعد أن تزوج من كاترين دى مديشى بأربع عشرة سنة !

وقد بنى لها هنرى قلاعا كثيرة ، كان يمضى معها فيها ساعات الحب وليالى الهيام

ونذكر أخيرا « نينون دى لينكلوس » هذه السيدة المستهترة التى عاشت فى باريس فى القرن السابع عشر . كانت آية من آيات الصالونات الباريسية : جمالا ، وأناقة ، وذكاء وبراعة ، وقوة عاطفة ، ونفاذ تأثير . وظلت طول عمرها مطمع أنظار علية القوم ، من شبان ورجال ومسنين . وكانوا يطلقون عليها لقب « الهة الحب » . ولم تشبع من الحب ولم يشبع الناس من حبها ، حتى وهى تدب الى الشيخوخة الفانية

ففى سن السبعين أحبها وهام بها البارون فون بانير ، ولم يكن حينذاك الا شابا .

وفى سن الثمانين أحبت حبها الاخير . وكان ذلك بينها وبين رجل فاضل مستقيم ، فأراد أن يعدل بها عن طريق الاستهتار والغواية الذى قطعت أشواطه كلها ، فانقادت له وعاشت الى التسعين عيشة التوبة والايمان

(عن مقال لآنيت جولسون فى صحيفة بارىد)

الدكتور ابراهيم

تأليف الكاتب السويسرى

جون نيتل

تلخيص وتعليق الاستاذ

محمد امين حسونة

جون نيتل John Knittel من أنبه كتاب أوربا ذكرا ، وأجلهم أسلوبا ، وأصدقهم فنا فى نقل صور البلاد التى يمكث فيها أو يمر بها ، والقيام بتحقيقات اجتماعية رائعة

وقد أقام بضعة أعوام فى ضاحية « عين شمس » بالقاهرة ، فى صومعة تسودها الاحلام وسكينة الخلد ، وتحوط بها اشجار السرو والازهار ، توفر فى خلالها على وضع هذه الرواية التى نقلت الى معظم اللغات الحية ، فرسم على صفحاتها صورا ساذجة من أفكار الفلاح المصرى ومعتقداته وسوء حالته المعيشية حتى صادفت الرواية هوى من نفس كل كاتب أوربى يمجد العدالة ويروم أن يرى الفلاح المصرى والعامل المصرى فى مرتبة الانسان المتمدين

والحق ان جون نيتل أحب الارض المصرية حبا جما ، تلك الارض التى ولد فيها « الدكتور ابراهيم » وناضل وتألم من أجل سعادة مواطنيه والسعى الى تثقيفهم والدفاع عن حقوقهم . واتخذ المؤلف من هذا الحب سلاحا يدافع به عن التقاليد الرفيعة والميول الشريفة والكفاح المجيد فى سبيل الحصول على الخبز اليومى ، وعذرا لنقد عيوبنا ونقائصنا الاجتماعية ـ هذا النقد وان كان لاذعا غير أن المؤلف يقف منه موقف الطبيب الذى يشخص الداء ويصف الدواء

والمؤلف يخاطب القارىء أحيانا من منبر الوعظ والارشاد ، ويكثر من النصيحة فيما يتعلق بالآداب والاخلاق والسياسة ، ولكن سرعان ما ينسى المؤلف صفة الواعظ وتبدأ شخصية الكاتب الفنان فى الظهور ، فيأخذ عليك لبك ويهز مشاعرك ، فتتلو الكتاب الى آخره دون أن تلقيه جانبا ، فاذا فرغت منه تأكدت بأن المؤلف أصاب سدرة الصواب فيما رمى اليه

▭

كان ابراهيم جمال الدين الاسيوطى شابا يافعا ، أسمر البشرة ، متألق الذكاء ، تلوح على محياه دلائل الفطنة . وقد نشأ من أسرة فقيرة ، فى احدى القرى النائية فى الصعيد ، بعيدا عن صخب الحياة ، حيث لا تصل القطرات ولا السيارات ، وانما يصل الناس اليها على ظهور الدواب أو سعيا على الاقدام

كان رقيق العاطفة ، ملتهب الاحساس ، طموحا الى حد الاعتدال ، سلحته الطبيعة

بمواهب فذة وارادة حديدية صلبة ، وأعصاب تقوى على الدأب والكفاح فى عزم وطمأنينة وقناعة ، وكان قد أولع لفرط طموحه بأن يغدو طبيبا ، يشفى علل أبناء قومه التعساء ويأسو جراحهم ، وملأ الأمل نفسه وأترع خاطره ، فمضى يشق طريقه فى الحياة على هدى مثله الأعلى

وكان أبوه على شاكلته ، رجلا تقيا ورعا ، وكان على قدر حظه من مزاولة العبادة وضروب التقشف موفور الحظ من العلم ، اذ كان يشتغل فى العطارة ويتاجر فى الاعشاب والنباتات الطبية ، يعالج بها الفلاحين ويصف أدواءهم ، وقد أعجب أهل القرية بسداد رأيه ورسوخ قدمه فى الطب طبقا لما درسه فى تذكرة ابن داود وما تلقاه عن السلف ، فكانوا يحتكمون اليه فيما يعضل عليهم حله ويهرعون لشهود مجلسه

وكانت الام امرأة صالحة ، تتخلل شعرها الكثيف الاسود خيوط بيضاء كأنها جداول من الفضة تجرى وسط صحراء قاحلة ، وكانت التقوى قد طهرت بدنها من مطامع الدنيا وغرورها ، وطمت الرحمة فى قلبها ، فلما مرض ابراهيم فى طفولته وعاده حلاق الصحة وجعل يعالجه بعقاقير ساءت معها حالة الطفل ، أبعدت الام الهموم عن نفسها وطرحت هذه الادوية التافهة جانبا واقبلت تغذيه باللبن والبصل . كانت كلفة بالصمت ، تعمل فى تؤدة وهدوء ، وتسير بخطى وئيدة صماء ، وتتحدث الى طفلها المريض فى شبه همس ، فتهون عليه آلامه ، وتوقظ الامل فى نفسه بحرارة المؤمن وهو مقبل على تأدية الصلاة ، فجعلت تحوطه بعين عنايتها وتسهر عليه الليالى الطوال ، ولم تدخر وسعا فى سبيل حمايته ودفع غائلة الموت عنه حتى شفى المريض ونجا بأعجوبة

وعند ما شب الطفل أراد الوالد أن يشرف على تربية ولده ، فلقنه بنفسه مبادىء القراءة والكتابة وعلمه الحساب ودربه على أساليب البيع والشراء فى حانوته الضيق المتواضع ، وأفهمه أسرار تركيب العقاقير والاعشاب

وقد حدث فى ذات يوم أن مضى الصبى الى المدينة ومر مصادفة بدار المستشفى الحكومى فأبصر المرضى يترصدون بابه ، وهم يضربون ويهانون كأنهم كلاب القطيع ، فأشفق عليهم ، وغرس هذا المنظر فى ذهنه أول بذور الثورة الممزوجة بعواطف الرحمة والمحبة . وعاوده حلمه ، فود لو أن القدر يحققه فيصبح طبيبا يهب علمه وتجاربه فى سبيل مرضاه ، هؤلاء المعوزين اللهين هم فى حاجة الى الدواء والعلاج ، وبعد شهور قصد الى المذبح « السلخانة » فهاله منظر القسوة وهم يذبحون الماشية . غير أنه مارس أول دروسه فى التشريح فى جثة حمار نفق ، وقوى ذلك من عزيمته على أن يصير جراحا فى المستقبل

شب وترعرع ، وأشرق ذكاؤه وتجلت ألمعيته وانبثق فى نفسه نور المعرفة ، فسلك طريقه الى المدرسة وبذ أقرانه . وكان يرغب فى بادىء الامر لو انه لا يرتدى سوى الجلباب و « الزعبوط » اذ أن الملابس الافرنجية فى زعمه تدمجنا فى الغربيين ، وبذلك تمحى قوميتنا ويسلب منا طابعنا الشرقى الخاص ، وكان يرى أن مصر لن تنال استقلالها

الا يوم أن تمزق هذا الرداء وتلقيه أرضا . وتجلت وطنيته حينما وفد مفتش التعليم الاوربى لزيارة المدرسة ، فقد دخل هذا المفتش المدرسة بزهوه وخيلائه ، واستقبل من هيئة التعليم ورجال الامن والشرطة استقبال الغزاة الفاتحين ، ثم وجه سؤالا الى التلاميذ طلب اليهم الاجابة عنه ، وهو : ماذا يمكن للطالب المصرى أن يعمل عقب تخرجه فى المدرسة ؟ فاتفقوا جميعا على أنهم يفضلون الالتحاق بوظائف الدولة ، ولكن ابراهيم شذ عنهم ولم يسلك مسلكهم ، فذكر فى صوت جهير انه يؤثر أن يغدو طبيبا ليعالج ويشفى أبناء مصر « الفقراء » . هنالك لطمه ناظر المدرسة على وجهه ، لانه تجرأ على أن يلفظ اسم « مصر » ويشيد بفقرها فى حضرة المفتش الاوربى !

ظل هذا الحادث عالقا بذهن ابراهيم . وكان داعيا لان ينبه من جديد نزعة السخط فى أطواء نفسه ، ويقوى فيها بذور التمرد ضد اضطهاد البشر وقسوتهم وظلمهم ، حتى أن الحظ لما حالفه والتحق بمدرسة الطب فيما بعد جعل شعاره « مصر للمصريين » ورائده القيام بتعليم كل فلاح فقير وتثقيفه ثقافة تليق به كعضو نافع فى الجمعية البشرية ، ونصب أمام عينيه ضرورة مكافحة الامية ، والقضاء على الامراض والعيوب التى يئن تحت أثقالها السواد الاعظم من الامة

وقد صارح رفاقه مرة بمبادئه هذه فقال :

ـ كم هى جميلة تلك الحياة ! انها صافية صفاء السماء اللازوردية ، انها شهية للفم ، ومتاع للعين ، ولذة للسان ! اليوم يشقى عشرة ملايين من اخوانكم ، انهم رجال مثلكم يصارعون الحياة ليحصلوا على البصل وخبز الشعير والفول والعدس ، وانتم تعلمون هذا علم اليقين . تعرفون أنه لا توجد قرية واحدة تنعم بمورد من الماء الصحى النقى . يا لعاركم أيها الاذلاء الذين تضعون الزبد على خبز الاجنبى وتأبون الخبز القفار على أترابكم فى الوطن . تركتم الاجانب يقتسمون بلادكم ، وجعلتم خيرها قسمة ضيزى بينهم كأنه كعكة عيد الميلاد ، ينهبونه باسم التعليم ، والصحة العامة ، وتنظيم المالية . وجهلتم أن هذا البلد وحدة لا تتجزأ هى الشعب المصرى ، هذا الشعب مريض ، قد استعذبه الداء وان علة مرضه هم رجاله . لقد قمت وأنا فى سن الثانية عشرة بتشريح جسد حيوان ثم أجريت المبضع اليوم فى جسد مصرى . ان العلة أيها الاخوان فى الرجال !

وخاطب مرة استاذه الاوربى بقوله :

ـ والآن أيها الاستاذ ، ان لدينا الاخصائيين من أبناء وطننا ، فى نفس أرضنا ، ولكن الاجنبى أحق ، هكذا تنص الامتيازات الاجنبية والمعاهدات . اننى أشكر لك حمايتك والدليل على هذا ان عصابات الاشرار من الاجانب تخف الى بلادنا تلتمس المتعة والثروة فيها فى ظل الامتيازات الاجنبية . أليست الشمس وحدها هى التى تغاديهم الى هذا البلد، بل ان الاجساد البشرية تهتف بهم كذلك . هذه الاجساد التى برأها الله على نحو رفيع،

إنها العيون الحساسة ذات الحور والبريق ، انها الابتسامات البلهاء ، ان الشيخوخة تسعد هنا على حساب الشباب الابدى

▭

أتم دراسته الثانوية ورغب أبوه أن يحقق له أمنيته فمنحه نقودا وثيابا وباركه قبل الرحيل الى القاهرة للالتحاق بأحد معاهدها العلمية العالية . وآثر ابراهيم أن يسافر بطريق النيل توفيرا للنفقات ، وفى المركب الشراعى الذى أقله أجرى أولى عملياته الجراحية وهى فتح خراج فى عنق أم « الريس حفنى » . ورأت الام أن ترد اليه الجميل فكشفت عن طالعه ، وتبين لها أن فى عنقه طوقا من الذهب فى وسطه زهرة ، وسيكسر هذا الطوق فى نقطة اتصاله بالزهرة ، ثم يمحى ولا تبقى سوى الزهرة فتعيش الى جانبه بقية عمره !

فى ذلك الحين كان وباء الكوليرا قد انتشر انتشارا مروعا فى مديرية أسيوط ، وكان الموت يحصد الناس حصدا فيقعون صرعى كالذباب . فخرجت باخرة الحجر الصحى « الكرنتينة » الى عرض النيل ، وأوقفت المركب التى بها ابراهيم واقتادتها الى الشاطىء ، وحجزت ركابها الذين وضعوا تحت الرقابة الصحية . وتعرف ابراهيم الى طبيب الاوبئة الدكتور جاد الله وعرض عليه خدمته ، فقبله مساعدا له ، وتوثقت عرى المودة بينهما ، وكان بالمستشفى المتنقل ممرضة تدعى مس هوارد ، رمت بنفسها فى ذلك الاتون المستعر على أثر حب فاشل وما لبثت أن ماتت بالكوليرا ، وأصيب ابراهيم بالوباء نفسه فعالجه الدكتور جاد الله حتى شفى ، ولكن الطبيب المسكين قضى نحبه بعد ذلك متأثرا بذات الداء

طهرت المنطقة من الكوليرا ، فزحف ابراهيم بهيكله الناحل المحطم وقد سرقت نقوده وانتهبت ثيابه . زحف الى جدار خرب وارتمى عليه وقد أعياه المشى وهده التعب . هناك مرت به اتفاقا قروية حسناء تدعى عزيزة ، كانت بعينها « الزهرة » التى لمحتها أم حفنى فى طالعه

وفتح ابراهيم عينيه فأبصر فتاة جميلة ، مديدة الجسم ، عريضة الاكتاف ، ممشوقة القد ، ذات شعر أسود فاحم كالليل ، تسترسل ضفائرها الى ما فوق خصرها ، وكان لها وجه مستدير ، لونه حنطى ، أما عيناها فسوداوان تتراءى فيهما الاحلام الخفية وتنبعث منهما احساسات مجهولة غير أنها مقرونة بالعطف ، مشبعة بالرثاء . رآها وقد انحنت عليه فى رفق كأنها تمسح بيديها آلامه وأوجاعه ، وتحنو عليه حنو مرضعة على فطيمها فاستفاقت فيه بغتة عوامل مبهمة متضاربة ، وسائل نفسه عما اذا كان فى حلم أم فى يقظة

ومضت به الفتاة الى دار عمها وما لبث ان استرد قواه شيئا فشيئا ، وعاودته العافية والصحو ، ووصل الحب بين قلبيهما وصار ينمو على الايام ولكن الاقدار عاكستهما ، فان

سيد القرية مدني باشا كان له ولد وحيد يدعى عباس ، هو شاب مدلل ، سافل ، فصار يطارد عزيزة ، وأوحى الى أبيه أن يطلبها من أهلها لتكون خادما فى قصرهم بالقاهرة . فدب اليأس الى قلبي عزيزة وابراهيم وصمما على الهرب وفعلا فرا معا ، وبعد أن سارا شوطا بعيدا ، لحق بهما رجال مدنى باشا فأوسعوهما ضربا مبرحا وانتزعوا الفتاة من بين ذراعي حبيبها

تكشفت لابراهيم وهو فى القاهرة مئات العيوب والمثالب ، فرأى القذارة فى مستشفى قصر العينى ، وضرب المرضى ، والاتجار فى الادوية ، وسرقة وجبات الطعام المخصص للمرضى ، ومغازلة الاطباء للممرضات ، وتركيز الامر والنهى فى يد « الباشتمرجى » الذى له وحده حق جباية الاتاوات والسيطرة على كل ما يتعلق بشؤون المرضى والزوار

لمح فى الحى الذى يسكنه انحطاط مستوى السكان والجهل المتفشى بينهم ، وطالعته أشباح حزينة متعبة ساخطة ، تسكن فى هياكل من عظم تكسوها طبقة رقيقة من الجلد ، قد أنهكها الجوع والحرمان . أما الاطفال فكانوا بين موزعين فى الازقة ، ومشردين فى الشوارع ، ومتسكعين هنا وهناك فى ثياب مهلهلة وأطمار رثة ، يتسلقون مركبات الترام وينبشون صناديق القمامة ، ومنهم من يستر اجرامه وراء حرفة تافهة . فعول على افتتاح مدرسة الغرض منها تعليم هؤلاء الصبية مبادىء النظافة وتلقينهم الاصول الصحيحة للتعليم مع بث روح القومية الحقة فى نفوسهم حتى يتفهموا عبقرية الوطن على حقيقته . وبعد أن سار شوطا بعيدا فى مدرسته أغلقتها السلطات المختصة واعترضت على طريقته فى التعليم ، ثم قدمته الى المحاكمة بتهمة افتتاحه مدرسة بدون ترخيص من وزارة المعارف

فى ذلك الحين كان ابراهيم بسبب فقره المدقع يسكن غرفة حقيرة فى حى السيدة زينب مع صديق له يدعى « ابو بكر » . وكان صديقه هذا من أرومة تركية ، جم الحيوية ، مدمنا على اللهو ، مغرما بالنساء ، ولكنه فقير كابراهيم ، فصارا يتحايلان على العيش معا ، الى حد أنهما كانا يذاكران مادة « الجراحة الاكلينيكية » فوق قطعة بالية من الحصير

وفى ذات يوم استفاق ابراهيم من نومه على صوت صياح ، فاذا بالامير على صاحب الارض ، ومعه نخبة من أصدقائه الاوربيين ، وكانت بينهم سيدة انجليزية لدغها ثعبان فى الطريق العام . فبادر ابراهيم الى نجدتها ، وبتوقد قريحته أنقذ حياتها ، ثم رفض بكل اباء أن يتناول أجرا على الرغم من حاجته وفقره المدقع . وما لبث الامير أن أعجب به ووعد بأن يمنحه جنيهين فى كل اسبوع فى مقابل أن يعالجه من مرض الكبد الذى يشكوه ، وبذلك تحسنت حالة الشاب المالية ، واستطاع أن يخرج برفقة ابى بكر الى المنتديات ، وأن يبتاع بعض الملابس

ولم يكن الليل قد محا آية النهار حين كان يتنزه مع صديقه على جسر قصر النيل ، فتبين فى الغسق منظر النيل وبهره وميض الانوار تنعكس على صفحته فالتفت الى صاحبه يخاطبه بقوله :

ـ تأمل النيل كيف ينحدر فى صمت ، بطيئا ، كأنما تكلفه الحركة جهدا بالغا ، وكأنما يأبى الخضوع لناموس الجاذبية . لقد خلعت عليه أسطورة أوزوريس سحرها . غن واضحك . فان ايزيس لترسل بصرها مع تموجات الماء اللينة الرقيقة التى تحكى الانفاس . انها ترنو اليها وهى ترتفع لتغمر أرضنا ، وان اله الشمس ليرقب هذه الارض وهى تنشر بساطها الاخضر لتنمو وتزدهر . هلم .. هلم أطلق البصر فى نواحى التاريخ ، وقف رويدا أمام جلال الآلهة الذين استبدلنا بها آلهة أخرى أصغر منها . ارهف السمع فان التاريخ يردد على مسمعنا وقع حوافر خيل الخليفة عمر وهى تغزو أرض مصر . تجلجل فى حنايا الماضى حيث وقع أقدام الغزاة من جند نابليون ، يا للكبرياء المحطمة ، ان النيل ليبتسم سخرية منا ، انه ينفخ صدره العظيم فيفيض الألم ماء فى واديه ، كأنما قلبه يدفع دمه الساخط الى فيافى الصحراء .. وتلك هى الحياة !

▭

انقضت الايام والنجاح حليفه ، الى أن نال اجازة الطب بتفوق وجعل « طبيب امتياز » فى قصر العينى . وحدث أن كان يمر ذات ليلة بقسم الولادة ، فأدهشه أن يجد نفسه وجها لوجه أمام عزيزة ، والى جانبها طفل حديث الولادة هو ثمرة ترخصها فى الحب مع نجل الباشا

كان العذاب الخفى يطل من حدقتيها ويرن فى صوتها ، والهم مخيما فوق رأسها ، فاستفاقت فى نفسه بغتة عواطف الرحمة والاعزاز والحنو ، وتنبه احساس حبه فاستفظع هذه النهاية المرة لاليفة الصبا . وكصديق أراد أن يبدد ظلمتها ويوقظ جوهر نفسها ، ويشعرها أنه سيظل الى جانبها وأنها ليست واقفة بمعزل فى هذا العالم ، وكطبيب أقبل يصدر الاوامر ، ويهيىء لها الاسباب التى تكفل راحتها وتصون حرمتها

وبعد أيام اقتادها الى بيته حيث رضيت أن تعيش معه فى غرفته التى يسكنها هو وأبو بكر ، فانزلها من قلبه منزلة الاخت ، وجعلت تشرف على شؤونه وتهيىء طعامه ، كان يحاول أن ينفخ فى نفسها روح الطموح التى أولع بها ، ويحرك فكرها الراقد ويفرغ عصارة جهده فى تعهدها والعناية بها ، بيد أن عواطفها كانت اكثر مما تحتمله الانثى : كان أبو بكر ينام فى قسم منفصل فى الغرفة ، أما عزيزة وابراهيم ففى مكان واحد ، فكانت تقوم الى ابراهيم فى الليل تستثير حبه ، وتسعى الى أن تنزل به من علياء حلمه لتدنيه الى الارض ، فكان يصدها ويقول لها : انه أخوها وحاميها . وكان لفرط تعلقه بالفضائل وتمسكه بمثله العليا يصارحها بأن غايته هى أن يوجهها نحو الخير ويهديها الى طريق الصواب ، وفعلا سعى لها لتعمل ممرضة فى « قصر العينى » بيد أنها لم تحسن القيام بعملها هناك

وكان أبو بكر فى أثناء ذلك يطارحها الهوى فى غفلة من صديقه ، وجعل يباغتها ويضيق الخناق عليها ، ولم تستطع أن تقصيه ولا أن تصده عنها ، لان نداء البدن كان

أقوى من نداء القلب عندها ، ولانها لم تقو على المحافظة على جوهر حب ابراهيم الذى يتطلب منها عبادة حارة لتظل دائما عند مثله الاعلى منها

وما كاد ابراهيم يكتشف هذه الخيانة حتى رجف قلبه وعض بناز الندم وارتد بصره كليلا حسيرا ، أما جواب عزيزة وأبى بكر على سخطه فهو أن ابراهيم ليس برجل ، ثم فرا معا !

زالت الغشاوة عن عينيه ، وعرف أنه كان ينظر الى المرأة التى يهواها بعين شاعر وليس بعين طبيب عاشق ، وأدرك كيف كان يكسوها برغم زيفها وتفاهة شأنها ـ من أعماق مثله الاعلى ـ بغلالة من الطهارة والتقديس ، وكيف كان يقضى الايام فى عبادة هذا الصنم الذى حجب بيديه زيفه وتفاهته ويودعها آماله وأحلامه ويتحدث اليها بلغة لا تفهمها ، وما زال هذا شأنه معها حتى وضع يده على قلبها الذى لم يخفق ، ومزق بأنامله الغلالة التى كساها بها ، فتكشفت بنفسها عن زيفها وتفاهتها ، هناك شعر بأنه كان عبد أوهامه وضحية خطئه ، فاسترد منها الغلالة التى خلعها عليها

طلب الى رؤسائه أن يقصوه عن القاهرة فنقل الى مستشفى المنصورة ، وهناك هاله أن يرى كبير الاطباء يرتشى من العاهرات ليتستر على أمراضهن الخبيثة ، ووجد فضائح فى المستشفى يندى لها الجبين خجلا ، فكتب تقريرا حاويا هذه الفضائح ، ورفعه الى مدير قسم المستشفيات . ومرت أسابيع ، ثم قدم مفتش عام الصحة بنفسه ، وبعد أن حقق الشكوى على أسوأ ما يكون ، أمر بنقل الشاكى الى أدفو عقابا له على نقد أعمال رئيسه !

لم يحتمل الحياة فى هذا المستشفى الثانى ، الى أن كان ذات يوم رست فيه باخرة من بواخر السياح بادفو ، وخرج منها طبيب قصد الى مقر ابراهيم ليستعير منه « حقنة مورفين » يسكن بها آلام المريضة فى الباخرة ، بيد أن ابراهيم زار المريضة بنفسه ، واتضح له ان التشخيص الذى وصف به المرض غير مطابق للواقع . وكانت المريضة انجليزية ثرية ، قدمت الى مصر للافادة من جوها الصحو وشمسها فى الشتاء ، فأفضى اليها ابراهيم برأيه فى المرض ، فوثقت به ، واطمأنت اليه . غير أن طبيبها الانجليزى استدعى اثنين من الاطباء الاوربيين من القاهرة ، فقدما على عجل ، ولما عرفا رأى ابراهيم ازدريا تشخيصه واحتقرا أفكاره . الا أن المريضة كانت قد وطدت ثقتها فى ابراهيم ، وطلبت اليه أن يتولى بنفسه علاجها وطردت الآخرين . وشفيت عقب عملية جراحية بسيطة أجراها ابراهيم ، وكافأته بمبلغ اربعمائة جنيه . ولما اتصل هذا النبأ بمفتش صحة المديرية صليب بك طلب لنفسه نصف هذا المبلغ بصفة رشوة حتى يكتب تقريرا طيبا فى صالح ابراهيم ، فرفض هذا العرض وسبه وقدم استقالته من خدمة الحكومة

سافر الى انجلترا حيث أتم برنامجا تكميليا فى الطب ومارس مهنته زهاء عشر سنوات ،

(البقية على صفحة ٤٩٢)

عدو الطفل الاكبر : اسهال الصيف

للدكتور مصطفى الديوانى
الاخصائى فى أمراض الأطفال بكلية الطب

انها والله أرقام تلفت النظر وتدعو الى الروية والتفكير . كدت وأنا استعرضها فى ذهنى أتخيل معركة طاحنة ترخص فيها الارواح كما لم ترخص من قبل أبدا. ولا عجب فأحد طرفيها طفل ساذج ينظر الى الدنيا فى براءة سخية ، لا يبغى ضرا لاحد ، ولا يتوقع اعتداء من أحد .. والطرف الآخر عدو عاصف خاطف يتسلل فى سرية غامضة من عدو غافل أعزل ، فيذيقه ألوان العذاب ، وقد يلقى به الى تهلكة محققة يتقبلها المسكين فى شجاعة البرىء الساذج الذى تغدر به الدنيا أول مرة ، بعد أن لم يكن قد لقى منها من قبل غير حب الوالدين وحنان الزمان وعطفه

اذا تصورنا أن اسهال الصيف يقضى فى مصر على أكثر من ثلث الاطفال الرضع (أى الذين لم يبلغوا السنة الاولى من عمرهم) ، وأنه يسبب فى كل سنة وفاة نحو تسعين ألف طفل تتراوح أعمارهم ما بين الولادة والخمس سنوات . وان هذا الرقم هو فى الواقع نحو نصف وفيات الاطفال أو ربع الوفيات عامة كبارا وصغارا

اذا تصورنا كل هذا أدركنا كيف يعصف اسهال الصيف بأرواح الاطفال ، وعجبنا كيف يعجز الطب الوقائى والعلاجى الحديث عن صيانة أبرأ مخلوقات الله تعالى من مرض خبيث كهذا

ويختلف هذا المرض فى شدته . فهو أحيانا لا يتعدى وعكة طارئة ، تكثر فيها عدد مرات التبرز وترتفع الحرارة قليلا ويقل نشاط الطفل عن مستواه العادى وتنتفخ بطنه ، وقد يتقيأ بكثرة ، وتنتابه آلام بطنية تجعله يصرخ بشدة ، ثم لا تلبث العاصفة أن تهدأ ، وتزول الاعراض فى ساعات أو أيام . ولكن يحدث أحيانا فى الحالات التى تنتهى بسلام أن يتراخى الوالدان فى نظام غذاء الطفل ، فتنتكس حالته فجأة أشد بكثير مما كانت فى بادىء الامر ، وتنهار مقاومة المريض بسرعة ، فيقضى فى يوم أو بعض اليوم بعد كفاح مرير قصير يقاسى فيه هو ومن حوله آلاما جسمية ونفسية هائلة ، سيأتى وصفها فيما بعد

أما الحالات الشديدة فقد تبدو فى بادىء الامر بسيطة ثم تتطور فجأة ، أو قد تبدأ عاصفة كاسحة فتقضى على الطفل فى ساعات أو أيام قلائل . وكثيرا ما سمعنا عن اطفال كانوا يلهون ويمرحون فى الصباح ، فاذا بهم فى المساء على حافة القبر يعانون السكرات نتيجة اسهال فجائى حاد . وأول ما يلاحظ فى مثل هذه الحالات قىء مستعص يعاود الطفل كلما تناول أى سائل أو غذاء . وتكثر عدد مرات التبرز ويتغير لون البراز

ورائحته . ولكن حذار من الاعتماد كلية على شكل البراز . فقد يحدث فى الحالات السيئة أن يتبرز الطفل مرتين أو ثلاثا ، وقد لا تدل رائحة البراز على وجود عفونة أو تخمر ، بينما ينحدر الطفل سريعا نحو الهاوية قبل أن يشخص الداء على حقيقته ، فيضيع الطفل نتيجة تردد لا مبرر له ، فان لهذا المرض علامات فى بقية أجزاء الجسم ان خفيت على الشخص العادى لا تخفى على الطبيب . والويل للطفل اذا هادن طبيبه المرض ولو ساعات . فان بقية الاعراض تأخذ فى الظهور سريعا ، فينقص وزنه بدرجة لا مثيل لها فى أى مرض آخر من أمراض الطفولة ، وتغور عيناه وتجف شفتاه وينكمش جلده وتزيد سرعة تنفسه ، ويطول به النزع ساعات أو أياما ترتفع فى أثنائها حرارته ارتفاعا كبيرا ، وتظهر على وجهه كل معانى الألم ، فيحدق بعينيه فيمن حوله مستنجدا . وقد تنتابه تشنجات تنذر بخطر مبين يعقبها سبات عميق ينتهى عادة بالموت

ترى ما سر هذا العدو الأكبر الذى ينال من الطفل بمثل هذه السهولة ؟ نحن الاطباء نقر ونعترف أن اسهال الاطفال لا يزال لغزا غامضا لم نتوصل بعد الى استكشاف جرثومته واستئصال شأفتها . وهو من الامراض التى تنطبق عليها قاعدة (الوقاية خير من العلاج) ولا بأس من سرد بعض طرق الوقاية التى يفيد اتباعها فى تجنيب الطفل ويلات هو فى غنى عنها . فالمعروف أن الاسهال يكثر فى الاطفال الذين يتغذون تغذية صناعية ، فعلينا أن نشجع الام بقدر الامكان على ارضاع طفلها أو تحضر له مرضعا اذا استحال على الام الاستمرار فى ارضاعه ، وخاصة اذا كان الجو حارا لانه يحسن تجنب الالبان العادية فى فصل الصيف ، اذ يكثر تلوثها بالميكروبات . واذا لم يكن هناك مفر من الالتجاء الى لبن خارجى فتفضل ألبان العلب لخلوها من الميكروبات وسرعة هضمها . كما تجب العناية بغلى أدوات الرضاعة من زجاجات وحلمات . ويجب أن يرضع الطفل بانتظام كل ثلاث ساعات . ولمكافحة الذباب أهمية خاصة فى هذا المرض ، فيجب وضع الغذاء والادوات المستعملة فى تحضيره فى أماكن لا يصل اليها الذباب

ومن أهم طرق الوقاية تجنب فطام الطفل فى فصل الصيف مهما كان عمره ، والعناية بعلاج الاسهال مهما كان بسيطا ، فان الحالات البسيطة قد تصبح شديدة اذا أهمل علاجها . وبهذه المناسبة يجب أن أقف موقف الدفاع عن متهم طالما ألصقت به تهم كثيرة وخطيرة ، وأعنى به التسنين ، فكثيرا ما تأتى الامهات باطفالهن وهم فى النزع ، معتقدات أن ما به ناتج عن بروز سن تصادف حدوثه قبيل أو أثناء اصابة الطفل بالمرض ، فتتراخى الام فى علاج طفلها اعتمادا على ان ما به عارض لا يلبث أن يزول . فاذا اشتدت حالته حملته الى الطبيب حين لا ينفع الدواء . فيجب أن أكرر هنا مشددا أن معظم الاطفال الاصحاء تظهر أسنانهم دون أن يصيبهم مرض ما ، ولا يصح أن تنسب الاعراض الشديدة الى مجرد التسنين ، بل يجب معالجتها كأمراض قائمة بذاتها لا علاقة لها باسنان تصادف بروزها مع ظهور أعراض المرض

ويجدر بى أن أذكر أن الاسهال والحر ضدان لا يجتمعان . فكثيرا ما لاحظت أن الام تعمد الى الاكثار من ملابس الطفل الداخلية والخارجية ، ظنا منها أن فى زيادة تدفئته فائدة تعود عليه .. والواقع غير ذلك فان الرأى الحديث يميل الى تخفيف ملابس الطفل ووضعه فى أرطب غرفة بالمنزل ، بل وأكثر من ذلك الى تسليط مروحة كهربائية على لوح من الثلج فى غرفة المريض ، لان ذوبان الثلج وتشبع جو الغرفة بالرطوبة يقلل من فقدان الماء من جسم الطفل عن طريق جلده ، والطفل يفقد الماء الكثير فى برازه المتكرر ، فاذا قللنا ما يفقده عن طريق العرق والتبخر من سطح الجسم ، وفر ذلك عليه متاعب جمة لان ظاهرة (الجفاف) التى تنتج عن الاسهال الشديد ، والتى يموت الطفل بسببها ، تقل كثيرا اذا وفرنا ما يفقده عن طريق جلده . ومن أحدث طرق العلاج وضع الطفل فى غرفة خاصة مجهزة بوسائل التكييف الهوائى الكهربائى ، فيتمتع بجو بارد فى أشهر الصيف الحارة ، وكم أنقذت هذه الغرف من أرواح . وقد أنشئت غرفة من هذا النوع بمستشفى فؤاد الاول للاطفال بالقاهرة ، ونجح العلاج بوساطتها فى شفاء حالات كثيرة كانت فى درجة اليأس

ولا بأس من ذكر بعض قواعد عامة لعلاج اسهال الصيف . فأول شىء يجب عمله هو أن نمنع الطفل من تناول أى غذاء ، سواء كان ذلك لبن أمه أو لبنا خارجيا ، ويعطى بدل ذلك منقوع الياسون أو الكراوية أو ماء الارز لمدة تتراوح بين اثنتى عشرة ساعة وأربع وعشرين ساعة ، وذلك الى أن يفحصه الطبيب ، ويجب أن يكون ذلك فى أقرب فرصة ، لانه اذا لم يتمتع الطفل من أول الامر باشراف طبى دقيق ، قد تتطور الحالة الى الدور الاسوأ الذى سبق الاسهاب فى وصفه . وتتدرج بعد ذلك فى غذاء الطفل ، فاذا كان يرضع من ثدى والدته ، نسمح له أن يرضع لمدة ثلاث دقائق ، وتزاد المدة بمتوسط دقيقتين كل يوم حتى نصل به الى المدة القانونية ، وهى من خمس عشرة دقيقة الى عشرين . أما فى حالة الاطفال الذين يتغذون تغذية صناعية ، فاننا نبدأ بالالبان الزلالية ، ثم نتدرج الى الالبان المنزوع نصف قشدتها ، وأخيرا الى الالبان الكاملة القشدة . ويكفى هذا النظام الغذائى عادة فى حالات الاسهال البسيط غير المصحوب بأعراض تسمم عامة . ولا مانع من اعطاء الطفل مطهرا لطيفا مثل « اللاكتوزان » سواء السائل منه أو المجفف . واذا أصيب الطفل بمغص تدفأ بطنه بقربة ساخنة ويعطى قليلا من ماء النعناع أو الزهر . أما الحالات الشديدة فان الطبيب ينظر اليها كأنه مقدم على معركة ضد الموت بعينه ، وهى تتطلب منه مجهودا جبارا . ومن أهم الصعوبات التى تواجهه مشكلة التغذية ، فالطفل فى هذه الحالة يتقيأ كل ما يعطى له سواء لبن الثدى أو غيره . وقد يساعد على الاقلال من القىء عصر لبن الثدى فى زجاجة نظيفة ووضعها على الثلج حتى تبرد محتوياتها ، ثم يعطى الطفل بالملعقة مقادير صغيرة ، كملء ملعقة أو ملعقتين كل ساعة مثلا ، فاذا نجحنا فى تغذية الطفل ساعده ذلك على اجتياز المرحلة الخطرة . ويجب

فى مثل هذه الحالات الشديدة ان نعمل المستحيل للحصول على لبن آدمى أو لبن حمارة ، اذ المعلوم أن لبن الحمارة هو أقرب الالبان من حيث التركيب الى اللبن الآدمى . كما يجب فى نفس الوقت أن نحقن الطفل بالجلوكوز ومحلول الملح ، لتعوض عليه ما يفقده من السوائل والأملاح المعدنية فى القىء والبراز . ولمقاومة هبوط الدورة الدموية يحقن المريض بالكافور أو الكورامين

وقد ابتدعت أخيرا وسيلة لحقن السوائل فى الوريد بطريقة بطيئة ، فينساب السائل نقطة بعد نقطة بوساطة جهاز خاص ليلا ونهارا لبضعة أيام متتالية ، وذلك حتى تتحسن الحالة . وقد ساعدت هذه الطريقة على انقاذ حالات كثيرة . وهكذا يشمر الطب الحديث عن ساعده ، محاولا قهر هذا العدو الاكبر ، فعساه أن يفلح

مصطفى الديواني

الدكتور ابراهيم

[بقية المنشور على صفحة ٤٨٨]

فى الريف الانجليزى . وكنتيجة لاسرافه فى العمل وعدم ملاءمة الجو لصحته أصيب بالدرن ، فاستصوب العودة الى مصر ، وفى طريقه الى وطنه هبط باريس ، وخطر له ذات مساء أن يروح عن نفسه فيرتاد أحد الملاهى ، وهناك شاهد عزيزة ، حبيبة الصبا وهى تعتلى المسرح ، تهز أردافها وترقص رقصة البطن !

كانت ذكرى عزيزة كالزهرة النضيرة التى توضع بين صفحات كتاب مجهول ثم يعثر عليها صاحبها مصادفة بعد حين ، فاذا بها مهشمة ، ذابلة ، ولكنها على كل حال لا تزال تحتفظ بأريجها القديم . ولمحته فى زاوية من زوايا المرقص فأتت اليه شاكية شاهقة بدموعها ، واقتادته الى ركن قصى وقالت له :

– لم أكن أود أن يقع نظرك على فى تلك البؤرة بين عشرات الغانيات !

وغفر لها ابراهيم بقلبه الطيب ما تقدم من ذنبها وما تأخر ، وطلب اليها أن تعود برفقته الى مصر ، فرفضت أن تستصحبه فى ثياب المستهترة الخليعة . وانه لفى ذات يوم يرقب مقدمها فى غرفته بالفندق وقد كاد اليأس يستولى عليه ، فجعل يروح ويغدو فى الغرفة كحيوان جريح داخل قفصه ويرصد الساعات ويتعجل الوقت ويخاطب أفكاره ويهذى كالمحموم ، واذا بالباب يطرق ، فوجم وتولته رعدة خفيفة ، ثم دلفت عزيزة وقد ارتدت ثياب المرضات ، ثم تقدمت منه وعقدت ذراعيها حول عنقه فى صمت تتخلله التنهدات الحارة ، وراحت تستفسر عينيه عن سر حبه العميق وعما بقى منه . ولما أزفت ساعة الرحيل رضخت لارادته ، وعادت الى مصر برفقته ليموت بين ذراعيها فى أرض الوطن

محمد امين حسونة

حديث صحفى

برنارد شو يتحدث عما بعد الحرب

ما من رجل له من الحق فى أن ينظر فى مستقبل العالم ويكشف عن صوره وأوضاعه أكثر مما لجورج برنارد شو . فقد دلت كتاباته السابقة أنه كان على حق فى كثير من تنبؤاته وتوقعاته ، مما يحملنى على أن أراه أصح المفكرين المعاصرين رأيا فيما ينتظر أن تتجه اليه الحضارة الانسانية

وقد كانت فرصة طيبة سنحت لى دون تدبير ، فظفرت فيها من الكاتب الاكبر بمقابلة باشة رقيقة وحديث طلق صريح . ولعله لم يأذن لى بهذه المقابلة ـ وهو الضنين على الصحفيين بمقابلاته وأحاديثه ـ الا لانى صحفى أجنبى وفدت الى انجلترا من المكسيك . وقد لقيته أول ما لقيته وهو يسير فى أحد شوارع لندن ، فى تلك الهيئة وتلك المشية التى تجعله متجه أنظار الناس جميعا ، فتقدمت اليه بما هو معهود فى الصحفى من الجرأة حين يرى أمام عينيه فرصة من أثمن فرص العمل الصحفى ، فقلت :

ـ مستر برنارد شو ، فيما أعتقد ؟

فنظر الى بعينيه الزرقاوين النافذتين ، وبدأ يبتسم ابتسامة هادئة فى بطء وأناة ، وقال : يظهر أنى كذلك !

وشعرت أنى كسبت الجولة الاولى فى معركة الحديث الصحفى ، وسرت الى جواره محاولا أن أحسن الكلام ما استطعت بتلك اللهجة الانجليزية التى أسيء نطقها . وقد اعتذرت له عن « انجليزيتى الرديئة » ، فابتسم وقال متعجبا :

ـ انجليزيتك الرديئة ! انها رديئة حقا .. ولكنها ـ على أية حال ـ خير وأصح من تلك التى يتكلمها بعض الانجليز المثقفين[1]

وقد شجعنى هذا على أن أسأله رأيه فى الحرب ، فقال :

ـ أتظن أن مشاكل عالم يخوض بحارا من الدماء وأجواء من النيران يمكن أن تبحث فى كلمات قليلة يهذر بها وسط الطريق ؟ هاك عنوانى . وتعال غدا لنتحدث معا ، ولعلى أستطيع أن أجيب عن كل سؤال من أسئلتك فى عشر كلمات أضمنها خلاصة رأيى

وكان مستر شو سمحا كريما ، فاستقبلنى فى صباح اليوم التالى ، وأخذ كل منا يتحدث

---

(١) يرى برنارد شو أن الانجليز لم يتعلموا حتى الآن طريقة نطق اللغة الانجليزية نطقا صحيحا ويقول فى مقدمة قصته «بيجماليون» انه ما من انجليزى يفتح فمه بكلمة انجليزية الا ويجد انجليزيا آخر يضحك ساخرا من نطقه ولهجته ، لان الانجليز لم يتفقوا بعد على طريقة التكلم بلغتهم (الهلال)

بانجليزيته الخاصة به : أنا بانجليزيتي الرديئة ، وهو بانجليزيته الجزلة ، اللبقة ، البارعة
وتقابلنا ثانية بعد ظهر ذلك اليوم ، وأجاب عن اسئلتي لا في عشر كلمات ، بل في مئات من الكلمات كتبها بنفسه فبدت لي كرموز من رموز اللغات الميتة البائدة التي لايفهمها الا علماء الآثار . ولكنه قال لي : ان هذه هي طريقته في الاختزال. ثم كتب هذه الكلمات بيديه على الآلة الكاتبة ، وصحح ما كتب ونقحه كثيرا

وبعد ذلك أخذنا نتحدث ، وأشهد أني لم أفهم من الكلمات الالف التي نطقها أكثر من مائة وبعض مائة من الكلمات .. وبعد أن انتهينا من الحديث ، خضع في صبر كصبر القديسين لعملية التصوير ، فالتقطت له بضع صور تمثله في مكتبه ، وأمام آلته الكاتبة ، ومع سكرتيرته العانس ..

▭

سألت مستر شو :

ـ هل ترى بعد أن تنتهي هذه الحرب أننا سنقول ان كل ما أريق فيها من الدماء الطامية ، وكل ما أدت اليه من الدمار المروع ، يوازي ما اسفرت عنه من نتائج وخيرات ؟

فقال الحكيم :

« الى أن تخرج الحرب نتائجها النهائية ، وتتبين هذه النتائج في وضوح وجلاء ، لن يستطيع أي انسان أن يقول ما اذا كانت هذه الحرب تستحق ما أريق فيها من دماء وما وقع من خراب. ولكن يجب أن نذكر دائما أن الحروب جميعا هي مضيعة وخسارة ، وهي قسوة ووحشية ، وهي تقويض وتدمير ، وهي افساد لكل خلق انساني وتحطيم لكل فضيلة انسانية . وهي بعد ذلك ليست دائما من الامور المحتومة التي لا مفر منها ، بل في وسع العقل الانساني الراجح أن يتفاداها ويتجنبها

« ومع كل هذه السيئات والشرور فانا لا أنكر أن الحرب تؤدي الى تغييرات اجتماعية خطيرة لا سبيل اليها الا تحت ضغط الحرب القاهر العنيف . فالحرب الماضية قضت على أربع امبراطوريات كان المحتمل أن تعيش أربعة قرون أخرى ، لو أن السلم استمر طوال هذه القرون . أما هل كان القضاء على هذه الامبراطوريات يستحق ما سفح من دماء الملايين وما انتشر في الآفاق من أشباح الخراب ، فهذا يتوقف على مدى نجاح الجمهوريات الجديدة التي خلفت تلك الامبراطوريات القديمة في تحسين أمور شعوبها والارتقاء بها الى مستوى أطيب وأعلى من مستواها الماضي

« على اني ما زلت أرى أنه حتى ولو نجحت هذه الجمهوريات التي أوجدتها الحرب في اصلاح أمر شعوبها ، فان احداث هذا الاصلاح بطريق السلم لا بطريق الحرب ، وبوسائل الحسنى لا وسائل العنف ، أقرب الى العقل والحكمة ، وأدنى الى الخير والفائدة»

▭

سألت الحكيم بعد ذلك أيرى ما يراه بعض الناس ، من أن الصراع لن ينتهى الا وفى أعقابه ثورة اجتماعية كاملة تقلب الاوضاع القائمة وتنشىء عالما جديدا ؟

فأجابنى : « ليس هذا أمرا محتوما . فاذا تبصرت الطبقات الحاكمة والممتازة فى الامر رويا ، وأفسحت الطريق للطبقات المحكومة المحرومة لتنال بعضا من الحقوق والامتيازات، ومنحتها تعويضا مقبولا عما تستمتع به من الامتيازات والسلطات ، فلن يكون ثمة اضطراب كبير يمكن أن تطلق عليه كلمة الثورة

« أما اذا أصرت تلك الطبقات الممتازة على أن تحتكر لنفسها كل حق وكل امتياز ، فان نظرية كارل ماركس فى صراع الطبقات لا بد أن تدخل فى حيز التنفيذ ، ولا بد من أن تقوم حروب أهلية كتلك الحرب التى قامت فى أسبانيا منذ سنوات ، والتى لم تكن فى جوهرها الا صراعا بين الطبقة الحاكمة الغنية والطبقة المحكومة المحرومة »

وكان السؤال الذى يتبع سؤالى السابق فى الترتيب المنطقى هو : « هل تظن أن الشيوعية هى الباب الوحيد الذى تستطيع الانسانية أن تفتحه لتنفذ منه الى حقوقها ؟

فقال : « الشيوعية ذاتها ليست بابا واحدا . انها مائة باب »

وبدأ يتكلم فى نغمة الرجل المؤمن ايمانا عميقا بما يقول : « وهذه الابواب ليست موصدة كلها ولا مفتوحة كلها . فقد فتحنا كثيرا منها فى بلادنا هذه ، فنحن نسير على نظام شيوعى فى كثير من مرافق حياتنا الاقتصادية . فطرقنا ، وقناطرنا ، ونظام اضاءة الشوارع ، وامداد المنازل بالمياه ، ونظام الشرطة ، والجيش والبحرية والطيران ـ كل هذه النواحى تقوم فى بلادنا على أساس الشيوعية ـ أعنى امتلاك الدولة لها واشرافها على أعمالها . ويمكن الانتقال بهذا النظام من مرفق الى مرفق دون أن تفرض الشيوعية عليها جميعا بضربة واحدة مفاجئة

« والشيوعية هى السياسة الرسمية للاتحاد السوفيتى ، ومع ذلك فان فى روسيا اليوم ملكية خاصة ومنشآت شخصية أكثر مما كان فيها فى عهد القيصرية ! فليست العبرة بالاسم الذى نطلقه على أنظمتنا ، بل بالروح التى تطبق بها هذه الانظمة »

(خلاصة مقال للصحفى المكسيكى اوكتافيو نوفارو فى صحيفة بكتشر بوست)

■ بين المواطنين عادة ثلاث طبقات ، طبقة الاغنياء الذين يملكون الكثير ولكنهم يرغبون دواما فى المزيد ، وطبقة الفقراء الذين لا يملكون شيئا ولذلك يأكل قلوبهم الحسد والبغض للاثرياء ، وبين هاتين الطبقتين فريق ثالث يحفظ التوازن ، تدين له الدول بسلامتها وصيانة الأمن فيها

يوروبيدس

في التشريع المالى الحديث

ضريبة الارباح التجارية والصناعية

بقلم الدكتور يوسف قابيل

يتلخص الهدف الرئيسى لكل تشريع مالى حديث فى العمل على زيادة موارد الدولة – فى حدود الميسور – تمشيا مع تطور مطالب الحضارة فيها الى جانب تبسيط اجراءات تحصيل أموال هذه الموارد

والموارد المالية فى الدولة المصرية متعددة متشعبة ، الا اننا سنقتصر بحثنا اليوم على « ضريبة الارباح التجارية والصناعية » على اعتبار أنها أهم مورد للضريبة فى مصر ، بما لا يقاس فى شىء بالموارد الضرائبية الاخرى ، كضرائب المهن الحرة والقيم المنقولة وكسب العمل

يقضى التشريع المالى المعمول به فى مصر الآن بأن تجبى ضريبة الارباح التجارية والصناعية على أساس « صافى الربح » . وقد أثبتت التجربة العملية أن مراجعة حساب الربح الصافى لكافة الممولين فى مصر – مراجعة دقيقة – تتعذر وسائلها فى الوقت الحاضر . وانه ليس من الميسور أيضا العمل على توافر هذه الوسائل كاملة فى مستقبل قريب ، ما دامت هذه المراجعة وما يتصل بها من فروع متشعبة تستلزم توفر عدد من الموظفين الفنيين يبلغ أضعاف العدد المتيسر الآن ، الشىء الذى يصعب تداركه فى الوقت الراهن على الوجه الاكمل . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك الوضع غير العادى ، أن اضطر موظفو مصلحة الضرائب الى تخفيف هذا العبء عن كاهلهم ، باللجوء إلى وسيلة « التقدير » الذى يغلب ما يكون مقرونا بغبن لاحد الطرفين : الممول أو مالية الدولة

وقد اتضح أيضا أن أكبر الصعوبات التى تعترض سرعة انجاز الاعمال وتوخى دقتها، تتركز فى مشقة استخلاص « صافى الربح » الذى يتطلب : مراجعة حساب الاستهلاكات بنسبها المتباينة ، والاحتياطى على مختلف أنواعه – ما يعترف به منه وما لا يعترف – ثم المصروفات العامة على اختلاف شعبها والتى كثيرا ما يلجأ الممولون الى اصطناع رفع مستواها وتضخيمها بغير حق ، محاولين بذلك الاقلال من قيمة « الربح الصافى » الذى تحسب الضريبة على أساسه ، أى أن الضريبة تأتى فى المرتبة الاخيرة بعد خصم جميع الاستقطاعات والمصروفات التى أشرنا اليها

والضريبة لا تخرج فى تكييفها القانونى اجمالا عن نظريات ثلاث :

١ ـ أنها تجبى مقابل تأمين الدولة لاموال الافراد وأرواحهم ـ أو

٢ ـ أنها تعتبر ثمنا لقيام الدولة بالخدمات التى تؤديها بصفة عامة للافراد وليس للتأمين فقط ـ أو

٣ ـ أنها تجبى لحاجة الدولة الضرورية اليها تمكينا لها من القيام بأعباء الدولة العامة ـ أى أن الضريبة ضرورة حتمية لحفظ كيان الدولة الاجتماعى

فسواء أخذنا بوجهة النظر الاولى « التأمين » أو الثانية « مقابل الخدمات العامة » أو الثالثة « ان الضريبة ضرورة حتمية لحفظ كيان الدولة الاجتماعى » نجد أن الضريبة لا تخرج عن كونها تقديم مال نقدى يلزم الافراد بأدائه لتغطية مصروفات الدولة التى تنفق فى الصالح العام ولا غنى للدولة عنها . ولا يجوز بذلك أن تفضل عليها أية نفقات أخرى للممولين ، ووجب أن توضع الضريبة بهذا فى المكان الاول عند الموازنة بينها وبين نفقات الممولين الاخرى

يأتى بعد ذلك أن ايراد الضرائب أصبح يكون الآن جزءا هاما من ميزانية الدولة ، وستزداد هذه الاهمية على التوالى تمشيا مع مبدأ كفاية النفس بالنفس « Autarkie » الذى تنشده معظم الدول فى سياستها الاقتصادية العليا فى العصر الحاضر ، والذى يتلخص فى الاستغناء قدر الطاقة عن استيراد المنتجات الاجنبية والاستعاضة عنها بالمنتجات المحلية ـ الشىء الذى سيكون من نتائجه الحتمية نقص ايراد الجمارك على التدريج ، وزيادة الاهتمام بايراد الضرائب فى الجانب الآخر ، مما يؤيد وجوب تفضيل الضريبة ـ على اعتبار أنها حجر الزاوية فى ميزانية الدولة ـ على كل نفقات أخرى للممولين كما أشرنا

وما دمنا فى صدد الميزانية ، نقول ان حساب « ضريبة الارباح التجارية والصناعية فى وضعه الراهن ـ أى على أساس « صافى الربح » لا يساعد مطلقا ـ عند وضع مشروع الميزانية ـ على دقة تحديد حصيلة ضريبة هذه الارباح حتى بما يقرب من حقيقتها ـ وذلك تبعا لتعرض « صافى الربح » لاشد الذبذبات صعودا وهبوطا تمشيا مع درجة نشاط ادارة المنشآت وبراعتها فى تدبير شؤونها المالية ، وتجنبها قدر الطاقة للمغامرات والمضاربات التى لا تبغى لمنشآت تقدر واجبها نحو الاقتصاد القومى حق قدره . اذ بينما نجد أن منشأة بعينها حققت ربحا صافيا قدره خمسة آلاف جنيه مثلا فى عام ١٩٤٠ ، نشاهد أن هذه المنشأة نفسها حققت خسارة قدرها ألف جنيه مثلا فى عام ١٩٤١ ـ أى بفارق قدره ستة آلاف جنيه بين عام وآخر . وهو تفاوت عنيف يدعو تكراره وتفشيه بين مختلف المنشآت الى زعزعة أركان ميزانية الدولة ، ويرجع معظم السبب فيه الى تهاون صاحب المنشأة فى حسن توجيه المصروفات العامة ، أو لنجاحه فى تضليل المصلحة فى اصطناع رفع مستوى هذه المصروفات وما فى حكمها من الاستقطاعات التى تخصم من مجمل الربح لاستخلاص صافيه ـ هذا من جهة

ومن جهة أخرى نجد أن فى قصر ضريبة الارباح التجارية على صافى الربح شبه معاقبة للممولين المجتهدين الشرفاء الذين يحققون أرباحا صافية حسنة ، تشاركهم فيها الدولة عن طريق فرض الضريبة عليهم ـ على حين نجد أن طائفة الممولين غير النشطين وغير المتحلين بأخلاق تجارية حسنة ، والذين لا يحققون أرباحا صافية تبعا لتقصيرهم فى ادارة أعمالهم على الوجه السليم .. يكافأون على ذلك بألا يؤدوا ضريبة الى الدولة التى يتمتعون بكل خدماتها العامة كل التمتع ـ وتكون النتيجة العملية لهذا الوضع الشاذ أن ينوء الممولون النشطون الشرفاء بعبء الضريبة وحدهم ، على حين يعفى المقصرون أو المضللون من أدائها ! وهو غبن واضح يتنافى مع مبدأ عدالة توزيع الضريبة الذى يتوخاه كل تشريع مالى حديث

ومن هنا تتضح الخسارة المالية والادبية التى تلحق مالية الدولة المصرية من جراء جباية ضريبة الارباح التجارية والصناعية فيها على أساس الربح الصافى للممول ، أى الفائض من مجمل ربحه بعد خصم جميع المصروفات التى لا تدانى فى القياس الصحيح حاجة الدولة لحفظ كيانها الاجتماعى ، وعلى الاخص وأنه لا بقاء لمنشأة من المنشآت بغير حماية الدولة لها

ازاء ذلك .. نعتقد أن الطريقة المثلى لتوقى هذه الاضرار ، هى وضع ضريبة الارباح التجارية والصناعية فى مكانتها الطبيعية الممتازة ، وتقديمها على كل ما عداها من الاستقطاعات والمصروفات ، وحسابها تبعا لذلك على أساس : « مجمل الربح » وليس على أساس صافيه للاسباب التى حاولنا ايضاحها ـ وتدخل الضريبة بذلك ضمن المصروفات التحميلية للمنشأة

هذا الى ما فى الاخذ بمقترح حساب الضريبة المذكورة على أساس « مجمل الربح » من تنظيم العمل المستعصى الذى يثقل كاهل مصلحة الضرائب تبعا لقلة عدد الموظفين الفنيين بالقياس الى كثرة العمل المسند اليهم . الشىء الذى ربما ترتب عليه ضياع جزء لا يستهان به من أموال الدولة ، بحكم مضى المدة القانونية على تحصيلها ، وسقوط حق الدولة فى ذلك التحصيل ، فضلا عن صعوبة توخى الدقة ازاء كثرة العمل

على حين أن عملية « مجمل الربح » سوف لا تحتاج الا الى مراجعة حساب رئيسى واحد ، هو « حساب المتاجرة » الذى يشمل فى جوهره أربعة أرقام رئيسية فقط هى :

١ ـ حساب بضاعة أول المدة ٢ ـ المشتريات
٣ ـ حساب بضاعة آخر المدة ٤ ـ المبيعات

هذا الى جانب مراجعة يسيرة لبعض أبواب الميزانية العمومية للتثبت من مدى صحة بضاعة آخر المدة وأولها فى السنوات المتعاقبة

وهاتان العمليتان هما من البساطة بحيث يستطيع موظف المصلحة الفنى أن يراجع بضعة حسابات منها فى وقت تستغرقه مراجعة حساب واحد موضوع على أساس صافى الربح . وذلك فضلا عن توفر الدقة التى يسهل توخيها عند تبسيط الاجراءات التى نرمى الى تحقيقها ، حتى تصل مصلحة الضرائب بذلك الى تحقيق غرضين هامين لا غنى

لها عنهما ، وهما :

١ ـ انجاز مراجعة جميع الحسابات فى أوقاتها بالدقة اللازمة

٢ ـ ضمان تحصيل أموال الضرائب كاملة دون غبن للدولة أو الممول

وبهذه المناسبة نشير الى أن الدول ذات التشريع المالى الحديث تتوخى دواما اختيار الموارد المالية العامة ذات الايراد الثابت قدر المستطاع ، تجنبا لكل ذبذبة يكون من شأنها زعزعة أركان ميزانيتها ، فلا تقتصر هذه الدول على اتخاذ ربح المنشأة وحده أساسا لتحديد الضريبة ، بل تتناول أيضا رأسمال المنشأة عند تحديد ذلك الأساس ، وذلك لاعتبارها ضريبة الارباح التجارية والصناعية : ضريبة عينية Real Tax لا يجوز أن تتأثر حصيلتها كثيرا بنشاط دافعها ، بل يجب أن تعتمد فى نفس الوقت على مورد ثابت هو « رأس المال » توخيا لثبات عناصر ميزانية الدولة قدر الطاقة كما أسلفنا . وذلك فضلا عن أن الضريبة على رأس المال هذه محفزة للنشاط الاقتصادى

ولا يعزب عن البال أن ضريبة رأس المال هذه التى تجبيها الدول الآنفة الذكر ، هى ذات « سعر » طفيف جدا يؤدى من رأس المال المتداول ، ولا يتجاوز اثنين فى الالف من قيمته . فأصبحت هذه الضريبة بذلك « مصروفا اضافيا » من مصروفات المنشأة، لا يمس رأسمالها الثابت ولا يثقل كاهل الممول

ومن هنا يتضح أن الاخذ بضريبة رأس المال الطفيفة هذه فى مصر ، سيساعد كثيرا على تحقيق تثبيت موارد ميزانية الدولة من جهة ، ثم على زيادة الايراد العام من جهة أخرى

وبمناسبة الكلام على زيادة الايراد العام ، نجد أن الدول الحديثة التشريع المالى التى أشرنا اليها ، قد فرضت أيضا ضريبة على « رقم المبيعات » Chiffre d'affaires حدد مداها فى كثير من هذه الدول بسعر ٢ ./. من مجموع المبيعات التى تحققها المنشآت التجارية والصناعية فيها ـ ومعلوم أنها ضريبة سهلة الجباية والمراجعة ، لا تكلف مصالح الضرائب أى مجهود اضافى يذكر ، وسرعان ما يألفها الجمهور ولا يتذمر منها

واذا راعينا أن دورة رأس المال عند تحقيق المبيعات فى جميع المنشآت المذكورة تتراوح بين دورتين وست دورات على الاقل فى السنة تبعا لطبيعة السلع المعروضة ، أى بمتوسط قدره أربع دورات رأسمالية فى السنة الواحدة ، لاتضحت لنا الفائدة المالية العظمى التى ستعود على مالية الدولة المصرية اذا أخذت هى الاخرى ـ أسوة بغيرها من الدول ـ بضريبة « رقم المبيعات » أيضا . وعلى الاخص وأن مصر أحوج ما تكون الآن الى مثل هذه الموارد الاضافية السهلة الاداء ، السهلة الجباية ، استعدادا لمواجهة أعباء الاصلاح الضخمة التى لا معدى عنها فى جميع مناحى الحياة المصرية العامة على أثر انتهاء الحرب العالمية وما يتلوها من سنين

يوسف قابيل

حقائق عن مرض الربو

لم يكتشف بعد دواء ناجع لمرض الربو الذى يعانيه ملايين الناس فى أنحاء العالم . غير أن البحوث العلمية الحديثة قد بددت كثيرا من الغموض الذى ظل يحيط بهذا المرض الوبيل . وقد أدت هذه البحوث الى جلاء الحقائق الثلاث الآتية :

أولا ـ ان مرض الربو هو من الامراض الوراثية والاكتسابية فى آن واحد

ثانيا ـ ان العامل الرئيسى فى حياة المريض بالربو هو والداه وما يتعهدانه به من طرق التربية

ثالثا ـ قد يمكن شفاء الطفل المصاب بالربو اذا لم يبلغ الثامنة من عمره بعد . أما بعد هذه السن فعلاجه عسير . أما المرضى الكبار الذين أزمن معهم المرض فليس لهم علاج قاطع

ويتوقف ازمان المرض مع الطفل أو شفاؤه منه على الطريقة التى تتكون بها شخصيته ، ومن ثم وجب على الآباء والامهات أن يرقبوا أطفالهم المرضى بالربو ، وألا يساعدوا عوامل الضعف النفسانى التى تزيد من ذلك المرض ثباتا وشدة

وقبل أن ندل الوالدين على الطريقة التى ينشئان عليها طفلهما المريض نذكر نبذة عن المرض ذاته

ان أهم أعراض الربو هو انقباض الشعبتين وانتفاخ الرئتين حتى اذا أحس المريض بدء النوبة شعر بصعوبة فى الشهيق (اخراج النفس) . وبهذا يختلف الربو عن جميع الأمراض الصدرية الاخرى التى يشعر معها المريض بصعوبة فى الزفير (ادخال النفس) وتنشأ تلك الحالة عند مرضى الربو من خلل فى الشعبتين ، وكثيرا ما يكون هذا الخلل وراثيا ، بل لا يبعد أن يكون وراثيا فى جميع الاحوال ، وان خلا منه جيل أو جيلان فى الأسرة

وقد لحظ الاخصائيون الذين درسوا أعراض الربو عند عدد كبير من الاطفال أنه يجتمع دائما مع حساسية فائقة فى البشرة . وراع أحد كبار الاطباء فى مستشفى بلندن أن كثيرا من مرضى الربو الذين يجيئون اليه عولجوا مدة قبل ذلك من مرض الاكزيما الجلدى !

وهناك علامة أخرى قد تفيد الطبيب فى اكتشاف ربو كامن بالطفل ، وهى استهدافه للاصابة بالبرد أو بالنزلات الشعبية بسهولة

ولحظ أطباء آخرون أن الربو يجتمع عند الطفل عادة مع مزاج عصبى حساس ، فهو أسرع تأثرا من لداته الاطفال

وتهمنا هذه الظاهرة الاخيرة بنوع خاص لانها تدلنا على أثر العامل النفسانى فى تربية الطفل المريض بالربو . فأنت اذا أحدثت توترا عصبيا لدى طفل ذى استعداد للربو ، فانه لا يلبث أن تأتيه نوبة لهذا المرض

ولهذا السبب عينه ترى الطفل المصاب بالربو كثيرا ما تسوء حاله وتكثر نوبات المرض عنده اذا حال الطبيب بينه وبين ألوان من الطعام يحبها ، وأمره بالحمية وهو يعالجه ! ومتى رأى الطبيب والاهل ذلك منه ، فربما زادوا من التضيق عليه فى أكله أو لعبه ، فتزداد حاله سوءا بدل أن يشفى

واذا كان الاشخاص الشديدو الحساسية أقرب الى الربو من غيرهم ، فان البليدى الحس هم فى الواقع فى أمان من هذا المرض . . كذلك لا يصاب به عادة الاشخاص الناقصو العقل . بل هو مرض يكاد يختص به الافذاذ من ذوى الحساسية المرهفة ، وكان يعانيه بالفعل أفراد من مشاهير التاريخ فى مختلف الامم والعصور ، وفى هذا شىء من العزاء للمصابين بذلك المرض

والآن نعود الى الطريقة التى يربى عليها الطفل المصاب بالربو :

ان أول شىء ينبغى أن يلقنه ذلك الطفل هو عدم الالتفات الى مرضه ، وعدم القلق من ناحيته ، بل يجب عليه أن ينظر اليه مثل نظرته الى الفواق (الزغطة) مثلا . وليس ذلك بالامر اليسير ، لان على الابوين اولا أن يعودا نفسيهما عدم ابداء القلق على ابنهما المريض بالربو ، وعدم الاهتمام الشديد بحالته ، حتى يأخذ عنهما ذلك

ويجب ألا يدلل ذلك الطفل ، أو يعامل معاملة خاصة ، حتى لا يشعر بأنه يختلف فى شىء عن بقية الاطفال . بل على العكس ينبغى أن يعود على أن يعد نفسه قوى البنية ، فيشترك فى الالعاب الرياضية المختلفة . ومما يساعد صحته : أن يتناول حماما باردا صباح كل يوم ، صيف شتاء . ولا يجدر بالطفل أن يلازم الفراش لاصابته بالربو . ويقول الثقات الذين درسوا هذا المرض ، وقدروا العوامل النفسية فيه : انه لا ينبغى استدعاء الطبيب عند تكرار نوبة الربو عند الطفل . واذا استدعى له الطبيب ، فلا ينبغى أن يعرف الطفل المريض سبب استدعائه له

والملحوظ أن الطفل المصاب بالربو يكون شديد التعلق بأمه ، وأنها من جانبها تكون شديدة الحدب عليه ، فهو يكثر من مطالبه ، وهى تسارع الى تلبيتها . وفى ذلك ضرر بالغ بذلك الطفل ، اذ أنه يساعد العوامل النفسانية الملائمة لتفاقم الربو ، فينشأ الطفل ، وعنده ربو مزمن ، وبه استعداد لأحداث نوبة ، كلما رفض له طلب

أجل ، ان العلاج الجسمانى بواسطة الطبيب أمر لازم للطفل . غير أن العلاج النفسانى ألزم منه ، وهذا لا يتأتى على الوجه الاكمل الا للوالدين

ان تدليل الام لطفلها ، يضعف كل أسباب القوة فيه ، فلا يستطيع بعدئذ أية مقاومة للمرض ونوباته . وخير علاج لمثل هذا الطفل ، هو ابعاده عن البيئة التى يجد فيها التدليل

والانتقال به الى بيئة أخرى ـ كمدرسة داخلية مثلا ـ يعامل فيها على قدم المساواة مع الاطفال الآخرين ، فلا يشعر بأنه يختلف عنهم فى شىء

ومن الامثلة على اجتماع العلاج النفسانى الى العلاج الجسمانى ، أن طفلا خجولا أصبح بادى الجرأة . وان طفلا آخر كان جبانا ، ولا يشترك فى ألعاب رفاقه بالناحية ، فلم يلبث أن أصبح زعيما لهم شديد العدوان . وفى الحالتين اختفت أعراض الربو تماما وهاتان حالتان من مئات الحالات المماثلة التى سجلها الاطباء

وفى بعض الحالات المتطرفة ، تطلب الامر الاستعانة باطباء اخصائيين فى الامراض العصبية والعقلية . ولكن تلك حالات شاذة ، خرج الامر فيها عن مقدور الاطباء المعالجين، وكانت العوامل النفسانية فيها هى الفعالة فى احداث الربو . أما فى السواد الاعظم من الحالات ، فان الطبيب المعالج يتولى أيضا وصف الطريقة النفسانية التى يتبعها الوالدان مع طفلهما المريض

وتدل بحوث الاخصائيين وتجاربهم على أن الربو يمكن أن يعالج ، ويشفى تماما ، لغاية سن الثامنة ، وربما أقل من هذه السن . اما بعد ذلك فمن النادر التغلب تماما على ذلك المرض ، اذ يكون الطفل قد اعتاده ، كما يعتاد الانسان مخدرا فيدمنه . وانما يمكن وقف الربو عند حده بعد تلك السن ، بالعلاج والرعاية ، وخير العلاج ما يقوم به المريض بنفسه لنفسه

وكثيرا ما تؤدى نوبات الربو عند الطفل الى خلل فى جهازه التنفسى ، وينشأ ذلك من عجز رئتيه عن أداء وظيفتهما كما ينبغى ، غير أن من اليسير علاج ذلك بتمارين التنفس . ومتى عادت الرئتان الى حالتهما الطبيعية أمكن الطفل أن يزاول الالعاب الرياضية المختلفة . أما اذا كان المريض قد تخطى السن التى يؤمل عندها شفاء أو تحسن ، فلا يجدر به أن يعيش فى يأس وألم ، فان كثيرا من الناس يستطيعون أن يواصلوا أعمالهم ، مع كونهم مصابين بالربو ، وذلك لانهم أمكنهم ضبطه . واذا كانت نوبات الاصابة به شديدة متكررة ، فيمكن المريض أن يحقن نفسه بمقادير قليلة من الادرينالين . ويمكن منع النوبة عند المريض بأن يحقن نفسه عند شعوره بدنوها ، ويمكن وقفها بعد خمس دقائق اذا حصلت بالحقن أيضا

أما النوبات المتوسطة ، فتعالج بالكافيين أو الافيدرين أو بأقراص الثيامين "Theamin"

على أن الثابت أن (للايحاء) أثرا كبيرا فى حالات الربو ، سواء كان ذاتيا أو خارجيا

ومتى خفت حالة الربو ، سواء بهذه الطريقة أو تلك ، ظن المريض انه شفى نهائيا . ويزعم بعض الاطباء انه شفى ثمانين فى المائة من حالات الربو . والواقع أن ذلك كله علاج وقتى وتخفيف الى حين . أما الشفاء الدائم الذى يزول معه المرض ، فلا يكون الا فى الطفولة ، وقبل سن الثامنة أو بشرط ان يجتمع العلاج النفسانى الى العلاج الجسمانى كما بينا فيما سلف

(عن صحيفة ورلد سايز)

«كفاحي» الياباني

غزو سطح الكرة الارضية

حين كان هتلر يكتب فصل فتوحاته الخيالية في كتابه كفاحي ، ويلوح ببرنامج توسع ألمانيا في أوربا وامتداد سلطانه إلى ما وراء البحار ، كان البارون طاناكا رئيس وزارة اليابان يقدم لسيده الامبراطور تقريراً يشرح فيه كيف ينبغي لليابان أن تغزو آسيا ثم أوربا ، ثم تمد يدها إلى أميركا ، وتسيطر على سطح الكرة الأرضية كله

فهنا كفاحان يتنازعان سطح الكرة الأرضية . فهل كانا يعلمان أنهما سيصطدمان ؟ . .

رجلان في زمان واحد ، زين لهما الوهم أن كلا منهما اله فوق البشر ، وأن عباد الله أراب كيفما توائبت لا تخرج من تحت قضائه

بعد ذلك الزمان الذي كان كل منهما يدون أحلامه ، كان التروتسكيون (اتباع تروتسكي عدو ستالين) أمام قضاة العدل في موسكو يعترفون بأنهم كانوا يساومون هتلر على سلخ أوكرانيا من روسيا السوفياتية في الغرب الاسيوي ، ويساومون الحكومة اليابانية على قطع يد سيبيريا في الشرق ، والسماح لها بابتلاع منشوريا ــ ساوموهما في مقابل مساعدة ألمانيا واليابان على قلب حكومة ستالين السوفياتية ، واحلال دكتاتورية فاشية رأسمالية محلها . ففشلت المؤامرتان وطهرت حكومة السوفيات من طاعون الخيانات

كان هتلر يحلم بأنه يكون سيد الأرض الاعلى ينظم حكومة مجموعة الامم ويسن شريعتها . وغبي عنه أن حلم البارون طاناكا سيصطدم بحلمه ، فينفجران عن دخان قاتم في الهواء . وكذلك لم يلح في بال طاناكا أن حلمه سيتبدد في بخار حلم أعرض من حلمه

* * *

تقرأ فيما يلي أحلام الزعيم الياباني :

في سنة ١٩٢٧ قدم البارون طاناكا مذكرة سرية لامبراطوره ، موضوعها « السياسة الايجابية في منشوريا »

وبعد حين سرقت هذه المذكرة السرية ونشرت في الصين وانكلترا والولايات المتحدة الاميركية . ومضت الايام وحكومة اليابان لاتكلف خاطرها بأن تنكر صحة هذه المذكرة . وكيف تستطيع أن تنكرها ودسائسها في منغوليا ومنشوريا مطابقة لها ، ولذلك صحت تسميتها « كفاحي » في الشرق الأقصى

لم تكن تلك المذكرة من بنات أفكار طاناكا وحده ، بل هي زبدة مؤتمرات كبار رجال

الدولة اليابانية من عسكريين وملكيين بشأن منشوريا ومنغوليا . ولتداخل اليابان فى أمر منغوليا قصص غريبة فى السياسة الدولية تدهش المطالع ليس هنا محلها

واليك مقتطفات من المذكرة المذكورة بالحرف الواحد :

* * *

لا تستطيع اليابان أن تزيل العقبات فى شرق آسيا من أمام مصلحة الدفاع الذاتى الا « سياسة الدم والحديد » . ولكن فى انتهاج هذه السياسة نواجه الولايات المتحدة التى اتجهت نحونا بالسياسة الصينية . فاذا شئنا فى المستقبل أن نكسب السيطرة على الصين ، يجب أن نسحق الولايات المتحدة سحقا . أى يجب أن نتصرف تجاه الولايات المتحدة كما تصرفنا فى غضون الحرب الروسية اليابانية ، حين هاجمنا الاسطول الروسى على حين غرة من غير سابق انذار ولا اعلان حرب

ولكى نفتح الصين يجب أن نفتح منشوريا ومنغوليا أولا . ولكى نفتح العالم كله يجب أن نفتح الصين . فاذا فتحناها فجميع الممالك الاسيوية وممالك البحار الجنوبية ترهبنا وتخر ساجدة لنا مستسلمة لرحمتنا . وحينئذ يفهم العالم أن آسيا الشرقية هى لنا ، ولا يجرؤ أحد أن يعتدى على حقوقنا

تحاول انكلترا واميركا بما لهما من ثروة عظيمة أن تدمر نفوذنا فى الصين . فاذا علقنا كل آمالنا على توسيع تجارتنا فقط ، تسحقنا انكلترا وأميركا بقوة ثروتهما التى لا تقهر . وأخيرا لا نحصل على شىء . وهناك أيضا عامل آخر خطر جدا ، وهو أن الشعب الصينى لا بد أن يستيقظ يوما ما ، فيجب أن نحاذر من يوم تتحد فيه الصين

يجب أن نستعمل منشوريا ومنغوليا كقاعدة نتوغل منهما الى بقية الصين بحجة بسط تجارتنا ، حتى اذا تسلحنا بحقوق حماية مصالحنا قبضنا على جميع موارد البلاد . وبوضع يدنا على موارد الصين ، نستطيع أن نتقدم الى أواسط آسيا حتى نبلغ الى أوربا . على أن الخطوة الاولى التى يجب أن نخطوها هى أن نقبض على منشوريا فمنغوليا . هذا اذا كانت سلالة يامانو (اليابانية) تريد أن تنتشر فى كل آسيا

من الوجهة التاريخية لا منشوريا ولا منغوليا كانتا صينيتين ولا كانتا فى حوزة الصين . ولكن من مظالم الاقدار أن حكومتنا فى حين اعلانها الحرب الماضية على روسيا ، اضطرت أن تصرح بأن الصين ذات سيادة مستقلة ، وأن تزكى هذا التصريح فى مؤتمر الصلح فى وشنطون . فيجب أن نبسط هذه المسألة بجلاء للعالم فى أول فرصة ، لكى يعلم أننا كنا مضطرين لهذا التصريح

يجب أن نتوغل فى منغوليا الداخلية والخارجية (١) لكى نصلح ذلك القطر . وما دام

(١) منغوليا الداخلية مستقلة الاستقلال التام وحكومة السوفيات تؤيدها وتعاونها فى ادارة حكومتها . ومنغوليا الخارجية العوبة فى يد اليابان بحجة اصلاح شؤونها

أمراؤها يتولون الوظائف الادارية فيها ، فحقوق السلطة فى أيديهم . فاذا شئنا أن تدخل فى شؤون هذه البلاد يجب أن تنظر اليهم كحكام وأن نفاوضهم بشأن الحقوق والامتيازات . وبذلك تسنح الفرصة لامتداد نفوذنا القومى فيها

وما دامت منشوريا ومنغوليا فى أيدى الامراء الاهليين ، يجب فى المستقبل أن نعترف لهم بالحكم ونؤيدهم . وبناء على هذا الاعتبار جازفت ابنة فوكوشيما حاكم كوتتنغ العام بحياتها فى الاقامة بين سكان طوسياتو المنغوليين الهمجيين ، حيث لعبت دور المستشار للامير المحلى كخليلة له ، فخدمت حكومة امبراطوريتنا . ومنذ صارت ابنة أخت سوه الامير المشورى زوجة الامير الحاكم ، أصبحت العلاقات بين الحكومة والامراء المنغوليين أشد وثوقا

جميع أمراء منغوليا الداخلية والخارجية يحترموننا ، ولا سيما منذ جعلنا نشجعهم بالحماية والعطايا الخصوصية . والآن فى طوسياتو نحو ١٩ موظفا يابانيا . وقد حصلنا على احتكار شراء الصوف واستخراج المعادن من هناك

وسنرسل سرا عددا أكبر من الضباط المتقاعدين المحالين على الاستيداع . فيجب أن يلبسوا الملابس الصينية لكى يلفتوا أنظار حكومة موكدن . ومتى تفرقوا هنا وهناك اشتغلوا بالزراعة وتربية المواشى وتجارة الصوف

ويمكننا أن تتصرف لدى الامراء الآخرين كما تصرفنا نحو أمير طوسياتو . فنبث ضباطنا فى كل مكان ، لكى نحوز السيطرة على الامراء بشتى الطرق

ومتى صار من شعبنا عدد كاف فى منغوليا ، يجب أن نشترى أراضى . وفى امكاننا ان نشتريها بعشر قيمتها الحقيقية . ومن ثم نزرع الارز لكى تزداد موادنا الغذائية . وحيث لا تصلح الارض لاستغلال الارز نشتغل أيضا بتربية المواشى والخيل . والخيل تكون ذات فائدة عظمى لنا من الوجهة العسكرية كما لا يخفى

وفى الاماكن الاخرى يمكننا أن نشتغل فى حفظ الاطعمة المقددة ونصدرها الى أوربا وأميركا . وكذلك يمكننا ان نربح من صناعة الفراء والجلد . وأخيرا تقع منغوليا فى قبضة يدنا نهائيا . ولما كانت مسألة حقوق السلطة غير واضحة هناك وحكومتا الصين وروسيا مشغولتان بمسائل أخرى فيمكننا أن نبسط نفوذنا من غير احداث اضطراب . ومع الوقت نحوز قدرا كبيرا من الاملاك وثمة لا يبقى معنى للسؤال هل منغوليا لليابان أو للمنغوليين . وحيث تؤازرنا قواتنا العسكرية تحقق سياستنا الايجابية . ولكى تنفذ هذا البرنامج يجب ان نخصص مليون ين من المال السرى الذى فى وزارة الحربية و٤٠٠ ضابط يرسلون لذلك الغرض الى منغوليا . وهؤلاء الضباط بأثوابهم الصينية يشتغلون كمعلمين ويعيشون بين الاهالى حتى يحصلوا على ثقة الامراء المنغوليين ويحصلوا منهم على حقوق الاشتغال بتربية المواشى وبالتعدين . وهكذا نضع أساس مصالحنا القومية فى المائة سنة القادمة

لا أقل من مليون كورى (من أهالى كوريا التى اغتصبتها اليابان فى أوائل هذا القرن)

موجودون فى الولايات الشرقية من منشوريا . فهذا التوسع مفيد جدا لنا . وقد زاد نفوذنا من الوجهتين الاقتصادية والعسكرية . والكوريون سيكونون فى طليعة جيشنا فى اثناء استعمارنا الاراضى التى لم تستعمر بعد . ويمكننا أن نستخدم الكوريين المتجنسين بالجنسية الصينية فى شراء الارض لزراعة الارز . وهكذا نستخدمهم فى تدخلنا الاقتصادى . ومتى بلغ الكوريون الذين تجنسوا بالجنسية الصينية مليونين ونصف مليون ، أمكننا أن نحرضهم على الثورة المسلحة اذا اقتضى الامر ، ونؤيدهم ونشد أزرهم من وراء الستار ، فى حين أننا من ناحية أخرى نقمع الثورة . وحيث أنه ليس كل الكوريين فى منشوريا رعايا صينيين ، فالبلاد الاخرى لا تدرى من هم الذين سببوا هذه الفوضى : الصينيون أم اليابانيون والكوريون . وسنكون دائما قادرين على تضليل الرأى العام . فاذا حاول الصينيون أن يستخدموا الكوريين ضدنا ، كان لنا عذر فى شن حرب ضد الصين

فى هذه الحالة تكون روسيا السوفياتية العنصر الاشد خطرا علينا . فاذا استغاث الصينيون بالجيش الاحمر (الروسى) للتأثير على الكوريين ، فحينئذ تتغير وجهة نظر شعبنا ويهددنا خطر شديد . على أن الوزارة الحالية آخذة جميع الاحتياطات اللازمة لتلافى هذا الخطر

وفى منشوريا الجنوبية كثيرون من الصينيين يستحسنون خطتنا العسكرية والاقتصادية (وهنا تصف المذكرة هذه الخطط العسكرية والاقتصادية بالتفصيل ولا سيما مشروعات السكك الحديدية . ومنها يتضح جيدا موقف اليابان تجاه حكومة السوفيات) ثم تستمر المذكرة :

يجب أن تنشىء السكك الحديدية فى منشوريا الشمالية حيث لا توجد السكك الحديدية الدائرية اللازمة لتعبئة الجيوش ونقلها . فمنذ اليوم يجب أن نواظب على متابعة مقاصدنا العسكرية ، وأن نحيط بقلب منشوريا ومنغوليا بسكك حديدية دائرية ، لكى يتسنى لنا أن ندمر قوة الصين العسكرية وتقدمها السياسى والاقتصادى ، ولكى نصد توغل النفوذ الروسى . واذا كانت سكة حديد الشرق الصينية التى لروسيا السوفياتية تزعزع فى هذه المنطقة ، اذن فسياستنا فى القارة الاسيوية تتصدع بضربة قاضية ، وتدفعنا الى خلاف شديد مع روسيا فى المستقبل القريب

ان سكة حديد الصين الشرقية تكون لنا حالما تصير سكة حديد منشوريا لنا ، وثمة نقبض على منشوريا كما قبضنا على « دايرن »

يلوح لنا أن صليل سيوفنا مع السيوف الروسية فى حقول منغوليا فى سبيل الفوز بثروة منشوريا الشمالية ، انما هو قسم من برنامج تقدمنا القومى . يجب أن نطلب من الصين الحق بأن تنشىء سككنا الحديدية العسكرية . ومتى تمت هذه السكك استطعنا أن نملأ منشوريا الشمالية بقواتنا الحربية . وحينئذ تدخل روسيا السوفياتية ، فيكون تدخلها حجة لنا فى اعلان الحرب عليها

(ثم ان المذكرة تعدد هذه السكك الحديدية بالتفصيل مع ذكر منافعها الاقتصادية والعسكرية . وأهمها خط يمتد من طنجلباو الى شتشس فى منغوليا الداخلية ، وحينئذ يتسنى نقل الصوف منها)

والغنم المغولى يعطى صوفا ثلاثة أضعاف ما يعطيه الغنم اليابانى ، وهو أجود جدا من الصوف الاسترالى . ونحن نخفى هذه الحقيقة عن العالم كله ، لكيلا تنازعنا انكلترا أو أميركا الصوف المنغولى

ولا بد من انشاء خط حديدى من تاونان الى صولون قرب حدود جمهورية الشعب المنغولى ، لانه لا بد من نشوب الحرب بيننا وبين روسيا . فهذا الخط لا يخولنا أن نهدد روسيا من الامام فقط ، بل يحرم روسيا من امكان جلب امدادات حربية الى منغوليا الشمالية أيضا . وأمراء المقاطعات المحيطة به الموالون لنا ، يتسنى لهم أن يستعملوا هذا الخط ، فيزداد نفوذنا بينهم . فهذا الخط مع خط (تونفلينو ـ شتشس) يعنى أن يكون لنا خطان يؤديان الى منغوليا . ومتى تقدمت الصناعة تقدما تاما ، نستطيع أن نبسط نفوذنا على منغوليا الخارجية أيضا . فهذان الخطان والخطوط الاخرى تهيىء لنا قاعدة للوصول الى سيبيريا من ثلاث طرق . فنستطيع أن نرسل جنودنا الى منشوريا الشمالية ومنغوليا ، ومباشرة الى بحر اليابان الذى لا يدع فرصة للجنود الصينية أن تطرق الى منشوريا ولا تستطيع السفن الاميركية ولا الروسية أن تعبر المضايق الكورية . وفى أوقات السلم وبتحسين المرافىء ، تسقط مزايا فلاديفستك (المرفأ الروسى الذى يشرف على اليابان)

ومتى صارت هذه المواصلات المطلية ووسائل النقل فى أيدينا ، فلا نعود نضطر أن نكتم مطامعنا فى منشوريا ومنغوليا التى تقرر الوجه الثالث من خطط امبراطوريتنا . وحينئذ يتسنى لامة ياماتو (اليابانية) ان تتقدم الى الامام لفتح العالم كله

والآن لا بد من أن نخطو الخطوات الثلاث ، وهى فتح منشوريا وفتح منغوليا وفتح الصين جميعا . فمتى تمت هذه الفتوحات ، أصبحت بقية آسيا (روسيا والهند وما جاورهما) وجميع جزر البحر الجنوبى تحت أقدامنا !

* * *

وفى نهاية المذكرة يشرح البارون طاناكا بالتفصيل كيفية الهجوم على روسيا السوفياتية . وهو يتوقع أن يحدث ذلك فى نفس الوقت الذى تحتل فيه اليابان منشوريا . فيجب أن تؤخذ فلاديفوستك والسكة الحديدية المخترقة سيبيريا ، لكى تنقل بها الجيوش اليابانية حول شمالى خربين . ومن هناك تقبض هذه القوة العسكرية على منغوليا ، فى حين أن جيوشا أخرى من كوريا تحتل منشوريا . انتهى

ذلك مجمل مذكرة طاناكا التى نشرت فى أميركا وانكلترا والصين . وعلى الرغم من

أن اليابان لم تنكرها ، بقى بعض الساسة لا يصدقون صدور هذه المطامع الخرافية من دولة .

* * *

وفى سنة ١٩٢٧ وضع رئيس وزارة اليابان خطة لغزو آسيا والباسفيك حتى أوربا أيضا . وكان من فحوى خطته أن كثيرا من الممالك تفتح أو تسلم لنا من تلقاء نفسها خوفا ورهبة كالهند الصينية الفرنساوية وكالنمسا ورومانيا . على أن ما يخيف اليابان هو اتحاد الصين الخطر

وأما طريقة الغزو فى رأى هذا الوزير الخطير فهى :

ان تضع قدمك أولا . ثم تجعل هذا الموطىء قاعدة للتوغل بحجج ودعاوى مختلفة . ادع مثلا أن بعض البلدان يجب أن تكون مستقلة لان لها حقا بالاستقلال . ثم خذ لك أصدقاء من أعيانها الرجعيين وارشهم وتملقهم . وقدم لهم نساء مسرفات من الاسرات الراقية ، وارسل ضباطا متقاعدين كمعلمين وتجار وزراع . واستغل مشاغبات الاقليات . فان لم تكن موجودة فاصطنعها . حرض الكوريين على المشاغبة ، ثم ارسل جنودا لقمع الثورة أو لرد الأمن الى نصابه

ولا ريب أن انكلترا أو اميركا رأتا من غير اطلاع على المذكرة كيف كانت الريح اليابانية تهب ـ نحو منشوريا . ولكنهما كانتا تعتقدان ان الريح تهب بعيدة عنهما

وروسيا السوفياتية عرفت جيدا أن الريح ستهب ولو عرضا على سراول انكلترا وأميركا حين تكون هابة فى وجهها هى . وفيما كانت روسيا تكرر الانذار للعالم ، كانت تقوى أسس بيتها وجدرانه ضد هذه الريح

وقد اتضح جيدا أن أصحاب السلطة فى اليابان كانوا يجدون فى هذه المذكرة لايهزلون . اتضح ذلك حين شهرت اليابان الحرب الحالية ضد أميركا من غير سابق انذار . بل بالعكس كانت قواتها البحرية والبرية على أبواب الجزر الاميركية منذ نصف شهر قبل هجومها ، فى حين كان المفاوضون اليابانيون يوهمون الساسة الاميركيين أنهم يريدون اتفاقا وديا

ولو كان المجال متسعا لاتينا على الدسائس التى كان اليابانيون يستعملونها ضد الامم الاخرى

« ن . ع . »

الهرمونات الجنسية

للدكتور محمد زكى شافعى بك

مدير صحة بلدية الاسكندرية

تأخذ الهرمونات الجنسية الآن مكاناً هاماً فى العلاج ، ويتهافت البعض على استعمالها الى حد الافراط ، وفى هـذا كل الخطر . . . وفى المقال التالى يتحدث الدكتور زكى شافعى بك عن الهرمونات الجنسية لتنوير الأذهان

لكل كائن حى سواء أكان مركبا من خلية واحدة كالميكروب أم من ملايين الخليات كالانسان ، نوعان من النشاط . الاول التناسل ، والثانى تحويل الغذاء الى مواد يسهل امتصاصها لتستغل فى النمو والتجديد وتوليد الطاقة « الحرارة والعمل » والتخلص من الفضلات الناجمة عن تحلل الخليات ، وعن العمليات الكيميائية التى تجرى فى الجسم لتوليد الطاقة . ويسيطر على هذين النوعين من النشاط فى الانسان ثلاث مجموعات من المركبات ، الخمائر والهرمونات والفيتامينات

فالخمائر أكثرها عددا كالبيسين الموجود فى العصير المعدى الذى يهضم اللحم والهرمونات كالانسولين ، وعملها أعم من عمل الخمائر ، والفيتامينات كالتى توجد فى الليمون ، ومصدر الاولين خليات فى الجسم ، ومصدر الثانى المواد الغذائية . وكلها ضرورية لحفظ صحة الانسان ، وعدم وجودها أو نقصها يسبب خللا فى وظائف الجسم

وتفرز الهرمون غدد خاصة تعرف بالغدد الصماء ، لانها تصب مفرزاتها فى الدم مباشرة أى فى الاوردة ، بوساطة قنوات كالغدد الاخرى كغدة اللعاب مثلا

ولما كانت الهرمونات الجنسية تأخذ الآن مكانا هاما فى العلاج ، ويتهافت البعض على استعمالها ، رأيت أن أكتب هذا المقال تنويرا لاذهان القراء على صفحات « الهلال » وسآتى على كل جديد عن هذه الهرمونات بقدر المستطاع ، لان للافراط فى استعمالها خطره ، وهى مركبات تستعمل بكميات ضئيلة جدا ، وتأثيرها قد يكون كبيرا

يمكننا القول بأن جميع الهرمونات لها أثرها فى الجهاز التناسلى ، ولكن للهرمونات الجنسية أثرا أخص ، والمعروف منها الآن هرمون للخصية ، وهرمونان للمبيض

ينشأ فى الخصية بوساطة خليات منوية خاصة الحيوانات المنوية ، وتخرج مع المنى ، وهو مفرز خارجى كاللعاب . وللخصية مفرز داخلى يعرف بالتستسرون ، وهو مركب

دهنى ، وتفرزه خليات غير الخليات المنوية فى الخصية ، وتوجد مشتقاته فى بول الذكر ، كما توجد فى بول الانثى الحامل وغير الحامل ، ولكن متوسط ما يخرج فى اليوم مع البول فى كليهما ، بنسبة ثلاثة فى الذكر الى اثنين فى الانثى ، ويحضر فى المعمل من مركب دهنى يعرف بالكولسترول كالتسقرون والبرندرين

والفعل الجوهرى لهذا الهرمون ينصب على وظائف أعضاء التناسل المكملة للجهاز التناسلى، وهى القبل والحويصلات المنوية والبروستاتا ، وينبه نمو الشعر فى الوجه والابطين والصدر والعانة والساقين ، كما ينبه الغشاء المخاطى للانف لاداء وظيفته ، لانه يظهر أن هناك علاقة بين هذا الغشاء والوظيفة الجنسية

وعند ما يبلغ الصبى ، تشاهد عليه مظاهر الرجولة فينزع الى الحدة والخشونة والاعتماد على النفس وحب السيطرة والميل للجنس الآخر ، بينما نرى هذه الصفات تتناقص كلما تقدم بنا السن ، كما يقل النشاط الجنسى أو يفقد ، وقد تعترى الرجل بسبب ذلك ملنخوليا ، وأهم أعراضها أن يعتقد المريض بها أنه فقد كل ماله ، وتنحط قواه العقلية والجسمانية مدارجة ، لانه يرى أن لذة الحياة ومباهجها قد انقضت . ومن المقال ان هرمون الخصية له دخل كبير فى كل ذلك ، وانه بالحقن به تحسنت حالة هؤلاء المعنوية وشعروا بالقوة والهناءة والنشاط كما أنه يفيد فى الورم المبيد للبروستاتة

وقد عملت تجارب عديدة أفاد فيها الحقن بهذا الهرمون الخليات المنوية ، وازداد مفرزها ، وأفاد فى احجام أعضاء التناسل المكملة وفى انماء الشعر ، بل فى حفظ الاحجام الطبيعية لاعضاء أخرى كالقلب والكبد والكليتين . وقد شوهد فى الذكور الذين يخصون قبل سن البلوغ أنهم عند ما يبلغون هذه السن يتزايد الدهن لديهم حول الثديين والعجز، كما أن شعر العانة والوجه لديهم يماثل ما عند الاناث ، ويحتفظون بصوت الصبية ، ويتلون جلدهم كثيرا بتأثير أشعة الشمس

ولكل أنثى مبيضان ينشأ فيهما البيضات داخل حويصلات فى درجات من النشوء متفاوتة، ومتى نضجت الحويصلة وامتلأت بالسائل ــ وذلك فى سن البلوغ ــ انفجرت وخرجت منها البيضة ، ويحصل ذلك كل أربعة أسابيع مرة ، ولا تنضج عادة الا حويصلة واحدة، ثم تنطبق جدرانها على بعضها ، وتتحول البيضة الى جسم أصفر يستمر فى النمو حتى الشهر الثالث من الحمل اذا لقحت البيضة ، والا تحول الى جسم أبيض

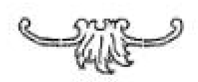
فى الحويصلة هرمون يعرف بالأسترون وهو مركب دهنى ، وكذلك فى المبيض نفسه ، وتوجد مشتقاته فى بول الانثى ، كما وجد فى بول الذكر بنسبة متوسطها واحد للذكر الى ثلاثة فى اليوم للانثى ، ووجد بكميات كبيرة فى خصية ذكور الفصيلة الخيلية ، وفى مشيمة اناث الانسان ، وفى بعض النباتات . وفعله الجوهرى فى نمو الاعضاء التناسلية المكملة كالرحم وأبواق فالوب والمهبل ، وينبه التقلصات الرحمية ، ويعد بطانة الرحم لفعل هرمون مفرز الجسم الاصفر ، وهو مركب دهنى أيضا ، وتخرج مشتقاته فى بول

الحامل ، ولا يوجد فى بول الذكر ، وهو يعد بطانة الرحم لتعشش فيها البيضة الملقحة ، ويمنع تقلصات الرحم وان كان يظهر أن فعل هذين الهرمونين متضاد ، غير أنهما يعملان متعاونين ، فهرمون الجسم الاصفر لا يعمل الا اذا أعد الأسترون بطانة الرحم لفعله ، وهو يمنع الاجهاض والنزيف ، بينما الأسترون يسبب تضخم بطانة الرحم وتقلصاته ، فان تلقحت البيضة واستقرت فيه بفعل البروجستون (هرمون الجسم الاصفر) لم يظهر الطمث رغم استمرار افراز الأسترون لان البروجستون يحد من فعل الأسترون ، وان لم تلقح البيضة ظهر الحيض

وقد يكون للأسترون أثر فى صفات الانثى النفسية والخلقية كالشعور العاطفى والاستعداد للتأثر بالايحاء وسرعة التأثر والانقياد والتوجع والمرونة والحساسية

وكذا فى نمو غريزة الامومة ، وقد لوحظ أنه عند ما تبلغ الانثى سن اليأس أى عند ما تشعر بفقدها لأهم وظيفة لها فى الحياة وهى الدورة البيضية ، يحصل لها تغيرات عصبية كالقلق أو كسرعة التهيج أو الصداع أو ضعف الذاكرة أو التركيز والهبوط النفسانى أو كثرة البكاء أو اضطراب النوم أو الأرق أو التنميل أو النخس أو التعب أو الدوخان ، أو ملنخوليا تميز بالحزن والتشاؤم وتندب أيام صباها وجمالها ، كما قد تصاب بامساك مستعص ونوبات احتقان فى الوجه وخفقان فى القلب أو سرعة فى التنفس أو طنين فى الآذان ، وقد تصاب بالسمن أو برودة جنسية أو الآلام فى أجزاء متعددة من جسمها ، أو ارتفاع فى ضغط الدم ، أو حكة فى أعضاء التناسل الظاهرة وضمور ، أو آلام فيها ، أو التهاب . وقد شفيت بعض هذه الحالات أو تحسنت بالأسترون ، وهذا يؤيد أن للهرمونات الجنسية تأثيرا كبيرا على الحالة النفسية والعقلية للانسان ، كما أن بعضها شفى أو تحسن بهرمون الخصية . وأذكر هنا أن بعضهم ذكر أنه فى تجاربه على الحيوانات الثدية أصيبت بسرطان فى الثدى من استعمال الأسترون ، ولكن هذا لم يمنع من استعماله فى العلاج

الدكتور محمد زكى شافعى



هل يقع انهيار داخلي في ألمانيا

بقلم الصحفي الأمريكي ألبين جونسون

ألبين جونسون صحفي أمريكي اختص بالكتابة في الشؤون الخارجية . وقد ظل من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٣٦ يكتب لنيويورك تيمس ونيويورك ورلد ولصحف أوروبية مختلفة ثم لجريدة فار إيست وهو منذ سنة ١٩٤٢ يقيم في فنلندة ثم في السويد ، حيث يوافي الصحف والمجلات الأمريكية بمقالاته عن الحرب والأمم المتحاربة وقد كتب هذه المقالة الآتية وأرسلها اليها من استكهلم

ماذا يجرى فى ألمانيا ، خلف جدران الصلب والحديد ، ووراء دخان الدعاية الكثيف ؟ ان السويد المحايدة نفسها لاتدرى جوابا دقيقا عن ذلك ، رغم ممثليها السياسيين والصحفيين فى ألمانيا ، ورغم تيار المهاجرين القادمين اليها من تلك البلاد . على أن من حسن حظ كاتب هذه السطور أن له صلات عديدة تفيد المندوب الصحفى فى عمله ، وقد اتصل بكثير من الرجال والنساء الحديثى القدوم من بلاد هتلر ، وهذا بالطبع بعد ما قرأ كل ما وقع فى يده عنها . ولكنه يعلم علم اليقين أن أقوال الصحف والشهود يجب أن تصفى وتدرس ، وان ما يصدر فيها عن فكرة الدعاية يجب أن يبعد ، حتى يمكن الوقوف على الحقائق التى يطمأن اليها

فالمعلومات التالية اذن هى ثمرة تحقيق دقيق ، تؤازره حقائق معروفة ويؤيده استنتاج معقول

ان الحقيقة الاولى التى لا يحتويها شك هى أن الشعب الالمانى أصبح شعبا جائعا ، بائسا ، محروما ، قد أنهكه التعب وأضناه الالم . وقد فقد حماسته الاولى التى كان يبديها فى حفلات حزب النازى ومهرجانات « الزعيم » ، ولعل آخر واحد من هذه هو الذى أقيم قبل اسبوعين من الغارة الكبيرة الاولى على برلين ، ففى ذلك المهرجان لم يبد على الاهلين غير الجمود ، رغم كثرة الهتافين الذين زج بهم فى الاجتماع . وليس ثمة هتاف ضد انجلترا كما كان فى الحرب العظمى الماضية ، اذ كنت تسمع الصيحة القائلة : «ليعاقب الله انجلترا » « God straff England » تتردد فى كل مكان . أجل ان جوبلز عقب تلك الغارة صار ينفث لهب البغض والانتقام . ولكن قليلا من أهالى برلين جاوبوه بهز قبضاتهم ولعن تشرشل وروزفلت ، وأكثرهم كانوا يجلسون فى هدوء واستسلام وقد أسندوا رؤوسهم الى أيديهم

والواقع أن الشعب الالمانى أصبح لا يبدى كثير اكتراث بمجرى الامور . ولعل ذلك

ناشيء من قضائه خمسة عشر عاما تحت ضغط النازى وتضييقهم ، وأحد عشر عاما فى حرمان من وسائل الراحة ومسرات الحياة ، وسبعة أعوام على الاقل تحت نظام توزيع لوازم المعيشة بالبطاقات ، وخمسة أعوام فى عهد حرب طاحنة ، قضى السنتين الاخيرتين منها فى حالة احتياج شديد . ولكن لا تنس مع كل هذا أن الالمان شعب مجبول على النظام والطاعة

ان كتلة الامة الالمانية لا تفكر ، ولا تكاد تدرى من شؤون الحياة سوى أن تعمل حتى تموت ، دون أن تسأل نفسها عن السبب .. أما الزعماء والافراد الذين قد يستبيحون لانفسهم ترف التأمل ، فان مجرى تفكيرهم ــ كما يذكر بعض المقربين منهم ــ هو هكذا : « ربما لا نكسب الحرب . ولكن ما دمنا نحارب ، فأمامنا فرصة ألا نخسر الحرب . ان أعداءنا قد أنهكهم التعب مثلنا . والتسليم بلا قيد ولا شرط معناه الرق والعبودية ، مثل ما فرضناه نحن أنفسنا على بعض الامم المغلوبة .. اننا أمة موحدة . أما أعداؤنا فهم أمم عديدة ، تختلف أجناسا وأديانا وأغراضا .. فاذا ثبتنا ، فما يدرينا لعل أعداءنا يتنازعون ويتفرقون »

ان شعار الدعاية الالمانية هو : « سوف نكسب الحرب » . ومن الغلو أن يظن البعض فى خارج ألمانيا أن هذه الامة قد راضت نفسها على فكرة الهزيمة . حتى الذين فقدوا كل شيء يشعرون أنهم لن يكسبوا شيئا اذا انهزمت بلادهم ، وقد قصروا أملهم على الانتصار ، لان هتلر وعدهم بالمسكن والعمل فى « نظامه الجديد » . أما الذين لا يزالون يملكون شيئا ، فانهم يعتقدون أن الانكسار يجردهم من كل شيء ، وربما من حياتهم نفسها

واذا كان كثير من الالمان يعتقدون فيما بينهم وبين أنفسهم أن ألمانيا لا يمكن أن تكسب الحرب ، فان قليلا منهم لا يؤمنون بأن الحرب ستنتهى الى صلح قائم على (تسوية) ، أو أنها لن تفضى الى انتصار فريق وانكسار آخر ، وهم على أى حال يذكرون كلمات هتلر الذى لا يفتأ ينذرهم « ان مستقبل الوطن لالف سنة قادمة يتوقف على نتيجة هذه الحرب» بل ان الحلفاء اذا حددوا كلمة « التسليم بلا شرط ولا قيد » بحيث تسمح للشعب الالمانى بحياة معقولة بعد سقوط حكم النازى ، فان قليلا من الالمان يصدقونهم ، لما ألقى فى روعهم من ضرورة تلقى وعود الحلفاء بالشك والارتياب

ان صبر الالمان على الآلام الجسمانية لم ينفد بعد . أجل ان نظام توزيع كل الاشياء بالبطاقات هو نظام قاس ، غير أن الطعام الذى يوزع يكفى لان يقيم الأود ، ومواد الاستهلاك الاخرى تفى بحفظ مستوى منحط للمعيشة ولكن يمكن تحمله . صحيح ان القوم جائعون ، بل جد جائعين فى بعض جهات ألمانيا ، وانهم يشكون ويضجرون ، ولكن شكواهم لم تصل فى أى مكان الى حد الاحتجاج ، بله الهياج

ويلبس الالمان ثيابا بادية القدم ، ولكن ذلك لا يلفت نظر أحد ولا يثير أى اهتمام . وانما يرتدى زعماء حزب النازى وحدهم ثيابا فاخرة جديدة ، والناس اذ يرون ذلك

يرونه بأن الزعماء يجب أن يحتفظوا بالمظاهر ، ثم يقولون ان هتلر نفسه يرتدى من الثياب مثلما يلبسه أبسط جندى . أما النقص فى أشياء كفرش الاسنان وأدوات الزينة وصابون الحلاقة ، فانه بالطبع يجعل الحياة العادية لا تسر ولكنه لا يزال أمرا محتملا

والسلطات النازية بارعة فى الادلاء بالوعود واستغلال الظروف لها . واذا وعدت بتوزيع بعض المواد أو بزيادة ما يوزع منها ، وجاء الاهلون ينتظرون صفوفا ، فانهم يجدون تلك المواد حاضرة ولا يخدعون . وما أيسر أن ينسى الالمان متاعبهم وآلامهم حيال أمر تافه ! فمثلا لما وقعت أول غارة كبيرة على هامبورج ، سمحت السلطات بزيادة مائتى جرام من الشيكولاته على الحد المعين . وبعد الغارة الثانية منحت كل شخص بالغ نصف بنت « pint » من الكونياك . كذلك عقب كارثة برلين الجوية الاولى ، نال كل شخص بلا مأوى وعاء من معجون السمك وعلبة صغيرة من اللبن المركز ونصف رطل فاكهة وخمسين جراما من البن . وفضلا عن ذلك أعطى كل رجل ثلاثين سيجارة ، وكل امرأة خمس عشرة سيجارة . وفى جميع هذه الاحوال ، كان الناس يقفون صفا طويلا ، أحدهم وراء الآخر ، وينتظرون النهار بطوله (هدية الفوهرر) أو (الزعيم) ، مثلهم من الفرح كمثل الاطفال يوم عيد الميلاد !

أما فى الريف فقد انتشر نظام المقايضة بين الزراع . وليس هؤلاء من الغباء بحيث يخطرون السلطات كلما باضت دجاجة لهم أو صادوا أرنبا أو رموا غزالا .. وهم لا ينسون أقاربهم وأصدقاءهم الذين فى المدن . كذلك تراهم لا يأبون الاتجار ببعض منتجاتهم فى السوق السوداء . وهذه السوق قائمة على قدم وساق رغم كل شىء ، والاسعار فيها فادحة : فمثلا تجد السيجارة التى تساوى عادة ثلاثة أو اربعة فنش pfennig (جزء من مائة من المارك) تباع فى السوق السوداء بخمسين فنشا ، وزجاجة الكونياك تباع بمائتى مارك ، وهلم جرا

وقد أصبحت المقايضة ظاهرة عجيبة من الظواهر الاقتصادية فى ألمانيا فى السنة الاخيرة . وأدركت الحكومة ضرورة تيسير التبادل التجارى المباشر ، فهى تحاول أن تشرف على هذا النظام وتسيطر عليه . ولما كانت العملة تفقد قيمتها وشيكا ، فقد نشأت أداة جديدة للقيم وهى الفيتامين فتجد المواد الغذائية تقدر قيمتها بين الناس بما تحويه من الفيتامين ب ، والمواد الاخرى بما فيها الصابون والزبدة والكماليات تقدر بوحدات الفيتامين م . ويقدر الناس كل ذلك تقديرا ارتجاليا ويتعاملون على أساسه بدون استخدام العملة

وفيم يفكر الالمان فى هذا الوقت الحرج ؟ ان الذين عاشوا بينهم فى السنوات الاربع الاخيرة ، يقولون انهم لا يفكرون . واذا كان بعضهم يفكر فانه لا يبوح بفكره لغيره على أن من ينعم النظر فيهم يتبين بهم يأسا صامتا لا شك فيه

أما حزب النازى فمن الخطأ الزعم بأن هناك خلافا فى صفوفه ، وخاصة بين زعمائه الكبار مثل هتلر وجورنج وهيملر وجوبلز ولى وفون ربنتروب . فاذا قال الالمان ان

ما حدث فى ايطاليا لا يمكن أن يحدث مثله فى ألمانيا ، فان هذا القول لا يصدر عن الفخر وحده . فهتلر لا يزال مفتاح صرح النازى ، والذين حوله يعتقدون أنه اذا سقط فانهم سيسقطون معه . وعلى الرغم من سنوات الشدة التى قاساها الشعب الالمانى ، فان هتلر لا يزال يحظى بولاء الملايين ، وخاصة من النساء والاطفال

وقد يبدو من التناقض أن يوجد فى أمة بمثل هذه الوحدة وراء زعمائها ، (جستابو) لا يفتأ يقبض على الكثيرين كل يوم بتهمة الدعوة الى الهزيمة أو النهب والسلب أو الخيانة . والواقع أن كثيرين قد أكدوا لى قلة عدد من يحكم عليهم بالاعدام فى ألمانيا ، غير أن الجستابو ووزارة الدعاية يجعلان من هذه القلة نذرا تقرع حولها الطبول ، ليرهبوا بها غيرهم . وكلما صدر حكم بالاعدام على أحد أعلنت صناعته أو مهنته ، سواء كان زارعا أو ممثلا أو جنديا أو قصابا الخ ، لكى يوقن الشعب أن الحكم النازى لا يحابى أحدا ولا يضطهد فئة دون فئة .. ومما يفخر به الجستابو أن الذين ارتكبوا اثم النهب والسلب فى خلال الغارات على برلين ، قد أعدموا بعد ثلاث ساعات من القبض عليهم

ومن ذلك ترى أن الارهاب النازى ليس مقصورا على البلدان التى احتلها الالمان ، بل يشمل ألمانيا نفسها أيضا ، ولو بغية التأثير فى النفوس لا لشىء آخر ..

ان الجيش والجستابو هما بمثابة العمود الفقرى من ألمانيا الحالية ، ولكن حزب النازى هو الرأس المدبر . ومن الوهم البحت أن تتوقع خلع الجيش لهتلر فى الظروف الحاضرة . أجل ان السيطرة البروسية لا تزال قائمة ، غير أنها قد أصبحت سيطرة بروسية نازية . ومن الخطأ كذلك أن يحسب البعض فى خارج ألمانيا : ان الالمان ينسبون الى هتلر ما أصاب ألمانيا من هزائم فى روسيا وشمال افريقيا ، أو أن أركان حرب الجيش الالمانى يلومونه فى ذلك . فالواقع أن أركان الحرب لم يخضعوا قط لايحاء من هتلر . بل يقولون ان شأنه فى ذلك ليس أكثر ولا أقل من شأن الزعماء المدنيين فى الدول المحاربة الاخرى . ويشعر قواد الجيش بانهم مرتبطون بالنازى فى الحاضر والمستقبل ، لدرجة أكثر من ارتباطهم بالقيصر فى الحرب العظمى الماضية

وبالاجمال لا يزال حزب النازى سليما ، ولا يزال الشعب الالمانى ينتصر له ، وان يكن قد فقد حماسته . ولا يزال الجيش الالمانى يعتقد أنه لن يخسر الحرب ، حتى اذا لم يستطع أن يكسبها . وتدل الدلائل كلها على عدم توقع انهيار داخلى كالذى حدث فى سنة ١٩١٨

وعلى ذلك لا بد من أن تهزم ألمانيا فى ميادين القتال ، اذا أريد للحرب أن تنتهى ، وللطغيان النازى أن يزول

(عن مجلة امريكان ميركورى)

تمهيد طريق البرلمان
لنواب من الشبان والفقراء

للنائب الانجليزى « اونر بلفور »

وقفت أخطب جما من عمال مغازل القطن ومناسجه فى برنامجى اذا فزت بالنيابة عنهم ، ثم أخذوا يلقون على أسئلة شتى : عن مشروع بيفردج ، عن نظام معاشات العمال ، عن مشروعات ما بعد الحرب فى صدد البطالة والتعليم والمساكن ، وما الى ذلك من الامور التى تشغل أذهان العمال وتثير همهم وتفكيرهم

وبينما هم يسألوننى وأنا أجيبهم ، اذ برجل يهب من الصف الامامى ، وقد بدا عليه أنه من أولئك العمال المكدودين الذين وهنت قواهم وما زالوا فى منتصف العمر ، ووقف أمامى وقفة حازمة عنيفة ، وانطلقت من فمه الخشن الجاف هذه الكلمات :

« هيه ! لقد سمعنا هذا الكلام فى المرة السابقة . ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ لا شىء أبدا ! فما من فائدة فى أن تضعوا المشاريع وتفكروا فى المناهج ، ما دمتم لا تملكون وسيلة تنفيذها وتحقيقها . ان أول ما يجب أن تفكروا فيه هو اصلاح البرلمان . فماذا أنتم فاعلون فى شأنه ؟ ان بقى كما هو الآن ، فلن تتاح لنا الفرصة لتحقيق مطالبنا نحن طبقة العمال . فيجب أولا وقبل كل شىء أن نمكن أبناء هذه الطبقة ــ طبقة العمال الفقيرة ــ من أن تشق طريقها الى دار البرلمان »

ان هذه الكلمات التى قالها ذلك العامل هى نفس الكلمات التى يقولها العمال فى جميع الانحاء . فما هى الاجابة التى نقدمها لهذا الرجل وللملايين التى تشبهه من العمال والعاملات ؟

هذه هى الاجابة :

يجب أن يكون البرلمان القادم برلمانا شابا ، نشيطا ، صريحا جريئا ، فان هذه الصفات هى التى تنقص البرلمان القائم ، والتى لا غنى عنها ان أردنا أن نجعل من نظامنا البرلمانى أداة فعالة لتنفيذ الديموقراطية بمعناها الصحيح

ان متوسط عمر عضو مجلس العموم الحالى ٥٨ سنة . وهى سن لا يتيسر فيها العمل النشيط الجرىء الا قليلا

وان ستين عضوا من كل مائة عضو فى المجلس هم من خريجى « المدارس العامة » ، هذه المدارس التى لا يقدر على نفقاتها العالية الا أبناء الطبقات الثرية والميسورة ، فأكثرية أعضاء البرلمان هم من أبناء هذه الطبقات التى تعد جزءا بسيطا من مجموع الامة التى تتكون

فى الواقع من طبقات العمال والزراع ومن فى مستواهم

فالاصلاح البرلمانى الواجب هو تمهيد طريق البرلمان للشبان وللفقراء . ولا يكون هذا الا بتخفيض نفقات الانتخاب تخفيضا كبيرا

فان الانتخاب فى صورته الحالية يكلف المرشح فى العادة ما يتراوح بين سبعمائة وألف جنيه . وبعض هذا المبلغ يأتى من خزينة الحزب الذى ينتمى اليه المرشح ، اذا كان هذا المرشح من رجال الحزب البارزين . وقد يأتى بعض هذا المال من « الاشتراكات » التى يتقدم بها الذين يناصرون المرشح ليكون صوتا لهم فى البرلمان يبلغ مطالبهم ويدعو الى تحقيقها . ولكن أكثر هذا العبء المالى واقع على عاتق المرشح . فلا عجب أن يعجز كثير من الشبان الصالحين للنيابة عن ترشيح أنفسهم لانهم لا يملكون هذا المبلغ الكبير ، ولا عجب أن يبلغ كثير من الناس سن الكهولة والشيخوخة قبل أن يتهيأ لهم من الثروة ما يمكنهم من انفاق مئات الجنيهات فى معركة الانتخاب . وهذا فضلا عن مائة وخمسين جنيها يدفعها المرشح « تأمينا » وتظل جامدة الى أن ينتهى الانتخاب بالفوز أو الهزيمة

يجب اذن تخفيف نفقات الانتخاب عن كاهل المرشح . ورأيى أن تكون أكثر هذه النفقات من المصروفات العامة التى تدفعها خزانة الدولة . فان عملية الانتخاب جزء مهم من أجزاء الاداة الديموقراطية التى يجب أن تبذل الدولة من مالها فى سبيل تمكينها من أداء عملها على خير الوجوه

خذ مثلا مسألة « برنامج المرشح الانتخابى » الذى يريد المرشح أن يعلنه لناخبيه مبينا فيه سياسته وأهدافه ، ان طبع أربعين ألف نسخة من هذا البرنامج وما يلزمها من أغلفة الخطابات لتوزيعها على الناخبين يتكلف مائة وخمسين جنيها . فلماذا لا تتحمل الحكومة هذه النفقة ، ما دامت قد تحملت جزءا منها ، حين جعلت ارسال هذا البرنامج الى الناخبين مجانا . لقد رأت الحكومة أن عليها أن تشارك فى تحمل بعض نفقة المعركة الانتخابية ، فأتاحت للمرشح أن يرسل لكل ناخب فى دائرته خطابا عن برنامجه الانتخابى ، وتكفلت هى بأجر ارسال هذا الخطاب . فلم لا تتكفل بالعمل كله ، وتتحمل كذلك نفقة طبع البرنامج وتوفر على المرشح بذلك مائة وخمسين جنيها على الاقل ؟

قد يعترض على ذلك بأن اعفاء المرشح من هذه النفقة يجعل منافسه اذا كان ذا مال قادرا على أن يستخدم هذا المال فى دعاية أوسع نطاقا وأكثر تأثيرا ، كوضع لوحات الاعلانات الكبرى فى الطرق والميادين ، وكاستخدام مكبرات الصوت وما الى ذلك .

ولكن الاجراء الذى أشير به هو أن يخفض كذلك المبلغ الاقصى الذى يجوز للمرشح انفاقه فى الانتخاب . فالقانون القائم يبيح للمرشح أن ينفق فى الدعاية الانتخابية بمعدل ست بنسات (حوالى قرشين ونصف قرش) عن كل شخص فى دائرته الانتخابية ، وحيث أن الدائرة تضم أربعين ألف شخص ، فانه يسمح له بأن ينفق الى ألف جنيه فى الدعاية لنفسه . وهذا مبلغ ضخم فيجب انقاصه الى الحد الذى لايعجز عنه فردكفء من عامة الناس

فوضع حد أقصى لما ينفقه المرشح في الانتخاب فكرة عظيمة ، ولكن يجب أن نخطو بها خطوة أخرى ، وذلك بأن نجعل هذا الحد الاقصى قريبا من متناول كل من يأنس في نفسه الكفاية للعمل البرلماني

والآن وقد فاز المرشح في الانتخاب ودلف الى دار البرلمان ، فماذا يحدث بعد ذلك ؟

يحدث غالبا أن تنقطع صلة النائب بدائرته الانتخابية ، فانه يغرق في موجة صاخبة من عمله البرلماني ومما تقتضيه حياته الجديدة من مشاغل . ويزداد بريده زيادة كبيرة ، كما تزداد مطالبه المالية الى حد بعيد . وبذلك تصبح الستمائة جنيه التي يتقاضاها في العام ، والتي كان يحسبها تهيىء له حياة مادية مريحة ، عاجزة عن قضاء مصالحه الكثيرة . فاني أعرف عضوا في البرلمان ينفق في السنة مائة جنيه في الرد على ما يرد اليه من الرسائل البريدية فحسب !

وسرعان ما يحس النائب الحاجة الى المال ، فيضطر أن يقصر في بعض عمله البرلماني ليفرغ الى عمل خاص يأتي منه بالمال الذي تتطلبه هذه الحياة ، وبذلك لا يؤدي واجبه نحو ناخبيه ونحو الأمة على الوجه الامثل . كما أن عليه اذا كان فقيرا أن ينفق جزءا من جهده ووقته في أعمال كتابية كثيرة ، مثل الرد على ما يجيئه من الرسائل . وكل هذا يعطل عمله الاول في البرلمان

واني أقترح علاجا لهذا ثلاثة أمور :

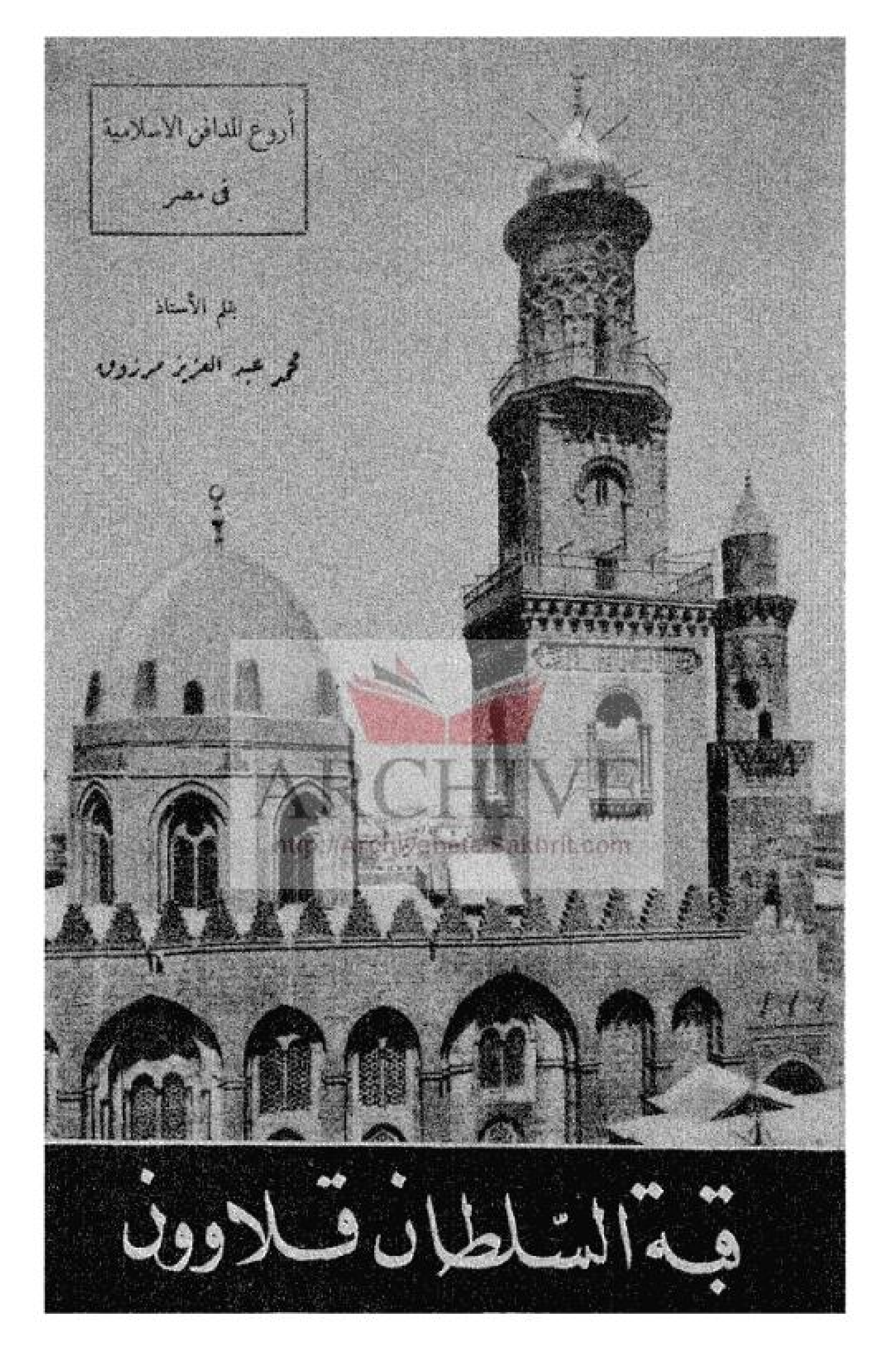
أولا — أن يرفع مرتب عضو البرلمان الى ألف جنيه ، وليس هذا بكثير على رجل يجب أن يقيم في لندن وأن يكون له بيت أو ناد في مركز دائرته الانتخابية ، وذلك فضلا عن نفقات كثيرة يقتضيها مركزه هذا

ثانيا — أن يضم المجلس هيئة سكرتارية يكون من حق كل نائب أن يكل اليها أعماله الكتابية الخاصة بعمله في البرلمان . اذ لماذا يكون لاحد النواب سكرتير خاص يقوم عنه بكثير من الاعمال لانه يستطيع أن يدفع مرتب هذا السكرتير ، ويلقى على عاتق نائب آخر أن يقوم بأعمال كتابية تعطله عن عمله البرلماني لانه فقير لا يستطيع أن يستخدم سكرتيرا خاصا ؟

ثالثا — يجب أن يكون من عمل هذه السكرتارية تنظيم اجتماعات دورية في الدوائر الانتخابية ، يذهب اليها النواب ليطلعوا ناخبيهم على ما يقومون به من الأعمال في دار البرلمان ، وليدلى اليهم الناخبون بمطالبهم وتوجيهاتهم

بهذه الوسائل التي أقترحها يمكن أن نجعل من أعضاء البرلمان ممثلين حقيقيين للأمة التي لا تتألف من الاغنياء والاوساط وحدهم ، بل يتكون أغلبها من العامة والفقراء . كما يمكن أن نجعل الرأي العام في الدوائر الانتخابية على صلة وثيقة بالبرلمان وعلى علم تام بما يجري فيه ، فتؤدي الأداة الديموقراطية عملها على الوجه الأكمل المنشود

(عن مقال للنائب الانجليزي أوتر بلفور في صحيفة بكتشر بوست)


أروع المدافن الاسلامية
فى مصر
بقلم الأستاذ
محمد عبد العزيز مرزوق
قبة السلطان قلاوون

لعل أخص ما تمتاز به مصر على غيرها من بلاد العالم الاسلامي أنها نجت من كثير من الكوارث التي نزلت بتلك البلاد ، فاحتفظت لنا بتلك السلسلة المتماسكة الحلقات من الآثار التي شيدها أجدادنا من المسلمين لاغراض شتى وفي عصور مختلفة . ولا شك في أن زيارة تلك الآثار والتأمل فيها ليست ــ كما يظن الكثيرون ــ جهدا ضائعا أو ترفا يمكن الاستغناء عنه ، فهي في الواقع وسيلة فعالة لتصفية الذوق ، وتثقيف العقل ، وصقل المواهب لا سيما اذا جمعت الى جمال زخرفها ودقة تكوينها نصوصا تاريخية تصور لنا الحياة في عصرها وتحدثنا عمن أمر ببنائها وساهم في تشييدها ، وهذه قبة السلطان قلاوون ــ أروع المدافن الاثرية الاسلامية في مصر (١) ــ ترهف الوجدان بجمالها الرائع ، وتغذى النفس بصنعتها المحكمة ، وتوسع أفق العقل بتلك الكتابات التاريخية المنقوشة على جدرانها في الداخل وفي الخارج . وهي احدى عمائر ثلاث شيدها هذا السلطان في صعيد واحد : بيمارستان لمعالجة الفقراء محى رسمه ولم يبق منه الا اسمه علما على مستشفى حديث لامراض العيون ، ومدرسة عبثت بها يد الزمن قليلا ، ثم هذه القبة التي أقامها لتكون مثواه الاخير وهي تعد بحق أروع ما أقامه من آثار

وهي غرفة مربعة الشكل يتوسطها مثمن تعتمد عقوده المزخرفة على أربع أرجل بينها أعمدة أربعة من الجرانيت الاحمر تنم تيجانها وقواعدها على أنها من صنع البطالسة في العصور السابقة على المسيحية والاسلام ، نقلها المسلمون الى هذا البناء وأعادوا استعمالها من جديد بعد أن ذهبوا رؤوسها ، ويغطى هذا المثمن قبة شاهقة من أجمل ما شيده المسلمون من قباب ، يخترق رقبتها نوافذ عدة ويرقد تحتها جثمان السلطان قلاوون وابنه الناصر محمد وحفيده اسماعيل ، ويحيط بالقبر حاجز من الخشب تفنن الصانع في خرطه وتشكيله . أما الجزء المحصور بين المربع والمثمن فسقفه مقسم الى قصع مموهة بالذهب والاصبغة الجميلة

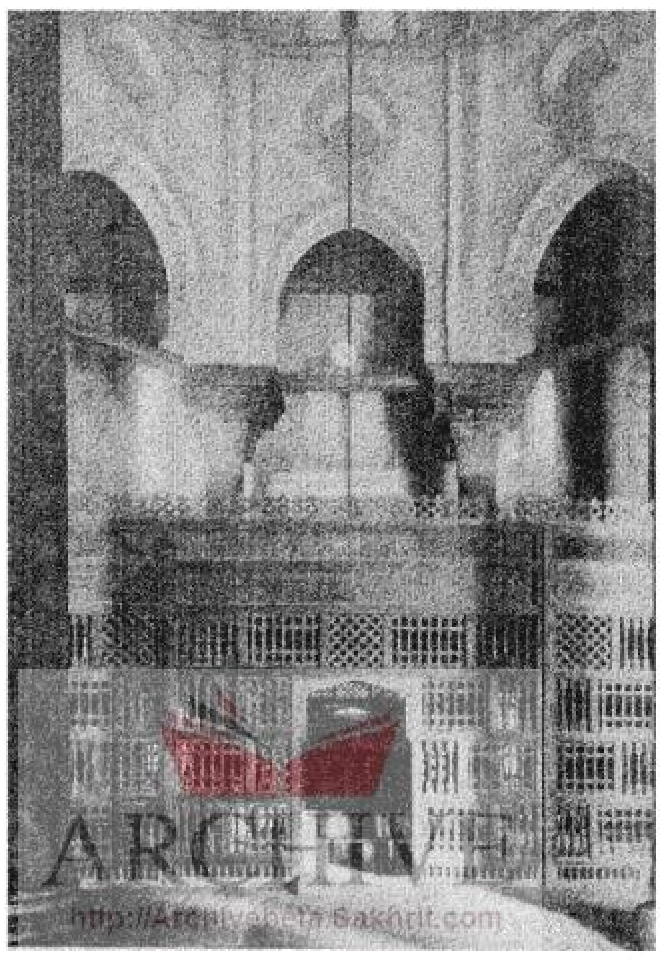
ويخترق جدران هذا المدفن العظيم ثلاثة صفوف مختلفة الرسم والحجم : تراها في الصف الاسفل مستطيلة الفتحة كان يجلس فيها القراء ــ على حد قول المقريزى ــ يتناوبون القراءة طول الليل والنهار . ونجد فتحاتها في الصف الاوسط متوجة بعقود مدببة . أما في الصف العلوى فيقسم كل نافذة عامود لطيف تعلوه دائرة مفرغة في الجدار ، وتزدان نوافذ الصفين الاوسط والاعلى من الداخل بزجاج مختلف الالوان ينعكس منه الضوء فيكسب المكان بهاء وروعة . أما من الخارج فيملأ فتحات النوافذ جميعها مصبعات من البرونز ومن الجص تكون في تقاطعها زخارف يحار البصر في محاسنها .
ويزين هذه الجدران من أسفل ألواح من الرخام يعلوها فسيفساء مصنوعة من الصدف ومن الرخام المختلف الالوان تشهد فيها زخارف عربية جميلة أو كلمة « محمد » مكتوبة بالخط الكوفي المربع رتبت في أوضاع متباينة جعلتها تبدو كأنها عنصر زخرفي لا كتابة مقروءة ، وفوق هذا ترى طرازا مذهبا من الكتابة النسخية غاية في الابداع

أما المحراب فقطعة من الفن الجميل ، يحف به من جانبيه أعمدة من الرخام رشيقة التكوين ، ويكسو تجويفه فسيفساء دقيقة من الصدف والرخام ، وتزينه صفوف من العمد الصغيرة ترتاح لرؤياها العين

وللتربة واجهة تتجلى فيها براعة الفنان المسلم وحذقه بأبهى صورة ، تخالها لدقتها قطعة نسيج تفنن الصانع في نسجها وتطريزها ، وهي تطل على قاعة جليلة كانت ــ كما يقول المقريزى ــ مفروشة بالرخام الملون وكان في وسطها فسقية يصل اليها الماء من فوارة بديعة الزى

---

(١) بشارع المعز لدين الله (بين القصرين سابقا) بجوار الصاغة



تمثل هذه الصورة قبة قلاوون من الداخل ، وهى غرفة مربعة الشكل يتوسطها مثمن تعتمد عقوده المزخرفة على أربع أرجل بينها أربعة أعمدة من الجرانيت الأحمر (تصوير إدارة حفظ الآثار العربية)

أما الواجهة المشرفة على الطريق العام فتكون مع القبة والمئذنة الذاهبة فى الفضاء منظرا بلغ فيه الفن مستوى رفيعا من الروعة والبهاء ، تتوجها شرفات غاية فى الابداع ، ويزينها تجويفات قليلة الغور مختلفة السعة لها عقود مدبية ويفصلها عن بعضها البعض أكتاف محمولة على عمد رومانية ، ويجرى على سطحها طراز من الكتابة النسخية الجميلة يتضمن تاريخ البناء (٦٨٣/٦٨٤ هـ - ١٢٨٤/١٢٨٥ م)

ولئن كنا جد حريصين على أن نتلقى عن هذا الأثر الرائع درسا صادقا فى التاريخ فلنرفع البصر الى ذلك الطراز ، ولنصطنع الصبر قليلا لنقرأ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بانشاء هذه القبة الشريفة والمدرسة المعظمة والبيمارستان المبارك تقربا الى الله سبحانه وتعالى سيدنا ومولانا السلطان الاعظم المنصور العالم العادل المؤيد الظفر المجاهد المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين سلطان الارض ذات الطول والعرض ملك البسيطة سلطان العراقين والمصريين ، ملك البرين والبحرين وارث الملك ملك ملوك العرب والعجم صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين قلاوون الصالحى قسيم أمير المؤمنين أدام الله نصره وأعز أنصاره وأعلا مناره»

ففى هذه السطور القليلة ما يعطينا صورة واضحة المعالم لما وصلت اليه مصر فى عهد قلاوون من

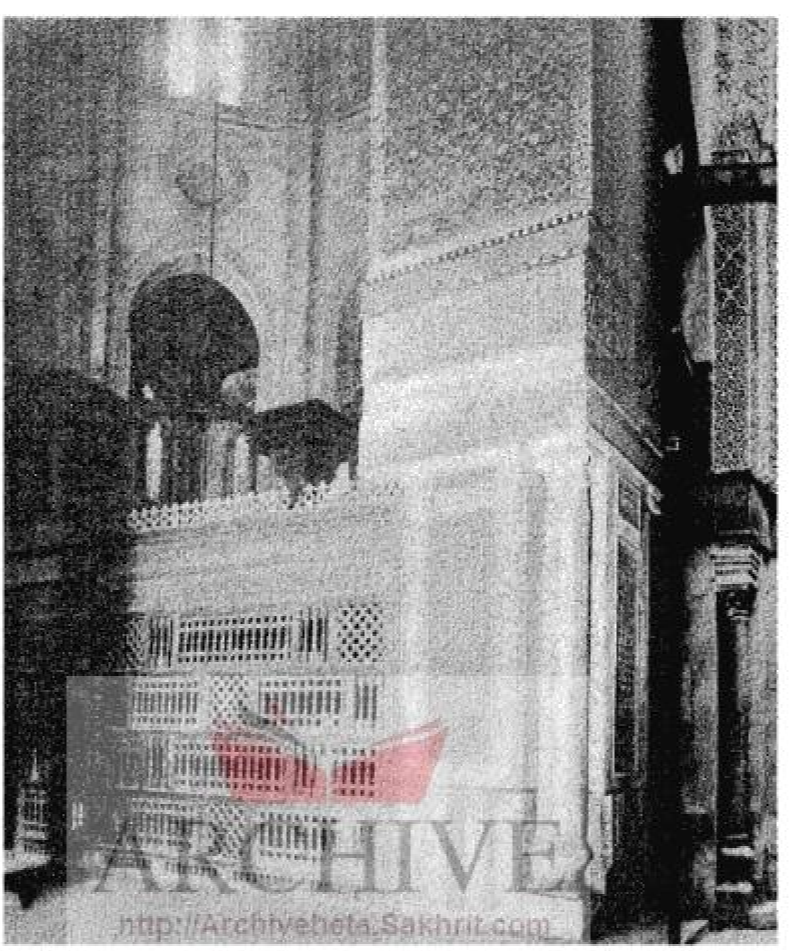


الواجهة الداخلية لقبة قلاوون ، وقد حليت بالزخارف العربية الجميلة ، (تصوير إدارة حفظ الآثار العربيــــة)

العظمة والسؤدد اذ دان لها المصران أى الوجهان القبلى والبحرى ، وامتد نفوذها الى العراقين العربى والعجمى ، ودخل فى ظلها البحران الابيض والاحمر ، والبران أى بعض سواحل آسيا وأفريقيا ، وارتفع اسمها فى قبلتى مكة والقدس ، وعلت مكانتها فى الحرمين المكى والمدنى [1] بل فيها ما يلخص لنا نشأة قلاوون نفسه أحسن تلخيص ، فقد أضاف الى اسمه كلمة « الصالحى » وهو لفظ على صغره يكشف لنا عن أصل هذا السلطان فالصالحى تعنى الصالح نجم الدين أيوب أحد سلاطين الدولة الايوبية ، ونسبة قلاوون اليه معناها أنه كان من مماليكه ، والمماليك رقيق كان يحصل عليه بالاسر فى الحرب أو الشراء فى السلم ، وقد كان الخلفاء العباسيون أول من استن هذه السنة ، ونسج على منوالهم أمراء المسلمين وسلاطينهم فاستعانوا بهم فى الحرب وزينوا بهم قصورهم فى السلم ، فابن طولون قوى بهم جيشه ، والاخشيد اعتمد عليهم فى حروبه ، والفاطميون أكثروا من شرائهم ، والايوبيون بالغوا فى الاستكثار منهم لا سيما الصالح نجم الدين أيوب الذى كان عامة عسكره منهم كما يقول ابن اياس ، وقد كان قلاوون أحد مماليكه هؤلاء اشتراه بألف دينار

---

(١) Van Berchem : Materiaux pour un Corpus Inscriptiorum Arabicarum I p. 126, 127



المحراب قطعة من الفن الجميل ، يحف به من جانبيه أعمدة من الرخام، ويكسو تجويفه فسيفساء دقيقة من الصدف والرخام وترى جانباً منه (تصوير إدارة حفظ الآثار العربية)

على أن فى الظواهر المعمارية التى نشاهدها فى هذا الاثر ما يزيدنا علما بالعصر الذى أنشئ فيه : فالتأثيرات السورية التى تتجلى فى تصميم القبة – الذى يشبه تصميم قبة الصخرة فى القدس – وفى الوزرات الرخامية وفى شكل النوافذ ، والتأثيرات الاندلسية والسلجوقية التى نراها فى المئذنة وفى الواجهة الداخلية ، والتأثيرات القوطية التى تظهر فى شكل بعض العقود ، جميعها تشعر بما كان لنا من صلات – فى الحرب أو السلم – مع المغول والصليبيين والروم فى آسيا ومع الفرنسيين والطليان والاسبان فى أوربا

▭

وهكذا نرى أن هذا الاثر الرائع بما تضمنه من نصوص تاريخية ومن تأثيرات معمارية يعد بمثابة سجل مفتوح لتلك الفترة الذهبية من تاريخنا فى العصور الوسطى يوم امتد نفوذنا الى الشمال والى الجنوب وخطبت ودنا دول الشرق والغرب

محمد عبد العزيز مرزوق

الامين المساعد لدار الآثار العربية

إن أفكار أفراد الأمم الأوربية والأميركية حتى الآسيوية متجهة الآن الى «الديمقراطية الدولية» وهذا يقضي بأن تكون جميع الأمم مشتركة في المجلس الأوربي الذي اقترحه تشرشل على قدم المساواة

تنظيم العالم المنتظر بعد الحرب

بقلم الأستاذ نقولا الحداد

حقا انه لخليق بكل أمة أن تقلق على مصيرها بعد الحرب ، وأن تتشوف منذ الآن الى معرفة تنظيم العالم المنتظر ، لان هذه الحرب شملت جميع الامم : بعضها مباشرة ، وبعضها بالاتصال بالامم الاخرى المحاربة . ولا سيما لان انتشار المواصلات والمعاملات ربطها جميعا ربطا وثيقا ، بحيث أنه صار مستحيلا على أية أمة أن تنفرد في عزلة وتستقل عن مجموعة الامم

وما صدر من أقوال أساطين السياسة من تصريحات اجمالية عن التنظيم المنتظر ، أثار لغط الناس وثرثرتهم وأطلق ألسنتهم بالتكهن عنه . فتضاربت الاقوال والتكهنات على غير أساس أو هدى . على أننا اذا تدبرنا أقوال زعماء السياسة ، لمحنا ضوءا هاديا الى ما دبره هؤلاء الزعماء وما تباحثوا فيه في مؤتمراتهم المتوالية

عندنا ثلاثة بلاغات تفصح عما في نية الزعماء : اثنان رسميان والثالث شبه رسمي

فالبلاغ الاول الميثاق الاتلانتي الذي اتفق عليه المستر تشرشل والمستر روزفلت بعد دراسة دقيقة للاحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتوقعة . وكل ذلك على ظهر سفينة حربية في عرض الاوقيانوس الاتلانتي في أغسطس سنة ١٩٤١

وأهم ما في هذا الميثاق المادة الثالثة التي تنص على احترام حق جميع الشعوب في اختيار الحكومات التي تدير شؤونها

والرابعة منح جميع الدول بلا استثناء حق الوصول الى اتفاقات تجارية متساوية

والسابعة منح جميع الناس حق التجارة الحرة عبر البحار

والثامنة نزع السلاح

وكان روزفلت قد نشر في ٥ يوليو سنة ١٩٤٠ بلاغ الحريات الاربع التي صارت مشهورة : وهي حرية القول ، وحرية العبادة ، والتحرر من البؤس ، والتحرر من خوف الحرب والخصومة

ومجمل هاتين الوثيقتين أن تتسع دائرة حرية الامم والافراد أكبر اتساع ممكن أي

أن تكون كل أمة مستقلة استقلالا متسعا الى حد ألا يمس استقلال الغير ، وبحيث لا يستغل فرد عمل فرد آخر ، ولا تستغل أمة نتاج أمة أخرى ــ وهكذا تكمل « حقوق الانسان »

ذلك منتهى ما يتوصل اليه من الوسائل لسلام الامم وهناءة الافراد

لا ريب أن هاتين الوثيقتين أرسخ أساس لبنيان العالم الجديد . ولكن أين الكفيل لنقل هذا الاساس عن ورق الوثيقتين الى حقل المجتمع حيث يشاد البناء

لا يخفى أن الميثاق الاتلانتى لم يوضع ويقرر الا بعد أن تفاوض تشرشل وروزفلت مليا فى قضية تنظيم العالم بعد الحرب . فجاء الميثاق زبدة تلك المفاوضات

وفى ٢١ مارس من عام ١٩٤٣ ألقى تشرشل خطبة فى اجتماع حافل تضمنت صفوة تلك المفاوضات ، وهى القرار الذى أقره هو وروزفلت . فكأن هذه الخطبة بمقام تعهد بكفالة ذينك الزعيمين العظيمين لتنفيذ الوثيقتين الآنف تلخيصهما

ثم جاءت خطبة سمطس نائب تشرشل المؤقت فى ٢٥ نوفمبر من عام ١٩٤٣ مزكية لذلك القرار

زعزع البناء

ويظهر ، بكل أسف ، أن بين الوثيقتين من ناحية والخطبتين من ناحية أخرى تناقضا قد يجعل أساس البنيان غير وطيد ، وبالتالى يجعل البنيان نفسه مزعزعا . واليك مقتطفات مما جاء فى خطبة تشرشل مما يخص النظام العالمى :

« .. نأمل أن تشرع حالا الامم المتحدة وفى مقدمتها الدول الثلاث المنتصرة وهى بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية وروسيا فى بحث مستقبل العالم ووضع القواعد التى تضمن عدم نشوب حروب أخرى ، وذلك بنزع سلاح الدول المعتدية وابقائها بدون سلاح ، ومحاكمة مجرمى الحرب وشركائهم وضمان اعادة الاراضى المجتاحة واعادة كنوز البلاد التى نهبت

« ويستطيع المرء أن يتصور تمثيل جميع الامم فى مجلس لاوربا ومجلس آخر لآسيا .. وتسوية مسائل أوربا ستكون مركزة على عاتق هذا المجلس الاوربى . وهو عبء هائل لان جميع الاسباب التى أفضت الى شبوب الحربين العالميتين موجودة فى أوربا

« ومن المحقق أنه يجب أن نجعل فكرة الحرية العالمية أساسا لعملنا الجديد ، وأن نجعل للاخلاق التى كانت روح عصبة الامم المكانة الاولى .. ويجب أن نجتهد ــ وانى اتكلم طبعا عن انفسنا ــ فى أن نجعل مجلس أوربا ، أو الهيئة التى تسمى بأى اسم آخر ، عصبة فعالة حقيقة ، ولديها جميع القوات التى تحتاجها ، داخلة فى نسيجها ، مع محكمة عليا لتسوية المنازعات ، وقوات مادية قومية ، أو دولية ، أو كليهما مستعدة لتنفيذ قراراتها ومنع تجديد الاعتداء والاستعداد للحرب فى المستقبل

« وفى وسع كل انسان أن يرى أنه متى أنشىء هذا المجلس ، يجب أن يكون شاملا لكل ما يتعلق باوربا ، وان جميع فروع الأسرة الاوربية الاساسية يجب أن تكون أعضاء فيه يوما ما (متى ؟) (وماذا يحدث لذلك العدد الكبير من الامم الصغيرة التى يجب ضمان حقوقها ومصالحها ؟)

« يجب على كل حال أن ندرس بصبر واناة مع الامم العظمى ضرورة وجود جماعات من الدول أو الاتحادات الى جانب الدول العظمى ، لتعرب بواسطة مندوبيها المختارين عن جميع المسائل المشتركة بين الامم العظمى وتلك الدول الصغرى . ولى وطيد الامل فى أن تتمكن من ايجاد أكبر مقدار مشترك بالامكان فى الحياة المتماسكة فى أوربا دون أن نقضى على المميزات الفردية وتقاليد أجناسها التاريخية الكثيرة . وهذا كله على ما أعتقد سيكون مطابقا للمصالح الدائمة العالمية لبريطانيا والولايات المتحدة وروسيا . ولا شك فى أن هذا لا يمكن أن يتم دون اتفاق ودى بين هذه الدول المشتركة ، وبعملها معا . وبذلك ـ وبذلك فقط ـ يمكن احياء مجد أوربا ثانيا » انتهى . . يعنى مصالح أوربا ومجدها أولا ، ومصالح غيرها أخيرا

أما خطبة سمطس فقد ضربت على النغمة نفسها وزادت عليها : (١) ان ثالوث الدول الثلاث يعتبر زعيم الامم (٢) ان هذه الزعامة المثلثة يجب أن تكون مسلحة دون سائر الامم (٣) ان خريطة أوربا قد امحت من الوجود فيجب أن ترسم لها خريطة جديدة طبقا لما ترسمه هذه الدول الثلاث . . ان كلام سمطس هذا يعد شبه رسمى ، اذ كان حينئذ نائب تشرشل فى رئاسته للحكومة الانكليزية

المفهوم من هاتين الخطبتين ، على تباعد المدة بينهما ، أنه سيكون فى أوربا طبقتان من الامم : طبقة عليا هى هذه الامم الثلاث ، وطبقة دنيا وهى الامم الاخرى التى سترسم على الخريطة الجديدة . وتلك سيدة وهذه خاضعة لتلك ، وتلك مسلحة وهذه مجردة من السلاح ، وتلك تأمر وهذه تأتمر

فكيف يكون ميثاق الاتلانتى هنا ضامنا الحريات الاربع ؟ وكيف يكون هذا النظام مانحا حقوق الانسان للناس والامم جميعا ؟

والملاحظ جيدا أن تشرشل وروزفلت كانا يبلغان ستالين نتائج مفاوضاتهما على التوالى . والظاهر أنه بعد خطبة تشرشل التى نحن بصددها ، لم يكن ستالين موافقا على الخطط التى اختطاها وعلى تفاصيل تنفيذها ، بدليل أنه بعد خطبة تشرشل بنحو شهرين ، نشر فى بعض الجرائد نبأ برقى بعنوان « المشكلات السياسية » فهم منه أن ستالين مصر على تنفيذ البند الثالث من الميثاق الاتلانتى باوسع معنى ـ أى أنه يجب أن تترك لكل أمة الحرية المطلقة بأن تقرر مصيرها بنفسها . ولا يسمح بأن يقوم فيها رجل مثل كويسلنج يستقل بالسلطة ويحكم بأمره ويستبد، معتمدا على مساعدة دولة أجنبية من وراء الستار . ولعله يرمى بذلك الى ترك الشعوب تعتنق مذهبه السياسى الاقتصادى لانها أصبحت

مختمرة به . وكأنه يعارض فى أن يكون للمجلس الاوربى الذى يقترحه تشرشل سلطة واسعة

ولا ريب أن المؤتمر الثلاثى فى طهران وفق بين الزعماء الثلاثة على جميع مسائل ما بعد الحرب . ولكننا لم نعرف ماذا كان قرارهم بشأن قيادة الثالوث السياسى لسائر الامم

أعصبة أمم محالفة ثلاثية

اذا كان المراد من مشروع التنظيم الذى صرح به تشرشل ، أن يعتبر ذلك المجلس الاوربى عصبة أمم جديدة تحل محل عصبة الامم التى بادت ، فهو يمتاز عليها بامر ويعاب مثلها بامر آخر ــ يمتاز على العصبة بأنه يكون مسلحا تسليحا متضامنا ــ أو أن تبقى دوله الثلاث مسلحة ــ دون سائر الامم لتنفيذ قراراته وأحكامه وردع الدولة التى تعتدى أو تخل بالنظام الدولى

وأما عيب المشروع فقد يكون أضر من العصبة التى كانت عزلاء من السلاح . وهو ان هذه العصبة الجديدة لا تشمل جميع أمم العالم حتى ولا جميع أمم أوربا ، بل تقتصر على الدول الكبرى الثلاث . وقد تضاف اليها اضافة ثانوية الدول التى حاربت أو حوربت معها ، كبلجيكا وهولاندا وبولاندا وتشكوسلوفاكيا ونروج ويوجوسلافيا واليونان وربما فرنسا أيضا . ومع الزمان تقف الى جنبها بعض الدول الاخرى التى كانت محاربة مع المحور ، تقف فى الدرجة الثالثة لكى تعرب بواسطة مندوبيها عن آرائها ورغباتها فى المصالح المشتركة بينها . وأما الامم التى بقيت على الحياد فتجامل بقدر ما يستحق مقامها وحسن تضامنها مع العصبة

فهذا الاتحاد الأممى الذى ينشده المستر تشرشل وزملاؤه من كبار الساسة لن يكون عصبة الامم جمعاء ولا عصبة الامم الاوربية والاميركية ، بل يكون عصبة ثلاث أمم فقط ، تضم تحت جناحيها بعض الامم الصغيرة وتتحكم بالامم الاخرى . فهى من هذا القبيل لا تختلف عن العصبة السابقة الا بالسلاح . وفيه الخطر اذا لم تكن ذات ضمير طاهر . وقد كانت تلك العصبة المرحومة تشتمل على انكلترا وفرنسا والى جنبهما بعض الدول الصغرى المحتاجة الى الاعتصام بهما . وأحيانا كانت انكلترا وحدها تلعب دور العصبة كما حدث حين اعتدت ايطاليا على الحبشة ، فحكمت العصبة بمعاقبتها بالمقاطعة الاقتصادية . ولكن تنفيذ المقاطعة اقتصر على انكلترا وحدها . وأما فرنسا فبدلا من أن تقاطع ايطاليا أقرضتها عشرين مليون جنيه حينئذ . وهكذا فشلت العصبة وزالت هيبتها . لماذا ؟ لانها كانت عصبة بعض أمم لا عصبة الامم جمعاء

ما هذه العصبة الجديدة الا محالفة ثلاثية كبرى مسلحة ضد دول صغرى مشتتة عزلاء . اذن فالعوامل التى تسبب الحرب لم تنقض

على أننا لا نستطيع الآن أن نتكهن فيماذا يكون شأن الدول الاخرى ، التى لم تكن الى جانب الدول المتحدة فى هذه الحرب ، ولا سيما التى كانت عدوة الحلفاء ــ ألمانيا والنمسا وايطاليا ورومانيا وهنغاريا وبلغاريا وفيشى ــ وجل ما فهمناه من هذا القبيل أن جميع فروع الأسرة الاوربية يجب أن تكون مجلس العصبة يوما ما . متى ؟ لا ندرى ولا سيما لان المارشال سمطس قال انه لن يكون صلح . قال بنصه : « قد نرضى بهدنة شاملة نتفاهم عليها دون أن نصل الى أية مؤتمرات للصلح مطلقا »

فاذا لم يكن صلح ولو بعد سنين ، فكيف يمكن انضمام هذه الامم الى العصبة . واذا كانت هذه العصبة لا تضمن عدلا ، فكيف تضمن سلما ، أو بالعكس . اذا ضمنت السلم الى حين ، فلا تضمنه بالعدل ، بل بقوة سلاحها المطلقة . واذا كانت بعض الامم تسيطر على بعض الامم الاخرى ، فكيف تكون ديموقراطية الميثاق الاتلانتى قد فازت فى هذه الحرب ؟ ألا تكون الدكتاتورية الدولية قد فازت ؟

الديموقراطية الدولية

ان أفكار أفراد الامم الاوربية والاميركية حتى الاسيوية الراقية متجهة كل الاتجاه الآن الى « الديموقراطية الدولية » أعنى أن تكون العلائق الدولية قائمة على أساس الديموقراطية الصحيحة . وهذا الاتجاه يقضى بأن تكون جميع الامم مشتركة بالمجلس الاوربى الذى اقترحه تشرشل على قدم المساواة ، أى أن يكون لكل أمة كبيرة أو صغيرة عضو أو أعضاء فيه . فيكون هذا المجلس كبرلمان دولى أعلى . وله أن يعين الادارة السياسية العليا المسيطرة ، وأن يقرر تسليحها على حساب جميع الدول المشتركة فيه . وحينئذ يكون من حقه وفى طوقه أن يجرد جميع الدول من سلاحها بحجة أن لكل أمة ضلعا فى قوته الحربية يكفل الدفاع عنها ، وتنفذ القضاء بين الدول المختصمة ، وادارة الشؤون الاقتصادية الخ

فاذا قام النظام على هذه القاعدة الديموقراطية ، كان مطابقا للميثاق الاتلانتى الذى هو سند جميع الامم الآن ، ولا سيما الامم الصغرى ، والا فيكون محالفة ثلاثية مسلحة ضد الامم الاخرى العزلاء كما تقدم القول . وبقى شأن هذه الامم تحت رحمة انكلترا واميركا وروسيا ومعلقا فى ذمتهن . فاذا كانت الاحوال الحاضرة تكفل حسن ذمتهن الى حين ، فمن يكفله فى المستقبل ؟

وحاصل القول ان مشروع المجلس الاوربى هو مشروع وقتى غير مضمون الخلود أو الدوام الى أجل بعيد ، لانه ليس ديموقراطيا بحتا . لا يكون راسخا وطيدا الا اذا كان جمهورية عليا لجميع الامم الجمهورية أو شبه الجمهورية أو الملكية . والمجلس يكون بمقام برلمان . وهذا البرلمان يعين الهيئات الادارية العليا ــ حكومة الحكومات

فى رأى بعض المتفقهين فى السياسة أن الديموقراطية جربت فحبطت ، ولذلك لا بد من

الاعتماد فى ادارة شؤون الامم على الزعامة الدولية . وما أدرانا ألا تتحول هذه الزعامة الدولية الى دكتاتورية دولية مستبدة

لم تحبط الديموقراطية فى بعض الامم لانها نظرية خاطئة ، بل حبطت لان الساسة أساءوا التصرف فيها . فالعيب ليس فيها بل فيهم . فاذا كانت ناجحة فى بعض الامم كانكلترا وأميركا وروسيا ، فماذا يمنع أن تنجح بين الدول ؟

لعل الديموقراطية الدولية لا تصلح الآن لبعض دول هذا الزمان لضعف أخلاق الساسة والأفراد ، فلا بأس أن تكون القيادة فى يد زعامة دولية ، كالمجلس الاوربى الذى اقترحه تشرشل ، لانه يظهر أن بعض الافراد وبعض الهيئات وبعض الامم لا تحسن السلوك الا اذا كانت منقادة بقيادة زعماء . ولانه فى كثير من الاحوال يكون الحكم الملكى أصلح للجماعة من الحكم الجمهوري كما هو الحال فى انكلترا ومصر مثلا ، اما لان الشعب تعود الحكم الملكى حتى صار سجية فيه ، أو لانه لم يتشرب بعد فضيلة الديموقراطية

وانما يشترط أن تكون الزعامة صالحة الضمير ، والا فلا تؤتمن على مصالح الامم وعلى العدالة بينها

فصلاحية النظام المعد للمستقبل القريب تتوقف على أمانة الزعامة الثلاثية وحسن طويتها . والملجأ الاخير هو الله الملهم والعاصم والمكافىء

المجلس الأسيوى

نعود الآن الى اقتراح المستر تشرشل ، وهو أن يكون لامم آسيا مجلس آخر بازاء مجلس أوربا

لم يذكر المستر تشرشل عن هذا المجلس شيئا البتة لكى ينيرنا عنه كما انارنا عن مجلس أوربا . فان كان يعنى به أن يكون على مثال المجلس الاوربى ، فبين القارتين فروق اجتماعية وسياسية واقتصادية عديدة . ولذلك لا يمكن أن يتطابق المثالان على النمط الذى ألمع اليه المستر تشرشل ، أى نمط العصبة المميزة بين الدول الاوربية ـ العصبة التى تكون فيها الدول درجات

ما هى الدول الاسيوية الرئيسية ؟ ليس فى آسيا دولة مستقلة الا الصين واليابان . وهما متعاديتان . وان أريد أن تعتبر روسيا جغرافيا شطرين ، فهناك روسيا الآسيوية ـ سيبيريا الكبرى ـ وما بقى فى آسيا فامم مستعمرة ، اللهم الا سيام اذا سلمت وعاد لها استقلالها . فهل تؤلف العصبة الاسيوية من الصين وروسيا الاسيوية وسيام ؟ وماذا يكون شأن سائر الامم المستعمرة كالهند والهند الصينية والملايا وشأن أمم الاوسيانيكا وشأن أمم أفريقيا جميعا ؟ هل تبقى توابع للدول المستعمرة لها ؟ أم تكون الى جانب العصبة الاسيوية كما تكون الامم الاوربية الصغرى الى جانب العصبة الاوربية على النحو الذى ذكر فى محله ؟

هذه مسائل عظيمة الشأن جدا . لانه على الرغم من بعد الشقة بين مجموعتى الامم فان المصالح بينهما أشد ارتباطا منها بين الامم الاوربية نفسها التى كانت تتازع آسيا وافريقيا. لان أوربا تكاد تكون سوق المواد الاولية (الخام) التى تصدر اليها من آسيا وأفريقيا والباسفيك . وهذه سوق المصنوعات الاوربية والاميركية. فلو انقطعت الصلة بين الجانبين هلك الجانبان معا . فاذن هذان الجانبان شقيقان مرتبطان شديد الارتباط ، فكيف يفصل بينهما سياسيا ؟

فاذا كانت المستعمرات ستبقى مستعمرات يستغلها مستعمروها ، وكل دولة تستغل مستعمراتها لنفسها دون غيرها ، فلا فائدة من هذه العصبة ، لان الطموح الى تنازع هذه المستعمرات يبقى سوسا ينخر عظام السلام . ولان الاستعمار كان علة هذه الحروب وما تحدثه من دمار . وسيبقى كذلك ما دام قائما

ولماذا يكون فى العالم مجلسان دوليان أو عصبتان للامم ؟ ألان الغرب غرب والشرق شرق ، وذاك يجب أن يكون سيد هذا الى الابد ؟ أم لان أوربا هى العالم كله ؟ أو أن العالم هو أوربا وحدها ؟

الى متى هذه العنجهية الاوربية ؟

يا ترى هل فهم الاوربيون ان هذه العنجهية قتلتهم ، وستقتل مدنيتهم أيضا ؟

نقولا الحداد

أغرب الساعات

■ فى مدينة مسينا بصقلية ساعة تشتمل على أسد وديك : أما الاسد ، وارتفاعه اثنتا عشرة قدما ، فيزأر زئيرا مدويا اذا جاء وقت الزوال. أما الديك ، وارتفاعه ست أقدام ، فيصيح عند شروق الشمس وعند غروبها

■ وفى مدينة بيرث باستراليا ساعة على هيئة تمثل القديس جورج ، وكلما مرت ساعة سل القديس سيفه وقطع به رأس الشيطان ، فتهوى عن جسده ثم تعود الى مكانها ، فيعود القديس بعد ساعة الى قطعها وهكذا

■ فى أحد مستشفيات مدينة ميونيخ ساعة خاصة بالمرضى المستلقين على ظهورهم ، فاذا ضغط أحدهم على « زر » خاص الى جواره ، ارتسم على سقف الغرفة ظل عقربى الساعة ، فعرف الوقت ، وهو نائم دون أن يدير عنقه أو يحرك رأسه

الاتحاد العربي : هل هو ممكن ؟

للدكتور فيليب حتى

الاستاذ بجامعة برنستن بامريكا

ترجمة الاستاذين

فرحات زيادة وابراهيم فريجى

من هم العرب ؟

فى زمان سابق لفجر الاسلام وقبل القرن السابع للمسيح ، كان يطلق اسم « العرب » على شعب واحد متجانس يسكن الجزيرة العربية والهامش الداخلي من الهلال الخصيب المجاور . فكانت التسمية يومذاك ذات صبغة جنسية (اثنولوجية) فقط . ولكن بعد أن انتشر الاسلام وعمت اللغة العربية وامتزج عرب الجزيرة بالشعوب الاخرى بداعى الفتوحات العديدة التى قاموا بها فى القرن الاول للهجرة ، اكتسبت هذه التسمية معنى آخر جديدا

وذلك المعنى هو المعنى اللغوى . ففى القرن التاسع للمسيح والقرون التى تلته أصبح العربى من تكلم العربية فى متسع من الارض يمتد من تركستان وفارس شرقا الى مراكش واسبانيا غربا ــ بقطع النظر عن أصله وجنسه . ففقدت التسمية عند ذاك المعنى الجنسى ، واكتسبت معنى آخر لغويا . وعند اضمحلال الخلافة فى بغداد وقرطبة والقاهرة ونشوء الحياة القومية فى فارس واسبانيا ، أخذ العالم العربى يتقلص الى أن بلغ حجمه الحاضر . واليوم يمكننا أن نطلق اسم « العرب » لا على سكان الجزيرة فقط ، بل على كل من تكلم العربية

واذا قبلنا هذا التعريف اللغوى ــ أى أن العرب هم الذين يتكلمون اللغة العربيـة ولا سيما اذا كانوا مسلمين بقطع النظر عن أصلهم الجنسى ــ فتكون البلدان العربية المهمة اليوم هى : مراكش والجزائر وتونس وطربلس الغرب (ليبيا) ومصر والجزيرة العربية وفلسطين وشرق الاردن ولبنان وسورية والعراق ــ وهى كتلة متلاصقة تمتد من المحيط الاتلنتيكى غربا الى خليج فارس شرقا . ويبلغ عدد سكانها بأجمعهم اذا أهملنا الجماعات العربية فى السودان وشرقى أفريقيا ــ كما نحن فاعلون فى هذا المقال ــ خمسين مليونا . أما بلدان شمالى افريقيا ــ خلا مصر ــ فتكون وحدة قائمة بنفسها . ذلك أن قربها من أوربا وبعدها عن مركز الاسلام وقلبه النابض فى غربى آسيا وضعف الحضارة الاسلامية والتقاليد العربية فيها بداعى ما تحتويه من الاجناس البربرية والشعوب الاوربية ، وكونها

أول البلدان العربية التى خضعت للنفوذ الاوربى ، كل ذلك أضعف الحياة القومية فيها وجعلها تنهج نهجا خاصا

• ويجب ألا ننسى أن العنصر البربرى فى مراكش يقدر بستين فى الماية ، وفى تونس بخمسين فى الماية من مجموع السكان . فالنسبة العددية للعنصر البربرى تتزايد من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب بوجه الاجمال . وفضلا عن ذلك فالنفوذ السياسى الخارجى أوقع بين البربر والعرب وأضعف كلا الفريقين

كانت الجزائر أول بلاد وقعت تحت السيادة الاوربية المسيحية وذلك عام ١٨٣٠ . وتبعتها تونس عام ١٨٨١ . أما ليبيا فخضعت لهذه السيادة سنة ١٩١١-١٢ . وعندئذ تمت سيطرة دول البحر المتوسط اللاتينية — فرنسا واسبانيا وايطاليا — على معظم تلك الشقة من الارض

أما الكتلة الاسيوية الغربية فتختلف عن الكتلة الافريقية الشمالية فى أنها تغذت فى أثناء تاريخها الطويل من الدم السامى الذى كانت السلالة العربية آخر ممثل له . وفضلا عن ذلك فان تدخل الدول الاوربية المسيحية فى شؤون آسيا الغربية جاء متأخرا عن تدخلها فى افريقيا حيث اتبعت الدول الثلاث المذكورة ، وخاصة فرنسا ، خطة من شأنها اقامة حواجز بينها وبين سائر العالم الاسلامى وابعادها عن مجارى تفكيره . وكذلك أقيمت صعوبات عدة حالت دون تقدم اللغة العربية فى تلك البقاع، ففى مراكش والجزائر وتونس أصبحت الفرنسية لغة السكان الثقافية دون العربية . وهذه العملية ، عملية القضاء على العروبة لا تزال مستمرة منذ أعوام ، ولا سيما فى الجزائر التى تعد جزءا من فرنسا . وعند ما احتل الجيش الاميركى شمالى أفريقيا كرر لافال القول بأن تلك البقاع ليست الا جزءا طبيعيا متمما لبلاد فرنسا

ومما يسهل السبل لهذا الادعاء كثرة عدد الاوربيين المقيمين فى هذه البلاد . ففى مراكش يقدر عددهم بأربعماية وخمسين ألفا من مجموع سكانها الذين يبلغون سبعة ملايين ومائة ألف. وفى الجزائر التى يبلغ سكانها سبعة ملايين وثلاثماية ألف يقدر عدد الفرنسيين بعشر هذا العدد . أما فى تونس فتدل الاحصاءات الاخيرة على أن عدد الاوربيين يبلغ مايتين وثلاثة عشر ألفا من مجموع السكان المقدر بمليونين وستماية ألف . وفى ليبيا ماية وخمسة عشر ألفا من المجموع البالغ تسعماية ألف

كل هذا يؤكد أن الامصار العربية فى شمالى أفريقيا أخذت منذ ماية سنة تواجه مشاكل خاصة بها ، فاستحدثت أساليب تفكيرية وثقافية أبعدتها عن شقيقاتها فى الشرق ، وأنزلتها درجة أدنى من الوجهة القومية . فيصح أن نقول انه باستثناء بعض الثورات المحلية ، ومنها ثورة الريف التى قام بها عبد الكريم سنة ١٩٢٥ ، بأن الحركة القومية الشاملة كانت هنالك هاجعة ساكنة ، وأنها كانت منحصرة فى الفئة الخاصة من المفكرين وغير متأصلة فى نفوس العامة . فقلما نسمع بشخصيات وطنية متزعمة فى مراكش

والجزائر وتونس وليبيا ، كما نسمع عن شخصيات مثلها فى مصر وفلسطين والعراق . ولا علم لنا بمؤسسة أو منظمة عامة ترمى الى تقوية الروابط فى سبيل التعاون نحو الهدف الوطنى الشامل . ولا نجد تأثيرا فعليا بينا للحركات الفكرية والوطنية المنبعثة من غربى آسيا أو مصر الا فى بلاد تونس . ثم يتناقص هـذا التأثير تدريجيا حتى يبلغ درجـة الاضمحلال فى مراكش . ومما لا ريب فيه أن القوم أصبحوا فى كل تلك الارجاء ، منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ، فى حالة نفسية مقاومة للاستعمار الاوربى والنفوذ الغربى ، وهذا هو أكبر مشكل تواجهه الآن دول الاستعمار بعد أن كان تزاحمها على تلك البلدان مثار أعظم المشاكل بين بعضها بعضا

أما مصر فغير تابعة للكتلة الافريقية الشمالية ولا للكتلة الاسيوية الغربية ، بل هى همزة الوصل بين الفريقين . ورغم كونها جزءا من أفريقيا ، فهى منذ العصور القديمة تعد قسما من آسيا من الوجهتين التاريخية والثقافية . ولنا أن نقول على الاجمال ان شمال أفريقيا بأسره كان اتجاهه التاريخى نحو آسيا أكثر منه نحو أوربا أو افريقيا ، فقد سيطر الفينيقيون والقرطاجنيون والبيزنطيون والعرب والاتراك على معظم تلك الاصقاع فى مختلف العصور

الحركة القومية فى البلاد العربية

وقد أفاقت مصر من سبات العصور الوسطى عند ما غزاها نابوليون سنة **١٧٩٨** ، فكانت أول قطر عربى اسلامى أحكم العلاقات الحيوية مع الغرب . وأدخل نابليون الى مصر مطبعة عربية كان غنمها من كلية انتشار الايمان فى رومة وبواسطتها تأسست أول جريدة عربية فى وادى النيل (١) . وأنشأ أول هيئة تعد مجمعا علميا . وبذلك أسس نابليون عن غير قصد حركة فكرية فعالة كان لها من التأثير فى الثقافة العربية نصيب وافر ، وهو تأثير أهم من التأثير السياسى الذى تركه احتلال وادى النيل خمس سنوات . على أن سورية سبقت مصر بعد ذلك فى الميدان الفكرى . ولذلك أسباب اهمها علو النسبة العددية المسيحية فى البلاد الشامية ، والمسيحيون بحكم الطبع أكثر استعدادا لقبول المؤثرات الغربية . وليس فى شمالى أفريقيا أقلية مسيحية ، والاقلية البارزة هناك انما هى اليهودية . ومما لا شك فيه أن رجـال الفكر السوريين ـ وأخصهم من المسيحيين اللبنانيين ومن متخرجى الجامعة الاميركية فى بيروت ـ هم الذين وضعوا فى العقد السابع من القرن الماضى أسس القومية العربية بشكليها الثقافى والسياسى

فالقومية العربية اذن قد استمدت وحيها الاول من النظريات الاميركية السياسية الحديثة ، بخلاف القومية التركية التى جاءت متأخرة عن القومية العربية والتى استمدت

(١) الراجح أنه لم تصدر جريدة عربية فى عهد الحملة الفرنسية ، وان فكرة اصدار هذه الجريدة التى اختير لها اسم التنبيه لم تخرج الى حيز التنفيذ « الهلال »

وحيها من مبادىء الثورة الفرنسية . وقد أدى فقر سورية المادي بازاء مصر ، ووقوعها تحت الحكم التركي المباشر ، وقد كان حكما مستبدا جائرا بالنسبة للحكم الخديوي في مصر ، الى أن هاجر الى مصر كثير من هؤلاء السوريين المثقفين حيث وجدوا جوا اكثر ملاءمة لعملهم في الربع الاخير من القرن الفائت . وقبل ذلك بعقود جاء احتلال ابراهيم باشا لسورية (١٨٣٢ ـ ١٨٤٠) فاتحة عهد باسم للبلاد الشامية . وكان والد ابرهيم ـ محمد علي ـ يحلم بامبراطورية عربية مركزها القاهرة قبل أن كان العرب على شيء من الاستعداد لها . فحكم ابرهيم باشا في سورية أيقظ أبناء الشام من سباتهم وفتح أبواب بلادهم للمؤثرات الغربية

كانت النهضة العربية التي قام بها السوريون في مصر في أول أمرها حركة فكرية محورها احياء اللغة العربية ودرس آدابها ، والبحث عن ماضي العرب المجيد وما أتحفوا به العالم من كنوز ومآثر

وما لبثت هذه الحركة الفكرية أن جرت وراءها حركة سياسية . فاستوحت من تاريخ العرب وماضيهم ما جعلها تتطلع الى مستقبل كريم والى توحيد وجهة نظرهم . ولم تلبث هذه النهضة الوطنية أن تطورت بدورها وتنوعت بمقتضى الموجبات المحلية فاتخذت الحركة القومية في سورية شكل المقاومة للسيادة التركية وسياسة التتريك ، التي دان بها فيما بعد حزب تركيا الفتاة ، واستمدت قوة جديدة من دم الشهداء الذي سفكه جمال باشا في الحرب العالمية الاولى . أما في مصر فافترق الهدف القومي عن فكرة الجامعة العربية في العقد الثامن الماضي عند ما جابه الاحتلال البريطاني . فان القومية المصرية بزعامة عرابي باشا (١٨٨١ ـ ٨٢) ثم بزعامة مصطفى كامل (١٩٠٥ ـ ٨) فسعد زغلول (١٩١٨ ـ ٢٧) استمدت الهامها من الوجهة الايجابية من مصادر فرنسية ، واتخذت قواها من الوجهة السلبية من مقاومة التدخل الاوربي في شؤون البلاد ، فجاءت بمثابة رد فعل لعملية الاستعمار ، وبالتالي تزيت بزي محلي خاص بها ، لان مشكلتها المباشرة كانت توحيد الرأي العام المصري وتوجيهه ضد الانكليز المحتلين . فاصبح شعارها : « مصر للمصريين »

وهكذا كانت مصر أول بلاد عربية تنبه فيها الوعي القومي ، فأصبحت قوميتها مثالا للقومية العربية في الهلال العربي الخصيب . واتبعت سورية والعراق وفلسطين ذلك الانموذج . وكان للاكتشافات الاثرية في أوائل هذا القرن تأثير في وعي بعض المصريين القومي ، ولا سيما الاقباط منهم ، الذين نسبوا لانفسهم تراث الثقافة الفرعونية القديمة وبعثوا الشبح الفرعوني من مومياءه . فجابهت القومية المصرية المؤسسة على التراث العربي الاسلامي ، محاولة جديدة ترمي الى تنشئتها على التراث السابق لعهد الاسلام ، والمتصل بثقافة عصور توت عنخ آمون ورعمسيس وتحتمس . وكان من مظاهر هذه المحاولة أن بعضهم تشوف الى احياء اللغة القبطية ، ولكن على غير جدوى . ومما لا ريب فيه أن تغلب العناصر اللاعربية ، حتى بين المسلمين من سكان مصر وفي طليعتها العنصر

الحامي القديم ، أدى الى ضعف فكرة الجامعة العربية فى تلك البلاد

كذلك كان للجزيرة العربية مشاكل خاصة بها ووضع فريد يميزها عن سائر البلدان العربية . ومميزات الجزيرة البارزة هى : أولا ــ أن حضارتها لم تزل حضارة العصور الوسطى لا العصور الحديثة ، وثانيا ــ أن وسائل المواصلات الداخلية بين أجزائها غير موفورة ، وثالثا ــ أن الاعتزال الجغرافى وعدم تعرض السكان للافكار الاوربية الحديثة بالغ فيها حده الاقصى

ولا يخفى أن الحافز للنهضة القومية انما هو وجه من وجوه عملية التجديد والاخذ بالعلمانية والاتجاه نحو الحضارة الغربية ــ وهذه كلها تعنى اقتباس أفكار ونظم سياسية واقتصادية واجتماعية من المعين الاوربى الاميركى . وعملية التجديد هذه لا تقتصر على الشرق الادنى بل تتعداه الى آسيا بكليتها ، والى قسم كبير من أفريقيا . فهى حركة عالمية ، بل قل موجة شاملة مصدرها العالم الغربى وتيارها يتناول سائر أنحاء العالم . وما ذلك الحافز الذى استثار أفكار العرب والمسلمين فى العقد الثامن سوى أثر من آثار تلك الموجة العالمية الكبرى . على أن تلك الموجة لم تقو على اجتياح الجزيرة العربية حتى الآن ولم تترك فيها أثرا محسوسا . فمن هذه الوجهة تختلف الجزيرة العربية عن الهلال العربى وخصوصا قرنه الغربى المؤلف من فلسطين وسورية ولبنان . وكان استفحال أمر الوهابية المحافظة على القديم وعلو شأنها بعد الحرب العالمية الاولى أقصى درجات التحفظ الحديث فى الاسلام ، كما ان اقبال الاتراك الكماليين على الاخذ بأسباب الحضارة الغربية والتهافت على الانظمة العلمانية يمثل الطرف الآخر . فالوهابيون والاتراك اذن يمثلون حركتين اسلاميتين حديثتين هما على طرفى نقيض : فى الواحدة غلو نحو اليمين وفى الثانية تطرف نحو الشمال . فاذا صح أن نسمى الاتراك « بروتستانت الاسلام » فالوهابيون هم « اورثوذكسيوه » . ولا عبرة بالمحاولات التى أبداها ابن السعود فى التجديد ، فانها لم تمس قلب الشعب ولم تغيره

وشأن الزيديين فى اليمن شأن الاخوان فى نجد والحجاز باعتزالهم مجارى التفكير الحديث وعدم تأثرهم بتيار العلمانية وقلة اتجاههم نحو الغرب الاوربى . والامام يحيى يبز منافسه فى الشمال فى هذا المجال . فالمنافسة بين هذين العاهلين ــ وهما أقوى شخصيتين فى الجزيرة العربية ــ والفتور بين الاخوان والزيود ، وانخفاض مستوى الثقافة فى الجزيرة وضيق أفق الحياة السياسية واقتصارها على ما هو محلى موضعى ، كل ذلك يقف حجر عثرة فى سبيل التقارب نحو الجامعة العربية والتفاهم مع الجيران من العرب

أما باقى الجزيرة العربية بما فيها المقاطعات المهادنة على الخليج الفارسى ، فبقيت لعقود من السنين خلت مبتورة عن سائر أعضاء الجزيرة وعن جسم العروبة . فاتجاهها السياسى هو نحو الهند والنفوذ فيها للانكليز

الهلال العربي الخصيب

يبقى لدينا كتلة واحدة فى غربى آسيا هى الهلال العربى الخصيب أى سورية بالمعنى العام (سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن) والعراق . ليست فلسطين سوى الجزء الجنوبى من سورية وكانت كذلك طيلة حكم الرومان والاتراك . ولكن موقعها الجغرافى الخطر جعلها اسفينا فاصلا بين طريق الهند البرية وطريقها البحرية المختصرة ، فجنى عليها فى أواخر الحرب الماضية فبترت عن الجسم السورى ووضعت تحت الانتداب الانكليزى . كذلك شرق الاردن ، فهو اسم بلا جسم فى التاريخ ، وقد ورد اسمها فى التوراة ، ولكنها لم تكن بلادا قائمة بنفسها قط . فشرق الاردن سلخته السياسة عن جسم فلسطين عام ١٩٢١ كما سلخت فلسطين عن جسم سورية ، وتولى أمره الامير عبد الله الذى تهدد الفرنسيين فى العام الذى سبق حكمه بالانتقام منهم لهدمهم عرش أخيه فيصل فى دمشق . وهذه الوحدة السياسية الحديثة شرقى فلسطين يمكن اعتبارها من نوع الحاجز (buffer) الذى يصد غارات البدو فى الصحراء عن فلسطين الواقعة تحت الانتداب الانكليزى

أما الخط الفاصل بين منطقة الانتداب الانكليزى ومنطقة الانتداب الفرنسى ، فخط وهمى ليست له وضعية جغرافية طبيعية . فسورية الكبرى يفصلها عن الاناضول جبال طورس ، وعن مصر شبه جزيرة سينا ، وعن الجزيرة العربية صحراء النفود ، وعن العراق البادية السورية .

ولنأت الآن لمعالجة الحركة الانفصالية فى فلسطين على ما تمثلها الصهيونية السياسية ، فهى من وجهة نظر العرب حركة أجنبية ترتكز على أسس واهية اصطناعية تدعمها أموال وأفكار خارجية ، ولا أمل لها بالنجاح أو الثبات فيما اذا نجحت . فاذا كانت الصهيونية السياسية ترمى الى اعطاء شعب بلا بلاد بلادا بلا شعب ، ففلسطين غير أهل لذلك ، وهى لا قبل لها بحل المشكلة اليهودية التى تعتبر مشكلة عالمية . ان قيام دولة يهودية فى فلسطين يظهر بمظهر المحال لا فى رأى العرب فحسب ، بل فى رأى المجتمع الاسلامى عامة . والمسلمون الذين يقرب عددهم من المائتين والسبعين مليونا والذين يحتلون جزءا واسعا من أفريقيا وآسيا ، يؤلفون مجتمعا متفق الشعور ، ولو فرضنا جدلا أن برنامج الصهيونية السياسى تكلل بالنجاح وتحولت فلسطين الى دولة يهودية ، فمن يكفل بقاءها وهى دولة غربية وسط بيئة عربية اسلامية معادية ؟ لذلك نرى اليوم عددا متزايدا من الصهيونيين ينحرفون عن الوجهة السياسية ويولون وجوههم الناحية الثقافية والروحية من الصهيونية ، ويبتغون التعاون مع العرب على هذا الاساس . ومن هؤلاء الصهيونيين ذوى النزعة العملية والافكار الحرة « ماغنس » رئيس الجامعة العبرية فى القدس . فهو يقول ان ليس بين العرب من يسلم بامكان تأسيس دولة يهودية فلسطينية ،

وينادى بوجوب تأليف دولة فلسطينية بحتة يتمتع أبناؤها بحقوق مدنية ودينية متساوية وينضمون اذا شاءوا للاتحاد العربى

وبخلاف دعوى الصهيونيين بحق الانفصال والاستئثار بفلسطين نجد أن دعوى اللبنانيين بحقهم فى الانفصال ببلدهم وحفظ كيانها الخاص ، لها مبرر اجتماعى وأساس تاريخى . فقد تمتع لبنان بكيان اقطاعى شبه مستقل خلال القرون الاربعة من الحكم التركى . وبعد الحرب الاهلية فى سنة ١٨٦٠ اعترف الباب العالى والدول الخمس الكبرى باستقلاله الداخلى ، وضمنوا هذا الاستقلال ببروتوكول دولى . وعند ما غنم الاتراك فرصة الحرب العالمية الاولى وتطاولوا على الجبل وانتزعوا منه استقلاله فى سنة ١٩١٤ ، كان لبنان قد تمتع بنصف قرن من السلام والعمران ، مما جعله قبلة أنظار البلاد المجاورة وجعل الناس يقولون « طوبى لمن له مرقد عنزة فى لبنان » . ومما لا ريب فيه أن المهاجرين اللبنانيين فى الولايات المتحدة الذين بدأت هجرتهم فى العقد التاسع من القرن الماضى ، كانوا عاملا فعالا فى المحافظة على استقلال لبنان وكيانه . فهم رفعوا صوتهم عاليا فى جرائدهم ومراسلاتهم وأثناء زياراتهم لوطنهم القديم . ومع ذلك فان لبنان لايعارض فى الانضمام الى ائتلاف عربى ، بشرط الابقاء على استقلاله الداخلى ، كما يستنتج من مقالات عدة لكتاب مختلفين نشر بعضها فى « لسان الحال » عام ١٩٤١ . حتى أن بطريرك الموارنة وهو زعيم الطائفة التى تعد دعامة حركة الاستقلال اللبنانى التام ، لم يتردد فى السنين الاخيرة عن ابداء الرغبة فى التعاون مع الوطنيين السوريين

فلدينا اذن كتلة جغرافية وثيقة العرى متواصلة الاجزاء ، تمتد من شبه جزيرة سينا حتى رأس الخليج الفارسى . ولكن تداخل البادية السورية — التى يبلغ معظم عرضها ثمانمائة ميل — بين الجزأين المأهولين من هذه الكتلة ، يقف حاجزا فى سبيل المواصلات الطبيعية . غير أن هذين الجزأين متصلان فى الشمال . وسكان هذه البادية من القبائل الرحل التى يصعب ضبطها وربطها مع الحضر ، فهى تكون مشكلا هاما من مشاكل الائتلاف والاتحاد ، مع أنها ذات فائدة خاصة فى كونها مصدرا للتعويض عن التناقص فى عدد السكان فى المدن

فالعوامل الجغرافية فيما خلا البادية السورية تؤيد الاتحاد ، وكذلك العوامل التاريخية والنفسية ، وفى مقدمتها الشعور المشترك بتراث لغوى واحد وثقافة واحدة وبماض مجيد عام يرجع الى العصر الاموى والعصر العباسى لما كانت دمشق وبغداد مركزين لحضارة اسلامية زاهية زاهرة

موقف الاقليات الدينية

وعلاوة عن الفواصل الجغرافية التى تقسم السكان الى بدو وحضر ، فهنالك فواصل اجتماعية دينية تقسمهم الى مسلمين وغير مسلمين ، فمشكل الاقليات فى تأليف الاتحاد

هو مشكل هام . ومما لا ريب فيه أن الاقليات تشغل فى المجتمع الاسلامى مركزا غير مساو للاكثرية . على أن الهدف الذى يرمى اليه دعاة الاتحاد ليس تحويل الطوائف والشعوب الى طائفة أو شعب واحد ، بل ايجاد وسيلة تحملها جميعا على التعاون والتضامن برغم الاختلافات الجنسية والفوارق الدينية . ولا شك أن الرابطة الدينية عند المتقدمين فى السن من المسلمين والمسيحيين لم تزل للآن أقوى من الرابطة القومية . ولكن هذا القول لا يصدق على أبناء الجيل الحديث ، وخاصة المثقفين منهم ثقافة حديثة ، فنرى اليوم شبانا وشابات من المسلمين والمسيحيين فى لبنان وسورية وفلسطين يعملون فى المهن الحرة كالتعليم والمحاماة والطب والكتابة والصحافة ، ويتعاونون على قيادة الامة . وحرى بالذكر فى هذه المناسبة أن أكبر دعاة الجامعة العربية بين المهاجرين المتكلمين بالعربية فى الولايات المتحدة كانوا مسيحيين ، أحدهما لبنانى وهو الريحانى ، والثانى فلسطينى وهو الدكتور شطاره . ومن اللبنانيين المسيحيين الذين تثقفوا بالثقافة الفرنسية وكانوا من أنصار الوحدة العربية خير الله خير الله ورباط وغيرهما

ولا بد لنا هنا من التمييز بين الجامعة الاسلامية والجامعة العربية رغم اتفاق الاثنين على عدة نقاط . ومما يزيد فى الالتباس بين الجامعتين تظاهر الجامعة الاسلامية بزى جامعة عربية . غير أن الجامعة الاسلامية تستمد الهامها ووحيها من معين القرون الوسطى . ولا ترحب بالافكار والمؤثرات الغربية الاوربية . أما الجامعة العربية فتحاول جعل اللغة لا الدين أساسا للتعاون ، وتعترف بحقوق غير المسلمين من الاقليات ومساواتهم المدنية . وأهم دعاة الجامعة العربية رجال تثقفوا بالثقافة الحديثة ، وجعلوا اتجاه أفكارهم نحو الامام ، وهم يريدون أن يقتبسوا من الغربيين ما يصلح ويليق ، ولكنهم لا يريدون أن يلزمهم الغربيون ذلك

العراق وسورية أولا

ان كان ثمة من اتحاد عربى فنواته العراق ــ سورية . والبداءة من هذين البلدين . وما نعنيه بالاتحاد انما هو حلف سياسى بين الدول العربيـة المستقلة ، يقابل الحلف البريطانى ، ويختلف عنه فى مسألة العرش . وتستلزم الخطط القومية فى اتحاد كهذا توحيد برامج التعليم وازالة الحواجز الجمركية وجوازات السفر ، وصك عملة مشتركة واقامة دائرة بريد عامة ، واتخاذ خطة متماثلة وسياسة متجانسة تجاه كل الشؤون الحربية والخارجية

قبل الحرب العالمية كانت العراق وسورية مؤلفة من ولايات عثمانية . فكان من المستطاع يومذاك اعتبار الولاية وحدة سياسية وربطها مع غيرها . أى ربط ولايات حلب والشام وبيروت وبغداد والبصرة والموصل وسنجق القدس الخ بعضها ببعض فى شكل من أشكال الاتحاد . أما اليوم فقد تغيرت الحاجة بتأثير الانتداب فى تلك الاماكن . فالانتداب ــ وان

يكن قد نشط عن غير قصد الشعور القومى ـ الا انه فى الوقت نفسه قد ضيق عليه وحصره فى مستوى محلى . فمقاومة الانتداب الانكليزى فى العراق مثلا ولدت روحا عراقية موضعية . كذلك مقاومة الانتداب الإنكليزى وملحقه الصهيونية فى فلسطين فانها أنشأت وطنية فلسطينية بحتة . وكذلك مقاومة الانتداب الفرنسى فى سورية نشطت القومية السورية . وكل ذلك حدد القومية العربية فى مناطق محلية خلافا لما كانت عليه تحت ادارة الاتراك فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الحاضر وألبسها صبغة اقليمية . وليس بالخفى أن فيصلا وأخاه عبد الله فى اتفاقيهما مع الانكليز تعهدا بقصر نفوذهما ضمن نطاق مملكتيهما فقط . فعند ما عرضت عليهما انكلترا عرشين ثابتين أحدهما فى العراق والثانى فى شرق الاردن تحت الرعاية الانكليزية ، عوضا عن الوحدة العربية التى كان يحلم بها والدهما ، لم يترددا فى القبول . ولما نال العراق استقلاله عام ١٩٣٢ أخذت الحكومة العراقية تقلل من استخدام المعلمين السوريين واللبنانيين فى مدارسها . وكذلك ضيقت الحكومة السورية على الاطباء والمحامين اللبنانيين أمر ممارسة مهنهم فى دمشق . وكانت الحكومة اللبنانية تميل الى مقابلة تلك التدابير بما يماثلها

على أن الحرب الحاضرة قد جعلت القوم يشعرون بضرورة التعاون فى النواحى الاقتصادية والثقافية بين هذه البلدان المتاخمة . لذلك تجرى اليوم بقيادة مصر مفاوضات مع ممثلى العراق ولبنان وسورية ، غايتها توحيد برامج التعليم والكتب المدرسية والمناهج بناء على الاعتقاد بأن عدم وجود خطة تعليمية موحدة هى من أهم الموانع للعمل الموحد . ومن المقرر أن المؤسسات العلمية الغربية من أوربية واميركية وان كانت هى العامل الاكبر فى انشاء التفكير القومى فى الشرق الادنى ، الا أنها أيضا كانت عامل تفريق فى جسم القومية وبين أعضائها

جهود الساسة ومؤتمراتهم

فالمؤتمر العربى الثالث المنعقد فى فلسطين فى صيف سنة ١٩٢١ ، كان أول مؤتمر سلم ضمنا بانسلاخ فلسطين عن سورية . أما المؤتمران السابقان المنعقدان فى القدس فى أوائل سنة ١٩١٩ وفى فبراير سنة ١٩٢٠ فطالبا باتحاد فلسطين مع سورية . ومنذ عام ١٩٢١ قويت القومية الفلسطينية فى فلسطين وازدادت حدة بازدياد مقاومتها للصهيونية . والحقيقة أن الحركة الصهيونية ، بسياستها الجريئة ، قد صلبت العقيدة القومية فى كل البلدان العربية المجاورة . ولم يظهر العرب فى العقود المتأخرة بمظهر جبهة متحدة تجاه أية قضية كما ظهروا تجاه هذه المعضلة . ففى مسألة الخلافة مثلا لا نرى اتفاقا فى الآراء كما تبين من وقائع جلسات مؤتمرى الخلافة المنعقدين فى القاهرة ومكة سنة ١٩٢٦ . اما بشأن المعضلة الصهيونية فقد توالت الاحتجاجات وتدفقت الاموال لمكافحتها من جميع البلدان الاسلامية من الملايا فى الشرق حتى مراكش فى الغرب . وما دفن الملك حسين والزعيم

الهندى محمد على فى تربة الحرم الشريف فى القدس الا اعلانا لقدسية أرض فلسطين فى أعين المسلمين . وقد قام شوكت على الهندى ومفتى القدس بحركة ترمى الى تأسيس جامعة اسلامية فى تلك المدينة تنافس الجامعة العبرية فيها . وفى جلسة الجمعية العمومية لعصبة الامم فى سبتمبر سنة ١٩٣٧ ، انبرى ممثل مصر وممثل العراق للدفاع عن فلسطين العربية فى كفاحها ضد الصهيونية . وفى مجلة « الهلال » لعام ١٩٣٨ مقالات لكتاب كبار من مصر وسورية تناولوا فيها موضوع الاتحاد بين الشعوب العربية

واذا ألقينا نظرة على رسم الممثلين للبلدان العربية فى مؤتمر المائدة المستديرة المنعقد فى يناير سنة ١٩٣٩ فى لندن، نرى مجموعا فريدا من الزعماء المسلمين والمسيحيين بطرابيشهم وعمائمهم وكوفياتهم من مصر واليمن والحجاز والعراق وفلسطين

فبوجه الاجمال يظهر أن المواد الاولية لبناء اتحاد بين الدول العربية ـ ابتداء بالعراق وسورية ـ متيسرة جاهزة ولا ينقصها سوى البناء الماهر ، كفيصل مثلا ، وقد يظهر هذا قريبا

ان الانكليز يحبذون هذا الاتحاد ، وكذلك الفرنسيون الاحرار كما يظهر من تصريح انطونى ايدن فى ٢٩ مايو سنة ١٩٤١ ومن موافقة الجنرال كاترو على هذا التصريح بعدئذ . فالتوجيهات الداخلية والخارجية والدلائل التاريخية كلها تشير بصراحة واضحة الى امكان شمل سورية والعراق فى اتحاد يكون نواة تلتف حولها مصر والجزيرة العربية فيما بعد . ومن المعلوم أن المدة التى كان فيها قطرا الهلال الخصيب ـ أى سورية والعراق ـ منفصلين تمام الانفصال ، كانت قصيرة بالنسبة للمدة التى كانا فيها متصلين . أما امكان ضم شمالى أفريقيا لهذا الاتحاد العربى ، فتتوقف على عوامل داخلية وخارجية يصعب حصرها الآن . غير أن الحقيقة الراهنة هى أن العراقى اليوم يرتاح الى التونسى ويستأنس به أكثر مما يستأنس بجاره الايرانى . وليس سبب هذا اللغة فحسب ، بل هنالك سبب آخر وهو أن طريقة التفكير والتطرق والنظر الى الامور فى العراق من جهة وفى تونس من الجهة الاخرى متقاربة بخلاف ما هى عليه فى ايران

وكان من أعمال المؤتمر العربى المنعقد فى القدس فى ديسمبر سنة ١٩٣١ والذى زاد عدد مندوبيه عن عددهم فى كل المؤتمرات السابقة أنه اتخذ ميثاقا ذا مبادىء ثلاثة : (١) ان البلدان العربية وحدة لا تتجزأ ولا تسلم الامة العربية أبدا بتجزئتها (٢) انه يجب على أبناء البلدان العربية أن يوحدوا جهودهم لنيل الاستقلال التام ولمضادة الحركات الاقليمية (٣) أن الاستعمار فى كل أشكاله معاد لآمال العرب ومطامحهم ويجب مكافحته بكل ما أوتوه من قوة . وقد اشترك فى هذا المؤتمر مندوبون من مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر وسورية وفلسطين والعراق والجزيرة العربية

وفى اغسطس سنة ١٩٣٣ عقدت عصبة العمل القومى اجتماعها فى قرنايل لبنان ، وأعلنت تعزيزها لمبدأ « وحدة البلدان العربية فى آسيا وافريقيا »

أما المؤتمر العربى الثانى المنعقد سنة ١٩٣٧ فى بلودان قرب دمشق برئاسة الوزير المصرى السابق علوبة باشا ، فقد حدد البلدان العربية لاول مرة بانها تمتد من جبال الاطلس فى الغرب حتى الخليج الفارسى فى الشرق ومن تركيا فى الشمال الى المحيط الهندى فى الجنوب . وقبل عام ١٩٠٠ لم ينعقد مؤتمر واحد يمكن اعتباره ممثلا للعالم العربى أو الاسلامى

وقد تأسس فى القاهرة سنة ١٩٤٢ الاتحاد العربى برئاسة فؤاد اباظه باشا ، وهو يستهدف اتحاد البلدان الآتية : مصر والسودان والجزيرة العربية والعراق وسورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن وشمالى أفريقيا وأية بلاد أخرى تتكلم العربية

وفى صيف ١٩٤٣ أصدر نورى باشا السعيد رئيس الوزارة العراقية تصريحا حض فيه الدول المتحدة على أن تعلن ما يلى :

١ ـ ان سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن يجب جمعها فى دولة واحدة

٢ ـ ان نوع الحكم فى هذه الدولة ملكيا كان أو جمهوريا ، موحدا أو اتحاديا ، يتوقف على رغبات الشعب نفسه

٣ ـ أن تؤسس عصبة عربية تنضم اليها سورية والعراق حالا . وفيما بعد تنضم اليها البلدان العربية الاخرى اذا أرادت

٤ ـ أن يكون لهذه العصبة مجلس دائم وأن يكون مسئولا عن الدفاع والمسائل الخارجية والعملة والمواصلات والجمارك ورعاية حقوق الاقليات

٥ ـ أن يكون ليهود فلسطين كيان يقرب من الحكم الذاتى . وأن يكون للموارنة فى لبنان وضع خاص اذا طلبوه كالوضع الذى كان لهم فى السنين الاخيرة من الامبراطورية العثمانية

وبعد هذا التصريح بقليل دعا مصطفى النحاس باشا رئيس الوزارة المصرية حكومات البلدان العربية المجاورة كى ترسل مندوبين للقاهرة حيث جرت محادثات معه ومع نورى باشا

ان اتحادا عربيا كهذا وان كان ضعيفا ، يؤدى الى استقرار الحال فى الشرق الادنى ويسهل ضم تلك البلدان الى النظام العالمى الشامل الذى نرجو تحقيقه عند ما تنجلى غمامة هذه الحرب

فربط مجموعة من البلدان الصغيرة بالنظام العالمى الشامل أهون من ربط عدة من البلدان منفردة . وفى سبيل تحقيق هذا النظام ، لا بد لكل قومية من التخفيف من حدتها ولكل دولة من تحديد سيادتها

فيليب حتى

قصة صينية

وفاء النساء

بقلم مدام تشانج كى تشك

فى عهد سحيق من تاريخ الصين ولد الحكيم « لاوتسو » .. ولد وعلى رأسه هالة من الشعر الابيض الناصع كشعر الشيب المسنين . فسماه الناس « لاو تسو » ومعناها باللغة الصينية « الطفل العجوز »

وكان من تلاميذ هذا الحكيم عالم اسمه « تشوانج تشو » ، يرى فى المنام فى كل ليلة فراشة بيضاء . فذهب الى استاذه يسأله تأويل هذه الرؤيا التى يراها كلما آوى الى الفراش . فقال له الحكيم :

« هذه الفراشة هى صورتك السابقة . ماتت فحلت روحها فى جسمك هذا . نعم ، فقد كنت فيما مضى فراشة جميلة بيضاء ، تطوف هنا وهنا ترتشف رحيق الزهور . ثم حدث ذات يوم أن امتصت الفراشة « الوردة الصفراء » ، فغضبت عليها الآلهة ، وسلطت عليها طائرا التقطها بمنقاره وازدردها ، وكان ذلك ساعة ولادتك فحلت روح الفراشة فيك»

فلما سمع « تشوانج تشو » هذه القصة ، أسف أسفا بالغا على خطيئته تلك التى ارتكبها حين كان فراشة بيضاء . ورأى أن يكفر عن سيئته بأن ينصرف عن كل ما فى الدنيا من لذة ومتاع ، ويكرس نفسه للدين والزهادة . ومضت السنون ولا هم له الا دراسة الدين ، وتأمل الكون ، وتطهير الروح من شوائب المادة . حتى بلغ المرتبة العليا من مراتب رجال الدين ، ذوى الكرامات والمعجزات . فكان يستطيع أن يخفى نفسه عن أعين الناس وهو جالس بين أيديهم يحدثهم ويحدثونه . وكان يستطيع أن يستقل بساط الهواء فيطير فى أجوائه كيف شاء . وكان يستطيع أن يغير صورته كلما أراد ، فهو حينا انسان يمشى على الارض ، وحينا طائر يهيم فى السماء ، وحينا سمكة تسبح تحت الماء ، بل كان يستطيع أن يكون موجودا فى عدة أماكن فى وقت واحد : مع زوجه فى البيت ، ومع استاذه فى المعبد ، ومع صحبه حيث يجتمعون !

على أن انصرافه الى الدين والتقوى لم يمنعه من الزواج . تزوج ثلاث نساء : ماتت الاولى ، وطلق الثانية ، وعاش مع الثالثة « تيان » عهدا طويلا عيشة موشاة بالحب والامن والجمال

وسمع أمير « تشو » بأمر هذا الرجل ، فرأى أن يوليه وزارته . وأرسل اليه وفدا يحمل الهدايا من الذهب والفضة والحرير والخزف الثمين ليدعوه لقبول هذا المنصب .. فرفض ، اذ كان زاهدا فى متاع الدنيا ومناصبها وألقابها ، واذ كان يعلم ما يجب على الوزير من خداع ونفاق ومخاتلة ، ليرضى الملك ، ويسوس الدولة ، ويترضى الرعية . ولم ير بدا من أن يهجر هو وزوجه المدينة ، فرارا من أذى الامير وقد عصى أمره ورفض رجاءه ، وأخذا يضربان معا فى الفيافى والقفار ، ويهيمان بين النجاد والوهاد.

وبينما هو يضرب فى الارض اذ رأى عند سفح الجبل امرأة فى ملابسها الصفراء ، تلك الملابس التى تلبسها نساء الصين فى المآتم وعند الفواجع ، تبكى بكاء مرا الى جانب قبر بنى منذ أيام قليلة . وكان فى يدها مروحة كبيرة تهف بها على القبر فى جد واهتمام استوقفه هذا المشهد الغريب ، فتقدم الى المرأة يسألها ما خطبها ، فأجابته ، وهى تشهق بالبكاء :

ـ ان خادمتك المنكودة مات عنها زوجها منذ أيام . وفى هذا القبر يرقد جدثه العزيز وجثمانه الطاهر

فسألها : وما شأن هذه المروحة ؟

فقالت : عند ما كان زوجى على قيد الحياة ، تعاهدنا عهد الحب والاخلاص ، ان من مات منا ظل صاحبه مترملا بغير زواج الى أن يجف ملاط ـ مونة ـ قبره . وها قد مرت أيام وما زال الملاط رطبا نديا ، وانى أخشى أن تمر أيام أخرى قبل أن يجف فجئت بهذه المروحة لتجففه سريعا ،

فتبسم العالم ضاحكا وقال : هونى عليك يا سيدتى . هاتى المروحة لاعينك على تجفيف قبر زوجك هذا

وأخذ المروحة وهف بها على القبر ثلاث مرات ، فاذا به جاف كأنما بنى منذ سنين طوال . فلما رأت المرأة ذلك أسرعت فخلعت ملابسها الصفراء وألقتها جانبا ، وارتدت ملابسها البيضاء المزركشة البهيجة وولت بظهرها الى القبر عائدة الى المدينة على عجل ، وهى تكاد تطير من الفرح .. ألم تف بما عاهدت زوجها عليه ، فأصبحت فى حل منذ الساعة فى أن تتزوج سواه ؟!

وعاد العالم الى بيته وهو يفكر فيما رأى ويعجب من أمر النساء . وسألته زوجه عما به فقص عليها قصة المرأة والقبر والمروحة . فقالت :

ـ يا للعجب ! ما سمعت بمثل هذا النبأ من قبل . نعم ، ان الدنيا فسيحة وأهلها لا يعدون ، ولكن ما أحسب أن منهم من يشبه هذه المرأة الجحود

فدمدم العالم ببضع كلمات أغضبت زوجته فصاحت به : لا تأخذ النساء جميعا بجريرة امرأة واحدة . فكم فى النساء من وفاء دونه وفاء الرجال

فقال : كلام . كلام فارغ ! هل ترضين أنت يا زوجتى العزيزة ، أن تعيشى بعد وفاتى

ثلاث سنوات مترملة وحيدة ؟ ما أظنك ترضين بذلك ، وما أحسبك تستطيعين

فقالت الزوجة : ان الجندى الوفى لا يخدم فى جيشين ولا يطيع قائدين . وكذلك الزوجة الوفية لا تتزوج من رجلين . هكذا قال القدماء وهو قول صحيح . فلو شاء حظى التعس أن أعيش بعدك ، لما رضيت مدى العمر أن أنظر الى رجل سواك ، دع عنك فكرة الزواج ، فهذه احدى المستحيلات !

فتمتم الرجل ثانية : لست أدرى !

فثارت ثائرة الزوجة وقالت : لا تحكم على النساء بأخلاق الرجال . فمن شيمتكم أنتم يا معشر الازواج الجحود والغدر . ما أيسر على الرجل منكم أن يطلق زوجته لنزوة طائشة . وما أيسر عليه أن يقترن بزوجة ثانية يوم وفاة زوجته الاولى . أما نحن فلا نقابل غدركم الا بالوفاء ، ولا نجارى جحودكم الا بالاخلاص

فأخذ العالم يغير من لهجته ويترضى زوجته ، ويؤكد لها أنه لا يشك يوما فى وفائها واخلاصها ، وأنه لو خان جميع النساء رجالهن لبقيت هى على ما عهده فيها من صدق وولاء

□

لم تكد تمر بضعة أيام على هذا حتى ألم المرض بالعالم « تشيانج تشو » واشتدت عليه العلة يوما فى اثر يوم ، فاستدعى زوجه وقال لها :

ـ انى أحس رعشة الموت تسرى فى جسدى ، وما أحسب أن طب الطبيب يجدينى نفعا . لقد استوفيت حقى من هذه الحياة ، وسأغادرها الى الحياة الاخرى بعد قليل

فأكبت زوجه على وجهه باكية منتحبة ، تقبله وتحتضنه فى حب واخلاص ، والرجل يهون عليها أمر الموت ومشقة الفراق ، ويداعبها ـ وشبح الموت على قيد خطى منه ـ قائلا : انى واثق من أنك ستقيمين على حبك ووفائك ، وستذكرين زوجك أمدا طويلا . على الأقل حتى يجف قبره !

فقالت له : كلا . كلا . لقد عاهدتك عهدا لا أنكث به ما حييت . عاهدتك على أن أظل وفية لذكراك الى أن ألفظ نفسى الاخير . فما عرفت رجلا أنبل منك خلقا وأصفى قلبا وأطهر سريرة . أما ان ساورك ظل من الشك فيما أقول ، فدعنى أقتل نفسى أمام عينيك ، فان حياتى أهون على من ذلك الشك كثيرا . وثق يا زوجى العزيز أن اليوم الذى تموت فيه هو اليوم الذى يموت فيه قلبى . وان ظل جسدى حيا فبلا حس ولا شعور . نعم سيظل حيا ولا أمل له الا أن يقترن بك مرة أخرى ، عند ما تتلاقى الارواح فى صفاء

فقال الرجل وهو يلهث بأنفاسه الاخيرة : ان وفاءك يا زوجى فوق كل شك وكل ريبة . فدعينى الآن أغمض عينى ، وأرسل نفسى ، وأنا مطمئن القلب الى وفائك الابدى

وهكذا ودع تشوانج تشو هذه الحياة ، وغدا جدثا هامدا لا روح فيه . ووسط موجة غامرة من دموع زوجه ، دفن الرجل فى قبر أعده فى حجرة من حجرات بيته . ومضت

أيام وليال وزوجه لا تخلع ملابس الحزن الصفراء ، ولا ترقأ لها دمعة ، ولا تسكت لها زفرة ، ولا يقف لها أنين

وكان لهذا العالم تلميذ اسمه « ونج سن » لازم استاذه دهرا طويلا يتلقى عنه العلم ويأخذ منه الحكمة . حتى اذا أتم دراسته عاد الى قريته النائية ، وأخذ يزور استاذه من حين الى حين ليستزيد من علمه ويستكمل دراسته . وقد جاء هذا التلميذ .. ولكن يا للأسف !.. لقد وجد البيت خلوا من أستاذه الذى قضى نحبه منذ اسبوع . فراح التلميذ يبكى وينتحب وهو يطوف بالقبر الذى يضم جدث استاذه العظيم ، ويقول : « يا لسوء حظى ! لقد اجتزت الجبال وعبرت الوهاد لاجلس بين يدى استاذى ، وها أنذا ألقاه فى غيب هذا القبر السحيق ، فيا لقسوة القدر علىّ ويا لجدب حياتى بعد هذا ! »

ثم أرسل خادمه الى زوجة استاذه يستأذنها فى أن يقابلها ليقدم لها تعزيته ، ويشاركها ما تجد من ألم ولوعة . فاعتذرت الزوجة من مقابلته بادىء الامر ، ولكن الخادم صور لها مبلغ ما فيه التلميذ من حزن وأسى على استاذه العظيم ، ورجاها أن تأذن له بالمقابلة لعله يجد فى لقياها ما يخفف عنه فراق استاذه . فاذنت له فى اللقاء ، وخرجت الى جناح الضيوف للقاه . وهناك وجدته جاثيا يتألم ويبكى ، وقد انهمرت الدموع من عينيه الموقدتين . وقدم لها التلميذ تعزيته فى زوجها ، وان كان حزن التلميذ على استاذه لا يقل عن فجيعة الزوجة فى رجلها

وقال التلميذ : لقد جاءتنى منذ قريب رسالة من استاذى يدعونى فيها لزيارته ، فتركت قريتى وخففت للقاه . ولكن القدر أبى الا أن يصدع قلبى صدعا لا يلتئم مدى العمر يا سيدتى . على أنى سأظل ، ما بقى فى نفس من أنفاس الحياة ، تلميذه الذى يتلقى عنه العلم ويأخذ منه الحكمة . فان جسمه وان برد وبلى ، فان روحه سيبقى الى الابد حيا ، يشع منه النور ، وتنبثق منه الحكمة . وهل تأذنين لى يا سيدتى فى أن أنظر فى الكتب التى كان استاذى يؤثرها بقراءته ودراسته ، هل تأذنين لى بأن أعيش فترة من حياتى وسط مكتبته ، وسط ذلك الجو الذى عاش فيه ومات فيه ، لعلى حين أستنشق هواءه أن أنفذ الى سر من أسرار الحكمة الابدية الخالدة ! هل أجرؤ يا سيدتى فأطلب اليك أن أمكث مائة يوم فى هذه المكتبة المقدسة ، أستوحى فيها روح أستاذى ؟

وهمت السيدة بأن تعتذر للشاب من رفض رجائه هذا ، لولا أنها رفعت عينيها ، وكانتا من قبل مرسلتين الى الارض مغرورقتين بالدموع ، فرأت أمامها شابا حسن السمت ، وسيم الطلعة ، فارع القوام . حقا ما أصبح محياه ، وما أنبل ملامحه ! لقد كانت ثمة مسحة من الأسى على سماته الساجية ، وثمة قطرات من الدمع فى عينيه الساهمتين ، مما أضفى على الشاب هالة من الوداعة الفاتنة ، ومن الهدوء الاخاذ .. والحق ان السيدة ألفت نفسها معجبة بهذا الشاب اعجابا لا تملك معه رفضا لما يريد . فأشارت اليه أن يتبعها

الى مكتبة أستاذه « تشوانج تشو » حيث أخذت تريه أسفارها ، وتطلعه على ما خطه أستاذه بيديه من الحكم والمواعظ

ومرت الايام على عجل ، وكل يوم منها يزيد فى اعجاب السيدة بالشاب الوفى « ونج سن » . وكانت فى أول الامر لا تنفك ليل نهار تبكى فجيعتها وتشكو بلواها ، أما الآن، فقد أخذت تهون عن نفسها بعض ما تجد من عناء ، وراحت تسرى الهم ببسمة ترتسم على وجهها ، أو فكاهة ينطلق بها لسانها !

وقد رأت خادم الشاب ذات يوم ذاهبا الى حيث يقيم سيده ، فنادته ، وأخذت تجاذبه أطراف الحديث ، الى أن قالت له : « وكيف حال زوجة سيدك ؟ أحسبها على قسط كبير من الجمال ؟ »

فقال الخادم : ان سيدى ما زال أعزب لم يتزوج يا سيدتى . .

فقالت : آه . انى أعلم أن شابا وسيما متأنقا كسيدك هذا يصعب على النساء ارضاؤه . . ولكن تعال فحدثنى ، فلا سلوى لى عن الهم الا فى الحديث . خبرنى : أى طراز من الجمال يعجب سيدك ويستهويه ، فان لى كثيرا من القريبات الجميلات اللاتى لم يتزوجن بعد ، ولعلى أستطيع أن أهديه الى واحدة منهن ينعم معها بالحياة وما زالا فى ريق الصبا وميعة الشباب

وكانت السيدة قد قدمت للخادم بعضا من شراب بث فيه الجرأة وأطلق منه اللسان ، فقال :

ــ لا تؤاخذينى يا سيدتى اذا كنت صريحا ، لا أخفى مما أعلم شيئا . لا تؤاخذينى اذا قلت ان سيدى كان يتحدث عنك منذ ليال قريبة ، ثم زفر زفرة وقال : ان جميع النساء دونك يا سيدتى ذكاء وجمالا !

واستخف السيدة هذا المديح والاطراء ، فلم تتحرج فى أن تجهر بما يساور نفسها من رغبة مكبوتة . وقالت للخادم : واذا كان هذا رأى سيدك فى ، فما الذى يمنعه من هذا الذى لا غنى عنه لشاب فى حداثة سنه وربيع حياته ؟

فقال الخادم : عفوا ومهلا يا سيدتى الجليلة . ولكننى لم أتم حديثى بعد . فان سيدى يتحدث عنك حديثا كله الاعجاب بل كله الحب ، فأشرت عليه بأن يعرض عليك فكرة الزواج ، فان تفضلت وقبلت عرف بين ذراعيك معنى السعادة والنعيم ، فما زاد على أن أن أنة عميقة أليمة وقال : كم أود هذا ، لولا ما بينى وبين زوجها من علاقة التلميذ باستاذه بل من علاقة الابن بأبيه ، مما يجعل هذا الزواج خطيئة منكرة لا أجرؤ عليها . .

لم تدعه السيدة يتم هذا الكلام ، بل نهضت وهى تقول : قل لسيدك أن يكون أوسع من ذلك عقلا وأرحب صدرا . فان علاقة الاستاذ والتلميذ تنقطع متى مات أحدهما ، فليست الآن بينهما الا صلة من الذكرى لا تنكر هذا الزواج . . فمن أين جاءته هذه الفلسفة العجيبة ، وكيف رأى فى هذا الزواج خطيئة نكراء ؟!

كان كلام السيدة قويا عنيفا ، واضحا صريحا ، فلم يجد الخادم بدا من أن يعدها بأن يتحدث الى سيده فى هذا الامر ، وبأن يقنعه بأن لا وجه للخطيئة التى يتمثلها ولا يجرؤ على أن يأتيها

□

مضت أيام دون أن يعود الخادم بنبأ ، فلم تملك السيدة على هذا صبرا ، وأرسلت اليه تسأله عما جرى بينه وبين سيده من حديث الزواج . فقال الخادم وهو يهز رأسه آسفا :

ـ لم أوفق يا سيدتى !

ـ لماذا ؟ ماذا قال سيدك ؟ تكلم !

فأجاب الخادم متلعثما : أما عن ذكائك وجمالك يا سيدتى فان سيدى لا يرى بعدهما من ذكاء وجمال . أما عن علاقته باستاذه فتلك عقبة يستطيع أن يجتازها ويتحلل منها . ولكن تبقى بعد ذلك ثلاث صعوبات دون هذا الزواج . وهى صعاب ليس من اليسير اجتيازها ، ولهذا فقد أعرض يا سيدتى عن الزواج بعد أن كبت فى قلبه حبه وهواه

ـ أية عقبات تلك التى يتحدث عنها سيدك ؟

ـ العقبة الاولى يا سيدتى أن جدث زوجك السابق مدفون فى نفس البيت الذى تريدين أن يكون مثابة زواجك الجديد . وهذا أمر لا يحتمله سيدى ، فان مجرد تذكره استاذه السابق يثير كامن حزنه وألمه ، فكيف به اذا وجد فراش زواجه الى جانب جدث أستاذه ؟ والعقبة الثانية أن زوجك العالم الكبير « تشيانج تشو » كان رجلا فذا فى علمه وحكمته ، ذائع الاسم بعيد الصيت ، وليس سيدى بشىء مذكور الى جانبه ، وهو لهذا لا يرى نفسه أهلا لان يكون خلفته فى زوجته ، هذا الى أن حب سيدتى لزوجها السابق كان أشهر قصة يتحدث بها الناس فى بيوتهم وأنديتهم ، فكيف يكون الامر اذا هى رضيت أن تتزوج بعده بسواه ، ألا يثير هذا سخرية الناس واستهجانهم ؟ أما العقبة الثالثة فهى أن سيدى رجل فقير مكدود يجهد فى سبيل القوت ، ويضنى سعيا الى العلم ، فهو لا يستطيع أن يحمل نفقات الزواج والاسرة ، بل لعله لا يجد نفقات العرس ذاتها

كان رد السيدة على هذا الكلام ينطلق فى صوت قوى حازم اذ يقول : « قل لسيدك ان كل هذه الصعاب التى يتخيلها لا حساب لها فى نظرها . فاما عن جدث زوجى السابق فسآمر برفعه فورا من موضعه الى حيث يوضع فى مكان ناء وراء البيت . وأما عن علم زوجى السابق وشهرته فلاصارحك بأن الامر لم يكن الا من قبيل الخرافة والتدجيل . ولعلك تذكر أن الامير دعاه ليكون وزيرا ، فرفض ولاذ بالفرار ، لانه كان يعلم من نفسه ما لا يعلم الناس ، كان يعلم أنه ليس على حظ من العلم والحكمة يؤهله لمنصب الوزارة ، فآثر الفرار على أن تتكشف دخيلته للامير وللرعية . وأما عن حبى له فلا أرى أن الامر يتعدى مجرد الاشاعة الذائعة ، ألم نتشاجر شجارا عنيفا قبل موته باسبوع ، لانى سمعته يتحدث حديث الاعجاب بفتاة ترملت من زوجها ، فشممت فى حديثه رائحة

الحب الذى قد يؤدى به الى الزواج منها .. ومن يدرى ، فلعله لو عاش طويلا لاتخذها هى زوجه وأرسلنى أنا مطلقة ! وأما عن المال فقل لسيدك ان ما يكفى شخصا يكفى شخصين ، بل لعل الزوجة توفر على زوجها كثيرا مما ينفقه وهو أعزب . وحسبنا أننا من أسرتين متماثلتين فى المركز الاجتماعى . هذا وقد ادخرت عشرين قطعة من الفضة ، وأحسبها تكفى لاقامة حفلة عرس بهيجة ، والآن فاذهب أيها الرجل العجوز الى سيدك ، وقل له ألا يتحدث عن العقبات مرة أخرى ، فان جئت لى بانباء طيبة ، كافأتك على ذلك مكافأة جزيلة

لم يطل غياب الخادم كثيرا ، ثم عاد يحمل الى السيدة النبأ الطيب ويتقاضاها الجزاء الجزيل ، فان سيده قد أفعم سرورا اذ زالت تلك العقبات التى كانت تصده عن طريق الزواج . وطلب اليها أن تحدد يوم العرس ، فقالت : لا داعى للتأجيل ، فكل شىء معد ، ولتكن الليلة ليلة عرسنا

وتبدت السيدة فى تلك الليلة فى رداء أحمر قانىء ، تزركشه زخارف من الفضة اللامعة والذهب البراق . وكذلك أقبل زوجها الشاب فى أبهى حلة تزين سمته البهى وقوامه الفارع . وأقيمت الحفلة من غناء ورقص ، وأديرت على الحاضرين كؤوس الشراب . ثم انسحب العروسان الى غرفتهما .. ولكن لم يكد العريس يخلو الى عروسه حتى ألمت به نوبة من الاغماء ، فسقط الى الارض مغشيا عليه . وذعرت العروس وصاحت بخادمه : أيها الرجل العجوز ، ماذا ألم بسيدك ، ماذا أفعل لانقاذه ؟

فضرب الخادم كفا بكف وهو يقول : وا أسفاه يا سيدتى ! ان هذه نوبة قلب تصيب سيدى من حين الى حين ، وقد جهد الاطباء فى علاجه فلم يوفقوا ، الا واحدا منهم وصف له دواء شافيا ، ولكنه عزيز المنال

ــ أى شىء عزيز المنال ؟ قل لى ما هو هذا الدواء آت به فورا !

ــ انه يا سيدتى مخ رجل قتل منذ قليل . ويغمس هذا المخ فى خمر معتقة ، ثم يزدرده ، فتنجاب عنه الغمة ويفيق من نوبته هذه . وكان من عادتى اذا ألم به هذا الصرع أن أخف الى أمير بلدنا ، فيأمر بقتل أحد المجرمين المسجونين ، فننتزع منه ذلك الدواء الشافى . ولكن أين نحن الآن وأين أميرنا ؟ وكيف السبيل الى هذا المخ الذى لا دواء سواه ؟ فلنسلم الامر للقدر ، ولننتظر موت سيدى فى سكون ورضى

وأخذ الخادم يبكى بكاء مرا ، بينما ذلك العريس المريض يزداد وهنا على وهن ، وصفرة على صفرة .. ولكن السيدة صاحت به : دع عنك هذا البكاء والعويل أيها الرجل العجوز ، وقل لى : هل لا بد أن يكون المخ منتزعا من رجل قتيل ، أم يصلح ذلك المنتزع من رجل ميت منذ قريب ؟

قال الخادم : على شرط ألا يكون قد مات منذ أكثر من سبعة أسابيع ، فان المخ يظل رطبا طريا طوال هذه المدة !

فتنفست السيدة الصعداء ، وقالت تؤنب الخادم : ولماذا لم تقل ذلك من أول الامر ؟ ان حياة سيدك يا هذا فى مأمن من الخطر ، فان زوجى السابق تشوانج تشو لم يمت الا منذ ثلاثة أسابيع فحسب . فماذا تقول فى استخراج مخه ، ونقعه فى الخمر ، واطعام سيدك منه ؟

قال الخادم : ولكن هل ترضين بذلك يا سيدتى ؟

فأجابته : هل أرضى بذلك ؟ كيف لا أرضى ؟ لقد وهبته نفسى فهل أضن عليه بمخ من جدث هامد ؟ تعال معى أيها الرجل العجوز . .

وأسرعت السيدة فأتت بمعول كبير ، وذهبت الى حيث دفن زوجها السابق ، وفى يدها فتيلة تضىء الظلام . وهوت على القبر بمعولها عدة مرات ، حتى تصدع أحد جدرانه وظهر ما فى جوفه . . يا للهول ! لقد هوى المعول من يدها ، وسقطت الفتيلة من يدها الاخرى ، ووقفت جامدة لا حراك بها ، اذ سمعت شهيقا ينبعث من القبر ، ثم اذ رأت زوجها « تشوانج تشو » ينهض من التابوت ، وهو يقول فى صوت حبيس مكبوت :

ــ هيا يا زوجتى ، ساعدينى على الخروج من هذا القبر المظلم الخانق . .

وكان الخوف قد جرد السيدة من كل عزم وارادة ، فانعقد لسانها كما احتبس نفسها، وغدت أداة تأتمر بكل أمر يلقى اليها . فتقدمت الى ذلك الميت الحى وأخذت بيده ، وأنهضته من قبره ، وسارت به الى غرفتها

عجبا ! لقد اختفى ذلك الشاب الذى كانت تحتفل الليلة بزواجها منه ، والذى تركته منذ قليل يعانى بين الموت والحياة . واختفى كذلك خادمه العجوز ولم يبق فى الغرفة أثر لعرس وزفاف ، الا تلك الملابس القانية التى ترتديها

وعاد اليها صوابها ، فجمعت شجاعتها ، وقالت :

ــ زوجى ، سيدى ، ما أشد فرحتى برجوعك ولقائك فى هذه الدنيا . اننى لم أفكر فى شىء سواك منذ فارقتنى ، وان عينى ــ وقد أوشك البكاء أن يذهب بضوئهما ــ لتشهدان لى بذلك . ألم أعاهدك على الحب والوفاء ماحييت ؟ انى لم أترك قبرك ساعة من ليل أو نهار . اذ كنت أجد فى القرب من جدثك راحتى وسلواى . فلما عاودتك الحياة ، وسمعت صوتك من وراء القبر ، جئت بهذا المعول وهدمت به ذاك الجدار الذى كان يفصلك عنى ، فما أسعد حظى ، وما أهنأ حياتى ، اذ عدت الى يا زوجى العزيز . لا شك أن الآلهة قد رقت لى من فرط حزنى وغامر بكائى ، واستجابت لدعائى وتوسلى بالليل وبالنهار ، فأعادت الى أحب الناس الى وأعزهم على

فقال « تشوانج تشو » : شكرا لك يا زوجتى على هذا الوفاء. ولكن خبرينى باعزيزتى: ما هذه الملابس القانية الزاهية التى ترتدينها ولما يمض على موتى عشرون يوما ؟

فأجابته : ألا تعرف يا زوجى العزيز أن المسافر فى رحلة شاقة طويلة ، يحب ، عند عودته سالما من متاعبها وأخطارها ، أن يرى أهله فرحين بأوبته ، مبتهجين بسلامته ،

محتفلين به أجمل احتفال ؟ فاذا رأت زوجتك أن ترتدى خير ما عندها من اللباس ، احتفاء بك ، فان هذا ولا شك يزيد فى حبك اياها وعطفك عليها .. أم هل كنت تريد أن ألقاك عند عودتك الى الحياة ، فى نفس تلك الملابس القاتمة الداكنة التى ارتديتها يوم فارقت الحياة ؟ يوم موتك كان أسود الايام ، ويوم عودتك الى الحياة أبهى الايام !

قال الرجل : صدقت يا زوجتى فيما تقولين ، وما أشد قدرى لحبك ووفائك وفرحك بعودتى . ولكن ثمة سؤالا آخر لعلى أجد عنه جوابا مطمئنا :

ــ لماذا رفعت تابوتى من القبر الذى أعددته وسط البيت ، وألقيت به فى تلك الحفرة النائية المهجورة ؟

لم تحر الزوجة عن هذا السؤال جوابا . فصمت الرجل برهة ثم قال لها : دعينا من هذا ، وحدثينى عن الحب والهوى والوفاء ، فحسب الرجل من زوجه أن تحبه ما كان الى جانبها ، فان غيبه الموت عنها فهى ملك نفسها . ولا تحسبينى غاضبا أو ناقما ، فان غضب الرجال لا يقوى على بسمة النساء ، ونقمة الازواج لا تصمد طويلا اذا حنت الزوجات بالكلمة الحلوة والعبارة الانيقة .. دعينا من هذا وتعالى معى ننظر مليا الى ذلك القمر المشرق فى السماء ، والى ذلك البحر الساجى يتألق فيه ضوء القمر الخلاب ، وتعالى ننس فى ذلك المساء الساحر الفاتن ما مضى وما هو آت الساعة من بهجة ومن نعيم

وبينما هما مستغرقان فى هذا الحلم الهانىء البهيج ، اذ بزوجها تشوانج تشو يحرك يديه فى الهواء حركة خفيفة عابرة ، فتنظر زوجته فتراه قد غاب واختفى .. وتنهض فزعة مذعورة ، فاذ بها ترى أمامها ذلك الشاب الذى كانت تريد أن تتزوجه والى جانبه خادمه العجوز .. وهمت بأن تصيح وقد طاف بها طائف من الذهول ، ولكن المشهد لم يمكث طويلا ، واذ بالشاب وخادمه يختفيان ، واذ بها ترى زوجها « تشوانج تشو » الى جوارها مرة أخرى !

اذن فذلك الشاب لم يكن سوى زوجها ، واذن فكل ما قالته عن الحب والوفاء خديعة لم تجز على الرجل الحكيم .. واذن فلا مناص من التكفير عن خطيئتها . فجرعت كأسا من السم قضى عليها . وحملها زوجها الى القبر جدثا لا تعاوده الحياة مرة أخرى . ثم أوقد فى البيت كله نارا فأكلته وخلفت حطامه رمادا . أما هو فعاد يهيم فى الجبال والوهاد، ويضرب بين المدائن والقرى ، يتأمل الكون ، ويدرس الانسان ، ويكشف عن ذات الصدور ، ويستبطن حنايا القلوب ، فيعلم أن للمرء ساعته التى هو فيها ، أما ما فات فقد فات ، وأما ما هو آت فآت ، ثم يعلم أن المرأة أمام الحب القاهر أضعف من الطفل أمام الاسد الكاسر ، فمن حقها على الرجل ألا يسرف عليها ويتجنى ، ويطلب اليها الحب والوفاء مدى الحياة وبعد الممات ، ثم يعلم بعد ذلك كله أنه كلما أسرفت المرأة فى الحديث عن حبها ووفائها كان للرجل ، بل كان عليه ، أن يداخله الشك وتواتيه الريبة فى أمرها

(عن امريكان مجازين)

١٥ مليون جنيه

يخسرها العالم بسبب الجراد

بقلم الدكتور أوفاروف

الدكتور ب . ب . أوفاروف من علماء الحشرات فى مركز أبحاث مكافحة الجراد فى انجلترا ويعد من أكبر الخبراء بشؤون الجراد فى العالم . وهو يدير أعمال مكافحة الجراد التى تقوم بها الحكومة البريطانية منذ سنة ١٩٢٩ والتى بلغت إلى قدر محمود من النجاح فى مقاومة هذا الوباء

لكى تقدر مدى ما يكابده العالم من خسارة من جراء غارات الجراد والنطاط ، أذكر لك ما جمعه مركز مكافحة الجراد من احصاءات عن السنوات العشر ١٩٢٥ - ١٩٣٤ تشمل منها سنين اشتدت فيها غارات الجراد وأخرى خفت فيها أو امتنعت . ولم يكن يسيرا جمع احصاءات من هذا القبيل ، فان ٤٩ دولة فقط (من ٧٧ دولة وقطرا تعانى غارات الجراد) قد قدمت الاحصاءات المطلوبة .

ومع ذلك فان النتائج كانت مروعة ، اذ اتضح ان محاصيل قيمتها ٨٣٫١٢٠٫٨٠٠ جنيه ذهبت طعمة للجراد فى تلك السنوات العشر . يضاف الى ذلك ما تكلفته تدابير المقاومة وجملته ١٣ مليون جنيه .. وعلى هذا الاساس ليس من الغلو أن نقول ان الجراد والنطاط يكلفان العالم ما لا يقل عن ١٥ مليون جنيه كل عام . ويجب أن يضم الى هذا الرقم مبلغ هائل يمثل قيمة العمل غير المأجور الذى يبذل فى كل مكان على نطاق واسع لمكافحة غارات الجراد

لقد واجه البشر مشكلة الجراد منذ أقدم العصور ، وورد ذكرها فى الانجيل كما ورد فى تاريخ قدماء المصريين والعبرانيين واليونانيين القدماء والصينيين والرومان

ويحسب البعض أن خطر الجراد مقصور على بلاد قليلة معينة . ولعل ذلك الوهم ناتج من ان وسط أوربا وشمالها الغربى أصبحا بمأمن منه ، وان تكن البلدان التى فى جنوب أوربا مثل البرتغال واسبانيا وايطاليا وشبه جزيرة البلقان وأوكرانيا والقوقاز كلها ، جد خبيرة بالجراد . وفى الجزء المعتدل المناخ من آسيا تزيد المنطقة الزراعية المستهدفة لخطر الجراد اتساعا عن ذلك . وهذه المنطقة تمتد من اراضى سيبريا الخصبة حيث يزرع القمح الى أواسط آسيا حيث ينتج القطن والفاكهة وغيرهما ، وهناك تشتد عادة غارات الجراد الاسيوى المهاجر والجراد المراكشى . والى الشرق من ذلك ، فى بلاد الصين ، كثيرا ما أحدث الجراد الشرقى المهاجر مجاعات ساحقة . وتمتد منطقة هذا الجراد الاخير الى جزر الفلبين وبورنيو وسليبس والهند الصينية وشبه جزيرة الملايا

أما فى الغرب فهناك منطقة واسعة يسيطر عليها جراد الصحراء ، وتمتد من الهند شرقا الى شاطىء افريقيا على المحيط الاطلسى غربا ، ومن آسيا الوسطى الروسية شمالا الى جنوبى خط الاستواء فى أفريقيا الشرقية . وتتعرض المناطق الحارة من افريقيا فضلا عن ذلك لغـارات نوعين آخرين من الجراد ، وهما الجراد الافريقى المهاجر والجراد الاحمر . والاخير منهما يصل الى أفريقيا الجنوبية التى تعانى أيضا غارات الجراد الأسمر. كذلك استراليا تدفع من محاصيلها ضريبة فادحة للجراد والنطاط

فاذا اتجهنا غربا ألفينا الولايات المتحدة وكندا كلتيهما فى حرب قائمة ضد النطاط ، بينما يلتهم الجراد الامريكى بين حين وآخر مساحات زراعية شاسعة فى أمريكا الوسطى والجنوبية

وهكذا لا تجد قارة واحدة من القارات الخمس بمنجاة من غارات الجراد ، فهو يرتادها كلها ما عدا مناطق الغابات والصحراوات المتجمدة الشمالية والصحراوات الاستوائية والجبال . ويبلغ عدد الدول المستهدفة لخطر الجراد بشكل دائم أو موسمى ٧٧ دوله

واذا رجعنا الى ما ذكره الانجيل عن غارة الجراد على مصر ، رأينا بعد ذلك سلسلة من كوارث الخراب والمجاعة سببها الجراد فى مختلف العصور ومختلف الاقطار . فمثلا فى القيروان ونوميديا من أملاك الرومان هلك ٨٠٠٫٠٠٠ نسمة فى سنة ١٢٥ قبل الميلاد من جراء غارة للجراد . ووقعت مجاعات هائلة فى الهند والصين وغيرهما . فاذا انتقلنا الى السنوات الحديثة رأينا الجراد فى سنة ١٩٣٠ قد أتلف فى مراكش محاصيل تبلغ قيمتها مليون جنيه . وفى نيجريا فى نفس السنة تطلب الامر استيراد ألف طن من الحبوب منعا للمجاعة . وفى تنجانيقا التهم الجراد بين ٧٥ و١٠٠ فى المائة من المحاصيل فى سنة ١٩٢٩، وفى كنيا فى نفس السنة أنفق مبلغ ٢٠٠٫٠٠٠ جنيه لمعالجة المجاعة الناشئة من الجراد ولتفادى نتائج الجفاف فى وقت واحد

ان دورة الحياة للجراد والنطاط بسيطة للغاية ، فالناث تضع بيضها فى كيس بالارض يحتوى من ثلاثين الى مائة بيضة . وفى البلاد الباردة الشتاء يبقى البيض خامدا طول هذا الفصل ، حتى اذا جاء الربيع خرج الجراد أو النطاط الصغير من البيض الى سطح الارض . وفى البلاد الحارة يفقس البيض بعد اسبوعين أو ثلاثة اذا كان بالارض ماء مطر أو رطوبة . ويظهر الفرق بين النطاط والجراد فى المرحلة الاولى من حياة كل منهما : فالاول تعيش أفراده مستقلة بنفسها . أما الثانى (الجراد) فيعيش فى جماعات ، فضلا عن سرعة نموه . وقد دلت التحريات الحديثة على أن حركات الجراد تتوقف لدرجة كبيرة على حالة الجو ، وتكثر فى أوقات الحر ، بينما يغريها اشتداد الحرارة بالوقوف عن الحركة . ومن عجب أن الجراد فى هجرته لا يقصد عادة الى البحث عن الغذاء ، فكثيرا ما يبعده اشتداد الحر عن منطقة خصبة الى صحراء جرداء

ومتى كبر الجراد الصغير وصارت له أجنحة فانه يطير جماعات . وقد تتألف الجماعة

من الجراد من عدد هائل ، فمثلا أغارت جماعة منه على منطقة تتراوح بين ٣ أميال و٦٠ ميلا فى أفريقيا الشرقية وقدر عدد أفرادها بما لا يقل عن بليون جرادة

ومن العسير هنا أن نورد الوسائل الرئيسية التى تتخذ لابادة الجراد . فمثلا كان أهالى الصين القدماء يتلفون بيض الجراد وهو قابع فى الارض ، ولا يزال البعض يوصى به ، وان يكن لا يجدى نفعا الا فى أحوال خاصة . وكان الرومان يضربون الجراد بأغصان الشجر ويطاردونه الى حفر يعدونها ، كما ذكر المؤرخ بلينى ، وفى الازمان الحديثة صارت تتخذ طرق أخرى مثل قذف الجراد باللهب ، أو بالغازات السامة ، أو بالامراض البكتريولوجية ، أو بالبخار ، أو الدخان ، أو بقذائف المدافع نفسها . . وفى المدة الاخيرة ، كثر استخدام النخالة المخلوطة بمحلول زرنيخ الصودا ونشرها فوق الارض ، وقد ثبت ان الجراد يؤثرها على النبات الاخضر . ويراعى أن تكون تلك المادة الكيماوية السامة فيها من القلة بحيث تكفى لقتل الجراد ولكن دون أن تكون خطرة على الماشية التى ترعى فى الارض . وعلى أى حال يحسن البعد عن كل مجازفة من هذا القبيل ، ولذا يقومون الآن بتجارب قوامها غبار سام تقذفه الطائرات على الجراد فيبيده

على أن العقبة الكأداء فى حل مشكلة الجراد هى أن غاراته ليست سنوية بل تحدث كل عدد من السنين ، وكلما وقعت غارة منها على بلد من البلدان لم تدخر وسعا فى المقاومة ، ولكن متى زال الخطر المباشر زال معه الخوف من الجراد واستقر فى النفوس أمل كاذب بأن لا تقع غارة أخرى فى قادم السنين

والعامل الثانى فى فشل مقاومة هذا الوباء هو انفراد كل دولة بالامر . فهناك مثلا جهود هائلة بذلت لمكافحة الجراد فى كل من الجزائر وافريقيا الجنوبية والارجنتين الخ ، ولكن النتائج كانت دائما وقتية ، ولم تؤد الجهود قط الى استئصال المشكلة من أساسها ، لسبب بسيط وهو انها لا تحل فى بلد دون آخر ، فالجراد الصحراوى الذى ينشأ فى الهند يهاجر عادة الى ايران وبلاد العرب . وذريته تذهب الى مصر وفلسطين وافريقيا الشرقية . فواضح من ذلك أن التدابير التى تتخذ فى بلد واحد من هذه البلدان قد تصلح لوقاية محاصيلها فى موسم معين ولكنها لا تكون ذات أثر فى حل المشكلة حلا عاما دائما

ولقد بدأ التعاون الدولى فى مكافحة الجراد فى سنة ١٩٢٨ ، اذ حصلت سلسلة غارات من الجراد فى جهات شتى فرأت الحكومة البريطانية ضرورة اتخاذ تدابير جوهرية لحل هذه المشكلة . وما لبثت أن أنشأت مجلسا خاصا للقيام بالبحوث الخاصة بالجراد ، وجمع المعلومات عن حركاته ونشأته . ثم عقد أول مؤتمر للجراد فى روما سنة ١٩٣٠ فعهد الى المجلس البريطانى السالف الذكر أن يكون هو المركز الدولى للبحوث الخاصة بالجراد . وفى خلال ثمانى سنوات كان هذا المركز قد جمع كل المعلومات الممكنة عن الجراد ووضع الخطط لمقاومته . ولما أريد عقد مؤتمر دولى آخر لبحث هذه الخطط وتقريرها اذا بالحرب تنشب وتضع حدا لهذه الجهود

(عن صحيفة جمعية الفنون الملكية بلندن)

العلم والعالم

الجو سلاح حربي

من الآراء الحربية الطريفة أن لروسيا قائدين لا يهزمان أبدا ، هما القائدان يناير وفبراير !

وهم يعنون بهذا أن البرد القارس والجليد المتراكم في أرجاء روسيا خلال هذين الشهرين كفيلان بهزيمة كل جيش يريد غزو روسيا ، كما هزم جيش نابليون وجيش هتلر هزائم منكرة

والواقع ـ كما قال برنارد هوبارد الاخصائي الامريكي في شـؤون الطقس ـ أن « المدافع والدبابات والطـائرات ليست معـدات الحرب الوحيدة . بل ان الجو يعـد احد هذه المعدات الحربية التي لا غنى عنها في تحقيق النصر أو الهزيمة »

وأحداث هذه الحرب ، سواء ما وقع فيها في البر أو في البحر أو في الجو ، دليل قاطع على صحة هذا الرأي ، كما يبدو من الوقائع التي نذكرها :

■ كادت حملة الحلفاء على صقلية ان تنتهي بهزيمة قاصمة من جراء عاصفة عاتية هبت على البحر الابيض المتوسط في اليوم المعين لغزو الجزيرة ، فقد تعالت الامواج كالجبال واشتدت ضرباتها للشطئان ، حتى غدا وصول السفن للبر مستحيلا ، وأصيب الجنود بدوار البحر مما لا يستطيعون معه أن يقاتلوا جنود العدو الذين يترصدونهم في الجزيرة . وبدا للقيادة أن الجو ، لا المحور ، قد أفسد خطة الغزو وقضى على جنودها بالانكسار . ولكن الجو لم يلبث أن اعتدل ، فسكنت العواصف وهدأت الامواج ، وتمت القصة على ما نعرف من انتصار الحلفاء وسيطرتهم على الجزيرة

■ ولم تكن مأساة السلاح الجوي البريطاني في الفترة الاولى من الحرب الا نتيجة ما ينقصه من معلومات جوية صحيحة . فقد حدث في ليلة من ليالي شهر نوفمبر ان قامت مئات من قاذفات القنابل وحارساتها تريد أن تصب عذابها على المدائن الالمانية . فماذا كانت النتيجة ؟ فقدت ثلاث من كل خمس طائرات . ولم يعد مئتان وخمسون طيارا . وبلغت قيمة الطائرات المفقودة خمسة ملايين من الدولارات . ولم تكن لطائرات ألمانيا ولا لمدافعها دخل كبير في هذه الهزيمة

■ ولم يكن الاتفاق الذي عقدته اليابان وروسيا بشأن مصائد الاسماك في كمتشتكا الا عملا حربيا واسع النطاق ، لان معرفة حالة الجو في هذه المنطقة تمكن اليابان من القيام بعمليات حربية كبيرة في كثير من أرجاء الشرق الاقصى . ولولا هذا الاتفاق لما استطاعت اليابان أن تضرب « الميناء الهولندي » ضربة قاصمة لم تحل دونها الطائرات الامريكية التي تنقصها الخبرة بتقلبات الطقس في هذه الارجاء

■ وجميع انتصارات ألمانيا الاولى لم تتحقق الا لان القيادة الالمانية أدخلت « عنصر الجو » في حسابها . فبولندة غزيت في شهر ينتشر فيه الجفاف في بولندة ، فتيسر لدبابات النازي ان تجتاح هذه البلاد في يسر وسهولة . وكذلك حطم النازي خط ماجينو عندكولمار ، بأن اختاروا لذلك يوما ستهطل فيه الامطار الغزيرة ، مما يمكنهم من اخفاء ما يعدونه من الوثوب على هذا الخط المنيع ، في حين أن الفرنسيين كانوا يحسبون خط ماجينو حصنهم الحصين الذي يكفيهم مؤونة التفكير في مسألة الجو وعواصفه وأمطاره وحملة النازي على النرويج وقعت في اسبوع

عرف انه سيكون اسبوع الضباب الكثيف والمطر الغزير ، فلما انجاب الضباب وانقطع المطر كانت الترويج في قبضة الالمان

■ ولما وقعت موقعة ميناء بيرل‌ قرر الكونجرس بعدها بخمسة أيام اعتماد نصف مليون دولار للتوسع في « ادارة الطقس » التابعة للجيش الامريكي

ويجب أن نذكر أن أعظم معركتين في تاريخ انجلترا ، معركة الارمادا في سنة ١٥٨٨ التي سودت انجلترا ملكة على البحار ، ومعركة واترلو في سنة ١٨١٥ التي أوقعت نابليون في أسر الانجليز ، كان الجو هو العامل الاول في انتصار انجلترا على عدويها : فيليب الثاني ونابليون بونابرت

أيهما الجنس اللطيف ؟

أيهما الجنس اللطيف : الرجل أم المرأة ؟ الذكر أم الانثى ؟

يقول العلماء ان الرأى الشائع لا يقوم على أساس علمي . وتدل بحوثهم وأرقامهم على أن المرأة — أو الانثى بوجه عام — أقوى وأغلظ من الرجل — أو الذكر على الجملة — قوة بدنية وقوة عصبية ملحوظة

فمتوسط عمر المرأة يزيد عن متوسط عمر الرجل خمس سنوات . وقد يقال ان مرجع ذلك الى أن عمل المرأة أيسر من عمل الرجل وأبعد منه عن الخطر في الجملة ، ولكن المرأة تتعرض دون الرجل لآلام الحمل والوضع وأخطارهما ، فضلا عن أن حياتها الراكدة أو الهادئة تجعلها اكثر استهدافا من الرجل لمرض السكر وضغط الدم ، ومع ذلك فان عمرها أطول من عمر الرجل مما يدل على أن جسمها أقوى على الاحتمال من جسم الرجل

ومما يدل على أن نوع العمل لا دخل له في طول العمر ، انه في المرحلة الاولى من مراحل الحياة السبع ، أى في مرحلة الطفولة التي يتساوى فيها الطفل والطفلة من حيث مجهودهما الجسماني تكون الطفلة أكثر من الطفل مناعة من الامراض فتزيد الوفيات في الذكور عنها في الاناث ، بل ان هذه الزيادة تكون أوضح في الايام الاولى من الحياة ، مما يدل على أن الانثى الجنين أقوى وأصح من الذكر الجنين

وهذه الحقيقة أوضح وأبين في عالم الحيوان ، حيث صار الذكر في كثير من أنواع الحيوان يشغل مركزا ثانويا الى جانب المركز الاول الذي تشغله الانثى . وكلنا نعرف ان ذكر النحلة مثلا لا عمل له الا تلقيح الانثى ، ومتى تمت عملية اللقاح اجتمعت عليه الاناث وقتلته تخلصا من هذا المخلوق « الطفيلي » الذي لا يؤدي عملا نافعا للجماعة

وقد أراد دي موباسان في احدى قصصه أن يسخر من الرجل العاطل ، فصور رجلا ريفيا يقضي وقته نائما أو غافيا أو لاعبا ، بينما زوجته تؤدي كل ما في البيت وما في الحقل من الاعمال . وأخيرا اقترحت عليه زوجته أن ينام على بيض الدجاج حتى يفقس وبذلك يؤدي عملا ما ..

ولكن موباسان لم يجاوز الحقيقة في قصته ، فبعض ذكور الحيوانات المائية لا عمل له بعد تلقيح الانثى الا أن يحمل بيضها على ظهره حتى يفقس هذا البيض ، بينما انثاه تعيث في البحر سعيا وراء رزقها ورزقه ورزق صغارهما ..

ونعود الى مسألة الصحة والقوة ، فنجد أن نسبة الوفيات من الامراض المعدية في الذكور من بني الانسان تزيد عن نسبتها في الاناث بمقدار ٤٦ ٠/٠ .

وأكثر الامراض عدوى هو السل والالتهاب الرئوي . ومع أن نسبة الوفيات بهما ، قد قلت كثيرا في العهد الاخير ، وخصوصا بعد استخدام عقاقير « السلفا » الا أن وفيات الذكور منهما أكثر من وفيات الاناث بمقدار ٥٠ ٠/٠ .

ووفيات النساء من السرطان أكثر من وفيات الرجال . ولكن اذا استثنينا سرطان الثدى والجهاز التناسلى ، والمرأة بطبيعة الحال اكثر تعرضا له من الرجل ، فانا نجد أن الرجل يستهدف ضعف استهداف المرأة للوفاة من السرطان الذى يصيب اللسان أو الرئة أو المعدة أو الجلد أو سائر الاعضاء الداخلية

وتزيد وفيات الرجال بمقدار الثلث عن وفيات النساء الناتجة من أمراض القلب

وقد ذكرنا أن المرأة تتعرض لضغط الدم أكثر من تعرض الرجل . ومع ذلك فانها اكثر احتمالا له وأقل تعرضا للموت من جرائه

ومما يدل على أن أعصاب المرأة أصح وأقوى من أعصاب الرجل هو تفاوتهما فى نسبة الانتحار ففى احصاء الانتحار فى أمريكا فى سنة ١٩٣٩ وجد أن المنتحرين ثلاثة أمثال المنتحرات

بناء عشرين مليون منزل

الاغلبية الساحقة من الشعب الامريكى — ونعنى دائما بأمريكا الولايات المتحدة الامريكية — تنال قسطا كافيا من الغذاء واللباس . ولكن ثلث هذا الشعب ، أى حوالى أربعين مليون نسمة ، لا يسكنون مساكن صحية لائقة ، سواء من يقيم منهم فى المدن ومن يقيم فى الريف . والواقع أن جزءا كبيرا من الفلاحين الامريكيين يقيمون فى مساكن لا تصلح فى نظر الفلاح الحديث الراقى لايواء ماشيته !

ولهذا فقد أعدت أمريكا عدتها لتمكن أبناءها وبناتها من أن يسكنوا مساكن تتوافر فيها عوامل الصحة والراحة . وهذا يقتضيها انشاء عشرين مليون مسكن ، فى أثناء عشر سنوات

وسيكون هذا المشروع الخطير من أهم العوامل فى تفادى بطالة العمال بعد ان تنتهى الحرب وينتهى معها الانتاج الحربى الهائل الذى يستغرق كل ما فى أمريكا من أيدى العمال والعاملات . اذ أن هذه المنازل تحتاج الى عشرة ملايين من العمال يشتغلون طوال السنوات العشر التى يتم فيها انجاز المشروع

وستكون طريقة اقامة هذه البيوت مختلفة عن الطريقة القديمة . طريقة وضع حجر على حجر ، واقامة حائط بعد حائط ، وانشاء طبقة بعد طبقة . بل ستتبع طريق البناء جملة واحدة، فنحن فى عصر الانتاج الكبير« الجملة »لا الانتاج الصغير « القطاعى »

وعلى ذلك ستقوم المصانع التى تنتج الحوائط الكاملة مصنوعة من أنواع الحديد المختلفة ، فلا يستغرق بناء البيت المؤلف من اربع او خمس غرف سوى ساعات قلائل تتراوح بين أربعين وخمس واربعين ساعة . أى أن خمسة أو ستة من العمال يستطيعون أن يقيموا هذا البيت فى يوم واحد !

أى أن الفترة اللازمة لاقامة بيت لن تزيد عن الفترة اللازمة لشراء سيارة . اذ يكفى أن يذهب الرجل الى شركة من شركات البناء ، ويختار من بين رسومها رسم البيت الذى يريده . ثم ينقدها جزءا من الثمن ، وفى اليوم التالى يستلم هذا البيت الذى تقيمه له الشركة فى بحر نهار واحد. وبعد ذلك يدفع لها باقى الثمن مقسطا على أقساط زهيدة لا ترهق الاسرة الفقيرة أو المتوسطة عسرا . ذلك أن ثمن مثل هذا البيت سيتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف من الدولارات

وانشاء بيت كهذا بالطريقة الحالية يقتضى ضعف هذا المبلغ على الاقل ، فضلا عما يستغرقه من وقت طويل

ولن تكون أثمان الاثاث الجميل المريح مرهقة للمتوسطين والفقراء ، وبذلك سيكون فى بيت العامل والفلاح ثلاجة كهربائية ، وفرن كهربائى وما الى ذلك من العدات التى لا يملكها الآن الا الاثرياء والموسرون

أخطاء شائعة فى تاريخ العلم

يفسد التعصب القومى كثيرا من تاريخ العلم والعلماء ، فينسب لبعض المخترعين والمكتشفين فضلا غيرهم أحق به وأولى

ومن أمثلة ذلك ما يلى :

■ فأديسون المخترع الامريكى لم يخترع المصباح الكهربائى رغم أن كثيرا من مؤرخى الكشوف العلمية يقولون ان أعظم ما تجلت عنه عبقرية أديسون هو هذا المصباح ، ورغم أن أمريكا أعلنت حدادها يوم وفاة أديسون بأن اطفئت مصابيحها الكهربائية بضع دقائق حزنا على الرجل الذى تزعم أنه اخترعها . والواقع ان العالم شهد المصباح الكهربائى فى سنة ١٨٦٠ ، أى قبل أديسون بتسع عشرة سنة ، وذلك على يد عالم انجليزى هو سير جوزيف سوان

■ اذا قلت نظرية التطور قفز الى ذهنك اسم العالم الانجليزى شارلز دارون . ولكن هذه النظرية قديمة جدا ، فقد قال بها بعض فلاسفة الاغريق ، وبعض فلاسفة المسلمين ، وبسطها العالم الفرنسى جان لامارك، وشرحها وأوضحها جد داروين ، واسمه اراسمس داروين

■ فى سنة ١٩٣٤ منح ثلاثة من أطباء امريكا هم : هويبل ومينو ومورفى ، جائزة نوبل لكشفهم عن علاج ناجع لفقر الدم . ولكن هذا العلاج ذاته كشف قبل ذلك بعشرين سنة على يد طبيبين ايطاليين هما بيترو كستيلنو والفونسو بيريرا

■ الشعوب التى تتكلم الانجليزية تتعصب للعالم الانجليزى جوزيف بريستلى وتنسب اليه أنه كشف عن عنصر الاوكسيجين . ولكن بريستيل لم يعلن هذا الكشف الا فى سنة ١٧٧٤ ، فى حين أن الكيميائى الفرنسى لافوازييه كشف هذا العنصر وسماه الاوكسيجين قبل ذلك بسنتين . والالمان لا يعترفون بذلك ويصرون على أن مكتشفه هو عالمهم كارل شيلى !

■ ينسب المصل الواقى من الجدرى الى طبيب قروى انجليزى اسمه ادوارد جينر ، وفق اليه فى سنة ١٧٩٦ . ولكن من المحقق ان رجلا يونانيا مغمورا اسمه تيمونى عرف هذا المصل واتخذه فى الوقاية من الجدرى قبل ذلك بمائة سنة

■ نظرية الخلية ، أى أن الخلية هى الوحدة الاساسية التى تقوم عليها المادة الحية ، تنسب الى العالم الالمانى تيودور شوان . ولكن شوان لم يهتد الى هذا الرأى الا فى سنة ١٨٣٩ ، فى حين أن العالم الانجليزى روبرت بروك أعلن هذه النظرية ذاتها قبل ذلك بقرنين من الزمان

وهكذا يتعرض تاريخ العلم لكثير من الاخطاء لان الروح القومى ينفذ الى ميدان العلم ، فيجرد بعض العلماء من فضلهم لينسبه الى غيرهم ممن جاءوا بعدهم وتأثروا خطاهم

نجم جديد يبشر أخيراً !

الظاهر أن الصلة بين علم الفلك وخرافة التنجيم ما تزال قائمة !

فمن أنباء امريكا العلمية أن نجما جديدا ظهر فى سماء افريقيا وأمريكا الجنوبية فى الاسبوع الذى هبط فيه ايزنهاور أرض أوربا غازيا ، وان هذا النجم ألمع ضياء من أى نجم ظهر فى السماء منذ سنة ١٩١٨ ، أى السنة التى انتهت فيها الحرب الماضية وقام فيها السلام

فهل يكون هذا النجم اللامع الجديد بشيرا بانتهاء الحرب الدائرة واقبال السلام المنشود ؟

وقد كشف هذا النجم الاستاذ داوسون بمرصد لابلاتا فى الارجنتين . وبعد كشفه بأسبوع واحد كان ترتيبه من حيث قوة ضوئه ولمعانه الثامن من بين سائر النجوم ، ويزداد لمعانه يوما بعد يوم

وضوؤه البراق دليل على أن انفجارا حدث فى شمس بعيدة منذ عدد من السنين ، وظل

الضوء المنبعث من هذا الانفجار يسير في الفضاء حتى بدا لاعين الناس على هذه الارض

ومع أن الضوء يسير بسرعة ست تريليونات من الاميال في السنة ، فان بعض النجوم لايصل ضوؤها الى أعيننا الا بعد انقضاء قرون من الازمنة !

ولا يعرف الى الآن مدى بعد النجم الجديد عن الارض ، وكذلك لا يعرف مستقبله ، فقد يزداد لمعانا عدة شهور أو عدة سنين ، وقد يخبو هذا الضوء سريعا ثم يختفي عن الابصار

وقد ذكرنا في النبذة السابقة كيف ان الشعوب تتعمد ان تنسب الكشوف العلمية ادعاء وغرورا لرجالها ولو لم يكن لهم فضل في كشفها . وهذا ما حدث في شأن هذا النجم . فقد أذاع الراديو الياباني أن الذي كشف هذا النجم هو أحد منجميها « الهواة » — أي انه ليس من العلماء — وأن كشفه هذا يعد من الحوادث الكبرى في تاريخ علم الفلك ، وأن ما تدعيه أمريكا من أن عالمها الارجنتيني هو الذي كشفه محض افتراء

كلف الشمس وأثره الاقتصادى

من النظريات التي يعلل بها حدوث الازمات الاقتصادية ظهور كلف — بقع — الشمس

فقد لاحظ بعض العلماء أن هذه الازمات تعاقبت في خلال التاريخ الحديث مرة في كل عشر سنوات . وأن وقوع هذه الازمات يأتي دائما في الوقت الذي يشوب وجه الشمس بعض هذه البقع التي تقلل من أشعة الشمس وحرارتها . فاستنتجوا من ذلك أن ثمة علاقة بين ما يحدث في الشمس من كلف وما يحدث في الارض — وما هي الا كوكب بسيط يتأثر بالشمس — من أزمات

على أن هذه النظرية لا سند لها في رأى الاقتصاديين المحدثين الذين وجدوا للازمات أسبابا أخرى أوضح وأقوى

ولكن عالما أمريكيا اسمه رالف كنج ظهر أخيرا برأى يقول ان بقع الشمس لها تأثير مباشر في حياة الجماعات البدائية التي تعيش على قنص الحيوان ، وصيد السمك ، ورعى الماشية ، وكذلك التي تقتات من ثمار الغابات وحشائش الارض . . وأن هذا التأثير يتناول نسبة المواليد ونسبة الوفيات ، ونسبة الامراض ، ومستوى الصحة بين هذه الاقوام

فقد وجد هذا العالم أن هذه النسب تدور في دورات منتظمة ، بمعنى انها تزيد وتنقص في فترات متعاقبة متساوية ، ففي كل احدى عشرة سنة تهبط نسبة المواليد وتزيد نسبة الوفيات . كما يهبط مستوى الصحة وتنتشر الامراض ، الى حد يهدد بانقراض هذه الجماعات

وتلتفت الاذهان في هذه الحالة — بطبيعة الحال — الى البحث عن الاوبئة التي تصيب هذه الجماعات ، على رغم انها هي المسئولة عما يحدث . . ولكن لو نظرنا الى الشمس لوجدنا أن هذه البقع التي تغطى وجهها هي المسئول الأول ، وذلك ان ما تنقصه من أشعة الشمس، وعلى الاخص أشعتها فوق البنفسجية ، تؤثر تأثيرا مباشرا في قدرة الحيوان على النسل ، وفي قدرة النبات على النمو ، مما يترتب عليه نقص كبير في المواد الغذائية التي يعيش عليها وحدها عدد كبير من البشر ، هم الاقوام البدائية التي لم تتعلم بعد طرق الانتاج الحيواني والزراعي على أسس صناعية علمية

وقد وجد في خلال المائتي سنة الاخيرة أن بقع الشمس تظهر في دورات متعاقبة منتظمة ، أي مرة في كل ١١ ١/٥ سنة . وانه في كل مرة تتعرض حياة الجماعات البدائية لخطر الانقراض . وهذا ما يدعو الى الظن — على الاقل — بأن نقص أشعة الشمس بسبب هذه البقع هو السبب فيما يصيب هذه الجماعات

الحركة الفكرية

لغة جديدة

الى جانب المئات من اللغات « الطبيعية » التى تتكلمها الشعوب أو القبائل أو العشائر البشرية، توجد قرابة ثلاثمائة لغة « صناعية » اخترعها علماء اللغات فى العصر الحديث ، توثيقا لعرى التفاهم والتعاون بين الامم التى فرقها اختلاف اللغات

وأشهر هذه اللغات هى « الاسبرانتو » التى كان يرجى لها يوما ما أن تصبح لغة عالمية تتخذها الحكومات ودوائر الاعمال فى جميع الاقطار ، حتى لقد قررت بعض حكومات أوربا الشمالية — السويد والنرويج ودنمرك — تدريس هذه اللغة اجباريا فى مدارسها الابتدائية ، وكذلك طبعت بها مئات من الكتب المؤلفة بها أو المترجمة اليها تدليلا على وفائها بما تتطلبه فروع الثقافة المختلفة

ومع أن الاسبرانتو ، وسائر تلك اللغات الصناعية ، لم تحقق الغاية المنشودة منها ، ومع أن العقلية القومية التى تسود شعوب العالم جميعا أبت التخلى عن اللغات القومية الى لغة عالمية واحدة ، فما زال من العلماء من يخترع لغات جديدة ، راجيا أن يكون فيها من المزايا مايحقق لها الذيوع والانتشار

وأحدث هذه اللغات « لغة الانترجلوسا » التى اخترعها أخيرا الاستاذ لانسلوت هوجبن بجامعة ابردين باسكوتلنده

ومجموع مفردات هذه اللغة ٧٥٠ كلمة ، فهى بذلك أقل عددا من «الانجليزية الاساسية» التى ابتكرها الاستاذ اوجدين ، وعدد كلماتها ٨٥٠ كلمة ، وقد تحدث عنها « الهلال » فى مقال عنوانه « تبسيط اللغة الانجليزية »

ولكن قيمة هذه اللغة لا تنحصر فى قلة عدد مفرداتها ، بل فى سهولة حفظ هذه المفردات لان أكثرها من الكلمات الشائعة على الالسن فى جميع اللغات

وكيف ذلك ؟ لقد وجد الاستاذ هوجبن ان أصول الكلمات العلمية مشتركة فى أكثر اللغات ككلمة «جيو» التى تبدأ بها مثلا كلمة «جيولوجيا» معناها العالم أو الدنيا ، وكلمة « لوجى » التى تنتهى بها كلمة « فسيولوجى » معناها العلم ، وكلمة « تلى » التى تبدأ بها كلمة « تليفون » معناها بعد أو مسافة ، وكلمة « فون » التى تنتهى بها معناها « صوت » وهكذا .. وقد صارت هذه الكلمات عالمية ، تشترك فيها جميع اللغات تقريبا ، ولهذا صار معناها معروفا للناس كافة

فرأى الاستاذ أن يتخذ من هذه الكلمات مادة للغته الجديدة على قدر الامكان . ولما كانت هذه الالفاظ شائعة على الالسن ، مفهومة المعانى ، فانه يتيسر حفظ مفردات اللغة كلها فى أيام قد لا تتجاوز أيام الاسبوعين

وقواعد اللغة مبسطة الى أقصى حد ، وهذا ما روعى فى جميع اللغات الصناعية ، ولكن اللغة الجديدة تمتاز عليها بالكلمات المركبة . فمثلا تشتمل اللغة على كلمة « خشن Sclero » ولكنها لا تشتمل على كلمة « ناعم » بل تكتفى بأن تضيف لفظة « النفى » الى كلمة خشن فتكون لدينا كلمة ناعم . ومثل آخر : كلمة «درامو» اذا أضفت اليها كلمة « مى » كانت الكلمة المركبة من اللفظتين معناها « ممثلة » وهكذا ..

وسواء نجحت هذه اللغة الجديدة أو كان مصيرها مصير أخواتها الصناعيات السابقات ،

الا أنها دليل على أن العلماء يرون فى « اللغة العالمية » خير وسيلة لتحقيق التعاون والتفاهم بين أمم العالم وتجنيبها أسباب النزاع والشقاق، وما تؤدى اليه من حروب وخطوب

أوربا الخفية

ما زالت مونت كارلو حافلة بروادها ،الذين يمضون يومهم ولياليهم على موائدها الخضراء ، يلعبون الميسر على أمل أن تتضاعف أموالهم التى لا يعرفون كيف ينفقونها فى الاستمتاع بالحياة الجميلة الناضجة . ولكنك لو راقبت بعض هؤلاء الرواد مراقبة دقيقة ، كما راقبتهم عيون النازى لعرفت أنهم يتغيبون عن نادى الميسر شطرا من اليوم فى مكان خفى عن الابصار .. لماذا ؟ لانهم فى هـذا المكان يطبعون بعض الجـرائد والنشرات السرية ، التى يندون فيها بسياسة ألمانيا وعسفها بالبلاد المحتلة ، ويبثون فى ذلك الشعب الفرنسى المقهور روح الامل والعزم والنهوض ، ثم يرسلون هذه الصحف بوسائل من المكر والدهاء الى أرجاء فرنسا حيث يتلقفها الناس متلهفين

هذه واقعة من الوقائع الكثيرة التى يذكرها « كيرت ريس » فى كتابه « أوربا الخفية » ، التى أبان فيه من ذلك الروح القومى المتيقظ المضطرم فى قلوب الشعوب الاوربية التى ذلت أمام دبابات النازى وتحت طائراته ، ولكنها ظلت مع ذلك تحاول الافلات من قبضته وتترقب اليوم الذى تستعيد فيه حريتها وتثأر فيه من العادين عليها

فتلك الصحف السرية كانت تطبع فى مونت كارلو ، كانت تطبع فى مذبح المدينة ، وتهرب الى النـاس بأن تلف فيهـا قطع اللحم التى يشترونها ، فاذا أراد أحدهم أن يعرف انباء الحرب على حقيقتها ذهب الى القصاب واشترى رطلا من اللحم ، فيخرج من دكانه ومعه الرطل ملفوفا فى جريدة سرية تطلعه عما تريد ألمانيا اخفاءه من الانباء

ومن تلك الحـوادث ما يقع فى قرية كيرلى الفرنسية القائمة على التخوم الفاصلة بين فرنسا المحتلة وفرنسا غـير المحتلة . فان القرية فى المنطقة التى يحكمها النازى ، أما مقبرة القرية ففى المنطقة التابعة لفيشى . فاستغل أهل القرية هذا فى تهريب كثير من اللاجئين السياسيين ، بأن يزعموا وفاتهم وينقلوهم فى النعوش الى المقبرة حيث يجدون شيئا من الحرية يمكنهم من أداء واجبهم السياسى ، أو الهروب من هذه المنطقة الى البلاد المحايدة أو المتحالفة

وهذا اللون من التأليف موفور الآن فيما يصدر باللغات الانجليزية والفرنسية وغيرهما من لغات البلاد المقهورة ، ولكنا آثرنا هذا الكتاب بالذكر لان مؤلفه حرص على أن يستقى ما فيه من المصادر الموثوق بها ، ليقدم للقراء صورة لا مغالاة فيها ولا اسراف لما يقع فى أوربا ، دون ان يجعل للخيال الروائى مجالا ينطلق فى رحابه

ومن أهم ما ورد فى الكتاب أن السلطات النازية كانت لا تسمح لجرائد فينا بأن تنشر من أسماء المتوفين من أبناء النمسا فى الحرب الروسية الا أسماء اربعمائة جندى فى اليوم الواحد، وكان عدد هذه الجرائد واحدا وعشرين جريدة . فاذا علمنا أن الجيش النمسوى لا يؤلف من مجموع الجيش الالمانى سوى نصف فى المائة ، وأن هذا الجيش يموت منه فى اليوم الواحد أكثر من ثمانية آلاف نسمة، أدركنا مدى الخسائر الفادحة التى لحقت بالجيوش المحورية فى أرض روسيا

سياسة امريكا

يقال ان العقل الامريكى عقل مبتكر ولكنه ليس بالعقل الواقعى . وهذا على نقيض العقل الانجليزى ، الذى يمتاز بالصفة الواقعية وان كانت تنقصه موهبة الابتكار

فالعقل الامريكى مبتكر فى ميادين الصناعة، والتجارة ، والتربية ، بل وفى ميدان البحث

النظرى . وعلماء امريكا ومخترعوها ومفكروها فى الطليعة من زملائهم فى سائر أقطار العالم . ولكن « الجانب الواقعى » الذى يتجلى اكثر ما يتجلى فى ميدان السياسة ليس بارزا فى هذا العقل الامريكى بروزه فى العقل الانجليزى الذى قد ينقصه أى شىء الا « السياسة » والبراعة والدهاء فيها

والواقع أن السياسة الامريكية قبل هذه الحرب كانت من البساطة الى درجة لا تلائم ما لامريكا من قوة وتفوق فى ميادين المال والصناعة والتجارة . حتى لقد كان سفراء أمريكا ومفوضوها فى البلاد الاجنبية لا يكادون يبدون أى نشاط سياسى ، بل يقومون بدور المشاهد ، المراقب ، لما يدور على مرسح السياسة من أحداث ومناورات ، وكأن الامر لا يعنيهم كثيرا أو قليلا . فى حين أن السياسة البريطانية كانت تعنى بكل جليل وضئيل من شؤون السياسة فى جميع بلاد العالم ، وتحاول أن يكون لها من نفوذها العظيم ما يوجه سياسة كل بلد الوجهة التى تبتغيها

ولكن أمريكا منذ تبينت خطأها فى اعتزال سياسة العالم بعد الحرب الماضية ورفضها أن تساهم فى عصبة الامم وجهودها السياسية ، ومنذ دخلت هذه الحرب وصارت احدى الدول الاربع الكبرى التى تناهض المحور بأرواحها وأموالها وأيدى عمالها — منذ ذلك أخذت سياستها تحتل محلها الممتاز فى كثير من أقطار الارض ، وأخذ كتابها يشرحون هذه السياسة ويحللونها ، أو راحوا يوجهونها ويشيرون على رجالها

والكتب التى تصدر الآن عن « السياسة الامريكية » لا حصر لها ، ولكن من أهم هذه الكتب كتاب وضعه أحد رجال وزارة الخارجية الامريكية السابقين وهو « جوزيف جونز » وعنوانه «سياسة خارجية جديدة للولايات المتحدة»

وهو يقترح فى كتابه أن تقوم هذه السياسة على أربع دعائم :

الدعامة الاولى — أن تستمر أمريكا بعد الحرب على تعاونها الوثيق مع حليفاتها الثلاث الكبرى : بريطانيا وروسيا والصين ، ليكون هذا الحلف العظيم محور القوة العالمية التى لا سبيل الى تحديها ومقاومتها

الدعامة الثانية — أن تعمل السياسة الامريكية لنشر الحرية فى أرجاء العالم ، وهذا يقتضيها أن تأبى على نفسها النزول الى حلبة الاستعمار السياسى ، كما يقتضيها أن تخضد من شوكة الدول الاستعمارية الكبرى ، وأن تقيم نظاما للتعاون بين الامم الكبيرة والصغيرة يحل محل الاستعمار ويقى العالم شروره وعواقبه

الدعامة الثالثة — أن تقيم أمريكا ادارة دولية قوية للاشراف على القوة الجوية ، الحربية والتجارية ، فى جميع الاقطار . وتضع هذه الادارة فى أيدى الدول المتحالفة قوة جوية خاصة تستطيع مقاومة أى تهديد أو اعتداء تقوم به أية دولة فى العالم ، وبذلك تكفل تحقيق الامن والسلام فى ربوع العالم

الدعامة الرابعة — أن تعمل السياسة الامريكية لرفع مستوى الحياة فى كل ركن من أركان الارض ، باذاعة التعليم ، والعناية بالصحة ، وتوفير الغذاء ، وغير ذلك من العناصر اللازمة لاقامة نظام ديموقراطى وتحقيق السلام الدائم ، ولا يكون ذلك الا بتوسع امريكا الاقتصادى فى شتى أرجاء العالم وأسواقه

ولكن نقاد هذا الكتاب — ونقاد ما شاكله من الكتب — يقولون ان مفكرينا يغفلون دائما عن نقطة خطيرة جدا وهى : ما العمل اذا رفضت روسيا أن تبقى على تحالفها معها ، وآثرت أن تعمل فى ميدان السياسة بمفردها ؟

ومؤلف الكتاب يعترف بأن الكرملين لاينظر الى وزارة الخارجية الامريكية الحالية نظرة ارتياح ، ويعلم أن هذه الوزارة هى التى حالت

ـ وستحول ـ دون تسرب الشيوعية الى المناطق الاوربية التى تحررها جيوش الحلفاء ، ومع أن موسكو استقبلت مستر كوردل هل استقبالا حافلا ، الا أن هذا لا ينفى أنها تنظر الى سياسته الخارجية نظرة التوجس والاشفاق

ولكن مؤلف الكتاب يرد على هذه النقطة بأن روسيا مضطرة الى محالفة امريكا وبريطانيا اضطرارا ، فان بلادها المخربة المدمرة لا سبيل الى تعميرها الا بالآلات الامريكية والبريطانية التى ستظل روسيا عشر سنوات أو أكثر مفتقرة اليها ، ساعية للحصول عليها ، ولن يتيسر لها ذلك الا اذا أبقت على تحالفها وتعاونها مع لندن وواشنجتون

فن الحرب

للحرب أصول لا تتغير بتغير أحجام الجيوش ومعداتها . ولهذا فان معارك القواد القدامى ، الاسكندر وهانيبال وقيصر مثلا ، ما تزال تدرس لطلبة المدارس الحربية كما تدرس لهم معارك نابليون وابراهيم باشا وفردريك الاكبر ، وكما تدرس معارك هندنبورج ولوش وبيتان

وقد كتب بعض القواد والخبراء رسائل خالدة يشرحون فيهما فن الحرب ويبينون قواعده وأصوله ، ورأى الماجور توماس فيلبس أن يجمع خمسا من هذه الرسائل الخالدة فى كتاب سماه: « أصول الاستراتيجية »

أول هذه الرسالة رسالة صينية سمها « فن الحرب » بقلم « سن تسو » ويقول المؤلف انها بدون شك أعظم عمل حربى فى أية لغة من اللغات . وتسو هذا جندى صينى عاش قبل الميلاد بخمسة قرون . ورسالته هذه ما تزال تؤثر فى العقلية العسكرية الصينية واليابانية على السواء

والرسالة الثانية ، وموضوعها « مؤسسات الرومان الحربية » ، كتبها عالم رومانى اسمه « فيجيتس » الذى لم يكن جنديا مارس الحرب وخاض غمارها . ومع ذلك فان ريتشارد قلب الاسد ، بطل النصارى فى الحروب الصليبية ، حمل هذه الرسالة معه الى الشرق ، وطبق أصولها فيما خاضه من المعارك التى حالفه النصر فى كثير منها

والرسالة الثالثة كتبها موريس دى ساكس أحد الابناء غير الشرعيين لفردريك أوجستس ملك بولندة فى أواخر القرن السابع عشر . وقيمة هذه الرسالة فى انها تشرح نظام التجنيد الذى تسير عليه الجيوش الحديثة . ففيما مضى لم تكن هناك « جيوش دائمة » مهمتها الحرب والقتال ، بل كان الجيش « مؤقتا » يقوم ساعة الحرب ويحل وقت السلم ، فاذا دقت ساعة القتال حمل كل فرد سلاحه ونزل الى المعركة ، فاذا انتهت المعركة عاد كل فرد الى بيته وعمله . أى لم يكن هناك « الجندى المحترف » الذى تكفل له الدولة قوته ورزقه ، فى سبيل قيامه بالدفاع عنها كلما أمرته بذلك

أما الرسالتان الرابعة والخامسة فهما : تعليمات فردريك الاكبر ، وحكم نابليون بونابرت ويكفى أن نذكر ذلك لتعلم مدى خطرهما وقيمتهما فان صاحبيهما ان لم يكونا أعظم قواد التاريخ جميعا ، فهما أعظم قواد العصر الحديث على الاطلاق

ومما يدعو الى فخر الرجل الشرقى أن مؤلف الكتاب يقول ان الرسالة الصينية وحدها ترجح كل ما فى الكتاب من رسائل ، لان الجندى الذى يقول ان القائد الذى يكسب المعركة دون أن يخوض غمارها أعظم من القائد الذى لا يربح المعركة الا بعد أن يريق الدماء ويزهق الارواح ، لا بد أن يكون جنديا وفيلسوفا اجتمعا فى جسد واحد !

هيئة دولية للتعليم

يشهد العالم فى هذه الايام التى تشرف فيها الحرب على نهايتها ويبدأ ضوء السلم ينبثق شيئا فشيئا ، كثيرا من المؤتمرات الدولية التى تعنى

بتنظيم شؤون العالم بعد الحرب على أساس «عالمي» يحقق التعاون الوثيق بين الامم والشعوب ويجنبها مزالق الحرب وشرورها المستطيرة . فمن ذلك مؤتمرات التغذية ، والنقد ، والتعمير ، والتعليم

وعقد مؤتمر التعليم هذا في لندن منذ شهور وشهده ممثلو احدى عشرة دولة من الدول المتحالفة ، وكان أهم ما تقرر في هذا المؤتمر وضع نظام للتعليم ينفر الناس من الحرب ويحبب اليهم السلام

وقد أدرك كثيرون من المفكرين المعاصرين — وفي طليعتهم المفكر الانجليزي ويلز — أن الحرب والسلم يتقرران — لا في دور الحكم ولا على أيدي الساسة — بل في دور المدارس والجامعات . فاذا تلقى التلاميذ والطلاب دروسا تشيد بالحرب وتمجد أبطالها ، شبوا مشبعين بالروح العسكري الذي يدفعهم الى معامع القتال طيبة نفوسهم مطمئنة ضمائرهم . واذا هم تلقوا في صباهم وشبابهم أن الحرب اثر من آثار الغابات التي كان يهيم فيها اسلافنا الاقدمون ، وان السلم ضرورة من ضرورات الحياة الانسانية المتحضرة السامية ، شبوا على كراهة الحرب وانكارها ، وعلى حب السلم وتوطيد دعائمه

ورأى بعض هؤلاء المفكرين أن يؤلفوا كتبا مشربة بهذا الروح ، منها كتاب ويلز في تاريخ العالم ، الذي أراد أن يثبت فيه أن العالم كله وحدة متصلة الاجزاء ، يأخذ بعضها عن بعض دون نظر الى تلك الفوارق الجنسية أو الدينية أو القومية المزعومة ، كما اثبت فيه أن كثيرا من أولئك الابطال الحربيين الذين نمجدهم ونسمو بهم لم يكونوا في واقع الامر الا ذوي لوثات عقلية وخلقية مزرية مشينة

وهذه الفكرة ذاتها هي التي أقرها مؤتمر التعليم وقرر أن يخرج بها الى حيز التنفيذ ، فانتهى الى هذين الامرين :

أولا — يجب على الشعوب المتحدة أن تنشأ في بلاد المحور نظاما ديموقراطيا للتعليم ، يحل محل النظام المحوري القائم . والمقصود بالنظام المحوري هو هذا النظام الذي يلقى في اذهان التلاميذ والطلاب وفي مشاعرهم ان الانسانية مقسمة أجناسا متفاوتة في درجة رقيها وكفايتها ، وان أسمى هذه الاجناس هو الجنس الالماني النوردي ، الذي له بذلك حق السيادة والسيطرة على سائر الاجناس . والمقصود بالنظام الديموقراطي هو تفهيم النشء والشباب أن ليس هناك جنس راق وآخر منحط ، وأن لجميع الاجناس كفايات متوازية وحقوقا متساوية ، وان فكرة السيطرة هي فكرة بدائية همجية يجب أن تتخلص منها الانسانية في دور تطورها الحديث

ثانيا — انشاء مكتب دولي للتعليم يشرف بعين يقظى على نظام التعليم في بلاد المحور ، حتى اذا ما حدثت به نكسة الى الوراء ، أسرع هذا المكتب فأصلح ما فسد من الامر بتمكين الروح الديموقراطي من النفاذ الى عقول الصغار والشباب

ويجب أن نذكر حقيقتين : أولاهما أن أهم العناصر التي والت النازية في بدايتها ومكنت لها في مشاعر الشعب الالماني هو عنصر المدرسين الاوليين ، حتى أن ثلث أعضاء الحزب النازي هم من هؤلاء المدرسين . وثانيتهما ، كلمة ولنجتون الذي قهر نابليون فقد قال : « ان معركة واترلو لم تكسب في ساحة الحرب ، بل في ساحة كليتي ايتون وهارو »

وخلاصة هاتين الحقيقتين أن سياسة الدولة لها جذر عميق متأصل في أرض المدارس والمعاهد وأنه كما يكون تلاميذ الامة وطلابها يكون ساستها وزعماؤها . فاذا أريد اصلاح السياسة العالمية وتنقيتها من روح العدوان والحروب ، وجب أولا اصلاح نظام التعليم بحيث يغدو منددا بالحرب والعنف ، مبشرا بالأمن والسلام

الكتب الجديدة

تطور الصحافة المصرية

للدكتور ابراهيم عبده

مطبعة التوكل فى ٣٧٠ صفحة

توفر الدكتور ابراهيم عبده على دراسة الصحافة المصرية من الناحية التاريخية ، واخرج فيها رسائل قيمة فى « تاريخ الطباعة والصحافة خلال الحملة الفرنسية » وفى « تاريخ الوقائع المصرية» ونال من الجامعة درجتى الماجستير والدكتوراه فى بحوث أصدرها عن تاريخ الصحافة المصرية من الحملة الفرنسية الى العصر الحديث

وكتابه الحديث يعالج النهضة الصحفية المصرية وتطورها وأثر ذلك فى نهضتنا الفكرية والاجتماعية

وقد قسم تاريخ الصحافة المصرية تقسيما علميا منطقيا . فتحدث اولا عن الصحف الفرنسية التى نشأت فى مصر فى عهد حملة نابليون ، ثم عن الصحافة الرسمية التى أنشأها محمد على وكيف تطورت فى عهد خلفائه، ثم عن الصحافة الشعبية التى نشأت فى عهد سعيد وازدهرت فى عهد اسماعيل ، وعرض بعد ذلك للصحافة فى خلال الثورة العرابية والدور السياسى الذى قامت به . وانتقل الى الصحافة منذ الاحتلال الى الاتفاق الودى ، ثم من الاتفاق الودى الى الحرب الماضية وهذه هى الفترة الذهبية فى تاريخ الصحافة حيث قام فيها على يوسف ومصطفى كامل ولطفى السيد . وعقد فصلا وجيزا عن الصحافة المصرية المعاصرة

وأفرد فصلين أحدهما للصحافة الافرنجية فى مصر وثانيهما للصحافة المصرية فى الخارج . وهذا موضوع لم يطرقه المؤلف بكثير من البحث والتدقيق رغم أهميته فى حياتنا القومية والاجتماعية

وختم المؤلف كتابه بفصل قيم فى التشريع الخاص بالمطبوعات فى مصر ، وتطوره ووجوه النقد الموجهة اليه

والكتاب مذيل بمجموعة من الفهارس تضم أسماء ما صدر فى مصر من الصحف والمجلات منذ سنة ١٨٠٠

حديقة أبى العلاء

للاستاذ كامل كيلانى

مكتبة مصر ومطبعتها فى ١٤٤ صفحة

الاستاذ كامل كيلانى من أكثر أدبائنا تعمقا فى دراسة أبى العلاء المعرى ، وتبين وجوه عبقريته المتشعبة بين الفن والفلسفة

وقد أراد الاستاذ فى كتابه هذا أن يقرب أبا العلاء الى أذهان القراء وأذواقهم ، وعلى الأخص طبقة الناشئة والشبان منهم . على أن يكون هذا الكتاب فاتحة لمكتبة للشباب — بعد أن كون للاطفال مكتبة منسقة حافلة — تجمع كثيرا من فنون الأدب العربى فى عصوره القديمة والوسطى والحديثة

وبدأ الاستاذ مكتبته بأبى العلاء لانه « وحده مدرسة جامعة لاهم عناصر فنون الادب »

وقدم كتابه بالمامة عن أبى العلاء : مولده وطفولته وقريته . ثم تحدث عن أخلاقه وآرائه وأدبه المنظوم والمنثور

وعرض فى كتابه بعد ذلك نصوصا مختارة من الادب العلائى . من ذلك بعض حكمه المدفونة فى بطون الاسفار . اقرأ هذه الكلمات وقدر كيف يصح أن تبقى مجهولة منا لا نقرأها ولا نحفظها ولا نستشهد بها :

« الاعمار : تولد طوالا ثم تقصر
« والآمال: تولد قصارا ثم تطول

« قلب الجاهل كالزجاجة :
« تلقاه ــ بما استودع ــ نوما »

ثم عرض صورا فنية من أدب العلاء . منها مصرع الفنان أى الحمار الوحشى ، ومنها مصرع الاتان الوحشية ، ومنها سوانح وآراء شتى فى الموت، والروح ، وصفات الله تعالى ، والذنوب، والكلمة الطيبة ، وغير ذلك مما تتناوله فلسفة المعرى أو حكمته على الاصح

ويقدم الاستاذ النص الكامل لكل قطعة ، بعد أن يمهد له تمهيدا لبقا بارعا يقربه الى الذهن والى الذوق الحديث

سيد العزبة

بقلم « بنت الشاطىء »

مطبعة المعارف فى ١٠٣ صفحات

أهدت الكاتبة الادبية « بنت الشاطىء » هذه القصة الى : مصر المسلحة . . لعلها تحارب هذه الاوضاع اللئيمة التى جعلت من فتاة ريفية غريرة امرأة خاطئة !

ومن هذه الكلمة المبادرة من قلب كاتبة كرست نفسها للدفاع عن تلك الطبقة الشقية التى تكدح فى أرض السادة المترفين ، تتبين ملخص هذه القصة القوية الجميلة التى صورت فيها « هؤلاء الريفيات اللائى يسرحن على الارض كالسائمة ، قذرات خشنات ذابلات ، تقرأ على وجوههن الشاحبة سمة الفقر وترى على أجسادهن الهزيلة طابع الحرمان . يشقين بالنهار فى خدمة البهم والارض، ويأوين بالليل الى تلك الاكواخ التى تقوم الى جانب القصر ، مظلمة ضئيلة ، تحدث عن ضعة أهلها وذلهم وفقرهم »

والقصة ــ الى هذا الاتجاه الاجتماعى الرشيد ــ دراسة نفسية ممتعة للفتاة فى سن الصبا والمراهقة ، حين تتفتح حواسها للحياة العاطفية، الجسدية ، الدافقة الملتهبة

ولهذا يصح أن توضع قصة «سيد العزبة» فى مصاف القصص الاولى التى تعالج حياتنا الاجتماعية وتدرس جانبا من النوازع النفسية الغامضة . فى أسلوب « بنت الشاطىء » الذى عهد فيه القراء الجزالة والقوة مع التأنق والابداع

الاغوار ــ ديوان شعر

للاستاذ احمد الصافى النجفى

دار المكشوف ببيروت فى ١٩٢ صفحة

أنا فى الشعر كالغريب فجيل
فى عكاظ،أو بعد ذا العصر جيلى
افيأتى نوح الشعور بفلك
فينجى غرقى بحور الخليل ؟

هكذا قدم الاستاذ الصافى النجفى ديوانه الاغوار ، فلم يسرف فيما قال ، فهو فى الشعر « كالغريب » ، فخياله صوفى عميق لا يكاد يشبه الخيال الحسى الظاهر الذى نعهده فى الشعر العربى بوجه عام . وروحه روح ثائرة تزيح عن نفسه كل يوم « توبا باليا » من عقائد الاحقاب . لتتخلص مما يحلها من مظاهر خداعة تحجب العين عن الحقيقة الخالصة

وأسلوب الشاعر ــ رغم ما يشوبه أحيانا من الغموض بحكم ما يتناوله شعره من أمور الروح وما وراء الطبيعة كما يقولون ، الا أنه شعر جزل العبارة ، رصين التركيب ، وفيه الى ذلك سهولة وطلاوة

ولعل فى قصيدته « الروح والفن » ما يبين عن روحه وأسلوبه اذ يقول :

ولو أن الاله لم يخلق الاجسام
لم يعرفوه فى أى دين
تعرف الله أنفس زاكيات
أبصرت ربهـا بعين اليقين

عارف الله بالجسوم كمن يغدو
بحب الاصنام جم الفتون
والذى يعرف الاله من النفس
رآه بالعلم لا بالظنون

أصحاب السعادة أو ديباجة خطاب العرش

للقس ابراهيم سعيد

مطبعة النيل المسيحية فى ١٨٢ صفحة

القس ابراهيم سعيد واعظ قديم غيور له بحوث كثيرة قيمة ومؤلفات عديدة نفيسة فى تفسير الكتاب المقدس وقد كان أستاذا لهذه المادة فى مدرسة اللاهوت

وكتابه هذا دراسة تحليلية دقيقة للموعظة على الجبل ، وهى المقياس الادبى الذى به يقيس المسيحيون حياتهم الروحية وتصرفاتهم الادبية ، كما أن الوصايا العشر فى العهد القديم هى خلاصة المقياس الادبى الذى يقيس اليهود بموجبه حياتهم

وقد قسم المؤلف الموعظة الى اربعة أقسام ، فتحدث أولا عن أبناء الانجيل فى ذواتهم وفى نسبتهم الى الناموس ، ثم انتقل الى الكلام عن نسبتهم الى تعاليم القديسين ثم الى نسبتهم الى الآخرين ، واختتم بحثه بالتحدث عن الابناء الحكماء والابناء الجهلاء

كنت فى .. لتوانيا ، بولندا ، فنلندا

تعريب أسعد حليم

منشورات دار الفجر ، فى ٥٤ صفحة

يقدم المعرب فى أسلوب سلس كتيبا للكاتبة الامريكية الشهيرة أنا لويز سترونج ، تحدثت فيه عما شاهدته بنفسها فى دول البلطيق — لتوانيا واستوانيا ولاتافيا — من ترحيب الشعب للجيش الاحمر الروسى وبغضه وكراهيته للنازى وللموالين له . وقد أتاحت لها الظروف ان تصل اليها فى يوليو سنة ١٩٤٠ . وأن تقضى فيها شهرا كاملا . كما لحصت الكاتبة الظروف العصيبة التى مرت بها بولندا بعد انهيارها

ثم ذكرت كيف ان « موسكو » بعد أن أمنت الهجوم المفاجىء عليها من طريق البلطيق ، اتجهت نحو فنلندا ووصفت باسهاب التطورات التى حدثت حتى طلب الفنلنديون الصلح

The Arab Heritage

للاستاذ نبيه فارس

مطبعة جامعة برنستون فى ٢٦٦ صفحة

ثمرة من ثمار المؤتمرات التى تعقدها جامعة برنستون للبحث فى الشؤون العربية والاسلامية، وهو مجموعة محاضرات ألقتها نخبة من المستشرقين الاعلام فى صيف سنة ١٩٤١ ، تدور حول ثروة العرب العلمية وكنوزهم الفكرية ، ومدى ما ساهموا به فى النهضات الثقافية وخاصة نهضة بلاد الغرب

وقد بسط الاستاذ فيليب حتى للقارىء الغربى فى الفصل الاول مشاكل العالم الاسلامى ومطامحه ومطالبه ، وعالج الاستاذ دللافيدا فى الفصل الثانى موضوع العرب فى الجاهلية فوضح ما خفى من النقط التاريخية الغامضة، وأعقبه الاستاذ جوليان بجامعة Yale فتحدث عن العلاقات والروابط القائمة بين الاسلام والمسيحية وبين الاسلام واليهود

ويجد القارىء بعد ذلك بحثا طريفا عن الشعر العربى وجماله وروعته ، ثم محاضرة قيمة عن النواحى الدينية والسياسية والاقتصادية للحروب الصليبية ، ويلى ذلك بحث فلسفى عميق لما توحى به حياة الغزالى ومؤلفاته وكتاباته ، ثم يقدم الاستاذ هنرى ساقاج صورة قلمية دقيقة رائعة للشرق كما كان يبدو فى نظر السائح الغربى فى القرن الرابع عشر ، ثم يتحدث الاستاذ ادوارد جورجى عما ابتكره العرب واستحدثوه فى ميدان العلم ، ويتلوه الاستاذ اتنجهاوسن من جامعة ميشيجان فيتحدث عن الفنون العربية والاسلامية

الواجب الأكبر على شباب الغد هو أن يجعل ذلك الانطلاق نشاطاً متجهاً الى مثل رفيع وغاية مرسومة ، ولا يتركه إباحة من إباحات الفوضى أو فرصة من فرص الشهوات واللذات

شباب الغد

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

برتراند رسل فيلسوف انجليزى من أكبر الباحثين فى المسائل الاجتماعية ، ومن أعلم المعاصرين بالرياضة ، ان لم يكن أعلمهم جميعا كما يراه معظم النقاد . له آراء فى السياسة والاخلاق كانت تحسب قبل عشرين سنة غاية فى التطرف ، وهى فى حسبان المتطرفين اليوم وسط فى الاعتدال ، وهو ينكر الحرب والاستعمار ، وينكر الالقاب الموروثة والحديثة . ولهذا نزل باختياره عن لقب اللوردية الذى استحقه بالوراثة من أسرته العريقة ، وحبس وحكم عليه بالغرامة فى الحرب الماضية ، لانه كان يبشر بالسلام ولا يقر سياسة القتال

وقد هجر بلاده وقضى أيام هذه الحرب فى البلاد الامريكية ، حيث عهد اليه فى تدريس الفلسفة بجامعة كليفورنيا ، فثار عليه رجال الدين والمحافظون لآرائه الاجتماعية التى تغلو فى الحرية ، والتف به الطلبة والطالبات معجبين ومؤيدين ، واعتبروه رائدا من رواد المستقبل الذين تهوى اليهم أسماع الشباب ، وان كان الآن فى الثانية والسبعين

وجه الى شبان امريكا ، وهو يفارقهم كلمة وداع أجمل فيها رأيه عن واجب الشباب فى السنوات المقبلة ، وواجب المعلمين والاساتذة قبل ذلك ثم قال :

« ... من الوجهة الفنية والصناعية تتغير الدنيا الحديثة أسرع من تغير أفكار الناس وعاداتهم . وقد كان ينتظر من كبار السن فى دنيا الامس المستقرة ــ بالقياس الى دنيانا المتوثبة ــ أن يكونوا أحكم وأعقل من الشبان ، ولم يكن ذلك خطأ فى جميع الأحوال . أما انتظار ذلك فى مجتمع اليوم فليس له مسوغ على ما يبدو . لان حكمة السياسة التقليدية ترجع كلها الى زمن لم يكن فيه للطيارة وجود ، وأمثال القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر مضللة اذا هى طبقت على هذه الدنيا الحديثة ، وان التفطن لذلك لأيسر على الشبان منه على الشيوخ ، وبخاصة أولئك الذين سيرجعون من الميادين ، وقد فرضت عليهم خبرة ومعرفة لا عهد بهما للساسة المتقدمين . وأرجو أن يتأدى

الشبان من ذلك الى خطة ناجحة فى وقاية الدنيا من التورط فى الحروب الكبرى ، وعليهم أن يعتمدوا على أنفسهم فى التعلم والشعور »

***

وفى كلام الفيلسوف على ما نرى موضعان للملاحظة ، ينبغى التنبه اليهما قبل التطرق الى جانب الصواب من ذلك الكلام

(أولا) ان الطيارة ليست هى المخترع الوحيد فى تاريخ بنى الانسان ، وان ما جرى من اختراع الطيارة فى العصر الحاضر ، قد جرت له نظائر كثيرة فى العصور الغابرة ، لا يقل أثرها عن آثار مخترعات اليوم ، فالمطبعة والمدفع والبخار والكهرباء والتعقيم كلها مخترعات تغير بها الجيل الذى نشأت فيه ، وخرج بها الشبان الى عهد غير الذى سبقهم اليه الشيوخ ، ولم يمنع هذا أن تتصل الحكمة والدراية بين سابق العصور ولاحقها ، ولن يمنعه فيما يلى من الايام

« ثانيا » ان الفرق بين الشيوخ والشبان لا ينحصر فى نوع الصناعات والمصنوعات التى حضرها هؤلاء أو لم يحضرها هؤلاء ، ولكنه قبل كل شىء فرق فى المزاج وتناول الاشياء والنظر الى ظواهر الامور وبواطنها ، وكل من المزاجين متمم لصفات المزاج الآخر ، كما قضت بذلك حكمة الحياة ، وليست حكمة الحياة مقصورة على عمر من الاعمار أو على نظر من الانظار

ومن الحقائق التى أثبتتها الحرب الحاضرة قبل كل حقيقة جديرة بالاعتبار أن السياسات التى بنيت على مزاج الشباب وحده قد عصفت بالامم وأصابت الاوطان التى جرت عليها أضعاف ما أصابت أعداءها ، فاعتماد النازية على حماسة الناشئة وحدها قد جنى على ألمانيا الخراب وسيجنى عليها الهزيمة بعد السطوة والظهور ، واعتماد الفاشية على تلك الحماسة قد ضيع على ايطاليا ما كسبته وأوشك أن يضيعها هى أيضا قبل القاء السلاح

وتقرير هذه الحقيقة واجب جد الوجوب فى هذا المقام ، مخافة من التغرير بالمستقبل على النحو الذى شهدنا آثاره فى حركات النازية والفاشية وما اليهما . فلن يأتى زمن يقع العبء فيه كله على الشباب دون الشيوخ أو على الشيوخ دون الشبان ، ولا على طبقة دون طبقة أو جيل دون جيل ، وغاية ما هنالك أن بعض الازمنة أحوج الى نشاط الشباب وبعضها أحوج الى حنكة الشيوخ ، والسنوات المقبلة من أدوار التاريخ التى تزداد فيها الحاجة الى الشبان وتقل فيها الحاجة الى التجارب المهجورة من مخلفات العصور الماضية ، فهى مسألة المقدار الذى يشترك به كل مساهم فى بناء الدنيا الحديثة ، وليست مسألة الفصل بين العاملين والاستغناء عن هذا العمر أو ذاك

فالانسان لازم لحياة المجتمع فى أدوار العمر كافة ، وليست السنوات المقبلة بدعا فى هذه السنة التى اطردت من أول الزمان وتطرد لا محالة الى آخر الزمان

وسياسة الغد كله تتلخص فى جملة وجيزة ، وهى أنها سياسة محتاجة الى الكواهل الخفيفة ، لان الاعباء فيها ثقيلة عديدة

وهذا الشرط موفور للشبان الذين سينهضون غدا ببناء الدنيا الحديثة ، سواء فى ناحية الاخلاق أو ناحية الاجتماع أو ناحية التفكير

كواهل شبان الغد خفيفة لان الحوادث قد طرحت عنها أثقال الموروثات البالية ، والآراء الراكدة ، والمذاهب التى فنى لبابها النافع ، ولم يبق منها الا الضار المزعج من القشور

وقد كانت عوارض هذه الخفة الاولى انطلاقا مخيفا ، يحسبه بعض الناس دليلا على الإباحة والانحلال ، ولكنها عوارض لا بد منها بعد تحطيم القيود والحواجز ، واتساع المجال لمن يشاء ان ينطلق فيه على هواه . اذ أن تحطيم القيود والحواجز خطوة لا مناص منها بعد أن عجزت عن التقييد أو بعد أن أصبح تقييدها ضارا بالغ الضرر من بعض نواحيه

فهذه العوارض التى تحمل على الاباحة والانحلال ، هى فيما نرجو توديع للقيد المنحل ، وليست دليلا على انحلال المنطلقين منه

وهنا تبدأ المهمة الكبرى لشبان الغد العاملين :

فان تلك القيود التى تحطمت اليوم ، كانت فى نشأتها الاولى أمثلة عليا ترتفع اليها الابصار ، وتتعلق بها الهمم ، وتتحقق بها جلائل الاعمال

فواجب الشبان غدا أن يطرحوها قيودا بالية ويضعوا فى أماكنها أمثلة عليا جديدة ، لان الروح الانسانى لن يعيش طويلا بغير المثل الاعلى ، ولو كان مصيره بعد انتهاء دوره فى آخر الامر الى النبذ والتحطيم

وليست الامثلة العليا وحدها الا بعد أن تبلى وتعجز عن تسيير الواقع وانجاز الاعمال أما فى ابان نشأتها والايمان بها فهى أصدق من الاجسام الجوامد وأوضح من نور النهار ، لان تاريخ الانسان من ماضيه الى حاضره ان هو الا تاريخ أمثلته العليا ، وعقائده الروحية . ولم يخل عمل جليل قط فى التاريخ من وحى تلك العقائد وبواعث تلك الامثلة ، ولن يأتى يوم يقال فيه ان المثل الاعلى وهم باطل لانه ينقضى ويبلى بعد حين ، فان الرجاء عامل من عوامل الحياة الباقية ، وان كذبت آمال بعد آمال

فالواجب الاكبر على شباب الغد هو أن يجعل ذلك الانطلاق نشاطا متجها الى مثل رفيع وغاية مرسومة ، ولا يتركه اباحة من اباحات الفوضى أو فرصة من فرص الشهوات واللذات

واذا سئلت عن وجهة ذلك المثل الرفيع فالغالب على اعتقادى أنه وجهتان فى وجهة واحدة ، وهما « العالمية » و « التضامن بين الامم والطبقات والافراد »

فتحقيق المصلحة العالمية فى سياسة الامم ، والروح العالميـة فى المعارف والفنون ،

والشعور العالمى فى تقدير الخير والشر والحق والباطل ، والحساب العالمى فى المعاملات وشؤون الاقتصاد كل أولئك منظور بعد حربين عالميتين فى مدى عمر واحد منذ ثلاثين سنة الى الآن

وينطوى فى هذه العالمية الشاملة مبدأ التضامن بين الامم والطبقات والافراد

فكل سياسة قامت على غلبة القوى وتسخير الضعيف فهى وبال يلحق بالاقوياء كما يلحق بالضعفاء

وكل مذهب اجتماعى يقوم على طبقة واحدة ، فهو مذهب مشلول يصيب النوع الانسانى فى جزء من بنيته التى تشمل جميع الاعضاء

وكل خلق يبطل به التعاون بين الافراد ، فهو عجز فى الشرائع وعجز فى الآداب وعجز فى تفكير الناس

وعلامة الفلاح أن يوفق الجيل الناشىء الى طريق العالمية وطريق التضامن بين الامم والطبقات والافراد

ومهمته أن ينطلق فى هذه الطريق بنخوة الشباب التى هى أفضل مزاياه ، ومهمة السن أن تحده فى انطلاقه بالحذر والحنكة وحسن المراجعة والتسديد

وعندنا أن قدرة السن على الحد من دوافع ذلك الانطلاق ، هى وحدها آية الصلاح وحجة الأناة ، فاذا اقتدر الشيوخ على أداء ذلك الواجب فهذه القدرة هى الدليل على أنه الواجب النافع المطلوب . أما اذا وهنوا دونه فهو دليل على انقضاء دورهم ، وان لم يكن دليلا قاطعا على اتجاه الامور بعد ذلك فى وجهة الصواب

جماع الخير لنوع الانسان أن تتجلى الدنيا الحديثة عن عالم يتضامن فيه كل عمر من الأعمار ، كما تتضامن فيه كل أمة من الامم وكل طبقة من الطبقات ، فيشترك فيه جميع بنيه ، وان تفاوت الجهد وتفاوتت حصة الجاهدين

عباس محمود العقاد

ــ ليس من يحب الحياة أكثر من الرجل الطاعن فى السن

ــ لا تفعل شيئا خفية ، لان الزمن يرى ويسمع ولا يكتم السر

ــ قوة الفكر أكثر فعلا وتأثيرا من قوة البدن

سوفكليس

هذا فصل من الكتاب الذى ألفه وأعده للطبع حضرة صاحب المعالى محمد حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى ووزير العدل . وهو يتناول تاريخ الانسانية منذ أقدم العصور ، وقد جعله على شكل حديث بينه ، وبين أقدم أثر مصرى

أبو الهول : قال لى

بقلم محمد حافظ رمضان باشا

وزير العدل

جاءتنى دعوة من (دار الفنانين) لحضور حفلتهم الساهرة فى أول ابريل سنة ١٩٣٩ بسفح ابى الهول ، فخشيت أن تكون دعوتهم من دعابات ابريل ، ولكنى وطدت العزم على اجابة الدعوة لحضور الحفلة . وقلت فى نفسى اذا كانت الدعوة أكذوبة ولم أجد حفلة فانى واجد أبا الهول لا محالة . وكيف لا أجده وهو رابض فى مكانه منذ عهد عهيد ولم يعرف التاريخ له بداية ، تؤمه منذ أجيال بعيدة شعوب من أمم مختلفة ، يزوره أفراد منها فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل ، فيجدونه فى مكانه لا يخلف لهم وعدا ، يستقبل الجميع من ألمان واسبان وانجليز وفرنسيس وأمريكان بابتسامته العذبة الساحرة ، وكأن لسان حاله يقول :

« لاى داع جعلتم فى مصوراتكم الجغرافية بداية خطوط الطول جزيرة الحديد بألمانيا ، ومدينة مدريد بأسبانيا ، أو ضاحية جرينويتش بانكلترا ، أو مدينة باريس بفرنسا ، ولم تتخذوا مكانى لكم جميعا بداية لخطوط الطول وأنا المقيم قبل ان تقام المدائن والعواصم والرابض مكانى وقد عفت آثار طرواده وقرطاجنة »

وما وافت ساعة الاجتماع ، حتى كنت فى مكانى وسط الحاضرين ، أشهد معهم حفلة دار الفنانين . وفى نهاية الحفلة ، أطلقت السهوم النارية ، وحجب عنى دخانها الكثيف جمهور الحاضرين فى الحفلة . فسبحت فى تأملاتى ، وأخذتنى سنة من النوم رأيت فيها أبا الهول يقبل على هاشا حتى صار أمامى ، فوقف تبدو منه ابتسامة حلوة عريضة ، كأنه يرحب بمقدمى ويأنس بوجودى . وقد أحسست فى نفسى بشجاعة لم أعهدها فى مقابلتى الاولى له وخاطبته قائلا : لقد حدثتنى عن تاريخ الانسانية فى مصر وبابل وفينيقيا مما أذكره ولا أنساه ، وانى لارجو منك الآن أن تحدثنى حديثا جديدا عن شعوب أخرى لعبت دورا مهما فى حضارة الانسان

فبدا عليه من الدهش ما لا عهد لى به ، وأشار الى شيخ وراءه وقال لى : ألا تعرف من هذا الذى تراه خلفى ؟ فنظرت اليه مليا وقلت له : لعلى تخيلته وما عرفته . فقال لى :

انه أبو التاريخ (هيرودوت) سله عما تريد فعنده الخبر اليقين

فتقدمت اليه بالتماسي من أبي الهول ، ولمحت ما بدا عليه من ارتياح وسرور ، وقد انبسطت أسارير وجهه وشرع يقول : ان حضارة الانسان سلسلة متصلة الحلقات من بدء الخليقة الى اليوم ، وهي تنتقل في موجات من قطر الى قطر ، وتزداد في كل مرة قوة وسرعة ، وتصطبغ بصبغة تؤهلها شيئا فشيئا لان تصبح حضارة عالمية كما ترون في وقتكم هذا

فقلت له : وأين ذهبت المدنيات الاولى ؟ وكيف عفت آثارها ؟ وما الذي طغى عليها ؟

وقد أجابني بقوله : عند ما آذنت شمس مدنيات مصر وبابل وفينيقيا بالافول أخذت شعوب هذه الممالك في أسباب التدهور والاضمحلال ، وظهر على مسرح تلك المدنيات القديمة جنس آخر من البشر هو العنصر الهندي الاوربي (وقد اطلق عليه هذا الاسم لانه أغار على أوربا والهند معا) وهو ابيض البشرة كالعنصر السامي ، ولكنه يتكلم بلغة أخرى هي أم اللغات الاوربية اذا استثنينا اللغة المجرية والفنلندية والصقلبية

ويسمى هذا العنصر أيضا بالعنصر الآري ، وكان يقطن بالقرب من بحر قزوين ثم انتشر شرقا وغربا ، واستقر بعضه في أعالي هضبات ايران ، ونزح بعضه الى سهول أوربا ووديانها ، ثم انحدر بعض المستقرين في هضبات ايران نحو شواطىء نهر السند (الهند الانكليزية) . وأسس من بقي منهم على تلك الهضبات مملكتي (ميديا وفارس) اللتين بقيتا الى عهد كسرى الذي سيطر على مملكة ميديا ، واتسع ملكه في عهد خلفائه حتى شمل كل آسيا الغربية ومصر التي فتحت في عهد قمبيز في سنة ٥٢٥ ق . م . ولم تقف غزوات الفرس عند هذا الحد ، بل اتجهت غربا نحو أوربا وهناك اصطدمت شعبة العنصر الآري الاسيوية بشعبته الآرية الاوربية في الركن الجنوبي الشرقي من أوربا ، فوقعت بينهما (الفرس والاغريق) حروب عرفت في التاريخ بالحروب الميدية ، وقد انتهت بانتصار الاغريق الذين تناولوا شعلة المدنية من الشعوب الشرقية التي سبقتهم الى المدنية وورثوها بعد الى الامبراطورية الرومانية

فقلت له : وكيف تطورت المعتقدات الدينية عند الفرس ؟

فأجاب قائلا : كان الفرس قبل زرادشت مضطربي العقيدة ، لا يعبدون الها واحدا ، فكانوا يعبدون مظاهر الطبيعة ، ويرمزون لها بالنار المقدسة التي يشعلونها في معابدهم ، وظلوا على هذه الحال حتى ظهر رئيسهم ونبيهم زرادشت في القرن الثامن قبل الميلاد ، فأحدث لهم دينا جديدا جاء فيه انه لا يوجد في العالم الا آلهان : آله الخير وهو (اهورامزدا) ويرضيه العمل الصالح ، وآله الشر وهو (اهرمن) وقد تنازعا وكتب النصر النهائي لآله الخير (اهورامزدا) ، فكان جديرا بأن يعبد وحده وبهذا تطورت معتقداتهم الدينية وارتقت

فقلت له : أليس لهؤلاء كتاب مقدس ؟

فأجاب بأن لهم كتابا مقدسا يعرف (بالافستا) ، وقد وضع فيما بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ، ولم يخل من القصص الخرافية المعروفة عند الاقدمين

فقلت لهيرودوت : قلت لى ان شعبتى العنصر الآرى اشتبكتا فى حروب انتهت بانتصار الاغريق وتناولهم شعلة المدنية ، التى كانت تحملها الشعوب الشرقية التى سبقتهم الى المدنية ، فهل الاغريق هم الذين تناولوا شعلة المدنية من الشرقيين مباشرة ؟

فأجابنى قائلا : لا أستطيع أن أقول ذلك ، لان الاغريق من الشعبة الآرية الاوربية التى لم تستقر فى شبه جزيرة اليونان الا بعد أن تغلبت على شعب آخر من الايجيين ، وهم من التجار والبحارة الذين استوطنوا جزر بحر ايجه وكريت ، وكانوا واسطة التعارف بين شعوب المدنيات الشرقية القديمة والشعوب الاوربية ، التى أخذت ترقى وهى على شواطىء البحر الابيض عن طريق تناولهـا لتلك المدنيات رويدا رويدا . فالايجيون هم الذين اتصلوا بالشرق أولا منذ أسسوا لهم امبراطورية بحرية عاصمتها (نوس) على الشاطىء الغربى من جزيرة كريت ، وهم الذين تناولوا شعلة المدنية من الشعوب الشرقية ، وظلوا يحملونها حتى غزتهم قبائل آرية همجية نزحت من شمال أوربا الى شبه جزيرة اليونان وجزر بحر ايجه ، واتصلت بهم (بالايجيين) وأخذت عنهم صناعة الاسلحة وبناء المراكب . ولما قوى شأنهم واشتد بأسهم ، حاربوا الايجيين وغزوا جزرهم ومدائنهم وطاردوهم وحلوا محلهم ، ولم تمض عشرة قرون حتى كانوا هم سادة اليونان وجزر بحر ايجه وسواحل آسيا الصغرى ، ثم هدموا آخر معقل للمدنية القديمة باستيلائهم على مدينة تروادة فى القرن العاشر قبل الميلاد وتناولهم شعلة المدنية ، التى كانت بيد الايجيين والتى أناروا بها طريق المدنية الاوربية . وهؤلاء هم آبائى الاغريق

فقلت له : وبماذا كانت تسمى هذه القبائل الآرية الهمجية ؟ ومن أى عنصر هى ؟ وهل يوجد دليل قاطع يثبت أنهم هم الذين غزوا الايجيين وحلوا محلهم ؟

فأجابنى بقوله : هـذه القبائل الآرية كانت تسمى قديمـا بقبائل الهيلين Hellenes وهى فرع من شجرة العنصر الآرى ، الذى كان يقطن فى الاصل بالقرب من بحر قزوين ولا شك فى أن هذه القبائل هى التى غزت الايجيين ، وطاردتهم ، فالاليـاذة والاودسا المنسوبتان الى الشاعر (هومير) ، تحدثانا بأسلوبهما الخلاب عن فتح مدينة تروادة . واذا كانت أقاصيص الاغريق وأناشيدهم لم تتحدث عن احراق مدينة نوس عاصمة كريت ، فانها قد تحدثت عن الملك مينوس وقصره الفخم بجزيرة كريت ، وهو المعروف باللابيرنت ـ لما حواه من المداخل الكاذبة والمخارج الخادعة ـ مما لا يدع مجالا للشك فى أن قبائل الهيلين (القبائل اليونانية) هى التى حلت محل الايجيين ، وانتزعت من أيديهم شعلة المدنية التى سبق لهم تناولها من شعوب طيبة وبابل . ولقد كانت قبائل الهيلين همجية قبل أن تتصل بالايجيين ، وما كادت تتصل بهم حتى خلعت رداء الهمجية

وارتدت رداء المدنية ، وما كادت تحل محلهم فى حكم البلاد حتى أسست مدنية أخرى بنظم تخالف المدنيات الاولى فى الحكم والسياسة والاجتماع والاقتصاد . ولعل أعظم الاسباب فى هذا التباين أن شعوب النيل والفرات كانت خاضعة لملوك فى مصاف الآلهة، وكهنة كانوا وحدهم منبع العلم والحكمة ، اذ كان الفراعنة آلهة وأبناء آلهة ، وكان ملوك بابل وما بين النهرين رسل آلهة جبارة ، وكان الملوك والكهنة يسكنون قصورا مشيدة لا يعلم عامة الشعب عنها شيئا ، ولا يعرف الا الخضوع لاوامر ساكنيها . أما الهيليون فكانوا قبائل متعددة ، كالايوليين والايجيين والايونيين والدوريين ، وقد استوطنوا رغم تعددهم هذا بلادا جبلية وجزرا مبعثرة ، ولذا لم يكونوا شعبا واحدا يحكمه ملك يسكن قصرا بعيدا ولا يراه شعبه الا نادرا ، بل كانوا شعوبا كثيرة أسسوا ممالك صغيرة كانت فى الاصل قرى تدرجت الى مدائن، وكان سكان كل مملكة يجتمعون فى صورة (مجلس أسرة) ليديروا شؤونهم فيختارون قائد الجند اذا ما حاربوا، ويقضون خصوماتهم اذا شجر بينهم خلاف ، وهم جميعا متساوون فى الحقوق متعارفون

ولا ريب فى أن طبيعة مثل هذه الحياة تقضى بأن يكون عدد سكان هذه المدائن محدودا ولهذا قال أرسطو : « ان خير وطن هو ذلك الذى يصل فيه صوت الخطيب الى سمع آخر مواطن » . كما تقضى مثل هذه البيئات المحدودة العدد بأن يكون عمل كل فرد عرضة لنقد جميع أفراد عشيرته ، ولهذا نمت فى نفوس الافراد عادة الاتقان والاعتدال فى تلك الممالك الصغيرة . وعلى الرغم من أن هذه الممالك كانت منفصلة بعضها عن بعض مستقلة بذاتها مثل اسبارطه وكورنت وطيبة وساموس وميليت ، فقد كانت تربطها روابط أدبية ومادية وثيقة ، فالاناشيد والاقاصيص التى يتغنى بها ، وتتحدث عن مجد الآباء والاجداد ، كانت تتلى فى هذه المدن وتردد بين سكانها قبل أن يتعلم الهيليون الكتابة من الايجيين ويدونوها ، كانت الالعاب الاولومبية تجمع معظم سكان هذه الممالك فى صعيد واحد Olympus كل أربع سنوات ، وتفرض على المتحاربين منهم هدنة اثناء هذه الاجتماعات ، وقضت عليهم المعاملات التجارية بعقد المحالفات والمعاهدات بينهم

محمد حافظ رمضان

— يهب الله كل طائر رزقه ، ولكنه لا يلقيه له فى العش

ج . هولاند

معركة السلام

بقلم الأستاذ سامي الجريديني

ولعلها ستكون أبعد أثرا وأكثر أياما من الحرب التي قاربت أن تضع أوزارها ذلك أن هدفها تنظيم العالم ما استطاع الاقطاب المتبرعون للامر الى ذلك سبيلا

ولن ندرك مغزى هذه المعركة ـ معركة السلام ـ الا اذا علمنا ان هذه الحرب القائمة الآن هي ثورة اجتماعية . وناهيك بالثورات من آلة تخريب وهدم ، الا اذا استطاع الزعماء أن يجعلوها تطورا وئيدا لا طفرة مستعجلة

هي ثورة ، ولكن على أي شيء

وهي ثورة ، بدأت في أعقاب الحرب العالمية الاولى ولم تزل . وليست مقصورة على روسيا أو ألمانيا أو فرنسا أو انجلترا ، ولكنها عمت أوربا أو ستعمها وستتناول أميركا بنصيب كبير . والارجح أنها لن تكون ثورة سلاح ، انما تمرد على القديم البالي وهدمه ، واحلال شيء غير مدرك وغير معروف تماما الآن محله

ولكي ندرك حقيقة هذه الثورة التي قامت وستظل قائمة حتى يتداركها الزعماء والشعوب بأنظمة فيها قوة الاستمرار ، يصح لنا أن نبحث وجهة نظر كل دولة من الدول العظمى التي تشترك في هذه الحرب

١ ـ المانيا

ليست النازية أو هتلر بالمسئولين عن اضرام هذه الحرب ، وانما تقع المسئولية على الشعب الجرماني نفسه ، على تعاليمه التي بثها فيه رجالهم الذين تولوا أمور المانيا منذ أكثر من مائة سنة ، سواء منهم العسكريون أم رجال الصناعة والمال أم رجال التعليم والفلاسفة

وهذه التعاليم نتيجة لتاريخ المانيا ، فهي لم تصل الى ما وصلت اليه الآن من ضم الجرمانية كلها تحت حكم واحد الا باتباع مبدأ الغزو والاعتداء على الجيران المسالمين

ثم ان زيادة عدد السكان في ألمانيا ، والتفوق الصناعي الذي تم لها بجهد أبنائها أوجدا نفسية جعلتهم يؤمنون بما قاله فلاسفتهم ورجال عسكريتهم بأن عنصرهم ممتاز وأن القوة هي خير الوسائل للحصول على ما يريدونه من التسلط على العالم

أضف الى ما تقدم رأي كتابهم ـ وعلى رأسهم سبنجلر ـ القائل بأن الغرب آخذ في الانحطاط ، وأن لا منجاة له الا بالتسلط الجرماني

هذه الحالة النفسية تؤيدها كبرياء لم تقبل معاهدة فرساي هيأت السبيل الى قيام هتلر

ونازيته . فلو لم يكن هذا الجاويش النمساوى لكان غيره بلا شك

فالحرب التى قام بها الالمانيون ثورة على النظام الاوربى . ثورة مسلحة لاكتساح أوربا واحلال العقلية الالمانية فى المبادىء وفى الماديات محل ما هى عليه أوربا . ثورة لقلب النظم الاقتصادية مهما كان لونها وجعل الاقتصاد الالمانى الصناعى سيدا تقوم أوربا على تغذيته بالزراعة وبالرجال . وثورة لقلب النظم الادبية وتثبيت الهمجية البروسية فى كرسى الاديان كلها

فأنت ترى اذن ان انكسار المانيا العسكرى المحتم لا يدنى السلام، الا اذا تمكن الغالبون من تربية النشء الالمانى تربية جديدة يقوم بها ألمانيون يؤمنون بالديموقراطية ، فهل يتم الامر ؟

هذا ما ستظهره لنا أيام السلام القادمة ، وهناك نتوقع المعارك التى تفصل فى سير الحضارة

٢ ـ روسيا

ان الثورة فى المانيا أداتها الحرب وغرضها التسلط ، وأما فى روسيا فعلى النقيض

عند ما قامت الامة الروسية على النظام القيصرى، قامت على أداة حكم سدته الاستبداد ولحمته الظلم والفقر

والاشتراكية الروسية التى ظلت الحكومات السوفيائية تطبق فى أوضاعها وتهذب من طرقها ، قائمة على مبادىء اقتصادية سليمة ، ترمى الى اسعاد الشعب والى تعليمه بضمان القوت المادى والقوت العقلى . فالروس فى نظامهم يماشون سير العالم الى التقدم بترقية الجمهور ، ويصح ان يقال اجمالا ان نظامهم الاقتصادى يرمى الى الغاء الملكية الفردية فى المرافق العظمى التى تمس كيان الشعب واحلال الدولة محل الافراد فى التصرف بالاقدار الاقتصادية

ولا ينكرون المجهود الفردى بل يؤيدونه، وانما لا يطلقون العنان للرأسمالية الفردية، لتجعل من شركات أو أفراد أسيادا ومن عمال عقليين ويدويين عبيدا

ولقد كان فريق ـ وعلى رأسهم تروتسكى ـ يرمى الى ضمان المبادىء الاشتراكية السوفيتية ، وتأمين بقائها باحداث ثورة عالمية ، تبدأ فى كل دولة من دول الارض على حدة . على انهم لما رأوا فساد هذه النظرية واستحالة احداثها وجدوا أن خير الامور أن يبدأ الانسان باصلاح بيته وتنظيمه ويدع الجار وشأنه

وهذا ما فعله ستالين بزعامته التى جاءت بأطيب ما يشتهيه الزعماء

ولقد قرأنا كثيرا عن روسيا الجديدة لكتاب أميركيين وبريطانيين فلم نر الا انصافا للروس وتقديرا لمبادئهم الاقتصادية والسياسية

فقد اضطهد الروس أى اضطهاد منذ ١٩١٧ حتى ١٩٤١ وظنت بهم الظنون ـ وكان

القائم على تسوىء سمعتهم وتشويه حقيقتهم قوما رجعيين استأثروا بالحكم فى بلدانهم ، وهذا طبيعى . فان الجالس على مقاعد وثيرة ، المتنعم بالمادة على اختلاف وجوهها لا يحلو له أن يغير فى نظام معيشته ، بل ينفر ويقارع أى خطر قد يهدد نعيمه ، هـذه الحال النفسية سادت فى فرنسا حتى نكبتها ، وكادت تودى بانجلترا لولا أن جاء تشرشل تؤيده الاحزاب الاشتراكية

ويقولون ان الامبركيين على العموم مشربون بروح مناهضة النظام الروسى

وقد ظهر من مؤلفات من أشرنا اليهم من الكتاب ، أن السياسة الروسية كانت على حق ، عند ما كانت تدعو الى مقاومة الفاشية ، وكانت على حق عند ما لبت نداء الجمهورية الاسبانية على فرانكو

وكانت على حق عند ما دعت جمعية الامم الى الاخذ بمبدأ الضمان الاجتماعى

ولكن الدعاوة المضادة للاشتراكية كانت قد ملأت الادمغة فتحينها هتلر فرصة سانحة وأقام نفسه زعيما يمنع البلشفية عن اجتياح أوربا . حال أن لا بلشفية ولا خطر منها هناك

فمعركة السلام التى ستعقب هذه الحرب ستكون معركة على المبادىء الاشتراكية ، فهل يدين المنتصرون بدين واحد أم يختلفون ؟

هذا ما ستظهره لنا الايام

٣ ـ انجلترا

لعل الامبراطورية البريطانية المثال لدولة أو لشعب ، يؤثر التطور على الثورة . وهو ما يعبرون عنه فى لسانهم بقولهم evolution لا revolution

وتاريخهم شاهد على هذا

حتى أثناء هذه الحرب أخذوا بالتوفيق بين ما كانوا عليه وبين ما يريده الاشتراكيون منهم أن يكونوه

فتراهم يحاولون أن يجمعوا بين تدخل الدولة فى الشؤون الاقتصادية وبين اطلاق الحرية فيها للفرد

وان من قرأ ما وضعوه من تشريع للضمان الاجتماعى وتأمين العاطل والمريض والشيخ والارامل والطفل ير المحاولة واضحة ، محاولة الجمع بين ما يستطاع عمله بلا تقلقل وبين ما يرمى اليه المثاليون

على أن ظاهر الامور يدل على رجحان كفة الاشتراكية فى انجلترا ، فهى لا تقنع بما تقدم من الضمان الاجتماعى بل تطمع فى وضع مبدأ الملكية الفردية موضع الامتحان

فمعركة السلام اذن ستكون فى انجلترا نفسها ، بين اليمين وبين الشمال ، ثم تكون بين الامبراطورية البريطانية وبين حلفائها على أى نظام يتبع وأى مبدأ يؤيد

٤ ـ اميركا

وأما الولايات المتحدة الاميركية فكانت حتى الساعة الوحيدة التى لاتؤمن الا بالمجهود الفردى الذى لا حد لحريته ، ومنع الدولة من التدخل فى شؤون الافراد

على أن الرئيس روزفلت الذى يمثل حزبا يرمى الى الحد من سلطة الشركات والكتلات الاقتصادية المتسلطة ، سيكون عونا للمبادىء التى ترمى الى الترفيه عن العامة بتحميل الخاصة معظم العبء فى الضرائب

والولايات المتحدة التى ظهرت مقدرتها الصناعية وانتاجها المدهش ، والتى بدأت تضيق بمضائعها الاسواق الاميركية ماذا تصنع فى مؤتمر السلام

انها ستنادى بمبدأ الباب المفتوح ، وازالة الحواجز الجمركية ، واطلاق الحرية والاستقلال لجميع الشعوب كبيرها وصغيرها ، وستنادى بمبدأ رفع مستوى المعيشة لجميع الناس ، وهى مبادىء يطرب لها من يسمعها ويود تطبيقها ، ولكن كبيرا من كتابهم « فرانك سيموند » يقول : « أليس هناك شىء من الرياء فى ندائنا بمبدأ الباب المفتوح . ان حرية التجارة واطلاقها للجميع بلا قيد ولا شرط كلام حلو لذيذ ، وانما يصح لنا أن نتساءل نحن الاميركيين أليس معنى هذا تفضيلا لنا وايثارا على الغير

« فالحرية التجارية والباب المفتوح من ينتفع بهما ؟

« الامة التى هيأت لها الظروف أن تكون غنية بموادها الاولية وقوية بصناعتها

« ومن من الدول أغنى من اميركا واقوى !

« ان القول بهذا مثل القول بسباق عدو يشترك فيه الشاب والعجوز والسليم والاعرج

« فلننظر فى أن نكون منصفين »

هذا ما قاله كاتب منهم

واننا عند ما قصرنا بحثنا على الامور الاقتصادية ولم نشر الى الامور السياسية الجغرافية والحربية ، قصدنا ذلك لايماننا بأن المسائل الاقتصادية هى أساس لكل ما فى العالم من اختلاف ونزاع وحروب يأخذ بعضها برقاب بعض . فأنت ترى أن معركة السلام ستكون حامية ، وعندنا أن الحلفاء الذين يمثلون القوة التى ستتولى وضع قواعد الصلح والممثلة بعواصم ثلاث ـ لندن وواشنطن وموسكو ـ سيسير كل منهم فى أموره الاقتصادية حسبما يوحى اليه به شعبه ، اما توجها الى اليمين وهذا بعيد واما استقبالا لعهد أهل الشمال ، وهذا قريب باختيار الحل الوسط

واما التعديل الجغرافى فسيكون أوسع الميادين مجالا للاختلاف ـ الا اذا أقلع الناس عن التفكير العتيق ، وأخذوا بالدين الجديد الذى يرفع الانسانية عن هوة الحدود الى مستوى رفيع يهيئها الى وحدة عالمية

وليس هذا مما تراه البشرية فى القريب

سامى الجريدينى

لماذا نتعب؟

فى وسع المرء أن يذكر الكثير من الاسباب التى يحس من أجلها بالكلل والتعب ، فاذا كان عمله يسير على وتيرة واحدة ويجرى على نمط واحد ، أو اذا شعر بأن رؤساءه يرغمونه على العمل ويجبرونه على أدائه ، أو أن مكان عمله تعوزه الشرائط الصحية ووسائل الراحة ، أو أنه عجز عن التمشى مع غيره فى مكتبه ومحل عمله ، فان النتيجة الحتمية لذلك تكون الملل والتبرم ، فلا يستمتع بسلام أو براحة ، كما يساوره القلق على المستقبل ، وتتناهبه الافكار والآمال فى الحصول على وظيفة أخرى أو عمل آخر يشبع نوازع نفسه

ويمكن تركيز هذه البواعث ، التى تتجمع فى العقل الواعى ، فى سبب جوهرى واحد هو القلق . وثمة أسباب كثيرة أخرى تكمن فى العقل الباطن ، تجعل الانسان مكدودا متعبا ، فقد تكون رغبته الكامنة فى قرارة نفسه ألا يعمل بتاتا ، ولذلك فانه يريد أن يتعب حتى يجد عذرا للخيبة والاخفاق والانقطاع عن العمل . انه يلتمس ممن يحيطون به ، أن يرثوا لحاله وأن يشاطروه أتعابه وآلامه

وقد يكون التعب وسيلة للهروب من مأزق مكروه لا نحبه ، فبينما يواجه الرجل القوى الشدائد والمكاره فى جرأة ، ويصارعها فى ثقة وبسالة ، يسعى الضعيف عادة الى الابتعاد عنها والفرار منها وكثيرا ما يعمل على نسيانها فى غمرة الخمر والميسر أو المخدرات والمحرمات . ومن الناس من لا يقبل على نفسه برغم ضعفه ، أن يوصف بالضعف اذا ما عصفت به الحياة واشتدت به الازمات ، فيدفن متاعبه ومشاكله وآلامه حية فى عقله الباطن فتسبب له شرود الذهن وتصدع الاعصاب ، وقد يقول فى نفسه : ليس فى وسعى أن أكسب من الرزق ما يقيم أودى وما يكفل رعاية عائلتى . انهم يتوقعون دواما أكثر مما يمكننى اعطاءهم ، ولو أننى بذلت قصارى جهدى ، ولم أتمكن على الرغم من ذلك من الحصول على المال الذى نحتاج اليه ، وضح للكل عجزى وضعفى ، واننى لست كفؤا للنجاح أو أهلا له . فيفضى ذلك الى احتقار الناس لشخصى ، وانتقاصهم لكرامتى . وان أنجع وسيلة أتفادى بها هذا الوضع ، هى أن أتظاهر بالتعب ، حتى يرى الجميع أن عجزى عن مواصلة العمل والاستمرار فيه بجد ونشاط راجع الى التعب ، ولا يضيرنى أن أسلم بهذا ، فكل امرىء عرضة للتعب والاعياء ، ولكن الاعتراف بالعجز أمر يضير الرجل ويعيبه

ويعقب هذا التفكير نشاط الوجدان والعقل الباطن فى انتاج التعب المرغوب فيه . وكى يتخذ هذا التظاهر صورة الاقناع للغير ، فانه يقترح على نفسه الامتناع عن هواية

يحبها ويلتذ بممارستها . فيكف عن لعب رياضة كان يهواها ، حتى يفهم الناس توا ، أن انقطاعه عن ممارسة هذه الرياضة ، دليل ناطق على تعبه الجم . هكذا يصور له الخيال ، وهكذا يعتقد ان تفكير الناس حوله يجرى على هذا المنوال . وفى البدء يشعر بتعب يسير ، فتبطؤ قدماه فى السير ، وتتمايل كتفاه ، وتثقل رأسه ، فيتجه كل تفكيره الى الجزء الحائر القوى . وسرعان ما يبدأ فى الاغراق فى التفكير فى هذا التعب ، حتى يتجسم ويصبح حقيقة راهنة ، بعد أن كان وهما وخيالا . فيتوقع دواما فى نهاية عمله اليومى ، رأسا ثقيلة وعينين غائرتين ، فيكون له ما يتوقعه ، ثم تتفاقم هذه الاعراض ، ويكثر ظهورها وتطول المدة التى تلزم للشخص للاستجمام والتماس الراحة واستئناف النشاط . وبعد قليل تنتشر هذه الاعراض فى أجزاء أخرى من جسمه ، ثم لا يلبث أن يلبى بدنه كله ، نداء رغبته ويحققها ، فيشعر ان عاجلا أو آجلا باعياء يصبح من العسير ازالته والتغلب عليه ، بعد أن يكون قد غزا الجسم كله وأنهكه . ونحسب عادة أن لدينا من الاسباب ما له من الوجاهة ، ما يبرر كل ما نأتيه من أعمال وتصرفات ، ولكننا حينما نحلل هذه الاسباب فى بوتقة العقل المجردة ، يتبين لنا أحيانا انها مجرد أعذار واهية واختلاقات ، فقد يكون الباعث لاتياننا ميلا أو شهوة لا أساس لهما

وقد تمكن الدكتور « هوارد ليدل » أستاذ علم النفس بجامعة كورنل أن يجرى تجربة فى عام ١٩٣٧ فى معمل الجامعة على خنزير اطلق عليه اسم «أشيلس» ، أفضت الى تصدع أعصابه . ولعلها المرة الاولى حتى ذلك الحين التى تتصدع فيها أعصاب خنزير ، وقد كان الباعث على اجراء هذه التجربة ، معرفة أفضل الطرق لمعالجة التصدع النفسانى فى الانسان . ترى كيف تم ذلك ؟ هل كان عن طريق اجهاده فى عمل ، أو حرمانه من طعام ، أو اثارة القلق فى نفسه . لقد استغرقت التجربة عاما كاملا ، واجه فيها «اشيلس» المشكلة تلو الاخرى . لقد كان الدكتور يقرب من الخنزير فى فترات متقاربة منتظمة ، تفاحة ليأكلها ، فاذا هم بالتهامها ، أبعدها عنه رويدا رويدا حتى يصبح من العسير عليه بلوغها . فتحطمت أعصاب « أشيلس » فى نهاية العام ، رغم العناية الفائقة بغذائه ورغم ما كان يتمتع به من راحة ودلال . ولو فطن الخنزير الى حقيقة الامر ، لاغفل هذه التفاحة من البداية وتجاهلها ، وكذلك لو علم المرء بحقيقة العوامل التى تسبب له ما يحل به من تعب وتبين له تفاهتها ، لتمكن من مقاومتها والتغلب عليها

والاحساس بالتعب ، وحقيقة التعب ليسا شيئا واحدا ، كما أن الشعور بالتعب ليس مقياسا صحيحا للتعب . فالتعب الحقيقى هو نفاذ الطاقة للعمل . وقد ينقضى يوم كامل فى عمل عقلى ، فيحس الانسان بالتعب ولكنه مع ذلك لا يكون متعبا ، طالما كان فى طاقته أن يبذل من المجهود العقلى بعد انقضاء اليوم ، مثل ما بذل خلاله . وقد أجمعت التقارير عن شتى التجارب والابحاث ، التى قام بها الكثيرون من الاطباء وعلماء النفس أن الجهد العقلى لا يسبب تعبا ، ويقول الدكتور « أوستن ريجز » : ان العمل الكثير ، مهما كان

قدره ، سواء كان عقليا أو جسميا، لم يسبب ولن يسبب حالة واحدة من تصدع الاعصاب وتحطمها . ويقول الدكتور « ايرا ويل » : فى وسعى أن أقطع ، انه ليس ثمة تصدع عصبى ناجم عن الافراط فى العمل ، وفى وسعنا أن نقتبس الكثير من مؤلفات علم النفس تحمل مثل هذا المعنى

ولو أنه أمكننا أن نحسب كمية الدماء التى تستنفد فى مخ « أنشتين » لحل معضلات النظرية النسبية ، وتلك التى تستهلك فى مخ أبله فى التفكير فى طريقة اخفاء ريشه عن أنظار الناس ، لما وجدنا فارقا كبيرا . ويقول ثورنديك فى هذا الصدد : ان التعب الذى نشكو منه ليس ناجما عن عدم القدرة على العمل ، وانما عن افتقار الرغبة فى العمل ، أى أنه ليس ناشئا عن الاجهاد الذهنى ، وانما مصدره عدة عوامل أخرى ، ككراهية العمل والرغبة فى استبداله أو فى العمل فى مكان آخر ، أو الملل والسأم من سير الامور سيرا آليا منتظما

وقد قام أحد الاخصائيين ببحث فى أحد مصانع النسيج به ثلاثة أقسام ، قسم لنسج القطن ، وآخر للحرير ، وثالث للصوف . ومن طبيعة الخيوط الحريرية انها لا تتمزق الا نادرا ، لذلك يقضى عمال الحرير يومهم فى هدوء ، يراقبون الآلات وهى تخرج اللفائف الحريرية اللامعة الواحدة بعد الاخرى ، وتتمزق الخيوط القطنية بدرجة متوسطة ، بينما تتمزق الخيوط الصوفية أثناء العمل كثيرا ، ولذلك فان عمال الصوف ، يظلون طول اليوم فى حذر وتحفز شديدين . أما عمال القطن فانهم أكثر تيقظا وخفة من عمال الحرير ، وانما بدرجة تقل كثيرا عن عمال الصوف . ترى من يخور قواه ويحس بالاعياء أكثر من غيره ! ان ما يتبادر للذهن لاول وهلة ، هو أن عمال الصوف يأتون فى المرتبة الاولى ثم عمال القطن ويلى هؤلاء عمال الحرير . ولكن الاختبار دل على أن عمال الحرير يشاركون عمال الصوف فى المرتبة الاولى ، رغم قلة المجهود الذى يبذلونه، وذلك راجع الى الملل الذى يسيطر على نفوس عمال الحرير من طبيعة عملهم الجامدة ، التى تسير على طريقة واحدة لا تتغير . بينما يتطلب العمل فى الانسجة القطنية قدرا متوسطا من الانتباه ، يبدد السأم ولكنه لا يفضى الى الاعياء

ان ما نسميه « تعبا » ليس شيئا واحدا ولكنه مجموعة أشياء ، قد تبدو فى شخص كأنها هبوط جسمانى عام ، وفى آخر كأنها عجز عن التفكير تفكيرا منطقيا واضحا ، وتسبب لآخرين صداعا أو آلاما فى العظام ، أو تفضى الى ضيق فى الخلق ، أو توتر فى الاعصاب وحدة فى الطبع ، أو الى الاغراق فى السبات والنوم ، أو الى السهاد والارق ، أو الى العبوس والوجوم ، أو الى التخاذل والتواكل . ويخيل الينا أحيانا أن الحالة النفسية للمرء لا يمكن أن تكون سببا لظهور مثل هذه الاعراض ، ولكن البحوث التى قام بها العلماء فى هذا الصدد ، أثبتت أن الحالات النفسية ، قد أعمت وأقعدت بل وأشلت كثيرين

وليس من شك ، فى أن هناك تعبا جسمانيا بحتا ، سببه اجهاد جسمى محض ، ولكن

هذا النوع من التعب لا يظل طويلا ولا يعمر للاسبوع التالى ، أو لليوم التالى مع الراحة والغذاء الجيد ، وثمة تعب من نوع آخر ، يصحب المرض أو سوء التغذية أو الفجور أو الخلاعة أو ما شاكلها ، وهذا النوع يظل أثره باقيا طالما بقى المسبب له . وهناك نوع ثالث ، ناجم عن الاضطرابات النفسية ، لا تجدى فيه الراحة الجسمية ولا يستعيد المتعب فى هذه الحالة نشاطه وحيويته ، مهما طالت مدة هذه الراحة . ويقول الدكتور «روبوا» عن هذا الفريق : يوجد عدد وفير من الناس ، لا يتبين لنا من فحصهم ، مهما بلغت دقة الفحص ، أى اضطراب جسمانى ، ويمكننا أن نكتب لهم فى ثقة واطمئنان شهادات طبية لشركات التأمين على الحياة ، ومع ذلك فانهم يستهدفون طيلة حياتهم لاخطر المفاجآت الصحية والازمات بسبب الاضطرابات العاطفية والنفسية

ولو صادف المرء منا عدوا لدودا ــ فسواء أكان هذا العدو انسانا مدججا بالسلاح ، أو كان افلاسا لا مناص منه ــ أسرعت ضربات القلب ، وازداد افراز الكبد ، وارتفع ضغط الدم ، وتوقف كثير من أعضاء الجسم عن العمل حتى تتحول معظم الطاقة الى العضلات الخارجية ، ومجمل القول تأهب الجسم لعمل حاسم ، فاما الصراع والعراك واما الهروب والفرار . ذلك هو بعينه ما يحدث لانسان جالس فى مكتبه ، حينما يقرأ عبارة ترعبه وتزعجه أو يفاجئه نبأ يخشاه ويكرهه . ان الملل والقلق والمخاوف والوساوس التى تتملك الشخص أثناء عمله اليومى ، تقلل من قواه المعنوية وتسبب له التعب الحقيقى والكلل

ان نوبات الغضب التى تنتابنا من حين الى آخر ، لا تؤثر على أجسادنا مثل تأثير العواطف المضطربة المكبوتة فى أعماق نفوسنا ، لانها تنفث سمومها رويدا رويدا ، حتى يأتى يوم تهوى فيه أجسادنا ، ونفطن الى أننا قد قضينا على أنفسنا وأفنينا زهرة العمر بأيدينا . ان الاضطرابات العاطفية هى السبب الاساسى لما يحل بنا من تعب ، وهذا التعب يختلف فى الشدة تبعا لاختلاف حدة الاضطرابات

والناس فى عرف « وليم جيمس » نوعان ، اللين الجانب والقاسى القلب ، والمثل الاعلى للمرء ، أن يكون قاسى القلب نحو نفسه ، لين الجانب نحو الغير . ان الرقيق القلب المرهف الحس ، الذى تهتز مشاعره لكل صغيرة وكبيرة ، حتى الامور التافهة ، يستهدف للقلق والالم والضيق ولكل العناصر العاطفية الهدامة . ولا شك فى أن العواطف الطيبة اذا بلغت حد الغلو والتطرف ، انقلبت الى ضدها ، وأصبحت ضارة سيئة . ويقول الدكتور « روبوا » ، عن هذا الفريق :

انهم يعانون مشقة كبيرة فى مواجهة الحياة ، وفى الصمود أمام تقلباتها بصبر وشجاعة ، على الرغم مما قد يكون لهم من المواهب والملكات الوفيرة ، والفضائل والصفات الحميدة . ذلك لان هذا الفريق يعوزه شىء من ثبات الجنان وعدم المبالاة اللازمين للكفاح فى الحياة

(عن مجلة « ساينس مجازين »)

في عالم الغد ستتساوى المرأة بالرجل في كل شيء

حتى لتبلغ درجة تخولها طلب الرجل الذي تريد

المرأة في عالم الغد

بقلم الدكتور امير بقطر

رئيس قسم التربية بالجامعة الأمريكية

المرأة أحدث سنا فى تاريخ البشرية من الرجل ، والا لما فرضت على « الهلال » موضوع هذا الشهر بهذا العنوان . ولو كان العكس صحيحا ، لصح أن يكون العنوان « الرجل فى عالم الغد » لقد كانت المرأة الى عهد قريب جدا ـ ولا تزال ـ فى نصف العالم تقريبا ـ سلعة تباع وتشترى ، أو حيوانا ، أو أمة ، أو على أكثر تقدير لعبة يلهو بها الرجل فى أوقات الفراغ ، ومتعة يشبع بها غريزته الجنسية ، وآلة تفريخ تنتج له ما يخلد نسله ، ويستجيب لانانيته ، ويحمل اسمه ولقبه ، ويرث ماله وعقاره من بعده. لا حاجة بنا الى الاستشهاد بأفلاطون زعيم الفلاسفة وواضع أصول الدمقراطية ، الذى كان يفاخر على رؤوس الاشهاد ويحمد الله لانه اغريقى وليس أمميا ، ولانه حر وليس عبدا ، ولانه رجل وليس امرأة . ولا حاجة بنا أن نكر الاجيال والعصور نطويها ، نتتبع تاريخ هذه المخلوقة ومنزلتها فحسبنا أن نرجع بذاكرتنا الى نحو ثمانين عاما لا غير. وأين ؟ فى أمريكا حيث الجنة تحت أقدام الاوانس والسيدات فى هذا العصر . كان يحرم على المرأة الى ذلك الحين ، والى ذلك الحين فقط ، أن تكون طالبة فى جامعة ، وأن تغشى فندقا أو مطعما دون أن يصحبها رجل من ذويها . وكان من حق زوجها الشرعى أن يجلدها ويعذبها تعذيبا بدنيا وعقليا

وأين أيضا ؟ فى انجلترا حيث يكاد احترام المرأة اليوم يكون عبادة . كان يحرم على الفتاة الى نهاية الحرب العالمية السابقة أن تدرس الطب ، وكانت جامعة اكسفورد ، معقل الثقافة الانجليزية فى أرقى صورها ، الى سنة ١٩٢٥ والى تلك السنة فقط ، لا تقبل فيها المرأة طالبة . وهذه الثورة التى أشعلتها الزعيمة النسائية « افيلين بنكهرست » مطالبة بحق المرأة فى التصويت لم تات بنتيجة تذكر قبل نهاية الحرب العالمية ، حينما أعطيت حق التصويت اذا بلغت من العمر ٣٠ عاما فما فوق ، ولم يخفف هذا القيد قبل سنة ١٩٢٨ حينما أصبح لكل امرأة فى سن ٢١ فما فوق حق التصويت ، والعضوية فى مجلس العموم

ومن أغرب الحوادث فى تاريخ الجنس اللطيف ، أن المرأة جاء تحريرها متأخرا عن تحرير العبيد من تجارة الرقيق ، وعن تحرير الحيوان من قسوة الانسان ، وعن تحرير المجانين وضعاف العقول من وسائل الارهاب والتعذيب . ومعنى هذا ان الانسانية حرمت الاتجار بالانسان ، وأنشأت جمعيات الرفق بالحيوان ، وأدركت أن الجنون وضعف العقل أمراض كسائر الامراض ، وليست أرواحا شريرة يزج أصحابها فى غياهب السجون ويمثل بهم أشنع تمثيل — معنى هذا أن الانسانية فطنت الى ذلك كله قبل أن تدرك أن المرأة أجدر بالتحرير من العبد والحيوان والمجنون

حظ الأنثى كالرجل

هذه عهود تقضت وليس الى رجوعها من سبيل . واذا كان ما خطه القدر للمرأة فى لوحة الحاضر مرآة تنعكس فيها حوادث المستقبل ، فان حظ الجنس اللطيف فى عالم الغد لن يختلف عن حظ زميله فى الحقوق والواجبات ، الا بما تقتضيه الفروق التشريحية بين الذكر والانثى . ولن يكون ثمة ميدان فى الحياة — فى الحرب والسياسة والتجارة والصناعة والعلوم والفنون والمهن الراقية — لاتستطيع أن تطرقه، أو يحرم عليها اقتحامه. لقد كان العلماء الى عهد قريب يفرقون كثيرا بين عقل الرجل وعقل المرأة ، وبين وجدان الرجل ووجدان المرأة ، وقد زادهم ما خيم على نفوسهم من سجف التحيز للرجل امعانا فى التفريق . على أن الاتجاه العلمى الحديث يدلنا على أن هذه الفروق أو أكثرها حديث خرافة ، وانها نتيجة البيئة وما هوت اليه المرأة من درك الغبن والاذلال طيلة العصور ، لا نتيجة الوراثة أو طبيعتها

وسيتبع اقتحام المرأة ميادين الاعمال على اختلاف أنواعها تغيير محسوس فى منظرها الخارجى ، وفى وجدانها ، وعيشتها ، وفلسفتها فى الحياة ، وسيزداد هذا التغيير ويطرد بتقدم الحضارة ، وانتشار الوسائل الثقافية . لقد تحررت المرأة فى البلدان المتمدينة اجتماعيا الى حد كبير ، ولكنها لم تتحرر اقتصاديا الا الى حد محدود . ولسنا نبالغ اذا قلنا انها ستنال فى نهاية الامر استقلالها الاقتصادى ، فلا تكون عالة على ذويها ولا على زوجها ، وينتج من ذلك أنها تزداد وثوقا من ذاتها ، وشعورا بالكرامة وعزة النفس والشجاعة والاقدام ، ولن تقبل من الرجل ضيما أو تطاولا أو اذلالا أو خضوعا واستسلاما . وسيكون لحسن تغذيتها وعنايتها بالرياضة البدنية أثر كبير فى رشاقة بدنها وامتشاق قوامها وطول قامتها ، كما سيكون لكثرة اختلاطها بالجنس النشيط فى ميادين الاعمال ، حافزا لها على العناية بهندامها ومنظرها وما يتبع ذلك من تحسين النوع وبقاء الاصلح وبلوغ الجنس اللطيف حدا كبيرا من الجمال والقوة والصحة مجتمعة

ان المرأة الحديثة اليوم تؤثر العمل مع الرجل على العمل مع المرأة ، وان كانت لا تعترف بذلك أحيانا ، وذلك لان الرجل أشد ميلا للهدوء وراحة الاعصاب من المرأة ،

وأكثر تسامحا وأقل اهتماما بالسفاسف ، ولكن المرأة فى عالم الغد ستتحول طبيعتها من هذه الناحية ، فستطيع التعاون مع المرأة أو الرجل على حد سواء . على أنها على كل حال ستؤثر الاعمال التى تتصل بالجمهور على سواها من الاعمال النسائية البحتة ، كأن تفضل التمريض والشؤون الاجتماعية مثلا على أن توظف فى ناد للسيدات أو صالون للجمال ، كما تفضل أن تشتغل بالتعليم فى معهد مختلط من الجنسين ، على معهد للبنات. وقد دل اختبار المرأة الحديثة فى ميادين الاعمال ، أن وجودها فى جو كله أو أغلبه من النساء ، يربى فيها طباعا وعادات تنفر منها الرجل ولا توجهها للزواج . ويبدو هذا جليا فى أزيائها . فالمرأة التى تعمل فى جو كله أو جله من الرجال تمتاز عن زميلتها التى تعمل فى جو كله أو جله من النساء ، فى هندامها وحسن اختيار الثياب جودة ولونا وتفصيلا .وتكاد تكون مضطرة الى ذلك اضطرارا ، اذ أنها اذا خرجت عن المألوف فى محيطها النسائى ، عرضت ذاتها لاشد ضروب النقد .فاذا كانت معلمة مثلا وعنيت بزيها وهندامها، قالوا انها تبدو فى ثياب ممثلة أو سكرتيرة خاصة لكبير من رجال الاعمال

وقد دلها الاختبار كذلك أن المرأة التى تعمل فى بيئة نسائية بحتة ، تكون عادة أشد عنفا وعنادا ، وأقل ميلا لارضاء الغير من زميلتها التى تعمل فى بيئة بعضها أو كلها من الرجال . ومعنى هذا أنها تفقد الصفات التى تجذب الرجل اليها ، وتتصف بما يمقته الرجال فيها أو ما يخيفهم منها . وقد تكون هذه الصفات مفيدة للعمل الذى تعمل فيه ولكنها تعطل كثيرا من الفرص السانحة لزواجها . كل هذا ينبىء بأن المرأة فى عالم الغد ستميل الى تجنب الاعمال النسائية البحتة

والمرأة اليوم فى سن الشباب على الاخص ، لا تنظر الى العمل الذى تتقاضى عنه أجرا بلغت قيمته ما بلغت ، نظرة جديه ، لانها فى نظرها على هامش الحياة وليس فى صميمها ، وسلم ترتقيه الى الزواج ، وهى فى كثير من الاحايين تمعن فى اهماله أو على الاقل تنقص من قدره قولا وفعلا أمام الغير ، خشية أن يقال انها مسترجلة ؛ وهى تفعل ذلك بدافع داخلى ، خوفا من أن انهماكها فى عملها وتحمسها وتهالكها عليه ، أو الظهور بهذا المظهر أمام الغير يضعف من النعومة فيها ، ويخفى البعض أو الكل من مظاهر الانوثة وهى رأس مالها ، وتقلل من آمالها فى الزواج . أما المرأة فى عالم الغد فتكون على النقيض من ذلك على قدم المساواة بالرجل ، تتحمس للعمل وتفاخر بتفانيها فى ترقيته ، وتحسبه الحياة بعينها ، لا على هامش الحياة . وبذلك تضمن استقلالها الاقتصادى ، والمحافظة على كرامتها ، وتقوى آمالها فى الزواج ، اذ أن النجاح فى العمل والبروز فيه دليل الشخصية القوية ، وهذه من الصفات المستحبة فى زوجة المستقبل . ورغم هذا كله ، فلن يكون الزواج حائلا بينها وبين العمل ، فانها ستقدس العمل متزوجة ، وستقدسه عزباء ، ولن يضيرها كثيرا ألا يطلب يدها أحد ، ولست أبالغ كثيرا اذا قلت ان مساواتها بالرجل ستبلغ درجة تخولها طلب يد الرجل الذى تريد . بقى هناك أمر آخر وهو

ما يسمونه عاطفة « الامومة » التى كثيرا ما تقوى رغبة المرأة فى الزواج . تدل بعض الابحاث أن هذه العاطفة مشكوك فى وجودها قبل الزواج، وما يقال عنه عاطفة الامومة، انما هو فى الواقع عاطفة الحنان . والامومة صفة تترعرع وتقوى بتربية الاطفال . ومهما يكن من شيء فان المرأة العزباء تستطيع أن تتبنى طفلا اذا ما كان ولعها بالاطفال شديدا ، وقطعت آمالها فى الزواج ، ولا أقول تستطيع أن يكون لها طفل من أحشائها اذا شاءت، كما يفعل « عذارى » بعض سكان الشمال من أمم « النوردية » الراقية

ونقول بهذا الصدد ان الفكرة القديمة القائلة بأن الام أقدر على حب الاطفال والعطف عليهم من المرأة العزباء أو المتزوجة التى لم تنجب ، هذه الفكرة فى نظر العلماء اليوم مشكوك فيها ان لم تكن باطلة . بل على النقيض من ذلك يقولون ان المعلمة مثلا لا تعطف على تلاميذها متى كان لها بنون وبنات ، عطف زميلتها العزباء أو التى لا أولاد لها ، لان الكثير من هذا العطف يستنفده بنوها وبناتها

أجر المرأة

المرأة اليوم مهضومة الحق فى دور الاعمال فيما يتعلق بأجرها . ومنذ شهور قلائل مضت كان مجلس العموم البريطانى يناقش فى هذه المسألة، ولا يزال الكثيرون يرفضون تساوى الجنسين فى المرتب. ولعل ولايات أميركا المتحدة أقرب البلدان الى هذه المساواة، ومع ذلك فانها لا تزال بعد بعيدة عن هذه المساواة . يعرف كاتب هذه السطور أستاذة متزوجة كانت تتقاضى مرتبا يعادل مرتب زميل لها مساو لها فى المؤهلات والكفاية ، ولكن سرعان ما تزوج هذا الزميل حتى زيد مرتبه ٢٥٠ جنيها (بالعملة المصرية) فى العام وهى لا تزال باقية على مرتبها القديم . وكتبت شابة اميركية عزباء الى جريدة كبيرة تقول انها تتناول من وظيفة فى محل تجارى كبير ٧٥٠ جنيها مصريا فى العام فى حين أن زميلا لها يقوم بمثل عملها ويعادلها كفاية ومؤهلات ، يتناول ١٢٥٠ جنيها مصريا فى العام ، فى حين أنها تعول بعض أفراد أسرتها . هذا الغبن لن يسمع عنه فى الغد القريب لان المرأة كالرجل ، سواء أتزوجت أم لم تتزوج ، عليها لزوجها أو أولادها أو أبويها أو أقاربها ، وعلى نفسها ، واجبات وتبعات قوامها المال . وسيعترف العالم أن المرأة ــ لاسباب بيولوجية ، لا بيئية كما يتوهم الكثيرون ــ تعمر أكثر من الرجل بأكثر من عشر سنوات فى المتوسط . ولن يتغير هذا الوضع ، أى تعميرها أكثر من الرجل ، بتغير البيئة ، وهذا مما يزيدنا اقتناعا بأن مساواتها بالرجل فى حقوقها المالية أمر محتم لا شك فيه

هل تكون المرأة أوفر حظاً فى الزواج ؟

ولننتقل الآن الى مشكلة اجتماعية خطيرة ــ مشكلة الزواج ــ هل تكون المرأة أوفر

حظا منه فى عالم الغد ؟ قبل أن نحاول الرجم بالغيب يجدر بنا أن نلقى نظرة اجمالية على هذه المسألة كما نراها فى البلدان المتمدينة فى عصرنا الحاضر :

أولا — من المشاهد بوجه عام ، ومن بعض الابحاث التى قام بها الاجتماعيون بوجه خاص فى أوربا وأميركا ، ان نسبة المتزوجات من الفتيات والنساء اللاتى يزاولن المهن الراقية ، وينقطعن للابحاث العلمية ضئيلة الى حد يدعو للعجب. ولعل السبب فى احجام هؤلاء عن الزواج ، خوفهن من أن يكون ذلك عقبة فى سبيل النجاح فى المهنة التى يقدسونها ويؤثرونها على كل شىء آخر . والكثير منهن لا يتقدم اليهن خاطب لتغلغلهن فى العمل ، وتباعدهن عن الاوساط الاجتماعية ، وزهدهن فى كل شىء آخر سوى البحث العلمى أو مزاولة المهنة واهمال كل ما تعنى به المرأة عادة رعاية لانوثتها

ثانيا — تزداد المشكلة تعقدا فى الظاهر ، كلما ضربت المرأة فى التعليم والرقى بسهم وافر ، وذلك لان الرجل المتعلم يسهل عليه أن يتخير فتاة أقل منه علما وثقافة ، طالما توافرت فيها صفات تكمل ما به من نقص ، سواء أكان ذلك مالا أم جمالا أم عراقة أصل وما الى ذلك ، بخلاف الفتاة المثقفة التى يصعب عليها أن تقبل رجلا دونها ثقافة ومنزلة، فضلا عن أنها معدومة الاختيار ، وينظر اليها الناس شذرا اذا ما حملت من هو أقل منها ثقافة ومنزلة أن يتزوج منها . على أن عددا قليلا من الفتيات المثقفات يؤثر الزواج من غير كفء لها على البقاء بغير زواج . وقد رأينا فى مصر بعض الفتيات اللاتى تثقفن تثقيفا عاليا والتحقن بأعمال تدر عليهن مرتبات لا بأس بها ، تزوجن بعواطل جهلاء أو أشباههم ممن لا تتوافر فيهم صفات تستحب سوى المظهر الخارجى أحيانا

ثالثا — المرأة العصامية التى تكون نفسها بنفسها أميل للبقاء عزباء ، ما لم يكن العمل الذى تزاوله يمهد لها الاتصال بالغير اجتماعيا ، كالممثلات والعاملات فى المصانع والمحال التجارية والمشتغلات بالاعمال السكرتيرية فى البنوك ودور الاعمال والممرضات وأمثالهن

رابعا — يقولون ان أمهات المدن والعواصم جنات العوانس ، وذلك لان عددا كبيرا منهن يقصدن هذه المدن بحثا عن العمل أو التوظف ، ولا يستثنى من ذلك سوى المدن الصناعية البحتة التى يكثر فيها بطبيعة الحال العمال من الرجال

خامسا — نظرا لزيادة عدد النساء على الرجال فى أوربا وغيرها ولاسباب أخرى يبقى عدد كبير من النساء بغير زواج . ومن الغريب أن فى ولايات أميركا المتحدة ، وعدد الرجال فيها يفوق عدد النساء (لان أكثر المهاجرين من الرجال) ، توجد امرأة عزباء فى كل ٨ نساء ممن تبلغ أعمارهن ٢٥ سنة فما فوق ، وتوجد امرأة عزباء فى كل ١٠ نساء ممن تبلغ أعمارهن ٤٥ سنة فما فوق

مشكلة الزواج فى الغد

فى ضوء هذه الحقائق لا نستطيع أن نتكهن بما سيطرأ على مشكلة الزواج من التغير

فى عالم الغد . فاذا قيل ان الجنسين سيتساويان فى الثقافة أسوة بكل شىء آخر ، ينبئنا العلم بحقيقة تناقض هذا القول ، وذلك أنه لو فرض تكافؤ الفرص للجنسين فان عدد اللاتى يستطعن اتمام الدراسة الثانوية أو الجامعية من النساء سيكون أكثر بكثير من عدد الرجال . فقد تبين من اختبارات الذكاء أن أكثر المتفوقين (العشرة فى المائة الاول) من الجنس النشيط ، وأكثر الضعفاء الذين لا يستطيعون اتمام الدراسات الثانوية والعليا من الجنس النشيط كذلك، وان أكثر المتوسطين ، وهى نسبة كبيرة، من الجنس اللطيف. ومعنى هذا أننا اذا أضفنا الى هذا زيادة عدد النساء على عدد الرجال ، ظلت مشكلة المرأة المثقفة فى الزواج على ما هى عليه . على أنه يقال من ناحية أخرى ان اتصال المرأة بالحياة الاجتماعية فى عالم الغد ، وتغلغلها فى جميع الميادين والمهن الراقية والاعمال على اختلاف أنواعها ، ستكسر الحواجز التى تبدو اليوم حائلة بين الرجل والمرأة ، وبذا يكون الزواج أكثر انتشارا ، ويسهل على المرأة أن تطلب يد الرجل . ومهما يكن من شىء فان المرأة ستكون أسعد حالا مما هى اليوم ، وستجد هذه السعادة متزوجة كانت أو عزباء ، لانها ستنظر الى العمل نظرة جدية ، بخلاف المرأة العاملة اليوم التى تنظر الى العمل بعين واحدة والى الزوج المنتظر بالعين الاخرى ، فاذا لم يحقق الأمل، ملت الانتظار وسئمت الحياة.

وهناك نقطة أخرى على جانب عظيم من الاهمية ، يخشى المتشائمون على امرأة المستقبل من الفساد . ولكن تاريخ المرأة الحديث فى أوربا وأميركا ألقى ضوءا على الحقيقة . بين سنتى ١٩٢٠ و١٩٣٠ قام نفر من أدعياء التحليل النفسانى الذين لم يفهموا مبادىء فرويد وأنصاره ، ينصحون المرأة المريضة بأعصابها بالزواج ، فاندفعت فى طريق الاستهتار والفساد ، ظنا منها ان فى اشباع رغبات الجسد شفاء للنفس المريضة ، وسرعان ما أدركت أن الخروج عن التقاليد من هذا الباب ، كالسير على الأرض المرصوفة بالالغام والمواد الملتهبة ، وسرعان ما ازدادت أعصابها تحطما ، فهرعت الى أطباء النفوس تطلب النجدة ، وسرعان ما تبين لها أن الحياة السليمة المتزنة ، نموذج من نسب خاصة من عناصر العمل واللعب والرياضة والحب والتسلية والعبادة ، فاذا ما اختلت هذه النسب ، تصدعت الاعصاب وجنحت العقول فمرضت النفوس ، وسيجد الرجل والمرأة كلاهما فى عالم الغد ، كلما تقدما فى العلم والمعرفة ، قواعد ثابتة أو شبه قواعد تضبط بها هذه النسب ، فتتزن العناصر ، وتسوى العلاقات بين الرجل والمرأة الى حد كبير ، ومهما أسرفنا فى التفاؤل ، فلن تبلغ هذه التسوية حد الكمال ، والا لقلنا على الانسان والطبيعة البشرية السلام

امير بقطر

كلية للبنات فى الازهر

بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ محمود ابو العيون

شيخ علماء الاسكندرية

لعل أغرب ما يروى فى هذه الايام عن بعض كبار المسئولين فى الازهر ، أن سينشأ فرع فى الجامعة الازهرية خاص بتعليم الفتيات ، كمعهد من المعاهد التابعة لها

ولسنا نظن الغرابة نجمت عن أن الفتيات تتعلم الدين الحنيف وتتخصص فيه ، فان كثيرا من النساء البارزات فى صدر الاسلام تخصص فى الدين ، وصرن فقيهات ، أخذ عنهن الفقه ، ورواية الحديث ، ويضرب المثل فى ذلك بالسيدة عائشة ، وغيرها من أمهات المؤمنين ، والسيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، والسيدة أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وأم عطية الصحابية ، وغيرهن من الصحابيات

ولا نجمت عما يكون من اجتماعهن فى معهد خاص بتعليم الدين فى وقت انصرفن فيه الى التعليم المدنى ، وتحضرت فيه نساء الدولة ، ونشأن جاهلات مسائل الحلال والحرام ، اذ لا غرابة فى أن تتعلم الفتاة دينها فى معهد خاص ، فان انتظامها فى المدارس المدنية تتعلم وتتثقف فى علوم الدنيا ، قريب الصلة بانتظامها فى معهد خاص تتعلم فيه وتتثقف فى علوم الدين ، ولكن يظهر أن الغرابة نجمت عن : كيف تتعلم الفتاة على نحو ما يتعلم الطالب الازهرى من العلوم والمواد التى تدرس فى الجامع الازهر ، كالفقه وأصوله ، واللغة العربية ووسائلها ، والتوحيد والمنطق والفلسفة والعروض وقرض الشعر ، الى ما الى ذلك من بقية المواد ، وكيف يمكن أن تطبع الفتاة بطابع المعاهد ، وتنسجم فى تقاليدها وأزيائها ، وطبيعة حياتها فى معاهد الدين كالطالب الازهرى القح ؟ ثم تكون مؤهلة للتدريس فى الازهر ، والوظائف الدينية فى الدولة

هذا هو على ما نظن منطق الغرابة عند بعض الناس الذين لم يستمعوا لرأى كبار المسئولين فى الازهر فى تعليم الفتاة ، فلو انهم استمعوا لرأيهم فى ذلك لزالت الغرابة من نفوسهم قليلا ، فقد يرى أولئك المسئولون أن الفتاة لا ينبغى أن تتعلم برامج الازهر بحذافيرها ، بل تتعلم مسائل العبادات والعقائد ، والاحوال الشخصية والميراث ، وتتعلم من العلوم العربية ما يكفل لها الثقافة العامة ، وتتعلم بجانب ذلك بعض الفنون الجميلة والاخلاق والتربية، وما يعد المرأة للحياة البيتية كاملة ، وذلك لبناء أسر اسلامية مزخورة بالحياة الروحية السعيدة فى مستقبل الزمان ، فتنشأ الانسال نشأة صحيحة ، وتتكون الجماعات الاسلامية تكوينا صحيحا ، وتقوم التربية الدينية مقام التربية المدنية الزائفة

التى كانت وتكون سببا فى هذا الانحلال والفشل فى الاسرة والقومية والجماعة

انما تبنى الاجيال على الأسر ، فاذا صلحت الأسر صلحت الاجيال ، فانها الاساس فى البنية ، ولا تصلح الأسر الا بتهذيب الفتاة وتثقيفها ثقافة دينية اسلامية

اذا عرف الناس رأى كبار المسئولين فى الازهر ازاء اسلوب الدراسة فى المعهد الخاص للفتاة ، زالت عنهم بعض الغرابة كما قلنا

وبعد ذلك نتساءل ، هل اذا قدر للمعهد النسوى الملحق بالازهر أن يدرس على النحو الذى شرحناه ، هل يؤتى ثمره وجناه الذى يتمناه له الدينيون فى البلد ، وكبار المسئولين فى الازهر ، فتصلح الأسرة ، ويصلح الجيل ؟

ان كاتب هذا المقال أول من فكر وبحث مسألة الفتاة وتعليمها فى الازهر ، وكان البحث فى مجلات الهلال ، ولم يأخذ البحث طريقه الجدى الذى يحتكم فيه الى العقل والمنطق ، بل كان أشبه بحديث فكاهى عابر ، وكنت أحبذ فى ذلك الحين تعليم المرأة فى المعاهد الدينية ، ووجهت رأيى على النحو الذى شرحته آنفا

ان تعليم المرأة أمر دينها واجب محتوم ، والعلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، واذا كان تعليمها أمر دينها واجبا فيما مضى ، فان تعليمها فى هذا الزمان أوجب ، فان الحالة التى صارت اليها المرأة فى زماننا من الانحلال الخلقى الذى يتعارض مع أبسط قواعد الدين ، وشعارات الاخلاق ، لما يزيد الوجوب تأكيدا وتحتيما

جهلت المرأة دينها من عبادات وعقائد وأخلاق ، أهملت واجبها كزوجة وأم وربة منزل ، تأثرت بعادات المرأة الغربية من ناحية السفور المطلق ، ومخالطة الاجانب ، ومراقصة الرجال فى الحفلات العامة ، وعاقرت الخمور ، ولعبت القمار ، ونبذت تقاليد الأسرة

المرأة المصرية اليوم تعانى أشد أزمة فى حياتها الخلقية ، وأصبحت كالقصبة المرضوضة فلم تعد صالحة للحياة الأسرية التى يبنى على أساسها الجيل ، وبذلك انهارت أشرف التقاليد وأسمى الغايات للحياة السعيدة عندنا

واجب اذن تعليم المرأة أمر دينها والتفقه فيه ، وأن تهذب وتثقف تثقيفا اجتماعيا خلقيا لتأدية رسالتها فى الوجود ، ولكن أين تتعلم ؟ أفى الازهر كما يرى بعض المسئولين فيه ؟ وعلى برنامج خاص غير برنامج طلبة المعاهد ؟

الجواب : ان التعليم فى الازهر غير مجد ولا مثمر على اعتبار أن الفتاة المتعلمة ستكون نموذجا صحيحا للمرأة المسلمة المرجاة ، وان الازهر اذا أقدم على هذا الصنيع فسيفشل فشلا ذريعا ، ان تعاليم الازهر بحالتها الراهنة ــ وان نجحت فى بعض خريجيه من العلماء ــ لا تستطيع أن تكون فتاة الاحلام على نص ما يرجوه الدين لابنائه من استقامة الحال ، وتأدية الرسالة للمجتمع

ان للبيئة والوراثة والاهداف تأثيرا قويا فى اتجاه التعليم والتربية والاخلاق ، وهى

كلها مجتمعة مضافا اليها التيارات الفكرية المتضادة فى الازهر ، وحركة التطور الحديث التى ملأت عقول شبابه ، والتى لم تستقر فيه الى الآن على حال ، ولا الى هدف معين ، كل ذلك لا يبشر أبدا بنجاح تعليم المرأة فى الازهر

تعليم الفتاة أمر دينها ميئوس منه فى وزارة المعارف على نحو ما نرى من الاسراف فى تجاهل وظيفتها وطبيعتها وأنوثتها ورسالتها ، والزج بها فى ميادين ليست لها ، وذبذبة البرامج الخاصة بها ، وميئوس منه كما قلنا فى البيئة الازهرية ، وألمح أنه فى المستقبل القريب تهدأ بلبلة الافكار فى المعاهد ، وتستقر الحالة العلمية عندنا ، فيستطيع الازهر حينذاك ان يضطلع بهذه المهمة المرموقة

اذن ماذا يتبع الآن فى تعليم الفتاة أمر دينها، وتوجيهها فى الحياة توجيها صحيحا يتفق ووظيفتها ومقوماتها ومشخصاتها ، وجعلها عنصرا حيويا ، وعاملا قويا لنهضتها ونهضة الامة من ورائها ؟

لم تسألنا مجلة الهلال عن ذلك ، ولكنا نستطرد القول فيه من عندنا استطرادا

نستطيع أن ندلى برأى ، ولا نزعم انه الرأى الذى لا رأى سواه ، فربما يبرز رأى أقرب منه الى الخير والصواب ، نرى أن تكون لجنة من رجال العلم والتربية المعروفين بالتدين ، وبالخبرة بالتعليم الدينى والفنى ، ويناط بهذه اللجنة انشاء معهد خاص ومنهاج خاص بتعليم الفتاة أصول الدين وقواعد الاخلاق ، ويشتمل ذلك المنهاج على المواد اللازمة لرياض الاطفال ، والتعليم الابتدائى ، والثانوى والعالى بشرط أن تكون مراحل التعليم فى أقسامه داخلية وبالمجان لكثر روادها ، والجوازات التى تمنحها الطالبات لا تخول لهن التوظف ، أو كسب حق من الحقوق ، الا أن تكن مدرسات فى ذلك المعهد، ويحاط ذلك المعهد بضمانات الصيانة الكاملة ، وأن تعمل الحكومة من جانبها على تطهير البلاد من الفساد الخلقى بسن القوانين واللوائح الملائمة لحالة البلاد ، وتعمل وزارة المعارف مخلصة على شيوع القدوة الحسنة ، والاخلاق الرشيدة فىمدارس البنات ، وذلك كله لتمكين الفتاة المتخرجة فى المعهد الدينى الخاص من تأدية رسالتها كاملة ، فى بيئة صالحة ، وجو مشبع بروح الفضيلة

وهذا الرأى نسوقه مجملا ، ولم نر أن نعرض لشرحه وتفصيل القول فيه ، فان شرحه لا تسعه هذه العجالة العابرة ، ولكنه على أية حال يعبر عن الغرض الذى نهدف اليه

محمود ابو العيون

ــ قد يفلت المرء من ثعبان ، ولكنه لن ينجو من النميمة والغيبة

ــ اياك أن تبصق فى بئر من الآبار ، فقد يأتي يوم تضطر فيه الى الشرب من مائه

صورتان لأبى العلاء

بقلم السيدة بنت الشاطىء

« الى الذى فتح أعيننا على الصورة الثانية »

احدى هاتين الصورتين معروفة ذائعة فى الناس ، يرون فيها أبا العلاء زاهدا فى الدنيا منصرفا عنها ، كارها لها ساخطا عليها . يجد الحياة كلها تعبا ، والوجود شرا ، والنسل جريمة وأذى ، ويود لو أبرأه الموت من جراح الحياة

وما بنا اليوم أن نطيل فى وصف هذه الصورة أو نتحدث عن تشاؤم أبى العلاء ونرده الى دواعيه من حياته الخاصة ، والحياة العامة فى زمانه ومكانه . فهى صورة قد شاعت فى الناس ـ خاصتهم وعامتهم ـ حتى أصبحت ألفاظ الزهد والسخط والتشاؤم ، تتداعى فى أذهانهم حينما يذكر أبو العلاء ، فكأنه رمز لها وعلم عليها

وآثار أبى العلاء التى انتهت الينا ، حافلة بشكواه المرة من الدنيا ، وهى تسجل سخطه المؤلم عليها ، والحاحه المثير فى الحث على كراهتها والانصراف عنها

فلندع هذه الصورة التى تلائم رأى الناس فى أبى العلاء وفكرتهم عنه ، ولنعرض عليك صورة أخرى لأبى العلاء

هذه الصورة الثانية تبدو غريبة غير مألوفة ، لانها تظهر لنا الرجل محبا للدنيا متشبثا بها ، يئن من هول ما يكابد من الرغبة فيها ، والعجز عن البرء من هواها والسلو عنها ، ويتوجع مما يقاسيه من ظمأ ، وما ابتلى به من حرمان

صورة غريبة ، تبدو شاذة مع ما اشتهر به الرجل من مقت الدنيا ، وزهده فيها ، وانصرافه عنها . لكنها ـ على غرابتها ـ صادقة أمينة ، وقد خفيت على الناس دهرا طويلا لانهم خدعوا بوهم مكذوب ، هو زهد أبى العلاء فى الدنيا ، وانتصاره عليها

فلنرجع بعيدا الى وراء ، ولنرحل عبر القرون لنصحب أبا العلاء وهو يخرج الى المعركة مناضلا ، ثم يأوى الى عزلته متعبا . ولنصغ الى أقواله لنعرف منه قصة ذلك الانتصار الموهوم على الدنيا ، والزهد المزعوم فى نعيمها وملذاتها

تبدأ المعركة بينه وبين الدنيا فى صدر شبابه ، اذ نراه ـ على ما يروى المؤرخون ـ « يجالس الظرفاء ، ويتصرف فى فنون الهزل والجد ، ويلعب النرد والشطرنج ، ويستخف

بمحنته فيحمد الله على العمى كما يحمده غيره على البصر »

في ذلك الحين ، نسمعه يصيح مفاخرا :

وقد سار ذكرى في البلاد فمن لهم ... باخفاء شمس ضوؤها متكامل

يهم الليالى بعض ما أنا مضمر ... ويثقل رضوى دون ما أنا حامل

وانى وان كنت الأخير زمانه ... لآت بما لم يستطعه الأوائل

ينافس يومي في أمسى تشرفا ... وتحسد أسحارى على الأصائل

وطال اعترافي بالزمان وصرفه ... فلست أبالى من تغول الغوائل

فلو بان عضدى ما تأسف منكبى ... ولو مات زندى ما بكته الأنامل

سقط الزند - ١/١٠٩

هذا هو حديث النفس المناضلة عن حقها في الحياة ، ومكانها من الوجود ، وهذا هو صوت الفتى الواثق بنفسه ، يعلن عن امتيازه وتفوقه ، ويتحدى الدنيا ، ويستخف بكل نوائبها

ولقد خرج أبو العلاء الى بغداد عندما بلغ مبلغ الرجال . وكثرت الأقوال في تعليل رحلته ، ذكر القفطى والذهبي أنه « سافر اليها متظلما ، شاكيا تعرض صاحب حلب ، لما في يده من الوقف الضئيل » (١) - ولم يخبرنا أبو العلاء بشيء عن ذاك . ورأى « مرجليوث » أنه رحل « يجرب حظه في العاصمة » (٢) - وهو قريب من رأى دائرة المعارف الاسلامية حين لم تستبعد « أن يكون في شبابه قد شعر بقيود الحياة الريفية ، ونزع الى ميدان أوسع ، تظهر فيه مواهبه » (٣)

وقال الدكتور طه حسين بك انه « يعتقد أن حب العلم وطلب الشهرة وسعة العيش ، وبغض الحياة السياسية بحلب ، هي التي كونت في نفس أبي العلاء ، عزمه على الرحلة » (٤)

ولسنا نعرف أن الحياة السياسية في بغداد كانت أقل منها في حلب شرا ونكرا ، وأما هذه الثروة التي راح يطلبها في بغداد ، فأبو العلاء نفسه قد ألح في انكار ذلك ، وأقسم (٥) - في رسالته الى أهل المعرة - « أنه ما سافر يستكثر من النشب » - وأكد لهم ولخاله أبي القاسم ، أن أهل بغداد عرضوا عليه أموالهم عرض الجد ، لكي يمسكوه اليها ، فأبى وألح في الاباء (٦)

أما قول أبي العلاء :

أثارني عنكم أمران : والدة ... لم ألقها ، وثراء عاد مسفوتا

فهذا ظاهر العذر - على تعبير الفقهاء - والا لعاد الى بغداد حين ماتت أمه ، ولأمسكته

---

(١) ترجمة الذهبي في ذيل رسائل أبي العلاء ط اكسفورد ص ١٢٩ (٢) مرجليوث : رسائل أبي العلاء ص ٢٩ (٣) دائرة المعارف الاسلامية : مادة « أبو العلاء » (٤) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ١٢٨ (٥) رسائل أبي العلاء : الرسالة الثامنة ص ٣٤ (٦) المصدر نفسه : الرسالة الثامنة ص ٣٥

اليها تلك الاموال التى عرضها عليه أهل بغداد عرض الجد فيما يقول

وعندنا أن أبا العلاء قد خرج الى بغداد ، يؤيد نضاله مع الدنيا ، وانتصاره المرجو عليها . هذا النضال الذى بدأه فى شبيبته ، وسمعناه فيه يستخف بمحنته ، ويفاخر بتفوقه وامتيازه . خرج يعلن الناس والدنيا بذكائه ، ويفرض نفسه عليهم وعليها

واذكر هنا ما رواه ياقوت عن قصة الكلب ، قال « ان أبا العلاء دخل على الشريف المرتضى وهو ببغداد ، فعثر برجل فقال : من هذا الكلب ؟ فقال (أبو العلاء) : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما » (١)

أورد ياقوت تلك القصة فى معرض الحديث عن ذكائه ، وكذلك فعل السيوطى ، وتيمور باشا . لكنى أقف عندها طويلا فألمح وراءها معنى بعيدا غير العلم والذكاء .. انها تكشف عن عزم أبى العلاء على النضال ، وتعلن عن تحديه للدنيا والناس، واصراره على أن يفرض نفسه عليها وعليهم ، وكأنه يقول : « لقد امتحنتنى الدنيا لكنها لم تهزمنى! أفسحوا لى مكانا فى الصدر ، فان محنتى لا تحول دون تفوقى . من شاء فليتقدم لمنافرتى، والكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما ! »

لمثل هذا خرج أبو العلاء الى بغداد ، فماذا لقى فيها ؟

تصدت له الدنيا ساخرة بما اصطنع من جلد ، وتكلف من شجاعة واستخفاف . وساقت اليه ما زهده فى النضال وكفه عنه . ونذكر هنا ما رواه المؤرخون ، عند ما أخرج من مجلس الشريف المرتضى ذليلا مهانا(٢) ، ونذكر قصته مع أبى الحسن الربعى النحوى، اذ استأذن عليه فقال : ليصعد الاصطبل (الاعمى) (٣)

هنا أحس الرجل أن مكانه ـ فى دنيا الناس ـ قلق غير مطمئن ، وقد أجمع أمره على العزلة ، وعقد نيته على العودة الى دنياه ، دون أن يحدد متى وكيف ، فجاء خبر من المعرة أن أمه مريضة ، فكان ذلك ايذانا بموعد الرحيل

وانتهت الرحلة ، وآب المتعب الى بيته ، فاذا الظلام يكتنفه ، وقد غابت عنه الابتسامة الوحيدة التى أشرقت فى أساه ، وخبا شعاع العزاء الذى كان يضىء بعض ظلام حياته هنالك انسحب الرجل من المعركة ، « وانطوى على يأس ومجانبة للناس » (٤)

والآن وقد نفض يديه من غبار المعركة ، هل استراح فى عزلته وهدأ الى احدى الراحتين ؟!

هل فرغ من الدنيا وانصرف عنها ؟

قال ناس : أجل ، لقد انتصر على الدنيا ، وداسها بقدميه . تجهمت له فسخر بها

---

(١) ياقوت : معجم الادباء ١/١٦٩ (٢) المصدر نفسه ١/١٧٠ ـ ابن العماد : شذرات الذهب ١/١٨٣ (٣) المصدر نفسه ١/١٦٩ (٤) مرجليوث : رسائل أبى العلاء . الرسالة التاسعة ص ٣٥

وأعرض عنها ، وعاف ملذاتها جميعا ، وملأ قلبه عنها بالعزاء النافع والصبر الجميل (١)

ولسنا ندرى متى كان ذلك وكيف كان ؟! الا انه لوهم مكذوب خدع به الناس ، وخدع به الرجل نفسه حينا ما فكتب الى خاله يقول: ان أهل بغداد حين سمعوا بعزمه على السفر ارتاعوا له ، وألحوا فى نهيه عنه ، وبذلوا له الاموال ، ورغبوه فى ألوان النعمة ، فأبى ذلك كله ، وكأن نفسه انصرفت عن الدنيا أتم انصراف !

والواقع أن أبا العلاء لم يفلح فى الانصراف عنها ، ولم يقو على ازدرائها ، ولم يذق من لذاتها شيئا . حتى لذة الصبر عنها عصيت عليه

لم ينتصر الا على ملذاتها التافهة ! زهد فى بعض الطعام والشراب ، وصحبة الناس ، لكن زهده لم يكن الا اعترافا مرا رهيبا بتفاهة هذه الملذات ، الى جانب ما كان يرجو ويطمع

كان يرجو أن يحشد له كل نعيم الحياة ، وملذاتها ، فأعجزه قصور مادته ، وخذله ضعف كيانه ، وبقيت له بعض ملذات مادية ضئيلة ، عرضتها عليه الدنيا فى اشفاق كما يعرض المحسن قرشا على فقير !..

فكر فى الامر طويلا ، ثم انتهى الى الرفض والتعفف ! لقد أراد لنفسه أمرا ، وأراد له القضاء أمرا فكان ما أراد القضاء ! فماذا يفعل ؟ هل يأبق من ملك ربه فيخرج من أرض له وسماء ؟ ليته يستطيع !

وعاد الى نفسه يقاوم ما فيها من حب الحياة ، ويجاهد فى رياضتها على الصبر والاستسلام فما استطاع ، وهو يصور لنا ذلك الصراع المزدوج : صراعه مع الدنيا ، ومع نفسه ، ويصور فشله تصويرا رهيبا يثير الحزن والألم . كتب الى خاله عند خروجه من العراق :

« .. ولما فاتنى المقام بحيث اخترت ، أجمعت أمرى على انفراد »

وكتب الى أهل المعرة :

« فشاهدت (فى بغداد) أنفس مكان لم يسعفه الزمن باقامتى فيه ، والجاهل مغالب القدر .. »

وقال فى اللزوميات :

تنازعنى الى الشهوات نفسى	فلا أنا منجح أبدا ولا هى
أريد لبان العيش فى دار شقوة	وتأبى الليالى غير بخل وليان
وما جبل الريان عندى بطائل	ولا أنا من خود الحسان بريان
أريد الاناخة فى منزل	وقد حديت لسواه جمالى !
فمن مخبرى أغريق البحا	ر ألقى الردى ، أم دفين الرمال ؟

(١) انظر « تجديد ذكرى أبى العلاء » للدكتور طه حسين بك ص ١٦٨ ، وانظر « أبو العلاء وما اليه » للميمنى ص ١٧٤

أمالى فيما أرى راحة — مدى الدهر من هذيان الامالى؟
أجامل الناس ولو أننى — كشفت ما فى السر أحزانى!
لم أدر ما نجمى ولكنه — فى النحس مذ كان، جرى واستقام!

وقال فى الفصول والغايات :

« ما أضيق على دنياى ! وأنت (يا رب) المفزع اذا بطل كل احتيال — ٥٣
« أضحك فلا ضحكت ، وأنا بالبكاء حقيق مما كان ويكون ..
« انما أنا كرجل بلى بالصدى ، لا يجد أبدا موردا ، فهو ظمآن أبدا — ٣١٦
« لا أعتدل أبدا ولا أستقيم ! مغبون فى الدنيا غبين — ٢٧٠
« أى صديق لى وأى نسيب ؟ انى فى الوطن لغريب — ٣٦٦
« أرتفع والقدر يكبنى .. كم أستنسر وأنا من البغاث — ٢١٦
« وان الله خلقنى لامر حاولت سواه ، فألفيت المبهم بغير انفراج — ٢٣١
« قد فررت من قدر الله فاذا هو أخو الحياة ! هل أطأ على غير الارض ، أو أبرز من تحت السماء ؟ — ٢٥١

وهل يأبق الانسان من ملك ربه — فيخرج من أرض له وسماء ؟

أهذا حديث من استخف بمحنته ، وارتاح الى اليأس ؟ أهذا صوت من انصرف عن الدنيا ، وملأ قلبه عن لذاتها بالصبر النافع والعزاء الجميل ؟

ألا انه لوهم تشبث به الرجل ، وأمل طاف به فى أحلام اليقظة ورؤى المنام ، فتمثله حقا واقعا ..

ولكن الحقيقة الرهيبة تعرت له ، فاذا الوهم مكذوب ، واذا الأمل سراب !

لم يسل الرجل عن الدنيا ، ولم يبرأ من هواها ، ولم ينتصر عليها أبدا ، بل خرج من المعركة وان قلبه لينوء بحب الدنيا والحنين اليها ، وان كيانه ليرزح تحت عنف هواها!

أحبها بقدر ما كرهها ، وكان قصوره يزيد حبه ضراما ، وكانت وطأة الحرمان تزيد حنينه اليها عنفا وسعيرا !

عرفها : غادرة ، خادعة ، قاسية
ولكنه برغم ذلك أحبها !

أحبها وان كرهها .. وفتن بها وان تكلف الصد عنها ، واشتهاها وان زهد فيما أباحت له من تافه الملذات . ولقد صاح بها أنه يمقتها ، ويكرهها ، ويزدريها ، لكنه مع ذلك ظل يهواها !

أتظن ذلك حديث خيال وصنعة كلام ؟ اذن فاسمع الرجل يحدث عن حبه للدنيا ، وبثن مما يكابد من هواها

قال في سقط الزند :

وجدنا أذى الدنيا لذيذا كأنما جنى النحل أصناف الشقاء الذي تجني

وأملى في رسالته الى أبي نصر بن يوسف ، حين استدعاه الى حضرة عزيز الدولة :
« وان العامة رأتني مضطرا الى القناعة ، فقالت زاهد ، وأنا في حب الدنيا جاهد ! »

وقال في اللزوميات :

نحن البرية أمسى كلنا دنفا بحب دنياه ، حبا فوق ما يجب!
وكلكم يبدي لدنياه بغضة على أنه يخفي بها كمد الصب
لو أن عشقك للدنيا له شبح صورته ، لملأت السهل والجبلا
أشربت حبك لاينفيه عن جسدي سوى ثرى لدماء الانس شراب
وصدقت هذا العيش في حبي له واغترني بخداعه وكذابه
عذب يعذبني البقاء وللردى يوم يخلص من فنون عذابه
شقينا بدنيانا على طول ودها فدونك مارسها حياتك واشتقها
ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بأن القلب يضمر عشقها

وقال في الفصول والغايات :

« ونفوسنا بالحياة شحاح ! ٣٤٣
« أيتها الدنيا البالية ، ما أحسن ما حلتك الحالية ، والنفس عنك غير سالية ١٤٩
« بي طب فأين أستطب ؟ أنا تحت حب الدنيا محب (بارك) أثقلني فأنا مكب ٤٤
« قلتني دنياي فما قليتها ، قد كرهت المنية وأبيتها ٢٣٣
« زويت عني الدنيا فأسفت ، وأشفقت لذلك وخفت ٣٤٨
« .. (مولاي) لا أكتمك ما أنت به عليم ، اني أشفق على الدنيا الطويل ! ٣٦٦
« أحب الدنيا وآلتها ليست في ، وقد يئست من بلوغها واليأس مريح ، فلام التشوف والضلال ؟ » ٣٥٨

هذا أنين النفس المحرومة ، وتأوه القلب المكروب ! هذه شكاة الرجل الذي أحب الدنيا ، ثم تكلف الصدود عنها ، وجرى في وهمه أنه استطاع :

أيها الدنيا لحاك الله من ربة دل
ما تسلى خلدي عنك وان ظن التسلي

هذه هي الصورة الثانية لأبي العلاء ، نرى من الوفاء له أن نعرضها اليوم في محفل ذكراه ، ابلاغا لصوته ، ونفيا لما أضيف اليه من انتصار مزعوم على الدنيا ، وانصراف تام عنها ، وزهد فيها

ورحم الله أبا العلاء : لقد ضاق – منذ عشرة قرون – بما يدعيه القوم عن زهده فى الدنيا وازدرائه لملذاتها ، فصاح فى مرارة مؤثرة :

طال صبرى ، فقيل أكثم شبعا ن وانى لمنطو طيـــان

▭

وقال الفارسون حليف زهد وأخطأت الظنون بما فرسنه
ورضت صعاب آمالى فكانت خيولا فى مراتعها شمسنه
ولم أعـرض عن اللذات الا لأن خيارها عنى خنسنـه

▭

وبعد فهل لمكثرى الحديث عن زهد أبى العلاء ، أن يقدروا انسانية الرجل – وقد كان أكثر الناس تنبها لها ، وصدقا فى وصفها ، وصراحة فى الحديث عنها – فلا يبرئوه من حبه للدنيا ورغبته فيها وتألمه للقصور عن ادراكها ؟ هل لهم أن يعيدوا النظر فى أحاديثهم عنه ، على ضوء أقواله الصريحة التى لم يلتفتوا لها ، وشكواه الموجعة التى لم يصغوا اليها ؟! أرجو وآمل ..

شوشاى

بنت الشاطىء

الذكاء والعمر

يعتقد كثيرون أن الأذكياء لا يعمرون طويلا ، وان الطبيعة فى الغالب تتقاضى ممن ميزتهم على غيرهم ، وحبتهم بالتفوق ، ووهبتهم خير الأذهان اتقادا ولوذعية ، أجرا كبيرا باهظا

ويستند هذا الرأى الى أن عددا من العباقرة ، الذين اشتهروا بمواهبهم الفذة وذكائهم الخارق ، قضوا نحبهم وهم لا يزالون فى ريعان الشباب وميعة الصبا . فبين الموسيقيين الذائعى الصيت ، نلاحظ أن « شوبن » مات وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره ، و « شوبرت » وهو فى الواحـدة والثلاثين ، و « موزارت » فى الخامسة والثلاثين ، و « مندلسون » فى الثامنة والثلاثين . ولكن ذلك لا ينهض دليلا على صحة هذا الرأى ، فقد أثبت علماء الاجتماع أخيرا أنه لا علاقة بين درجة الذكاء وطول العمر . ففى دراسة لاعمار خمسمائة من مشاهير الموسيقيين، تبين أن متوسط أعمارهم ٦٢ سنة ونصف سنة ، كما تبين أن متوسط أعمار ٤٣٦ من كبار الفلاسفة ٦٧ سنة، وبين الشعراء المبدعين البارزين فى أوربا وأمريكا ، لوحظ ان متوسط أعمار ٦٥٣ منهم ٦١ سنة وسبعة أشهر . وهكذا فى مختلف ميادين العلوم والفنون ، نشاهد أن الكثيرين من البارزين منهم استمتعوا بحياة طويلة ، واذن فلا أساس للزعم القائل بأن الاطفال النجباء لا يظلون طويلا على قيد الحياة بالنسبة لغيرهم

ملخصة عن مجلة « المدرسة والمجتمع »

بين العامية والفصحى

بقلم الدكتور احمد زكى بك

اللغة ألفاظ ، ومعان تضمنتها تعابير صبت ألفاظها فى القالب الواحد ، فتحركت فى اللغة كاللفظ الواحد ، ثم نحو وصرف . وسأقصر قولى فى هذه الكلمة على الالفاظ وحدها. ففى اللفظ يريدنا الفقهاء والمناصروهم ، على أن لا يكون من الفصحى الا ما حوته القواميس ، أو ثبت بالتحقيق الدقيق أنه جاء فى كلام العرب ، والعرب القح الأولين ، حتى لقد يحتج المحتج للفظ ببيت لمتأخر فيقول قائلهم هذا مولد ، ثم يقبل الحجة ان قبلها تسامحا وهو كاره . ويذهبون الى الحجاج للفظ وعليه بالمقال تلو المقال ، وبالسند ضد السند ، حتى تحسب أن هذا الخصام فى مادة من مواد الدستور ، أو قاعدة من قواعد الوجود . وان شئت مثلا لهذا فارجع الى ما قيل حديثا فى لفظة « عبر » حين تقول عبر المحيط . أهى عربية ؟ وهل وردت فى كلام العرب ؟ وهل يصح أن يكون المصدر ظرفا للمكان ؟ أم هى منصوبة على الحال ؟ وكتبت فى هذه عدة مقالات أكلت كثيرا من وقت الجمهور . وأخيرا يهتدى المهتدى الى الشاهد الذى يبرىء الجرائد والكتاب من هذه الوصمة الكبرى ، ويجىء بالبيت الآتى لسواد بن قارب ، وهو من العرب الصريحين :

فشمرت عن ذيلى الازار وأرقلت   بى الدعلب الوجناء عبر السباسب

فيكون هذا البيت مثار نقاش جديد ، وعراك جديد

هذا واللفظ عربى أسىء استخدامه ، أو زعموا أن استخدامه أسىء . أما ان كان اللفظ عاميا صريحا فهو لفظ منبوذ لا تقربه أيدى البراهمة من الكتاب ، فان هم احتاجوا اليه اضطرارا ، لان الفصحى لا تسعفهم بمثل معناه ، فتحوا له على الورق قوسا ، ثم أخذوا اللفظ بأطراف أناملهم واسقطوه على الورق فى عجلة اسقاطا حتى لا يطول مسه للبنان الطاهر ، ثم هم عجلوا فأغلقوا عليه بقوس آخر خشية أن تفوح رائحته الكريهة ، فتعبث بالأنفاس العطرة التى تنبعث فيما حوله من كلم فصيح ارستقراطى مختار . وأى لفظ هذا الذى يحبسونه وراء الاغلاق ؟ هو اللفظ الذى يخرج من فم الملك الفخم وهو على سرير ملكه ، ومن فم الاستاذ الضخم اذا جلس الى منصة درسه ، وهو الذى يتنقل على أرض مصر ، ليل نهار ، من مليون لسان الى ملايين الآذان ، فلا يعوقه فى تنقله فقر البيئة أو غناها ، ولا علمها أو جهلها ، فيسمع فى الكوخ ، ويسمع فى القصر ، ويسمع فى المصنع ويسمع فى الحقل ، ويسمع فى السوق ويسمع فى المكتب ، ويسمع فى المقهى وفى الملهى ، ويخرج كالرعد من حناجر كالنواعير ، يتلمس مخرجه عنيفا من بين

أشداق صفاق ، وشوارب كاللحى ، ويخرج كالنغم الحلو الشهى من حناجر رقيقة كأوتار المثانى ، يتلمس مخرجه هينا لينا من بين ثنايا كالاقحوان ، وشفاه دقاق كوريقات الورد وهو أحمر قان . هذا هو اللفظ المنبوذ الذى يضعه المتزمتون بين قوسين ـ له ملكوت مصر وسماؤها وأرضها والسبعة الطباق ، ثم لا يؤذن له بمساحة كالاصبع على صفحات الاوراق ، الا أن يصحبه حارس عن يمينه وحارس عن شماله

ان من الناس من هم سواقط قيد ، وكذلك السواد الاعظم من هذه الالفاظ سواقط قيد . وليس من أجل سقوط القيد يحكم على اللفظ بفساد أصله وخبث سلالته . فلا بد لنا اذا نحن تشبثنا بأرستقراطية الاصول ، ألا نتهم لفظا بعجمة الا اذا ثبتت عجمته . ان التاريخ يستقى من مصدرين ، السجلات المكتوبة ثم التواتر . واللغة كالتاريخ ، سجلاتها القواميس وتواترها على ألسنة الخلق . ومن هذه الألسنة ألسنة المصريين فهى عربية فى الصميم ، فيجب أن يكون لها اعتبار عند الاسناد لا يقل عن سند المراجع . فكل ما نطق به اللسان المصرى ، واللسان السورى والعراقى والنجدى الى ما هنالك من سائر الامم التى لا نزاع فى عربيتها ، لا بد أن نعتبره عربيا حتى يقوم الدليل على أنه غير ذلك. وسوف لا يعوزنا الدليل السريع على عجمة الكثير ، وكفى بالجرس هاديا . فاذا ساغ اللفظ جرسا ، وطاوع نحوا وصرفا ، أجزناه ولو على خشية أن يكون دخيلا ، كما أجزنا لكثير من دخلاء مصر أن يكونوا مصريين ، لما غلبتهم البيئة والزمن الطويل فمحا منهم فوارق الغرباء فصاروا مصريين قلبا وقالبا

ان الرأى الذى يجرى عليه الحنابلة من اللغويين فى تعرف عربية الكلمات رأى لا يمكن قبوله ، لانه يفرض أن كل لفظ غير عربى حتى تثبت عربيته، وتثبت من المكتوب الذى انحدر الينا بالتواتر من القديم . وهم بعد ذلك يربطوننا لا بثبوت وجود الكلمة فى هذا المكتوب فحسب ، بل يربطوننا فيما قيده هذا المكتوب من معان ومن مشتقات . فاذا جرت الألسنة الحاضرة بغير هذه المعانى أبوها على الكتاب ، لان هذا المعنى لم يرد فى القواميس ، ولو ورد لفظه ، واذا جرت الألسنة بغير هذه المشتقات أبوها على الكتاب لان هذا المشتق سماعى ، وهو لم يسمع فى كلام العرب ، ولستم بالعرب أيها الكتاب

جرى الحديث فى مجلس قريب عن لفظة « النطع » بفتح النون ، وجمعه أنطاع ، ذكرته مثلا لما أقول . وسألت هل هو عربى بالمعنى الذى يستخدمه المصريون . فنقلوا الى الحجرة اللسان والمحيط ومحيط المحيط ، وبعد الفحص تبين أن اللفظ موجود ، وأنه ينطق على أوجه أربعة كلها صحيحة ! ولكن مع الاسف معناه البساط من الأديم، فالمعنى المصرى اذن عامى ، اذا استخدمه كاتب عربى له اعتبار وسمعة ، واستخدمه اضطرارا لاعوازه المرادف المكافىء ، وجب وضعه على الورق بين قوسين كالكفين تحليقا عليه وتحذيرا منه . ثم يذكر الذاكر ان النبى قال « هلك المتنطعون » ، وان القاموس قال فى التنطع انه التعمق فى الكلام والتأنق فيه والمغالاة . فهل تظن بعد هذا أن القوم الذى

أعنى استبانوا الحجة ، وقدروا أن هذا اللفظ لا بد عربى فى مبناه وبمعناه الذى يريده المصريون ، وأنه ان سقط من القواميس فلأنه من سواقط القيد ؟ لا ! فهل بعد هذا تنطع (بمعنى القاموس) وهل كهؤلاء أنطاع

ولفظ آخر جرى به ذاك الحديث اعتباطا : لفظ « بهدل » قالوا ننظره فى القاموس ، ولكنهم حكموا بعجمته يقينا قبل استطلاع القاموس . ومع هذا فلا يكاد ذوق عربى ينكر عربيته . والناس تقول بهدله ، سيبهدله ، وجاء متبهدلا ، واياك والبهدلة ، فكل هذه المشتقات كيف جرت على الألسنة الا أن تكون ارثا ضاعت حجته . وان لم تكن اللفظة عربية فمن أية لغة هى ؟ تركية ! فارسية ! طليانية ! رومية ! ولكن أين جرسها من جرس تلك اللغات ؟ ثم ما بال المشتقات ؟ وأخيرا جرى الشك فى العقول الحائرة فجىء بالقاموس ، فاذا به : بهدل الرجل غظمت ثندوته ، وليس به غير هذا . قلنا وما الثندوة رحمك الله ، فقلب الصحائف ثم قال : الثندوة ثدى الرجل . عندئذ اتسع مجال الخيال لربط قديم اللفظ بجديده ، فلما لانت العرائك ، ملت الى صديق محافظ فسألته : أفبعد هذا تجيز هذه اللفظة فيما تكتب ؟ قال لا . قلت أعندك أخت لها تقوم بالضبط مقامها ؟ ففكر طويلا ثم قال لا

والحق ان كل ما نطق به اللسان المصرى وانسجم مع العربى فهو عربى . بل أزيد فأقول حتى ما ثبت أنه أعجمى ثم استعرب وجب عده عربيا ، ووجب الاذن له بالتجوال حيث تجول الالفاظ العربية الصريحة فى المنثور والمنظوم

انك لتقرأ الرواية الافرنجية فتحس فيها بالحياة ، وبأنها تقص عن هذه الحياة ، وتقرأ الرواية العربية للكاتب المتفصح فتحس كأن اعرابيا خرج من القبر حيث ثوى القرون ، ثم جال ساعات فى كنف هذه المدنية الحاضرة ، ثم عاد الى قبره يصف ما رأى ، فما أفصح ولا أبان ، لان الفقه لم يركب الاشياء ، فكل شىء رآه على قدم كان عنده نعلا ، فالجزمة نعل ، والشبشب نعل ، والصندل نعل ، وكل شىء رآه على جسد كان عنده لباسا وكل شىء رآه على رأس فهو غطاء ، حتى القبعة لا يعرفها ، وكل شىء مستطيل يجلس عليه فى المنزل فهو أريكة ، وكل شىء يسير فى الشارع على عجل فهو عربة ، فالكرو عربة ، والحنطور عربة ، والترام عربة ، والسيارة عربة . وقس على هذا سائر الاشياء . من أجل هذا يعانى الكاتب كثيرا ، ويعانى القراء أكثر ، وتبتئس اللغة وتخمد بين هؤلاء وهؤلاء ، وتقوم مقامها فى الكتب وعلى المسارح عامية متسفلة لا ترضى ذوقا ولا تسعف بالمعانى اذا خرج الكاتب عن نطاق أهلها

انى لا أدعو الى العامية ، ولكنى أدعو الى توسيع الفصحى حتى تشمل أكثر ما فى العامية الحاضرة من سلالات عربية أختى عليها الزمان بضياع أنسابها

ولست مدفوعا الى هذا بدافع لغوى ، فلست من رجال اللغة ، ولكنى مدفوع بدافع اجتماعى وطنى ، فالعصر الحاضر عصر ديمقراطى . ومعنى هذا أن الناس جميعا تحكم .

ومعنى هذا أن الناس جميعا تتعلم . ولا تعليم الا بلغة . ومن غير الممكن رد العربية الفصحى كما يفهمها الغلاة الى الملايين من هذه الألسنة ، ألسنة الشعب . كل الذى نستطيع أن نفعله أن نقوم من هذه الألسنة المعوجة ما أمكننا التقويم ، وأن نذهب عنها بالساقط من اللفظ والمبتذل من التعبير، وما لا يستقيم مع طبيعة اللغة المكتوبة بعد توسيعها وتمطيطها حتى تشمل أكثر ما يجرى على ألسنة العامة ، ألسنة الخلق ، ألسنة الحق ، وهى تجرى بالخير الكثير . وينتج عن هذا أخيرا تقارب بين المنطوق والمكتوب ، وعندئذ تخلق لغة وسط ، لا ينكرها عربى ، ولا تكبر على عامى . وعندئذ تشيع فى الناس ألوف المؤلفات التى بدونها لا يتثقف شعب أبدا

ان هذه الالفاظ العربية التى سقط قيدها ، قد أسقطها المسجلون الاقدمون عمدا . أو هكذا أخال . فاللغة القديمة لا بد كانت لفظين ، لفظ مهذب مختار لا ينطق به الا فى حضرة الملوك ومجالس الولاة ومجامع الادب، وحيث تدور طبقة السادة من الارستقراطيين، ولفظ عادى عدوه مبتذلا ، يسمع عند كور الحداد وفرن الخباز وفى أسواق الباعة ، وحيث تدور الطبقة الدنيا من عامة الديمقراطيين . أما اللفظ الاول فهذا هو الذى سجلوه وسجلوه لأرستقراطيته . وأما اللفظ الثانى فأسقطوه ، واسقطوه لديمقراطيته وعاميته . وكان العصر عصر أرستقراطيات قليلة ضيقة مترفعة ، وعصر ديمقراطيات كثيرة واسعة متواضعة ، وكان الدين تراجع وتخلف والدنيا أقدمت وتصدرت ، وكان العلم فى هؤلاء دون هؤلاء . وكانت اللغة والأدب فى هؤلاء دون هؤلاء ، الا شذوذا لا يجرى بها قياس . وحتى هؤلاء الذين ارتفعوا من الطبقات الدنيا الى مراتب الادب العليا ، لم يلبثوا أن فرقوا بين أرستقراطية الأدب وديمقراطية العيش ، فعاشوا بأجسامهم عيش الفقراء، وعاشوا بأرواحهم وبكتوبهم ومنطوقهم كما أرادهم الولاة والامراء . أما اليوم ، فى هذا العصر الحاضر ، فالامور تجرى على غير ما جرت به فى تلك الازمان الخوالى . وسياسة الأمم ، ومنها سياستنا ، تميل وتعمل على رفع هذه الطبقات الدنيا ، وهى سواد الناس ، وعلى تثقيفها تثقيفا واحدا ، وتأديبها تأديبا واحدا ما أمكن هذا ، وتمديدها وتمطيطها حتى تملأ رحاب الارض ، فلا يكون لغيرها من الطبقات الا مساحات قليلة متناثرة

ورفع هذه الطبقات الدنيا يقتضى رفع لغاتهم أيضا ، فيما لا يمنع منه ذوق أو يحول دونه نظام . وبفك الحصار والاسار عن طبقات الشعب الوضيعة ، والاذن لها أن ترود من بساتين الارض ما تشاء ، وأن تقطف من زهرات العلم والأدب ما تهوى ، لا بد من فك الحصار والاسار أيضا عن تلك الالفاظ التى تنطق بها هذه الطبقات ما انسجمت مع طبيعة اللغة المكتوبة ، والاذن لها بأن تتقمص ما شاءت من مداد المحابر ، وترقد ما شاءت على سواد الاسطر بين مطوى الاوراق ، وكفاها تلك القرون تطريدا وتشريدا

احمد زكى

الميكروبات في خدمة الانسان

لوندل ويلكى المرشح الجمهورى السابق لرئاسة الولايات المتحدة ، والذى توفى فى غضون الشهر الماضى ، أخ أكبر يدعى « فرد » ، يعمل نائبا لرئيس احدى شركات انتاج الكحول الامريكية الكبرى . وقد أنشأ هذا العالم الفذ بمعاونة مستشاره الفنى الدكتور « بول كولاشاف » مزرعة كبيرة لمختلف أنواع الخمائر (١) . وهما يتكهنان على ضوء أبحاثهما العلمية بهذا الصدد ، بأن فلاح المستقبل لن يلقى شيئا من مخلفات محاصيله سواء كانت من الخضر أو الفاكهة أو الغلال . ولكنه سيرسلها الى مصانع التقطير حيث تحللها الخميرة الى كحول يرد اليه لاستخدامه كوقود لجراراته وآلاته الزراعية ، والى ثانى اكسيد كربون سيكون لازما لازدهار محاصيله لزوم المخصبات للتربة

وقد كان باستير أول من فكر فى الاستعانة بالميكروبات لخدمة الانسان ، ثم أخذت هذه الخدمات تطرد ويتسع نطاقها حتى أصبحت الميكروبات عنصرا جوهريا فى كثير من الصناعات ، ولا سيما صناعة الاغذية . وحتى البن والكاكاو والشاى الاسود يجب ان تعرض لفعل الميكروبات التخميرى ، قبل أن تعد للبيع فى الاسواق ، كما ان اعداد التبغ للتدخين يستلزم امتزاجه بها مدة تتراوح بين عام وثلاثة أعوام . هذا الى جانب الدور الهام الذى تلعبه فى صناعة المشروبات الروحية . فغدا حينما يعرف العالم جيدا كيف يسخر البلايين من هذه الكائنات الدقيقة ، سوف يتحول شر النفايات والاقذار والفضلات التى تبقى فى المنازل والمصانع والمتاجر والمزارع الى خير البشرية ونفعها

وعلى الرغم من أن حامض البتريك الذى كان يباع فى الاسواق الامريكية فى عام ١٩٢٢ ، وكان كله على وجه التقريب مستوردا من ايطاليا ، الا أن أمريكا لم تخش عجزا فى كميات الحامض التى تحتاج اليها فى ميادين الصناعة ، حينما انقطعت علاقتها مع ايطاليا ابان الحرب الحالية . ذلك لان فطر « الاسبرجلوس » كان قد طرد الليمون الايطالى من الاسواق

وقد كانت كل من بريطانيا وألمانيا أثناء الحرب الماضية فى حاجة ماسة الى المواد المتفجرة ، فلعدم توفر المواد الدهنية فى المانيا ، لم يكن لدى الالمان القدر الكافى من الجلسيرين لصناعة النيتروجليسرين . وبريطانيا من الجانب الآخر عجزت عن توفير مادة الاستون . فأنقذت الميكروبات الموقف فى كلا الحالين ، وأطالت عمر الحرب عامين كاملين . وكان العالم الفرنسى جبرائيل برتراند أول من سجل فى صحيفته العلمية منذ أكثر من

---

(١) الخميرة اسم يطلق على أنواع الفطر التى تعرف بالسكروميسيز Laccharomyces وهى تزكو فى المحاليل السكرية فتحلل السكر الى حمض كربونيك وكحول

نصف قرن أن نوعا معينا من البكتريا ساعد على انتاج سكر السوربوز النادر الوجود من أحد مشتقات السكر العادي . وبعد مضى أربعين عاما انزعج المعنيون بشؤون التغذية للحاجة الماسة الى فيتامين C اللازم لقيام الحياة ولا سيما للاطفال ، فتمكن الكيمائيون بفضل هذا الضرب من البكتريا الى تركيب عقار يحوى هذا الفيتامين أساسه سكر السوربوز

ولا يعنى ذلك أن كل ميكروب يستطيع أن يقوم بأداء أى عمل ، فثمة خمائر كثيرة وأنواع عديدة من البكتريا والفطر والبروتوزوا ولكل منها وظيفتها . وفى معامل جامعة جورجتون بأمريكا اليوم ثلاثة آلاف نوع منها ، بعضها ينتقى لتأدية وظائف معينة ، وبعضها يربى ويدرب على تأدية الوظائف المطلوبة . وقد كانت الخميرة فى نظر الخباز المصرى منذ ثلاثة آلاف عام خميرة فحسب ، ولكننا اليوم بفضل التهجين والتربية ، نملك منها أنواعا كثيرة ، فنحن نميز بين خميرة الخباز المعروفة بقدرتها على انتاج الغاز اللازم لتخمير الخبز ، وخميرة الاستقطار المستعملة فى الانتاج السريع للكحول ، وخميرة النبيذ المعروفة بنكهتها اللذيذة ، وخميرة الطعام ذات المذاق الشبيه بطعم اللحوم ، والتى لاتتميز بغناها فى البروتينات والفيتامينات والمواد المعدنية فحسب ، بل انها تعد أرخص ابدال اللحوم وأقلها ثمنا . ولعلنا لا نهتم كثيرا للتفكير فى ايجاد بديل لشرائح اللحم الشهية التى نتناولها ، ولكن لمثل هذه الخمائر قيمتها وضرورتها للطبقات الفقيرة التى تعيش فى بلاد لا تربى فيها الماشية ، والتى يندر أن تكون اللحوم بين صنوف الطعام التى يأكلونها لغلاء ثمنها . وليس بعجيب اذن أن يكون انتاج الالمان من هذه الخمائر فى أثناء الحرب الراهنة ١٠٠ ألف طن سنويا ، كما ظهر ذلك فى وثيقة ألمانية وقعت فى أيدى الحلفاء

ويرجى أن يتمكن العلماء بفضل الفطر الذى تطلق عليه اسم الخميرة من ابعاد شبح القحط والمجاعات ، التى كانت تهدد الانسانية بين حين وآخر . ولكن الامر لا يتوقف عند هذا الحد ، بل انه يؤمل أيضا أن تمكن هذه الخمائر الأطباء من استئصال شأفة السرطان ، ذلك المرض الوبيل المخوف . ففى عام ١٩٤١ أطعم طبيبان فى المستشفى التذكارى لمعالجة السرطان فى نيويورك عددا من الفيران كميات من مركب خاص ، أصيبت بسببها أكبادها بالسرطان فنفقت بعد حين . وحينما أعيدت التجربة على عدد آخر بعد اضافة ٣ ./. من الخميرة على نفس المقادير السابقة ، نجا ثلث العدد من المرض ولما زيدت النسبة الى ١٥ ./. لم تظهر عليها جميعا أعراض المرض بدون استثناء

وقد كتب ثلاثة من العلماء قبل اجراء هذه التجربة بثلاث سنوات ، يقولون ان بعض الميكروبات كالخميرة تفتقر الى خلايا التورم ، فاذا حقنت هذه الميكروبات فى حالات السرطان فانها تسبب زوال التورمات التى تظهر عادة فى حالات الاصابة بهذا المرض . وقد اختبرت هذه النظرية على ١٥٠ مريضا ممن يئس الاطباء فى شفائهم فأفضت الى

كثير من النتائج المثيرة للدهشة . فقد أحس جميع المرضى تقريبا بزوال ذلك الألم الشديد الممزق الذى كانوا يتوجعون منه ، والذى لم يكن يخضع قبلا الا لسلطان المورفين وجبروته ، وانكمشت الاورام بنسبة ٣٠ ./. تقريبا من أحجامها السابقة فى خلال اليوم الاول من الحقنة الاولى . ومع أن الألم كان يعاود المرضى فى كثير من الحالات ، الا أن أثر العلاج ظل ثابتا فى بعضها

ويعيش عدد كبير من هذه الكائنات الصغيرة ذات الخلية الواحدة فى لفائف الامعاء . وقد كنا الى عهد قريب نعزو اليها ما يصيب المرء من صداع أو اضطرابات . ولكنه ثبت أخيرا أنها تمدنا بقدر كبير من فيتامين K وفيتامين B مقابل تعفيرنا للغذاء الطيب لها . وعلى الرغم من المقدرة الهضمية الفائقة للنمل الابيض الآكل للاخشاب والذى تقوى معدته على هضم كل الاشياء النباتية ، فانه من الثابت الآن أنه لولا هذه الكائنات التى تعيش فى معدته لمات هذا النمل من الجوع ولو كانت معدته تزخر بالطعام . وقد دعا ذلك احدى الشركات الالمانية الى صنع أقراص تحوى فطرا معينا اطلق عليه اسم « انزيبان » لتقوية العصائر المعدية ، أثبت استعماله ما للفطريات من فائدة كبيرة للهضم ولا سيما للمعدات الضعيفة

ولعل الانسان لم يصادف فى تاريخ البشرية جمعاء صديقا أوفى وأصدق من البنسلين — وهو احد النباتات الفطرية — كما أن الجراثيم لم تجد عدوا أقسى وألد منه ، وليس البنسلين قائما بذاته فى هذا المضمار ، وانما يشترك معه كثيرون من ذوى قرباه . نذكر منهم الستربتومايسين والتيرولوزين والفومجاتين والتيروسيدين ، وكلها سموم تنتجها الميكروبات لمحاربة أشقائها من بنى جنسها . ان الميكروبات فى انتظار تسخيرها والافادة منها ، وسيكون موقفها من الانسان فى المستقبل موقف الخادم من السيد ، لا موقف العدو المفترس المتحفز

أمثال روسية

— فى وسع المرء أن يعود نفسه على كل شىء ، حتى على الجحيم
— تصادق مع الذئاب ، على أن يكون فأسك مستعدا
— كلنا أقرباء ، فقد جففت ثيابنا أشعة شمس واحدة
— المقامر واللص من فصيلة واحدة
— هدايا الرجل الشرير ، لا تجلب معها خيرا
— لا تسكب الدموع الطازجة ، على الاحزان العتيقة

السحرة

بقلم الأستاذ محرم كمال
المدير الادارى للمتحف المصرى

كان الملك خوفو جالسا فى قاعة عرشه فى يوم من الايام ، فأمر أحد رجاله أن يستدعى اليه أبناءه ومستشاريه ، لكى يطلب منهم أمرا ، فحضر اليه أبناؤه ومستشاروه ووقفوا أمامه ، فقال لهم الملك : « هل تعرفون رجلا يستطيع أن يقص على قصصا عن أعمال السحرة » فوقف الابن الملكى خفرع وقال : « سأخبر جلالتك بقصة حدثت فى أيام جدك نبكا ، وقعت عند ما ذهب الى معبد بتاح بمدينة منف » . ثم أخذ يقص عليه ما يلى:

قصة خفرع

كان جلالته يسير الى معبد بتاح ، فخطر له وهو فى الطريق أن يمر على منزل المقرىء الاكبر أوبانر مع حاشيته ، وعندئذ رأت زوجة أوبانر غلاما يقف خلف الملك وكان جميل الشكل فصبا قلبها اليه ، وأرسلت خادمها يحمل اليه صندوقا مليئا بالملابس هدية منها له ، فحضر الغلام اليها مع الخادم وقابلها وقال لها : « ما أجمل الجوسق (الكشك) الذى يوجد فى حديقتكم ، أشد ما ترغب نفسى فى أن نلجأ اليه ونستمتع فيه بما نود ونهوى » . فوافقته الزوجة على ما أراد وأرسلت خادمها الى البستانى يقول له ان يعد الجوسق الذى فى الحديقة ويهيئه بكل ما يوفر فيه أسباب الراحة . ثم وافاها الغلام فيه ، وظلت معه حتى مالت الشمس الى المغيب

وحينما ارخى الليل سدوله قام الغلام ليستحم فى البحيرة التى تتوسط الحديقة . وكان البستانى يراقبهما ، ففكر فى الامر الى أن استقر عزمه على أن يخبر سيده بما حدث ، فلما كان اليوم التالى ذهب البستانى الى اوبانر وأخبره بكل ما يعلمه ، فأمر اوبانر بأن يحضروا اليه صندوقا من الابنوس والذهب ، ثم شكل تمساحا من الشمع وجعله مسحورا وأعطاه للبستانى ، وقال له عند ما يحضر الغلام ليستحم فى بحيرتى كما هى عادته فى كل يوم عليك أن تطلق هذا التمساح وراءه فأخذ البستانى التمساح وذهب وفى اليوم التالى أرسلت الزوجة الى البستانى ، تأمره بأن يهيء لها الجوسق لكى تمضى

(١) ترجمة تكاد تكون حرفية لورقة وستكار البردية الموجودة بمتحف برلين

فيه وقتا . فأعد الجوسق وهيىء بكل ما هو حسن وجميل وحضرت الزوجة وأمضت فيه مع غلامها وقتا وحينما أقبل المساء ذهب الغلام ليستحم على مألوف عادته فألقى البستانى فى الماء تمساح الشمع فانقلب تمساحا كبيرا طوله سبع أذرع وأمسك بالغلام

وكان اوبأنر فى هذا الوقت فى صحبة الملك نبكا ، وقضى معه سبعة أيام وعند ما انقضى هذا الوقت قال اوبأنر للملك : هل يطيب لمولاى أن يشاهد هذه العجيبة التى حدثت فى عصركم لاحد الغلمان ، فوافق الملك وذهب معه الى الحديقة وصاح الزوج مناديا التمساح أن يحضر الغلام ، فخرج التمساح من البحيرة ومعه الغلام ، فقال الزوج للملك : انظر الى هذا التمساح انه رهين اشارتى يفعل كل ما آمره به فقال جلالته : « مر التمساح بأن يعود الى ما كان عليه ، فأمسك الزوج بالتمساح فاستحال فى يده الى قطعة من الشمع وعندئذ أخبر الزوج الملك بكل ما حدث فى بيته بين الغلام وزوجه ، فأمر الملك التمساح بأن يذهب ويأخذ فريسته ، وعندئذ قفز التمساح الى البحيرة ومعه الغلام ، واختفى به ولم يدر أحد عنه شيئا بعد ذلك . ثم أمر الملك نبكا المبارك بأن يحضروا اليه الزوجة الى القسم الشمالى من الحريم ، وحرقها بالنار وألقى برمادها فى النهر . فهذه هىالعجيبة التى حدثت فى عصر سلفك الملك نبكا من أعمال المقرىء الاكبر اوبأنر

عندئذ قال ملك الوجهين القبلى والبحرى خوفو : فليقدم للملك نبكا المبارك ألف رغيف ومائة اناء من الجعة وثور واناءان من البخور ، وليقدم رغيف واناء من الجعة ، واناء من البخور وقطعة من اللحم للمقرىء الاكبر اوبأنر ، لما عرفته من آيات علمه . وقد نفذ كل ما أمر به الملك

وبعد ان انتهى خفرع من قصته قام بفرع وقص على الملك ما يلى :

قصة بفرع

سأخبر جلالتك بعجيبة حدثت فى عصر أبيك سنفرو المبارك من أعمال المقرىء الاكبر زازام عنخ ، فقد شعر الملك سنفرو فى يوم من الايام بأنه متعب ، وأن صدره يضيق بكل شىء ، فأخذ يجوس فى قصره باحثا عما يفرج كربه ويشرح صدره ، ولكن محاولته ذهبت عبثا ، وعندئذ أمر بأن يستقدموا اليه المقرىء الاعظم وكاتب أوراق البردى المدعو زازام عنخ ، فأحضروه اليه على عجل ، فقال له الملك : لقد بحثت فى قصرى عما يفرج كربى فلم أجد ، فقال له المقرىء فلتأمر جلالتك بأن يعد لك قارب يضم حسان حريم قصرك ، وتركب فى هذا القارب معهن وتسير فوق بحيرة القصر ، فان قلب جلالتك سوف ينشرح بمرآهن وهن يجدفن ، كما سينشرح بمرآى الطيور وهى ترفرف على سطح البحيرة ، وبمناظر الخضرة التى تضفى على الشاطىء جمالا وسحرا ، وسأذهب أنا أيضا معك ، ولتحضر الى عشرين مجدافا من الابنوس محلاة بالذهب ، أطرافها من الخشب الرقيق المغطى بالذهب ، ولتحضر الى عشرين فتاة كلهن أبكار ناهدات ، ذوات

حسن فتان وجمال خلاب ، ولتحضر الى عشرين شبكة ، ولتعط هذه الشباك للغانيات يتخذن منها أردية لهن

وقد أعد كل شيء طبقا لرغبات جلالته . وساروا بقاربهم يتهادون وسر قلب جلالته بمنظرهن وهن يجدفن . ولكن احداهن وهي تدير الدفة سقطت من شعرها حلية من الملاخيت ، واختفت في الماء فتوقفت عن الغناء وعن التجديف ، وتوقفت رفيقاتها أيضا ولم يعدن يجدفن . وعندئذ قال جلالته : لماذا لا تجدفن ؟ فأجبن وكيف تجدف ومراقبة الدفة الصغيرة قد توقفت عن عملها ، فسألها الملك : لماذا توقفت ؟ فأجابت : لان حليتي المصنوعة من الملاخيت الجديد قد سقطت في الماء، فقال لها لا تبتئسي ولاتحزني فسأعوضك خيرا عنها ، ولكنها أجابت انى لا أريد الا حليتي ، ولا أريد بدلا عنها ، فقال الملك : على بزازام عنخ المقرىء الاكبر ، ولتسرعوا في احضاره الى ، وعند ما أحضروه قال له الملك : يا زازام عنخ يا أخي لقد اتبعت نصيحتك وبدأ الكرب ينحسر عن قلبي ، بمنظر الجميلات الفاتنات وهن يجدفن ، ولكن سقطت حلية من الملاخيت من احدى الصغيرات، وغاصت في الماء فتوقفت صاحبتها عن الغناء والتجديف ، فأفسدت بذلك عمل رفيقاتها ، ولقد سألتها عن السبب في توقفها ، فقالت انه بسبب حليتها التي فقدت ، فقلت لها انى سأعوضك عنها ولكنها أصرت على انها تريد حليتها التي فقدت لتعيدها الى مكانها . فلما سمع زازام عنخ ذلك أخذ يتلو أقوالا سحرية ، فانشقت المياه وظهرت الحلية مستقرة في قاع البحيرة ، فأخذها وأعطاها لصاحبتها ، واعاد المياه الى ما كانت عليه ، وقضى جلالته يوما سعيدا مع جميع بيته الملكي ، واجزل العطاء للمقرىء الاكبر زازام عنخ . والآن أنظر هذه هي العجيبة التي حدثت في أيام والدك ملك الوجهين سنفرو ، من أعمال المقرىء الاعظم وكاتب السجلات زازام عنخ

وعند ذلك قال ملك الوجه القبلي والوجه البحري خوفو المبارك : « فليقدم قربان مكون من ألف كعكة ومائة اناء من الجعة وثور واناءان من البخور للملك الوجهين سنفرو المبارك ، واناء من البخور للمقرىء الاكبر كاتب السجلات زازام عنخ لانى قد شهدت آيات علمه » . وقد نفذ كل ما أمر به جلالته

قصة حرددف

وبعدئذ تقدم الابن الملكي حرددف ، وقال : استمعت حتى الآن يا مولاي لاقاصيص حدثت في أيام اسلافك ، لا يدرى أحد مبلغ ما فيها من صحة وصواب ، ولكنى سأرى جلالتك رجلا يعيش في نفس عصرك

فابتدره الملك قائلا : ومن عساه يكون يا حرددف ؟

فأجاب الابن الملكي حرددف : هو رجل يدعى (ددى) يقطن في مدينة دد سنفرو وقد بلغ من العمر عتيا ، وتخطى العشرة بعد المائة ، وهو يأكل خمسمائة رغيف من

الخبز وفخذ عجل ، ويعب مائة اناء من الجعة عبا حتى اليوم . ولقد أوتى مقدرة عجيبة ، فهو يستطيع أن يعيد الرأس الذى فصل الى موضعه الذى فصل منه ، وهو يستطيع أن يجعل الاسد يتبعه طيعا مختارا كحيوان أليف، وهو محيط علما بجميع الرسوم الخاصة بهيكل الاله تحوتى ، وانى لاعلم أن جلالة ملك القطرين القبلى والبحرى خوفو المبارك شديد الرغبة فى البحث عن رسوم هيكل الاله تحوتى ، حتى يستطيع أن يسير على هديها فى بناء هرمه

فقال الملك : « انت نفسك يا بنى حرددف عليك أن تحضره الى »

ثم أعدت السفن للابن الملكى حرددف ، وسار بها الى مدينة دد سنفرو ، وعند ما وصلت السفن وألقت مراسيها ، نزل الامير وجلس فى محفة من الابنوس ، ذات أذرع صنعت من خشب الأرز المغطى بالذهب ، وعند ما اقتربوا من ددى ، أنزلوا المحفة وقام الامير ليحيى ددى ، وكان ددى مستلقيا على سرير من فحوف النخل على مقربة من باب منزله ، وقد قام على رأسه خادم يدلك رأسه وآخر يدلك قدميه . وقال الابن الملكى حرددف : « مرحى مرحى انى أراك رجلا قد زاده العمر المديد وقارا ورهبة ، وماحياتنا الا رحلة طويلة طولها هو طول الاجل ، ونهايتها تؤدى بنا الى عالم آخر ، عالم التحنيط وعالم الدفن ، ولكنه عالم الخلود والبقاء والابدية . ولكن ها أنا أجدك يا ددى مستلقيا ، تستمتع بدفء الشمس اللذيذ ، صحيح الجسم معافى ، وها أنا أقدم التحية للسن الوقور، لقد أتيت من بعيد لكى أستدعيك ، مزودا برسالة من أبى خوفو المبارك ، وانى أعدك بأنك ستأكل من خير ما يعطيك الملك ، ومن الطعام الذى يهبه لاتباعه المخلصين ، وسوف تبقى لديه فى عيش رغيد وحياة ناعمة ، حتى يقضى القدر أمرا كان مفعولا . وعندئذ تلتحق بآبائك وأسلافك فى عالم الموتى . فأجاب ددى : سلاما ثم سلاما يا حرددف ، يا ابن الملك يا من يحبه أبوه ، فلتكن مباركا عند أبيك خوفو ، ولتكن مقدما بين الشيوخ، ولتفز روحك ضد أعدائك ، ولتسبر روحك الطريق السوى (سواء السبيل) ، الى باب الذى يكسو العريان ويطعم الجوعان ، هذه هى تحيتى ودعوانى للابن الملكى

ثم مد الامير حرددف يده الى ددى ، وأعانه على القيام وسار معه الى الشاطىء ، وقد اتكأ ددى على ذراع الامير ، ثم قال ددى فليسمح لى الامير بسفينة خاصة ، أحضر فيها أبنائى وكتبى . فأعدوا له سفينتين مزودتين ببحارتهما ونزل ددى الى سفينة الامير . وعند ما وصلوا الى القصر تقدم الامير حرددف ، ودخل على الملك وقال له : مولاى الملك لك الحياة والسعادة والصحة ، لقد أحضرت ددى . فأجاب الملك : فلتحضروه الى ، وليمثل بين يدى فى الحال . وذهب جلالته الى قاعة الاعمدة فى القصر ، حيث وافاه ددى وأدخل عليه ، فقال الملك : كيف انى يا ددى لم أرك حتى الآن . فأجاب ددى : ان من يرسل فى طلبه يحضر ، لقد استدعانى مولاى وها قد حضرت . فسأله الملك : وهل هو صحيح ما يشاع عنك من أنك تستطيع أن تعيد الرأس المقطوع الى مكانه

الذى قطع منه . فقال ددى : أجل يا مولاى . وعندئذ أمر الملك بأن يحضروا اليه أسيرا من السجن ، لكى ينفذ فيه العقاب ، ولكن ددى قال : لست أريد رجلا يا مولاى اذ يكفى أن تحضروا الى حيوانا . ثم أحضرت أوزة اليه فقطع رأسها ووضعت الاوزة فى الجانب الغربى من القاعة وبقى رأسها فى الجانب الشرقى من القاعة ، وعندئذ أخذ يتلو ددى الرقى والتعاويذ السحرية ، فانتصبت الاوزة كما انتصب الرأس ، وأخذ كل منهما يسير نحو صاحبه حتى التقيا فقامت الاوزة منتصبة وهى تصيح

ثم أحضروا اليه بطة أخرى ففعل بها كما فعل من قبل ، فأمر جلالته أن يحضروا له ثورا قطعوا رأسه وألقوا به على الارض ، لكن ددى أخذ يقرأ رقياته وسحره ، فانتصب الثور وراءه حيا سليما يسير خلفه ومقوده يهبط الى الارض

وقال الملك : وهل هو صحيح ما يشاع عنك من أنك تعلم عدد الرسوم الخاصة بهيكل تحوتى . فأجاب ددى : أستميحك المعذرة يا مولاى فانى لا أعرف عددها ، ولكنى أعرف مكانها . فقال جلالته : اذن خبرنى أين هى . فأجاب ددى : يوجد صندوق من الحجر فى غرفة تدعى غرفة الرسوم فى مدينة هليوبوليس ، فهذه الرسوم التى تسأل عنها هى فى هذا الصندوق يا مولاى . ثم بعد فترة صمت قصيرة استدرك ددى قائلا : ولكنى لست أنا يا مولاى من سيحضرها . فقال الملك : اذن فمن الذى سيحضرها الى ؟ فقال ددى : هو أكبر الاطفال الثلاثة الذين ما زالوا فى بطن روددت ، انه هو يا مولاى الذى سيحضرها لك . فقال الملك : ولكنى أود أن أعلم من روددت هذه ؟ فقال ددى : هى زوجة كاهن الاله رع . لقد حملت من الاله رع بثلاثة أولاد ، ولقد أخبرها الاله بأنهم سيتولون هذه المهمة العظيمة فى كل البلاد (أى أنهم سيصبحون ملوكا) . وان أكبرهم سيصبح كاهنا أعظم فى هليوبوليس . وعندئذ طاف بقلب الملك طائف من الحزن والكآبة . فقال ددى : ماذا أرى يا مولاى أمن أجل الاطفال الثلاثة تحزن ، اذن فانى أقول لك ان ابنك سيحكم بعدك ، وسيحكم بعده ابنه وبعد هذا سيكون أول هؤلاء الثلاثة (١) فقال الملك : ولكن خبرنى متى تلد روددت ؟ فأجاب ددى : انها ستلد فى اليوم الخامس عشر من الشهر الاول من فصل الشتاء ، فقال جلالته : عند ما تقطع شواطىء قناة السمكتين ، فانى سأذهب لرؤية معبد رع ، فقال ددى : اذن سأجعل غور الماء هناك أربع أذرع

ولما عاد جلالته الى القصر قال : فليسكن ددى مع ولدى الامير حرددف فى بيته ، وليعط له كل يوم ألف رغيف ومائة كأس خمر وثور ومائة حزمة بصل

وكان كل ما أمر به جلالته

وحدث أنه فى أحد الايام أحست روددت آلام الحمل ، فقال الاله رع لايزيس ونفتيس

(١) تحققت النبوءة : ابنك خارع سيحكم أولا ثم ابنه منقرع ثم بعد ذلك تولى الأسرة الجديدة حكم البلاد

ومسخنت وحكت وخنوم : هيا اذهبن جميعا لتخليص ثلاثة الاولاد من رددت عند ولادتها لهم ، لانهم سيتولون هذا المركز العظيم ، فيحكمون البلاد جميعها ويبنون معابدكن ويملأونها بالعطايا ، ويقدمون لكن القرابين ويكثرون من الضحايا

ذهب أولئك الآلهة فى شكل راقصات ، وكان خنوم معهن فى زى حمال ، فاقتربن جميعا من بيت أوسر رع ، فوجدنه واقفا عند باب داره، فرقصن أمامه وعزفن على آلاتهن ولكنه قال لهن : سيداتى ان فى هذا البيت امرأة تتوجع من آلام الحمل فقلن له : دعنا نراها لاننا نعرف كيف نساعدها ، أجابهن تفضلن اذن وادخلن الى رددت ، فأغلقن عليها وعليهن الباب

عندئذ وقفت ازيس أمامها ، ووقفت نفتيس وراءها وأخذت حكت تساعدها . فقالت ازيس : أيها المولود المسمى أوسركاف لا تتعب أمك . وسرعان ما نزل الطفل على يديها مليئا قويا ، كأبن سنة عظامه قوية جميل يضيء شعره كالذهب . فغسلنه وجهزنه ووضعنه فى قطعة من الكتان واقتربت منه مسخنت قائلة : هذا ملك سيحكم على كل البلاد . وتقدم خنوم فأعطاه قوة فى أعضائه ، وعندئذ وقفت ازيس أمام الأم ، ونفتيس وراءها وساعدتها حكت ، وقالت ازيس : أيها الطفل المسمى سحورع ، لا تبطىء فى بطن أمك ، وسرعان ما نزل الطفل على يديها ، كأنه ابن سنة عظامه قوية جميل الاعضاء ذهبى الشعر ، فغسلنه وجهزنه ووضعنه فى قطعة من الكتان . واقتربت منه مسخنت قائلة : هذا ملك سيحكم على كل البلاد ، وتقدم خنوم فأعطاه قوة فى أعضائه ، وعندئذ وقفت ازيس أمام الأم ونفتيس وراءها وساعدتها حكت ، وقالت ازيس : ايها الطفل المسمى كاكو ، لا تبق فى ظلام بطن أمك ، وسرعان ما نزل الطفل كأنه ابن سنة . عظامه قوية جميل الاعضاء ذهبى الشعر غسلنه ووضعنه فى قطعة من الكتان . واقتربت منه مسخنت قائلة : هذا ملك سيحكم على كل البلاد ، وتقدم خنوم فأعطاه قوة فى أعضائه

وعندئذ خرجت الآلهة بعد أن ولدت رددت ثلاثة أطفالها ، وقلن لأوسر رع : اغتبط يا أوسر رع ، فقد ولد لك ثلاثة أبناء . أجابهن : سيداتى وما الذى فى وسعى أن أقدمه اليكن ، انظرن ليس لدى غير هذا القدر من الشعير ، فليحمله حمالكن مكافأة لكن على عملكن ، ولتعملن منه خميرا . فأخذ خنوم قدر الشعير وخرجوا جميعا الى الطريق . فقالت ازيس لهن : ما معنى حضورنا للمساعدة فى أثناء الوضع ، دون أن نقوم بمعجزة لهؤلاء الاطفال الثلاثة ، تكون لهم بشرى خير وبداية سعادة

فصنعت الآلهة ثلاثة تيجان فاخرة من التى اعتاد لبسها فراعنة مصر ، وأخفوها فى الشعير ، ثم أهاجوا الريح ، وأثاروها بعاصفة تبعها سقوط أمطار ، وعادوا بعد ذلك الى بيت الكاهن ، وقالوا : « نرجو أن تحتفظ لنا بهذا الشعير فى غرفة مقفلة الى أن تهدأ العاصفة ، وسنعود لاخذه كى نواصل رحلتنا شمالا » ووضعوا الشعير فى غرفة مقفلة وختموها وذهبوا لشأنهم

وأمضت رددت أربعة عشر يوما ، ثم طهرت نفسها وقالت لخادمتها : هل رتبت المنزل؟ أجابتها الخادمة : كل شيء معد ، ولكن شعير الخمير لم يحضر بعد ، فسألتها : ولم لم تحضري شعير الخمير ؟ أجابتها الخادمة : لقد كان الشعير معدا ، ولكن سيدي أعطاه للراقصات ، ومن رشعنه في غرفة مقفلة وختمن عليه . قالت رددت : انزلي واحضري بعضه ، وعند ما يأتي أوسر رع سأجعله يعطيهن بدله

ذهبت الخادمة وفتحت الغرفة ، فسمعت حديثا وغناء وموسيقى ورقصا وترتيلا ، وكل ما يعمل في قصور الملوك . فأسرعت الى سيدتها وأخبرتها بما سمعت ، فجاءت معها ودخلت تجوس أنحاء الغرفة ، وبحثت عن مبعث هذه الاصوات الموسيقية العذبة ، وعبثا حاولت أن تهتدي الى مصدر الصوت ، ولكن شغفها بتلك النغمات جعلها تواصل البحث ، فوضعت أذنها على كيس الشعير ، وأنصتت فاذا بهذه الاصوات منبعثة منه ، فأخذت الكيس ووضعته في داخل صندوق وأغلقته عليه اغلاقا محكما ، وعند عودة زوجها أوسر رع أخبرته بما حدث ، ففرح قلبه فرحا عظيما ، وفرحت معه زوجته وقضيا يوما سعيدا

بعد ذلك بأيام حدث أن رددت غضبت على خادمتها فضربتها بالسوط ، فقالت الخادمة لمن كان في الدار : هل يفعل بي أنا هذا الفعل وأضرب واهان ، لقد ولدت ثلاثة ملوك وسأذهب وأخبر جلالة الملك خوفو المبارك بهذا الخبر

وخرجت غاضبة من المنزل تضمر السوء لسيدتها ، وتحدثها نفسها بالشر . وتوجهت الى منزل شقيقها الاكبر ، فقابلته وهو يحزم عيدان كتانه على الارض ، فقال لها من أين أتيت أيتها الطفلة ، فصارحته بنبئها نحو الاطفال الثلاثة ، وما لحقها من اهانة وعذاب ، وبما صممت على عمله فغضب شقيقها منها وانتهرها قائلا : «كيف تجرئين على هذا الغدر ، وتأتين الى بهذا النبأ وبما سولته لك نفسك الشريرة ! اني لا اسمح بذلك أبدا واياك واذاعة الخبر ، ثم أوثقها بحبل من الكتان وأوسعها ضربا

وحدث بعد ذلك أن ذهبت الفتاة الى شاطىء النهر لتملأ الجرة بالماء ، فقابلها تمساح هائل انقض عليها وابتلعها

ذهب أخوها ليخبر رددت بما حدث للفتاة ، فوجدها جالسة ورأسها على ركبتيها ، وقلبها حزين جدا فقال : لم أنت مكتئبة هكذا يا سيدتي ؟ أجابته : بسبب تلك الفاجرة التي كانت في المنزل ، انظر لقد خرجت تقول سأذهب وأبيح أسرارك ، وأقول كل شيء . فأحنى الرجل رأسه وقال لها : سيدتي لقد جاءت تشكو الي فضربتها ضربة شديدة فجرت الى النهر واختطفها تمساح

فتنفست السيدة الصعداء لهذا النبأ ، وسرى عنها خوف افشاء السر الى مسامع الملك خوفو

محرم كمال

النبات الفطري في الصحة والمرض

بقلم الدكتور محمد زكي شافعي بك

مدير الأقسام الصحية ببلدية الاسكندرية

برزت أهمية عظمى لأحد النباتات الفطرية وهو البنسليوم ، فرأيت من وجهة الثقافة العامة أن أضع بعض البسائط الخاصة بها بصفة عامة ، وبالبنسليوم بصفة خاصة تحت أنظار قراء الهلال

الفطر أحد نباتات المجموعة الثالوثية كالبكتريا ، وهي نباتات دنيئة بعضها ذو خلية واحدة والبعض الآخر عديد الخلايا ، ففطر الخميرة وحيدها وفطر البنسليوم عديدها وتتركب من عدة خيوط وأنابيب تتشابك أحيانا مع بعضها ، وقد تتألف منها شبكة خشبية أو كتلة تشبه النباتات الراقية كعيش الغراب ، وتكاثرها اما ازدواجي أو غير ازدواجي أي بالانقسام وهو الغالب . وهذا الانقسام يحصل بتكوين جراثيم صغيرة اما متراصة أو داخل أكياس ، ويتولد من هذه الجراثيم شبكات جديدة اذا كانت البيئة والظروف ملائمة ، ويصنف الفطر وفقا لشكل هذه الأكياس

ويخلو الفطر من الكلوروفيل ، وهو المادة الملونة لأوراق النبات وبعض أجزائه بالخضرة ، والذي يستخلص الكربون من الهواء لصنع السكر والنشاء والمواد الزلالية اللازمة لتغذية النبات بتأثير الضوء ، ويحصل الفطر على الكربون من مواد عضوية مجهزة اما حية أو ميتة ، ولذلك سمي الفطر الذي يبقى على المواد الحية طفيلية ، والاخرى رمية أو رماية وبعضها يجمع الصفتين بأن يعيش على عائله حيا أو ميتا

وهذه الفطر توجد في الطبيعة ، ويحمل الهواء جراثيمها من مكان لآخر ، ومنها ما يؤكل كعيش الغراب ولو ان منها نوعا ساما ، ومنها ما يستعمل لاغراض صناعية كخميرة البيرة حيث تحول الشعير الى كحول ، ومنها ما يحول عصير العنب الى نبيذ ، كما يستخرج ببعضها الكحول من بقايا قصب السكر والفواكه المتعفنة والعسل ، ويخمر بها اللبن لأغراض طبية ، ويوجد نوعان من الفطر يخمر بهما في الصين لصنع البيرة

وتسبب بعض الفطر أمراضا ، ففطر الخميرة قد يسبب التهابا في الجلد والزور ، ويوجد فطر يسبب السعفة (القراع) بنوعيه الذي يصيب الانسان والكلاب والقطط والارانب المستأنسة والجرذان . ويوجد نوع يعرف بالاويدكم يصيب فم الطفل وبلعومه بالتهاب يصطحب بغشاء أبيض ، ويوجد فطر يصيب أي نسيج من أنسجة الجسم ، ويحدث أمراضا تشبه الزهري أو السل ، وهذه الأمراض قد تأتي من خدش في الجلد بأي

سبب كان كالوخز بأبرة أو شوكة أو سكينة ، حتى فى حالة تقشير البطاطس أو أكل خضر غير طازج . كما قد تحمله فروات الحيوانات ، فتعطى الفرصة لدخول الفطر جسم الانسان

ومن الفطر ما يصيب النبات كصدأ القمح ، ومنها ما تشاهد فى الخبز القديم الرطب ويعرف بالموكور ونراه كطبقة من القطن ، وقد تكون له رائحة عطرية أو يكون لونه مزرقا أو مخضرا أو أردوازيا كما نشاهده على البطاطس ، ويوجد نوع يعرف بالاسفرجين نراه فى صماخ الأذن ويوجد أحيانا فى الغشاء المخاطى للأنف والرئتين فى الطيور وفى جهاز تنفس غواتها

وأما بالبنسيليوم أو الفرجونين فأنواع منها ما يرى كطبقة خضراء على سطح المربى ، وتتناثر جراثيمه من نتوءات تخرج منه بشكل الفرجون ، ويساعد على انتشار الغازات الزرنيخية من الطلاء الذى يطلى به الأوراق التى تبطن بها الجدران ، وهذه الفرجونات الصغيرة منتشرة فى الهواء

وقد استعمل مؤخرا فى العلاج نوع منه يعرف بالنوتاتم ، حيث اكتشف صدفة فلمنج فى سنة ١٩٢٩ انه أوقف نمو بعض الجراثيم بمزرعة لها ، وأتى بعده فلورى فأيد هذا الكشف حيث لاحظ ايقافه لنمو الجراثيم العنقودية التى تسبب الدمامل بصفة خاصة . فحضر منه خلاصات التى — مع التحسين فى تحضيرها وتنقيتها — وصلت لدرجة أمكن نجاح العلاج بها . ولما كانت الخلاصة غير ثابتة فحضر منها أملاح الكالسيوم للعلاج الموضعى ، والصوديوم للعلاج العام أو الداخلى ، لان البنسليوم أى الخلاصة غير ثابتة بخلاف الأملاح فهى ثابتة . ولا يزال لا يمكن اعداده خالصا فالمستعمل منه للعلاج لا يوجد به الا بنسبة لا تتجاوز الآن عشرة فى المائة ، وكسائل فهو غير ثابت وكصلب فهو ثابت . ولذلك يحضر السائل قبل الاستعمال مباشرة ، لان الحرارة والأحماض والقلويات والمعادن الثقيلة وخمائر بعض الميكروبات تتلفه . ولذلك يعنى بحفظه جيدا بعيدا عن هذه المؤثرات والسائل مطهر نموذجى ، اذ بكمية ضئيلة جدا لا تؤثر فى حيوية أنسجة الجسم يطهر الجسم من بعض الجراثيم ، ولا يتفاعل مع الماء أو الدم أو المصل أو المواد الزلالية الموجودة كالسليمانى فعلا — والميكروبات التى يؤثر فى نموها ميكروبات الصديد كالعنقودية والسبحية وكذا الدفتيريا وفطر الاشعاع والفحمية ، ولم يفد فى ميكروبات أخرى كالسل والجذام ، ولا يعطى بالفم لان عصير المعدة حامض ولهذه الاسباب يعالج به الالتهابات الشديدة كما فى حالة الالتهاب الرئوى الشعبى الناشىء عن الميكروبات السابق الاشارة اليها ، والتهاب العظام والحمرة والتسمم الدموى بالميكروبات المذكورة والالتهاب السحائى والتهاب باطن القلب والجروح الملوثة والكسور المضاعفة بهذه الجروح والسيلان الذى قد يشفيه فى يوم واحد بالحقن فى العضلات ، كما يحقن فى الحالات الاخرى فى الوريد أو العمود الفقرى وقد أفاد فى الزهرى فى دوريه الاول والثانى ، ويمنع الغنغرينا

الغازية ، وقد لا يفيد فى الحالات المزمنة ويعالج به الخراجات وبعض الأمراض الجلدية وأمراض العيون . وبالاختصار فهو مطهر لا معقم أى يوقف نمو الجراثيم ولا يقتلها بالمقادير التى يعطى بها ولا تكون سامة للجسم . واستعماله لا يمنع من التدخل الجراحى أى اجراء العمليات، فهو لا يستأصل مثلا لوزة ملوثة أو زائدة دودية ولا يسبب امتصاص صديد فى كيس أو جيب كالجيوب الوجنية أو التجمعات الصديدية بالتجويف الصدرى مثلا ، وعلى كل حال فقد اثبت علاج مصابى الحرب ان هذه الفطر أفادت فائدة عظمى ، وقد بدىء فى استعمالها للمدنيين فى دائرة ضيقة لعدم وفرتها ، والحاجة تحضيره لمعامل تجهزه بمقادير كبيرة والعمل قائم للوصول لهذا الغرض ليكون فى متناول كل المرضى

محمد زكى شافعى

النعيم المرفوض

جاءنى عاشى من نعاس ، فرأيت ملاكا يمسك بيدى ، ويرتفع بى فى الفضاء ، حتى بلغنا أرضا حوت كل ما تشتهيه النفس ، مما لم تره عين أو تسمع به أذن ، ليس فيها ألم ولا مرض ، ولا أثر فيها لبؤس أو شقاء ، لا ترتكب فيها جرائم ، ولا تذرف فيها دموع . لذلك لم يكن ثمة حاجة بها الى مستشفيات أو الى شرطة أو الى سجون . ورأيت الأطفال يلعبون فيها فى كل مكان وقد تهللت وجوههم وفاض الفرح من عيونهم

ثم قال لى الملاك : ما رأيك فى هذا النعيم ؟ قلت : هل تحسب أنك تريد تركى هنا ؟ أعدنى الى مكانى .. عجل وأرجعنى الى دنياى . أنا لا أنكر أن هذا المكان جميل ، ولكن بنى البشر لا يلذون بالبقاء فيه . كيف نستمتع بلذة الظفر والغلبة والنجاح حيث لاتعترضنا مشقات أو صعوبات، وطالما ليس أمامنا شىء نصارعه ونهزمه ونقهره . هنا يحرم المرء من محبة الاصدقاء الاوفياء المخلصين ، لان أزهار الصداقة الحقة ، والقلوب الصحيحة الود ، والنفوس الخالصة الحب ، تروى بالدموع وتترعرع وتزدهر فى الشدائد والمحن . هنا لا محل للاتصاف بالاخلاق الدمثة الطيبة ، لانها لا تنبعث الا من الكفاح والنضال مع الرذائل والشرور . هنا لن نحس بالبهجة والسرور طالما لم يكن هناك حزن ولا دموع

شاس بانتج (مجلة اكسبوزتر)

بعد مليون سنة

بقلم وليم هويلز

ترى ماذا تكون هيئة الانسان فى المستقبل ؟ يعتقد البعض أن الحيوان الكامن فينا سيتضاءل شيئا فشيئا ، بينما يتابع الذهن نموه وتضخمه ، حتى تصبح رؤوسنا شامخة ، وأجسادنا نحيفة ضامرة ، وسيقاننا نحيلة دقيقة

والواقع ان الانسان حيوان صنديد جبار ، فاذا كان كبر الحجم أمرا لازما له ، فانه سيحتفظ فى الغالب بحجمه ، واذا كانت عظامه الآن أرق من عظام بعض انواع القردة الكبيرة ، وصدره أكثر انبساطا من صدورها ، فان ذلك راجع الى طبيعة تطوره فى سبيل اجادة الدور الذى يلعبه ، وحسن القيام بأعماله ، واتقان وظائفه كانسان ، وليس ناجما عن انحطاط فى تركيب جسمه وطريقة تكوينه . فان خفة الهيكل العظمى ورقته لم تؤثر قط فى طاقته ومدى قدرته ، بل على النقيض أفضت الى زيادتهما ، ولا سيما حينما انتصبت قامته واستطالت أرجله بالنسبة لفصائل القردة الشبيهة بالانسان

ورغم ذلك ، فانه مهما حدث للانسان من تغير ، فان هيئته ستظل دون شك شبيهة أو قريبة الشبه بأنواع الحيوان العادى ، أكثر مما تكون ذهنا مفكرا يسير على قدمين ، ويقطن فى جسد لا يصلح الا للامور التافهة أو لا يصلح لشىء . ولن نصل بأجسادنا الى درجة الكمال ، فنصبح « سوبرمن » يغطى أجسادنا جلد لا يؤثر فيه رصاص البنادق أو شظايا القنابل ، ولن تتطور أعيننا الى المستوى الذى تنافس فيه أشعة اكس ، على قدرتها فى اختراق حجب الظلام ، واستشفاف بواطن الاشياء

وقد اختلفت الآراء فى مدى معيشة الانسان على ظهر الارض ، فقد تكون أكثر من ستة ملايين من الاعوام وقد تكون أقل . ولكن ثمة قوة مجردة أزلية تدفعه الى التطور والارتقاء منذ الخليقة ، وقدرته على التطور — لو قيست بالحيوانات الاخرى — لكانت كبيرة الى حد بعيد . وسواء كون لنفسه فى المستقبل اختصاصات جديدة ، أو انه احتفظ بخصائصه ووظائفه الراهنة ، فانه سيتقدم حتما فى طريقه الى الامام خطوات كثيرة

وأول الاخطار التى صادفت الانسان على وجه الارض ، وملأت قلبه بالفزع والرعب كانت يوم أن وقع بصره على الحيوانات المفترسة ، تحوم حوله تبغى افتراسه والقضاء عليه . فكان لا بد له من حماية نفسه ، والتحايل لمقاومتها أو الهروب منها ، حتى يتسنى له البقاء . فوهبته الطبيعة أقداما قوية ، تمكنه من تسلق الاشجار وسيقانا سريعة تؤهله للفرار وهيكلا عظميا يتناسب وبيئته ، التى تحالفت فيها كثير من العناصر على الفتك به .

فلما تغيرت الظروف وتبدلت ، أخذ يعدل فى تركيب جسمه حتى وصل الى ما هو عليه الآن . وقد كانت المدنية باعثا قويا على سرعة تطوره ، اذ أفسحت المجال أمام العدد العديد من مختلف شعوب العالم ، لخلق أعمال جديدة ما كان للانسان بها عهد من قبل. وعلى الرغم من ان التكهن بما سيطرأ على ملامحه وأعضاء جسمه فى المستقبل أمر عسير ، الا أن هناك تغييرات مؤكدة لا بد من حدوثها ، يمكننا معرفتها على ضوء التغييرات التى تمت فيما مضى

وقد كتب الدكتور هارى شابيرو رسالة منذ عشر سنوات ، تناول فيها هذا الموضوع، قال فيها انه يرى أن قامة الانسان ستزداد طولا ، ودلل على ذلك بما قام به من أبحاث فى جامعة هارفارد . فقد لاحظ أن متوسط طول طلبة « الفرشمان » بالجامعة من عام ١٩٠٦حتى عام ١٩١٥ يزيد عن متوسط طول الطلبة بالسنة نفسها الذين التحقوا بالجامعة من عام ١٨٥٦ الى عام ١٨٦٥ بأكثر من بوصتين . ونحن نرى أن مبعث هذه الزيادة ، العناية الطبية وتنوع الاغذية وجودة الطعام والاهتمام بالنواحى الرياضية ، وان هذا الطول ليس أمرا طبيعيا يمكن أن يعد تطورا ! فقد دلت دفائن الأرض وبقاياها المتحجرة على أن أجدادنا الذين عاشوا فى العصور الغابرة ، كانوا أطول من معظم سكان أوربا اليوم . ويبدو ان الحجم الحالى للانسان هو انسب الاحجام ، فلو ازدادت قامتنا فى الطول لقلت كفاءتنا ومقدرتنا على العمل ، ولو أننا أصبحنا أكثر بدانة ، لبطؤت حركاتنا وثقلت أقدامنا واضطررنا الى الاكثار من كميات الطعام التى نتناولها ، مما لايتفق وسياسة الطبيعة فى التوفير والاقتصاد

وقيل أيضا ان المخ يكبر فى الحجم رويدا رويدا ، وان هذا التغيير سيكون بالنسبة للانسان أمرا جوهريا ، فهو يشير بأننا سنحسن استخدام ما لدينا من أذهان قبل أن نظفر بأذهان أكبر حجما وعقول أكثر ذكاء ومقدرة على التفكير . ولكننا اذا سلمنا بأن المخ والقامة سيواصلان النمو والتضخم ، فكأننا نسلم بأن الامطار ستتوقف عن الهطول لانها توقفت أحيانا . فليس لدينا من الدلائل ما يكفى للتثبت من صحة هذا الزعم ، واذا كانت الرؤوس بحجمها الحالى تجعل الولادة أمرا شاقا ، فماذا يكون الامر لو ازدادت فى الحجم فى المستقبل ؟ ومن جهة أخرى ، فانه لا يعقل أننا سنظل بنقائصنا وضعفنا من الناحية الفكرية ، وخاصة لو قدرنا ما طرأ على العقل البشرى من التقدم والارتقاء منذ أن غادر الانسان الاول الكهوف فى عصور ما قبل التاريخ حتى اليوم . ولكنه من المرجح ان يكون التغلب على ما نعانيه الآن من ضعف ونقص عن طريق تمحيص الذهن الحالى لا عن طريق كبر المخ وزيادة حجمه

واذا ألقينا جانبا حجم الجسم والدماغ ، فان تغييرات أخرى طفيفة ستتناول بعض أعضاء جسمه وملامح وجهه . وقد كانت القاعدة ولا تزال فى هذا التغيير والتطور مسايرة الانسان لمقتضيات الظروف ، وتكييف نفسه بحيث يتسنى له تأدية وظائفه على

الوجه الاكمل . فهيكل الانسان العظمى قد استقام ، وتمكن الجسم من الاحتفاظ باتزانه وهو مرتكز على القدمين بانحراف الرقبة الى الوراء لتظل الرأس مستقيمة ، وتفلطح الصدر حتى لا يتأرجح البدن الى الامام والى الخلف ، وكبر الحوض وتصلبه حتى يتحمل ثقل الجسم ، وامتداد الساقين عند الركب . وأصبحت قدماه ثابته مرنة وبقيت يداه كما هى لانها مكنته من تأدية كل ما كان يحتاج اليه من أعمال ، ولذلك ينتظر ان تحتفظ بشكلها لامد طويل

ولكن بعض الاجزاء فى هيكل الانسان العظمى ، لم تعدل بعد لتلائم القامة المستقيمة المنتصبة . فعلى الرغم من ان الساقين أكبر كثيرا من ساقى القردة ، فانها أضعف من أن تظل مدى الحياة قادرة على السير ، فبعد منتصف العمر تأخذ فى الضعف والارتجاف. ولعل أكبر نقط الضعف فى الهيكل العظمى تتمثل فى الكشح ما بين الخاصرة الى الضلع الخلفى « Lumbar Region » ولا ريب فى أن هذا الجزء من مخلفات الحيوان الماضى الذى تحدرنا منه . كما ان وظيفة الفقرة الصلبية لا تقتصر على حمل النصف العلوى من الجسم دون الاستعانة بالسيقان فحسب ، بل تعدوها الى تمكينه من الاستواء والانتصاب بانحنائها فى التقوس الصلبى ، وهى نصف دائرة ضعيفة التصميم . فلا وجه للغرابة اذا كان العمود الفقرى فى هذه المنطقة ينوء أحيانا بما فوقه من ثقل . كما أن عظام العجز تعانى مثل هذا الجهد ، حتى أن المفصل العجزى الحرقفى ينتقل أحيانا من موضعه قليلا مسببا ألما شديدا . لذلك فانه من المؤكد أن يستمر هذا الجزء من العمود الفقرى فى القصر وأن يزداد كثيرا فى الصلابة والسمك . وما هو شر من ذلك أن اعتدال القامة ترك البطن السيئة الخلق فى هوة متسعة بين الضلوع العليا والحوض السفلى ، مدفوعة من الخلف الى الامام بواسطة التقوس الصلبى . فاذا ما تضخمت فانها تترك لشأنها دون أن تظفر الا بسند ضئيل من الهيكل العظمى

ومن المؤكد ان الادمغة ستستدير عند جميع الشعوب فى كل انحاء العالم ، لان الرأس المستديرة أكثر توفيرا واقتصادا فى العظام التى تتطلبها عن غيرها من الرؤوس والادمغة. وقد أبدى الدكتور شابيرو بعض التكهنات عن انسان المستقبل ، يمكننا أن نثق بها تمام الثقة . فسيفقد الانسان دون شك ضرس العقل الذى كان مصدر ألم وقلق لكثيرين ، وقد بدأ يختفى فعلا . وسوف يفسح بذلك مكانا للاسنان الباقية ، التى يرجى أن تكون صغيرة الحجم . كما أننا سنفقد أصابع القدم فقد انعدمت فائدتها ، وقد تقلص الآن حجمها وضمرت أظافرها . ويقول الدكتور شابيرو أننا سنفقد أيضا الشعر الذى يغطى أجسادنا ورؤوسنا ، فقد بدأت آثار الشعر التى ورثناها عن أسلافنا من القردة أن تزول وأصبح الصلع وراثيا فى كثير من العائلات وعجز الطب عن علاجه وايقاف تياره

ملخصة عن فصل من كتاب « مانكايند سوفار »

أقصوصة تاريخية فى حوار

الطفيـلى

بقلم الأستاذ طاهر الطناحى

[وقعت القصة فى قصر الخليفة المأمون وهو فى مدينة « مرو » بخراسان ، وكان عمه ابراهيم بن المهدى قد ثار عليه ببغداد وخلعه، وفر اسحاق الموصلى المغنى الى المأمون مع سائر انصاره]

المأمون (فى مجلسه مخاطبا الحاجب) : ما وراءك يا سراج ؟

سراج (الحاجب) : عامل البريد يا أمير المؤمنين

المأمون : هات ما عنده

سراج : سمعا وطاعة .. (يذهب فيحضر كتابا جاء به البريد من ابراهيم بن المهدى ويقدمه للمأمون)

المأمون (يقرأ الكتاب فى صمت) ثم يقول فى غيظ :

ـ ويله .. ثم ويله .. ويل ابراهيم بن المهدى يدعونى لطاعته ويحذرنى من معصيته، ويتوعدنى ان خالفت أمره ، ويجلس على عرش آبائى ، ويدعو نفسه أمير المؤمنين بعد « الرشيد » .. قاتله الله .. والله لأرسلنها عليه حربا شعواء، حتى تأكله وتأكل رجاله (ثم ينادى) : ليحضر قائدى حميد بن عبد الحميد

حميد (يحضر) : لبيك يا أمير المؤمنين

المأمون : يا حميد جند الجنود ، وارفع البنود ، واذهب الى بغداد ، وابطش بابراهيم وانصاره

حميد : سمعا وطاعة .. (ثم يخرج)

سراج (الحاجب) : قاضى القضاة يحيى بن أكثم ، واسحاق الموصلى المغنى بالباب يا مولاى ..

المأمون : ليدخلا

(يدخلان ، وقد وضع اسحاق يده فى يد يحيى)

بعض الخدم (فى همس) : يا عجبا .. يدخل قاضى القضاة على الخليفة ، ويده فى يد مغن !..

خادم آخر : سمعنا بأعجب من ذلك فقد نادى الناس فى بغداد بابراهيم بن المهدى « المغنى » أميرا للمؤمنين ، وخليفة للمسلمين

المأمون (لقاضى القضاة) : كيف حال قاضى القضاة ؟

يحيى بن اكثم : الحمد لله يا أمير المؤمنين

المأمون : وكيف حال القضاء ؟

يحيى : ان سياسة القضاء أشد من القضاء

المأمون : أصبت .. خبرنى ، ما قولك فى « المانوية (١) » ؟

يحيى : هم زنادقة ضالون مضلون ، وقد علمت يا أمير المؤمنين ان دينارا رئيس الشرطة قد قبض اليوم على عشرة منهم

المأمون للحاجب : ادع لى دينارا ، ومره ان يحضر معه الزنادقة

دينار (يحضر ومعه الزنادقة) : لبيك يا أمير المؤمنين .. ها هم الزنادقة الذين قبضنا عليهم اليوم باطراف المدينة

المأمون (ينظر اليهم فيراهم احد عشر رجلا) فيقول :

ـ هؤلاء أحد عشر رجلا ، وليسوا عشرة كما قال قاضى القضاة ؟!

(يتقدم الرجل الحادى عشر من بينهم) ويقول للمأمون :

ـ يا أمير المؤمنين أنا لست زنديقا ، ولا اعرف من الزندقة شيئا ..

المأمون (لدينار) : ومن هذا يا دينار ؟..

دينار : والله ما أدرى الا أن الشرطة وجدوه معهم ، فساقوه بينهم !..

المأمون (للرجل) : ما خبرك يا هذا ، وما جاء بك معهم ؟

الرجل : امرأتى طالق يا أمير المؤمنين ان كنت والله أعرف هؤلاء أو اعرف من أمرهم شيئا .. وانما أنا رجل « طفيلى » !..

الحاضرون (فى ضحك) : طفيلى !..

الرجل : نعم طفيلى . رأيت هؤلاء العشرة مجتمعين ، فقلت : « ما اجتمع هؤلاء الا لوليمة طيبة ، فدخلت فى وسطهم ، ومضيت معهم فاركبهم الموكلون بهم سفينة ، فرأيت فرشا ممهدا وخبزا وسلالا مملوءة فقلت « نزهة لطيفة يمضون فيها الى بعض البساتين والقصور ، وهذا يوم سار » وبشرت نفسى ، ولكن لم أر نزهة ولا بستانا .. وبينما نحن كذلك اذ جاء الشرطة ، فقيدوهم وقيدونى معهم ، وأنا لا أدرى شيئا فقلت لهم :

ـ يا قوم ايش انتم ؟..

فقالوا :

---

(١) المانوية هم أصحاب « مانى » ويقولون بأن الكون نشأ من النور والظلام

ـ بل ايش انت .. ومن أنت .. أمن اخواننا ؟

فقلت : كلا ، بل أنا طفيلي أحببت ألا تتركوني دون هذه النزهة الجميلة ، والوليمة المباركة !

فتبسم القوم ، والتفت بعضهم الى بعض وضحكوا .. ثم قالوا لي : « لقد حصلت في الاحصاء ، وأوثقت في الحديد . أما نحن فزنادقة مانوية ، أمر المأمون بالقبض علينا » ووالله يا أمير المؤمنين ما أدري من هو ماني ، وهل هو امرأة أم رجل ، وهل هو حيوان أم انسان ؟

المأمون (يضحك ويقول) :

ـ يا دينار فك قيد هذا الرجل ..

يفك قيده

الطفيلي : شكرا لامير المؤمنين أأنصرف ؟

المأمون : كلا . بل انتظر ها هنا

الطفيلي : ألوليمة أخرى يا سيدي !..

المأمون (ضاحكا) : أجل لوليمة لطيفة ، ولنزهة طريفة !..

(ثم يلتفت الى الزنادقة)

المأمون : وماذا تقولون يا هؤلاء عن الكون ؟

احدهم : نقول ما قال « ماني » انه نشأ من النور والظلام ..

المأمون (لباقيهم) : وانتم تقولون بهذا القول ؟!

الجميع : يا أمير المؤمنين هذا رأينا ، وما عليك لو تركتنا . وقد قال الله في القرآن « لكم دينكم ، ولي دين » !..

المأمون (لدينار) : يا دينار اذهب بهؤلاء الى ظلام السجن ، اذهب بهم الى ظلام الكون أعماهم الله !..

الزنادقة : عفوا يا أمير المؤمنين عفوا ..

المأمون : اخسأوا .. قاتلكم الله ..

(يدفعهم الجنود ، ويخرجون)

المأمون (للطفيلي) : وأنت يا هذا تطفلت ، فغامرت ، اني والله لأكاد أقذف بك معهم

الطفيلي : عفوا يا أمير المؤمنين الا أن تكون هناك وليمة لطيفة ونزهة طريفة ، فاقذف بي معهم ان شئت ..

يضحك المأمون ، ويعفو عنه وينصرف

طاهر الطناحي

روابط الأمم

الفرعونية . الفينيقية . العروبة . الصهيونية
الســـلالة . القرابة القومية . الانسانية

أقوى عاطفة اجتماعية تتحرك فى الانسان هى عاطفة القومية ، على ظن أن القوم هم من سلالة نسلية واحدة . فالعشيرة فى نظر بنيها هى مجموعة أسرات متفرعة من أصل واحد أو جد واحد . ولذلك يعد أفرادها أنفسهم ذوى قربى . فالعاطفة القرابية اذن مركز العاطفة القومية والشعوبية أيضا. وعلى الرغم من أن الامة قد اندمجت فيها أسرات من أمم أخرى ، أو أن الشعب خليط عناصر من أمم وشعوب ، تبقى العاطفة القومية أو الشعبية أقوى العاطفات الاجتماعية . وبالطبع أقوى منها العاطفة القرابية ، لان السلالة النسلية ظاهرة فيها من ناحية الابوة . وقلما يفطن الى أن السلالة امتزجت فيها عناصر أسرات أخرى من ناحية الامومة

العاطفة القومية قوية جدا الى حد تضحية الافراد لاجل القوم ، بسبب أن أفراد القوم يعتقدون أنهم تسلسلوا من أصل واحد ، وأن دما واحدا ينبض فى عروقهم جميعا. وقلما يفطنون الى العوامل الاجتماعية الاخرى التى تربطهم ، كاللغة والدين والاقليم ووجوب الدفاع عن الوطن الخ . فالمصرى يزعم أنه مسلسل من دم فرعونى، والسورى من دم فينيقى ، والعراقى من دم أشورى بابلى . الخ ، على يقين أن ما طرأ على السلالة من عناصر أجنبية ، لم يكن بكثرة الى حد أن تفقد السلالة ذاتيتها

على أن القوم يجهلون أن قوميتهم من صنع العوامل الاجتماعية المتعددة ، وأن الأسرة فقط من صنع العوامل البيولوجية . ويجهلون على الخصوص أن القرابة التى يسمونها قرابة دموية ، ليس فيها من التسلسل الدموى شىء بتاتا . لان دم كل شخص مصنوع فى نخاع عظامه له وحده . ولم يدخل الى عروقه حويصلة واحدة من أبيه. ولا كرية واحدة من دم أمه . ان فكرة اشتراك الأسرة أو السلالة أو القبيلة أو الامة فى دم واحد ، انما هى فكرة خاطئة جدا . حتى ان فكرة تكوين الجنين من لحم أمه ودمها وعظمها خطأ فاضح أيضا . لا تقدم الام لجنينها الا البويضة الملقحة ، والغذاء له من المواد التى هضمتها وكانت هى تتغذى بها . والامر واضح فى الحيوانات البائضة ، فان جنينها يتغذى ويتكون لحما ودما من الزلال والمح المخزونين فى قشرة البيضة

فروابط الأسرة اذن بيولوجيـة واجتماعية معـا ، وأما روابط الامة أو الشعب فاجتماعية فقط . تلك بيولوجية لان التناسل فيها واضح لا يزال محصورا ، واجتماعية

أيضا لان عشرة الاهل والاقارب فى بيئة واحدة محدودة جعلت لها رابط القرابة متينا جدا . ورابطة الامة اجتماعية فقط لا بيولوجية ، لان الرابط النسلى توزع وتبدد ، واختلطت به الانسال المختلفة . ورابطة الشعب ضاعت فيها الروابط النسلية ، بما امتزج فى الشعب من سلالات أخرى . والفرق بين الامة والشعب أن الامة أقل تلوثا بسلالات أجنبية ، والشعب خليط سلالات مختلفة

كذا شعوب هذا العصر جميعا

عبرنا فيما تقدم الرابط البيولوجي عبورا سريعا ، فنأتي الآن الى روابط الامم والشعوب الاجتماعية . وهى روابط قوية ، وفيها منشأ العواطف القومية المتفاوتة بين الامم

أهم الروابط : أولا الاقليم أو الوطن الجغرافى الذى يتزاوج فيه الشعب ، ويتعاملون تعاملا محتوما فى صنوف الارتزاق والمعيشة كل يوم

ثانيا : اللغة لانها واسطة التفاهم بين أفراد الامة ، والاعراب عن روح التعاون والتضامن ففيها تتحرك عاطفة المودة والاخاء

ثالثا : الدين وفيه وسيلة الاشتراك الروحى والاشتراك العقلى فى عقيدة واحدة ، تشد رباط المحبة والاخاء وتوطد السلام الى حد بعيد

رابعا : الحرص على سلامة الوطن من غزو الامم الاخرى

هذه أهم الروابط لكل أمة وشعب ، فضلا عن روابط أخرى ذات شأن كضرورة المعاملة والثقافة واللهو والزى والعادات التقليدية الخ

ضمن هذه الروابط تتكون الجنسية الوطنية أو القومية وفيها تربى العصبية . وهى تعصب المرء لقومه أو وطنه والدفاع عنه بكل قوته . ولا تقتصر الجنسية على السلالة ولا السلالة محسوبة مادة لها . وانما أصبح ما يسمونه الآن وطنا ، هو الرابط الاقوى للقوم مهما اختلفت سلالاتهم وأصول جنسياتهم . وأظن ان الأمم الاميركية أوضح شاهد على ذلك

الولايات المتحدة الاميركية تضم عناصر من جميع الامم بلا استثناء . ولان المهاجرين الاولين كانوا انجليزا ، استمرت اللغة الانجليزية لغة القوم والديانة المسيحية ديانتهم . وصار كل من هاجر اليها ، يضطر أن يتكلم الانجليزية ويدين بالمسيحية ، وقل من بقى يدين بغيرها . وأربت فيها الاجناس الاوربية وغيرها على الانجليز ، ولكن بقيت اللغة الانجليزية سائدة . وعلى الرغم من أن أهلها الحاليين لا يزالون يعرفون جنسياتهم السابقة ، فهم يتعصبون لوطنهم الجديد . وقائد جيشهم الاعلى الآن المارشال أيزنهور المانى الاصل ولكنه يحارب الالمان بكل قوة وشدة

فالقومية الوطنية التى تربطها اللغة والدين والاقليم والمصلحة المشتركة ، هى التى تدفع القوم للدفاع عن قوميتهم ، ولا شأن هنا للدم ولا للسلالة النسلية أى انه لا شأن للرابطة البيولوجية بتاتا

ان التعصب لفكرة أن القوم الواحد نتاج سلالة واحدة ، وأن الدفاع عنه لاجل بقاء هذه السلالة نقية من دماء السلالات الاخرى ، لهو تعصب ضار بالمدنية العصرية التى تحتم الاختلاط والامتزاج ، فضلا عن ان الفكرة خاطئة كما تقدم

والغريب جدا فى هذا العصر ان بعض الدول المستعمرة تحرم مهاجرة بعض الامم الى مستعمراتها كاوستراليا ونيوزيلاندا مثلا . وبعض الممالك تصعب جدا على الاغراب فيها اقتباس جنسيتها ، ذلك على الرغم من أن القبائل القديمة كانت تقبل بلا شرط ولا قيد اندماج أفراد من قبائل أخرى تمنحهم فى الحال جميع الحقوق التى للقبيلة

والشاهد على ذلك ما ورد فى توراة موسى فى سفر اللاويين الاصحاح التاسع عشر الآية ٣٣-٣٤ « واذا نزل عندك غريب فى أرضكم فلا تظلموه . كالوطنى منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم . وتحبه كنفسك لانكم كنتم غرباء فى أرض مصر . أنا الرب الهكم »

وكذلك فى سفر العدد الاصحاح ١٥ والآية ١٥ « أيتها الجماعة لكم وللغريب النازل عندكم فريضة واحدة فريضة دهرية فى أجيالكم . مثلكم يكون كمثل الغريب أمام الرب . الشريعة واحدة وحكم واحد يكون لكم وللغريب النازل عندكم »

ان تحريم اندماج عناصر أجنبية بالقوم الوطنى فى هذا العصر لمن الغرابة بمكان . هل بعد اندفاع الامم منذ القديم فى تيار المهاجرات وامتزاجها بعضها ببعض تقوم دول هذا العصر فتضع الحجب والفواصل بين عناصر الامم ؟ وهل بعد ان حاربت الولايات المتحدة الاميركية بعضها بعضا ، لاجل تحرير العبيد الزنوج وادماجهم بالامة ، تقوم بعض الدول فتمنع امتزاج الصفر بالبيض والاسيويين بغيرهم ؟ أية أمة من أمم الارض تستطيع الآن أن تقول انها أمة نقية من دماء الامم الاخرى ان صح ان الدماء تتسلسل ؟

كانت الامة السورية ولا تزال الى الآن تقول انها من سلالة فينيقية . ومن أى أصل كانت السلالة الفينيقية ؟

لا نبحث فى أصل الامة الفينيقية ، الذى كان خليطا من الماديين والعيلاميين والسومريين والبابليين والعرب أيضا — نزحوا من شط العرب عند خليج العجم الى سوريا والى شواطئها فى مئات من السنين . وبرعوا فى فن الملاحة فخاضوا البحر الابيض المتوسط حتى أن بعثة منهم طافت حول افريقيا الى ان عادت الى البحر الاحمر

فهؤلاء الذين سموا فى ذلك الزمن فينيقيين ، طافوا فى جميع شواطىء البحر المتوسط كتجار ، وأنشأوا مدنا وأساكل . واختلطوا بجميع الامم التى فتحوا بلادها تجاريا . وكانوا يعودون الى وطنهم الفينيقى بأنسال غريبة عن سلالتهم

فقبل ان تمتد سيادة الامبراطورية الرومانية ، كانت السلالة الفينيقية قد تلوثت بسلالات عديدة أخرى . ولما استفحلت الامبراطورية الرومانية وانتشرت العناصر اللاتينية واليونانية فى آسيا الصغرى وسوريا ، لم يبق فى الامة السورية الا بقايا يسيرة

من السلالة الفينيقية . فما قولك بها بعد اضمحلال الامبراطورية المذكورة ، وطغوان الفتح الاسلامى ، وامتداد الامبراطورية العربية ، اذ أصبح أهل سوريا مزيجا (ولا أقول خليطا) من عرب وروماں ويونان وافريقيين . ولما توالت الحروب الصليبية دخل على المزيج عناصر أوربية . وكان قبل تداول البابليين والمصريين لسوريا ، وهى بينهما يحدث مثل هذا المزيج : فلا يمكنك ان تقول ان سوريا الآن فينيقية . ان سوريا اليوم هى ما انتهى اليه أمرها من تغلب العروبة على لغتها ودينها ، وأصبحت تقاليدها عربية لا غش فيها بحسب العوامل الطبيعية لتكوين الامم

والغريب فى مصر بعد انقضاء دول الفراعنة ، وتقلب دول أخرى غريبة عليها ، قام فى العهد الاخير أناس يزعمون أن المصريين من سلالة الفراعنة . ومن أين أصل الفراعنة ؟ راجع مسبرو وروولنصن وغيرهما من المؤرخين المحققين تعلم ان الامة الفرعونية سلالة أقوام سامية ، وفدت الى مصر من بلاد العرب عن طريق باب المندب الى الحبشة فأعالى السودان فوادى النيل . وكانوا على الاكثر عربا أكثر مما هم آشوريين وبابليين . ولا أظن أن المصريين اليوم يقبلون أن يردوا أصل السلالة الفرعونية ، التى يريدون الالتجاء اليها الى سلالة افريقية زنجية

الامم الفرعونية سامية الاصل . واللغة الهيروغليفية أخت اللغات السامية ، وبينها اشتراك فى كثير من الكلمات والروابط النحوية ، كأسماء الاشارة والضمائر وأسماء الموصول الخ ، الامر الذى لا يبقى شكا بأن الامم الفرعونية مشتقة من الاصل السامى ، الذى اشتقت منه العربية والعبرانية والسريانية والفينيقية الخ

مع ذلك لا تستطيع أن تقول ان الامم الفرعونية استقلت بفرعونيتها وحافظت عليها . فقبل ان تنقضى دول الفراعنة ، كان الرومان واليونان قد طغوا على مصر وامتزجوا بقومها . ثم خلفت دولة البطالسة الدولة المصرية الاخيرة ، ثم غزتها الامبراطورية الرومانية . وما لبث أن فتحتها الدولة الاسلامية العربية فالعثمانية . فحدث فى عهد هذه الدول الاجنبية المتعاقبة ، امتزاج كثير بين ناسها وأهل مصر حتى تلاشت السلالة الفرعونية فى أمة جديدة عربية وليدة تلك العناصر

ولا يخفى على القارىء أن العنصر العربى لقح العنصر المصرى مرتين على الاقل . الاولى فى زمن الرعاة (الهكسوس) والثانية بعد الفتح الاسلامى . فتحولت لغتها الى عربية ودياناتها الى اسلامية ، فهى الآن بحكم العوامل الاجتماعية التى تكون الامم أمة عربية لا ريب فى عروبتها ، حتى ولا ريب فى تسلسلها البيولوجى ان أمكن تحقيق هذا

وأظن ان الامة العراقية الحالية ، أقل الامم العربية تعصبا لتاريخها القديم ، فهى لا تعرف نفسها الآن أشورية أو بابلية بل أمة عربية فضلا عن أنها فى الاصل بابلية منحدرة عن احدى الفروع السامية أيضا . ولكنها بما تغلب عليها من العناصر الفاتحة ، ضاعت أو تلاشت سلالتها القديمة . ولما جاء الفتح الاسلامى صارت عربية بحتة لغة ودينا ،

وتلقحت بالعنصر العربى ، وعلى الرغم من الطغيان الورانى أو التركى عليها بقيت عربية صرفا . وكذلك الطغيان التركى لم يلاش العربية فى سوريا

مثل ذلك يقال فى بلاد شمالى افريقيا . فهى مزيج من الامم الاوربية والفينيقية القديمة التى استعمرت شواطىء افريقيا . ولما جاء الفتح الاسلامى صبغها صبغة عربية باللغة والدين ولقحها بالعنصرية العربية . فهى الآن عربية ولا شك فى عروبتها . وقد ضاعت أصولها

ليس لامة على الارض اليوم أصل أكيد

والغريب ان مالطة خليط من الامم اللاتينية والعربية ، وهذه غالبة فيها لان لغتها فى جدول تسلسل اللغات معدودة عربية . تحقق ذلك فى دائرة المعارف البريطانية تحت عنوان لغة ولكن المالطيين يستكفون أن يقال انهم عرب فى الاصل ، وان لغتهم عربية ممسوخة

***

علم القارىء مما تقدم أنه ما من أمة على سطح الارض تستطيع ان تزعم انها ذات سلالة نظيفة من سلالات أمم أخرى . فما هى روابط الامة اذن ؟

اللغة هى أقوى رابط فى تكوين الامة ، وتليها رابطة الدين . والدين وحده لا يكفى رابطا لامة من الامم بل قد يكون أحيانا مضعفا للوطنية ، اذا اشتمل الوطن الواحد على أكثر من دين واحد ، لما فيه من التفريق فى عنصرية الامة . كما ان اختلاف اللغة فى قوم دينى واحد يفرق بين أهل الدين . أوربا كلها مسيحية ، فانظر ما بينها من العداء والعدوان

وكان من رعايا الدولة العثمانية عرب مسلمون واتراك مسلمون ، ومع ذلك لم يربطهم الاسلام لان اللغة تفصلهم على الرغم من أن ٦٥ بالمائة من كلمات اللغة التركية كلمات عربية . والقرآن يوجب على الاتراك المسلمين أن يقرأوه باللغة العربية . ولما أتيحت الفرصة للعرب فى الحرب الكبرى الماضية انفصلوا عن الترك وحاربوهم . فما كانت رابطة الدين أقوى من رابطة اللغة

تختلف الامم الآن بعضها عن بعض ، ليس بالسلالة لان السلالات جميعا تلاشت بعضها فى بعض ، وانما تختلف فى مدنيتها وعمرانها وعاداتها وهذه تتوقف على ثقافاتها ، فلا يميز الاوربى نفسه عن الصينى والهندى باعتبار أنه من سلالة أشرف وأنقى بل باعتبار أنه أرقى ثقافة وتمدنا

وقد ظهر أخيرا داء السؤدد فى بعض الامم . فالالمان فتنتهم نظرية مفكر من مفكريهم « نيتشه » بان الامة التى تريد أن تكون سيدة الامم ، يجب ان تنتج انسانا متفوقا يفوق فى قدرته البشر . زعموا انه فيلسوف ، وهو افتتن بنفسه ، ولكن فتنته ما جازت على الاوربيين حتى ولا على قومه الالمان فوصفوه بالحمق . ولكن نظريته صادفت هوى من

المولعين بالسؤدد ، كالامبراطور غليوم الذى اعتقد ان الانسان الالمانى متفوق ، ويجب ان يسود جميع الامم . فأثار الحرب الماضية لهذا الغرض ففشل ، وظهر بعده هتلر مفتونا هذه الفتنة وظهر أنه فاشل ، فالفكرة من أصلها فاشلة حمقاء

واعتصم هتلر وأعوانه بنظرية ان الشعب الالمانى نوردى الاصل Nordic ، وفى هذا الاصل جرثومة التفوق . ولما رام أن يستميل اليابان اليه ، رام أن يبرهن لليابانيين أنهم من أصل نوردى ، وانهم أقرباء الالمان من أرومة واحدة . فأوعز الى استاذ أجناس البشر فى الجامعة ، أن يلقى محاضرات يبرهن فيها على ذلك . فاستنكف الاستاذ أن يخرج عن الحقيقة الى الضلال ، لئلا يصير هزأة بين زملائه العلماء فأعرض عن الطلب . ولما تكرر أمر هتلر له مرتين وهو يأبى أن يلبى ، أوعز اليه أحد أصدقائه أن يفعل أحد أمرين : اما ان يجيب الطلب أو أن يرحل عاجلا ، والا كانت نهاية حياته فى معسكر المعتقلين ، ففر الى سويسرا ومنها الى انجلترا ولا يزال فيها الى الآن . قرأت هذه القصة فى كتابين

أما مسألة النوردية كسلالة قائمة بذاتها فقد ظهر انها اختراع أحد المؤرخين لغرض . ومثلها نظرية الآرية كلتاهما لا تثبتان أكثر مما تثبت الفينيقية أو الفرعونية اليوم

بقيت كلمة لا بد منها بشأن جنسية اليهود التى يتوسلون بها الى مشروع الوطن القومى الصهيونى فى فلسطين . وأمر هؤلاء اليهود غريب جدا ، فقد شذت رابطتهم عن روابط جميع الامم . فليست لهم رابطة الا رابطة الدين فقط أو بالاحرى رابطة العقيدة الاجتماعية وبالأخص الثقافية . فلا يمكن أن تقول انهم سلالة قائمة بذاتها متسلسلة من عهد موسى أو أرميا أو عاموص . بل هم دون جميع الامم طائفة دينية « ملمة » من جميع الامم لو جمعتها فى صعيد واحد ، لما وجدت تشابها بين جماعاتها شيء سوى العقيدة . فلا لغة ولا تقاليد ولا مدنية تجمعهم . وهم فى القديم طائفة مركبة من كثير من أمم الشرق وأمم البحر المتوسط ، ثم الامم الاوربية . لان يهود اليهودية والجليل الذين لم يشغلوا الا شرقى البلاد المسماة الآن فلسطين ، تشتتوا مرارا تحت أحكام الفاتحين من الاسكندر الى طيطس ، وتغلغلوا فى أوربا وافريقيا . ولما كانت ديانتهم روحية ، وكان الاههم واحدا يتسامى على المادة ، رأى الوثنيون أن الديانة اليهودية أرقى من ديانتهم الوثنية ، ورأوا الاههم أعظم شأنا من الاوثان ، فاعتنق كثيرون ديانتهم ولا سيما لان شريعتهم تجعلهم الشعب الخاص لله ، وتمنحهم تفوقا على جميع الامم

فاليهود المتشتتون فى العالم الآن ليسوا فى الاصل من سلالة اسرائيل بل هم من أجداد وثنيين . ترى ذلك جيدا فى سحنهم ، وفى تقاليدهم وثقافاتهم ، فاليهودى فى بولاندا بولاندى بكل معنى الكلمة سوى العقيدة الدينية وفى ألمانيا ألمانى كهتلر نفسه وفى اسبانيا اسبانى الخ . وهم يختلفون عن يهود الشرق فى بهق بشرتهم وازرقاق عيونهم ، واصفرار شعورهم . فلا يتصلون بأية علاقة بيهود فلسطين الحاليين ولا رابطة

تربطهم معهم بتاتا حتى بالعاطفة الدينية يتنافرون . لا رابطة بين جماعات اليهود المتشتتة في العالم الا رابطة واحدة وهي شريعة موسى وتعاليمه فقط . هي سر ارتباطهم لانها تسيغ لهم حقوقا لا تسيغها لغيرهم ، ولا تسيغها شريعة أخرى لاحد . ولا محل للتوسع بهذا الموضوع الآن

اليهود ليسوا سلالة بل هم جمعية ذات غرض أناني واحد . وبعض الباحثين يقولون انهم ذوو غرض واحد ، وهو ادخار ثروة العالم بغية السيادة على العالم

اذن دعوى الصهيونيين بأن فلسطين بلادهم ، وهم عائدون اليها لانشاء وطنهم القومي فيها وتأسيس دولة يهودية انما هي دعوى باطلة لا أساس لها البتة ، انما أهل فلسطين الحقيقيين هم سكانها المقيمون بها . كانوا في الاصل يهودا ثم تنصر كثيرون منهم ، ثم أسلموا الا قليلين ، وصارت العروبة رابطتهم الشرعية القانونية

بقيت لنا كلمة وجيزة يجب ان يختم بها هذا المقال وهي أن هناك رابطة انسانية تربط جميع الامم ، هم الذين يصح القول فيهم انهم من سلالة واحدة ــ بنو آدم وحواء ــ هم سلالة انسانية آدمية واحدة مهما تشعبت السلالات وتمازجت . ولكن لسوء الحظ رابطة الاقوام القومية أي رابطة اللغة لا تربطهم . فكيف يمكن أن يعودوا أمة واحدة أو أخوة واحدة بحيث يتمهد السبيل لتفاهمهم وتلافي تخاصمهم . واذا كانت اللغة هي الرابطة الاقوى للامم ، فلا يمكن أن تعود الامم جميعها أمة واحدة انسانية ، الا اذا صارت ذات لغة واحدة كما كانت لعهد أبناء آدم واحفاده . فلماذا لا يكون للعالم الآن لغة واحدة تربط عناصره وتلاشي تناحره

« الله كريم »

ن . ح

ــ خير ما يلتقي الرجل ، زوجة وفية

ــ صحبة الافاضل خير من الثروة والعقار

ان طرق التخدير الحديثة الآمنة ، التى وفرت للجراح كل ما يعوزه من وقت ، ستحدث حتما ثورة فى عالم الجراحة

عالم الغد بدون ألم

تناول العلم دراسة الألم مدة تزيد على المائة سنة ، وعلى الرغم من ذلك فانه لم يكشف الستار عن أصل الألم وحقيقته الا منذ عهد قريب جدا . ففى عام ١٩٣٢ قبل غلام فى مستشفى جون هوبكنز ، لاحظ الاطباء قشورا منتشرة فوق جسمه كله ، ولما سئل أبواه عن مصدرها ، قالا انها آثار حروق أصابت الطفل ، اذ أنه كان منذ حداثته يحمل الاطباق الساخنة ويرفع الحلل من فوق المواقد دون أن يشعر بألم . وقد أحيل الى اخصائيين لفحصه فوجدوا ان الصبى لا يعانى مرضا من الامراض العصبية ، ومع ذلك فانه لم يشعر بشىء من الألم حينما أدخلت فى لحمه وجسمه ابر حادة على سبيل التجربة

وبعد مضى خمس سنوات ، أدخل فى نفس المستشفى طفلان من هذا النوع ، ذكر وأنثى ، تعرضا لسلسلة من الحوادث والاخطار لعدم تجنبهما لها نتيجة فقدانهما للحساسية بالألم . وقد يظن أن هؤلاء المرضى هم مجرد شواذ ، ولكن العلم على الرغم من ذلك أفاد من حالاتهم كثيرا ، وخلص بمعلومات هامة . فقد ثبت أن الشخص العادى شديد الحساسية بالألم ، لان جسمه مغطى بما يتراوح بين ثلاثة وأربعة ملايين من نقط الألم ويطلق عليها بعض العلماء اسم « مواضع استقبال الألم » « Pain Spots » . فمن الواضح اذن أن أجسام الاطفال الثلاثة المتقدمين كانت تخلو من مثل هذه النقط . ولكن جاء الوقت الذى شعر فيه هؤلاء الغلمان الطفحات بالألم ، الألم الشديد الطاحن ، الذى كان يتأجج وينبعث من الداخل

ولقد أثبت ذلك صحة النظرية القائلة بوجود نوعين مختلفين من الألم ، الألم العادى الذى تستقبله نقط مواضع الألم المنتشرة فوق الجسم ، ثم الألم الذى نحس به داخل الجسم بسبب حدوث اصابة أو علة فى الأنسجة . وكل منا يعرف الفرق بين هذين النوعين ، فالألم الذى يعترى الجسم بسبب مؤثر خارجى يزول بسرعة ، ولكن الألم الواخز المبرح بسبب مرض فى الكلية أو المثانة أو الامعاء يكون أحيانا بدرجة من الحدة لا يمكن معها احتماله . وقد تعمق العلماء أخيرا فى بحث هذا الموضوع ، وقتلوه درسا واستقصاء

ويعتقد الجراح الفرنسى المشهور رينيه ليريش ، انه لا وجه للمقارنة بين الاحساس

عن طريق مواضع الألم فى الجلد والألم الحقيقى الذى يقاسيه شخص بسبب مرض من الامراض ، وقد شاهد حالة ظل فيها المريض يتوجع من ألم قاطع ممزق لمدة ثمانية عشر عاما دون انقطاع ، وهو لذلك يرى أن فى الجسم « أعصابا » معينة للألم لا تكف من ايلام صاحبها مهما طال أمد مصدر الألم . وقد تمكن العلماء بدراسة الحالات الشاذة من كشف الستار عن أنواع الألم التى يصلى الجنس البشرى بلهيبها

وقد كان طبيعيا أن تتضافر الجهود للتغلب على هذا العدو فى شتى معاهد البحوث الكائنة فى مختلف البلدان . والتخدير باستنشاق الغازات عند اجراء العمليات الجراحية ، أمر مألوف للاطباء منذ مائة عام ، ولكنه لم يتقدم تقدما فعليا الا منذ عام ١٩٢٩ حينما بدىء باستعمال غاز « الفنيثين » Vinethene فقد دل الاختبار على أنه أسلم استعمالا من غازى الاثير والكلوروفرم . فعلى الرغم من الفائدة الكبيرة التى عادت على البشرية من استعمالهما بطرد شبح الفزع والذعر من نفوس المرضى والجرحى فى حجرات العمليات ، الا أنهما ظلا بعيدين كل البعد عن اعطاء النتائج المرجوة . فكثيرون فارقوا الحياة كنتيجة للتخدير بهما ، وكثيرون حرموا من معونة الجراحة لان أطباءهم أدركوا ان التخدير بهذين الغازين قد يودى بحياتهم

وبعد اكتشاف غاز « الفنيثين » بأربع سنوات ظهر « السيكلوبروبين » Cyclopropane وقد مهد هذا الغاز الطريق الى كثير من التحسينات الكبيرة البارزة ، فقد كان أسرع فعلا وأقل خطرا مما سبق استخدامه من غازات . ثم استعمله المجربون مع غاز الاكسجين ، ومن المعروف أن الاكسجين عنصر مضاد فى تأثيره ، مغاير فى خصائصه للمخدر ، فهو ينعش الجسم أكثر مما يدفعه الى التراخى ويدعوه الى النوم والسبات . ومع ذلك فهو عنصر ضرورى لازم للحياة ، وقد وجد انه عندما يعطى المريض مع المخدر قدرا مناسبا منه ، يظل القلب وبقية أعضاء الجسم فى عملها العادى دون خلل أو اضطراب . وكنتيجة لهذا الكشف بدأ الكيمائيون والمعنيون بدراسة الادوية والمهندسون يتعاونون مع الاطباء فى معركة القضاء على الألم

وقد كان الاقتصاد باعثا الى الخطوة التالية الموفقة فى هذه الابحاث ، فالاكسجين غالى الثمن والسيكلوبروبين يفوقه فى الغلاء بدرجة كبيرة ، وكلاهما قابل للانفجار ، وعلى ذلك لم تكن طريقة صب الغاز العتيقة فى أنف المريض وفمه أمرا ميسورا فى حالة استعمال هذا الخليط الجديد من الغازين . فقام المهندسون بصنع آلات خاصة لانتاج هذا المزيج الغازى ، تمكن الطبيب بفضلها من ضبط الكمية التى يريد اعطاءها للمريض ، وفى الحال هبطت نسبة الموتى بين من تجرى لهم العمليات الجراحية

ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه الى صنع جهاز يقوم بمهمة التخدير نفسها ، فتصل كمية الغاز المطلوبة الى قناع يغطى أنف المريض وفمه باحكام ، فيتجمع ما يخرجه المريض فى زفيره من بخار الماء وثانى أكسيد الكربون فى هذا القناع ، فتمتصه

الآلة مع الغاز الفائض فى فترات متقاربة لتعيده اليه نقيا محتفظا بنسبة تركيبه . فبفضل هذا الجهاز الدقيق ذى المقاييس العديدة والصمامات ، أصبحت عملية التخدير تسير سيرا جميلا دون اسراف أو تبذير ، وأصبحت درجة حرارة الغاز الذى يستنشقه المريض تحتفظ بحد معين معروف، الامر الذى له خطره وأهميته ولا سيما فى العمليات الجراحية الكبيرة

وقد أصبح من الميسور الآن اجراء عمليات تستغرق الساعات الطوال ، كان من المتعذر اجراؤها باستعمال طريقة التخدير القديمة . وفى الحرب الماضية مات كثير من الجنود ، وظل كثيرون غيرهم بعاهاتهم وعللهم لمجرد عجز الاطباء عن الاحتفاظ بهم دون وعى مدة تمكنهم من اصلاح ما تشوه من أبدانهم أو ازالة أسباب عللهم . وبينما كان الجراح يحسب للوقت ألف حساب ، أصبح الآن فى وسعه أن يحتفظ بالمريض بفضل هذه الاجهزة مخدرا لمدة خمس أو ست ساعات ، وأحيانا ثمانى ساعات دفعة واحدة

ولعل أطباء الجيش يقدرون أكثر من غيرهم قيمة هذا التقدم ، فقد أصبحوا الآن يجرون فى المستشفيات العسكرية عمليات جراحية تتطلب دقة وعناية لمدة ساعات ماكانوا يتجاسرون على اجرائها قبلا ، كتصحيح ساق مكسورة أو ذراع مهشمة . ومجمل القول ان طرق التخدير الحديثة الآمنة ، التى وفرت للجراح كل ما يعوزه من وقت ستحدث حتما ثورة فى عالم الجراحة

وقد لوحظ ان المريض — سواء كان من المدنيين أو من رجال الجيش — يخشى التخدير لذلك فان الخوف فى يوم اجراء العملية يسبب أحيانا ارتفاعا كبيرا فى ضغط الدم وفى عدد ضربات القلب . فأول ما يقوم به الآن المكلف بعملية التخدير ، اعطاء المريض جرعة من « الافرتين » Avertin الذى يعد كشفه معجزة من معجزات العلم ، وقد أطلق عليه هذا الاسم لانه يزيل الخوف ، فهو يبدده كما يذيب الألم ويلاشيه ويدعو الى النعاس ، ومن النادر أن يدرك المرء معه انتقاله من فراش الى آخر ، أو استنشاقه للغاز المخدر

ويستعمل « البنتوثال » Pentothal بحقنه تحت الجلد — وهو مخدر سريع الفعل أيضا ولا خطورة فى استعماله — ولا يسبب نوما ، فلو أن طبيب الاسنان حقن به انسانا ، فانه لا يشعر بأدنى ألم ، ولكنه يسمعه حينما يقول له : افتح فمك .. فيفتح فمه وينصت لاوامره . وقد توصل العلماء الى نتائج مثيرة للدهشة فى محاولة تخفيف آلام الولادة بهذا المسكن فاذا أعطى للمرأة حالما تشعر بآلام المخاض ، أحست توا بالراحة والهدوء ولا تشعر بالألم حتى فى اثناء الوضع ، ومع ذلك فانها تستطيع أن تجيب عن أسئلة المولد أو المولدة ، كما أن تأثير هذا المسكن لا يتعارض مع حركة عضلات جسمها

وقد ابتكر الجراح الروسى النابه الذكر « فشنفسكى » طريقة جديدة للتخدير بالدواء المعروف « بالوفكايين » Lovcain فهو يحقن به المريض أو الجريح بطريقة خاصة ، فيزول الألم من أجزاء معينة من جسمه ، وبفضل هذه الطريقة أصبح أطباء الجيش

الاحمر يجرون الآن كل أنواع العمليات ، بينما يظل الجرحى محتفظين بكامل ادراكهم ووعيهم . ويقال ان هذا الكشف الروسى هو واحد من الاسباب الجوهرية لانخفاض نسبة الوفيات وازدياد نسبة المتماثلين للشفاء فى ميادين القتال الروسية . ولا يقتصر تأثير هذه الطريقة على انتزاع الألم من الجريح أثناء العملية فحسب ، وانما يعدوه الى ما بعدها بأيام كثيرة

ويستعمل القسم الطبى بالجيش الروسى الآن أيضا « أكياس » عادية من الثلج لقتل الألم ، اذ تربط هذه الاكياس على جلد المريض لمدة ساعتين تموت بعدها نقط الألم التى تنتشر فوق الجلد ، فيستطيع الجراح بعدئذ من اجراء عمليته ، بينما يكون الجريح مكبا على قراءة صحيفة أو مجلة (عن مجلة « ساينس دايجست »)

نفقات الحرب

تنفق بريطانيا على الحرب فى المرحلة الحاضرة زهاء الخمسة عشر مليونا من الجنيهات فى كل يوم ، وقد كانت النفقات فى عام ١٩٤١ اثنى عشر مليونا ونصف المليون من الجنيهات . وقد دبر نصف هذه النفقات بفرض ضرائب جديدة ، ودبر النصف الآخر بمساهمة الشعب البريطانى بقروض وشهادات توفير قومية وغيرها من سندات الحرب

وقد بلغ متوسط نسبة ضرائب الدخل فى انجلترا اليوم عشرة شلنات فى الجنيه الواحد ! وثمة ضرائب اضافية على الايراد تتصاعد تدريجيا ، وترتفع نسبة الضرائب فى أعلى درجات الايراد الى ١٩ شلنا وستة بنسات فى الجنيه . أى أنه كى يحصل المرء على ايراد صافى قدره ٥٠٠٠ جنيه فى السنة يجب أن يكون مجموع ايراده حوالى ٢٠٠ ألف جنيه

ومما هو جدير بالذكر أنه لا تكاد تكون فى انجلترا سوق سوداء ، وان نفقات المعيشة فيها بوجه عام لم ترتفع الا قليلا . فلو فرضنا أن مستوى نفقات المعيشة قبل الحرب « مائة » ، كان مستواها الآن لا يزيد على ١٢٨ ومستوى الاجور لا يزيد على ١٣٢ (عن مجلة « ورلد دايجست »)

سر نجاح الروس

بقلم الأستاذ نقولا الحداد

العالم كله الآن تعتريه الدهشة البالغة بالفلاح الروسى فى هذه الحرب ، والناس يتساءلون ما سر هذا النجاح الغريب ؟ ومعللوه يذكرون أسبابا مختلفة ، وكلها أسباب مباشرة ، وبعضها أسباب صائبة . ولكن وراء تلك الاسباب سببا أساسيا عظيما هو افراغ حكومة السوفيات كل قواتها لخدمة العلم ، لتوسيعه ، لتقدمه ، لنشره ، لتطبيق العمل عليه على مبدأ ان « العلم عماد العمران » . فاذا قرأت فيما يلى بعض ما بذلته حكومة السوفيات من الجهود لاجل العلم وما كان من ثماره حتى اليوم دهشت وفهمت سر تقدم الروس

مما قاله ستالين فى احدى خطبه قبل الحرب واقتبسته مجلة « حياة السوفيات » التى تصدر من جوهنزبورغ ، والتى اقتطفنا هذا المقال من بعض مقالاتها :

« لاجل تقدم العلم نبذل كل جهد : ذلك العلم الذى لا يؤذن لزعمائه الاقدمين أن يرتدوا بأناقة رداء أحبار العلماء — ذلك العلم الذى يفهم معنى التحالف بين العالم (بكسر اللام) القديم والعالم الحديث وأهميته وقوته العظمى — ذلك العلم الذى يفتح ابواب المعرفة طوعا وبلا تردد لقوات بلادنا الحديثة ويمنحها فرصة التسلق الى أعلى قمم العالم — العلم الذى يعترف بأن المستقبل يخص العلماء من فتيان الحاضر لا علماء العصر الغابر

« لاجل تقدم العلم نبذل كل جهد — ذلك العلم الذى يفهم المكرسون لخدمته معنى ظروفه الموطدة وقوتها ويستخدمونها بكل حذاقة لمصلحة العلم نفسه . وفيما هم يفعلون هكذا يرفضون ان يكونوا عبيدا للتقاليد القديمة والقواعد والآراء التى أصبحت أثريات فى متحف العلم القديم وصارت قيودا للتقدم الجديد ، العلم الذى صار أهلا لان يختلق لنفسه ظروفا جديدة وقواعد جديدة ونظريات جديدة »

***

قل رجال السياسة الذين يعد نظرهم كما بعد نظر ستالين فى فهم أهمية العلم فى بناء العمران ، لان ستالين رام أن تكون الامم السوفياتية اشتراكية فى العلم كما أنها اشتراكية فى العمل والاقتصاد . يستدل على هذا فى سياق هذا المقال مما عملته حكومة السوفيات لاجل العلم مما نفعت به البلاد عن طريق العلم

كان ماركس وانجلس قد قدرا ماذا يكون من استبداد المال بالعمل ، اذا صح ظنهما بأن الانسان سيعتقل قوة الكهرباء ويرسلها الى أماكن بعيدة عن مصادرها . ولما جاء

لنين رأى ذلك رأى العين حين شرعت حكومة السوفيات تحققه بالفعل . وقال حينئذ كلمته الخالدة « الاشتراكية قوة السوفيات مضافا اليها كهربة كل الأقطار الروسية » . فأفضت هذه العبارة الى تأليف « لجنة الكهربة » سنة ١٩٢٠ ، وكان الفراغ من انشاء محطة توليد الكهرباء العظيمة قرب مدينة دنيبر بروتبزوفسك سنة ١٩٣٢ أول تنفيذ للخطة الاشتراكية العملية من الوجهة الكهربائية . ثم ان المحطة الكهربائية المائية فى كويبشف التى ستنشأ وستكون قوتها ضعفى محطة سوبوليد المعدودة حتى الآن أعظم قوة فى العالم ـ ستعتبر هذه المحطة منتهى ما تصل اليه أعظم قوة كهربائية فى العالم

فما هى اذن خصائص العلم السوفياتى التى تجعله قوة فائقة فى اقتصاديات الدولة السوفياتية ؟ هى بالايجاز منحصرة فى عاملين ، أولا : وضع الخطة ، وثانيا : تنفيذها بأضخم ما يستطاع . وكلا العاملين يقوم بهما العلم وأهله . وهدف حكومة السوفيات هو أن تجعل العلم القوة المنتجة لنشاط ١٨٠ مليون نسمة فى مستوى ثقافى عمرانى شامخ

وكانت أول خطوة لتحقيق هذا الهدف ازالة الامية بتاتا ، ثم انشاء ثقافة عليا مستوفية جميع ضروب التعليم النظرى والعملى . ولذلك ترى أن المعاهد العلمية التى استجدت فى روسيا فى عهد السوفيات القصير قد بلغت عددا مدهشا . كان فى جميع أنحاء روسيا فى العهد القيصرى ٩١ معهدا للتعليم العالى الاعتيادي يجتمع فيها نحو ١٢٠٫٠٠٠ طالب (من ١٨٠ مليون نسمة) . ومنذ بضع سنين صار فيها ٧١٦ جامعة كبرى لمختلف العلوم والفنون تشتمل على ٦٥٧٫٠٠٠ طالب فضلا عن عدد آخر من الطلبة للفنون الصناعية . فهذه الجامعات والمعاهد تستهلك من ميزانية الدولة ١٢ فى المائة من ايراداتها

ولا يخفى أن هذا التثقيف انما هو اعداد أعضاء نوابغ للمجامع العلمية الموقوفة على الأبحاث العلمية والفنية والصناعية . وكذلك للمجمع العلمى الأعلى فروع متعددة فى جميع أنحاء الأقطار السوفياتية يتباهى بها ، وانما نذكر الآن المباحث المختلفة هذا الجدول البسيط

سنة	١٩١٧	١٩٣٨	١٩٤١
معاهد أبحاث	١	٥٨	٧٦
عالم بحاث	١٠٩	٣٤٢٠	٥٠٠٠
النفقات بملايين الروبلات	١٫٥	١٢٧	٢٠٠

وفى سنة ١٩٣٨ كان يوجد ٩٠٢ معهد علمى فيها نحو ٨٠ ألف عامل ، ولا يخفى أن جيشا كهذا من العلماء العاملين لا يستطيع أن ينتج من غير خطط منظمة ، لاجل الانتاج العلمى من ناحية ، ولتطبيقه على حاجات البلاد من ناحية أخرى

ففى حقل الابحاث وتطبيق العمل على العلم ، يقوم مجمع العلوم والمباحث العلمية باصدار التعليمات العلمية والتصميمات للمعامل والمصانع ، فهذا المجمع يشبه المجمع

العلمى الملكى البريطانى باعتبار واحد فقط ، وهو أن ١٣٠ من عظماء العلماء يمثلون فيه نخبة علماء البلاد ، ولكنه يختلف عنه بأن له فروعا فى جميع الجمهوريات السوفياتية الاخرى الموقوفة على الابحاث العلمية والفنية والصناعية الخ . ولهذا المجمع مكتبة عظيمة لا تضاهيها مكتبة فى العالم ، تشتمل على ثلاثة ملايين مجلد مختلفة الاختصاصات

ولهذا المجمع سلطة ليست لهيئة علمية أخرى فى العالم . فهو يضع المشروعات الصناعية والزراعية وغيرها ويقررها ، أى أنه يسيطر على وسائل الانتاج . ولذلك كانت انكلترا واميركا مرتبكتين فى أول الامر فى مسألة الانتاج الحربى، لولا أنهما اكتشفتا أخيرا ما جرت عليه روسيا ، وهو أن الانتاج المنظم تحت سيطرة واحدة أفضل جدا للانتاج الحربى ، وأقل نفقة مما لو ترك لحرية الافراد والشركات

ولما نظم المجمع العلمى السوفياتى المذكور فروعه ومراكزه العلمية وقواعد أبحاثه ، شرع يضع نفسه تحت أمرة الصناعة والزراعة ، لكى يقدم المساعدة القوية السريعة للجمهوريات السوفياتية العاجلة النجاح التى يؤلف منها الاتحاد السوفياتى

فى الحالة الحاضرة للمجمع المذكور سبعة فروع رئيسية وقاعدتان علميتان أو مركزان يشتملان على عدة معاهد فضلا عن معاهد الابحاث . وهذه الفروع تشتمل على ١٥٠٠ عالم عامل اختيروا من جميع الجمهوريات . ففى جمهورية ازربيجان فرع أكثر من نصف أعضائه أزربيجانيون . واليك مثلا عن خدمة هذا الفرع : ان صحراء أزربيجان غنية بالمعادن ، والحرب تحتاج الى هذه المعادن . ولكن المعدنين لا يستطيعون أن يعيشوا فى صحراء لا تنبت لهم طعاما، فماكان من فرع المجمع المذكور الا أن استنبط طرقا لزراعة الصحراء واستغلالها لتوفير الطعام للعاملين

ومن الامثلة أن جمهورية كازاخستان (قوزاق) غنية بالاغنام لانها خصبة المرعى ، ولكن غنمها لا تعيش طويلا فى المراعى العالية حيث تعيش أغنام أخرى برية ، فما كان من المجمع الا أن زاوج بين النوعين فحل المشكلة

أصبحت جمهورية ازبكستان الآن بفضل مباحث مركزها العلمى بلادا مكتظة بالمعامل الصناعية ، لانها تستخرج قدرا عظيما جدا من الحديد . ثم ان فرع المجمع العلمى ألغى جميع طرق الرى القديمة فى هذه الجمهورية ، وأنشأ بدلها وسائل للرى علمية حديثة ، ووفر السماد الصناعى فيها حتى تضاعفت حاصلاتها

ان اخلاء الاراضى الصناعية التى فى وسط آسيا بسبب الحرب أفضى الى ضرورة استعمار الاراضى الرملية فى تركمانيا لانشاء المصانع والمعامل . فكان على فرع المجمع العلمى أن يختلق الوسائل لتحويل الرمل الى حقل خصيب . فبفضل العلم والعمل حوله ، أصبحت تلك الارض الرملية بلدا عامرا

أغرب من ذلك انه فى المنطقة الشمالية الشديدة البرودة والتى يكثر فيها الجليد ، لا ينبت شىء من نباتات المنطقة الجنوبية الدافئة . فاحتال المجمع العلمى على طبيعة ذلك

الاقليم وجعلها صالحة لانتاج الفاكهة الجنوبية ، وجعل الارض جنة تجرى من تحتها الانهار

ان معامل الاورال الغنى بالمعادن التى تقدم للجيش الاحمر الباسل سلاحه وذخيرته اعتمدت على مجهود فرع الاورال العلمى فى توسيع أعمالها وتوفير انتاجها ، وكان له الفضل الاعظم فى ذلك

***

ان جميع فروع المجمع وقواعده ما عدا فرع الاورال المشتغل الآن بالصناعة الفولاذية وحدها ، تدرس دائما نباتات جمهورياتها درسا متسعا لاستخراج جميع أصناف المواد الاولية النباتية على اختلاف أنواعها كالمواد الطبية ومواد الصباغة والفيتامينات الخ

فلا ريب أن لجميع فروع المجمع العلمى فضلا عظيما فى تعمير الجمهوريات السوفياتية وترقية ثقافتها العمرانية. ففى جمهوريات ازربيجان وأرمينيا وأوزل اكبستان وكازاخستان وطاجيكستان وتوركمانيا وضعت جميع فروع المجمع العلمى أسس المباحث العلمية الاثرية لتاريخ البلاد القديمة وأحوال أهلها القدماء الاجتماعية

معظم أهل هذه البلاد مسلمون وهم يبلغون نحو ٢٠ مليونا . اذا سألت أى واحد منهم هل تريد أن تعود الى الحكم القيصرى نقم عليك وسخط ، وشكر لله هذا العهد السوفياتى السعيد

من جملة الامور التى تهتم بها فروع المجمع العلمى المذكورة ضبط قواعد لغات تلك الجمهوريات ومعجمات كلماتها وتحديد الاصطلاحات العلمية والادبية فيها ، وجعلها فى متناول العامة ، ووضع الكتب الطبية واللغوية للمعاهد التعليمية .. كل هذه تأخذ قسطا كبيرا من أشغال المجامع واهتماماتها

***

وهناك وسيلتان لاتصال هذه الفروع بالانتاج الصناعى على اختلاف طرقه وأساليبه

١ ـ اتصالها المباشر بالمصانع والمعامل

٢ ـ تقديمها كل مساعدة استشارية ونصيحة لهذه المعامل

تظهر الوسيلة الاولى بكل وضوح فى الفروع الاورالية ، والى حد ما فى عمل الفرع الازربيجانى حيث تجرى عدة مباحث وعمليات واختبارات كاختبارات معامل المعاهد المخصصة للبحث ، وامتحانات مكتشفات هذه المعاهد للتأكد من صلاحيتها للمصانع والمعامل المنتجة

ومنذ سنة ١٩٤٠ كان فرع أورال دائم الاتصال بمعامل أورال لهذا الغرض . ومنذ بدء الحرب كان هذا الفرع متصلا أيضا بالمصانع الاخرى اتصالا وثيقا لارشادها، وكذلك كانت الفروع الاخرى تفعل أيضا

***

ومن جملة وسائل المعاونة التى كانت تسديها هذه الفروع العلمية للمصانع والمعامل مختلف طرق الارشاد. وبين سنتى ١٩٣٢و١٩٤٣ أصدرت هذه الفروع والقواعد المتفرعة بن المجمع العلمى ١٥٠٠ جريدة ومجلة علمية متنوعة . وكان المعدل الاوسط فى التسع السنوات التى سبقت الحرب ١٦٠ جريدة ومجلة كلها علمية . وكان معظم هذه الجرائد والمجلات التى طبعت فى السنتين الاخيرتين شديد التأثير فى مجرى الدفاع الوطنى

وعلاوة على فروع المجمع العلمى صار لسائر الجمهوريات الاخرى المندمجة فى الاتحاد السوفياتى مجامع علمية خاصة كمجامع أوكرانيا وبيلوروسيان وجورجيا وازبك

***

ومما يحسن ذكره ، أن مجلة السوفيات الطبية الاميركية التى تصدر فى نيويورك ، ذكرت أن العلامة الروسى الاستاذ اسكندر بوجوبولتس رئيس اكاديمية (مجمع) العلوم الاوكرانية اكتشف مصلا جديدا ضد تسمم المثانة . وقد استعمل هذا المصل ونجح ضد ردة السرطان . وهو يقوى الجسم للدفاع ضد كثير من الامراض ، ويحمى أنسجة الجسم من الانحطاط ، ويمنع الشيخوخة قبل ميعادها . ويفيد جدا فى جبر العظام المكسورة ، ويشفى التهاب المفاصل (أى روماتزمها) . وينفع جدا فى معالجة الجرحى

توفق هذا العالم اليه بعد بحث ست سنوات وتجارب متعددة فى معهد كياف عاصمة أوكرانيا ، وهو يصنع من مزج طحال الحصان ونخاع عظامه بميكروب الداء

ومعلوم أنه قد ظهر من السلالة السلافية كثير من نوابغ العلماء ، نذكر منهم منديليف الكيمياوى ، ومتشنيكوف مكتشف عمل كريات الدم البيض ، وفلاهونسكى مكتشف فعل الموجات الكهرطيسية فى سر الحياة وأسباب الامراض

***

يرى القارىء مما تقدم أنه لم يوجد الى الآن فى سائر الممالك العظيمة كانكلترا واميركا وفرنسا وألمانيا مثل هذا الاهتمام فى الثقافة العلمية والصناعية والانتاجية، ونشرها فى البلاد . ولذلك يزول عجبه من نجاح روسيا الباهر فى هذه الحرب . وانما يقوم فى يقينه عجب آخر ، وهو أن هذا التقدم الثقافى العمرانى فى روسيا تم فى أقل من ربع قرن لعهد الاشتراكية الماركسية ..

انه متى وجدت الارادة وجدت القوة وأنتج العمل . وانه لمن الممكن حدوث مثل هذا النجاح فى كل بلد فى الدنيا ، اذا وجدت الارادة والهمة . أليس كذلك يا مصر !

نقولا الحداد

تدل الابحاث الطبية على أن أمراض القلب بين المدخنين كثيرة الانتشار . ويجمع الأطباء على ضرورة الامتناع عن التدخين فى حالة الشكوى من أعراض أى مرض قلبى

التدخين وأمراض القلب

يقولون « ان نقطتين من النيكوتين على لسان قط أو كلب تقضى عليه ، وان فى السيجار العادى من النيكوتين ما يكفى لقتل رجلين » . ولكن المدخن فى وسعه أن يشير الى عدد لا يحصى من الناس ، دخنوا الآلاف من لفائف التبغ ، مما يحوى من السموم والنيكوتين ما يكفى لقتل الآلاف منهم ، ومع ذلك فانهم يرفلون فى ثياب الصحة والعافية

على أن التدخين ضار بالصحة ، وان ما يقال عن فوائده — أو بعبارة أصح — ما يزعمه البعض من مبررات للتدخين ، تنطوى بوجه عام على تأثيراته النفسية . ولعل أعظم أضرار التدخين وأطولها أثرا ، هو ما يتعلق بدورة الدم فى المجموع الوعائى . فكثيرون من المدخنين يشعرون بدوار بعد تدخينهم السيجارة الاولى فى الصباح ، ولا سيما اذا كان ذلك قبل تناول وجبة الافطار . وهذا الدوار ناجم فى الغالب عن نقص كمية الدم التى تصل الى المخ ، وقد ثبت أن التدخين يسبب تقلصا وانكماشا فى جدار الشرايين ، وبذلك تبطؤ سرعة التيار الدموى . وأبسط التجارب التى أجريت للتدليل على هذه الحقيقة ، التجربة التالية :

يوضع جهاز « ترموكوبل » ، وهو جهاز دقيق لقياس درجة الحرارة تحت ظفر أصبع من القدم ، وتسجل درجات الحرارة فى فترات متقاربة لمدة نصف ساعة ، ويؤخذ المتوسط على أنه درجة الحرارة العادية للجسم ، ثم يعطى للشخص سيجار يدخنها فى جلسة عادية ، وقبل أن يتم ربع دخينته ، يلاحظ هبوط شديد فى درجة الحرارة ، قد يصل أحيانا الى سبع درجات ، وان كان من النادر أن يلمس المدخن هذا النقص ويحس به . فاذا ما فرغ من التدخين ، عادت الحرارة الى مستواها الطبيعى بعد بضع دقائق . وهذا يدل بجلاء ، على أن للتدخين أثره على الدورة الدموية

وثمة تجربة أخرى ، يمكن اجراؤها بميكروسكوب قوى العدسة ، بحيث يمكن رؤية الخلايا الدموية ، وهى تتحرك خلال الانابيب الشعرية للجلد ، فيلاحظ الابطاء فى سيرها بوضوح أثناء التدخين . ويزداد تأثير التدخين على الدورة الدموية زيادة بالغة فى حالة المصابين بأمراض ذات صلة بالشرايين كمرض « برجرز » Buerger's disease مثلا ، فان انخفاض درجة الحرارة يتراوح ما بين ١٢ ، ١٦ درجة ، كما يصحب التدخين عادة آلام شديدة فى أطراف الجسم ، فى القدمين واليدين

وبديهي ان تأثير التدخين على الدورة الدموية ، ليس مقصورا على الجلد فحسب ، وانما يعدوه الى بقية أجزاء الجسم ، وهناك مرض يسميه الاطباء Tobacco Angina يشكو منه بعض المدخنين ، أعراضه آلام مبرحة فوق القلب، يعتقد الاخصائيون أن منشأه نقص كمية الدم المنبعثة الى عضلات القلب بسبب التدخين . وحينما تبطل عادة التدخين ، تزول عادة أعراض هذا المرض

وتدل الابحاث الطبية على أن أمراض القلب بين المدخنين ـ بالنسبة لغيرهم ـ كثيرة الانتشار . فبجهاز القلب الكهربائي ، كوسيلة لاكتشاف أمراض القلب وهي في المرحلة البدائية ، قامت احدى المؤسسات الطبية بفحص ثمانمائة شخص من المدخنين وآخرين مثلهم من الذين لا يدخنون . فدلت الخطوط البيانية التي رسمها الجهاز ، أن عدد الذين لا تخفق قلوبهم بانتظام وبدون اضطراب بين المدخنين ، يعادل عددهم بين الذين لا يدخنون مرة ونصف مرة ، على الرغم من أن الذين فحصوا ، لم يكونوا يشكون من أعراض أي مرض قلبي . ولم تكن الاضطرابات قد تقدمت بعد حتى تسبب ألما

وقد أجمع الاطباء اليوم على ضرورة الامتناع عن التدخين في حالة الشكوى من أعراض الامراض القلبية ، والمريض العاقل يجب ان يقلع عن هذه العادة قبل ان يتفاقم مرضه. ويسبب التدخين أيضا زيادة في افراز الحوامض في المعدة . لذلك ينبغي أن يحجم المصابون بالقرح المعدية عن التدخين . كذلك الذين يعانون التهابات الانف أو الاذن أو الحنجرة . وهناك نتيجة يلحظها الكثيرون ممن أبطلوا عادة التدخين أو ممن أرغموا على ابطالها وهي استنشاق روح النشاط والحيوية ، التي يعترفون بأنهم حرموا منها وهم يرزحون تحت نير عادة التدخين . وفي دراسة لالفين من المدخنين وآخرين ممن لا يدخنون ، لوحظت الامور التالية :

١ ـ كان المدخنون يشكون من الكحة ٣٠٠ ./. أكثر من الذين لا يدخنون

٢ ـ يشكو المدخنون من التهاب الانف والزور ١٦٧ ./. أكثر من غيرهم

٣ ـ المدخنون يشكون من ارتجاف القلب Palpitation ٥٠ ./. أكثر من سواهم

٤ ـ بين المدخنين من يشكون من لهث النفس وقصره ١٤٠ ./. أكثر من الذين لا يدخنون

٥ ـ المدخنون يشكون من حموضة الطعام وحرقة فم المعدة Heartburn ١٠٠ ./. أكثر من غيرهم

٦ ـ يشكو المدخنون من الغازات الزائدة ٦٢ ./. أكثر من غيرهم

٧ ـ المدخنون يبزون غيرهم من غير المدخنين في توتر الاعصاب بنسبة ٧٦ ./.

ويبدو من هذا البحث أن التدخين سبب لكثير من الامراض والاضطرابات . وفي بحث آخر شمل ١٣٩ شخصا أقلعوا عن عادة التدخين ، لوحظ أن سبب تركهم للتدخين ما يأتي :

٢٥ ./. لفقدان الرغبة فى التدخين ، ١٧ ./. لقلقهم على الصحة ، ١٢ ./. لالتهابات الانف والزور ، ٨ ./. للاضطرابات المعدية

ويزعم كثيرون أن التدخين يجلب الاحساس بالراحة والاسترخاء ، ويمكن المرء من التغلب على العصبية وتوتر الاعصاب . وليس شيء أبعد عن الصواب من هذا الزعم . فالتدخين يسبب تنبها واستفزازا . وقد أجريت منذ عدة سنوات ، تجارب قورن بها تأثير حقنة من الادرنالين على الجسم وأثر تدخين سيجارتين ، فلوحظ أن النتيجة كانت واحدة . فقد ازداد النبض وهبطت درجة الحرارة وارتفع ضغط الدم وازدادت كمية السكر فيه فى كلا الحالين بدرجة واحدة

وضرر التدخين يتوقف عادة على عدد اللفائف وكمية التبغ التى يدخنها الشخص . فالشخص العادى السليم الجسم الذى يدخن ست لفائف عادية فى اليوم أو أقل ، لايعتبر مدخنا . كما أنه لا يكاد يكون هناك فارق بين تدخين السيجار أو السيجارة أو البيبة ، من الناحية الصحية. ويحسب البعض أن الاقلاع عن عادة التدخين ، أمر متعذر ، فهو عندهم بمثابة لولب من لوالب الحياة ، ان هو تهشم ، تحطمت بقية لوالبها . وهذا خيال محض ، ففى وسع كل امرىء أن يتحرر من ربقة هذه العادة ان هو أوتى شيئا من قوة العزيمة وصلابة الارادة

(عن مجلة « سايتس دايجست »)

ليس الأمر بالسن

قدم على عمر بن عبد العزيز ناس من أهل العراق ، فنظر الى شاب منهم يتهيأ للكلام ، فقال : أكبروا أكبروا ! فقال : يا أمير المؤمنين ، انه ليس بالسن ، ولو كان الامر كله بالسن لكان فى المسلمين من هو أسن منك ! فقال عمر : صدقت ! رحمك الله تكلم !

فقال : يا أمير المؤمنين ، انا لم نأتك رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد دخلت علينا منازلنا ، وقدمت علينا بلادنا ، وأما الرهبة فقد أمننا الله بعدلك من جورك . قال : فما أنتم ؟ قال : وفد الشكر

فنظر محمد بن كعب القرظى الى وجه عمر يتهلل ، فقال : يا أمير المؤمنين لا يغلبن جهل القوم بك معرفتك بنفسك ! فان ناسا خدعهم الثناء ، وغرهم شكر الناس ، فهلكوا . وأنا أعيذك بالله أن تكون منهم ، فألقى عمر رأسه على صدره ! (العقد)

كانت صراحة تشرشل المراسل الحربى تثير إعجاب قواد ذلك العصر، كما أثارت صراحته فى هذه الحرب المشبوبة العالم أجمع

تشرشل المراسل الحربى

بقلم وارد برايس

علت حديثا من شارع « فليت » فى لندن أنة أسف عميق ، عند ما أشار مستر تشرشل فى مجلس العموم البريطانى الى تجاربه كمراسل حربى . ولعلنا نحن الذين حاولنا تتبع خطواته فى هذه المهنة ، نشعر أكثر من الغير بالخسارة الفادحة التى ألمت بالصحافة ، عند ما هجرها ليخوض ميدان السياسة

وتشرشل أحد المراسلين الحربيين الذين جنوا ثمار تجارب الحرب فى جنوب افريقيا. وقد تمكن فى سن صغيرة لا تعدو الخامسة والعشرين ، وفى فترة وجيزة لا تتجاوز الثلاث سنين ، من أن يقيم الدليل الساطع فى رسائله للصحف من الميدان الشمالى الغربى للهند عام ١٨٩٧ ، وفى حرب السودان عام ١٨٩٨ ، وجنوب افريقيا فى عامى ١٨٩٩ ، ١٩٠٠ على ذكائه الخارق وقدرته الفائقة . وقد كان دائما محظوظا ، موفقا فى اختيار الفرص لاستغلال قدرته ومهارته ، واظهار ملكاته ومواهبه ، وقد بلغ كمراسل حربى أعلى مراتب التقدير والاعجاب فى ختام القرن التاسع عشر ، وكانت هذه هى الفترة التى جمع فيها « كبلنج » درره فى مقطوعة « النور الذى خبا » ، فى ذلك الحين لم يكن هناك نجوم سينمائية ، ولا طيارون بواسل ، يجتذبون اعجاب الشعب ، لذلك وجه البريطانيون كل احساسهم — المعروف عنهم — بالاعجاب بالابطال وتقديسهم ، الى المجموعة الصغيرة من المراسلين الحربيين الذين أخذوا على عاتقهم تصوير الحروب البعيدة ميادينها ، ذات الصبغة الخيالية ، فى جيل لم يعرف البلاغات اليومية ، ولا نشرات الاذاعة اللاسلكية ، تصويرا دقيقا واضحا

وحدث فى عام ١٨٩٦ أن قامت حرب أهلية بين الحكومة الاسبانية وبعض رعاياها المتمردين فى جزيرة كوبا ، فأصر تشرشل على زيارة هذا المسرح الحربى ، وكان له من جاه والده ما ساعده على عمل التسهيلات اللازمة مع السلطات الحربية الاسبانية ، وحتى يجد من النقود ما يقوم بسد حاجاته ومصاريفه ، لجأ الى رئيس تحرير جريدة « الديلى جرافيك » التى لم تعد على قيد الحياة ، وأقنعه بأن يوافى جريدته بسلسلة من المقالات الوصفية للحرب . وعلى الرغم من أن الحرب فى اسبانيا ، دلت على أنها لم تزد على مجرد حرب عصابات فى منطقة غابات كثيفة ، الا أن الشاب تشرشل أفاد منها كثيرا،

اذ جرب للمرة الاولى أن يكون تحت قذائف النيران . وبعد ان قضى عدة أسابيع ضيفا على القائد الاسبانى ، عاد الى بلاده لينخرط فى سلك فرقته وهو يحمل أول وسام ناله ، وسام الاستحقاق العسكرى الاسبانى

ولم يمض طويل وقت على عودته من كوبا ، حتى قابل الجنرال « بندون بلود » قائد القوات البريطانية على الحدود الشمالية الغربية للهند ، فى حفلة أقيمت فى بيت ريفى ، وتمكن تشرشل من الحصول على وعد من الجنرال بالحاقه بصفوف ضباطه ، لو حدث وأرسلت قواته للخدمة العاملة فى الميدان . وقد حدث ذلك فعلا فى خريف عام ١٨٩٧ ، فهرع تشرشل الى الهند يطالب بوظيفته التى وعده بها ، وكان يرغب فى الانضمام لصفوف المحاربين ، ولكن عملية تعيين الضباط فى مناصبهم كانت قد تمت ، فلم ير السير « بندون بلود » ضيرا من أن يأخذه كمراسل حربى . فقام تشرشل باجراء ترتيبات سريعة مع جريدة لندن « ديلى تلغراف » وجريدة « بيونير » التى تصدر فى ولاية « الله أباد » الهندية ليمثلهما فى هذه الحملة . وهذه « الاسابيع الستة فى حرب الحدود » كما يسميها ونستون هى التى جلبت له شهرته الاولى ، اذ جمعت رسائله فى كتاب تحت عنوان « قوة الملاكان الحربية » ، وهو كتاب يلذ لنا قراءته حتى الآن

وفى هذه الحرب ، كما فى برقياته من الهند ، دلل بوضوح وجلاء على موهبته الممتازة كمراسل حربى ، فقد كان المغامر النشيط ، الجرىء الشجاع المحب للاستطلاع

وعمل المراسل الحربى يتلخص فى اعطاء قرائه ، أبرز الصور وأوضحها للمعارك التى يشهدها ويتتبعها ، ولا يخفى أنه مهما كان المراسل قريبا من مسرح الاعمال الحربية فانه من النادر جدا أن يدرك كل ما يجرى حوله ، ولكنه يتحتم عليه أن يقص كل ما تلحظه عيناه ، وأن يحاول ابرازه فى صورة عامة شاملة . وحتى يتسنى له أداء هذا العمل فى حيز الرسائل التلغرافية ونطاقها ، لا بد له من أسلوب قوى معبر جزل وجيز ، وهذا ما كان تشرشل متمكنا منه بدرجة كبيرة

وحينما جمعت رسائل تشرشل التى بعث بها من حدود الهند الشمالية الغربية فى كتاب « قوة الملاكان الحربية » رأى كثيرون من المعقبين الحربيين ، أن الكتاب جدير بأن يحمل اسم « مدنى يقترح على قواد الحرب » . وكان من شأن النجاح الهائل الذى أحرزه هذا الكتاب أن وضع تشرشل فى مقدمة المراسلين الحربيين فى عصره

ولما بدأ « كتشنر » زحفه على الخرطوم فى السنة التالية ، قبلت جريدة « مورننج بوست » بكل تلهف عرض الشاب الصغير ، الذى لم يتجاوز الرابعة والعشرين فى أن يكون ممثلها . وللمرة الثانية ، سارع الى استغلال صلاته الاجتماعية ، ورتبته العسكرية وأوراق اعتماده الصحفية ، ليصل الى ميدان القتال . ولحظه الحسن الذى لازمه دائما ، والذى جعله فى الصفوف الامامية حين وقوع الاحداث الهامة ، انضم ونستون الى آلاى الرماحة الحادى والعشرين ، قبل انقضاضهم المشهور على « أم درمان » . وبعد وصفه

للدور الذى لعبه ـ فيما قد يكون آخر هجوم للفرسان فى التاريخ ـ نموذجا رائعا للاسلوب القصصى السهل الدافق الواقعى

قال : « وقف قواد الفرق عن يمينى وعن يسارى ، وخلفى مباشرة كان خط طويل راقص من الرماح المتربصة للهجوم . وعدت ووجهت نظرى صوب العدو ، وفجأة لاح لى أن المشهد قد تغير ، كان الرجال السود لا يزالون يطلقون النيران ، ووقع بصرى على انخفاض خلفهم ، يعج برجال أخذوا يخرجون من حيث كانوا يختفون ، وبطريقة تشبه السحر ظهرت أعلام لامعة ، وشاهدت أمراء قادمين ـ لا أعلم من أين ـ على ظهور خيل ، احتشد حولهم الاعداء من كل جانب وساروا وراءهم ، فأشبهوا كتلة كبيرة داكنة تلمع بالفولاذ وتملأ مجرى الماء الجاف

« وأصبح التصادم قاب قوسين أو أدنى ، وفجأة رأيت أمامى ، وعلى بعد أقل من عشر ياردات رجلين زنجيين ـ وكانت المسافة بينهما لا تزيد عن الياردتين ـ فمرقت بجوادى بينهما ، فأطلقا النيران ولكننى اجتزت الدخان ، شاعرا بأنه لم يمسسنى سوء ، وسقط الجندى الذى كان خلفى مباشرة فى نفس المكان وفى نفس اللحظة ، ولست أدرى ان كان ذلك بسبب هاتين الطلقتين أم لا

« وضممت مقود جوادى ، لما رأيت الارض بدأت تتفكك تحت حوافره ، وتدلى الحيوان الذكى كالقطة مسافة أربع أقدام أو خمس فى القاع الرملى لمجرى المياه . وفى القاع ، ألفيت نفسى محوطا بعشرات الرجال ، والواقع أن حشدهم فى هذه الشقة ، لم يكن كثيفا بالدرجة التى تجعلنى أتوقع اصطدامى بهم فى الحال . وفى وقت أقل مما يستغرقه سرد الحادث ، كان جوادى يتسلق الجانب الآخر للترعة ، وتلفت حولى فوجدت جوادى يعدو على أرض صلبة جامدة

« وخيل الى أن جماعات متفرقة من الدراويش تعدو جيئة وذهابا فى كل اتجاه . وألقى رجل بنفسه على الارض أمامى مباشرة ، ورأيت وميض سيفه المقوس ، وهو يستله استعدادا لتوجيه ضربة قاصمة ، ولكننى ابتعدت عنه قليلا ، وملت على جانب الجواد وأصبته بطلقتين ناريتين . ولما اعتدلت فى جلستى على السرج ، رأيت أمامى رجلا آخر شاهرا سيفه ، فرفعت مسدسى وأطلقته ، وكنا قريبين جدا أحدنا من الآخر ، حتى ان المسدس نفسه أصابه فسقط الرجل وسيفه وخلفته مختنقا ورائى

« والواقع ان الحياة العادية تشبه فى وجه من وجوهها هجوم الفارس ، فطالما أنت صحيح معافى ، ثابت على السرج ، ومالك زمام الجواد فى يدك ، مزود بالسلاح ، فان كثيرين من أعدائك سيخشونك ويفسحون لك الطريق »

فهذا المقال الوصفى ، مع أنه كتب بعد الحادث بقليل ، ينهض مثالا ممتازا لاسلوب تشرشل القصصى الواضح ، كما انه يزيح الستار عن ثقته بنفسه وشعوره بمقدرته ، الامر الذى يتميز به تشرشل ، حينما يقع فى مأزق من المآزق . ولم يكن فى زمان

تشرشل سوى مراسل حربي واحد يفوقه، ذلك هو جورج وارنجتون ستيفنز، الصحفي العبقرى الذى قضى نحبه قبل بلوغه الثلاثين من جراء اصابته بحمى الملاريا وهو يمثل جريدة « الديلي ميل » خلال حصار مدينة « ليدى سميث »

وتصادف أن تقابل الاثنان على ظهر باخرة ، كانت عائدة من السودان ، وكان أن كتب ستيفنز مقالا عنوانه « أصغر رجل فى أوربا » ، وصف فيه تشرشل بقوله « صبى فى سنه ، صبى بطباعه ونقاء سريرته ، ولكنه رجل بأفكاره ومقدرته وعزيمته » وصرح بأن خصال ونستون قد تجعل منه « كيفما أراد أن يكون ، زعيما عظيما ، أو صحفيا قديرا ، أو مؤسسا لشركة اعلانات كبيرة » . وحتى نستطيع تقدير بعد النظر فى هذا التكهن ، يجب ألا ننسى أنه دار حول شاب صغير فى الرابعة والعشرين من عمره ، لم يعد ما أنتجه كتابا واحدا وسلسلة من مقالات

وكان ونستون تشرشل يشعر بميله الشديد للحياة البرلمانية ، ولكن مخاطرته الكبيرة والاخيرة كمراسل حربى ، كانت لا تزال أمامه . ففى اكتوبر عام ١٨٩٩ سافر لتمثيل جريدة « مورننج بوست » فى حرب جنوب افريقيا ، التى كانت لا تزال فى بدايتها ، ومرة أخرى حالفه الحظ ، كما فعل من قبل . فبعد وصوله الى مدينة رأس الرجاء الصالح بثلاثة أسابيع ، أسره جنود البوير فى كمين ، أحكموا نطاقه قرب بلدة شيفلى ، ولكنه بعد ثلاثة أسابيع أخرى فر من معسكر اعتقاله فى بريتوريا الى شرق افريقيا البرتغالية

وقد أمضى تشرشل ستة شهور أخرى فى جنوب افريقيا ، جمع فيها بين عملين ، كمراسل حربى ، وكضابط خيال غير نظامى ، ومرة أخرى شاءت الاقدار أن ينجو من الموت بفضل العناية الالهية ، حتى يتسنى له اتمام أغراضه والوصول الى غايته ، فان حصانه جمح منه مرة وولى الادبار فظل وحده بلا غطاء يحميه من نيران بنادق الاعداء ، التى كانت منه على بعد مائتى ياردة أو أقل . ولحسن الحظ ساعده جندى بريطانى كان يعدو بجواده ، فرفعه خلفه على ظهر الجواد ، وتمكنا من الفرار سالمين

لم يكسب تشرشل بعمله الصحفى الشهرة فحسب ، بل انه استطاع أن يحصل كذلك على استقلاله المالى ، ثم جاب الولايات المتحدة الامريكية يلقى فيها محاضرات عن رحلاته لقاء عشرة آلاف جنيه ، ساعدته فى أن يرشح نفسه للبرلمان ، ويخوض معركته ويظفر بالنيابة عن دائرة أولدهام

وبذلك انتهى عمل تشرشل كمراسل حربى ، ولكنه على الرغم من ذلك سيظل زعيما للصحافة ، طالما كان لديه سيجار يدخنه ، وحجرة واسعة الارجاء يخطو فيها جيئة وذهابا ، وسكرتير يدون الفقرات التى تتدفق من عقله الجبار وذاكرته المكتنزه

ولا شك أنه من دواعى الفخار الدائم للصحفيين ، أن يكون مثل هذا الشخص الذى سيخلد اسمه فى تاريخ بريطانيا زميلا لهم

(عن مجلة « ستراند »)



ونستون تشرشل المراسل الحربي
أثناء حرب البوير عام ١٩٠٠

يدرك تشرشل أهوال الحروب أكثر مما يدركها أي سياسي آخر في أوربا ، فقد خبرها بنفسه حينما انضم الى آلاى الرماحة الحادي والعشرين قبل الانقضاض المشهور على أم درمان . وقد أمضى ستة أشهر جمع فيها بين عملين ، كمراسل حربي وكضابط . ونراه في الصورة يقود فرقته أثناء المعركة

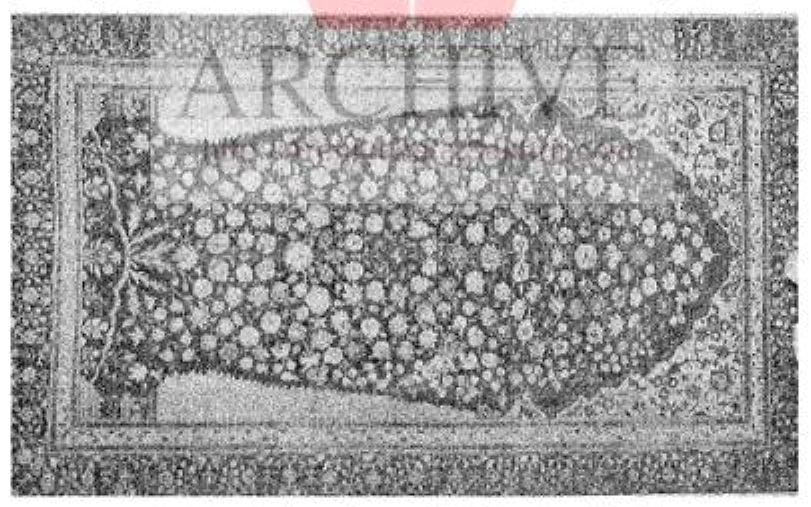
طنافس الهند

بقلم الاستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

بدأ تاريخ المسلمين فى الهند بغزو محمد بن القاسم لتلك البلاد ، أو بعبارة أدق لشطر منها هو بلاد السند سنة ٩٤ ﻫ (٧١٢ م) ، وينتهى بالاحتلال البريطانى فى سنة ١٢٧٤ ﻫ (١٨٥٧ م) . وبين هذين التاريخين وقعت حوادث شتى لا محل لذكرها هنا ، ولكن أمرا واحدا لا سبيل لاغفاله ، هو أن الاسلام بدأ يشق طريقه فى هذه البلاد حتى اعتنقه الكثيرون

ولقد سطر المسلمون من الهنود فى سجل الفن الاسلامى صفحات تشع من بين سطورها آيات النضوج الفنى ، ولا غرو فان لهم تراثا فنيا عريقا فى القدم ، ولعل من أدوع صفحاتهم تلك التى تتجلى فى نسج الطنافس .

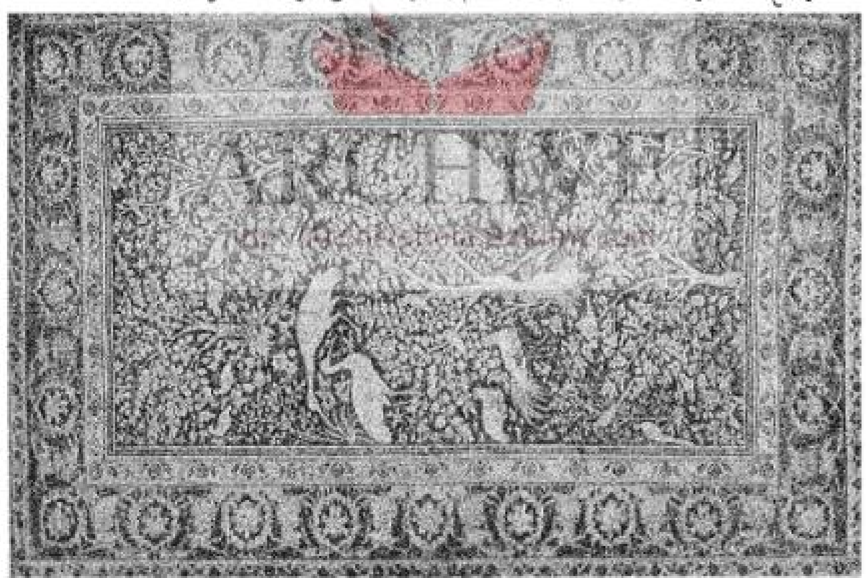
وفى الحق أن الهند عامة لم تعرف نسج الطنافس — أى الابسطة ذات الخمل — قبل الاسلام ، وحتى بعد دخول الاسلام فيها لم تعرف هذه الصناعة الا فى القرن العاشر



سجادة صلاة هندية من القرن الحادى عشر الهجرى (١٧م) محرابها مملوء بزهرة الزنبق المفضلة لدى الفنان الهندى — متحف الفن والصناعة فى ڤينا

الهجرى (القرن السادس عشر الميلادى) ، ولم يكن ذلك لنقص فى مقدرتها الفنية ولكن لجوها الحار ، وللميل الطبيعى الى تجميل سطح الارض وجعله أملس رطبا مما دفعهم الى استخدام الرخام المطعم بالفسيفساء المختلفة الالوان ـ كما يقول مارتن فى كتابه القيم عن طنافس الشرق ـ فاستغنوا بذلك عن الطنافس بعكس ايران مثلا حيث الجو بارد ، والارض غير مستوية فالحاجة هناك أمس الى الطنافس لكى تمنح بخملها الدفء وتخفى بجمالها عيب الارض . على أن ذلك لم يمنع سلاطين الهنود وأمراءهم من استيراد الطنافس من الخارج لتزيين قصورهم ، وتمييز مواضع جلوس عظمائهم فى الاجتماعات العامة

ولم تشأ الهند أن تظل عالة على غيرها فى هذه الناحية ، بل سعى امبراطورها العظيم « أكبر » (٩٦٣ ـ ١٠١٤ هـ / ١٥٥٦ ـ ١٦٠٥ م) فى توفير أسباب هذه الصناعة فى البلاد ، فأسس فى مدينة أجرا ولاهور وفتح بور مناسج حكومية للطنافس مسترشدا فى ذلك بما هو موجود فى ايران ومستعينا بصناع من تلك البلاد ممن يحذقون هذا العمل ، ويستطيعون تلقين أسراره للهنود . وسرعان ما أخرجت هذه المناسج طنافس غاية فى الجمال والاتقان ، لا يعيبها الا أمر واحد هو أنها لا تحمل طابع وطنها الذى نسجت فيه ، ان صح أن يسمى ذلك عيبا . وفى الحق انه ليصعب علينا أن نميز بين هذه الطنافس التى ترجع الى القرن العاشر الهجرى (١٦ م) وبين طنافس ايران المعاصرة لها لا سيما تلك



طنفسة هندية ترجع إلى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى (١٧ م) عليها منظر غابة متشابكة الأغصان فيها طيور ووحوش شتى ـ متحف الفن والصناعة فى فيينا



جزء من بساط هندي من القرن الحادي عشر الهجري (١٧ م) عليه منظر طبيعي يبدو فيه النخيل والأشجار ، وتظهر بينها الوحوش والأطيار ـ متحف المتروبوليتان نيويورك

المنسوجة في مدينة هراة ، ولم يعد ميجون Migeon الواقع عند ما قال انه كثيرا ما يشتبه الامر في هذه الطنافس على المشتغلين بالفنون الاسلامية ، على أن الذي وصل الينا منها قليل ، ومعظم المعروف منها لا وجود له الا في الصور الهندية الصغيرة

واذا كان الامبراطور « اكبر » هو صاحب الفضل في ادخال صناعة الطنافس في الهند، فان حفيده الشاه جهان (١٠٣٨ ـ ١٠٦٩ هـ / ١٦٢٨ ـ ١٦٥٨ م) قد عاون على نضوج هذه الصناعة واطرد نموها وتقدمها حتى استقام عودها ، واكتملت شخصيتها ، واتضحت معالمها ، وأصبحت لها مميزات لا يخطئها رجال هذا الفن

وقبل أن نتحدث عن تلك المميزات التي تنفرد بها طنافس الهند عن غيرها من طنافس الشرق ، ينبغي ان نشير الى واحدة منها تحمل تاريخ نسجها ـ وهذا أمر نادر الوقوع في الطنافس عامة ـ ولعلها بين طنافس الهند الوحيدة التي تنفرد بهذه الميزة ، ومن هنا كانت أهميتها لانها تعاون على تأريخ وتعيين كثير من الطنافس الاخرى . أما هذه الطنفسة فقد نسجت في المنسج الحكومي في مدينة لاهور في سنة ١٦٣٤ م بناء على طلب المستر (روبرت بل) ، وقد كان هذا المصنع الحكومي ينسج للقصر كما ينسج كذلك للتجارة، ولا تزال هذه الطنفسة موجودة للآن في لندن(١)

ولعل أهم ما يميز طنافس الهند بوجه عام ثلاثة أمور : التصميم والتلوين والعناصر الزخرفية

---

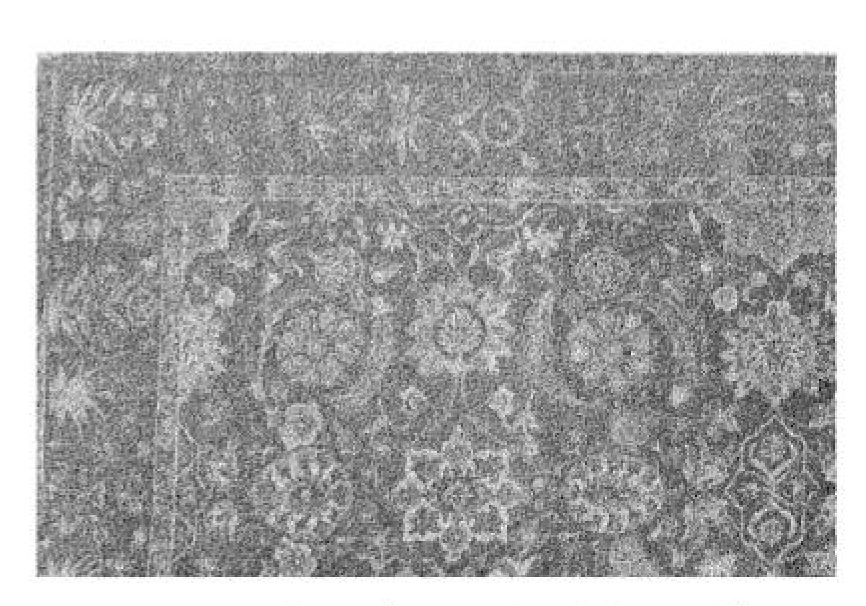
(١) لدى شركة The Girdler's Company of London



طنفسة هندية ترجع إلى النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجرى (١٧م) تجمع بين مناظر مختلفة ، فنى أعلا معبد وقصر هندى ، وفى الوسط مناظر صيد وبين ذلك حيوانات بعضها خرافى وبعضها طبيعى ـ متحف الفنون الجميلة فى بوسطن

اما التصميم فيلاحظ عليه عدم تقيده بقواعد التماثل والتوازن ، كما هو الحال فى معظم طنافس الشرق الاخرى ، فالفنان الهندى يتمتع بحرية واسعة المدى فى تكوين رسمه ، وطنافسه فى معظم الاحيان لا تكاد تخرج عن كونها لوحات فنية تمثل مناظر شتى : بعضها يصور غابات الهند وأحراشها بحيواناتها وطيورها ، وبعضها يمثل حياة المدن من معابد وقصور، وبعضها تشهد فيه صيد الانسان للحيوان أو صراع الحيوان للحيوان، وبعضها نرى فيه حيوانات الهند الحقيقية والخرافية

وأما التلوين فقد برع فيه الفنان الهندى براعة تشهد بسمو ذوقه ودقة حسه ، ويكفى أن نذكر أنه لا يكاد يستعمل أقل من ثلاثة عشر لونا مختلفة فى الطنفسة الواحدة ، وأنه يؤلف بين هذه الالوان ويخالف بينها بطريقة ترتاح لها العين ، ولعله يمتاز على غيره باستعمال درجات مختلفة من اللون الواحد فيستعمل الازرق، والازرق الفاتح، والازرق



جزء من بساط هندى يرجع إلى النصف الاول من القرن الحادى عشر الهجرى (١٧ م) نرى فيه العنصرين المحببين إلى الفنان الهندى ، وهما زهرة الزنبق وورقة الشجر المدببة الطويلة ــ متحف المتروبوليتان فى نيويورك

الداكن كل فى الموضع المناسب له فى التحفة الواحدة . وهو قدير على توزيع الظل والضوء بطريقة تنم عن تضجه الفنى ، فورقة الشجرة المرسومة فى الظل مثلا تراها باهتة لا تكاد تميز أجزاءها بينما الورقة المرسومة فى الضوء تراها واضحة المعالم تكاد تلمس شرايينها. واللون الاحمر الخمرى wine red أحب الالوان اليه وهو يختلف عن اللون الاحمر الذى يستعمله الفنان الايرانى فى طنافسه وكثيرا ما كان اختلاف هذا اللون هاديا لنا لتمييز نوع الطنافس

والفنان الهندى ينقل عناصره الزخرفية عن الطبيعة نقلا صادقا ، وتسرى فى أعطاف تلك العناصر مرونة ولدونة تكاد تبعث فيها الحياة فتخال نفسك وانت تشاهدها كأنك فى غابة قد تشابكت أغصانها ، وتجمعت أطيارها ، وتسربت بين الاشجار وحوشها ، وتناثرت على الارض أزهارها . ولعل أحب العناصر النباتية اليه زهرة الزنبق وورقة الشجر الطويلة المدببة ، فهو يكثر من استعمالهما كلما وجد الى ذلك سبيلا

* * *

وهكذا نرى فى طنافس الهند التى ترجع الى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) فنا دقيق التعبير ، جيد التكوين ، جميل التلوين ، تنفذ محاسنه الخلابة الى اعماق القلوب

محمد عبد العزيز مرزوق

الامين المساعد بدار الآثار العربية

قصة لتولستوى

الحرب والسلم

بقلم الاستاذ حلمى مراد

ليس أنسب من الآونة الحاضرة ، آونة صراع روسيا الرهيب فى سبيل كيانها ، لتقديم هذه القصة الانسانية الخالدة التى اختار تولستوى مسرحا لها قارة بأسرها ، واختار زمنا لها هو أحفل حقب التاريخ الروسى بالاحداث ، وأعنى بها حقبة كفاحها الطويل ضد نابليون .. فجاءت القصة أضخم وأروع عمل فنى منذ (الياذة) هوميروس ، حتى لقد أجمع العالم على انها أعظم رواية فى جميع العصور

تلكم هى قصة « الحرب والسلم » .. كتبها تولستوى فى ستة أعوام ، وأخرجها للناس فى ستة مجلدات يربو عدد صفحاتها على ألف وخمسمائة ، ويربو عدد أشخاصها على الثلاثين .. فهى ليست قصة فرد أو أفراد ، بقدر ما هى قصة عالم كامل يتحرك ويضطرب، وهى لا تروى واقعة أو وقائع بعينها ، وانما هى مجرى عريض تمر فيه أمامنا أحداث عصر بأكمله ، عصر عظيم ومثير وحافل بكل صنوف التعقيد وكل صور الجلال

وما الحرب والسلم فيها الا بمثابة الاطار للقصة أو المسرح للدراما .. المسرح الشاسع الذى يتحرك عليه أشخاص لا عداد لهم ، يدعوننا لمشاطرتهم مصائرهم وأفراحهم وأتراحهم ، فلا نملك الا الاستجابة لدعوتهم وتتبع حيواتهم بكل ما فى طبيعة الانسان من تشوق وفضول

ولنعرض بكلمة للجبهة الخلفية Background للقصة ، قبل أن نعيش مع أبطالها :

فأما الحرب فهى حرب الفناء بين روسيا وفرنسا أيام نابليون ، وهى تتتابع فى فترتين ، الفترة الاولى تبدأ سنة ١٨٠٥ وفيها نرى الروس خارج بلادهم يحاربون ـ بالاشتراك مع حلفائهم النمسويين ـ عدوا مشتركا هو نابليون فيهزمون هزائم مروعة ، فى سلسلة من المعارك الطاحنة ، ويضطرون الى التهادن وعقد صلح مع الطاغية الفرنسى

وهذه الفترة هى التمهيد لحوادث القصة .. أما الفترة الثانية ، الحافلة بأخطر أحداث التاريخ والقصة ، فهى تبدأ سنة ١٨١٢ ، حين تنشب الحرب من جديد بين روسيا ونابليون ، فيغزو الفرنسيون روسيا منتصرين .. وفى بورودينو تحل الازمة الحاسمة التى ترجح احدى الكفتين . وهنا نرى العراك محتدما بأقصى شدة ، والروس يحاربون

بسالة رائعة بغية صد جيش نابليون وانقاذ موسكو.. ولكن نابليون لم يصد ، وموسكو لم تنقذ ، ورغم هذا فطبقا لتقدير تولستوى ، كانت بورودينو نصرا محققا للروس ، فبعدها أضحى الجيش الفرنسى المنتصر ، كوحش جريح ظل يطارد فريسته حتى نالها، وتناولها بين فكيه ، ولكن الدم كان يقطر من أشداقه ، والموت كان مآله

ذلك انه بلا مبرر حاسم ، بدأ الفرنسيون بعد نصرهم يرتدون ، واستغل الروس الارتداد ـ وكان الشتاء حليفهم ـ فاذا بالارتداد ينقلب على نابليون بأكبر كارثة عسكرية عرفها التاريخ .. واذا بالروس فى النهاية ينتصرون . (ألا ما أشبه الليلة بالبارحة ، وما أقوى الشبه بين هتلر ونابليون !)

هذه هى الحرب فى قصة تولستوى ..

على أن أروع ما فيها تفسيره لفلسفة الاحداث ، ودلالة الهزيمة عنده والنصر .. فتولستوى ينكر على نابليون عظمته ، هو عنده ليس أكثر من رجل عادي واته مقاليد الحكم المطلق طيعة فبلغ القمة ، لا لانه عظيم وانما لان الظروف كانت قد نضجت ، ونهر التاريخ قد انعطف الى مجرى معين ، فجرفه التيار نحو المصب المحتوم.. فهو فى نصره مغرور ، وفى هزيمته طفل محزون . وهو ـ ككل دكتاتور ـ قد راح يموه على نفسه والناس ، ظانا أنه يقود شعبه بأطراف أنامله ، بينما الواقع أنه هو المقود بقوة لا يدرك كنهها .. الى أعلى التل ، ثم الى القمة فالمنحدر

ومقابل نابليون ، يضع تولستوى شخصية أخرى يراها أعظم منه وأحق بالتقدير . هى شخصية « كوتوزوف » القائد الروسى العجوز الذى انتصر فى النهاية ، وهو رجل « طيب » رقيق الاحساس متواضع يعرف أنه « لا يساوى شيئا » ، ولكنه صادق الفراسة .. ولا يهم أنه يغط فى النوم أثناء انعقاد مجلس الحرب ، فانه سيعرف كيف يلتزم الصواب فى تصرفاته حين يستيقظ .. ثم فيم القلق وفيض الحوادث مقيد بمجرى معين لن يحيد عنه ؟ وهنا يصل تولستوى الى فلسفته التى يهدف اليها ، وهى أنه ما من شخص يجب أن يحمل وزر اشعال الحرب ، ولا حتى نابليون ! وما من حادث بذاته يمكن أن يعد سببا جوهريا لنشوبها ، وانما الصواب أن جميع تصرفات البشر وأحداث التاريخ ، ان هى الا فقاقيع تطفو على مياه نهر ، والنهر يفيض دائما وينتهى الى مصب، فأحيانا يصب فى « السلام » وأحيانا يصب فى « الحرب » وما من كائن بشرى أو مجموعة من الكائنات تملك أن تصده أو تحول مجراه . ولو حاولنا ذلك لاضعنا أوقاتنا سدى ، كما نضيعها حين نحاول وضع قانون ثابت لإتجاهات التيار وظواهر الزمان، فالله وحده صاحب الكلمة العليا والقول الفصل

هذه هى فكرة تولستوى .. ولا شك اننا لو تمشينا مع النظريات الحديثة ، ففسرنا « ارادة الله » بالظروف الاقتصادية أو النفسية للدول والشعوب ، لخلصنا الى نفس النتيجة ، وهى أنه ما من انسان ـ أو حادث معين ـ يمكن أن يعد مسئولا عن نشوب

الحرب ، أو صاحب فضل فى وقفها !

ورسالة تولستوى للناس بعد هذا (الناس فى كل زمان ومكان) هى : «لا تنزعجوا ولا تحاولوا أن تفهموا .. فان ذلك لا يعود عليكم بغير البلبلة العقيمة . وانما أدوا واجبكم عند ما يحين حينه ، وستعرفونه كاملا فى أوانه ! »

هذا نصيب الحرب من القصة . أما نصيب السلم فيها فهو لا يقل ان لم يزد روعة وحياة .. ففيه تنتقل - جذلين - بين المراقص والسهرات الانيقة الصاخبة ، ونصيد الذئاب مع أظرف الابطال ، وندرس مبادىء (الماسونية الحرة) مع بطل آخر ، كما ترحب بنا فى مدخل الكتاب أجمل بطلاته ، فنلعب معها صبية ، ونتصت لغنائها المذب وهى يافعة ، ثم نسعد مع قلبها ونشقى حين تغدو كاعبا حسناء ، ثم حين تذبل حياتها وتفيض من دمائها بهجة الشباب

وهى مع ذلك ، خلال جميع هذه الاطوار ، تبدو دائما ألصق ما تكون بالدرامة العنيفة ، درامة الصراع بين روسيا وعدوها .. درامة « ارادة الله ! »

وهكذا نعاصر أبطال الرواية من شبابهم الى كهولتهم ، ونلمس بدواتهم ونزواتهم العقلية والروحية ، وهم يمرون بأطوار الجهل ، والغفلة ، وطيش الشباب ، وانفعالات العواطف .. الى ان تبلو كلا منهم التجارب ، وتنضج معرفته بالحياة ، فيقدم لنا أروع أمثلة التعقل وخير ما فى حكمة الشيوخ

ذلك أننا نجد فى هذه القصة ، ولكن .. هل هى قصة ؟ انها بالاحرى الحياة نفسها ليس لها بداية ولا نهاية ، هى خليط متزاحم من المشاعر والاحداث : الخطير منها والتافه ، المضحك والمفجع ، النبيل والوضيع .. اختلطت كلها فى ثناياها ، كما تختلط فى الحياة ، فاذا هى تحوى كل شىء : الحرب والسلم . الحب والبغض . اللهو والألم . المسرات والاحزان . الشعب والفرد . العامة والخاصة . الريف والحضر . الخمر والنساء . زواج وطلاق وولادة ووفاة . رجال وأطفال ونساء وكهول . أشرار وأبرار .. أشخاص لا حصر لهم ، ينتشرون كلهم على مسطح شاسع يقاس بمئات الاميال ، فيقاسون وينعمون بكل أنواع الاجواء ، وتقلبات الطقس ، ونزوات الطبيعة الغاضبة الراضية !

وفيما يلى عرض سريع خاطف لابرز شخصيات القصة وأخطر ما فيها من أحداث:

نحن فى روسيا أيام مجد نابليون : « الغول » الفرنسى قد راح يلتهم دول أوربا دولة فى اثر دولة ، ويطحن جيوشها جيشا وراء جيش ، ويقفز بين ممالكها وكأن العالم عنده ليس أوسع من قفص ، ويفتح عواصمها ليطرح ظله البغيض عليها عاصمة فعاصمة

والروس مشفقون من أن يبلغهم هذا الظل بدورهم ، فهم لا يتحدثون الا فى أن بونابرت هو أكبر عدو للجنس البشرى ، وأن قيصرهم اسكندر هو المخلص العتيد أن ينقذهم من خطره الوبيل

بهذا كان الناس يلغطون فى أحد قصور مدينة سانت بيترسبورج ـ عاصمة روسيا القيصرية اذ ذاك ـ فى مساء يوم من أيام شهر يوليو سنة ١٨٠٥ حيث كانت النبيلة أنا شيرر تستقبل مدعويها الى حفلتها الساهرة

وهناك نتعرف الى أبطال قصتنا وأبرز شخصياتها

فها هو الامير الارستقراطى المتعجرف أندريا بولكونسكى .. وها هى زوجته الاميرة ليزا .. وها هو صديقهما الحميم بير بيزوكوف ، الابن غير الشرعى لاحد الاثرياء

أما الامير اندريا فهو نبيل من أصل عريق ، رشيق الجسم أنيق المظهر ، أكسبته بنوته لاحد الضباط العظام ، شجاعة هى بعض تراث عصور الفروسية ، كما أكسبته نشأته عقلا ناضجا مثقفا ، وان كانت ارستقراطيته قد خلعت عليه فيما خلعت ، كل مساوئها ، فهو شامخ الانف مزهو بحسبه ونسبه ، شديد الاعتزاز بأفضليته على طبقة العامة الذين كان لا يخفى احتقاره لهم .. لكنه رغم ذلك يملك قلبا قديرا على الحب والبغض ، محتفظا بطاقته فى سائر العواطف القوية العميقة ، فهو يحب أباه وأخته الاميرة ماريا ، حبا مفرطا ، ويحب من الاصدقاء واحدا قصر عليه اخلاصه واعزازه ـ رغم التباين الصارخ بينهما فى المظهر والجوهر ـ وهذا الصديق هو بير بيزوكوف ، البدين المترهل الجسم ، القبيح الهيئة ، والذى ينقصه التهذيب فى حركاته وتصرفاته ، وان كان اندريا يعتبره ذا قلب من ذهب ، من فرط طيبته وبساطته ورقة احساسه ، التى تجعله عطوفا على الناس جميعا ، يفهم من حوله أكثر مما يفهمون أنفسهم

أما الامير اندريا ، فقلبه عدا حبه لابيه واخته ماريا وصديقه بير ، لم يكن قلبه ينطوى الا على عاطفتين : الاحتقار المستور لزوجته الاميرة ليزا التى لا تعدو فى نظره أن تكون حمقاء جاهلة .. ثم الطموح والتطلع القوى الى المجد ، ولو عن طريق الحرب ، فالحرب عنده لم تخلق فى الاصل الا كوسيلة تضفى على الناس أثواب البطولة والشرف

ومن ثم لا يكون غريبا أن نراه فى تلك الحفلة الساهرة بسانت بطرسبرج ، يغافل زوجته وينفرد بصديقه بير ، يبثه همه ويشكو اليه متاعبه ثم يصارحه بأنه قد ضاق بحياته مع زوجته ، وانه لذلك يزمع الالتحاق بالجيش ـ وهو بهذا يرضى عاطفتيه معا : النفور من ليزا والسعى الى الشهرة ـ ثم نفهم منه أيضا أنه سيمر ، فى طريقه الى الميدان ، بضيعة أبيه فى (ليسى جورى) كى يودعه ويودع اخته الطيبة الوديعة ماريا ، ثم ليترك فى رعايتهم زوجته الموشكة على الوضع

ننتقل من حفلة النبيلة أنا فى سانت بطرسبرج ، الى عشاء فاخر فى موسكو حيث نتعرف الى بقية الشخصيات ، وهم أفراد أسرة «روستوف» فنقابل الابن الاكبر نيكولا روستوف الذى كان قد ودع رياضته المفضلة (صيد الذئاب) وشرع يودع أصدقاءه قبل أن يلحق هو الآخر بفرقته .. ثم ندع نيكولا لكى نتابع فى شغف أخته الجميلة

الغريرة « ناتاشا » وهى تنتقل فى أرجاء المكان فى خفة ومرح ، تداعب هذا وتمازح ذاك

ومرت ثلاثة اشهر

واذا نحن فى النمسا مع الجيوش الروسية والنمسوية المتحالفة ، حيث تتلقى نبأ انتصار نابليون فى معركة (أولم) .. ثم نبأ دخوله فينا .. واذا بالقيادة النمسوية تلوذ بالفرار الى (أولمتز) ، والروس يتقهقرون فى غير نظام ، ونابليون يطاردهم ، حتى يلحق بهم ويضطرهم الى الاشتباك معه فى معركة (أوسترلتز)

وخاض الامير اندريا غمار تلك المعركة ، فأتاحت له شجاعته الموروثة وبرود أعصابه ، أن ينال أعلى تقدير من رؤسائه .. وان كانت مرارة القتال قد غيرت آراءه فى الحياة ، غيرت أول ما غيرت ايمانه بتحرى العدالة فى توزيع أوسمة البطولة على المقاتلين ، فلقد رأى بعينيه كيف كان يندر أن ينال تلك الاوسمة من يستحقها فعلا ، وكيف أنها فى الغالب لا تكون الا من نصيب من تضعه الصدفة المحضة والحظ الاعمى تحت أنظار من بيدهم الامر من الرؤساء .. بل رأى أكثر من ذلك ، كيف ان ضابطا متواضعا مغمورا ، من ضباط المدفعية ، كان وحده صاحب الفضل فى ابادة كتيبة فرنسية كاملة وتغطية انسحاب الروس ، ورغم ذلك فان عمله الجبار هذا قد ظل مجهولا من قائده ، فلم يكفه أن حرمه من وسام الاستحقاق ، وانما كاد أن يجازيه بقسوة ، لا لشىء الا لانه « أضاع بعض البنادق التى كانت فى حوزته ! » .. وكان هذا أكرم جزاء للبطولة التى لا تعلن عن نفسها

رأى اندريا كل ذلك ففقد ايمانه بعدالة الثواب والعقاب فى الجيش ، وايمانه بخرافة البطولة والشجاعة ، ثم أوشك أن يفقد مع ايمانه حياته .. فان المعركة قد احتدمت فى أوسترلتز .. وهزم فيها الجيش الروسى هزيمة مروعة تصل الى الفرار .. وكان من نصيب اندريا أن التقط العلم الساقط من ضابط محتضر ، التقطه من يده فى شجاعة وظل رافعا به ذراعه ، وكأنما أثرت فيه بطولة زميله الضابط المغمور ، فاستطاع هو بدوره أن يصمد ببطاريته فى أفواه مدفعية الفرنسيين ، صمد طويلا وكاد يصمد الى النهاية ، لولا أن أصابته شظية طائشة .. فسقط والعلم ما يزال فى يده

وفى غمار الدقائق القليلة التى مرت قبل أن يغيب عن الصواب وتتلقفه الغيبوبة ، أحس أن جرحه خطير ، فأدرك فجأة تفاهة كل ما كان يطمح اليه من متاع الدنيا أدرك تفاهة الحياة، ولكنه أدرك أيضا روعة وجمال السلام العذب العميق الذى ينتظره . السلام الذى ما كان قد رآه أو أحسه قط من قبل ، حتى أتيح له ذلك كله الآن ، فجأة ، وفى وميض خاطف ، فى تلك اللحظة الهائلة التى يحس الانسان فيها بخطى الموت تقترب منه .. ولا تنى ان تقترب !

فتح اندريا عينيه وهو ملقى على الارض يغالب الالم ، فتحهما ليرى الام انتهى الصراع بين بطاريته وبين مدفعية الفرنسيين .. ولكن الميدان كان مهجورا والسكون

مخيما على الوجود ، فلم يسمع شيئا ، أو ير شيئا ، الا هذه السماء العريضة الممتدة فوق عينيه ، السماء العالية السحيقة المتناهية فى العمق ، السماء الحلوة الصافية الا من سحب خفيفة دكناء ، تمشى وئيدة فيها

ما أعظم هذه الوحشة وهذا الهدوء يا اندريا !.. أين هذا مما كنت فيه منذ .. منذ متى ؟ وأنت تجرى وتقاتل وتصيح ، والقذائف تتناثر من حولك كالحمم .. أين ذلك الجحيم والنيران ، من هذه السماء العميقة السحيقة، وهذا الجلال الذى يحف بالكون. لكم انت فرح .. أخيرا قدر لك ان تلمس حقيقة الحياة ، وتعرف أن كل من عليها صائر الى الفناء ، وكل ما عليها باطل خواء .. الا هذه السماوات اللانهائية .. رباه ! ما أحلى السلام وما أحلى هذا الصمت العميق العذب .. رباه .. شكرا ! شكرا !

وتلقفته الغيبوبة من جديد

غيبوبة لم يفق منها الا بعد زمن ، حين فتح عينيه ، ليجد أمامه ، وفوق رأسه ، البطل الجبار المنتصر : نابليون ، بلحمه ودمه ، واقفا يرقبه ، صامتا أول الامر ، ثم مهنئا اياه فى حرارة ، بشجاعته الهائلة .. لكنه قابل المفاجأة ببرود .. فحتى هذا المدح والاطراء من البطل الذى كان فيما مضى مثله الاعلى المعبود .. حتى هذا الاطراء من بونابرت ، لم يحرك نفسه الآن . فانه قد لمس أخيرا تفاهة المجد الحربى .. لمسه وانتهى الامر . ونقل الامير الجريح الى مستشفى الميدان

* * *

لم تكد تنتهى ملحمة أوسترلتز ، بتلك الكارثة المروعة التى أصابت الروس ، حتى تواترت الانباء فى ضيعة (ليسى جورى) بأن الامير اندريا مفقود ، وانه لا بد قد لقى حتفه فى القتال . وفاجأ النبأ زوجته الاميرة ليزا وهى مشرفة على الوضع ، فلم تكد تضع طفلها حتى أسلمت لمضاعفات قضت عليها بعد أيام .. وفى نفس الليلة التى ماتت فيها ، فوجئت الاسرة الحزينة بعودة ابنها المفقود : اندريا .. عاد معافى من جرحه الخطير ، ولكنه أضحى رجلا غير الرجل ، أضحى رقيقا مرهف الاحساس مضعضع الحواس ، لا ينظر لنفسه الا على انها نفس قد شاخت واستوفت حقلها من الحياة .. الحياة التى ما عادت تخلبه ولا عاد بريقها يغريه فانه قد غدا زاهدا فى الدنيا ، زاهدا فى البطولة والمجد ، مسلما كيانه للسأم والاوهام

وضاق بنفسه أخيرا ، فأوى الى ضيعته ينشد السلوان من عبوس الايام

ولكن الايام التى عبست له ، كانت تبسم لصديقه بيير فى بطرسبرج .. فلقد نال بيير اعتراف أبيه الثرى بأبوته ، فغدا أبنه الشرعى ، ومات الاب وشيكا تاركا للفتى ثروة طائلة ، فاذا هو — فى غفلة الاقدار — يمسى غنيا مفرط الغنى ، واذا بمصاهرته تمسى وتصبح مطمح أنظار النبلاء ، يطمع كل منهم فى أن يزوجه من ابنته .. والفتى فرح

مغتبط ، يرقب السباق الممتع وكأن الامر لا يعنيه . وهنا تبرز حقيقة شخصيته ، فان سذاجته ورقة حساسيته ، ثم ضعف ارادته ، الذي يقوده دائما الى التورط فى أمور لم يكن يريدها .. كل ذلك يتضافر ويتآمر على هناءته ، فاذا هو مسوق الى الزواج من امرأة كان يريدها فقط ولا يحبها ، واذا هو يفتح عينيه ذات يوم ، وينتبه من سكرة التهافت العذب على اصطياده .. فيجد نفسه زوجا « لهيلين »

ولكن الزواج لا يقوى طويلا على عوادى الزمن ، ولا يثبت لاهواء القلوب ، فلا يلبث حتى يتكشف عن فشل أليم ، ولا تلبث مغاضبات الزوجين ان تنتهى يوما .. بالانفصال ، فيترك بيير زوجته ، ثم يترك المدينة كلها ، لينطوى على نفسه فى الريف ، كما فعل صديقه الامير اندريا من قبل

ولكن عزلة كل منهما لا تعنى أن عجلة الزمن قد كفت عن الدوران ، بل انها على العكس كانت ممعنة فى الاسراع ، فان نابليون قد وثب من نصر أوسترلتز الى ملاقاة جيش النمسا وتشتيت شمله فى معركة جديدة ، واذا هو قد بلغ برلين .. وها هو يقترب من وارسو .. ثم تبدو فى الأفق طلائع نواياه العدائية ضد روسيا فى ذات أراضيها

ثم جاء يونيه سنة ١٨٠٧ فاذا هو قد ألحق بالروس هزيمة جديدة نكراء فى (فريدلاند) وهكذا لم يجد القيصر مفرا من طلب الصلح ، فالتقى الخصمان حول مائدة واحدة فى (تيلست) ولكنه صلح على ضغن ، وصداقة تطوى من العداء أكثر من خبيء

ومر عامان !

عامان هادئان ، فلا حروب ولا صدام ! ولكنهما عامان حافلان ، بأطوار النفوس من انفعال واضطرام !.. فان بيير قد ضاق بوحدته فى الريف ، فاعتزل العزلة ليستأنف حياته التعسة مع زوجته

وأسرة روستوف قد اضطربت شؤونها المالية ، وعبثا حاول نيكولا اصلاحها ، فاضطرت الأسرة الى الانتقال من موسكو الى سانت بطرسبرج . كى تجرب حظها فى الحياة من جديد . ورغم الحاح الام ، رفض نيكولا أن يشترى رخاء ذويه على حساب قلبه ، بالزواج من نبيلة وارثة

أما بطلنا الثالث اندريا ، فبعد استكانة طويلة فى أحضان ضيعته ، طلقها فجأة ليعود بدوره الى العاصمة

وهناك .. هناك تربصت له جنته .. وجحيمه !

كان ذلك فى ربيع سنة ١٨٠٩ ، خرج اندريا يقود عربته الى ضواحى سانت بطرسبرج ، صوب منزل آل روستوف . وكان الطريق جميلا يخلب الابصار والطبيعة جذبة تفتن الأفكار ، والهواء رقيقا يعزف لحنه على غصون الاشجار .. ولكن نفس

اندريا كانت ترزح تحت أثقال الاسى ، وتحت وقر الشعور بأنه قد شاخ ، وخلف حياته وراءه

وفيما هو يقترب من القصر ، لمح عن بعد بعض الفتيات يمرحن بين جذوع الاشجار وكانت تجرى فى مقدمتهن فتاة نحيلة فاحمة الشعر والعينين ترتدى ثوبا أصفر ، وفوق رأسها منديل ناصع البياض تبرز منه خصلات من شعرها قد استدارت فى هيئة حلقات

انها ناتاشا روستوف ، أخت نيكولا ، التى رأيناها منذ أربعة أعوام فى عشاء فاخر بموسكو ، تتنقل بين المدعوين فى خفة ومرح ، تداعب هذا وتمازح ذاك

لكنها قد نضجت ، وثارت فيها أنوثتها ، فأكسبها ذلك الانفعال العذب الذى يجعلها خفيفة طليقة ، لا تكاد تستقر فى مكان ، أو تخلد الى راحة ، أو تأنس الى انسان ، وانما هى فرحة بنفسها ، فرحة بشبابها النضير ، وصوتها الحلو .. فرحة بالحياة . ولعل هذا ما أفاض عليها سحرا ومكنها من قلوب الرجال ، فهى لا تكاد تقدم الى أحدهم حتى تغدو معبودته ، ولا يدخل البيت رجل الا ويهواها ، ولا تبدو فى مجتمع حتى تمسى مرموقة من الجميع قدر ما هى مرموقة من أسرتها ، وبقدر ما ترمق هى الدنيا وتعشقها فلا ترى فيها الا كل ما هو ضاحك مشرق بهيج ، ولا تخطر فى مكان الا وتبعث من حياتها فى الجماد حياة ، وتستشف وراء أقبح الاشياء جمالا وشعرا وسناء

وهى أول من تقترح على الناس الخروج الى الرحلات والنزه ، وأول من تبدو دائما على استعداد لان توفر لغيرها أسباب اللهو والمتع .. تفتنها جولة صباحية فى الغابة، أو ليلة مقمرة فى الربيع ، أو أغنية لطيفة حنون ، وكأن مسا من الحيوية المشبوبة قد أصابها فأغراها بأن تعب من فيض مسرات تلك الفترة السحرية من عمر الفتيات ، فترة الشباب الباكر الزاخر الذى يملأ الدنيا فى أنظارهن ضياء زاهيا وهميا لم يشرق على الارض قط

كان ذلك كله — ولا ريب — ما فتن اندريا وجذبه اليها حين لمحها تجرى وتمرح مع الفتيات وهن يختبئن وراء جذوع الاشجار

وفى المساء ، حين صعد اندريا الى الغرفة التى أعدت له ، سمع ناتاشا ترثر مع ابنة عمها سونيا ، وهما متكئتان على نافذة تحت نافذته

كانت الليلة جميلة فى هدوئها ، وأمام النافذة صف من الاشجار العالية التى بدت خضرتها فى ضوء القمر فضة لامعة .. ووراءها تبرق قطرات الندى فوق سقف منزل بعيد .. والى اليمين شجرة سامقة تشعبت أغصانها وامتدت تتلقى وتغربل شعاعا ناعما من نور القمر الذى كان يشرق بهيا فى ظلام تلك الليلة من ليالى الربيع ، ليضىء سماء خالية من النجوم

اتكأ اندريا بمرفقيه على حافة النافذة ، وثبت عينيه فى تلك السماء . ومن النافذة السفلية جاء صوت ناتاشا وسونيا تغنيان لحنا رقيقا ، ثم تنتهى الاغنية فتدعو سونيا ناتاشا

الى النوم ، ولكن هذه تجيبها محتجة «سونيا ! سونيا ! كيف يمكنك الاخلاد الى النعاس؟ تأملي الدنيا .. كم هي جميلة ! ابقى معي ياسونيا وانظرى » ثم تضيف ودموع الانفعال تجول فى عينيها : « تأملى .. انظرى الآن .. ان ليلة كهذه لم تر قط من قبل »

* * *

.. وقابلها اندريا بعد ذلك فى أحد المراقص ، حيث كان مرحها الشبيه بجذل الاطفال يبعث فى جو المكان الخانق أنفاسا من الهواء المعطر .. فأحس اندريا أن نفسه التى أغلقتها مآسى الحرب فى ظلال المعارك والدماء ، تتفتح من جديد لتستقبل الربيع مجسما وبهجة الحياة متجسدة فى هيئة كائن من البشر ، هو ناتاشا

ثم نما الود بينهما فالحب ، فاذا هما متفاهمان على الزواج ، واذا اندريا سعيد كما لم يسعد من قبل ، ونفسيته التى كانت قد تضعضعت ، عادت فانتعشت مرة أخرى ، واذا هو قد اعتزم أن يحيا حياة أكثر نشاطا .. وكان جادا فى عزمه ، فلم يجىء أغسطس الا وهو فى بطرسبرج مضطلعا بدور هام فى برنامج الحكومة الاصلاحى

ثم تقدم لخطبة فتاته ، ولكن مالية أسرتها كانت لا تزال مرتبكة ، فأصر والده على تأجيل الارتباط عاما ، فانتهز اندريا الفرصة وسافر الى الخارج ليستجم من عناء العمل المتواصل الذى أرهقه فى الشهور الاخيرة ، سافر وهو لا يرى فى بعد أجل الزواج تعنتا أو ارهاقا ، كما لا يتوقع أن تجد فيه ناتاشا شيئا من ذلك أو تضيق به

ولكنه كان واهما .. فانه كان قد أيقظ فى الفتاة أنوثتها ، وكانت غريرة ومتقدة المشاعر فعانت فى فترة غيابه قسوة الفراغ الذى تركه فجأة فى حياتها ، كما أن حساسيتها القصوى قد جعلتها تتألم أشد الألم ، من الفتور الذى كانت تقابل به من أسرته . وحين آن أوان السفر الى موسكو لاعداد جهازها أخذها أبوها الكونت روستوف الى هناك ومعها سونيا ، ثم تركهما فى المنزل سيدة عجوز من صديقات الاسرة .. وبهرت الحياة الاجتماعية الصاخبة فى موسكو ، مشاعر الفتاة المتعطشة للحياة والمسرات ، فأفلتت لشبابها العنان .. وغمرها سناء المراقص والملاهى والحفلات ، فعرفت « اناتول »

كان أناتول فتى عابثا وضيع النفس ملتوى الاساليب يتقن الكلام المعسول فأمنت له اذ تودد اليها ذات ليلة فى دار الاوبرا . ومن ثم باغتها بحملة عاطفية عنيفة لم تملك المسكينة مقاومتها فاذا بها قد فتنت به ، واذا هى تكتب الى اندريا خطابا تنبئه فيه بفسخ خطبته . ثم تتهيأ للفرار مع أناتول ، لولا أن يكشف التدبير ويحبط فى الوقت المناسب ، تكشفه سونيا المتعقلة الرزينة فتطلع عليه مضيفتهما العجوز ، ومنها تعلم الاسرة كلها ، فتعاد الفتاتان الى سانت بترسبورج ، حيث تعلم ناتاشا من صديق الاسرة الطيب «بيير» أن اناتول لم يكن يبغى غير العبث بها ، فانه متزوج فعلا .. وعلى دوى الحقيقة تفيق ناتاشا فجأة من طيشها ، وتدرك سوء ما تصرفت وما فعلت بخطيبها النبيل اندريا ..

واذا هي في غمار الخجل والندم تحاول الانتحار

عاد اندريا من رحلته في الخارج فعلم بالقصة كلها ، وكانت الصدمة قاسية . أحس أنه قد طعن في زهوه وكبريائه وأعجزته طبيعته عن تقدير نفسية الفتاة وعن التماس الاعذار لطيشها ، فأبى أن يصفح عنها . وقصر جهوده على البحث عن غريمه ، بحثا مضنيا طويلا ، فلما لم يعثر عليه التحق بالجيش من جديد، وقد عاودته مرارته، ونظرته القديمة الى الحياة . ثم سافر الى الميدان ليدفن شجنه في القتال ..

فقد كنا في يونيو سنة ١٨١٢ ، وكان نابليون قد فرغ من تلقى حفاوة ملوك أوربا في (درسدن) ، ومل رؤية جباهم الصاغرة المعتادة فتطلع الى مجد جديد وجباه صاغرة جديدة .. ومن ثم عبر (نيمن) ليهاجم روسيا في بلادها

وهكذا بدأ القتال مرة أخرى ، وعاد الروس يتقهقرون ، فرجع القيصر من بولونيا الى موسكو حيث جمع قواده واستقبل نبلاء المدينة وتجارها ، للبحث في مواجهة الحالة . وأسفرت المشاورات عن تسيير جيشين روسيين لملاقاة الفرنسيين ، ولكن نابليون كان أسرع منهما فقطع عليهما الطريق باحراق سمولنسك ، مما اضطر الجيوش الروسية للارتداد ، وفي ذيلها الفرنسيون يلاحقونها ويقتربون من (ليسي جورى) حيث تقطن أسرة أندريا بولكونسكي . ولم تجد الاسرة بدا من الفرار ، وفي الطريق مات الامير الاب تاركا ابنته ماريا لتقيم في ضيعة أخيها اندريا وحيدة ضائعة

لكن الاقدار كانت تهيىء للاميرة الوديعة ملاذا رحيما ، ففي تلك الاثناء تصادف أن عسكرت فرقة نيكولا روستوف قرب الضيعة ، فوجدت ماريا فيه أنيسا ينقذها من انفرادها الموحش الكئيب ، ووجد قلبها الى قلب نيكولا سبيلا ممهدا ناعما ، فنما بينهما حدب .. ثم ود .. ثم هوى متبادل وهكذا لقيت اليتيمة جزاءها واستحقته ، بعد حياة جافة مقبضة

لقيته بعد أن عاشت محرومة من تهافت الرجال ، تحب ولا تحب ، من فرط ما ضنت الطبيعة عليها بالجمال ، رغم ذكائها ونبلها وثرائها . فكانت سريعة الخجل والتورد ، تخطو متثاقلة في مشيتها، من وطأة ما تعاني من الاحساس بالنقص وانعدام الثقة بالنفس . ولكنها رغم ذلك كانت دائما احدى أولئك اللواتي يملكن سر الحياة : هبة المحبة ، تريقها على الناس بلا حساب ، فهي تعبد أخاها اندريا ، ومن أجله أحبت زوجته البغيضة ليزا الى أن ماتت ، ثم هي قد احتملت بلا تذمر، وعاما بعد عام، تحكم والدها وتعنته وفظاظته

وأخيرا - وان يكن متأخرا - تنال جزاءها عن كل هذه العذوبة والصبر ، فان اندريا قد أمسى يقدرها ويفهمها ، وأباها الظالم قد مات معترفا لها بأنها كانت له دائما ملاكه اللطيف الحارس ، ثم ها هو جمالها الروحي الصرف يغتصب لها في النهاية . لا الميل ، ولا الاعجاب ، بل الهوى والعبادة من نيكولا روستوف ، أبرد الرجال، الذي

كان طوال عمره فاتر العاطفة مع من هن أجمل منها وأصبى .. فاذا هو يتحول اليها ليهبها حبه وقلبه

* * *

فى الوقت الذى كان فيه ميدان القتال لا يزال فى ظمأ للدماء ! نشبت معركة جديدة بين الفرنسيين والروس فى (بورودينو) فتلاحمت الجيوش واحتدم العراك ، واذا بعشرات الالوف من الرجال يذبحون كالاغنام واذا بالخطر الفرنسى يدنو من موسكو ، فلا يجد الروس بدا من اخلائها من ساكنيها المدنيين .. وفى غمار الفزع والاضطراب شرع الاهالى ينزحون عن المدينة فى سيل لا ينقطع .. وكانت أسرة روستوف بين الأسر المهاجرة ، فانهمكت ناتاشا فى اعداد الامتعة والحقائب ، ثم ما لبثت أن قررت تضحية تلك الامتعة وتركها وراءها ، لكى توفر أقصى ما يمكن توفيره من الجياد والعربات ، لنقل الجرحى من الروس الذين خروا فى بورودينو

ولم تكن التعسة تدرى ما تخبئه لها الساعات التالية .. فكانت المفاجأة حادة عنيفة : لقد عثرت سونيا بين الجرحى على .. اندريا !

كان أندريا قد أصيب فى المعركة بجرح خطير ، وكم كان القدر ساخرا حين دبر ان ينتبه الجريح من غشيته على صوت أنين تلفت الى مصدره فاذا هو يرى غريمه القديم أناتول ، الذى سلبه ناتاشا .. رآه فى هيئة بشعة وقد قطعت ساقه فراح يتأوه تأوه الاحتضار ، فلم يملك اندريا نفسه من العطف عليه والاشفاق ، متناسيا حقده القديم

تماما كما تناسى حقده على ناتاشا بدورها ، عند ما رآها بغتة أمامه . رفع عينيه اليها ، فاذا هى فتاته القديمة بكل ما فى روحها من عذوبة ، وما فى جسدها من شباب نضير

. وصارت تمرضه ، وتريق عليه من حنانها فيضا يتدفق .. فكانت حنانته تعاونه على مغالبة الفناء ، فيومض الامل فى شفتاه ومضا قويا ، ولكن الى حين .. فان الموت كان يترصده ويريده ، ويأبى الا أن يعود بروحه .. وهكذا ظل التعس يتأرجح بين البقاء والعدم . ثم تفاقمت يوما آلامه فأدرك انه هالك ، بل أحس انه يموت تدريجا ، وانه فى منتصف الطريق الى الزوال ، فعانى كل مرارة ادراك كنه هذا العبور من عالم مألوف الى عالم رهيب مجهول .. لكن تشبثه بالحياة لم يكن عن ضعف وخور ، وانما كان مبعثه أن الحياة قد أضحت عنده تعنى دنيا من الشعر والبهجة والحب .. تعنى ناتاشا ، التى كانت ترقبه صامتة وهو يغيب عنها رويدا رويدا ، فى بطء وسكينة ، الى عالم عميق سحيق .. ولكن .. ماله يهدأ فجأة ويزايله جزعه ، فتنبسط أساريره ؟ لكأنه ينتظر مصيره بلا قلق .. ولكن بلا لهفة أيضا .. ولكأن حضرة الموت ، التى كانت دائما تخيفه وترعبه ، والتى لم تكف لحظة ــ طوال حياته ــ عن مطاردة حواسه .. لكأنها الآن ــ وهى قريبة منه ، بل فوق رأسه ــ قد فقدت بغتة طابعها وطلعتها الكريهة

وحين أحضروا له طفله الصغير ، ليودعه ، طبع على جبينه قبلة واهنة ، ثم أدار

وجهه ، وثبت عينيه فى تلك السماء الفسيحة الصافية

وهكذا عبر البطل عتبة الحياة ، وأخلد للنعاس الابدى ، باستسلام عذب نبيل .. وكأنه قد وجد السلام أخيرا !

كان الاختطاف قاسيا على ناتاشا ، فذاقت مرارته وأحسته بكل ما فى كيانها من قوة انفعال ، كعهدها دائما .. ثم بدأت مع الايام تضمحل رويدا رويدا ، وتذبل ، ويذوى عودها ، حتى غدت نحيلة شاحبة ، تجلس صامتة ساعات ، تحدق فى الفضاء العريض الذى رقد فيه اندريا ، ولا تكاد تحس للدنيا وجودا ، وهيئتها تنطق بأنها هالكة

وفقدت أسرتها كل أمل فى انقاذ حياتها ، وخاصة حين دهم الاسرة مصاب جديد ، فان الاخ الصغير (بيتيا) قد لقى حتفه فى احدى معارك العصابات فجنت الام من لوعة الحزن ، وراحت فى هذيانها تنادى وحيدتها الباقية ناتاشا ، فى حرقة مفجعة ، وعكفت الفتاة على رعاية أمها الذاهلة ، مرهقة كل ذرة من أعصابها فى سبيل انقاذ عقلها .. وكان فى هذا خلاصها ، فانها قد نسيت نفسها وشجنها ، وعادت تدريجا الى الحياة . واذا هى تحيا من جديد ، بفضل نفس المشاعر والعواطف التى كادت أن تودى بها

لم تكد تنتهى معركة بورودينو بهزيمة الروس ، حتى انطلق نابليون بجيشه يطوى الطريق الى موسكو ، وعند ما بلغ ضواحيها أدهشه الا يخف وفد من سراتها وحكامها للقائه وتسليم مفاتيح المدينة فى خضوع ، ولكن دهشته كانت أهون مما تلاها ، فان ألسنة اللهيب ما لبثت حتى بدت له من بعيد ، تتصاعد من قلب موسكو ، فاندفع الى مدينة أحلامه مسرعا مذعورا ، واذا بها مهجورة خاوية على أطلالها ورمادها

وفى لحظة تبددت أحلام أعوام ، فبقى يناضل الاقدار خمسة أسابيع ، وجنوده المنهكون يقاسون الاهوال من البرد والجوع ، ويتلاشون كل يوم بالالوف وكأنهم يذوبون فى الثلوج .. وعبثا حاول أن يجد لهم زادا ومؤونة ، فلم ير آخر الامر بدا من اخلاء موسكو ، بادئا ارتداده التاريخى الرهيب نحو سمولنسك .. الارتداد الذى كلفه ثلث جيشه الجبار ، وأفقده خيرة رجاله وزبدة شباب فرنسا ، هلكوا تحت وطأة عاملين : هول الجوع والثلوج والمستنقعات ، ثم الغارات الرهيبة من رجال العصابات ولم يهلكوا وحدهم ، وانما هلك معهم ألوف من الاسرى الروس ، الذين كان من بينهم .. بيير

كنا قد تركناه فى موسكو . وكان قد آثر — حين اقترب جيش نابليون — أن يظل فى المدينة متنكرا فى زى سائق لاحدى العربات .. لكن أمره لم يلبث أن افتضح ، بل واتهم بأنه احد المشتركين فى احراق موسكو فى وجه نابليون فحكم باعدامه ، ثم صدر عفو عنه فى آخر لحظة ، اكتفاء بأخذه أسيرا .. وهكذا نقابله الآن فى ركاب الجيش الفرنسى المرتد ، نقابله وقد جمع الاسر بينه وبين صديق قديم من (الماسون الاحرار) فيلسوف فى سذاجته ، هو بلاتون كاراتايف ، الذى كان لآرائه الساذجة والعميقة

معا ، أكبر الاثر على عقلية بيير ونفسيته

لم يكن بلاتون الا فلاحا محدود الذكاء بعيدا عن الرقى والتهذيب ، حياته ليست غير حرمان متصل ، ولكنه كان رغم ذلك كأنه الحب مجسما ، فهو رقيق عذب عطوف على كل انسان ، بقدر ما كان قدره قاسيا عسه ، فجعل حياته سلسلة من الكوارث والفواجع ، آخرها فاجعة نهايته .. فان الفرنسيين كانوا ـ فى ارتدادهم المنكود ـ يجدون فى تضخم عدد الاسرى عبئا ثقيلا يعطل ويؤخر فرارهم ، ويكلفهم من المؤن والطعام ما لا يجدون لانفسهم ، فلجأوا الى التخلص من كل أسير يعوقه التعب أو المرض عن مواصلة المسير . فلما أصاب بلاتون ذلك الاعياء والانحلال ، جلس تحت شجرة عتيقة فى الطريق ، ينتظر مصيره بوجه هادىء القسمات يكسوه تعبير أقرب الى الاستسلام والاشراق .. وان كان قد رمى الى صديقه بيير ـ وهو يودعه ـ نظرة كلها مناشدة .. ولكن ماذا يملك الصديق من عون .. وهل أمامه غير النجاة بنفسه ؟ وهكذا خلفه بيير وراءه وولى ، وقلبه ينوح على رفيقه الطيب النبيل

وبعد لحظات ، وقبل ان يبعد بيير فى المسير سمع صفير رصاصة تنطلق ثم مر به جنديان فرنسيان يلوح على أساريرهما تعبير آثم .. وعوى فى أذنه نباح كئيب .. فان كلب الفيلسوف كان يرثيه !

لكن روحه لم تذهب هباء ، فلقد وجد بيير فى تلك الفاجعة مفتاح الحقيقة التى طالما بحث عنها ، حقيقة الحياة ، فاذا به الآن يحس ـ رغم تزايد آلامه البدنية ـ بأن قلبه يخف ، وروحه تسكن ، وكأن أثقاله قد طرحت عن كاهله ، وحل محلها جذل غريب وغبطة مبهمة ، غبطة من قاس متاعبه بمأساة غيره ، فاذا متاعبه قد هانت ، وغدت كلها أقل ايلاما مما كانت .. واذا به يتحامل على ساقه المرضوضة المشلوخة ، متلهيا عن النظر الى جرحه المتقيح بتأملات أخرى ، ومتجاهلا مصير مئات الاسرى التعساء بالتفكير فى مناظر أمر وأقسى .. فاذا بالمستقبل يصبح فى خياله مشجيا واذا هو يجد فى أعماقه حافزا خفيا ، فيواصل سيره فوق الثلوج وقد كفت نفسه عن أن تعاف لحوم الجياد التى كانت غذاءه ، ومذاق البارود الذى صار ملحا لطعامه .. وأمسى يحتمل طنين الحشرات والهوام التى كانت تغطى جسده ، معزيا نفسه بأنها انما تدفئه وتكسوه وأن الله يمتحن بها صبره ويبلوه ، وهكذا صار يستمد من البؤس ايمانا يعمر قلبه ويجلوه !

ثم جاءه الخلاص أخيرا .. من حيث لا يدرى

فقد فوجىء بجماعة من رجال العصابات ، انقضوا بغتة على البقعة التى كان فيها فانقذوه ونفرا غيره ، لكن البطولة لم تذهب بغير ثمن ، فان بنادق الفرنسيين قد تصيدت أحد المهاجمين .. وكان الشهيد فتى غريرا : بيتيا روستوف شقيق ناتاشا الصغير

وبينما كان بيير وجماعته فى الطريق الى احد مستشفيات (أوريل) ، كان تقهقر الفرنسيين قد أدى بهم الى التحام جديد فى (فيازما) ، حيث أسر الروس منهم ستة

وعشرين ألفا كانوا على شفا الموت جوعا وبردا ، ثم ظلت خسائرهم تتفاقم وتتضاعف ، وارتدادهم يتكشف عن سلسلة من الكوارث فنى فيها أكثر الجيش وسط صحارى شاسعة من الثلوج ، حتى اضطر نابليون الى التخلى عن جيشه فتركه لمصيره ــ يوم ٥ ديسمبر سنة ١٨١٢ ــ وعاد هو محطما الى باريس ، فى الوقت الذى أنعم القيصر فيه على القائد الروسى بأرفع وسام

وجاء يناير سنة ١٨١٣ ، وعاد سكان موسكو تدريجا الى مدينتهم التى صارت الى أنقاض ورماد ، وعاد بيير من ضمن من عادوا ، بعد أن قضى فى أوريل شهورا يستشفى من جراح ساقه .. أما جراح نفسه فلم تكن فى حاجة الى علاج ، فانه قد خرج من الجحيم الارضى ــ جحيم الحرب والآلام ــ رجلا بالغ السعادة فى النهاية ، فقد علمته الحياة والتجارب مدى رحابة النفس البشرية وقوة احتمال الانسان

وها هو الآن يعود الى موسكو ليجد زوجته هيلين قد ماتت ، وناتاشا قد تغيرت الى درجة كاد معها أن ينكرها ، فلقد كان صعبا عليه أن يتعرف فى هذه الفتاة الشاحبة النحيلة ، وهذا الوجه المتهضم الجامد .. على ناتاشا القديمة العذبة ، ذات الشباب الدافق والحياة المتوردة النابضة .. كان صعبا عليه ذلك ، ولكنه حين عرفها أومضت فى خياله فجأة صورتها الاولى بكل دقائق فتنتها ، فأحس بحبه لها يفيق فى قلبه ، بعد أن كان قد ألجأه فى الماضى الى سبات عميق ، يوم أن دفعته صداقته لاندريا الى أن ينكر حبه وذاته ، باذلا قصاراه لكى يسوق ناتاشا ويكسب قلبها لصديقه لا لنفسه . وحتى حين تنكر لها اندريا على أثر قصتها مع أناتول ، وحين ضن عليها بالغفران ، ظل بيير محتفظا بتقديره لها وحبه الكامن ، فكان نقاءه هذا أقوى شعاع أنار لها طريقها فى أحلك ساعات الاحزان والآلام

واذن فقد آن لها أن تكافئه .. وقد فعلت .. فبعد شهور تزوجا !

ثم مات أبوها الكونت روستوف العجوز ، تاركا وراءه ديونا كثيرة ، ألجأت ابنه الاكبر نيكولا ، وأمه ، وسونيا ، الى أن يعيشوا عيشة متواضعة حتى استرد نيكولا مركزه المالى ، وأثرى ، فحقق بدوره حلمه القديم : تزوج من الاميرة الوديعة ماريا أخت اندريا .. وتركا موسكو ليبدآ حياة جديدة سعيدة فى ضيعة (ليسى جورى)

ثم رزق منها أطفالا .. ورزق بيير من ناتاشا اطفالا .. فامتزجت الاسرتان

وها نحن فى النهاية نودعهم جميعا ، ليلة عيد القديس نيكولاس فى ٥ ديسمبر سنة ١٨٢٠ ، وهم يحتفلون بالعيد ، ويسمرون ، ويتذاكرون الماضى .. ويتطلعون الى مستقبل أيامهم على الارض ، ومستقبل بلادهم المعبودة ، بكل ثقة وطموح ، أناس قد أنضجتهم التجارب والمحن

حلمى مراد

المحامى

قراء الصحف والمدارس الثانوية

هل تكون الصحافة الرأى العام ؟ دل الاختبار فى أميركا على الاقل أن الصحافة لاتكون الرأى العام فى كل حين ، فانتخابات سنتى ١٩٣٤ و١٩٣٦ دلت على أن الصحف تقول شيئا وتبشر بشيء وتدعو الى شيء ، والجمهور يفكر ويعمل فى غيره . ومعنى هذا أن الجمهور فى كثير من الاحايين يفكر لذاته ولا يتأثر بتفكير الغير ، أى انه فى المسائل الهامة والاحكام الخطيرة ، يفرق بين الدعاية (بروباجندا) والاخبار الواقعية

وقد رأينا أن ننقل للقراء نتيجة بحث شامل قام به أحد الاندية فى جامعة شيكاغو للوقوف على عادات طلاب المدارس الثانوية فى قراءة الصحف . وقد اختيرت لذلك مدرسة تمثل المدارس الثانوية الاميركية حقيقة ، وعدد طلبتها ١٨٠٠ من ذكور واناث ، آباؤهم وأولياء أمورهم من طبقات العمال العليا ، والميكانيكيين ، والشرطة ، والمطافىء ، وسواقى السيارات ، وصغار التجار ، وعدد قليل جدا من أرباب المهن . وقد اتخذوا لهذا البحث من مجموع الطلبة عينة غير مختارة من جميع الفصول ، يبلغ عددها ٣٣٠ من البنين و٣٩٢ من البنات . وللمدرسة مكتبة فى بناء خاص على أحدث طراز ، وبه ردهة للمطالعة تسع جميع التلاميذ ، وبها آلاف عديدة من الكتب ، وعدد من الصحف اليومية ، علاوة على خمسين مجلة شهرية وأسبوعية . وطلبة هذه المدرسة ، أسوة بسواهم من طلبة المدارس الاميركية ، كثيرو الاقبال على مطالعة الصحف ، كمرجع من المراجع

والى القراء ملخص البحث بقدر ما نستطيع من الايجاز

١ ـ ان ٢٣ طالبا من مجموع الـ ٧٢٢ الذين اتخذوا للبحث ، أى ٣ ./. ، لا يقرأون الصحف على الاطلاق

٢ ـ ان ٧٨ ./. من الطلبة يقرأون الصحف فى منازلهم ، و١٩ ./. يقرأونها اما فى مكتبة المدرسة أو فى المكتبة ومنازلهم معا

٣ ـ ان نسبة من يطالعون الصحف فى المنزل أو فى المدرسة من البنين والبنات تكاد تكون متساوية

٤ ـ ان ٦٩ ./. من الطلبة يطالعون أكثر من صحيفة يومية واحدة ، ومعنى هذا أن عددا كبيرا من والديهم يشترك فى جريدة صباحية وأخرى مسائية أو أكثر من ذلك

٥ ـ ان ٧١ ./. من الطلبة يقضى أقل من ربع ساعة (للواحد منهم) فى تصفح الجرائد يوميا ، و٥٢ ./. يقضى من ١٥ الى ٣٠ دقيقة ، و٢٧ ./. يقضى من نصف ساعة الى ساعة و٥ ./. يقضى أكثر من ساعة . وربما كان هذا يمثل ميول الشباب عامة ، وسرعة الاميركى خاصة فى مطالعة الصحف ، ويتضح من هذا كذلك أن متوسط ما يستطيع الشاب أو الفتاة أن يضحيه من الوقت لقراءة الصحف يتراوح بين ربع ساعة الى نصفها ،

وهذا ليس بقليل اذا علمنا أن عليه انجاز ما عليه من الدروس وسماع الراديو، والسينما، والرياضة ، والتسلية ، والواجبات المنزلية . ومما تجب ملاحظته أن الطالب اذا قضى ساعة فى قراءة الصحف لا يجنى حتما من الفائدة أكثر من زميله الذى يقضى ١٥ دقيقة أو أقل

٦ – ان ٥٨ ./. من البنات ، مقابل ٤٣ ./. من البنين يقضون من ١٥ الى ٣٠ دقيقة فى مطالعة الصحف ، فى حين أن ٤٠ ./. من البنين و٢٠ ./. من البنات فقط يقضى من نصف ساعة الى ساعة أو أكثر فى قراءتها . ومعنى هذا أن فى الصحف من المواد ما هو أكثر فائدة وجاذبية للذكور كصحيفة الرياضة البدنية مثلا . وعدا هذا لم يتبين أن هناك فرقا يذكر بين الطلبة الذكور والطلبة الاناث فيما يتعلق بالخطة التى يتبعونها فى مطالعة الصحف . مثال ذلك :

٧ – ان ١/٢ ١٩ ./. تماما من الذكور و١/٢ ١٨ ./. تماما من الاناث ذكروا انهم لا يقرأون من الصحف اليومية سوى رؤوس الموضوعات

٨ – ان ٦٤ ./. من الذكور و٥٢ ./. من الاناث يقرأون كل شيء فى الصحيفة له صلة بميولهم الخاصة

٩ – ان ١٠ ./. من الطلبة الذكور و١٢ ./. من الاناث قالوا انهم يقرأون حرفيا كل شيء تقريبا فى الصحيفة

١٠ – ان ٤٦ ./. من البنين و٤٨ ./. من البنات قالوا انه لا توجد عندهم خطة خاصة لمطالعة الصحف على الاطلاق

١١ – على ان ١٦ ./. من البنين و٢٥ ./. من البنات يقرأون الصحيفة الاولى كلها بدقة وعناية ، ويتضح من هذه النقطة وما سبقتها فى رقم ٩ أن البنات أكثر عناية وأشد دقة من البنين خصوصا فى سن المراهقة ، ويفسر تفوق البنات على البنين

١٢ – وقد أوضح السواد الاعظم من الطلبة أن مطالعة الصحف أفادتهم فى كثير من المواد الدراسية على أن نسبة البنين هنا زادت عن نسبة البنات ، اذ بلغت فى الحالة الاولى ٩٣ ./. وفى الثانية ٧٩ ./.

١٣ – أما عن الاسباب التى لاجلها يقرأون الصحف فقد اتضح الآتى :

(ا) ان ٧٤ ./. من مجموع الطلبة قالوا انهم يقرأونها للالمام بالمعلومات والاخبار، والنسبة بين البنين والبنات هنا تكاد تكون واحدة ، فهى ٧٣٫٤ ./. و٧٤٫٧ ./. على التوالى

(ب) ان ٢٩٫٦ ./. من البنات و٢٩٫١ ./. من البنين يقرأون الصحف للتسلية

(ج) ان ١٤ ./. من البنين مقابل ٨ ./. من البنات فقط يقرأونها لقتل الوقت

(د) ومما يثير الاعجاب أن نسبة ضئيلة جدا من مجموع الطلبة (بنين وبنات) ذكرت أنها تقرأ الصحف نزولا على رغبة أساتذتهم ، اذ بلغت هذه النسبة ٤ فى الالف

(هـ) على أن ١٥ ./. من البنين و٢٣ ./. قالوا انهم يقرأونها كمجرد عادة

١٤ ــ من الاعتقادات السائدة أن المرأة أكثر تصديقا للاخبار والأقوال من الرجل، بيد أنه لا يوجد ثمة ما يثبت هذا القول أو ينفيه . ولكنا اذا أخذنا هذا البحث مقياسا اتضح لنا أن الرجل أكثر تصديقا لما يقرأ من المرأة ، اذ بلغت نسبة من ذكروا بانهم يصدقون ما يقرأونه فى الصحف اليومية ٨٥ ./. من الذ[illegible] ٦١ ./. فقط من الاناث والنسبة العمومية للجنسين ٧٣ ./.

ويتبين من هذا وسواه أنه فى مرحلة سن المراهقة تكون البنات أشد تفريقا بين الغث والسمين وأكثر تمييزا للاشياء . وربما كان هذا أيضا من اسباب تفوق الفتاة على زميلها فى المدارس الثانوية عادة . وفى هذا درس للتجار الذين يتسابقون فى الاعلان عن سلعهم ، اذ يلوح أن البنات أشد حذرا من البنين فى القراءة بين السطور وأشد حذقا فى غربلة هذه الاعلانات ، وأقل عرضة للتغرير بهن من الذكور

١٥ ــ والآن نتجه بالقارىء الى أجزاء الصحيفة التى يقرأ طلبة المدارس الثانوية عامة كل ما فيها ، أو ما يقرب من ذلك ، فان الوقوف على ذلك يظهر لنا أشياء فى غاية من الاهمية ، خصوصا لاصحاب هذه الصحف ومحرريها وكتاب مقالاتها الرئيسية والافتتاحية ، والتجار الذين يعلنون عن سلعهم بشتى الوسائل ، وكتاب هذه الاعلانات ورساميها ، فى الجدول الآتى تبين هذه المسألة واضحة :

جدول يبين النسبة المئوية من البنين والبنات ومجموع الجنسين الذين يقرأون الاجزاء المبينة أدناه من الصحف اليومية

أجزاء الصحيفة	النسبة المئوية بنون	بنات	مجموع
الصفحة الاولى	٩٩	٩٥	٩٧
الصفحة أو الصفحات الهزلية	١٠٠	٧٩	٨٩
صفحة أو الصفحات الرياضية	٨٧	٧٣	٨٠
أخبار الراديو	٨٨	٦٥	٧٦
أخبار السينما	٨١	٦٥	٧٣
أخبار المرسح	٧٨	٦٣	٧٠
الاخبار المدرسية	٦٦	٥٦	٦١
الاخبار الداخلية	٥٧	٦٦	٦١
الصناعة والعلوم	٤٨	٢٧	٣٨
المقالات الافتتاحية	٢٦	٣٩	٣٣
تحت عنوان « مطلوب » (اعلانات)	٣٦	٢٨	٣٢
صفحة أو صفحات الاعلانات أو أجزاؤها	٢٩	٣٣	٣١

أجزاء الصحيفة	النسبة المئوية		
	بنون	بنات	مجموع
الاشياء المفقودة والموجودة	٣٥	٢٦	٣٠
الأزياء	٢	٤٦	٢٤
الحكومة	٢٢	٢٧	٢٥
الصفحة أو الصفحات النسائية	٣ر	٤٢	٢١
أخبار الاجرام وما يتعلق به	٢٥	١٦	٢٠
الروايات الخيالية	٢١	١٨	٢٠
الأخبار المحلية الخاصة بالافراد	١٤	٢٣	١٩
تقريظ الكتب والمؤلفات	١٧	١٧	١٧
صفحة أو صفحات الهوايات	١٧	١٧	١٧
الوفيات	١٠	٢٣	١٦
فن التربية *	٨	٢٤	١٦
الموسيقى	١٤	١٥	١٥
فوائد منزلية	٦ر	٢٨	١٤
القيل والقال	١٠	١٦	١٣
أخبار الفن والفنيين	١٤	٩	١٢
الشعر	٨	١٤	١١
أخبار مالية	١١	١٠	١٠
« المهن والأعمال	٧	١٢	٩
« السفن	١٢	١	٧
مقالات وأخبار دينية	٤	٧	٦

١٦ — ويتبين من تحليل هذا الجدول الحقائق الهامة الآتية :

(ا) البنات أكثر عمقا من البنين ، أو أقل سطحية ، أو ربما نكون أقرب الى الصواب اذا قلنا انهن أقل كسلا وأكثر ميلا الى الوقوف على الأخبار والمعلومات

(ب) تزيد نسبة الاناث عن الذكور فى قراءة المقالات الافتتاحية اذ تبلغ ٣٩ ٪ للبنات و٢٦ ٪ للبنين

(ج) تزيد نسبة الاناث عن الذكور فى قراءة الاخبار الحكومية . فهل معنى هذا أن النساء أكثر ميلا للاشياء الجدية عن الرجال ! على أنه من الاشياء المشجعة أن ٣٣ ٪ من الطلبة (الذكور والاناث) فى المدارس الثانوية يقرأون صحيفة الافتتاحيات . فهل

(*) أكثر المعلمين فى أميركا من الاناث

تبلغ هذه النسبة بين قراء الصحف من الكبار يا ترى ؟

(د) كالمنتظر من المزاج النسائى ، نسبة من يقرأ الاعلانات والاخبار الدينية من الاناث أكبر منها بين الذكور ، ولو أنها نسبة تقل عن المتوقع

(هـ) كالمنتظر من المزاج الرجالى ، زادت نسبة الذكور على الاناث بين قراء الأخبار المالية والسينمائية والمسرحية واللاسلكية والاجرامية وأخبار السفن والاشياء المفقودة والموجودة ، وما منها تحت عنوان « مطلوب » (اعلان عن وظائف) وبالطبع الصفحة الهزلية

(و) ومما يدل على العقلية النسائية أن نسبة الاناث فاقت كثيرا نسبة الذكور فيما يتعلق بقراءة الاخبار المحلية عن الافراد ، وأخبار الازياء والشعر والوفيات ، وبالطبع القيل والقال

(ز) ولا غرابة اذا اتجهت عناية الاناث دون الذكور اتجاها كليا الى مثل الفوائد المنزلية ، والازياء ، وصحيفة المرأة عامة

(ح) ولا غرابة اذا اتجهت عناية الذكور بما يتعلق بالصناعة والعلوم والطيران وأمثالها

(ط) يبلغ عدد الاناث اللاتى يعنين بالتربية والتعليم وفنونهما ثلاثة أمثال الذكور (مجلة التربية : ويعزى السبب الى أن مهنة التعليم فى أميركا للمرأة لا للرجل فى الغالب)

(ى) ومما يثبت الاعتقاد السائد بأن المرأة أكثر تبكيرا فى التفكير فى مستقبلها عن الرجل وبنسبة عددية أكبر أن ١٢ ٪ من الاناث يقرأن أخبار المهن والاعمال مقابل ٧ ٪ من الذكور

١٧ ـ والنتيجة العامة لهذا البحث

اولا ـ أن عادات الشباب الاميركى من طلبة المدارس الثانوية من الجنسين فى مطالعة الصحف اليومية تدل على ملاءمة العقل وصدق التفكير

ثانيا ـ ان هؤلاء الطلاب جادون غير هازلين أو ماجنين ولكنهم لم يبلغوا من الجد حد المغالاة ، وليس هنا ما يدعو لذلك فى الاحوال العادية

ثالثا ـ ليس فى هؤلاء الطلاب ما ينبىء بشرود الفكر أو التسرع أو flight

رابعا ـ عدد كبير منهم يعنى بالاشياء التى تتعلق بحياة المراهقين ومسائلهم وهذه علائم تطمئن لها الامة

خامسا ـ هذا البحث يمثل شباب المدارس الثانوية ولذا يمكن أن يقال انه شباب مختار منتخب ، اذ انه يمثل الـ٧٥ ٪ العليا من طبقات الامة

سادسا ـ اذا أجرى بحث كهذا على عينة غير مختارة من طبقة متوسطة من الطبقات التى تمثل الامة جمعاء ، فان معرفة النتيجة تدلنا على حقائق قد تكون مماثلة لهـذه أو تختلف عنها كثيرا أو بعض الشىء

(نقلا عن العدد ١٥٣١ من مجلة المدرسة والاجتماع الاميركية)

هل انحرفت روسيا عن الشيوعية الماركسية ؟

بقلم الاستاذ ابراهيم زين الدين المحامى

كان تروتسكى – الزعيم الروسى الشيوعى – فى نزاعه مع ستالين ، يتهم هذا الاخير بأنه انحرف عن أصول الماركسية ، وانجرف فى تيار الرأسمالية . وكان أكثر ما يأخذه عليه وقتئذ انه أباح الملكية الفردية ولو أنها كانت فى صورة ضيقة ، وانه لم يعمل لنشر الشيوعية فى بلاد العالم عن طريق الثورة ، كما كان يقول ماركس . وأصر على نظريته التى يقول فيها (بالشيوعية فى الاوطان) أو استقلال كل وطن باقامة دعائم الشيوعية فيه

ولما ذهب تروتسكى واستقل ستالين بأمور روسيا وبزعامة الشيوعية ، أصدر فى سنة ١٩٣٦ الدستور السوفياتى الثالث ، الذى منح فيه جميع الروسيين – فيما عدا طبقات معدودة – حق الانتخاب ، وكان من قبل مقصورا على أعضاء المجالس السوفياتية من العمال والفلاحين والجند ، وأيد فيه حق التملك الفردى فى حدوده الضيقة ، وأباح حق الارث ، وكان محظورا من قبل

ثم جاءت هذه الحرب ، فألغى ستالين الدولية الشيوعية الثالثة ، وأطلق الحرية الدينية ، وأعاد الكنيسة الروسية ، وأخيرا وفى ١٠ يوليو سنة ١٩٤٤ أصدر مرسوما بتعديل قانون الطلاق والزواج فى روسيا ، وبتطبيق قوانين البلاد الغربية فيهما

وان علينا الآن أن نقارن بين هذه القواعد الجديدة التى سنها ستالين فى هذه الاوضاع ، وبين الاصول الماركسية فيها ، لنرى مدى ما فيها من اتفاق أو انحراف ، وأثر هذا المدى ومبررات ذلك الاتجاه

الملكية الفردية

الاصل فى الماركسية انها تلغى الملكية الفردية فى مصادر الانتاج والاستهلاك معا ، وانها تكل الى الدولة الاشراف عليهما ، على أن تقوم بتوزيع ثمرات الانتاج على أفراد الشعب ولكل منهم بنسبة حاجته

وصدر الدستور السوفياتى الاول فى سنة ١٩١٧ على عهد لينين متضمنا هذه القاعدة ، لكن لم تلبث الظروف أن أثبتت عدم صلاحيتها لملاءمة أحوال الزمان والمكان والسكان ، فقد ثارت طبقة المزارعين (الكولاق) وأضربوا عن زرع الاراضى الا بقدر ما يفى بحاجاتهم ، وهكذا عز على العمال وعلى الجنود وعلى الموظفين ، أن يجدوا أقواتهم

ولم يتردد لينين – وكان لا يزال حيا – فى ان يعترف بالحقيقة الواقعة ، فقال : « لقد

أخطائنا ، وما من جديد الا وفيه مواطن للخطأ ، وليس عيبا أن نجتهد ونخطيء ، ولكن العيب ألا نجتهد ، وأن نصر مع هذا على الخطأ »

وقام الماركسيون المتطرفون يعارضون لينين فيما اعتزمه من تغيير هذه القاعدة الاساسية ، فكان جوابه لهم « ان البلشفيك لن يستطيعوا أن يغيروا من جغرافية روسيا » وبعبارة أخرى لن يستطيعوا تجاهل الظروف الخاصة ببلادهم

وفى سنة ١٩٣٦ صدر الدستور السوفياتى الثالث ـ ويعرف بدستور ستالين ـ وفيه أباح الملكية الفردية فى الارض الزراعية فى حدود ضيقة ، وفى بعض أنواع التملك الاخرى محصورة فى الايرادات الناتجة من العمل ، والادخارات والمسكن

أما ملكية مصادر الانتاج ، فقد بقيت اشتراكية كما كانت ، وأوجد نوعا جديدا من الاشتراكية الزراعية ، فقد قسم الاراضى الى ثلاثة أقسام :

(الاول) تملكه وتشرف عليه الدولة ، ويسمى « سوف خوز » أى العزب الحكومية وفيها يعطى الفلاحون أجورا معينة مع علاوة تتدرج بنسبة المحصول

(الثانى) تحوزه جمعيات تعاونية ، ولا يعطى الفلاحون هنا أجورا ، وانما يقسم الفائض من الغلة بينهم ، ويسمى هذا النوع « كول خوز » أى العزب التعاونية

(الثالث) وهو الذى أبيحت فيه الملكية الفردية ، فصار من حق بعض الفلاحين أن يتملكوا فدانا أو فدانين ، مع عدد مناسب من الماشية والدواجن ومع سكن خاص

وفى سنة ١٩٣٧ كانت أراضى النوع الاول تستغرق ١٠ ./. من أراضى روسيا ، والثانى ٧٥ ./. ، والثالث ١٥ ./. فقط

وهكذا نرى أن التغيير الذى استحدث كان ضئيلا جدا ، فانه لم يتعد ١٥ ./. من أراضى روسيا وبعض أنواع الملكية التافهة ، بينما بقيت فى الوقت نفسه ٨٥ ./. من الاراضى وكل مصادر الانتاج الاخرى ملكا للدولة ، وهو تغيير اقتضته الظروف ، وليس بذى خطر ، ولا يلبث مع الزمن أن يعود الى قواعده الاولى ، لان الفلاحين يدركون الآن أن النظام التعاونى أجدى عليهم ، فبدأوا يتسللون اليه تاركين أرضهم لتضمها الحكومة الى أحد النوعين الاولين

شيوعية العالم وشيوعية الأوطان

حدث فى سنة ١٩٢٤ أن أخذت الثورة الشيوعية التى كانت ناشبة فى ألمانيا فى الافول ، وأراد تروتسكى ـ الذى كان وقتئذ قوميسار (وزير) الشؤون الحربية فى روسيا ـ أن يمدها بقوات وامداد عسكرية ، ولكن ستالين أدرك أن غريمه يرمى من وراء هذا الى غرض آخر هو توجيه الجيش لتعزيز مركزه فى النزاع القائم بينهما حول الزعامة ، فعارض ارادة تروتسكى وقال ان روسيا ليست من القوة بحيث تستطيع ان تمد أمة أخرى ، ولو كان من شأن هذا المدد بسط الشيوعية فيها . واخترع نظرية

(الشيوعية فى الاوطان) التى أسلفنا الكلام عنها ، ليرد بها على نظرية تروتسكى

ولكن ستالين نفسه مع هذا ، أمد الشيوعية فى الصين وفى اسبانيا أيام الحرب الاهلية، ولكن كانت لهذه الامدادات أسباب وجيهة ، فاليابان بغزوها الصين تصبح خطرا مباشرا على مصالح روسيا . أما فى اسبانيا فقد كانت ألمانيا وايطاليا قد صارتا خطرا على السلم الاوربى ، وقد تدخلتا لمساعدة فرانكو ضد حكومة اسبانيا الشيوعية ، فلم يكن بد اذن من أن تساعد روسيا على عدم نجاح هذا الهجوم ، وما يتبعه من استقرار نفوذ ألمانيا وايطاليا فى اسبانيا

وفى هذه الحرب ـ واستجابة لدواعى الاحداث العالمية ـ عدلت روسيا نهائيا فى الظاهر على الاقل ، عن نظرية (شيوعية العالم) ، فقد جرى حديث بين ستالين وستافورد كريبس ـ سفير بريطانيا فى موسكو اذ ذاك ـ سخر فيه ستالين من القول بأن روسيا ما تزال على سياستها القديمة فى (شيوعية العالم) ، وقال ان هذا وهم قديم ، فانه لا يمكن تغيير الاوضاع الاجتماعية فى بلد ما ان لم يكن مستعدا لهذا التغيير

وعند ما كان على الولايات المتحدة أن تمد روسيا بمواد قانون الاعارة والتأجير ، أبدت كثيرا من التحفظات ، كان من بينها مسألة (شيوعية العالم) أيضا ، فلم يلبث ستالين أن أعلن فى سنة ١٩٤٣ الغاء الدولية الثالثة، والتى كان من ضمن قراراتها نشر الشيوعية فى العالم

وقد برر ستالين يومئذ هذا الالغاء بأنه يصد الدعاية النازية التى دأبت على تحذير أوربا من خطر الشيوعية ، ويكذب ما يدعيه خصوم روسيا من أن حركات العمال فى مختلف البلاد تتأثر بوحى من موسكو ، وأخيرا فانه يوحد بين جميع المواطنين فى جميع البلاد المتحالفة ، كيما يقفوا صفا واحدا لمحاربة الطغيان النازى

وقد لوحظ أن الصحافة الروسية فى العهود الاخيرة قد أخذت تتجه وجهة قومية ، فانها تشيد الآن بمجد الوطن الروسى ، وتستخرج من دفائن التاريخ ما يضفى على هذا الوطن مجدا وجلالا ، وتستحث الشعب على التمسك بأهداب ماضيه والعمل على تخليده وتمجيده

وفى الغاء الدولية الثالثة ، وفى هذا الاتجاه الجديد ، ما يشعر بأن روسيا السوفياتية قد عدلت عن نظرية (الشيوعية العالمية) ، واستقرت على نظرية ستالين ـ أو نظرية (الشيوعية فى الاوطان) وهذه النظرية قد جرتها الى (القومية) وانحرفت بها عن (الشعوبية) انحرافا بعد بها عن أصل من أصول الماركسية الاولى

الدستور السوفياتى الثالث

صدر هذا الدستور كما أسلفنا فى سنة ١٩٣٦ ـ ويسمى دستور ستالين لانه ظهر فى

عهده ـ مصبوغا بصبغة آرائه الخاصة ، هذه الصبغة التى اعتبرت تحولا عن الماركسية وانحرافا نحو الرأسمالية

وكان ستالين يرمى يومئذ من وراء اصدار هذا الدستور الى هدف سياسى ذى أهمية قصوى ، هو انشاء علاقات دولية يضمن بها قيام تعاون دولى يقوم فى وجه النازية والفاشية اللتين كانتا تهددان سلام أوربا وسلام روسيا معها ، وكان لا بد لقيام هذه العلاقات الدولية من أن تكون الاوضاع الروسية ، من حيث الشكل على الاقل ، قائمة على أسس تقبلها الدول الاخرى

ولقد نجح ستالين فعلا فى أول الامر فى خلق (الجبهة المتحدة) لمقاومة الطغيان النازى، ولكنها انحلت بعد ذلك بسبب تردد سياسة الدول الديموقراطية فى ذلك الحين

وقد أسلفنا أن هذا الدستور قد أقر الملكية الفردية فى حدود ضيقة، وهذا أحد وجوه الانحراف ، لكنه كان انحرافا فى زاوية حادة ، أما وجوه الانحراف المنفرجة فقد ظهرت فى تعديل حقوق الانتخاب ، فقد كان الدستوران السابقان على دستور سنة ١٩٣٦ ينصان على قصر حق الانتخاب على العمال والجند والفلاحين ، فجاء دستور سنة ١٩٣٦ وأباح هذا الحق لكل روسى يبلغ من العمر ثمانية عشر عاما ـ الا لمن كان به مرض عقلى ـ وهكذا أعطى حق الانتخاب لمن لم يكن عاملا أو جنديا أو فلاحا من أمثال طبقات الاشراف والاعيان القدماء

وكان الدستوران السابقان يعطيان الحق لكل ٢٥ ألف عامل ولكل ١٢٥ ألف فلاح فى أن ينتخب كل منهم نائبا عنهم ، فجاء دستور سنة ١٩٣٦ وألغى هذا الفارق وصار من حق كل ٣٠٠ ألف ناخب ـ سواء من العمال أم من الفلاحين ـ أن ينتخبوا نائبا عنهم

وهكذا نرى أن قواعد الانتخاب فى هذا الدستور قد سارت على نمط (قومى) بحت، لوحظ فيه جمع الروسيين جميعا فى وحدة وطنية جامعة لا أثر فيها للتفريق أو التمييز

ولكن هذا الدستور مع ذلك قد قصر حق الترشيح على أعضاء المجالس السوفيائية ، فلم يكن لغير الشيوعيين حق التقدم لعضوية المجلس الاعلى أو مجلس القوميات ـ وفى هذا تثبيت لنظرية (الشيوعية فى الاوطان)

الدين

نصت الدساتير السوفيائية على فصل الكنيسة عن الدولة، وفصل المدرسة عن الكنيسة، كما نصت على حرية الاعتقاد ، ولكنها أباحت فى الوقت نفسه الحرية اللادينية ، أو حرية الوجدان كما يسمونها

ولما تحالفت الولايات المتحدة مع روسيا وأصدرت معها ومع انجلترا التصريح المشترك الذى أعلنت فيه هذه الدول مع الدول المنضمة تعاونها فى القضاء على ألمانيا النازية ، ولما بدأت أمريكا تنفذ تعهداتها لحلفائها أخذت صحفها تنشر وجهات نظر الرأى العام

فيها ازاء روسيا ، فكان من رأى بعضهم أن الحرب التى شنتها ألمانيا على روسيا هى حرب صليبية ضد الالحاد وضد الشيوعية . وكان من رأى الفريق الاقوى أن هذه الحرب ليست كذلك ، وان النازية هى الاخرى تنكر الاديان ، وانها تتمخض عن الشر ، وان شرها أقرب الى امريكا من روسيا . وقال قائل منهم يومئذ ان منشئى الجمهورية قد قبلوا عن طيب خاطر مساعدة الطاغية لويس السادس عشر عند ما كان الشعب الفرنسى يعانى الاهوال فى ظل نظام يعد النظام الشيوعى نعيما بالنسبة له

وقضى ستالين على هذه المجادلات التى كان من شأنها لو استمرت ان تضر بمصالح روسيا ، فأوعز الى سفيره فى واشنطن الرفيق (أومانسكى) أن يعلن « ان الحكومة السوفياتية قد كفت الآن عن مقاومة الذين يقومون بشعائرهم الدينية مراعاة لمصلحة الوحدة الوطنية »

وعلى أثر هذا التصريح اعلن كوردل هل ان مساعدة الولايات المتحدة لروسيا تسير فى سبيل الحل سيرا مرضيا

وفى سنة ١٩٤٣ أعادت روسيا منصب البطريرك العام للكنيسة الارثوذكسية ، وفتحت الكنائس وباشر المؤمنون شعائرهم الدينية

ولا يمكن ان يقال ان فى هذا الاتجاه الجديد انحرافا عن الماركسية لان هذه لم تشر الى مسألة الاديان الا لماما ، ولم تجعل له اصلا فى أوضاعها ، ولكن فيه انحرافا عن مذهب لينين الذى كان يقول ان الدين هو أفيون الشعب

الزواج والطلاق

قلنا انه صدر فى ١٠ يوليو سنة ١٩٤٤ مرسوم بتعديل قانون الزواج والطلاق فى روسيا، وبتطبيق قوانين البلاد الغربية فيهما

والى ان تظهر تفاصيل هذا التعديل فان مفهوم هذا الملخص الذى أذاعته البرقيات هو أن قواعد الزواج والطلاق قد صارت خاضعة لتقاليد الكنيسة . واذا صح هذا فانه يكون انحرافا عن القواعد التى ثبتت فى روسيا منذ سنة ١٩١٧ فان الزواج والطلاق قد صارا منذ عهد الثورة مدنيين ، فكان لا يطلب من الزوجين لامكان عقد قرانهما الا ان يقدما للموثق المختص اقرارا بأنهما قد اتفقا بمحض ارادتهما ، وبدافع من الحب والرغبة المتبادلة على الزواج . فيسجل الموثق اقرارهما ويخرجان زوجين أمام القانون وأمام الناس

أما الطلاق فكان لا بد لايقاعه من صدور حكم من المحكمة المختصة وبقيود معينة

وكان التشريع الروسى السابق على هذا التعديل يعطى للزواج الذى يتم بلا عقد نفس آثار الزواج العقدى ما توفرت الادلة على قيامه . ولا نعرف الآن أثر هذا التعديل على هذا النوع من أنواع الزواج

والآن فما من شك فى أن هذه الاوضاع الجديدة قد انحرفت قليلا أو كثيرا عن المبادىء الماركسية ، وعن الاسس الاولى للنظام الشيوعى . ولكن ما من شك كذلك فى أنها كانت انحرافات أملت بها الظروف وأوجبتها المصلحة

وقد رأينا ان لينين نفسه لم يتردد فى احداث تغيير جوهرى فى أساس جوهرى من أسس الماركسية ، وقد برره يومئذ بأن البلشفيك لن يستطيعوا تغيير جغرافية روسيا

وبهذه الروح نفسها اتجه ستالين ، فقد ألغى الدولية الثالثة تحت ضغط الظروف السياسية ، وعدل قانون الانتخاب ليجمع روسيا كلها تحت لواء واحد . وحتى لا تهاجمها ألمانيا وفيها مختلفون أو متبرمون ، وهكذا تجد لكل انحراف سببا دعا اليه . وكان ستالين لا يفتأ يذكر قومه بأنه لا يبالى بأن يتهم بأنه انحرف ما دام يعمل لصالح الثورة ولصالح روسيا

وليس يعاب عليه انه انحرف بل كان يعاب عليه انه لم ينحرف يوم دعا الداعى الى هذا الانحراف ، فليست قيمة الانظمة والقوانين منوطة بطلاوة مادتها وحسن صياغتها وانما هى منوطة أولا وقبل كل شىء بصلاحيتها وملاءمتها لظروف الزمان والمكان والسكان

كان سولون الشارع الاثينى القديم قد عكف على وضع قوانين أثينا فلما أتمها سألوه: أهذه هى خير القوانين ؟ فأجاب : نعم هذه هى خير الانظمة لاثينا

وهكذا لن يعاب على ستالين أنه اختار خير الانظمة لروسيا

ابراهيم زين الدين

المحامى

ــ ايه أيتها الحرية ، كم من الجرائم تقترف باسمك

مدام رولاند

ــ لا يجلب السلام للنفس ، مثل النفس

امرسون

ــ أكبر خطأ ألا تفطن الى خطيئة نفسك

ــ بداءة المعرفة ، قلب محب

ــ ما أجمل القول : ان الموسيقى حديث الملائكة

كارليل

قصة مصرية

تكافؤ

للدكتور محمد ابو طائلة

كان حسنين بك يعتقد أن أى شاب ، مهما يكن شأنه ، ليس كفؤا لابنته هدى ، فهى عنده أجمل بنات حواء ، وأكثرهن أدبا وظرفا ، وأوفرهن ذكاء وفطنة . وانه ليعجب فى نفسه ، كيف ظلمها القدر فجعلها من بنات الشعب ، وان تكن بنت أحد (الاعيان) ، وقد كان جديرا بها أن تكون ملكة مطاعة ، أو على الاقل أميرة مبجلة !

والحق أن هدى كانت تستحق ذلك التقدير من أبيها ، ومن الناس طرا . فهى بارعة الحسن ، ممشوقة القد ، وقد جمعت الى جمالها خلقا كريما ، ونفسا طاهرة ، وزانت ذلك كله بقدر لا بأس به من الدراسة ، وجانب كبير من الاطلاع

ولقد تقدم لخطبتها اثنان من أقاربها ، أولهما حسنى بك نجل المرحوم فؤاد باشا أخى حسنين بك الاكبر وقد ورث عن أبيه تسعمائة من الافدنة أصبحت بعد خمس سنوات فقط ثلثمائة وخمسين ، بفضل ما ضيع ولا يزال يضيع من المال على الخمر والميسر والنساء . أما الثانى فهو يحيى افندى ابن خالة هدى ، وقد نشأ نشأة الفقر والجد معا — والاثنان متلازمان فى أكثر الاحيان — اذ مات أبوه وتركه طفلا صغيرا لا عون له ، الا عددا قليلا من الافدنة لا تكاد تقوم بأوده وأود أمه ، ولكنها سهرت على تربيته ونشأته على الجد والاستقامة . وما أن حاز الشهادة التوجيهية حتى التمس احدى الوظائف الصغيرة فى احدى الوزارات ، وراح يعوض ما فاته من الدراسة العالية بالاطلاع على كتب الشعر والادب ، ويعد نفسه لكى يكون من الادباء يوما من الايام

لم تكن هناك مفاضلة بين هذين الخطيبين ، فقد انتصر حسنين بك لابن أخيه على طول الخط ، وانحازت زبيدة هانم زوجته لابن أختها دون تردد . ولما كان حسنين بك قد اعتاد الخضوع لزوجته فى نهاية كل أمر ، فقد انقاد لرأيها على كره منه ، وقبل مرغما أن يزوج ابنته المحبوبة لذلك الشاب الفقير !

ولو انه لم يفعل ، وآثر حسنى بك ، لكانت كارثة ، فقد كانت هدى تبغض ابن عمها وتزدريه من قرارة قلبها ، وكانت تكره منه صلفه وغروره وجهله ، بقدر ماكانت تميل الى ابن خالتها وتحمد فيه الجد والاستقامة ، وتحب منه ما ينظمه وما يكتبه

زفت هدى الى يحيي وهى به أسعد النساء ، وهو بها قد ملك أثمن كنز فى الوجود. واذا شابت سعادتهما شائبة فهى انهما لم يرزقا طفلا مع كر السنين ، ولكن سعادة كل منهما بالآخر كانت تغطى تلك الشائبة

وكان حسنين بك ـ وهو الضابط القديم الذى جبل على الصراحة وعدم المواربة ـ لا يخفى كدره من ذلك الزواج ، ولا ينكر انه قبله مرغما ، وانه لو ترك الى ارادته لآثر ابن أخيه الغنى . وكثيرا ما آلم يحيي بالاشارة حينا وبالعبارة أحيانا، وهو الاديب المرهف الحس ، فكانت هدى بلطفها ورقتها تعالج كل ألم به ، وتداوى كل جرح بنفسه . واذا كان حسنين بك يخشى زوجته زبيدة ، ويخاف شدتها معه ، كلما بالغ فى ايلام زوج ابنتها ، فقد ماتت زبيدة بعد حين ، فصار منذ ذلك الحين لا يقتصد فى اثارة يحيي ، حتى انقطع هذا عن زيارته وصارت الصلات بينهما أسوأ ما تكون

مضت الاعوام سراعا ، ولا يزال يحيي مكبا على الاطلاع والكتابة ، وبصره يضعف شيئا فشيئا وهو لاه عنه ، غير منصت الى تحذير زوجته ولا الى انذار الطبيب . حتى جاء يوم اضطر الى ملازمة البيت وقد ربط عينيه وكف عن كل قراءة وكتابة، وصارت زوجته المخلصة الوفية بمثابة عينه المبصرة ، فهى تقرأ له وتكتب ما يملى عليها. ولا يزال يتردد كل يوم على طبيب العيون الذى يمنيه بقرب الشفاء وعودة قوة الابصار الى عينيه

وفى أحد الايام كان يحيي جالسا فى البيت وحده وقد خرجت زوجته تبحث له عن دواء أجنبى فى صيدلية بعد أخرى ، واذا بحميه حسنين بك قد جاء بعد طول قطيعة ، وسره أن وجد يحيي وحده ليفرغ كل ما فى جعبته من شر ، وما لبث أن قال له :

ـ هيه يا يحيي : كيف حال عينيك ؟

ـ على ما ترى . والحمد لله على كل حال

ـ لقد سألت اليوم فى الوزارة فعلمت أنه لم يبق لك من حق فى الاجازات الا شهر واحد ، وبعدئذ تفصل من عملك (لاسباب صحية) كما يقولون ، ولما كانت مدة خدمتك قليلة فان الحكومة تعطيك عند خروجك مكافأة بضع عشرات من الجنيهات فما رأيك ؟

ـ رأيى .. رأيى ان فرج الله قريب .. وآمل أن أشفى قريبا فأعود الى عملى بالوزارة ولا أفصل

ـ هذه أمنية بعيدة

ـ ان القدر أرحم بى منك

ـ الحقيقة أنك لن تشفى ! فوطن نفسك على ذلك . وتصرف على هذا الاساس . انك تعلم أنى لم أرض قط عن زواجك بهدى . ولكن زبيدة رحمها الله هى التى دافعت عن قضيتك حتى ربحتها . لم تكن يا يحيي قط كفءا لابنتى لا من حيث الاصل ولا من حيث المركز ولا .

فقاطعه يحيى محتدا :

ـ كفى . كفى . اذا كنت قد جئت لكى تهينني فلا تنس أن البيت بيتى وأنى استبقى به من أشاء وأخرج من أشاء

ـ ما جئت اليوم أبغى شجارا . وانما أريد أن أتفق معك على شىء : انى أعرف انك تحب هدى ، فهل فكرت فى حالها معك اذا فقدت بصرك ؟

ـ لن نستجديك شيئا على أى حال . وسأقدر على كسب رزقى والانفاق على بيتى سواء شفيت عيناى أو لم تشفيا

ـ هذا ما يصوره لك الوهم . الا فاعلم ان الشعر الذى تقرضه لا يغنى ولا يسمن من جوع . وابنتى لا تقدر أن تعيش معك على الشعر . واذا كنت وانت بكل قوتك وبصرك غير كفء لها فى نظرى فانك اليوم أقل كفاءة وقد انطفأ نور بصرك أو كاد

ـ اذا أردت أن استمع اليك فدع هذه النغمة المهينة وتكلم كما يتكلم المهذبون

ـ حسنا . وأنت اذا كنت تحب هدى حقا ، ولا تحب نفسك فقط ، فيجب أن تفكر فى حالها معك حين تفقد وظيفتك ولا تجد موردا للانفاق عليها وعليك . وأحسبك لا تؤمل فى عون أو مدد منى

ـ هذا مالا أفكر فيه بل أأباه كل الاباء

ـ حسنا . اذن أوشكنا أن نتفق . انك اذا كنت تحب هدى حقا فانك تسارع الى طلاقها

ـ أنا أطلق هدى ؟! أنا أطلقها ؟! انك لا تدرى ما تقول ، ان ما تطلبه عين المحال

ـ سأدعك تفكر فى الامر . وانى موقن أن حبك اياها سيتغلب على حبك نفسك . وستقدر حالها معك حق قدره

وتركه وخرج

وراح يحيى يفكر فيما سمعه تفكيرا عميقا . وقد تبددت بقية الامل فى رجوع بصره اليه وأدرك ان الامر كما قال حموه القاسى ، وانه لا يلبث حتى يفصل من عمله ويفقد مورد رزقه الوحيد ، ثم يعجز عن الكسب بعد ذلك لضياع بصره ، وعدم تأهبه لهذه الحالة الجديدة التى تواجهه

فكر يحيى فى ذلك ، ورأى أن حبه لهدى قد أصبح سبب شقاء لها ، وأن استبقاءه لها هو الانانية بعينها . وانتهى الى رأى كاد قلبه يتفتت منه

ولما عادت هدى بالدواء بعد طول بحث عنه ، جاءت مشرقة الوجه كعادتها ولكنه استقبلها مقطبا وقال لها :

ـ هدى ! لقد فكرت فى حالنا وانتهيت الى رأى . وما أحسبك الا تقرينه

ـ ما هو يا حبيبى ؟ أرجو ان يكون خيرا

ـ يجب أن تنفصل !

ــ ماذا تقول ؟! أتذكر كلمة الانفصال يا يحيى ؟! هذا محال . ولماذا يا حبيبى تريد ان تنفصل ؟

ــ لاننى . . لانك . .

ولم يتقدر ان ... ح لها خافية الامر وهو فى الحق واضح كل الوضوح ، فقد غلبه البكاء ، فراحت تكفكف دمعه وتسرى عنه

ولكنه كان قد اقتنع بفكرة حميه وآمن بوجوب الاخذ بها والا كان حبه لزوجته مجرد أنانية بشعة . ولما كانت هدى قد أبت تلك الفكرة كل الاباء ، فقد رأى أن يركن معها الى الحيلة وأن يمثل معها دورا مسرحيا ، مهما يكن شديد الوقع عليه وعليها ، فلا بد من تمثيله للوصول الى نتيجة . ومن ثم راح يستعد له ويرتب له المنظر والحوار وهو الاديب البارع

ذهبت هدى يوما الى طبيب العيون لتسأله عن شيء خاص بعلاج زوجها فلما عادت وجدته ورائحة الخمر تفوح من فيه والكأس الخاوية قريبة منه . فارتاعت وقالت له :

ــ انت . انت تشرب الخمر ؟!

فرد عليها بغلظة ظاهرة :

ــ أجل أنا ! وهل عهد أليك أحد أن تربينى ؟

ولم تكن قد اعتادت منه مثل هذا الكلام فقالت له :

ــ أيصح ذلك منك يا يحيى ؟

ــ دعى النصح والوعظ . وخبرينى اين كنت ومن أين أتيت ! أتظنين بى الغفلة ؟ كلا ما أنا بغافل . وما اخترت البقاء معى وأبيت الانفصال عنى الا لانى صرت لا أرى فلا أبصر حركاتك وسكناتك . أجل آثرت البقاء مع زوج أعمى لكى تكون لك حريتك . .

ولم تقدر هدى أن تسمع أكثر من ذلك وهى التى اعتادت منه الاكرام والتجلة ، فوجدت كفها يرتفع ويهوى به على وجهه

وانتهى الامر بينهما بالطلاق . وهكذا مثل يحيى دوره المؤلم ونجح فيه أيما نجاح

* * *

عادت هدى الى كنف أبيها ، وكانت الرابطة قد قويت بينه وبين ابن أخيه حسنى بك ، وأصبحا أخوى شراب وسهر ، وخصوصا منذ ماتت زوجته زبيدة هانم التى كانت مسيطرة على ارادته . وسرعان ما وجدت هدى نفسها زوجة حسنى بك ، وهى فى قرارة قلبها لا تزال على عهدها من حب زوجها الاول ، ولكنها تغالط نفسها وتدعى البغض له منذ سمعته يجرح شرفها ذلك الجرح البالغ

ولم تجد من حسنى بك شيئا مما ألفته من يحيى ، فقد كان سليط اللسان قليل

التهذيب ، فزادت كرها له على كره ، ولكنها صبرت على حالها وليس لها من أنيس سوى دمعها الهتون

وفى احدى الليالى كان حسنين وحسنى ينادمان الكأس فى احدى غرف البيت ، وقد انتصف الليل أو كاد ولما يطرق النوم عينى هدى ، فسمعت هذا الحديث بينهما على غير قصد منها ، وهى فى غرفتها المجاورة ، التى يفصلها عن غرفتهما باب موصد . قال حسنين بك لابن أخيه

ــ أتعرف كيف رضيت هدى أن تنفصل عن يحيى بعد أن كانت رافضة ؟

ــ صحيح كيف كان ذلك وأنا أعرف أنها كانت تحبه وكانت راضية بعماه ؟

ــ ها. ها. ها. مثل لها دورا مسرحيا .. بعد أن استعد له بخمر جئته بها .. قال لها انها تريد زوجا أعمى لكيلا يرى حركاتها وسكناتها وتكون لها حريتها كاملة .. غضبت البلهاء من هذا الكلام ولطمته فطلقها . وانتهى الامر .. ها. ها. ها. ولولا هذا الدور المسرحى لما رضيت أن تترك يحيى .. الحقيقة انه شاب طيب .. ولكنه لم يكن كفءا لهدى بأى حال

لم تكد هدى تسمع ذلك حتى اعتزمت فى نفسها أمرا . فخرجت من البيت خلسة فى بهيم الليل وذهبت الى صيدلية ساهرة وعادت بمادة كاوية ، وجلست فى غرفتها وراء الباب الذى يفصلها عن الغرفة التى بها أبوها وزوجها ، وجمعت كل ما بها من عزم وارادة ثم صبت تلك المادة الكاوية على خديها ، ولم تتمالك نفسها من شدة الألم فصرخت صرخة مدوية . وهرع اليها الاثنان وهما يترنحان من السكر ولا يدركان ما حدث ، على أن أحد الخدم استدعى عربة الاسعاف فجاءت بعد دقائق معدودة

وبعد يومين من ذلك كان حسنين بك يزور هدى فى المستشفى وقد اختفى وجهها خلف الاربطة ، واذا بيحيى قد جاء يلبس نظارة سوداء ويقوده غلام صغير ، وكان قد سمع بالحادث فارتاع وجاء مسرعا . وما لبثت هدى أن قالت لابيها وهو مطرق كمدا :

ــ أرأيت يا والدى ؟ لقد ذهب جمالى ولن يعود . وما أحسب حسنى يرضى بعد اليوم أن تكون له زوجة شوهاء مثلى . الا ترانى الآن قد أصبحت كفءا ليحيى وهو كفء لى ؟

فالتمس يحيى يدها وقبلها . وقال حسنين بك :

ــ أجل يا بنيتى . لقد أخطأت خطأ كبيرا نحوك ونحو يحيى . فسامحانى . لقد كان أحدكما كفءا للآخر وانتما اليوم كذلك . ولقد اتفق معى حسنى على طلاقك منذ علم بالداعى الى الحادث

فابتسمت هدى وقالت :

ــ اذن أتزوج بك يا يحيى . ولكن بشرط ألا تمثل دورا آخر . يكفى أن تؤلف الروايات لا أن تمثلها

محمد أبو طائلة

تجفيف الطعام

كانت بريطانيا في أيام السلم تستورد نسبة كبيرة من القوت اللازم لاطعام سكانها البالغ عددهم ٤٥ مليون نسمة . وحينما اندلعت نيران الحرب ، اشتدت الحاجة لاستخدام السفن التجارية لنقل الذخائر والأسلحة الى ميادين القتال ، وجلب المواد الخام اللازمة لصناعة المهمات الحربية فعمدت الحكومة البريطانية الى توسيع نطاق الزراعة ومحاولة الاعتماد على نفسها في سد حاجاتها . ولكنها رغم هذه المحاولات ، اضطرت الى استيراد كميات كبيرة من اللحوم والبيض ومنتجات الألبان ، فلم يكن ثمة بد من تدبير وسيلة لنقلها من البلدان الخارجية

وقد لاحظ الخبراء في شؤون التغذية ، أن معظم صنوف الطعام التي نتناولها تحوى ماء ، وقد وجدوا أن الماء لا يفضي الى كبر حجمها فحسب ، بل يعرضها أيضاً لسرعة التلف والفساد . ففكروا في تجفيف الأغذية ، وقد نجحت التجربة ، فأصبحت كميات الطعام لا تشغل إلا حيزاً صغيراً نسبياً ، كما أمكن نقلها على كثير من أنواع السفن ، بعد أن كان من الضروري استخدام سفن مجهزة بالثلاجات ومعدة خصيصاً لحفظ الأطعمة

وقد دلت الأبحاث على أن إزالة الماء من كثير من أنواع الطعام لا يذهب بخصائصها ، بينما ينقص الحجم الى ما يعادل ثلث حجمها الأصلي ، فثمانون أوقية من اللحم تصبح بعد تجفيفها ثلاثين أوقية فقط ، وتسعة أوقيات من البطاطس تختزل الى أوقيتين . كما أنها لا تفقد أيضاً مذاقها ، فبعد أن تنقع في الماء قبل الطهي لمدة معينة



ظهرت على المائدة ثلاث أنابيب زجاجية ، تحوى كل منها من مسحوق الخضر ما يكفي لشخص واحد . وقد أشرق وجه هذه السيدة حينما تذوقت محتوياتها بعد أن نقعت في الماء ثم طهيت

فانها تستعيد طعمها الطبيعي لدرجة يصعب معها التفرقة بينها وبين الأطعمة الطازجة . أضف الى ذلك أن التجفيف لا يسلب الطعام قيمته ونفاسته ، إذ أنه طالما لا يستبعد منه إلا الماء فان الفيتامينات وبقية العناصر الغذائية تظل به مركزة . والأطعمة المجففة تحتفظ بجداتها وصلاحيتها للاكل لمدة طويلة . وفي حالة حفظها في علب محكمة الغلق ، وبعد أن يضغط بها غاز النيتروجين ، فانها تبقى لمدة عامين أو أكثر دون أن يعتريها فساد

وقد كان التجفيف ولا يزال لبريطانيا إبان الحرب أمراً حيوياً ، فان ما كانت تحمله اثنتا عشرة سفينة تجارية من اللحوم العادية ، أصبح من الميسور الآن شحنه في سفينة واحدة بعد التجفيف . وبذلك يمكننا إدراك مدى الاقتصاد الذي ظفرت به الأمم المتحدة في سفن النقل . وقد أجريت تجارب أخرى لضغط الأطعمة بعد تجفيفها ، وقد حالف النجاح هذه التجارب أيضاً ، ولوحظ أن الطعام المضغوط بعد التجفيف يعمر مدة أطول

وقد أرسلت الولايات المتحدة كميات عظيمة من البيض واللبن في هيئة مسحوق مجفف . مما ساعد كثيراً على حل مشاكل التغذية المعقدة في زمان الحرب . كما كان لهذه الطريقة فضل كبير في إطعام الجيوش التي تحارب في المناطق النائية البعيدة عن مراكز التموين ، والتي تسوء فيها طرق المواصلات . وقد أنشئت إبان العام الماضي في بريطانيا مصانع عديدة لتجفيف الخضر ، وليس من شك في أن هذه الصناعة الحديثة ستلعب دوراً هاماً في إنقاذ البلاد الجائعة في أوربا بعد أن تضع الحرب أوزارها



في مصانع التجفيف توضع الخضر في أنابيب مغطاة بشباك ، وقد أمسكت هذه السيدة بثلاث عينات لخصت ، فوجد أن كميات الفيتامينات والأملاح المعدنية لم تتأثر بعملية التجفيف أو الضغط



لقد كان التجفيف ولا يزال أمراً حيوياً لبريطانيا ولا سيما ابان الحرب . وقد كثر استعمال مسحوق البيض في معظم المنازل . وهو لا يغاير في مذاقه البيض العادى بعد إعداده للطعام

هكذا تقلصت هذه الكومة من الجزر في الحجم والوزن ، فبدت في الوسط بعد التجفيف ، وفي اليمين بعد الضغط في شكل مكعبات أربعة ، لف كل منها في ورق السلوفان الشفاف



تمسك هذه السيدة بيدها اليمنى صندوقاً به اثنتا عشرة بيضة ، وفى يدها اليسرى تحمل صندوقاً آخر به مثل هذا العدد بعد التجفيف والضغط ، فغدت لاتشغل إلا حيزاً صغيراً . كما أنها تحتفظ بصلاحيتها للأكل مدة طويلة

———

باذابة بضع ملاعق من مسحوق الخضر فى الماء ، يمكن الحصول على حساء شهى . وقد دلت الأبحاث على أن الأغذية المضغوطة المجففة تحتفظ بجدائب وصلاحيتها للأكل مدة طويلة



العلم والعالم

الاستقرار الاقتصادى

فى ابان الحرب وبعدها

ألقى مستر ا. م. هـ. لويد المستشار الاقتصادي للوزير المقيم بالشرق الاوسط محاضرة عن المستقبل الاقتصادى لبريطانيا ، فقال :

« بفرض ان مستوى كل من الاجور والاسعار كان ١٠٠ قبل الحرب ، نجد أن الرقم القياسى الآن ثابت عند حد ١٣٢ للاجور و١٢٨ للاسعار . أى أن نسبة الارتفاع هى ٣٠ ٪ تقريبا . وهذا نجاح عظيم اذا ذكرنا مقدار الارتفاع الذى انتاب نفقات المعيشة ابان وبعد الحرب العالمية الماضية ، حيث ارتفعت فى وقت من الاوقات الى ٢ ١/٢ مرة عما كانت عليه فى عام ١٩١٤

« ولقد أمكن الوصول الى هذا القدر من تثبيت الاسعار والاجور بوساطة الجمع بين مراقبة وتحديد الاسعار ، ومنح الاعانات الحكومية لبعض السلع الرئيسية ، والشدة فى فرض الضرائب ، والتوسع فى عقد القروض العامة . ولكى تمنع الحكومة قيام سوق سوداء للسلع وتمتص القوة الشرائية الزائدة عن الحاجة فلا تتركها تعرقل سياسة تثبيت الاسعار ، عملت الحكومة لتغطية نصف نفقات الحرب من حصيلة الضرائب والنصف الآخر من حصيلة القروض

« ففى الوقت الحاضر تبلغ النسبة الاساسية لضريبة الدخل ٥٠ ٪ وتتدرج الضريبة الاضافية فى الصعود حتى تصل بالنسبة للدخول الكبرى تسعة عشر شلنا وست بنسات من كل عشرين شلنا . بمعنى ان الانسان الذى يبلغ دخله السنوى مائتى ألف جنيه لا يتبقى له بعد دفع ضريبة الدخل العادية والاضافية الا خمسة آلاف جنيه . ونتيجة لفرض هذه الضرائب العالية يبلغ دخل الحكومة ٣٠٠٠ مليون من الجنيهات وتسدد الحكومة اكثر من نصف نفقات الحرب مما تحصله من ضرائب ، أما الباقى فتجمعه الحكومة فى شكل قروض ، ويقدم الجزء الاكبر من هذه القروض العمال الذين ازداد دخلهم اما لارتفاع فى فئات الاجور أو لحصولهم على أجور اضافية لاشتغالهم وقتا اضافيا . وبهذه الطريقة استطاعت الحكومة ان تمتص القوة الشرائية الزائدة فى جميع مستويات الدخول (أى لدى الاغنياء ومتوسطى الحال)

العمارات أو « الفيلات »

تدور الآن فى بريطانيا مناقشة حول نوع المساكن الواجب على السلطات المحلية انشاؤها عندما تعود الظروف الى حالتها الطبيعية . وفى الموضوع رأيان :

رأى يفضل سكنى الفيلات بحدائق بعيدا عن وسط المدن ، ورأى يفضل سكنى العمارات قريبا من مكان العمل

ولكل رأى مزايا وعيوب ، ومن المنتظر ان يشمل التعمير والانشاء هذين النوعين من المساكن

ومن الارجح ان يزداد الاقدام على سكنى الشقق المكيفة الهواء فى المدن ، خصوصا اذا تيسرت سبل الوصول الى الحدائق العامة والتمتع بهواء الريف الطلق

وفى مشاريع المساكن التى تقوم بها السلطات المحلية أو الشركات سيكون من السهل ادخال التدفئة فى المساكن بطرق مختلفة ، وتقليل نفقات استعمالها سيكون عن طريق توصيلها

لمجموعات كبيرة متجاورة من المساكن ، وسيعمل على ايجاد الطرق الفنية للتخلص من الفضلات ، وقد يرجع في الكثير منها الى الطرق الامريكية . وستشمل مشروعات المساكن الحديثة في المدن أمكنة للملاهي والتسلية والملاعب الرياضية ، والملاجيء التي تترك فيها الامهات اطفالهن وقت اشتغالهن بالعمل

ومشروع المساكن المزمع انشاؤه في بريطانيا سيحوى من ثلاثة ونصف الى اربعة ونصف مليون مسكن تبنى في ظرف عشرة أعوام . وقد حدث عقب نهاية الحرب الماضية نفس الدعوة التي نسمع بها الآن لاعادة البناء والتعمير ، ولكن السلطات العامة وشركات البناء عجزت عن مداركة الحالة فلم يتنج رغم ما بذل من جهد اكثر من بناء ٧٠٠٠ مسكن سنة ١٩١٩ وأقصى ما يمكن انشاؤه كان في سنة ١٩٣٧ وقد بلغ عدد ما أنشيء ٣٥٠٠٠٠ مسكن . وقد اتخذت الحكومة الحالية حيطتها للافاء ذلك فاحتفظت شركات البناء بثلث عدد موظفيها وبذلت الهمة في اعداد مشاريع التعمير لتنفيذها متى حان الوقت . وطلب من السلطات المحلية شراء الاراضي ، وهي ماضية في وضع برنامج لحيازتها كي يمكن تنفيذه في بحر عام متى سمحت الظروف

المجاعات في الهند

عرف تاريخ الهند الكثير من المجاعات التي بلغ بعضها من الخطورة الى ما أدى الى القضاء على الامبراطوريات القديمة أو الى تغيير مسالك التجارة

وقد لوحظ ان المجاعات الفظيعة المهلكة تحدث في الغالب في نهاية كل قرن ونصف قرن ، وقد تحدث مجاعات شديدة في كل عشر سنوات أو ١٠ يقارب ذلك

ويرجع السبب في اصابة الهند بالمجاعات من حين الى حين الى ان أغلب المناطق المزروعة في البلاد تعتمد على الامطار الموسمية التي تهطل في فصل « المانسون » المشهور بتقلبات رياحه ، وأقل تغيير في اتجاه الرياح الحاملة للغمام قد يؤدى الى جعل المناطق التي تكثر فيها الامطار والمياه صحراء قاحلة . واذا ما حل فصل المانسون قبل أو بعد اسبوعين من أوانه المعتاد فانه قد يؤدي الى اتلاف المحصول ، بل وقد تؤدى رياح المانسون الشديدة وامطاره الغزيرة الى احداث الفيضانات وما يترتب عليها من اضرار لا تقل فداحة عن اضرار امساك المطر

وكانت الوسيلة الوحيدة التي يلجأ اليها الناس لحماية انفسهم ضد خطر القحط هي اختزان فضلة الحبوب في السنوات الموفورة المحصول ، بيد ان هذه الوسيلة لم تكن تجدى نفعا عند تعاقب سنوات العسر والقحط

على ان الادارة الحديثة في الهند استطاعت أن تتغلب على كبير من اخطار هذه المجاعات ، تبنت قانون المجاعة « Famine Code » الذى ينظم الاجراءات الادارية التي تتخذ عند حدوث المجاعة في قسم من أقسام الهند الفسيحة

وقد أدى انشاء وسائل النقل الحديثة وتعميمها في ارجاء الهند الى تفادى الموت الاجماعي في ابان المجاعات ، اذ يمكن الآن الاتيان بالطعام من النواحي الغنية بالمحصول الى النواحي المفتقرة الى الطعام

وأهم من ذلك هو ترقية مرافق الهند الاقتصادية ولا شك ان اعمال الري العظيمة التي انجزت خلال المائة سنة الماضية ذات أثر فعال في وقاية الهند من المجاعات ، فان هذه الاعمال تروى عشرين في المائة من أرض الهند ريا مستديما لا يعتمد على الامطار والرياح

وقد حدث في سنة ١٨٧٨ جفاف عم جميع اقسام الهند الجنوبية وبعض الاقسام الشمالية ، ولم تف الامدادات المنقولة بشتى وسائل النقل بحاجة المناطق المنكوبة ، ففشت المجاعة على عدد كبير من الناس . فألفت الحكومة لجنة خاصة دعتها لجنة المجاعة لتحقق في اسباب النكبة ،

فأوصت بترقية مصادر البلاد الاقتصادية . علما وقعت المجاعة العظيمة سنة ١٨٩٧ ، وهى أعظم المجاعات التى حصلت فى تاريخ الهند ، كان فى امكان السلطات الادارية معالجتها قبل استفحال خطرها ، فلم تؤد الا الى اضرار قليلة نسبيا

جرحى الحرب

آلاف من الجنود الجرحى الذين كان مقضيا عليهم بالموت لو انهم حاربوا وجرحوا فى الحرب الماضية ، سيعودون الى بيوتهم معافين . وآلاف أخرى منهم ما كانوا يستطيعون العودة الى ميدان القتال لو انهم أصيبوا فى الحرب الماضية ، يستأنفون الآن جهادهم فى ساحة الحرب بعد ان يتركوها بأيام قلائل

والفضل فى هذا وذاك يرجع الى تنظيم الوسائل التى اتخذت فى هذه الحرب لمعالجة الجنود الجرحى ، كما يرجع الى الادوية الجديدة التى ظهرت ابان الحرب وأهمها البنسلين وقبل الحرب وأهمها عقاقير السلفا

فى الحرب الماضية كان لا يعود الى ميدان القتال من الجرحى سوى ٦١ ٠/٠ وكان ذلك يرجع الى قصر الادوية التى كانت تعالج بها الجراح ، كما كانت ترجع الى بطء نقل الجرحى والاضطراب فى أمر علاجهم

ولهذا فقد وضعت ادارات منظمة تتولى هذا الشأن الخطير . فكل فرقة محاربة ، ولو كانت من فرق المظلات الهابطة ، يلحق بها جماعة من رجال الاسعاف لا يتخلفون عن جبهة القتال بأكثر من الف ياردة . ومهمة هؤلاء الرجال نقل من يجرح من الجنود الى حيث يعالجون . وخلف الجبهة بمقدار ثمانية اميال تقوم محطات من الاطباء مهمتها تقسيم الجرحى فرقا حسب خطورة جروحهم . وعلى مسيرة تتراوح بين ١٥ و ٣٠ ميلا تقوم مستشفيات لاجراء الاسعافات السريعة ومعالجة الجروح الطفيفة . اما الجروح المستعصية فينقل المصابون بها الى مستشفيات بلادهم فى انجلترا أو فى امريكا ، وذلك بالطائرات أو السيارات

أما ترتيب الجرحى حسب جروحهم فيسير حسب هذا النظام : الجرحى فى صدورهم وعددهم فى المتوسط ٩ ٠/٠ من مجموع الجرحى . فالجرحى فى بطونهم وعددهم ٤ ٠/٠ من الجرحى . وآخر درجات الجرحى هم المصابون فى أذرعهم وسيقانهم وتتراوح نسبتهم الى مجموع الجرحى بين ٦٠ و ٦٥ ٠/٠

ولا تزيد الفترة بين اصابة الجريح وبين نقله الى مستشفيات الميدان عن ثلاث ساعات . وقد أدت هذه السرعة وهذا التنظيم الى ان نسبة من مات من جرحى الميدان الايطالى لا تتجاوز نصف فى المائة من مجموع المجروحين . وهى نتيجة طيبة جدا اذا قورنت بنسبتهم فى الحرب الماضية وقد كانت حوالى الاربعين فى المائة

جزء من الحلقة المفقودة

يتخيل عامة الناس فى جميع الشعوب والقبائل الانسان الاول حيوانا ضخما هائلا ، ولكن علماء التطور يعتقدون ان هذا الانسان كان اصغر حجما من الانسان الحالى ، وانه كان يتراوح بين حجم الرجل وحجم القرد

ولكن البحوث الاخيرة أثبتت ان تخيل عامة الناس كان أصح من اعتقاد العلماء . فقد كشف العالم الهولندى فون كونجسولد عن حفريات فى جاوة اثبتت ان الانسان القديم كان عملاقا جبارا يفوق الغوريلا فى حجمه

وجد هذا العالم فكا ضخما جدا فى جاوة فارتاب فى ان يكون هذا فك انسان . ولكنه لم يلبث ان وجد فكا آخر لا شك فى انه فك انسان ، وكان لا يقل عن سابقه ضخامة . واستنتج من هذا ان صاحب هذا الفك يعادل فى حجمه أكبر نوع معروف من ذكور الغوريلا وقد سمى هذا الانسان « انسان جاوة القديمة الضخم » . وكذلك وجد اسنانا يبلغ طولها

وحجمها طول الاسنان الحالية وحجمها ست مرات ، ضعف إسنان الغوريلا في طولها وحجمها

ويقول العلماء ان هذا هو أهم كشف في علم الانسان بعد الكشف الذي قام به يوجين ديبوا في جاوة سنة ١٨٩١ في البحث عن « الحلقة المفقودة »

ويعتقد العلماء الآن ان هذه الضخامة ظلت من صفات الانسان فترة طويلة أو ان جسمه لم يبدأ في التناقص الا بعد ان دخل الانسان في دور الحضارة وما فرضته عليه من عمل مرهق ، ومن ملابس يتستر بها ومساكن يأوى اليها ، وهذه كلها من عوامل اضعاف البدن والانتقاص من ضخامته

الحرائق الكبرى

من أهم الحرائق الكبرى :

١ ــ حريق لندن الذي وقع في شهر سبتمبر سنة ١٦٦٦ واستمر ثلاثة أيام ، دمر في اثنائها ثلاثة عشر ألف منزل كانت قائمة على مساحة تبلغ ٤٣٦ فدانا

٢ ــ حريق نيويورك في سنة ١٨٣٢ ، وقد استمر يومين من أيام شهر ديسمبر ، واحترق فيه حوالي سبعمائة من عمارات المدينة الكبيرة ، وترتب على ذلك ان تعطل من العمل عشرة آلاف نسمة دمرت المصانع والمتاجر والمكاتب التي كانوا يعملون فيها ، وبلغت الخسائر عشرين مليون دولار ، فترتب على ذلك افلاس جميع شركات التأمين ضد الحريق في المدينة ، وقد كان هذا الحريق من اسباب الازمة المالية التي وقعت في سنة ١٨٣٧

٣ ــ حريق شيكاغو في سنة ١٨٧١ ويعد أكبر الحرائق التي وقعت في العصر الحديث وأشدها تدميرا ، فقد بلغت مساحة المباني التي احترقت ثلاثة اميال مربعة ، وبلغت الخسائر مائتي مليون دولار ، وازهق فيها من الارواح ٢٥٠ نسمة

٤ ــ حريق بوستون في سنة ١٨٧٢ ، وفيها دمر أغنى احياء المدينة واحفلها بدور الاعمال ، كانت مساحة المباني المحترقة خمسة وستين فدانا

ولكن يلاحظ ان نتائج هذه الحرائق كلها كانت خيرا ، فقد أدت الى اعادة بناء المناطق المدمرة بناء حديثا تتوافر فيه الشروط الصحية كما يمتاز بجمال العمارة

أثر الزواج في الصحة

العرف السائد في جميع البيئات ، عاليها ودانيها ، متقدمها ومتأخرها ، يقرر أن الزواج الزم للمرأة منه للرجل ، فقد يعيش الرجل عازبا طول حياته دون أن يشعر بأية غضاضة أو منقصة ، أما الفتاة العانس فتحس نقصا كبيرا ينغص عليها حياتها

ولكن الامر على نقيض ذلك من الوجهة الصحية ، فالرجل أحوج للزواج من المرأة ليحول صحته ويكسب جسمه مناعة من الامراض فان الاحصاءات تدل على أن عدد المتوفين من العزاب فيما بين الخامسة والعشرين والخامسة والخمسين ضعف عدد المتوفين من المتزوجين في هذه المرحلة

أما في النساء فان نسبة الوفيات من العانسات في هذه السن لا تزيد على نسبة الوفيات من المتزوجات الا بمقدار ١٠ ٪ فحسب

فكأن الزواج يضاعف صحة الرجل وقوته ، في حين أنه لا يزيد في صحة المرأة وقوتها الا زيادة طفيفة

والامر كذلك في المطلقين والمطلقات والمترملين والمترملات ، وقد كان المفروض أن المرأة التي تحرم من زوجها ومن دخله وحمايته ، تتعرض للموت أكثر من الرجل الذي لا يحرم كثيرا اذا طلق زوجته أو ماتت ، ولكن الارقام تدل على ان الوفيات بين المطلقين والمترملين ضعفها بين المتزوجين ، في حين أنها تزيد زيادة يسيرة جدا في المطلقات والمترملات عنها في المتزوجات

الحركة الفكرية

ستافورد كريبس : المحامى والثائر

هذا عنوان كتاب وضعته «باتريشيا ستراوس» وفيه تلخيص وتحليل لحياة هذا الرجل الذى قد يتحدث عنه المستقبل أكثر مما تحدث عنه الماضى، وان كان ماضيه حافلا بكثير من الامور الخطيرة

فهذا رجل كان « المحافظون » يخشونه فى بداية حياته منذ تبينوا مواهبه التى تهددهم بخطر شديد . ثم كرهه « العمال » منذ انشق عليهم وأراد أن يتخذ سياسة اشتراكية عنيفة لم يشأ حزب العمال أن يجنح اليها فى عهد مكدونالد وهندرسون . ثم صار بعد ذلك محبوبا مبجلا من الفريقين ، من المحافظين والعمال ، بل من الامة البريطانية بأسرها ، ولا سيما منذ وقف الى جانب تشرشل فى هذه السنين العصيبة ، ومنذ برز بمشروعه الخطير فى حل القضية الهندية ، وهو المشروع الذى لم يكلل الى الآن بالنجاح ، ولكنه سيكون من النقط الاساسية فى سياسة العالم عقب انتهاء الحرب

وتقول مؤلفة الكتاب ان كريبس لا يعنيه أن يرضى الرأى العام ويتملقه اذا رأى رأيا يعلم أن جمهرة الشعب تنكره وتأباه . بل كثيرا ما وقف موقف التصادم مع الرأى العام وأعلن آراءه الاشتراكية . ولا سيما موقفه من العرش البريطانى . فان لهذا العرش مكانة سامية عزيزة فى قلب الشعب البريطانى ، ويكاد السياسى أن يقدم على الانتحار المعنوى اذا هو وقف من العرش موقف المناوأة والمخاصمة، ومع ذلك فان كريبس بدأ حياته السياسية مهاجما هذا القصر ، كرجل اشتراكى عنيف، متحدثا عن «ميول قصر بكنجهام السياسية » ومنافاتها للروح الديموقراطى ، منددا فى مجلس العموم عند نظر ميزانية الدولة كل سنة « بالمخصصات الملكية » مستنكرا ما أقيم من حفلات باذخة مسرفة عند تولى الملك عرش بريطانيا

ومع ذلك لم يؤد به هذا الموقف الى الانتحار السياسى ، بل على النقيض من ذلك رفعه فى أعين الشعب البريطانى ، فقد كان له من مواهبه السياسية ، ومن قدرته الخطابية ، ما مكنه من أن يبرز آراءه ومناهجه بقوة لفتت اليه الانظار .

ولعل كريبس هو أول سياسى بريطانى — ولا يستثنى من ذلك تشرشل ذاته — أدرك خطر النازية والفاشية على الامم الديموقراطية ، وأدرك أن لا نجاة للديموقراطية الا بتحالفها مع الاتحاد السوفيتى لقمع القوة النازية ، كما أدرك أن الحركة الفاشية البسيطة التى قام بها موزلى فى بريطانيا قد تؤدى الى عواقب خطيرة يتعذر تلافيها ، واقترح لهذا أن يؤلف الاشتراكيون قوة عسكرية من ذوى الشبان تقاوم أعوان موزلى بالقوة والسلاح

وتقول المؤلفة أن نجاح كريبس فى المحاماة لم يكن دون نجاحه فى السياسة ، فقد كان يربح فى العام عشرين ألفا من الجنيهات ، ولكنه ترك هذا العمل المربح ليفرغ للسياسة التى إستنفدت أكثر ثروته ، حتى أنه قام برحلة فى أرجاء أوربا ليدرس شؤونها السياسية وحركاتها الاشتراكية ، فى « الدرجة الثانية » من بواخرها وقطاراتها

وان دراسة آراء كريبس ومناهجه السياسية قد تعطى القارىء صورة طيبة عما بعد الحرب من أمور ومشاكل سياسية واجتماعية ، لان كريبس أحد — ان لم يكن أول — المرشحين لرئاسة الحكومة البريطانية بعد هذه الحرب ، اذا وقفت

ثقة الشعب البريطانى بتشرشل عند حد الثقة بكفايته فى ادارة الحرب ومقاومة النازى ، ولم تتجاوزه الى حد الثقة بقدرته على انشاء «بريطانيا الجديدة» التى تتجه الى « اليسار » أى الى الاشتراكية اتجاها لا شك فيه

من الفوهرر القادم ؟

من يخلف هتلر فى تزعم ألمانيا وحكمها ؟

أجابت ر. ج. والديك عن هذا السؤال بأن عرضت النواحى والجماعات القوية فى ألمانيا ، والاشخاص الذين ينتظر ان ترشحهم لولاية هذا المنصب ، اذا ما انتهت الحرب بهزيمة هتلر والنازية أو اذا تصدعت الاركان التى يقوم عليها حكم هتلر بثورة داخلية عاصفة

والمؤلفة ابنة صيرفى يهودى فى مانهايم بهولندة ، وقد هاجرت الى امريكا واقامت فيها . ولكنها ظلت الى سنة ١٩٤١ تزور أوربا فى كل عام حيث « كان لها أصدقاء من كبار السياسيين والدبلوماسيين » الذين كانوا يمدونها بأصدق الانباء وأصح المعارف عن السياسة ودخائلها

وترى المؤلفة ان مهمة الرجل الذى يخلف هتلر مزدوجة : أولا ان يختم الحرب خاتمة لا تضيع كرامة الشعب الالمانى ولا تؤدى الى سلم يعانى فيه ما عاناه من قبل من العسر والضيق ، وثانيا ان يتفادى الثورة التى يكاد يكون من المحقق قيامها فى ألمانيا عقب الهزيمة اما بدافع احدى القوى الخارجية — تعنى روسيا — التى قد تجد فى هذه الثورة مجالا لاذاعة مبادئها وبسط نفوذها ، واما بدافع من الشعب الالمانى ذاته بعد ان رأى ما جرته عليه النازية ، وما هى الا رأسمالية مسلحة، من الخطوب والكوارث

فمن هو هذا الزعيم ، ومن أية جهة يأتى ؟

هناك القيصرية القديمة التى ترى المؤلفة ان الحلفاء أخطأوا اذ قضوا عليها . نعم ان القيصرية ارتكبت أخطاء جمة فى حق السلام والانسانية . ولكن بقاءها كان كفيلا بعدم ظهور أى « ديماجوجى » خطر من طراز هتلر . ولكن هل يمكن اعادة القيصرية ؟ كلا ، لقد انقضى أمرها ولن يرضى الشعب الالمانى بعودتها

هل يكون الزعيم القادم قائدا عسكريا ؟ ان القواد العسكريين بلسم يشفى جراح الشعوب المهزومة ، وكان فى وجودهم فى مراكز الحكم عزاء للشعوب عن جيوشها المكسورة . فمكماهون تولى أمر فرنسا عقب هزيمتها سنة ١٨٧٠ ، وتولى هندنبورج حكم ألمانيا بعد انكسارها سنة ١٩١٨ ، وتولى بيتان أمر فرنسا بعد اندحارها سنة ١٩٤٠ . فلماذا لا يكون الشأن كذلك فى ألمانيا بعد هزيمة جيوشها ؟ وقد صدر هذا الكتاب قبل وفاة روميل ، ولهذا رشحته المؤلفة لزعامة المانيا ، اذ تقول انه بطل قومى رغم هزيمته فى افريقيا . والآن وقد مات روميل ، فلا مانع من أن يرشح الشعب والجيش قائدا آخر — رونشتيد مثلا — لتولى الزعامة والرئاسة

أما رجال الصناعة فلا يستطيعون ان يقدموا رجلا من بين صفوفهم ، وقصارى ما يفعلون ان يؤيدوا رجلا يدافع عن مصالحهم التى ستتعرض ولا شك لخطر جسيم بعد الحرب ، جزاء تأييدهم للنازية من ناحية ، وبفضل انتشار الآراء الاشتراكية من ناحية أخرى

والحركة العاملة فى المانيا الحالية ليست من القوة بحيث تخرج زعيما يرضى عنه الشعب جميعا

أما الزعماء المهاجرون فلا ترى المؤلفة ان الشعب يرضى بأحدهم زعيما .. انه يريد زعيما عانى معه قسوة الحرب ، ومرارة الهزيمة فى داخل ألمانيا ذاتها

وترجح المؤلفة قيام ثورة شيوعية تنتهى باتفاق ألمانيا مع روسيا ، وجعل المانيا قوة رهيبة تقضى على آمال الحلفاء فى انشاء أوربا الهادئة المسالمة التى ينشدونها

رأى اميل لودفيج فى طريقة معاقبة المانيا

اميل لودفيج من الكتاب الذين لم يصالحوا النازية يوما ما ، بل حمل عليها وناصبها العداء وما زالت حملة تخبو ، ولعل ذلك يرجع الى انه يهودى ، ولكن المحقق انه رأى فى النازية غلا يصفد به الاحرار من الكتاب والمفكرين ، وخدعة تسير الشعب الالمانى الى العدوان على غيره من الشعوب واثارة الفتن والحروب فى شتى الارجاء

وقد هجر المانيا منذ قيام هتلر وأقام فى سويسره الى سنة ١٩٤٠ ثم تركها الى امريكا حيث يقيم فى كليفورنيا منصرفا الى الانتاج فى التاريخ والسياسة

وآخر كتبه هو « كيف تعامل المانيا » وهو على نقيض كتبه السابقة ، لا يتكلم كلاما عاما يحمل من الآراء أكثر مما يضم من الوقائع ، بل يحدد على وجه الدقة ما يجب ان يفعله الحلفاء عقابا ، وتقويما ، للشعب الالمانى

وهذه بعض ما يتضمنه من الآراء :

لا بد من احتلال المانيا ليفهم الالمان ويؤمنوا بأنهم هزموا فعلا

يجب ان يلبس ضباط الحلفاء احذية الفرسان ذات الرقاب الطويلة ، لان هذه هى الاحذية التى يلبسها المنتصرون

يجب ان يحرم على القوات الظافرة ان تبتسم عند دخولها برلين ، لان السيد لا يبتسم ، بل يأمر ، ومن يبتسم يضيع على نفسه احترام الالمان

يجب ان يظهر ضباط الحلفاء فى كل مكان بملابسهم الرسمية ، بل موظفوهم المدنيون كذلك يجب ان يلبسوا لباسا رسميا يميزهم من سائر الناس

يجب ألا تتخذ اللغة الالمانية — بل تتخذ لغة المنتصر

يجب أن تلغى عناوين الشوارع المستمدة من اسماء المعارك الحربية التى يفاخر بها الالمان .

ويجب الا يكون العيد القومى يوم تأسيس الامبراطورية البروسية ، بل يوم ١١ نوفمبر الذى أعلنت فيه الجمهورية الاولى ويجب ان يحل محل اليوم الذى ولد فيه هتلر يوم ٢٨ اغسطس الذى ولد فيه جوته

يجب ان يحرم على جميع الالمان ، مدى خمس سنوات على الاقل ، ان يغادروا المانيا ، وبذلك يمنع هؤلاء العملاء والصيارفة والجواسيس الالمان الذين كانوا يتجولون فى انحاء العالم ناشرين للدعاية ناقلين للانباء

يجب تحطيم قوى رجال الصناعة الذين يرجع اليهم السبب الاول فى قيام هتلر ونظامه ، والذين سيعملون ان اطلق لهم الامر على اقامة هتلر آخر ونازية أخرى

يجب ان يعطى الشعب الالمانى جرعات كبيرة من الموسيقى الهادئة الوادعة الرقيقة ، بدلا من تلك الموسيقى العاصفة العنيفة التى أنشأها واجنر وأمثاله واذاعتها النازية فى آذان الجمهور

يجب ان يحرق كل الادب النازى فى حفل كبير يرغم فيه جوبلز على أن يتلو على الناس آراء هتلر فى سيادة العالم واذلال شعوبه

يجب أن يطلق سراح جميع من اعتقلهم النازية فى سجونها ومحابسها ، وان يمنح كل منهم وساما يسمى وسام الحرية

يجب ان تلغى الاعلام القومية القديمة ، ويستبدل بها علم أبيض دلالة على ألمانيا الجديدة التى تخلت عن فكرة العدوان وآثرت عليها حياة السلام

يجب ان يلغى نشيد « ألمانيا فوق الجميع » وما شابهه من الاناشيد ، ويستبدل بنشيد رقيق يؤخذ من السيمفونية التاسعة لبيتهوفن

يجب ان تلغى المصانع التى تخرج للاطفال لعبا من الجنود والمدافع والدبابات . ويجب أن يعلم الاطفال الالمان تعليما جديدا مشوبا بالعطف والصبر ، الذى ينبغى لكل مريض — والشعب

الالمانى فى واقع الامر شعب مريض بحب السيادة والسيطرة

أما هنار فيرى لودفيج ان يتولى الحلفاء أمره بأنفسهم ، اما ان ترك للالمان فان الشعب الالمانى سيفتك بالقضاة الذين يدينونه بجريمة الحرب ، وسينظرون اليه مدى التاريخ نظرتهم الى الشهيد القديس !

يوسف

قصة توماس مان الخالدة

قارب الآن الاديب الالمانى الاكبر توماس مان سن السبعين .. هذه السن التى يبلغ فيها العقل أقصى ما يستطيع من سعة الثقافة ، وعمق التفكير ، وادراك الحكمة العليا

وفى هذه السن أتم مان قصته الخالدة عن « النبى يوسف » بأن اصدر الجزء الثالث من هذه القصة

وقد قص الكتاب المقدس قصة يوسف فى احدى وعشرين صفحة ، أما توماس مان فقصها فى الفين من الصفحات ، وقسمها ثلاثة اجزاء ، تحدث فى الجزء الاول عن « يوسف الشاب » وفى الثانى عن « يوسف فى مصر » وفى الثالث عن « يوسف الوزير »

وكلنا يعرف قصة يوسف، فقد رواها القرآن الكريم فى عبارة هى أسمى ما بلغ اليه البيان العربى من التعبير والتصوير . وما من قصة فى الكتاب الكريم يلذ للمرء قراءتها واستماعها مثل قصة يوسف . وما من قصة عنى المصورون بتصويرها ، والممثلون بتمثيلها ، عنايتهم بقصة يوسف . وفى الفن الغربى روائع من الادب والرسم والموسيقى استمدت من هذه القصة الخالدة

ولكن توماس مان تفوق على جميع من عالجوا هذا الموضوع .. لقد وجد فى القصة مجالا لتصوير شتى العواطف والنوازع الانسانية .

فاحلام الشباب ، ونظام الاسرة ، وعلاقة الاخ باخوته ، وطبيعة المرأة ، وأخلاق الملوك ، وسمو الانبياء — كل أولئك أمكن لتوماس مان ان يصوره تصويرا فذا رائعا محكما فى قصته . ثم استطاع الى جانب ذلك ان يقدم للعالم الحديث دروسا نفيسة من قصة يوسف تعالج كثيرا مما نعانيه الآن فى حياتنا الخلقية والاجتماعية من المشاكل ومن السيئات

وأهم من ذلك أن بطلى القصة ، فرعون ويوسف ، يمثلان فى نظر توماس مان نوعين من الثقافة والحضارة . أحدهما يمثل الثقافة والحضارة الفرعونية وما تمتاز به من قوة عمرانية وحربية ومن ديانة مركبة معقدة ، وثانيهما يمثل الثقافة والحضارة العبرية وما تمتاز به من بساطة ووداعة وانطلاق فى الحياة وفى الدين

فالقصة من هذه الناحية دراسة لحضارتين وثقافتين عظيمتين ، ومقارنة بين الدين الفرعونى « المشرك » والدين العبرى « الموحد »

ويقول توماس مان فى قصته : سألت نفسى طويلا ما الذى حملنى على ان اكتب هذه القصة وأحب هذا الموضوع ، وقد كنت منصرفا الى دراسة شؤون العالم ومشاكله . فوجدت ان ما دفعنى الى ذلك عاملان : أولا — طول قراءتى للتوراة الذى فكر كثيرا — ولم يعمل — فى كتابة قصة يوسف . وثانيا — اننى ظللت طول حياتى معنيا بمصر ، هذا البلد الذى انجب أدبيا وضم أنبياء وخلد شعبه على الدهر بينما فنى اكثر معاصريه من الشعوب

الحياة اليومية فى روسيا

صدرت وتصدر عن روسيا مئات من الكتب الانجليزية فى كل عام . ولكن قليلا جدا منها ما يصف الحياة اليومية بين عشرات الملايين من البشر الذين يعيشون تحت نظام يختلف عن جميع الانظمة السائدة فى العالم ، فان الاشتراكية لم

تصر سياسة الحكومة ومنهاج المجتمع فى أية دولة سوى روسيا

ويقرأ الناس كثيرا من هذه الكتب ، ومع ذلك يخرجون منها وما زالوا يتساءلون : كيف يعيش الروس ، وكيف ينشئون أولادهم ويعلمونهم ، كيف يعيشون فى بيوتهم ، ماذا يلبسون وماذا يأكلون ، أى الكتب يقرأون وأى الملاهى يشاهدون ، وما الى ذلك من الاسئلة التى تتناول الحياة اليومية

ولكن ماركوشا فيشر كفتهم مؤونة هذا التساؤل فى كتابها « حيواتى فى روسيا »

ولدت هذه المؤلفة فى روسيا وظلت بها حتى سنة ١٩١٥ ، فهجرتها الى امريكا ونذرت الا تعود حتى تلغى القيصرية . وفى مهجرها تزوجت صحفيا أمريكيا ، عادت به الى روسيا فى سنة ١٩٢٧ وظلت هناك حتى سنة ١٩٣٩ . فهى اذن خبيرة بشؤون روسيا فى عهديها : عهد القيصرية وعهد الشيوعية

وكانت قد زارت روسيا فى سنة ١٩٢٢ فلم تطق المقام بها ، وقالت ان الثورة اظهرت نوعا جديدا من « القذارة والقبح والوحشية » . أما الآن فقد تغيرت نظرتها الى روسيا ، وهى ترجو ان يصدق العالم ان روسيا بعد ان استقر بها النظام الاشتراكى لم تعد مثل روسيا فى ابان الثورة وعهد المذابح الاولى

لقد اختفت المذابح ، والمجاعات ، وصفوف النساء اللاتى يردن الخبز ، والابناء الذين يتجسسون للحكومة على آبائهم ، وحوادث القبض والاعتقال والاغتيال . . اختفت كل هذه الامور التى تصاحب الثورات ، وحل محلها نظام مستقر كان من نتائجه هذه البطولة الروسية التى تبدت فى الحرب الدائرة فى أروع مظاهرها . وهى تقول : لماذا لا يحارب الروس حرب الابطال ؟ لقد توافر لهم كل ما يدفعهم الى البطولة دفعا : تعليم يظفر به الجميع ، وعمل يستغرق الناس كلهم ، ومستشفيات ومصحات ، ومعاشات للمرضى والمسنين ، وكل ذلك فى بلد بكر ، غنى ، قوى ، حافل بالخيرات ، مؤهل لكثير من ضروب التقدم والارتقاء

وكل ماتريده المؤلفة ان تخف يد الديكتاتورية الثقيلة ، وان يخرج دستور ستالين من حيز التشريع الى حيز التنفيذ . . وان كان الروس أنفسهم لا يحسون الحاجة الى ذلك ، فقد أقنعهم الدعاية بأن نظامهم هو أوفى وأصح نظام ديموقراطى فى العالم

حياة المسيح فى مسرحيات للاذاعة

ترجمت حياة المسيح عليه السلام بشتى وسائل الادب والفن ، فجرت بها أقلام المفكرين والفلاسفة من طراز رينان ، واقلام الادباء والمؤرخين من طراز اميل لودفيج ، وكانت نبعا فياضا ووحيا ملهما لطائفة من نوابغ المصورين والمثالين ، والموسيقيين ، وكذلك ساهم فن التمثيل فى عرض هذه الحياة الحافلة بألوان الحب والرحمة والطهر

والآن أخذ هذا الادب الجديد الذى يصح ان نسميه « أدب الاذاعة » ونعنى هذه المسرحيات التى تكتب بأسلوب خاص لتذاع للناس فى بيوتهم وأنديتهم عبر الاثير ، يتناول حياة المسيح . . فكتبت الاديبة الانجليزية الآنسة دوروثى سايرز مجموعة من المسرحيات القصيرة التى تمثل حياة المسيح ومواقفها ، وتسلسل من كان حوله من الحواريين والقديسين

وقد أذيعت هذه المسرحيات من محطة الاذاعة اللاسلكية البريطانية . ثم جمعت فى كتاب صدر أخيرا بعنوان « الرجل الذى ولد ليكون ملكا »

ولا شك ان هذه الالوان والأساليب الجديدة فى فن القصة ، خليقة بأن تنبه أدباءنا وقصصيينا الى آفاق جديدة فى تاريخ بلادنا وأبطالنا

الكتب الجديدة

تاريخ ما قبل التاريخ

للاستاذ عبد الله حسين

مطبعة الشباب الحديثة فى ٢٤٠ صفحة

موضوع هذا الكتاب تلك العصور البعيدة التى سبقت الحضارات التاريخية القديمة المعروفة مبتدئا بالكون وظهور الحياة على الكرة الارضية عارضا للتقلبات الطبيعية ونشوء الانسان وغرائزه وانتاجه المادى والعقلى

فالكتاب اذن دائرة معارف موجزة عما قبل التاريخ من الوقائع والتطورات ، تضم كثيرا من البحوث الفلكية والارضية والاثرية ، ومن النظريات الفلسفية والعلوم النظرية والتطبيقية ، ومن الدراسات المتصلة بالاداب والفنون والسياسة وبالغرائز والعواطف الحيوانية والبشرية

تجد فى الكتاب بحوثا فى تطور الارض الجيولوجى من عصر الى عصر ، وبحوثا فى نشأة الدين وتطوره فى عقائد الامم المختلفة ، وبحوثا فى العلوم والآداب كالطب والصيدلة والقصص والاساطير ، وبحوثا فى علم اللغة وفى الفلسفة، وبحوثا فى نشأة الصناعات ، والفنون ، ثم بحوثا فى العواطف الجنسية وما يتصل بها من الحب والزواج والبغاء ، والتقبيل

ومؤلف الكتاب ، الاستاذ عبد الله حسين ، كاتب وصحفى قديم ، بدأ عمله فى الصحافة فى دار المؤيد مع الشيخ على يوسف ، ثم كانت له جولات صحفية موفقة فى كثير من بلاد العالم ، كما كانت له جولات قلمية طيبة فى مسائلنا الوطنية والاجتماعية والاقتصادية - وهو الى هذا رجل جم الثقافة واسع الاطلاع ، والمراجع التى اعتمد عليها فى تأليف هذا الكتاب دليل على سعة أفقه الثقافى ودراسته لكثير من البحوث النفسية فى عدد من اللغات الاوربية .

شاعر دمشق

للاستاذ محمد ياسين الحموى

منشورات دار اليقظة العربية بدمشق

فى ١٠٤ صفحات

شاعر دمشق ، محمد بن عنين ، أحد الشعراء الذين عاشوا فى كنف الايوبيين فى تلك الفترة الحافلة بالاحداث والوقائع : فترة الحملات الصليبية ، وما اتصل بها من نهضات قومية وفكرية وتجارية ، وجد فيها الادباء والشعراء مرادا خصبا يطلقون به فكرهم وخيالهم كاتبين ومنشدين ، ويكفى ان نذكر من أدباء هذه الفترة القاضى الفاضل وعماد الدين الاصبهانى

وابن عنين أحد شعراء هذه الفترة ، امتاز بنواح أدبية طريفة ، لعل من أبدعها ناحيته فى الهجاء الساخر اللاذع ، اقرأه يهجو صلاح الدين ورجاله فيقول :

سلطاننا أعرج وكاتبه
ذو عمش ووزيره أحدب !
والدولعى الخطيب معتكف
وهو على قشر بيضة يثب
ولابن باقا وعظ يغش به الن
اس، وعبد اللطيف محتسب
وصاحب الامر خلقه شرس
وعارض الجيش داؤه عجب

ولم يكن ابن عنين هجاء فحسب ، بل كان مداحا ، وصافا ، متغزلا رقيقا

وقد بسط المؤلف هذه النواحى بسطا طيبا، وعرض لخصائص شعره ومميزاته ، بعد ان ترجم

حياة المؤلف وتحدث عن مآسيه ، وقد ضمن كتابه شطرا كبيرا من شعر الشاعر ، فقدم له ، ولعصره الحافل ، صورة واضحة

ما وراء الطبيعة

للاستاذ حافظ الجمالى

سلسلة كتب اليقظة فى ٢٣٤ صفحة

يقول الدكتور جميل صليبا فى تقدمة هذا الكتاب : ان ازدهار الفلسفة فى أمة من الامم لدليل قاطع على قوتها وتجدد نشاطها وحياتها

وليس من ينكر ان « الفلسفة » فى بلادنا صارت محصورة بين جدران بعض الكليات والمعاهد ، محصورة على نفر قليل جدا من الاساتذة والطلاب ، مع أن تراثنا العربى حافل بآثار خطيرة فى الفلسفة ، وبأسماء أعلام من الفلاسفة ، بل ان هذا التراث مصطبغ فى اكثر نواحيه بالصبغة الفلسفية العامة

ولهذا فاننا نرحب بكل كتاب فى الفلسفة يضاف الى مكتبتنا العربية الهزيلة الا من الانتاج الضحل اليسير . واذا كنا قاصرين الى اليوم عن ان ننشىء فلسفة جديدة نساهم بها فى ثروة العالم الفكرية ، فلا أقل من ان نقتبس من المفكرين والفلاسفة الاجانب بعض آثارهم وندمجها بين تراثنا فى أوسع نطاق ميسور

وهذا الكتاب يبحث جانبا خطيرا من جوانب الفلسفة . يبحث فيما بعد الطبيعة . عارضا كثيرا مما قيل فى هذا منذ عهد أرسطو الى يومنا هذا

والمؤلف يقول : « ان الكتاب تعريب سريع لمصادر فرنسية تبحث فى موضوعه » . وهذا لا يقلل من قيمته ، فما زلنا — فى موضوع الفلسفة على الاقل — فى حاجة الى النقل والاقتباس

وما دام النقل أمينا ، والتعريب صحيحا ، والعبارة سائغة مستقيمة — وهذه شروط متوافرة فى هذا الكتاب — فاننا ندعو الى ان ننقل الى العربيــة أكثر ما يتيسر من التراث الفكرى الاجنبى

سياحة فى سفر التكوين

وخمسون دقيقة

كتابان للقس لبيب مشرقى

لم يلق سفر من اسفار الكتاب المقدس من هجوم العلم وانكار العلماء مثلما لقى سـفر التكوين . فقصة التكوين فى رأى العلم تخالف قصتها فى نظر الدين . ولكن رجـل الدين المثقف يستطيع أن يظهر هذه القصة فى مظاهر لا تناقض العلم ، بل لعلها تتفق مع العلم فى اتجاه واحد

وهذا ما حاوله هذا الرجل المتدين المثقف ، القس لبيب مشرقى . فابرز ما فى سفر التكوين من نواح روحية سامية ، ومثل خلقية نبيلة ، فيها غذاء وغناء للروح الذى ينشـد الهداية ويستهدف الاطمئنان

أما « خمسون دقيقة » فهو سلسلة من تلك الكتب الممتعة التى وضعها المؤلف للنشء مشتملة على مجموعة من القصص الدينية والخلقية التى تقوم الخلق وما تزال تغذى وتملأ النفس وما زالت فارغة ، والتى ترمى الى انشاء جيل يرى فى الدين سبيلا قويما من سبل الحياة يتفق مع واقع الامر ومع منطق العقل لمن شاء ان يوفق بين الخلق القويم والرأى المستنير

وامعتصماه !

للاستاذ عبد الوهاب أبو السعود

دار اليقظة العربية فى ١٥٨ صفحة

عنى أدباؤنا فى بداية نهضتنا المسرحية بتأليف المسرحيات التاريخيــة ، يستقونها من تاريخ الفراعنة أو من تاريخ المسلمين . ثم انصرفوا أو كادوا عن هذا اللون ، وعنوا بالمسرحية الاجتماعية بنوعيها : الجاد والهازل . ومع ان للجانب الاجتماعى قيمته فى المسرح ، الا انه لا سبيل الى انكار خطر المسرحية التاريخية التى

يمكن ان تضم الى جانب العرض التاريخى ، والتصوير النفسى ، بحثا اجتماعيا نفيسا

والمسرح الانجليزى يعتز بدرنيكواتر ومسرحياته التاريخية ، قدر اعتزازه بجولزورثى ومسرحياته الاجتماعية

تسوق هذه الكلمة فى الكلام عن هذه المسرحية (وامعتصماه) التى تدور حوادثها فى عهد المعتصم بين سامرا وعمورية ، والتى تجد من اشخاصها الخليفة المعتصم بالله والوزير محمد ابن عبد الملك الزيات والعباس بن المأمون ، والشاعر أبا تمام

فهذه القصة تمثل عصرا حافلا بالاحداث والوقائع ، التى شارك فيها نفر من الاسماء البارزة فى تاريخ الاسلام ، وقد وفق المؤلف الى تصوير هذه الاسماء بقلمه تصويرا طيبا ، وابراز ملكاتهم ونفسياتهم ابرازا واضحا ، واستنتاج العبرة مما كان يدور بينهم من الامور

ويضم الكتاب ثلاث مسرحيات أخرى ، هى « خولة بنت الازور » وهى كذلك مسرحية تاريخية ، ومسرحتان وطنيتان هما « تتويج فيصل » و « الوطن »

واسلوب المؤلف قوى ورصين ، ولكن ما هو أهم من ذلك أن روح المؤلف روح وطنى يتمثل فيه الصدق والوفاء

لزمن الحرب

للاستاذ فاضل سعيد عقل

من منشورات الشعلة فى ١٢٤ صفحة

تشتمل هذه الرسالة على مجموعة من المقالات الموجزة التى تتناول بعض الحالات النفسية والظواهر الخلقية أو تتناول بعض الحوادث الجارية كما يستدل من هذه العناوين : يأس ، جنون ، انتقام ، احتضار ، اله ، ستالينغراد هذه الحرب . .

وللكاتب اسلوب خاص فى الكتابة وفى التفكير ، ولعل هذه الفقرة التى نقتبسها من قطعة عن ستالينغراد ما يبين هذا الاسلوب :

« لم يبق للبطولة معناها التقليدى

« فان هذه الحرب قد جعلت البطولة شيئا شاملا ومفصلا فى آن واحد ، يمتاز به عامل يعدم بالرصاص لانه قال : لا ! فى وجه المغتصب كالبصقة ، ويمتاز به ملايين من البشر دفعة واحدة ، فى الدفاع عن مدينة ترمز الى فكرهم وقلبهم وتاريخهم »

وروح المؤلف ــ كما يبدو من هذه الفقرة ــ روح متحررة ، طموحة ، تريد ، كما يريد الجيل الجديد فى العالم كله ، ان يخرج العالم من هذه الحرب وآلامها أسعد حالا ، وأوفر حرية ، وأدنى الى المثل العليا المنشودة

وادى الفرات ومشروع بحيرة الحبانية

للدكتور احمد سوسه

مطبعة الحكومة ــ بغداد ــ ١٧٢ صفحة

الدكتور احمد سوسه خير من يكتب عن مشاريع الرى العمرانية فى العراق فهو معروف بسعة اطلاعه ودقة أبحاثه وغزارة علمه ، وقد أخرج منذ عامين كتاب « المصادر عن رى العراق » كدليل للقارىء العراقى الذى يرغب فى التبسط فى دراسة الموضوع دراسة دقيقة . واليوم يقدم للقراء بحثا فى ثلاثة أجزاء عن نهر الفرات ومشاريعه ، تناول المؤلف فى الجزء الاول موضوع وادى الفرات فى القسم الذى يمتد من ينابيع النهر حتى بحيرة الحبانية ، ثم تحدث عن تفاصيل مشروع الحبانية وتطوراته فى مختلف أدواره .

ومع ان الموضوع يعتبر موضوعا فنيا الا أن الكاتب تمكن من عرض أبحاثه بطريقة سهلة واضحة ، كما تطرق الى الناحية الجغرافية التاريخية بقدر ما للبحث من صلة بها كى يكون بحثا وافيا شاملا ، وقد استند الى كثير من المصادر والمراجع الموثوق بها

بين الهلال وقرائه

الثائرون على شكسبير

(البصرة ــ العراق) توما عبد الاحد شماني

قرأت فى كتاب شكسبير من سلسلة اقرأ ما يلى : « والحق لم يكن برنارد شو أول من ثار على شكسبير ، بل لقد ثار عليه فولتير من قبل ... » ثم وضح الكتاب سبب ثورة فولتير ، ولم يذكر السبب الذى دعا شو الى عدم الاقرار بعظمة شكسبير . فأرجو اجابتى عن ذلك

(الهلال) وضع شكسبير مسرحية عن « انطونيو وكليوباترة » مثل فيها ــ كما مثل فى جميع مسرحياته ، وكما يمثل كل شاعر فنان قيما ينشؤه من الآثار ــ العواطف والمشاعر والغرائز الانسانية المختلفة من حب ، وغيرة ، وحقد ، وطموح ، وانتقام واستسلام

ثم جاء برنارد شو فعالج موضوع « كليوباترة » فى مسرحية له . وبرنارد شو على نقيض شكسبير فى تكوينه ومزاجه ، وفى ثقافته واتجاهه ، وأصدق وصف لبرنارد شو أنه « عالم يكتب بلغة الاديب » . فهو عالم أو مفكر أو فيلسوف ، ينظر الى الامور نظرة علمية تتبين الاسباب وترتب عليها النتائج ، وتحلل الامور الى عناصرها وموارده الاولى . أما شكسبير فهو شاعر فنان يعنيه جمال الشىء ولا تعنيه المواد التى يتألف منها ، يعنيه ان يصور العاطفة الانسانية كما هى ولا يعنيه ان يرد هذه العاطفة الى اسباب وأصول معينة

ومن هنا كان الاختلاف بين مسرحيتى الرجلين بل بين اتجاهيهما جميعا . ومن هنا كانت حملة شو على شكسبير ، هذه الحملة التى لم يخف فيها اعتقاده بأنه أعظم من شكسبير ، وتسفيهه رأى الانجليز فى تمجيد شاعرهم العظيم

وثمة سبب آخر لحملة شو ، هو أن شكسبير كان فنانا ينشىء فنه للفن فحسب ، بل لغاية سياسية أو اجتماعية معينة . وهذا الحكم ينطبق على آثاره على وجه الجملة وان كان منها ما يشذ عن هذه القاعدة . أما شو فهو أحد دعائم المدرسة الاجتماعية فى الفن ، التى نذكر منها ايبسن وتولستوى . وهذه المدرسة ثائرة على شكسبير لانها لا ترى له رسالة اجتماعية يؤديها ، ولانها تراه لا يعبأ بالقيم الاخلاقية والفضائل المقررة . وقد انتقده تولستوى من هذه الناحية نقدا عنيفا فى كتابه « ما هو الفن ؟ » وانكر عليه عظمته الفنية ، اذ كان يرى ان الفن فى الدعوة الى الفضيلة ، وان كل انتاج يهمل هذه الدعوة أو ينكرها لا يستحق ان يعد فنا

حج الاستاذ الامام

(زنجبار) عبد القادر صالح الفارسى

هل حج الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ؟ فان كان لم يحج فهل منعه عائق سياسى ؟

(الهلال) لم يحج الاستاذ الامام الى بيت الله الحرام ، ولا نظن أن ما منعه عن ذلك كان أكثر من انصرافه بجميع جهوده وأوقاته الى ما عنى به من أمور الاصلاح الاجتماعى والدينى ، وربما كانت هناك دواع شخصية حالت بينه وبين أداء هذه الفريضة ، ولا نظن ان للسياسة دخلا فى هذا ، فقد كانت الصلات متصلة بين مصر والحجاز فى ذلك الوقت

ويمكنكم ان تقرأوا كتاب السيد رشيد رضا عن الاستاذ الامام ففيه تفصيل كل أمر يتصل بهذا الرجل العظيم

صلة الاسلام بالصين

(القاهرة — مصر) قارئ

متى وصل الاسلام الى الصين ، وما هى العلاقات الاولى بين المسلمين والصينيين ، وكم يبلغ عدد المسلمين فى هذه البلاد ؟

(الهلال) فى الكتاب الذى أصدره الاستاذ محمد صبيح عن قائد الصين تشيانج كى تشك فصل موجز عن الموضوع الذى تسألون فيه نقتبس منه ما يلى :

■ سمعت من الزعيم الاسلامى الاستاذ عبد العزيز الثعالبى رحمه الله أن فى الصين عقيدة شائعة وهى ان أول مسجد أسس فى الاسلام انما أسس فى الصين . واسمه مسجد سعد بن أبى وقاص ، وذلك لان سعدا رحل الى الصين ودعا ملكها وقومها بدعوة الاسلام ، فأقبل عليه كثيرون وأسسوا مسجدا ، وفى نفس مكانه يقوم الآن مسجد بهذا الاسم رأيت صورته معه

■ وفى عهد ملك الصين كاو تسنج أوفدت بعثة الى المدينة المنورة لتنقل للملك الخبر اليقين عن أمر النبى محمد وهذا الدين الجديد الذى هوى بعرش الاكاسرة ثم استولى على أكثر ملك القياصرة . وجاءت البعثة فى عهد أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه وتلقت عنه الخبر اليقين . ورد أمير المؤمنين على هذه السفارة بمثلها . وفى سنة ٦٥٠ ميلادية كانت مدينة سيانفو تشهد استقبال رسل الخليفة والحفاوة الفائقة التى أعدها لهم عاهل الصين فى عاصمته

■ ولكن قبل ان ينقضى نصف قرن على هذه السفارة كان توسع المسلمين فى وسط آسيا قد بدأ يستثير أطراف الصين . وقد حدث اصطدام بين قوة يقودها ابن أخ للامبراطور الصينى ، وبين جيش القائد الاسلامى العظيم قتيبة بن المسلم . ولم يلبث هذا الصدام ان انجلى عن فرار الامير الصينى وتأمين الحدود الاسلامية فى شرق خراسان

■ وبعد ان استولى قتيبة على بخارى وخوارزم أحب ان يقتحم حدود الصين الاصلية ، وتزعم الروايات ان امبراطور الصين علم ان قتيبة يريد قطعة من الصين ، وجزية ملكها ، برا بقسم أقسمه ليستولين على أرض الصفر . وأرسل الامبراطور حقيبة من تراب بلاده وحقيبة من النقود ، وبهذا يبر قتيبة بقسمه ولا يدخل مع الصين فى حرب

■ ولم تهمل المراجع العربية الاشارة الى تدخل وحدات صينية فى صراع العباسيين للامويين ، عند ما ثار أهل بخارى والصغد وفرغانة ، بمساعدة ملك الصين .. ولكن الصلات الحسنة بدأت توجد بين الحكومتين فى عهد العباسيين وعلى الاخص فى عهد هرون الرشيد الذى مد بسراه لشرلمان فى فرنسا وبمناه لامبراطور الصين

■ ويقول الاستاذ اسحق ماسون فى كتابه عن مسلمى الصين ان اللون الابيض فى الراية الصينية يمثل الامة الاسلامية الموجودة فى داخل حدود الصين ، ويبلغ عدد هذه الامة حوالى خمسين مليون نسمة ، ومع انهم أقلية فلهم مكان ممتاز لانهم عناصر نشيطة تقبل على العلم وعلى المال

المهر

(الاسكندرية — مصر) ن . س

هل عرف المهر فى العصور القديمة ؟ وهل لا توجد بلاد تتولى فيها الفتاة ، دون الشاب دفع المهر ؟

(الهلال) عرف المهر فى الحضارات القديمة . فى مصر وفى بابل وفى أشور وفى البلاد اليهودية . فاذا أراد شاب أن يتزوج فتاة أتفق أهلها معه أو مع أهله على مال أو عقار أو ماشية يدفعه مهرا لها . وكان الفقير يقوم بخدمة حميه فترة من الوقت ، كما ورد فى القرآن الكريم من ان موسى خدم حميه يترو كاهن مدين عشر حجج أو اثنتى عشرة حجة فى رعى

غنمه وتعهد ماشيته . وكذلك جاء فى سفر التكوين ان يعقوب خدم حميه لابان سبع سنوات حتى زوجه ابنته راحيل

والرجل هو المكلف عادة بدفع المهر . لانه هو الخاطب والفتاة هى المخطوبة والكلمتان تقابلان فى لغة التجارة كلمة الشارى والبائع. والشارى هو الذى يدفع المال والبائع هو الذى يقدم البضاعة

ولكن هناك بعض تقاليد تقضى بأن تدفع الفتاة الغنية ما يشبه المهر لخطيبها . و «الدوطة» المعروفة عند الاوربيين من هذا القبيل . وكذلك ذكر فريزر فى كتاب الغصن الذهبى ان فى بعض القبائل البدائية تعلو مكانة المرأة مكانة الرجل ، وهى لهذا تقوم بدور الخاطب بينما هو يقوم بدور المخطوب ، وتبعا لذلك تتولى هى دفع المهر أو ما يشبه المهر من حيوان أو طيور أو ما شاكل ذلك مما لهم

النحل خير

(بركات — السودان) مدام فؤاد طنوس

يكثر النحل من الهجوم على منزلنا ، ولكننا تبلغ مكتب الحشرات فيرسل من يقتله بالسم . غير أن أهل السودان يعتقدون ان النحل بشير خير ، فهل هذا صحيح ؟ وما السبب فى كثرة تردد النحل على منزلنا ؟

(الهلال) يتردد النحل على الاماكن التى يتوافر فيها غذاؤه ، وغذاؤه هو ما يمتصه من الزهر والثمر ، فلا بد ان يكون فى منزلكم أو على مقربة منه حديقة أو بستان يجتذب النحل بازهاره وثماره

والنحل مورد رزق عظيم ، فلو عنيت بتربيته فى خلايا ومناحل منشأة وفق الطرق العلمية الصحيحة ، لوجدت من ورائه خيرا جزيلا : شهد غذى به للجسم صحة وعافية ، وربح موفور اذا رغبت فى الاتجار بالعسل . وهذا ما يحمل الناس على ان يعتقدوا ان النحل بشير خير ، مع انه ليس بشير خير بل هو الخير بعينه !

كلام الببغاء

(القدس — فلسطين) عبد الصمد سليمان

كيف يستطيع الببغاء — دون سائر الطيور أن يتكلم؟ وهل يفهم معنى الكلمات التى يتكلمها؟

(الهلال) للببغاء أوتار صوتية خاصة لا توجد فى الطيور الاخرى . وبهذه الاوتار يستطيع أن يصدر أصواتا تشبه صوت الانسان فى الكلام . والببغاء لا يتكلم بدليل انه لو ترك فى الغابة لما استطاع ان ينطق لفظا واحدا . ولكنه يقلد الاصوات التى يسمعها

وليس هناك ما يدل على انه يفهم معنى الكلمات أو العبارات التى يرددها . ولكن أصحابه يلقنونه جملا أو ألفاظا معينة يرددها فى أوقات معينة دون أن يفهم هو ما المقصود بها